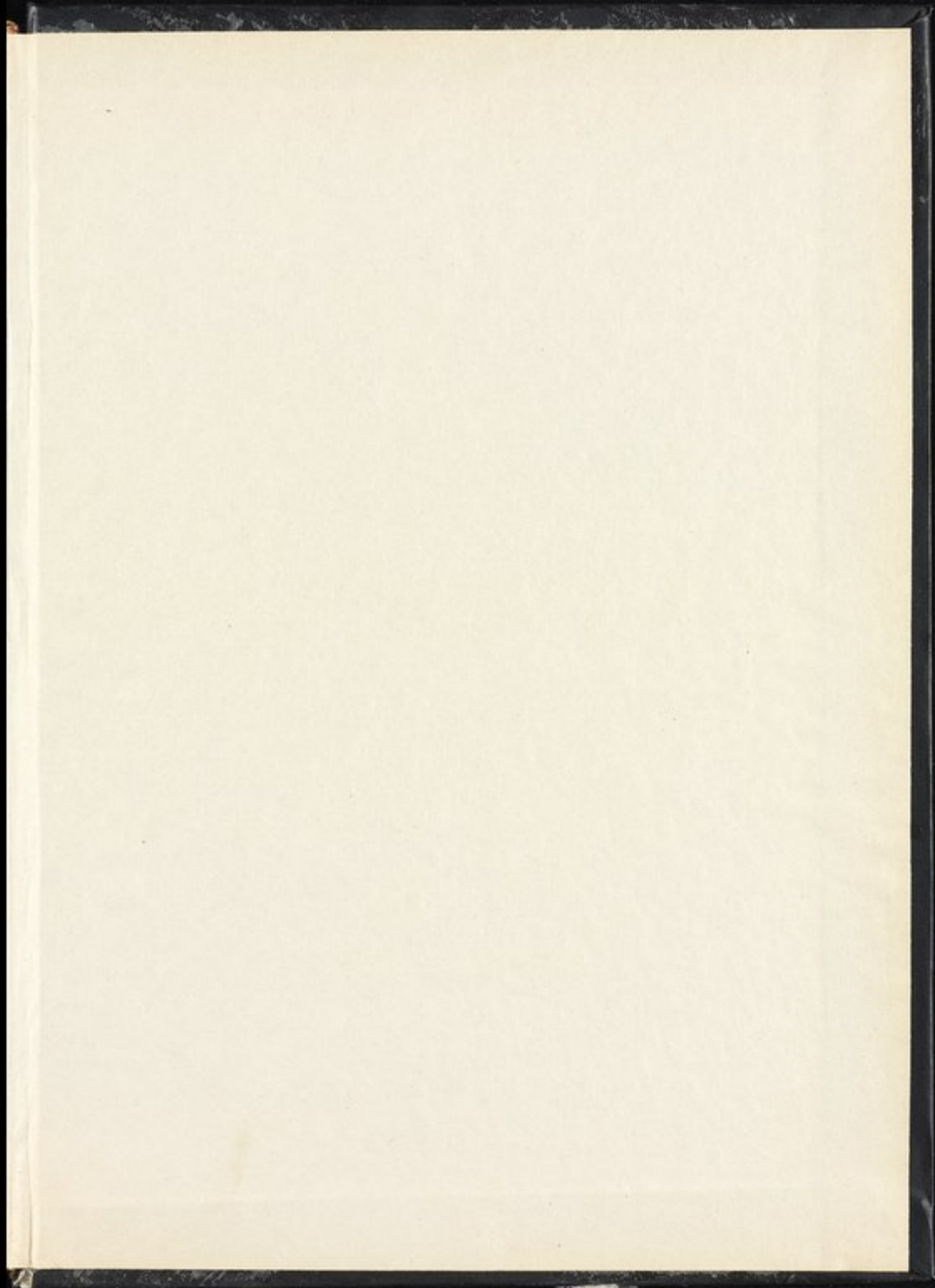


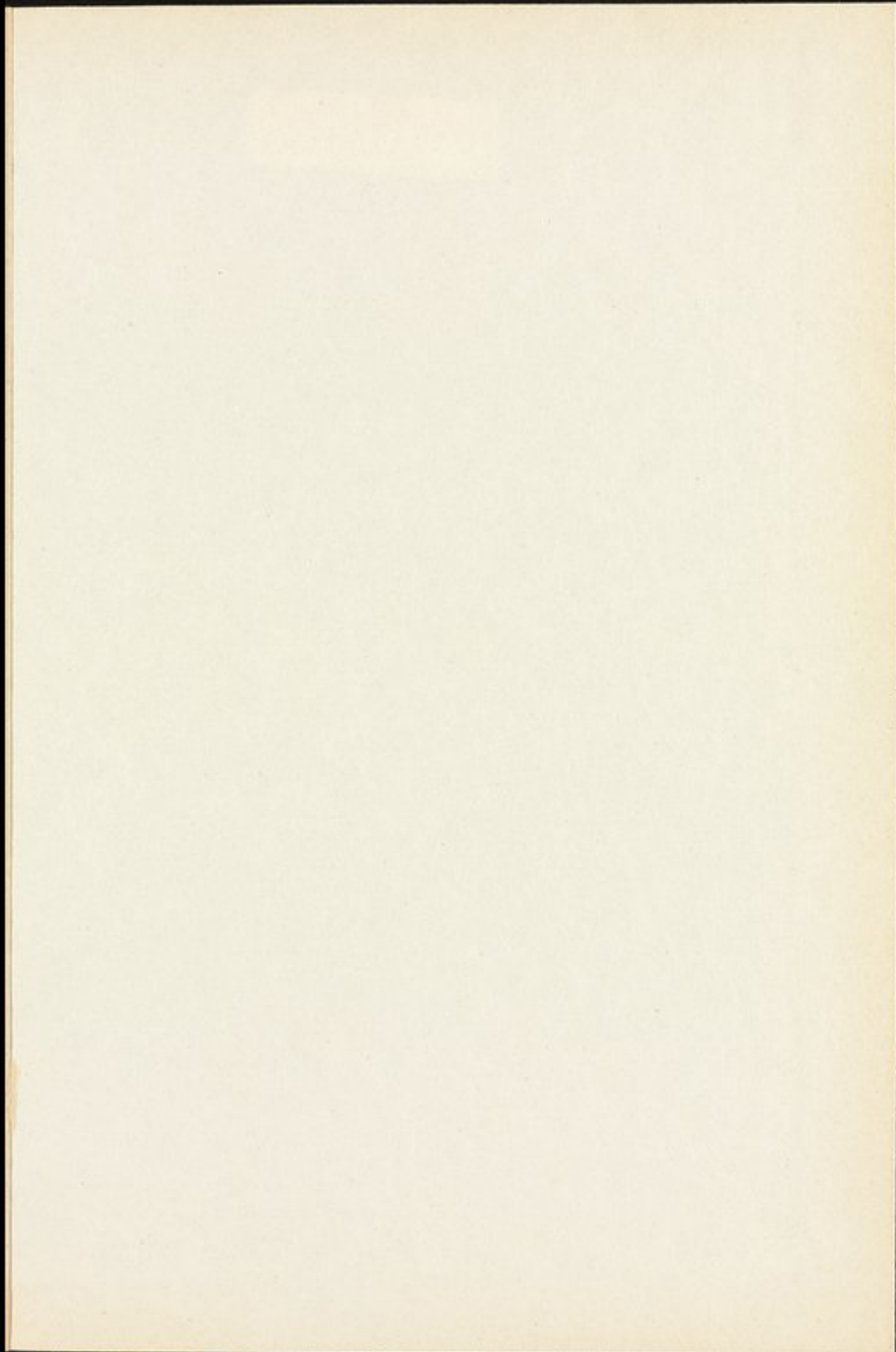
النَّبِيُّ الْهَجْرَةُ
فِي تَفْسِيرِ
الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

٢٣-٢٤

مَكْتَبَةُ مَكَّةَ وَمَطْبَعَةُ
مَكْتَبَةُ مَكَّةَ وَمَطْبَعَةُ
مَكْتَبَةُ مَكَّةَ وَمَطْبَعَةُ







الجواهر

في تفسير القرآن الكريم

السيد علي عماد بن محمد الكوراني وعزب الأباها

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهرى

المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا
مع الله المشير بحمائه آمين

الجزء الثالث والعشرون

الطبعة الثانية

١٣٥٠ هـ - رقم ١٧١

حقوق الطبع محفوظة

طبع بمطبعة

مصطفى البالي الخلبى وأولاده بمصر

عباشه محمد أمين عثمان

(ARAB)

8430

4

J217

ju2 23_24

« وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ »

(قرآن كريم)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة ق

هي مكة

إلا آية : « ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب » فمدنية

آياتها ٤٥ - نزلت بعد المرسلات

وهي في : إثبات النبوة والحشر

وذلك في مبشرين

الأول : في النظر في السموات والأرض ، وأخبار الأمم الماضية ، من أول السورة إلى قوله : « بل هم في لبس من خلق جديد » .

المبحث الثاني : في الكلام على الموت وسكرته ، وعلى الملائكة المراقبين حركات الإنسان وسكناته ، وفي أحوال يوم القيامة ، من قوله : « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه » إلى آخر السورة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ • بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ • أَمْ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ • قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ • بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ • أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ • وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ • تَبْهِيرَةً • وَذِكْرِي لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ • وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحُمَيْدِ • وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ •

رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَخْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَّيْمَنًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ * كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ
الرُّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ
كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُهُ * أَفَمَيِّمِنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي آبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ * وَلَقَدْ
خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَلَّمَهُ مَاتُوسُوسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَعْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ * إِذِ تَلَقَى
الْمُتَلَقِيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ * وَجَاءَتْ
سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ * وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ *
وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ * لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ
غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ * وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَتِيدٍ * أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ
كِفَارٍ عَتِيدٍ * مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ * الَّذِي جَمَعَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَالْقِيََامُ
فِي الذَّنَابِ الشَّدِيدِ * قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطَّغَيْتَهُ وَلكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ * قَالَ
لَا تَخْتَصِمُوا لَدَىٰ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ * مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَىٰ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ
لِلْمَعِيدِ * يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ * وَأَزَلَّتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّعِينَ غَيْرَ
بَعِيدٍ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ *
أَدْخَلْنَاهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ * أَنَّهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ * وَكَمْ أَهْلَكْنَا
قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيسٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَدَلِيلًا لِكُلِّ كَارِهِ أَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ * وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُثُوبٍ * فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ
قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ * وَاسْتَسْمِعْ يَوْمَ
يُنَادِي الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ * إِنَّا
نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ * يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ مِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا
يَسِيرٌ * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدٌ

المبحث الأول فيه ثلاث مقامات

المقام الأول في تفسير البسملة .

المقام الثاني في معنى «ق» .

المقام الثالث في تفسير الآيات من أول السورة إلى قوله «بل هم في لبس من خلق جديد» .

المقام الأول في تفسير البسملة

لرحمة في هذه السورة أدوار ثلاثة : دور البداية ، ودور أم النشاط في الأعمال ، ودور النهاية ، وذلك كأدوار الإنسان ، فهو شاب ، وكهل ، وهرم . وكأدوار قصة يوسف :

- (١) فهو مع إخوته في مشاكل الحسد ، والمنافسة ، والإلقاء في البئر ، ووقوعه في شرك امرأة العزيز .
- (٢) ثم في حفظ مال الدولة المصرية والقيام بسياستها ، وإكرامه إخوته وأبويه .
- (٣) ثم انتهى إلى الله وقال : «رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين» .

- (١) هكذا الحكماء الذين عرفوا الله بقولهم كسقراط ، فأول حياته شك في نظام العالم ، وفي خالقه ، وعموم علمه ، في مقابلة حسد إخوة يوسف ورميه في الجب إلى آخر ما تقدم .
- (٢) ثم إنه عثر على رأى أنكساغورس ، فعرف شيئاً من الألوهية ، ثم استكمل علمه .
- (٣) ثم انتهى إلى انقضاء حياته .

- (١) وهكذا خاتم الأنبياء ، فهو في مكة في مشاكل ومجادلات ومخاصمات مع كفار قريش .
- (٢) وهو في المدينة فاتح البلاد وناشر الإسلام .
- (٣) ولما انتهى الأمر رجع إلى ربه .

فهكذا هذه السورة ، فأولها إنكار النبوة والبعث ، وأوسطها الحث على النظر في السماء وزينتها وبهجة بتأثيرها ، وفي الأرض وجبالها الشامخات ، وزروعها النضرات ، ومطرها المدرار ، ونخلها الباسقات ، ودولها المالكات ، من عاد إلى أصحاب الأيكة وقوم تبع ، وما استحقوا من وعيد ومحاسبة ، ونهايتها تفرغ الإنسان على أعماله ، وأنه مشغول عن دخائل نفسه ، في مجالس أنسه ، وعند إخوته ، وفي خلوته وأنه محروط بالكرام الكاثين ، يحصون أعماله ، ويرقبون أقواله ، حتى إذا جاءت سكرته ، وحانت منيته حوسب على قول كل كلمة ، وحوسب على كل عمل عمله ، وشهدت عليه الشهود ، وكشف له النطاء ، ووقع الحسام ، واضطرب النظام ، وتمادى الجبون ، واقترب المجتمعون وغضب الرب غضبه ، فلا جهنم بأهلها ورحم أعظم الرحمات بعل الجنة بذوى الإيمان والصلاح ، ذلك لأنه لا يجعل المتقين كالتفجار ، ولا المؤمنين كالكفار ، ولو استوى الخبيث والطيب لكان خلق هذه العوالم باطلاً ، ولكان نظامه حائلاً ، ولكن النظام معلوم ، ودوامه مصون .

وجه الرحمة هنا

وإنما منى الإنسان بهذه الوقائع ، وانصف بتلك المناقب والثواب لأنه لا يتسنى له الارتقاء إلى الملائكة الأعلى إلا بمعاناة الضدين ، ومقاساة الأمرين ، حتى إذا جاءت سكرة الموت كانت سكرة الطرب ، لاسكرة الجزع والملاح ، فبينما هو ينظر في السماء كيف بنيت ، وفي الأرض كيف زينت ، وفي الزرع كيف ابتهجت ، إذا به ارتفع إلى عالم أجمل ، وبها أكل ، ومقام أرفع ، فمعاناة الضدين ، ومقاساة الأمرين ، سلام يصعد الإنسان عليها إلى العلا ، وصفت سكرة الموت المكروهة ليحترس منها ، ويجعل حياته حياة صحو وعلم وعمل ليفارقها وهو مسرور ، لا محتبط وهو مجبور . وإلى هنا تم الكلام على المقام الأول في تفسير البسملة . كتب ليلة الأحد ١٥ نوفمبر سنة ١٩٣١ م .

المقام الثاني في معنى : ق

قد تقدم الكلام في (آل عمران) وفي غيرها من السور كالنكبات والروم ويس وما بينها ، ووضع فيها بعض الحكم والعجائب التي تضمنتها هذه الحروف التي في أوائل السور ، ولاكن البحث هنا يكون خاصا بالحرف «ق» الذي في أول هذه السورة . واعلم أن هذا يحتاج لقول يتقدمه فأقول :
اعلم أن الله علم قبل أن ينزل القرآن أن أمة الإسلام ستجمع الأحمر والأبيض والأسود ، وأنه سيأتي عليها زمان يقناكرون وهم مسلمون ، ويتعدون وهم موحدون ، ويجهلون وهم مؤمنون ، ويذلون وهم متفردون .

علم الله أننا سنكون على هذه الحال فأنزل لنا من أعاجيب القرآن هاتين العجبتين : الحجرات وق ، هاتان سورتان تضمنتا مابه معرفة الأنفس ، ومابه معرفة الآفاق ، أما مابه معرفة الأنفس ، أي أخلاقها وتهذيبها فهو مامر في (سورة الحجرات) وأما مابه معرفة الآفاق فهو علم السموات والأرض والبحث في عجائبا وبدائنها ، وحكمتها وغرائبها ، فيصبح المسلم مهذب النفس ، عارفا بما يحيط به من العوالم : علم الله أن المسلمين ستمر عليهم أجيال وقرون وهم لا يعرفون من القرآن إلا الأحكام الشرعية ، يعيشون ويموتون وهم لا يعقلون إلا هو ، وما هو إلا علم القضاء وبعض البادات الظاهرة .

علم الله أن العالم بالأحكام الشرعية الذي يقبل المسلمون بده بواجب على شروط الصلاة ، وبواجب على طهارة ثوبه ، ونظافة مكانه ، والاتجاه للقبلة في الصلاة ، وفي الوقت نفسه يطلق لسانه المنان ، ويختاب الإخوان ، مستحلا ذلك لايبالي .

علم الله أننا نحن الآن سترك أحكام الأنفس فنجعلها ولا نعرف كيف نطهرها ، ولا كيف نحسن أخلاقها ولا كيف نصقلها بالمعارف الحقة ، والمعلوم المكتسبة ، التي تحيط بنا في الآفاق من نبات وحيوان ، وهواء وماء ، وكهرباء وبخار ، ومغناطيس ، ونجوم وسماء ، وأنوار ، فأنزل سورة ق ناظما تلك المباحث في عقدها لتتخطى بها بعد التخل من الرذائل .

علم الله أن المسلمين سينامون جاهلين كسلا وغفلة آمادا وآمادا ، وينبع الآخرون الأولين ، ولا ينظرون إلى القرآن إلا نظرة البركة ، لانظرة الحكمة والوعظة ، ويقولون : قد نظر في الأئمة فاستخرجوا لنا علم الفقه ، وهو كل شيء ، وما القرآن إلا بركة ، وإذا ذكر آية في الاستدلال فإنما تتبع من قبلنا ، وما لم يذكر في الفقه من الآيات فلا نظر لنا فيه إلا نظرا سطحيا تارة ، وتبركا تارة أخرى .

علم الله قبل أن ينزل القرآن أننا سنجهل كيف نتعارف ، وأن أبناء العرب الذين تعاربت ديارهم ،
وأعدت لغتهم وجنسهم ودينهم يجهل بعضهم بعضا ، فلا يتحدثون بلغتهم ولا بدينهم ولا بجنسهم ولا بوطنهم
الذي جمعهم وهم متجاورون فيه .

علم الله ذلك ، وعلم أن أمم أوروبا تتحد وجهة كل منها ، وأن الولايات المتحدة في أمريكا التي هي أمة
جامعة لقوم من شتات الأمم لما علموا وعقلوا أتحدا وطننا ولغة بالتعليم وإن اختلفوا أجناسا وديانات ،
فأما أمم الإسلام فلا اتحاد بينهم لأنهم لم يتعلموا ولم يدرس أبناء العرب تاريخ أسلافهم ، ولا منشأهم ، ولا
أحوالهم للاجتماعية دراسة تشوقهم إلى أصلهم القديم فيرجعوا مجددم كما كان ويتحدوا ، وليس معنى هذا
أنهم يكونون عنادا على الناس . كلا . بل ينظرون إلى أمم الترك الذين أتحدا معهم في الدين وفي الجوار ،
وهكذا الفرس وأنهم أمم شرقية ويتحدون معهم ، وهكذا يتحدثون مع جميع الأمم الإسلامية ، ويكونون
عونا مع جميع الأمم ليعيشوا بسلام .

علم الله قبل أن ينزل القرآن أننا سنكون هكذا في هذا الزمان خاملين نائمين ، فلا علوم ولا تهذيب ولا
حكمة فنكون متفرقين ، وتدوسنا الفرنجة ، ونحن أذلاء بين أيديهم ، كل هذا يجعلنا وعلم الأمم ، فعلمهم
هو الذي سلطهم ، وجعلنا هو الذي أذلنا ، فانظر ماذا قال الله لتتلافى هذا العيب . قال « لتعارفوا » في سورة
الحجرات فالتعارف لن يكون إلا بعلم ، فإن لم يكن علم ودرس فلا تعارف . إن التعارف ان يكون إلا بعلم ،
فإذا لم تعلم أن زيدا أبوك لم تسكرمه ، وإذا لم تعلم أن خالدا من أقاربك لم تحافظ عليه ، وإذا لم تعلم للسلمون
علم تاريخهم ولغتهم ، ومنشأ دولتهم ، وجزايق بلادهم ، وظلم أوروبا لهم ، وموازنة هذا بما كان عليه
آباؤهم .

إذا لم يفهموا ذلك وغيره كدراسة الأرض التي يسكنونها ، ومعرفة خباياها في مصر واليمن وغيرها ،
ويعرفوا معادنها وحاصلاتها وخيراتها وما أشبه ذلك ، إذا لم يعرفوا ذلك فكيف يتعارفون ؟ إنهم إذا رأوا ذلا
جامعا ، ولغة متحدة ، وأما جامعة لإذلالهم ، وأرضا ذات خيرات بطمع العدو في الانتفاع بها ،
هناك تكون الحمية ، حمية الإسلام والمحافظة على الأوطان ، ومجاعة الزمان ، وحفظ الإخوان ، وإذا لم
يعرف العرب أمم الترك ، ولا الترك أمم العرب ، ولم يدرسوا الثمرة التي تنتج من اتحادهم فكيف يتحدثون ؟
وإذا لم يدرس هذان الشعبان أحوال الأمم الإسلامية فكيف يتحدثون معها ؟ وإذا لم يدرس هؤلاء السلمون
جميعا نظام الأمم في الأرض كلها ولم يعرفوا أحوالها فكيف يتحدثون معها على رقي الإنسانية ؟

كل هذه المعاني داخلة في قوله تعالى : « لتعارفوا » ، وبغير هذا لا يكون تعارف ، وبغير هذا لا يكون
اتحاد ، وبغير هذا لا يكون سلام في الأرض ، وبغير هذا لا يكون تمام قوله تعالى : « ليظهره على الدين
كله » وبغير هذا لا يتم تماما واضحا قوله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

نحن إذن خلفاؤه عليه السلام فلنسكن رحمة للعالمين ، ولنقم بالأمر بعد أن نتعلم وترقي . فلا تشبقنا أمم الممالك
للتحدة في التعليم ، والتهذيب ، والرقي ، ونظام المدارس ، ونظام السجون التي جعلوها للتهذيب لا للتعذيب .
وأقول أيضا : علم الله أن هذا الداء سيحيط بالمسلمين ويشملهم جميعا ، فأى دواء أعده له ؟ الدواء
« ق » ولعلك تقول : وهل هذه المعاني كلها في « ق » ؟ وهل كلمة « ق » تفيدنا أن المسلمين يقتصرون
على علم الفقه ويجهلون في الغالب آداب النفوس ، ويشتت شملهم ، ويسبقهم غيرهم وهكذا ، ثم يصف بها
الدواء ؟ أقول لك نعم : فاعلم أن ق أوله حرف في القرآن المذكور في آخر سورة ق قال تعالى : « فذكر
بالقرآن من يخاف وعيد » ، كأن الله تعالى يقول : « إذا نزلت بك أيها السلمون ساعة التفريق ، وأصبح

كل منكم كالفرق ، ونحطهم في دياجير الظلام ، وكنتم عبرة الأمم ، وسلوة الزمن ، وأتم فرق متشا كسون
وأفذاذ متفرقون ، ونبذتم فهم القرآن ، فلاذ كركم بالقرآن ، فارجموا إليه ولا تسموا كلام بعض قدامى
الفقهاء الذين ادعوا أن الدين ما عرفوه ، وما سواه فلا حاجة إليه ، كذلك لا تصفوا لقول العباد ، ولا لقول
الصوفية ، ولا لأقوال الأغنياء ، فإن كلامهم يعيب الآخرين ظنا منه أنه هو المخصوص بالكرامة ، وما عداه
فهو في جهالة ، لا تسموا لهؤلاء جميعا ، وادرسوا القرآن ؛ فقد جريتم صفار الصوفية ، وجريتم صفار
الفقهاء ، وجريتم الأغنياء (١) وجريتم العباد (بتشديد الباء) والصالحين ، فقد استقيد كل فريق بناحيته ،
واستقل بأمره ، وجهل ما عند سواه ، فنفرقت الأمم الإسلامية شذرمذرا ، وأحاطت بهم الأمم من كل
جانب ، وأذاقوهم عذاب الحزى في الحياة الدنيا « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » ، والوعيد قبان :
قسم يختص بهلاك الأمم في الحياة الدنيا ، وقسم يختص بعذاب يوم القيامة وكلاهما في القرآن فلتفروه وعل
مقتضاه تدرسون جميع الكائنات .

هذه المعاني كلها محبوبة في كلمة « ق » التي جاءت بين السورتين المتهومتين بقوله « فذكر بالقرآن من
يخاف وعيد » اللشتملنين على ما يسنى النفوس وعل معرفة الآفاق ، وهذان الصنفان من العلوم داخلان تحت
قوله تعالى « لتعارفوا » كما أوضحناه .

الأتعجب معى بعد هذا أن يقول بعض علماء التفسير : إن (ق) اسم من أسماء القرآن ، وهذا هو
اللى النبى أوضحناه لك الآن . انتهى تفسير كلمة « ق » والحمد لله رب العالمين .

لقام الثالث في تفسير الآيات

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(ق : والقرآن المجيد) أى الشريف الكريم على الله ، الكثير الخير والبركة ، وجواب القسم لتبعين
(بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم) إنكار لتعجبهم مما ليس بسجب وهو أن ينذرهم بالخوف رجل منهم قد
عرفوا عدلته وأمانته ، ومثله لا يكون إلا ناصحا لقومه ، خائفا عليهم من وقوع مكروه ، ووقى أظلم
مكروه وعله لزمه أن ينذرهم (فقال الكافرون هذا شيء عجيب) حكاية لتعجبهم ا يتعجبون من اصطفا
محمد صلى الله عليه وسلم للرسالة (أنذا متنا وكنا ترابا) أى أرجع إذا متنا وصرنا ترابا (ذلك رجوع بعيد)
أى بعيد عن الوهم والعادة والإمكان ، قال تعالى (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم) أى ماتا كل من أجسادهم
بعد موتهم ، إنهم لما استبعدوا البعث رد الله عليهم بأن من لطف الله حتى علم ما تنقص الأرض من
أجساد اللوتى وتنا كلة من لحومهم وعظامهم كان قادرا على رجيمهم أحياء كما كانوا (وعندنا كتاب حفيظ)
محفوظ من الشياطين ، ومن التغيير ، وهو اللوح المحفوظ ، وهو حافظ لما كتب فيه ، ثم إنهم جاءوا بما
هو أفظع مما قبله : فاستحق الإضراب عنه ، فذلك قال (بل كذبوا بالحق) أى النبوة الثابتة بالمعجزات
من أول وهلة بغير تفكير (لما جاءهم فهم فى أمر مرتب) مضطرب ، يقال مرج الخاتم فى الأصبع إذا
اضطرب من سعته ، فيقولون تارة شاعر ومرة كاهن ، ومرة ساحر ، لا يثبتون على رأى (أفلم ينظروا)
حين كفروا بالله وبالبعث (إلى السماء فوفهم) إلى آثار قدرة الله تعالى فى خلق العالم (كيف بيناها) رصفناها
بلا عمد (وزيناها) بالكواكب (وما لها من فرقج) فتوق بأن خلقناها ملساء متلاصقة الطباق ، وهذا

(١) هذه أقسام الضرورين المذكورة فى سورة [آل عمران] عند آية : « وغرم فى دينهم ما كانوا

يفترون » ملخصا من الإحياء للغزالي اه . المؤلف

هو الرأى الحديث فى عالم السموات ، بل الرأى الحديث معجزة للقرآن ، ويانه أن العلماء فى عصرنا الحاضر يقولون : إن هنا عالما لطيفا أرق من الهواء ، والطف من كل ما تراه ، هو مبدأ كل شىء ، وأول كل شىء هو العالم المسمى بالأثير ، وهذا العالم لم يره الناس وإنما عرفوه من وصول أضواء الكواكب إلينا ، فان من الكواكب مالا يصل ضوؤه إلينا إلا فىما يزيد على ألف الف سنة نورية . ومعلوم أن نور الشمس (التي تبعدنا مقدار سير القطار إليها لو أمكن نحو ثلثمائة وخمس وستين سنة) يصل إلينا فى مدة ثمان دقائق و ١٨ ثانية ، فانظر كيف يكون بعد تلك الكواكب التي تحتاج بسير النور إلى مليون سنة ونصف مليون سنة ؛ وانظر كيف يدل هذا على أن ذلك الضوء محمول على شىء موجود ، والشىء الموجود هو الأثير ، فلو أن طبقة من الطبقات لم يكن فيها الأثير لاقطع سير النور إلى الأرض ولم يره .

هذا هو السر فى قوله تعالى : « وما لها من فروج » فلو كان هناك فروج تتخلل السموات لاقطع سير النور إلينا ، ومعلوم أن آراء الجهلة فى كل أمة أن كل سماء منفصلة عن الأخرى ، وبينها فضاء كما يظن لأول وهلة فىنا وبيننا وبين السماء الدنيا ، فجاء القرآن على عكس ذلك تماما وقال لافروج فى السماء ، وبعبارة أخرى لاخلأ فى العالم .

رأى القدماء

هكذا كان رأى بعض القدماء فى [إخوان الصفاء] إذ قالوا (إن النور والظلمة إما أن يكونا جوهرين أو عرضين . فإن كانا جوهرين فليس فى العالم خلأ لأنه لا يغلو من نور وظلمة ، وإن كانا عرضين فالمرض لا بد له من جوهر يقوم به ، وإن كان أحدهما عرضا والآخر جوهرًا فهو معلوم من سابقه) فإذن العالم لاخلأ فيه كما ذكرناه فى [سورة البقرة] فانظر كيف كان نظر الحكماء قديما وحديثا هو عين ما جاء فى هذه الآية « وما لها من فروج » (والأرض مددناها) بسطناها (وألقينا فيها رواسى) جبالات (وأنبتنا فيها من كل زوج) من كل صنف (بهيج) حسن (تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) راجع إلى ربه ، متفكر فى عجائب صنعه ، يقول الله : بيننا السماء وزينها ، ومددنا الأرض ، وألقينا فيها رواسى ، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، كل ذلك فعلناه لأجل تبصرة العبد اللبيب وذكره ، وهذا من حيث اللعى وإن كانا فى الإعراب منتصبين بالفعل الأخير ، فإن رفعت السماء فلذ كراه ، وإن أنبتنا بالكواكب والنور فليتبصر بما يراه ، وإن بسطت الأرض وأرسيتهما بالجبال فكذلك ، وإن أنبتت النبات زينة للأرض ، فليعتبر ويذكر بمرآة (ونزلنا من السماء ماء مباركا) كثير النافع (فأنبتنا به جنات) أشجارا ونخارا (وحب الحصيد) وحب الزرع الذى من شأنه أن يحصد كالحنطة والشعير والأرز والعدس وغيرها (والنخل باسقات) طوالا أو حوامل ، يقال : أسقت الشاة إذا حملت (لها طلع نضيد) الطلع كل ما يطلع من ثمر النخل ، والنضيد النضود بعضه على بعض لكثرة الطلع وتراكمه ، أول كثرته ما فيه من الثمر (رزقا للعباد) أى أنبتنا رزقا للعباد كما جعلناها تبصرة وذكرى للعنيب منهم ، فالتبصرة للمفكرين والرزق لجميع الأحياء من آدميين ، فهى ما كل الآكلين من نوع الإنسان « كلا نعد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا » فنحن نظم عبادنا ونرزقهم ولكننا لا نجعل هذه البساتين والأشجار والثمار درسا معروفا ، وعلمًا مقروءا ، إلا للمتأزنين من نوع الإنسان ، فالحواس للنبات دارسون ، والعامة والخاصة منها آكلون ، ولما كانت دراسة النباتات والاستفادة من علومها لم يظهر له مثال أعقبه بذكر مثال يبين كيف يدرس فقال (وأحيينا به) بذلك الماء (بلدة مينا) أرضا جديبة لانما فيها (كذلك الخروج) أى كما حبيت هذه البلدة يكون خروجكم أحياء بعد

موتكم ، فالناس يتعدون وينمون ، ويزوجون ويلدون ، ويحبون ويموتون ، وهذه الأحوال كلها في النبات فهو له حياة وغذاء ونمو وتوالد وموت ، ثم تيبس الأرض ، ثم يجف بالنبات ، فليقن عليه حال الإنسان فإنه بعد موته يجف ، وهذا برهان إقناعي ، ونظيره في كلام سقراط ، يقول : [إن الإنسان يجف بعد الموت لأن كل ضد يتولد عنه ضده ، فالصحة بعد المرض ، والعز بعد الفل ، وهكذا لما لانهاية له ، فلتسكن الحياة من الموت] فانظر كيف أتى الله بهذا القياس التمثيلي الذي يجعل للنفس اثنا عشر بالموضوع وفهما فيه من النبات ليفتح للعقول مجال البصيرة بثبات من المسائل العلمية ، فتفكر فيما قدمته في (سورة الشعراء) وغيرها من أنواع النبات الكثيرة التي تفرعت كلها من أصل واحد ، وكان تنوعها كلها ظاهرا في زهراتها ، فالزهرة تنوعت أنواعا كثيرة لسلك صنف من النبات شكل في الزهرة خاص ، فإذا قرأت ذلك دخلت في بحر لا ساحل له من العلم والحكمة . وعرفت سر البديع الإلهية ، وهناك ثم هناك تفهم قوله تعالى « تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » وهكذا مواضع أخرى من هذا التفسير ، ثم قال تعالى (كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس ونموذ وعاذ وفرعون) أي فرعون وقومه (وإخوان لوط وأصحاب الأيسكة وقوم تبع كل كذب الرسل) كل واحد أو قوم منهم الخ (خلق وعبد) فوجب وحل عليه وعبدى فلنستعد يا محمد ولتستعدوا لزول العذاب بأهل مكة ، وانظر أيها الذكي كيف كان ترتيب سور القرآن ، إن قوم نوح وأصحاب الرس ونموذ وعاذ وفرعون قد تقدموا في السور السابقة ، فانظر كيف ذكروا في هذه السور بطريق إجمالي ، فهناك ذكرت القصص والتاريخ وهنا ليكون الاعتبار .

يقول الله : ها أنتم أولا ، قرأتم قصص السابقين ، وأخبار الأولين في السور للتقدمة ، فلا تذكركم بأحوالهم فقد كذبوا فهلكوا .

يقول الله : أذكركم بالسماء والأرض والجيال والنبات ، أذكركم بهذا كله ، وأذكركم بالأمم الخالية ، والأجيال البائدة ، وكيف هلكوا وهم مكذبون ، وكيف نصرنا الأنبياء ، فليكن هكذا محمد وكل مصلح من أمته ، فهم منصورون ومدتها تميز الأشياء .

يقول مؤلف هذا التفسير : إن ظني بالله جميل أن يجعل هذا التفسير نافعا للأمم الإسلامية ، وأن يكون مساعدا على الانقلاب الفكري في العالم الإسلامي حتى يصبح المسلمون أمة حكمة وعلم « وليتصرفن الله من بصره إن الله لقوى عزيز » .

(تذكره) هذه الجملة كتبها حين تأليف الكتاب ، وهو الآن بطبع الطبعة الأولى ، ولقد صدق ظني وأجيب جميع مطالبتي ، وإنى أحمد الله فلقد تقدم في المجلد السابق في سورة الفتح أن الفكرة قد عمت مسلمي بلاد الصين والتركستان الصينية فضلا عن سائر بلاد الإسلام .

ثم قال تعالى (أفعبينا بالخلق الأول) أي أفعبنا عن الإبداء حتى نعجز عن الإعادة ، يقال عبي بالأمر إذا لم يهتد لوجه عمله ، والهجرة للانكار (بل هم في لبس من خلق جديد) يقول تعالى : هم لا يتكفرون قدرتنا على الخلق الأول ، بل هم في خلط وشبهة ، قد لبس عليهم الشيطان وحيرهم ، وذلك تسويله إليهم أن إحياء الموتى أمر خارج عن العادة . انتهى البحث الأول من السورة .

البحث الثاني

في الكلام على الموت وسكرته ، وعلى الملائكة المراقبين حركات الإنسان وسكناته ، وفي أحوال يوم القيامة . قال الله تعالى (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه) ما تحدثه به نفسه ، وهو ما يحظره بالبال

والوسوسة الصوت الحفي ، ومنه وسواس الحلى (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) أى ونحن أعلم بحاله
 ممن كان أقرب إليه من حبل الوريد ، وهذا مثل في فرط القرب ، والوريد عرق في باطن العنق ، والحبل
 العرق أى حبل هو الوريد ، فأجزاء الإنسان وأعضائه يحجب بعضها بعضا ، ولا يحجب عن علم الله شيء
 فهو بيان لسكال علم الله تعالى بالإنسان ، أو يقال بالاختصار نحن أعلم به منه فيكون مجوزا بقرب الذات لقرب
 العلم ، وقوله (إذ يتلقى المتلقيان) ظرف لقوله أقرب إليه ، يقول الله : نحن أعلم بحاله من كل قريب حين
 يتلقى ، أو يتلقن الحفيظان ما يتلفظ به مع أننا أغنياء عن استحفاظ اللسكين لشدة قربنا منه ، لكن هكذا
 كان نظامنا لآرام الحجة ، وقوله (عن اليمين وعن الشمال قعيد) أى عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد .
 أى مقاعد كجليس ، وقد حذف الأول لدلالة الثاني عليه كقوله :

ومن بك أمسى بالمدينة رحله فإني وقيارها لغرب

وكقول الآخر :

رمانى بأمر سكنت منه ووالدى برينا ومن أجل الطوى رمانى

أى كنت منه برينا وكان والدى منه برينا ، وقد يطلق الفعل للواحد والمتعدد كقوله تعالى « والملائكة
 بعد ذلك ظهير » (ما يلفظ من قول) ما يرمى به من فيه (إلا لديه رقيب) ملك يرقب أعماله (عتيد) حاضر
 معه فيكتب ما فيه ثواب أو عقاب ، وكل شيء حتى أئنه في مرضه ، وفي الحديث : « كاتب الحسنات أمير
 على كاتب السيئات ، فإذا عمل حسنة كتبها ملك اليمين عشرا ، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب
 الشمال دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر » .

واعلم أن هذا الحديث هو الموافق لنظام هذا العالم ، ألا ترى رعاك الله أن الله لم يخلق الناس لتعذيبهم ،
 وإنما خلقهم لتهديبهم وتربيتهم ، وليس معنى التربية أن تكون كلها تعذيبا ، فكل ألم فهو لرفق النفس ، فإذا
 كان كاتب الحسنات أميرا على كاتب السيئات ، فلأن العالم المادى الوجود من طبيعته أن يكون نفعه أكثر
 من ضرره ، وعلى هذا الناموس يكون خلقنا لغاية شريفة نافعة لنا ، والحسنات أصل والسيئات عارضة كما أن
 المنافع في الطبيعة أصل والضرار عارضة ، النار خلقت لمنفعة ، والماء لمنفعة ، والهواء لمنفعة ، فإذا أحرق ثوب
 الناسك ، وأغرق رب صبية لأعائل لهم ، وأصاب البرد عالما فاتمى بموته ، فهذا كله عارض ، والأصل
 في هذه كلها للنافع ، هكذا نوع الإنسان خلق للخير ولكن الشر عارض ، وللحسنة لكن السيئات عارضة ،
 فقول النبوة من منبع النظام الأعلى العالم ، ثم إن الله لما ذكر استبعادهم البعث للجزاء ، وأزاح ذلك بتحقيق قدرته
 وعلمه أعلمهم بأنهم يلاقون ذلك قريبا عند الموت وعند قيام الساعة ، ولذلك عبر بالماضى تنبيها على اقتراب
 ذلك فقال (وجاءت سكرة الموت بالحق) أى شدته القاهية بالعقل ملتبسة بالحق : أى بحقيقة الأمر أو بالحكمة
 (ذلك) الموت أيها الانسان (ما كنت منه تحيد) وتهرب (وتقع في الصور) نفخة البعث (ذلك يوم
 الوعيد) أى ذلك اليوم الذى وعد الله الكفار أن يعذبهم فيه (وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد)
 كاتب السيئات سائق ، وكاتب الحسنات شهيد ، ويقال له (لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك)
 أى الغطاء الحاجب لأموال المعاد كالغفلة والانهماك في المحسوسات ، والإلف بها ، وقصور النظر عليها (فبصرك
 اليوم حديد) نافذ لزوالم المانع للإبصار ، فكأن الغفلة غطاء غطى بها جسده كله ، أو غشاوة غطى بها عيناه
 فلا يبصر شيئا ، فإذا كان يوم القيامة تيقظ وزالت عنه الغفلة وغطاؤها فيبصر مالم يبصره من الحق ، ويكون
 مبدأ ذلك عقب الموت (وقال قريته) وقال الملك للموكل به (هذا ما لى عتيد) أى معد محضر : أى يقول
 الملك : هذا الذى وكنتى به من بنى آدم قد أحضرته وأحضرت ديوان عمله ، فلما قال قريته ذلك ، قال الله

للسائق والشهيد (ألقيا في جهنم كل كفار عنيد) معاند للحق (مناع للخير) كثير النع للمال عن المحقوق للفروضة ، وللإسلام أن يذاع وينتشر كالوليد بن القيرة لما منع بني أخيه عنه (معتد) متعد (مريب) شك في الله وفي دينه (الذي جعل مع الله إلها آخر) يدل من كل كفار ، وقوله (فألقيا) تكرير للتأكيد (في العذاب الشديد) فقال الكافر : يارب إن قريبي من الشياطين أطفاني (قال قريته) أي الشيطان المقيض له (ربنا ما أظفيتك ولكن كان في ضلال بييد) عن الحق لأنه هكذا استعداده ، وهكذا كان دينه وطبعه فسار على النهج الذي يناسب أخلاقه : أي في ضلال بعيد طويل لا يرجع عنه إلى الحق : وهذا كقوله تعالى : « وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى » (قال) الله تعالى (لا تخضعوا لى) في موقف الحساب إذ لا فائدة فيه (وقد قدمت إليكم بالوعيد) وقد أودعتمك جزابي على الطغيان في كتي وهى السنة رسلى لما تركت لكم حجة ، وقدمت بمعنى تقدمت فمدى بالباء (ما يدل القول لى) أي بوقوع الخلف فيه فلا تطمعوا أن أبدل قولى ووعيدى بأدخال الكفار النار (وما أنا بظلام للعبيد) فلا أعذب عبدا بغير ذنب جناه ، وظلام إما بمعنى ذى ظلم ، وإما للمبالغة ، يقول الله : وإذ كر (يوم نقول لجهنم هل امتلأت) وتقول هل من مزيد) من يد مصدر كالمجيد أى هل من زيادة ، وهذا السؤال والجواب جى* بهما للتخييل والتصوير ، وللعنى أنها مع شدة زفيرها وحدثها لا تزال في شغب بدخول العصاة فيها ، فهى كالنهم الذى لا يشبع ، فسكا أن الجنة لا نهاية لمداها ، هكذا النار لا نهاية لمداها ؛ ويقول ابن عباس رضى الله عنهما ، سبقت كفته « لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » فلما سبق أعداء الله إليها صارت لا يلقى فيها فوج إلا ذهب فيها ولا يماؤها شى* فتقول : ألسنت قد أفسمت لثلاثى ؟ فيضع قدمه عليها فيقول هل امتلأت ؟ فتقول قط قط امتلأت وليس من مزيد . وروى البخارى ومسلم عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العرش (وفي رواية) رب العزة فيها قدمه فيزوى بعضها إلى بعض وتقول قط قط بمنزتك ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ* الله لها خلقا فيسكنهم فضول الجنة » . ولأبى هريرة نحوه ، وزاد : « ولا يظلم الله من خلقه أحدا » .

واعلم أن هذا القول يرجع إلى النظام العام ، وهو أن الله تعالى خلق العالم للخير لا للشر ، وأن الشر عرض والخير أصلى ، فإذا سمعت أن الرب أسكت النار وقالت قط قط ، وأنه خلق للجنة قوما يسكنون في فضولها فذلك هو الذى يفهم من أعماله في هذه الحياة ، فإن الحياة طائفة بالخير في هذا العالم مع قصه ، فتراه لا يدع حالا من الأحوال إلا أدخل فيها الحياة ، فالنبات يعيش في الشمس ، وخلق للظل نباتا يعيش فيه ، ولم يدر البحر ولا البر من حيوان ولا نبات ، فلا ملححة البحر ، ولا برودة الثلج ، ولا حرارة القيظ ، ولا غور البحر بمأتمات من الحياة ، ومعنى هذا أن الرحمة فائضة ، وهذا دلالة على أن جنته التى هي الرحمة الكبرى أوسع من جهنم التى هي دار العذاب ، ومثل هذه الأحاديث لا يدرك سرها ولا القصد منها إلا بدراسة علوم الحكمة ؛ وفهم نظام العالم ، وحكمة الدهشة ، وإذ ذاك يدرك الناس ماذا يقصد النبي صلى الله عليه وسلم بمثل هذه الأحاديث ، فأما تفسير الألفاظ فهو سهل متى عرفنا أن هذا تمثيل وهو ظاهر في علم المعاني ولا حاجة إلى التطويل (وأزلقت الجنة) قربت وأدنت (للمتقين) الذين اتقوا الشرك حال كونها شيئا (غير بعيد) ويقال لهم (هذا ما واعدون) هذا الذى وعدتم به في الدنيا على السنة الأنبياء ، وقوله (لكل أبواب) رجوع عن العصية إلى الطاعة بدل من المتقين بإعادة الجار ، وقوله (حفيظ) أى حافظ لحدوده (من خشى الرحمن بالغب) أى خاف الرحمن فأطاعه وإن لم يره ، وفي الحلوحة بحيث لا يراه أحد (وجاء بقلب منيب) عخلص مقبل على طاعة الله يقال لهم (ادخلوها بسلام) سالمين من العذاب وزوال التعم ، أو مسلما عليكم من

الله واللائكة (ذلك يوم الخلود) في الجنة إذ لاموت فيها ، والخلود هنا مقدر كقوله تعالى « ادخلوها خالدين » ثم إن الناس يسألون الله ما يشتهون في الجنة فيعطون ما يسألون ، ثم يزيد الله عباده فوق ما سألوا ، وذلك قوله تعالى (لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد) بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ومن أجلها النظر إلى وجه الله الكريم ، إذ يتبلى لهم الرب في كل جمعة في دار كرامته ، فهذا من المزيد . (وكم أهلكنا قباهم) قبل قومك (من قرن هم أشد منهم بطشا) قوة كعاد وعمود قوم تبع (فتقبوا في البلاد) التنقيب التفتير عن الأمر والبحث والطلب ، فهم ساروا وتقلبوا في البلاد ، وسلمكوا كل طريق وتصرفوا فيها ، وجالوا في الأرض كل مجال حذر الموت (هل من محيص) أي هل لهم محيص من الله : أي فلم يجدوا لهم مهربا من أمر الله ، ولا مفر من الموت الذي يعقبه عذاب الله ، فهكذا أهل مكة ، لأن ما جاز على أحد للثلين جاز على الآخر ، فهم أيضا تصرفوا وتقلبوا في البلاد ، فلا مهرب لهم من عذاب الله إما بإزالة العذاب عليهم كعاد وعمود ، وإما أن يموتوا فيدخلوا النار .

ولما كان ما تقدم في هذه السورة وما قبلها من أبداع الحكم والعلوم ، وهما مع اختصارها قد جمعا تفصيلا آداب الأمم مع النبي ﷺ ومع أنفسهم ، وكيف يكون السلام بين الناس وكيف يكون الصلح ، وكيف يسان اللسان ، وكيف يتعارفون ويتعلمون وينظرون في خلق السموات والأرض ، وفي العجائب والدهشة ، بحيث أن هاتين السورتين اللتين فصل بينهما بلفظ (ق) الذي شرحناه لك قريبا يكفيان لرقى الأمة الإسلامية وإسعادها متى رجعوا إليها ، فيذهب التقاطع ، ويتعلم الجهاد ، ويجتمع الشمل ، وينتظم الجمع ، ويحجم الأمن في ربوع الأمم الإسلامية ، لذلك قال الله تعالى (إن في ذلك) الذي تقدم في السورتين لأن الأولى للتخلية والثانية للتحلية (لذكرى) لندكرة (لمن كان له قلب) أي قلب واع يتفكر في حقائق الأشياء المذكورة فيه (أو ألقى السمع) أي أصغى لاستماعه (وهو شهيد) حاضر بذهنه ليفهم معانيه ، ليس بساه ولا غافل ، وفي تنكير القلب إشعار بأن كل قلب لا يتفكر ولا يتدبر كالأقاب ، ثم أعقبه بما يحول فيه القاب ويتفكر فقال (ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب) إعياء وتمب فنحن قد ملأناها بالعجائب ولا يزال زبدها كل حين لأننا لا يلحقنا التعب والإعياء ، فأقرءوا عجائبنا التي لانهاية لمداها ، ولتسبح قلوبكم إليها ولتلقوا فيها تسمعون من القول السمع وأتم حاضر وذهن فمجدتنا لانتهائى ، ولتكذبوا اليهود الذين قالوا إن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام أولها الأحد وآخرها الجمعة ، واستراح يوم السبت ، واستلقى على العرش ، فنحن لا يمسننا لغوب ، وعجائبنا لاتنف عند حد [فاصبر على ما يقولون] على ما يقوله الشركون من إنكارهم البعث فإنى خلقت العالم بلا إعياء ، فإذا أنا أقدر على بعثهم ثم أنتقم منهم (وسبح محمد ربك) وزهه عن العجز عن أى ممكن كان كالبعث حامد له على ما أنتم عليكم من إصابة الحق وغيرها من النعم الكثيرة التي لاتنتهى (قبل طلوع الشمس وقبل الغروب) أى وقت الفجر ووقت الظهر والعصر (ومن الليل فسبحه) أى وسبحه بعض الليل (وأدبار السجود) وأعقاب الصلاة ، ومعنى هذا أنت يقول « سبحان الله والحمد لله » في أحوال أربعة : وقت الفجر ، ووقت الظهر والعصر أو العصر فقط ، وفي الليل ، وعقب الصلوات ، فيكون التسبيح على ظاهره ، وقيل . إن التسبيح نفس الصلاة ، فيكون ، صلاة الفجر ، وصلاة الظهر والعصر ، وصلاة المغرب والعشاء ، أو التهجد ، والراجح النوافل بعد الصلوات ، وإنما سميت هذه الصلوات تسبيحا تسمية بالجزء منها ، وهو ما في الركوع والسجود من التسبيح ، فالتسبيح على الأول خارج الصلاة والتسبيح في الثاني صلاة وتسبيح داخل فيها ، ولا جرم أن الحمد مذكور في الفاتحة والتسبيح في الركوع والسجود ، ومعنى « أدبار السجود » وقت انقضاء السجود كقولهم [آتيت خفوق النجم] وفي حديث البخارى عن ابن عباس قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسبح

في أدبار الصلوات كلها يعني قوله « وأدبار السجود » . وفي حديث مسلم : تحميد التسبيح ٣٣ والحمد ٣٣ والتكبير ٣٣ وتعام المائة لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير ، وذلك كله دبر كل صلاة .

وعلى هذا يكون التسبيح أعم منه ومن الصلاة ، فالآية تشمل القسمين ، فليصل المؤمن الصبح والظهر والعصر والغرب والعشاء ، وليصل النوافل التي هي وقت أدبار السجود وليصل بالليل ، وليسبح بعد الصلوات كل ذلك داخل في الآية ، فكله تسبيح بالحمد ، وبهذا جمع بين الأقوال كلها (واستمع) يا محمد لما أخبرك به من أهوال يوم القيامة ، وفي ذلك تهويل وتعظيم لشأن الخبر به ؛ وما هو ذلك الخبر ؟ إنهم يخرجون من القبور (يوم يناد للناد) وهو إسرافيل ؛ أو جبرائيل ، فيقال : أيها العظام البالية ، والأوصال المتقطعة ، واللحوم للتمزقة ، والشعور المنفرقة ، إن الله أمركن أن تجتمعن لفصل القضاء . يقول الله : يوم يناد للناد (من مكان قريب) بحيث يصل نداؤه إلى السكل على السواء ونظيره في الدنيا أن الرزق والحياة والنور والنوم واليقظة ، كل هذه تأتي إلى أهل الأرض جميعا كأن مناديا يناديهم من قريب ، ويأمرهم بالنوم والحياة وبالأستيقاظ وبالأكل والشبع وما أشبه ذلك ، فهكذا يوم القيامة ، لأن الله مع كل نسمة خالقها ، فنداؤه قريب في الدنيا وفي الآخرة ، وقوله (يوم يسمعون الصيحة) أي الفجعة الثانية ، وهذا بدل من يوم ينادي للناد ، وقوله (بالحق) متعلق بالصيحة ، والمراد به البعث والجزاء (ذلك يوم الخروج) من القبور . قال الله تعالى تلخيصا لما تقدم كله من أول السورة إلى هذه الآية (إننا نحن نحي ونميت) أي نحي في الدنيا ونميت عند انقضاء الأجل (وإلينا المصير) في الآخرة (يوم تشقق الأرض عنهم سراعا) أي يوم تتصدع عنهم فتخرج اللوث من صدوعها حال كونهم مسرعين (ذلك حشر علينا يسير) حين ، وقوله يوم متعلق بقوله يسير وقديم للاختصاص (نحن أعلم بما يقولون) فيك وفينا ، وهذا تهديد لهم (وما أنت عليهم بجبار) يسيطر أي ما أنت بمسلط عليهم ، إنما أنت داع وباعث ، أو ما أنت بوال عليهم تجبرهم على الإيمان (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) كقوله « إنما أنت منذر من يخشاها » إذ لا ينفع التذكير إلا فيه . انتهى التفسير اللفظي .

في هذه السورة ثلاث لطائف

الأولى في عجائب السموات ، وهو قوله تعالى : « أقلم ينظروا إلى السماء فوقهم » .
الثانية في عجائب الأرض في قوله تعالى « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » .
الثالثة في قوله تعالى : « إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » .

اللطيفة الأولى : عجائب السموات

لقد أطنبت في هذا التفسير في السموات وعجائبها وغرائبها وحكمها وبدائعها ونظمها في البقرة وفي آل عمران ، وفي الأنعام ، وفي سور كثيرة فلتراجع إليها .

اللطيفة الثانية : في عجائب الأرض والنبات

لقد جاء في سورة الأنعام والشعراء وغيرها بدائع النبات ورسم الزهرة ، وكيف كانت أنواع النبات التي تعد بالآلاف قد ظهر تنوعها في الزهرة وتقسيمها ناجم منها ، وكذلك في كثير من السور ولكن لا بد من

أن آخذ بيدك الساعة ، وأطوف معك في الحدائق والجنت ، ذلك لأن السور السالفة قريبا لم نذكر فيها من الكلام على العجائب النباتية ، فلنقم معي ، ولنطف حدائق الأرض ، ولننظر أفانين الزهر ، وأعاجيب الثمر وأصناف الشجر ، والطرف الشائقة ، والنم الواردة من المقام الأقدس ، والهدايا والتحف والزايا ، ولست أقف بك مع طائفة الجامدين الذين لا يقصدون إلا إقنات الجسم التي لها حد محدود ، ومقدار موقوف ، بل أريد أن تكون من الذين قال الله فيهم : « تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » وأن ترتقي عن الطوائف التي قال فيها : « رزقا للباد » فتسكن تلك رزقك ، وليكن عليها نورا لقلبك ، فجسمك يتغذى بأثمارها ، وروحك تحظى بحكمها ، إن الأشجار والمزارع كتاب كتبه الله بيده ، خطه في الأرض ورسمه وهندسه وزوقه ، ورفع الأستار عن بعض القلوب ، وقال : يا عبادي انظروا جمالي التي احتجب عنكم بهذه آثاره وعلى مقدار علمكم به يكون نظركم لوجهي يوم القيامة ، ألم أقل : « نورهم يمشي بين أيديهم وبأيمنهم بشرامك اليوم » ولا نور إلا ما كتبه الفكر ، واقتبس النظر من العوالم الشاهدة للسطورة ، والصورة النمقة الشروحة ، الشارحة للصدور .

إن الدراسة تكون لأربعة أشياء : للكتب النجوية ، وللناظر الطبيعية ، وللكتب الحكمية ، التي اقتنصتها من العوالم العقول البشرية ، وللنفوس الإنسانية .

هذه هي الصحائف الأربعة التي يدرسها الإنسان ، فكتاب الطبيعة كتابي ، وكتاب نفوسكم كتابي ، وكتاب الدين كتابي ، وكتاب الفلاسفة والحكممة إشراق من نوري على عبادي فهو كتابي ، وما كتب الفلاسفة ولا كتب الوحي والديانات إلا مرشدات لبحثكم العلمي في العالم الهادي والأرضي ، ومهدات لكتاب النفس وكتاب الأفق ، وكل ما قرأتموه في الطبيعة فإنه مخزون في صحائف قلوبكم ويكون نورا مبينا . إن من نظر في العجائب النباتية ، وفكر في الفرائب الحكمية ازدادت بصيرته هدى ، وعقله حكمة ، وازداد أجنحة يطير بها إلى الملا ، إن للملائكة أجنحة منى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء ، تلك أجنحة القدرة والعلم ، والعلم هو الأصل ، فليردد الناس فكرا في النبات وغيره زدد عقولهم عددا كما ازداد للملائكة مددا ، إن النظر في النبات ازدياد أجنحة للطيران إلى عالم الأفلاك فوق السالك .

حديقة فيها ٢١ نوعا من الشجر ، وأفانين ، العبر مختلفة الثمر

التخل ، والرمان ، والنبق ، والجوز ، واللوز ، والتين ، والنب ، والأجاص ، والشمش ، والخروخ ، والآرج ، والنانج ، والليمون ، والحبة الخضراء ، والفسق ، والهاق ، والصوبر والبوط ، والفض ، والسر ، والاهليلج

(١) — الثمر الذي هو ثمر التخل

طويل الشكل ، مدحرج الحلقة ، مختلف الألوان ، على نواه قشرة رقيقة ، حريرية ، لينة اللس ، صلبة النسيج ، وعلى هذه النواة شحمة مخينة ، عليها قشرة صلبة ملساء ، وعلى ظهر النواة ثغرة ، وفي الجانب المقابل ثغرة مستطيلة فيها حشوي ليني ، وعلى رأس الثمرة من خارج قمعه ، عليها شظيات متفرقة متشعبة بالثمرة ومادة هذه الثمرة قبل النضج عسفة ، وبعد النضج حلوة لزجة ، فهذه خمسة عشر وصفا للثمرة .

(٢) — شجرة الرمان وثمرها

ثمر الرمان : شكله مستدير ، وخطته كبيرة ، وعليه قشرة كثيفة ليفية مخينة ، مجوفة من داخل ، واسعة

فيها خزانين مقسومة ، فيها دعاص مقسمة ، عليها حبوب مرصعة ، أشكالها مخروطية ، في جوف تلك الحبوب نواة خزفية ، رخوة ، في داخلها لبة دسمة ، وفي خارج رأس الثمرة من خارج فتحة مستديرة ، فيها غشاوة ليفية ، وعليها شظيات ناتئة زبيرية ، وحولها شرفات قائمة مخروطية .

(٣) — النبق ونمره

نمر النبق : مستدير ، أملس ، شحمته نخبنة ، في جوفه نواة مستديرة ، حسن اللون ، حشن اللبس ، في داخل النواة لبة دسمة .

(٤) — الجوز

نمر الجوز : أشكاله مستديرة ، سفطية ، عليها قشرة ليفية نخبنة ، في داخلها قشرة أخرى خزفية صلبة مجوفة ، فيها خزانين مقسومة ، فيها لبة دسمة ، عليها قشرة رقيقة ، وبينها حجب ، منخرقة أقسامها مهندمة وإذا فصت هذه الثمرة انفصلت بنصفين كالسفطين .

(٥) — اللوز

نمر اللوز : شكله مخروط ، سفطى عليه قشرة ليفية ، في داخلها قشرة خزفية صلبة ، فيها نقوب نافذة فيها فتائل ليفية ، في داخل هذه القشرة لبة دسمة ، عليها قشرة رقيقة صلبة .

(٦) — التين

ثمرة ليس له نوى ، عليه قشرة لحمية ، وشكله مخروط صنوبري ، وفي أسفله ثقبه مستديرة ، فيها شظيات زبيرية ، وفي جوف هذه الثمرة حبوب صغار رخوة ، وطعم مادته قبل النضج لبن أبيض غليظ حاد محرق وبعد النضج طعمه حلو .

(٧) — العنب

نمره مختلف الأشكال : مستدير ومستطيل ومد حرج ومخروط ، ومختلف الألوان : أسود وأبيض وأحمر وأصفر وأخضر ، عليها قشور رقيقة صلبة ملساء ملتزقة بشحمتها ، وفي جوف شحمتها حبوب مختلفة الأشكال ، زيتونية ، فقاعية ، مفردة ومزدوجة ، وثلاثة وأربعة ، خزفية وعظامية ، ومنها صلبة ، ومنها رخوة ، في جوف تلك الحبوب لبة دسمة ، ومادة شحمتها قبل النضج حامضة ، وقبل ذلك عفصة ، وبعد النضج حلوة .

(٨) — الأجاص (٩) — والمشمش (١٠) — والخوخ

أشكال أثمارها مخروطية ، أو صدفية ، عليها قشور رقيقة ملتزقة بشحمتها وهي غليظة نخبنة ، في داخلها نواة خزفية ، أشكالها صدفية داخلها ملساء ، فيها لبة دسمة ، وألوان هذه الثمار مختلفة .

(١١) — الأبرج (١٢) — والنارنج (١٣) — والليمون

أشكال أثمارها كروية ، أو مستطيلة ، أو مدحرجة ، وعليها قشور لحمية غليظة ، شحمتها حامضة ، وفي داخلها حب صغار ، على دعاص مرصعة شبه التلال ، ما بين خلاها لحم ، طعمها حامض ، وألوان قشرها حمر وخضر وصفر ، ومادتها قبل النضج عفصة .

(١٤) — الحبة الخضراء (١٥) — الفستق (١٦) — الساق (١٧) حب الصنوبر

ثمارها ذات حبة صغيرة ، وفي داخلها نواة خزفية ، وفي جوفها لبة دسمة .

(١٨) — البلوط (١٩) — العفص (٢٠) — السرو (٢١) — الاهليلج

نمار هذه الأشجار لا تنضج . انتهى الكلام على هذه الحديقة وأشجارها ٢١ شجرة .

وهناك عشرين حكمة لتقيس عليها حكما أخرى في الشجر والنبات .

(١) الحب : تنظر الحب فتراه مخلوقا في أوعية تشبه الخرائط ، وتلك الخرائط على رؤوسها أمثال الأسننة

لتنمق الطير أن يأكلها لتتحفظ للانسان ، فسكان الجيوب في حصون محصنة لتتحفظ للانسان .

يرى الإنسان سنابل القمح تتمايل ذات اليمين وذات الشمال ، ويرى تلك السقا كالأسنة فوقها

فالجاهل لا يدري والحكيم يعرف نعمة الله : «ولكن أكثر الناس لا يعلمون» .

(٢) الشجر وأصناف النبات مخلوقات لاقدرة لها على الحركات كاللحيوان ، فوفقت راضية في أمانها

وأخذت ترضع من الأرض كما يرضع ولد الحيوان لبن أمه ، وتجتذب الأغذية من الأرض ، وتلك

الأغذية تقسم على الورق والأعصان والأزهار والأثمار ، كل يأخذ ما يناسبه .

(٣) جذور النبات تمتد في الأرض كما تمتد الأطناب ، فكما أن الخيام تمتد أطرافها من كل جانب لتثبت

تلك الخيام فلا تسقط ولا تميل ، هكذا النبات عروقه منتشرة في الأرض ، تمتد إلى كل جانب لتمسك

وتقيمه ، ولولا ذلك لم تثبت الأشجار العالية . لاسما في الرياح العاصفة ، إن حكمة الله سبقت

في النبات فامتدت عروقه إلى الجهات كلها ليحفظ الشجر عند العواصف ، هكذا صنع الناس الخيام

وجعلوا أطرافها ممتدة من سائر الجهات تقليدا لما رأوا في الأشجار .

(٤) نسج الورق : أنظر إلى الورقة الواحدة كيف يرى فيها ما يشبه العروق مبثوثة ، فمنها الغلاظ الممتدة

في طولها وعرضها ، ومنها الدقاق المتخللة تلك الغلاظ ، المنسوجة نسجا دقيقا عجيبا ، ولو كان البشرهم

الصانعون له لم يرغبوا من ورقة واحدة في طول الأزمان ، وبالنظر إليها يرى أنها كجسم الإنسان

المتبينة فيه العروق الغلاظ ، ثم الدقاق ، ثم الشعيرة الدقيقة جدا ، ثم إن العروق الغليظة تمسك

الورقة بصلابتها وقوتها . أنظر هذا المقام موضحا بالأشكال في سورة يس عند قوله : سبحان الذي

خلق الأزواج كلها الخ .

(٥) العجم والنوى : اعلم أن الله جعلنا مغرامين بكثر الذهب والفضة والأحجار الثمينة ، فترانا نخزنها

ونصونها ، وهذا معروف عند العامة والخاصة ، فأما العامة فإنهم يمتنون ولا يدرون حكمة عرامنا

بتلك الجواهر ، وأما الخاصة فإنهم يقولون : لننظر إلى ما كثره الله أمامنا ، إن الله حكيم ولا

يخزن شيئا إلا لحكمة ، فما الحكمة إذن في وضع النواة في باطن التمرة ، والعجم في باطن

الفاكهة ؟ إننا نكفر الأشياء ذات القيمة ولكن الله يكثر ما لا قيمة له في نظرنا . كثر النواة ،

والنواة لا تمن لها ، وربما طحناها وجعلناها علقا للابل ، وبعد التفكير العظيم يقولون : عجايب !

إن النواة أفضل ألف مرة من اللسان والياقوت والمرجان . إن النواة تستحق أن نخزن في أعز

خزائنا في خرائط الجواهر الثمينة ، هذا هو السبب في أن الله خزنها ، إن النواة أصل النخلة كما

أن الجنة أصل نبات القمح ، فأنه خزن النواة وحصنها ، وجعل جرم التمرة غطاء لها لأنها أصل

النخلة وهكذا بقية النوى ، فإذا حافظ الله عليها وأكثر منها فذلك للحفاظ على حياتنا ، أما إذا

وضعنا الدريرة اليتيمة في حرز فليس لها منفعة إلا في التحلي بها ، والنواة منفعنا حياتنا وبقاؤنا ،

وما به البقاء خير مما به التحلي ، إذ لاحتية إلا للأحياء ، فحسب الله إذ عرفنا قيمة هذه الخازن

والخرائط والسناديق المقلدة :

(٦) الصلابة في النواة : إن صلابةها تمسك لرخاوة الثمار ولرققتها ، فلو أن النواة لم تكن صلبة لسرى

الفساد إليها قبل إدراكها .

(٧) قشرة الحب والنوى : خلق لكل منهما في ظاهره قشرة ، فإذا سقطا في التراب أو غيره لم يفسدا سريعا ، وإذا ادخرا لوقت الزراعة بقيا محفوظين ، فصار قشرها الخارج حافظا لما في باطنهما ، فالتى في باطنهما كالثى. النفيس الذى له صندوق يحفظه ، ولولا تلك القشرة على النواة والحب لأسرع إليهما العطب ولم يصلحا لزراعتهما مرة أخرى ؛ وكمن امرى بأكل القمح والذرة وهو لا يدري لم كانت هذه الصلابة ، ولو علم الحقيقة لأدرك أن تلك الصلابة عليها مدار بقائنا وحياتنا ، وأن هذه القشرة أشرف من كل ما يحفظ أجل الجواهر. فباطن الحبة محفوظ أولا بغلافها وبسقاتها ثم بصلابتها. وباطن الثمرة محفوظ أولا بالكفري وهو وعاء الطلع ، ثم بحرم الثمرة ، ثم بالصلابة .

(٨) نبات الحب والنوى متى وضع كل منهما فى الأرض وسقى خرج منه عرق فى الثرى، وغصن فى الهواء، وكلما ازداد غصنا ازداد عرقا تفوى به أصل الشجرة وينصرف الغذاء منه إلى الغصن فتكون الفروع محفوظة عن السقوط بالهواء والانكسار ، ويصعد الماء فى جذرها إلى أعلى الشجرة .

(٩) تقسيم الغذاء على أجزاء الشجر والزرع تقسيما عادلا كما تقدم .

(١٠) خروج الأوراق قبل الإنمار : انظر إلى الثمرة تجدها ضعيفة عند خروجها تستضر بحر الشمس ورد الهواء . فخرجت الأوراق قبلها لصياتها كما خلق النبات والحيوان قبل الإنسان لحياته ومنفعته .

(١١) نظام الأوراق : إن الأوراق تكون سائرة للثمرة لحفظها من الحر والبرد، ولكن الثمرة لا تزال فى احتياج إلى الحرارة الشمسية لتضجها ، لذلك ترى بين الأوراق مداخل وفروجا فى خيلها لدخول الشمس والهواء التى لاغنى للثمرة عنها ، وكما جعلت الأهداب على العين مانعة الغبار ، مدخلة الضياء ، هكذا هنا منعت الأوراق الحر والبرد ، وأدخلت ما يلزم من الهواء والحرارة . هذا هو العلم الذى يرقى العقول . هذا هو الذى يقول الله فيه (ق) على ما فهمت من معناها . هذا هو الذى قال الله فيه : « فذكر بالقرآن من عرف وعبد » هذه هى الحكمة الشريفة ، والآيات المنيفة ، والعلوم العالية ، والجواهر الغالية ؛ ألا تعجب لكنوز مكشوفة مستورة ، وجواهر محجوبة منظورة ، وأسرار ظاهرة خافية وبدائع غالية ، رخيصة ، انظر كيف يجلس السلم تحت الأشجار والأنمار ، والريح تهب بالفضون والأوراق ، ولا يدري لم هذه الأوراق ؟ انظر لمسلم الزمان المستقبل كيف يفهم ما حجب به الله عن السلم القديم ، يقرأ سطور الكائنات فى خلال الأوراق ، ويعجب من شمس تتخللها ، وهواء يداخلها ، يعطى الثمرة حظها ، ويقرأ السلم فى المستقبل : « وكل شئ عند بقدر » . أما أكثر السلمين والفقهاء فيما مضى ، فقد كانوا عن الفهم عجوبين ، العلم أمامهم مكشوف ولكنهم لا يفقهونه ، اقرأ قول الله تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » فإذا أقفلت القلوب لم تفهم الحكم التى سمعتها فى حب الحصيد ، ولا فى النخل الباسقات التى لها طلع نضيد .

(١٢) الثمرة فى غلافها : منذ أيام كنت مارا أمام (كوبرى الملك الصالح) وأمامي نخلة قد انشق (كفراها) أى غلاف طامعها ، وانشقاقه كان من الجهة الغربية حيث تصيبه الشمس لأنه مكشوف من جهتها أما التى فى جهة الشرق فلم ينشق ، ثم إنى عجبت كيف كان انشقاقه تدريجيا شيئا فشيئا . فأخذت أفكر فى ذلك العجب ، وأن الذى برز إلى الشمس هو الذى قوى على تحمل الجو ؛ وأن الذى لا يزال مستورا هو الذى لم يقو ، وكلما اشتد مستور ظهر للشمس والريح ، ومنذ يومين مررت فوجدت جميع طلع هذا الغلاف قد ظهر ، فأما غيره فإنه لا يزال بحاله لم ينشق لبعده عن ضوء الشمس .

(١٣) موازنة بين النار وبين الأجنة : كلاهما مادام لا يقوى على الجو يبقى في مكانه ، فتي قوى خرج منه .

(١٤) اعتبر ذلك في أمم الأرض من حيث الدين والعلم ، يعلم الناس الدين ويعجبون عن الحكمة المحبوبة فيه كما ترى في أمة الإسلام ، يقرءون الأحكام الشرعية فإذا قويت العقول والفطن أطلعهم الله على بدائع صنعته ، فهذا الذي نقوله الآن يفهمه أكثر الناس ، لكن لا يذوق الحكمة ويعس بها في نفسه إلا من أصبحوا أشبه بالجنين وقد نزل من الرحم ، وبالثمرات وقد خرجت من الأكام ، فأما من عقله لم يزل نافصا فهو أشبه بالتمر في الأكام ، فليزمه شيوخه بالعبادات ، وليمنموه من هذه الآيات .

(١٥) حب الرمان الرصع للتقدم ذكره : ترى في داخل الرمان كما تقدم شحما مركوما غليظ الأسفل رقيق الأعلى كأمثال التلال في ألوانه ، أو كالبناء الذي وسع أسفله للاستقرار عليه ، ورقق أعلاه حتى صار مرصوفا رصفا كأنه منضد بالأيدي ، ولا جرم أن الأيدي تعجز عن ذلك التمدخل الذي نظم حبها في الشحم المذكور ، وترى هناك أقساما كل قسم منها مقسوم وبلطائف رقيقة منسوجة أعجب نسج والطفه لتعجب حبها حتى لا يلتقي بعضه ببعض فيفسد ولا يلحق البلوغ والنهاية .

(١٦) غذاء الحب في الرمان : لو أن الحب كان هو الحشو للرمان لاسواه ولم تكن هناك حواجز فمن أين يستمد الحب الغذاء ؟ فلذلك جعل ذلك الشحم خلاله ليمده بالغذاء ، فلذلك ترى أصول الحب مركوزة فيه ، لماذا ؟ ليمدها الشحم بالغذاء ، وهناك عروق رقاق توصل للحب غذاءه ، وإلى حبة حبة غذاءها .

(١٧) في حب الرمان أيضا الحلاوة في المرارة : ترى الحب حلوا وهو مفروس في أصول مرة شديدة المرارة قابضة ، وهناك لفائف لطيفة على الحب لتمسكه فلا يضطرب ويحفظه ، وحفظ جميع ذلك في قشر غليظ واق تمام الوقاية .

(١٨) عود الزمان : قد جعل متينا قويا حتى تستكمل خلقها فلا تسقط قبل بلوغها الغاية .

(١٩) البطيخ واليقطين والقوس : عود هذه النباتات محتاج إلى الماء أشد الاحتياج ، لأنه على الدوام يجذب ماء كثيرا ، ولذلك ترى الفلاحين في ضواحي مصر يسقون تلك النباتات كل يوم مرة ، لأنها تجذب ماء كثيرا ليعلا ثمرها العظيم جدا : فترى البطيخة مثلا كبيرة كالجرة العظيمة ، وربما كان في الشجرة الواحدة كثير ، فكان العود دائما مشبعا بالماء ليوصله إلى ثمره ، فكان أشبه بالقناة الرطبة . فان يستطيع أن يكون قائما ، لذلك انبسط على الأرض ، وترك ثمره على الأرض والأرض تحمله ، لأن هذا العود الطرى اللين لا يقدر على حمل نفسه فضلا عن حمل هذا الثمر العظيم .

(٢٠) البطيخ وما معه : لا تخلق إلا عند الحاجة إليها ، وفي الأزمنة المناسبة ، فلا يخفق في الشتاء لأنه بالصيف أليق .

فهذه عشرون حكمة ذكرتها لك لتدرس رياض الجنات في الدنيا ، وتنال رياض الجنات بدراسة هذه الرياض في الآخرة ، والله هو الولي الحميد .

شذرات علمية في النبات

(١) نبات يفيد ويستفيد : قال اللورد أفيري في كتابه (محاسن الطبيعة) : هناك أنواع الفطر (بضم الفاء والطاء) والكساء التي تنمو بين الأشجار ، وقد تكون على الجذوع أيضا ، وقد ترى القسم الظاهر من جذور الشجرة مغطى بطبقة من هذه النباتات المجهولة القوائل حتى الآن ، هذا النبات قد كان يظن

النباتيون أنه يضر الشجر ضررا كبيرا ، وقد عرفوا أخيرا أنه يتمس الغذاء بالجذور وبصير عصيرا في تلك النباتات ، ويتمرب في عروق الشجرة ويزيدها نماء .

(٢) وصف الغابات في البلاد الحارة . قال اللورد المذكور : عجب عجب للغابات في المناطق الحارة ، ترى الشجرة ملتفة بالشجرة متعاقبة الأغصان ، محبوكة منسوجة نسيج الثياب سدى ولحمة ، فكأنها بساط عظيم ، ترفع بصرك ترى شبايك من الأغصان الشبكية المختلطة للتدخل المتعاقبة ، والأزهار تحبل الأزهار ، والأثمار تحيط بالأثمار ، والأوراق متلاصقات ، وربما وقفت بين جذوع عاريات لاجمال فيها . ثم ترفع بصرك ترى نفسك تحت قبة في جو السماء خضراء بهجة تسر الناظرين ، قد حجبت نور الشمس وقت الظهيرة بذلك السقف الرفوع الزبرجدي البهيج اللسوج البديع .

(٣) كيف خربت أقطار واسعة من سورية وفلسطين وآسيا الصغرى وشمالي أفريقيا ، يقول اللورد المذكور : إن تلك الأقطار كانت أكثر سكانا ، وأعظم مدنا ، وأتمم عيشا ، وبلادها تدر لنا وعسلا ، ثم تحولت إلى صحارى قاحلة ، وأرض جرداء خالية ، قال : إن الأمم انقرضت لما انقرضت أشجارها وغاباتها ، ولو أنهم حرصوا على غاباتهم لكانوا أشد حرصا على دولتهم ، يريد أن من أولع بالتخريب صار ذلك ديدنه فيثول أمره إلى البوار . انتهى الكلام على الاطيفة الثانية .

الاطيفة الثالثة

في قوله تعالى : « إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول إلا لديه .

رقيب عتيد »

لقد أسلفت في هذا التفسير في مواطن كثيرة آراء القدماء والمحدثين في عالم الملائكة ، وعالم الجن ، وسأذكر هنا مختصرا موجزانه فأقول :

(١) لقد ترى أن الناس يختلفون في أشكالهم وألوانهم وأخلاقهم ، حتى إن كل امرئ يكاد ينطق بما استكن في نفسه ، وهيئة الإنسان وسببه تدل على ما في نفسه من المحاسن والساوئ كما شرحه العلامة ابن خلدون في المقدمة .

(٢) إن الأمم اليوم ومنها أمتنا المصرية قد عرفت أن خطوط إبهام اليد في المرء لا تشبه فيها بسواه ، فلذلك جعلوه علامة على صاحبها لا يختلط بسواه .

(٣) قد رأى الناس اليوم الآلة الحاكية وهي (الفونوغراف) فهو كصدى الصوت يحكي ما قيل بلا خلل .

وقد أمكن الناس اليوم أن يحفظوا الأصوات في أسطوانة ويدبرونها فتنطق بما نطق به الإنسان ويتكرر ذلك سنين وسنين ، قد زاد الإنسان على ذلك ، ترى علماء النفس في بلاد أمريكا عرفوا علما يسمى علم الأثر ، وملخصه كما تقدم موضعا في (سورة النساء) أن بعض النفوس إذا غابت بتنويم مغناطيسى ، ثم أعطى لها أثر إنسان أو حيوان أو جماد أو نحوه أخذت تلك النفس تعص ما جرى لصاحب الأثر ، حتى إن أحد هؤلاء القادرين على ذلك التعودين عليه إذا دخل في حجرة ذكر كل ما مر بها من خير وشر ، ووصف هيئات الذين عاشوا فيها وحسناتهم وسيئاتهم .

(٤) قد علمت أن علم الأرواح انتشر ، ولقد قدمت لك آراء آلاف من العلماء قرروا هذه الحقائق ، ولقد مضى في هذا التفسير أن اللورد (أوليفر لودج) قال في محفل عام أيام الحرب الكبرى : « إن هناك عوالم أعقل منا تحيط بنا وتساعدنا ، واقه نفسه يساعدنا » كل ذلك بالتجربة العلمية .

(٥) أفلت ترى ممي أن العلم الحديث كأنه إنما جاء ليعرف الناس دين الإسلام ، وإلا فكيف يقول الله تعالى : إن هنا ملكين أحدهما على البين والآخر على النبال ، ويقول : إن الإنسان له قرين من اللائكة وقرين من الجن ، ويقول : لكل امرئ ملك يسوقه وملك يشهد عليه .

هذه أمور سمعية ليس للعقل فيها مدخل ، ولكن العلم الحديث أثبت هذا كله ، أثبت ما هو أعجب ! أثبت أن الجماد الذي يحيط بنا برسم فيه ما يجول بخواطرنا فضلا عما نعمل أو نتكلم به حتى قال أحد علماء النفس في أمريكا كما تقدم في هذا التفسير : (سيأتي قوم بعد ألفي سنة أو أكثر وبهذا العلم يسكون بحجر مما كان حولنا ، ويقصون حسناتنا وسيئاتنا وآراءنا وأخلاقنا ، وما كنا نحشى أن نقوله بألسنتنا) .

يا عجباً كل العجب ! فإذا كانت الجماد أصبح يجربنا ويخبر غيرنا بما عملنا فكيف لا تعرف ذلك الأرواح المجردة من السادة ؟ السادة أصبحت مخزنا لمعلوماتنا فكيف بالأرواح المجردة التي أثبتتها العلم الحديث .

اللهم إن دين الإسلام لا يظهر إلا في المستقبل ، أما القرون الماضية فلم يكن بعد الصدر الأول من العلم إلا القشور ، اللهم إنك أنزلت الإسلام ، وها أنت ذا سبحانه تفهمنا قولك : سنزهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق « فدين الإسلام الآن يظهر في الأنفس ويظهر في الآفاق ، وما نحن فيه الآن ظهوره في الأنفس .

فمن يعلم تكن حيا به أبدا فالناس موتى وأهل العلم أحياء

اللطائف العامة في هذه السورة^(١)

اللطيفة الأولى في سر (ال م) في قوله تعالى : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بيناها وزيناها وما لها من فروج » .

اللطيفة الثانية في أسرار قوله تعالى : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم » الخ . وفي هذه اللطيفة مبحثان (البحت الأول) في عجائب العين اختصت بنظر السماء (البحت الثاني) في عجائب نفس السماء ، وذلك بفهم آلة النظر والجسم للنظور .

اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » .

اللطيفة الرابعة في قوله تعالى : « يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد » .

اللطيفة الأولى

في سر (ال م) في قوله تعالى : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بيناها وزيناها وما لها من فروج »

ما كدت أكتب هذا العنوان حتى حضر صديق العلامة الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير . فقال :

(١) هذه اللطائف لم يكن لها وجود عند التأليف ، ولم يفتح الله بها إلا عند تقديم هذه السورة للطبع (للؤائف) .

إن غرامك بالملويات والسفليات من الكواكب والزرورع والشجر والجبل جعلك ممرما، والكلام فيها حتى إن أكثر هذا التفسير راجع إلى هذه المعاني . فهلا أقالت من هذه المعاني في نحو هذه الآيات ؟ قلت يا صاح : قد تمجلت ولم تستطع صبرا على ما أريد أن أقوله : إن كتابي في هذه الليلة إحدى ليالي شهر شعبان سنة ١٣٥٠ هجرية للواقعة ليلة الخميس ٣١ شهر ديسمبر سنة ١٩٣١ م ترجع إلى (الم) في قوله : « أفلم ينظروا » . فقال : وما لهنه في هذا اللقاع ؟ قلت يا صاح : إن هذه بينها وبين (الم) في أول (سورة البقرة) صلة . فقال : وأي صلة بين البقرة وسورة (ق) وما فيها من الآيات ؟ قلت صلة وثيقة عجيبة ، إن هنا شرا كان محبوبا والله أبرزه اليوم في هذا التفسير ، وحرام على أن أكنم عن الأمم الإسلامية ما وقع في صدري في هذا اللقاع من عجائب القرآن . فقال : إنك تصف أمرا عظيما فما هو ؟ قلت (الم) من مفاتيح علوم القرآن . فقال : أرجو الإيضاح ؟ قلت : ابتداء الله القرآن بالفاتحة . وابتداء الفاتحة بالبسملة ، فالبسملة أشبه بمقدمة للفاتحة . وبراعة استهلال ، والفاتحة كذلك بالنسبة للقرآن : ولم يبق بعد براعة الاستهلال أو المقدمة وهي الفاتحة التي هي أم الكتاب إلا أن يتبدى في تفصيل ذلك الجمل ، فكان الابتداء برمز هو (الم) وهي من الحروف التي في أول السور ، وقد تقدم الكلام عليها في كل سورة على حدتها ، وأعم الكلام فيها ما جاء في أول (سورة آل عمران) فقد ذكرت هناك آراء طوائف التقديمين الثلاثة ، وهي ما يذكره أمثال ابن عباس رضي الله عنهما : وأمثال ما يذكره بعض الصحابة والتابعين من مناسبات هذه الحروف من حيث أوصافها وأحوالها وانتظام أوضاعها (راجع هناك) ومن حيث مناسباتها للعالم المحيط بنا إلى آخر ما هنالك ، ومثل ما تبدى لنا في هذا الزمان من العجائب والبدائع : مثل أن (الم) في سورة (آل عمران) تذكر مسلي زماننا بما قصه الله من حال اليهود في زمن النبوة ، وأنهم باتسكلمهم على شفاعت آبائهم وتخفيف العذاب عنهم يوم القيامة ، أو تحديد أيامه في جهنم قد أخلوا بشرائط الدين فذلوا وزال ملكهم واستولى المسلمون على ما يملكون . فإذا عرف المسلمون أن (الم) في أول آل عمران قد أشارت بطرف خفي إلى هذه المعاني ، ورأوا أن ذلك إيقاظ من الله لهم في زماننا هذا ، يدعوم ذلك إلى الجهد والنشيم في العمل وأن من ظن أن الشفاعة التي أجمع عليها المسلمون ببقها الكسل والتواكل وترك العمل كما كان اليهود في زمن النبوة فهو مغرور ، وأن الأمة الإسلامية التي تكون هذه حالها لا محالة آيلة إلى الاضلال والزوال .

أقول : إذا عرف المسلمون ذلك جدوا حالا في العلم والعمل وعدم التواكل كما هو الحاصل فعلا الآن ، وهذا المعاني هي التي ذكرتها في سورة (آل عمران) هي الواقعة لقوله تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » ولا جرم أن (الم) من القرآن ، ولقد تدبرناها فالفيناها ناطقة بهذه المعاني ، وهذه الدائى سائفة ، وفيها من البلاغة ما لا حد له ، والمعنى المأخوذ منها عظيم الأثر جليل النفع . فقال صاحب : نعم هذا تقدم ولكن نحن الآن في سورة (ق) و (الم) فيها في وسطها لافي أولها : قلت : أيها الصديق لا تمجل ، إن المفتاح الذي جاء بعد الفاتحة قد فتح به أولا خزائن علوم الصبر على مكاره القتال ، وعدم الفرار منه ، وعن الشهوات حتى يقدر الجندي على المصاربة في الحرب ، فهما صبران : صبر على اصطلاح نار الحرب ، وصبر عن شهوات النفس ، وهذان لا يتم نصر إلا بهما . فالأول في آية : « ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف » والثاني في آية : « ألم تر إلى اللأ من بني إسرائيل من بعد موسى » قد جاء في هذه الآيات مسألة شرب الماء وأن من شرب منه قليلا أمكنه المصاربة في القتال ، ومن شرب كثيرا كر راجعا مهزوما ؛ فالقليل من هؤلاء الصابرون فازوا في الحرب على الكثير من الأعداء الشهوانيين الكافرين ، فهانان خزانتان

فتحت بهذا المفتاح في (سورة البقرة) : خزانة الصبر على مكاره نفس الحرب ، وعلى مكاره ترك الشهوة ، أى الشجاعة والهمة ؛ وباجتماعهما مع العلم يكون كالإنسان ، والخزانة الثالثة جاء مفتاحها (الم) في سورة (آل عمران) وهى ترك الأمانى والتعليل بالأباطيل كما ذكرناه ، بل يجب تجريد الشفاعة من المعانى المناقضة للنشاط والإقدام والثابرة وإلا كان هذا الفهم مجتأ للدين من أساسه ، وكمن خزائن في القرآن فتحت بهذا المفتاح مثل قوله تعالى : « أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصنامهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون » وقوله تعالى : « أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال » فها هنا في هاتين الآيتين جاء ذكر (الم) وجعل ما بعدها مذكرا لمن فوق الأرض بأحوالكم من هم تحتها في قبورهم ، وأن الله قد ضرب الأمثال للأحياء فلماذا لم يتمظوا أصابهم الله بذنوب الأموات الذين سكنوا ديارهم ، وهذا بعينه هو الذى حصل في ديار الإسلام .

يا سبحان الله ، ويا عجبا ياربنا ! ألم يسكن المسلمون أيام الدولة الأموية والعباسية ديار أمم الروم والفرس ، ألم يصب الله هذه الممالك بعدوى الفرس والروم ، فابتدأ معاوية رضى الله عنه بتقليد الروم في أهبة الملك الظاهرى كما قدمناه ، واتسع ذلك النطاق فكانت الدول الإسلامية شديدة الإسراف ، واتبعوا سنن من قبلهم ، أليس هذا بعينه قوله تعالى : « أن لو نشاء أصنامهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم » وقوله تعالى : « وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم » الخ .

ولا جرم أن المسلمين الساجدين واللاحقين تبين لهم كيف فعل الله بدولتى فارس والروم اللتين حل المسلمون بديارهم وسكنوها ورأوها فلم يعتبروا غل بهم ما حل بمن قبلهم ؛ لأن الله بالمرصاد وعدل حكيم (اقرأ هذا المقام في سورة الأحقاف عند آية : « أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا » ثم اقرأ تفسير سورة القتال والفتح ففي غضون ذلك ترى هذه العجائب من تاريخ الإسلام [فإنك ترى أن الله طبع على قلوب هذه الأمم بحيث ترى الأسلوب في النظام واحدا في بغداد ودمشق وقرطبة ومصر قديما . كل ذلك يرجع للمفتاح الذى في أول (سورة البقرة) الذى ذكره الله بعد القامحة .

هذه هى الخزانة الرابعة من خزائن العلم التى مفتاحها [الم] ولتجاوز ذكر الخزائن الأخرى التى يفتحها هذا المفتاح ، لأنك أيها التذكى بسهل عليك فتحها بعد ما اقتصرنا عليه بما بيناه ، ولندكر الخزائن التى في هذه السورة في هذه الآية ، وهى خزائن علوم السموات والأرض ، إذ يلفت الله نظرنا نحن المسلمين إلى آيات الكواكب والأقمار والشموس والحجرات والسدم ، فهذا المفتاح الذى فتحت به خزائن العلوم في سور كثيرة جرى به هنا لفتح العلوم . فقال : إن هذه العلوم مفتحة الأبواب ، وقد فصلت في هذا التفسير كثيرا كما قلته في أول سؤالى فقلت نعم ولكنها لم تفتح خزائنها إلا في هذا الزمان ، ولما فتحت عرفنا بعض أسرار (الم) التى جاءت مفتاحا في أوائل السور ، وها هى هنا بها فتحت تلك العلوم .

فقال : إن التماس هذه المعانى من الحروف فيه تساهل ، وهل سبقك بهذه المعانى أحد ؟ أو ليس هذا يعد تفسيرا بالرأى ؟ ثم إن تكرار الكلام على عجائب السموات والأرض يشعر المسلمين بأن للفسر يجب عليه أن يعرف علوم الفلك والطبيعة وغيرها من علوم عصرنا ولم يقل به أحد ، ألا ترى أن صاحب الإتيان ذكر شرط للفسر وحصرها في ١٥ علما وهى :

(١) اللغة .

(٢) النحو .

- (٣) والصرف .
 (٤) والاشتقاق كاشتقاق المسيح هل هو من السباحة ، أو من المسح ؟ والمعنى يختلف تبعاً للاشتقاق .
 (٥) والمعاني .
 (٦) والبيان .
 (٧) والبديع .
 (٨) وعلم القراءات .
 (٩) وأصول الدين .
 (١٠) وأصول الفقه .
 (١١) وأسباب النزول والقصاص .
 (١٢) والناسخ والمنسوخ .
 (١٣) والفقه .
 (١٤) والأحاديث النبوية لتفسير المجهول والمبهم .

(١٥) وعلم الوهبة ، وهو علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم الخ :
 قال ثم قال : فهذه هي العلوم التي أوجبها العلماء على المفسر . فلما أتم سؤاله قلت له : أما قولك : إن هذه المعاني لم يسبق بها أحد ، وإن فسرت بالرأي ، وإن العلوم السكونية من العلوم التي تشتت في المفسر لجوابه أن أقول :

اعلم أن فعل العاقل يكون مشابهاً لقوله ، قال تعالى : «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم» فمن أصلح قوله صلح فعله . وبين أدب النفس وأدب اللبس مناسبة : والله الذي ليس كمثل شيء قال وفعل ، ونحن لم نعرف من قوله إلا الوحي . وفعله هي هذه العجائب في السموات والأرض ؛ زاه أبداع المرات والسمم والشموس والأرضين ، فأولا خلق الأثير ، ثم من الأثير خلق المرات والسمم ومن هاتين أخرج الشموس ، ومنها أبداع السيارات والأرضين ، ومن هذه أبداع الأشجار والزرع ، وعلى هذه نثر الأزهار والأثمار ، فكل عالم من هذه العوالم زهر لما قبله . فالزهر للشجر ، والشجر زهر الأرض ، والأرض وانكواكب أزهار الشمس ، والشموس أزهار المرات ، والمرات أزهار الأثير والأثير صنع الله بلا مادة .

هذا كله في عوالم المادة التي منها الإنسان الذي هو من زهر الأرض ، فهذا الإنسان أيضا زهر وزهره هي الحكمة التي تلي على قلبه ، وقد اختص به دون سواه من العوالم ، إن عوالم الحيوان كذوات الفقرات من الطير والسمك ، وذوات الأربع ، والكلاب والقط . كل هذه زهرات في الأرض ولكن الإنسان أرق ، إن كل حيوان فيها يعيش بغير ربه ، والفرزة منحة من الله لانصب في تحصيلها ، ولكن الله يريد عالما أرق من ذلك العالم يجب أن يتعلم الاستقلال في عمله ورأيه ، وذلك بوقوعه بين متضادين ، وهما الخير والشر ، فيربي ملكته ويحكم بقله ولا يتشكل على الفرزة ، لأن الله يريد عقولا مدبرة لها استقلال ، وهذه العقول لن يملكها إلا الإنسان ، فهو يربي ليتعلم الاستقلال ، والاستقلال لا يكون إلا على هذا النوال : نصب وجد في الاختيار والأعمال . وإصدار أحكام فيها تشابه من الأمور خيرا وشرها . ومتى كملت تلك العقول عرجت إلى ملائكة وإلا بقيت مع العوالم المنحطة . فهذه العقول الإنسانية لها زهر أيضا وهي الحكمة التي يلقبها الله على القلوب وهي الشرط الخامس عشر الذي ذكرته أنت من شروط المفسر ، وقد جاء في صفحة ١٨١ في نفس

كتاب (الإفغان) بعد ما ذكرته أنت من شروط المفسر صاعه (علم الموهبة علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم) وإليه الإشارة حديث : « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » .

قال ابن أبي الدنيا : (وعلوم القرآن وما يستنبط منه بحر لا ساحل له) . قال : (فهذه العلوم التي هي كآلة للمفسر لا يكون مفسرا إلا بها فمن فسر بدونها كان مفسرا بالرأى المنهي عنه . وإذا فسر مع حصولها لم يكن مفسرا بالرأى المنهي عنه) . قال : (والصحابة والتابعون كان عندهم علوم الدين بالطبع لا بالاكتماب واستفادوا العلوم الأخرى من النبي صلى الله عليه وسلم) انتهى .

فانظر إلى قوله « علوم القرآن وما يستنبط منه بحر لا ساحل له » أنها الأخر : نحن حثنا في زمان فيه وجدنا أوائلنا قد محصوا هذه العلوم تحجيا وسهلوا دراستها لنا : فهذه القرون الطويلة بعد النبوة لم تدع قولا لقائل ومهدت الطرق لنا ، وسهلت السبل لنا . وأصبحنا حين قرأ القرآن نجد أمامنا الأبواب مفتحة في كتب أوائلنا فنجدهم قد استفوا لنا تلك الشرائط وأكملوها فلا نصب اليوم في تحصيلها : إنما نصب في تحصيل العلوم الأخرى التي أشاروا لها بالموهبة والتي قالوا : إن علوم القرآن وما يستنبط منه بحر لا ساحل له .

فهذا الذي نقوله نحن من أن (الم) في أول البقرة مفتاح . وهذا المفتاح فتحت به خزائن وخزائن . ومنها خزائن للمعوم الكونية في هذه السورة وفي غيرها . فالعلوم المصرية تعين على علم الموهبة المذكور . إذن ثبت أن كلام المتقدمين دخلت فيه هذه العلوم من حيث إنها معيبة على تلك الموهبة التي ذكروها . وما التفسير بالرأى والمهوى مثل تفسير الروافض : « مرج البحرين يلتقيان » إتيهما على وقاطمة « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » يعنى الحسن والحسين . فأما نحن فالحمد لله قدرنا هذه الشروط الحمة عنر بفضل آباءنا العظماء ، ثم وجدنا أن أمتنا الإسلامية قد نامت نوما عميقا وتركزت علومها وعلومها ، وألغينا هذا القرآن منسبا مجهولا ، مقروءا لفظا ، متروكا معنى ، وكل طائفة من طوائف المسلمين نامت عند أفوان شيوخها ، ثم تركت جبل الأمور على غاربها ، فلم نجد بدا من إيقافها وبحث همم أبنائها . ونحن إذا قمنا إن هذه الحروف التي في أول السورة قد أشارت إلى هذه المعاني التي أسلفناها فقد قلنا وعن مطمئنون لما نقول ، ألا ترى رعاك الله أن هذه العلوم التي قلنا إن الحروف تشير لها كلها فروض كفايات ، إذن استخراج المعاني على هذا للنوال لم يكن موجبا بدعة ، ولا أمرا متافيا للدين ، بل هو من واجباته ، وفروض الكفايات نام عنها المسلمون قرونا وقرونا وناموا نوما عميقا ، فهذه الحروف في أوائل السور يفرضها المسلمون ويكتفون بقولهم (الله أعلم بمراده) مع أن الله قال : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » فهذه من القرآن وقد تدبرها آباؤنا فقالوا : ما فتح عليهم بحسب ما ينفع زمانهم ، ونحن تدبرناها فألقيناها مفاتيح لهذه العلوم التي في زماننا ولغيرها وإلا فلماذا نرى « أولم يروا » و « ألم تر الخ » كلها تحت على علوم نحن أجهل الناس بها ولا يعرفها إلا الفرنجة ، فما هذا التوبيخ في القرآن على الترك والتفريق ؟ نرى علماء أوروبا يدرسون الأجيال الغابرة والأجيال الحاضرة ، ويستخرجون نتائجها لينفعوا بها في حياتهم أفليس هذا نفسه هو قوله تعالى فيما قدمنا : « أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمضون في مساكنهم إن في ذلك لآيات لأولى النهى » وهو نفس قوله تعالى أيضا : « وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم » أليس هذا حضا على دراسة آثار قدماء المصريين والفرس والروم وسبأ وجميع الأمم التي سكنا بلادها كما ندرس جميع النجوم والزرورع ، أو ليست هذه هي العلوم التي جهلها المسلمون جهلا قاضحا فصاروا هزوا بين الأمم وأذلاء ، وأي ذل أشد من هذا التذل ا نيميش ويدرسنا ويدرس آباءنا الفرنجة ، ونحن نعيش

ولا ندرس أنفسنا ، ولا ندرس آباءنا إلا قليلا فضلا عن الأمم التي سكننا ديارها فلا نستخرج منها نتائج تنفعنا لنحترس مما وقعوا فيه . إن ما كتبت في هذا التفسير من معاني هذه الحروف لا أزال أزداد فيه يقينا كلما طلعت شمس .

أيها الصديق : انظر إلى ما أقصه عليك من أبناء ملوك الإسلام السابقين ، واعجب كيف انتفعوا برموز الحروف المذكورة . وهالك ما جاء في الجزء الثالث من كتاب [تاريخ تمدن الإسلام] صفحة ١٢ وما بعدها وهذا نصه :

[على أنهم لفرط اشتغالهم بحفظ القرآن وفهمه لو ذكر الرجل حرفا أو كلمة اتبه السامع للآية كلها ، وكثيرا ما كانوا يرمزون بالكلمة الواحدة إلى آية يفهمها العارف بها ويعمل بها ، وقد تخفى على كثير . وما يحكى من هذا القبيل أن السلطان محمود الغزنوي الشهير بعث إلى الخليفة يطلب أن يذكر اسمه في الخطبة ببغداد ، وينقش اسمه في سكة الذهب والفضة ، فامتنع الخليفة من ذلك ، فبعث إليه كتابا فيه تهديد ووعد ، قال في جملة : (لو أردت نقل حجارة بغداد على ظهور القبلة إلى غزة لعلت) فبعث إليه الخليفة كتابا محنوما . فلما فتحه لم يجد فيه بعد البسملة إلا ألفا ممدودة ، وفي وسطه لام ، وفي آخره ميم ، والصلاة ، والحمد لله . فغار السلطان وأهل مجلسه من ذلك حتى دخل عليهم أبو بكر القهستاني ، فسكر في ذلك وقال : عندي شرحه فقال : اذكر ولك ما تريد ، فقال : بعث إليهم السلطان يهدمهم بالقبلة فبعثوا له هذا الكتاب وفيه ألف ولام وميم إشارة إلى قوله تعالى : « ألم تركيف فعل ربك بأصحاب القبيل ، ألم يجعل كيدهم في تضليل ، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كصفا مأكول » فارتاع السلطان محمود لذلك ووقع في قلبه الخوف والندم ، وعاد إلى أحسن الأحوال من الرضا والأدب (١) اهـ :

فانظر كيف انتفع الخليفة العباسي برسم القبيل مع ذكر (الم) وكيف ارتاع السلطان محمود الغزنوي من هذا المعنى . وترتب على ذلك حقن الدماء ، وحفظ البلاد ، في أعظم بقاع الأرض من سفك دماء مئات الألوف من الجيوش ، وتخريب الديار ، وحلول الدمار . ولقد تقدم مختصر هذا في سورة البقرة في الطبعة الثانية .

فهذا كله ثم بمعونة (الم) والسر في ذلك أن هذا الانسان المخلوق في المادة لا سعادة له إلا بالسمي ولذلك تجده لا يحب إلا ما منع عنه ، والمبتذول مبتذل ، والعزير مرغوب فيه ، هذا دأب هذا الإنسان وهذا شأنه ، ومعاني الرموز بحيرة مشتبهة ، فحق وصل الانسان إلى حلها سارع إلى العمل بها بفرح وسرور ، لأن تحصيل معانيها جاء بنصب وتعب ، وكل ما حصلناه بنصب وتعب أحببناه ، وهذا سر حياتنا في الدنيا ، هذه الحياة الدنيا جملة لتدريتنا على تعقل الأشياء وعلى العمل فيها ، وهذا هو الذي يعرفنا ما نزاوله فكرا وقولا وعملا ، وليس قول القائل للسلطان محمود الغزنوي : إن الظلم مرتبه وخيم كما حل بأصحاب القبيل كقول خليفة بغداد (الم) فهذه حيرت العقول ، فلما اهتدى إلى المعنى عمل الناس به ، وإذا كنا نرى هذه الحروف الثلاثة في الحديث السابق كان هذا نتائج معانيها ، أفليس من أعاجيب القرآن أننا نرى للسليمان كانوا ثمانين قرونا وقرونا وهم يقولون : الله أعلم بمراده ، أو يلتصمون معاني جزئية عليه حتى إذا جاء وعد ربك بالفتوح على الأمم الإسلامية برزت هذه المعاني بعد التتيا والتي ، فكنتيناها لأنها تناسب زماننا . وقد ضرب الله مثلا لأحوال السليمان اليوم بما كان بين هذين الملكين وإن كان ذلك أمرا جزئيا وهامنا

(١) من ابن خلكان ٣٠٨ ج ٢ - ترتيب الدول ٦٩ .

أمر كل ، وليس ما دار بين الملوك إلا مجرد تنظير وبجرد تذكرة ، فذلك أشبه بقطرة وملاها أشبه
ببحر ، وكما تقطن القوم لمعنى الرمز في مخاطباتهم العادية ، فهكذا يتقطن المسلمون في أمرهم العظيم وهو
رقبهم وسعادتهم :

إن (الم) في سورة (ق) مفتاح فتحت به خزائن القلك والطبيعة والعلوم المبنية عليها ، وهذا زمان
الفتح لا غير ، لأن هذا الزمان هو الزمان الذى فيه ظهرت هذه العلوم والمسلمون في حاجة إليها ، كما أن
المسلمين في بغداد في حاجة إلى هذا الرمز ، ففسره علماء السلطان محمود الغزنوى بما انتفع به المسلمون ،
لحققت السماء هكذا هنا تحفظ دول الاسلام بهذه للعانى المستخرجات في هذا الزمان بعد نصب العلماء فيها
أجيالا وأجيالا ، فزال الإشكال ، وحل العقال ، وارنقى الإسلام :

قلنا إن قول الله كفهله ، وللعمل ثمرات تقدم وصفها ، هكذا للقول زهرات وهذا شرحها ، هي هذه
الحروف في أوائل السور ، وحروف أوائل السور متميزات منيرات ، والزهرات رمز الثمرات ، فهذه
الحروف رمز لثمرات هي علوم ومعارف قد أظلم أوتانها ، وأقبل إبانها ، وحان حينها ، (وبجارية أخرى)
إن هذه الحروف دلالات على علوم هي سعادات أمم الإسلام في هذه الأيام وفي مستقبل الزمان . إن هذه
العلوم والسعادات قد ظهر نموذجها في هذا التفسير ، إن أمم الإسلام قد أخذت تخطو إلى العلا ، إن أعما
وأعما في زماننا وبعد مبارحتنا هذه الدار سيقرءونه ويأتون بعلوم وحكم لم يحن حينها ، وليس هذا الجيل
يمتد لها « ولتعلن نبأه بعد حين » فالحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

فلما سمع ذلك صاحي قال : لقد شفيت نفسي ، قلت : الحمد لله رب العالمين . انتهى الكلام على
اللطيفة الأولى في سر (الم) في قوله تعالى : « أفلم ينظروا » الخ ابتدأت في كتابة هذا المقال قبل فجر
هذا اليوم وهو آخر ديسمبر سنة ١٩٣١ وانتهت من كتابته بعد صلاة الفجر الساعة السادسة إلا دقائق ،
فالحمد لله على التمام .

اللطيفة الثانية

في أسرار قوله تعالى : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بينناها وزيناها وما لها من فروج »

أى في للبحث الأول من مبحثها ، وهو مبحث عجائب العين التي اختصت بنظر السماء

هذا ما انشرح له صدرى قبيل الفجر ليلة الجمعة ١١ ديسمبر سنة ١٩٣١ م — استيقظت قبل الفجر
في ذلك التاريخ ، ونظرت إلى السماء ، ولحظت نفسى الكواكب التي كنت ألحظها في الأعوام السابقة في مثل
هذه الأيام ، وهى الثريا والدبران والمقنعة والمهنة وما يشبهها . وقد تقدم الكلام عليها في (سورة الصافات)
في أولها . وتقدم أيضا قبل ذلك في سورة أخرى ، ولكن الذى توجه له نظرى في تلك الليلة غير ذلك وهو
أمران : كيف أنظر السماء ؟ وما نوع الرحمت التي أنعم الله بها على في عينى حتى نظرت هذه السموات ،
أخذ منى العجب كل ما أخذ ، وأخذت أقول : يا ليت شمري سماء واسعة سعة لاندرى مداها ؟ هاهم أولاء .
بنو آدم في الأرض يبحثون ؛ فهاهم أولاء لم يجدوا للسموات نهاية ، وقد وصلت نجومها إلى ٢ على يمينها
٢٤ صفرا ، وهذا عدد مدهى وعظيم : هذه جنات تجلجلت للفسكرين في الدنيا ، وإنما الذى زاد دهشنى أن
لى عينين تنظران هذه السماء والعين صغيرة عبارة عن كرة قدر الجوزاء وهى مدججة فيها صور وعجائب لاحد
لها ، وباجتماعها أمكننى النظر ، عين صغيرة تجمع هذه العوالم كلها ، كيف بنيت عينى ؟ وما هى المناسبة بين
عينى وبين الشمس والقمر والكواكب والأضواء فى أرضنا ؟ أنت عجيبة جدا أينها العين ، لتترك الكلام على
السموات الآن . ولنشرع في معرفة عيوننا حتى نعرف بذلك بعض ما أعطينا من الرحمت فى الأرض ونحن

ذاهلون جاهلون ضعفاء أغبياء مبعدون عن الجمال والحكم والبدائع ، كل ذلك لمعرفة الرحمة في أول هذه السورة التي جاء فيها الحس على النظر إلى هذه السموات .

مسامرة بيني وبين صديقي العلامة الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير

بينما أنا أكتب هذا إذ حضر صديقي العالم وقرأ ما تقدم فظهر عليه السرور والبهجة والنور ، وأخذ يظهر الإعجاب بهذا الموضوع ، ثم سكت قليلا وقال : إنك الآن تريد البحث في العين ، والبحث في السموات حتى تفهم كيف تنظر وبعد ذلك تبحث في عالم السموات . فقلت نعم . فقال : أليس هذا ما را مع ما تقدم في أول سورة (آل عمران) ومع ما تقدم في (سورة المؤمنون) عند ذكر السمع والبصر هناك ، ولقد شرحت العين في (سورة آل عمران) شرحا بديعا جميلا لم أر له نظيرا ، وهناك وضعت رسمها ، وهكذا فعلت في (سورة المؤمنون) ولكن الرسم في هذه كان أوضح من الرسم في الأولى التي أبدت فيها عجائب للعين بديعة تشرح الصدور وتسر الناظرين ، فأما السموات فإنك شرحتها في البقرة عند ذكر السماء في أول السورة وفي : « إن في خلق السموات والأرض » فيها أيضا ، وفي أول (آل عمران) وفي (سورة الأنعام) في أولها ، وفي آية إبراهيم : « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر » الخ ، وفي آية : « إن الله فائق الحب والنوى » وفي سور أخرى مثل (سورة يونس) في أولها عند ذكر السماء ، وفي آخرها عند قوله تعالى : « فاليوم نتجيك بيدك » فهناك أبدت عجائب مثل صور البروج التي وجدت مرسومة على صندوق أحد الفراغة ، وهي صور واضحة عجيبة وتبعها هناك سورة الهرم وعجائبه للدخلة ، وكيف كان الهرم نسبة عجيبة إلى الشمس وبمدها عنا ومدار الأرض حولها في السنة ، وكيف كان بين مساحات الهرم وبين السكايل والموازين للصرية ومساحتها نسب عجيبة . كل هذا تقدم وهكذا في آخر السكهم وسورة الفرقان ويس وأول الصافات وهكذا ، فالكلام على العين وعلى السموات قد استوفيته فيما تقدم ، أفليس يكون الكلام هنا تكررارا فقلت : أنا أحمد الله إذ وفقني أن أرى أمثالك من الفضلاء أهل العلم وأنا لأزال حيا بقرءون هذا التفسير في أثناء تأليفه وطبعه ويتمقبونه ويذكرونني بما نسبت .

ومما يشجعني على السير في هذا الموضوع الآن أن أجده قد استوعبت أكثر ما كتبتة وهو حاضر في ذهنك ، ومن استوعب ماضى فقد استعد استعدادا تاما لما ألقيه الآن ، لأنى سأذكر في العين ما لم أذكره قبل الآن ، ومن فهم ما تقدم فهو جدير أن يفهم ما أكتبه الآن وهكذا ما سأكتبه في السموات .
الله أكبر : إن حياتنا كلها جمال ولكن يظهر لي أننا أشبه بقوم حبسوا في قصر ملك عظيم كريم ، وأمروا أن يغمضوا أعينهم . لأنهم لو نظروا جمال القصر لزال عنهم الناء ولأجسوا بفرح كأهل الجنة في الجنة ، إننا الآن في الأرض محبوسون . وهذا الحبس به قلت سعادتنا ، ولكن الله عز وجل يريد لشدة رحمته بنا أن يفتح لنا باب السجن شيئا فشيئا حتى نشاهد النور خارجه ، ولا أعرف بابا لهذا السجن إلا الدرس والعلم والنظر في هذا الكون .

أيها الصديق : من نحن ؟ وما هذه الحياة ؟ وما هذه العناية العظيمة بنا ؟ لو أن شابا أحب فتاة وهو محبوس عنها ولكنه يعلم أن لها به عناية وعظما لفرح بهذه العناية فرحا لاحده ، ويصبح الحب غذاء له ، وسعادة لاحدها ، ونحن الآن في الأرض عمى عن أجسامنا وعقولنا ، لانفكر في خلقها والأعمار قصيرة ، فكيف تمر هذه الأعمار ولا نتفتح هذا الكتاب الذي نبش بين دفتيه ؟ وهو هذه الدنيا ؟ وأقرب شيء إلينا

أجسامنا ، ومن عجائب أجسامنا عيوننا التي تنظر هذه السماء ، ومتى عرفنا العناية أحببنا من هذه أعماله ، وصارت دار الدنيا سعادة .

إنني أيها القارئ ليلة الجمعة الماضية لما نظرت إلى السماء أخذ هذا الفكر بجماع عقلي ، وما كادت الشمس تطلع حتى فتحت كتاب [علوم للجميع] في الجزء الثالث منه ، فرأيت فيه ما يأتي :

العين ومنفعاتها

وقد كتب تحت هذا العنوان ما ترجمته : « ما أسهل على الإنسان أن يستعمل آلة وهو يجهل تركيبها ، ولا يعلم أي شيء عن أجزائها مطلقا ، إن آلافا من السياح في كل سنة يأخذون الصور في الجبل والسهل وهم لا يعلمون أي شيء عن عجائب تلك الآلة التي بها يأخذون تلك الصور ، وبأى وسيلة تمكنت هذه الآلات العجيبة من إحضار الصور البعيدة عنهم فجعلتها أمامهم .

وكم آلاف آلاف الملايين من الناس يستعملون عيونهم في جميع الساعات التي هم فيها مستيقظون مدى حياتهم وهم مع ذلك لا يعلمون شيئا عن بناء تلك العين وهندستها ونظامها ، وبدائع طبقاتها الباهرة النافذة للناظرين ، ولكن إذا أخذ الإنسان يبحث في عجائب العين فما أسهل أن يفهمها . وأن يدرس دراسة كافية حتى يفهم :

(١) كيف ركب طبقات العين ؟

(٢) وكيف كانت طبقاتها تعمل متحدة بهيئة موسيقية منظمة عجيبة .

(٣) وكيف أمكننا بهذه الآلة المنظمة أن نعرف الصور . بالأحجام والمسافات وغيرها .

وها هنا أخذ يضرب لذلك مثلا ، فقال : إذا أردنا أن نعرف الآلة السماء (بالتلسكوب) فإننا لا بد أن نملك تلك الآلة ونجعل كل جزء منها على حدته ، وندرس تلك الأجزاء ، ومتى انتهينا من دراستها كلها عرفنا نفس (التلسكوب) هكذا فلنعمل في العين ، فكما فصلنا ونظرنا ودرسنا أجزاء التلسكوب هكذا يجب أن نفرص أجزاء العين واحدا واحدا ، ومتى تابعنا البحث فيها بدقة ، ووالينا التجارب والموازنات فيها فإننا لاجرم نصل تماما إلى ما توجهت نفوسنا إلى فهمه وهو : كيف ركب العين وما منفعاتها ؟ .

ومن حسن الحظ لهذا الموضوع أن عين بقرة أو نعجة أو ذكرهما كافية لدراسة هذا الموضوع . فإذا أرسلت إلى (القصاب) الجزار وطلبت منه زوجا من العيون أرسل لك ذلك بسهولة كما اتفق لي . فحق حصلت على العين فأولا أزل ما عليها من اللحم المحيط بجوانبها وإذن ترى بعينك أن العين كرة وفيها جبل أبيض خارج من خلفها ، وهذا الجبل يمتد في داخل العين ، وقد كان قبل أن يقطع قويا متينا موصلا العين بالمخ ، إننا نستطيع أن ندرس العين من غير قطعها بأن ننظر في المرآة بها وندرس أجزاءها الظاهرة دراسة سطحية بمجرد النظر إلى المرآة :

(١) فلننظر أولا الجزء للقدم الشفاف الكروي البارز القبب ، ألا وهو (القرنية) .

(٢) إن هذه القرنية متصلة بالطبقة البيضاء المسماة بالصلبة ، وهي التي بها تحفظ كرة العين وتثبت فهي لها حفاظ يصونها .

(٣) وتحت هذه القرنية الشفافة يرى الإنسان حلقة ذات لون وما هي هذه إذن ؟ هي القرنية أو الضفيرة قد نسبت لقوس قزح من حيث ألوانه ، وللعنبة من حيث لونها كذلك .

(٤) وفي وسط هذه القرنية ترى (البؤبؤ) وهو إنسان العين ، وهي فتحة يدخل منها الضوء فيصل إلى البلورية ويتجه إلى الشبكية كما ستراه مفصلا .

(٥) هاهنا نستطيع أن نصنع فتحة لمنتحن بها داخل العين ، فلنأت إذن بآلة حادة ونجمل في عين البقرة مثلا فتحة ، ولا تكاد القرنية تفتح حتى يظهر لنا حالا سائل مائي يسمونه بالقرنحية (كوبس هيومر) وبالمرية يسمونه (الرتوبة البيضاء) وهو سائل أبيض .

(٦) فإذا اتسعت هذه الفتحة اتساعا كافيا فاضغط على كرة العين بلطف فإنك ترى عضوا هو أجل الأعضاء في العين ، وما هو إذن ؟ هو المدسية للسماء البلورية والجليدية ، لأنها شفافة كالبلور والجليد وهي خالية من الشوائب مثلها ، وهذه البلورية شفافة عند الصغار والشبان ، أما الرجل للسن فإنها تكون أقرب إلى الصفرة ، وهذه الصفرة تحدث خلافا في نظر الكبير لاحاجة لتفصيله الآن لئلا نخرج عن المقام .

(٧) ثم أخذ المؤلف بصف المادة الزجاجية التي تقع تحت البلورية التي تتصل بها من فوقها الرطوبة البيضاء .

ووصف الشبكية ومن ورائها المشيمية التي تلبها الصلبة التي تقدم الكلام عليها ، وأنا لأطيل الكلام في هذا المقام ، لأنني أعرف أيها الأخ أنك تعلم تفصيل هذه الأجزاء مما تقدم في هذا التفسير ، فلنجدل القول أولا برسم هذه الصورة التي رسمها المؤلف المسمى (ويليم الكرويد) وهي هذه (انظر شكل ١)



(شكل ١ - قطعة من العين الإنسانية)

- (١) - (أ) الصلبة .
- (٢) - (ب) القرنية .
- (٣) - (ج) المنحمة .
- (٤) - (د) غطاء المشيمية .
- (٥) - (هـ) عضلات هدية شمعية .
- (٦) - (و) ابتداء الأهداب الشعرية .
- (٧) - (ز) القرنية المسماة أيضا عنينية .
- (٨) - (ح) مبدأ العصب البصري .
- (٩) - (ط) محيط الشبكية .
- (١٠) - (ي) الجليدية وتسمى البلورية .
- (١١) - (ك) المشيمية .
- (١٢) - (ل) الشبكية .
- (١٣) - (م) البقعة الصفراء في الشبكية .
- (١٤) - (ن) الرطوبة البيضاء .
- (١٥) - (س) الرطوبة الزجاجية .

فلما سمع صاحبي ذلك وظن أنني قد انتهيت من المقال ونظر هذه الصورة . قال : هذا حسن ولكننا الآن أولا لم نصل للمقصود وهو اتصال هذه العيون بالكواكب ، وكيف تمت الصلة بينهما ، وثانيا : إذا رسمت صورة العين التي تقدمت في سورة المؤمنون هنا فإن القاري بموازنة كل واحدة منهما بالأخرى يفهم الحقائق حق الفهم ، ثالثا : إنك ذكرت أن المؤلف يقول : علينا أن ننظر عيون البقر أو الضم ، ولا جرم أن الشاهدة بالعين أقوى أثرا من قراءة الكتب ، وقد جرت عادة الله ألا يجعل للقائلين قبولا عند سامعهم

ولا للمؤلفين عند قراء كتبهم إلا إذا كانوا هم موقنين بما يقولون ، وأى إيقان لكم أكثر من إطلاعكم أنفسكم كما قال تعالى «وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها» وهذه هي الشهادة بالحق التي ذكرها الله تعالى : «إلا من شهد بالحق وهم يعلمون» وأى شهادة بالحق أكثر من الإطلاع على نفس العين وتشرحها ، لاسيما أن المؤلف الذي ترجمت أن كلامه قد فتح الباب أمامك ، وسهل الطريق لجعلها مبنية ، فما أسهل السير فيها على السارين ، وما أسهل عيون البقر والعم للطلابين والمؤلفين ، فقلت أيها الذكي : أما قولك إننا لم نصل للقصود فهو حق وما ذكرته الآن إنما هو مقدمة ، وهالك صورة العين المرسومة في (سورة المؤمنون) فيما تقدم في الجزء الحادي عشر من التفسير (انظر شكل ٢) .

وأما ما ذكرت من أنه يحسن بي أن أنظر بعيني هذا فقد تم هذا اليوم صباحا ، وذلك أنني لما نظرت إلى السماء قبل فجر يوم الجمعة الفائتة ، وناقضت نفسي لمعرفة المفصلة قرأت ذلك الكتاب يوم السبت ، وفي هذا اليوم (الأحد ١٣ سبتمبر سنة ١٩٣١ ميلادية) توجهت إلى (السلخانة الأميرية) وهي قرية من منزلنا . وأخذت منها عيني بقرة ، وتوجهت بهما إلى المستشفى الرمدي بالحيزة . وقابلني أحد الأطباء هناك ، وطلبت منهم



(شكل ٢)

تشرح العين إذ هم أدري بذلك ، فشرحوها لي ، ونظرت كل هذه الأجزاء المذكورة المتقدمة ، وفوق ذلك أراي مدير المستشفى العين الصناعية وهي مكبرة جدا ، وشاهدت البلورية وما فوقها من الأوردة والشرايين والقرنية والبلورية ، وبقية الطبقات ، ورجعت وقت الظهر ، وها أنا ذا الآن أكتب ما أيقنت به بعد اللطالمة . فقال : الحمد لله إذ فعلت ذلك وها أنا الآن جالس معك وأقرر أن كثيرا من الشبان في هذا الزمان وفي المستقبل سيبحثون بأنفسهم في كل شيء كما بحثت أنت الآن ، وستصير هذه مسلحة راسحة في بلاد الإسلام فيبحثون كل شيء كما بحثت أنت الآن ، وتصير هذه أعظم اللذات للشيب وللشبان . فقلت : أنا بذلك من اللوقين .

جمال العين وبهجتها ، وعجائب إتقانها

وما فيها من الآلات البصرية ومنافعها

تم قلت : أيها الأخ الذكي : ها نحن أولاء فرغنا من تعداد الآلات البصرية في العين ، وقد عرفنا نظامها وتشرحها ، وأشهرها هذه الخمسة : القرنية الرطوبة ، البيضاء ، البلورية ، الزجاجية ، الشبكية ، وهذه الآلات لا يستطيع العقلاء فهمها فهما حقيقيا إلا بضرب أمثال مما يشاهدونه ، إن العلم إن لم يتصل بما يعرفه الناس كل يوم فلا ثبات له ، وهذه الآلات البصرية يمثلها ما يأتي (انظر شكل ٣)

(١) للصباح (٢) لوح أبيض مقبوع
(٣) زجاجة مملوءة ماء (٤) لوح أبيض غير مقبوع
مقبوع لقبول الصورة الواردة من عمرة (١) المخترفة تقب عمرة (٢) الواصلة إلى الزجاجية المائية عمرة (٣) . ومن صفات هذه الزجاجية وأمثالها أن الضوء إذا اخترقها ولم يكن هناك عمرة (٢) قبلها ووصل إلى عمرة (٤) فإنه لا يسكون واضح الصورة



(شكل ٣ تجربة تبين منقمة أجزاء مملوءة من العين)

(وهي مقلوبة طبعا) بل هي تكون أقرب إلى الزرقة ، ولكن اللوحة المثقوبة بعمرة (٢) لا بد منها لإصلاح تلك الصورة .

وإذا تأملت هذه الآلات ألفت بعمرة (٢) تمثل القرحة وعمرة (٣) وهي الزجاج المائي تمثل البلورية واللوحة بعمرة (٤) القابل للصورة يمثل الشبكية ، وعلى هذا ظهرت هنا قيمة القرحة لأنها في علم البصر لها منفعة عظيمة في بعض الصور إذ هي الساعدة لتأم الصورة على اللوحة .

وأنت من هذا أيها الأخ الذي عرفت أن أهم الأدوات البصرية في أعيننا إنما هي القرحة والبلورية والشبكية التي مثلتها (١) اللوحة البيضاء المثقوبة (٢) والزجاج المملوء ماء ، واللوحة البيضاء القابلة التي لا تنقب فيها ، هذه أهم تلك الأدوات :

الكلام على المنشورات البلورية القائمة مقام الزجاج المملوء ماء

إنما قدمنا المثال المذكور لسهولة ، ولأنه في تناول الجميع ، ذلك أن الزجاج يعرفها العام والخاص ، وهي تمثل لنا البلورية التي في أعيننا والتي رأيتها أس حين تشرح عين البقرة في مستشفى الجيزة ، ولكن العلم يوزع ما هو أرق من تلك الزجاج ألا وهي أجسام زجاجية مضلعة يسمى كل منها بالمنشور (انظر شكل ٤) .



(شكل ٤)

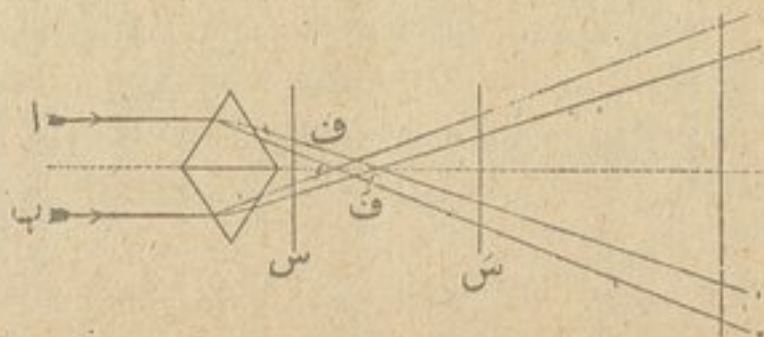
(١) قطعة من بلورين محدبتين .

(ب) جزء من منشورين وضمت قاعدة أحدهما ملاصقة لقاعدة الآخر :
لقد بسطنا الكلام على القرحة وما يشبهها ، وأنها ذات نفع عظيم في إكمال الصورة التي مررت في الزجاج المائية ، فلنبحث الآن في منفعتها إذا مررنا من منشور بلوري مثل (ب) التي رسمناها لنفهم بها (١) وهي البلورية المحدبة ، ويبان أن البلورية في العين تحيئة من وسطها ، رقيقة عند طرفيها ، وهذه الصفة تجعلها

مشبهة منشورين معا ، فلو أننا ضمنا بلورين ثم قسمناهما قسمين لرأينا أحد القسمين المذكورين من مجموع البلورين يشبه ما في صورة (١) شكل ٤ وهذه الصورة ليست مخالفة لصورة (ب) التي فيها قد وضع المنشوران معا قاعدة أحدهما ملاصقة بقاعدة الآخر ، ولا جرم أن النور وهو مار بالضلعات المنشورية تجتمع أصوله السبعة فتصير لونا أبيض ، وهكذا يفعل الضوء في صورة (١) لأنها تماثل صورة (ب) فها هنا تشابهت البلورية والمنشور في توحيد أجزاء الضوء إذا مررنا منهما .

تحليل الضوء إلى ألوانه السبعة إذا مرر في المنشور

إنك أيها الذي تعرف من دراسة العلوم ، أو مما تقدم في كتابنا هذا أن الضوء إذا مرر في منشور فإنه يحلل إلى أصوله السبعة وهي : الأحمر ، والبرتقالي ، والأصفر ، والأخضر ، والأزرق ، والبنفسجي ، والنيلي ، ومن عادة الأزرق أن يبيل ميلا كثيرا ، والأحمر يبيل أقل كثيرا (انظر شكل ٥) .



(شكله ميل الضوء)

انظر إلى تقطى (١) و (ب) الضيئين للشهتين على رصاص رقيقين في (شكل ٥) وقد مر هذا الضوء في المنشورين الرسومين أمامك . وقاعدة أحدهما ملتصقة بقاعدة الآخر ، فتأمل في سير الضوء أيها الأبخ فإنك ترى الأشعة الزرقاء أسرع فاجتمعت عند حرف (ف) فأما الأشعة الحمراء فإنها اجتمعت بعد ذلك عند حرف (ف) .

وإذا نحن وضعنا بلوريتين معا كما وصفنا فلنأثر في سير الضوء فهما كبير الضوء في المنشورين الموضوعه قاعدة أحدهما ملاصقة لقاعدة الآخر .

حال الضوء في وسط الحقل الضوئي وفي أطرافه

وهاهنا نلاحظ أن الضوء الجارى في هذين المنشورين المتلاصقين منضمة أجزاءه ، متحدة في وسطه ، فيكون لونا أبيض ، فأما في الجانبين فإن الأمر يخالف ذلك على خط مستقيم . وكيف لا ونحن نرى اللون عند حرف (س) التي قبل البؤرة الضوئية التي اجتمع فيها الضوء يميل إلى الحمرة والبرتقالية ، ولكننا نراه بعد مفارقة البؤرة الضوئية يميل إلى الزرقة عند حرف (س) .

هذه صفة الضوء في المنشورين المذكورين اللذين ذكرناهما لتقرب بهما فهم البلورية التي في أعيننا ، والتي وجدنا أنها أشبه بقطعة من بلوريتين متحدتين معا كما تقدم . وهاتان البلورتان المتحدتان مما تشبهان المنشورين المنصلين كما تقدم ، ولقد وجد العلماء أن سير الضوء في البلوريتين الموصوفتين بما ذكر يشبه تمام المشابهة سيره في المنشورين للذكورين .

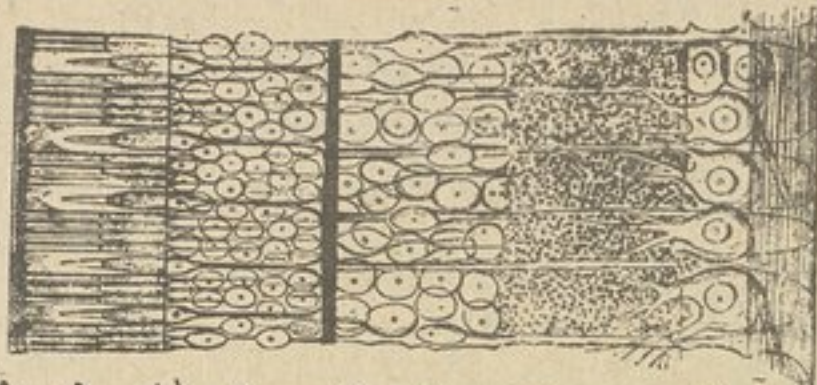
فائدة القرزية

هأنت ذا أيها الأبخ الذي عرفت أن الضوء في وسط الحقل الضوئي أبيض ، وفي حافة هذا الحقل يكون أزرق أو أحمر برتقاليا ، ولا جرم أن ذلك نقص يعوق النظر ، ولقد احتال علماء الضوء فوضعوا ستارة حلقيه في الآلة البصرية (التلسكوب) فمنعت هذا العائق ، ولقد حقق كثير من العلماء بمباحثهم أن القرزية التي في أعيننا تعمل عمل هذه الستارة التي تشبه الحلقة ، فلها الفضل في حفظ الصورة الضوئية من ميل بعض أجزاء الضوء الأبيض كالزرقة والحمرة فيما تقدم عند مروره بالبلورية المدماة بالجليدية أيضا والعدسية ، إذن ظهر أن للقرزية فائدتين : إحداهما أنها تعمل فعل اللوح المثقوب في أنها تجعل الصورة واضحة على اللوحة التي تقبل الصورة ، وثانيتها أنها إذا مر الضوء من منشورين أو بلوريتين فإنها تحفظ هذا الضوء من ميل بعض عناصره إلى الجوانب .

وظائف القرزية والبلورية والشبكية

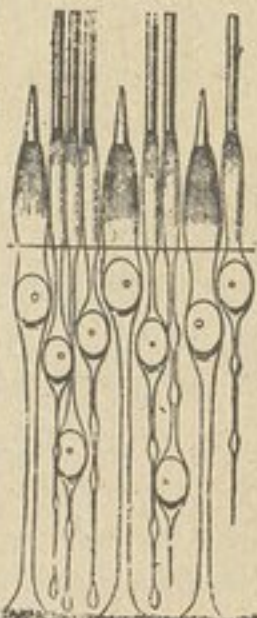
فهاهنا استبان أن وظيفة القرزية أن تحفظ الصورة واضحة لا تحلل فيها ووظيفة البلورية أنها ترسلها إلى ما وراءها فترسم على الشبكية ووظيفة الشبكية أنها تصدرها إلى الدماغ فيراها الإنسان والحيوان ولقد فصلنا القول في القرزية والبلورية فانفض الكلام على الشبكية فنقول :
إن الشبكية عضو شفاف يختلف في نخبته من جزء من ٨٠ إلى جزء من ١٦٠ من البوصة الواحدة وهو مبطن للسطح الداخل من محيط كرة العين كما رأيت فيما تقدم وكما رأيت أنا في العين الحقيقية وفي صورتها المجسمة كما تقدم .

إن أي بقعة رقيقة من بقع الشبكية ما عدا مركزها الذي يسمى البقعة الصفراء وكذلك مدخل المصب البصري كلاهما إذا نظر بالمكسكوب فانه يبين لنا هذا الهيكل الذي تراه في هذه الصورة (انظر شكل ٦)



شكل ٦ شبكة العين الإنسانية

فأنت ترى أن هذا الجسم من حرف (ب) إلى حرف (ح) أجزاء عصبية مجتمعة بما يسمونه [النسيج الحافظ] وما وراء حرف (ح) المذكور هو بقية الشبكية المشتمل على الأغشية العصبية ذات الشكل الذي يشبه بعضه (العود) وبعضه يشبه (القصب) وهذا الأخير أشبه بورق قصب السكر (انظر شكل ٧).



شكل ٧ العبدان والقصب هبنة
مكبرة ، فهاتان ثلاث قصب
تنخل ستة عبدان .

- (أ) سطح الشبكية عند اتصاله بالمادة الزجاجية .
- (ب) امتداد ألياف العصب البصرى .
- (ج) ذرات ذات اجتماع بشكل دوائر ونحوها .
- (د) طبقات ذرية وألياف عصبية .
- (هـ) ذرات مجتمعات تشبه الحب والنوى .
- (و) طبقات متدخلة وألياف عصبية حاملات ما يشبه الحب في الداخل .
- (ز) هاهنا ما يشبه الحب في الطبقات الخارجة .
- (ح) سطح جعل حدا لما تحته ومقاما يحمل العبدان والقصب
وبه ينتهى النسيج المحكم تحته .
- (ط) العبدان والقصب .
- (ي) سطح وضع حدا للشبكية فوقه .

إن العصب البصرى وهو داخل في كرة العين تنفرع منه أغشية في جميع الجهات به تتكون الطبقة الأمامية عند حرف (ب) في شكل ه المشتمل على الشبكية وهى بلا ريب مرتبطة بالعصى والقصب من خلف . هذا ما عني لى أيتها الصديق في هذا المقام ، والحمد لله رب العالمين .

هناك قال صديق العالم : ماهذه العجائب والبدائع ؟ أهذا كله لأجل أن نبصر الأشياء حولنا ؟ قلت نعم . قال عجب عجاب ! إنك قد فتحت لى باب الكلام بهذه المباحث ، فاصبر لى بذلك . قلت : سل ما تشاء فقال : هل الجزء الذى يقابل الضوء من الشبكية هو الذى يتأثر به فينقله إلى المخ ؟ قلت له : إن الكلام فى هذا يحتاج إلى إيضاح ، إن العصى والقصب المرصومات فيما تقدم هن القائمات بأمر الإحساس ، ولاجرم أنهن فى آخر الشبكية من خلفها ، فهناك يقوم بهن الإحساس بالضوء بعد أن مر فى تلك الأوساط الشفافة الموضوعه قبل الشبكية فى طريق النور . فقال : لقد ذكرت فى هذا الموضوع ما كتبتنه أنت فى (سورة

آل عمران) إذ رحمت العين والأذن هناك وشرحتهما، وذكرت للعين نحو ٢٦ حكمة، وللأذن نحو ١٤ حكمة ونقلت عن (اللورد أفيري) في كتابه (مسررات الحياة) ما يأتي :

(إن في الجسم الإنساني أكثر من مائتي عظم ، ولكل منها شكل مخصوص بها ، ولولا حسن صنعها لعافت حركاتنا التي نأتيها كل يوم) يقول مؤلف هذا التفسير : وسيرد عليك قريبا هندسة الأعضاء، وقياسها العجيب متفولا عن آياتنا حكاما (الإسلام) .

ثم قال : (وفيه ٥٠٠ عضلة كل منها تغذي بمئات الأوردة والعروق تدبرها أعصاب كثيرة ، والقلب وهو بين هذه العضلات ينبض في السنة ثلاثين مليون مرة ، فإذا توقف عن الحفظان قضى الأمر وانقطعت الحياة ، ولو تأملنا في أدوات الحس كالعين مثلا بما فيها من قرنية ، وعدسية ، وطبقات مائية ، وزجاجية تنتهي في الشبكية لتولانا العجب ، فإن هذه الشبكية التي لا تزيد عن نخن الورقة تتألف من تسع طبقات مختلفة ، أبعدها يتألف من نحو ثلاث ملايين محروط ، ونحو ثلاثين مليون اسطوانة ، وأعجب من هذا كله الدماغ ، فقد حسب أحد الفسيولوجيين أن المادة السنجابية التي في تلافيق الدماغ نحو ستمائة مليون خلية تتألف كل منها من ألوف من الدقائق الظاهرة ، وكل دقيقة تسكون من ملايين الجواهر) . وقد قال قبل ذلك :

(لقد نحيا السنين الطوال ولا نكاد نشعر أن لنا جسما) انتهى .

فهل ثلاثة الملايين من نوع الأشكال المحروطة، والثلاثون مليونا من الاسطوانات كلها من هذا القبيل ؟ فقلت نعم وربى ، فالأشكال المحروطة يراد بها هنا القصبات ، والأشكال الاسطوانية هي المبرعنا هنا بالعصى فقال : إذن هذه المخاريط ، وهذه الاسطوانات كلها لأجل إحساسنا . فقلت نعم . فقال : ولماذا هذا كله ؟ قلت لأن النور من عالم الحس وأمره سهل ، ولكن وصول صورته إلى نفوسنا التي ليست من المادة في شيء يعوزه آلات لها خواص فوق عقولنا . وهذه الآلات هي الاسطوانات والمخاريط اللاتي تعدبشرات الملايين نحن هنا في مقام الجمال والبهجة .

إن أكثر هذا النوع الإنساني يعيشون ويموتون ولا هم يذكرون ، وكم من رجل يدرس علم الضوء وعلم التشريح وهو غافل عن هذه العجائب التي يقرؤها ولا لفة لها في نفسه لأنه مجبور على المدرس ، مقهور على التحصيل ، واقفه عز وجل لم يرفع أمة بعد صنعها إلا بأناس يختارهم هو ، يخلفون في الأمم ، وهم الذين يشقون هذا الجمال الذي يتضائل في جنبه كل جمال ، فهؤلاء يؤثرون في أممهم لأن القلوب تحس بالقلوب وإن طال المدى ومضت عصور ودهور ، وأي أمة خلت من هؤلاء المشاق لهذا الجمال فهي لعاقل مريضة مرضا لا يزيله إلا ظهور حكيم عشاق لهذا الجمال ، فهؤلاء إذا اطلعوا على هذه الحكم يدهشون من كوكب بيننا وبينه آلاف السنين وضوؤه يصل إلى عيوننا ، وهذه العيون لما خلقت وضعت على مقتضى نواويس الضوء للرسول من أبعاد شاسعة ، وهذا الضوء يمر في أوساط لسلك وسط منزلة خاصة ، فمنها ما يحفظ الصورة التي يجعلها الضوء ، ومنها ما يجمع الضوء ، ومنها ما يرسم الصورة عليه ويوصلها إلى ما خلفها .

إن الإنسان إذا نظر إلى هذه الشبكية يدهشه أمرها ، فما هذه الطبقات في تلك المسافة الضيقة ؟ فهل سمك الحدقة يتخلله تلك الملايين ومئات الملايين ؟ إن ذلك أمر عجب .

علم الله أن للسليبين سينامون نوما عميقا ، وهم يجهلون رحمته الواسعة لفتلة أكثرهم عن العلوم ، فأنزله بسم الله الرحمن الرحيم تقرأ في الصلوات ، وفي الغدوات والروحوات ، وفي مبدأ الأكل والملبس ، وكل أمر ذي بال ، إذن ذكر الرحمة ملازم للمسلم في جميع أحواله ، أليس هذا معناه ادرسوا الرحمة أيها المسلمون « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » وهذه آية من القرآن ، فأين التدبر إذن؟ إن العين وعجائبها وهجائب

الضوء من الرحمة العامة التي غفل عنها أكثر الناس في الأرض ، وكل من درسها وتعمق فيها فإنه في هذه الدنيا قد نال السعادة الحقيقية ، وأبى سعادة لهذا الإنسان أعظم من الاطلاع على الحقائق ، إن الحقائق وفهمها هي السعادة الحقيقية لهذا النوع الإنساني ولكن أكثر الناس لا يعلمون ولا يستعدون .
ومن أعجب العجب أن الاطلاع على هذا الجمال بدراسة العلوم سعادة للنفس فما نكتبه في هذا التفسير وغيره يرقى الناس في هذه الحياة الدنيا ، إذن فهم الرحمة في هذه العجائب مسعد للنفس في الدنيا والآخرة ومرقى للمدينة في هذه الحياة .

الله أكبر : أنا أقول سيكون في بلاد الإسلام كثيرون من هؤلاء العشاق ، لأن الله أذن بذلك اليوم ، وهؤلاء هم الذين يمثلون بلاد الله علما ، ويكونون رحمة لجميع الأمم بعد أن يرفوا أمم الإسلام ، لهذا أنزل الله « بسم الله الرحمن الرحيم » وكررت في كل مقام في جميع الأحوال .

تأثير الضوء في النبات والحيوان والجماد

قال صاحب : أتذكر أن في (سورة يس) كلاما حسنا على الضوء وتأثيره ، وهناك الصور الشمسية للورق ، وفي كل ورقة حجرات تعد بالآلاف ؟ فقلت نعم إننا ذكرنا هناك أن مقادير غاز حمض الكربونيك في الجو قليلة ، فهي بالنسبة إلى الهواء كنسبة واحد إلى ألف ألف ، والفحم الصافي في الجو ١٣٨ ألف ألف طن تقريبا ، والنبات بتعرضه للهواء يمتص غاز حمض الكربونيك من الجو بمساعدة الأوراق ، وإن يتم ذلك إلا بمساعدة الشمس ، إذن الشمس لها أثر في أعيننا نهدى به في أعمالنا وطرقنا ، وفي النبات بإحداثها في معامل الأوراق تفاعلا به بسكل النبات ويعيش الحيوان والإنسان ، وهذا الموضوع قد تعرض له مؤلف كتاب (علوم للجميع) وقد أوضحناه الآن أيضا أتم ، وذكر أن المستشفيات أما كتبها المعرضات للشمس أكثر تكون أقرب إلى صحة المرضى من غيرها . فقال : الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات . وبهذا تم الكلام على تركيب العين ومعرفة أجزائها ليبرف المسلمون ماهو النظر المذكور في آية : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج » وهو البحث الأول من اللطيفة الثانية .

البحث الثاني من اللطيفة الثانية

في عجائب السماء والكواكب

وإذ فرغنا من الكلام على العين فلنبعث الآن في نجوم السماء وشموسها ومجراتها وسداسها فنقول ومن

الله التوفيق :

الكلام على السماء

قلت لك أيها الأخ التكني فيما تقدم إن هذا العالم مملوء جمالا ، وهذا الجمال محبوب عنا ، وهو حاضر لدينا هذه عيوننا كيف ترى تركيبها في غاية العجب ، بل هو كالسحر ، فما هذه الشبكية التي تبلغ عشر طبقات وإذا كان غلطها لا يزيد على نحو جزء من ستة أجزاء من المليم فكيف تنقسم إلى عشر طبقات ؟ وكيف يكون في الطبقة الواحدة (٣) ملايين محرووط و (٣٠) مليون عمود ، والأعمدة والمخاريط تقدم تصويرها موضحة في صورة مرسومة آنفا لإيضاح الأعمدة والأساطين نجد ثلاثة مخاريط تتخلل ست أساطين موضحة باهرة جميلة .

فياليت شعري كيف تكون الطبقات الباقية من الشبكية فكيف فيها من أشكال ، وإذا ضربنا عشرة في (٣٣) مليون يكون عندنا (٣٣٠) مليوناً كلها في الشبكية والشبكية طبقة واحدة يحيط بها نحو تسع طبقات فتكون (٣٣٠) أخرى لطبقة واحدة من التسع وبسر الطبقتان نحو (٦٦٠) مليوناً ، وليس هذا الحساب

متممها بل هو تقريب . وعلى هذا بقية الطبقات ، والعين الثانية كذلك فيكون عندنا ملايين تعد بالآلاف
 إذا فرض أنها مثلها في تعداد أشكالها ، وإذا فكرنا فيما هو أعظم من ذلك وهو الدماغ وأخذنا جزءا صغيرا
 منه ، وهو المادة السنجابية فإننا نراها (٦٠٠) مليون خلية ، والمادة السنجابية بالنسبة للدماغ صلبة
 فكيف يكون جميع الدماغ ؟ وكيف يكون عدد خلاياه ، إن هذه العجائب العلمية المتقدمة في النظر نمت
 عقولنا للمنظورات المماوية والسكواكب ، ونحن إذا أردنا الكلام على السموات فإننا لاندرى في أي باب
 نكتب وهذا العلم له شعب كثيرة ، وخير ماختاره اليوم أن نذكر سعة السموات وكثرة نجومها حتى نوازن
 ما بين كثرة السكواكب وكثرة الأشكال العجيبة في أعين الحيوان والإنسان :

(١) فنحن لانصف في هذا المقام على بعد القمر عن الأرض .

(٢) وإنه ٢٣٨٨١٧ ميلا .

(٣) ولا على عطارد الذي يتم دورته المحورية في ٢٤ ساعة و ٨ دقائق .

(٤) ولا على الزهرة التي لا تزيد يومها عن ٢٣ ساعة ونيف .

(٥) ولا على المريخ الذي ظهر للعلماء أن التاج في قطبيه لا يدوب إلا ببطء ، ويؤكد الأستاذ (سكرونج)
 أن زرع المريخ حقيقية لا خداع فيها وله غيوم تسير حوله . ومن رأيه أيضا أن النبات في المريخ مؤكد الآن
 وكذلك بعض الحيوان ، وقد كان الرأي السائد أولا أن في المريخ سكانا ثم تغير الرأي فقالوا لا سكان فيه .
 ثم رجعوا الآن وقالوا فيه سكان ، وقاسوا طول بعض القيم فيه فوجدوه بلغ (١٢٠٠) ميل والعرص (٥٠٠)
 ميل ويسير بسرعة ١٤ ميلا في الساعة ولم يقصر العلامة (سكرونج) على أن فيه نباتا وبعض الحيوان . بل
 قال إن فيه عقلاء وهم يريدين مخاطبتنا .

(٦) وهكذا للشري وأقماره التسعة .

(٧) ولا نكتفي أيضا بمعرفة زحل وحلقاته الثلاث المتقدمة في هذا التخصيص أقماره العشرة

(٨) ولا بأورانوس وأقماره الأربعة .

(٩) ولا بنبتون الذي يدور حول محوره في سبع ساعات وخمسين دقيقة .

(١٠) ولا بالسيار الجديد الذي كشف سنة ١٩٣٠ في ١٣ مارس المسمى (بلوطو)

(١١) وإذا بحثنا في نظام شمسينا الآن فإنما نجمله نوطنة لما بعده . لأن ذلك شرحناه سابقا في صور كثيرة
 إن الشمس نجم صغير جدا بين مئات الملايين من الشمس الكبيرة وهي فوق سطح النجمة وتبعد عنه
 (٥٠٠٠٠) خمسين ألف سنة نورية ، وليست مقيدة بذلك بل هي سائرة مع شمس أخرى بسرعة مليون
 ميل في اليوم ، وآخر كشف تبعدها عن الأرض أنه ٩٢٨٣١٠٠٠ ميلا وحرارتها على سطحها (٧٤٠٠)
 درجة بمقياس سنتراد ، وذلك سنة ١٩١٠ م وعلى سطح الشمس قد ترى كلف كثيرة كالتي رآها العلماء
 سنة ١٩٠٧ م ومجموع مساحتها (٨٠٠) مليون ميل مربع ، ثم ظهر مجموع آخر بعد ذلك مساحته ألفا
 مليون ميل مربع . وكلما ظهرت هذه الكلف نقصت الحرارة على الأرض ، وهي من نتيجة ظهور كلف
 الشمس ، إن الشفق القطبي الشمالي يظهر إذ ذاك ويهر ويقال : إن أحوال كلف الشمس الظاهرات على
 وجهها تشبه براكين تائرة فتدفع منها مواد مكهربة تنتشر في الفضاء فيصل بعضها إلى الأرض ويسبب الشفق
 القطبي ، ومنه الذي ظهر في أوروبا أبهر بشكل بديع حتى وصل إلى سوريا ورؤى رأى العين .

وإذ ذكرنا نبذة عن الشمس فلننتقل إلى عوالم أخرى ونجوم جديدة . إن أول نجم جديد عرفه الناس

كان قبل الميلاد سنة ١٣٤ ق م ثم ظهر من ذلك الزمن إلى الآن ١٩ نجما جديدا أى إنها ظهرت أو خلقت
جد أن لم تكن :

ويقول الأستاذ شابلي في جامعة (هارفرد) : إن النجم الصغير الذى اسمه (دورادس) تابع لنجوم مجلان
بعده عنا (١٢٠) ألف سنة نورية ويلعب فوق لمعان شمسا (٦٠٠) ألف مرة ، وظهر في نجوم (مجلان) نجوم
يفوق لمعانها لمعان شمسا من (١٥٠٠٠) إلى (٦٠) ألف شمسا .

يقول الدكتور (ديزن) في خطبة تلاها في المعهد العلمى بلندن : إن من النجوم ما يبعد عنا (١٠٠)
برسك والبرسك (٢٠٠٠٠٠) مائتا ألف ضعف بعد الشمس عنا ، وإشراقها يختلف أيضا فترى :

٢٤	نجما	إشراق	كل	منها	مثل	١٠٠	شمس
٣٤٠						٥٠	شمسا
١٣٥٠						٢٥	
٤٨٤٠						١٠	شموس .
١٣٢٠٠							شمس واحدة .
٩٣٣٠٠							شمس .

فجسم القطب من النوع الأول وبعده عنها أربعة ملايين بعد الشمس عن الأرض أى ٣٧٢٠٠ مليون
مليون ميل ، وهناك نجوم أبعد من نجمة القطب وأشد إشراقا منها ، فترى هناك ٢٦٩ من النجوم الحمراء
بعدها عنا (٢٠٠) مليون بعد الشمس عن الأرض والنجوم الصفراء منها ما بعده عنا أقل من ٢٠ مليون
بعد الشمس عن الأرض ، ومنها ما بعده عنا أكثر من ١٠٠ مليون بعد الشمس عن الأرض .

شمس الشموس

لقد تقدم في الجزء الأول في هذا الكتاب في أوله أن جميع الشموس في مجرتنا تجرى حول شمس عظيمة
وهذه الشمس تسمى (شمس الشموس) وهى الميوق (بتشديد الياء) الذى تدور كواكب الهرة كلها حوله
ويقولون : إن جرمه أكبر من الشمس مليونين و ٤٢٠ ألف مرة وإشراقه أكبر منها ٤٩٧٠٠ مرة
وبعده عنا ٤٨٩ سنة نورية .

ويقولون : إن جميع الشموس ومنها شمسا تدور حوله ، وعدد هذه النجوم في مجرتنا ٣٠ ألف مليون
نجم أو شمس ، وقطر الهرة بقدر نحو ٣٠٠ ألف سنة نورية ، وقطر السديم الذى فى المرأة المسلسلة يبلغ
عشرين ألف سنة نورية ، وأخفى السدم يبعد عنا ١٠ مليون سنة نورية .

ومن أعجب العجب أن تظهر اليوم (سدم) جديدة ، فقد كشف (هنزل) أكبر من ألفى سديم فى ٩٠
صورة فوتوغرافية ، ووجد منها ٨٠٠ سديم ألمع من غيرها ، ومن هذه ٣٠ حلزونية ، وهناك سدم لولبية
ومنها سديم الثلث . وهذا السديم يبعد عنا ٨٠٠٠٠٠ سنة نورية ، فهو أبعد جدا من الهرة ، ومجرتنا
المدكورة بطن بعض علماء الفلك أنها سديم لولبى أيضا ، ولا يراها هكذا إلا من كان بعيدا جدا ، وبعد سديم
المرأة المسلسلة ٦٠٠٠٠٠ سنة نورية ، ويطول قطره ٢٠٠٠٠ سنة نورية .

ويقول (هير) : إن بعده ٩٥٠ ألف سنة نورية ، وهو أبعد سديم عرف إلى الآن . إن السدم على
اختلاف أنواعها عبارة عن عوالم كعالم مجرتنا التى تحوى ٣٠ ألف مليون شمس كما تقدم ، ولقد قلنا إن
سديم المرأة المسلسلة فيما تقدم أن بعده فوق ٩٠٠ ألف سنة نورية ، وهناك فى جهة كوكبة (شعر برنيق)
والسنة سدم بعدها عنا مليون سنة نورية ، وسرعة بعضها ٣٠٠ كيلومتر فى الثانية ، وبعضها ٦٠٠

كيلو متر فيها ، وقد ظهرت أعداد مجموع من نجوم وسدم تبلغ ٢٨٢٢ للأستاذ شابلي إذ أبعدنا كل ما عليها
سنة نورية ، فلو أن كوكبا منها قد منذ ٩٠٠ ألف سنة فإن نوره لا يزال يجرى إلى الأرض ، ويبقى بعدنا
مائة ألف سنة ، وهذه عجائب فوق عقولنا ، ما أوسع هذا الكون ؟ إن النور يسير في الثانية ١٨٦ ألف
ميل ، وإذا دار حول الأرض لم يستغرق أكثر من سبع ثمانية وإذا دار حول هذا العالم احتاج إلى مائة
مليون سنة نورية . وأرضنا لو صغرت كالجواهر الفرد (كما قدمنا) وصغر العالم على مقتضاها رأينا ألف مليون
أرض منتشر حولها .

قدمنا أن في مجرتنا (٣٠) ألف مليون شمس ، وكل شمس لها سياراتها وتواجهها كشمسنا ؛ وفي الفضاء
مليونان من السدم ، وكل سديم أشبه بمجرتنا ، وفي الكون فضاء فوق الفضاء الذي يرى بالنسكوب ألف
مليون ضعف ، ويقدر عدد السدم فيه إذ ذلك بما يبلغ ألفي مليون مليون سديم ، فإذا كان في كل سديم منها
ألف مليون نجم كان عدد النجوم في الفضاء المنظور وغير المنظور نحو ٢ على يسارها ٢٤ صفرا ، أو ٢ مليون
مليون مليون مليون كوكب ، أو ٢ ألف ألف ألف ألف ألف ألف كوكب .
ولأقتصر على هذه الخلاصة الآن من علم السماء لتعرف أيها الأخ رحمة الله الواسعة ، وإسعاده لنا ،
وإشراق نوره علينا .

الله أكبر : ما هي هذه السماء ؟ وما هي عيني التي تنظر السماء ؟ اللهم حار فكرنا في جمالك ، ما هذه
السماء ؟ وأي عالم تسير فيه الكواكب ؟

الله أكبر : انظر أيها الأخ الذي فيها كتبناه في (سورة الصافات) في أولها ، واعجب من أن عالم
الأثير الذي تجرى فيه هذه الكواكب المذكورة عالم لا يحس ولا يرى ولكنه وهو كالمعدوم أثقل من الحديد
والرصاص والذهب أضعافا مضاعفة ؛ أي أنه لو كان جرما لكان كذلك . فارجع إليه هناك وادرسه ،
فهذا الفضاء المملوء بالأثير الذي لا ندرك وجوده أثقل من أثقل المواد الأرضية ، وهذا أمر عجيب غريب . وهو
مع غرابته تسبح فيه عوالم تبلغ إذا عرفت كلها ملايين الملايين ، وكل عالم منها يشابه مجرتنا التي تجمع ٣٠
ألف مليون شمس ، وهذه الأعداد مذهلة .

هذا هو الفضاء فوقنا ، وهذه عوالمه ، ألمت أيها الذي وأنا أدرس العين معك قد رأينا هناك ملايين
من الأشكال في طبقة واحدة من عشر طبقات من الشبكية . وهناك طبقات أخرى ، والعين
جزء صغير من أجسامنا فكيف تكون حال المخ ؟ وكيف تكون حال بقية الجسم كله ؟ أفلا ترى معنى
أيها الذي أن عيوننا نحوى من العوالم نحو عدد ما نحويه مجرتنا من الشمس ، وأن معنا في عظمتها يشبه
شمس الشمس في عظمتها ، وأن جسمنا كله يشبه المجرات كلها والسدم كلها في عدد كواكبها .

دهشنا يا الله من عجائب عيوننا ، ومن عجائب أجسامنا ، ومن عجائب عوالمك الكثيرة . وبهذا
عرفنا بصيما من قولك : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج » .
إن في هذه السورة : (١) الرحمة في البسملة (٢) والنظر (٣) والسماء في الآية ، ولمعرفة هذه الثلاث
كتبنا هذه المقالة ، وسيدرس ذلك المسلمون بعدنا قرؤنا وقرؤنا ، وستفتح لهم أبواب وأبواب في هذه الثلاث ،
ولكنهم بعد آلاف السنين يخاطبهم الله قائلا « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

أيها المسلمون : « السنة الخلق أفلام الحق » ، قد اشتهر في كل مجلس ومقام ما يقوله العامة والمثقفين
على حد سواء وهو : « القرآن لا تنتهي عجائبه ، ولا تنقضي غرائب » وفي الحديث : « إن أعلاه لثمر ،
وإن أسفله لمندق ، وإنه يعلم ولا يعلم عليه » .

الله أكبر : ها هو ذا باب العجائب قد فتح الآن ، فلجوه وادرسوا ، فتح على مصراعيه فاستبشروا
بالسعادات والمناجاة والسكال .

تطبيق أقوال الصلاة على عجائب البصر وعجائب السموات

سيفرأ هذا المقال في تفسير الرحمة ، وتفسير : « قل انظروا ماذا في السموات والأرض » فيقولون :
إننا في الرفع والاعتدال نقول : « ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من
شيء بعد » ، ثم يقولون « إن الحمد ليس مادة فعلاؤها السموات . وإنما الحمد ثناء بالجليل على من له جميل
اختياري ، وهذا الثناء لفظي لا ينبعث إلا عن امتلاء القلب بمجمل أعمال الممدوح ، إذن الحمد لا يصح إلا
مد العلم بمزايا الممدوح ، وإته أبرز لنا هذه العوالم وكلها بدمعة ، فنحن نحمده عليها وليس يصح حمدنا
عليها إلا بعلينا بها ، والعلم إنما هو حضور صورة العلوم في نفس العالم ، وعلى مقدار استكمال العلم في نفس
الحامد يكون استكمال حبه للممدوح ، وهذا الحب يحرك اللسان بالثناء ، والجوارح بالأفعال . فالمصلي
يكون حمده على مقدار إحاطته بالعوالم ، فذكر المصلي للسموات والأرض وما بينهما وما بعدها يراد عليها
سواء أكان قليلا أم كثيرا والحمد على مقتضاه . وكلما ازداد المصلي علما بهذا ازداد من ربه قربا .

هذا معنى ملء السموات والأرض إلى آخره . لأن صفات الله ظهرت آثارها في هذه العجائب ،
وعبر عن إحاطتها بالعلم بلفظ الملء . كأن المصلي العالم قد أدرك الأشياء فكأن علمه أحاط بها وملاها .
وكل امرئ بملا العوالم ، هذا في حال الرفع والاعتدال ، فأما في حال السجود فإن المصلي يقول : « سجد
وجهي للذي خلقه وصوره ، وشق سمعه وبصره ، تبارك الله أحسن الخالقين » فهنا ذكر المصلي السمع
والبصر والله يقول : « فاسجد واقترب » فهنا الاقتراب لأن الدقة في صنع السمع والبصر كما قدمناه أخرى
بأن تقرب العبد من ربه ، والنظر للسماء في حال الرفع أشبه بالمقدمة لذلك ، فالمسلم في ذكره السموات
كالمبتدئ ، وفي ذكره السمع والبصر في السجود كالمتهني . وهذا هو الحق الصراح . ألا ترى رعاك الله أن
موضوع البصر الذي شرعناه في هذا المقام يأخذ باب العارف به ويرى في نفسه شوقا وحبا وغراما ، ويكاد
فؤاده يطير من الحب والهجة والجمال ، ولكن ذلك لا يكون إلا لتقليل من الأدكباء في هذا النوع الإنساني
بهذا يقترب الإنسان من ربه اقتربا علميا مع الحب والهجة .

هذا معنى قوله تعالى : « واسجد واقترب » فيها هوذا سبحانه ذكر السجود والاقتراب بعد ذكر السمع
والبصر ، وتشريح السمع والبصر ، والوقوف على عجائبيهما ، وهذا يذهل القلب فيكون الحب والقرب ، أما النظر
إلى السماء فليس فيه هذه البدائع ، فليس المدار على عظمة الأجرام كأجرام السكواكب . وإنما المدار على
إحكامها ودقتها كدقة حدقة العين التي تقدم شرحها .

الله أكبر : إن الآلات الدقيقة المعدنية الفلزية قد لا تساوي درهما أو دراهم قبل صنعها وهي بعد الصنع
قد تساوي مئات الجنيهات ، وهل هذا الثمن إلا الدقة صنعها ؟ ولما كان المدار على دقة الصنع والإحكام ، لا على
عظم الأجرام حشرنا الله في هذه الأرض وأمرنا ألا نظير منها إلى عوالم أخرى ، يريد منا أن ندرس هذه
الأرض وما حولها وهو يعلم أننا لن ندرسها إلا إذا احتجنا إلى ما فيها ، وهل هناك حاجة أكبر من حياتنا
نحن وبقائنا فحسب علينا أن نغتنى منها هي ، وأحوجنا إلى العمل لاستخراج كنوزها ، وكل هذا نتيجة
ارتقاء نفوسنا ، كل هذا يفهم من أقوال المصلي في صلاته إذ يشكر ربه على السمع والبصر بعد أن شكره على
السموات والأرض ، ثم سمع الله يقول : « واسجد واقترب » ، إذن السجود به يكون الاقتراب ، لماذا ؟
لأنه درس أدق الأعضاء ، فأما دراسة العوالم كلها إجمالا فأنما هو تشويق للمباحث الجزئية .

اللهم إنا نحمدك حمدا كثيرا على نعمك ، ونشكرك على آلائك ، نحمدك على العلم ، ونشكرك على الفهم ،
ومن أجل النعم أن دين الإسلام بمنزج بمصالح الدنيا بحيث إن أجل العبادت وأشرف الأعمال ما كانت وجهته
المنفعة العامة للأمم ، فها هي ذه مسألة العين وطبقاتها وإبداعها وجمالها كيف كانت دراستها من أسباب
جك ، والاستغراق في بهجة جمالك ، والهيام بالحكمة ، والازدياد من العلم . وكيف كان المصلى في رفته
وفي سجوده في أقواله يجمع ما بين مبادئ العلوم في الأول ونهاياتها في الثاني ، وكيف كانت أقواله في الرفع
منطبقة على الدراسة العامة في المدارس الثانوية في جميع مدارس العالم ، لأن تلك الدراسة يراد بها الامتياز
بالعوالم المحيطة بنا بقدر الإمكان ، ثم كيف كانت أقواله في السجود في حال اقترابه منك موافقة كل الواجبة
لدراسة الحاسة التي بها يكون الإنسان مستحوذا على علم خاص قدملك ناصيته .

ومن أعجب العجب أن ما تقدم في دراسة العين وما فيها من دقة الوضع وحسن الاتقان بصائر للناس
وهدي ورحمة .

تسبيح الخلوقات

فهذا يفهمنا بصيا من معنى قوله تعالى : « وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم
إنه كان حلما غفورا » ، ألم ترى عاك الله إلى سواد القرنية ، وضبطه للنور فيها تقدم ، وحفظه للصورة التي
حملها حتى تصل إلى المخ ، فهذا السواد ينظر له كل امرئ على مقتضى إدراكه ، فأما العاشق فلا يهمه إلا
أنه جمال ظاهري فيكون إذ ذاك سببا للتناسل ودوام العيش في الحياة ، وأما الطبيب فإنه ينظر إليه من حيث
الصحة والمرض ، وفي الحال الثانية يستعمل العقاقير ، فأما الحكماء فإنهم أرقى منزلة ، وأرفع قدرا ، ألا ترى
رعاك الله أنهم ينظرون نظرا عاما فيقولون : إن هذا السواد إنما وضع هنا لحكم ، فيه حفظ الصورة وضبط
الضوء ، وهذه تذكرنا بألوان الحيوان المذكورة في (سورة المؤمنون) وفي (سورة الروم) وكيف ترى
أن الجمل والأسد والنمر كانت ألوانها موافقات لبيئاتها ، وللرمال والجبال حولها ، وكيف كان سواد الفأر
لكثرة أعدائه ، فلو كان بلون غيره لأظهره النور تضار طعمة للفترسات ثم كيف ترى ذلك الطائر الأبيض
في أمريكا يظهر ببذله الطويل ليلا وهو غير خائف ولا وجل مما حوله من الفانكات ، ذلك لأن له رائحة
خبثية يطلقها على كل من اقترب منه وآذاه ، كما يفعل الظربان من ذوات الأربع في القفار . ثم كيف
ترى الزنبور ظاهرا برقشه ونفسه لا يخاف عدوا ، ولا يبالي بصروف الأيام ، ذلك لأن له حمة فتتك
بالأعداء .

هذا كله مشروح شرحا وافيا في (سورة المؤمنون) وفي (سورة الروم) مع الصور الشمسية فارجع
إليه ، ليس هذا كله تنزيها لله عن العبث في أفعاله ، وأنه لا يضيع لونا ولا شكلا ولا حجما إلا بالحكمة ، ولم
يلون العين ويجعل في قرينتها السواد مثلا ، ولم يجعل لها قرنية ولا رطوبة بيضية ولا قرنية ولا إنسان عين
وهي الفتحة في القرنية ، ولا بلورية ، ولا رطوبة زجاجية ، ولا شبكية ، ولا مشيمية ، ولا صلبة إلا بالحكمة
خاصة ترجع للنظر .

فيأيت شعري هل للتسبيح معنى إلا هذا ؟ هذا تسبيح وهذا حمد ، أما الحمد فلي هذه النعمة وهي
نعمة العين ، وأما التسبيح والتنزيه فذلك أن هذه الأشكال وهذه الطبقات وهذه الألوان ظهر أنها كلها
حكمة توفى الوصف ، بهذا يفهم المسلمون قوله تعالى : « وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون
تسبيحهم » .

أو ليس من العجب أن النصارى يلفظ الفقه وهو دقة الفهم يذكر بآية الأنعام إذ يقول : « فالتق الإصباح
وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم » .

ثم قال : « وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون »
جعل العلم في جانب علم الفلك ، والفقه في جانب الإنسان وعلم التشريع ، إذن قوله تعالى : « ولكن
لا تفقهون نسيبهم » يشير إلى ما في الطبيعة من العجائب كطبقات العين وبدائها المذكورة ، وقوله :
« إنه كان حلما غفورا » ، فأما حلمه فهو ظاهر ، فإن الإنسان منا يحلم على الأطفال والجهال إذا أخطأوا
وجهلوا ، ويرى الإنسان طفله لا يعقل نعمه ولا يفهم مقدارها فيحلم الإنسان عليه لقله إدراكه ، وهذا
هو السبب في قوله تعالى : « إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا ، فهكذا يعامل الله عباده
فهو يعلم أنهم يجهلون جهلا فاضحا ، أعطاهم من النعم ، فإننا لا نجد عالما ولا جاهلا في نوع الإنسان يدرك
نعمة العين مثلا ، ولكنه يفهم مقدار الطعام عند من أكرمه به ، ويفهم العطايا المعتادة ويصبح محبا لمن
أعطاه ، ولكنه قط لا يتذكر نعمة العين ، بل هو يجهل تفصيلها ، إذن الله يعامل عباده لجهلهم بنعمه
معاملة أحدنا ولده ومعاملة أشرافنا وأنبياؤنا الفقراء والساكين لأنهم لا يعرفون نعم المحسنين لهم ،
فهذا معنى كون الله « حلما » في هذا المقام ، وأما الغفران فهو راجع لمن أعطاهم الله استعدادا للعلم والفهم
فدرسوا هذه العلوم فمرفوا النعمة فأحبوا مسديها كما يحب الرجل العاصي من أعطاه مالا ، أو كساه ثوبا ،
والغفران هنا كالغفران في أول سورة الفتح الذي جعل بابا للفتح بالعلم والمعرفة ، فانه حلم على عبده لجهله
فإنما استعداد للعلم وبه يعرف النعمة ويحب ربه بحمل الغفران مقدمة لتلك الفتوح والله هو الولي الحميد .

سر من أسرار حكم العين وسواد قرحتها

سواد القرحية حفظ النور كما تحفظ الجسور ماء الأنهر ، وكما تحفظ القوة الفضية أشخاص الحيوان ،
فها هنا نور حفظه سواد القرحية في العين ، وها هنا ماء حفظه الجسور ، وها هنا قوة شهوية في الحيوان أحاطت
بها قوة غضبية لتحفظ بقاءها بمدافعة الفانكات ، وها هنا أم تحفظها جيوشها من هجوم الأعداء ، إذن سواد
العين ، وجسر النهر ، وغضب الحيوان ، وجيوش الدول ، كل هذه حافظات لما يضح الناس من نور وماء
وحياة فرد أو حياة أمة . انتهى الكلام على الطبقة الثانية في آية : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف
بنيناها وزيناها وما لها من فروج » أي مبجتها معا وما مبحث العين وطبقاتها ، ومبحث السماء ونجومها
وكل هذا قد لوحظ في بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثالثة

في قوله تعالى : « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج

بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب »

في هذه اللطيفة مقالتان

اللقاة الأولى في قوله تعالى : وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج

لما وصلت إلي هذا المقام حضر صاحبي العالم وقال : لقد تقدم في هذا التفسير مقالات كثيرة في النبات
ولكني أريد اليوم الوقوف على ملخص علم النبات بحيث يكون كأنه حاضر أمامي . قلت : أيها الأعمى
الذكي : إن هذه الأرض والعوالم حولها كثيرة كثيرة لا ضابط لها إلا العلم ، ولا جرم أن النباتات على الأرض
مبشرة مشققة ولن يضبطها إلا الوحدة ، فقال مامنى الوحدة هنا ؟ قلت إن عقول الناس في هذه الأرض
مشغوفة بالوحدة لأن الوحدة هي التي تظلمن بها القلوب ألا ترى أنهم يحلمون لكل منزل رب أسرفوا لكل

بلدة رئيسا، ولكل أمة ملكا ، أو أميراً ، أو رئيس جمهورية، كل ذلك للوحدة، ونظير هذا في العلوم فإنهم قسموها إلى مجموعة سموها علما، ثم قالوا : هذه العلوم كلها تسمى واحدا ، وهذا الواحد انقسم إلى علوم . وكما يرجعون جميع الأعداد إلى الواحد ورجعون العالم كله إلى الوحدة فيقولون : الله خلق العالم أى بعد البحث والتحقيق ، فهناك تطمئن القلوب الحكيمة التي درست هذا الوجود كله دراسة حقيقية ، أما العامة وصغار التلمذ فهم من واد واحد يعيشون ويعتنون وهم متحسرون على السعادة الحقيقية وهي الاطمئنان ووقوف النفس على الحقائق ؛ لاسعادة لأهل هذه الأرض إلا في هذه المسألة التي هي مسألة المسائل فهكذا فيما نحن فيه وهو علم النبات ، وما علم النبات إلا كجميع هذه العوالم ، نراها بعبارة مشقة : نهر ، بحر ، أرض ، جبل ، جبل ، حيش ، أكروخ ، سحب ، كواكب ، هواء ، ذئب ، أسد ، حمل . حمار ، غزال مسك وهكذا أمور لا يدرى الإنسان أولها ولا آخرها ، فبالعلوم والحكمة تضبط هذه كلها كذلك علم النبات فإننا نقول : أرز ، نخل ، حشائش ، عسل . جل . صنوبر ، قمح . وهكذا لاضابط ولا قانون فلا علم ، وإنما هي أمور مبغترات هنا وهناك ؛ فإذا رجعتها للوحدة سعدنا وأحسننا في أنفسنا بسعادة علمية جزئية ، ومنى درسا بمجملات العلوم كلها ورجعناها لوحدتها سعدنا السعادة التي لانهاية لها في نفس هذه الحياة سعادة مبدئية محقة . فقال حاجي : والله لقد شوقني إلى هذه الوحدة في النبات التي بها تكون سعادتي . قلت : إن جميع الكائنات الحية نباتية كانت أو حيوانية مركبة من وحدة أو وحدات صغيرة تسمى كل منها خلية ، وهذه صورتها (انظر شكل ٨ الآتي) .

وأشرحها لك فأقول : « إذا تركب جسم النبات من خلية واحدة سمي « وجيد الخلية » أما إذا تركب من جملة خلايا فيقال له « عديد الخلايا » وترتكب مادته من جدار خارجي مادته كربو أيدراتية صلبة مرنة شفاقة تسمى « السيلولوز » وفي داخل الجدار مادة لزجة تسمى « البروتوبلازم » وهو الجزء المهم في الخلية ، لأنه هو المادة الحية ، ولنا نعرف بالضبط كنه الحياة ، غير أن المادة الحية اللزجة « البروتوبلازم » صفات تميزها عن الأجسام الميتة منها .

أولا : أن للبروتوبلازم القدرة على هضم وتمثيل الغذاء (أى يحوله إلى مركبات بروتوبلازمية) .

ثانيا : أنه يؤكسد الغذاء ويخرج الفضلات .

ثالثا : أن له القدرة على النمو .

رابعا : أن له القدرة على الحركة .

خامسا : أنه يتأثر بالضوء والحرارة والرطوبة .

سادسا : أن له القوة على التكاث والتوالد .

وبروتوبلازم الخلية يشمل جميعا برفا أكثر كثافة منه يسمى « النواة » والمادة البروتوبلازمية

التي حول النواة تسمى « السيتوبلازم » .

النواة

ترتكب النواة من شبكة مكونة من قضبان صغيرة تسبح في سائل يعرف « بالسائل النووي » ويحيط بالنواة من الخارج غشاء رقيق هو « الغشاء النووي » (انظر شكل ٨) وقد يوجد داخل النواة جسم كروي صغير يسمى « النوية » وقد تحتوي النواة على نوية واحدة أو أكثر .



(شكل ٨)

والنواة أم جزء في الخلية ، ويمكن الاستدلال على ذلك بقطع خلية إلى قسمين : يشمل الأول منهما نصف البروتوبلازم بما فيه النواة كلها ، ويكون الثاني خاليا من النواة ، أما القسم الأول فينمو ويستعيد ما نقص منه ، وأما الثاني فيموت بعد فترة من الزمن اه :

فقال صاحبي : إذن هذه الخلية هي أصل كل حيوان وكل نبات ؟ فقلت نعم . فقال : يظهر لي أن هذه الخلية أشبه بمنزل فيه أسرة تسكنه لأنه يحيطها والسليوز يحفظ ما في داخلها وهو الجزء المهم ، إذن هي كالجوزة ، أو كراس الإنسان لها عظام في داخلها الملح ؟ قلت نعم نطقت بالصدق ، وأيضا في الحيوان قوة يحافظ بها على نفسه تسمى عضوية ، وقوة بها يعيش وهي الشهوية ، فالأولى كالمسكن ، والثانية كالسكان ، إذن القاعدة واحدة في هذا النظام العالمي ، وهذه الآراء هي مبدأ السعادة التي حدثتك عنها ، فإذا أمكننا إرجاع كل نبات إلى تلك الوحدة وأخذنا نفرع عنها فروعاً تشمل كل نبات كان ذلك سعادة جزئية خاصة بالنبات فقال : أريد التفصيل بعد هذا الإجمال ؟ فقلت : إن النبات على قسمين : دنيئة ومرتقبة ، فالدنيئة يكون انقسام الخلية فيها انقساما مباشرا ، والمرتقبة يكون الانقسام فيها غير مباشر :

١ - الانقسام المباشر

تكون طريقة الانقسام في خلايا بعض النباتات الدنيئة في الغالب بسيطة ، فيحصل حز في وسط النواة يمتد إلى باطنها شيئا فشيئا حتى تنقسم إلى قسمين : يتبع ذلك انقسام السيتوبلازم ، ويسمى هذا النوع بالانقسام المباشر .

٢ - الانقسام غير المباشر

انقسام النواة في الخلايا المادية للنباتات الراقية يكون أكثر تعقيدا منه في الحالة السالفة (شكل ٩) فبعد ما تأخذ النواة في الانقسام تنفصل القضبان التي تتكون منها الشبكة النووية ، ثم ينشطر كل منها طوليا إلى شطرين متساويين ومتشابهين من كل الوجوه ،

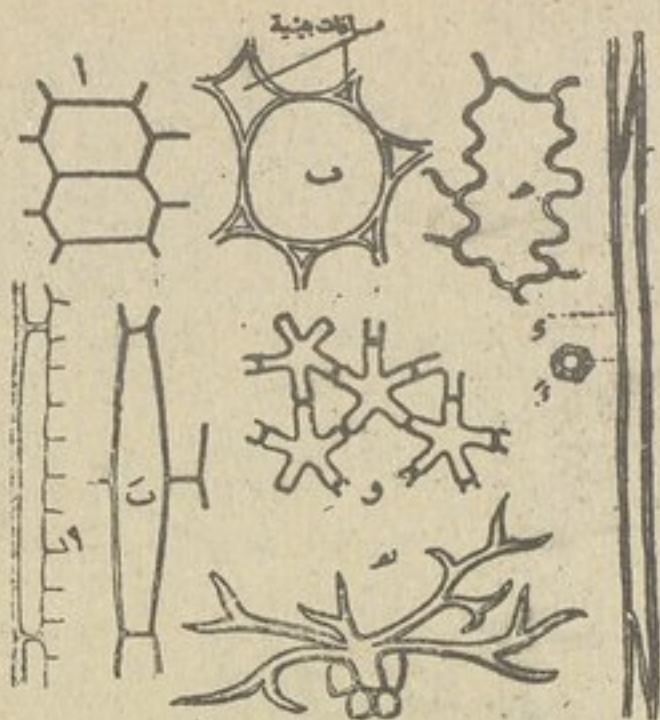
وينجذب كل من الشطرين إلى قطب الخلية المقابل له ، فتجتمع أنصاف القضبان في قطب ، والأنصاف الأخرى في القطب الآخر ، ثم تتحد أفراد كل مجموعة مكونة بذلك شبكة نووية جديدة ، وينشأ بعد ذلك تكون غشاء في السيتوبلازم يفصل النواتين الجديدتين . وتنقسم الخلية بهذه الطريقة إلى خليتين تكون نواتهما متشابهتين في صفاتهما وعدد قضبانها ، وتسمى هذه الطريقة بالانقسام غير المباشر : اه

(شكل ٩)

ثم قلت . انظر أيها الصديق إلى الخلية الواحدة ، ألا تراها كمنزل تسكنه أسرة ، ثم انظر كيف صار هذا المسكن مساكن بطريقة تخالف طرائقنا في بناء مدننا ، فنعن نبنى بيوتا بجانب آخر ، أما هذه الخلية فانها تكبر وتنقسم بطريقتين مختلفتين . فقال : حسن ولكن أريد أن أعرف هل هذه الخلايا أشكالها واحد أم هي أشكال مختلفة ؟ قلت : كما أن الناس اختلفت أشكالهم هكذا تختلف أشكال هذه الخلايا ، بل أن هذا أمرا عجبا ! ذلك أن هذه الخلايا تعمل عمل العقلاء من الناس ، فإن العقلاء يحملون الهواء يتخلل بيوتهم هكذا هذه الخلايا هي مختلفة في صورها كأناس محكمة نظام وضعا بحيث يتخللها الهواء (انظر شكل ١٠)



إن الخلايا البالغة متعددة الأنواع
مختلفة التركيب ، فما كان منها مساوي
الأقطار كرويا أو مستطيلا قليلا رقيق
الجدران ، وبه فجوة وسطية ممي
بالخلايا البرانشيمية ، وعند ما تم
الخلايا البالغة تفكك أركانها ،
ويتكون بينها وبين بعضها مسافات
بتخللها الهواء تسمى بالمسافات البينية
(شكل ١٠-ب) وهي موزعة في النبات
بحيث يتمكن الهواء من تخلل جميع
أجزائه ، وقد تستعمل المسافات
البينية لتخزين بعض منتجات الخلايا
كما في نبات الصنوبر :



ثم قلت : انظر للصنوبر
والبرتقال والليمون مثلا كيف فعلت
ما فعله نحن فإننا نضع أمتعتنا في الخلاء
الذي في داخل مساكننا ، وإلى
القاب كيف تحللت منه خلايا

(شكل ١٠-١) خلايا مرستيمية (ب ب) خلايا برنشيمية
(٢-٣) خلايا البشرة ويرى جدارها العلوي غليظا (د د) خلايا
ليفية (٥) خلية شعيرية وبرية متفرعة ، (٦) خلايا نجمية الشكل
بينها مسافات بينية واسعة)

ليكون فيها هواء كما تفعل الحكومات إذ تهدم أبنية لتجعل فيها الشوارع :

قال صاحبي : أما الآن فإن قد فهمت وحدة النبات فهما حقيقيا ، فأريد الآن أن أعرف أدنى النباتات
وأعلاها . قلت : أما أدنى النباتات فهي النباتات الدنيئة التي تتركب أجسامها من خلية واحدة تقوم هذه
الخلية بجميع الوظائف اللازمة كالامتصاص والتنفس والنمو والحركة والتناسل ، أما في النباتات الراقية
فيتكون جسم النبات الواحد من عدد لا يحصى من الخلايا ، ولكي يقوم النبات بوظائفه خير قيام تتخصص
جميع من خلاياه بأعمال خاصة ، وتسمى كل مجموعة بالنسيج ، وعلى ذلك يكون النسيج عبارة عن مجموعة
من الخلايا للتشابهة في الأصل ، وغالبا في الشكل تقوم بعمل متماثل وأنسجة النبات الحى تتعاون جميعا
في تأدية وظائفه الحيوية ، ولا يمكن للنسيج الواحد منها أن يستقل بذاته ولو فصل عن باقي الأنسجة لمانت
خلاياه تدريجا .

ثم قلت : انظر أليس تركيب النبات بقسميه كترتيب الجسم الإنسانى العام . فقال : وكيف ذلك ؟ قلت
ألسنت ترى أن النباتات الدنيئة التي هي من خلية واحدة وهي التي لانراها بأعيننا التي تشبه في صفرها أدنى
وأصغر الحيوانات الدرية التي لانراها أيضا قد أشبهت رجال البادية ، فإن البدوى في خيمته هو كل شئ ،
وهو الذى له السلطة على منزله ، وهو المدافع عنه ، وهو الحافظ له ، ويعيش مستقلا كأنه دولة واحدة ،
أما النباتات الراقية فهي حقا أشبه بالأمة التي فيها جماعات كل جماعها عمل كرجال اللالىة والسكرية والزراعة
والتجارة والطب الخ ، وكذا أن كل فوج من هؤلاء في الجمية الإنسانية لاقيمة له مستقلا ، هكذا كل فوج من
خلايا الخلايا إذا استقل فإن خلاياه تموت :

وسرى في سورة الواقعة عند آية : « إنهم كانوا قبل ذلك مترفين الخ » أن الأمم كلها كانت أقرب إلى خط الاستواء ، كانت أكثر تعرضاً للأمراض ، وكلما بعدت عنه كانت أبعد عن تلك الأمراض . وذلك أن الرطوبة والشمس بهما تنتشر الأمراض في الأول ، وعلى ذلك إذا لم تقم كل جماعة بما يحفظها من حفظ البلاد كدرس حال الجو وحال الحشرات وأسبابها والوقاية منها فإن الأمراض تسكّر وتضعف الأمة كما يهلك النبات الرقيق بكسل جماعات منه وضعفها .

فما سمع صاحبي ذلك . قال : أريد أن تشرح لي أولاً النبات ذا الخلية الواحدة ، وبعد ذلك تشرح لي النبات المركب من خلايا كثيرة منه ؟ فقلت : أذكرك بما مر في سورة حم فصلت في المجلد التاسع عشر عند آية : « ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة » فإنك ترى هناك البكتريا وأنواعها مرسومة مختلفة الأشكال وبها الحياة وبها الموت « فلولاها لم يكن نبات مما نقتنع به لأنها هي التي تفتت المواد الغذائية لتكون صالحة لأن يمتصها النبات ؛ ومنها تكون الجراثيم الفتالة للهلكة لنوع الإنسان ، ولكن منافع هذه الأنواع أكثر من ضررها . لذلك أبقاها الله في الأرض ، ومن النبات الدقيق الفطري الذي هو خلية واحدة الخبيرة ونحوها هذا هو الذي تقدم .

فحين إذن لا نعيده هنا فإنه موضع هناك أي إيضاح . فقال نعم . فقلت : إذن نرجع إلى ما نحن فيه ونشرح تركيب ساق الشجرة ، فإذا كان النبات المركب من خلية واحدة قد تقدم شرحه فلنتعم الآن النبات المركب من خلايا ، ونبدأ بشرح ساقه سواء أكان النبات من ذوات الفلقتين أم من ذوات الفلقة الواحدة فذوات الفلقتين مثل : الكراب ، والقنبيط ، والفجل ، واللفت ، والشليك ، والتفاح ، والكثيرى والشمش . والخبوخ ، والكركز ، والبرقوق ، والورد ، والباذنجان ، والطماطم ، والتبغ ، والبطاطس والفلفل ، والسنت ، والقناب ، والبيخ ، والسنجية ، والنمر هندي ، والخروب ، والسنامكي ، والفول البلدي ، والفول الرومي ، والفاصوليا ، والعدس ، والحلبة ، والحمص ، والفول السوداني ، واللويبا ، والسلة ، واللباب ، والترمس ، والبرسيم البلدي ، والبرسيم الحجازي ، والقطن ، والبامية ، والحجازي واللوف ، والحنظل . فهذه كلها من ذوات الفلقتين .

أما ذوات الفلقة الواحدة فذلك مثل : البصل ، والثوم ، والكراث البلدي ، والسكرات أبو شوشه والهلجون ، والصبار ، والتخل ، والدوم ، وجوز الهند ، والقمح ، والأرز ، والذرة الشامية ، والذرة العويجة الرقيقة ، والشوفان ، والشيلم ، والذخن ، والدنبيه ، وقصب السكر ، والخاب .

فقال : هذا حسن ، قد عرفت ذوات الفلقة الواحدة وذوات الفلقتين ، وكنت أود أن أعرف ذلك من قبل ولكن الحمد لله على نعمة العلم ، فأريد الآن أن تشرح في شرح ساق كل منهما لأنك شوقني إليه ، فإني أرى الفول والفاصوليا والعدس والحلبة والحمص مثلاً وآكلها ، ولكن لا أعرف كيف يكون تركيب ساقها ومن العار أن يكون الجمال حاضراً أمامنا ونحن عنه غافلون كالعلميان أمام الغادات الحسان ! فقلت : إن النبات ذا الفلقتين تكون أول طبقة منه براها الإنسان :

(١) ما يسمى (كيونين) وهي مادة شفاقة مرنة ، تمتع نفاذ الماء والهواء ، وبذلك تنق النبات تأثير الجفاف من زيادة بحر مائه الداخلي ، وقد يكون الكيونين مميكا في النباتات التي تعيش في المناطق الجافة ورفيما في النباتات التي تعيش في المناطق الرطبة ، هذه هي الطبقة الأولى : ثم قلت :

(٢) الطبقة الثانية : البشرة المركبة من طبقة مميكا خلية واحدة ، وهي خلايا متلاصقة حية ، وليست بينها مسافات .

(١) وهذه البشرة قد تمتد منها شعر رفيع ، وكل شعرة من خلية أو خلايا ، وقد يفقد الشعر ما في داخله فيحتل به الضوء فيظهر كأنه أبيض ، وتارة تكون فيه مادة لازعة تحافظ على النبات مما يأكله ، فهي له وقاية حقيقية .

(ب) وفي هذه البشرة ثقب ، وتسمى ثقورا ، وظيقتها أن يدخل منها الهواء ويخرج .

(٣) الطبقة الثالثة : القشرة وخلاياها رقيقة جدا ، بينها مسافات ، وتارة تكون خلاياها سداسية الشكل تقريبا .

(٤) الاسطوانة الوعائية ، ويلها كتل مثلثة الشكل ، مرتبة على شكل دائرة ، وهي قطاعات عرضية للحزم الوعائية .

(٥) الحزمة الوعائية .

(١) وفي أعلاها حواجز تشبه الغريال تسمى الحواجز الغريالي ، وتسمى اللحاء .

(ب) وفي أسفلها من جهة مركز الساق قسم يعرف بالخشب أو الزيلم .

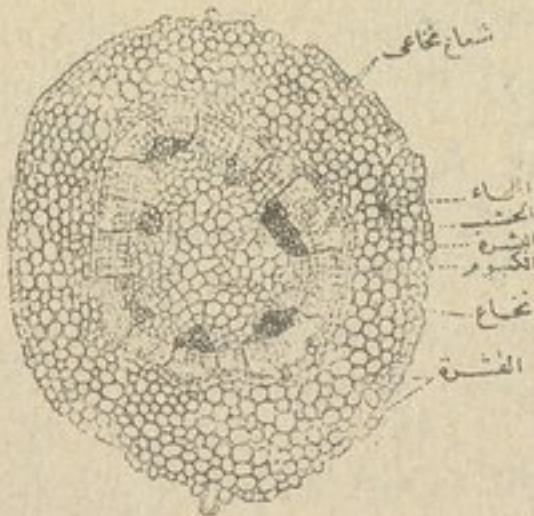
(ج) ويفصل اللحاء عن الخشب قسم يسمى (الكيمبوم) .

(د) وخارج اللحاء قد تكون هناك ألياف ، وهذه قد تتكون منها أسطوانة كاملة حول الحزم الوعائية .

(٦) النخاع .

(٧) أشمة نخاعية وهي تصل القشرة بالنخاع بواسطة خلايا تمر بين الحزم الوعائية .

فقال صاحبي : هذا حسن ولكني لم أفهم منه شيئا ، لأنها أقوال وتعريفات صامتة ، وهذه سبعة أحوال وقد دخل أحوال أخرى تبلغ نحوها في العدد ، فأرجو إيضاح هذا بالأشكال . فقلت : (انظر شكل ١١)



(شكل ١١ - قطاع عرضي في ساق حديثة)

فهذه ظهر فيها : الشماع

النخاعي ، واللحاء ، والخشب

والبشرة ، والكيمبوم ،

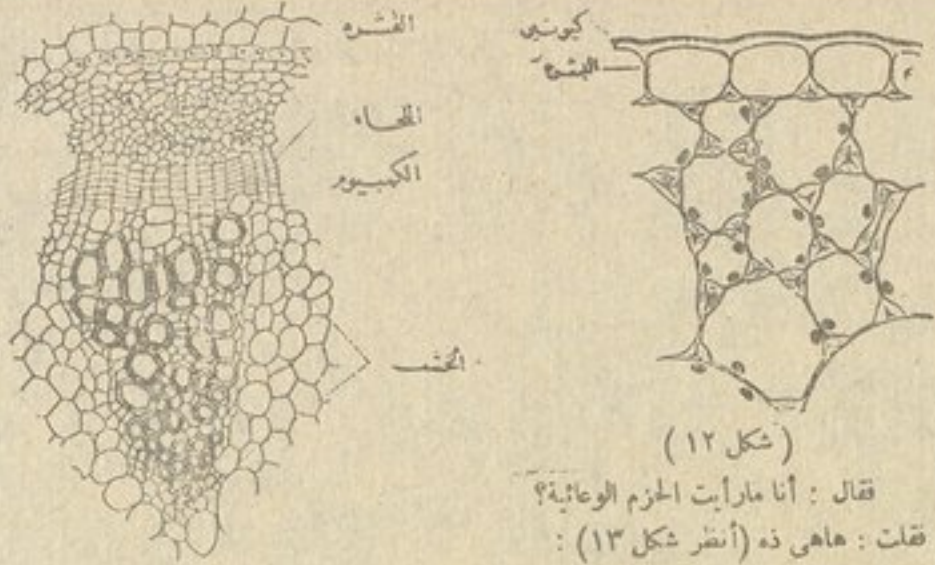
والنخاع ، والقشرة . فقال :

ولكن أين (الكيمبوم) ذلك

الذي يحفظ للزرع ما فيه من

للحاء إلى آخر ما تقدم . فقلت :

(انظر شكل ١٢) في الصحيفة الآتية



(شكل ١٢)

ققال : أنا مارأيت الحزم الوعائية؟
قلت : هاهى ذه (أنظر شكل ١٣) :

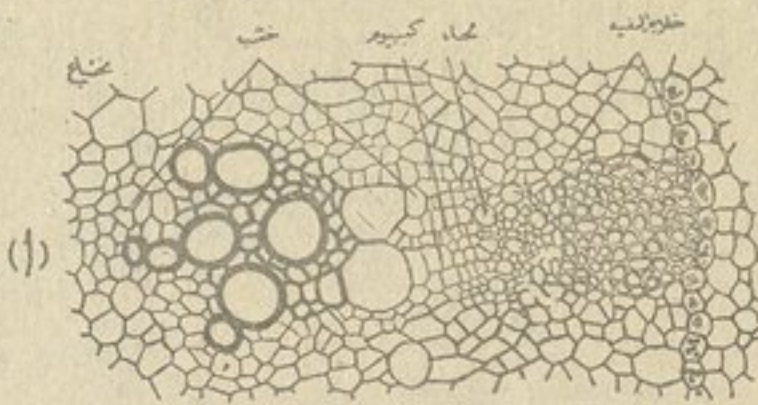
(شكل ١٣ - قطاع عرضى فى حزمة وعائية صغيرة)



(شكل ١٤ - حاجر غربالى) ←

ققال ، وأين الحاجر الغربالى ؟ قلت هاهو ذا (أنظر شكل ١٤)

ققال : ولكن أين الخلايا الليفية ؟ قلت (انظر شكل ١٥)

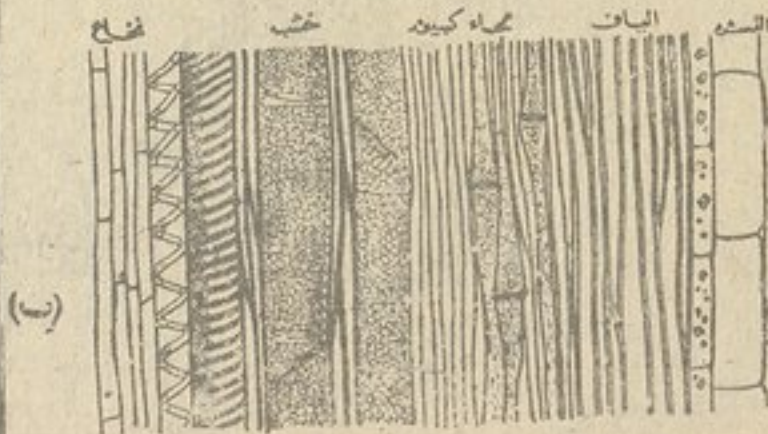


(أ)

(أ) قطاع عرضى فى
حزمة وعائية ، وبرى الألياف
بجوار اللحاء .

(ب) قطاع طولى فى
نفس الحزمة .

ققال . قد فهمت سوق
النباتات ذات الفلقتين ،
ولكنى أريد أن أمتحنها
بنفسى فى الخارج . قلت :



(ب)

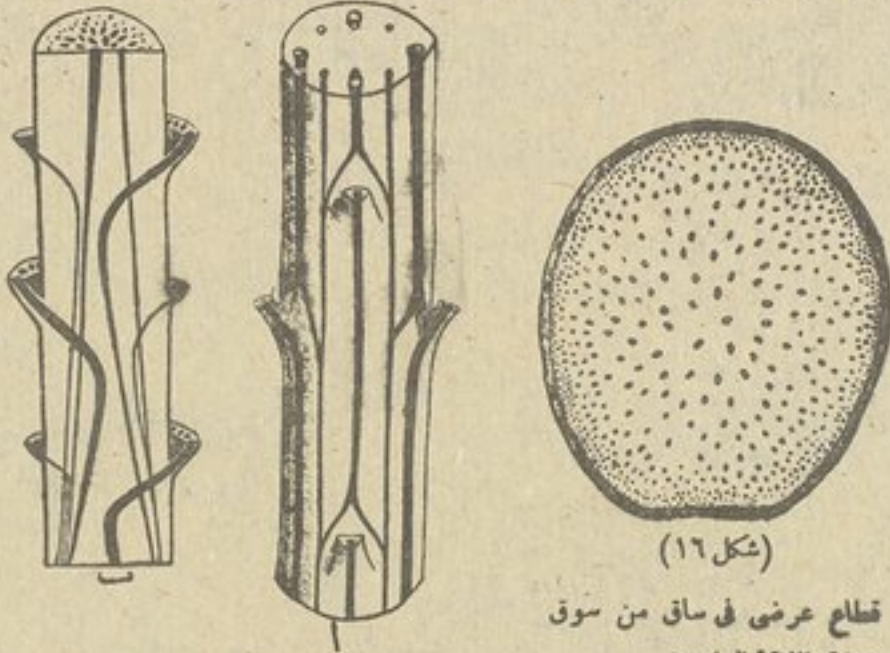
من السهل الليسور مشاهدة
الحيوط الليفية التى تمتد طولاً
فى ساق نبات رخو كالحلبة أو
للوخية بإزالة ما يحيط بها من
الأنسجة الرخوة ، ويعرف
مجموع تلك الألياف فى الساق
بالاسطوانة الوعائية ، والحيط
الواحد بالحزمة الوعائية ،
وتقوم هذه الحزم الوعائية

(شكل ١٥)

بتوزيع الأغذية المختلفة في النبات ، ومن السهل أيضا مشاهدة الأنسجة الرخوة التي تحيط بالاسطوانة الوعائية من الداخل والخارج ، فالنسيج الذي في داخل الاسطوانة ويشغل الجزء للرزي من الساق يسمى (النخاع) والذي يحيط بالاسطوانة من الخارج يسمى (القشرة) وتتلف الساق من الخارج بنسيج شفاف رقيق مكون من طبقة واحدة من الخلايا يعرف بالبشرة كما في شكل ١١ للتقدم قريبا .

قال : وكيف تكون هيئة النباتات ذى الفلقة الواحدة ؟ قلنا : الحزم الوعائية في سوق ذوات الفلقتين مرتبة على شكل دائرة منتظمة ، أما في سوق ذوات الفلقة الواحدة فانها كثيرة العدد مبشرة بغير نظام واضح (انظر شكل ١٦ ، ١٧) .

ولذلك لا يمكن تمييز مناطق القشرة والاسطوانة الوعائية والنخاع بوضوح فيها ، وزيادة على ذلك فإن



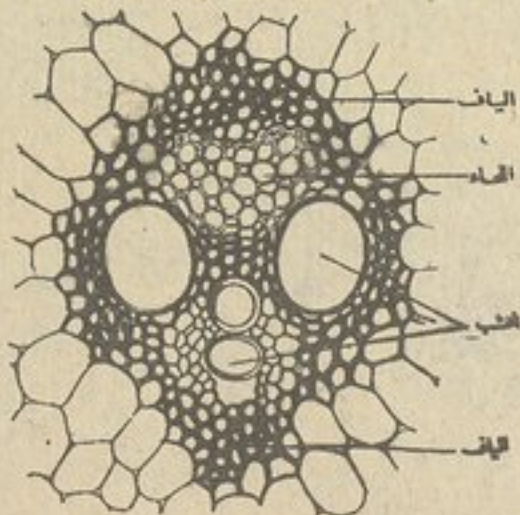
(شكل ١٧)

(أ) يبين سير الحزم الوعائية في ساق ذوات الفلقتين .

(ب) يبين سير الحزم الوعائية في ساق ذى الفلقة الواحدة .

حزم سوق ذوات الفلقة الواحدة خالية من السكبيوم (انظر شكل ١٨)

قال صاحبي : أريد أن أعرف بين نمو ساق النبات ذى الفلقة الواحدة وساق النبات ذى الفلقتين قلنا .. إن ساق النبات ذى الفلقتين يزداد في السمك عاما بعد عام إلا في بعض أحوال شاذة ، انظر شكل ١٩) مثلا في شجر الجوز ، أو النخيل أو السنط ، وكلها من ذوات الفلقتين ، يلاحظ أن أطراف الأفرع (أى أحدث أجزاء الساق سننا) رفيعة ، وأنها تأخذ في الغلظ كلما اقتربت من أسفل الساق (أى جزء الساق الأكبر سننا) ، أما في النخل وهو من ذوات الفلقة الواحدة ، فيلاحظ أن غلظ الساق متساو تقريبا على طول النبات ؛ وذلك لعدم حصول ذلك في السمك .



(شكل ١٨ - قطاع عرضي في حزم متوالية من ذوات الفلقة الواحدة)



الحلقات السنوية شكل ١٩

الخلايا الخشبية التي تتكون في الربيع تكون كبيرة الحجم ، رقيقة الجدر ، وذلك لأن النبات يحتاج في فصل الربيع (أى في فصل النشاط الذي يلي فصل السكون إلى مقدار وافر من العصارة لنمو أوراقه وأزهاره الخ . أما في فصل الخريف فتكون خلايا الخشب صغيرة الحجم ضيقة غليظة الجدر ، وذلك لعدم احتياج النبات إلى مقدار كبير من العصارة في ذلك الوقت بعد أن يكون قد آتم نموه السنوى وبدأ يستعد لطور السكون . وفي الربيع التالى تتكون الخلايا الخشبية الواسعة مرة أخرى . ولذلك يلاحظ في القطاع العرضى للساق السنة حلقات ناشئة من وجود خلايا خشبية صغيرة مجاورة لخلايا خشبية كبيرة (شكل ١٩) وكل حلقة من هذه الحلقات تدل على مقدار نمو سنة كاملة ، ولذلك تسمى بالحلقات السنوية ، ويمكن تقدير عمر الساق إذا عمل فيها قطاع عرضى وعدت حلقاته السنوية شكل ١٩ ثم ٢٠

وتشاهد الحلقات السنوية في سوق النباتات التي تتساقط أوراقها في أواخر الخريف . وخصوصا في البلاد التي فيها فارق عظيم بين درجتى حرارتها في الصيف وفي الشتاء ، أما في الأشجار المتديمة الاخضرار فمن الصعب تمييز هذه الحلقات . وذلك لأن النمو يستمر طول السنة تقريبا .

يقال صاحبى : كفى ما تقدم في ذوات الفلقة وذوات الفلقتين إجمالا ولكنى أريد أن أعرف شيئا قليلا عن

الهلوط
السور
الصنوبر

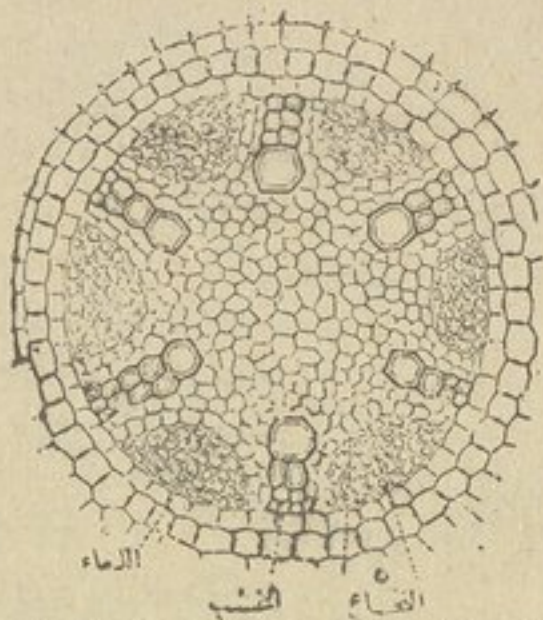
(شكل ٢٠) شكل الخشب في أشجار مختلفة . لاحظ الحلقات السنوية . والغلاف

تركيب الجذر؟ فقلت: إن الجذور بطول الكلام عليها، ولكن أذكر منه أمرا واحدا: وهي النطقة الداعمة فيه (انظر شكل ٢١).

فقال: أنا الآن أكتفيت بما تقدم في تشريح النبات، فأرجو أن أعرف أقسام المملكة النباتية. فقلت: هي أربعة تعرف كل منها بالمجموعة النباتية وهي:

- (١) مجموعة النباتات الثالوسية.
- (٢) مجموعة النباتات الحزازية.
- (٣) مجموعة النباتات السرخسية.
- (٤) مجموعة النباتات البذرية.

ثم قلت: أما النباتات الثالوسية فهي التي تقدمت في سورة فصلت، وقد عرفت أنها ملخص ما هناك فإن فيها البكتريا والفطر (بضم الفاء، والطاء)، والطحالب، وهذه كلها واضحات هناك فأرجع إليها، فإنك تعرف أكثر مما هو حاضر (شكل ٢١ - قطاع عرضي في الإسطوانة الوعائية لجذر في ذهنك، وهناك صور جميلة توضح الموضوع. فقل: أريد معرفة النباتات الحزازية. فقلت: انظر شكل ٢٢، ٢٣، ٢٤) وهالك صورها.



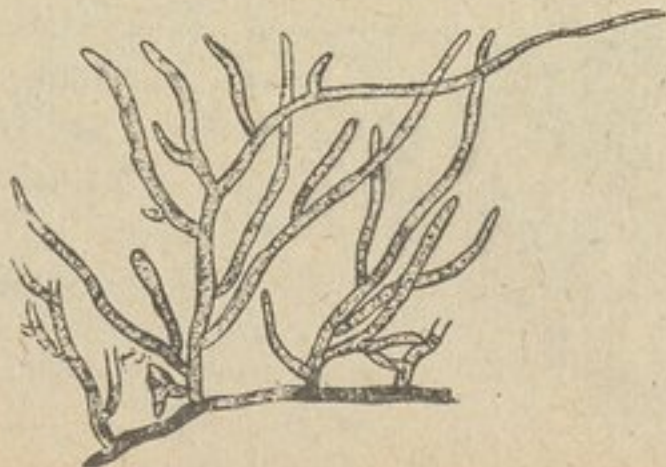
فقلت: أنا الآن أكتفيت بما تقدم في تشريح النبات، فأرجو أن أعرف أقسام المملكة النباتية. فقلت: هي أربعة تعرف كل منها بالمجموعة النباتية وهي:



شكل ٢٣ نبات حزازي قائم



شكل ٢٢ نبات حزازي منبسط



شكل ٢٤ - الحيط الأول وعليه برعم

فقال: ومماثل النباتات السرخسية؟ فقلت انظر شكلي ٢٥، ٢٦ في الصفحة التالية



(شكل ٢٥ - أحد النباتات السرخسية الشجرية)

قال لم يبق إلا الكلام على النباتات البذرية . قلت : الكلام عليها يطول ولكن نختصره هنا فنقول :
تعتبر النباتات البذرية أرقى الجماع النباتية ، وتمتاز نباتاتها بتكوين البذور من البويضات التي تكون في
أعضاء خاصة تعرف بالأزهار ، وتنقسم النباتات البذرية إلى قسمين رئيسيين : -
(١) النباتات المعراة البذور : وهي التي تكون بويضاتها ممرضة للخارج ، ولا تحاط بغلاف خاص
(مبيض) كالسنوبر والسرو ، ونباتات هذا القسم في الغالب خشبية ، وكانت عظيمة الانتشار في العصور
الجيولوجية الغابرة ، غير أنها أخذت في النقص والاضمحلال بعد نشوء النباتات المغطاة البذور .
(٢) النباتات المغطاة البذور : وهي التي تحاط بويضاتها بغلاف خاص مقفل كالصندوق يسمى للبويض :
وهذا القسم من النباتات البذرية له أهمية اقتصادية كبيرة ، إذ أن معظم نباتات المحاصيل تابع له . وتنقسم
النباتات المغطاة البذور إلى : -

(١) النباتات ذوات الفلقة الواحدة ،

(٢) النباتات ذوات الفلقتين .

وتختلف نباتات هذين القسمين من عدة وجوه ، والجداول الآتية يبين أهم مواضع الاختلاف :

موازنة بين النباتات ذوات الفلقة الواحدة وذوات الفلقتين

ذوات الفلقة الواحدة

لأجنتها فلقة واحدة

الحزم الوعائية لا تحتوي على كيبوم بين الخشب واللحاء ، وهي مبسطة بدون نظام خاص في الساق ،

لا تزداد سوقها في السمك إلا في أحوال نادرة وبطريقة تختلف عما في ذوات الفلقتين .

المروق عادة متوازية ، وفي النادر شبكية .

أجزاء الزهرة ثلاثية أو مكررات ثلاثة .

وإلى هنا تم الكلام على المقالة الأولى ، والحمد لله رب العالمين ،

المقالة الثانية في قوله تعالى : تبصرة

اللهم إنا نحمدك على توفيقك ، وإلهامك ، وإسعادك ، وأمدادك ، ها نحن أولاء باربنا عرفنا إبداعك في نباتك :

(١) فإني أبدعت في تركيبه بحيث جعلت في كل ساق مجموعات من النسيج الخلوي ، ولكل مجموعة

منها عمل خاص ، فهي إذا أشبه بهيئة دولة لكل طائفة منها عمل ، وليس في عملك معطل : « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين » .

(٢) وأزراكي أبدعت البشرية (انظر شكل ١١) بحيث جعلت خلاياها متلاصقة تمام التلاصق : وجعلت

ما يلي الهواء أغلظ مما سواه لتقدر على تحمل ما يحيط بها ،

(٣) وجعلت الكيوتين لمنع الماء من البحر .

(٤) وجعلته مميكا في البلاد الحارة رقيقا في غيرها .

(٥) وإذا كانت هذه البشرية قد أعدت لمنع دخول ما هو خارج عنها لحفظ النبات ، والنبات لا يصبر عن

الهواء الخارجي ، فقد قضت الحكمة أن تكون فيها ثقب يدخل منها الهواء لحياة النبات .

(٦) ثم كيف كانت نفس هذه البشرية مزروعة بشعر يخرج منها فيحفظ بكثرته ما في باطن النبات من

الماء ، ويمنع تأثير الضوء الخارجي ، فالشعر إذن ذو منفعتين داخلية وخارجية ،

(٧) ولما كانت البشرية وشعرها لا تكفي لمنع الحيوان قضت الحكمة أن يكون في الشعر مادة يكرها

الحيوان فيحفظ النبات .

(٨) ياليت شعري : ماهذه السكتل الثلاثة للرتبة على هيئة دائرة في الحزم الوعائية (شكل ١١) وما هذا

التنظيم الجميل ؟

(٩) ثم ماهذا الخشب (شكل ١٥) الذي ينقل العصارة من الجذور إلى الأوراق وغيرها ، إذن هو

في النبات قائم مقام القطار في سكة الحديد ، أو الراكب السريعة لنقل الميرة .

(١٠) ثم ماهذه الفرايبيل (شكل ١٤) التي تنقل ما تم نضجه في الأوراق كالمادة السكرية ونحوها إلى

أجزاء النباتات الأخرى ، فهذه الفرايبيل أشبه بالخدم يقدمون الطعام إلى ساداتهم .

(١١) ثم ماهذه الألياف ؟ وما هذا المسمى (الكيبوم) الذي يتحول تارة إلى لحاء وتارة إلى خشب

(شكل ١٥) فيزداد الساق غلظا ، إذن هو أشبه بمقوم لما نرفع عليه بيوتنا ، فهو مقوللساق ، والساق

يرتفع عليه البنيان .

(١٢) ثم ماهذه الحلقات السنوية (شكل ١٩) و (شكل ٢٠) .

(١٣) ثم ماهذه الحلقات التي جمعت مخازن لنحو السكر والنشاء والزيت .

(١٤) عناية جليظة وأمر بديع ، وهنا نسائل أنفسنا : ماهذه الأعمال كلها ، وماهذه البدائع ، أعراس وآفة وأفراح ، وزينة منصوبة ، جلل الله الذي غشي على عقولنا فلم نعرف هذه الزينة البديعة ، شمس نضى ونورها يمتد على الأرض ، وبه حياة النبات ، ولكن النبات إذا أحس بشدة ضوئها ظهر له شعر كشم الإنسان ، وذلك الشعر يحميه من شدة ضوئها كما يساعد البشرة في حفظ الماء في داخل النبات من البحر . هذه أعمال عجيبة وجميلة ، لم كانت هذه كلها ، إنما كانت لأجل حياتنا نحن في الأرض ، ربع مليون من أنواع النبات ، وكلها ذات أفراح وأعراس وجمال وبهجة ، وكلها لأجلنا نحن ، ثم إننا نرى في أنفسنا من العجائب والبدائع أضعاف مائة في النبات ، والآن هذه القرنية في العين (انظر هذا المقام مفصلا في سورة آل عمران وفيما تقدم في هذه السورة قريبا فهي أكثر تفصيلا : تلك القرنية الشفافة ، ومن تحنها العنكبوتية والقزحية ، وإنسان العين في وسطها ، ثم ماهذه البلورية ، وهي السماة أيضا عدسية وجليدية أيضا ، ثم ماهذه الرطوبة البيضاء في أول العين ، والرطوبة الزجاجية التي بعد العدسية ، ثم ماهذه الشبكية والشيمية والصلبة ، تلك الطبقات والرطوبات المنتظمة التي أدهش العلماء بنظامها الدقيق ، وإذا كنا نرى النبات قد حفظت الشعرات النابتة على البشرة ما فيه من ماء ، ومنعت عنه ما يزيد من الضوء ، وهكذا نرى في البشرة ثغورا مدخلا في النبات الهواء ، فهكذا رأينا أهداب العين حفظتها من دخول الغبار وإن أباحت دخول الضوء ، وساعد على ذلك شعر الحواجب .

سبحانك اللهم . وبمحمدك ، أنت القدوس ، قدست أن تفعل بلا حكمة ، صنعت هذه النباتات كلها ، وجعلتها خوادم لنا ، وأودعت فينا حكما لا حد لها كلها للحفاظ على حياتنا ، إذن حياتنا أمر عظيم ، وكيف لا يكون عظيما ، وهذه العين كما سبق قد كانت أوصاف وضعها ، وقد رأيت بالرسم أن الشبكية مع أنها لا يزيد ثقلها عن الورقة مقسمة عشر طبقات ، وفي آخرها أسطوانات ومخروطات تعد بالملايين كاهن جملنا لأجل أبصارنا ، هذا كله لحياتنا نحن .

الله أكبر : حياتنا لا قيمة لها وآفة إلا بأن نعلم هذه العجائب ، وهذه هي التبصرة المذكورة في الآية ، فدراسة هذه العجائب تقوى عقولنا وتكون لنا بصائر ، وتتمرن على النظام والحكمة ، وتنفع قوانا وننفع أنفسنا ، هذه هي التبصرة ، ولهذا المعنى نجد هذه العلوم تدرس اليوم في أوروبا وأمريكا واليابان . لماذا ؟ لتعطيهم التبصرة فلذلك ارتقوا في الحياة ، إن الإنسان عند مشاهدة هذه الحكم يكون مطلعا على أعمال معلم النبيين والمدرسين في الأرض ، بل الإنسان إذا شاهد للكوت بنفسه .

رجال أوروبا وقواد شعوب أمريكا كلهم يدرسون أمثال هذا بهيئة أوسع ، وهذا عين قوله تعالى : «تبصرة» والإنسان بدون تبصرة لا قيمة لحياته . ذلك أن هذه النباتات ونحوها للوزعات على الأرض لم تخلق لأجل الطعام واللباس والدواء فحسب ، وإنما هذه المذكورات مغريات بالدراسة ، والدراسة توسع العقول وهو المقصود ، وهذا معنى التبصرة ، فعلى المسلمين أن يدرسوا هذه العلوم جميعها في المدارس الثانوية كما تدرس في جميع الأمم حولنا لنفهم قوله تعالى : «تبصرة» . فأف لمن مات وهو بهذه العجائب جهول ، وأف للأمم الإسلام بعدنا إذا هم أمهلوا ما ذكرناه . وأقول وأنا واثق بما أقول : أن أمم الإسلام بعدنا خير أمة أخرجت للناس ، وسيكون رقي الإنسانية على أيديهم ، وهذا الكتاب من مقدمات نهضتهم ، وآفة هو الولي الحميد .

الغالة الثالثة في قوله تعالى : « وذكري لكل عبد منيب »

عرفنا إجمال علم النبات ، وعرفنا كيف كان بصيرة فلم يبق إلا أن نفهم معنى الذكري ، درسنا النبات وعرفنا عجائبه ، وازدادت بصائرنا فصارت عقولنا راجحة لأنها مرتت على مآراته من الحكمة ، فهي لا محالة تكون حكيمة في أقوالها وأفعالها ، ولكن نفوسنا الشريفة العالية بعد هذا كله تقول : لكل مخلوق نتيجة وما نتيجتي أنا ؟ ، والإجابة على ذلك أن نتائج أرواحنا أنها تذكر : أي تذكر عالمها الذي أخرجت منه ، إن اللادة جميعها فقط ضوئية أصلها كهارب ، والكهارب نواتج من موجات في بحر الأثير ، وهذه الأضواء صارت مواد تراها مختلفة الأشكال وهي غليظة ، ولكن أرواحنا أرقى منها ، فهي جاءت من عوالم أرقى ، فهذه الدروس تذكرها بعالمها ، وهو عالم الجمال والحكمة .

إيضاح هذا المقام

اللهم إنك أنت اللهم المعلم خلقتنا وخلقت فينا برحمتك آلاما تسوقنا إلى الغذاء والكساء والدواء ، ثم خلقت حولنا ٢٥٠ ألف نبات وأبدعتها ، وقلت لنا : « هاؤم اقرءوا كتابية » فقرأناه فوجدنا عجبا ! وجدنا أننا نعمل لازالة هذه الآلام ، وفي أثناء ذلك نجد عندنا أمرا عجيبا ! وهي لذات نحس بها في نفوسنا من الدراسة ، وهذه اللذات نوع آخر شريف نحس به عقولنا كما نحس بالطعام معدتنا ، نرى الناس ماداموا أحياء لا يسعدون إلا بصور تدخل عقولهم فتفرحهم ، وهكذا جميع المدارس والديانات والعلوم الرياضية والطبيعية والروايات والشعر والنثر ومخادئات الإخوان ، وقراءة الجرائد والأخبار ، ولن نرى أحدا في الأرض يشبع من دخول الصور عقله كل لحظة ، لأن التفكير لا يقف لحظة ، ولا معنى للتفكير إلا بصور ذهنية ، وكما تنوع النبات فكان منه ما يعتمد على الأرض ، ومنه ما يوضع فوق عروش ، ومنه شجر ، ومنه نجم ! أي لاساق له وهو أنواع شتى ، وكل منها له غرض في حياتنا ، هكذا الصور الذهنية ، فالسمع أعد لمدارس العالم كلها وللروايات والمخادئات ، والبصر أعد لصور العوالم كلها ، وأمامه كل نبات ، وكل حيوان ، وبحر وبر فهذه كلها ترسل صورها والبصر يتقبلها ويرسلها للنفس فتغذي بها ، النفس لا تقبل كل صورة أرضية وسماوية من منظار العين ، وكل صورة مصدرها منطلق اللسان وحركات الهواء والأمواج والموسيقى ، وتقبل الروائح من الأنف وأنواع اللذات من حاسة اللمس والتذوق . إذن هنا صور لاحد لها غذاء لأرواحنا ونحن لانعلم أنها غذاء لنا ، أولا لأنها كثيرة جدا فغفلنا عنها كما غفلنا عن الهواء المحيط بنا ومنفسته ، وثانيا لأنها لا يصحب غيبتها آلام كآلام الجوع والعطش بغية الطعام والشراب بل يكون الشوق بدل الألم ولا حياة للإنسان بدونها بل هي ملازمة له مادام حيا ، إذن الناس يظنون خطأ أن غذاءهم الوحيد إنما هو الطعام ، وفاتهم أن عقولهم تتوارد عليها الصور دائما ، فغذاؤها دائم لا مقطوع ولا ممنوع ماداموا في الحياة وهو أكرم لهم من الطعام ، وهذه الحال أشبه بضرب مثل للذات الناس في عالم الأرواح ، لأن الروح لا تغذاء لها أفضل من العلم والحكمة إذا كانت من الأشراف العظماء ، غاية الأمر أن الصور هناك لا سخافة فيها كسخافة الصور العقلية لدى النفوس الضعيفة في الأرض فهم يشتمون بالأعداء فيظنون أنهم سعداء بهذه الشهادة وهم غافلون فهذا غذاؤهم كما تغذى القيران والحشرات بالقاذورات .

أما الأرواح الشريفة العالية بعد اللوت فإنها تتوارد عليها صور جميلة عليية ، وهذا الذي نراه في عجائب العين نوع منها ، فهذه كما أنها غذاء نقول شريفة هنا هكذا تكون تغذيتها أعظم للروح إذا خلصت من الجسم ويشير إليه ماورد في الأخبار أنهم يلهمون التسييح كما نلهم نحن النفس ، وما هو التسييح ؟ هو التنزيه والله منزه عن القس في أفعاله فتكون أفعاله كاملة ، وهذا هو السكال والحكمة ، هذا الذي تقدم

في النبات ونحوه نموذج لحكمة الله تعالى ، وهذه الحكمة هي التي بها تنزه الله عن النقص في فعله ، وهذه اللذة العلمية بحسبها الناس الآن في الدنيا ، بل يرونها أعظم اللذات ، فهي هي حقائق التسييح ، فالتسييح اللفظي عنوان عليه وإلا فلامعنى لحقيقة التسييح إلا بأمثال ما ذكرناه والله يقول : «سبح لله ما في السموات وما في الأرض» الخ ، ويقول : «يسبح لله ما في السموات وما في الأرض» الخ .

التسييح والتحميد والتكبير

جاء في الحديث : «إن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وعراسها سبحان الله والحمد لله والله أكبر» وجاء في القرآن : « وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » والسلم يسبح في كل ركوع وسجود ، ووزاء الصلوات ، وقبل طلوع الشمس ، وقبل غروبها ، وقبل النوم يسبح ويحمد ويكبر ٣٣ مرة بعد الصلاة ، فهذا التسييح والتحميد والتكبير عراس الجنة ، ونسمع علماءنا رحمهم الله يقولون : «إن تسبيح المخلوقات باللفظ كما يسبح العقلاء ونحن لا نسمع» ويقول آخرون : كلا. بل هو تسبيح بلسان الحال. واعلم أن الناس ماداموا على شاطئ بحر العرفة فإنهم يختلفون كما يختلف الصيادون وهم على شاطئ نهر أو بركة في كثرة الأنماك وقتها بحسب استعداد كل منهم والعلامات التي يراها ، فاسمع الحقائق الواضحة ودع القشور ، هذا التفسير فيه من كل فاكهة من فواكه العلم زوجان ، فاعجب لما ذكرتك به أنفا كيف ترى هذب العين وشعرات الورق تمنع شدة الضوء عن العين وعن النبات ، وكيف تكون مادة (الكيوتين) حافظة للماء في داخل النبات كما يحفظ لون القرزية الصور الداخلة في العين من التشويش كما رأيت مبرهنا عليه في أول هذه السورة في تفسير البسملة مع آية « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج » :

وها هنا حكمة ومعها آلاف الحكم كبرت وستر في هذا الكتاب ، ألت أيها الذي تحس في نفسك متى طاب الوقت ، وصفا الزمان ، وخلوت من للشاغل الشاغلة لك أنك أسعد من على الأرض لأنك كأنك في حضرة الجمال والحكمة ، ألت ترى في نفسك بهجة لم يحلم بها إلا أمثالك في ذلك الجمال والحكمة ، وعلى ذلك تكون حياة الحكيم للعجب بهذا الجمال في الدنيا حياة فوق كل حياة ، والناس في الأرض جميعا تتبع لهذه الطائفة المنازة بصفاء البصيرة والحكمة ، إن العين وطبقاتها ، والنبات وعجائبه ، وكل نظام منظور ومسموع يحدثنا حديثا حقا ويقول : أتم شهدتم الحكمة ، وشهدتم النظام ، وهذا الحديث الذي نسمع به هو سر التسييح ، لأن العقل خلا يشهد شهادة عيان أن العالم في غاية النظام ، وإذن منظمه حكيم ، وهذا النظام المحكم نتج عن نعم لاحد لها ، وهذا هو الحمد بعينه ، فالتسييح والتحميد متلازمان ، وهذا هو السر في قوله تعالى : «وسبح بحمد ربك» إذ لامعنى لتزيهه عن النقص إلا بالكمال ، فآله منزه عن النقص في أفضاله ، وذلك بالحكمة في النظام ، والحكمة في النظام نجم عنها نعم كثيرة ، وهي التي تستوجب الحمد ، ومع هذا كله فهذه النعم وهذه الحكم كلها شيء يسير بالنسبة لصانع العالم ، فإذا يقال : الله أكبر : هذا هو السر في طلب التسييح والتحميد والتكبير في كل آن في الدين الإسلامي ، إذن هذه بذور بذرت في بلاد الإسلام : كما أن الله عز وجل أودع في نباتات البرية وغيرها بذورا ، وأمر الرياح أن تحركها فحرت هنا وهناك ، ونبئت في أما كن شتى لمنفعة كل حيوان ، ولكن رجال الطب الذين يعرفون قيمة هذه الحشائش أندر من الكبريت الأحمر ، ونظيرهم هنا في التسييح والتحميد رجال الحكمة الدارسون العلوم الذين سيكترون بعد ظهور أمثال هذا التفسير : ولكنهم قوام هذه الأمة ، وهم هم الذين عرفوا سر التسييح والتحميد ، وهم الذين يهيمون سر الحديث الشريف : « وأن الجنة عراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر » ويقولون

إن الجنة للجهلاء وصغار العلماء تكون قريبة من الجنات الحسية ، وهؤلاء يكتفون بظواهر التسييح وهو العبادة بتكرار اللفظ في التناسبات المتقدمة ، والعامية لهم درجات عند ربهم ونعمة وهم بها فرحون .
أما أكابر الأمة فهم هم الذين شهدوا هذا النظام ، وأصبحوا في نعمة لاحد لها ، مبدؤها في الدنيا وبعد اللوت مباشرة يحسون بما لاحد له من النعيم لأن أرواحهم تفرغت لما كانوا يشقون في الدنيا ، إذن التسييح اللفظي في الحقيقة أشبه بمقدمة للتسييح الحقيقي الذي يفقهه الحكماء في الإسلام .

اعتراض على المؤلف وجوابه

فلما اطلع على هذا صديق العالم الذي اعتاد عمادتي في هذا التفسير . قال : ماذا تقول في التسييح الدباغ ؟ قلت : لقد نقلت عنه في التفسير كثيرا ، وهو رجل مفتوح عليه فقال إنه يخالفك فإنه يقول إنه كان في بداية أن فتح عليه يستحم في ماء فسمع أصواتا لاحصر لها تسيح الله ، نخرج يجري من فوره ، وسمع أصوات الأحجار بلفظ مختلفات ، وسمع حجرا منها له أصوات مختلفات في التسييح ، ثم بحث عنه فعرف أنه معجون من أحجار كثيرة .

فهذا دليل على أن تسييح المخلوقات لفظي . قلت : أولا نحن لا ندرى هل هذا القول المنسوب له ورد عنه أم لا ؟ وإن كان في نفس الكتاب . ثانيا أنه سمع ذلك وهو في أول أن فتح عليه ، وما هذه الأصوات المختلفة بالتسييح إلا كتسييحنا نحن ، وما تسييحنا إلا ألفاظ تدل على معان ، وامتلاء عقولنا بالمعاني المفصلة هو المطلوب كما أن تسييح هذه العوالم يقصد منه ماوراءه وهو أنها تعرف هذه المعاني على التسليم بأنها تمقل وما تسييح هذه المخلوقات أمام المفتوح عليهم إلا خوارق للعادات ، وخوارق العادات غير مقصودة للحكماء الأمم الإسلامية وعقلائها ، والقرآن صرح بأنه لا مدار عليها ، فرجع الأمر إلى أن للسبحين بعد أن كانوا عددا معلوما وهم بنو آدم أصبحوا أعدادا لانهاية لها ، وإذا كان تسييح السليبين العقلاء أنفسهم لقيمة له إلا بدلوله ومدلوله هي هذه العلوم التي ندرس بعضها في هذا التفسير ، فإذن التسييح الحقيقي لكل عاقل من ملك وإنس وجن إنما هو ماشرحنا بعضه في هذا الكتاب ، إذن التسييح اللفظي إنما هو نموذج والتسييح الحقيقي هو التصود ، فإذا سمعنا الله يقول : سبح لله ما في السموات وما في الأرض» وإذا سمعناه يقول : «يسبح له ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم» عرفنا أن هذا هو معناه ، فأما عقلاء بني آدم فإن تسييحهم اللفظي مقدمة لهذا التسييح فليسبح للسلمون في جميع الأوقات » فهذا عبادة في حد ذاته ، وأكابرهم يصلون للحقائق وينعمون بها إخوانهم في الدنيا والدين ، كما أن نبات الأرض غذاء لكل حيوان ، وبنو آدم له زارعون ، وعلماء النبات في نوع الإنسان كحكماء الإسلام في أمة الإسلام .

قال صاحبي : هذا حسن ولكن أليس الكلام على التسييح والتحميد كان الأليق به آخر (سورة الطور) عند قوله تعالى : «وسبح بحمد ربك حين تقوم» الآية ، أو أول (سورة الحديد) : «سبح لله» الخ قلت نعم إن هذه المعاني كلها خطرت لي وأنا أشاهد المزارع خارج القاهرة وكانت مقرونة بهاتين الآيتين اللتين ذكرتهما ، ولكني بعد ذلك حين قدمت هذه السورة للطبعة وجدت أن الآية في هذه السورة يعوزها الكلام على النبات ، ووجدت المناسبة تامه جعلتها في هذا اللقاه لهذه المناسبة . فقال : وهنا سؤال آخر ، وهو : هل آية «وأنبثنا فيها من كل زوج بهيج» يعوزها هذا كله ؟ قلت نعم وأكثر منه . فقال : ولكن المتقدمون لم يطيلوا في مثل هذا كما أطلت أنت ، قلت : أطلوا أكثر مما أطلت أنا ، فقال : وكيف ذلك قلت : إن آباءنا كانوا يحكمون الأمم فاحتاجوا إلى العلوم التي بها يضبطون تلك الأمم فكان علم الفقه إذ نبغ أمثال إمامنا الشافعي وأبي حنيفة ومالك وابن حنبل وزيد وأئمة الشيعة رضي الله عنهم أجمعين فسطروا ملوكهم ،

واقاموا الدين بالقسط ، ولم يدعوا العامة يتخبطون في ديجور الظلام ، بل سهلوا لهم أحكام الأفراد من صلاة وصوم وغيرها ، فهم رحمهم الله أفادوا وأجادوا فبما يحفظ كيان دولهم ، ويحفظ العبادات ، ونحن جئنا في زمان وجدنا الأمم الإسلامية كثيرة ، والأحكام مدونة ، والعلماء كثيرون والحمد لله ، ووجدنا الأمم في الأرض قد ارتقت مداركها ودرست هذه العلوم ، ووجدنا القرآن أهم بها اهتماما عظيما ، فرأيت بل أيقنت أنني يجب على أن أؤلف لهذه الأمم الإسلامية أعظم علوم الاسلام لكي تترك لعلماء الإسلام وجدنا الطريق مهيأة ، ليربوا هذا الشعب المسكين الترية التي لم تكن لتحدث في الزمان الماضي لأن الأمم لم تكن مستعدة لها ، والقرآن جاءنا بأمرين اثنين : أولهما نظام الأمم وحكمها ونهذيتها ، وثانيتها تربية العقول تربية راقية عليية حكيمية . ولما كانت الفرس والروم أيام النبوة قد اختلت دولهم ، وورث للسلمون أرضهم وديارهم ، ونساءهم وأموالهم ألهم علماءهم وأئمتهم أن يمينوا بلوكهم بتلك الأحكام ، ويمينون المحكومين بما يجب عليهم في أحوالهم الخاصة فنفعوا عباد الله ، ثم دالت دولهم ، وأصبحنا اليوم نرى أمما وأممنا وعلومنا وعلمنا ، فلنفضل نحن في هذه العلوم لتربية الأفراد والأمم مافله آباؤنا في تلك الأحكام (وبجارية أصرح) إذا رأينا آيات الطلاق المعدودات ، وآيات الدين وغيرها تؤلف لها كتب تعد بالآلاف عند الطوائف المختلفة ، وذلك كان واجبا في ذلك الزمان ، فهكذا نحن في زماننا نعمل مافله آباؤنا في زمانهم بعد أن أعوا ما عليهم ، وإذا سمعنا الشافعي رضي الله عنه يستخرج من آية : « فاعتبروا يا أولى الأبصار » نحو ريع الأحكام الشرعية وهو القياس ، ويقول إنها توجب علينا القياس ، وإذا رأينا آية الوضوء نستفد جهد العلماء في التأليف وتشغلم شغلا عظيما فأولى ثم أولى ثم أولى منها آية « والأرض مدناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » . إن الوضوء شرط للصلاة ، والصلاة للتيسيح والتحميد ، والتيسيح والتحميد نتيجتهما هذه للمعارف ، والعلوم والمعارف هي المحبوبات في نحو هذه الآية ، وأنا واثق جد واثق ، بل كأني أشاهد أمامي أمم الإسلام في أقرب زمن وفيها بعد إلى ماشاء الله ، وهم يدرسون كل علم ، ويرون أن مانكتبه الآن إن هو إلا مذكرات لما يدرسون ، ومقدمات لما يعلمون ، ونور لما هم به مستبصرون ، والله من وراءهم محيط . والله بكل شيء عليم ، وفوق كل ذي علم عليم ، والحمد لله رب العالمين . انتهى يوم الثلاثاء ٦ أكتوبر سنة ١٩٣١ م .

جمال العلم وبهجة الحكمة

ها نحن أولاء درسنا أعيننا وعجائبها ، والسماء وسمنها وكواكبها ، فإذا كانت أعيننا لاحد لعجائبها ، وهي مركبة في أجسامنا المشتقة من أرضنا فكيف تكون عجائب أرضنا ! هي بالأولى لاحد لها ، ونذكر منها قلام من جبل بعد ما كتبناه فيما سبق في هذا التفسير مثل ما جاء في تفسير قوله تعالى : « وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب » وغيرها ، فنشرح وادي الموت وغور الشيطان والجليد الخ :

(١) أما وادي الموت فهو في الجنوب الشرقي من أمريكا ، وما دخله أحد إلا مات لشدة حرارته ، فلا يعيش فيه نبات ولا حيوان ، ولكن فيه كنوز عجيبة ، وما هي هذه الكنوز ؟ هي (البورق) وقد كشفه رجل اسمه (هارون وترس) كان يسكن بعيدا عن ذلك الوادي بمئات الأميال ، فذكر له رجل أنه إذا مزج البورق بمادة كباوية معلومة اشتعل بلهب أزرق ، فتذكر راسبا أيضا في طرف ذلك الوادي ، فسار هو وزوجته ٢٠٠ ميل ، وابتاعا بعض ذلك من الأمريكيين المر ، وامتنحن ذلك الراسب الأبيض ، فوجد لهما أزرق ، فطار فرحا ، وباع هذا الكشف بخمسة آلاف جنيه ، ولقد وجدوا في ذلك الوادي

مناجم كثيرة للبورق ، ولكن الصعوبة في نقله ، لأنه يميت من بدخله ، وقد مدوا لوادى الموت سكة حديدية ، وأنشئت قرية للمعال في نفس الوادى ، وفيها بناء طوله ٨١٦ قدما ولهم فيه ٢٠٠ غرفة للنوم ، فيه جميع مايلزم للراحة ، وغرفة للمائدة تسع ٢٠٠ نفس ، والآجر الذى بنى به ذلك البناء قليل التوصيل للحرارة ، وإذا كانت درجة الحرارة في الظل هناك تبلغ ١٢٠ درجة فهي في غرف النوم لم تزد عن ٨٩ درجة ، لأنهم يردون هواء البناء بجمعه يمر في رشاش الماء ، ويستخرجون من ذلك الوادى كل سنة ١٢٠ ألف طن من البورق ، وهى تساوى نصف مليون جنيه ، وإذا يميت في بلاد الانجليز فانها تساوى ستة ملايين وستائة ألف جنيه ، هذا ماجاء في كتاب العلم والعمران ، وهل لك أيها الأخ الذكى أن تتذكر ما تقدم في (سورة إبراهيم) إذ ذكرت لك هناك «البحر الميت» وأن ثروته أكبر من ثروة جميع المسلمين الآن في الأرض ، وقد جهلها المسلمون وعرفها القرنجة وهم يستخرجونها ، وها هو ذا وادى الموت الذى لا يصلح للحياة ظهر أنه كثر عظيم ، وهذا هو قوله تعالى : « والأرض فرشناها فنعم الماهدون » وقوله تعالى هنا « والأرض مددناها » الخ نعم الله بمدوح على عميد هذه الأرض ، فالمعادن الجميلة النافعة يجعل استخراجها صعبا ، والمزارع يجعلها في غاية السهولة ، وما أشبه إدراك الحقائق التى يجعلها أكثر الناس إلا بالبحر الميت في فلسطين ووادى الموت في أمريكا ، كلاهما يعرفه الناس في حال جهالتهم ولكنهم ينظرون إليه بالسخرية والاستهزاء ، فإذا جاء أهل العلم استخراجوا ما يشاءون من الكنوز ، هكذا أعيننا وأجسامنا والكواكب حولنا ، يراها العالم والجاهل على حد سواء ، فالجاهل يحقر البحث في هذه العجائب والعالم هو الذى يعرف قيمتها ويصرف تقيس عمره في المعرفة كما تحسنت انكثرا مشاق الحرب العظيم ، وبلغت مآربها في البحر الميت ، وكما صرفت الشركة الأمريكية آلاف آلاف الجنيهات في استخراج كنوز وادى الموت وهو البورق الكثير هناك .

أيها الذكى . اصرف عمرك كله في استخراج حقائق العوالم فانت سعيد بذلك الاستخراج وقوم يدك سيقبلونك في ذلك ، وآخرون يستخرجون منافع الأرض كالتى في وادى الموت والتى في البحر الميت ، فهذه كنوز أقل من كنوز العلم ، ونفس ما نكتبه الآن وأمثاله كما بحث الناس على الأطنى يمنهم على الأدنى ، ولسلك من الناس درجة في عمله والله هو الولى الحميد .

(٢) (غور الشيطان) : أما غور الشيطان فهو غور في أرض صخرية بولاية (اريزونا) من ولايات أمريكا حيث الارتفاع (٦٠٠٠) قدم عن سطح البحر وهو كبير مستدير ، قطره نحو ١٣٠٠ متر وعمقه ١٧٥ مترا ، وهذا الغور إنما حصل بسبب جرم سماوى مزق ما وقع عليه من الطبقات الصخرية وأحدث هذا العمق الواسع ، وكانت سرعته تزيد على سرعة رصاص البنادق ٥٠ ضعفا ، فكسر الصخور الصلبة وسحق الهشة ، فانتشرت الكسر والسحق حول الغور في أرض مساحتها ٧٥ ميلا مربعا ، ولقد زحزح طبقات الصخور المجاورة فارتفعت من جهة وانخفضت من جهة أخرى ، وحول هذا الغور حجارة نيزكية ومغناطيسية ، وكلها فيها الحديد والنيكل والبلاطين والأردييوم ونحوها من المعادن الثمينة ، ولقد تألفت شركة منذ عشرين سنة لحفر بئر يصل إلى الجسم النيزكى الذى أحدث هذا الغور ، وقد صرفت الشركة أكثر من مائة ألف جنيه ، وأوصلت البئر إلى ١٤٠٠ قدما ، وهناك أصابت جسما أشد صلابة من الفولاذ ، لا تضل فيه القنابل وترتد عنه ارتداد الحصى عن الصخر ، وهذا الجسم العجيب النيزكى الذى ترى هذه الشركة أنه كثر عظيم ، يقدر قطره بنحو ٣٠٠ قدم ، ويقدر ثقله بمليون طن ، وبعضهم يجعل قطره أربعة أمثال ما ذكر ، ولما أصاب الأرض وغار فيها أخرج منها ما ثقله أكثر من ٣٠٠ مليون طن وبئر ما حوله .

(٣) الكلام على الجليد والفحم القطبي : إن العصر الجليدي الأخير الذي أصاب الجانب الشمالي الغربي من أوروبا : أعنى أرنلدا واسكنلندا وأسوج وزوج والباطيك ، كان قبل التاريخ بين ٣٠ ألف سنة ، و١٨ ألف سنة ، ودام إلى ٦٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، إن القطب الجنوبي قد كشفت فيه طبقات ضخمة سمكها كلها ١٥٠٠ قدم على الأقل ، ومن حيث العرض ٨٥ درجة على بعد ٥ درجات من القطب الجنوبي وبعض هذه الطبقات رقيق جدا ، ووجدت آثار الجذور في الطين الذي وجد مع الفحم الحجري ، وذلك دليل قاطع على أن تلك الأصقاع كانت حارة وكانت الأشجار تغطيها عسورا متطاولة ، وذلك على مقتضى انتقال القطبين ، انتهى الكلام على اللطيفة الثالثة في آية : «والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي» الخ والحمد لله رب العالمين .

هاهنا ثلاث جواهر

- الجوهرة الأولى في بهجة العلم في قوله تعالى : «وأنبثنا فيها من كل زوج بهيج» .
- الجوهرة الثانية في قوله تعالى : «تبصرة وذكرى لكل عبد منيب» .
- الجوهرة الثالثة في قوله تعالى : «ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد» .

الجوهرة الأولى

بهجة العلم في قوله تعالى : «وأنبثنا فيها من كل زوج بهيج»

سيأتي في (سورة الداريات) الكلام على الذكور والإناث من النبات ، وأن علماء النبات حاروا في تقسيمه ، فإن قسموه بواسطة ما يرون من شجرات وشجيرات وأنهم ، وهى الزروع المعروفة التي لاساق لها فإن ذلك التقسيم لا يفيد وكيف يفيد إلا بتحديد الأقسام تحديدا تاما ، وإن قسموه بواسطة أنه نبات سنوي وغير سنوي كما سيأتي ، فهذا غير كاف ، لأن الرسم مثلا وحده بعضه سنوي وبعضه غير سنوي ، فإذن قد التجأوا أخيرا إلى دراسة الزهرة والحب والفاكهة فانتظمت الأقسام حينئذ ، ورأوا أيضا أن من الأزهار ما يكون ذكرانها على شجرة وإناثها على شجرة أخرى كما سيأتي إيضاحه هناك ، وذلك كشجر النخل فإذا كان بين النخلة والأخرى مسافة بعيدة ، فإن الهواء يحمل الطلع من الذكر إلى الأنثى ، والإنسان لا علم له بهذا «فتبارك الله أحسن الخالقين» .

حكاية

جاء في كتاب (الآيات البيئات ، في علم النباتات) للأستاذ أحمد أفندي ندى مانصه : «إن التلقيح في النباتات ذات المسكنين يمكن حصوله من بعد عظيم ، وهناك عدة أمثلة نافذة لبيان هذه الظاهرة فكان منذ زمن طويل يستنبت شجرتان من الفستق الأنثى ، وكانت كل شجرة منهما تحمل كل سنة أزهارا ولا يتصل منهما ثمار أصلا ، فتعجب للعلم (جوسيو) لما رأى أن هاتين الشجرتين قد انعدت ثمارها ونضجت على ما ينبغي في سنة من السنين ، ومن ذلك الوقت خطر بباله أنه لا بد أن يكون ياريز أو في أكنافها شجرة فستق ذكر حاملة لأزهار ، فشرع في البحث عن ذلك ، فعرف أن شجرة فستق ذكر أزهرت أول مرة في جنيحة تربية النباتات الكاثنة بقرب (لو كسامبور) فأتى الطلع المحمول بالهواء من فوق أبنية جزء من باريز ولقع نبات الإناث ، وهناك نبات يسمى (السنيرياسيرالس) أى الحاروني الذي هو نبات ذومسكنين (من الفصيلة البشنيية) ينبت بمقدار عظيم في الترع وفي القنوات ، ففي هذا النبات ظاهرة عجيبة جدا في زمن تلقيحه ، وهى أن يكون النبات موضوعا في قاع الماء أى قاطنا فيه تماما ، وذكره وإناثه تنبت مختلطا بعضها ببعض ، فالأزهار الإناث المحمولة على ذنبيات زهرية طولها قدمان أو ثلاثة تقريبا ، وملتفة على هيئة

حلازون تأتي على سطح الماء لكي تنبسم ، وأما الأزهار الذكور فشكل جملة منها تكون موضوعة في لعافة غشائية وهي محمولة على ذنيب زهري قصير جدا ، فإذا آتى زمن النقيح تنفتح وتمزق اللعافة القرطاسية ، وتفصل من حاملها الزهري العام ، وتأتي على سطح الماء فتبسم وتفتح الأزهار الإناث ، وبعد زمن يسير تنزل هذه الأزهار الإناث تحت الماء ، ثانيا بالتفاف اللبنيات الزهرية الحلزونية التي تحملها ، وفيه تصل ثمارها إلى نضجها التام « انتهى » .

أقول : وهذا من أعجب العجب ! إن هاتين العجبتين فتحت لنا أبواب علوم كثيرة ، كيف لا وهذه شجرة الفستق كانت لاثمر وهي أنثى ، ولكن لما ظهرت شجرة فستق ذكر جاء لها الطلع منها فأثمرت . إن هذه الدنيا جميلة وبديعة ، أليس هذا من أعجب الإبداع ، يلقح النبات من نبات آخر والناس لا يعلمون وكيف يكون البشنيين نابتا في برك بلادنا ونحن ننظر إليه نظرة جاهلة لأنه ينبت في البرك ولكننا نراه يضحك وهيئة أزهاره جميلة ، وهل كان يدور بخلدنا ونحن نلهو ونلعب في حال طفوليتنا أن هذه الزهرة الضاحكة للستبشرة هي الأنثى ، وأن الذكران قد انتبذوا مكانا قويا في قاع البركة ، وأنهم وقت الإلقاح هم بدورهم سيخرجون من أجداثهم سراعا وهم فرحون مستبشرون ، فيجدون هؤلاء العانسات واقفات منتظرات قدومهم فيحصل الإلقاح في أمن وأمان ، ولم يبق لهؤلاء الذكران من فائدة ، أما الإناث فانهن ينزلن إلى قاع البركة ، وهناك يتم نمو الثمرات «تبارك الله أحسن الخالقين» . «وفي الأرض آيات للموقنين ، وفي أنفسكم أفلا تبصرون» . «ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون» فلتذكر في أمر السياسة وتقول : إن الله الذي خلق النبات هو نفسه الذي خلق الأمم ، ولقد يخيل لي الآن أن في الشرق عقولا وتلك العقول كانت منقطعة في قاع بركة هذه الدنيا ، كأن ذكران البشنيين كانت ملتفة بأغشية في قاع بركة الماء وهامو ذا اليوم أقبل الزمان الذي فيه تظهر تلك العقول من أغشيتها وتلقى على العالم دروسا كاظهت ذكور البشنيين في وقت الإلقاح .

إن للشرق لصولة فوق صولة الغرب ، ومن هذه العجائب نفهم قوله تعالى : «لكل أجل كتاب» . وقوله : «إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير» . وقوله : «وكل شيء عنده بمقدار» . وإذا كان لقاح البشنيين بمقدار فهكذا لقاح عقول الشرقيين له زمان لا بد منه ، وهل اللقاح غير التعليم الله أكبر إن من أنواع اللقاح في الشرق الكتب والجرائد المنتشرة اليوم ومنها هذا التفسير ، إن لقاح العقول الشرقية اليوم حاصل ، والشرق ينل كما تنل القردور : «وربك يخلق ما يشاء ويختار وهو اللطيف الخبير» انتهى يوم الأربعاء أول يونيو سنة ١٩٣٢ م .

الجوهرة الثانية

في قوله تعالى : تبصرة وذكري لكل عبد منيب

رباه : جعل فمك ، وحسن قولك ، كم تنفياً لظلال الأشجار ، ونجلس في الحقول . ونأكل من الفاكهة والحب ماله وطاب ، نعيش ونموت ونحن غافلون عن الجمال ، وعن الحكمة ، وعن عجائب الإبداع ، كم من ورق تحيط به أوبار ونحن ننظرها ولا ندرى ما حكمها ، تشرق الشمس وتغرب ، ويطلع القمر ويأفل ونحن نشاهد تلك الأوراق الكاسيات بتلك الأوبار ، ولا ندرى لماذا كانت هذه الأوبار أو الأشعار ، نظرت في كتاب (جمال الطبيعة) للورد أفيري صفحة ١٠٩ فآلفيته شرح هذا الموضوع شرحا واضحا ، فاستبان به أن الورب أعدته العناية الإلهية ، إما ليقى النبات من شر هاجم من خارج النبات ، وإما ليكون حافظا لما في النبات من قوة حيوية بها بقاؤه ونظام حياته ، فأما أول الأمرين فذلك .

- (١) إن من النبات ما تعرضه الحيوانات السامة فتقطع عليه حياته فيكون ذلك الوبر وقاية له .
 (٢) ومنه ما تهاجمه الحشرات فيكون ذلك الوبر حصنا حصينا .
 (٣) ومنه ما يحيط به الرطوبة فتكاد تهلكه لولا ذلك الوبر الكاسي للأوراق .
 (٤) ومنه ما تلج عليه حرارة الشمس فيكون ظل تلك الأوبار حافظا النبات من البوار كما يحفظ جسم الإنسان من الحر بالملايس : « وجعل لكم سراويل تقيكم الحر وسراويل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون » .
 ولو علم المسلم أن نعمة الملايس ليست خاصة به ، بل هناك ملايس تحفظ النبات من الهلاك ليكون نعمة له أيضا ومتاعا لحر صمقا ولدهش من تلك العناية التي تحبر الأبواب : هذا هو الأمر الأول .
 أما الأمر الثاني فذلك أن من النبات ما ينبت في الصحراء فتلج عليه الشمس فيتطاير منه البخار ، فما الذي يحفظ حياة النبات إذن إذا خرج بالراح الشمس بقية الرطوبة في ذلك النبات ؟ أعد الله تلك الأنايب الشعرية الوبرية ، فهي المانع من ذلك البحر فيعيش ذلك النبات . هذه نبذة من معنى قوله تعالى هنا « تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » .
 أيها المسلمون : لا حياة إلا حياة العلماء ، والجاهلون جميعا موتى ، فليكن الإنسان علما أو متعلما أو مستمعا أو محبا كما في الحديث ، وليحذر أن يكون كارها للعلم فذلك من الأخسرين ، والحمد لله رب العالمين . انتهى الكلام على الجوهرة الثانية .

الجوهرة الثالثة

في قوله تعالى : ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد
 لقد تقدم الكلام على هذه الآية في (سورة الحجرات) وقد ذكرنا هناك عشرة من آفات اللسان من (إحياء علوم الدين) للفرزالي رحمه الله ، وكذلك بعض غوائل الأعمال القلبية من كتابنا (جوهر التقوى) وأرجأنا بقية ما في الإحياء وما في كتاب (جوهر التقوى) إلى هذا المقام هنا في سورة ق فلتبدأ بالكلام على ما في الإحياء فنقول :

الآفة الحادية عشرة : السخرية والاستهزاء

وهذا محرم مهما كان مؤذيا كما قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن » ومعنى السخرية الاستهانة والتحقير والتنبه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه ، وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول ، وقد يكون بالإشارة والإيماء ، وإذا كان بحضرة المستهزا به لم يسم ذلك غيبة ، وفيه معنى الغيبة ، قالت عائشة رضي الله عنها : (١) « حاكيت إنسانا فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم والله ما أحب أني حاكيت إنسانا ولي كذا وكذا » وقال ابن عباس في قوله تعالى : « يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها » : إن الصغيرة التبتيم بالاستهزاء بالمؤمن ، والكبيرة القهقهة بذلك ، وهذا إشارة إلى أن الضحك على الناس من جملة الذنوب والكبائر . وعن عبد الله بن زمة (٢) أنه قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو

(١) حديث عائشة : « حاكيت إنسانا فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم ما يسرفني أني حاكيت إنسانا ولي كذا وكذا » أبو داود والترمذي وصححه .

(٢) حديث عبد الله بن زمة : « وعظهم في الضحك من الضرطة وقال علام يضحك أحدكم مما يفعل »

يخطب فوعظهم في ضحكهم من الضرطة فقال علام يضحك أحدكم بما يفعل » وقال صلى الله عليه وسلم (١) « إن السهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة فيقال لهم لهم فيجىء بكر به وغمه فإذا أتاه أغلق دونه ثم يفتح له باب آخر فيقال لهم لهم فيجىء بكر به وغمه فإذا أتاه أغلق دونه فما يزال كذلك حتى إن الرجل ليفتح له الباب فيقال له لهم لهم فلا يأتيه » . وقال معاذ بن جبل (٢) قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من غير أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يعمله » وكل هذا يرجع إلى استحقاق الغير والضحك عليه استهانة به واستصغار له ، وعليه نبه قوله تعالى : « عسى أن يكونوا خيرا منهم » أى لا تستحقروه استصغارا فلعلمه خير منك ، وهذا إنما يحرم في حق من يتأذى به ، فأما من جعل نفسه مسخرة وربما فرح من أن يسخر به كانت السخرية في حقه من جملة المزاح ، وقد سبق ما يذم منه وما يمدح ، وإنما المهرم استصغار يتأذى به السهزأ به لما فيه من التحقير والتهاون ، وذلك تارة بأن يضحك على كلامه إذا تخطى فيه ولم ينتظم ، أو على أفعاله إذا كانت مشوشة كالضحك على خطه وعلى صنعه أو على صورته وخلقته إذا كان قصيرا ، أو ناقصا لعب من العيوب ، فالضحك من جميع ذلك داخل في السخرية للنهي عنها . انتهى الكلام على الآفة الحادية عشرة ، والحمد لله رب العالمين .

الآفة الثانية عشرة : إفشاء السر

وهو منهي عنه لما فيه من الإيذاء والتهاون بحق للعارف والأصدقاء ، قال النبي صلى الله عليه وسلم (٣) « إذا حدث الرجل الحديث ثم التفت فبى أمانة » وقال (٤) مطلقا (كذا) « الحديث بينكم أمانة » وقال الحسن إن من الحيانة أن تحدث بسر أخيك . وروى أن معاوية رضى الله عنه أسر إلى الوليد بن عتبة حديثا فقال لأبيه يا أبت إن أمير المؤمنين أسر إلى حديثا وما أراه بطوى عنك ما بسطه إلى غيرك قال فلا تحدثني به فإن من كتم سره كان الخيار إليه ، ومن أفشاه كان الخيار عليه ، قال قتلت يا أبت وإن هذا يدخل بين الرجل وبين ابنه فقال لا والله يا بني ولكن أحب أن لا تذلل لسانك بأحاديث السر ، قال فأثمت معاوية فأخبرته فقال يا وليد أعتقك أبوك من رق الخطأ إفشاء السر خيانة ، وهو حرام إذا كان فيه إضرار ، ولؤم إن لم يكن فيه إضرار . وقد ذكرنا ما يتعلق بكتمان السر في كتاب آداب الصحبة فأغنى عن الإعادة . انتهى الكلام على الآفة الثانية عشرة ، والحمد لله رب العالمين .

الآفة الثالثة عشرة : الوعد الكاذب

فإن اللسان لم يبق إلى الوعد ، ثم النفس ربما لاتسمع بالوفاء فيصير الوعد خلفا ، وذلك من أمارات النفاق ، قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » وقال صلى الله عليه وسلم

(١) حديث : إن السهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة فيقال لهم لهم فيجىء بكر به وغمه فإذا جاء أغلق دونه ، الحديث « ابن أبي الدنيا في الصمت من حديث الحسن مرسلا ، ورويناه في ثمانيات النجيب من رواية أبي هذبة أحد المهالكين عن أنس .

(٢) حديث معاذ بن جبل : « من غير أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يعمله » . الترمذى دون قوله قد تاب منه وقال حسن غريب وليس إسناده بمتصل قال الترمذى ، قال أحمد بن منيع قالوا من ذنب قد تاب منه .

(٣) حديث : « إذا حدث الرجل بحديث ثم التفت فبى أمانة » أبو داود والترمذى وحسنه من حديث جابر .

(٤) حديث : « الحديث بينكم أمانة » ابن أبي الدنيا من حديث ابن شهاب مرسلا .

«العدة عطية»^(١) وقال صلى الله عليه وسلم^(٢) «الوأى مثل الدين أو أفضل» والوأى الوعد، وقد أتى الله تعالى على نبيه إسماعيل عليه السلام في كتابه العزيز فقال: «إنه كان صادق الوعد» قيل إنه وعد إنسانا في موضع فلم يرجع إليه ذلك الإنسان بل نسي فبقي إسماعيل اثنين وعشرين يوما في انتظاره، ولما حضرت عبد الله بن عمر الوفاة قال إنه كان خطب إلى ابنتي رجل من قريش وقد كان مني إليه شبه الوعد فوالله لا ألقى الله بثلاث النفاق أشهدكم أني زوجته ابنتي^(٣). وعن عبد الله بن أبي الحنفاء قال: «بايعت النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث وبعيت له ببيعة فوعدته أن آتية بها في مكانه ذلك فنسيت يومئذ والعد، فأتيته اليوم الثالث وهو في مكانه، فقال يا بني لقد شققت على أنا هاهنا منذ ثلاث أنتظرك، وقيل لابراهيم: الرجل يواعد الرجل الميعاد فلا يحى؟ قال ينتظره إلى أن يدخل وقت الصلاة التي تحيى، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٤) إذا وعد وعدا قال عسى» وكان ابن مسعود لا يعد وعدا إلا ويقول إن شاء الله وهو الأولى، ثم إذا فهم مع ذلك الجزم في الوعد فلا بد من الوفاء إلا أن يتعذر فإن كان عند الوعد عازما على أن لا يفي فهذا هو النفاق، وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم^(٥) «ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اتتمن خان». وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٦) «أربع من كن فيه كان منافقا، ومن كانت فيه خلة منهن كان فيه خلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر» وهذا ينزل على من وعد وهو على عزم الخلف أو ترك الوفاء من غير عذر، فأما من عزم على الوفاء فمن له عذر منعه من الوفاء لم يكن منافقا وإن جرى عليه ما هو صورة النفاق، ولكن ينبغي أن يحترز من صورة النفاق أيضا كما يحترز من حقيقته، ولا ينبغي أن يجعل نفسه معذورا من غير ضرورة حاجزة، فقد روى «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٧) كان وعد أبا الهيثم بن التيهان خادما فأتى بثلاثة من السي فأعطى اثنين وبقى واحد فأنت فاطمة رضي الله عنها تطلب منه خادما وتقول ألا ترى أثر الرحي بيدي فذكر مواعده لأبي

(١) حديث: «العدة عطية» الطبراني في الأوسط من حديث قباث بن أشيم بسند ضعيف وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن مسعود، ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت والخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث الحسن مرسلا.

(٢) حديث «الوأى مثل الدين أو أفضل» ابن أبي الدنيا في الصمت من رواية أبي لهيعة مرسلا، وقال: الوأى يعني الوعد، ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث علي بسند ضعيف.

(٣) حديث عبد الله بن أبي الحنفاء: «بايعت النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث وبعيت له ببيعة فوعدته أن آتية بها في مكانه ذلك فنسيت يومئذ والعد فأتيته اليوم الثالث وهو في مكانه، فقال يا بني قد شققت على أنا هاهنا منذ ثلاث أنتظرك» رواه أبو داود، واختلف في إسناده، وقال ابن مهدي: ما أظن ابراهيم بن طهمان إلا أخطأ فيه.

(٤) حديث: «كان إذا وعد وعدا قال عسى» لم أجد له أصلا.

(٥) حديث أبي هريرة: «ثلاث من كن فيه فهو منافق» الحديث وفيه «إذا وعد أخلف» متفق عليه وقد تقدم.

(٦) حديث عبد الله بن عمرو: «أربع من كن فيه كان منافقا» الحديث متفق عليه.

(٧) حديث: «كان وعد أبا الهيثم بن التيهان خادما فأتى بثلاثة من السي فأعطى اثنين وبقى واحد فجاءت فاطمة تطلب منه» الحديث وفيه «فجعل يقول كيف بموعدي لأبي الهيثم، فأثره به على فاطمة» تقدم ذكر قصة أبي الهيثم في آداب الأكل وهي عند الترمذي من حديث أبي هريرة وليس فيها ذكر لفاطمة.

لأبي الهيثم؟ فأثره به على فاطمة لما كان قد سبق بموعده له مع أنها كانت تدبر الرضى بيدها الضعيفة (١) ولقد كان صلى الله عليه وسلم جالسا يقسم غنائم هوازن بمخين فوقف عليه رجل من الناس ، فقال : إن لي عندك موعدا يارسول الله قال صدقت فاحتكم ماشئت ، فقال احتكم ثمانين ضائنة وراعيا قال هي لك وقال احتكتك يسيرا لصاحبة موسى التي دلته على عطاء . وسف كانت أحزم منك وأجزل حكما منك حين حكمها موسى عليه السلام فقالت حكى أن تردني شابة وأدخل معك الجنة ، قيل فكان الناس يضعفون ما احتكم به حق جعل مثلا قليل : أشح من صاحب الثمانين والراعي ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) « ليس الخلف أن يعد الرجل الرجل وفي نيته أن يني » وفي لفظ آخر : « إذا وعد الرجل أخاه وفي نيته أن يني فلم يجد فلا يتم عليه » . انتهى السلام على الآفة الثالثة عشرة ، والحمد لله رب العالمين .

الآفة الرابعة عشرة : الكذب في القول واليمين

وهو من قبائح الذنوب ، وفواحش العيوب ، قال إسماعيل بن واسط : سمعت أبا بكر الصديق رضى الله عنه يخطب بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال (٣) « قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقامى هذا عام أول ثم بكى وقال : إياكم والكذب فإنه مع الفجور وهما في النار » وقال أبو أمامة (٤) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الكذب باب من أبواب النفاق » . وقال الحسن : كان يقال : إن من النفاق اختلاف السر والملاينة ، والقول والعمل ، والدخل والمخرج ، وأن الأصل الذي بنى عليه النفاق الكذب . وقال عليه السلام (٥) « كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثا هو لك به مصدق وأنت له به كاذب » ، وقال ابن مسعود قال النبي صلى الله عليه وسلم (٦) « لا يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا »

(١) حديث : « أنه كان جالسا يقسم غنائم هوازن بمخين فوقف عليه رجل فقال إن لي عندك موعدا قال صدقت فاحتكم ماشئت » الحديث ، وفيه لصاحبة موسى التي دلته على عطاء يوسف « كانت أحزم منك » الحديث ابن حبان والحاكم في المستدرک من حديث أبي موسى مع اختلاف ، قال الحاكم صحيح الإسناد وفيه نظر .

(٢) « حديث ليس الخلف أن يعد الرجل الرجل وفي نيته أن يني » وفي لفظ آخر : « إذا وعد الرجل أخاه وفي نيته أن يني فلم يجد فلا يتم عليه » أبو داود والترمذي وضعفه من حديث زيد بن أرقم باللفظ الثاني إلا أنهما قالوا فلم يف .

(٣) حديث أبي بكر الصديق : « قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقامى هذا عام أول ثم بكى وقال إياكم والكذب ، الحديث » ابن ماجه والنسائي في اليوم والليلة وجعله المصنف من رواية إسماعيل بن أوسط عن أبي بكر ، وإنما هو أوسط بن إسماعيل بن أوسط وإسناده حسن .

(٤) حديث أبي أمامة : « إن الكذب باب من أبواب النفاق » ابن عدى في الكامل بسند ضعيف وفيه عمر بن موسى الوجيهي ضعيف جدا ، ويعنى عنه قوله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث من كن فيه فهو منافق » وحديث « أربع من كن فيه كان منافقا فاق في كل منهما وإذا حدث كذب » وهما في الصحيحين وقد تقدما في الآفة التي قبلها .

(٥) حديث : « كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثا هو لك به مصدق وأنت له كاذب » البخارى في كتاب الأدب للفرد وأبو داود من حديث سفيان بن أسيد وضعفه بن عدى ورواه أحمد والطبرانى من حديث النوائس ابن سمعان بإسناد جيد .

(٦) حديث ابن مسعود : « لا يزال العبد يكذب حتى يكتب عند الله كذابا » متفق عليه .

ومر (١) رسول الله صلى الله عليه وسلم برجلين يتبايمان شاة ويتحالفان يقول أحدهما والله لأنقصك من كذا وكذا ويقول الآخر : والله لأزيدك على كذا وكذا ثم بالشاة وقد اشتراها أحدهما فقال أوجب أحدهما بالإثم والكفارة . وقال عليه الصلاة والسلام (٢) « الكذب ينقص الرزق » ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن التجار هم الفجار قيل يا رسول الله أليس قد أحل الله البيع قال نعم ولكنهم يخلفون فيما يبيعون ، ويحدثون فيكذبون » . وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « ثلاثة نفر لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم : المنان بعطيته ، والنفق سلته بالخلف الفاجر والمسبل إزاره » وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « ما حلف حالف بالله فأدخل فيها مثل جناح بعوضة إلا كانت نكتة في قلبه إلى يوم القيامة » وقال أبوذر الغفاري (٥) « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة يحبهم الله رجل كان في فئة فنصب نحره حتى يقتل أو يفتح الله عليه وعلى أصحابه ، ورجل كان له جار سوء يؤذيه فصبر على أذاه حتى يفرق بينهما موت أو ظمن ، ورجل كان معه قوم في سفر أو سرية فأطالوا السرى حتى أعجبهم أن عبوا الأرض فنزلوا فتنحى يصلى حتى يوقظ أصحابه للرحيل ، وثلاثة يشنؤهم الله : التاجر أو البائع الخلاف ، والفقير المحتال ، والبخيل المنان » وقال صلى الله عليه وسلم (٦) « ويل للذي يحدث فيكذب ليضحك به القوم ويل له ويل له » . وقال صلى الله عليه وسلم (٨) رأيت كأن رجلا جاءني فقال لي قم فقمتم معه فإذا أنا برجلين أحدهما قائم والآخر جالس ؛ بيد القائم كلوب من حديد يلغمه في شدة الجالس فيجذبه حتى يبلغ كاهله ثم يجذبه ويلغمه الجالس الآخر فيمده فإذا مده رجع الآخر كما كان ففات للذي أقامني ما هذا ؟ فقال هذا رجل كذاب يعذب في قبره إلى يوم القيامة ، وعن عبد الله بن جراد

- (١) حديث مر رجلين يتبايمان شاة ويتحالفان الحديث وفيه فقال أوجب أحدهما بالإثم والكفارة أبو الفتح الأزدى في كتاب الأسماء للفردة من حديث ناسخ الحضرمي ، وهكذا رويناه في أمالي ابن ميمون ، وناسخ ذكره البخاري هكذا في التاريخ ، وقال أبو حاتم هو عبد الله بن ناسخ .
- (٢) حديث : الكذب ينقص الرزق ، أبو الشيخ في طبقات الأصهبانيين من حديث أبي هريرة ورويناه كذلك في مشيخة القاضي أبي بكر وإسناده ضعيف .
- (٣) حديث : إن التجار هم الفجار الحديث ، وفيه ويحدثون فيكذبون أحمد والحاكم وقال صحيح الإسناد والبيهقي من حديث عبد الرحمن بن شبل .
- (٤) حديث : ثلاثة نفر لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم : المنان بعطيته ، والنفق سلته بالخلف الكاذب ، والمسبل إزاره ، مسلم من حديث أبي ذر .
- (٥) حديث : ما حلف حالف بالله فأدخل فيها مثل جناح بعوضة إلا كانت نكتة في قلبه إلى يوم القيامة الترمذي والحاكم وصحح إسناده من حديث عبد الله بن أنيس .
- (٦) حديث أبي ذر : ثلاثة يحبهم الله الحديث وفيه ثلاثة يشنؤهم الله : التاجر أو البائع الخلاف أحمد واللفظ له وفيه ابن الأحمس ولا يعرف جاله ورواه هو والنسائي بلفظ آخر بإسناد جيد ، والنسائي من حديث أبي هريرة أربعة يبغضهم الله : البائع الخلاف الحديث وإسناده جيد .
- (٧) حديث : ويل للذي يحدث فيكذب ليضحك به القوم ويل له ويل له ، أبو داود والترمذي وحسنه والنسائي في الكبرى من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده .
- (٨) حديث : رأيت كأن رجلا جاءني فقال لي قم فقمتم معه فإذا أنا برجلين أحدهما قائم والآخر جالس بيد القائم كلوب من حديد يلغمه في شدة الجالس الحديث : البخاري من حديث سمرة بن جندب في حديث : طويل .

قال (١) سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله : هل يزني المؤمن ؟ قال قد يكون ذلك ، قلت ياني الله هل يكذب المؤمن ؟ قال لا ، ثم أتبعها صلى الله عليه وسلم بقول الله تعالى : إنما يفترى الكذذب الذين لا يؤمنون بآيات الله ، وقال أبو سعيد الخدرى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) يدعو فيقول في دعائه : اللهم طهر قلبي من النفاق ، وفرجى من الزنا ، ولساني من الكذب . وقال صلى الله عليه وسلم (٣) ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكهم ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، ومالك كذاب ، وعائل مستكبر . وقال عبد الله بن عامر (٤) جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بيتنا وأنا صبي صغير ، فذهبت لألعب . فقالت أُمى : يا عبد الله تعال حتى أعطيك فقال صلى الله عليه وسلم وما أردت أن تعطيه ؟ قالت عمراً . فقال : أما إنك لو لم تفعل لي كذبت عليك كذبة . وقال صلى الله عليه وسلم (٥) لو أفاء الله على نعمة عدد هذا الحصى لقسمتها بينكم ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذاباً ولا جباناً . وقال صلى الله عليه وسلم وكان منكم منكم (٦) ألا أنبيكم بأكبر الكبائر : الإشراف بالله ، وعقوق الوالدين ، ثم قعد وقال ألا وقول الزور . وقال ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٧) : « إن العبد ليكذب الكذبة فيتباعه الملك عنه مسيرة ميل من نين ما جاء به . وقال أنس (٨) قال النبي صلى الله عليه وسلم « تقبلوا إلى بيت أتقبل لكم الجنة فقولوا وما هن ؟ قال إذا حدث أحدكم فلا يكذب ، وإذا وعد فلا يخلف ، وإذا اتمن فلا يخن ، وغضوا أبصاركم ، واحفظوا فروجكم .

(١) حديث عبد الله بن جراد أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم هل يزني المؤمن ؟ قال قد يكون ذلك ، قال هل يكذب ؟ قال لا ، الحديث ابن عبد البر في التمهيد بسند ضعيف ، ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت مقتصرأ على الكذب ، وجعل السائل أما الرداء .

(٢) حديث أبي سعيد : اللهم طهر قلبي من النفاق ، وفرجى من الزنا ، ولساني من الكذب ، هكذا وقع في شيخ الإحياء عن ابن سعيد . وإنما هو عن أم سعيد . كذا رواه الخطيب في التاريخ دون قوله وفرجى من الزنا ، وزاد : وعملى من الرياء ، وعينى من الحيانة ، وإسناده ضعيف .

(٣) حديث ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم الحديث وفيه . والإمام الكذاب ، مسلم من حديث أبي هريرة .

(٤) حديث عبد الله بن عامر جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيتنا وأنا صبي صغير فذهبت لألعب فقالت أُمى يا عبد الله تعال أعطيك ، فقال وما أردت أن تعطيه ؟ قالت عمراً ، فقال : إن لم تفعل لي كذبت عليك كذبة ، رواه أبو داود ، وفيه من لم يسم ، وقال الحاكم : إن عبد الله بن عامر ولد في حياته صلى الله عليه وسلم ولم يسمع منه ؛ قلت : وله شاهد من حديث أبي هريرة وابن مسعود ورجالهما تفات إلا أن الزهري لم يسمع من أبي هريرة .

(٥) حديث لو أفاء الله على نعمة عدد هذا الحصى لقسمتها بينكم ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذاباً ولا جباناً رواه مسلم وتقدم في أخلاق النبوة .

(٦) حديث : ألا أنبيكم بأكبر الكبائر الحديث ، وفيه ولا قول الزور متفق عليه من حديث أبي بكر

(٧) حديث ابن عمر : إن العبد ليكذب الكذبة فيتباعه الملك عنه مسيرة ميل من نين ما جاء به ، الترمذى وقال حسن غريب .

(٨) حديث أنس : تقبلوا إلى بيت أتقبل لكم الجنة إذا حدث أحدكم فلا يكذب ، الحديث الحاكم في الاستدرك والحرثي في مكارم الأخلاق وفيه سعد بن سنان ضعفه أحمد والنسائي ووثقه ابن معين ورواه الحاكم بنحوه من حديث عبادة بن الصامت وقال صحيح الإسناد .

وكفوا أيديكم : وقال صلى الله عليه وسلم (١) إن للشيطان كحلا ولموقا ونشوقا : أما لموقه قال الكذب ، وأما نشوقه فالغضب ، وأما كحله فالنوم . وخطب عمر رضي الله عنه يوما فقال (٢) : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم كقيامي هذا فيكم فقال : أحسنوا إلى أصحابي ثم الذين يلونهم ثم يمشو الكذب حتى يخلف الرجل على اليمين ولم يستحلف ويشهد ولم يستشهد . وقال النبي صلى الله عليه وسلم (٣) « من حدث عني بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكذابين » . وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « من حلف على يمين بائنم ليقتطع بها مال امرئ مسلم بغير حق لقي الله عز وجل وهو عليه غضبان » . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم (٥) أنه رد شهادة رجل في كذبة كذبها وقال صلى الله عليه وسلم (٦) « كل خصلة يطبع أو يطوى عليها المسلم إلا الحياة والكذب » . وقالت عائشة رضي الله عنها (٧) : ما كان من خلق أشد على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب ، ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلع على الرجل من أصحابه على الكذب فما ينجلي من صدره حتى يعلم أنه قد أحدث توبة لله عز وجل منها . وقال موسى عليه السلام : يارب أي عبادك خير لك عملا ؟ قال من لا يكذب لسانه ، ولا يفجر قلبه ، ولا يزني فرجه . وقال لقمان لابنه : يا بني إياك والكذب فإنه شئ كالحم المصفور مما قليل يقله صاحبه : وقال عليه السلام في مدح الصدق (٨) : أربع إذا كن فيك فلا يضرنك ما فاتك من الدنيا : صدق الحديث ، وحفظ الأمانة ، وحسن الخلق ، وعفة طعمة .

(١) حديث : إن للشيطان كحلا ولموقا الحديث الطبراني وأبو نعيم من حديث أنس بسند ضعيف وقد

تقدم .

(٢) حديث : خطب عمر بالجالية الحديث وفيه ثم يمشو الكذب الترمذي وصححه والنسائي في الكبرى

من رواية ابن عمر عن عمر :

(٣) حديث : من حدث بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكذابين ، مسلم في مقدمة صحيحه

من حديث سمرة بن جندب .

(٤) حديث : من حلف على يمين ماثم ليقتطع بها مال امرئ مسلم ، الحديث متفق عليه من حديث

ابن مسعود .

(٥) حديث : أنه رد شهادة رجل في كذبة كذبها ابن أبي الدنيا في الصمت من رواية موسى بن شيبة

مرسلا . وموسى روى مضمرا عنه منا كبير قاله أحمد بن حنبل :

(٦) حديث : كل خصلة يطبع أو يطوى عليها المؤمن إلا الحياة والكذب ، ابن أبي شيبة في الصنف

من حديث أبي أمامة ورواه ابن عدي في مقدمة الكامل من حديث سعد بن أبي وقاص وابن عمر أيضا وأبي

أمامة أيضا ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت من حديث سعد مرفوعا وموقوفًا والموقوف أشبه بالصواب ، قاله

الدارقطني في العلل :

(٧) حديث : ما كان من خلق أشد على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب

ولقد كان يطلع على الرجل من أصحابه على الكذب فما ينحل من صدره حتى يعلم أنه قد أحدث توبة منها توبة

أحمد من حديث عائشة ورجالها نقات إلا أنه قال عن ابن أبي مليكة أو غيره ، وقد رواه أبو الشيخ

في الطبقات فقال ابن أبي مليكة ولم يشك وهو صحيح .

(٨) حديث : أربع إذا كن فيك فلا يضرنك ما فاتك من الدنيا : صدق الحديث ، الحديث الحاكم

والحرائطي في مكارم الأخلاق من حديث عبد الله بن عمرو وفيه ابن لهيعة .

وقال أبو بكر رضي الله عنه (١) في خطبة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل مقامى هذا عام أول ثم بكى وقال عليكم بالصدق فإنه مع البر وهما في الجنة . وقال معاذ قال لي صلى الله عليه وسلم (٢) أوصيك بتقوى الله . وصدق الحديث . وأداء الأمانة ، والوفاء بالعهد ، وبذل السلام ، وخفض الجناح .

(وأما الآثار) فقد قال على رضي الله عنه : أعظم الخطايا عند اللسان الكذب . وشر الندامة ندامة يوم القيامة . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله عليه : ما كذبت كذبة منذ شددت على إزاري . وقال عمر رضي الله عنه : أحبكم إلينا ما لم تروكم أحسنكم اسما . فإذا رأيناكم فأحبكم إلينا أحسنكم خلقا ، فإذا اخترناكم فأحبكم إلينا أصدقكم حديثا ، وأعظمكم أمانة . وعن ميمون بن أبي شبيب قال : جلست أكتب كتابا فأتيت على حرف إن أنا كتبت زينت الكتاب . وكنت قد كذبت فمزمت على تركه فسمعت من جانب البيت «يشت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة» . وقال الشعبي : ما أدري أيهما أجد غورا في النار الكذاب أو البجيل ؟ وقال ابن السكيت : ما أراي أوجر على ترك الكذب لأني إنما أذعه الله وقيل لخالد بن صبيح : أيسمى الرجل كاذبا بكذبة واحدة ؟ قال نعم . وقال مالك بن دينار : قرأت في بعض الكتب : ما من خطيب إلا وتعرض خطبته على عمه . فإن كان صادقا صدق ، وإن كان كاذبا قرضت شفاه بمقاربتين من نار كما قرضنا نبتنا . وقال مالك بن دينار : الصدق والكذب يتركان في القاب حتى يخرج أحدهما صاحبه . وكلم عمر بن عبد العزيز الوليد بن عبد الملك في شيء ، فقال له كذبت ، فقال عمر والله ما كذبت منذ جلست أن الكذب يشين صاحبه .

بيان ما رخص فيه من الكذب

اعلم أن الكذب ليس حراما لعينه بل لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره فإن أقل درجاته أن يتعد الخبر الشيء على خلاف ما هو عليه فيكون جهلا . وقد يتعلق به ضرر غيره ، ورب حمل فيه منفعة ومصالحة فالكذب محمل لذلك الجهل فيكون مأذونا فيه ، وربما كان واجبا . قال ميمون بن مهران : الكذب في بعض المواطن خير من الصدق . أرايت لو أن رجلا سعى خلف إنسان بالسيف ليقطعه فدخل دارا فأنهى إليك فقال أرايت فلانا ! ما كنت فلانا ؟ ألسنت تقول لم أراه وما تصدق به ، وهذا الكذب واجب .

فتقول : الكلام وسيلة إلى المقاصد ، فكل مقصود محمود يمكن التوصل إليه بالصدق والكذب حرما فالكذب فيه حرام وإن أمكن التوصل إليه بالكذب دون الصدق فالكذب فيه مباح إن كان تحصيل ذلك القصد مباحا ، وواجب إن كان المقصود واجبا ، كما أن عصاة دم السلم واجبة . فمهما كان في الصدق سمك دم امرئ مسلم قد اختفى من ظالم فالكذب فيه واجب . ومهما كان لا يتم مقصود الحرب أو إصلاح ذات البين أو استئالة قلب المحق عليه إلا بالكذب فالكذب مباح إلا أنه ينبغي أن يحترز منه ما يمكن ، لأن إذا فتح باب الكذب على نفسه فيحشى أن يدعى إلى ما يستغنى عنه وإلى ما لا يقتصر على حد الضرورة فيكون الكذب حراما في الأصل إلا للضرورة ، والذي يدل على الاستثناء ما روى عن أم كلثوم (٣) ما سمعت رسول

(١) حديث أبي بكر : عليكم بالصدق فإنه مع البر وهما في الجنة . ابن ماجه والنسائي في اليوم والليلة ، وقد تقدم بعضه في أول هذا النوع .

(٢) حديث معاذ : أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث أبو نعيم في الحلية وقد تقدم .

(٣) حديث أم كلثوم : ما سمعت برخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث . مسلم وقد تقدم .

الله صلى الله عليه وسلم يرخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث : الرجل يقول القول يريد به الإصلاح ، والرجل يقول القول في الحرب ، والرجل يحدث امرأته ، والمرأة تحدث زوجها . وقالت أيضا : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) : « ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا أو عي خيرا » . وقالت أسماء بنت يزيد ^(٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا رجل كذب بين مسلمين ليصلح بينهما » وروى عن أبي كاهل ^(٣) قال : وقع بين اثنين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلام حتى تصارما فلقيت أحدهما فقلت : مالك ولفلان ! فقد سمعته يحسن عليك الثناء ، ثم لقيت الآخر فقلت له مثل ذلك حتى اصطلحا ، ثم قلت : أهلكك نفسي وأصلحت بين هذين ، فأخبرت النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا أبا كاهل أصلح بين الناس أي ولو بالكذب . وقال عطاء بن يسار ^(٤) قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم أكذب على أهلي ! قال لا خير في الكذب ، قال أعدها وأقول لها قال لا جناح عليك . وروى أن ابن أبي عذرة الدؤلي وكان في خلافة عمر رضي الله عنه كان يخلع النساء اللاتي يتزوج بهن ، فطارته له في الناس من ذلك أحدونه يكرهها فلما علم بذلك أخذ بيده عبد الله بن الأرقم حتى أتى به إلى منزله ، ثم قال لامرأته . أنشدك بالله هل تبغضيني قالت لا تنشدني ، قال فإني أنشدك لله قالت نعم ، فقال لابن الأرقم أنسمع ثم انطلقا حتى أتيا عمر رضي الله عنه ، فقال : إنكم لتحدثون أني أظلم النساء وأخلمهن فاسأل ابن الأرقم فسأله فأخبره فأرسل إلى امرأة ابن أبي عذرة فجاءت هي وعمتها ، فقال : أنت التي تحدثين لزوجك أنك تبغضينه فقالت : إني أول من تاب وراجع أمر الله تعالى إنه ناشدني فتخرجت أن أكذب أفأكذب يا أمير المؤمنين قال نعم فأكذبت فإني كنت إحدا كن لا تحب أحدا فلا تحدثه بذلك ، فإن أقل البيوت التي تبغض على الحب ولكن الناس يتعشرون بالإسلام والأحساب وعن النواس ^(٥) بن سمان الكلبي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مالي أراكم تهافتون في الكذب تهافت الفرائس في النار ، كل الكذب يكتب على ابن آدم لاجتماعه إلا أن يكذب الرجل في الحرب فإن الحرب خدعة ، أو يكون بين الرجلين شحنة فيصلح بينهما ، أو يحدث امرأته رضىها » . وقال نوبان « الكذب كاهل ثم إلا مانع به مسلما ، أو دفع عنه ضررا » . وقال علي رضي الله عنه : إذا حدثتكم عن النبي صلى الله عليه وسلم فلا تخر من السماء أحب إلى أن أكذب عليه ، وإذا حدثتكم فيما بيني وبينكم فالجرب خدعة ، فهذه الثلاث ورد فيها صريح الاستثناء ، وفي معناها ما عداها إذا

(١) حديث أم كلثوم أيضا : ليس بكذاب من أصلح بين الناس ؛ الحديث متفق عليه وقد تقدم والنبي

قبله عند مسلم بعض هذا .

(٢) حديث أسماء بنت يزيد : كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا رجل كذب بين رجلين يصلح

بينهما أحمد زيادة فيه ، وهو عند الترمذي مختصرا وحسنه .

(٣) حديث أبي كاهل : وقع بين رجلين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلام الحديث وفيه : يا أبا

كاهل أصلح بين الناس ، رواه الطبراني ولم يصح .

(٤) حديث عطاء بن يسار قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم أكذب على أهلي ؟ قال لا خير في الكذب

قال أعدها وأقول لها قال لا جناح عليك ، ابن عبد البر في التمهيد من رواية صفوان بن سليم عن عطاء بن يسار مرسل ، وهو في الموطأ عن صفوان بن سليم معضلا من غير ذكر عطاء بن يسار .

(٥) حديث النواس بن سمان : مالي أراكم تهافتون في الكذب تهافت الفرائس في النار كل الكذب

مكتوب ، الحديث أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق بلفظ تنبايعون إلى قوله في النار دون ما بعده فرواه الطبراني وفيها شهرين حوشب .

ارتبط به مقصود صحيح له أو لغيره . أما ماله فمثل أن يأخذه ظالم ويسأله عن ماله فله أن ينكره ، أو يأخذه سلطان فيسأله عن فاحشة بينه وبين الله تعالى ارتكبها فله أن ينكر ذلك فيقول ما زينت وما سرقت ، وقال صلى الله عليه وسلم ^(١) « من ارتكب شيئا من هذه القاذورات فليستتر بستر الله » وذلك أن إظهار الفاحشة فاحشة أخرى ، فللرجل أن يحفظ دمه وماله الذي يؤخذ ظلما ، وعرضه بلسانه وإن كان كاذبا . وأما عرض غيره فبأن يسأل عن سر أخيه فله أن ينكره ، وأن يصلح بين اثنين ، وأن يصلح بين الضرات من نسائه بأن يظهر لكل واحدة أنها أحب إليه ، وإن كانت امرأته لا تطاوعه إلا بوعده لا يقدر عليه فيعدها في الحال تطيبا لقلبها ، أو يعتذر إلى إنسان وكان لا يطيب قلبه إلا بانكار ذنب وزيادة تودد فلا بأس به ، ولكن الحد فيه أن الكذب محذور ، ولو صدق في هذه المواضع تولد منه محذور فينبغي أن يقابل أحدهما بالآخر ويزن بالميزان القسط ، فإذا علم أن المحذور الذي يحصل بالصدق أشد وقعا في الشرع من الكذب فله الكذب وإن كان ذلك المقصود أهون من مقصود الصدق فيجب الصدق ، وقد يتقابل الأمران بحيث يتردد فيهما ، وعند ذلك الميل إلى الصدق أولى ، لأن الكذب يباح لضرورة أو حاجة مهمة ، فإن شك في كون الحاجة مهمة فالأصل التحريم فيرجع إليه ، ولأجل غموض إدراك مراتب المقاصد ينبغي أن يحترز الإنسان من الكذب ما أمكنه وكذلك مهما كانت الحاجة له ، فيستحب له أن يترك أغراضه ويهجر الكذب ، فأما إذا تعلق بغرض غيره فلا تجوز المسامحة لحق الغير والأضرار به ، وأكثر كذب الناس إنما هو لحظوظ أنفسهم ، ثم هو زيادات المال والجاه ، ولأمور ليس فواتها محذورا ، حتى أن المرأة لتحكي عن زوجها ما تخبر به ، وتكذب لأجل مراغمة الضرات ، وذلك حرام ، وقالت أسماء ^(٢) : سمعت امرأة سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت إن لي ضرة ، وإني أتكثر من زوجي بما لم يفعل أضرارها بذلك فهل على شيء فيه فقال صلى الله عليه وسلم : للتشيع بما لم يعط كلابس ثوبي زور ، وقال صلى الله عليه وسلم ^(٣) من تطعم بما لا يطعم ، أو قال لي وليس له أو أعطيت ولم يعط فهو كلابس ثوبي زور يوم القيامة . ويدخل في هذا فتوى العالم بما لا يتحققه وروايته الحديث الذي لا يتثبت إذ غرضه أن يظهر فضل نفسه ، فهو لذلك يستنكف من أن يقول لأدري وهذا حرام وما يلتحق بالنساء الصبيان ، فإن الصبي إذا كان لا يرغب في الكذب إلا بوعده أو وعيد : أو تخويف كاذب كان ذلك مباحا ، نعم روينا في الأخبار أن ذلك يكتب كذبا ، ولكن الكذب البياح أيضا قد يكتب ويحاسب عليه ويطلب بتصحيح قصده فيه ، ثم يعني عنه ، لأنه إنما أبيض بقصد الإصلاح ، ويتطرق إليه غرور كبير فإنه قد يكون الباعث له حظه وغرضه الذي هو مستغن عنه ، وإنما يتعلل ظاهرا بالإصلاح ، فلم هذا يكتب ، وكل من أتى بكذبة فقد وقع في خطر الاجتهاد ليعلم أن المقصود الذي كذب لأجله هل هو أهم في الشرع من الصدق أم لا وذلك غامض جدا ، والحزم تركه إلا أن يصير واجبا بحيث لا يجوز تركه كالأذى إلى سفك

(١) حديث : من ارتكب شيئا من هذه القاذورات فليستتر بستر الله ، الحاكم من حديث ابن عمر بلفظ : اجتنبوا هذه القاذورات التي نهى الله عنها ، فمن ألم بشيء منها فليستتر بستر الله ، وإسناده حسن .

(٢) حديث أسماء : قالت امرأة إن لي ضرة وإني أتكثر من زوجي بما لم يفعل ، الحديث متفق عليه ، وهي أسماء بنت أبي بكر الصديق .

(٣) حديث : من تطعم بما لا يطعم ، وقال لي وليس له أو أعطيت ولم يعط كان كلابس ثوبي زور يوم القيامة ، لم أجده بهذا اللفظ .

دم ، أو ارتكاب معصية كيف كان ، وقد ظن ظانون أنه يجوز وضع الأحاديث في فضائل الأعمال ، وفي التشديد في المعاصي ، وزعموا أن القصد منه صحيح ، وهو خطأ محض إذ قال صلى الله عليه وسلم ^(١) : « من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » وهذا لا يرتكب إلا للضرورة ولا ضرورة إذ في الصدق مندوحة عن الكذب ، ففيها ورد من الآيات والأخبار كفاية عن غيرها ، وقول القائل : إن ذلك قد تكرر على الأسماع ، وسقط وقعه ، وما هو جديد فوقه أعظم ، فهذا هوس ، إذ ليس هذا من الأغراض التي تقاوم محذور الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى الله تعالى ، ويؤدي فتح بابها إلى أمور تشوش الشريعة ، فلا يقاوم خير هذا شره أصلاً ، والكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر التي لا يقاومها شيء . نسأل الله العفو عنا وعن جميع المسلمين .

بيان الحذر من الكذب بالمعاريض

قد نقل عن السلف أن في المعاريض مندوحة عن الكذب . قال عمر رضي الله عنه : أما في المعاريض ما يكفي الرجل عن الكذب ، وروى ذلك عن ابن عباس وغيره ، وإنما أرادوا بذلك إذا اضطر الإنسان إلى الكذب ، فأما إذا لم تكن حاجة وضرورة فلا يجوز التعريض ولا التصريح جميعاً ، ولكن التعريض أهون . ومثال التعريض ما روى أن مطرفاً دخل على زياد فاستبطأه فتملل بمرض ، وقال ما رفعت جني مذ فارقت الأمير إلا مارفتي الله . وقال إبراهيم : إذا بلغ الرجل عنك شيء فكرهت أن تكذب : فقل إن الله تعالى يعلم ما قلت من ذلك من شيء . فيكون قوله ما حرف نفي عند الاستمع وعنده للإبهام ، وكان معاذ بن جبل عاملاً لعمر رضي الله عنه فلما رجع قالت له امرأته ما جئت به مما يأتي به المال إلى أهلهم ، وما كان قد أنابها بشيء : فقال كان عندي ضاغط : قالت كنت أمينا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وعند أبي بكر رضي الله عنه فبعث عمر معك ضاغطاً وقامت بذلك بين نساها واشتكت عمر فلما بلغه ذلك دعا معاذاً ، وقال بعث معك ضاغطاً . قال لم أجد ما أعترض به اليها إلا ذلك ، فضحك عمر رضي الله عنه وأعطاه شيئاً : فقال أرضها به . ومعنى قوله ضاغطاً يعني رقيباً ، وأراد به الله تعالى ، وكان النخعي لا يقول لابنته أشتري لك سكرًا بل يقول أرايت لو اشتريت لك سكرًا فانه ربما لا يتفق له ذلك ، وكان إبراهيم إذا طلبه من يكره أن يخرج إليه وهو في الدار قال للجارية قولي له اطلبي في المسجد ولا تقولي ليس ها هنا كيلا يكون كذباً ، وكان الشعبي إذا طلب في المنزل وهو يكرهه خط دائرة وقال للجارية ضعي الأصبع فيها وقولي ليس ها هنا ، وهذا كله في موضع الحاجة . فأما في غير موضع الحاجة فلا لأن هذا تفهيم للكذب ، وإن لم يكن اللفظ كذباً فهو مكروه على الجملة كما روى عبد الله بن عتبة . قال دخلت مع أبي علي عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه فخرجت وعلي ثوب فجعل الناس يقولون هذا كساك أمير المؤمنين ، فكنت أقول جزى الله أمير المؤمنين خيراً . فقال لي أبي يابني اتق الكذب وما أشبهه ، فتهاه عن ذلك لأن فيه تقريراً لهم على ظن كاذب لأجل غرض الفاخرة وهذا عرض باطل لا فائدة فيه ، نعم المعاريض تباح لغرض خفيف كتطبيب قلب الغير بالمزاح . كقوله صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة عجوز » ، وقوله للأخرى : « النبي في عين زوجك يياض » ، وللأخرى : « نحمملك على ولد البعير » : وما أشبهه . وأما الكذب الصريح كما فعله نعيان الأنصاري مع عثمان في قصة الضرب . إذ قال له إنه نعيان ، وكما يعتاده الناس من ملاعبة الحق بتغييرهم بأن امرأة قد رغبت في تزويجك

(١) حديث : من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار ؛ متفق عليه من طرق ، وقد تقدم في العلم .

(٢) حديث : لا يدخل الجنة عجوز ، وحديث : في عين زوجك يياض ، وحديث : نحملك على ولد البعير

فإن كان فيه ضرر يؤدي إلى إيذاء قلب فهو حرام ، وإن لم يكن إلا لمطايبتة فلا يوصف صاحبها بالفسق .
ولكن ينقص ذلك من درجة إيمانه . قال صلى الله عليه وسلم : « (١) لا يكفل للمرء الإيمان حتى يحب لأخيه
ما يحب لنفسه ، وحتى يحتجب الكذب في مزاحه » . وما قول عليه السلام « (٢) إن الرجل ليتكلم بالكلمة
ليضحك بها الناس بهوى في النار أبعدهم من التريا » أراد به ما فيه غيبة مسلم أو إيذاء قلب دون محض المزاح ،
ومن الكذب الذي لا يوجب الفسق ما جرت به العادة في المبالغة ، كقوله طلبت كذا وكذا مرة : وقلت لك
كذا مائة مرة فإنه لا يريد به تفهيم للرات بعدها . بل تفهيم للمبالغة فإن لم يكن طلبه إلا مرة واحدة كان
كذبا ، وإن كان طالبا مرات لا يعتاد مثله في الكثرة لا يأنم ، وإن لم تبلغ مائة وبينهما درجات يتعرض
مطابق اللسان بالمبالغة فيها لخطر الكذب ، وما يعتاد الكذب فيه ويتساهل به أن يقال : كل الطعام فيقول
لا أشتهيه ، وذلك منهى عنه وهو حرام ، وإن لم يكن فيه غرض صحيح . قال مجاهد : (٣) قالت أسماء
بنت عميس : « كنت صاحبة عائشة في الليلة التي هيأتها وأدخلتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعى
نسوة . قالت فوالله ما وجدنا عنده قرى إلا قدحا من لبن . فشرب ثم ناوله عائشة . قالت فاستنحت الجارية . فقلت
لأردى يد رسول الله صلى الله عليه وسلم خذني منه . قالت فأخذت منه على حياء فشربت منه ثم قال ناولي
صواحبك فقلن لا نشتهي . فقال لا تجمعن جوعا وكذبا . قالت فقلت يا رسول الله : إن قالت إحدانا لشيء
تشتهيه لا أشتهيه أبعدهم ذلك كذبا ؟ قال إن الكذب ليكتب كذبا حتى تكتب الكذبية كذبية » . وقد كان
أهل الورع يحترزون عن التسامح بمثل هذا الكذب . قال الأبي بن سعد كانت عينا سعيد بن المسيب ترمص
حتى يبلغ الرمص خارج عينيه . ف يقال له لومسحت عينيك . فيقول وأين قول الطبيب : لا تمس عينيك . فأقول
لا أفعل ، وهذه مراقبة أهل الورع ، ومن تركه انسل لسانه في الكذب عن حد اختياره في كذب ولا يشعر .
وعن خوات التيمي . قال جاءت أخت الربيع بن خثيم عائدة لابن له فأنكبت عليه . فقالت كيف أنت يا بني
جلس الربيع . وقال أرضعتيه ؟ قالت لا . قال ما عليك لو قلت يا ابن أخي صدقت ، ومن العادة أن يقول يعلم
الله فيما لا يعلمه . قال عيسى عليه السلام : إن من أعظم الذنوب عند الله أن يقول العبد إن الله يعلم لما لا يعلم
وربما يكذب في حكاية المنام . والآنم فيه عظيم . إذ قال عليه السلام « (٤) إن من أعظم القرية أن يدعى الرجل

(١) حديث : لا يستكمل المؤمن إيمانه حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه ، وحتى يحتجب الكذب في مزاحه
ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب من حديث أبي مليكة الثماري وقال فيه نظر . وللشيعين من حديث أنس :
لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه وللدارقطني في المؤلف والمختلف من حديث أبي هريرة : لا يؤمن
عبد الإيمان كله حتى يترك الكذب في مزاحه ، قال أحمد بن حنبل منكر .

(٢) حديث : إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها الناس بهوى بها أبعدهم من التريا . تقدم في
الآفة الثالثة .

(٣) حديث : مجاهد عن أسماء بنت عميس كنت صاحبة عائشة التي هيأتها وأدخلتها على رسول الله صلى الله
عليه وسلم الحديث : وفيه قال لا تجمعن جوعا وكذبا ، ابن أبي الدنيا في الصمت والطبراني في الكبير ،
وله ونحوه من رواية شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد ، وهو الصواب فإن أسماء بنت عميس كانت
إذ ذاك بالحبشة ، سكن في طبقات الأصمانيين لأبي الشيخ من رواية عطاء بن أبي رباح عن أسماء بنت
عميس زفقتنا إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعض نسائه الحديث ، فإذا كانت غير عائشة بمن تزوجها بعد خير
فلا مانع من ذلك

(٤) حديث إن من أعظم القرية أن يدعى الرجل إلى غير أبيه أو يرى عينيه في المنام ما لم ترها أو يقول

إلى غير أبيه أورى عينيه في المنام ما لم ير أو يقول على ما لم أقل ، ، وقال عليه الصلاة والسلام « (١) من كذب في لحم كلف يوم القيامة أن يعقد بين شميرتين ، وليس يعاقد بينهما أبدا » .
الآفة الخامسة عشرة ، الغيبة والنظر فيها طويل

فإن ذكر أولا مذمة الغيبة وما ورد فيها من شواهد الشرع ، وقد نص الله سبحانه على ذمها في كتابه وشبه صاحبها بأكل لحم الميتة ، فقال تعالى : « ولا يتنب بمضكم بعضا أحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه » ، وقال عليه الصلاة والسلام « (٢) كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » ، والغيبة تناول العرض ، وقد جمع الله بينه وبين المال والدم . وقال أبو برزة . قال عليه الصلاة والسلام « (٣) لا تحاسدوا ولا تباعدوا ولا تباحثوا ولا تدابروا ولا يتنب بمضكم بعضا ، وكونوا عباد الله إخوانا » ، وعن جابر وأبي سعيد « (٤) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إياكم والغيبة فإن الغيبة أشد من الزنا ، فإن الرجل قد بزى ويتوب فيتوب الله سبحانه عليه ، وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه » ، وقال أنس « (٥) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مررت ليلة أسرى بي على أقوام يمشون وجوههم بأظفارهم ، قلت يا جبريل من هؤلاء ؟ قال هؤلاء الذين يقتلون الناس ويقعون في أعراضهم » ، وقال سليم بن جابر « (٦) أتيت النبي عليه الصلاة والسلام . فقلت علمني خيرا أنتفع به ، فقال : لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تصب من دلوك في إناء المستقي . وأن تلقى أخاك يمشي حسن ، وإن أدبر فلا تقتابه » وقال البراء « (٧) خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أسمع العواتق في بيوتهن . فقال « يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه : لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته » . وقيل أوحى الله إلى موسى عليه السلام « من مات نائبا من الغيبة فهو آخر من يدخل

= على ما لم أقل . البخارى : من حديث وائلة بن الأسقع ، وله من حديث ابن عمر ، من أفرى الفرى أن يرى عينه ما لم يريا .

(١) حديث : من كذب في لحم كلف يوم القيامة أن يعقد بين شميرتين . البخارى من حديث ابن عباس .

(٢) حديث : كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه ، مسلم من حديث أبي هريرة .

(٣) حديث أبي برزة : لا تحاسدوا ولا تباعدوا ولا يتنب بمضكم بعضا وكونوا عباد الله إخوانا . متفق عليه من حديث أبي هريرة وأنس ، دون قوله : ولا يتنب بمضكم بعضا ، وقد تقدم في آداب الصحبة .

(٤) حديث جابر وأبي سعيد : إياكم والغيبة فإن الغيبة أشد من الزنا الحديث . ابن أبي الدنيا في الصمت وابن حبان في الضعفاء وابن مردويه في التفسير .

(٥) حديث أنس : مررت ليلة أسرى بي على قوم يمشون وجوههم بأظفارهم الحديث ، أبو داود مستندا ومرسلا ، والسند أصح .

(٦) حديث سليم بن جابر : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت علمني خيرا إنفعني الله به الحديث ، أحمد في السند وابن أبي الدنيا في الصمت واللفظ له ولم يقل فيه أحمد : وإذا أدبر فلا يقتابه ، وفي إسنادها ضعف .

(٧) حديث البراء : يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه لا تغتابوا للمسلمين الحديث ، ابن أبي الدنيا هكذا ، ورواه أبو داود من حديث أبي برزة بإسناد جيد .

الجنة ، ومن مات مصرا عليها فهو أول من يدخل النار ، وقال أنس ^(١) أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بصوم يوم ، فقال : لا يفطرون أحد حتى آذن له : فصام الناس حتى إذا أمسوا جعل الرجل يبيح ، فيقول يا رسول الله ظلمت صائما فائذن لي لأفطر فيأذن له ، والرجل والرجل حتى جاء رجل فقال رسول الله : فتأذن من أهلك ظلمنا صائمتين ، وإنهما يستحيان أن يأتياك فائذن لهما أن يظفرا ، فأعرض به صلى الله عليه وسلم فأعرض عنه ثم عاوده ، فقال إنهما لم يصوما ، وكيف يصوم من ظل نهاره يأكل لحم الناس اذهب فرها إن كانتا صائمتين أن تستقيتا فرجع إليهما فأخبرهما فاستغفرتا فقادت كل واحدة منهما علقته من دم فرجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال : والذي نفسى بيده لو بقينا في بطونهما لأكلتاهما النار» وفي رواية أنه لما أعرض عنه جاء بعد ذلك ، وقال يا رسول الله والله إنهما قد ماتتا أو كادتا أن تموتا ، فقال صلى الله عليه وسلم ^(٢) اتتوني بهما فجاءتا فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدر فقال لإحدهما قبي فقادت من قيح ودم وصديد حتى ملأت القدح ، وقال للأخرى قبي فقادت كذلك . فقال إن هاتين صامتتا عما أحل الله لهما وأفطرتا على ما حرم الله عليهما جلست إحدهما إلى الأخرى فجعلتا تأكلان لحوم الناس ، وقال أنس ^(٣) خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الربا وعظم شأنه . فقال : إن الدرهم يصيبه الرجل من الربا أعظم عند الله في الخطيئة من ست وثلاثين زنية يزنيها الرجل ، وأرى الربا عرض الرجل المسلم ، وقال جابر ^(٤) كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسير فأتى على قبرين يعذب صاحباهما ، فقال إنهما يعذبان وما يعذبان في كبير : أما أحدهما فكان يتناب الناس ، وأما الآخر فكان لا يستتره من بوله ، فدعا بجريدة رطبة أو جريدتين فكسرها ، ثم أمر بكل كسرة ففرست على قبر . وقال أما إنه سيهون من عذابهما ما كانتا يربطين أو مالم يبسا ، ولما رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٥) ما عزا في الزنا ، قال رجل لصاحبه هذا أقمص كما يقمص الكلب فر صلى الله عليه وسلم ، وهمامه بجيفة . فقال انهشا منها . فقال يا رسول الله تنهش جيفة . فقال ما أصبنا من أخيكما أنتن من هذه ، وكان الصحابة رضى الله عنهم يتلاقون بالبشر ولا يختابون

(١) حديث أنس أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بصوم وقال لا يفطرون أحد حتى آذن له ، فصام الناس الحديث في ذكر المرأتين اللتين اغتابتا في صيامهما فقادت كل واحدة منهما علقته من دم ، ابن أبي الدنيا في الصمت ، وابن مردويه في التفسير من رواية يزيد الرقاشي عنه ، ويزيد ضعيف .

(٢) حديث للمرأتين اللذكورتين ، وقال فيه إن هاتين صامتتا عما أحل الله لهما وأفطرتا على ما حرم الله عليهما الحديث أحمد من حديث عبيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيه رجل لم يسم ، ورواه أبو يعلى في مسنده فاسقط منه ذكر الرجل اليهم .

(٣) حديث أنس : خطبنا فذكر الربا وعظم شأنه الحديث ، وفيه وأرى الربا عرض الرجل المسلم ، ابن أبي الدنيا بسند ضعيف .

(٤) حديث جابر : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسير فأتى على قبرين يعذب صاحباهما فقال أما إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير : أما أحدهما فكان يتناب الناس ، الحديث ابن أبي الدنيا في الصمت وأبو العباس الدغولي في كتاب الأدب بإسناد جيد ، وهو في الصحيحين من حديث ابن عباس إلا أنه ذكر فيه النسيئة بدل القية . وللطائلي فيه : أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس ، ولأحمد والطبراني من حديث أبي بكره نحوه بإسناد جيد .

(٥) حديث قوله للرجل الذي ، قال لصاحبه في حق الرجوم هذا أقمص كما يقمص الكلب فر بجيفة فقال انهشا منها الحديث ، أبو داود والنسائي من حديث أبي هريرة نحوه بإسناد جيد .

عند الغيبة و يرون ذلك أفضل الأعمال ، و يرون خلافه عادة الناقلين . وقال أبو هريرة ^(١) من أكل لحم أخيه في الدنيا قرب إليه لجه في الآخرة ، و قيل له بكلمة ميتا كما أكلته حيا فبأكله فينضج ويكلمه ، و روى مرفوعا كذلك ، و روى أن رجلا كان قاعدين عند باب من أبواب المسجد فمر بهما رجل كان مبخنا فترك ذلك فقالا لقد بقي فيه منه شيء و أقيمت الصلاة فدخلنا فصلينا مع الناس فخاك في أنفسهما ما قالا فأتياعطاء فسألاه فأمرهما أن يميدا الوضوء و الصلاة ، و أمرهما أن يقضيا الصيام إن كانا صائمين ، و عن مجاهد أنه قال في «ويل لكل همزة لمزة» الهمزة الطمان في الناس ، و الهمزة الذي يأكل لحوم الناس . وقال قتادة : ذكرنا أن عذاب القبر ثلاثة أثلاث : ثلث من الغيبة ، و ثلث من النعيمة ، و ثلث من البول . وقال الحسن : والله للغيبة أسرع في دين الرجل المؤمن من الأكلة في الجسد . وقال بعضهم : أدر كنا السلف و هم لا يرون العبادة في الصوم و لا في الصلاة ، و لكن في الكف عن أعراض الناس ، و قال ابن عباس : إذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك فاذكر عيوبك . و قال أبو هريرة : يبصر أحدكم القذى في عين أخيه و لا يبصر الجذع في عين نفسه . و كان الحسن يقول : «ابن آدم إنك لن تصيب حقيقة الإيمان حتى لا تعيب الناس بعيب هو فيك و حتى تبدأ بصلاح ذلك العيب فتصلحه من نفسك ، فإذا فعلت ذلك كان شغلك في خاصة نفسك ، و أحب العباد إلى الله من كان هكذا . و قال مالك بن دينار : مر عيسى عليه السلام و معه الحواريون بجيفة كلب ، فقال الحواريون ما أنتن ريح هذا الكلب ، فقال عليه الصلاة و السلام ما أشد بياض أسنانه كأنه صلى الله عليه و سلم نهما عن غيبة الكلب ، و منهم على أنه لا يذكر من شيء من خلق الله إلا أحسنه . و سمع علي بن الحسين رضي الله عنهما رجلا يغتاب آخر ، فقال له : إياك و الغيبة فإنها إدام كلاب الناس . و قال عمر رضي الله عنه : عليكم بذكر الله تعالى فإنه شفاء ، و إياكم و ذكر الناس فإنه داء : نسأل الله حسن التوفيق لطاعته :

بيان معنى الغيبة و حدودها

اعلم أن حد الغيبة : أن تذكر أحاك بما يكرهه لو بلغه سواء ذكرته بنقص في بدنه أو نسبه أو في خلقه أو في فعله أو في قوله أو في دينه أو في دنياه حتى في ثوبه و داره و دابته . أما البدن فكذلك كرك العمش و الحول و القرع و القصر و الطول و السواد و الصفرة ، و جميع ما يتصور أن يوصف به مما يكرهه كيفما كان . و أما النسب فبأن تقول أبوه قبطي أو هندي أو فاسقي أو خبيسي أو إسكافي أو زبالي أو شيء مما يكرهه كيفما كان . و أما الخلق فبأن تقول هو سيء الخلق بخيل متكبر مرء شديد الغضب جبان عاجز ضعيف القلب منهور و ما يجري مجراه . و أما في أفعاله المتعلقة بالدين فكقولك هو سارق أو كذاب أو شارب خمر أو خائن أو ظالم أو منهاون بالصلاة أو الزكاة أو لا يحسن الركوع أو السجود أو لا يجترز من التجاسات أو ليس بارا بوالديه أو لا يرضع الزكاة موضعها أو لا يحسن قسمتها أو لا يحرس صومه عن الرفث و الغيبة و التعرض لأعراض الناس . و أما فعله المتعلق بالدنيا فكقولك إنه قليل الأدب منهاون بالناس أو لا يرى لأحد على نفسه حقا أو يرى لنفسه الحق على الناس أو أنه كثير الكلام كثير الأكل ثوم ينام في غير وقت النوم و يجلس في غير موضعه . و أما في ثوبه فكقولك إنه واسع الكم طويل الذيل و سخ الثياب ، و قال قوم لا غيبة في الدين لأنه ذم ملازمه الله تعالى فذكره بالمعاصي و ذمه بها يجوز بدليل ما روى أن رسول الله صلى الله عليه و سلم ^(٢) ذكرت له امرأة

(١) حديث أبي هريرة : من أكل لحم أخيه في الدنيا قرب إليه لجه في الآخرة فيقال له كلة ميتا كما أكلته

حيا الحديث ، ابن مردويه في التفسير مرفوعا و موقوفا ، وفيه محمد بن إسحاق رواه بالنعنة .

(٢) حديث : ذكر له امرأة و كثرة صومها و صلواتها لكن تؤذي جيرانها ، فقال هي في النار ، ابن حبان

و الحاكم و صححه من حديث أبي هريرة .

وكثرة صلاحها وصومها ولكنها تؤذي جيرانها بلسانها . فقال هي في النار (١) وذكرت عنده امرأة أخرى بأنها بخيلة . فقال فما خيرها إذن فهذا فاسد لأنهم كانوا يذكرون ذلك لحاجتهم إلى تعرف الأحكام بالسؤال ولم يكن غرضهم التنقيص ولا محتاج إليه في غير مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم ، والدليل عليه إجماع الأمة على أن من ذكر غيره بما يكرهه فهو مغتاب لأنه داخل فيما ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم في حد الغيبة وكل هذا وإن كان صادقا فيه فهو به مغتاب عاص لربه وآكل لحمة أخيه بدليل ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم (٢) قال هل تدرون ما الغيبة قالوا الله ورسوله أعلم . قال ذكرك أخاك بما يكرهه : قيل أرايت إن كان في أخي ما أقوله ؟ قال إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بهته . وقال معاذ بن جبل (٣) ذكر رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا ما أعجزه . فقال صلى الله عليه وسلم اغتبتم أخاكم قالوا يا رسول الله قلنا ما فيه . قال إن قلتم ما ليس فيه فقد بهتموه وعن حذيفة عن عائشة رضي الله عنها (٤) أنها ذكرت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة . فقالت إنها قصيرة فقال صلى الله عليه وسلم اغتبها . وقال الحسن ذكر الغير ثلاثة : الغيبة ، والبهتان ، والإفك ، وكل في كتاب الله عز وجل . فالغيبة أن تقول ما فيه ، والبهتان أن تقول ما ليس فيه ، والافك أن تقول ما بلفك ، وذكر ابن سيرين رجلا . فقال ذلك الرجل الأسود ثم قال أستغفر الله إني أرايت قد اغتبته ، وذكر ابن سيرين إبراهيم النخعي فوضع يده على عينه ولم يقل الأعور وقالت عائشة (٥) لا يفتان أحدكم أحدا فإني قلت لامرأة مرة وأنا عند النبي صلى الله عليه وسلم : إن هذه لطويلة الذيل فقال لي : القضي القضي فلفظت مضمة لحم .

بيان أن الغيبة لا تختصر على اللسان

اعلم أن الذكر باللسان إنما حرم لأن فيه تفهيم الغير نقصان أخيك وتعريفه بما يكرهه فالتعريض به كالنصرح والفعل فيه كالقول والإشارة والإيماء والنمز والممز والكتابة والحركة وكل ما يفهم القصود فهو داخل في الغيبة وهو حرام ، فمن ذلك : قول عائشة رضي الله عنها (٦) دخلت علينا امرأة فلما ولت أو ماتت بيدي أنها قصيرة . فقال عليه الصلاة والسلام اغتبها ، ومن ذلك المماكة كأن يمشى متعارجا أو كما يمشى فهو غيبة ، بل هو

(١) حديث : ذكر امرأة أخرى بأنها بخيلة فما خيرها إذن ، قال الحارثي في مكارم الأخلاق من حديث أبي جعفر محمد بن علي مرسلًا ورويناه في أمالي ابن شمعون هكذا .

(٢) حديث : هل تدرون ما الغيبة ، قالوا الله ورسوله أعلم قال ذكرك أخاك بما يكره الحديث ، مسلم من حديث أبي هريرة .

(٣) حديث معاذ ذكر رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا ما أعجزه ، الحديث الطبراني بسند ضعيف .

(٤) حديث : عائشة أنها ذكرت امرأة فقالت إنها قصيرة فقال اغتبها رواه أحمد وأصله عند أبي داود والترمذي وصححه بلفظ آخر ووقع عند الصنف عن حذيفة عن عائشة ، وكذا هو في الصمت لابن أبي الدنيا والصواب عن أبي حذيفة كما عند أحمد وأبي داود والترمذي ، واسم أبي حذيفة سلمة بن صهيب .

(٥) حديث عائشة : قلت لامرأة إن هذه طويلة الذيل فقال صلى الله عليه وسلم القضي فلفظت بضمة من لحم ، ابن أبي الدنيا وابن مردويه في التفسير وفي إسناده امرأة لا أعرفها .

(٦) حديث عائشة دخلت علينا امرأة فأومأت بيدي أي قصيرة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم قد اغتبها . ابن أبي الدنيا وابن مردويه من رواية حسان بن محارق عنها ، وحسان وثقة ابن حبان وبقية ثقات .

أشد من الغيبة لأنه أعظم في التصور ، ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة حاكمت امرأة قال (١) ما يسرنى أنى حاكيت إنسانا ولى كذا وكذا . وكذلك الغيبة بالكتابة فإن القلم أحد اللسانين ، وذكر لاصنف شخصا معينا وتهجين كلامه في الكتاب غيبة إلا أن يقتزن به شئ من الأعذار الموجهة إلى ذكره كما سيأتى بيانه . وأما قوله قال قوم كذا فليس ذلك غيبة إنما الغيبة التعرض لشخص معين إما حى وإما ميت . ومن الغيبة أن تقول بعض من مر بنا اليوم أو بعض من رأيتاه إذا كان المخاطب يفهم منه شخصا معينا لأن المهدور فهمه دون ما به التفهم ، فأما إذا لم يفهم عينه جاز ، كان رسول الله ﷺ (٢) إذا كره من إنسان شيئا قال ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا فكان لا يعين ، وقولك بعض من قدم من السفر أو بعض من يدعى العلم إن كان معه قرينة تفهم عين الشخص فهى غيبة وأجبت أنواع الغيبة غيبة القراء المرآئين إنهم يفهمون المقصود على صيغة أهل الصلاح ليظهروا من أنفسهم التعفف عن الغيبة ويفهمون المقصود ولا يدرون بمجهلهم أنهم جمعوا بين فاحشتين الغيبة والرياء ، وذلك مثل أن يذكر عنده إنسان فيقول الحمد لله الذى لم يبتلنا بالدخول على السلطان والتبذل في طلب الحطام ، أو يقول نموذجاً لله من قلة الحياء ، نسأل الله أن يعصمنا منها ، وإنما قصده أن يفهم عيب الغير فيذكره بصيغة الدعاء ، وكذلك قد يقدم مدح من يريد غيبته فيقول ما أحسن أحوال فلان ، ما كان يقصر في العبادات ولكن قد اعتراه فتور وابتلى بما يبتلى به كنا وهو قلة الصبر فيذكر نفسه ومقصوده أن يرم غيره في ضمن ذلك ومدح نفسه بالتشبه بالصالحين بأن يذم نفسه فيكون مغتابا ومرآيا ومزكيا نفسه ، فيجمع بين ثلاث قواحيش ، وهو مجمله يقطن أنه من الصالحين المتعففين عن الغيبة . ولذلك يلعب الشيطان بأهل الجهل إذا اشتغلوا بالعبادة من غير علم فإنه يتعمم ويحبط بمكائده عملهم ، ويضحك عليهم ، ويسحر منهم ، ومن ذلك أن يذكر عيب إنسان فلا يتنبه له بعض الحاضرين فيقول سبحان الله ما أعجب هذا حتى يصنى إليه ويحلم ما يقول فيذكر الله تعالى ويستعمل اسمه آله له في تحقيق خبثه وهو يمتن على الله عز وجل بذكره جهلا منه وغرورا وكذلك يقول : ساءنى ما جرى على صديقنا من الاستخفاف به . نسأل الله أن يروح نفسه فيكون كاديا في دعوى الاعتراف وفي إظهار الدعاء له . بل لو قصد الدعاء لأخفاه في خلوته عقيب صلاته ولو كان يفتم به لاعم أيضا بإظهار ما يكرهه ، وكذلك يقول ذلك المسكين قد بلى بأفة عظيمة تاب الله علينا وعليه ، فهو في كل ذلك يظهر الدعاء ، والله مطلع على حيث ضميره . وحتى قصده ، وهو لجهله لا يدري أنه قد تعرض لفت أعظم مما تعرض له الجهال إذا جاهرُوا ، ومن ذلك الاصغاء إلى الغيبة على سبيل التعجب ، فإنه إنما يظهر التعجب ليريد نشاط الغتاب في الغيبة فيندفع فيها . وكأنه يستخرج الغيبة منه بهذا الطريق فيقول عجب ما علمت أنه كذلك ما عرفته إلى الآن إلا بالخبر . وكنت أحسب فيه غير هذا عاقانا الله من بلائه فإن كل ذلك تصديق للغتاب . والتصديق بالغيبة غيبة ، بل الساكت شريك الغتاب . قال صلى الله عليه وسلم (٣) : «الستمع أحد الغتابين» . وقد روى عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما (٤) أن أحدهما قال لصاحبه إن فلانا لنؤم ثم إنهما طلبا أدما من رسول الله صلى الله عليه وسلم لئلا يلا به الخبر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اتدمتما

(١) حديث : ما يسرنى أنى حاكيت ولى كذا وكذا تقدم في الآفة الحادية عشرة .

(٢) حديث : كان إذا كره من إنسان شيئا قال ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا الحديث . أبو داود من

حديث عائشة دون قوله ، وكان لا يعيره . ورجاله رجال الصحيح .

(٣) حديث المستمع أحد الغتابين . الطبرانى من حديث ابن عمر : سمى رسول الله صلى الله عليه وسلم

عن الغيبة وعن الاستماع إلى الغيبة . وهو ضعيف .

(٤) حديث : إن أبا بكر وعمر قال أحدهما لصاحبه : إن فلانا لنؤم . ثم طلبا أدما من رسول الله صلى الله

فقالا مانعه ، قال بلى إنكنا من لحم أخيكما فانظر كيف جمعهما ، وكان القائل أحدهما والآخر مستمعا ؟ . وقال للرجلين اللذين قال أحدهما أقمص الرجل كما يقمص الكلب ^(١) أنهشا من هذه الجيفة ، فجمع بينهما ، فالمستمع لا يخرج من إثم الغيبة إلا أن ينكر بلسانه أو بقلبه إن خاف وإن قدر على القيام ، أو قطع السلام بكلام آخر فلم يفعل لزمه ، وإن قال بلسانه اسكت وهو مشتة لذلك بقلبه فذلك نفاق ولا يخرج من الإثم ما لم يكرهه بقلبه ، ولا يكفي في ذلك أن يشير باليد أي اسكت أو يشير بحاجبه وجبينه ، فإن ذلك استحقاق للذكور ، بل ينبغي أن يعظم ذلك فيذب عنه صريحا . وقال صلى الله عليه وسلم ^(٢) « من أذل عنده مؤمن فلم ينصره وهو يقدر على نصره أذله الله يوم القيامة على رؤس الخلائق » . وقال أبو الدرداء ^(٣) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من رد عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يرد عن عرضه يوم القيامة » ، وقال أيضاً : ^(٤) « من ذب عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يعتقه من النار » ، وقد ورد في نصرة المسلم في الغيبة ، وفي فضل ذلك أخبار كثيرة أوردناها في كتاب آداب الصحبة وحقوق المسلمين فلا تطيل بإعادتها :

بيان الأسباب الباعثة على الغيبة

اعلم أن البواعث على الغيبة كثيرة ، ولكن يجمعها أحد عشر سببا . ثمانية منها تطرد في حق العامة ، وثلاثة تختص بأهل الدين والحاسة : أما الثمانية (فالأول) أن يشق العيظ ، وذلك إذا جرى سبب غضب عليه فإنه إذا هاج غضبه يشتفي بذكر مساويه فيسبق اللسان إليه بالطبع إن لم يكن ثم دين وارع ، وقد يمنع تشق العيظ عند الغضب فيحتقن الغضب في الباطن فيصير حقا ثابتا فيكون سببا دائما لذكر المساوي ، فالخقد والغضب من البواعث العظيمة على الغيبة (الثاني) موافقة الأقران ، ومعاملة الرفقاء ومساعدتهم على الكلام فانهم إذا كانوا يتفكحون بذكر الأعراض فيرى أنه لو أنكر عليهم ، أو قطع المجلس استنقاهم وهروا عنه فيساعدتم ويرى ذلك من حسن المعاشرة ، ويظن أنه بمعاملة في الصحبة ، وقد يغضب رفقاؤه فيحتاج إلى أن يغضب لغضبهم إظهارا للمسامحة في السراء والضراء فيخوض معهم في ذكر العيوب والمساوي (الثالث) أن يستشعر من إنسان أنه سيقصده ويطول لسانه عليه ، أو يقبح حاله عند محنتهم ، أو يشهد عليه بشهادة فيأدره قبل أن يقبح هو حاله ويظمن فيه ليمسقط أثر شهادته . أو يبتدىء بذكر ما فيه صادقا ليكذب عليه بعده فيروج كذبه بالصدق الأول ويشتهد ويقول : ما من عادتي الكذب فإني أخبرتكم بكذا وكذا من

عليه وسلم فقال قد اتدتمنا ، فقالا مانعنا ، فقال بلى ما أكلنا من لحم صاحبكما ، أبو العباس الدغولي في الآداب من رواية عبد الرحمن بن أبي ليلى مرسل نحو .

(١) حديث : أنهشا من هذه الميتة ، قاله للرجلين اللذين قال أحدهما أقمص الرجل كما يقمص الكلب ، تقدم قبل هذا باتي عشر حديثا .

(٢) حديث : من أذل عنده مؤمن وهو قادر على أن ينصره فلم ينصره أذله الله يوم القيامة على رؤس الخلائق ، الطبراني من حديث سهل بن حنيف ، وفيه ابن لهيعة

(٣) حديث أبي الدرداء : من رد عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يرد عن عرضه يوم القيامة ، ابن أبي الدنيا في الصمت ، وفيه شهر بن حوشب ، وهو عند الطبراني من وجه آخر بلفظ : رد الله عن وجهه النار يوم القيامة ، وفي رواية له : كان له حجبا من النار ، وكلاهما ضعيف .

(٤) حديث : من ذب عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يعتقه من النار ، أحمد والطبراني من رواية شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد .

أحواله فكان كما قلت (الرابع) أن ينسب إلى شيء فيريده أن يتبرأ منه فيذكر الذي فعله وكان من حقه أن يرى نفسه ولا يذكر الذي فعل فلا ينسب غيره إليه أو يذكر غيره بأنه كان مشاركاً له في الفعل لجهل بذلك عذر نفسه في فعله (الخامس) إرادة التصنع والمباهاة وهو أن يرفع نفسه بتقبص غيره فيقول فلان جاهل وفهمه ركبك وكلامه ضعيف . وعرضه أن يثبت في ضمن ذلك فضل نفسه ، ويريبهم أنه أعلم منه ، أو يحذر أن يعظم مثل تعظيمه فيمدح فيه لذلك (السادس) الحسد وهو أنه ربما يحسد من يقبض الناس عليه ويحبونه ويكرمونهم فيريده زوال تلك النعمة عنه فلا يجد سبيلاً إليه إلا بالقدح فيه فيريده أن يسقط ماء وجهه عند الناس حتى يكفوا عن كرامته والثناء عليه لأنه يتقل عليه أن يسمع كلام الناس ونساءهم عليه وإكرامهم له ، وهذا هو عين الحسد ، وهو غير الغضب والحقد . فإن ذلك يستدعي جنابة من الغضب عليه ، والحسد قد يكون مع الصديق المحسن . والرفيق للوافق (السابع) اللعب والمزول والمطايبة وتزجية الوقت بالضحك فيذكر عبوب غيره مما يضحك الناس على سبيل المحاكاة ، ومنشؤه التكبر والعجب (الثامن) السخرية والاستهزاء استهزأوا له فإن ذلك قد يجري في الحضور ويجري أيضاً في الغيبة ومنشؤه التكبر واستصغار السنهزأ به .

وأما الأسباب الثلاثة التي هي في الخاصة فهي أعمضا وأدقها . لأنها شرور حباها الشيطان في معرض الخيرات ونها خير وانكسب شات الشيطان بها الشر (الأول) أن تنبئت من الدين داعية التعجب في إنكار المنكر والخطأ في الدين فيقول ما أعجب ما رأيت من فلان فإنه قد يكون به صادقا ويكون تعجبه من المنكر ولكن كان حقه أن يتعجب ولا يذكر اسمه فيسهل الشيطان عليه ذكر اسمه في إظهار تعجبه فصار به مغتابا وأما من حيث لا يدري . ومن ذلك قول الرجل : تعجبت من فلان كيف يحب جاريتيه وهي قبيحة ! وكيف يجلس بين يدي فلان وهو جاهل (الثاني) الرحمة وهو أن يغم بسبب ما يبغى به فيقول مسكين فلان قد غنى أمره وما ابتلى به فيكون صادقا في دعوى الاعتناء ، ويلهيه الغم عن الخلد من . كر اسمه فيذكره فيصير به مغتابا فيكون شمه ورحمته خيرا . وكذا تعجبه ، ولكن ساقه الشيطان إلى شر من حيث لا يدري ، والترحم والاعتناء يمكن دون ذكر اسمه فبهجه الشيطان على ذكر اسمه ليطلب به ثواب اعتنائه ورحمته (الثالث) الغضب إن تعالي فإنه قد يغضب على منكر قارقه إنسان إذا رآه أو سمعه فيظهر غضبه ويذكر اسمه وكان الواجب أن يظهر غضبه عليه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولا يظهره لغيره . أو يستر اسمه ولا يذكره بالسوء ، فهذه الثلاثة مما يغمض دركها على العلماء فضلا عن العوام ، فإنهم يظنون أن التعجب والرحمة والغضب إذا كان لله تعالي كان عذرا في ذكر الاسم وهو خطأ . بل المرخص في الغيبة حاجات مخصوصة لامتنوحة فيها عن ذكر الإسم كما سيأتي ذكره . روى عن عامر بن وائلة (١) أن رجلا مر على قوم في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسلم عليهم ، فردوا عليه السلام ، فلما جاوزهم قال رجل منهم : إني لأبغض هذا في الله تعالي ، فقال أهل المجلس . لبئس ما قلت والله لنينبئه . ثم قالوا يا فلان لرجل منهم قم فأدركه وأخبره بما قال . فأدركه رسولهم فأخبره ، فأتى الرجل رسول الله صلى الله عليه وسلم وحكى له ما قال . وسأله أن يدعو له . فدعاه وسأله ، فقال قد قلت ذلك ، فقال صلى الله عليه وسلم لم تبغضه ؟ فقال أنا جاره وأنا به خابره والله ما رأيتته بصلى صلاة قط إلا هذه المكتوبة ، قال فاسأله يا رسول الله هل رأيت آخرتها عن وقتها ، أو أسأت الوضوء لها ، أو الركوع أو السجود فيها ؟ فسأله فقال لا . فقال والله ما رأيتته بصوم شهرا قط إلا هذا الشهر الذي

(١) حديث عامر بن وائلة : أن رجلا مر على قوم في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسلم عليهم فردوا عليه السلام ، فلما جاوزهم قال رجل منهم : إني لأبغض هذا في الله ، الحديث بطوله ، وفيه : فقال قم فلعله خير منك ، رواه أحمد بإسناد صحيح :

بصومه البر والفاجر ، قال فأسأله يا رسول الله هل رأيت قط أفطرت فيه ، أو نقصت من حقه شيئا ؟ فسأله عنه فقال لا ، فقال . والله ما رأيت به مطى سائلا ولا مسكينا قط ولا رأيت به ينفق شيئا من ماله في سبيل الله إلا هذه الزكاة التي يؤديها البر والفاجر . قال فأسأله هل رأيت نقصت منها ، أو ما كنت فيها طالها الذي يسألها فسأله فقال لا ، فقال صلى الله عليه وسلم للرجل قم فلعله خير منك .

بيان العلاج الذي به يمنع اللسان عن الغيبة

اعلم أن مساوى الأخلاق كلها إنما تعالج بمجون العلم والعمل . وإنما علاج كل علة بمضادة سببها . فلنفحص عن سببها ، وعلاج كف اللسان عن الغيبة على وجهين : أحدهما على الجملة ، والآخر على التفصيل أما على الجملة فهو أن يعلم تعرضه لسخط الله تعالى بغيته بهذه الأخبار التي رويتها ، وأن يعلم أنها محبطة لحسناته يوم القيامة فإنها تنقل حسناته يوم القيامة إلى من اغتابه بدلا عما استباحه من عرضه فإن لم تكن له حسنات نقل إليه من سيئات خصمه وهو مع ذلك متعرض لعقوبة الله عز وجل ، ومشبه عنده بأكل الميتة ، بل العبد يدخل النار بأن تترجح كفة سيئاته على كفة حسناته . وربما تنقل إليه سيئة واحدة ممن اغتابه فيحصل بها الرجحان ويدخل بها النار ، وإنما أقل المبرجات أن تنقص من نواب أعماله ، وذلك بعد المخاصمة والمطالبة والسؤال والجواب والحساب . قال صلى الله عليه وسلم ^(١) « ما النار في اليأس بأسرع من الغيبة في حسنات العبد » . وروى أن رجلا قال للحسن : بلغني أنك تغتابني ؟ فقال ما يبلغ من قدرك عندي أنى أحسبك في حسناتي ، فمهما آمن العبد بما ورد من الأخبار في الغيبة لم يطلق لسانه بها خوفا من ذلك . وينفعه أيضا أن يتدبر في نفسه فإن وجد فيها عيبا اشتغل بيب نفسه ، وذكر قوله صلى الله عليه وسلم ^(٢) : « طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس » ، ومهما وجد عيبا فينبغي أن يسبح من أن يترك ذم نفسه ويزم غيره . بل ينبغي أن يتحقق إن عجز غيره عن نفسه في التنزه عن ذلك العيب كعجزه ، وهذا إن كان ذلك عيبا يتعلق بقلبه واختياره ، وإن كان أمرا خلقيا فالتم له ذم للخالق ، فإن من ذم صنعة فقد ذم صانعها . قال رجل للحكيم ياقبيح الوجه ، قال ما كان خلق وجهي إلى فأحسنه ، وإذا لم يجد العبد عيبا في نفسه فليشكر الله تعالى ولا يلون نفسه بأعظم العيوب فإن نلب الناس وأكل لحم الميتة من أعظم العيوب ، بل لو أنصف لدم أن ظنه بنفسه أنه بري من كل عيب جهل بنفسه ، وهو من أعظم العيوب . وينفعه أن يعلم أن تألم غيره بغيته كتناوله بغيته غيره له ، فإذا كان لا يرضى لنفسه أن يتتاب فيذم أن لا يرضى لغيره مالا يرضاه لنفسه ، فهذه معالجات جملة . أما التفصيل فهو أن ينظر في السبب الباعث له على الغيبة ، فإن علاج العلة يقطع سببها ، وقد قدمنا الأسباب . أما الغضب فيعالجه بما سيأتي في كتاب (آفات الغضب) وهو أن يقول ، إني إذا أمضيت غضبي عليه فلعل الله تعالى يمضي غضبه على بسبب الغيبة إذ نهاني عنها فاجترأت على نهيه ، واستحقت زجره ، وقد قال صلى الله عليه وسلم ^(٣) « إن لجنهم بابا لا يدخل منه إلا من شفي غيظه بمعصية الله تعالى » . وقال صلى الله

(١) حديث : ما النار في اليأس بأسرع من الغيبة في حسنات العبد ، لم أجد له أصلا .

(٢) حديث : طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ، البراز من حديث أنس بسند ضعيف .

(٣) حديث : إن لجنهم بابا لا يدخل منه إلا من شفي غيظه بمعصية الله ، البراز وابن أبي الدنيا وابن عدي والبيهقي والنسائي من حديث ابن عباس بسند ضعيف .

عليه وسلم (١) « من اتقى ربه كل لسانه ولم يشف غيظه ». وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « من كظم غيظا وهو بقدر على أن يمضيه دعاه الله تعالى يوم القيامة على رءوس الخلائق حتى يخيره في أي الحور شاء ». وفي بعض الكتب المنزلة على بعض النبيين : « يا ابن آدم اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب فلا أمحك فيمن أمحك » وأما الموافقة فإن تعلم أن الله تعالى يعصب عليك إذا طلبت سطحه في رضا المخلوقين فكيف رضى لنفسك أن توفى غيرك وتحقر مولاك فتترك رضاه لرضامه إلا أن يكون غضبك لله تعالى وذلك لا يوجب أن تذكر الغضوب عليه بسوء بل ينبغي أن تغضب لله أيضا على رفقائك إذا ذكروه بالسوء فإنهم عصوا ربك بأفحش الذنوب وهي النية . وأما تزبه النفس بنسبة الغير إلى الحيانة حيث يستغنى عن ذكر الغير فتعالجه بأن تعرف أن التعرض لقت الخالق أشد من التعرض لقت المخلوقين ، وأنت بالنية متعرض لسخط الله يقينا ولا تدري أنك تتخلص من سخط الناس أم لا فتخلص نفسك في الدنيا بالنوم وتهلك في الآخرة وتخسر حسناتك بالحقيقة وعصل لك ذم الله تعالى فعدا وتنتظر دفع ذم الخالق نسيئة وهذا غاية الجهل والخذلان . وأما عندك كقولك إن أكلت الحرام فقلان يأكله ، وإن قبلت مال السلطان فقلان يقبله ، فهذا جهل لأنك تعتذر بالافتداء بمن لا يجوز الافتداء به فإن من خالف أمر الله تعالى لا يقدرى به كأننا من كان ولو دخل غيرك النار وأنت تقدر على أن لا تدخلها لم تواقفه ولو واقفته لسفه عقلك ، فقها ذكرته غيبة وزيادة معصية أضفتها إلى ما اعتذرت عنه وسجلت مع الجمع بين المعصيتين على جهلك وغباوتك ، وكنت كالشاة تنظر إلى المرعى ترى نفسها من قلة الجمل فهي أيضا ترى نفسها ، ولو كان لها لسان ناطق بالعدو وصرحت بالعدو . وقالت العز أكيس من وقد أهلكت نفسها ، فكذلك أنا أفعل لكنت تضحك من جهلها ، وحالك مثل حالها ، ثم لا تعجب ولا تضحك من نفسك وأما قصدك للباهة وتركية النفس بزيادة الفضل بأن تقدر في غيرك . فينبغي أن تعلم أنك بما ذكرته به أبطلت فضلك عند الله ، وأنت من اعتقاد الناس فضلك على خطر ، وربما نقص اعتقادهم فيك إذا عرفوك بثبات الناس فتكون قد بهت ما عند الخالق يقينا بما عند المخلوقين وهما ولو حصل لك من المخلوقين اعتقاد الفضل لكانوا لا يفتنون عنك من الله شيئا . وأما الغيبة لأجل الحسد فهو جمع بين عذابين لأنك حسدته على نعمة الدنيا ، وكنت في الدنيا معذبا بالحسد فما قتعت بذلك حتى أضفت إليه عذاب الآخرة فكنت خاسرا نفسك في الدنيا فصرت أيضا خاسرا في الآخرة لتجمع بين النكالين ، فقد قصدت محسودك فأصبت نفسك وأهديت إليه حسناتك فإذا أنت صديقه وعدو نفسك إذ لا ضرر غيبتك وتضرك وتنفعه إذ تنقل إليه حسناتك أو تنقل إليك سيئاته ولا تنفعك ؛ وقد جمعت إلى خبث الحسد جهل الحماقة ، وربما يكون حسدك وقد حك سبب انتشار فضل محسودك كما قيل :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

وأما الاستهزاء فمقصودك منه إخزاء غيرك عند الناس بإخزاء نفسك عند الله تعالى ، وعند الملائكة والنبيين عليهم الصلاة والسلام فلو تفكرت في حسرتك وجنابتك وخجلتك وخزيك يوم القيامة يوم تحمل سيئات من استهزأت به وتساقي إلى النار لأدهشك ذلك عن إخزاء صاحبك ، ولو عرفت حالك لكنت أولى أن تضحك منك ، فإنك سخرت به عند نفر قليل ، وعرضت نفسك لأن يأخذ يوم القيامة بيدك على

(١) حديث : من اتقى ربه كل لسانه ولم يشف غيظه ، أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من

حديث سهل بن سعد بسند ضعيف ، ورويناه في الأربعين البلدانية للسلفي :

(٢) حديث : من كظم غيظه وهو قادر على أن ينفذه ، الحديث أبو داود والترمذي وحسنه وابن

ماجه من حديث معاذ بن أنس .

ملاً من الناس ، ويسوقك تحت سيئاته كما يساق الحمار إلى النار مسهزئاً بك وفرحاً بخربك ومسروراً بنصرة
 الله تعالى إياه عليك وتسلطه على الانتقام منك ، وأما الرحمة له على إثمك فهو حسن ، ولكن حسدك إبليس
 فأصلك واستنطقك بما ينقل من حسناتك إليه ما هو أكثر من رحمتك فيكون جبراً لإثم الرحوم فيخرج
 عن كونه مرحوماً وتقلب أنت مستحقاً لأن تكون مرحوماً إذ حبط أجرك ، ونقصت من حسناتك ،
 وكذلك التضب لله تعالى لا يوجب الغيبة ، وإنما الشيطان يحب إليك الغيبة ليحبط أجر غضبك ، وتصير
 مرضاً لقت الله عز وجل بالغيبة ، وأما التعجب إذا أخرجك إلى الغيبة فتسبب من نفسك أنت كيف أهلكت
 نفسك ودينك جدين غيرك أو بدنيك وأنت مع ذلك لاتأمن عقوبة الدنيا ، وهو أن يهتك الله سرّك كما
 هتكك بالسبب سرّ أخيك . فاذن علاج جميع ذلك المعرفة فقط ، والتحقق بهذه الأمور التي هي من أبواب
 الإيمان فمن قوى إيمانه بجميع ذلك انكشف أسائه عن الغيبة لاجتماعه .

بيان تحريم الغيبة بالقلب

اعلم أن سوء الظن حرام مثل سوء القول فكما يحرم عليك أن تحدث غيرك بلسانك بمساوي الغير
 فليس لك أن تحدث نفسك وتسمى الظن بأخيك ، ولست أعني به إلا عقد القلب وحكمه على غيره بالسوء ،
 فأما الخواطر وحديث النفس فهو مفعو عنه بل الشك أيضاً مفعو عنه ، ولكن اللهم عنه أن يظن ، والظن
 عبارة عما تركن إليه النفس ويميل إليه القلب . فقد قال الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من
 الظن إن بعض الظن إثم » وسبب تحريمه أن أسرار القلوب لا يعلمها إلا الله تعالى فليس لك أن تعتقد
 في غيرك سوءاً إلا إذا انكشف لك بخيان لا يقبل التأويل فمعد ذلك لا يمكنك إلا أن تعتقداً علته وشاهدته
 وما لم تشاهده بينك ولم تسمعه بأذنك ثم وقع في قلبك فأما الشيطان يلقبه إليك ، فيبغى أن تكذبه فانه
 أفسق الفاسق ؟ وقد قال الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة »
 فلا يجوز تصديق إبليس ، وإن كان ثم حيلة تدل على فساد واحتمل خلافه لم يحز أن تصدق به لأن الفاسق
 يتصور أن يصدق في خبره ، ولكن لا يجوز لك أن تصدق به حتى إن من استسكك فوجد منه رائحة الخمر
 لا يجوز أن يحد ، إذ يقال يمكن أن يكون قد تغمض بالخمر وبجها ، وما شربها أو حمل عليه فهرا فكل
 ذلك لاجتماع دلالة محتملة فلا يجوز تصديقها بالقلب وإساءة الظن بالمسلم بها ، وقد قال صلى الله عليه وسلم (١)
 « إن الله حرم من السلم دمه وماله ، وأن يظن به ظن السوء » فلا يستباح ظن السوء إلا بما يستباح به
 المال ، وهو نفس مشاهدته أو بيته عادلة ، فإذا لم يكن كذلك وخطر لك وسواس سوء الظن فيبغى أن
 تدفعه عن نفسك ، وتقرر عليها أن حاله عندك مستور كما كان ، وأن ما رأته منه يحتمل الخير والشر ، فان
 قلت فهذا يعرف عقد الظن والشكوك تختلج والنفس تحدث فتقول : أمانة عقد سوء الظن أن يتغير القلب
 معه عما كان فينفر عنه نفوراً ، ويستثقله ويفتر عن مراعاته وتفقدته وإكرامه والاعتناء بسببه فهذه أمارات
 عقد الظن وتحقيقه ، وقد قال صلى الله عليه وسلم (٢) « ثلاث في المؤمن ، وله منهن مخرج » فخرجه من سوء
 الظن أن لا يحققه أي لا يحققه في نفسه بقدر ولا أمل لا في القلب ولا في الجوارح . أما في القلب فينفره إلى النفرة
 والسكرامة ، وأما في الجوارح فيالعمل بموجبه ، والشيطان قد يقرر على القلب بأدنى حيلة مساءة الناس ،
 ويلقى إليه أن هذا من فطنتك وسرعة فهمك وذكائك ، وأن المؤمن ينظر بنور الله تعالى وهو على التحقيق

(١) حديث : إن الله حرم من السلم دمه وماله ، وأن يظن به ظن السوء : البيهقي في الشعب من حديث

ابن عباس بسند ضعيف ولا ابن ماجه نحوه من حديث ابن عمر .

(٢) حديث : ثلاث في المؤمن وله منهن مخرج : الطبراني من حديث حارثة بن النعمان بسند ضعيف .

ناظر بفرور الشيطان وظلمته ، وأما إذا أخرك به عدل فإل ظنك إلى تصديقه كنت معذورا لأنك لو كذبت
 لسكنت جانبا على هذا العدل ، إذا ظننت به الكذب ، وذلك أيضا من سوء الظن ، فلا ينبغي أن تحسن الظن
 بواحد ، وتسمى بالآخر ، نعم ينبغي أن تبحث هل بينهما عداوة ومحاسدة وتعت فتتطرق التهمة بسببه فقد
 رد الشرع ^(١) شهادة الأب العدل للولد للتهمة ، ورد شهادة العدو فلك عند ذلك أن تتوقف ، وإن كان
 عدلا فلا تصدقه ولا تكذبه ، ولكن تقول في نفسك للذكور حاله كان عندي في سر الله تعالى وكان أمره
 محجوبا عني ، وقد بقي كما كان لم ينكشف لي شيء من أمره ، وقد يكون الرجل ظاهره العدالة ولا محاسدة
 بينه وبين المذكور ، ولكن قد يكون من عادته التعرض للناس وذكر مساوئهم فهذا قد يظن أنه عدل وليس
 يعدل . فإن القاب فاسق ، وإن كان ذلك من عادته ردت شهادته إلا أن الناس لكثرة الاعتياد تساهلوا
 في أمر الغيبة ولم يكثرثوا بتناول أعراض الحاق ، ومهما خطر لك خاطر بسوء على مسلم فينبغي أن تزيد
 في مراعاته وتدعوا له بالخير فإن ذلك يغيظ الشيطان ويدفعه عنك فلا يبقى إليك الخاطر السوء خيفة من
 اشتغالك بالدعاء والراعاة ، ومهما عرفت هفوة مسلم بحجة فانصحه في السر ولا تجحد عنك الشيطان فيدعو
 إلى اغتيابه ، وإذا وعظته فلا تمظه وأنت مسرور باطلاعك على نفسه لينظر إليك بين التعظيم ، وتنظر
 إليه بين الاستحقاق ، وترفع عليه ببدء الوعظ ، وإيكن قصدك تخليصه من الإثم وأنت حزين كما يحزن
 على نفسك إذا دخل عليك نقصان في دينك ، وينبغي أن يكون تركه لذلك من غير نصحك أحب إليك من
 تركه بالصيحة فإذا أنت فعلت ذلك كنت قد جمعت بين أجر الوعظ وأجر التعميم ، وأجر الإغاثة له
 على دينه . ومن ثمرات سوء الظن التجسس ، فإن القاب لا يمنع بالظن ويطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس
 وهو أيضا منهي عنه . قال الله تعالى : « ولا تجسسوا » فالغيبه وسوء الظن والتجسس منهي عنه في آية واحدة
 ومعنى التجسس أن لا يترك عباد الله تحت سر الله فيتوصل إلى الاطلاع وهناك السر حتى ينكشف له ، ولو كان
 مستورا عنه كان أسلم لقبه ودينه ، وقد ذكرنا في كتاب الأمر بالمعروف بحكم التجسس وحقيقته .

بيان الأعداء للرخصة في الغيبة

اعلم أن الرخص في ذكر مساوي الغير هو غرض صحيح في الشرع لا يمكن التوصل إليه إلا به في دفع ذلك
 إثم الغيبة . وهي ستة أمور (الأول) النظم فإن من ذكر قاصيا بالظلم والحيانة وأخذ الرشوة كان مغتابا
 عاصيا إن لم يكن مظلوما ، أما المظلوم من جهة القاضي فله أن ينظم إلى السلطان وينسبه إلى الظلم إذ
 لا يمكنه استيفاء حقه إلا به . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٢) « إن لصاحب الحق مقالا » وقال عليه
 الصلاة والسلام ^(٣) « مطل الغني ظلم » ، وقال عليه الصلاة والسلام ^(٤) « لي الواجد محل عقوبته وعرضه (الثاني)
 الاستعانة على تعيير النكير ورد العاصي إلى منهج الصلاح كما روي أن عمر رضى الله عنه مر على عثمان وقيل
 على طلحة رضى الله عنه فسلم عليه فلم يرد السلام فذهب إلى أبي بكر رضى الله عنه فذكر له ذلك فجاء أبو بكر

(١) حديث : رد الشرع شهادة الوالد العدل وشهادة العدو : الرمذى من حديث عائشة ، وضعفه لانجوز
 شهادة خائن ولا خائنة ولا مجلود حدا ولا ذى عمر لأخيه ، وفيه ولا ظنين في ولاء ولا قرابة ، ولأبي داود
 وابن ماجه باسناد جيد من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رد
 شهادة الخائن والخائنة وذى العسر على أخيه :

(٢) حديث : لصاحب الحق مقال ، متفق عليه من أبي هريرة .

(٣) حديث : مطل الغني ظلم ، متفق عليه من حديثه .

(٤) حديث : لي الواجد محل عقوبته ، أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث الشريد

باسناد صحيح .

إليه ليصلح ذلك ولم يكن ذلك غيبة عندهم ، وكذلك لما بلغ عمر رضی الله عنه أن أبا جندل قد عاقر الحجر بالشام كتب إليه « بسم الله الرحمن الرحيم : حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب » الآية ، فتاب ولم ير ذلك عمر من أبلغه غيبة إذ كان قصده أن ينكر عليه ذلك فينفعه تصححه مالا ينفعه نصح غيره ، وإنما أباحه هنا بالقصد الصحيح فإن لم يكن ذلك هو المقصود كان حراما (الثالث) الاستفتاء : كما يقول للفقي ظلمي أبي أو زوجتي أو أختي فكيف طريق في الخلاص ، والأسلم التعريف بأن يقول ماقولك في رجل ظلمه أبوه أو أخوه أو زوجته ، ولكن التبيين مباح بهذا القدر لما روى عن هندية بنت عتبة أنها قالت (١) للنبي صلى الله عليه وسلم « إن أبا سفيان رجل شحيح لا يمطيني ما يكفيني أنا وولهي أفأخذ من غير علي ؟ فقال خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف » فذكرت الشح والأظلم لها ولولدها ولم يزجرها صلى الله عليه وسلم إذ كان قصدها الاستفتاء (الرابع) تحذير المسلم من الشر ، فإذا رأيت قهبا يتردد إلى مبتدع أو فاسق وخفت أن تتعدى إليه بدعته وفسقه فذلك أن تكشف له بدعته وفسقه مهما كان الباعث لك الخوف عليه من سراية البدعة والفسق لغيره ، وذلك موضع الفرور إذ قد يكون الحسد هو الباعث ، ويلبس الشيطان ذلك باظهار الشفقة على الخلق ، وكذلك من اشترى مملوكا وقد عرفت المملوك بالسرقة أو بالفسق أو بعبأ آخر فلك أن تذكر ذلك فإن في سكوتك ضرر للمشتري ، وفي ذكرك ضرر للبعث ، وللمشتري أولى بمراعاة جانبه ، وكذلك الزكي إذا سئل عن الشاهد فله الطمن فيه إن علم مطعنا ، وكذلك للمستشار في التزوج وإيداع الأمانة له أن يذكر ما يعرفه على قصد النصيح للمستشير لاعلى قصد الوقعة . فإن علم أنه يترك التزوج بمجرد قوله : لا تصلح لك فهو الواجب وفيه الكفاية ، وإن علم أنه لا يزجر إلا بالتصريح بعبئه فله أن يشرح به إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « (٢) آرعون عن ذكر القاجر اهتكوه حتى يعرفه الناس اذكروه بما فيه حتى يحذره الناس » وكانوا يقولون ثلاثة لاغيبه لهم ، الإمام الجائر ، والمبتدع ، والمجاهر بفسقه . (الخامس) أن يكون الإنسان معروفا بلقب يعرف عن عبئه كالأعرج والأعمش فلا يتم على من يقول روى أبو الزناد عن الأعرج وسلمان عن الأعمش وما يجرى مجراه ، فقد فعل العلماء ذلك لضرورة التعريف ولأن ذلك قد صار بحيث لا يكرهه صاحبه لو علمه بعد أن قد صار مشهورا به ، نعم إن وجد عنه معدلا وأمكنه التعريف بعبارة أخرى فهو أولى ، ولذلك يقال للأعمى البصير عدولا عن اسم النقص (السادس) أن يكون مجاهرا بالفسق كالمثنت وصاحب للاخور والمجاهر بشرب الخمر ومصادرة الناس ، وكان ممن يتظاهر به بحيث لا يستنكف من أن يذكره ولا يكره أن يذكر به فإذا ذكرت فيه ما يتظاهر به فلا يتم عليك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « (٣) من ألقى جلباب الحياء عن وجهه فلا غيبة له » ، وقال عمر رضی الله عنه « ليس لفاجر حرمة » وأراد به المجاهر بفسقه دون اللستر إذ اللستر لا بد من مراعاة حرمة ، وقال الصلت ابن طريف . قلت للحسن : الرجل الفاسق للعلن بفجوره ذكرى له بما فيه غيبة له ؟ قال لا ولا كرامة ، وقال الحسن : ثلاثة لاغيبه لهم : صاحب الهوى ، والفاسق للعلن بفسقه ، والإمام الجائر . فهؤلاء الثلاثة

(١) حديث : إن هندا قالت إن أبا سفيان رجل شحيح : متفق عليه من حديث عائشة .

(٢) حديث : آرعون عن ذكر القاجر اهتكوه حتى يعرفه الناس اذكروه بما فيه يحذره الناس ، الطبراني وابن حبان في الضعفاء وابن عدي من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده دون قوله حتى يعرفه الناس ، ورواه بهذه الزيادة ابن أبي الدنيا في الصمت :

(٣) حديث : من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له ، ابن عدي وأبو الشيخ في كتاب ثواب الأعمال من

حديث أنس بسند ضعيف وقد تقدم .

بجمعهم أنهم يتظاهرون به ، وربما يتفاخرون به فكيف يكرهون ذلك وهم يقصدون إظهاره ، نعم لو ذكره
بغير ما يتظاهر به أم . وقال عوف : دخلت على ابن سيرين فتناولت عنده الحجاج . فقال إن الله حكم عدل
ينتقم للحجاج بمن اغتابه كما ينتقم من الحجاج لمن ظلمه ، وإنك إذا لقيت الله تعالى غدا كان أصغر ذنب أصبته
أشد عليك من أعظم ذنب أصابه الحجاج .

بيان كفارة النية

اعلم أن الواجب على اللتائب أن يتوب ويتأسف على ما فعله ليخرج به من حق الله سبحانه ، ثم
يستعمل للعتاب ليحله فيخرج من مظلمته ، وينبئ أن يستحله وهو حزين متأسف نادم على فعله إذ الرائي
قد يستحل ليطهر من نفسه الورع ، وفي الباطن لا يكون نادما فيكون قد قارف معصية أخرى . وقال
الحسن يكره الاستغفار دون الاستحلال ، وربما استدل في ذلك بما روى أنس بن مالك قال : قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم «^(١) كفارة من اعتبته أن تستغفر له» ، وقال مجاهد «كفارة أكلت لحم أخيك
أن تئى عليه وتدعو له بخير» ، وسئل عطاء بن أبي رباح عن التوبة من النية . قال أن تئى إلى صاحبك
تقول له كذبت فيما قلت وظلمتك وأسأت . فإن شئت أخذت بحقك ، وإن شئت عفوت ، وهذا هو الأصح
وقول القائل المرض لا عوض له ، فلا يجب الاستحلال منه بخلاف المال كلام ضعيف إذ قد وجب في المرض
حد القذف وثبت المطالبة به بل في الحديث الصحيح ما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال «^(٢) من كانت لأخيه
عنده مظلمة في عرض أو مال فليستحلها منه من قبل أن يأتي يوم ليس هناك دينار ولا درهم إنما يؤخذ من
حسانه فإن لم يكن له حسنة أخذ من سيئات صاحبه فزيدت على سيئاته» وقالت عائشة رضيت الله عنها لامرأة
قالت لأخرى أنها طويلة الذيل قد اغتبتها فاستحلها ، فإذا لا بد من الاستحلال إن قدر عليه فإن كان غائبا
أو ميتا فينبئ أن يكثر له الاستغفار والتعاضد ويكثر من الحسنات . فإن قلت فالتحليل هل يجب ! فأقول :
لا لأنه تبرع والتبرع فضل ، وليس بواجب ولكنه مستحسن وسبيل للعتد أن يبائع في الثناء عليه والتودد
إليه ويلزم ذلك حتى يطيب قلبه فإن لم يطيب قلبه كان اعتذاره وتودده حسنة محسوبة له يقابل بها سيئة
النية في القيامة ، وكان بعض السلف لا يحلل . قال سعيد بن المسيب لأحبل من ظلمني ، وقال ابن سيرين
إني لم أحرمها عليه فأحلها له إن الله حرم النية عليه ، وما كنت لأحلل ما حرم الله أبدا . فإن قلت فما معنى
قول النبي صلى الله عليه وسلم ينبئ أن يستحلها وتحليل ما حرمه الله تعالى غير ممكن . فنقول الرد به المقو
عن الظلمة لأن يتقلب الحرام حلالا ، وما قاله ابن سيرين حسن في التحليل قبل النية فإنه لا يجوز له أن يحلل
لقيره النية . فإن قلت فما معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم «^(٣) أيمجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم ،
كان إذا خرج من بيته . قال : اللهم إني قد تصدقت بمرضى على الناس» فكيف يتصدق بالمرض ، ومن

(١) حديث : كفارة من اعتبته أن تستغفر له ، ابن أبي الدنيا في الصمت والحارث بن أبي أسامة في مسنده

من حديث أنس بسند ضعيف .

(٢) حديث : من كانت له عند أخيه مظلمة من عرض أو مال فليستحلها ، الحديث متفق عليه من حديث

أبي هريرة :

(٣) حديث : أيمجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم كان إذا خرج من بيته قال اللهم إني تصدقت بمرضى

على الناس ، البرار وابن السني في اليوم والليلة والمقبلي في الضعفاء من حديث أنس بسند ضعيف وذكره

ابن عبد البر من حديث ثابت مرسل عند ذكر أبي ضمضم في الصحابة . قلت وإنما هو رجل ممن كان قبلنا .

كما عند البرار والمقبلي .

تصدق به فهل يباح تناوله فإن كان لا تنفذ صدقته فما معنى الحث عليه . فنقول معناه إنى لا أطلب مظلمة في القيامة منه ولا أخاصمه ولا فلا نصير الغيبة حلالا به ولا تسقط الظلمة عنه لأنه عفو قبل الوجوب إلا أنه وعد وله المزمع على الوفاء بأن لا يخاصم . فإن رجع وخصم كان القياس كسائر الحقوق أن له ذلك بل صرح الفقهاء أن من أباغ القذف لم يسقط حقه من حد القاذف ومظلمة الآخرة مثل مظلمة الدنيا ، وعلى الجملة فالعفو أفضل قال الحسن « إذا جئت الأمم بين يدي الله عز وجل يوم القيامة نودوا ليقيم من كان له أجر على الله فلا يقوم إلا العارفون عن الناس في الدنيا » وقد قال الله تعالى « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین » فقال النبي صلى الله عليه وسلم «^(١) يا جبريل ما هذا العفو ، فقال « إن الله تعالى يأمرك أن تعفو عمن ظلمك وتصل من قطعك وتعطي من حرمك » وروى عن الحسن أن رجلا قال له إن فلانا قد اغتابك فبعت إليه ربوا على طبق ، وقال قد بلغني أنك أهديت إلى من حسنتك فأردت أن أكاثك عليها فاعذرتني فإني لأقدر أن أكاثك على التمام :

الآفة السادسة عشرة : النميعة

قال الله تعالى : « همار مشاء بنميم » ثم قال « عتل بعد ذلك زنيم » . قال عبد الله بن المبارك : الزنيم ولد الزنا الذي لا يكتم الحديث ، وأشار به إلى أن كل من يكتم الحديث ومشي بالنميعة دل على أنه ولد زنا استنباطا من قوله عز وجل : « عتل بعد ذلك زنيم » والزنيم هو الدعوى ، وقال تعالى « ويل لكل همزة لمزة » قيل الهمزة التمام ، وقال تعالى : « حمالة الحطب » قيل إنها كانت نمامة حمالة للحديث ، وقال تعالى « غاثاها فلم يغبيا عنها من الله شيئا » قيل كانت امرأة لوط تخبر بالضيغان ، وامرأة نوح تخبر أنه مجنون وقد قال صلى الله عليه وسلم «^(٢) لا يدخل الجنة نمام » ، وفي حديث آخر « لا يدخل الجنة قتات » والقتات هو النمام . وقال أبو هريرة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «^(٣) أحبكم إلى الله أحسنكم أخلاقا للوطنون أكنافا الذين يألقون ويؤلقون ، وإن أفضلكم إلى الله للشاهون بالنميعة . الفرقون بين الإخوان اللتتمسون للبراء المترات وقال صلى الله عليه وسلم «^(٤) ألا أخبركم بشراركم . قالوا بلى ؟ قال المشاهون بالنميعة الفسدون بين الأعبة الباعون للبراء السيب » . وقال أبو ذر «^(٥) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أشاع على مسلم كلمة ليشتينه بها بغير حق شانه الله بها في النار يوم القيامة . وقال أبو الدرداء «^(٦) قال رسول الله صلى الله عليه

(١) حديث نزول خذ العفو الآية فقال يا جبريل ما هذا فقال إن الله يأمرك أن تعفو عمن ظلمك وتصل من قطعك وتعطي من حرمك . تقدم في رياضة النفس .

(٢) حديث : لا يدخل الجنة نمام ، وفي حديث آخر قتات متفق عليه من حديث حذيفة ، وقد تقدم .

(٣) حديث أبي هريرة : وأحبكم إلى الله أحسنكم أخلاقا للوطنون أكنافا ، الطبراني في الأوسط والصغير ،

وتقدم في آداب الصحبة .

(٤) حديث : ألا أخبركم بشراركم قالوا بلى قال للشاهون بالنميعة : الحديث ، أحمد من حديث أبي

مالك الأشعري وقد تقدم .

(٥) حديث أبي ذر : من أشاع على مسلم كلمة ليشتينه بها بغير حق شانه الله بها في النار يوم القيامة ،

ابن أبي الدنيا في الصمت والطبراني في مكارم الأخلاق ، وفيه عبد الله بن ميمون فإن يكن القداح فهو متروك الحديث .

(٦) حديث أبي الدرداء أبا رجل أشاع على رجل كلمة هو منها بريء ليشتينه بها في الدنيا كان حقا على

وسلم « أعا رجل أشاع على رجل كلمة وهو منها برىء ليشينه بها في الدنيا : كان حقا على الله أن يذيه بها يوم القيامة في النار » . وقال أبو هريرة (١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من شهد على مسلم بشهادة ليس لها بأهل فليتبوأ مقعده من النار » ويقال أن ثلث عذاب القبر من النعمة ، وعن أبي عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم (٢) إن الله لما خلق الجنة قال لها تكلمي ، فقالت سعد من دخلني ، فقال الجبار جل جلاله : وعزتي وجلالي لا يسكن فيك ثمانية نفر من الناس : لا يسكنك مدمن خمر ، ولا مبصر على الزنا ، ولا قنات . وهو التام ، ولا ديوث ، ولا شرطي ، ولا غث ولا قاطع رحم ، ولا الذي يقول على عهد الله إن لم أفعل كذا وكذا ثم لم يف به » . وروى كعب الأحبار أن بنى إسرائيل أصابهم قحط فاستسقى موسى عليه السلام مرات لما سقوا فأوحى الله تعالى إليه إني لا أستجيب لك ولن معك وفيكم عام قد أصر على النعمة . فقال موسى يارب من هو دلتى عليه حتى أخرجه من بيتنا قال يا موسى أنها كم عن النعمة وأكون نماما فتابوا جميعا فسقوا ، ويقال أتبع رجل حكيمًا سبعمائة فرسخ في سبع كاهات فلما قدم عليه . قال إني جئتكم للذي آتاكم الله تعالى من العلم أخبرني عن السماء وما أتقل منها ، وعن الأرض وما أوسع منها ، وعن الصخر وما أقى منه ، وعن النار وما أحر منها ، وعن الزمهرير وما أبرد منه ، وعن البحر وما أغرق منه ، وعن القيم وما أذل منه ؟ فقال له الحكيم : البهتان على البرىء ، أنقل من السموات ، والحق أوسع من الأرض ، والقلب القانع أغنى من البحر ، والحرس والحسد أحر من النار ، والحاجة إلى القريب إذا لم تنجع أبرد من الزمهرير ، وقاب الكافر أقى من الحجر ، والنمام إذا بان أمره أذل من القيم .

بيان حد النعمة وما يجب في ردها

اعلم أن اسم النعمة إنما يطلق في الأكثر على من يتم قول الغير إلى القول فيه كما تقول فلان كان يتكلم فيك بكذا وكذا ، وليست النعمة مختصة به بل حدتها كشف ما يكره كشفه سواء كرهه النقول عنه أو للنقول إليه أو كرهه ثالث . وسواء كان الكشف بالقول أو الكتابة أو بالرمز أو بالإيماء . وسواء كان للنقول من الأفعال أو من الأقوال . وسواء كان ذلك عينا ونقضا في النقول عنه أو لم يكن بل حقيقة النعمة إنشاء السر وهناك السر مما يكره كشفه . بل كل ما رآه الإنسان من أحوال الناس مما يكره فينبغي أن يسكت عنه إلا ما في حكايته فائدة لمسلم أو دفع لمعصية كما إذا رأى من يتناول مال غيره فعليه أن يشهد به مراعاة لحق اليهود له ، فأما إذا رآه غني مالا لنفسه فذكره فهو نعمة وإنشاء للسر . فإن كان يتم به نقضا وعيا في المحكي عنه كان قد جمع بين النية والنعمة . فالباعث على النعمة إما إرادة السوء للمحكي عنه أو إظهار الحب

الله أن يذيه بها يوم القيامة في النار ، ابن أبي الدنيا موقفا على أبي الدرداء ورواه الطبراني بلفظ آخر مرفوعا من حديثه وقد تقدم .

(١) حديث أبي هريرة من شهد على مسلم شهادة ليس لها بأهل فليتبوأ مقعده من النار ، أحمد وابن أبي الدنيا ، وفي رواية أحمد رجل لم يتم أسقطه ابن أبي الدنيا من الاستناد .

(٢) حديث ابن عمر إن الله لما خلق الجنة قال لها تكلمي قالت سعد من دخلني . قال الجبار وعزتي وجلالي لا يسكن فيك ثمانية . فذكر منها ولاقتات ، وهو التام لم أجده هكذا بتامه . ولأحمد لا يدخل الجنة عاق لوالديه ولا ديوث ، والنسائي من حديث عبد الله بن عمر ولا يدخل الجنة منان ولا عاق ولا مدمن خمر ، والشيخين من حديث حذيفة لا يدخل الجنة قنات ، ولهما من حديث جبير بن مطعم : لا يدخل الجنة قاطع ، وذكر صاحب الفردوس من حديث ابن عباس لما خلق الله الجنة قال لها تكلمي تزيني فزينت . فقالت طوبى لمن دخلني ورضى عنه إلهي . فقال الله عز وجل : لأسكنك عنت ولا نائمة .

للحكى له أو التفرج بالحديث ، والجحوض في الفضول والباطل ، وكل من حملت إليه النميعة وقيل له إن فلانا قال فيك كذا أو فعل في حقك كذا ، أو هو يدبر في إفساد أمرك أو في ممالأة عدوك أو تصبيح حالك أو ما يجرى مجراه فعليه ستة أمور (الأول) أن لا يصدقه لأن التمام فاسق وهو مردود الشهادة قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة » (الثاني) أن ينهأ عن ذلك وينصح له ويقبح عليه فعله . قال الله تعالى : « وأمر بالمعروف وانه عن المنكر » (الثالث) أن يعضه في الله تعالى فإنه يبيض عند الله تعالى ، ويجب بغض من يعضه الله تعالى (الرابع) أن لا تنظن بأخيك الغائب السوء لقول الله تعالى : « اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم » (الخامس) أن لا يحملك ما حكى لك على التجسس والبحث لتحقيق اتباعا لقوله تعالى : « ولا تجسسوا » (السادس) أن لا ترضى لنفسك مانهيت التمام عنه ، ولا تحكى نيمته . فتقول فلان قد حكى لي كذا وكذا فتكون به تماما ومغتتابا وتكون قد أتيت ماعنه نهيته ، وقد روى عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنه دخل عليه رجل فذكر له عن رجل شيئا فقال له عمر إن شئت نظرنا في أمرك فإن كنت كاذبا فأنت من أهل هذه الآية « إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا » وإن كنت صادقا فأنت من أهل هذه الآية « هماز مشاء بنعيم » وإن شئت عفونا عنك . فقال العفو بامر المؤمنين لا أعود إليه أبدا . وذكر أن حكما من الحكماء زاره بعض إخوانه فأخبر بخبر عن بعض أصدقائه . فقال له الحكيم : قد أبطأت في الزيارة وأتيت بثلاث جنبايات : بغضت أخى إلى ، وشغلت قلبى الفارغ ، واتهمت نفسك الأمانة ، وروى أن سليمان بن عبد الملك كان جالسا وعنده الزهري فجاءه رجل فقال له سليمان : بلغنى أنك وقتت في وقت كذا وكذا ، فقال الرجل ما فعلت ولا قلت . فقال سليمان إن الذى أخبرنى صادق . فقال له الزهري لا يكون التمام صادقا . فقال سليمان صدقت : ثم قال للرجل اذهب بسلام وقال الحسن . « من نم إليك نم عليك » ، وهذا إشارة إلى أن التمام ينفى أن يعض ولا يوثق بقوله ولا بصداقته ، وكيف لا يعض وهو لا ينفك عن الكذب ، والغيبة ، والغدر ، والحيانة ، والغفل ، والحسد والافتقار ، والافساد بين الناس ، والحديعة ، وهو بمن يسعى في قطع ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض . وقال تعالى : « إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويغيثون في الأرض بغير الحق » ، والتمام منهم وقال صلى الله عليه وسلم «^(١) إن من شرار الناس من اتقاء الناس لشره » ، والتمام منهم ، وقال «^(٢) لا يدخل الجنة قاطع : قيل وما القاطع ؟ قال : قاطع بين الناس ، وهو البام . وقيل : قاطع الرحم » ، وروى عن علي رضي الله عنه أن رجلا سعى إليه برجل ، فقال له يا هذا نحن نسأل عما قلت . فإن كنت صادقا مقتناك ، وإن كنت كاذبا عاقبتناك ، وإن شئت أن نريك أفتناك . فقال أفتى يا أمير المؤمنين ، وقيل لمحمد ابن كعب القرظى : أى خصال للؤمن أوضع له ؟ فقال كثرة الكلام ، وإفشاء السر . وقبول قول كل أحد . وقال رجل لعبد الله بن عامر وكان أميرا : بلغنى أن فلانا أعلم الأمير أى ذكرته بنوه . قال قد كان ذلك . قال فأخبرنى بما قال لك حتى أظهر كذبه عندك . قال ما أحب أن أشتم نفسي بلسانى ، وحسبى أنى لم أصدقته فيما قال ، ولا أقطع عنك الوصال ، وذكرت السعاية عند بعض الصالحين ، فقال ما ظنكم يقوم محمد الصدق من كل طائفة من الناس إلا منهم ، وقال مصعب بن الزبير . نحن نرى أن قبول السعاية شر من السعاية لأن السعاية دلالة ، والقبول إجازة ، وليس من دل على شيء فأخبر به كمن قبله وأجازاه فاتقوا الساعى فلو كان صادقا في قوله لكان لثما في صدقه حيث لم يحفظ الحرمة ، ولم يستر العورة ، والسعاية

(١) حديث : إن من شر الناس من اتقاء الناس لشره ، متفق عليه من حديث عائشة نحوه .

(٢) حديث : لا يدخل الجنة قاطع ، متفق عليه من حديث جبير بن مطعم .

هي النميعة إلا أنها إذا كانت إلى من يخاف جانبه سميت سعاية ، وقد قال سدا الله عليه وسلم « (١) الساعي بالناس إلى الناس لغير رشدة » يعني ليس بولد حلال ، ودخل رجل على سليمان بن عبد الملك فاستأذنه في الكلام . وقال إني مكلمك بأمر المؤمنين بكلام فاحتمله ، وإن كرهته فإن وراءه ما أحب إن قبلته . فقال قل : فقال يا أمير المؤمنين إنه قد اكتنفتك رجال ابتاعوا دينك بدينهم ، ورضاك بسخط ربهم : خافوك في الله ، ولم يخافوا الله فيك ، فلا تأمنهم على ما أئتمنتك الله عليه ، ولا تصغ اليهم فيما استحفظك الله إليهم : فإنهم لن يألوا في الأمة خسفا ، وفي الأمانة تضييعا ، والأعراض قطعاً ، واتهاكا أعلى قربهم البني والنميعة ، وأجل وسائلهم الغيبة والوقعة ، وأنت مستول عما أجروا ، وليسوا المستولين عما أجروا ، فلا تصالح دنياهم بفساد آخرتك ، فإن أعظم الناس غيبا من باع آخرته بدنيا غيره ، وسمى رجل بزيادة الأعمى إلى سليمان ابن عبد الملك فجمع بينهما للموافقة فأقبل زياد على الرجل . وقال :

فأنت امرؤ ما أئتمنتك خاليا نغنت وأما قلت قولا بلا علم

فأنت من الأمر الذي كان بيننا بمنزلة بين الحيانة والإثم

وقال رجل لعمر بن عبيد أن الأسواري ما يزال يذكر في قصصه بشر . فقال له عمرو يا هذا ما رعيت حق مجالسة الرجل حيث نقلت البنا حديثه ولا أدبت حتى حين أعلنتني عن أخي ما أكره ، ولكن أعلمه أن الموت يمينا والقبر يضمننا والقيامة تجمعنا والله تعالى يحكم بيننا وهو خير الحاكمين ، ورفع بعض السعاة إلى صاحب بن عباد رقعة نبه فيها على مال يتيم يجعله على أخذه لكثرة وقوعه على ظهرها : السعاية قبيحة وإن كانت صحيحة ، فإن كنت أجريتها مجرى النصح غفرانك فيها أفضل من الریح ، وماذا الله أن تغبل مهتوكا في مستور ، ولولا أنك في خفارة شيبتك لقابلناك بما يقتضيه فضلك في مثلك ، فتوق يا مملعون العيب فإن الله أعلم بالغيب ، لبيت رحمه الله ، واليتيم جبره الله ، والمال ثمره الله ، والساعي لعنه الله . وقال لقمان لابنه يا بني أوصيك بخلال إن تمسكت بهن لم تزل سيدا ، أيسط خلقك للقريب والبيد ، وأمسك جهلك عن الكريم والاثيم ، واحفظ إخوانك ، وصل أقاربك ، وآمنهم من قبول قول ساع أو سماع باغ يريد فسادك وبروم خداعك ، وليكن إخوانك من إذا فارقتهم وفارقوك لم تبهم ولم يعيوك ، وقال بعضهم : النميعة مبنية على الكذب ، والحسد ، والنفاق ، وهي أثنى القتل ، وقال بعضهم لو صح ماقله التمام اليك لكان هو المحترى بالشتم عليك ، والنقول عنه أولى بملكك لأنه لم يقابلك بشتمك . وظل الجملة فشر التمام عظيم ينبغي أن يتوق . قال حماد بن سلمة باع رجل عبدا ، وقال للمشتري ما فيه عيب إلا النميعة . قال قد رضيت فاشتره فكش الغلام أياما ثم قال لزوج مولاه : إن سيدي لا يحبك ، وهو يريد أن يتسرى عليك فخذى اللوسى واحلقى من شعر ففاه عند نومه شمرا حتى أسحره عليها فيحبك : ثم قال للزوج إن امرأتك اتخذت خيلا وتريد أن تقتلك فتناوم لها حتى تصرف ذلك ، فتناوم لها . فجاءت للمرأة بالموسى فظن أنها تريد قتله : فقام اليها فقتلها فجاء أهل المرأة فقتلوا الزوج ، ووقع القتال بين القبيلتين فسأل الله حسن التوفيق :

(١) حديث : الساعي بالناس إلى الناس لغير رشدة ، الحاكم من حديث أبي موسى من سعى بالناس فهو لغير رشدة أو فيه شيء منها ، وقال له أسانيد هذا أمثلها ، قلت في سهل ابن عطية قال في ابن طاهر في التذكرة منكر الرواية قال ، والحديث لأصل له ، وقد ذكر ابن حبان في الثقات سهل بن عطية ورواه الطبراني بلفظ لا يسمى على الناس إلا الولد بنى والأمن فيه عرق منه ، وزاد بين سهل وبين بلال ابن أبي بردة أبا الوليد القرشي

الآفة السابعة عشرة كلام ذي اللسانين

التي يتردد بين المتعديين ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافق ، ولما يخلو عنه من يشاهد متعديين وذلك عين النفاق . قال عمار ابن ياسر ^(١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كان له وجهان في الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة » ، وقال أبو هريرة ^(٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بحديث » ، وفي لفظ آخر : « الذي يأتي هؤلاء بوجه هؤلاء بوجه » وقال أبو هريرة لا ينبغي لذي الوجهين أن يكون أمينا عند الله ، وقال مالك ابن دينار قرأت في التوراة بطلت الأمانة والرجل مع صاحبه يشفتين مختلفين بهلك الله تعالى يوم القيامة كل شفتين مختلفين ، وقال صلى الله عليه وسلم « ^(٣) أبغض خلق الله إلى الله يوم القيامة الكذابون والمستكبرون ، والذين يكفون البغضاء لإخوانهم في صدورهم فإذا لقوهم تلقوا لهم والذين إذا دعوا إلى الله ورسوله كانوا بطاء » ، وإذا دعوا إلى الشيطان وأمره كانوا سراعا » . وقال ابن مسعود لا يكون أحدكم إمامة قتلوا وما الإمامة ؟ قال الذي يجري مع كل ربح ، وانفقوا على أن ملاقة الإثنين بوجهين نفاق وللنفاق علامات كثيرة وهذه من حمايتها ، وقد روى أن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مات فلم يصل عليه حديثه فقال له عمر يموت رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تصل عليه . فقال بأمر المؤمنين انه منهم : فقال نشدتك الله أنامتهم أم لا . قال اللهم لا ولا يؤمن منها أحدا بمدك . فإن قلت بماذا يصير الرجل ذا لسانين وما حد ذلك ؟ فأقول إذا دخل على متعديين وجامل كل واحد منهما وكان صادقا فيه لم يكن منافقا ولا ذا لسانين فإن الواحد قد يصادق متعديين ولكن بصدقة ضعيفة لا تنتهي إلى حد الأخوة إذ لو تحققت الصداقة لاقتضت معاداة الأعداء كما ذكرنا في كتاب آداب الصجبة والأخوة ، نعم لو نقل كلام كل واحد منهما إلى الآخر فهو ذو لسانين وهو شر من النسيمة إذ يسير عاما بأن ينقل من أحد الجانبين فقط . فإذا نقل من الجانبين فهو شر من النمام وإن لم ينقل كلاما ، ولكن حسن لكل واحد منهما ما هو عليه من المعاداة مع صاحبه فهذا ذو لسانين ، وكذلك إذا وعد كل واحد منهما بأن يتصره ، وكذلك إذا أتى على كل واحد منهما في معاداة ، وكذلك إذا أتى على أحدهما وكان إذا خرج من عنده بدمه فهو ذو لسانين بل ينبغي أن يسكت أو يتي على الحق من المتعديين ويثني عليه في غيبته وفي حضوره وبين يدي عدوه . قيل لابن عمر رضي الله عنهما ^(٤) إنا ندخل على أمرائنا فنقول القول فإذا خرجنا قلنا غيره ، فقال كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا نفاق مهما كان مستغنيا عن الدخول على الأمير وعن الشاء عليه فلو استغنى عن الدخول ، ولكن إذا دخل يخاف إن لم يثني فهو نفاق لأنه الذي أحوج نفسه إلى ذلك ، فان كان مستغنيا عن الدخول لو قطع بالليل وترك المال وجاء فدخل لضرورة الجاه والغنى وأنتي فهو منافق ، وهذا معنى

(١) حديث عمار بن ياسر : من كان له وجهان في الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة ، البخاري في كتاب الأدب المفرد وأبو داود بسند حسن .

(٢) حديث أبي هريرة : تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين ، الحديث متفق عليه بلفظ تجد من شر الناس لفظ البخاري ، وهو عند ابن أبي الدنيا بلفظ المصنف .

(٣) حديث : أبغض خلق الله إلى الله يوم القيامة الكذابون والمستكبرون والذين يكفون البغضاء لإخوانهم في صدورهم فإذا لقوهم تلقوا لهم ، الحديث لم أتف له على أصل .

(٤) حديث : قيل لابن عمر إنا ندخل على أمرائنا فنقول القول فإذا خرجنا قلنا غيره . قال كنا نعد ذلك نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الطبراني من طرق ،

قوله صلى الله عليه وسلم « (١) حب المال والجاه يبتان النفاق في القلب كما يبت الماء البقل » لأنه يجوز إلى الأمرار وإلى مراعاتهم ومراعاتهم . فأما إذا ابتلى به لضرورة وخاف إن لم يئن فهو معذور . فإن اتقاء الشر جائز . قال أبو الدرداء رضي الله عنه « إنا لنكسر في وجوه أقوام ، وإن قلوبنا لتلغهم » . وقالت عائشة رضي الله عنها « (٢) استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال ائذنوا له فيئس رجل المشيرة هو ، ثم لما دخل ألان له القول . فلما خرج قلت يا رسول الله قلت فيه ما قلت ثم ألتت له القول ، فقال يا عائشة إن شر الناس الذي يكرم اتقاء شره » ، ولكن هذا ورد في الإقبال وفي البكسر والتبسم . فأما الثناء فهو كذب صراح ، ولا يجوز إلا لضرورة أو إكراه يباح الكذب بمثله كما ذكرناه في آفة الكذب بل لا يجوز الثناء ولا التصديق ولا تحريك الرأس في معرض التقرير على كل كلام باطل فإن فعل ذلك فهو منافق بل ينبغى أن ينكر فإن لم يقدر فيسكت بلسانه وينكر بقلبه .

الآفة الثامنة عشرة المدح

وهو منهي عنه في بعض المواضع ، أما التمدح فهو الفيسة والوقية وقد ذكرنا حكمها ، والمدح يدخله ست آفات : أربع في المدح ، واثنان في المدوح (فأما المدح : فالأولى) أنه قد يفرط فينتهي به إلى الكذب . قال خالد بن معدان من مدح إماما أو أحدا بما ليس فيه على رؤوس الأشهاد بعنه الله يوم القيامة يتعمر بلسانه (الثانية) إنه قد يدخله الرياء فانه بالمدح مظهر للحب ، وقد لا يكون مضمرا له ولا معتقدا لجميع ما يقوله فيصير به مرائيا مناققا (الثالثة) أنه قد يقول ما لا يتحققه ولا يسيل له إلى الاطلاع عليه ، روى (٣) أن رجلا مدح رجلا عند النبي صلى الله عليه وسلم . فقال له عليه الصلاة والسلام « ويحك قطعت عنق صاحبك لو سمعها ما أفلح » ثم قال إن كان أحدكم لا بد مادحا أخاه فليقل أحب فلانا ولا أركى على الله أحدا حسيه الله إن كان يرى أنه كذلك ، وهذه الآفة تنطرق إلى المدح بالأوصاف المطلقة التي تعرف بالأدلة : كقوله إنه متق وورع وزاهد وخير وما يجرى مجراه ، فأما إذا قال رأيتني يصلي بالليل ويتصدق ويحج فهذه أمور مستيقنة ، ومن ذلك قوله إنه عدل رضا فإن ذلك خفي ، فلا ينبغى أن يجزم القول فيه إلا بعد خبرة باطنه . سمع عمر رضي الله عنه رجلا يثنى على رجل . فقال أسأفرت معه . قال لا . قال أخالطته في اللباية والعاملة ؟ قال لا . قال فأنت جاره صباحه ومساءه ؟ قال لا . فقال والله الذي لا إله إلا هو لا أراك تعرفه (الرابعة) أنه قد يفرح بالمدح وهو ظالم أو فاسق وذلك غير جائز قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « (٤) إن الله تعالى يغضب إذا مدح الفاسق » . وقال الحسن : من دعا الظالم بطول البقاء فقد أحب أن يعصى الله تعالى في أرضه ، والظالم الفاسق ينبغى أن يذم ليغتم ولا يمدح ليفرح (وأما المدوح : فيضره من وجهين) أحدهما . أنه يحدث فيه

(١) حديث حب الجاه وللال يبتان النفاق في القلب كما يبت الماء البقل ، أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة بسند ضعيف إلا أنه قال صاحب الفناء . وقال العشب مكان البقل .

(٢) حديث عائشة استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ائذنوا له فيئس رجل المشيرة

الحديث ، وفيه إن شر الناس الذي يكرم اتقاء شره ، متفق عليه ، وقد تقدم في الآفة التي قبلها (٣) حديث : إن رجلا مدح رجلا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ويحك قطعت عنق صاحبك

متفق عليه من حديث أبي بكرة بنحوه ، وهو في الصمت لابن أبي الدنيا بلفظ المصنف .

(٤) حديث : إن الله يغضب إذا مدح الفاسق ابن أبي الدنيا في الصمت واليهيقي في الشعب من حديث أنس

وفيه أبو خلف خادم أنس ضعيف ؛ ورواه أبو يعلى الوصلي وابن عدي بلفظ : إذا مدح الفاسق غضب واهتز الرب المرش . قال الذهبي في اللباز منكر وقد تقدم في آداب الكسب .

كبرا وإعجابا ، وهما مهلكان . قال الحسن رضى الله عنه كان عمر رضى الله عنه جالسا ومعه الدرة والناس حوله إذا أقبل الجارود بن اللندر . فقال رجل هذا سيد ريعة فسمعها عمر ومن جوله وسمها الجارود فلما دنا منه خفقه بالدرة ، فقال مالى ولك يا أمير المؤمنين قال مالى ولك أما لقد سمعتها . قال سمعتها من فم . قال خشيت أن يخالط قلبك منها شيء فأجبت أن أطأطبي . منك (الثاني) هو أنه إذا أثنى عليه بالخير فرح به وقرورضى عن نفسه ، ومن أعجب بنفسه قل تشمره ، وإنما يتشمر للعمل من يرى نفسه مقصرا ، فأما إذا انطلقت الألسن بالثناء عليه ظن أنه قد أدرك ، ولهذا قال عليه الصلا والسلام : قطعت عنق صاحبك لو سمعها ما أفلح . وقال صلى الله عليه وسلم (١) : « إذا مدحت أخاك في وجهه فكأنما أمرت على حلقه موسى وميضاء » وقال أيضا لمن مدح رجلا (٢) « عقرت الرجل عقرك الله » . وقال مطرف « ما سمعت قط ثناء ولا مدحة إلا تصاغرت إلى نفسى » . وقال زياد بن أبي مسلم : ليس أحد يسمع ثناء عليه أو مدحة إلا تراهى له الشيطان ، ولكن المؤمن تراجع ، فقال ابن المبارك : لقد صدق كلاهما ، أما ما ذكره زياد فذلك قلب العوام ، وأما ما ذكره مطرف فذلك قلب الخواص » . وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « لو مشى رجل إلى رجل بسكين مرهف كان خيرا له من أن يثنى عليه في وجهه » . وقال عمر رضى الله عنه : اللدح هو اللدح ، وذلك لأن اللدبوح هو الذى يفتر عن العمل ، واللدح يوجب الفتور ، أو لأن اللدح يورث العجب والكبر وهما مهلكان كاللدح فذلك شبهه به ، فإن سلم اللدح من هذه الآفات في حق المادح والمدحون لم يكن به بأس ، بل ربما كان مندوبا إليه ، ولذلك أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصحابة فقال (٤) : « لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان العالم لرجح » . وقال في عمر (٥) « لو لم أبعث لبعثت يا عمر » ، وأى ثناء يزيد على هذا ولكنه صلى الله عليه وسلم قال عن صدق وبصيرة ، وكانوا رضى الله عنهم أجل رتبة من أن يورثهم ذلك كبرا وعجبا وفتورا ، بل مدح الرجل لنفسه قبيح لما فيه من الكبر والتفاخر إذ قال صلى الله عليه وسلم (٦) « أنا سيد ولد آدم ولا خفر » أى لست أقول هذا تفاخرا كما يقصده الناس بالثناء على أنفسهم ، وذلك لأن افتخاره صلى الله عليه وسلم كان بالله وبالقرب من الله لا بولده آدم وتقدمه عليهم كما أن المقبول عند الملك قبول عظماء إنما يتخر قبوله إياه وبه يفرح لا بتقدمه على بعض رعاياه ، وبتفصيل هذه الآفات تقدر على الجمع بين ذم اللدح وبين الحب عليه . قال صلى الله عليه وسلم (٧) « وجبت لما أثنوا على بعض الموتى » . وقال مجاهد : إن

(١) حديث : إذا مدحت أخاك في وجهه فكأنما أمرت على حلقه موسى وميضاء ، ابن المبارك في الزهد والرفائق من رواية يحيى بن جابر مرسلا .

(٢) حديث : عقرت الرجل عقرك الله . قاله لمن مدح رجلا ، لم أجده أصلا .

(٣) حديث : لو مشى رجل إلى رجل بسكين مرهف كان خيرا له من أن يثنى عليه في وجهه . لم أجده أيضا .

(٤) حديث : لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان العالمين لرجح ، تقدم في العلم .

(٥) حديث : لو لم أبعث لبعثت يا عمر . أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة ، وهو منكر ، والمعروف حديث عقبة ابن عامر : « لو كان بعدى نبي لكان عمر بن الخطاب » . رواه

الترمذي وحسنه .

(٦) حديث : أنا سيد ولد آدم ولا خفر ، الترمذي وابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدرى والحاكم من

حديث جابر وقال صحيح الإسناد ، وله من حديث عبادة بن الصامت : « أنا سيد الناس يوم القيامة ولا خفر »

ولسلم من حديث أبي هريرة : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة » .

(٧) حديث : وجبت ، قاله لما أثنوا على بعض الموتى ، متفق عليه من حديث أنس :

لبنى آدم جلساء من الملائكة ، فإذا ذكر الرجل المسلم أخاه المسلم بغيره قالت الملائكة ذلك بمثله ، وإذا ذكره بسوء قالت الملائكة يا ابن آدم المستور عورتك أربع على نفسك وأحمد لله الذي ستر عورتك ، فهذه آفات المدح .

بيان ما على المدوح

اعلم أن على المدوح أن يكون شديد الاحتراز عن آفة الكبر والمجب وآفة القنور ، ولا ينجونه إلا بأن يعرف نفسه ، ويتأمل ما في خطر الخاتمة ، ودقائق الربا ، وآفات الأعمال ، فإنه يعرف من نفسه ما لا يعرفه المدح ولو انكشف له جميع أسرارها وما يجرى على خواطره لكف المدح عن مدحه ، وعليه أن يظهر كراهة المدح باذلال المدح . قال صلى الله عليه وسلم (١) : « احتوا التراب في وجوه المادحين » . وقال سفيان بن عيينة : « لا يضر المدح من عرف نفسه » ، وأثنى على رجل من الصالحين فقال : اللهم إن هؤلاء لا يعرفوني وأنت تعرفني : وقال آخر لما أثنى عليه : اللهم إن عبدك هذا تقرب إلى بمقتك ، وأنا أشهدك على مقتك . وقال على رضى الله عنه لما أثنى عليه : « اللهم اغفر لي ما لا يعلمون ، ولا تؤاخذني بما يقولون ، واجعلني خيرا مما يظنون » : وأثنى رجل على عمر رضى الله عنه فقال « أتهلكني وتهلك نفسك » . وأثنى رجل على علي كرم الله وجهه في وجهه ، وكان قد بلغه أنه يقع فيه ، فقال : أنا دون ماقلت ، وفوق ما في نفسك .

الآفة التاسعة عشرة

العفة عن دقائق الخطأ في غوي الكلام لاسيما فيما يتعلق بالله وصفاته وربط بأمر الدين فلا يقدر على تقويم اللفظ في أمور الدين إلا العلماء الفصحاء ، فمن قصر في علم أو فصاحة لم يخل كلامه من الزلل ، لكن الله تعالى يعفو عنه لجهله ، مثاله ما قال حذيفة : قال النبي صلى الله عليه وسلم (٢) : « لا يقل أحدكم ماشاء الله وشئت ولكن ليقل ماشاء الله ثم شئت » وذلك لأن في العطف المطلق تشريكا وتسوية ، وهو على خلاف الاحترام . وقال ابن عباس رضى الله عنهما (٣) : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكلمة في بعض الأمر فقال ماشاء الله وشئت فقال صلى الله عليه وسلم : أجعلتني لله عديلا ؟ بل ماشاء الله وحده . وخطب رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال (٤) : « من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى ، فقال : قل ومن يعص الله ورسوله فقد غوى » فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله ومن يعصهما لأنه تسوية وجمع . وكان إبراهيم يكره أن يقول الرجل : أعوذ بالله وبك . ويجوز أن يقول : أعوذ بالله ثم بك ، وأن يقول لولا الله ثم فلان ويقول لولا الله وفلان . وكره بعضهم أن يقال : اللهم أعنتنا من النار ، وكان يقول العتيق يكون بعد الورود ، وكانوا يستجيرون من النار ويتمودون من النار . وقال رجل : اللهم اجعلني ممن تصييه شفاعته محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال حذيفة : إن الله يخفى للمؤمنين عن شفاعته محمد وتكون شفاعته للمذنبين من المسلمين . وقال إبراهيم إذا قال الرجل للرجل يا حمار يا خنزير قيل له يوم القيامة حمارا

- (١) حديث : احتوا في وجوه المادحين التراب ، مسلم من حديث القداد .
 (٢) حديث حذيفة : لا يقل أحدكم ماشاء الله وشئت الحديث ، أبو داود والنسائي في الكبرى بسند صحيح :
 (٣) حديث ابن عباس : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم بكلمة في بعض الأمر فقال ماشاء الله وشئت فقال : أجعلتني لله عديلا ؟ قل ماشاء الله وحده ، النسائي في الكبرى بإسناد حسن ، وابن ماجه :
 (٤) حديث : خطب رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال : من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى ، الحديث مسلم من حديث عدي بن حاتم .

رايتي خلقته خنزيرا رايته خلقته . وعن ابن عباس رضي الله عنهما إن أحدكم ليشرك حتى يشرك بكلمه فيقول لولاه لسرقنا الليلة ، وقال عمر رضي الله عنه ^(١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم من كان حالفه فليحلف بالله أو ليصمت . قال عمر رضي الله عنه فوالله ما حلفت بها منذ سمعتها وقال صلى الله عليه وسلم ^(٢) « لا تسموا العنب كرما إنما الكرم الرجل السلم » وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تقولن أحدكم عبدي ولا أمي كلكم عبيد الله وكل نساءكم إماء الله ، وليقل غلامي وجاريي ، وفتاى وفتاى ، ولا تقولن الملوكة ربى ولا ربى ، وليقل سيدي وسيدي ، فكلكم عبيد الله ، والرب الله سبحانه وتعالى . وقال صلى الله عليه وسلم ^(٣) : لا تقولوا للفاسق سيدنا فإنه إن يكن سيدكم فقد استخظتم ربكم . وقال صلى الله عليه وسلم ^(٤) : ومن قال أنا بريء من الإسلام فإن كان صادقا فهو كما قال ، وإن كان كاذبا فلن يرجع إلى الإسلام سالما » فهذا وأمثاله مما يدخل في الكلام ولا يمكن حصره ، ومن تأمل جميع ما أوردناه من آفات اللسان علم أنه إذا أطلق لسانه لم يسلم ، وعند ذلك يعرف سرقوله صلى الله عليه وسلم ^(٥) : « من صمت نجا » لأن هذه الآفات كلها مهالك ومعاطب وهي على طريق التنكح فإن سكت سلم من الكل وإن نطق وتكلم خاطر بنفسه إلا أن يوافق لسان فصيح وعلم عزيز وورع حافظ ، ومراقبة لازمة ، ويقلل من الكلام ، فعساه يسلم عند ذلك ، وهو مع جميع ذلك لا يفتك عن الخطر ، فإن كنت لاتقدر على أن تكون بمن تكلم ففتم ، فكن بمن سكت فسلم ، فالسلامة إحدى الغيتين .

آفة المشرون

سؤال العوام عن صفات الله تعالى ، وعن كلامه ، وعن الحروف ، وأنها قديمة أو محدثة ، ومن حقه الاشتغال بالعلم بما في القرآن إلا أن ذلك ثقيل على النفوس ، والفضول خفيف على القلب ، والعمى يمرح بالحوض في العلم إذ الشيطان يخيل إليه أنك من العلماء وأهل الفضل ، ولا يزال يحجب إليه ذلك حتى يتسكك في العلم بما هو كفر وهو لا يدري ، وكل كبيرة يرتكبها العمى فهي أسلم له من أن يتسكك في العلم لاسما فيها يتعلق بالله وصفاته ، وإنما شأن العوام الاشتغال بالعبادات ، والإيمان بما ورد به القرآن ، والتسليم لما جاء به الرسل من غير بحث ، وسؤالهم من غير ما يتعلق بالعبادات سوء أدب منهم يستحقون به العقاب من الله عز وجل ويتعرضون لخطر الكفر وهو سؤال ساسة الدواب عن أسرار الملوك وهو موجب للعقوبة ، وكل من سأل عن علم غامض ولم يبلغ فهمه تلك الدرجة فهو مذموم فإنه بالإضافة إليه عايب ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ^(٦) « ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، منهم من سأل عن ما حثبوه ، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم » . وقال أنس ^(٧) : سأل الناس رسول الله صلى الله عليه

(١) حديث عمر : إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، متفق عليه .

(٢) حديث : لا تسموا العنب كرما إنما الكرم الرجل السلم ، متفق عليه من حديث أبي هريرة

(٣) حديث : لا تقولوا للفاسق سيدنا ، الحديث أبو داود من حديث بريدة بسند صحيح .

(٤) حديث : من قال أنا بريء من الإسلام ، فإن كان صادقا فهو كما قال الحديث النسائي وابن ماجه ،

من حديث بريدة باسناد صحيح

(٥) حديث : من صمت نجا الترمذي ، وقد تقدم في أول آفات اللسان .

(٦) حديث : ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم الحديث متفق عليه من حديث

أبي هريرة .

(٧) حديث : سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما حتى أكثروا عليه وأعصوه فصمد للبر

وسلم يوما فأكثروا عليه وأغضبوه ، فصعد للنبر وقال سلوني ولا تسألوني عن شيء إلا أنبأتكم به ، فقام إليه رجل فقال يا رسول الله من أبي ؟ فقال أبوك حذافة ، فقام إليه شابان أخوان فقالا يا رسول الله من أبونا ؟ فقال أبوكا الذي تدعيان إليه ، ثم قام إليه رجل آخر فقال يا رسول الله أفي الجنة أنا أم في النار ؟ فقال لا بل في النار ، فما رأى الناس غضب رسول الله ﷺ أمسكوا ، فقام إليه عمر رضي الله عنه فقال : رضينا بالله ربنا وبالإسلام ديننا وبمحمد ﷺ نبيا ، فقال : اجلس يا عمر رحمك الله ، إنك ما علمت لموفق ، وفي الحديث (١) « نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القيل والقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال » . وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « يوشك الناس يتساءلون حتى يقولوا قد خلق الله الخلق فمن خلق الله ؟ فإذا قالوا ذلك فقولوا « قل هو الله أحد ، الله الصمد » حتى نغتمون السورة ، ثم ليتفل أحدكم عن يساره ثلاثا ، وليستعذ بالله من الشيطان الرجيم : وقال جابر (٣) : « ما زلت آية التلاعين إلا لكثرة السؤال » ، وفي قصة موسى والحضر عليهما السلام تنبيه على اللع من السؤال قبل أو ان استحقاقه إذ قال : « فان ابتمنى فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا » فما سأل عن السفينة أنكر عليه حتى اعتذر وقال : « لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا » فلما لم يصبر حتى سأل ثلاثا « قال هذا فراق بيني وبينك » وفارقه . فسؤال العوام عن غوامض الدين من أعظم الآفات ، وهو من اللبثات للفتن ، فيجب دفعهم ومنعهم من ذلك وخوضهم في حروف القرآن يضاهي حال من كتب الملك إليه كتابا ، ورسم له فيه أمورا فلم يشتغل بشيء منها ، وضيع زمانه في أن قرطاس الكتاب عتيق أم حديث فاستحق بذلك العقوبة لا محالة ، فكذلك تضييع العوام حدود القرآن واشتغاله بحروفه أهي قديمة أم حديثة ؟ وكذلك سائر صفات الله سبحانه وتعالى ، والله تعالى أعلم : انتهى ما أردته من كتاب (إحياء علوم الدين) للإمام الغزالي ، والحمد لله رب العالمين .

ولنتبرح الآن في ذكر ما جاء في كتابي (جوهر القوى) فقد جاء فيه في صفحة ١٢٩ وما بعدها تحت العنوان الآتي ما نصه :

الحسد

الحسد هو كراهة النعمة وحب زوالها عن النعم عليه ، ومن تحمى مثل نعمة غيره فهو الغابط والمنافس ، وهو ليس بحاسد :

أسبابه

(١) العداوة (٢) التعزز (٣) الكبر (٤) العجب (٥) الخوف من فوت المقاصد المحبوبة (٦) حب الرئاسة (٧) حب النفس ومغلاها ، فيثور الحسد في النفس على مقتضى الأسباب :

فقال سلوني فلا تسألوني عن شيء إلا أنبأتكم به : الحديث متفق عليه مقتصر على سؤال عبد الله بن حذافة وقول عمر ، ولسلم من حديث أبي موسى : فقام آخر فقال من أبي ؟ فقال أبوك سالم مولى شيبه .

(١) حديث : النهي عن قيل وقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال ، متفق عليه من حديث المغيرة ابن شعبه .

(٢) حديث : يوشك الناس يتساءلون بينهم حتى يقولوا قد خلق ، الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم :

(٣) حديث جابر : ما زلت آية التلاعيب إلا لكثرة السؤال رواه البزار بإسناد جيد .

فن كره امرأ تقلت عليه نعمته ، وسرته بليتته ، واستمذب شقاهه ، ومرت عليه حلاوته ، ومن لم تلن
شرته دامت حسرته : وكم من امرى كانت نعمته الموهوبة وسعادته للسعدنة وسيلة للاستعلاء فيثور الحسد
في قلب قرينه ، ويأبى إلا التمزق عليه فلا يخضع لاستطالته ، ولا يصغر لعظمته ، ومن كانت الكبرياء
صفة نفسه لم يستطع أن يرى التنكبر عليهم يساوونه ، ولم يطق صبرا على نعمة لهم حدثت وسعادة أقبلت ،
ليبقى عليهم ظاهرا ، وفوقهم قاهرا ، ذلك بسبب الكبر الذي في نفسه وإن لم يعاظموا عليه . وكم من فنى
أثار الحسد في قلبه ، واشتعل نيرانه ، وألهب سميره ، تعجبه من ترادف النعم النعم على من يحالفونه .
واستغرابه من تتابع الواهب ، وتواصل النعم ، وتوارد اللطائف ، وقد يشفق من زوال محبوب يتبعه ،
أو فوات مطلوب يرتجيه ، إذ ذاق معارفه نعمة من بعد ضراء مستهم ، فيناقضونه على مطالبه ويزاحمونه في
سلوك سيئه ، كأرض يملكها أو عرس يبني بها ، أو درجة يرقاها ، أو نعمة يلقاها . ومن الناس من يحسد
جبا للرياسة ، وما يحشاه من وهن سلطانه ، وانقضاء بنيانه ، وتفويت عزه واستقلاله ، وآخرون خبثت
نفوسهم ، وصل سمهم ، إذ يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله بلا سبب إلا مرض نفوسهم وشحها ،
وسوء طويتهم ، يودون أن لو منع الله الرحمة عن المباد لا يطلبون الاقتراب بها ، ولا السيادة على غيرهم ،
ولكن أنفسهم ضيقة العطن ، عديمة الفطن ، قليلة الخير ، ميتة الأفتدة ، أولئك هم الحاسدون الضالون .
وكما تضافت الأسباب بالاجتماع في المجالس ، والتجاور في المنازل . والاشترار في الحرمة ، والاقتراب
بالنسب أو الصاهرة كان اضطراب نار الحسد أشد ، وامتداد لهيبها أسرع ، وازداد سميرها ، وطفى شررها
وغلت مراجلها ، فزاد إحراقها لمواد المحبات ، وإبادتها للمذات اللودات ، وكانت الحياة حياة الأشرار إذ
ذلك شرا وبلا ، وعذابا ألما ، قال صلى الله عليه وسلم : « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » .
وقال عليه السلام : « لا تحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا » . وقال
أنس : « كنا جالوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يطلع عليكم من هذا الفج رجل من أهل
الجنة ، فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه ، قد غلق نعليه في يده الشمال فسلم فلما كان القد
قال النبي صلى الله عليه وسلم مثل ذلك ، فطلع ذلك الرجل وقاله في اليوم الثالث . فطلع ذلك الرجل . فما
قام النبي صلى الله عليه وسلم تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص ولزمه ثلاثة أيام في بيته فلم يحده بصلى بالليل ،
فاحتقر عمل الرجل ، فسأله ما الذي يبلغ بك ؟ فقال هو ما رأيت ، غير أني لا أجد على أحد من المسلمين
في نفسى غشا ولا حسدا على خير أعطاه الله إياه ، قال عبد الله : فقلت هي التي بلغت بك وهي التي لا نطبق
وقال صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة لا ينجو منهن أحد : الظن ، والطيرة ، والحسد . وسأحدثكم بالمرح
من ذلك : إذا ظننت فلا تحمق ، وإذا تطيرت فامض ، وإذا حسدت فلا تبغ » . وقال الشاعر :

يا أحمد انزع بالذي أوتيته إن كنت لا ترضى لنفسك ذلها
واصلم بأن الله جل جلاله لم يخلق الدنيا لأجلك كلها

لا تسلط على قلبك نيران الحسد التي يثيرها أسبابها ، وتفكر في مصائبه ووزائله ، وما ينجم عنه من العذاب
الأيام في الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .
ومن ابتلى بالحسد والبياد بالله كيفما كانت أسبابه تقطعت به الأسباب وأذرى به الكمد ، وتنقص عيشه
ألا ترى أن ضم الله مترادفة لا ينقطع مددها ، ولا ينفد خيرها ، ومن ذا أشقى ممن عد نعم الله شقا عليه
وجنته نار عذابه ، ودار شقائه ، فهل يمك الله المطر خشية عليه ، أو يمك الكواكب لئلا ينقطع فؤاده :

فالشمس والقمر والنجوم والجبال والأرض والأنهار مسخرات للعباد وهنائهم وراحتهم وسعادتهم ؛ فسبحانك اللهم أشقيت قلوبا بالرحمات ، إذ نسوا أنفسهم قتهاها في أودية الضلالات ، فدعوا نعم الله على الناس تقما ، وحسبوا لهم شقاء دائما ، فما أكثر نعم الله ، وما أدوم شقاءهم ، وقت :

وفي القلب نيران وفي القلب جنة وما أكثر الآلام إلا من الفكر
وكفى الحاسد عذابا أنه معذب بنعيم غيره ، معاقب على الحسد بنفس الحسد ، فذلك كان طول الحياة
له شقاء وموته راحة له ، فكما يتمنى الحاسد زوال نعمة المسودين يشقى غليل صدر محسوديه أن تطول حياته
فيطول عذابه كما قيل :

لامات أعداؤك بل خلدوا حتى يروا فيك الذي يكمد
لازات محسوداً على نعمة فأبما الكامل من يحسد

الثبات والمزمنة

الثبات للمداومة على العمل ، والمزمنة من أحوال الإرادة ، والثبات حال داعية لإدامة العمل إلى النهاية .
كم في الناس من عامل ؟ وقل ألو العزم ، ولم يبل الرغائب ، ويحفظ بالمطالب ، إلا من صحح العزم ، وشمر
عن مساعد الجد ، وامتطى العمل :

دراك العنالي في اقتحام المخاوف ونيل الأمانى في ارتقاء التنايف
وما نال مجدداً من أدار عروسه وباتت تعاطيه سلاف للراشف

وقد قلت :

إلى ذروة العلياء ياسائق الحرف فإني شمعت اليوم منها شذا العرف
وما جمع امرؤ أمره ، وجد في طلب ما يروم ، إلا خضعت له الآمال ، ودانت له العنالي ، وفاز بالسعادة
والكمال ، وتأمل كيف مدح الله أولى العزم فقال : « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » وقص عليه
أخبارهم ، وكان قصارى أمرهم أنهم فازوا بالسعادة هم والتابعون ، وخسر أولئك الجاهلون .

الصبر

الصبر ثبات الباعث للخير والفضيلة في مقابلة الباعث للشر والذيلة ، وذلك أن الإنسان يشارك الدواب
في الشهوة والغضب ، وليس للصبي ولا للمجنون ولا للبهائم من داع يدعو لقمه الشهوات ؛ ولا من رادع يردع
عن اللذات ، إلا إنما يظهر جهادهما ، ويبين التفاضل عنهما ، والتخلي من غائلتهما ، لمن عقل واستبصر
وادكر وتفكر ، ورأى سبيل الرشده فأخذ به سبيلا ، وسبيل الغي فلم يتخذ سبيلا .

وبذلك يمتاز العاقل من الإنسان عن المجنون والصبي والحيوان ؛ فالحيوان أسير شهواته ، والعاقل من
الإنسان عليم بما يعقب الأسر من الإذلال ، وما يجرم من الوبال ، وهناك تبتدى داعية المجاهدة ، وتتولد
في النفس حال تدعو للمقاومة والمناضلة ، فهذه الحال هي السهامة بالصبر الناجمة من العلم والهداية الداعية لترك
الضلال والغواية ، ألا وإن العلم بمنية الشهوات وغائلة اللذات ، باعث لقيام حال النيات بالأنفس ، وتلك الحال
تثمر الأعمال ، فالعلم شجرة ، والأحوال أغصانها ، والأعمال أثمارها .

أسماء الصبر

الصبر في الأخلاق كالحديد في الصناعات والملح في الطعام ، فلا ترى طاعة ، ولا خلقا حسنا إلا والصبر
مفتاحه وعماده وقوامه ، ألا ترى كيف شمل الأعمال البدنية ، والأحوال النفسية ؛ فمن احتمل المرض

والألم والجراح الصمية ، وقام بالأعمال الشريفة في عبادة يقيمها ، أو زراعة يتقنها ، أو صناعة يحسنها ، أو تجارة يديرها ، أو إدارة ينظمها ، فهو من الصابرين في النوعين : الاحتمال والأعمال .

الغفة

ومن زكى نفسه بالتباعد عن مقتضى شهوات البطن والفرج فهو العفيف حتى لا يطيع دواعي اللهو والزينة ، ولا يتداني من المحرمات . ومن تماثلت نفسه عن الخضوع لثوابات الدهر سمى صابرا ، وإلا فهو الجازع والمهلوع ، يرفع الصوت ، وضرب الحد ، وشق الجيب .

ضبط النفس والبطر والكرح

وإذا لم تستغزه داعيات النفس ، فهو الضابط لنفسه ، وإلا فهو البطر للرح .

الشجاع والجبان

وإن قاوم الأقران في ساحة الحرب والميدان ، فهو الشجاع وإلا فهو الجبان ، وإن كظم غيظه ، ولزم السكنية عند احتياج الغضب ، فهو الحليم وإلا فهو الأحمق السفيه .

كتم السر وإفشاؤه

وإذا أخفى الكلام لاقتضاء المقام فهو السكتم للسر ، وإلا فهو المفتي للأسرار ، فإن اطمانت نفسه فلم تجزع على فضول العيش فهو الراضى ، وإلا فهو الحريص .

التناعة والشره

ومن اكتفى بالقليل فهو القنوع ، وضده الشره ، فأنت من هذا ترى أن الصبر مازك بابا من الأخلاق إلا الوجه الصبر ، ولاخصله لإقربها ، فهو جدير بقوله صلى الله عليه وسلم لمن سأله عن الإيمان (هو الصبر) . ولما كانت أحوال الإنسان لا تخلو من مكروه محتمل ، أو محبوب يشكر عليه . روى ابن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم قال « الإيمان نصفان : نصف صبر ، ونصف شكر » ولما كان الصبور عليه إمام شهوة وإمام غضبا ، كان الصوم صبرا عن شهوات البطن والفرج ، لا الغضب ، ولما ظهر سر قوله صلى الله عليه وسلم « الصوم نصف الصبر » فيكون الصوم ربع الإيمان ، وقد يراد بالإيمان ما يشمل العلم والعمل ، ولا عمل إلا مع الصبر تركا أو فعلا ، فيكون الإيمان راجعا ليقين وعمل على مقتضاء ، فلذلك قال صلى الله عليه وسلم « من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ، ومن أعطي حظا منهما لم يبال بما فاته من قيام الليل وصيام النهار ، ولأن تصبروا على ما أتمت عليه أحب إلى من أن يأتيني كل امرئ منكم يمثل بعمل جميعكم ، ولكني أخاف عليكم أن تفتح الدنيا عليكم جدى فينكر بعضكم بعضا ، وينكركم أهل السماء عند ذلك ، فمن صبر واحتسب ظفر بثوابه . ثم قرأ قوله تعالى : (ما عندكم ينفد وما عند الله باق) » .

وروى جابر « أنه سئل صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقال : الصبر والجماعة » . وقال صلى الله عليه وسلم : « الصبر كنز من كنوز الجنة » . وعن عطاء عن ابن عباس قال : « لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال المؤمنون أتم ؟ فسكتنا فقال عمر نعم يا رسول الله ، قال : وما علامة إيمانكم ؟ قالوا نشكر على الرخاء ، ونصبر على البلاء ، ونرضى بالقضاء ، فقال صلى الله عليه وسلم مؤمنون ورب الكعبة » . وقال تعالى : « والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس » أي الصبية والفقير والحرب .

الصبر واحد ، وإنما اختلفت الأسماء لاختلاف المواطن كضوء الشمس يسطع على الأشجار والأزهار والتميز فاختلقت الألوان لتمدد الأشكال ، واحذر أن تضل في الألفاظ ، وارع المعاني ، واحذر شبهات الاسطلاحات الواردة :

الشجاعة

الشجاعة هي الإقدام على الأحوال مع الروية والتدبير : ومن أقدام بلا روية أو أحجم وقد فاجأ المدو
فليس بشجاع ، وإنما هو في الأولى متهور ، وفي الثانية جبان ضعيف . الشجاعة أحد الأركان الأربعة ومنزلتها
منها منزلة الجنود من المعارك ، والحصون من الأمصار ، ولكم تمدح شعراء الشرق والغرب بالشجاعة ،
وحضوا عليها أهمهم ، فالمعظم من لبس تاجها ، والوضيع من حرم فضيلتها ، وحيل بينه وبينها . الرجل
الضعيف القلب الجبان مهزوم الحق مقصوص الجناح ، لا يقضون له حاجة ، ولا يسمعون له قولاً ، الجبان
أشبه شيء بالهذابة يؤكل لحمه وهو مهين ، والشجاع كالأسد ، يحترم ويحرم أكله ، وهو مصون ، وما من
أمة فقدت شجاعتها ، واستسلمت ، ونامت على فراش الراحة الوثير إلا ضرب الله عليهم الذلة والمسكنة ،
وبادوا بنضب من الله ، ذلك بأنهم قوم مستضعفون . ألم تر إلى عمرو بن كلثوم ، حين قالت هند أم عمرو
ملك العرب لليلى بنت المهلهل بن ربيعة أخي كليب وائل أم عمرو بن كلثوم باليلي ناوليني الطبق كيف تحمس
ابن كلثوم وقتله وقال في معلقته :

أبا هند فلا تعجل علينا وأنظرنا نخبرك اليقينا
بأننا نورد الرايات بيضا ونصدرهن حمرا قدرونا
بأى مشيئة عمرو بن هند نكون لقبلكم فيها قطينا

ومنها:

لنا الدنيا ومن أمسى عليها ونبتش حين نبتش قادرينا
بناة الظالمين ومد ظلمنا ولكننا سنبدأ ظالمينا

أفرط وغلاها في القوة النضية ، ونجاوز الحد كزهير وعنترة فيما سيأتي وهذا مذموم كالجين : الجين
مذموم ، والتهور مذموم ، والشجاعة الوسط . وقال زهير :

ومن لا يندعن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

ثم انظر كيف قتل جساس البكري كليبا التظلي بناقة سعد جارم ، وكيف طلب التغليبيون من البكريين
قتل جساس قاتل سيدهم ، فأخذت مرة أبا جساس العزة بالاثم وأبي تسلم القاتل فكانت الحروب السواء
والداهية الدهياء ، وتفانى الجبان بكر وتغلب .

هذه صفة شجاعة العرب الجاهلية الأولى إذ كانوا يحمون الثمار ، ويدفعون العار ، ويوقدون النار ،
ويحفظون الجار ، تلك فضيلة وأي فضيلة ، ذلك شرف وأي شرف ، غر وأي غر ، ولكنه مضروب
بالجهل تابع لفرغات الشيطان ، ناصر للزور والبهتان ، فكانت الحاجة داعية إلى ما يقوم بموجبها ، ويصلح
فاسدها ، ولو تبصرت أحوال بلادنا اليوم لرأيت الحمية فيها جاهلية ، والنصر تاجا للعصية ، لا لاعتدال في القضية ،
قرى الناس سكارى في تشاجرهم ومأمم بكارى ولكن الجهل عظيم :

فنحن أحوج إلى عقل يقومنا ، وتمسك بالدين رجعتنا إلى الحق والصواب ، ألا تعجب كيف جاء
القرآن فوجه شجاعة العرب إلى الوجهة العامة والفضيلة الشريفة ، فقال تعالى : « ونضع للوازين القسط
ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » . وقال : « يا أيها
الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم » ولقد مدح الاعتدال في القوة إذ قال : « أشدها
على الكفار رجاء بينهم » ونهر من الظلم فقال : « ذلك بيوتهم بناوية بما ظلموا »

بذلك ذهبت تلك الحمية ، حمية الجاهلية الأولى ، الحمية اللبانية الوقتية ، واستبدلت بأحسن منها وهي

الشجاعة التي بها دوخوا العمورة شرقا وغربا . وقد ذم الله رذيلة الجبن فقال : « وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا » . ما أشأم أيام الأمة الخائرة العزبة الضعيفة القوى ، للينة الصبر تضاحكها الأيام قليلا ، وهم على أرائك الراحة متكثون ، وتبسم لها نفور الزهر على أشجار الحنظل في ساحة العيش الهني ، حتى إذا وقعت الواقعة ، وقرعت القارعة ، وحكمت القنا والقضب في أعناق الرجال ، عبت الأيام بعد ابتسامها ، وذاقوا مر الحنظل ققطع أمعاءهم بعد أن راقهم منظره الزاهر ، وأظلمهم ورقه الناضر . فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ، ققطع دابر القوم الذين رضوا بالظلم واستناموا للخسف فأصبحوا في ديارهم صاغرين .

ليست الشجاعة قاصرة على القتال والتذب عن البلاد بالحرب . كلا . فليس يتم للناس عمل إلا بقوة القلب وتحمل السكره في قول الحق ، ومامن عالم إلا ابتلى عن يشنؤه .

ان يتفحص ببيان البدعة فتقام على أنقاضه قصور السنة إلا بقول الحق ولو كره الحاسدون ، ولن يموت الرذيلة ، وتغيا الفضيلة ، إلا إذا قاوم للصلحون تلك العقول الجامدة ، وهزموا صفوف تلك النفوس الخاملة . ولعمرك إن الشجاعة في مقال الحق لأعلى منارا ، وأرفع شأننا ، وأشرف منالا من اقتحام الهيجا ، والحرب قائمة ، والرماح مشرعة ، والسيوف مصلنة ، إلا إن العالم بقوله يصلح الألوف والألوف ، ولذلك كان الصديقون أعلى من الشهداء مقاما ، وأقرب إلى الأنبياء مجلسا .

ألا أحدثكم أيها الأذكياء بحديث السلف الصالح رضي الله عنهم ورضوا عنه ، إذ كانوا يصدعون بالحق وبه يعدلون كأبي بكر الصديق وطاووس الجعاني وسفيان الثوري وعطاء بن أبي رباح وأبي حازم وعمر بن عبد العزيز وغيرهم ، وأولئك الذين هدى الله فقالوا الحق وصدقوا في المقال ولم يخافوا لومة لائم ولم يخشوا إلا الله .
 روى عن ضبة بن محسن المنزلي قال : كان علينا أبو موسى الأشعري أميراً بالبصرة ، فكان إذا خطبنا حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنشأ يدعو لعمر رضي الله عنه ، قال فغاطني ذلك منه ، فقلت إليه فقلت له : أين أنت من صاحبه تفضله عليه ؟ فصنع ذلك جمعا ، ثم كتب إلى عمر يشكوني يقول : إن ضبة بن محسن المنزلي يتعرض لي في خطبتي ، فكتب إليه عمر أن أشخصه إلى قال فأشخصني إليه ، فقدمت إليه ، فضربت عليه الباب ، فخرج إلى فقال من أنت ؟ فقلت أنا ضبة ، فقال لي : لا مرحبا ولا أهلا ، قلت : أما للرحب فمن الله ، وأما للأهل فلا أهل لي ولا مال ، فبما استحللت يا عمر إشخاصي من مصري بلا ذنب أذنبته ، ولا شيء أئبته ؟ فقال ما القى شجر بينك وبين عاملي ، قال قلت الآن أخبرك به ، إنه كان إذا خطبنا حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم أنشأ يدعو لك ، فغاطني ذلك منه ، فقلت إليه وقلت له : أين أنت من صاحبه تفضله عليه فصنع ذلك جمعا ، ثم كتب إليك يشكوني ، قال : فاندفع عمر رضي الله عنه با كيا وهو يقول : أنت والله أوفق منه وأرشد ، فهل أنت غافر لي ذنبي يغفر الله لك . قال : قلت غفر الله لك يا أمير المؤمنين ، قال : ثم اندفع با كيا وهو يقول : والله ليلة من أبي بكر ويوم خير من عمر وآل عمر ، فهل لك أن أحدثك بليته ويومه ؟ قلت نعم . قال : أما الليلة فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد الخروج من مكة هاربا من المشركين خرج ليلا فتمبه أبو بكر وجعل يمشي مرة أمامه ومرة خلفه ، ومرة عن يمينه ، ومرة عن يساره ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هذا يا أبا بكر ما أعرف هذا من أفضالك ا فقال يا رسول الله أذكر الرصد فأكون أمامك ، وأذكر الطلب فأكون خلفك ، ومرة عن يمينك ، ومرة عن يسارك ، لا آمن عليك ، قال فمشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة على أطراف أصابعه حتى حفت ؛ فلما

رأى أبو بكر أنها قد حفيت حمله على عاتقه ، وجعل يشتد به حتى أتى قم النار فأنزله ثم قال : والله يبتك بالحق لا تدخله حتى أدخله فإن كان فيه شيء نزل بي قبلك ، قال فدخله فلم ير فيه شيئا لحمه وأدخله ، وكان في النار خرق فيه حيات وأفاع ، فألقمه أبو بكر قدمه مخافة أن يخرج منه شيء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيؤذيه ، وجعل يضربن أبا بكر في قدمه ، وجعلت دموعه تنحدر على خديه من ألم ما يجد ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له : يا أبا بكر لا تحزن إن الله معنا فأزل الله السكينه عليه والطمانينه لأبي بكر ، فهذه لينته .

وأما يومه فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب ، فقال بعضهم : نصلى ولا نركي ، فأتيته لا ألو نصحا فقلت يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم تألف الناس وارتفق بهم ، فقال لي : أجياب في الجاهلية خوار في الإسلام فهذا أنألفهم ؟ قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فارتفع الوحي ، فوالله لو منونى عقلا كانوا يعطونه رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه ، قال فقائلنا عليه فكان والله رشيدا لأمر ، فهذا يومه . ثم كتب إلى أبي موسى يلوومه .

أما طاووس الباهي فإنه كان من التابعين : وكان من حديثه مع هشام بن عبد الملك ، إذ أتى المدينة أن قال له هشام عظمى ، فقال : سمعت من أمير المؤمنين على رضى الله عنه يقول : إن في جهنم حيات كالقلال ، وعقارب كالغبال ، تلدغ كل أمير لا يعدل في رعيته .

وأما سفيان الثوري : فقد كان من حديثه أنه لما دخل على أبي جعفر النصور ، قال له أبو جعفر : ارفع إلينا حاجتك ، فقال : إنما تزت هذه النزلة بسبب المهاجرين والأنصار وأبناءؤم يموتون جوعا ، فأتق الله وأوصل إليهم حقوقهم ، فطأطأ النصور رأسه .

وأما عطاء بن أبي رباح : فإنه لما دخل على عبد الملك بن مروان وهو جالس على سريره وأجلسه معه عليه قال ما حاجتك ؟ فقال يا أمير المؤمنين اتق الله في حرم الله وحرم رسوله فتمهده بالمعارة ، واتق الله في أولاد المهاجرين والأنصار ، فإنك بهم جلست هذا المجلس ، واتق الله في أهل الثغور فإنهم حصن المسلمين ، وتفقد أمور المسلمين فإنك وحدك السئول عنهم .

وأما أبو حازم : فإنه لما سأله سليمان بن عبد الملك بقوله : أى الكلام أسمع ؟ أجابه : قول الحق عند من تخاف ورجو ، قال فأى المؤمنين أخسر ؟ قال : رجل خطا في هوى أخيه وهو ظالم فباع آخرته بديناره .
وأما عمر بن عبد العزيز فإنه كان يوما مع سليمان بن عبد الملك فسمع سليمان صوت الرعد فجزع ووضع صدره في مقدمة الرجل ، قال عمر : هذا صوت رحمته فكيف إذا سمعت صوت عذابه ؟ .

قيل إن عبد الملك بن مروان خطب يوما بالكوفة فقام إليه رجل من آل سميان فقال مهلا يا أمير المؤمنين أفض لصاحبي هذا محقه ثم اخطب ، فقال وماذا ؟ فقال إن الناس قالوا له ما غاص ظلامتك من عبد الملك إلا فلان لجئت به إليك لأنظر عدلك الذى كنت تمدنا به قبل أن تتولى هذه المظالم ، فطال بينه وبينه الكلام ، فقال له الرجل يا أمير المؤمنين : إنكم تأمرون ولا تأمرون ، وتنهون ولا تنتهون ، وتظنون ولا تظنون ، أفنتدى بسيرتكم في أنفسكم أم تطيع أمركم بالسنتكم ؟ فان قام أطيعوا أمرنا واقبلوا نصحننا فكيف ينصح غيره من غش نفسه ؟ وإن قلم خذوا الحكمة حيث وجدوها ، واقبلوا العظة ممن سمتموها ، فلام قلدناكم أزمة أمورنا وحكمتناكم في دماننا وأموالنا ، أو ماتمردون أن منا من هو أعرف منكم بصنوف اللغات ، وأبلغ في المظالم ، فإن كانت الأمانة قد عجزت عن إقامة العدل فيها نغفوا سبيلها وأطلقوا عقابها يتدرها أهلها الذين قاتلتهموم

في البلاد وشتتم شملهم بكل واد . أما والله لئن بقيت في يديكم إلى بلوغ الغاية واستيفاء المدة لتضعطن حقوق الله وحقوق العباد ، فقال له : كيف ذلك؟ فقال لأن من كلكم في حقه زجر ، ومن سكت عن حقه قهر ، فلا قوله مسموع ، ولا ظلمه مرفوع ، ولا من جار عليه مردوع ، وبينك وبين رعيتك مقام تذوب فيه الجبال حيث ملكك هناك حامل ، وعزك زائل ، وناصرك خاذل ، والحاكم عليك عادل ، فأكب عبد الملك على وجهه يسكى ، ثم قال له فما حاجتك؟ فقال عاملك بالجاوة ظلمي ، وليه لمو ، ونهاره لمو ، ونظره زهو ، فكتب إليه بإعطائه ظلامته ثم عزله .

قال الجاحظ في كتاب (البيان والتبيين) حدثنا يزيد بن هارون ، قال : أخبرنا هشام بن حسان عن الحسن أن زيادا بعث الحكم بن عمرو على خراسان فأصاب مغنا ، فكتب إليه زياد : « إن أمير المؤمنين معاوية كتب إلي يأمرني أن أصطنق له كل صفراء وبيضاء ، فإذا أتاك كتابي هذا فانظر ما كان من ذهب وفضة فلا تقسمه واقسم ماسوي ذلك » .

فكتب إليه الحكم : « إني وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين ، والله لو أن السموات والأرض كانتا رتقا على عبد فانق الله لجعل الله له منها مخرجا والسلام » ثم أمر المنادي فنادي في الناس أن اغدوا على غنائمكم قسمها بينهم .

وإنا محمد من ضبة ومن بعده صدقهم ، ولكن لانشاد الناس مشادتهم . قل الحق وتلطف ، لا تكن فظا فلعل مقام مقال ، وللسلام مواطن . ولقد جرب الناس قديما القول فرأوا أنجمه في العقول أطقه ، وأنعمه في النفوس أجمله . قال تعالى لموسى وهارون عليهما السلام : « قولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى » وقال الله تعالى على لسان نبيه عليه الصلاة والسلام : « وإنا أوياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين » .

فياك أن تغلد كل ماتسمع ، بل اعرض كل شيء على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وتذكر قول الله تعالى : « ولو كنت فظا غليظ القلب لانقضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر » . وإذا قرأت في تاريخ اليونان أو سولون الحكيم قابل أكرسيوس في مملكة ليدا وهو في أبنته وسلطانها وعظمتها متجملا بأغزر الثياب ، متحليا هو وأعوانه وأرباب دولته بأنواع الحلى الملكية ، والجواهر الغالية الثمينة ، فقال أكرسيوس لسولون : هل رأيت أحدا يلبس ملايبي؟ فقال : نعم الهدبوك الأهلية والبرية والطاووس ، فنضب ثم قال : هل رأيت أحدا أسعد مني؟ فقال الملك طيلوس من أهل مدينة أثينا ، مات سعيدا فرير العين بنصرة وطنه ، ولقد حزن عليه سائر البلاد ، فهذا أسعد منك ، وويليه أخوان اسم أحدهما (كليوبيس) واسم الآخر (ييطون) ، كانا فاضلين صالحين ، أكرما أمهما الصالحة ، حتى إنهما جرا عربتها إلى اللحد ، فدعت لهما ، وأثني الناس عليهما ثم اتا صالحين ، مرضيا عليهما من الله والناس ، وعند ذلك غضب أكرسيوس وظن أن سولون مجنون ، ثم عرف له فضله بعد حين إذ وضع على النار ليحرق فصرخ بقوله (سولون) فز خرج عن النار ، وسأله الملك عدوه فأخبره بما جرى له مع سولون فأنخلع قلبه وأطلقه . وإذا سمعت عن ذلك الحكيم الهندي (بيدبا) مؤلف كتاب (كلية ودمنة) وقد دخل على ملك الهند وأغظ له في القول ، وقال : لقد ظلمت الرعية ، وأضمت ملك آبائك ، وخربت البلاد ، وأضمت العباد ، فغبه ثم أطلقه ، وولاه الملك بعد حين ، فاعلم أن هؤلاء قالوا الحق ، ووطنوا أنفسهم على المكارة ، فخذ من النار ضوءها ، واعتدل في قولك ، وتابعهم في قول الحق ، وإصلاح شأن الأمة ، واعتدل عن الشتم ، فذلك خير وأحسن تأويلا ، وقرأ قوله تعالى : « وقل لبنادى يقولوا لى هو أحسن إن الشيطان يفرغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا » ، وقوله : « وقولوا للناس حسنا » وقوله : « ولا تستوى الحسنة ولا

ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ، وما يلقاها إلا الذين صبروا
وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم» وقوله تعالى : «وليتلطف» .

واعلم أن الأطباء إنما يضمنون الدواء المر في غلاف ليسهل تعاطيه ، فلنكن أطباء صالحين . وإذا رأيت
نفسك خائرة القوة ، هيابة ، تفر من الظلام ، وتفرغ من الأحلام ، تسلط على الجبن ضده ، وأيقظ النفس
من خمولها وخمودها ، وحركها إلى الأنفة والشمم والإباء ، وعدم تحمل الضيم ، وأقل ما حكاها ابن مسكويه
عن بعض المتفلسفين أنه كان يتمدد مواطن الخوف فيقف فيها ويحذل نفسه على المخاطرات العظيمة بالتمرض
لها ، ويركب البحر عند اضطرابه وهياجه ليعود نفسه الثبات في المخاوف ويهيج منها القوة التي تسكن عند
الحاجة إلى حركتها ، ويخرجها عن رذيلة الكسل ولو أحق .

ولقد كنت وأنا بالجامع الأزهر الشريف أقرأ هذا الكتاب ، فأخذت أعلم نفسي علم الشجاعة كما
في ابن مسكويه ، وما أحسن مدارس التعليم ، فليكن لفضيلة الشجاعة التعليم العسكري ، وبعض الأمم
المتحضرة تعلم أبناءها عموماً النظام العسكري كما في سويسرا ، إلا لفتنصر مصر ذلك كما أوضحنا في كتابنا (نهضة
الأمّة وحياتها) الذي قصدت به نظام الأمّة علماً وسياسة وعملاً .

فلعمرك إن الجبن سجن المترفين ، قديم بأغلال وصفدم في الأدام ، وللمك قرائم كتاب (السبق
والرمي) في علم الفقه والناس غافلون لا يعلمون لم وضع هذا الباب ، وما أغفل المسلمين اليوم عن هذه القضية
فإذا لم توظف الحكومات الناس فليقم الأفراد بتربية أبنائهم ليدلوم على فطرم الإنسانية ، فذلك أبقى للأمم
وأحسن وأشجع للأفراد ، فإذا ماتت الشجاعة حل محلها الجبن ، واستولى الترف ، وحلقت بالناس الهلاك :
«وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً» .

أسئلة

- (١) اذكر شجاعة للعرب الجاهلية .
- (٢) قارن ما بين حال المصريين اليوم وحال العرب الجاهلية في الشجاعة .
- (٣) ماذا ترى في الشجاعة الوقتية المسكانية أم هي نافعة للأمم ؟
- (٤) وماذا يجب على مربي الأمّة المصرية في شجاعتهم ؟
- (٥) قارن حال انتقال الأمّة العربية من حمية الجاهلية بحال تربيتنا المصرية الآن .
- (٦) ماقصة ضية مع عمر بن الخطاب ، وما ترى في شجاعته الأدبية ؟
- (٧) أعط فكرة عامة على الشجاعة الأدبية في صدر الإسلام .
- (٨) قارن ذلك بحالنا اليوم .
- (٩) مادواء الجبن ؟
- (١٠) هل تستنتج من الأبواب السابقة في الكتاب أسباب التنباعة وعلاجها لغرض الجبن ؟
- (١١) إذا قسا المعلم على التلاميذ لماذا تكون شجاعتهم ؟
- (١٢) إذا قهرت الحكومة الأمّة وقست عليها لماذا تكون حال الأمّة ؟
- (١٣) ماذا يجب على المعلمين وعلى الحكام حتى لا يمتنوا الشجاعة .

الكرم والبخل

من أدى من ماله واجب الشرع ، وواجب المروءة اللاتفة به فهو الكريم ، ومن قصر فيها وجب عليه

فهو البخل ، فمن شاح في المحقرات وصايق في الصغار والهنات مع الخدم ، أو أطال في مشاحنة عياله وأهله أو قرسه على نفقة وسم بالبخل ، ولا قيد يحصر أقسام البخل وأوصاف البخل إلا العادة والعرف ، فقد ينفق الرجل كثيرا ويشح بالقليل فيحسب بخيلا فإنه قصر حيث ينبغي الإغناء ، ومنع حيث يجدر الإعطاء لا كرم إلا حيث يكون البذل محبوبا ، والعطاء مرغوبا ، وإلا فتكرم وتكلف . سبب البخل غلبة الشهوات وطول الأمل ، ورحمة الولد ، وخوف الفقر ، وقلة الثقة بمنجى الرزق وعشق المال لذاته .

من غلبت عليه شهواته فليعلم أنها نار تظلى مهما أمدها بالوقود احتدم وطيسها ، وغات مراجلها ، وارضع لها ، وقالت هل من مزيد ، ومن طال أمله فليذكر الإخوان والأقران الذين طعموا كما طعم ، وجمعوا كما جمع ، ثم اختطفهم المنون ، وهم عن التذكرة معرضون ، ومن جمع المال للولد فليعلم أنه إن يكن من المؤد بين التملين قد عاش كأيما المجتهدين ، وقته في خلقه شئون ، وإن كان بمن ارتطموا في أحوال الشهوات ، وباعوا أنفسهم للموبقات ، وغكفوا على اللذات ، فالمال طامة كبرى ، وآفة عظيمة ومجلبة لشقائه ، وزيادة في بلائه .

ومن خالف الفقر وقلت نفته بالله عز وجل فليكشف العطاء عن عينه ، وليتفكر في المحشرات والطيور والبهائم « وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم » . ومن أصبح عاشقا للمال مفرما بجمعه كان كالشيخ الهرم الذي جمع مالا وعدده ، يحسب أن ماله أخذه ، تحت أطباق الثرى حتى لا يرى ، فلقد علم أنه لا ينفعه في حياته ، ولا ينتفع به بعد ماته ، ومن ابتلى بهذا الداء قلما يرجى علاجه . وقد قلت :

وما هذه الدنيا سوى البرق لامعا فهذا به يلهو وذا رائد القطر

وما هذه الدنيا سوى الروض بانما وأغارها حسن الأحاديث والذكر

فمن كرمت نفسه ، وأفق ماله ، انطلقت الألسنة بمدحه ، وتناقلت الركبان ثنائه ، وجنى ثمرات عمله كرتين في الدنيا والآخرة « كمثل جنة برية أصابها وابل فانت أكلها ضعفين » فمن أفق فلنفسه يرجع الثناء وله يكون الثناء ، ومن قتر فهو المحروم ، للبعد عن الله والناس « ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فنسكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه » وتذكر ما خاطب به حاتم ماوية بنت عفر :

أماوى إن المال غاد ورائح ويبقى من المال الأحاديث والذكر

أماوى إنى لأقول لسائل إذا جاء يوما حل في مالي النكر

أماوى إما مانع فبين وإما عطاء لا ينهيه الزجر

أماوى ما يخفى التراء عن الفنى إذا حشرت يوما وضاقت لها الصدر

أماوى إن يصبح صداى بقفرة من الأرض لأماء لدى ولاخر

ترى أن ما أنفقت لم يك ضرنى وأن يدى مما بخلت به صفر

لقد علم الأقوام لو أن حاتمأ أراد تراء للمال كان له وفر

النفوس الكريمة تريد أن تكون شموسا مشرقة وآنية فياضة ، فيجودون بالموجود من صدقة ، ويألمون لقلة ذات اليد حرصا على الكرم . قال الإمام الشافعى :

يا لهف قلبى على مال أفرقه على اللقلين من أهل الرواد

إن اعتذارى إلى من جاء يسألنى ما ليس عندي لمن إعدى للصبوات

وما يسر عند السمر ، ومحلو في البدو والحضر ، ما يروى أن أبا تمام دخل على إبراهيم بن شكلة وامتنحه

بأبيات وكان عليلاً فتقبلها وأمر حاجبه أن يئوته بمبوا صدق ، وبمدله نزلوا ومرحبا سهلاً حتى يبل من مرضه فأوحته طول المقام ، فكتب إليه يقول :

إن حراماً قبول مدحتنا وترك ما يرجي من الصنف (١)

كما الدنانير والدراهم في البيع حرام إلا يدا بيد

فلما وصل البيتان إلى إبراهيم قال لحاجبه : كم أقام بالباب قال شهرين ، قال أعطه ثلاثين ألفاً وجنى بدواة ، فكتب إليه يقول :

أعجلتنا فأناك عاجل برنا قسلاً ولو أمهلتنا لم تقل

غذا القليل وكن كأنك لم تقل وسكون نحن كأننا لم نعمل

أذلك خير أمن صار مثلاً في الآخرين ، وسكالا في العارفين ، كمثل أعرابي أقبل يطلب رجلاً وبين يديه تين فغطى التين بكسائه ، جلس الأعرابي ، فقال له الرجل : هل تحسن شيئاً من القرآن قال نعم ، فقرأ « والزيتون وطور سينين » . فقال : وأين التين قال هو تحت كسائك ، انتهى ما أردته من كتابي (جوهر التقوى) وبهذا تم الكلام على اللطيفة الرابعة في قوله تعالى : « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » . والمجد لله رب العالمين .

اللطيفة الخامسة

في قوله تعالى : « يوم تقول لجنهم هل امتلأت وتقول هل من مزيد؟ »

اللهم إني أحمدك على نعمة العلم التي لانهمة تفضلها ، وأشكرك على جزيل مواهبك ، وحجيل آلائك ، فلقد فتحت باب العلم فتحاً مبيناً ، وشرحت صدرى لهذا التفسير ، وأصبح ما في كتابك من اللغات الغائبة عن الناس أشبه بالمفوس باليد . للنظور بالعين ، السموع بالأذن ، فأنت يارب العلم وللهم ، وأنت رب العالمين : من ذا الذي كان يحتلج في صدره أن معاني هذه الآية التي ذكرت في أحوال الآخرة أصبحت كالشاهد المحسوس الذي تدل أوائله الشاهدة على أواخره الغائبة ، إن هذه الآية قد ضمت في خواها جميع ما ينتاب الناس في الحياة الدنيا من الإذلال والآلام وهم لا يشعرون :

(١) إن أول ما يقطن لمنها ما تنطق لي وأنا شاب ، وقد جلست مع الفلاحين في قريننا ، ومهمهم يذكرون رجلاً اتباه مرض خاص لا أتذكره ، وكما وضوا البطيخ في فيه فأكله اعترته حال شديدة فعضش فأعطوه غيره ، فخطرت لي هذه الآية حالا ، وقلت في نفسي : هذه جهنم قد ظهرت في معدنات الإنسان ، وفي حرصه وطعمه ، وجميع أحواله ، وهذا الذي سمعته الليلة ما هو إلا إعلام من الله لي بتفسير هذه الآية إن إلحاح الشهوات والمطش المستمر على هذا المرض هو عينه ما يحس به الفقراء والأغنياء والعلماء والجهلاء والملوك والسوقة من الرغبات التي لا أحد لها في جميع أطوار الحياة ، إذن هذه الدنيا مبادئ جهنمية غاية الأمر أنها خفية لم يقطن لها الناس بحسب ما سمعوا ، لأنهم لم يسمعوا من الله ما يقطنها من العذاب والحرارة

(٢) ولما دخلت مدرسة (دار العلوم) وكنت مرة في زمن العطلة الصيفية ، وقد توجهت إلى القاهرة فزرت حديقة الحيوانات بالجزيرة يومئذ رجعت قابلي وأنا راجع عند الكوبري رجل جمعني وإياه المصادفات في للدة التي فتح فيها الكوبري لمرور التراكب قصص على قصصا ، قال : أنا كنت متعلما في مدرسة الأسن التي أنشأها محمد علي باشا . ثم صرت موظفاً ، وهناك أحوال خاصة أزمتمني للنزل فأصبحت لأعمل لي

فلزمت بنت الحان ، وصرت مدمنا ، ولى أصدقاء مدمنون مثلى ، ولكنى وقتا فوقتا تذكر ما كنت أحسنه من الأساتذة : « إن شارب الخمر يصابون بأمراض تفتك بهم » وهاهنا تقوم حرب شعواء بين هذه الشهوة التى ملكت قيادى وبين العلم الذى لا أشك فى صدقه القاطع بضرر الخمر ، وهاهنا العذاب الواسع الذى ماله من دافع ، فأنا دائما بين نارين : نار الخوف الدائم من حلول الأوصاب والأمراض ، ونار الشهوة المحرقة للطلعة على فؤادى ، وظالما ذهبت إلى سيدنا الحسين ، وصلت فى مسجده ، وطلبت من الله أن يرعى من هذا الصاب فأتوب يومين ، فيرجع لى إخوان السوء ، فيلحون على ، فأرجع كرة أخرى ، ولكن هذه المرة قد تركت تعاطى الخمر (١٤) يوما ، فأنا فرح بهذه النعمة ، وعسى الله أن يتوب على إنه هو التواب الرحيم ، وهناك أقفل الكوبرى فررنا عليه وسلم على وانصرف اه .

ولا جرم أن هذه حال هذا الإنسان كله فيما يحيط به ، غاية الأمر أن السكرى هم أوضح مثال لما علق بالناس من العادات ، وأحوالهم صورة ظاهرة واضحة لآيات كثيرة فى وصف أهل جهنم كقوله تعالى : « يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم » وقوله : « وبأبيه الموت من كل مكان وما هو بميت » الآية ، وقوله : « كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق » وقوله : « فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى » ، وقوله : « وقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين . بل بدلهم ما كانوا يخفون من قبل لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون » وقوله : « كلما نضجت جلودهم بدلناهم بجلودا غيرها ليدوقوا العذاب » :

ومن أعجب العجب أن يذكر فى الأهرام حديث يشبه الحديث المتقدم يوم السبت ٩ أغسطس سنة ١٩٣٠ وبين هذا الحديث والحديث الذى سقته لك الآن ٤٠ سنة ، والحديثان متشابهان غاية الأمر أن الحديث فى هذه السنة (١٣٥٠ هجرية) وهى سنة طبع هذه الأجزاء يدل دلالة واضحة على تقدم الفحشاء والمنكر فى بلادنا المصرية قدما محسوسا ، فإن الفتى الذى قابلنى عند الكوبرى كان يسكى ويعزن لأجل الإدمان على شرب الخمر ، وأقوى عامل أورث شيوع الخمر فى بلادنا إضلال الاستعماريين من أهل أوروبا لشباننا ، وبهم استأصل داء الجهالة والتواوية ، والفقر والدين واستحك وأفسد الطباع ، ونجح الأورويون نجاحا عظيما فى إيهاد آبائنا بسبب الامتيازات الأجنبية ، وأهل الرأى فى البلاد عاجزون عن تربية هذا الشعب ، وأكثر المقول منصرفه عن حقائق العلوم ، عاكفة على ظواهرها وعلى حفظ اللغات ، وذلك كله بفتنة الاستعمار التى لم تجد لها مرتما خصييا إلا فى بلادنا : و « لله الأمر من قبل ومن بعد » .

واعلم أن هذا الشاب الذى قابلنى عند الكوبرى هو وأمثاله مثل ساقه الله لتفسير هذه الآية ، وهذا المثل ليس خاصا بهذا الفتى ، بل الناس كلهم تحكهم عادات وأخلاق لا يجدون عنها محيصا كما قدمت ذلك من قبل ، فها نحن أولاء نشاهد أنفسنا قد اعتدنا على ملابس وما كل ومشارب وأحوالا اجتماعية لا نجد منها مخرجا ونقول نفس ما يقوله هذا الفتى سواء بسواء ، نحن نأكل الأطعمة الضارة بالصحة ثم ندم هذه العادة التى ملكتنا ، وها نحن أولاء نسمح بحديث الفتيامين المتقدم المذكور فى (سورة ص) عند قوله : « فبمرتك لأغوينهم أجمعين » فريد أن نحافظ على صحة أجسامنا ، وجمال عقولنا ، فلنأكل الفواكه والحضر والحبوب ونحو ذلك فنجد الماديات التى ورثناها لنا بالمرصاد ، ونسمع علماء الطب يقولون لنا : « إن مقابلة الأجسام للشمس والهواء أو أكثرها تورث صحة وعافية ، وإن كثرة اللابس تحجب الأجسام عن الشمس والهواء وهما النعمة العظمى للصحة فنجد الماديات تقول لنا : لتبقوا محجوبين عن الشمس ، وانكونوا ضاعفا خوفا من الفضيحة والمار ، ونرى الهرم بالحج قد لبس الملابس الخفيفة تبدا ، فنقول : هذا ديننا قد فتح لنا

باب الصحة ، فما لنا لانيس كما يلبس العرب في البادية والحرم بالحج ، فتقف عادتنا سدا حصينا بيننا وبين الصحة والعافية ، ونرى الأمم الأوروبية قد أخذت علوم آباءنا وانتفعت بها والقرآن يحض عليها والطيارات أحاطت بناء من كل جانب ونحن أبناء العرب ممزقون متفرقون ، فالمصريون أمة ، وأهل تونس أمة ، وأهل الجزائر أمة ، وأهل مراکش أمة ، وفي سورية أمم بفعل أهل أوروبا تفريقا لنا ، وفي العراق أمة وفي نجد ، وفي الحجاز أمة ، وفي اليمن أمة ، وكل هؤلاء متباعدون متفرقون ، ومق أراد عقلاؤهم الخروج من هذا التفرق قابلتهم عاداتهم وأهواؤهم ، وما ورثوه من آباءهم في القرون المتأخرة ، فاستمر التفريق ودخول الدخلاء بينهم ما لم تصف به أمة غيرهم في زماننا من الفرس والألمان والإنجليز والأسبان وغيرهم ، ولكن هذا التفسير وأمثاله سيكون من أسباب التغلب على العادات للورثة إن شاء الله تعالى ، وسزول الآلام الشخصية والاجتماعية «فأفقه خير حافظا وهو أرحم الراحمين» والحمد لله رب العالمين .

جوهرة في إعجاز القرآن من حيث بلاغته

حديث عجيب في بلاغة آية : «يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد»

في يوم ١٣ يونيو سنة ١٩٣٢ قابلني الأديب المصري الأستاذ كامل كيلاني فحدثني حديثا عجيبا كان أشار إليه قبيل ذلك بمدة قبيل تقديم هذه السورة إلى الطبع ، وهذا الحديث راجع إلى البلاغة التي ظهرت في آية : «يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد» **فيك حديثه** :

قال : كنت مع الأستاذ (فنكل) وهو من أفاضل المستشرقين الأمريكيين ، وكانت بيني وبينه صلات أديبة وثيقة : وكان يأخذ برأيي في ذكر المشاكل التي تقابله في الأدب لما يعتقد في من الصراحة ، ففي ذات يوم همس في أذني متبها ، فقال : خبرني عن رأيك بصراحتك المعروفة أممن يعتقدون إعجاز القرآن أنت أم لملك تجاري جمهور المسلمين الذين يتلقنون ذلك كإبراهيم عن كابر ، وابتسم ابتسامة كل معانيها لا تخفي على أحد وهو يحسب أنه قد ألقى سهما لاسبيل إلى دفعه ، فابتسمت له كما ابتسم لي وقلت : لسكني تحمك على بلاغة أسلوب بعينه يجب أن نحاول أن نكتب مثله أو نقله فلنحاول ليظهر لنا نحن قادرين أم عاجزون عن محاكاته وتقليده ، فلنجرب أن نعبّر عن سعة جهنم فإذا نحن قائلون فأمسك بالقلم وأمكت به ، فكتبنا نحو عشرين جملة متخيرة الأسلوب نعبّر بها عن هذا المعنى أذكر منها :

- (١) إن جهنم واسعة جدا .
- (٢) إن جهنم لأوسع مما تظنون .
- (٣) إن سعة جهنم لا يتصورها عقل إنسان .
- (٤) إن جهنم لتسع الدنيا كلها .
- (٥) إن الجن والإنس إذا دخلوا جهنم لتسمعهم ولا تضيق بهم .
- (٦) كل وصف في سعة جهنم لا يصل إلى تقريب شيء من حقيقتها .
- (٧) إن سعة جهنم لتضمر أمامها سعة السموات والأرض .
- (٨) كل ما خطر ببالك في سعة جهنم فليها لأرحب منه وأوسع .
- (٩) سترون من سعة جهنم ما لم تكونوا لتحلموا به أو تتصوروه .
- (١٠) مهما حاولت أن تتخيل سعة جهنم فأنت بقصر ولن تصل إلى شيء من حقيقتها .
- (١١) إن البلاغة المعجزة لتقصر وتعجز أشد العجز عن وصف سعة جهنم .

- (١٢) إن سعة جهنم قد تحطت أحلام الخالمين وتصور المتصورين .
 (١٣) متى أمسكت بالقلم وتصديت لوصف سعة جهنم أحسست بقصورك وعجزك .
 (١٤) إن سعة جهنم لا يصفها وصف ، ولا يتخيلها وهم ، ولا تدور بحسان .
 (١٥) كل وصف لسعة جهنم إنما هو فضول وهذيان .

إلى آخر هذه الجمل التي لا أذكر منها إلا ما ذكرت لتقدم العهد وطول الزمان ، فقلت له بمسما إيشامة الظافر الواثق : الآن تتجلى لك بلاغة القرآن وإعجازه بعد أن حاولنا جهونا أن نحكيه في هذا المعنى ، فقال : هل أدى القرآن هذا المعنى بأبلغ مما أدبناه فقلت لقد كنا أطفالا في تأديته ، فقال مدهوشا : وماذا ؟ قال : قلت له قال : « يوم تقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد » ، فسفق أو كاد ، وفتح فاه كالأبله أمام هذه البلاغة للعجزة ؛ وقال لي : صدقت نعم صدقت ، وأنا أقدر لك ذلك مفتبطا من كل قلى (هذا لفظه) فقلت له : ليس عجيبا أن تدعبن للحق وأنت أديب خبير بقيمة الأساليب ، وهذا المستشرق مجيد الإنجليزية ، لأنها لغة بلاده في أمريكا ، والألمانية لأنها اللغة التي درس بها الأدب ، والعربية لأنها لغة الأمومة ، والعربية لأنها اللغة التي وقف حياته على درس أدبها ، فهو رجل متخصص للأدب ، وقد جعل حياته وقفا عليه . انتهى الحديث .

هذا حديث الأستاذ (كامل كيلاني) ذلك الشاب الذي ظهر ببلادنا المصرية في هذه السنين ، وله كتب منشورة نهج فيها منها حديثا .

موازنة بين الأدب في هذا العصر أي سنة ١٩٣٢

وفي البدء الأولى أيام شباني في نحو سنة ١٨٨٧ م .
 ذلك أن مصر في ذلك العهد كان فيها بعض الأدباء والشعراء ، وأنا كنت أتعلم إذ ذاك في الجامع الأزهر ، ومن العجب أن السؤال الذي وجه إلي هذا الشاب الأديب وجهته إلى أستاذي العلامة الشيخ محمد النجدي ، وقد كنت أتلقى عليه الأدب بالطريقة القديمة إذ كنا نقرأ كتاب السيد للتفاضل في الأدب ، وكذلك الأشموني في النحو والصرف ، ونصرف زمن الشباب في ذلك الأدب ، ونحن لا نذوق منه شيئا ، ذلك أني سألته خارج الدرس قائلا : يا سيدي أنت أعلم العلماء فيما أعلم من الأدب ، وأنا أعلم أنك مؤمن بأن القرآن حق وبأنه معجز في فن البلاغة ، ولكن هل ذقت أنت نفس هذه البلاغة ، وأحسست من غير أن تتأثر بما تلقته عن الأشياخ ؟ فأجابني قائلا كلا . يشيخ طنطاوي : ألا ترى أننا نضيع حصه كاملة في إعراب بيت في كتاب الأشموني أو إجراء استعارة تصريحية أو مكنية أو نحو ذلك ، وهل خرجنا من هذا السجن إلى جو البلاغة المضيء البهيج البديع ؟ انتهى حديثي مع هذا الشاب في سنة ١٩٠٦ (٥)
 عجبا يارباه : أم الإسلام التي خلقت فيها هاهي ذه لما كنت أدرس الأدب وأنا شاب لم يكن ذلك الأدب إلا آثارا ، أم تذهب وأم تحيي ، والأدب يقرأ والغاية منه مجهولة والطريق وعرة . (٧)
 اللهم لك الحمد والمنة ، ها أنا ذا الآن أرى الأحوال قد تغيرت ، والوجهة استطلعت ، والمقول امتنارت ، ها هو ذا الأديب المصري مع الأديب الأمريكي يرجعان بالأدب إلى حقيقته وبوازنان بين القرآن وكلام الناس وكانت النتيجة أن القرآن يبلغ . (١٠)
 أيها السلون : قد استبان من هذا الحديث أن التعاليم القديمة في الأدب أخذت تسمى ، وهاهي ذه

الأجيال القادمة يظهر لي كما قلت مرارا في هذا التفسير مقبولون على أيام علم وحكمة وأدب وسعادة وارتقاء .
 أوليس من العجب أن يكون سؤالى لأستاذى رحمه الله تعالى في شبانى معادا عينه في مشيى ، ثم تكون الآخرة
 خيرا من الأولى ، أوليس من الدهش هذا الانقلاب السريع في أمة الإسلام ، إذن ما كنت أتوقفه لأمة
 الإسلام وذكرته كثيرا في هذا التفسير آت لا ريب فيه ، والحمد لله رب العالمين .
 (نذكرك) في سورة الفاتحة . موازنة بين بلاغة سورة الفاتحة وفواخ السور وبين بلاغة فواخ اللغات
 فارجع إليها إن شئت . وإلى هنا تم السلام على سورة ق ، والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة الذاريات

هي مكية

آياتها ٦٠ - نزلت بعد الأحقاف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا • فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا • فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا • فَالْمَقْسَمَاتِ أَمْرًا • إِنَّمَا
 تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ • وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ • وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الْجُبُكِ • إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ •
 يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنَ أْفِكٌ • قَتَلَ الْخَرَّاصُونَ • الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ • يَسْئَلُونَ أَيَّانَ
 يَوْمِ الدِّينِ • يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ • ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِه
 تَسْتَعْجِلُونَ • إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ • آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ
 ذَلِكَ مُجْسِنِينَ • كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ • وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ •
 وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ • وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ • وَفِي أَنْفُسِكُمْ
 أَفَلَا تُبْصِرُونَ • وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ • فَوَرَبَّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ
 مِثْلَ مَا أَنْكُمْ تُنطِقُونَ • هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ • إِذْ دَخَلُوا
 عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ • فَرَأَى إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ •
 فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ • فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَرُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ
 فَاقْبَلْتِ امْرَأَتَهُ فِي صِرَةٍ فَصَكَتَ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ • قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ

لأنه هو الحكيم العليم • قال فما خطبكم أيها المرسلون • قالوا إنا أرسلنا إلى قوم
 مجرمين • لئن نزل علينا حجارة من سماء • مسومة عند ربك للمسرفين • فأخرجنا
 من كان فيها من المؤمنين • فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين • وتر كنا فيها
 آية للذين يخافون العذاب الأليم • وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسُلطان
 مبين • فتولى بر كنه وقال ساحر أو مجنون • فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم
 وهو مليم • وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم • ما تذر من شيء أتت عليه إلا
 جعلته كالرميم • وفي نوح إذ قيل لهم تمموا حتى حين • فعتوا عن أمر ربهم
 فأخذتهم الساعة وهم ينظرون • فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين •
 وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوماً فاسقين • والسماء بينناها أيدي وإنا لموسمون
 والأرض فرشناها فنعم الماهدون • ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون •
 ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين • ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر إنى لكم منه
 نذير مبين • كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون •
 أتواصوا به بل هم قوم طاعون • فتول عنهم فما أتت بملوم • وذكروا إن الله كرى
 تنفع المؤمنين • وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون • ما أريد منهم من رزق وما
 أريد أن يطعمون • إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين • فإن للذين ظلموا ذنوباً
 مثل ذنوب أصحابهم فلا يستمعلون • فويل للذين كفروا من يومهم الذي
 يوعدون •

هذه السورة ثلاثة أقسام

القسم الأول : في تيسير البسطة .

القسم الثاني : في دلائل البعث من العلوم الطبيعية ، والمجانب النفسية ، وفي ذكر جزاء المتقين ، وأخبار
 الأمم للروية من أول السورة إلى « لعلكم تذكرون » .

القسم الثالث : في تسلية النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي الفرار إلى الله من هذه الدنيا المزدوجة القاصد ،
 المنصوفة بالباطل ، من قوله تعالى : « ففروا إلى الله » إلى آخر السورة .

القسم الأول في تفسير البسملة

بسم الله الرحمن الرحيم

رباه: لك الحمد على نعمة العلم وبهجة الحكمة وسعادة الكشف والإيضاح، رحمتك طلسم الوجود ولنز
الحياة، وأحجية الدنيا والدين، حرنا ياربنا في رحمتك، رأيناها حاصلة بالضدين: الخير والشر. والضر
والنفع. أوليس من المعجب أن نرى الجهال من نوع الإنسان وأكثرهم جاهلون، والدواب جميعا تسوقهم
للعمل الشهوات وماعى الشهوات إن هي إلا مهامير وسياط وونيران تظلي في هذه الحياة الدنيا تسوق الناس
إلى أعمالهم، ينشط العامل لعمله، والتاجر لتجارته، والسياسي لنظام دولته، بهم نشط هؤلاء لم يكن
ذلك إلا لما يحسون في أنفسهم من ألم الجوع وبوار التجارة وضياع المجد والحزى والمار أمام الأعداء
والأهل والأصحاب.

سبحانك اللهم وبحمدك، سبحانك ربنا، إذن حسراتنا وأحزاننا وآماننا ومسرراتنا الوقتية وعداواتنا
إن هي إلا محرقات لهممنا، سائفات لزعمانا، جعلتها يارب أسواطها تسوقنا كما تسوق نحن بهائمنا وأنعامنا
عما لدينا من سياط وعصى وأدوات.

يركب أحدنا الحصان والحمار والفيل والجلد، ويسوقه بما معه من سياط، وإنما فعل ذلك لما نعلمه
من أن هذه الدواب لا تسير سيرا على مقتضى رغائبنا غالبا إلا إذا نظمنا سيرها بإيقاظها بضرب السياط وإعمال
للهامير، تفعل ذلك ونحن نجهل أنك أنت تفعل معنا ما تفعله نحن مع دوابنا. الله أكبر: نحن في عالم المادة
والمادة هذا شأنها، عالمنا مادي فالمادة كلها آلائه. لذلك قضيت علينا وحكمت حكما عدلا أن يكون جوع
وشبع، وخير وشر، وضر ونفع. وحبيب وعدو. فإن كان خيرا فرح الحبيب فأفرحنا. وإن كان شر
شمت العدو فحزننا للعمل كما نسر بتعاطي الطعام، وبمسرات اجتماع الزوجين الذكر والأنثى، والصحة
والجمال. ونحزن للفقر والمرض والذل والخضوع للأعداء. فنجده للعمل حتى نسترد ما كنا به في بهجة وجور:
هما ضدان اتخذتهما برحمتك سوطين يسوقاننا لأعمال الحياة. أفليس من عجب أن تكون شماتة الأعداء
أكبر مقوم لنا ومرق في الحياة من رضا الحبيب وغفلة أو تغافل عن عيوبنا. إذن الضدان لا يبد منهما لرحمتنا
حتى نحيا سعادة وسعادة ما. يشير لذلك قوله تعالى في هذه السورة: «ومن كل شيء خلقنا زوجين لملككم
تذكرون. ففروا إلى الله».

اللهم إن أكثر نوع الانسان مسوقون بهذين السائقين وهم في رحمتك بهما، وهذا قوله في سورة أخرى
«قتل الإنسان ما أكرهه» وقوله: «ولكن أكثر الناس لا يعلمون». وهناك صنف من الناس ارتقى
عن هذه الطوائف فكان عمله للخير المحض والسعادة المطلقة، وهذه هي النفوس العالية التي تشرق على
هذا النوع الانساني آفاقا.

الله أكبر: هو الرحمن الرحيم، الله أكبر: هو الذي خلق الشمس والقمر والنجوم، والجبال والشجر
والدواب خلقها برحمته هو إبداعا، وصقل الدنيا كلها بصقال الجمال، وجعل في العقول الإنسانية من يكونون
في الأرض أشبه بتلك النجوم والشموس والأقمار، يضيئون على الناس كاتضئ الكواكب والشمس والقمر
على الأرض.

الله أكبر: ما أكثر غفلة نوع الانسان، هذه الطائفة هم الذين قال الله فيهم: «وقليل من عبادي
الشكور»، ألا ترى أن شكر النعمة أن يوجه الانسان جميع مواهبه إلى وجهتها. وعبارة أخرى يكون
مع الناس ومع ربه أشبه بالشمس والكواكب في عموم النفع بلا طلب مكافأة ولا عجزاة، وكما أن الشمس

سقادة تسير على النظام المحيد الذي رسمه لها المبدع ، وتطيعه طاعة أشبه بطاعة الحب لمحبه طلبا لرضاه ، وسعيا لامثال أوامره ، هكذا هذه الطائفة في هذا النوع الإنساني نزلوا إلى الأرض لهذه الفضيلة ، شأنهم مع الناس شأن الأممات مع أولادها ، وشأن الأستاذ الصادق مع تلاميذه النجباء والبلداء . وشأن الشمس مع الأرض الطيبة والفقراء ، وهؤلاء الشاكرون من نوع الإنسان هم الأنبياء والحكماء الذين يخفون في الأمم جلا خيلا ، هم في الأرض مع الله أشبه بالكواكب في إطاعة النظام . وبعبارة أخرى هم يرقون الأمم بما يحسون في نفوسهم من حب لها ، وغرام بربها وإسعادها ، لا يرقون جزاء ولا شكورا ، ولن يتم لهم ذلك إلا بحب وهيام وغرام بمبدع الشمس والأقمار ، فهم عن الله يأخذون ، ولعباده يعطون ، والله يلهم النفوس العالية وهم الملائكة أن تخدمهم من الأنوار التي استمدتها منه تعالى ، فهؤلاء العلماء في الأرض والنفوس الشريفه في العالم الأعلى هم الذين يشهدن نظام السموات والأرض المذكور ، في نظرات الخليل عليه السلام وإذن يشهدون الحكمة والجمال والبهجة في العوالم ، هم المعطوفون على الملائكة في آية : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم » .

وستكثر هذه الطائفة في ديار الإسلام بعد نشر هذا التفسير في زماننا . وفي الملائكة المذكورين يقول الله في هذه السورة : « فآلقنات أمرا » . وفي تربية الناس ليستخرج منهم من هو مستعد للالتقي عن تلك النفوس العالية وإن كانوا قليلا يقول فيها أيضا : « كانوا قليلا من الليل ما يهجمون وبالأشجار هم يستغفرون وفي أمورهم حتى للسائل والمحروم » . هذه أوصاف العابدين ، ومن هؤلاء العابدين من تسمو نفوسهم إلى هذه الطائفة بما ركب فيهم من الاستعداد والقوى النفسية وهم المفكرون فأسمعهم ما بعد ذلك فقال : « وفي الأرض آيات للموقنين ، وفي أنفسكم أفلا تبصرون ، وفي السماء رزقكم وما توعدون ، فو رب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تعتقون » .

فلتنظر أيها الذكي في نفسك ، فإن كان عملها للناس لغرض المكاسب كما هو دأب أكثر هذا النوع الإنساني أو للشهوة أو اللذة ، أو العلو على الناس ، فأنت لا تنزل في درجات الدنيا من العبادة ، وإن كان عملها بسائق الحب كما تفعل الأم بولدها فأنت في التروة العليا ، ثم انظر في آخر هذه السورة : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » فإن كانت هذه العبادة لأجل الجنة وما فيها فهي المرتبة الدنيا ، وإن كانت الأعمال والعبادات صادرة بحب خالص فإن السعادة والبهجة تعجل لصاحب هذا العمل في نفس الحياة الدنيا ، وهذه الطائفة من الآن سعداء ، دنياهم كآخرتهم ، يعبدون الله كأنهم يرونه ، ومن عبد الله كأنه يراه فهذا لا ينتظر جزاء بعد ذلك فقد نال مقصوده : فكن أيها الحبيب ذلك العبد إن شاء الله .

هذا ما فتح الله به صباح يوم الثلاثاء ٢٩ شوال سنة ١٣٥٠ هجرية الموافق ٨ مارس سنة ١٩٣٢ م وكتبته وقت الضحى : وبها تم الكلام على القسم الأول في تفسير البسملة ، والحمد لله رب العالمين :

القسم الثاني من السورة

في دلائل البعث من العلوم الطبيعية ، والعجائب النفسية ، وفي ذكر جزاء التقيين ، وأخبار الأمم المروية من أول السورة إلى قوله تعالى : « لعلمكم تذكرون » :

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(والقاريات ذروا) الرياح تذرو التراب وغيره (فالحماملات وقرا) أي الرياح الحاملات للسحاب (فالجاريات يسرا) أي الرياح الجارية في مهاجها بسهولة (فالقنات أمرا) هي الرياح التي تقسم الأمطار

بصرف السحاب ، فالقاه هنا لترتيب الأفعال ، والذات واحدة ، وهى الرياح وجواب القسم قوله (إنما توعدون لصادق) فإن هبوب الرياح وذرورها التراب ، وحملها السحاب ، وجريها فى الهواء بسهولة ، وتقسيمها للأقطار كل ذلك مخالف لنا ، وس الجاذبية ، إن كل ما على الأرض من جذب لها واقع عابها ، ولكن هنا تصرف الرياح تصرفا عجيبا ، وهذا التصرف تابع لسير الكواكب ، لأنها يجريها ويجرى الشمس تؤثر جميعها فى أرضنا وفى هوائها فبهم ما ذكر ، وهذه الكواكب والشمس تجرى بنظام مقدر محكم يدل على تدبير عظيم ونظام حكيم ، فإذا يكون ذرو التراب ، وحمل السحاب ، وجريه وتفريقه تابع لنظام سير الكواكب التابع لتدبير النفوس والعقول العالية ، وهم اللاتكة للديرون للعالم الأرضى ، فما ذرت الرياح التراب ، ولا حملت السحاب ، ولا قسمت للطير على البقاع إلا بالحركات الفلكية للنظمة بالعقول الملكية ، وهذا يجمع لك كلام الفسرين رحمهم الله ، فإذا سلمت بعضهم يقول : الداريات الكواكب ، وبعضهم يقول للاتكة فاعلم أنهم جميعا لاخلاف بينهم لأن الأسباب والمسببات مرتبطات محكمات ، أعلاها سبب فى أدناها ، وليس من الحكمة أن يكون هذا النظام محكما من الأعلى إلى الأسفل كما قال تعالى : « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض » ثم تكون نتيجة ذلك الفناء المطلق الذى يدل على أن لا حكمة فى خلق هذا الإنسان ، لذلك جعل الله تلك المذكورات مقابلا لها . وبعبارة أخرى . براهين على البعث إذ لولا البعث لكان هذا كله عبثا ، فالمدبرات لهذه العوالم لم تدبره ليقى ، لذلك قال (إنما توعدون لصادق ، وإن الدين لواقع) أى وإن الجزاء لحاصل تقيا لفعل البعث من هذه النظم المحكمة (والسما ذات الحيك) ذات الطرائق جمع حبيكة كطريقة : وطرائق السماء قيمان : محسوسة وهى مسير الكواكب ، ومقولة وهى مسير العقول فى التفكير فيها لتوصل إلى العلوم والمعارف ، أو ذات النجوم ، والنجوم زين السماء كما زين طرائق الوشى الثوب ، وتحسن شكله ومنظره ، يقال فى هذا أيضا حبيكة وحبك وحياك وحبك ككتاب وكتب ، يقسم الله بالسماء (ذات طرائق النجوم وطرائق العقول بالتفكير ، أو طرائق الوشى والزينة بنفس النجوم ومعلوم أن طرق النجوم ونفس النجوم كلها مرتبطات متعاضدات متحدات للقاصد والأغراض) (إنكم لنى قول مختلف) فى الرسول وفى القرآن ، وفى القيامة ، وفى أمر الدين كأن يقولوا : إن الرسول شاعر ، أو ساحر ، أو مجنون النخ ولقد كانوا يتلقون الرجل فيقولون له : إياك وأن تسمع محمدا إنه ساحر أو كاهن الخ فيصرفونه أى عن الإيمان به ولذلك قال تعالى (يؤفك عنه من أفك) أى يصرف عن القول المختلف أى بسببه من صرف عن الإيمان وهذه الجملة صفة بعد صفة للعقول (قتل الحراسون) الكذابين من أصحاب القول المختلف ، وهذا دعاء بالقتل ولكنه جرى مجرى اللعن (الدين هم فى غمرة) فى جهل بغيرهم (ساهون) غافلون عما أمروا به (يسألون أبا ن يوم الدين) أى يقولون متى يوم الجزاء : أى وقوعه ، وجواب هذا السؤال أنه يقع ذلك (يوم هم على النار يفتنون) أى يحرقون حال كونهم مقولا لهم تبكيثنا (ذوقوا فنتنكم) أى تقول لهم خزنة النار : ذوقوا عذابكم وإحراقكم فى النار (هذا الذى كنتم به تستعجلون) أى هذا العذاب هو الذى كنتم به تستعجلون (إن للفقير فى جنات وعيون آخذين ما آتاهم ربهم) قابلين لكل ما أعطاهم من الثواب راضين به وآخذين (إنهم كانوا قبل ذلك) قبل دخول الجنة فى الدنيا (محين) قد أحسنوا أعمالهم . وذكر منها ما يأتى : (كانوا قليلا من الليل ما يهجعون) ينامون وما زائدة : أى كانوا يهجعون فى طائفة قليلة من الليل ، أو هجوعا قليلا (وبالأسحار هم يستغفرون) فهو لاء يحيون الليل متعبدين ، فإذا أسحروا أخذوا فى الاستغفار كأنهم أسلفوا فى ليالهم الجرائم . والسحر : السندس الأخير من الليل . ويقال إنهم مع قلة هجوعهم وكثرة تهمجدهم إذا أسحروا أخذوا فى الاستغفار . وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى :

« كانوا قليلا من الليل ما يهجعون » كانوا قل ليلتهم بهم إلا صلوا فيها شيئا إماما من أولها أو من وسطها .
 وقال أنس بن مالك : كانوا يصلون بين المغرب والمساء ، أخرجه أبو داود (وفي أموالهم حق) نصيب
 يستوجبونه على أنفسهم تقربا إلى الله وإشفاقا على الناس (للسائل والمهروم) للمستجدي والمتعفف الذي يظن
 غنيا فيحرم الصدقة (وفي الأرض آيات للموقنين) أي فيها دلائل من أنواع المعادن والحيوان والنبات والمعادن
 (وفي أنفسكم) آيات (أفلا تبصرون) تنظرون نظر من يعتبر . وصف الله المحسنين بأنهم يجدون في العبادة
 البدنية وإخراج المال لمستحقه ، وفيها إشارة إلى الزكاة والصيام والحج ، لأن الأول معلوم من الآية والثاني
 من نوع العبادة البدنية ، والثالث مركب من المال والبدن ولم يبق إلا الإيمان والعلم فذلك آتى بهذه الجمل
 وهي النظر في الآفاق وفي الأنفس بأسلوب آخر كأنه كلام مستقل مع أن هذا من قبيل العلم والأول من قبيل
 العمل ، وكل متمم للآخر ، وإنما فصل هذا لأنه مختص بطائفة راقية العقل تنبئ فيه ، فالأولون صالحون ،
 والآخرون هم الصديقون قال تعالى تنبأ لمسائل العلم (وفي السماء رزقكم) أي أسباب رزقكم أو تقديره (وما
 تواعدون) من الثواب ، ذلك لأن الجنة فوق الموالم السماوية ، أو يقال : إن الأعمال وثواب الأعمال
 مقدرات في العالم الأعلى (فو رب السماء والأرض إنه) أي ما تواعدون (لحق) حقا (مثل ما أنكم تنطقون)
 أي مثل نطقكم ، فكما أنه لا شك لكم في أنكم تنطقون ينبغي أن لا تشكوا في تحقق ذلك . ويمكن أن يقال
 أنه أي الرزق ، وعليه ما يأتي :

(حكي الأعمى) . قال : أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابي على قعود ، فقال من الرجل؟ فقلت :
 من بني أصعب . قال : من أين أقبلت ، قلت من موضع يتلى فيه كلام الله تعالى ، قال اتل علي ، فتلوت :
 « والقاريات ذروا » فلما بلغت « وفي السماء رزقكم وما توعدون » ، قال حسبك ، فقام إلى ناقته فحرها
 ووزعها على من أقبل وأدبر ، ومحمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وولى : فلما حججت مع الرشيد ، وطفقت
 أطوف فإذا أنا بمن يهتف بصوت رقيق ، فالتفت فاذا بالأعرابي قد نحل واصفر قسما على واستقر السورة
 فلما بلغت الآية صاح . وقال : قد ولجنا ما وعدنا ربنا حقا . قال : وهل غير هذا ، فقرأت : « فو رب السماء
 والأرض إنه لحق » فصاح وقال : يا سبحان الله ، من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف : لم يصدقوه بقوله
 حتى حلف قالها ثلاثا ، وخرجت معها نفسه .

واعلم أن مثل هذه الحكاية لا تؤخذ بظاهرها ، وكما للأعمى من حكايات من عنده . واعلم أن الله
 عز وجل هو الذي تكفل بالرزق وحده ، فأما زرع الأرض مثلا فليس إلا عملا قليلا جدا ، فها هو الإوضع
 حب وإتزال ماء وخدمة ، ولكن النمو والحلق وجميع الرزق حاصل بأسباب سماوية من حرارة تارة وبرودة
 أخرى وعمل عظيم في الحلق والتنوير والتقدير والعجب العجاب ، فأى دخل للناس في هذا ؟ هذا معناه إذا
 أرجع الضمير للرزق فافهم .

ولما فرغ من الدلائل العقلية ، والعبادات البدنية ، وما تقدمها شرع يقص القصص وابتدأ بقصة ضيف
 إبراهيم التي جاء في آخرها : « وتركنا فيها آية » للناسبة بينها وبين : « وفي الأرض آيات للموقنين » قال
 تعالى (أهل أمناك حديث ضيف إبراهيم) وفي هذه الجملة تخفيف للحديث ، والضيف في الأصل مصدر يطلق على
 الواحد والتعدد ، وقوله (للكرمين) أي للكرمين عند الله تعالى وعند إبراهيم إذ خدمهم بنفسه وزوجته
 وكانوا اثني عشر مسلما في صورة الضيف حين أضافهم إبراهيم (إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما) أي نسلم عليك
 سلاما (قال سلام) أي عليكم السلام ، وابتداء جملة فعلية ، والرد جملة اسمية تنفيذ الثبات والأولى للحدث ،
 فالرد أوكد ، فهذه تحية أحسن من الابتداء : ثم قال أتم (قوم منكرون) فرفوفني من أتم (فراغ إلى أهله)

فذهب إليهم في خفية من ضيفانه ، وذلك لأن من أدب الضيافة أن يبادر رب الدار بالقرى خفية أن يمنعه الضيف
أو يطول انتظاره (بقاء بجل سمين) لأنه كان عامة ماله البقر (قمره إليهم) بأن وضع بين أيديهم (قال
ألا تأكلون) منه ، وذلك حث منه لهم على الأكل من العجل المشوى لأنه لا يؤكل منه إلا بعد ذلك فربأ كلوا
من الطعام (فأوحى) فأضمر (منهم خيفة) خوفاً فإن من لم يأكل طعامك لا يحفظ ذمامك ، وكان في زمانه
إذا أكل الرجل من طعام صاحبه أمنه كما هو حاصل اليوم عند طوائف من العرب ، فلما علموا خوف إبراهيم
(قالوا لا تخف) منا يا إبراهيم إننا نرسل ربك (وبشروه) من الله (بسلام) بولد (عليم) يبلغ ويعلم أوني وهو
إسحاق (فأقبلت امرأته) سارة (في صرة) أي حال كونها في صيحة وهي من الصرير (فصكت وجهها)
فلطمت بأطراف الأصابع جبهتها كما يفعل التعجب (وقالت) أنا (عجوز عقيم) فكيف الله (قالوا كذلك)
مثل ذلك الذي قلنا وأخبرنا به (قال ربك) فعن تخبرك عن الله والله قادر على ما تستعبد به (إنه هو
الحكيم) في فعله (العليم) فلا يخفى عليه شيء . فلما علم أنهم ملائكة (قال فما خطبكم) أي فما شأنكم ،
وما طلبتكم ، وفيهم أرسلتم ؟ (أيها المرسلون) أي إلى البشارة وحدها أرسلتم أم هناك أمر آخر (قالوا إنا
أرسلنا إلى قوم مجرمين) أي قوم لوط (لترسل عليهم حجارة من طين) أي طين مطبوخ كما يطبخ الآجر
حتى يصير في الصلابة كالحجارة (مسومة) معلقة من السوم وهو العلامة ، وعلامتها تدل على أنها ليست من
أحجار الدنيا (عند ربك للسرفين) أي المجاوزين الحد في الفجور (فأخرجنا من كان فيها) في قري قوم
لوط (من المؤمنين) ممن آمن بلوط (لما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) أي غير أهل بيت من المسلمين
وهم لوط وابنتاه ، وهم موصوفون بالإسلام والإيمان (وتركنا فيها آية) علامة (للذين يخافون العذاب الأليم)
فانهم المعتبرون بها وهي تلك الأحجار . ثم قال تعالى : (وفي موسى) وهو معطوف على : « وفي الأرض »
(إذ أرسلناه إلى فرعون بسططان مبين) هي معجزاته كاليد والمصا (فتولى بركته) أي فتولى بما كان يتقوى
به من جنوده ، والركن اسم لما يركن إليه الشيء ويتقوى به (وقال ساحر) أي هو ساحر (أو مجنون) فكان
ما ظهر من الخوارق على يديه منسوب إلى الجن (فأخذناه و جنوده فبنذناهم في اليم) فأغرقناهم في البحر
(وهو مليح) آت بما يلام عليه (وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم) وإعما كانت عقبا لأنها أهلكتهم
وقطعت دابرهم (ما تذر من شيء) أتت عليه (مرت عليه) إلا جعلته كالرميم (كالرماد ، من الرم وهو البلى
والنفث) (وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين) وفي آية أخرى : « تمتعوا في دياركم ثلاثة أيام » فهذا هو الحين
هنا (فتعوا عن أمر ربهم) فاستكبروا عن امتثاله (فأخذتهم الساعة) أي المذاب بعد الثلاث (وهم ينظرون)
إليها فإنها جاءتهم معانية بالنهار (لما استطاعوا من قيام) وهو قوله في آية أخرى : « فأصبحوا في ديارهم
جامعين » (وما كانوا منتصرين) متممين منه (وقوم نوح) أي وأهلكنا قوم نوح (من قبل) من قبل
هؤلاء المذكورين (إنهم كانوا قوما فاسقين) خارجين عن الاستقامة بالسفر والمعصيان . ثم رجع إلى ذكر
آيات الآفاق المذكورة من الأرض والسماء سابقا فقال (والسماء بنيناها بأيد) بقوة ، والأيد القوة (وإنا
لموسعون) أي لموسعون ما بين السماء والأرض ، أو إنا لتقدرون ، من الوسع وهو الطاقة ، والوسع القوى
على الإتفاق (والأرض فرشناها) بسطناها ومهدناها (فنم للمهدون) نحن (ومن كل شيء) من الحيوان
والنبات (خلقنا زوجين) ذكروا أنى (لعلكم تذكرون) فعلنا ذلك كله من بناء السماء وفرش الأرض وخلق
الأزواج لتذكروا فتمنوا الخالق وتعبده . انتهى التفسير اللفظي للقسم الثاني من السورة .

القسم الثالث من السورة

في تسلية النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي القرار إلى الله من هذه الدنيا المزدوجة القاصد ، المحفوظة بالمخاطر

قال تعالى (ففروا إلى الله) من الشرك ، ومن طاعة الشيطان ، ومن كل ماسواة (إني لكم منه نذير مبين ، ولا تتجملوا مع الله لها آخر إني لكم منه نذير مبين) مبين ما يجب أن يحذر منه (كذلك) أي كما كذبك قومك وقالوا ساعرا ومجنون ، كذلك (ما أتى الذين من قبلهم) أي من قبل كفار مكة في الأمم الخالية (من رسول) يدعوهم إلى الإيمان والطاعة (إلا قالوا ساحر أو مجنون) قال الله تعالى (أنواصوا به) أي كأن الأولين والآخرين منهم أوصى بعضهم بعضا بهذا القول حتى قالوا جميعا (بل هم قوم طاغون) جمعهم على هذا القول طغيانهم (فتول عنهم) أي أعرض عنهم (فما أنت بلوم) أي لا لوم عليك فقد أدبت الرسالة وما قصرت ، فلما نزلت هذه الآية حزن النبي صلى الله عليه وسلم وظن أن الوحي انقطع وأن العذاب نازل فزول (وذكر فإن الله كرمي تنفع المؤمنين) فلما نزلت هذه الآية طابت نفوسهم ، وللمنى عظم بالقرآن فإن الله كرمي تنفع من علم الله من استعداده أنه يؤمن منهم (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) إلا أن أمرهم وأكفهم : أي ما خلقت الجن والإنس إلا أمرتهم أن يوحدوني ، ويعبدوني ، وهذا تفسير سيدنا علي كرم الله وجهه ، وقرادة ابن عباس : (وما خلقت الجن والإنس من المؤمنين إلا ليعبدون) . ويصح أن يراد الجميع من حيث إنهم مستعدون بفطرتهم للتوحيد ، وإنما منعهم عن ذلك الاستعداد بما حصل من الأبوين فإنهم يهودان للولود وينصرانه وبمجساته ، فالقصود على هذا الرأي أنهم خلقوا على القطرة فلا ينافي أن العوارض أزعجتهم عن فطرتهم : أي إلا ليكونوا مستعدين بفطرتهم ، وجعل ذلك غاية للعبادة في ذلك (ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون) ما أريد أن أصرفكم في تحصيل رزق ، فاشتغلوا فيما أنتم كالمخلوقين له وللأمورين به ، فليست معكم كالسيد مع عبده من الآدميين يعملون ليطعمون ، إن الأمر هنا بالعكس فإني أنا أرزقكم (إن الله هو الرزاق) الذي يرزق عباده لأنهم هم يسمون لرزقه (ذو القوة التين) شديد القوة ، وإذا كان شديد القوة فإنه قادر أن يعذب الذين ظلموا (فإن للذين ظلموا ذنوبا) أي فإن للذين ظلموا من أهل مكة نصيبا من العذاب (مثل ذنوب أصحابهم) مثل نصيب نظائرهم من الأمم السالفة ، وقد كانت السقاة يقسمون للنساء بالدلاء ، والذنوب هو الدلو على شرط الامتلاء بالماء . وقال الزجاج : الذنوب في اللغة النصيب (فلا يستجلون) يقولهم : « متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » (فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون) من يوم القيامة ، أو يوم بدر وأمثاله في الدنيا . انتهى التفسير اللفظي للقسم الثالث من السورة والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذه السورة

- (١) في قوله تعالى : « والذاريات ذروا ، فالحماملات وقرا ، فالجاريات يسرا ، فالملصقات أمرا ، إن ماتوعدون لصادق ، وإن الدين لواقع : والسما ذات الحبك » :
- (٢) وفي قوله : « وفي الأرض آيات للموقنين ، وفي أنفسكم أفلا تبصرون ، وفي السماء رزقكم وما توعدون ، فو رب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون » :
- (٣) وفي قوله تعالى : « ففروا إلى الله » .
- (٤) وفي قوله تعالى : « فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون » .

اللطيفة الأولى والثانية

في هاتين اللطيفتين مبحثان

المبحث الأول علمي ، والمبحث الثاني أدبي

المبحث العلمي

لقد سبق لك في (سورة ق) والحجرات أنهما قد جمعتا بين الأخلاق النفسية في الحجرات ، والعلوم

الطبيعية والفلكية في (سورة ق) وأن لفظ ق قد جرى به في وسط العدين كالذكرة لهما ، وقد بينا أن الأمم الإسلامية اليوم أحوج ما يكون إلى علوم الأُنس والآفاق ، وأن مافي السورتين المذكورتين نموذج لهما وأن رقيهم لا يكون إلا بها ، وأن أوروبا المحيطة بنا من كل جانب نبعت فيهما ، وأن الله لم يذر وسيلة من وسائل الإرشاد للفتنا إلى ذلك إلا جعلها في هذا القرآن ، لعله أتتا بعد القرون الطويلة سننام على علم الفقه ونظن أنه كاف في إسعادنا في الدنيا والآخرة . كل هذا قد تقدم في السورتين .

أفلا تنظر معي الآن كيف جعل هذه السورة كالمؤكدة لما تقدم فإنه ابتدأها بذكر الرياح التي تفرق التراب وغيره ، وتحمل السحاب ، وتجري بسهولة ، وتفرق للطير على الأقطار ، وبأن السماء ذات الحياتك وأنواع الوشى والزينة من كل نجم مشرق اللون ، باهر الجمال زين السماء بزينة باهرة (وقرى كالبرق والنم والجبل والسلك والإبل والقفل) كل هذا بنحو ذلك المعنى ، كأنه عز وجل يقول : هاأنا ذا يا عبادي قد أمرتكم أن تنظروا السماء ، وتنبهوا بالأرض في (سورة ق) فإذا بعد توبيخكم على التقاعد عن النظر وحكم بقولي : «أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بيناها وزيناها وما لها من فروج» فإذا بعد ذلك إلا أن أجعل المعجائب الأرضية ، والطرق السماوية ، وأنواع الزينة الكوكبية قسما أقدم به ، وهل بعد أعظام هذه المعجائب مقال لقائل ؟ وهل بعد أن يحلف بها خالقكم من محبس عن النظر فيها والتفكير ؟

أقول : يا عجباً لأمة الإسلام ، يظنون أن ما يخاطب به الكافر قد نجوا منه ، ويظنون أن الإيمان للوروث عن الآباء كاف ، وأن توبيخ الكافرين على التصير في العلم لا يوجب توبيخ المسلمين فيه ، وكأن المسلم يفهم أن الجهول مغفر منه متى نطق بالشهادتين ، فقد قال الله تعالى في حق الكافرين : أذهبتم طياتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها « ولقد تقدم في حديث عبد الله بن زياد مع عمر أنه رضى الله عنه خاف من هذه الآية وقال : لو شئت لملائت هذه الرحاب سبائك ورقاقا وصنابا ، ولكني رأيت الله نسي على قوم فقال : «أذهبتم طياتكم في حياتكم الدنيا» فما هو ذا عمر خاف من هذه الآية مع أنها عملية وقد قيلت في حق الكفار فما بالك بهذه الآيات التي في هذه السورة المؤكدة لما قبلها ، قد ذكر الله المعجائب الأرضية والمعجائب السماوية على طريق القسمة وأعاد ذكرهما فقال : « وفي الأرض آيات للموقنين » إلى آخر السورة ، ثم ثلث ذكرهما فقال : « والسماء بيناها بأيد وإنا لموسمون » الخ .

هاهو ذا الله يذكر السموات والأرض ثلاث مرات متفرقات في هذه السورة عناية بنا ولفت نظر ، وذكر النفس كما ذكر أخلاقها وتطهيرها في (سورة الحجرات) من أدناس الغيبة والسخرية وما أشبه ذلك . وفي النفس آيات ثلاث أصليات لها فروع كثيرات ، إن النفس تعقل وتغضب وتشنى ، بالشهوة بها حياة الأجسام ، والغضب به حفظ النظام ، وبالعقل التدبير والعلم والأحكام ، وكأعما النفس نهر له ثلاثة جداول أو قبيلة لها ثلاث بطون ، أو شجرة لها ثلاثة فروع ، أو رجل ، فهو من جهة حداد ، ومن جهة نجار ، ومن جهة كاتب فله أسماء باعتبار صفاته كما ترى التفاحة حمراء ذات رائحة طيبة حلوة ، فهذه ثلاث صفات لشيء واحد ، فالنفس واحدة ولها الحواس الخمس تجلب لها أنواع الألوان والأشكال وأمثالها بالمعنى . وأنواع الأصوات بالأذن ، وأنواع للشمومات بالأنف ، وأنواع الطعوم من حلو وحامض ، ومر ومز ، وحار وبارد وما أشبه ذلك بالذوق ، وأنواع للموسات من ثقل وخفة وحرارة وبرودة ورطوبة ويوسة وما أشبه ذلك بحاسة اللمس ، فهذه للموسات التي عدها علماء القولات ستا وثلاثين نوعا تستخرج من الموسات وتجتمع عند الحس المشترك ، وهناك تحفظ في القوة المحيطة كما يحفظ الناس الطين بالحرارة فقلب اللبن وتجمده أجرا ، فسكا أن الناس يوقدون على اللبن فيصير أجرا هكذا في نفوسنا قوة تحفظ صور الموسات وتجزئها

بها يقال لها الخيلة ، فالخس المشترك يأخذ الصور من الحواس ويسلمها لتلك القوة فتصرف فيها في اليقظة وفي
 للناس وفي حال السكر والجنون ، فتفعل أفعالا غريبة في الصور وتبرزها بأحوال مختلفات وترايب عجينة
 يعرفها جميع الناس في أنفسهم وعلماء البلاغة والشعراء ومؤلفو الروايات ، ثم إن الناس كما يتخذون الأجر
 في البناء هكذا النفس لها قوة تقوم مقام البناء تسمى المفكرة وهي تتصرف في المعاني للأخوة من الصور
 تصرف البناء في البناء بالإجادة وبضدها . ثم إن هناك قوة تدرك المعاني الجزئية تسمى الواهمة ، وهناك قوة
 أخرى تحفظ تلك المعاني تسمى الحافظة فعندنا صور أنت بها الحواس والحس المشترك قبلها والخيلة خزنتها
 وتصرفت فيها والمفكرة استخلصت المعاني وخزنتها في العوالم العلوية الروحية ، والمعاني الجزئية تدركها الواهمة
 كعداوة الذئب للشاة ؛ وخزانتها تسمى الحافظة . هذه هي القوى التي في نفوسنا ، وقد أبدع علماء الصر
 الحاضر في أمر النفس وجعلوا أن الدماغ مقسم أقساما كل قسم له جزء مخصوص من العلوم بحيث يكون الدماغ
 أشبه بمناطق الأرض لكل منطقة مزارع خاصة بها . فكما لا يثبت النخل في البلاد الباردة ، ولا البندق في
 البلاد الحارة ، هكذا لا تكون العلوم الرياضية في مواضع العلوم الطبيعية في الدماغ ، ولا تكون معازن
 العلوم في الدماغ مستعدة لقبول علوم اللغات . هذا جزء يسير من عجائب النفس التي ذكرها الله إذ قال :
 « وفي الأرض آيات للموقنين ، وفي أنفسكم أي آيات ، فهذه بعض آيات الأنس . »

والتأمل لهذه الآيات يجد فيها عجايبا يقول الله : « والنهار ذات الحجب إنكم اني قول مختلف
 يؤفك عنه من أفك كأنه يقول : أي عبادي : ها أنا ذا زينت السماء بالنجوم وبطرقها ، وجعلتها حباتك
 ترؤنها مزينة لها وأتم ترؤن زينتها وحبيكها ، وكلما كانت الزينة أكثر عددا وأبدع نظاما كان السرور بها
 أكثر ، وكانت الحكمة فيها أعظم ، وقد قلت لكم : إن في هذه السماء ذات الزينة رزقكم وما توعدون
 فلم لا توجهون نظركم إليها ولا تتولون في محضكم عليها وعلى الأرض وآفاقها ، وكيف تكون أنواع الزينة
 والأنوار في السماء التي هي قبلة الأنظار ، وأنتم تستمدون منها جميع ما تعيشون به ، ثم تكون سيركم مخالفة
 لنظامها ، فإن طرقكم ظلمانية ، وأعمالكم شيطانية ، أفلا تنظرون السماء مشرفة وأنتم مظلعون ، طرقها
 هداية وطرقكم ذات ضلال ، أحاطت بكم السماء المزينة المرصعة التي فيها رزقكم وفيها الجنة ، فوعزى وجلالى
 لا تسكون هناك إلا إذا كانت أعمالكم مشاكلة لزينة السماء فكيف تكون السماء ذات حجب وأعمالكم
 ذات ظلمات ، فهل يستوى الأعمى والبصير ، ألم أقل في القرآن : « إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا
 عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة » فأبواب السماء والجنة محال مشرقة بهجة لا يدخلها إلا من
 تربوا تربية تناسب ذلك الجمال ، فكيف تكون السماء ذات حجب وزينة وجمال ونظام ، وأعمالكم ذات
 ظلمات واختلاف واختلال ، وعزى وجلالى لأحر من السماء والجنة على كل من لا يكونون على نسق ذلك
 الجمال . وقد تقدم في (سورة آل عمران) إيضاح الكلام في أن الجنة في السماء المناسب لقوله تعالى هنا « وفي
 السماء رزقكم وما توعدون » .

يا عجايب كيف أصبح المسلمون أبعاد عن عالم الجمال ، وقد تولوا عن النظر في السموات والأرض ،
 اللهم إني أشهدك وأشهد العالم الإسلامي أن أحوال المسلمين اليوم ذات نقص هزينة ، وكيف لا تكون نقصا
 ونحن الآن نجعل كل مننا نقل أفوال الأئمة رضوان الله عليهم ، ونسكت نقل الخلاف في علم واحد وأصوله
 وهو الفقه ، وقد عرضنا عن الداريات ذروا الفخ وعن السماء ذات الحجب ، وشغلنا أنفسنا بطرق وعلوم
 تنشى على عقولنا ، فلا ننظر الطرق السماوية ، والعلوم الحسكية ، والبهجة الربانية ، إن للمسلمين طرفا من
 هذه الآية ، إن بعضهم عن السماء محجوبون ، محجوبون بالتقاليد وبدراسة علم الفقه ؛ ويقول الشيوخ بأنها

تسكني الارتفاع يوم القيامة كأنهم ماقرأوا « والذاريات ذروا » ولا قرءوا « والسما ذات الحجب » ولا درءوا « والسما بيناها بأيد » .

فلينظر المسلمون في العلوم ، وليعلموا أن أوان ماأقوله قد أقبل ، وتدهور الإسلام قد أدر ، وسيظهر في الإسلام جيل يكون نبراس الأمم في العلم والحكمة ، والله هو الولي الحميد . انتهى المبحث العلمي في هاتين اللطيفتين . وإن أردت سر قوله تعالى : « ومن كل شيء خلقنا زوجين » فانظره في أوائل (سورة الأنعام والشعراء) وهكذا تنظر عجائب النبات في سور كثيرة أقرها (سورة ق) .

سبحت ذرى

ها هنا أخذ الله يقسم بعجائب المخلوقات . وسيقول . (والنظور وكتاب مسطور) الخ . والنجم ، وقوله : « فلا أقسم بمواقع النجوم » في (سورة الواقعة) وهكذا ، كل هذه ذكرها الله تعالى إعظاما لأمر الأنفس والآفاق ، وتذكيرا للمسلمين أن يتعلموها ، ثم إن العرب لم تكن تعرف القسم بهذا الأسلوب ، وسنوازن في هذا المقال بين أسلوب العرب وأسلوب القرآن نقلا من كتابي (مذكرات آداب اللغة العربية) الذي ألقته لتلاميذ المدرسة الحديوية ، فهناك ما جاء فيه تحت العنوان الآتي ، وهذا نصه :

أقسام العرب وأقسام القرآن

جرت عادة العرب أن يقسموا بلفظ أقسم كقوله :

فأقسم أن لو التقينا وأنتم لكان لكم يوم من الشر مظلم

وبلفظ بين كقوله :

قللت بين الله أبرح قاعدا ولو قطعوا رأسي لهديك وأوصالي

وبلفظ المر كقوله :

لمعرك ما أدري وإني لأوجل على أينا تعدو المنية أول

وبلفظ بينا قال زهير :

بيننا لعم سيدان وجدعما على كل حال من سجيل ومبرم

ومن عجب ما أرى من أقسام القرآن فتراه يقسم بما لم يقوله عربي قط . قال : « أقسم بالشفق ، والليل وما وسق ، والقمر إذا نسق لركبنا طبعا عن طبق » . يقول أحلف بما ترون من ذلك التور المتوسط فلا هو غاية في الإنشاء ، ولا هو حالك الظلام أرسلته الشمس بعد مغربها ، وعكسه على السحب الفا كفة في جهات المغرب المسماة بالشفق ، وبالليل وما جمع من كل مخلوق قائم ومتحرك وساكن ، وبالقمر إذا تم ضوؤه وتكامل نوره ، وبالجملة . يقول أقسم بأحوال الليل من أنواع الأنوار المختلفة ، وما أجن الليل من مخلوق في الأرض . إنكم معاشر الإنس ستقبلون من حال إلى حال من هذه الحياة بالرقى في المدينة . أو أن تخاف دوة دوة ، وبالاتقال من الحياة إلى البرزخ إلى جنة أو إلى نار كما يقول الليل بألوانه الثلاثة على الأجسام وكان القسم جاء فهيدا للقضية المقسم بها وتشبيها لها وتنظيرا أو كشبه العلة لشبه المعلول لحركات الأملاك عدت الأنوار والظلمات ومحيط بالمخلوقات . ومنها الإنسان الذي قضى عليه بالنقل في الدنيا من حال إلى حال تبعاً لحركات الأجرام السماوية بتقدير العزيز العليم الذي دبر الحريف ، والربيع ، والشتاء ، والصيف ، والدهور والمصور ، فاختلفت الدول والممالك باختلاف الأحوال العلوية ، والحركات الفلكية : ثم يأتي بعد ذلك يوم الدين ، وحشر المالمين : فلما في جنة وإما في جحيم .

وقال : أقسم بالليل إذ يغشى كل شيء ، وبالتهار إذا ظهر ، وبخلق إله الذكر والأنثى من إنسان وحيوان ونبات بالزواج والإلتحاق . إن أعمالكم مختلفات فأما من جاد بالمال واتي عذاب ربه وصدق بالحسنى فله اليسر يوم القيامة ، وأما من يخل بالمال وأعرض عن الله وكذب بالعين فيكون في عسر .

أقسم باختلاف الليل والنهار والذكور والإناث وجعله كالدليل على اختلاف مساعينا في حياتنا ونجراتنا بعد موتنا قال : « والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى وما خلق الذكر والأنثى إن سعيكم لثقي فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من يخل واستخى وكذب بالحسنى فسنيسره لليسرى » وقال : « أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون . إنه نقول رسول كريم ذي قوة عند المرش مكين » في هذا أقسام بكل ما ذرأ الله مما يحس بالحواس من الجواهر والناصر والمادين والنبات والحيوان والأفلاك والأنوار ، وكل ما لا يبصر من القوى والمقول والنفوس والأرواح وما فوق ذلك من ملائكته ، وللقسم به أن القرآن كلام نزل به رسول كريم على قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، والرسول هو جبريل عليه السلام يقول في القسم : إن مخلوقات قهتان : محسوسات ، ومنقولات ، وجبريل من آخر القسمين أفلا تؤمنون ، وليس من قول شاعر ولا كاهن مما زور » وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون تنزيل من رب العالمين » .

وقال : « والفجر ولبال عشر ، والشفع والور ، والليل إذا يسر ، هل في ذلك قسم لذي حجر » أقسم بالفجر ، وبالليالي العشر ، الأولى من الشهور العربية لازدواج ظلامها بضياؤها كما أن الفجر نوره مزدوج بظلامه ، وأقسم بالأعداد كلها أزواجها وأفرادها ، وما حوت من أسرار الارتماطيق ، والحواس للدهشة العجبية ، وبالليل إذا يسر مقبلا ومدبرا ، إن هذا القسم عجيب لم يسمعه العرب . ثم قال : « هل في ذلك قسم لذي حجر » ثم أتبعه بقوله : « ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات النمل » الخ كأن القسم به محذوف تقديره : إن الكافرين لا محالة هالكون : لأننا أبنا لهم بحر الحكمة ، ومبادئ العلم كأنها أوائل الشهر ، فإن هلال الحكمة يتبدى ، مثيلا ، ثم يتسقى ويمتلئ ، وحسبنا أعمالهم شغما وورا ، ولم يؤمنوا ، فسنعذبهم مرتين ، في الدنيا بالحزى ، وفي الآخرة بالنار كما فعلنا بباد و فرعون . « ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات النمل ، التي لم يخلق مثلها في البلاد ، وحمود الذين جاؤا بالصخر بالواد ، وفرعون ذي الأوتاد ، الذين ظفروا في البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، فصب عليهم ربك سوط عذاب ، إن ربك للبالمرصاد » .

إنذار من الله للأمم التي أضاء لها نور العلم فأشرقت على وجوههم الحكمة إن هم لم يتبسوها ، ولم ينتصوا بها أهلكتهم كما أهلك الأمم البائدة كما حصل لأهل أمريكا الجمر الأصليين ، وكافعل بمسلى الأندلس إذ أراهم أمجاد الأسبان ، والأعناد نورهم من الله فلم يتحدوا « فصب عليهم ربك سوط عذاب » وهكذا كل أمة ودولة أنزرها عشاؤها ، وعليها حكاؤها ، فتجاهلت الأندلس ، وتفاضت عن الحكمة . ساء مصيرها وقطع عابريهم كدولة الرومان إذ حصوا حكماءهم في أواخر عهدهم ، وإدبار سعدهم فأخذتهم صاعقة العذاب المون ، وتكاثرت عليهم الأمم المتوحشة ، فورثوا أرضهم ، وديارهم ، وأموالهم ، وعلمهم وقوانينهم . إن في الفجر ولبالي الشهر الأولى أضواء مثلية ستؤول للكمال بأشراق الشمس وقيام البدر ، فنحن عطلان لإتمام نور فجر الحرية ، والحكمة ، وهلال العلم ، والعرفة بآه بظلام حالك ، وأضحى من المالكين ، وهذا بطريق الإشارة والفهم بشارة إلى الأمم التي ظهرت فيها مبادئ الحكمة وأوائل الحرية أنها ستعال قسطها من الحكمة ، وحظها من الحرية . إذا هي سمت لإتمام الأنوار ، ولم تنقف في سبيل العلم كما بصير الصجر نهارا ، والحلال بدوا كالملا . انتهى ما أوردته من كتابي (مذكرات آداب اللغة العربية) .

اللطيفة الثالثة

في قوله تعالى : « فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون »

آخر هذه السورة مناسب لأولها ، وأولها مناسب لآخر السورة قبلها ، وآخر هذه السورة يناسب أول سورة الطور الآتية بعد هذه ، لأنه أقدم أن عذاب ربك واقع وهو مذكور هنا في قوله : « وإن للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم فلا يستجابون » . اهـ

اللطائف العامة في هذه السورة (١)

(١) اللطيفة الأولى في قوله تعالى : « وفي الأرض آيات للموقنين » :

(٢) اللطيفة الثانية في قوله تعالى : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » وما بعدها من الآيات ، وهاتان اللطيفتان في الآيات التي أولها « إن للتقين في جنات وعيون ، آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ، كانوا قليلا من الليل ما يهجمون ، وبالأسحار هم يستغفرون ، وفي أموالهم حق للسائل والمحروم وفي الأرض آيات للموقنين ، وفي أنفسكم أفلا تبصرون ، وفي السماء رزقكم وما توعدون ، ف ورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون » .

(٣) اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » :

اللطيفة الأولى

في قوله تعالى : « وفي الأرض آيات للموقنين ، وفي أنفسكم أفلا تبصرون ،

وفي السماء رزقكم وما توعدون »

هذه آيات ثلاث متلاصقات ، متتابعات ، متصلات ، معطوفات ، وآخرها ذكر فيها الرزق ، هاهنا علاقة بين عجائب الأرض وطبائع نفوسنا ورزقنا الذي مصدره السماء في هذه الدنيا والجنات التي وعدنا بها وهي في السماء أيضا نبات الأرض وحيوانها وجمادها ونفوسنا وأضواء الكواكب والشمس وأرزاقنا ثم الجنة التي وعدنا بها ، كل هذه بينها اتصال .

محاورات بيني وبين صديق النائم الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير

الملاقة بين هذه العوالم معقولة ، ولكن ما لرزقنا والجنة أقبلت : سأوضح هذا المقام هنا حق الإيضاح بعدما أوضحت في مواضع كثيرة بطرق مختلفة . إن للأغذية المستخرجة من الأرض تأثيرا على نفوسنا في أخلاقنا وعاداتنا وأحوالنا وصحتنا ومرضا ، ثم إن أحوال نفوسنا وأخلاقها يتبعها نتيجتها وهو ارتقاء النفوس وسفائها فتكون الجنة في الآخرة ، أو انخفاضها وانحطاطها وسوء فعلها فتكون جهنم ، فإن زعم الناس أن علم الأخلاق يكفي وحده لتهديب النفوس ، أو العلوم الدينية ، قد جهلوا جهلا بينا ، فالصحة من أهم عوامل السعادة في الدنيا والآخرة ، وهناك يمكن التحلي بمكارم الأخلاق بواسطة الدين ، أو بواسطة التهذيب والتربية والنصائح الدينية ونحو ذلك ، وأيضا للمعارف والعلوم التي تورث اليقين للذكور في هذه الآية لن تسكون إلا لصحيح الجسم ، فإذا انحرف الجسم انحرف العقل فلا علم ولا يقين : « وفي الأرض آيات للموقنين » لا يتم للإنسان ذلك إلا بالصحة ، والصحة تتوقف على جودة الغذاء أي مواظبته لبنية والنبات متوقف على الأضواء ، والأضواء آتية من السماء كما أن نفوسنا كذلك ، هذه هي للناسبات .

قيل : الآن أرجو أن تذكر لي كلاما طاما في هذه الأنفس الإنسانية ينحو نحو الصحة والمرض ، فإن ازدواج هذه الآيات وتتابعها يدعو إلى ذلك : قلت : لقد تقدم الكلام على ذلك في (سورة الفتح) قلبي

(١) هذه اللطائف لم يكن لها وجود عند التأليف ، ولم يفتح الله بها إلا عند تقديم هذه السورة للطح

الذائب

ذكرت نظام الجسم الإنساني هناك من حيث إنه أشبه بمدينة حصينة والأعداء يحيطون بها من كل جانب
لمناسبة قوله تعالى : «وَقَدْ جَنَدَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» فيها أنا ذا الحصه هناك ، ثم أتبعه بما يناسب للقام
هنا من حيث علاقة أجسامنا بما حولنا من عوالم الأرض والسماء ، وقصرت الكلام على أجسامنا لأنه المناسب
لهذا للقام ، ولم أورد الخوض في علم النفس ؛ (فيها فصلان : الفصل الأول) في ملخص ما تقدم في (سورة
الفتح) عند آية : «وَقَدْ جَنَدَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» (الفصل الثاني) في علاقة أجسامنا بعوالم السموات والأرض
وما يتبع ذلك من طول العمر وقصره ، والصحة والمرض ، ليكون المسلمون بعدنا أصبح أجساما ، وأصق
عقولا ، وأجمل نفوسا ، وأرقى اجتماعا ، وأصح مدينة ، لأنهم سيفهمون ما نكتبه ، وسيعملون به ،
وبرونه من أسرار القرآن المحبوبة التي ظهرت في زماننا ، ويعلمون أن الله هو الذي علمهم ذلك بواسطة عباده
في الشرق والغرب ، وأن هذا التليم مصداق لقوله تعالى : «سَرَّيْهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ» ولقوله
«سَأَرْيِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُون» وإنما قال «فَلَا تَسْتَعْجِلُون» لأن لكل عمل وقتا يكون فيه ، والأمم قبلنا لم
تكن مستعدة لهذه العلوم ، فأما في زماننا فالأمم مستعدة لفهم ومنها أمة الإسلام ، فأما كتاب هذه الأسطر
الآن فأحس في نفسي بحسرة لأنه وقر فيها أن هذا كائن لا محالة وحاصل في زماننا هذا أثناء قراءة هذا الكتاب
وبعد انتقالي من هذه الدار وأنا مغتبط منشرح الصدر بما أعلم من سعادة أئمتنا الإسلامية وصحة أبدانها .
وعزتها القوية ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

الفصل الأول في ملخص ما تقدم في سورة الفتح

الناسب لآية : «وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ»

ذلك أن الجسم الإنساني إن هو إلا مدينة محصنة مبنية الجوانب ، وفي داخلها أمم وأمم ، وهل حصنها
إلا الجلد ، وحول هذا الحصن آلاف آلاف من الأعداء التي ترمى دخول هذه المدينة العظيمة ، وإيس
لهؤلاء من مقصد إلا أن يعيش من الأقوات المدخرة فيه التي خزنها الإنسان في أنحاء جسمه ، فهي دائما
تحاول دخوله ، ولكن الجلد يمنعها ويصدها ، وهل هؤلاء الأعداء اللاتي تعد بالملايين إلا الليكروبات ولا
تجد لها طريقا إلا من الفم فتدخل مع الطعام والشراب ، فإذا وصلت إلى المعدة وجدت هناك حصنا منيعا وقوة
دافعة وهي السوائل الطهيرة القاتلة لتلك الليكروبات ، فإذا كانت المعدة سريعة هضم الطعام بحيث ينزلق
بسهولة إلى الأمعاء . هناك لا تموت تلك الليكروبات ولكنها تموت في نفس الأمعاء ، لأن الأمعاء خالية
من الأوكسجين ، والأوكسجين ضروري لحياة تلك الليكروبات المهلكة فتتموت ويساعد على موتها ما أنعم
الله به على الإنسان في الأمعاء من الليكروبات الصالحة النافعة التي تعيش هناك عيشة هادئة نائمة فإنها تساعد
على هضم الطعام .

الله أكبر : ها هنا حصن الجلد وحصن عصير المعدة ، والحصن الأخير هو حصن الأمعاء ، هذا إذا دخلت
الأعداء من باب المدينة وهو الفم ولم تعد ما ذكرناه ، ولكن الضر كل الضر والأذى كل الأذى أن يدخل
الأعداء من نفس السور وهو الجلد أو يشكثرون على أي وجه كان ، فهناك تتم البلوى ويحطم الخطب ، ولكن
المنية الإلهية قد أعدت لحياة الإنسان كل وقاية ونعمة ، وذلك أن أولئك الأعداء متى تكاثروا في الداخل
أسرعت الجنود (وهي الكرات البيضاء) فأخذت تصطف صفوفها وراءها صفوف حتى تبني حول أولئك
الأعداء حصنا منيعا ، وهناك تكون الهزيمة ويحمى وطيس الحرب ، ويشد الكرب ، ويحطم الخطب ،
وتشمر الحرب عن ساقها ، وتعدل الأبطال في ساحات الوغى ، وكل يقول : يارب سلم سلم ، حتى إذا وقعت

الواقعة ، وسقط من الجنود في ساحات القتال ألوف وألوف ومن لليكروبات كذلك ، وأخذت الجنود الدافعة تذيب تلك الحلايا التي هجمت عليها الأعداء ، فهناك يكون الدمع أو الحراج أو نحوها .

سبحانك يارب ، ما أبدع صنعك ، كنا نحسب الدماويل ونحوها أمراضاً مؤلمة ، وما هي بأمراض ، إن هي إلا أودية هي ساحات القتال التي اشتعلت فيها الحرب بين جنود و جنود .

الله أكبر ، حاصرت جنودنا الداخلة في أجسامنا جنود الأعداء الداخلة فيها ، لتقصيرنا ولجهلنا ولرداءة أغذيتنا ، وإسرافنا في طعامنا وشرابنا ، فإذا حاصرت جيوشنا المحاربة جيوش الأعداء ارتفعت الحرارة لكثرة القتلى من الجانبين فيكون الدمع . الله أكبر : الدمع ساحة للحرب وقلمة للقتال والقتال لبقاء حياتنا .

الله أكبر : صدق الله : « إن كل نفس لما عليها حافظ » . « وربك على كل شيء حفيظ » : وفل الإنسان ما أكرهه .

إن جهلنا بالأغذية وبالنظافة وبالرياضة هو الذي ساق لنا هذه الجيوش الجرارة التي تتغلب عليها جيوشنا وهي الكرات البيضاء فتجعلها داخل هذه القلمة الحصينة ثم تهلكها ويكون ماتقدم من الصبح ، وهذا القمع يخرج من الجلد الذي رققه جنود الجسم بأكلها إياه ليقتح فتخرج رمم الأموات وهو الصديد . وبسبارة أخرى تغذف رمم الأعداء خارج الجسم ، ولكن المسألة إذا وقعت عند الأورام والبثور والدماويل كان ذلك خيرا ، وإنما الأمر فوق ذلك ، فإن هذه الجيوش قد تتغلغل في الجسم وتدخل فيه أفواجا وم من كل حذب ينسلون ، ولكن العناية الإلهية قد أعدت لهذا الحادث عدته فأمدت الجسم بالعدد المفاوية التي تقدم شرحها في هذا التفسير ورسمها بالتصوير الشمسي ، وهذه هي القلمة الثالثة بعد الجلد وبعد قلاع الدماويل ونحوها ، ومعلوم مما تقدم في التفسير أيضا أن العدد المفاوية تربي فيها مخلوقات حية تتوارد بكثرة وتتجه إلى محل الحوادث الناشئة من تكرار العدو الخارجي :

اللهم إنك أنت الحكيم وأنت المعلم ، هل كان يدور بخلد أحد في الأرض قبل الآن أن الإنسان إذا جرح في أسبعه ودخلت من ذلك الجرح ميكروبات لا عدد لها ، وهناك ترى وربما تحت الإبط .
أقول : هل كان يدور بخلد أحد أن ذلك الورم الذي تحت الإبط إن هو إلا نكبات لجنود الدفاع ورباط عسكري ومقام تقوم فيه الجيوش لتسرع إلى محل الجرح لتعارب الجيوش الجرارة المنظمة .

سبحانك اللهم وبمحمدك . جل وجهك ، وعز جاهك ، ولا إله إلا أنت ، ولقد قلنا في بعض أجزاء هذا التفسير إن (اللمفا) يساعد على نموها أكل الزيت ، فالزيت إذن غذاء الجنود المخلوقين في (اللمفا) والجنود تطرد الميسكروب ، ولها نكبات تخلق عند الحاجة نسميا ورما ، وأخرى نسميا خراجا أو دملا ، وتارة يشتد المرض ، ويعظم الخطب ، فتحصل الحمى :

اللهم أنت الحكيم أحكمت صنعك ، فما هي الحمى ؟ هي من هذا القبيل ، هي نافذة ، هي مصلحة ، هي نعمة ، فإن الجسم إذا لم يكن متزنا في نفسه فلن الاستحمام بالماء الدافئ مع التندليك يصلحه ، وكذلك المعالجة بالكهرباء ، أو بالهواء الساخن ، أو بالبغار الساخن ، أو بالحرارة المشعة ، كل ذلك علاج له يرجع له التوازن ، لأن ذلك كله يرفع درجة حرارته درجة من الدرجات المثوية ، أو أكثر من درجة فيحترق الدم وهذا الاحتراق يوجب ذلك الأثران ، فإذا قصر الإنسان في ذلك أو جهله فلم يصنمه فإن الحمى هي التي تفعل ذلك فإن ارتفاع الحرارة بها يوجب احتراق الدم الذي يكون به ذلك الأثران ، فاحتراق الدم في الحمى وغيرها يكون تلك الموارد المنزونة في الجسم والأخلاط للتراكمة ، إن الاستحمام بالشمس ومباشرتها للجسم بفعل

ذلك فيجب المبادرة إلى ذلك والاكثر منه ، ومثل ذلك كثرة التمزيقات العنصرية ، أو المتى ، أو كلاما .

قال صاحب : عجب والله ! إذن الحمى والدمامل والأورام والقروح ليست أمراضا؟ قلت : كلا . قال هاهنا ظهر الحق ، أنا أريد أن أقول لك الحق ، أنا كنت فيها مضى أسمك تقول : إن المصائب إن هي إلا نعم واقرا كثيرا مما تقدم ، ومع ذلك كنت غير موقن بها ، نعم عندي تصديق ولكن البراهين في هذا المقال واضحة ، إن العلم اليوم وضع وظهر ، إنه اليوم يقين .

يقول الله : «إنا كل شئ خلقناه بقدر» ويقول المسلم في صيغة إسلامه مانعه أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يباهده على الإسلام «وأن تؤمن بالقدر خيره وشره من الله» .

هذه الجملة يقولها المسلمون كلهم وهي في القرآن ، يقول الله : «قل كل من عند الله» وإذا كان الأمر كذلك فاقه من عنده الخير والشر ، واللغة العربية لا تقول إن الحمد يكون على الشر ، بل يقولون إن الحمد هو الوصف بالجميل على الجميل الاختياري على جهة التعظيم ، إذن الشرور لا حمد عليها لأنها ليست جميلة بل هي قبيحة ، والتبوة تختار على الحمد على الخير والشر والله يقول : «وبلواكم بالشر والخير فتنة» ويقول المسلم في صلاته . «فلك الحمد على ما قضيت» والقضاء جاء بالشر وبالخير : فأحد شق القضاء لا يحمد عليه ، وهذه عقدة العقدة ولنز الوجود ، فهنا أخذت هذه العقدة تحل ، وألينا الدم والحراج والأورام والحمى كلها منقذات لا يهلكات ، وإذا كانت هذه من نوع الشرور فما يظهر لنا وقد ظهر أنها خيرات فالحمد عليها حتم ، إذن صدق الله وصدق رسوله فلك الحمد على ما قضيت ، لأنك إذا قضيت بما يؤلنا فقد جعلته مسرتنا وسعادتنا فهكذا موتنا ووبلاتنا في الحياة الدنيا كلها نعم لا نعلم ، هنالك قلت له : الحمد لله الذي ألهمنا الحكمة وعلما الصواب وبهذا انتهى الفصل الأول في تلخيص ما تقدم في (سورة الفتح) مع زيادة عليه من نفس الكتاب السنوي الثاني للمجمع المصري للثقافة العلمية .

الفصل الثاني في علاقة أجسامنا بعوالم السموات والأرض

وما يتبع ذلك من طول العمر وقصره ، والصحة والمرض الخ

ولأذكر لك ملخصا مما ألقاه مواطننا الدكتور (محمد شاهين باشا) وكيل الداخلية للشئون الصحية عند طبع هذا الكتاب في سنة ١٩٣١ في المجمع المصري للثقافة العلمية في سنته الثانية ، وهذه من نعم الله عز وجل علينا في هذا الزمان الذي ظهرت فيه بعض الحقائق ، وظهر لنا أن هذه النفوس الإنسانية قد ظلها الناس فقلت بسبب الجهل بمقدار ما تناوله من أرزاق السموات والأرض التي أنعم الله علينا بها ، إن محاضراته ألقاها في ثمانية فصول :

- (١) في التعمير وأسبابه .
- (٢) وفي هضبة الحياة والعوامل التي تعمل فيها ، والمراد بهضبة الحياة زمن الشباب وبعض ما بعده .
- (٣) وفي منحدر الحياة : أي في آخر الكهولة وزمن الشيخوخة .
- (٤) وفي أسباب الشيخوخة والموت .
- (٥) ومنفردات الشيخوخة .
- (٦) ثم العدد التناسلية .
- (٧) وتجديد الشباب .
- (٨) وسائل التجديد وإطالة العمر الخ .

وهذه الفصول الثمانية ليست تمنا كلها لأننا في تفسير هذه الآيات ، فليكن كلامنا حول محورها ، لأن الفصول الأولى فيها مباحث خاصة في أمر الغذاء والشمس ، وهذه هي آيات السموات والأرض المحيطة بالجسم فستفيد (فائدتين : الأولى) التفكير في هذه العجائب النافمة لأجسامنا (الثاني) نفس الانتفاع بها في حياتنا الدنيا ، فيكون قوله تعالى : « أفلا تبصرون » راجع للعلم وللمعمل معا ، لأننا إذا بصرنا آيات الله بقولنا فذلك لا يتم إلا إذا كانت أجسامنا سليمة معافاة ، وهذان الأمران في هذا اللقار .

(١) أولا : قد جاء في هذه الخطبة أن الأطباء في العالم الإنساني شرحوا جثث الشيوخ الذين ماتوا فأتضح لهم أن النادر منهم مات بسبب الشيخوخة ، وجمهورهم هم الذين ماتوا بأمراض كانت هي السبب المباشر لموتهم ، فعرفوا من ذلك أن هذا النوع الإنساني جاهل بالغذاء جد جاهل ، والحيوان أقرب منه إلى حفظ صحته بتعاطي ما ينفعه وترك ما يضره .

(٢) ثانيا : إن الجسم البشري يتم نموه في سن (١٨) والسبب في ذلك أن الجهاز العصبي معقد كل التعقيد فيطول زمان نموه فيموق الجسم حتى يبلغ ١٨ وهناك يتم النمو ، هذا قوله (وقد تقدم أن نمو الإنسان لا يتم إلا في (٢٥) سنة ، فهذان رأيان ، وإنما نقلت لك الرأي الثاني لأنه تقدم في هذا التفسير ، فربما تظن أن هذا خطأ في النقل ولكن لا خطأ هما رأيان والرأي الذي يقول إنه (١٨) سنة لم أعرفه إلا في هذا المقام ، يقول : ولولا تعقد الجهاز العصبي لكان الإنسان يتم نموه في ٤ سنين ، ثم يموت في سن (٢٠) . هذا قوله ، وأقول : وقد قرأنا في الجرائد قريبا أن صبيًا بلغ (٤) سنين في تركيا فطلب أن يتزوج ، فهذا هو الذي عاش بجهاز عصبي أشبه بجهاز اليهائم قم نموه في ٤ سنين . ثم قال : إن الإنسان يجب أن يكون من الكهولة له من (٧٠) إلى (٨٠) سنة وهناك تبتدى الشيخوخة وتنتهي في سن (١٢٠) . يقول : وهذه السن أي سن (١٢٠) لا يصل لها من الناس في زماننا إلا القليل ، وأبان أن الناس في زماننا تبتدى أجسامهم في الضعف من سن (٥٠) وأخذ يذكر السبب في ذلك فقال في صفحة ٥٠ وما بعدها من كتاب (الجمع المصري) للثقافة العلمية مانصه :

« يتنازع الإنسان في سياحته الأرضية قوتان : القوة الحيوانية ، والقوة النفسانية ، وللقوة الأولى أكبر غلبة عليه في الشطر الأول من عمره . وهو شطر الفتوة والشباب وبدء دور الكهولة ، ثم يأخذ في التخلب عليها تدريجيا كلما تقدم في السن حتى يفوز عليها عند بلوغه الستين من عمره . فإذا ما وصل الإنسان إلى هذا الدور ، دور الرزانة والارتزان ، وتخلب بما كسبه من صروف الدهر وتجاربه على ما كان يتنازعه من متزاح الأمان والأحلام نضج عقله وأخذ يتفرغ إلى الاشتغال بالأعمال المجدية بحسب ما وهب من ملكة واستعداد ، ولكن الشاهد أن الإنسان عند ما يبلغ الستين تفرغته ، وتخدم جذوة نشاطه ، مع أن هذه السن هي سن النضج والانتاج العقلي ، وسبب ذلك الإفراط في مختلف الشهوات في الأدوار الأولى من الحياة ، والإهمال في اتباع شق القواعد الصحية ، ولذلك قل من يحفظ بشيء من قوة جسمه في سن الستين ، والغالبية العظمى تعمل على هدم بنياتها ، وتدفع بنفسها إلى الشيخوخة العاجلة ، وتسمى إلى تقصير الأجل ، وتقريب يوم الرحيل من هذه الدنيا التي يرى الإنسان على الدوام جد حريص على إطالة بقائه فيها بكل الوسائل الممكنة ، فيختلف عن هذا التفريط الكثير من الأمراض التي يقع فريستها ، ويمتنع عليه الشفاء منها ، مع أنه بمجهود قليل ينقله الإنسان في سبيل الاحتفاظ بصحته والاحتفاظ بجسمه يحيا معافي سليما ، وهذا المجهود ليس شيئا مذكورا في جانب الجهود الكبيرة التي يضطر لبذلها في التماس الشفاء من هذه الأمراض ، وهذه قد يشق بعضها ، وقد يستصعب البعض الآخر على العلاج مع أن النجاة من هذه الأمراض لا يكلفه سوى العناية باتباع

أوليات علم الصحة في معيشته . ولقد كان الإنسان منذ القدم شديد الحرص على الاستدقاء والاكتنان ، واجتناب البرد والهواء ، وفي سبيل حصوله على أوفر قسط من الدفء كان يخلق منافذ مسكنه ، ويكثر من التدثر والغطاء هرباً مما رسخ في اعتقاده من مضر الهواء ، وقد درج على ذلك أجيالاً عديدة ، ولم يتمكن علماء الصحة من زحزحته عن هذا الظن الخاطئ إلا من عهد قريب ، إذ نجحوا في إقناعه بمضار الاكتنان في الساكن المغلقة وبضوائد المعيشة في الهواء الطلق الخالص من الفساد والأدران كما يعيش الحيوان الذي أهدته غريزته بأن الهواء من ضروريات الحياة . ويشغل علماء الصحة الآن بمحاربة عادة ذميمة أخرى في الإنسان هي أشد ضرراً بصحته من الانعجاس في الساكن المغلقة وهي عادة الإفراط في الغذاء ، لأن الإنسان قد تمود - بحكم تغلب الحيوانية عليه - أن يرضى لنفسه العنان في التلذذ بما تصل إليه يده من شهى الأطعمة والأكولات فيتناول منها دائماً أكثر من القدر الذي يستطيع جهاز الهضم أن يمثله ويستخلصه منها لتجديد قوى جسمه . مما يؤسف له أن جهل الإنسان بأصول التغذية الصحيحة فاش بين جميع الناس على اختلاف طبقاتهم ، والإفراط في الغذاء هو منشأ كثير من أمراض الجهاز الهضمي التي تكون غالباً مستصية الشفاء وتؤدي بحياة الإنسان قبل الأوان ، وقد جاء في الأحاديث الشريفة : « للععدة بيت الداء ، والحياة رأس الدواء » .

ويبدأ في عصرنا هذا أن يدب الوهن إلى جسم الإنسان بعد بلوغه سن الثلاثين ، ومتى وصل إلى سن الخمسين تبدأ حالة جسمه في التردد بين القوة والضعف ، ويمكن الاستدلال بكل سهولة على شذوذ حالته بما يشاهد من ضخامة بطنه ، وقد اعتاد الناس أن ينظروا إلى السمن بعد سن الأربعين كأنه أمر طبيعي ، ولا يهتم الواحد منهم بأن يزيد وزن جسمه في هذه السن حصة كيلو جرامات أو سبعة وهو لا يعلم أن زيادة وزن الجسم في هذه السن من الأمور الضارة به ، وأن حصول الجسم على هذه الزيادة إنما هو دليل على أن أجهزته قد كلفت ما هو فوق طاقتها وخصوصاً الجهاز الهضمي ، ولذلك فلا يستغرب إذا ضاقت هذه الأجهزة قبل الأوان ، ومع أن للادة الشحمية التي يزورها الجسم فوق حاجته تختزن في الأنسجة التي تحت الجلد إلا أن الثابت أن بعضها يتسرب إلى بعض الأعضاء الرئيسية والأعضاء المجاورة لها فيزداد وزنها ، وبعد ذلك تقل صلاحيتها لتأدية وظائفها . ويمكن أن تقرب للأذهان إدراك مقدار ما يحدثه السمن من الضرر للجسم بذكر ما ينشأ من ضرر لأحد خيول السباق إذا زيدت ثقل رطلين مثلاً فماذا عسى أن يكون تأثير زيادة سبعة كيلو جرامات في أنسجة جسم إنسان في سن الخمسين ، فإن هذه الزيادة قد تحول دون وصول هذا الإنسان إلى ما وجد السبعين ، وليس من شك في أنه من أخسر الأسباب التي تعجل وفاة الإنسان هي أخطأ التغذية الشائعة بين الناس لاعتقادهم بأن الاكثار من الغذاء ينمي الجسم ويقويه ، والنتيجة المتهمة للإفراط في الغذاء هي إنهاك قوى الجسم وإضعافه والتعجيل بوفاة الإنسان قبل الأوان .

ولا يفوتنا أن نذكر أن الذين تبرز بطونهم بسبب الإفراط في الغذاء ، وتشحم أحشائهم وأغذاهم يصابون بداء اللوك ، أو بارتفاع الضغط الدموي ، أو بالبول السكري :

وبالاختصار فإن الفرطين في الأكل يحملون أجسامهم أعباء ثقيلة ويسوقونها نحو التلف والدمار ، ويتبين من ذلك بأجل وضوح أن الاعتدال في الغذاء هو الطريق الأكيد المؤدي إلى التعمير الطويل ، وقد يتساءل البعض عن مدى هذا الاعتدال . والجواب عن ذلك هو أنه يجب على الإنسان أن يوازن بين مقدار ما يكتبه جسمه بواسطة الغذاء ، ومقدار ما يفقده بالحركة والعمل ، ويشمل هذا الواجب رعاية الإنسان بنوع ما يتناوله من الغذاء ومقداره ، ولو أننا وازنا بين تغذي الإنسان وتغذي الحيوان لانتضح لنا

أن الطريقة التي يسير عليها الإنسان في غذائه إنما هي طريقة خاطئة ، وبما أن الإنسان لا يمتص تركيب جسمه في شيء عن الحيوان والحيوان لا يتغذى إلا بالمواد الطازجة فكذلك الإنسان في حاجة قصوى إلى هذا النوع من الغذاء .

انظر إلى اللحم ، فمع أنه أهم غذاء يحصل منه الإنسان على اللوات البروتينية وعلى الفيتامين لدرجة ما إلا أنه يفقد ما به من الفيتامين بالطبخ ، وكذلك الحضر ، وتذكر بهذه النسبة ذلك الخطأ الشائع بين معظم الناس : وهو أنهم يقتصرون على الحيوان بقصد أن يزيدوا من مقدار لحمه وشحمه ، وهذا خطأ فاحش لأن هذا الحيوان وإن ازداد سمته بالحصى فإن اللحم تقل قيمته الغذائية ، ويصير أقل تغذية من لحوم الأسماك والطيور . والسكر هو من الأغذية التي تؤذي الإنسان إذا أفرط فيها لأن الحماض التي تؤثر في السكر وتمثله في الجسم محدودة القدار ، فإذا تناول مقداراً من السكر أكثر من مقدار الحماض التي تؤثر في تمثيله كانت نتيجة هذا الاكثار أن يصاب الإنسان بضر الهضم ، وإذا أخذ في قوام سوائل مركزة فإنه يسبب تهيجاً في المعدة ويجعلها تتكرر من إفراز اللوات الحماضية ، وقد ينشأ عنه نوع من البول السكري الذي ربما اهتلب إلى بول سكري مستديم وهذا من أسباب قصر العمر بلا نزاع ، فمن ذلك يرى أنه يجب على الإنسان أن يعود إلى الغذاء الطبيعي وهو للركب من المواد غير المطبوخة .

ولابد لنا هنا من التكميل عن الأملاح التي هي من مقومات الجسم ، وإذا كان دم الإنسان لا يختلف في تركيبه عن تركيب ماء البحر ، ويشتمل على السكريات واللوات الضوية الساخنة فيه ، فمن المهم تجديده أملاح الجسم من وقت لآخر ، لأن سائلها يفسد جميع الأنسجة ، فأملح الجير واليود والمنسيوم والصدوروم والبوتاسيوم والحديد ليست ضرورية فقط لحفظ الصحة بل هي ضرورية أيضاً لحفظ الحياة وهي لا توجد بمقدار واف في غذائنا المطبوخ ، واليود مثلاً نحصل عليه من المحيطات بما نأكله من أسماكها ونحصل عليه في ملح الطعام ، ولكن مما يدعو إلى الأسف أن الإنسان يجهد بترفع اليود من ملح الطعام بتكريره وتقديمه للطعام باسم ملح المائدة ، ونحصل على الكالسيوم من اللبن والحضر وبعض الفواكه ، وعلى الفوسفور من اللبن والبيض وبعض الحبوب ، كما نحصل على اليود أيضاً من الحضر وزيت كبد الحوت ، ونحصل على القلويات من الحضر والفواكه ، وكل حضر تتكرر فيها الأملاح يكون الفيتامين موجوداً فيها بكمية وافرة ، ويمكننا أن نعتبر أن المواد الغذائية المستوفية للطبخ هي نوع من أنواع السموم ، وما دام الإنسان مستمراً على التغذي بها فلا شك أنه سيقع فريسة هذه السموم التي تهدم كيانه وتحول بينه وبين البقاء في هذه الحياة المدة التي كان من حقه أن يقضيها فيها .

ووجوب تخلص الجسم من فضلات الغذاء لا يقل أهمية عن اختيار أحسن أنواع الأغذية وأنسب مقادير منها ، والحظر الناشئ عن كسل الأمعاء في طرد فضلات الطعام لا يقل عن الحظر الناجم عن التغيير الذي يطرا على الدم ، لأن هذا التغيير غالباً ما يكون سبب مرض الشرايين ، فتصلبها مثلاً ينشأ عن التهيح المزمن الذي يحصل باديء ذي بدء في النسيج المبطن لها ، وذلك نتيجة احتكاكها بالدم غير النقي في أثناء مروره فيها ، ويمكننا أن نجزم أيضاً بأن الكسل الذي يسبب الأمعاء ينجم غالباً عن السموم التي تحملها المواد التي توجد في هذه القناة إذ من معلوم أنه توجد بعض مواد مبهجة للقناة المعوية كما توجد بعض مواد أخرى مسكنة لها وكذلك توجد بعض الأغذية أو فضلاتها أحد للفمليين ، وإذا كان الغذاء الذي تتناوله غير صالح ومنزوعاً منه اللوات الضرورية للجسم فيحق لنا القول بأن غذاء كهذا لا يمكن أن يبنه عضلات الأمعاء ، بل ربما كانت مواده معطلة لها ، أو مسببة لشلل في حركتها ، ومن هذا ترى أن الأظمة الحالية من الفيتامين ، أو للركزة التي

اعتاد الانسان أن يتناولها لاشك أن لها دخلا كبيرا فيها تصاب الأمعاء به من كسل ، وكلنا نعلم أن الأطعمة التي لا تترك فضلات كافية يتولد عنها إمساك ؛ وغنى عن الذكر أن الأغذية للطهية أو الركيزة الشائعة الاستعمال الآن تنقسمها هذه المواد الضرورية وهي الفضلات ، وهذه الأطعمة المطبوخة تكون خالية أيضا من مواد ضرورتها للانسان كضرورة الفيتامين ، وهذه المواد لا توجد إلا في الأطعمة التي بحالتها الطبيعية ، وهذه المواد وإن كانت تصعب الآن معرفتها إلا أن فعلها قد أصبح معروفا وهي مواد مجرد وجودها يوقظ النشاط في بعض التفاعلات الكيميائية التي تحصل في الجسم ، ولولا وجودها لما نشطت تلك التفاعلات . خدمتلا ثانياً أكسيد الهيدروجين فإنه ينحل مع وجود مادة غير قابلة للذوبان كفضلات الفضة بينما الفضة لا يحصل بها أي تغيير ، وكذلك خمائر الأمعاء تنشط في عملية تحليل الغذاء مع وجود مواد كهذه في الأطعمة بحالتها الطبيعية ، وقد تكون هي أهم عامل في عملية الهضم ، ويستخلص من ذلك أن الإنسان مع كونه أرق مخلوق هو الحيوان الوحيد الذي لا يعرف كيف يتقن غذاءه ، وكأنه قد فقد من هذه الناحية غريزة الأبقاء على النوع ، وأكبر شاهد على ذلك استسلامه للتسمم الزمن الذي يصيبه من التغذية الخاطئة وهو قانع راض عن ذلك ، بينما هو في الواقع يعرض جسمه وعقله للتلف والهلاك بسبب شرهه وجهله وتكون النتيجة التي لا بد منها أنه لا يعيش بأى حال من الأحوال في هذه الدنيا للذة التي هي حق من حقوقه كما عاش آباؤه الأولون .

ومما يجلب التلف للصحة ما يتناوله الإنسان من مسموم مختلفة كإدمان شرب الكحول وغيره من السموم مع أنه لو توفر على العناية بنفسه وهو أكل مثل لأقصى ما وصل إليه الارتقاء في أنواع الحياة لعاش متمتعاً بالصحة الجيدة إلى أقصى مدة ممكنة ، ولاستقبل الموت بعدها ضاحكاً مستبشراً ، لأن هذه سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً ، بل هذه هي النتيجة الفسيولوجية للحياة بحسب ما وصلت إليه معلوماتنا وإن كان الباحث قد تمكنوا من استنبات الخلايا على مختلف أنواعها ولكنها الخلايا السليمة من العطب ، وكل هذا يزيد مذهبنا إليه من الاستهانة بآلة الجسم المحكمة الصنع التي هيئت للقيام بكل عمل من عظم الأعمال يؤدي بها إلى الدمار ؛ والعناية بها تمكن كل إنسان من حياة طويلة مقرونة بالماقية والرفاهية مع التفوق فيما يبشره الإنسان من الأعمال .

هذا ما أردت نقله من كلامه بنصه ، وأزيد عليه ملخص ما ذكره بعد ذلك ، فهو يقول في صفحة ٦٥ من الكتاب المذكور ما نصه :

(١) « إن (ميتشسكوف) يقول إن التمير ممكن بتدابير تتخذ لتطهير الأمعاء . وقال : إن هذه النظرية لازال بعيدة لم يعترف بها العلماء . وقال : يجب اجتناب جميع الأطعمة الدسمة من كل نوع ، وخصوصاً اللحم ، وعدم تناول الخمر . ثم قال : ويقول (ميتشسكوف) أيضاً بأنه إذا وصل الإنسان صحياً إلى متوسط طول العمر الطبيعي ولم يصبه الانحلال الشيخوخي فإنه يكتب غريزة جديدة وهي غريزة الاستخفاف بالموت ، فيصبح الموت والحياة عنده سبباً ، ويستقبل الموت كما يستقبل النوم العادي . وقد اتفق الكثيرون من الباحث على أن لكل نوع من الكائنات طولاً طبيعياً للعمر ، لأن العمليات الفسيولوجية التي تجري في أجسامها تبين عدد السنوات التي يصل إليها كل نوع من أنواع الكائنات » :

(٢) ثم أخذ يشرح في صفحة ٦٩ وما بعدها هذا المقام فقال : « أولاً إن الناس لا يكادون يبلغون سن الخمسين حتى ينحدروا إلى الضعف فالموت ، ذلك لأنهم لا يملكون زمام أنفسهم ، بل يتركونها فريسة للشهوات ، فلذات الشباب مقربات للشيب والهلاك والردى والموت ، فالإنسان يصل إلى قمة الحياة في سن الثلاثين ؛ ثم بعد ١٥ سنة أو نحوها ينحدر إلى أدنى ثانياً بخطه وجهله ، وإذا وصل إلى ما بين ٥٠ و ٦٠ سنة

تظهر على أسارير وجهه علامات الضعف وإنهاك القوى من فله هو وجهه ولداته، وكثرة أغذيته الحافظة ،
ويضعف سمه وشبهه ، وتيبس مفاصله ، ويزداد وزنه من خمس كيلو جرامات إلى ١٠ ويشكو الإمساك ،
ويشكو تمدد الأوردة في ساقه فيضعف .

(٣) ثم أخذ في صفحة (٧٠) يذكر ما يجب أن يكون عليه الغذاء . قال مانصه بالحرف في الكتاب الثاني
للمجمع المصري للثقافة العامة : « لأحاول هنا أن أشرح وسائل التغذية في كل أدوار الحياة وإنما أمر عليها
لما ، لأنه ليس من شك في أن لها دخلا كبيرا في حفظ الصحة ، وبالتالي في التعمير ، وأعيد هنا أنه يجب
على الإنسان أن يتناول مواد الأظعمة بمثلها الطبيعية ، لأن الإنسان في مبدأ خلقه لم يجد لحفظ حياته إلا الجذور
والفواكه والأعشاب ومنتجات اللبن ، وإذا أراد لحما كان يجده في الجراد ، ومن الراجح أنه كان يأكله نيئا
فليسكي تتجنب أذى السموم التي تؤذي الأمعاء الغلاظ ، وبالتالي تسمم الغدد الصماء يجب أن تتعلم هذا الدرس
البيسط من الإنسان الأول ألا وهو وجوب استعمال المواد الطبيعية غير المطبوخة في غذائنا وهي الخضرا
والفواكه ومنتجات اللبن ، وليس معنى هذا الاقتصار في الغذاء على ما ذكر بل تقصد بهذا أن يشمل غذاؤنا
كافية وافرة من هذه المواد مع غيرها ، ولا شك أن الطعام التوافرة فيه هذه المواد الطازجة يؤدي إلى عدم
تعرض الشيوخ إلى أمراض عديدة كالتهاب المفاصل وعسر الهضم وارتفاع ضغط الدم والإكربما . ولا يخلو
من الفائدة أن أذكر هنا بعض ملاحظات عمما يجب تناوله من الأظعمة في الأوقات المختلفة من اليوم ، فطعام
الإفطار يجب أن لا يكون مثقلا بالأظعمة المتنوعة ، إذ من الواجب على الشخص أن يبدأ نهاره بغذاء خفيف ،
لأن الصباح هو وقت إخراج مفرزات الجسم ، فلو أرقنا أعضاء الهضم بالعمل في ذلك الوقت فإن جزءا
عظيما من نشاط الأعضاء (طاقتها) يقل ، وفي هذا ضرر بلا شك لأن الأنسجة تنعم بالوسائل الدفاعية أثناء
اليوم في العمل وتلقى إليه بفضلائها ، وهذه الفضلات يتخلص منها في الساعات الأولى التي تعقب النوم ، ولذلك
فإن قاعدة تناول وجبة طعام خفيفة في الصباح تركز على أساس فيسيولوجي ، ولهذا السبب كان الأرق مجليا
للحفاة ، وحبذا لو كان طعام إفطارنا مماثلا لما كان يتناوله آباؤنا الأولون ، وهو لم يكن إلا فاكهة طازجة
أو خضرا . وأما الوجبة الثانية فيلاحظ فيها أن تكون خفيفة أيضا ، لأنه ليس من الحكمة في شيء أن تثقل
أعضاء الهضم بالعمل بعد فترة راحة فضلا عن أنه يعقب أكلة نصف النهار عادة بعض العمل سواء كان عقليا
أو جسمانيا ، وذلك عند معظم الناس ، والا اضطر الإنسان إذا أكل أكلة ثقيلة إلى غفوة بعدها وحبذا
لو انتفع الناس بأكل الخضرا باعتبارها من السلطة بدل طهيها ، وبذلك لا تفقد معظم مزاياها ومن المستحسن
جدا أن يستعاض بالفاكهة الطازجة عن الحلوى المطبوخة نباتا ، ولو اتبع البدأ الذي أشرت إليه في وجبة
الظهر لأمكن كل إنسان أن يقوم بعمله بعد هذه الأكلة بغير ملل أو فتور أو شعور بثقل في الدماغ ، أو ميل
للنوم ، وقبل أن أتكم عن طعام العشاء أشير إلى عادة استحدثت في بلادنا وهي عادة تناول أكلة خفيفة وقت
العصر ، وهي المعروفة بأكلة الشاي ، وهذه الأكلة ضارة من الوجهة الفسيولوجية ، ولا حاجة لها البتة ،
لأن العدة تحتاج إلى أربع أو خمس ساعات لهضم أكلة الظهر ، فإذا فرضنا أن أكلة الظهر تنتهي عند غير
الموظفين حوالي الساعة الثانية ، وعند الموظفين حوالي الساعة الثالثة ، فلاشك أن الجهاز الهضمي يكون
مشغولا في الهضم حتى الساعة السابعة أو الثامنة ، فكيف يكون حال هذا الجهاز عند ما يتناول أكلة أخرى
حوالي الساعة الخامسة أو السادسة لاشك أنه يصبح في حالة سيئة ، ولا يمكن أن يسمح بهذه الأكلة
مهما قبل عن الشاي أو القهوة من أنهما منبهان لتقيد الطعم . ولا يشيب عن البال ما يؤخذ معها من كعك
وزبد وغيرها وأما أكلة العشاء فلا بأس من احتوائها على نوع من اللحوم مع تناول مقدار قليل منه وهي

شيء من الحضر للطهي ، ويجب أن تحتوي كذلك على جانب من الفاكهة ، ويلاحظ أنه أحيانا ما ينشأ عسر الهضم أو الأرق عن تناول فنجان القهوة الذي يؤخذ عادة بعد العشاء ، ولأنه هنا إلى أن الأرق الذي يكون منشؤه مرضا مبروفا أو مشاغل ذهنية لاشك في أن سببه عسر الهضم ، وعلاجه لا يكون بتعاطي النومات ، أو المنهدرات ، بل بفحص حالة الجهاز الهضمي وتنظيمها مع تناول دواء بسيط للمعدة . ويلاحظ أني لم أذكر شيئا عن أنواع الفيتامين وفوائدها ، وقد تعددت ذلك لأني وجدت أن لضرورة لذكر شيء عنها مادامت أحض على تناول المواد الغذائية بحالتها الطبيعية ، وهي للصدر الوحيد للفيتامين . ومن الأضرار البليغة التي تنجم عند متوسطي العمر ، أو الشيوخ من الإفراط في التغذية بحجز السكبد عن القيام بتقية الدم الذي يمر فيها فينشأ عن ذلك التسمم العام الذي تشاهد أعراضه عند اللصاين عسر الهضم بسبب الإفراط في التغذية فضلا عن التأثير السيء الذي يحدث للسكبد وللجسم عموما من تعفن وتخمر الغذاء الزائد عن الحاجة في الجهاز الهضمي ، هذا علاوة على الاضطراب الذي يحدث في الغدد الصماء ، ويظهر أثر ذلك جليا ، وخصوصا عند المرأة ، ولا سيما في سن اليأس لأنها تكون قد فقدت الإفراز الداخلي للبيضين ، والسألة لا تتعلق بما تطيقه المعدة وما تقدر عليه من العمل ، بل انها أيضا مسألة ما يتيسر للأجهزة المخرجة قذفه من الجسم ، فلو فقد الجسم التوازن في إجراء كل هذه العمليات لما أمكنه أن يقضي مدة طويلة في الحياة وهو سليم ، ولتأثرت جميع الأجهزة الهامة كالدورة الدموية والجهاز البولي ، ولا ينجو أي جهاز آخر حتى الجلد نفسه من الاختلال ، وقد عرف العلم حديثا بعض الخاصيات الطبيعية للهمة بعد أزدربت بنائية ، ومنها تأثر الجلد بضوء الشمس ، وقد أصبح فنا خاصا يبرف بالمعالجة بالشمس وصار للمتقدم الآن أن لضوء الشمس علاوة على وظيفة تنقية سوائل الجسم من اللواد السامة خاصة تنفيه عملية الاستحالة الغذائية ، أو الليتا بولزم بدرجة أنه يعيد نشاط الأنسجة للريضة إلى العمل الصحيح . وغنى عن البيان أن ضوء الشمس هو المطهر الطبيعي الذي يقتل الميكروبات بخير شك وهذه الخاصية تتماز بها الأشعة التي فوق البنفسجية للبعثة من طيف ضوء الشمس ، ولهذه الأشعة مزايا أخرى ، منها أنها تعين على تمثيل اللواد الجيرية بمقادير وافرة في الجسم كما أنه يستعاض بها عن عدم اتران الغذاء نتيجة نقص الفيتامين فيه ، فيتضح من ذلك أن فعل هذه الأشعة متساو مع افرازات الغدد الصماء ومع الفيتامين ، هذا ولاشك في أن ما أحدثته من صبغ الجلد إنما هو ذو علاقة أكيدة بالتعدد الصماء ، وخصوصا الغدد التي فوق السكلى والغدد النخامية . وقبل أن ننقل من موضوع الغذاء أجدني في غير حاجة إلى أن أتكلم عن الحجر وعن أثرها في منع التعمير ، لأن هذه الأضرار أشهر من أن تذكر ، وجدير بي أن أشير بكلمة عرجى إلى باقي أجهزة الجسم ، وخير الطرق للمحافظة على سلامتها إذ لا يحتمل للقيام الإطالة ، فأبدأ بالرشيتين ، ولا نزاع في أن خير ما يجدد قوتها هو الهواء النقي ، وهو لهما بمثابة الحمام للإنسان ، لأنه بلا جدال العامل الأقوى في تجديد شباب كل عضو من أعضاء الجسم من اللخ حتى الجلد . وبما يؤسف له أن كثيرا من مواطنينا الأعزاء لا يتدرون هذه الأداة الفعالة حق قدرها ويهملون الانتفاع بها مع أنها في تناول الجميع هبة من الله تعالى بلا عوض . وأما الجهاز العصبي وجوهره اللخ ، فهو للإنسان بمثابة الطبقة الحاكمة من الشعب تدبر أموره ، فتدبر عليه المنافع ، وتدرأ عنه الفوائت ، وأكبر أعداء هذا الجهاز اثنان . وهما القلق والمشاعل الفكرية إذا تمكنتا منه كانت نتيجة ذلك الحتمية قصر العمر . أما الترياق الفسيولوجي لهذه الحالة فهو إجراء التمارين المضلية الشديدة لتجديد نشاط الأعصاب ، ومنع طاقها من فقدان ، دون الاستعاضة عما يفقد منها بقدر جديد من الطاقة ، ومادام جهازنا العصبي سليما نستطيع أن نتغلب على جميع الأمراض الجسمية والنفسية بقوة الإرادة . اه

(٤) ثم أخذ يشرح في صفحة ٨٠ وما بعدها (منحدر الحياة) فقال : « مهما عنى الإنسان بصحته ومهما كان قويا متين البنية فلا شك أنه يأتي عليه يوم يشرف فيه بأنه يهوى في منحدر الحياة جنائيا لأنه ليس من الضروري أن تتناقص القوى العقلية كلما تقدم الإنسان في السن ، ويمكن تعطيل بقاء القوى العقلية سليمة حتى سن متقدمة أوحى نهاية الشيخوخة بأن للمخ يستمر نشطا على حساب العضلات والفواصل وبقاى الأنسجة التي كلما تقدمت السن قل عملها وما يتبقى من نشاط في جهاز الدورة الدموية تنصرف طاقته إلى العضو الأكثر احتياجا إليه ، وهو العضو الذي يستمر نشطا حتى آخر الحياة ألا وهو المخ ، وهناك تعطيل آخر ، وهو أنه بما أن المخ آخر ما يتم نموه في الجسم فطبعيا يكون آخر ما يتأثر بالشيخوخة ، ولذلك نجد أن الأوعية الدموية التي تكون نامة النمو عند الولادة هي ضمن أجزاء الجسم التي تبدأ في التأثر بالشيخوخة ، ولكن مع ذلك فالمخ يصله نصيبه من الدم كاملا بينما يكون قد قل نصيب أجزاء أخرى من الجسم ، وكلما استبقى مجرى الدم في حالة معقولة من العاوة كلما كانت قوى المخ لا تتأثر ، وعندئذ يأتي دور استحالة الأوعية الهية عادة متأخرا ، وهذه الاستحالة تنشأ عن تأثير السموم إما على جدر الأوعية أو على الدم كما سبقت الإشارة إلى ذلك . وليس معنى ذلك أن النشاط المنى لا يتأثر بدور الهبوط الجنائى بل بالعكس ، فإن هذا النشاط تنغير طبيعته ، ولو أن هذا التنغير يتناول نوعه أكثر من مقداره (طاقته) فالإنسان بمجرد ما يجد نفسه في المنحدر يلقى الحيلالات ظاهريا ، ولو أنه يستبقى ما اعتبره للثل الأعلى من أفكاره وتفقد الشهوات والعواطف حدتها حتى أن بهرج مظاهرها كالغزل وروايات الحب لا توقظ شعوره كثيرا ، وكذلك لا تستهويه تلك الجاذبية العجيبة التي انفرد بها الجنس اللطيف ، ورغم ذلك يستبقى نشاطه اللهوى ، فأمام هذه الاعتبارات ، وتلقا هذه البرزة التي اختص بها المخ من احتكار جزء من الدم له في مؤخر الحياة أصبح على الإنسان لزاما أن يستفيد من هذه البرزة فلا يترك قواه العقلية يعلوها الصدا ، وعليه أن يستمر عاملا في هذه الحياة لأن التجارب أثبتت أن الرجل الذي ينسحب من ميدان العمل مبكرا يموت مبكرا ، وهذا بعكس النظرية التي كانت سائدة بأن الاستعمال التام لأى عضو ينهكه ، ويسبب الإسراع في استحالته ، ولكن قد لوحظ أن أغلبية سعاة البريد يندر أن تصيبهم أمراض في أطرافهم السفلى كما يندر أن يصاب الذين يشتغلون أشغالا عقلية بالتهاب سحائي ، ولكن هذا لا يمنع من أن الذين أسرفوا في استعمال بعض أعضائهم يكونون عرضة لأن يجنوا عواقب سيئة نتيجة إسرافهم ، أما المخ فالغالب أنه لا يمكن أن يحل به الإجهاد لدرجة تسبب انحطاطه قبل الأوان ، وهذا بطبيعة الحال لا يصدق على العواطف ولكن يقصده النشاط المادى ، لأن الإنسان قد يدفع نفسه إلى التفكير لمدة طويلة ولكن يأتي وقت لا يتيسر له فيه أن يستمر في التفكير ، فبينما يستمر للمخ في حاجته إلى نصيبه كاملا من الدم تكون حاجة معظم باقى أعضاء الجسم للدم قد قلت وهذا واضح فيما يتعلق بالعضلات والمغاطم والفواصل واسكنه محتاج إلى شيء من الإيضاح فيما يتعلق بأعضاء الهضم ، وتعليقه هو أنه بضمور العضلات تقل كفايتها لتنصرف في منتجات الهضم ، ولذلك يجب أن تخفض كمية اللواد الغذائية التي تدخل الجهاز الهضمى ، وهذا يقبل معتقد أسلافنا رأسا على عقب من جهة تغذية الشيوخ لأنهم كانوا يعتقدون وجوب تغذية الشيوخ بسخلة ، وكانوا يظنون أن مثل ذلك كمثل اللعائم التي تقام لتوطيد الجسم الشائخ المش الهيكلى ، ولاشك أن هذا البدأ كان أضمر ما يكون بالشيوخ ، لأن الاعتدال في الغذاء ليس لازما للشيوخ حسب ؛ بل للناس في كل الأعمار . ومما يشاهد أثناء الهبوط في منحدر الحياة تساقط الأسنان ، وهذا أمر غير طبيعى ، وحدوث ذلك نتيجة لازمة للإفراط في أكل اللحوم واللواد السكرية وعدم العناية بالأسنان بعد هذا الإفراط ، وهما هو السير اسحاق نيوتن لم يفقد إلا سنا واحدة في سن الخامسة والثمانين ، وكذلك ضعف الأبصار ، وهو معظم

الأحيان ينشأ عن نيبس العدسة ، ويبدأ ما بين سن ٤٥ و ٥٠ سنة ، وضعف العضلة الهدية ، وقد يصحب تأثر جهاز الإبصار في هذه الفترة من الحياة ظاهرة فقد حدة السمع ، حتى أنه يندر وجود شخص يتمتع بصير وممع سليمين بعد سن الستين . وضعف السمع ينشأ عادة بسبب ضمور العصب السمعي وان كان يحصل أحيانا بأسباب أخرى كتنشيط عظم الركاب أو إصابة صمغ الأذن الظاهرة بالأكرما القرسية ، أو تجمع الصملاخ به كما قد يصابون بطنين الأذن أو بسمع أصوات داخلية متعددة وهذا يسبب لهم مضايقة كبيرة ، وكذلك قد يشعرون في هذ الدور بدوخة قد تكون بسبب مرض في الأذن ، أو ورم في المخيخ ، أو غير ذلك من الأمراض الحية ، أو أمراض العيون ، وقد أشرنا إلى الدوخة الوقتية التي يصاب بها الشيخ عند قيامه من الفراش . وقلنا إن سببها ناشئ عن ضغط الدم الذي قد يرتفع بسبب انقباض الأوعية الدموية من تصلب الشرايين ، وكما انحدر الانسان نحو نهاية العمر كما ظهرت علامات ذلك على الجلد وملحقاته حيث يحف الجلد ويرق ويصير أملس وتظهر فيه تجعدات ، فيتغضن الوجه بسبب اختفاء النسيج المرن والنسيج العضلي ، وهذا يدل أيضا على أن الأوعية الشعرية تقل في الحجم والمدد حيث تضمر بسبب عدم الاستعمال ، فتتأثر تغذية الجلد ، ويعقب ذلك اصفرار أو شحوب اللون ، وإن كان يشاهد عند بعض الشيخوخ نوع من التلون في جلودهم . ويظن البعض أن هذا إنذار بمرض خبيث ، كما أن هذا التلون ربما يكون وسيلة للوقاية من بعض الأشعة التي في طيف الشمس حتى أنه إذا ظهر هذا التلون يكون ذلك دليلا على نقص فيولوجي في الإنسان ، وهذا النقص خطر في بلاد المنطقة الحارة ، وقد يفسر هذا النقص بعدم كفاية الغدد التي فوق الكلى ، أو الغدد الخامية ، وقد يكون الخمش محاولة مبكرة لتدبج الجلد فيحل محل التلون ، ويسبب هذا التلون أيضا التعرض للشمس ، وقد يستعاض عن عدم التلون بنمو الشعر غير الطبيعي ، لأن اللون في جلد الانسان يفوم مقام الشعر في القردة من حيث الوقاية ، ولذلك يتأثر الجلد كثيرا خصوصا في زمن الشيخوخة في الذين ليس عندهم استعداد لحدوث التلون في جلودهم ، أو لنمو الشعر فيها بغزارة غير طبيعيه .

(٥) ثم أخذ في صفحة ١٢٢ وما بعدها يشرح وسائل تجديد الشباب وإطالة العمر ، فعول كثيرا على نظام الغذاء ، وقال : « قد ألمنا في كتابنا السابقة إلى وسائل تجديد الشباب وإطالة العمر ، وأتينا على بعضها ، وتحقيقا للغرض الذي حدا بي للعناية بهذا الموضوع أفرد هذا الفصل لجمع شتات هذه الوسائل . تنقسم الوسائل التي نحن بصدها إلى ثلاثة أقسام : القسم الأول يتعلق بالمحافظة على الصحة الشخصية منذ يوم أن يتدم الإنسان أول نسمة في الحياة حتى سن الكهولة ، والقسم الثاني موضوعه طرق العناية بالكهولة في أطوارها المتأخرة وبالشيخوخة ومنذراتها ، ويبحث القسم الثالث في وسائل مداركة مضاعفات الشيخوخة ، وستتوج هذه اللواضيع ببسط أنر المحافظة على الصحة العامة في تجديد الشباب والتعمير .

(١) فأما وسائل المحافظة على الصحة الشخصية حتى سن الكهولة فهي عديدة ، وقد قنات بحثا ووضع فيها المختصر والطول من المؤلفات ، ونج صوت رجال الصحة والاجتماع في تلقين مبادئها للناس كافة في قطرنا المحبوب أو في غيره من الأقطار ، وقد أخذ الكثيرون من أفراد المجتمع في اقتطاف ثمار هذا المجهود العظيم حتى أصبح كل بيت لا يخلو من مبشر للصحة . وبما أذكره بالإعجاب أنه يطلب في بلادنا أن يكون هذا المبشر من أبنائنا الشباب فتيانا وفتيات ، ولذلك سأذكر بعض المؤلفات البارزة لسن الطبيعة ، وألحقها بطرائق معالجتها فأقول : -

(١) يشمل هذا النوع من الوسائل ، وهو الذي له الفضل الأكبر في إطالة العمر العناية بالصحة الشخصية من كل ناحية من نواحيها كالانتفاع بالهواء النقي ، وقضاء معظم الوقت في الهواء الطلق والعناية بالتياب من

حيث تناسبها مع القبول ، والاهتمام بأمر الطعام والتغذية من حيث النوع والكمية ، والامتناع عن إعطاء الفرصة لأي سم كان من التسرب إلى الجسم سواء كان من الداخل أو الخارج ، ومعنى ذلك العناية التامة بالنظافة الشخصية ، فما أحكم الحديث الشريف القائل « النظافة من الإيمان » لأنه جمع فأوعى ، ومن الوسائل الهامة والموصلة إلى إطالة العمر بلا نزاع الوقاية من الأمراض السرية ، وكذلك العناية بالأسنان والثة التي تسرب عن طريقها سموم حمة بسبب العفونة التي تنشأ عن فضلات الطعام الراسبة عليها ، أوللتحلة لها ، ولايفوتنا أن نبه إلى فائدة الحركة سواء بالاستعانة بأي نوع من أنواع التمرينات الرياضية ، أو الصلاة ، أو الألعاب ، وكذلك نوجه الأنظار إلى مزية الرياضة العقلية إما بالقراءة الصحية ، وهذه تتنافى كلية مع القصص المشوة بسافل المعنى وبذى العبارة ، أو بوسائل أخرى ، إذ من الرياضة العقلية أيضا بعض الألعاب التي تحتاج لعكر أوروية ، وهذا بطبيعة الحال بغير إفراط أو إجهاد . ومن الأمور البديهية حاجة الجسم والعقل إلى الراحة ، وأهم وسيلة لذلك هي النوم الهادئ ، والأهم من ذلك كله أن يكون للإنسان عمل يقوم به يهود نفعه عليه وعلى بني جنسه ، لأن البطالة من موارد التهلكة للجسم والعقل .

(٢) وما يساعد كل المساعدة على إطالة العمر الإقلال من تناول الأطعمة المركزة أو اللطيفة التي تعمل على هدم كيان الجسم ، وأن يعود الانسان إلى الأغذية الطبيعية التي هي أنسب الأغذية له ولذلك أرى أنه جدير بي أن أذكر (بعد أن أجملت فيما سبق لى قوله) موضوع العناية بالطعام والتغذية بشيء من التفصيل الذى يسهم القيام ، لأن إهمال هذا الأمر الحيوى عام بين كل الطبقات وعند جميع الأمم . إن فائدة مواد الغذاء التي تؤكل بحالتها الطبيعية تظهر بجملة في تأثير بيشليس القولون العادى عليها ، لأن فعل هذا الباشليس يتوقف على طبيعة المزرعة التي يتناول غذاءه منها فإذا زرع على بروئين حيوانى كما يحصل في حالة أمعاء الانسان فإنه يحدث تغفنا ويصبح من الخسوم الإنسان ، ولا يقتصر تأثيره على الأمعاء الغلاظ وحدها ، بل يؤثر أيضا تأثيرا شديدا في الأحشاء المجاورة ، ويسبب لها أمراضا عدة مع أنه إذا زرع هذا الباشليس القولونى العادى في مزرعة تحتوي على مواد نشوية أو خضرية فإنه لا يحدث تغفنا ويتحول إلى جرثومة تخمرية: أى يتقلب من خصم لدود إلى صديق نافع ، ففى عرفنا هذا أمكننا أن نحل معضلة كيفية توصيل المواد النشوية والخضرية من الفم حتى الأمعاء الغلاظ بدون أن تتأثر أقل تأثير بالعصارات المختلفة التي في القناة الهضمية ، وأظن أن الجواب على ذلك قد أصبح جليا ، وهو أن تؤكل هذه المواد الغذائية بحالتها الطبيعية مغلفة بغلافها السليولوزى الذى لا تنفذ عصارات الهضم ، والذى يمكن هذه المواد من الوصول إلى مقر باشليس القولون العادى ، ومعنى هذا أن الذين يمشون على الأغذية الطبيعية لا يشكون البتة من كسل الأمعاء ، وكما أدركنا حكمة ذلك في الحيوان يجب أن ندرك حكمة الصوم الذى تصومه الحيوانات الدنيا ، فهو يحفظ التوازن بين دخل الجسم وخرجه ، وعند ما يصاب الانسان بالبول السكرى يكون دخل جسمه أكثر من خرجه ، والصوم يعادل بين ذلك ، ولكن هناك أمرا مهما يجب الالتفات إليه عند ممارسة الصوم وهو التأكد قبل ذلك من عدم وجود فضلات في الجزء الأسفل من الأمعاء الغلاظ حتى لا تمتص الأمعاء المذكورة هذه المواد أثناء الصوم ، ولذلك يجب أن يسبق الصوم بمسهل ، وهناك أمر آخر لا يقل أهمية عن الأول وهو أن يكون الصوم صوما مطلقا بحيث لا يعتمدى الشفتين إلا الماء ، لأن الإنسان إذا تناول شيئا من الطعام كان ذلك محرصا له على طلب المزيد ، أما إذا اقتصر على الماء دون غيره ، فإن شهوة الأكل تنعدم عنده ، ولا سيما إذا كان الصائم دائم الاشتغال أثناء الصوم عقلا وجسما ، لأن شهوة الطعام تقل بسرعة في اليوم الثانى ، وفي اليوم الثالث تنعدم باننا . وقد قيل : أنه يحسن بالصائم أن يلازم فراشه أثناء الصوم ، ولكن إذا كانت صحته جيدة فالأنسب أن يمارس عملا

أثناءه أولى من ملازمة الفراش كالمرضى والضعاف العاجزين ، والأمر الثالث الواجب على الصائم الالتفات إليه هو أن يكتفى عند الافطار بوجبة صغيرة في اليوم الثالث ، وبوجبتين أقل من هذه في اليوم الرابع ، والمتفق عليه أن صوم ثلاثة أيام كاف لإعادة التوازن . هذا والصوم يمارسه الحيوان غريزيا عند مرضه . وقد يما قيل : « جوعوا تصحوا » : ومن ذلك يمكننا أن ندرك أهمية الصوم في تصحيح الأبدان ، لأن غريزة كهذه ما كانت لتوجد في الحيوان إلا ولها أساس فسيولوجي متين ، ونحن أولى بالانتفاع بها ، وقد دلت التجارب على أن فوائد الصوم لا تقتصر على تخليص الجسم من بعض أنواع التسمم المهددة لسكان الانسان بل هي توظف فيه روح الهمة والنشاط ، وبما أن الصوم قد يحدث أحيانا نوعا من التسمم الحمضي ، فيصح عادة للصائمين بتناول كمية وافرة من سائل قلوي أثناء الصوم كما فيثى .

(٣) وتوجد وسيلة أخرى لحفظ التوازن بين دخل الجسم وخرجه ، وهي الاستحمام بالماء الدافئ . ويكون مصحوبا بالتدليك ، أو بالمعالجة بالكهرباء ، لأن هذا الاستحمام سواء كان بالماء الساخن أو بالهواء الساخن ، أو بالبخار الساخن ، أو بالحرارة للشعة ، يكون من نتيجته رفع حرارة الجسم نحو درجة مئوية أو أكثر ، فينشأ عنها احتراق في الدم كان لا يمكن الحصول عليه إلا بإصابة حمية أو برياضة عضلية ، ولذلك كثيراً ما يقال ، ولعله قول حق : إن الإنسان تتحسن صحته من إصابته بحمى عما كانت عليه قبلها ؛ ولا شك أن سبب ذلك هو الاحتراق الذي أحدثته الحمى في المواد التي كانت مخزنة وغير محترقة في الجسم ، ولذلك يجب الحث على الاستحمام بالشمس الذي يباشر الآن كثيراً ، وأظن أنه لم يحسن الوقت بعد للحكم على قيمة الاستحمام بالأشعة فوق البنفسجية ولكن مما لا شك فيه أن الفوائد التي تجني من التعرض لهذه الأشعة تنشأ عن ازدياد الاحتراق وتنبه الاستحالة الغذائية (ميتابولزم) .

(٤) ولكن الوسيلة التي تفضل كل هذه الوسائل الصناعية هي الوسيلة الطبيعية وهي تنبيه الاستحالة الغذائية ، وحينذا لو أمكن الحصول على هذه الاستحالة بمقادير كافية بواسطة الرياضة المضلية التي لا تفضلها أية واسطة أخرى ، لأن فائدة هذه الرياضة بما أحدثته من التأثير الحسن على الجهازين العصبي والمضغى لاتعاد لها فائدة أخرى من حفظ الصحة ، إذ ليس من شك في أن الإفراط في الغذاء الغير صالح ، وعدم قيام الأشخاص الذين تضطرم أعمالهم للجلوس بالقسط الكافي من الرياضة البدنية هما من أخص العوامل التي تجلب الأمراض المزمنة لهؤلاء الأشخاص ، وهي الأمراض التي تهدد حياتهم بالحطار . ويمكن لسكان المدن أن يمارسوا الرياضة البدنية في منازلهم باستعمال الآلات الخاصة بها ، غير أن ممارسة هذه الرياضة في الهواء الطلق أفضل بكثير ، وأحسن أنواع هذه الرياضة هي المشي ، ويمكن لسكبان إنسان أن يمشى يوماً من أربعة إلى خمسة كيلومترات وأخص من يجب عليهم مباشرة هذه الرياضة هم الأشخاص الذين لاتتاح لهم الفرصة لمدل تمرينات رياضية منتظمة ، والعائق الوحيد الذي يمنع بعض الناس من ممارسة هذا لتمرين الطبيعي هو أنهم لا يعرفون كيف يمارسونه فالمشي الصحي ليس الغرض منه مجرد جر الأرجل بل الغرض منه أن يمشى الإنسان وقوامه منتصب و صدره مرفوع إلى الأمام كما يفعل الجندي في مشيه حتى تنقبض عضلات جدر بطنه وإلا ضاعت الفائدة للرجوة من المشي ، ويجب دائماً على الإنسان أن يمارس بعض التمارين التي تقوى عضلات البطن ، لأنها إذا استرخت نشأت عنها هبوط الأحشاء ، وهو من الأسباب الرئيسية لسكس الأمعاء وأمراض أخرى ، وهذه التمارين يجب أن تمارس بانتظام كل صباح ، ومثلها في ذلك مثل حمام الصباح وتسويك الأسنان .

(٥) ويحسن بنا أن نشير أيضاً إلى للشروبات الروحية التي لا توى أى ضرورة لتعاطيها حتى ولو كان ذلك

لا يقاظ شهوة الطعام ، لأن تأثيرها في هذه الحالة هو إحداث تهيج في المعدة ينشأ عنه ميل كاذب لتناول الطعام ، وهذا يؤدي إلى عسر الهضم وأمراض أخرى .

(ب) — وأما وسائل العناية بالكهولة في أطوارها للتأخرة ، وبالشيخوخة ومنذراتها ، فقد أشرنا أيضاً إلى الكثير منها فيما تقدم . انتهى ما أردنا ذكره من كلامه .

وهنا أخذ يذكر الإمساك وقصور الكلى عن القيام بوظيفتها ، وأخذ يذكر الجلد ووظيفته إلى أن قال : « وقد أشرنا في فصل سابق إلى المعالجة بأشعة الشمس الطبيعية ، وأشعتها الصناعية ، واكتفى بأن أذكر هنا بعض أخطار المعالجة بالشمس والطرق للوقاية منها ، وهذه الأخطار هي ضربة الشمس (الرعن) والصرير والحرق ، ويحدث الأول بسبب الرفع للموضعي لدرجة حرارة اللع والجسم جميعه بينما ضربة الحرارة تحدث بسبب رفع حرارة الجسم فقط ، وإذا ارتفعت حرارة اللع لدرجة عالية نشأت عن ذلك الوفاة ، ولهذا السبب وجب وقاية الرأس والعمود الفقري من حرارة الشمس ، ويسبق ضربة الحرارة عادة خال في عملية إفراز العرق التي يتوقف عليها تنظيم حرارة الجسم ولاسيما في البلاد الحارة ، ويساعد على حدوث الرعن الإصابة بمرض آخر ، وتعالج هذه الحالة بالتعريق الصناعي ، وتحصل ضربة الحرارة في الجو الجاف الذي لا ربح فيه وكذلك في الأماكن المرتفعة الحرارة ، وقد يتولد عن الإصابة بالحرق استعداد للحالتين السابقتين بما يحدث عند الإنسان من ضعف المقاومة بسبب امتصاص متخلفات الأنسجة المحروقة ، أما معالجة الحروق الناشئة عن حرارة الشمس فلا تختلف عن الحروق الناشئة عن أسباب آخر ، وبعض الأشخاص لا يطبقون المعالجة بالشمس كالصغار والسنين والمصابين بأمراض عصبية مزمنة ، وألك الذين يطبقون المعالجة الشمسية يتمتعون بمناعة ممتازة من البرد والتهابات الجهاز التنفسي ، ولهذا السبب جذا الواتفع كل مواطنين بالشمس الجميلة التي أنعم الله بها على بلادنا ، والتي لا يوجد شك في أنها لو استعملت بحذق لسكانت من الأسباب العظيمة لتقوية بناء الجسم وإطالة العمر . أما أهمية ضوء الشمس فهي في حيازته الخاصة قتل الجراثيم ، وهو ما تقوم به الأشعة التي فوق البنفسجية للوجود في الطيف الشمسي ، هذا عدا عن فعلها في تنشيط ميتابولزم الكالسيوم ، ولهذا الأشعة علاقة متينة بالقيامين ومفرزات الغدد الصماء كالتكسب الدم خاصة أهلاك الجراثيم كما كشف عن ذلك الأستاذ (ليونارد هيل) . »

(٦) ثم أخذ يشرح حمم الرثه فقال في صفحة ١٣٣ ما يأتي : إن الرثه لا تقوم بوظيفته إخراج حمض الكربونيك بحسب بل هي عند الضرورة تخرج سواه ، ولذلك تشتم رائحة الكحول في زفير المغمور ، والطريقة الوحيدة لتطهير الرثه هي التنفس العميق ، أو التنفس أثناء المرآة البدنية في الهواء الطلق ، وبهذه الطريقة يجدد شباب كل عضو من الأعضاء من اللع حتى الجلد .

(٧) وهنا شرح أمراضاً كثيرة لا داعي له ذكرها ، ولتقتصر على ما يفيدنا . قال في صفحة ١٥٣ وما بعدها ما يأتي : « فالههور الذي تدور حوله كل جهود رجال الصحة هو سعادة الإنسان ، أو بالتالي إطالة عمره في صحة وعافية لأنها والسعادة توهمان ، وبديهي أن السعادة ليست في وفرة المال بحسب ، بل هي السلام وهدوء البال وأهم أركانها التمتع بالصحة ، ونعمة الصحة تدعم حياة الإنسان إذا توافر له الغذاء الجيد النوع الكافي للقدار ، وما يقبه من اللبس والسكن ونحو ذلك ومنى رزق النسل الصحيح البني ، وهذه هي المسائل الأربع الهامة التي تبذل المصالح الصحية المختلفة في أنحاء العالم كل جهود لتوفيرها لبني الإنسان ، ولذلك كان من رأي أن العناية بالصحة العامة هي الوسيلة الأولى لإطالة العمر ، لانه لا توجد عقبة في سبيل طول حياة الإنسان إذا توفرت لديه كل هذه الوسائل . وكل من يعيش الناس سعداء آمنين مطمئنين لو أتبع لكل منهم أن يحصل على حيبه من الوسائل الآتفة الذكر وكيف كانت تكون حال الدنيا من الهناء إذا طالت أعمار بنينا إلى الحد الأقصى

في صحة ورخاءه ، لاشك أنهم كانوا يستهينون بالموت ، بل وينتظرونه كحادث طبيعي لا بد من حلوله في أوانه ،
وحقا إننا إذا أدركنا هذه الغاية بلقنا منتهي ما يمتنى الإنسان ، في الحياة ولا يخفى أن طول الحياة في هذه الحالة
سيكون خيرا واسطة لتقدم الانسان ، وذلك لإمكان زيادة الانتاج العلمي والادبي والمادى ، ولا سيما في سن
التنقل والرزانة ، والله المستعان على ما فيه خير لامة والإنسانية جمعاء .

« أصبح التعمير أو إطالة العمر من الأمور العلمية بعد أن كان من الأمنيات والأحلام التي لا يرجى أن
تحققها الأيام ، وقد وضعت له أسس وقواعد أملاها العلم وأيدها الاختيار ، وخصوصا علم الصحة العامة
التي تقدم تقدما كبيرا في السنين الأخيرة ، لأن التعمير من أهم ما ينجي به رجال الصحة في كافة البلاد ، حتى
أنه بفضل جهودهم أصبح متوسط عمر الإنسان في العصر الحديث أطول منه في العصور الغابرة فلقد زاد متوسط
ما يعيشه الإنسان في الخمسين سنة الأخيرة نحو اثني عشرة سنة » انتهى ما أردته شرحا وتلخيصا ونقلنا من كلام
طبيبنا مواطننا (شاهين باشا) ولقد أجاد وأفاد ، وبأن أن كلامه كله يرجع أهمه إلى الأغذية والأهوية والتي
والتمرينات المضلية .

ولا جرم أن الأغذية هي ما حولنا من مخلوقات ، وقد قال : « إن الشمس نافعة للصحة » فاجتماع التمرين
العضلي مع ضوء الشمس على الجسم مع الأغذية الطازجة التي لا إفراط فيها يعيش الإنسان عيشا هنا وهو
سعيد في نفس هذه الحياة :

واعلم أن الاستحمام بالشمس تقدم في (سورة يونس) عند آية : « هو الذي جعل الشمس ضياء » الخ
وقد تقدم الكلام على الأغذية ونحوها في سور كثيرة ؛ في سورة البقرة عند آية : « أتستبدلون الذي هو
أدنى بالذي هو خير » وفي سورة الأعراف عند آية : « وكلاوا واشربوا ولا تسرفوا » وفي أول الحجر عند
الإشارة إلى آدم ، وفي سورة (طه) عند ذكر آدم أيضا ، وفي سورة الشعراء عند آية : « وإذ مرضت فهو
يشفين » وفي سورة (ص) عند آية آدم في آخرها وعند ما قبلها في قصة داود وفي سور أخرى .

اللهم إني أحمدك حمدا كثيرا ، لأنك علمتنا ما لم نكن نعلم ، وهديتنا الصراط المستقيم ، وأزات عنا الحجب
للناسات من سعادتنا وهنائنا في نفس هذه الحياة الدنيا ، وأرئيتنا تفسير قولك في كتابك العزيز : « وفي
الأرض آيات للموقنين ، وفي أنفسكم أفلا تبصرون ، وفي السماء رزقكم وما توعدون » فوجدنا هناك تآلفا
واتحادا بين الحضرة والفاكهة مما في الأرض مع ضوء الشمس على صحة أجسامنا . وإلى هنا تم الكلام على
اللطيفة الأولى في قوله تعالى : « وفي الأرض آيات للموقنين » وما بعدها . والحمد لله رب العالمين . كتب يوم
الخميس ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٣١ :

اللطيفة الثانية في قوله تعالى : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » وما بعدها .

كتب قبيل الفجر ليلة السبت ١٦ إبريل سنة ١٩٣٢ م

تفسير : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » الداخلة في قوله تعالى : « إن للتقين في جنات
وعيون ، آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ، كانوا قليلا من الليل
ما يهيئون ، وبالأسحار هم يستغفرون ، وفي أموالهم حق للسائل والمحروم ، وفي
الأرض آيات للموقنين ، وفي أنفسكم أفلا تبصرون ، وفي السماء رزقكم وما توعدون ،
فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون »

كتبت هذا العنوان بحضور صديقي العالم الذي اعتاد أن يناقشني في هذا التفسير ، فقال : ماذا تريد من
أمر النفس اليوم والتفسير مشحون بجائزاتها ؟ قلت : إن المجازب التي سأذكرها هنا لم يسبق لها نظير .

قال : وكيف ذلك ؟ قلت : إن في النفس لحدائق وبساتين ، وجنات وعبونا ، وبهجة غفل عنها الناس .
 قال : الناس أجمعون ؟ قلت نعم أجمعون . قال : إني أخاف من إطلاق هذا القول ، إن علم النفس اليوم
 ارتقى ارتقاء مدهشا ودخل في تربية المدارس في هذا القرن بهيئة عجيبة . قلت : أنا سأبرهن لك في هذا
 المقام على ما أقول وسأريك أولا حدائق النفس وبساتينها وأشجارها بهيئة تسر الناظرين ، ثم أفتي ببيان
 أن هذه الحدائق انتفع الناس بظلمها الظليل ، فتشوا ظلالها ، وعاشوا في مناكبها ، وذلك في علوم الفلك
 والطبيعة والنبات والحيوان والمعادن وجميع الصناعات ، وأبين ذلك بالأمثلة الواضحة ، ثم أثبت بأن الأمم
 كلها وإن استطلعت بظل تلك البساتين في العلوم والصناعات لم تحن الثمرات ولم تتناول القطوف اللذيذة من
 الغصون الوارفة في تلك الأشجار الباسقة ، بل هم لا يزالون مفتونين بالظواهر ، مشغولين عن نفوسهم
 ودراستها ، ولو أنهم كما درسوا نظام هذه الدنيا درسوا نفوسهم أيضا من حيث نظامهم لتوايسيتهم في الحياة
 الدنيا على نظام أقل مافيه أنه يشبه نظام النحل أو النمل أو الأرضة ، ولكنهم إلى الآن جهال مبعدون عن
 هذه السعادة في أرضنا هذه وهم غافلون . قال ، والله إن هذا الكلام عليه مسحة الحق ، لقد شاقني هذا البيان
 أن أسمع منك فقات إنها فصول ثلاثة الفصل الأول منها في الجذر والتربيع والمتواليه العددية والهندسية
 والكسر الدائر ونحوها . ثم قات : انظر هذه الحديقة .

الجذر والتربيع

فواعد ارتفاعات. أوتار. أعداد. رواسم				
٤ من ١٢	١٢ من ٢٤	٢٤ من ٤٠	٤٠ من ٦٠	٦٠ من ٨٤
٨	١٢	١٦	٢٠	٢٤
٤	٤	٤	٤	٤
هذه فروق متساوية في الارتفاعات				
٥ من ١٣	١٣ من ٢٥	٢٥ من ٤١	٤١ من ٦١	٦١ من ٨٥
٨	١٢	١٦	٢٠	٢٤
٤	٤	٤	٤	٤
فروق متساوية في الأوتار				

هذه هي الحديقة الغناء . قال : اللهم اني أفهم في رقعة الشطرنج وأنواع الألعاب ولا أفهم في هذه
 الحديقة شيئا . قلت : أيها الصديق : إن هذا الجدول كله يرجع لأمر يعرفه العالم والجاهل وهو ٣٢١
 ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ الخ ولكن المعرفة السطحية جاهلة ، فانظر في الجدول الرسوم تحت عنوان أعداد رواسم
 ليس هذا الجدول عبارة عن نفس هذه الأعداد ؟ قال نعم . قلت : أتدرى ماذا حصل فيها ؟ قال لا . قلت
 ربعوا ١ و ٢ ثم طرحوا مربع الأول من مربع الثاني فكان باقي الطرح ٣ ثم جمعوا فكان المجموع ٥
 و ضربوا ١ في ٢ ثم ضربوا الحاصل في ٢ فصار ٤ فالعمل إذن رجح إلى التربيع وطرحه وجمعه ، وإلى
 ضرب نفس الجذرين في بعضهما ثم تضعيفهما . قاله : مامعنى جذر ؟ قلت ٢ جذر ٤ و ٤ تربيع له ٣ جذر
 ٩ و ٩ تربيع له وهكذا . قال فهت . قلت : إذن عندنا ٣ و ٤ و ٥ قال نعم . قلت . وهذه ناتجة من عددي
 ١ و ٢ قال حقا بسبب التربيع طرحا وجمعا ، والجذر ضربا وتضعيفا . قلت : الحمد لله قد فهمتني . ثم قات

هذا هو الثلث القائم الزاوية (ا ب ج) :



نقط (ا) ارتفاع ، وخط (ب ج) قاعدة ، وخط (ا ب) وتر ، فإذا كان خط (ب ج) (٣) في الثلث القائم الزاوية (ا ب ج) فإن (ا ب) فيها يكون ٥ و (ا ج) يكون ٤ -

فانظر أيها القاري أليست ترى أن مربع ٥ وهو ٢٥ يساوي مجموع للربيعين ١٦ و ٩ — قال حقا والله . قلت : أليست هذه هي النظرية المشهورة في الهندسة وهي مربع وتر الثلث القائم الزاوية يساوي مجموع مربعي الضلعين الآخرين . فقال : أهي هذه ؟ قلت نعم هي هي التي كشفها (فيثاغورس) . فقال عجب ! أهذه البدائع كلها ترجع إلى ١ و ٢ فقط . قلت نعم وغاية الأمر جعلناهما جذرا وربناهما تارة وضربناهما أخرى واستعملنا الطرح والجمع والضرب فخرج هذا كله . فقال هذا حسن ، وحسن جدا ، وإذا دمت في الإفهام على هذا المنوال حتى استوفيت المسائل إلى أن تصل علم السياسة فإن عقله الأمم يفهمونها وتحدث أئرا على مقدار طاقة نوع الإنسان في هذه الأرض . قلت : ثم انظر إلى عددي ٢ و ٣ في نفس هذا الصف وهو صف أعداد رواسم فلتجعلهما جذرا والمربعان ٤ و ٩ إذا جمعناهما كان المجموع ١٣ وبالطرح يكون الباقي ٥ وضرب ٢ في ٣ وتضعيف الحاصل وهو ٦ يكون عندنا ١٢

فهذه هي أضلاع الثلث السابق مكبرا ، فإن ١٣ وتر و ١٢ ارتفاع و ٥ قاعدة ، ولاجرم أن مربع ١٣ وهو ١٦٩ يساوي مجموع مربعي ١٢ و ٥ وهما ١٤٤ و ٢٥ . فقال بالله ما أبهج العلم وألذ الحكمة وأبدعها ، إذن بقية الأعداد هكذا : أي ٣ و ٤ و ٥ و ٦ . قلت نعم كلها على هذا النمط قواعد وارتفاعات وأوتار بحيث يستمر الحساب إلى ما لا نهاية لمن غير حصر .

ملاحظات

بالنظر في هذه الجداول نجد أن ترتيب الثلثات المذكورة على الأعداد البسيطة أنتج أولا أن الفرق بين القواعد عدد ٢ لأنها ٣ و ٥ و ٩ الخ — ثانيا : أن بين كل ارتفاع وما يليه نسبة وباقى طرح أحدهما من الآخر ٥ . فبناء على ما يليها كان الفرق بين باقى الطرح ٤ مثلا ارتفاع ٤ نظرته من ارتفاع ١٢ والباقي ٨ وارتفاع ١٢ نظرته من ارتفاع ٢٤ فالباقي ١٢ وهكذا فإبتنا نجد الفرق بين كل باقى وما يليه ٤ ، ومثل ما فعلنا في الارتفاعات فعل في الأوتار سواء بسواء ، فنعمل في ٥ و ١٣ و ٢٥ الخ مثل هذا فيكون الفرق أيضا ٤ وهذا هو العجب ، إذ ترى الأعداد البسيطة على ترتيبها تظهر منها هذه الأعاجيب ، نظام مقدس في القواعد لأن الفرق ٢ ونظام مذهش في الارتفاعات والأوتار ، لأننا نجد الفرق بينهن ١ وهذا أمر عجيب جدا ونظام غريب في بواقى طرح الارتفاعات والأوتار وهو ٤

مساواة مربع الوتر لمربعي الضلعين الآخرين

وذلك كله بدخول الجمع والطرح والضرب على مقتضى الأحوال . أليست أيها الصديق هذه هي الحقيقة الفاضلة من ١ و ٢ و ٣ وهكذا . فهذه الأعداد البسيطة عند الجاهل لا قيمة لها ، فكما أنه لا يعقل نفسه لا يعقل جمال هذه الأعداد ، بل هذه الأعداد جزء من النفس فالنفس الإنسانية في أول أمرها مبهمة غير مفصلة ، ولكن كشف هذه الحقائق لها يجعلها مفصلة واضحة لأن إحساسها بعد أن كان أمرا مجملا أخذ يفصله ،

وأخذ يطالع في نفسه هذه العجائب الناجمة من الأعداد البسيطة السهلة ، إن أمر الحساب لمعجب ! أمر الحساب عظيم ، أنظر كيف يقول الله : « والفجر وليال عشر ، والشفع والوتر ، والليل إذا يسر » ثم يقول : « هل في ذلك قسم لذي حبر » ثم ذكر أمر الدول وخرابها ، ويقول في آخر السورة : « يا أيها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » فأى مناسبة للشفع والوتر مع الفجر واليالي ؟ ثم ما مناسبة هذه كلها للنفس ورضاها ودخولها الجنة .

هذه إشارات بعيدة الغور ستعرفها الإنسانية في المستقبل ، فإن الحساب ونظامه لبنات جميلة بنى بها هيكل النفس في أول أمرها أشبه بخلية الجسم في أول أمره ، خلية الجسم واحدة تنقسم إلى ٢ وهذه تكون ٤ و ٨ و ١٦ و ٣٢ وهكذا ، فهذه متواليه هندسية كل الأجسام فيها سواء ، وعمدة حياة هذه العوالم كلها الحساب ، فالحساب الذي هو جزءهم من نفوسنا هو الذي بنى عليه نظام أجسامنا وأجسام العالم كله ، فكما أن خلية الجسم الأولى صارت آلافا وآلافا من الخلايا ، ولكل خلية حياة خاصة ترجع إلى الجسم العام هكذا النفس الواحدة المشهورة الخلية تنسع بكل محسوس ومعقول ، فهذه المعلومات تزيدها اتساعا كما يزيد الجسم حجما بالأغذية ، والفرق بينهما أن الجسم يتجزأ ، والنفس لا تتجزأ ، فهي تعظم بهذه الصور الروحية وتزداد عظما روحيا لاجسما ، ولو أن الأعداد وما مثلها من جميع العلوم ذهبت من النفس لأصبحت أشبه بالودودة الضعيفة

إذ اتقرر هذا تقول : إن الجداول المتقدمة المنتظمة أمر ثابت في نفسه مجرد عن المادة ، ولما كانت النفوس أقرب إليه دخل في أمرجتها وصار جزءا منها لا يتجزأ ، فجميع هذه الجداول وبدائع الحساب ثابتات كلها في نفوسنا ، وهذه النفوس تكشف هذه الحجابيا فيها بالدراسة فتزداد سعادة .

مثلا : في هذا اليوم ١١ أبريل سنة ١٩٣١ م زار بلادنا المصريه (جراف زبلن) وهذا المنطاد مرفوق القاهرة ، ورأيت أمس آخر النهار بطوف بالعباسية ، وهو أشبه بالحوت في البحر ، له لون فضي جميل ورأيت صباح اليوم قبيل كتابة هذا المقال ، وقف حول الحى الذى أنا فيه الآن (شارع زين العابدين) وكنت أمس واليوم أجد جميع سكان القاهرة رجلا ونساء وصبيانا وشيوخا يقفون فوق السطوح فرحا بهذا الأمر العظيم المدهش ، لأنه أمر عجب ! ولم يروا مثله ، وأعوزه جهاد عظيم وعلم غزير موجود . إن هذا سرور للنفس ، ولا جرم أن خبايا النفس إذا ظهرت لكشفها تكون أكبر سعادة لها .

إن في الأعداد المستقرة في النفس الشفع والوتر المذكورين في الآية ، أما الوتر فقد ظهرت أمثلة له في قواعد الجداول المتقدمة ، وهنا يدهش الفيلسوف من قاعدة واحدة تكفل آلافا مؤلفة من الثلاث القامات الزاوية المختلفات اختلافا تاما بحيث أن ما قلناه في الثالث الأول ينطبق على كل مثلث بعده . ولنا أن نجعل الارتفاعات والأوتار السابقات في الجدول المتقدم رواسم هنا ، فكما أننا جملنا ١ و ٢ و ٣ الرفع رواسم لتلك الجداول نجعل ما ترتب على تلك الرواسم من الارتفاعات والأوتار قواعد فإذا يكون إذن ؟ يكون هذا الجدول فتكون القواعد كلها مربعات للقواعد المتقدمة في الجداول السابقة .

قواعد ارتفاعات أوتار	أعداد رواسم	قواعد ارتفاعات	أوتار	أعداد رواسم
٩	٤٠	٨١	٣٢٢٨١	٤٠ و ٤١
٢٥	٣١٢	١٢١	٧٣٢١	٦٠ و ٦١
٤٩	١٢٠٠	١٦٩	١٤٢٨١	٨٤ و ٨٥

فها هنا أصبحت القواعد أعدادا مربعات ، ولهم طرق أخرى يحملون فيها القواعد كلها زوجيه مثل هذه :

قاعدة	ارتفاع	وتر	عدد	رسم
٦	٨	١٠	١	٣

وهو يجرى على القاعدة عينها ، فلنكتف بهذا في هذا اللقاع . انتهى الكلام على الجذر والتربيع من الفصل الأول والحمد لله رب العالمين .

الكلام على التوالية العددية والهندسية

للتوالية العددية مثل ١ ، ٣ ، ٥ ، ٧ ، ٩ ، ١١ الخ ، وهذه متوالية عددية تصاعدية ، أو تقول هكذا ١١ ، ٩ ، ٧ ، ٥ ، ٣ ، ١ فهذه متوالية عددية تنازلية ، والفرق بين كل عددين متواليين يسمونه أساسا للمتوالية وهو في هذه ٢ ويكون ٤ في الآتية ٢٦ ، ٢٢ ، ١٨ ، ١٤ ، ١٠ ، ٦ ، ولو أخذنا ثلاثة أعداد (حدود) كان مجموع الطرفين ضعف الوسط كحدود ١٤ ، ١٠ ، ٦ من التنازلية فإن ضعف ١٠ وهو الوسط ٢٠ ومجموع الطرفين ١٤ ، ٦ يساوي ٢٠ وفي التصاعدية كذلك مثل ١٤ ، ١٨ ، ٢٢ ، ٢٦ فإن ١٤ في ٢٢ يساوي ١٨ في ٢ فإذا أخذنا ٤ حدود كان مجموع الطرفين يساوي مجموع الوسطين وهو الظاهر .

الكلام على التوالية الهندسية

هي مثل ٣ ، ٦ ، ١٢ ، ٢٤ ، ٤٨ ، ٩٦ وهذه تصاعدية ، ويقال فيها نسبة ٣ إلى ٦ كنسبة ٦ إلى ١٢ كنسبة ١٢ إلى ٢٤ وكل حد يساوي الحد الذي قبله مضروبا في الأساس مثل ٦ يساوي ٣ مضروبا في ٢ أي يساوي الحد الذي قبله مضروبا في الأساس ، ٢ هنا هو الأساس ، وهو الخارج من قسمة كل حد على الحد الذي قبله وهو لا يتغير ، وهذه للتوالية تكون تنازلية كما تكون تصاعدية ، وما قيل في الوسطين والطرفين هناك يقال هنا ولكن بطريق الضرب فنقول هنا حاصل ضرب الطرفين يساوي حاصل ضرب الوسطين ، أو حاصل ضرب الطرفين يساوي حاصل ضرب الوسط في نفسه (مربع الوسط) مثلا ٣ ، ٦ ، ١٢ مربع الوسط فيها وهو ٣٦ يساوي حاصل ضرب ٣ في ١٢ وهذا واضح .

إنما ذكرت ذلك هنا ليكون ذلك تذكيرا لمن لم يعرف علم الحساب ، وأريد هنا أن آتي ببعض المقصود فأقول : إن للمتوالية العددية والمتوالية الهندسية فوائد في علم الأوقاف ، وقد تقدم في هذا التفسير شذرات منه ، ولكني أريد هنا أن أذكر منه عجبا :

جدول وفق فردي

٣	٢٠	٧	٢٤	١١
١٦	٨	٢٥	١٢	٤
٩	٢١	١٣	٥	١٧
٢٢	١٤	١	١٨	١٠
١٥	٢	١٩	٦	٢٣

كل قطر أو وصف أفق أو رأسي هنا إذا جمع يساوي ٦٥ أي يساوي حاصل ضرب جذر عدد الحانات

وهو ٢٥ في عدد ١٣ الذي هو وسط التوالية الذي هو (في مربع تقاطع قطري هذا الجدول) فالجذر هـ
في ١٣ يساوي ٦٥ وكيفية تمييز هذا الجدول تراها في كتاب أستاذنا للرحوم علي مبارك باشا في كتابه
(خوأس الأعداد) وفي كتابي (بهجة العلوم) في الفلسفة العربية وموازنتها بالعلوم الحديثة .

جدول وفق زوجي

١	١٥	١٤	٤
١٢	٦	٧	٩
٨	١٠	١١	٥
١٣	٣	٢	١٦

٣٤

هذان الوقان المنتظمان العجيبان فهما متوالية عددية
أولها ١ وآخرها ٢٥ في الأول ، ١٦ في الثاني ، وفيهما
بدائع وعجائب ، فالخط الأفقي والرأسي والقطر كلها
متساوية ، وجذر العدد الفردي وهو ٢٥ بضربه في وسط
التوالية الموضوع في الوسط يكون هو نفسه ذلك المجموع ،
ولأكتف بما ذكرته الآن في أوقاف التوالية العددية .

أوقاف التوالية الهندسية

إن كل ما قبل في أوقاف التوالية العددية يقال نظيره في أوقاف التوالية الهندسية ، ولكن الأمر هنا يكون
بالضرب وهناك بالجمع ، فنجد في الوجود المثلث الآتي أنا عمرناه بهذه المتوالية :
٢٥٦ ، ١٢٨ ، ٦٤ ، ٣٢ ، ١٦ ، ٨ ، ٤ ، ٢ ، ١
أفقي ورأسي حاصل ضرب أبعاده يساوي ٤٠٩٦ وهو مكعب ١٦ الذي في الحانة الوسطي ، وطريقة التعمير
هنا كالطريقة هناك :

٤	٩	٢
٣	٥	٧
٨	١	٦

وفق مثلث للتوالية العددية .

٨	٢٥٦	٢
٤	١٦	٦٤
١٢	١	٣٢

وفق مثلث للتوالية الهندسية :

فوازن بينهما أيها الذكي فانك تجد عدد كل صف وكل قطر في الفردية ١٥ وهو من ضرب ٥ الذي
هو في الحانة الوسطي وهو وسط التوالية أيضا في ٣ الذي هو جذر عدد الحانات وهو هنا ٩ .
أما في وفق التوالية الهندسية فإنك تجد حاصل ضرب أعداد كل صف أفقي أو قطري أو رأسي مساويا
لمكعب تلك الحانة التي في الوسط وهي هنا ١٦ ففي الفردية ٥ مضروبة في جذر عدد الحانات ، وهنا مكعب
تلك الحانة التي هي في الحالتين يمر بها القطران معا وتتكون وسط الوفق بالضبط ، فهي في الوفق كقلب
الإنسان أو الحيوان .

عند ذلك قال صاحبي : لقد فهمت التوالية بقسميها ، وفهمت أوقاف العددية بقسميها ، ولكن لم أطلع
على وفق للتوالية الهندسية يكون زوجيا ، فقلت : إن الأمر بطول ، وأنا لم أذكر شيئا من ذلك هنا إلا
مقدمة لما سأذكره في الفصل الثاني ، والثاني مقدمة للثالث أعني أني كما قلت لك سابقا أريد بهذه المقدمة أن
أبين عجائب الأعداد في قوسنا ، ولكني لأطيل أكثر من اللازم ، وأفقي بأن أمثال هذه القوانين التي
في قوسنا وجدت في نفس الطبيعة ، ثم أفقي بأن أقول : من العار على هذا الإنسان (الذي وجد في نفسه تلك

القوانين ، ثم عرفها في الطبيعة ، ثم استعملها في الصناعات التي يعيش بها) أن يكون غافلا أشد الغفلة : جاهلا أغشى الجهل ، إذ لم يطبقها على نفس الإنسان ، فالتقى أربده من ذلك كله أن أبين أن للإنسان في نفسه بصيرة ولكنها محجوبة عنه ، وما دامت محجوبة فإنه يكون معذبا في حياته الدنيا والآخرة ، وهذا أصبحت به موقنا ، فعلى إذن أن أبينه لنوع الإنسان . قال : إذن فلنكتف في هذا الفصل بما ذكر ونبتدى في الفصل الثاني . قلت : نعم ولكن يبقى أن آتى بلغة يسيرة لأنم هذا المقال ، وذلك بذكر الأعداد المتحابة وذكر الأعداد الكاملة لتدهش أيها القارئ من عجائب نفوسنا البديمة . فقال : أرجو أن توضحه هنا أيضا كما تماما قلت : إنه سيأتى في (سورة الرحمن) عند قوله تعالى : « الشمس والقمر بحسبان » فإنى سأبين هناك أن العوالم كلها مبنية على الحساب كمنز الآيات ، ولكنى أشير إليه هنا إشارة بسيطة لاستيفاء المقام :

اعلم أن العدد الكامل هو الذى يساوى مجموع مضاربه ، أما الناقص والرائد فهما على خلافه فعدد ٦ من ضرب ٢ فى ٣ ومن ضرب نفس العدد فى ١ وبمجموع ٢ ، ٣ ، ١ يكون المجموع ٦ وهذا العدد نادر جدا وعدد ٢٨ ناتج من ضرب ٢ فى ١٤ ومن ضرب ٤ فى ٧ ومن ضرب ٢٨ فى ١ وبمجموع ١ ، ٢ ، ٤ ، ٧ ، ١٤ يكون المجموع ٢٨ وليس فى الأعداد من ١ إلى ١٠٠ سوى هذين العددين ، وله جدول نجد في هذا التفسير عند ذكر خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، وهنا أذكر قاعدة استخراج الأعداد الكوامل المناسبة المتوالية الهندسية المذكورة التي رأينا فيها عجائب الأوفاق العددية السابقة ، فانظر مايتأتى :

٥١٢	٢٥٦	١٢٨	٦٤	٣٢	١٦	٨	٤	٢
	١٣٠٨١٦	٨١٢٨		٤٩٦		٢٨		٦
		٦٤ فى ١٢٧		١٦ فى ٣١		٤ فى ٧		٢ فى ٣

فلما نظره قال : لم أفهم شيئا ؟ قلت : إن هذه هي المتوالية الهندسية ، فإنك فى الصف الأفقى الأعلى نجد ٢ ، ٤ ، ٨ ، ١٦ وهكذا ، فى الصف الذى تحته نجد الأعداد الكوامل وهي ٦ ، ٢٨ وهكذا ، أما فى الصف الأسفل فإنك نجد أن ٢ التى فى أول الفاصل الأول من أعلى قد نقلت تحت ٤ فى نفس الفاصل ونجد عدد ٣ فى نفس الفاصل قد وضعت فى محاذة ٢ وعدد ٣ هذا هو عدد ٤ فى الفاصل الأول المذكور نقصنا منه واحدا ، وبضرب ٣ فى ٢ يكون الحاصل ٦ وهذا هو المطلوب ، وهكذا نفعل فى الفاصل الثانى فإن عدد ٤ الذى فى أعلاه قد وضعناه فى أسفل الصف الذى فى أعلاه ثمانية ، ٧ التى هى فى محاذة ٤ هى عين ٨ التى عند الفاصل الثانى وقد نقصت واحدا ، وبضرب ٧ فى ٤ يكون عندنا ٢٨ وهو العدد الكامل ، ونفعل مثل هذا على التوالى فى كل المتوالات الهندسية بلا حصر ، وبممكننا أن نضع جدولا بأعداد كوامل من غير نصب يبلغ آلاف وآلاف ، وقد ذكرت هذا الجدول المذكور فيما تقدم من هذا التفسير ، ولكن لم أذكر هذه القاعدة هناك ، والقاعدة هنا خير مما هناك .

فقال : إن هذا عجب عجاب ! كيف تكون المتوالية الهندسية ذات خواص على هذا المتوال ، فإنها ذات أوفاق عددية وزوجية عجيبة ، وبها أمكننا استخراج الأعداد الكوامل ، ولكن لم أعرف الأعداد المتحابة قلت : إنها واضحة هي وطريقة استخراجها فى (سورة الرحمن) فيما أتى . فقال : ولكنى أرجو أن أعرف طرفا منها هنا لأتصور أمرها ؟ قلت : هي من أسرار عدد ٢ كالتى قبلها ، فإنك تجد عددي

٢٢٠ ، ٢٨٤ متحابين ، لأن ٢٢٠ يساوي مضارب ٢٨٤ والعكس ، لأن ٢٢٠ يساوي ١ و ٢ و ٤ و ٧١ و ١٤٢ وهذه عنها مضارب ٢٨٤ و ٢٨٤ يساوي مضارب ٢٢٠ وهي ١ و ٢ و ٤ و ٥ و ١٠ و ١١ و ٢٠ و ٢٢ و ٤٤ و ٥٥ و ١١٠ واستخراج هذا كله بسبب عدد ٢ لأنه إذا ضرب في ٣ ثم في ٦ ثم ضرب مربعه وهو ٤ في ١٨ حصل عندنا ٦ و ١٢ و ٧٢ فإذا نقصنا من هذه الثلاثة واحدا واحدا كان هكذا ٥ و ١١ و ٧١ وإذا ضربنا ٥ في ١١ وضربنا الناتج وهو ٥٥ في ٤ كان الناتج ٢٢٠ وهو أحد العددين السابقين ، ويمكن إيجاد العدد الآخر بضرب ٧١ في مربع ٢ للذكور ، وهو ٤ فيكون الناتج ٢٨٤ وهو العدد الثاني وهو اللطوب ؛ وهكذا يمكن استعمال أي قوة من قوى عدد (٢) على هذا النمط لاستخراج الأعداد للتحابية ، وهذا سيوضح انصافا تاما في (سورة الرحمن) فانتظره . قال : حقا قد استوفينا هذا المقام بقدر الامكان . قلت : بقى الكلام على الكسر الدائر البسيط والمركب ، فانظر في فهو إذا جعل كسرا إشاريا يكون هكذا ٣٣٣٣٠٠ وهكذا إلى ما لا نهاية له فهذا كسر دائر بسيط ؛ وانظر الكسر الدائر المركب فهو كذا $\frac{14295714295}{14295714295}$ وزي كسر $\frac{1}{14295714295}$ إلى ما لا نهاية له . واعلم أن الأعداد البسيطة على ثلاثة أقسام : زوجية وكلها كسورها منتهية وهي $\frac{1}{2}$ وهي تساوي $\frac{1}{2}$ و $\frac{1}{3}$ و $\frac{1}{4}$ و $\frac{1}{5}$ و $\frac{1}{6}$ وفردية وهي كلها غير منتهية ، وقد تقدمت هنا ، وأعداد أولية مثل $\frac{1}{7}$ و $\frac{1}{11}$ و $\frac{1}{13}$ فهو منته كالأعداد الزوجية ، والثاني غير منته كالأعداد الفردية :

اللهم إنا نحمدك ونشكرك ، أنت الجليل ، أنت الحكيم ، أنت البديع ، أبدعت نفوسنا وملأتها بالجمال ، أنت العظيم تعلم كل شيء ، ولما أبدعت أرواحنا أشرق عليها نورك فأصبحت الأعداد من كيانها ومزاجها وحقيقتها ، وهذه الأعداد لها نظام جميل ، فإذا كانت الكسور المتقدمة قد اختلفت (فإنها ماله نهاية ومنها ما لا نهاية له ، وما لا نهاية له إما كسر دائر بسيط ، وإما كسر دائر مركب ، ولكل من هذه الأقسام التي امتزجت بنفوسنا نتائج ظاهرات في العوالم حولنا) فإن أمر نفوسنا إذن لمعجب ، إذ كيف نرى ما حسبناه في الأعداد المترجمة بنفوسنا تصير مظاهره في العوالم حولنا كما سيأتي في الفصل الذي يلي هذا وما بعده مثل :

(١) إن سير الكواكب لم يخرج عن الكسر الدائر للمركب ، وذلك بسبب تكرار الأدوار في القرون والدهور .
(٢) ومثل إن هذا النوع الإنساني لا يعلم لأجزاء المادة نهاية عند تحليلها الكيميائي كما لا يعلم له نهاية الكسر الدائر :

(٣) ومثل عدم علمه بنهاية العالم من حيث المكان من جهاته الست .
(٤) وكذا هو لا يعلم متى ابتداء ولا متى ينتهى ، إن هذا كله قد أوضحه الكسر الدائر الذي وعته نفوسنا إذن نفوسنا كتمت فيها العوالم أو نماذجها .

(٥) ومن هذه أيضا ندرك أن الله لانهاية لعمه ، وإذا كان الكسر الدائر لانهاية له وقد انظرت عليه نفوسنا وصار فيها مجعلا . وعلومنا بالنسبة لم الله أقل آلاف مرات من نسبة أجسامنا إلى العوالم كلها ، فهو إذن في علم الله مع عدم نهايته مفصلا ، وإذا نحن عرفنا الكسوف والخسوف بعد آلاف آلاف السنين معرفة مجعلة فأنه يعلم ذلك مفصلا ، ويعلم كل الحوادث الصغيرة والكبيرة التي لانهاية لها مفصلا وذلك التفسير ضرب له المثل بما سيأتي :

(٦) أم تر الثلثين اللذين رسمتاها آتفا وفيهما للتواليان العددية والمهندسية ، أفلاتهجب معي أيها الأخ الذي ؟ أفلا تدهش أن ترى عدد ٥ في التواليية العددية وعدد ١٦ في التواليية الهندسية قد جاءا وضعهما في المربع الذي هو في وسط الثلثين ، فكما كان عدد ٥ هو وسط ٩ هكذا عدد ١٣ وسطها ، ثم إن ضرب ٥ في حذر ٩ هو عين مجموع الصفوف الأفقية والرأسية والقطرية ، هكذا تكميب ١٦ هو حاصل ضرب كل صف وكل قطر ، هذا النظام الذي تقدم فيهما يدلنا على أن نظام العالم على هذا النمط كما ترى نظيره في ترتيب العناصر الذي تقدم ذكره في سورة المنكبوت ، فإن صانع العالم رحمناً يعلم الحساب وبهذه العجائب فيه التي أرتنا مفصلات الجداول منظمة مرتبة لاخلل فيها ولاخطأ ، ولو اختل منها واحد لاختل الجميع ، وهذا الذي فهم به على سبيل اليقين والمشاهدة ولو بطريق التنظير قوله تعالى : « وكل شيء فصلناه تفصيلاً » وقوله « إنا كل شيء خلقناه بقدر » وقوله : « انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض » وقوله : « وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » وذلك لأن الحساب لايفير ، ولو غير الحساب لاختل نظام المجموع ، فكل امرئ في الأرض أشبه بعدد في مربع من تلك الأعداد ، وكل أمة أشبه بجدول أفقي أو رأسي ، وبين الأفراد علاقات لاخلل فيها ، وكل فرد وكل أمة تختلف عن الأخرى ، وهكذا خلق كل حيوان وكل إنسان وكل معدن الخ .

(٧ و ٨) نظام الأمم ، وتشریح الأجسام : وكما أن علم الله مبني على نظام واحد وهو حساب محكم ظهر لنا نموذجة الذي تقبله عقولنا الضعيفة هكذا يجب أن يكون نظام أمم الأرض جميعا ، لأن اختلاط الأمم الآن دلنا أنهم متعاونات مرتبطات ارتباط هذه الأعداد ببعضها ارتباطا لا تقصم له ولا انقطاع ، وأي فرق بين ارتباط الأمم وتعاونها وارتباط أعداد هذه الأوقات وتناسب أعضاء الجسم الواحد ؟ فالرجل لو نظقت لقات أنا أحب العين وكلاهما يجب السكبد والسكبية والعظم وما أشبههن .

الله أكبر ، جل الله : ظهر الحق واستبان السبيل . فقال صديقي : وأي حق غير ما تقدم ؟ فقات : هو سر الأسرار وعلم الأبرار . فقال : وما هو برحمك الله ؟ فقات أي صديقي : إذا كانت هذه حال الأعضاء من الصداقة والوودة بحيث يرى كل عضو لو كان يعقل أنه يجب بقية الأعضاء ولا يحسد واحدا منها ، لأن الجميع يرفع بعضه بعضا ، غاية الأمر أن الأعمال اختلفت كما أن عدد ١ و ٢ و ٣ الخ في الوجود للتحقق كل واحد منها في مربعه وهو مرتبط بجدوله وبالجداول الأخرى وبينهن مناسبات محببة ، بل لو نظقت لقات كل واحد إلى أحب باقي الأعداد لأن الوجود كله لا يتم إذا نقص واحد منها أو زاد أو انتقل من محله كما ينقص الجسم بنقص عضو واحد وتناءً أفقده بقية الأعضاء ، والذي يحظر لي كثيراً أن هذه العقول الإنسانية في الأرض سائرة إلى هذه الحال يوماً ما ، وهي قبل أن تصل إلى هذه الحال لا تزال في ذل وعذاب مهين كأهل أرضنا اليوم ، فإن كل أمة من شدة الجهالة الفاشية في نوع الانسان تريد أن تستقل بالحياة ، وهي في ذلك أشبه بعضو في الجسم ، أو مربع في الوجود يريد الاستقلال بالحياة وحده ويذهب الباقي من الحياة ، وهذا هو السبب في أن الحقد والحسد وبغض الناس من الكبائر ، لأن ذلك حجاب حجب هذه النفوس عن الاتحاد الذي يجعل كل نفس تفرح بالبقية ، وهذا إلى الآن لم يكن له أثر في أرضنا إلا قليلا ، وقد نجد رجال الحكومات يتعاونون ورجال الصناعات وغيرهم ، ولكنه تعاون ظاهري ، وكل يقصد نفسه ، وخير لسلك امرئ في الأرض أن يقصد المجموع الانساني كما قدمناه في (سورة الزمر) منقولاً عن الأستاذ (كانت) الألماني في رسالته عن التعليم ، فإنه حض جميع أفراد الأمم على أن يكون القصد الأسمى سعادة المجموع . هذا هو الحق الصراح ، فليجد المسلمون من الآن في إسماع جميع النوع الانساني ، وهذا هو سبيل الله والجهاد فيه موصل للقاء الله

عز وجل ، وكيف يلاقى الناس ربهم ، وهنم حال قلوبهم المملوءة جهالة بهذا الوجود وبهذه النفوس . وبهذا انتهى الكلام على الفصل الاول في حدائق النفس وبساتينها :

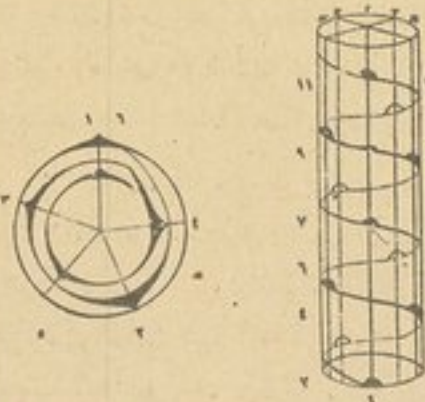
الفصل الثاني : في حدائق العلوم التي تفتيا الناس ظلالمها

وعاشوا في أكنافها من علم الفلك والطبيعة والنبات والحيوان والمعادن وجميع الصناعات لقد ذكرنا في الفصل السابق الجذر والتربيع ، وأبنا أسراراً بديعة جميلة ، وحكماً بالغة ، وذلك في الثلاث القامات الزوايا ، وكيف كان عدد ١ و ٢ و ٣ الخ بواسطة الجذر والتربيع أمكن استخراج آلاف آلاف الثلاث القامات الزوايا ذات الأوتار والقواعد والارتفاعات اللاتي لمن المناسبات والاتفاقات والسجائب مالا حصر له . هذا هو الذي رأيناه في خفايا نفوسنا . كما قال تعالى : (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) فما هو ذا الذي فهمته نفوسنا واشتملت عليه ، سواء أكانت جاهلة به أم علمته ظهر في نفس الطبيعة ، ألا تذكر بعض ما تقدم من الجذر والتربيع في هذا التفسير ؟ فقال نعم قد تقدم في مواضع كثيرة مثل ما جاء في أول (آل عمران) ذلك أن سرعة الأجسام الساقطة إلى بئر مثلاً من فوق جبل ، أو ارتفاع ما ، أو من فوق الأرض نفسها تكون بحسب ١٦ قدما مضروبة في ١ في الثانية الأولى ، وفي ٣ لثانية الثانية ، وفي ٥ لثانية الثالثة ، وفي ٧ لثانية الرابعة وبعبارة أخرى ١٦ في الأعداد الوترية ١ ٣ ٥ ٧ ٩ ١١ ١٣ ١٥ وهكذا السك ثانية على التوالي ، وإذا ضربنا عدد الثواني مربعاً في ١٦ قدما كان ذلك هو البعد الذي سقطه الجسم ، فالثانيتان يكون البعد فيهما ٤ في ١٦ والثلاثة ٩ في ١٦ والأربعة ١٦ في ١٦ (وبعبارة أخرى ١ ٣ ٥ ٧ ٩ ١١ ١٣ ١٥) إذا ضرب كل منهما في ١٦ كان الحاصل هو الذي سقطه الحجر في تلك الثانية قلت : أحسنت أيها الأئمة متذكر تمام التذكرة وهناك زيادة إيضاح ، ولكن الذي ذكرته أيها الأئمة كاف فيما نحن بصدده ، ذلك أننا نريد في هذا الفصل أن نبين أن للربيعات (التي تقدمت في الفصل السابق وجذورها وهي في نفوسنا ماهي إلا أعداد مجردة لها نظام عجيب من تربيع وجذر ولها نتائج في حساب المثلثات العقلية المنظمة العجيبة) قد ظهر آثارها في الطبيعة حولنا بما يدل على أن نفوسنا بينها وبين العالم حولنا مناسبة وكلما زدنا دراسة زدنا علماً بنفوسنا ، وكنا أقرب إلى ربنا ، وهل يكون قرب إلا بالعلم ؟ وهل العبادة إلا فتح باب للعلم ، وهل الصيام والحج والزكاة إلا مساعدات على خلوص النفس من أحوال هذه الدنيا فتلحق بالعالم المجرد عن هذه المادة فتقرب من ربها ، وهل ترى أعجب من أن التربيع والجذر الكامنين في نفوسنا قد ظهرا في الطبيعة التي صنعها الله عز وجل بيده بحسابه المشاكل لما في نفوسنا « والله المثل الأعلى » الذي بدرسه نزيد حبا له وعشقا وغراما

ثم قلت له : هذا هو الجذر والتربيع في حركات الأحجار الساقطات ، فهل تذكر جذرا وتربيعاً غير ذلك ؟ فقال نعم قد تقدم في (سورة الرعد) عند قوله تعالى : « وكل شيء عنده بمقدار » فهناك الجذر والتربيع في سرعة النور والصوت والحرارة والجاذبية ، ذلك أن شدة الصوت تقل بمقدار ما يزيد مربع البعد عن الجسم الصائت كما إذا أتينا بأربعة أجراس بحجم واحد ووضعناها على بعد ٤ ذراعا ووضعنا جرساً آخر بحجمها أيضاً على بعد ٢٠ ذراعا ، فإننا نجد صوت الأربعة كصوت الواحد ، لأن بعدها كبعده مرتين و ٢ في ٢ تساوي ٤ فإذاً يكون كل واحد من الأربعة صوتته كربع صوت الجرس القريب . وتقول مثل ذلك في الحرارة ، وفي النور ، وفي الجاذبية فهن سواء ، والتمثيل والايضاح تقدم هناك ، فهل أعيدته ؟ قلت . كلا . لأننا هنا نريد التذكير بما مضى ومن أراد فليراجع ما تقدم . ثم قلت : هل تذكر فيما مضى عجائب التوالية العددية والهندسية المتقدمة في الفصل السابق حتى يكون التطبيق عليها مما سبق في هذا التفسير ؟

قال نعم أتذكر مامر في (سورة العنكبوت) عند آية : « قل سر وافي الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » فإن هناك جدول العناصر البسيطة التي كشفها العلماء ، وقد وضعت منظمة بحيث رأينا أن الايدروجين هو الوحدة التي يقاس عليها ، وأن الهليوم زاد عليه اثنين تقريبا ، وهكذا عناصر أخرى عدوها مع ضم الايدروجين بالماء ٨ ونامنها الاكسوجين وهو له عدد ١٦ فكان لكل واحد اثنان في الجملة وإن اختلف بعض أفرادها وتجسد أن ذرة الكبريت ٣٢ وكسر وهي عام الثمانية الثانية ، وعلى كل فالنسبة بين كل عنصرين اثنان ولكن هذا أمر تقريبي قد يختلف ، ثم لننظر إلى الصفوف الرأسية التي يسمونها الطوائف فتجد أن الليثيوم في الصف الرأسي ٦٩٤٤ والصوديوم تحته ٢٣ والفرق بينهما ١٦ ثم إن البوتاسيوم تحته ٣٩١١ فالفرق بينهما ١٦ فهناك ثبت أن ترتيب زيادة العناصر ٢ - ٢ - ٢ عند وزنها بمعنى أن الايدروجين وهو أخفها جعل وحدة يقاس بها كما يقاس الناس بالذراع ، وهذه العناصر كلها أثقل منه بعدد ٢ - ٢ - ٢ إلى آخرها ثم وجد تناسب بينها في الخطوط الرأسية ، إذن هي تفاوتت ٢-٢-٢ ألقيا وتفاوتت رأسيًا بمضاعف ٢ وهو ١٦ وهو العدد المسمى بزواج الزوج الذي هو عدد الشطرنج المعروف ، فلما أجاب بذلك قلت : لقد كنت قوی الثالثة ، فلنكتف بهذا حتى إذا أراد أحد الأذكيا توسعا في ذلك ورجع إلى نفس الجدول هناك رأى تفصيله . ثم قلت : وهل تذكر أمثالا لهذا النظام في علم النبات ؟ فقال نعم قد تقدم في (سورة البقرة) عند آية الطير وإبراهيم أن العناصر تدخل في نظام النبات بحساب ، فإذا شئت بسط القول فيه فهو هناك مفصل . قلت : كلا . فن أراده فليراجعه هناك وفي أي سورة أخرى غير البقرة . قال في سور كثيرة ومنها سورة الحجر ، فإن هناك بين الأوراق مناسبة عجيبة جدا لأننا نجد شجرة التفاح المرسومة هناك أوراقها ذوات دوائر منظمة تامة النظام ، وكل دائرة تحوي دائرتين ، صغيرتين ، وتشتمل على خمس ورقات فنكون في فالرقم الأعلى يشعرا بالشكلين الحزوينين ، والرقم الأسفل يشعرا بعدد الأوراق وهناك نباتات أخرى فيها نسبة بين أوراقها وأشكالها الحزونية ، وهناك نظمت هذه النسب وجعلت بهيئة جميلة ، ولما نظر فيها العلماء وجدوا بين النسب يداع حسابية جميلة . فكما كانت العناصر بينها نسب هندسية وحسابية ، هكذا جميع أوراق الشجر في مشارق الأرض ومغاربها بين بسط كل منها مع مقامه مناسبات لبسط باقي النبات ومقامه . قلت : وهذا عجب يحجل هذا الإنسان الجهول الذي لم يدرس نفسه حتى يعلم أن بين أفرادها في جميع أمه نسبة حسابية ، وهذه النسب جعلت للانتفاع بالمرايا الإنسانية المختلفة لا القضاء عليها ولا محاربتها (انظر شكل ٢٧ و ٢٨)

قد جاء في المجلد الثامن من هذا التفسير مانعه :
(هاتان الصورتان المرسومتان أولهما صورة لعصن التفاح أو البلوط وقد دارت الأوراق عليه مبتدئة من الأسفل دائرة حول للعصن ، فالورقة الأولى للعصن عنها يمدد واحد تلاوها خمس قد صنعت دورتين حازونيتين كإقدامنا ، والخامسة منها التي هي السادسة في العدد تراها أمامك في الرسم فوق الأولى على خط مستقيم وهي تمام الدائرة الأولى وتليها الدائرة الثانية ونهايتها ومبدأ الدائرة الثالثة عدد ١١ وهكذا



هذا واضح في الشكل الأول ، ولكن لما كان هذا لا يظهر (شكل ٢٧) ٢ (شكل ٢٨)
منه أن كل خمس ورقات دائرة تامة وجب رسم الشكل الثاني الذي يمثل الدائرة التامة من هذه الدوائر بورقاتها الخمس بوضعها الأفقي لتظهر للناس فيعلمون أن هذه الأوراق حلالو موضوعة ووضعها رأسيًا هي دائرة تامة منظمة مقسمة خمس أقسام بخمس ورقات كل قسم منها ٧٢ درجة تقسما عادلا :

فانظر في الشكل الثاني (شكل ٢٨) فإنك تجد الورقات الخمس التي صنعت دررتين حلزونيتين قد ظهرت واضحة جلية ، فالورقة الأولى عدد ١ والثانية عدد ٢ والثالثة عدد ٣ وهكذا إلى السادسة التي جاءت في مقابلة الأولى على خط مستقيم ، ومن أراد الزيادة فليقرأ هذا الموضوع هناك اه
موازنة حساب الأجرام السماوية بالكسر الدائر

ثم قلت : فهل تذكر مما تقدم في هذا التفسير نظيراً للكسر الدائر ؟ فقال نعم تقدم في بعض السور كثير منه ولكني لا أذكره . فقلت إننا كما نقول إن الكسر الاعتيادي إذا حولناه إلى كسر اعشاري يصير مركباً من ستة أعداد تتكرر بلا نهاية هكذا نقول في حساب الكواكب بعد أن نعرف عدد أيام السيارات بهذا الجدول :

عدد الأيام	عدد الأيام	عدد الأيام	عدد الأيام
٤٣٣٣	المشتري	٨٨	عطارد
١٠٧٥٩	زحل	٢٢٥	الزهرا
٣٠٦٨٧	أورانوس	٣٦٥	الأرض
٦٠١٢٧	نبتون	٦٨٧	المريخ

تذكرة

أعداد أيام السيارات التي حصل فيها جبر للكسر لتسهيل الموازنة بين الكسر الاعشاري السابق وبين حساب الكواكب ، قلنا إن الكسر $\frac{1}{7}$ يساوي $142957 \frac{1}{7}$ وهكذا تكرر هذه الأرقام بلا نهاية وهي ١-٤-٢-٩-٥-٧ هكذا نقول عطارد يدور إلى الأبد على مقتضى هذه الأعداد ٨٨ ٨٨ ٨٨ وهكذا إلى ما لا نهاية له ، ونقول : الأرض تسير على هذا النمط ٣٦٥ ٣٦٥ ٣٦٥ ٣٦٥ ٣٦٥ إلى ما لا نهاية له ، وأورانوس يدور على هذا الحساب وهو ٣٠٦٨٧ - ٣٠٦٨٧ - ٣٠٦٨٧ - ٣٠٦٨٧ :

اللهم إنك أنت الحكيم الجليل العليم ، أنت أبدعت الجمال والحكمة ، وأرقتنا الكسر الدائر ظاهراً نظيره في سير الكواكب ، وفي تركيب كل مركب ، فهو في الحركات وفي نظام العناصر ، في آليات شعري هل كانت هذه المهورات الفلكية نتيجة تقسيم الواحد الصحيح إلى أجزائه ، أم ماذا كان ؟ وكيف كان الكسر $\frac{1}{7}$ تكرر فيه ٦ أرقام من الأعداد البسيطة ، وأورانوس تكرر فيه ٤ منها ، ونبتون كذلك ، وهكذا المشتري وزحل وفي عطارد ٢ وفي الزهرة والمريخ والأرض ٣ ، فيظهر لي أن العوالم أجمعها كأنها وحدة ، وهذه الوحدة تتجزأ ، دائماً وتتبع طريقاً مرسومواً لا تتحول عنه كالم يتحول الكسر الدائر عن منهجه ، وإذا كان الكسر المذكور لا ينتهي أدواره ، هكذا هذه الدراري لا تنتهي أدوارها انتهاء معلوماً لنا بل علم الانتهاء عند خالقها ومدبرها ، وبهذا تم الكلام على الفصل الثاني ، وهو تطبيق مظاهر في العوالم من الحساب للوافق لما في نفوسنا جذراً وتربيعاً وكسراً دائراً ومتواليات هندسية وحسابية وغيرها.

الفصل الثالث

في أن الأمم وإن استطلت بظلال تلك العلوم في حياتها لم تجن ثمراتها في سياساتها ، ولم تتناول القطوف الدانية ، من الفصون الوارفة ، في تلك الأشجار الباسقة ، بل هم لا يزالون بنظام أنفسهم فوق الأرض جاهلين :

لم ترأيها الصديق أن هذا الإنسان رأى الثعلب يصيد قفله، وللعنكبوت شبكة للصيد قفله، ولبعض السمك منشارا وبلطة قفله، وللسرطان درعا قفله، وأخذ أحقاق النشوق عن (أم الخلول)، وحرث الأرض عن الخنزير، والتباعد عن الروائح الكريهة من الهرة، وتماطى السهلات عن السكاب، وتجنيد الجنود عن النمل، والشاورة عن القلق، والحذر عن الغراب: واتخاذ الجاساء عن التناس، والحيلاء عن النمر، والهندسة عن النحل، وعلم الطقس عن الحلذ (بفتح الحاء واللام)، وأخذ الكهرباء عن السمك الرعاد، والغناء عن الطيور، وبناء الأقبية عن بعض الفيران، والمهارة في البناية والنجارة عن كآب الماء، وصناعة الورق عن الزناير، والغزل عن دود القز، والنسج عن دود الربيع، والحياكة البديعة الدقيقة عن بعض الطيور، وهكذا الحياطة والسكدح ليلا ونهارا عن النمل.

كل ذلك وأكثر منه قد تقدم في (سورة طه) فكل ما يصنعه الإنسان اليوم لرفق حياته تعلمه من الحيوان ونعم ما فعل، ولكنه لا يزال في سياسته طفلا غرا جاهلا أبلا، ذلك أنه استعمل عقله في درس هذا الوجود، وابتدأ معارفه بالعلوم الرياضية، والعلوم الرياضية هدته إلى استعمال العوامل التي حوله، فها هو ذا الإنسان شقيقه وغريبه أدرك أن الجندر والتربيع المشروح آتقا ورأهما ظاهرين وضحيين في الطبيعة كما تقدم في بعض الفصول السابقة، وأن الضوء والجاذبية والكهرباء والصوت كلها انتشرت حولها بمقتضى هذين القانونين، وهكذا رأى هذا الإنسان إن ١ ٢ ٣ الخ يجندرها وتربيعها وأعمال حسابية أخرى نتجت منها مشاث لا عدد لها، منظمة الحساب، قائمة الزوايا كما تقدم، فاستعمل ذلك كله، ورأى الكسر الدائر المشروح فيما تقدم فوجد له نظيرا في المادة وهو أولا أنها لم تعرف لها نهاية في جميع أقطارها علوا وسفلا وبمينا وشمالا، ولا في زمانها أزلا وأبدا، ولا في عظمها وبمدها المكاني، ولا في أجزائها عند تحليلها، فكل هذه لم يعرف لها الإنسان نهاية كما لم يكن للكسر الدائر نهاية، وقد تقدم هذا كله، وأعدناه هنا لترتب عليه ما يأتي، وهو المقصود من هذه المقالات كلها.

الإنسان لم يدرس حقائق السياسة كما درس أحوال الحياة

هذا الانسان درس ذلك كله مدفوعا بعامل الحاجة القومية لهيكله، المحافظة لحياته، ولكنه إلى الآن لم يفرغ لدراسة نظامه السياسي، ذلك لأن النظام السياسي كمال ونظام الحياة مقدمة له، والمقدمات عادة تصنع قبل النتائج -

إذا كان الإنسان قدر على استكمال نظام حياته واستعان عليها بالرياضيات التي تتعاملت في صميم العوامل الهيطة به من كل جانب فأحرى به الآن أن يستكمل السياسة بالعلوم الرياضية أيضاً، مثلاً الجداول المتقدمة المسماة بالأوفاق فانظر فيها أليس المربع الذي فيه عدد ١ والذي فيه عدد ٢ وهكذا إلى نهاية الجدول كل منها في مرتبة لا يسدها غيرها، وله صلة بجميع الأعداد، وفي الوسط هناك عدد هو أكبرها، فتأمل هناك تجد نظاما حسابيا بديعا أشبه شيء بنظام الجسم الانساني والحيواني، فكما أن كل عدد في الوفق لا يخفى عنه سواه ويتوقف عليه جميع مساواه: هكذا كل عضو في الجسم لا يخفى عنه سواه ويتوقف عليه مساواه، ولو نطق تلك الأعضاء أو تلك الأعداد لقلت إن المحبة بيننا تامة لشدة حاجة بعضنا إلى بعض، وإذا كانت العناصر المذكورة في (سورة العنكبوت) للشار إليها آتفا بينها نسب هندسية وحسابية، وهكذا أوراق النبات للرسمية المحسوبة في (سورة الحجر).

- أقول: إذا كانت هذه كلها بينها نسب فليس من العقول أن تكون عقول النوع الانساني وحدها هي المبردة من الحساب والنظام ثبت ثبوتاً لا شك فيه أن بني آدم مجهلون أنفسهم وحقائقها ولا بد من دراستها

حتى يعرفوا استعداد كل أمة وكل قبيل وكل طائفة ، وتوضع كل أمة وكل فرد في مرتبة التي فطر عليها ، وهذا آت لا شك فيه ، والسبيل لذلك قد شرحت في كتابي (أين الإنسان) وهذا يتضمن معنى الآيات التي نحن جدد الكلام عليها وهي : «وفي الأرض آيات للموقنين» والحمد لله رب العالمين . كتب يوم الثلاثاء ١٢ مايو سنة ١٩٣٢ م .

اللطيفة الثالثة : في قوله تعالى «وفي أنفسكم أفلا تبصرون»

اعلم أيها القارئ أن هذه الآية أشبه بالبسملة فإن الرحمة في البسملة تستدعي ذكر كل ما شملته الرحمة ، وذلك لا يسهل زمان ولا مكان ، هكذا أمر النظر في النفس فإنه لا حد لها ، ولقد تقدم في هذا التفسير ما فيه جمال وبهجة لأذكياء المسلمين ، ولكن لا بد من أن نذكر هنا (ثلاث شذرات جميلات) تبصرة وذكرى ورخصة للمذكرين ، وتلك الشذرات لا تختص بعلم تشريح البدن الذي هو للمهد لعلم النفس ، ولا بعلم الطب الذي به إصلاح البدن ، ولا بعلم النفس الذي هو المقصود بالذات ، بل يعم هذه الثلاثة .

الشذرة الأولى في كريات الدم الحمراء

جاء في جريدة الأهرام أول يناير سنة ١٩٣٢ م تحت هذا العنوان مانصه : (نشرت صحيفة ألمانية) خلاصة إحصاء وضعه الأستاذ (كيزرلغ) عن عدد الكريات الحمراء في دم الإنسان ، ففي الأنتار الحمسة (وهي مقدار ما في جسم الإنسان العادي من الدم) من الدم ٢٥ تريليون كرية حمراء ، وإذا وضعت تلك الكريات الواحدة إلى جنب الأخرى ألفت خطا طوله ١٨٧٠٠٠ كيلو متر ، ويقضى عددها ثمانين ألف سنة بلا انقطاع إذا عدت عشر كريات في الثانية ، وإذا (١) وضعت الكرية الواحدة فوق الأخرى بلغ ارتفاعها ٦٢ ألف كيلو متر : أي ما يبلغ مرة ونصف من محيط الأرض ، وذلك يساوي مسافة يقطعها قطار الاكسبريس في مائة يوم إذا كان يقطع سبعين كيلو مترا في الساعة ، وإذا وضعت الكريات الحمراء بعضها إلى جنب بعض غطت سطحها تبلغ مساحته ١٤٠٠ متر مربع) انتهت الشذرة الأولى :

الشذرة الثانية

في بعض للنافع الطبية التي تقدم في هذا الكتاب كثير منها تنفي أولى الأسباب عن الطبيب غالبا كما جربته ولكن الذي ذكرته في طب الأسنان كان يعوزه ما هو أكل فيه لأنه تقدم في هذا التفسير أن الأسنان عليها مدار أكثر الصحة في الحياة ، وقلنا هناك إن الأمة الألمانية وغيرها لاتدع مريضا إلا كتبت قبل الشروع في مداواته عن صحة الأسنان ، فمضى داوتها كان ذلك خطوة في صحة المريض ، فهناك ماقاله الدكتور محمد علي عثمان طبيب الأسنان المعروف بالقاهرة خريج كلية الطب الملكية المصرية ، وهذا نصه : -

وجوب المحافظة على الأسنان

الأسنان هي أجسام صلبة تشبه العظام ، موضوعة في مدخل القناة الهضمية ، ومثبتة في قطعتين من العظم يقال لهما الفكسان ، وظيفتها تضم ومضغ الطعام وتهيته حتى يسهل على المعدة هضمه ، فطبيعي أن نظافة الطعام المد للهضم ، وخلوه من البكتيريا تتوقف على نظافة الأسنان وخلوها من المواد للتلغص ، فإذا كانت الأسنان غير نظيفة فتمد المضغ يختلط الطعام بما عليها من الأوساخ والمواد العفنة ، ويدخل للمعدة فيسبب أمراض الامعاء وعسر الهضم ، وما إليها من أمراض القناة الهضمية . وجائز بل ومحتم أن يمتص الدم جزءا من هذه المواد العفنة فيسبب كثيرا من الأمراض منها بل وأظهرها أمراض اللقائل وأمراض العين وغيرها ، فمن ذلك نرى أن العناية بنظافة الأسنان هي أساس الصحة .

(١) في هذا خطأ وصواب ولكن قلناه بالحرف اه

تنظيف الأسنان

سواء أكانت بالسواك أو الفرجون (الفرشة) ، فكلها تؤدي الغرض إذا استعملت بالطريقة الصحيحة. الطريقة الشائعة في استعمال السواك أو الفرجون هي تدليك الأسنان بالأداة المستعملة ، وجعل اتجاه تحريك الأداة في اتجاه مضاد للاتجاه الطولي للأسنان ، هذه الطريقة خطأ ، فبينما استعمال هذه الطريقة ينظف ماظهر من الأسنان ، فهي في الوقت نفسه تدفع فضلات الطعام بين الأسنان فتتخمر وتكون نواة يتجمع حولها الأوساخ فتتكون المواد الجيرية على الأسنان وتظهر كأنها طبقة منها ، وهذه الطبقة الجيرية هي الأساس الأكبر في كل أمراض اللثة وتسويس الأسنان ؛ واستعمال هذه الطريقة بسبب تآكل اللثة شيئا فشيئا حتى تمرى الأسنان وتبتدى تتخلخل .

الطريقة الصحيحة

هي بتحريك الأداة في اتجاه واحد مواز للاتجاه الطولي للأسنان بمعنى أنه عند تنظيف أسنان الفك الأسفل توضع الأداة عند ابتداء اللثة وتحرك الأداة إلى أعلى ، ويكون التحريك دائما من أسفل إلى أعلى فبذلك تخرج كل الفضلات التي بين الأسنان ، أما في أسنان الفك الأعلى فيكون التحريك من أعلى إلى أسفل ويجب عمل هذه العملية على كل الأسنان (انظر شكل ٢٩) .



بعد الانتهاء من تنظيف الأسنان يجب تدليك اللثة بالأصبع حتى تصير اللثة ذات ملمس ناعم غير لزج فهذا التدليك يفيد :
أولا : في أنه يزيل الطبقة الرفيعة من الطعام التي قد تكون على اللثة .

ثانيا : تجذب جزءا كبيرا من الدم النقي إلى هذه الجهة فتقويها .

(شكل ٢٩ - صورة تبين طريقة

تنظيف الأسنان السفلى . اتجاه الفرجون من أسفل إلى أعلى)

ملاحظة يجب تدليك اللثة بعد كل أكل ، بل وكلما أمكن الإنسان في أي لحظة وقت غسيل الفم . أما عملية تنظيف الأسنان فيجب أن تكرر مرتين في اليوم على الأقل (الأولى) قبل النوم مباشرة ، لأن الإنسان عندما ينام فيه دائما مقفلا فلا يمر فيه إلا هواء الزفير المملوء بثاني أكسيد الكربون الذي يساعد على سرعة عملية التخمر مع بقايا الطعام إن كانت موجودة في الفم (والثانية) عند القيام من النوم ، وذلك أن الإنسان في مدة النوم التي تتراوح بين ٦ - ٨ ساعات فيها لا يتجدد لعابه فيكون غير مستعد لأن يؤدي وظيفته على الوجه الأكمل كما أن طعام الفم عند الصباح لا يكون مقبولا .

عدد الأسنان عند الرجل والراة ٣٢ سنا ، منها ثمانية قواطع ، وأربعة أنياب ، وثمانية أضراس صغيرة واثنتا عشرة طواحن . وتركب السن من تاج وهو الجزء الظاهر في الفم ، وجذر وهو الجزء المثبت في الفك ومغطى باللثة ؛ وبين التاج والجذر طبقة لها (عنق السن) ، وهي تكون الحد الفاصل بين الجذر والتاج وفي الحالة الطبيعية تكون (عنق السن) مغطاة باللثة . وتتكون الأسنان من :-

(ميناء) : وهي مادة صلبة جدا ، بل أصلب مادة في جسم الإنسان ، وهي تغطي التاج فقط .

(سيمنت) : وهي طبقة تشابه العظم العلوي من جسم الأسنان في التركيب وتغطي الجذر .

(العظم) : وهي طبقة سمكة يتكون منها معظم جسم السن ، وتتكون مغطاة بالبناء والسيمنت ،

وتمتد من الداخل إلى اللب .

(اللب) وهو مركز الحياة في السن ، وهو عبارة عن مجموعة شرايين وأوردة وعروق ، ومكانها في تجويف داخل عظم السن ، ومحتويات اللب تتصل بالدائرة الدموية العامة في جسم الإنسان ، ومن هذه المحتويات أيضا تتفرع فروع دقيقة جدا تتخلل عظم السن والسيمنت ، وقد تمتد إلى جزء في اللب ، ويتصل السن بعظم الفك بطبقة ليفية رقيقة تحيط جذور الأسنان ، ويمر في هذه الطبقة بعض الشرايين والأوردة والعروق التي توصل الفروع المتفرعة من اللب إلى الفروع الموجودة في عظم الفك .
من ذلك ترى أن الأسنان عبارة عن أجسام حية ، لا كما يظن البعض أنها أجسام ميتة لاحياة فيها
جذور الأسنان

كل القواطع والأنياب العليا والسفلى لها جذر واحد .
الأضراس الصغيرة كلها أيضا لها جذر واحد ماعدا الضرسين الصغيرين الأولين في الفك الأعلى ، فقد يكون لهما جذران :

الأضراس العليا كلها لها ثلاثة جذور .
الأضراس السفلى كلها لها جذران فقط .
هذا التقسيم هو الشائع ، ولكن قد تشذ بعض الأسنان فتخالف للألوف .

تسويس الأسنان

يشكون تسويس الأسنان من : أن الإنسان يترك بعض فضلات الطعام في الفم فتتخمر وتغرز أحماضا تؤثر على مادة الأسنان فنديها ، وبذلك تتكون فتحة في الأسنان قابلة لأن تمتلئ ببقايا الطعام عند ما يكون التسويس واصلا للعظم فقط قد يشعر الإنسان بآلام عند شرب الماء البارد ، أو الساخن ، أو مع استعمال كثير من التوابل ، أو عند الأكل ، وقد لا يشعر الإنسان بآلام قط ، وإذا ترك هذا التسويس بدون علاج يمتد إلى اللب فيسبب آلاما شديدة متقطعة غير محتملة ، وتزداد الآلام عند ما ينام الإنسان أقبيا وتكون حادة جدا عند الأكل أو الشرب .

عند ما يكون التسويس في الأسطح الجانبية للأسنان وهي الأسطح التي ليس عليها ضغط قد لا يشعر الإنسان بأى آلام ، وقد يصل التسويس إلى اللب بدون أن يدرك المريض ، ففي هذه الحالة قد يجورت اللب ويبقى متعفنا بسبب خراجا .

أمراض الطبقة اللببية

قد تكون أمراضا حادة ، وفي هذه الحالة يكون الألم مستمرا دقاقا ، وتكون اللثة حول الأسنان حمرة ومتورمة ، وتتألم لأي ضغط ، والأسنان أيضا تتألم عند الأكل ، أو مجرد الضغط ، وتكون في الغالب مخلخلة وفي هذه الحالة يتكون في الغالب خراج حول السن المريضة ، والأمراض المزمنة لهذه الطبقة تكون بتآكل اللثة مع هذه الطبقة ، وسببها يكون من ضغط المادة الجيرية التي تتكون على الأسنان ، وقد تكون من أسباب أخرى كثيرة لا يتسع المقام لتكرها .

أمراض اللثة

(التهاب في اللثة) : وفي هذه الحالة تدمي اللثة من أقل لمس ، وسببها الأوساخ والمواد الجيرية التي تتكون على الأسنان وعلاجها يكون بإزالة هذه المواد .

(تضخم اللثة) : قد تظهر اللثة متورمة ، وتدمي لأقل لمس ، وسببها كالمرض السابق وغيرها من أمراض أخرى ، وأغلب أمراض اللثة تتقدم بدون أن يجرها الإنسان أدنى التلغات فتسبب امتصاص العظم

التي حول الأسنان فتكون بذلك بين الأسنان وبين اللثة مسافة قابلة لتخزين فضلات الطعام فتخمر في هذه الجيوب ، فتجمل القم ذرائحة كريهة ، وعند ضغط اللثة نفرز صديدا ، وبعض من هذا الصديد يمتص في الدم فيولد أمراضا كثيرة غير الأمراض التي تتولد من امتصاص هذا الصديد مع الطعام إلى المعدة والأمعاء .

من كل ما سبق نجد أن جميع الأمراض التي تتكون في القم نتيجة وساخة الأسنان .
ملاحظة : إذا تكونت المواد الجيرية على الأسنان قد تترك سطحا خشنا ، فمن كثرة احتكاك اللسان بهذا السطح يتكون فيه قروح قد تسبب سرطانا . عند ما يتقدم امتصاص العظم الذي حول الأسنان نجد الأسنان تتخلخل وتقع من زوال ما يربطها بالفك . لا يصح أن يعتبر كل تأكل في العظم الذي حول الأسنان مرضا ، فإن تقدم السن يكون مصحوبا دائما بتآكل هذا العظم ، ففي حالة كبر السن لا يصح أن يعتبر تآكل الأسنان مرضا إلا إذا كانت مصحوبة بعوارض أخرى .

تركيب الأسنان الصناعية

قد تسم رأى معظم الناس بأن العلاج الوحيد للأسنان من أى مرض كان هو تغطيتها بغطاءات ذهبية ماعمل هذه الغطاءات الذهبية ؟

أولا : أنها تمزل السن المريض عن العوامل الخارجية فلا يتأثر بالحرارة والبرودة وغيرها .
ثانيا : في الوقت نفسه يبقى المرض داخل الضرس فينخر فيه ، فبعد تركيب الغطاء الذهبي بمدة وجيزة يبتدىء الضرس في تسبب متاعب كثيرة ، وقد يكون علاجها شاقا جدا على المريض والطبيب .
ثالثا : إن هذه الأغشية تثبت على الضرس بطبقة من الأمنت ، وأن هذه الطبقة قابلة للذوبان في اللعاب فتترك بذلك مسافة بين الضرس والغطاء يصعب تنظيفها فتخمر فيها بقايا الطعام وتسبب بذلك أمراض اللثة وما ينتج عنها من الأمراض الويلة .

رابعا : قد يضغط الذهب على اللثة فيسبب للانسان اختلالا في الأعصاب لا يعرف لها سببا .
خامسا : إن صعوبة تنظيف العضلات التي بين الذهب والسن تجعل رائحة القم دائما كريهة .
لئن هذا ترى أضرار الغطاءات الذهبية المنتشرة في كل أنحاء المعمورة ، والتي يجب أن نمتنع عنها بكل ما أوتينا من قوة ، ولعلاج الأسنان يجب أن نبحث عن سبب المرض فنزيله ، فإن كان الضرس به تسوس يجب أن نغسل الضرس جيدا بإزالة الأجزاء المريضة ، وبعد ذلك نضع في الضرس حشوا ليحل محل ما أزيل من الضرس ، وبذلك تنفادى عن عمل الأغشية الذهبية . وإن كان لا يمكن إزالة المرض يجب خلع الضرس إصالة حتى لا يسبب للانسان متاعب لا داعي لها .

كثير من الناس عند ما يخلع له ضرس لا يفكر مطلقا إلا في تركيب بدله شيئا ثابتا ، أو بمعنى آخر بتركيب (كبرى ذهبي) والكبرى هو عبارة عن غطاءين ذهبيين مثبتين على الضرسين اللذين حول الضرس الخلعوع وبين هذين الغطاءين يوجد ضرس ذهبي ملحوم بهما ، فأظننا بحثنا سابقا أضرار الأغشية الذهبية ولا داعي لذكرها الآن ، إنما أحسن طريقة لوضع بدل الأضراس الخلعوعة هو طريقة الأجهزة المتحركة التي يمكن إخراجها وتنظيفها كلما دعت الحالة فبذلك يبقى القم دائما حافظا لروقه .

الأسنان اللبنية للأطفال

تبتدىء أسنان الأطفال في الظهور من سن ٦ أشهر تقريبا . وتكمل في سن ٣٠ شهرا وعددها ٢٠ وتقسيمها :

أربعة أسنان أمامية عليا ، ومثلها سفلى .

ثلاثين أعلى ، ومثلها أسفل .

أربعة أضراس عليا ومثلها سفلى .

أسنان الأطفال عرضة للأمراض بسرعة ، فتركيبها من مادة ليست من الصلابة الكافية بحيث تقاوم ما هي معرضة له من تخمر فضلات الطعام ، ومن الحلوى اللقمة بها الأطفال ، فندما يشكو الطفل من أضراره يجب عرضه على الطبيب مباشرة حتى يزول سبب الألم ، وبعض الأضراس عند ما يهمل علاجها تبقى في الفك مدة زيادة عن المقررة لها ، فتسبب بذلك اعوجاج الأسنان الأخرى الثابتة التي ستحل محلها ، فيظهر لنا الشخص في بعض الأحيان ذا بروز في أسنانه الأمامية أو خلال في ترتيب أضراره . ويكون نتيجة ذلك سرعة تسرب مرض الأسنان .

واجب الأم نحو طفلها

يجب على الأم أن تسمح أسنان طفلها يوميا بقطعة مغموسة في (السبرنو الأبيض النقي) حتى تبقى أسنانه دائما نظيفة .

الاضطرابات التي تحدث للطفل في وقت التسنين

عند التسنين تحدث جملة اضطرابات عند الطفل من الضغط الذي يحدث من السن على اللثة التي فوق منها :

(١) فقدان الشهوة عند الطفل فيرفض كل طعام يقدم له ، ولا يقبل أن يرضع من ثدي أمه .

(٢) يحدث عند الطفل تشنجات وحركات عصبية .

(٣) ترتفع درجة حرارته وقد تصل إلى ٤٠ فيشك أن عنده حمى .

(٤) الأرق المستمر .

(٥) يتقافأ كثيرا ، ويطرد اللبن الذي يعطى له .

(٦) يحصل عنده إسهال شديد .

(٧) بعض الأحيان لا يستطيع الطفل أن يرى النور .

(٨) بعض الأحيان يحصل تصلب في عضلات الرقبة وتراجع الرأس إلى الخلف ، فيشك في التهاب

السحائي (الحمى الشوكية) . في الوقت نفسه يحدث التهاب عام في فم الطفل ، وفي بعض الأحيان تحصل

قروح صديدية في فمه .

ففي هذه الحالات يجب عرضه على الطبيب لعلاج مرض الطفل العام ، وفي الوقت نفسه يعرض أيضا على

طبيب الأسنان ليعالج الالتهابات ، أو يفتح اللثة ، حتى يخفف الاضطرابات عن الطفل .

هذا موضوع مقتضب عن حالة الأسنان وأمراضها يمكن به الإنسان أن يعرف حالة أسنانه مؤقنا حتى

يستشير أصحاب الرأي في ذلك ، وما سبق لا يجب أن يتخذة الإنسان قاعدة عامة تسن على كل حالة ، بل لكل حالة

علاجها الخاص ، ولكن مما سبق يمكنه أن يكون رأيا مبدئيا عن أي حالة كانت ، وبذلك يستعد لأن يفهم

ما يقوله له الطبيب عند ما يعرض عليه الحالة . والذي دعاني إلى كتابة تلك الكلمة للوجزة عن الأسنان

وأمرضاها أستاذنا الكبير فضيلة (الشيخ طنطاوي جوهرى) مؤلف هذا التفسير .

دكتور محمد على عثمان

جراح وحكيم أسنان

مدرج كلية الطب الملكية المصرية

الشذرة الثالثة

مسامرة بيني وبين صديقي العالم الذي اعتاد أن يحدثني في هذا التفسير

في قوله تعالى : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون »

وذلك في يوم الجمعة ١٩ صفر سنة ١٣٥١ هجرية الموافق ٢٤ يونيو سنة ١٩٣٢ م بعد العصر

حتى أمر النفس وعجائبها ، ومدار الحديث على ما يأتي :

(١) الحقول هي السكينة الأولى لعلم النفس وما حوله من العلوم .

(٢) الأزهر .

(٣) للدارس النظامية .

(٤) فلاسفة القدماء .

(٥) الفلاسفة المحدثون ونظام علم النفس عندهم مع العلوم الأخرى .

(٦) علم النفس في إخوان الصفاء .

(٧) في جمهورية أفلاطون من حيث قياس نظام النفس الواحدة على نظام الأمة .

(٨) في علم التربة الحديث ، وأن علم النفس فيه أوسع نظاما بحيث يرجع إلى مبدأ الخليفة متبعا سلسلة الرقي الحيواني والإنساني ، فكأن كل فرد في حياته سلسلة منتظمة من العوامل كلها ، وهذا آخر ما وصل إليه العلم الآن ، وهذا بعض سر : « وفي الأرض آيات للموقنين ، وفي أنفسكم أفلا تبصرون » .

قال محدثي : إني اليوم أريد أن أحدثك في هذه الآيات : « إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ، كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ، وبالأسحار هم يستغفرون ، وفي أموالهم حق للسائل والمحروم ، وفي الأرض آيات للموقنين ، وفي أنفسكم أفلا تبصرون ، وفي السماء رزقكم وما توعدون ، ف ورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون » .

فهاهي ذه آيات انتظمت فيها أولا جواهر العبادات من صلاة واستغفار ، ثم تبعها العطف على الناس بالإحسان ، ثم الكلام على الآيات في الأرض ، ثم النفس الإنسانية ، ثم السماء ، ثم ختم هذا للبحث بهذا القسم ، وبماذا أقسم ؟ أقسم بنفس السموات والأرض اللاتي أحاطت بالنفس من كل جانب ، فقلت : أيها الأخ الذكي : إن هذا النظام معلوم مما قررته في مواضع كثيرة من هذا التفسير . فقال : ولكني أريد قولاً أوسع ، ودرسا أتم ، وإيضاحاً أوفى ، بحيث نتمكن إليه نفس الحليم ، ويطعن إليه قلب الحكيم . فقلت : أيها الأخ أحدثك عما زاولته في ذلك مدة حياتي في هذه الدنيا ، وذلك في ثمانية فصول :

الفصل الأول : علم النفس في الحقول

رباه : أنت قد أشرق نورك ، وتجلى جمالك في البر والبحر ، والعامر والقفر ، والجبل والسهل ، والنهر والحقل . تلك أفي أيام الصبا وزمن الحيرة المطلقة لم يكن لي مدرسة إلا في حقلنا الذي كنا نزاول الزراعة فيه (في أرض الثانية) بكفر عوض الله حجازي ، فسبحانك اللهم وسعدانك ، ماذا كانت دراسي ؟ دراسي فيها كانت راجعة إلى ما في الحقل من ذرة وقمح وقطن وبرسيم ، وما حوله من ماء جار وطرق بطرقها للارون ثم ما فوق الحقل من الهواء والسحاب والمطر ، والأضواء والنجوم ، والشمس والقمر ، والحر والبرد .

هذا هو الذي كنت أدرسه ، ولكنني كنت جاهلا جدا جاهل ، أدرس ولا أدري ماذا أدرس ، أنظر بين حائرة ، وقلب خائف مضطرب ، ونفس وثابة إلى العلا ، فالنفس وامقة ، والشقة طويلة ، فأين للقر ؟ . هنالك حرت في هذا الوجود الذي يرجع لثلاثة أمور : نفس للطربة وما فوقها وما تحتها ، فالوجود كله ثلاثة في حقلنا .

هذه أيام حيرتي ، ولكني كنت أستعين بالصبر والصلاة ، أصلي ليلا وأصوم نهارا ، وأضجع إلى صانع
نفسى وأخاطبه وأنا أنظر إلى النجوم ليلا قائلا : يا الله : قد ظهر لي أنك برحيم بهذه الطيور ، قد علمتها
ووهبتها كل ما تحتاج إليه . وأنا أريد المعرفة ولست أدري من يلمني ، أفلا ترى أيها الأبحر أن ما نتفق لي في
ذلك يوافق أول هذه الآيات من حيث الإكباب على العبادة والالتجاء لصانع العالم ، وهذه مجرد مصادفة
لأنى ما كنت أدري من هذا شيئا . لأنى كنت أحفظ القرآن بلا علم ولا عقل ولا هدى ولا كتاب منير .
ولسكن كنت أسامر النجوم ليلا ، وأنفق الشجر والزهر ، والنمر والحب ، وكل حشرة ودابة الخ فهذه
كلها كنت أدرسها درسا غامضا ، أتلس الحقيقة بين هذه مخلوقات . انتهى الفصل الأول .

فقال : قبل أن نتقل للفصل الثانى أرجو أن تذكر لي قبل الباحث الأخرى لماذا ذكرت النفس بعد
العبادات وبعد آيات الأرض ؟ فقلت : هذا الترتيب يظهر لك في الفصول الآتية ، لأنك ستري أن الأمم قبلنا
لم نجد لها مناصا من دراسة الموائم التي حولنا قبل دراسة أنفسنا ، لأن هذه الموائم مقدمات لخلق نفوسنا ،
فدراستها يجب أن تكون مقدمة على دراسة النفس ، فها هو ذا أفلاطون في الجمهورية يجعل النفس مقيسة على
نظام الأمة ، وهام أولاء الفلاسفة للتقدمون وهو منهم يقولون : إن لها قوى ثلاثة سيأتى إيضاها ، وهذه
القوى نظامها كنظام النبات والحيوان وهي الشهوية والغضبية والماقلة . فقال : قد اكتفيت بهذا الآن . فقلت :

الفصل الثانى : دراسى فى الجامع الأزهر

كنت أدرس فيه علوم اللسان من النحو والصرف وعلوم الأحكام الفقهية ، وبعض للنطق والتوحيد ،
وهو الذى حرك وجدانى للبحث ، لأن نظامه إذاك لم يكن مثل نظامه اليوم ، فهو اليوم أرقى مما كان عليه
إذ ذاك ، وسيزداد إن شاء الله تعالى ..

ولطالما كنت وأنا أحفظ فى (متن النهج) وهو آخر كتاب لدراسة الفقه أنظر إلى السماء وأقول :
يا الله : أنا أريد الحقائق ، وقد طابت منك مافوق هذا ، ولقد أوضحت هذا المقام فى ثنايا هذا التفسير وفى
كتابى (التاج المرصع) الذى ترجم إلى القازانية ببلاد روسيا ، وإلى الأوردية ببلاد الهند ، ونشر فى جميع
بلاد الإسلام ، فليراجع من أراد . انتهى الفصل الثانى .

الفصل الثالث فى مدرسة دار العلوم

لما دخلت هذه المدرسة اعترانى الدهش بما رأيت ، فإن العلوم الطبيعية من الضوء والحرارة والصوت ونحوها
هي التى كنت أفكر فيها فى حقنا وهكذا الحيوان والنبات ، ثم علم الفلك ، فكنت فى المدرسة مثلى فى الحقل
أقرأ بشوق وتوق لتشبع النفس مما كانت تتوق إليه ، إذن الحقل كان لي مشوقا ، أفلا ترى أيها الأبحر الذى
أنى على حق إذا قلت : إن أمم الإسلام يجب عليها أن لاتهمل أبناءها كما أهملت أنا فى الصغر وضاع زمان
المراهقة فى حفظ القرآن بلا عقل ، وأن تبادر بتعليم الأطفال ما كنت أتلمه وأنا فى ، فليروم جمال الأشجار
والأزهار والأنهار والنجوم ، وليجيبوم فى ذلك ، فإذا انتظموا فى سلك الدراسة قالوا هذا الذى كنا ندرسه
من قبل ، وهذه الطريقة هي للتبعة فى جميع بلاد الله شرقا وغربا الآن ، ولكن العلوم فى تلك المدرسة علوم
جزئية فلا بد من البحث فى :

الفصل الرابع : فى السلام على الفلاسفة القدماء

هناك اشترأت نفسى إلى أن أقف على آراء النوع الإنسانى فى علم النفس وسوابقه ولواحقه هيئة نظامية فإن
الحقل لاعلم فيه إلا للشوقات ودراسة الدين بالطريقة القديمة دراسة جزئية ، وبعض الكتب والعلوم تربك
النفس ، ودراسة للدارس إيضاح لما أشكل على فى الحقل .

ولكني أريد أن أنظر النظام العام وآراء الأمم جميعا فيه حتى تطمئن نفسي وأقول إنى لم أعملها في التعليم
 فلما وجدت؟ وجدت أن محصل علوم الأمم القديمة فيما كنت أدرسه في الحقل هكذا. نظروا في مقادير المادة
 من العدد والقدر والحركات، ومعنى هذا أنهم قبل أن يدرسوا نفوسهم اضطروا أن يدرسوا المادة التي تركب
 منها أجسامهم التي تسكنها نفوسهم، ذلك لأن أجسامنا مركبات مما حولها فدراسة ماحول الأجسام الإنسانية
 مقدمة لدراستها، ودراسة تلك الأجسام مقدمات لدراسة النفوس، ومق درسنا نفوسنا، انتقلنا إلى ما ينتج
 عنها من الاجتماع البدني والنزلي والتهديب الخلقى، فعندنا مادة حولنا وأجسام لنا ونفوسنا ونتائج نفوسنا،
 وقوة قاهرة فوق الجميع، ولكن هذه المادة لاتصح دراستها إلا بمقدمات وهى الأعراض القائمة بها، وذلك
 مثل المدد والقدر والحركات وهكذا فإذا ابتدءوا بعلم الرياضيات ثم الطبيعيات المختومة بعلم النفس ثم الإلهيات،
 وأخروا العلوم السياسية الثلاثة وهى: تهذيب النفس وتديير النزل وتديير المدينة، فأول العلوم عندهم علم
 (الارتماطيقى) تسعة أقسام مشروحة في كتابنا (بهجة العلوم) فى الفلسفة العربية وموازنتها بالعلوم المصرية
 (تحت الطبع). وثانيها الهندسة (الجومطريا) التى يبحث عن النقطة والخط والسطح وهكذا ولها علوم
 تنفرع عليها وصناعات تتبعها، ولاجرم أنى فى الحقل كنت أفكر فى أعداد هذه الأشياء، وفى الامتداد
 والطول والمرض وأشكال مخلوقات البديعة وبدائمها، إذن هذان العلمان مبدؤهما كان فى الحقل من عد
 وامتداد: وثالثها علم الفلك (الاسطرونوميا) وفيه صفحة البروج والنازل وحساب الشمس والقمر وهكذا،
 ولاجرم أن هذا العلم هو الذى كنت أفكر فيه ليلا وأنا أنظر النجوم بلا علم ولاهدى، وبلحق بعلم الفلك
 عند القدماء علم الجغرافيا، ورابع العلوم علم الموسيقى، وعلم اللوسيقى ليس شيئا سوى مقياس حركات
 الأصوات كما أن الزمان مقياس حركات الأفلاك، قاسوا حركات الكواكب فقالوا علم الفلك، وقاسوا
 حركات الأصوات فقالوا علم الموسيقى، وهذا العالم كله موسيقى، وقد جعل الله لنا دليلا على ذلك غناء الطيور
 على الأشجار، وحفيف الأوراق، ونغمات الأشجار إذاهبت الأرواح وفاءت الأفياء. هذه هى اللوسيقى التى وضعها
 الله وأنعم بها على العالمين ولكن أكثر الناس لجهلهم بها لا يظربون، ويظنون أن الطبيعة لا تطرب فيها لأهم غافلون:
 هذه هى العلوم الرياضية عند القدماء وهى ترجع إلى الأعداد والحركات والمقادير (وبعبارة أخرى)
 إن هذه لا بد منها قبل دراسة المادة المقدمة على الجسم القدم على النفس المقصودة بالذات.

خامس العلوم علم للنطق الذى به ينتظم الفكر كما انتظم النطق بالنحو، وبهذا انتهت العلوم الرياضية
 وما يقرب منها وهو المنطق.

سادس العلوم إلى ثالث عشرها هى العلوم الطبيعية، وما هى العلوم الطبيعية؟ هى التى كنت أجاهد
 وأنا فى الحقل لأعرف حقائق المادة التى أزاول العمل فيها، مثلا علم (سماع الكيان) وما هو سماع الكيان؟
 عبارة عن دراسة الهيولى والصورة والحركة والزمان والمكان وما يخص الجسم من الأعراض الزائلة واللازمة،
 وهو العلم السادس.

سابع العلوم «السماء والمالم» وهو عبارة عن شكل العالم العام ونظامه فى أفلاكه وكواكبه وجليقاته
 ولكن تكون الدراسة إنجالية. ولاجرم أنى فى الحقل كنت أبحث عن ذلك وهذه العوالم تحيط بى.
 ثامن العلوم: يبحث فيه عن تكون المدن والنبات والحيوان وما أشبه ذلك، وهذه كلها كانت محل
 نظرى فى الحقل وفى دار العلوم، وهذا يسمى (علم الكون والفساد).

تاسع العلوم: هو الذى يبحث فيه عن حوادث الحر والبرد والسحاب والمطر والتلج والرعد والبرق
 ونفوس قزح والمالات، ومنشأ السحب من البخار، وغير ذلك من النور والظلمة، وتصاريف الرياح،

والأنهار والبحار ، وما يكون من العيوم والضباب ، والطل والندى ، والشهب وذوات الأذنب ، وما شاكل ذلك ، وهذا العلم يسمى (الآثار العلوية) وهي التي كنت لاحظتها في الحقل ولا أفهمها .
عاشر العلوم : وهو الذي يبحث فيه عما في التراب والطين والأرض السبخة كالسكباريت والأملاح والشبوب والزجاجات ، أو في قاع البحار كالدر والرجان ، أو في كهوف الجبال ، وجوف الأحجار ، وهو (علم تكوين المادن) .

حادي عشرها : (علم النبات) والبحث عن أجناسه وأنواعه وخواصه ومنافعه ومضاره ، وما ينبت منه على رؤوس الجبال ، وعلى شواطئ الأنهار ، وفي الآجام ، وما يفرس في القرى والبساتين ، وما يكون منه تحت الماء ، وما ينبت منه على وجه الماء ، وما ينسج على الشجر ، وعلى وجه الصخور وهكذا .
ثاني عشرها: (علم الحيوان) وعجائبه وطبائعه ، وأنه متصل بالنبات من أدناه ، مرتبط بالإنسان من أعلاه .

ثالث عشرها : (علم الإنسان) وفي هذا العلم يبحث عن أمرين : تركيب جسده وهو علم التشريح ، ومعرفة نفسه وما يلزمها وهي الحواس الخمس وما فيها من الحس للشرك ، والقوة الخفية والفكرة والتذاكرة وهكذا .

فقرى من هذا أن علوم المادة وأحوالها قد قدمت على علم جسم الإنسان ، لأنه لا يفهم إلا بعد فهمها ، وهذا هو السبب في قوله تعالى : «وفي الأرض آيات للموقنين ، وفي أنفسكم أفلا تبصرون» فالقرآن قدم الأرض ومباحثها وهي العلوم للتقدمة وهي اثنا عشر علما على علم النفس ، وهكذا الفلاسفة ، إذن القرآن أشار بقوله : «وفي الأرض آيات للموقنين» إلى هذه العلوم الاثني عشر ، وآتى بعدها بعلم النفس .
رجع إذن إلى أقوال الفلاسفة القدماء ، فنقول: قد اطلعنا في كلام أمثال ابن سينا والفارابي وابن رشد على علم النفس فوجدنا أنهم يقولون بناء على ما وصل لهم من علم اليونان أن في الرأس مواضع منها ماهو للفكر في وسطها ، ومنها ماهو للخيال في مقدمها ، ومنها ماهو للتذكر في مؤخرها ، وكانوا يقولون : إنهم عرفوا ذلك بواسطة علماء الطب ، لأنهم لما رأوا أن مرضا يعالج بجهة من هذه الجهات يخلل ماهو منوط بذلك الجزء من الإدراك كالنخيل والتفكر والتذكر .

قرأنا ذلك إجمالا غامضا وانتهى ذلك الدور ، ثم وجدناهم أيضا يقولون : إن للنفس قوة شهبوية وهي للنبات أقرب ، وقوة غضبية وهي بالآساد والتمور من الحيوان أليق ، وقوة عاقلة وهي إلى اللائكة أقرب ، فعليه زى أن ماسنذكره في علم التربية حديثا من جعلهم أن الطفل يمر على الأدوار السابقة للإنسانية من مبدئها إلى آخر ماسياتي إن هو إلا أشبه بتفصيل لما أجمله القدماء .

ثم إن القدماء يأتون بعد هذه العلوم بأبحاث عامة . وهذه الأبحاث العامة يسمونها (العلم الإلهي) أو (العلم الكلي) أو (العلم الأعلى) وذلك العلم الإلهي أو الأعلى جعلوه أقساما :

(١) فمنها قسم سموه (الأمور العامة) مثل : ماهو الوجود والنهاية والوحدة والكثرة والوجود والإمكان والامتناع ونسب ما بينها وما يخصها من حيث هي موجودات (مثل ذلك) أن يقولوا : إن الوحدة في جسم الإنسان ظاهرة ، فهو واحد من جهة لكنه كثير من جهات أخرى ، فله أعضاء وحواس وأجزاء لا يعرف عددها ، وجواهر فردة الخ فهانها وحدة وهانها كثرة ، والمدد التي لانهاية له واحد من جهة أنه عدد وكثير من جهة أفراده ، والعالم كله واحد كثير من جهات ، وهكذا من تلك الباحث .

(٢) ومنها قسم في النظر في مبادئ العلوم كلها ، وتبيين مقدماتها ، وهكذا القولات العشرة المذكورة في ثنايا هذا التفسير مشروحة كالكم والكيف الخ .

(٣) ومنها قسم للنظر في إثبات الإله الحق والدلالة على وحدته وتفردته بالربوبية وإثبات صفاته ، وبيان أنها لا توجد كثرة في ذاته .

(٤) ومنها قسم للنظر في إثبات الجواهر المجردة وهو العقول والنفوس واللائكة .

(٥) ومنها قسم للنظر في أحوال النفس البشرية بعد الموت .

فهذه خمس علوم سموها (علم ما وراء الطبيعة) ولخصها ابن سينا في كتاب (الشفاء والإشارات) ، فهذه بضمها إلى ما قبلها تبلغ العلوم ١٨ علما ١٣ في الرياضيات والطبيعات وخمسة في الإلهيات ، وهذه يدونها العلوم العلية ، وهي رياضية وطبيعية وعلوم كلية لا تختص بقسم من القسمين الأولين ، وهذه هي العلوم العملية ويقدمها تناجها ، وهي العلوم العملية ، وهي الخاصة بعمل الإنسان وما قبلها كلها راجعة لعمل الله ؛ وهذه العلوم ثلاثة : علم الأخلاق الباحث عن القوى الثلاث المتقدمة الشهوية والغضبية والمعلقة ، وعلم تدير المنزل في معرفة معايشة الأهل والخدم الخ وسياسة المدينة ، وهو علم السياسة المعروف ، وفي هذا العلم إجمال عام لسياسات الأمم .

فهذه عشرون علما ١٧ علمية وثلاثة عملية ، وهذه العلوم لها فروع كثيرة (مثال ذلك) علم الهندسة له فروع مثل علم المناظر ، وعلم المرايا المحرقة ، وعلم مراكز الأفعال ، وعلم المساحة ، وعلم أنبساط المياه ، وذلك لأحياء الأرضيين ، وعلم جر الأفعال ، وعلم البنكومات ، وهو علم به يعرف إيجاد الآلات المقدره للزمن مثل هذه الساعات التي يعملها الناس اليوم ، ومثل الآلات الحربية .

فهذه فروع الهندسة ، وهذه أصبحت صناعات تدرس في مدارس خاصة ، وترى أن علمي النباتات والحيوان يتفرع عليهما فروع كثيرة فإذن صناعات التجارين والجزارين ترجعان إلى النبات والحيوان ، وعلى هذا قس العلوم المذكورة وفروعها عند القدماء بانتم نحو ٦٠ ولهذا السبب فروع بلغت مئات سجلها قدامونا في كتبهم .

هذا ما وصل إليه علم القدماء ، ولكن نفس التي تعلمت مبادئ هذه العلوم في الحقل وخرجت منه في شوق إلى العلم لا تقف عند كلام القدماء ، هنالك نظرت في كلام المتأخرين فماذا رأيت ؟ رأيت ما يأتي :

الفصل الخامس : في ذكر ما رآه الأستاذ ليكون الانجليزي

إنه قسم العلوم المذكورة إلى ثلاثة أقسام : (أولاً) نظر إلى العلوم الاثني عشر الأولى ومعها علم التشريع فقال هذه لا أسميها فلسفة ، وقال : كل علم منها له تاريخ فلنسماها هكذا : التاريخ الرياضي ، التاريخ الطبيعي كالحيوان والنبات الخ . ثم قال : فأما علم النفس ومعرفة نظام الطبيعة ومعرفة الله فهي التي أسميها فلسفة ، إذن الفلسفة الحديثة هكذا : تواريخ العلوم المتقدمة على علم النفس ، ثم نظام الطبيعة ، ثم علم النفس .

إذن (ليكون الانجليزي) بهذا التقسيم الذي عليه مدار الدراسة في كرتنا الأرضية الآن تقريبا جعل العلوم التي كانت تسمى رياضية وطبيعية مقدمات للفلسفة ، وسميت بتواريخ لهذه العلوم وعليه الدراسة في المدارس العامة الآن ، والأمور العامة وهي العلوم الخمسة جعلها قسمين : قسم منها وهو الحواس بنظام الطبيعة سماه نظام الطبيعة ، والقسم المختص بالله فصله وحده وأخذ علم النفس أيضا فقال هكذا : (الله: نظام الطبيعة ونفسي) وإنما ذكر نظام الطبيعة لأن جزئياتها مشروحة قبل هذا العلم في الذي سماه تواريخ العلوم . فأما العلوم العملية الثلاثة فانه ضم إليها علم المنطق ، وقال : هكذا النفس تعقل المنطق ، إذن هذا العلم

يتبع نفس ، ثم إن نفس تعرف الجمال ويموزها التهذيب ونظام الأسرة ونظام المدينة فيقول : إن نفس
تتفرع عليها علم الجمال بعد المنطق ، وعلم الأخلاق ، وعلم تدبير المنزل ، وعلم سياسة الأمة .

مبدأ التقسيم عند القدماء وعند المحدثين

نظر (يكون) إلى تقسيم المتقدمين فرأى أنهم يقولون هكذا : العلم الطبيعي يحتاج إلى المادة في ذهننا
وفي الخارج ، والعلم الرياضي يحتاج إلى المادة في الخارج لافي أذهاننا لأننا تصور العدد بدون التقيد بمادة
خامة ، والعلم الإلهي لا يموزه مادة في أذهاننا ولا في الخارج .

أقول : لما نظر هذا التقسيم . قال : وما لنا وللمادة فلنرجع التقسيم إلى نفوسنا ، إن نفوسنا فيها قوة
الخيال ، وقوة الفكر ، وقوة التذكر ، فهذه إليها رجع جميع العلوم .

فأما القوة الخيطة فإليها يرجع كل ما كان من قبيل الشعر والنقش والتصوير والموسيقى ، فهذه العلوم التي
رجع إلى التصوير والتخييل فإنها ترجع إلى تلك القوة .

وأما قوة الذاكرة فلها جميع العلوم الرياضية والطبيعية ، وهي الثلاث عشر المتقدمة . وعلم التاريخ
الأثرى والبشرى ، فهذه كلها تواريخ حفظت في ذاكرة الإنسان وعليه العمل اليوم كما تقدم ، فالتاريخ
البشرى منه عام وخاص ، والتاريخ الأثرى هو ما جاء في الكتب النباهية ، وهكذا التاريخ الطبيعي
والرياضي الخ .

أما القوة العاقلة فعلومها هي المختصة بالفلسفة : (الله . ونظام الطبيعة ، ونفس) ومن النفس تتفرع
المنطق والجمال وما والاها كما شرحناه .

تبين من هذا أن النوع الإنساني اليوم رجع العلوم إلى النفس فمن العلوم سوابق وهي ١٣ علما، ومنها
معرفة الله ونظام الطبيعة ، ومنها لواحق وهي علوم نظام الأمم (وبعبارة أخرى) أن نظام العوالم ودراسته
مقدم على علم النفس ، ونظام الإنسان مؤخر عن دراستها ، إذن دراسة مدارس الأمم الآن تجرى على
نظام هذه الآيات ، وقوله : « وفي الأرض آيات للوقنين » يدخل فيها علوم نظام الطبيعة وما قبله ومعرفة
الله ، وقوله : « وفي أنفسكم » الخ إليه يرجع علم النفس ، تلك النفس التي جعلت مبدأ لتقسيم تلك العلوم
سوابقها ولواحقها ، إذن آيتنا التي نحن بصددها الآن يجب على المسلمين أن يفكروا فيها ، إذن نحن نستحق
أن نعتف على جهلنا فيقول الله لنا : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » وهذا التعنيف يجعل نفوس الأذكياء منا
معاشر المسلمين فلندرس .

فقال صاحبي العالم : إن هذا البيان لجليل جد جميل ، ولكنني أريد أن أسألك سؤالا يحول في خواطر
أكثر الناس : هل هذه الآية يترتب عليها هذا كله ؟ أي إنك تقرأ علوم الأمم كلها ، وهل أذكياء المسلمين
مكلفون بذلك ؟ قلت : لم لا وما المانع ؟ ألسنت أنا شهيدا على الناس ؟ فقال أنت أنت . قلت : وأنت أيضا
ألم تسمع الله يقول : « لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » فكيف نشهد على الناس
ونحن لا نتعلم علومهم ! فليقم الخواص بدراسة علوم الأمم ، وأهمها علم نفوسنا . فقال : إن علماء الإسلام لم
يقولوا ما تقول أنت في هذا المقام . قلت : ولكن القرآن يقول . فقال القرآن ؟ قلت نعم . فقال : ماذا
يقول في هذا ؟ قلت : إنه لم يقتصر على قوله : « لتكونوا شهداء على الناس » بل أوضحها في آية أخرى
وهي : « وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين » فهل نشهد على الأمم إلا بعد العلم بما شهد به .
فقال حسن جدا ، فأرجو إيضاح علم النفس الآن : قلت : ذلك في :

الفصل السادس

فما قاله (إخوان الصفاء)

إن كتاب (إخوان الصفاء) جاءت فيه العلوم موجزة ولكنها أوضح مما في الكتب التي قبلها ، وقد جعل أكثر العلوم المذكورة في خمسين رسالة ، وأكثرها ثمين وأقلها غث ، وفيها آراء يجب تدبيلها أو محوها فلنذكر ما فيها من حيث علم النفس ، وهذا الموجز سأنتقله بنصه وفسه من نفس الكتاب ، ومؤلفه هو الذي لحصه في أوله ، وهالك نصه :

الرسالة العاشرة : في الحواس والمحسوس

والفرض منها هو البيان عن كيفية إدراك الحواس محسوساتها واتصالها بواسطة القوة الحاسة واتصالها إلى الحاسة المشتركة الروحانية الواصلة التي منها انبعثت قوى الحواس الظاهرة وأنها ترد كالخطوط الخارجة من المركز إلى المحيط بنقط كثيرة الراجعة إليه بنقطة واحدة وهو أول منازل الروحانية ، إذ القوة الحاسة المؤدية إليه جسماني بوجه وروحاني بوجه ، والحاسة المشتركة أعني الداخلة روحانية محضة لأن حكم الجزء منها حكم الجميع وإن كانت التجزئة لاتقع عليه بالحقيقة ، لأن تصورهما الشيء بإدراكها واتصالها إلى القوة المتخيلة التي مجراها مقدم الدماغ لتوصلها إلى القوة المفكرة التي مجراها وسط الدماغ لتميزها وتخلصها بحولانها فيها وتمرف حقائقها ثم توصلها إلى القوة الحافظة التذاكرة التي مجراها مؤخر الدماغ لتسكها ، وتحفظها معتقدة أو غير معتقدة إلى وقت التذكار ، ثم تؤديها إلى القوة الناطقة العاقلة التي هي ذات الإنسان المدبرة لكل الباقية بالذات تنزع جميع المعاني والصور ، ثم تصور تلك المعاني والصور المنزعة من مصوراتها المترسمة فيها ، وهي القوة الناطقة أيضا بواسطة الأولى ، فتلك الصورة هي لها كالموضوع وكالمهيولى ، والقوة المعبرة أيضا للنطق الخارج هي القوة الناطقة أيضا على وجه ثان بواسطة الألسن . فإذا هممت الأولى بإظهار شيء إلى خارج وهو النطق الإلهي على الحقيقة من صورة النفس تصورت النفس الثانية إذ هما جوهر واحد لتجردهما عن المواد وتعريهما عن الهيولى أعني الجسمانية فتأدت إلى القوة الناطقة التي مجراها على اللسان لتعبر عنها بالألفاظ المنالة للمخاطبين على المعاني التي تخرج من النفس إلى القوة الصانعة التي مجراها اليدين لتخط بالأفلام على أوجه الألواح ، وصفحات الدفاتر ، وبطون الطوامير ، تلك الألفاظ وهي النطق الخارج والسلام الظاهر لتبقى العلوم بصورها الذاتية أعني معانيها محفوظة من الأولين إلى الآخرين ، وخطابا من الحاضرين للغائبين ، إلى يوم يبعثون . انتهى ما أردته من كتاب «إخوان الصفاء» وبهذا تم الكلام على الفصل السادس والحمد لله رب العالمين .

الفصل السابع

فما جاء في جمهورية أفلاطون

نظر أفلاطون في علم نظام الأمم فقال : « لاسيلى إلى نظام الدولة إلا بأن يكون فيها فلاحون وعمال وصناع وتجار الخ . وهؤلاء أشبه بالقوة الشهوية في الإنسان ، وبأن يكون فيها جنود مدربون بالكرام والسلاح ، وهذه هي القوة الغضبية لحفظ الدولة في الداخل والخارج ، ونظيرها في الإنسان قوة غضبية بها يحافظ على شرفه وأدبه ، وبأن يكون فيها رجال عرفوا بسمو النظر والعقل الراجح ، وهم رجال السياسة الذين يأمرون الجند ، وهؤلاء الساسة وجندهم لهم السلطان والاشراف على الزراع والصناع والتجار ، وهذه الطوائف الثلاث لابد من نظام واعتدال فيها وهذا هو العدل » .

ولقد شرحت هذا النظام في مواضع كثيرة من هذا التفسير كالذى في (سورة النحل) عند آية : « إن الله

يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون »
فهكذا قوى الإنسان الثلاثة إذا قويت القوة العاقلة حكمت على الغضبية وهى تشرف على القوة الشهوية وتم
النظام بين الثلاثة كان العدل ، فهذه أربعة أصول فى مقابلة الأربعة الأولى ،

فدأ سمع ذلك صاحى قال حسن والله ، لقد اطلعنا على هيئة العلوم فى العالم ، ولكن لم تذكر لنا علماء
الصين ، هل كان علمهم على هذا النمط ؟ فقلت : لقد تقدم فى (سورة الحجرات) ما يفيد أن أمم الصين قبل
التاريخ كانت معارفها على هذا النمط (وبعبارة أخرى) أن القرآن فى أكثر سورته يمثل لنا عقول الأمم
وعولمها . فقال : هذان أمران فأرجو إيضاحهما . فقلت نعم : أما الأمر الأول فهو قول (كونفشيوس)
فيلسوف الصين قبل الميلاد المذكور فى (سورة الحجرات) فإن أقواله هناك هكذا :

- (١) إن قدماءهم نظموا الممالك .
- (٢) بعد أن نظموا أسرهم .
- (٣) وهذا بعد تهذيب أخلاقهم .
- (٤) وهذا بعد تنقية نفوسهم .
- (٥) وهذا بعد كونهم مخلصين صادقين فى تفكيرهم ، مزهين فى أغراضهم .
- (٦) وهذا بعد توسيع معارفهم .
- (٧) وتوسيع معارفهم كان عن طريق البحث والشاهدة . انتهى - (وبعبارة أخرى) هكذا .
- (٢١) توسيع المعارف بالمشاهدة : أى مشاهدة الأشياء والأفكار .
- (٣) ثم كمال المعارف .
- (٤) ثم خلوص أفكارهم وزاهاة أغراضهم .
- (٥) ثم تهذيب أخلاقهم . ومقاومة نفوسهم
- (٦) انتظام أسرهم .
- (٧) ثم انتظام دولهم . وهذا هو الأمر الأول .

أما الأمر الثانى فهو هذه الآية : « وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون » . فقال :
ولكن الآية قدمت الأرض على السماء ، فلم يكن ترتيب العلوم الذى شرحناه مطابقا لها . فقلت : هو مطابق
كل المطابقة ، إنه قدم الأرض وبعدها النفس ؛ ثم ذكر السماء والأرض معا مقدما السماء ، وذلك معناه تقديم
العلوم الرياضية ، لأن علم الفلك من نتائجها . فقال حسن ولكنى أريد أصرح من ذلك فى القرآن بحيث
ينطبق على نظام علوم الأمم كلها المذكور هنا . فقلت : هناك سورة تفيد ذلك وهى : « والشمس وضحاها ،
والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها ، والليل إذا يشأها ، والسماء وما بناها » . فهذه الخمس ترجع لعلم الفلك
وهو من العلوم الرياضية ، بل هو أجل ثمراتها ، ثم هو من جهة أخرى علوم مشاهدة أشار لها (كونفشيوس)
وقوله : « والأرض وما طحاها ، ونفس وما سواها » موافق لآيتنا هنا : « وفى الأرض آيات للموقنين ،
وفى أنفسكم أفلا تبصرون » ومعنى هذا أن العلوم الطبيعية المشروحة قريبا تكون قبل علم النفس فى نظام
المدارس وفى القرآن ، والعجب العجيب من القرآن أنه قدم الأرض على النفس فى هذين الموضعين وفى غيرها
وألم الأمم جميعها أن تفعل ذلك وقال (ليكون) : يايكون اجعل نظام الطبيعة قبل علم النفس كما قال
لكونفشيوس بالصين وإخوان الصفاء والأمم كلها ، إن هذا القرآن مدهش ، إذن عندنا مزرعتان :

مزرعة هي أرضنا ، ومزرعة هي نفوسنا ، ومزرعة نفوسنا هي المذكورة في سورة الشمس إذ يقول الله بعد ذلك « فألمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » .

جل الله : أليس هذا بعينه هو الأخلاق والسياسة ونظام الدولة ، أليس الفجور والتقوى واضحين في الأخلاق والأسرات والممالك ، أليس هذا بعينه هي السياسة العملية للتقدمة عند فلاسفة اليونان والعرب وأوروبا والصين ، فما هو ذا سيكون يقول : نظام الطبيعة ثم النفس ثم الأخلاق وسياسة الناس ، وهام أولاء فلاسفة الفرون الأولى يؤخرون الأخلاق وما عطف عليها عن العلوم ، وما هو ذا كونه شيوس يفعل ذلك ناقلا عن آياته التوغلين في القدم ، وهم لا يعرفون علوم اليونان ولا غيرهم .

أيها المسلمون : لا عطر بعد عروس ، ولا حجاب بعد بوس ، حم الأمر وأزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة ، لتقرأوا مزارع الله في الآفاق ومزارعه في النفوس ، إن القرآن لوح رحمت فيه صور علوم الأمم تذكرا لكم فهل أنتم مدكرون !

تباركت يا الله : أربقتنا علوم الأمم السابقة كلها فرأينا مدارها على علم نفوسنا ، فنفسنا هي المصدر الأصلي ، فقد جعلوا علوم الرياضيات والطبيعات مقدمات لمعرفة النفس وعلوم السياسات والأخلاق والجمال نتاجها ، ومنهم من غير بعض النظام ، وذلك تبع اختلاف الأنظار وتباين الآراء ؛ والنتيجة من هذا كله فهم قولك في قرآنا الكريم : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » .

هنا نحن أولاء نظرنا في أنفسنا نظرا مستمدا من آراء الأمم كلها لنشهد على علم ، ولكن لانتم شهادتنا في ذلك إلا بدراسة علم النفس والتربية الحديثة ، لأن العلوم المذكورة نقلها تلاميذ ابن رشد من يهود ومسلمين إلى أوروبا منذ نحو ٧ قرون فارتقت تلك العلوم ، وإذا بقينا على ما قرأناه من كلام قدمائنا أصبحنا كأننا نعيش في القرن الثالث عشر الميلادي ، ولكن نحن في القرن العشرين ، إذا فلنذكر :

الفصل الثامن فيما جاء في علم النفس الحديث

أماي الآن كتاب (أصول النفس وأثره في التربية والتعليم) تأليف الأستاذ (أمين مرسى قنديل) أستاذ علوم النفس والتربية بمدرسة المعلمين العليا ، وألفه بعد أن أخذ شهادات عالية في هذا العلم من جامعات أوروبا ، فهو كتاب موثوق به يدرس بمصر الآن ، وهو علم لم يدرس من قبل في بلانا ، وموضوعات الكتاب هكذا مثلا : معنى العلم وأغراضه ، حقيقة علم النفس ، طرق البحث في علم النفس ، فروع علم النفس ، التربية وعلم النفس ، العقل ، الشعور ، اللاشعور ، الاستهواء ، الجهاز العصبي ، رد الفعل ، الأفعال المنعكسة ، تربية الجهاز العصبي ، الغرائز والبيول ، دراسة طائفة من الغرائز والبيول الفطرية ، العادات ، التعلم ، الغرن ، الشوق ، التشويق ، الشوق والتربية ، الانتباه ، عوائق الانتباه كالتعب ، الأعمال المدرسية ، وهكذا .

نظرة عامة في علوم النفس عند القدماء والمحدثين

أيها الأخ الذكي هذه صفحة عامة من صفائح نفوسنا الشرقات ، تلك النفوس التي هي مزارع الله عزوجل في أجسامنا ، وحقوله التي تولى هو غرسها بيديه وقال لنا : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » بعد أن أرشدنا إلى أن ننظر دراسة مزارع أرضنا .

هاهو ذا الآن أماي كتاب (سلوك المالك ، في تدبير الممالك) الذي ألفه شهاب الدين أحمد بن محمد بن أبي الربيع ، ألفه للخليفة المعتصم بالله العباسي ، إن المؤلف في هذا الكتاب قسم الفضائل والردائل تقسيما عجيبا جدا ، وأوضح ذلك أبما إيضاح ، وعلم للوك والسوقة والفضلاء وغير الفضلاء ، ولم يترك بابا إلا ولجه ، ولا فضيلة إلا فصلها ، ولا ذيلة إلا أوضحها ، بجداول جميلة وعبارات طريفة وبهجة وجمال ، ولأقتصر على

ما جاء فيه من جداول الأخلاق الناقصة ، ثم أتبعه بما جاء في علم الترية الحديث المذكور ، أريد بذلك أن يرى المسلمون وأنت أيها الذكي أولهم آراء الأولين والآخرين في أحوال نفوسنا ، وأنهم جميعا يسمعون لغرض واحد متجهين لنتيجة واحدة ، ذلك أنهم جميعا يعاملون النفوس في نحو ردائلها معاملة الأجسام في شفاء أمراضها بحيث أصبح تهذيب النفس مطابقا لشفاء الجسم من حيث سير العلاج الجسمي والروحي معا سيرا منظما ، فانظر كيف يقول صاحب كتاب (سلوك المالك ، في تدبير المعالك) في صفحة ٣٨ مانصه :

إن من شر ردائل القوة الغضبية الغضب ، وهو أكبر الرذائل ، وله مواد وأسباب :

الردبة	مداواتها
الزهو	باستعمال التواضع
العجب	بمعرفة عيوب النفس
العجز	بالتيقن أنه من جنس عبده
المرح	بالتشاغل بما يجب من الحقائق
الهزل	بالجد في طلب الفضائل
الهزؤ	بالتكريم عن أذى الناس
التعير	بالقدرة على ترك الأقاويل القبيحة
الملاحاة	بصيانة النفس عن مر الجواب
المصاداة	بترك العناد
القدر	باستعمال الوفاء

ثم أبان أن هذه كلها سببها الخوف : أي أنه يزهو لأنه يريد العلو ويخاف من عدم هذه الصفة وهكذا البواقي ، فإذا استهزأ بغيره فعناه أنه أعلى منه وهكذا : ثم أخذ يذم أمثال الكسل الذي هو جزع من أن يفعل فعلا ما كسل عنه ففيه معنى الخوف أيضا لأنه يخاف أن يعمل ، ثم الحجل والحياء ، فالأول جزع من أن يعرف بشيء قبيح لم يفعله ، والثاني جزع من أن يعرف بشيء قبيح فعله ، وذكر (الفرق) بفتح الراء من فعل شيء عظيم يضعف عن احتماله (والحذر) وهو الجزع من شعور أمر متروك واشتباؤه ، ثم التذعر وهو الجزع من صورة ليست مألوفة الخ .

هذه صفحة من علم الأخلاق في كلام قدمائنا في المصور الأولى ، وعلم الأخلاق ريب علم النفس ، فهام أولا جعلوا لكل منقصة دواء ، وما هو هذا الدواء ؟ هو أن يحملوا الضمير لا لصدده كما يفعل الأطباء ، بحيث يداوون الحار بتعاطي البارد والمكس بالمكس ، فلننظر إذن في كلام علماء الترية في عصرنا ، فهذا كتاب : « أصول الترية » فقد جاء فيه في صفحة ١٥٣ تحت عنوان « استعمال غريزة ضد أخرى » ما مانصه : —

إن المرء يستعمل غريزة ضد أخرى ليخفف من شرها ، فغريزة الخضوع تخفف شر غريزة السيطرة والظهور ، والخوف يردع به الطفل عن كثير من الشرور ، وهؤلاء يقولون : « إن الغرائز لا يجوز إزالتها بل يجب تهذيبها وتوجيهها إلى اللئ الأعلى لاقتلها فإن قتلها جناية » — (مثال ذلك) غريزة المقاتلة والإقتناء يجب أن توجه إلى مغالبة الآلام والتغلب على العقبات التي تعترض للمرء في طريقه ، وإلى المناقصة في عمل الخير وإلى الدفاع عن مبدأ نبيل ، وضربوا لذلك مثلا بأن الحكومات تتخذ للاصوم القدماء وسائل لمساعدة

رجال الشرطة في ضبط السارقين والقاتلين ، فهذا معناه أن الربى ينقل الغريزة من حال ضارة إلى حال نافعة . فالغضب والمقاولة عند المهذب يكونان معينين على كل فعل نبيل كالمدافع عن كل ضعيف .

هذه هي الصورة الواضحة في التربية الحديثة ، وهي على منوال التربية القديمة ، فالعلم هو عينه غاية الأمر أن الحديث قد أوضح إيضاحاً أكمل ، وأبان وجوه الإصلاح أيما إبانة .

وإذ فرغت من إيضاح الصور التهديبية عند القدماء والمحدثين فلأشرع في شرح المزارع التي تزرع فيها تلك التعاليم والحدائق الغناء الآلهية التي تنبت فيها تلك الأزهار والرياحين .

تبصرة و تذكرة لآياتنا التي نحن بصدد السلام عليها

« وفي الأرض آيات للموقنين ، وفي أنفسكم أفلا تبصرون »

فقال صاحبي : إن للسافة طويلة ، والشقة بعيدة بين مزارع الأرض ومزارع الدماغ ونبات الأخلاق فيه ، إن مزارع الحقول مشاهدة ، وهل شوهدت مزارع الغرائز في حقول الدماغ ، غاية الأمر أنها عرفت بطريق الاستنتاج : فقلت : اعلم أيها الأخ الذكي إنى كما كنت في الحقل أيام الفتوة أرى المزارع وهي كانت درسي نهاراً ، والنجوم وهي كانت درسي ليلاً ، هكذا اليوم أشهد فيما ستراه في الدماغ مزارع الغرائز متجلية واضحة تزدهر فيها الغرائز والأميال ، فسكاً كانت النجوم والحقول وما بينهما من نفوس الناس هي التي منها استمدت جميع العلوم التي شرحناها هنا في الأمم كلها ، هكذا هذه الجمجمة الصغيرة التي سترها الآن أصبحت مزرعة فيها جميع المزارع التي كنت أشاهدها ، والنجوم التي كنت ألاحظها ، والعلوم التي درستها ، والسياسات التي عرفتتها .

تباركت يا الله : جعلت الأرض مكان الإنبيات ، وجعلت أدمغتنا حدائق ، كل حديقة منها مختصرة من هذا العالم العظيم وعلومه المفصلات . جل الله ، جل الله . وما أدهشني فيما ستره أيها الأخ النبيل أن ما كنت أفرؤه في الكتب القديمة من أن الخيلة في مقدم الدماغ ، والمفسكرة في وسطه ، والقوة التماكرة في مؤخره كما ذكرته سابقاً ، وأن ذلك استنتجه الفلاسفة من تجارب الأطباء في مرضاهم أصبح اليوم مشروحاً على هذا النمط بعينه ، فسرى أن هناك مناطق ثلاثة : أمامية ووسطى وخلفية ، جعلت للتفكير والنصور ، وباضطرابها لا يكون الإنسان عاقلاً ولكن علماء العصر الحاضر برعوا براعة أوسع من السابقين :

(١) أرونا أن في المخ تلافيف وشقوقاً تتضح في العقول الكبيرة ، وتصغر ولا تتضح في العقول الصغيرة وفي الحيوان .

(٢) أرونا أن للمخ نصفين كل نصف يقسم أربعة أقسام ، فهذه ثمانية أقسام ، وكل قسم يسمى باسم عظم القحف الذي يقرب منه ، وكل واحد من هذه الثمانية ينقسم إلى أقسام على حسب التلافيف التي فيه المخ .

(٣) إن للمخ محط جميع اللواصلات في الجسم .

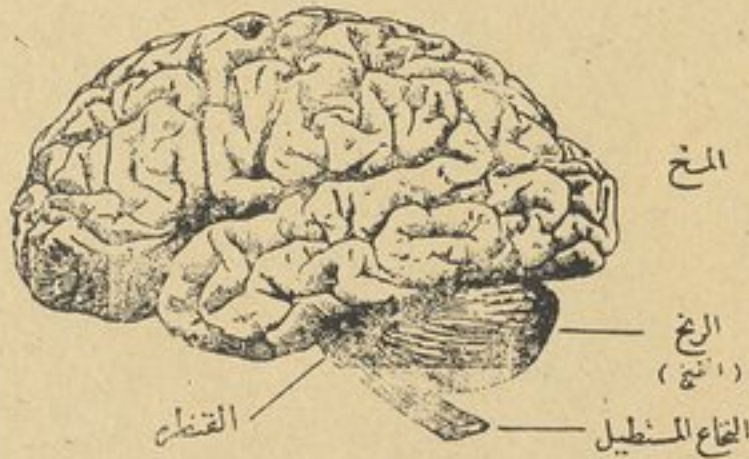
وستشاهد أن في هذا المخ مناطق معينة للحس وأخرى للحركة وأخرى لربط المعلومات ، فترى منطقة البصر عند الفحص المؤخرى من الرأس ، وهناك منطقة إدراك المرئيات والقراءة ، وبلى تلك المنطقة من الداخل منطقة السمع ثم الذوق والشم ، وهاتان بالقرب من القوس الصدغي . وترعى في المنطقة الخلفية التي تقرب من القوس الجداري مراكز ربط تلك المعلومات وترتيبها وتنظيمها ، وترى أيضاً منطقة ربط أخرى أمامية .

أيها الأخ الذكي : إننى الآن في دراسة مخ الإنسان لم أعد ما كنت أدرسه في الحقول أيام الشباب

كيف لا ، أليست هذه للزراع التي في أدمغة الإنسان بعد أن يدرسها المدرسون ويعرفوها، يحتالون في تهذيبها وتوجيهها ، وفي انتزاع وإهلاك ماضر منها ، ويوجهون الفرائض من الضار إلى النافع .

فياليت شعري أي فرق بين تقطيع الحشائش في الحقول وبين إزالة الكذب من أفواه الأطفال ، ثم أي فرق بين تهذيب القوة العنسية في الطفل بأن توجهها إلى اقتناء الفضائل ، وإلى الحماسة في حماية الضعيف وبين تقليعنا الأشجار وتشذيبنا الأغصان لتعدل الأشجار عن إضاعة قواها فيها لا يفيد ، ولتتجه إما إلى ازدياد الخشب في نحو الصنوبر ، وأما إلى ازدياد النار في الأشجار للثمرة ، إذن نظام العالم واحد وما ترى في خلق الرحمن من تفاوت» وحقلنا كما كان مضرب مثل لعلوم الأمم هكذا هو مضرب مثل لعلوم النفس وتهذيب الأخلاق ونظام مناطق مخ الإنسان .

فقال صديقي : الله أكبر ، الله أكبر ، حسن حسن ، يظهر لي أنك ذكرت هذه المقدمة لتكون نورا يأنس به من يطلع على هذه المعاني فيما تريد أن تلقيه ، لأن هذا العلم صعب النال بل إذا لم يفهم القاري إلا ما ذكرته فحسبه ، والقول الكبيرة ستفهم نفس الموضوع بتفاصيله وصورة الشمسية . فقلت : نطق بالصدق ، فهالك الموضوع الذي اخترته من ذلك الكتاب بنامه ، فقد جاء فيه في صفحة ١٠٩ وما بعدها ما يأتي بالحرف الواحد :



المخ
«مغلا الجزء العلوي من القحف ممتدا من الأمام إلى الخلف ، ووحده الأسفل من الأمام مستوى الحاجبين ، ومن الجانبين حذاء الأذنين (انظر شكل ٣٠)»

(شكل ٣٠)

ويبلغ متوسط وزنه ١٤٠٠ جرام (١) إذ هو يختلف عادة بين ١٣٠٠ ، ١٨٠٠ جرام ، ويشبه

(١) لقد حاول كثيرون أن يجعلوا زيادة وزن المخ على هذا المتوسط دليلا على الذكاء ، فمخ الأبله والغبى يكون عادة أقل من المتوسط بكثير ، في حين أن مخ العالم الطبيعي (كوفيه) كان وزن ١٨٦٠ جراما ، ومخ (اللورد بايرن) الشاعر الإنجليزي ١٨٠٠ جرام ، ومخ (كرمول) ٢٢٠٠ جرام ، ومع ذلك فإن هذه لاتتخذ قاعدة ثابتة ، فمخ (غيبنا) الخطيب الفرنسي وزن أقل من المتوسط ، ولكن يقال أن تلافيفه كانت أعمق من المعتاد ، والحقيقة أنه لا بد من أن نحسب لنوع للمخ حسابا ، وأن لا يقتصر على الثقل وحده .

على أنه قد حاول كذلك كثير من العلماء إيجاد نسبة بين ثقل المخ والجسم ، ليتبينوا من وراء ذلك مقدار الذكاء ، وغاية ما يستطيع الجزم به هو أنه كلما كانت النسبة كبيرة كان الحيوان أذكى من غيره ، ومع ذلك فهذه الحقيقة ليست مطلقة ، فبعض الطيور كالعقرب نسبة ثقل مخها إلى جسمها الصغير أكبر من نسبة ثقل مخ الإنسان إلى جسمه هـ .

في الشكل قلب الجوزة ، فهو منقسم بشق مستطيل إلى نصفين متماثلين : النصف الأيمن ، والنصف الأيسر ويعرف كل منهما بنصف كرة ، والنصفان ليسا متصلين بعضهما عن بعض تمام الانفصال بل متصلان من الأسفل بحزمة من الألياف العصبية تعرف بالجسم الصلب ، وبكل نصف منها ثيابا كثيرة تعرف بالتلافيف بينها منخفضات ظاهرة تسمى شقوقا ، وهذه الثياب تجعل سطح المخ في مجموعته كبيرا جدا ، وبذلك تكون المادة السمراء أو اللحاء كبيرة أيضا ، لأنها تدخل في الشقوق وتغطي التلافيف كلها ، وهذه التلافيف قليلة ليست ظاهرة في الحيوانات ، ولكن كلما ارتقى الحيوان بدت الشقوق والتلافيف عميقة جلية حتى إنها لتكون واضحة كل الوضوح في الإنسان فكأن نموها وعددها يسيران بدا يدمع نشوء الحيوان وترقبه في سلم النشوء والتطور . تتميز التلافيف بعضها عن بعض بالشقوق التي بينها ٥ وأهم هذه الشقوق اثنان : شق رولندو ، أو الشق الأوسط ، وشق سلفيوس ، أو الشق الجانبي ، والتلافيف تختلف اختلافا قليلا باختلاف الأفراد ولكنها في جملتها ثابتة ، ولذلك وضع لكل منها اسم خاص كما وضع لكل شق اسم خاص به أيضا وراها واضحة في (شكل ٣٠) الذي تقدم قريبا .

ينقسم كل نصف من نصفي المخ إلى أربعة فصوص يسمى كل منها باسم عظم القحف القريب منه . وهذه الفصوص هي : (١) القص الجبهي (٢) والقص الجداري (٣) والقص الصدغي (٤) والقص الأخرى وكل فص من هذه الأربعة ينقسم إلى أقسام أخرى حسب ما فيه من التلافيف ، فالقص الأمامي مثلا ينقسم إلى أربعة تلافيف التليف : الأوسط الأمامي (الصاعد الأمامي) والتليف الأعلى ، ثم الأوسط ، والأدنى .

مادة المخ البيضاء

تتكون هذه المادة البيضاء من الألياف العصبية المغلفة بذلك الغلاف الأبيض العازل الذي يجعلها بيضاء اللون ، وأغلبها خارج من الخلايا المحركة التي في المخ ، والبعض الآخر وارد إليه من الخلايا الحساسة التي في المحيط ، فالألياف الصادرة تخرج من أجسام الخلايا المتعددة في اللحاء ، ثم تجتمع هذه الألياف بعضها مع بعض وتتكون حزمتين كبيرتين من المادة البيضاء متصلان بالقنطرة وبالنجاع المستطيل (انظر شكل ٣١)



(شكل ٣٢)

مقطع مستمر من المخ يوضع الألياف الصدرية وتقاطعها عند النجاع المستطيل (ق) قنطرة (ح) الجسم الصلب (س) شق سلفيوس

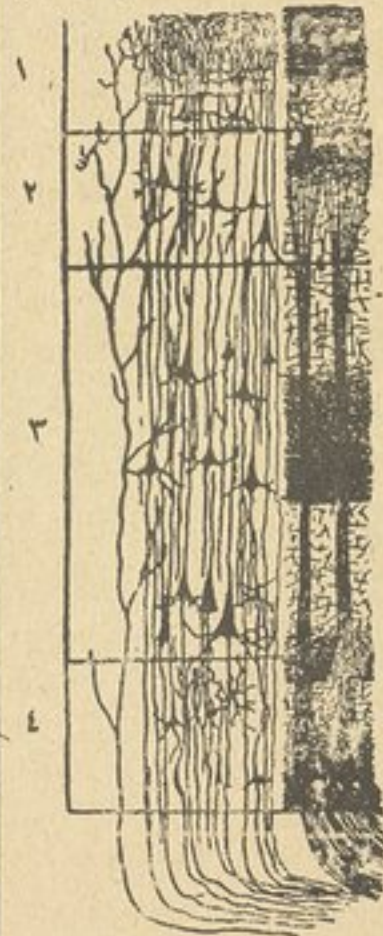


(شكل ٣١ - مقطع جانبي لمخ يبين الألياف الرابطة متجهة بين كل تليف وآخر وبين الفصوص المختلفة وترى الجسم الصلب في الوسط)

والألياف البيضاء التي تتكون منها مادة المخ البيضاء أربعة أنواع :
(١) ألياف رابطة وترى متجهة بين التلافيف تربط خلاياها كل نصف كرة بعضها ببعض كما ترى في شكل ٣١ وبذلك تتصل مراكز اللحاء كلها بعضها ببعض .

(٢) الألياف الضامة : وهذه أيضا رابطة ، ولكنها تربط نصفي الكرة بعضها ببعض بواسطة الجسم الصلب وغيره ، بذلك تتكون التلافيف التي في كل نصف كرة مرتبطة بالتلافيف التي في النصف الآخر .
(٣) الألياف المصدرة وهي محرّكة ، وقد تسمى الألياف النازلة .

(٤) الألياف الموردة وهي حساسة ، وقد تسمى بالألياف الصاعدة .
وكلا الألياف المصدرة والموردة هذه تربط اللحاء بالأجزاء السفلي من المخ وبالجلد الشوكي ، ويتصل بالدماع مباشرة اثنا عشر عصباً تذهب إلى الرأس كلها تقريبا وتتفرع في أعضاء الحواس المختلفة (شكل ٣٢)



(شكل ٣٣)

مقطع في اللحاء يبين طبقاته وأشكال خلاياه المختلفة . الجزء الأيمن من الشكل يوضح الألياف العصبية . والأيسر يوضح الخلايا . وهذان الشكلان يجب أن يتصورا معا بعضهما فوق بعض . وبذلك يتضح التعقيد الكبير في تركيب اللحاء .

اللحاء
تغطي الدماغ كله طبقة رقيقة من المادة السمراء وهذه تتكون كما تقدم من جسيمات الخلايا العصبية وأوائل فروعها ، ويختلف سمكها القليل الذي لا يزيد على ثلاثة مليمترات باختلاف أجزاء المخ واللحاء على رقبته يتكون من خمس طبقات من الخلايا بينها طبقات أخرى من الألياف العصبية وخلايا الطبقات تختلف شكلا ووظيفة .

(١) فالطبقة العليا ، أو السطحية تتكون من خلايا قليلة العدد تمتد فروعها امتدادا أفقيا وأكثرها يتكون من فروع خلايا الطبقات التي تحنها ، ومن نهايات الأعصاب الموردة ، وهي كلها لا تزيد نصف مليمتر ولا شك في أن وظيفتها ربط الخلايا الحساسة (الموردة) بالخلايا المحركة (المصدرة) .

(٢) تلي هذه الطبقة طبقة أخرى بها خلايا كثيرة العدد مختلفة الحجم ، هرمية الشكل ، وظيفتها الربط أيضا ، وسمك هذه الطبقة يزداد برقي الحيوان في مرتبة النشوء ، ثم طبقة :
(٣) ذات خلايا صغيرة نجمية الشكل محاورها قصيرة كثيرة التفرع .

(٤) وبلى هذه طبقة رابعة فيها خلايا هرمية كبيرة الحجم طويلة المحاور : وأغلبها في منطقة الحركة في المخ .

(٥) وأخيرا توجد طبقة خامسة خلاياها متعددة الأشكال مختلفة الحجم .

خلايا اللحاء التي كثيرة جدا معقدة التركيب ومختلفة الشكل ، كل خلية ترسل فروعاً كثيرة متشابهة تشابها كبيرا بعضها مع بعض ومع غيرها من فروع الخلايا الأخرى ، وهذا التشابك الكثير مما يميز الإنسان الراقى عن غيره من

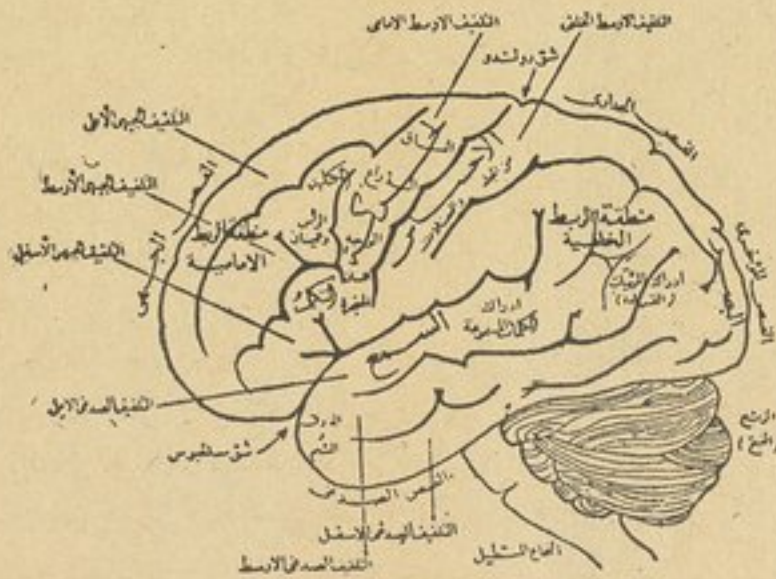
الحيوان ، وفي الوقت نفسه إلى اللحاء نهايات محاور كثيرة أيضا من أجزاء شتى تتشابه أطرافها مع فروع الخلايا الأخرى ، وإذا تذكرنا أن المخ مراكز تمثل جميع أعمال الجسم الكثيرة ووظائف أعضائه المختلفة انضح لنا مقدار التعقيد الكبير في تركيب المخ ، ولا سيما في طبقته الرقيقة الحظيرة الشأن المعروفة باللحاء .

وظائف المخ

المخ أهم أجزاء الجهاز العصبي ، فهو الذي يشرف على سلوك الإنسان ويديره ويراقب كل حركة إرادية أو غير إرادية من السلوك ، ويوفق بين أعمال الأعضاء المختلفة ويربطها بعضها ببعض ، وهو موطن العمليات العقلية السامية ، ففيه لمراكز الإحساس والإدراك الحسي والذكر والتفكير وربط العمليات العقلية بعضها ببعض ، وهو موطن الشعور ، فكل تأثير يقع على أي جزء من أجزاء الجسم ، ولم يصل أثره إلى المخ فإن المرء لا يتفطن إليه ولا يشعر به ، ولذلك فإنه إذا نزع مخ حيوان كالضفدعة أو الحمامة مثلا فإنها تفقد كل حركاتها الإرادية ، وتصبح كأنها آلة من الآلات لا تتحرك بإرادتها وباختيارها ولا تحس بما يسلب عليها من المؤثرات فالمخ هو محط جميع خطوط المواصلات في الجسم ، وهو مستوى جميع المراكز العليا .

مناطق اللحاء

لكل جزء من أجزاء اللحاء المختلفة علاقة بأجزاء معينة في الجسم يشرف عليها ويديرها ، فالنصف الأيمن من المخ يسيطر على الجزء الأيسر من الجسم وبالعكس (انظر شكل ٣٤) .



(شكل ٣٤)

ولقد تمكن الباحثون من علماء وظائف الأعضاء والتشريح من تعيين مواضع كثير من المراكز المختلفة في اللحاء التي تقوم بوظائف خاصة ، وكثير من هذه المراكز ينحصر في ثلاث مناطق : مناطق الحس ، ومناطق الحركة ، ومناطق الربط . فللحس مراكز : للبصر ، والسمع ، والشم ، والتذوق ، واللمس ، وتحريك العضلات ، وللحركة مراكز كثيرة أيضا تمثل عمل الأعضاء المختلفة ، فهناك مراكز لتحريك الرجل واللسان واليد وغيرها كما سترى ، وهذه المناطق توجد في كل من نصفي المخ إلا أنه لتصالب المحاور قرب النخاع المستطيل صارت مراكز النصف الأيمن تشرف على النصف الأيسر من الجسم ، ومراكز النصف الأيسر من المخ تشرف على الجزء الأيمن من الجسم :

(٠ منطقة الحركة) : توجد في القوس الجبهي في تليفه الأوسط الأمامي ممتدة أمام شق (رولندو) وبها مراكز لتحريك أعضاء الجسم المختلفة ، ففي الجزء الأعلى من هذه المنطقة مركز تحريك أصابع القدم تليه مراكز تحريك الركبة فالحرقفة فالأطراف العليا فالوجه وهكذا بترتيب تنازلي ، فكل حركة إرادية تنشأ من عمل مركز خاص في هذه المنطقة ، إذا أصيب مركز منها بضرر أو مرض أعقبه شلل العضو المتعلق به فلا يمكن تحريكه بالإرادة .

(منطقة الحس) : توجد موازية لمنطقة الحركة على الجانب المقابل لها من شق (رولندو) في القوس الجداري ، وفيها مراكز الإحساس الآتية من الجلد وحركة الأعضاء المختلفة ، وترتيب مراكز الإحساس في هذه المنطقة عين ترتيبها في منطقة الحركة ، فمراكز الإحساس الآتية من الساق مثلا توجد حذاء مراكز تحريكه وهكذا .

(منطقة البصر) : مراكز البصر توجد في القوس المؤخري من المخ ، فأى إصابة لها تحدث العمى مع أن العين نفسها قد تكون سليمة من كل شائبة ، وفي القوس المؤخري هذا مراكز أخرى لإدراك الالتهابات ، منها ما يتعلق بإدراك الكتابة ، ومنها ما يتعلق بإدراك الألوان أو الأشياء وهكذا .

(منطقة السمع) : تقع في الجزء الخلفي من التليف الصدغي الأعلى ، وهو تليف يقع أسفل شق سلفيوس ، وهي متصلة مباشرة بالأذنين ، فأى أثر يلحق بمراكز الإحساس السمعي فيها يحدث الصمم ، وقرب هذه المنطقة كما في منطقة البصر مراكز مختلفة لإدراك الكلمات السموعة ، أو تمييز الأنغام المختلفة وهكذا .

مناطق الربط والاتصال

يختلف مخ الإنسان عن مخ القرود العالية وغيرها من الحيوانات الأخرى بأن به مناطق (صامتة) أوسع رقعة مما لديها ، وليست هذه للمناطق وظيفة الحس أو الحركة وإنما ربط مراكز الحس بعضها ببعض ومراكز الحركة كذلك والتوفيق بين أعمالها الكثيرة المعقدة ، فإذا أصيبت هذه المراكز لا يحدث للمرء ضرر مادي في جسمه مثل شلل أو فقدان الحس ، وإنما يفقد قدرته على التفكير أو المهارة المكسوبة فيختلط عقله ويلتات أو يضطرب اضطرابا واضحا في كل عمل من الأعمال التي كان يؤديها قبلا بمهارة وحذق ، وتوجد هذه المناطق في ثلاثة مواضع :

(١) المنطقة الأمامية ، وتقع في القوس الجبهي أمام شق (رولندو) وأمام منطقة الحركة .

(٢) المنطقة الخلفية ، وتقع في القوس الجداري بين منطقتي الإحساس والبصر .

(٣) المنطقة الوسطى ، وتقع فيها يعرف بجزيرة (رايل) .

فهذه المناطق الثلاث ملتقى الإحساسات المختلفة الآتية من الحواس ، وفيها تربط بعضها ببعض وبمخ بواسطة الألياف الرابطة ، فيحدث الإدراك الحسي والتذكر والترابط وسائر العمليات العقلية السامية من التفكير والحكم والاستدلال ، فهي مناطق التفكير بمعناه المعروف ، أو إن شئت قل هي أعضاء التفكير وقد دل التشريح وعلم الأمراض أن الحاء البله وضعاف العقول يكون أرق من المعتاد في هذه المناطق في حين أنه يكون سميكاً نوعاً ما ، وتكون التلافيف عميقة ومعقدة عند النابغين والمفكرين ذوي العقول الكبيرة ، ومن هذا يستنتج أن مقدرة الإنسان العقلية تتوقف على عاملين :

(١) على التربية والتدريب .

(٢) وعلى صفات المخ الخلفية التي فطر عليها .

أو عبارة أخرى على البيئة ، وعلى الوراثة ، فمن الناس من يولد ذا استعداد طبيعي للموسيقى مثلا ، فهذا معناه أنه ولد وبعض أجزاء من مناطق الربط في مخه منظمة تنظيما خاصا مخالفا لغيره يجعلها مهيئة لقبول مهارة خاصة والنبوغ فيها إذا وجدت الأحوال مهيئة لها ، كأن يوجد الشخص المحدود هذا في بيئة موسيقية أو يخدم من مدرسته تشجيعا وحننا على العناية بتنمية موهبته هذه ، فالموهبة السامية العاملة ليست ثمرة التدريب وحده ، بل ثمرة تدريب استعداد فطري وتربيته ، والواقع أن التربية لا تستطيع أن تبني إلا على أساس الفطر والوراثة والاستعدادات ، فهي لا تخلق ما ليس موجودا ، ولكن تذكى الموجود منها وتنظمه وتوجهه إلى العمل في اتجاهات خاصة بما تخديه به من الخبرات ، وبما تدر به عليه من الأعمال وتوجهه فيه من ميول .

مراكز اللغة في اللحاء

في لحاء المخ أربعة مراكز ذات شأن كبير في التربية المدرسية لاتصالها باللغة ، وهذه هي مراكز (الكلام) و (الكتابة) و (إدراك الألفاظ المسموعة) و (الألفاظ المكتوبة) ، وكل مركز منها يقع قرب المركز العام المتعلق به ، فمركز الكلام يقع في النصف الأيسر من المخ في التلفيف الأدنى من القوس الأمامي أمام مركز تحريك اللسان ، وذلك عند من يكتب بيده اليمنى ، فالطفل يتعلم التعبير عن خواطره بالألفاظ وعبارات خاصة بكتسبها بالمحاكاة والمرانة ، فتذكر التعبير بهذه الأصوات يتركز في هذا المركز ، ومنه ينتقل الأثر إلى المنطقة المحركة المجاورة له فيتحرك اللسان وينطق بالألفاظ ، فإذا أصيب مركز الكلام هذا بضرر ما فقد الإنسان القدرة على التعبير بالألفاظ ، أو كان تعبيره على الأقل مضطربا لا تألف فيه ولذا لا يفهم مع أن لسانه يكون صحيحا غير مصاب بأي شلل ما ، فهو ليس بأبكم ولكنه مع ذلك يعجز عن التعبير عما في نفسه بعبارة يدرك السامع مدلولها ومعناها ، ويقع (مركز الكتابة) فوق مركز الكلام أمام مركز حركة اليد وهو مرتبط بها كل الارتباط ومتوقف عليها . وإذا أصيب بضرر فقد المرء القدرة على الكتابة وما يمانها من الأعمال التي تستلزم مهارة وتعميرا مكتسبا بطول الخبرة والمرانة . ويقع مركز (إدراك الألفاظ المسموعة) قرب منطقة السمع ، ويعرف بمركز فرنك ، وإصابته تحدث ما يعرف بالصمم اللفظي ، فالصمب يسمع الألفاظ ولكن لا يفهم معناها ، ويقع مركز (إدراك الكلمات المرئية) أو (مركز القراءة) في القوس المؤخرى قرب مركز البصر ، ومرضه أو إصابته تحدث العمى اللفظي ، فلا يستطيع الصمب أن يدرك لما يرى من الكلمات المكتوبة معنى ما ، مع أن نظره قد يكون سليما من كل شائبة مرض ، فموقفه يكون أشبه بمن يرى لغة غريبة عنه لم يتعلمها قط ، ولربما كان عاجز بعض الأطفال عن التقدم في القراءة راجعا إلى ضعف في هذا المركز . وهذه المراكز فضلا عن كونها مراكز ارتباط في نفسها متصلة بعضها ببعض ، ولا سيما مركز إدراك الألفاظ المسموعة والكلام ، والأول منها يسبق الثاني في تربيته ، فالطفل يفهم كثيرا من الألفاظ والعبارات التي يسمها من أهله ويدرك معناها قبل أن يستطيع التلفظ بها على الوجه الصحيح ، ولربما تظل هذه الحال كذلك في الإنسان طول حياته ، فتكون قدرته على الفهم أكبر من قدرته على التعبير عما يحول بنفسه ، ولهذا فإن هذا المركز أهم للرايكة الأولية كلها ، فعند القراءة الجهرية تتأثر العين بما ترى من الكلمات ، ويسير أثر الإفعال إلى مركز القراءة ثم يتجه إلى مركز إدراك الكلمات المسموعة بواسطة ألياف رابطة فيستثير ذكرى أصواتها ، ثم تنصل هذه بألياف رابطة أخرى إلى مركز بروكا أو مركز الكلام ، فيلفظ المرء الأصوات التي ترمز إليها الكلمات التي يقرؤها ، وكذلك الحال عند ما يكتب الإنسان ما على عليه ، فإن الألفاظ المسموعة تتجه من الأذن إلى مركز إدراكها ، ثم تنصل بمركز الكلمات المرئية فتستثير ذكرى أشكال الحروف التي

رمز إليها ثم تتصل بمركز الكتابة ، وهذا كما عفت متصل كل الاتصال باليد ، فتتحرك هذه عندئذ وتكتب الألفاظ التي تدل على ماسم ، ومن هذا نعلم أن في التدريس يجب استعمال أكثر من حاسة واحدة ، لأن ذلك يعين على سرعة الفهم وحسن تذكر مفاهيم لكثرة الارتباطات التي تتم بين المراكز المختلفة .

الرنح أو الخبيخ

يوجد الرنح خلف المخ وهو أصغر منه حجماً ، ويشبهه من حيث وجود المادة السمراء على سطحه ، وبكثرة ما فيه من التلافيف ، وهو منقسم إلى قسمين كبيرين بينهما قسم صغير يعرف بالدودة ، على أن تلافيف الرنح تختلف عن تلافيف المخ من حيث شكلها ، فكما هو مستعرضه وضلعة بخلاف المخ . وإذا شق الرنح رؤى أن المادتين السمراء والبيضاء تتدخلان في بعضهما البعض تدخلًا يجعلها تشبه تفرع شجرة ، ولذا يطلق عليها شجرة الحياة .

وظيفته

من الثابت أن وظيفة الرنح هي ضبط حركات الجسم المختلفة ، والاحتفاظ بآزان الجسم في حالتي الحركة والوقوف ، وهو يؤدي هذا العمل بنفسه عادة من غير تدخل المخ إلا في أحوال استثنائية تقتضى تدخله عند ما تكون الحركات غير عادية كالسير على جبل ممدود مثلاً ، أو في حالة الترنح من السكر ، فالرنح ليس مركز حركات إرادية وإنما هو مركز توفيق بين هذه الحركات ، فإذا قطع أو أصيب كانت حركات الحيوان مضطربة اضطراباً كبيراً لا توافق بينها ولا تآلف فلا يستطيع الوقوف أو السير للنظم ، وقيام الرنح بعمله هذا لا يصحبه شعور عادة ، ولذلك لا ينتبه إليه المرء إلا في الأحوال الاستثنائية . ولكي يستطيع الرنح أن يقوم بأداء وظيفته هذه لا بد له من أن يكون على اتصال تام بالأجزاء المركزية الأخرى ، ولذا فهو متصل بالمخ والنخاع المستطيل والحبل الشوكي بواسطة ثلاث قوائم من الألياف العصبية . انتهى ماجاء في كتاب (أصول علم النفس) والحمد لله رب العالمين .

هذا ما أردت ذكره في هذا القام ، وعسى أن أوفق إلى أن أكتب في سورة « والشمس وضحاها » عند آية : « ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها » إذ أتقل ماجاء تحت عنوان (الشوق) من حيث أن كل عمل نعمله ونحن به مفرمون يجعلنا سعداء به في الحياة الدنيا ، وكل عمل نحن نسكره لآيتم على أيدينا ، فهذه الحياة لا كمال فيها إلا بالفرام والشوق لما نعمل ، وهذا الشوق راجع إلى القوى المركورة في نفوسنا بل العاوم الذي ضعفت منطقته في الدماغ لانقله ولا تفهمه ، فالتعلم مثير لما كمن فينا ، ولكنه لا يحدث فينا أمراً ليس فينا استعداد له .

نظرة عامة على هذه المشاهد في علم النفس الحديث

وكيف كانت هذه الناظر مثيرة في نفس التعاون العام لنوع الإنسان

وكيف كان ذلك كله كنظام الكلام عند نوع الإنسان وكأن هذه العوامل كلمات

أبها الأبخ الهكي : إن منظر الصور المتقدم قد أثار في نفس أمرين عجيبين أثار فيها التعاون العام في نوع الإنسان ، وأثار فيها ما كمن من أن هذه العوامل كلها أشبه بكلمات صادرات من رب العالمين .

انظر إلى الصورة التي فيها مقطع جانبي للمخ (شكل ٣٦ للتقدم) وفيه الألياف الرابطة قد تحللت الفصوص المختلفة والألياف المختلفة ، وما هي إلا أعصاب حساسة واردة من محيط الجسم موصلة لما يرد على الحواس الخمس إلى المخ ، وأعصاب أخرى خارجة من مراكز الإحساس في داخل المخ من الخلايا المتعددة في النخاع ، فهذان النوعان اجتماعاً وكوناً حزميتين كبيرتين من المادة البيضاء إلى آخر ما تقدم . وبعبارة أخرى : إن هذه

الألياف هي التي يقال لها أعصاب الحس وأعصاب الحركة ، فالأولى واردة من الحواس في ظاهر الجسد والثانية خارجات لتنفيذ ما نتج من آثار الأولى من الأعمال .

فها أنا ذا حينما نظرت هذا الشكل البديع تذكرت التيارات البحرية للرسومة في (سورة الشورى) في ملحقات آية : « ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام إن يشأ يسكن الريح فيظللن روا كد على ظهره » فترى هناك في (شكل ٧) أن التيار الذي يخرج من الخليج والتيار الذي يخرج من البرازيل في المحيط الأطلسي ، و تيار كورسيوه ، و تيار شرقي في استراليا في المحيط الهادي ، و تيار موزمبيق في شرق أفريقيا في المحيط الهندي ، هذه التيارات بعضها يتجه من الجهات الاستوائية إلى العروض البعيدة لتلطف حرارة تلك التيارات برودة تلك الجهات ، فشكل من التيارات الباردة أو الحرارة أعمال حسنة ، فالبحار الشمالية مثلا تزرل تيارات إلى الأقطار الإستوائية مثل تيار (لبرادوا) ومثل تيار شمالي شرق اليابان ، فهذه تيارات باردة لمعطات لحرارة خط الاستواء .

أليس من العجب أيها الأخ الذكي أن أرى هذه التيارات العصبية من أعصاب الحس وأعصاب الحركات تتخلل نصفي الدماغ وتصل ببعضها ويلطف بعضها بعضا فتتحد في العمل .

الله أكبر . أيها السلمون : أيها الأمم التي في الأرض ، أتم نسيتم العلم ، نسيتم أنفسكم ونسيتم الدين ، التيارات البحرية متصلة متشابكة لإحداث السعادة لسكان الأرض ، وأدمغتكم جعل تركيبها على هيئة نظام عام ووحدة منظمة تامة النظام ، وهكذا نظام كل خلية في حيوان أو نبات أو شجر أو صوان . بل هكذا نظام مملكة النحل ومملكة النمل وممالك الأرضات (بفتحات) التي تقدمت في هذا الكتاب ، وهكذا مملكة المجموعة الشمسية فهي شمس حولها سيارات لها منجذبات أنجذاب النحل والنمل للسكانها ، هكذا وحدة النخ الإنسانى مسكن النفس :

أليس هذا النظام معناه أن نوع الإنسان الآن لإيزال في المهدي صيبا ، هذه دروس لها معناها أن يكون الناس أمة واحدة كالبحار وتياراتها ، والشمس وسياراتها وتوابعها ، ومملكة النحل والنمل والأرضة وأعواتها منظمات تامة النظام .

الم يصبح اليوم نوع الإنسان متصلا متقاربا متواصلا ، يكلم الشرقي الغربي والغربي الشرقي ، وينظر كل صورة أخيه :

يا سبحان الله : إن الأمم لاسعادة لها إلا بأن تكون على هيئة النظام الذي المتقدم ذكره في سورة العنكبوت بحيث أصبحت جميع العناصر بينها نسب هندسية وحسابية في الجدول هناك وقرابة طبيعية وأخرى كيميائية ، وبأن تكون أشبه بأوراق الشجر المتقدم رسمها وشرحها في (سورة الحجر) عند آية : « وأنبأنا فيها من كل شيء موزون » ، وبأن تكون كالبحار الملحة فيها تيارات تأتي من خط الاستواء إلى القطبين وبالعكس ليكون الإصلاح العام ، وبأن تكون أشبه بمملكة النحل والنمل والأرضة (بالفتح) ، وبأن تكون أشبه بنظام النخ من حيث توزيع أعصاب الحس وأعصاب الحركة فيه مع بهجة النظام ، هذه غاية حياة هذا الإنسان على الأرض :

إن للإنسان لمستقبلا سعيدا ، وحالا جديدة لم يحلم به الإنسان ، وستعلم الأجيال المقبلة صحة ما رأينا ، وصدق ما فهمناه ، وعلى أمة الإسلام أن تعلم علما ليس بالظن أنها خير أمة أخرجت للناس ، وأنها الآن تخلت جميع الأمم : في الصين ، في اليابان ، في الهند ، في أفريقيا ، في آسيا ، في استراليا ، في أوروبا .
أنا من هذه الأمة التي قال الله في نبيها صلى الله عليه وسلم : « وإنك لعلى خلق عظيم » . وقال أيضا :

« وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ، وأعم الرحمت انتظام الأمم كلها كأمة واحدة كملسكة النحل والنمل يقتسمون الأعمال ويوزعونها ، ويترك لكل امرئ حريته في دينه ، وأمرها هو الذي يقوم به الجماعات إن القرآن قد أصبحت العلوم اليوم والعلوم المستقبلة سره وحقيقته ، وأمة هذا شأنها تعلم الأمم كلها ، فكل دين غير الاسلام لا يهتم إلا بانتظام الجماعات الانسانية . فأما خلق الموالم ونظام الطبيعة ونحوها فهو غالباً بضرب الأمثال والحكايات المصطنعة ، الاسلاء أخذ على دور أيام الصور الأولى فنفع الانسانية ، ثم أعطى أهلها أعطاطاً لا نظير له ، وهامهم أولاء الآن يريدون أن يكونوا بين الأمم في عصرنا في أمر السلام العام كما كان شأنهم أيام عصر الصحابة والتابعين هم الذين يدعون إلى سلام الأمم انتهجا منهج الآية : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ونحن أتباعه فعلينا أن نقوم بما أنزل الله من صفات الكمال .

أما الأمر الثاني فهو أن هذه الدنيا وما حوت إنما هي كلمات الله .

فما سمع صاحب ذلك . قال كون الدنيا كلمات الله هذا أمر مجازي لا كنه الألسن كثيراً فهو أشبه بالأمر المعروف ، وجاء على لسان الصوفية الذين يقولون : « إن خطاب الله يسمعه الانسان بجميع جسمه لا بإحاسة سمعه فقط » وهذه أمور لا قبل لنا بفهمها . فإذا قلت لنا إن هذه الأجسام وهذه الموالم كلمات الله فلماذا لم نسمع — إن صح كلام الصوفية — إلا بأذنا . ولماذا لم نسمع أبصارنا ولا جلودنا أو لحومنا وهكذا ، فأنا أرى أن هذا المقام يصح إغفاله رققاً بالقارئين .

فقلت بإصاح حياك الله وبياك : أنا أكتب هذا اليوم الأحد ٢٢ صفر سنة ١٣٥١ هجرية الموافق ٢٦ يونيو سنة ١٩٣٢ م وأنت معي ولكن ظهر لي خاطر قبيل صلاة الجمعة الماضية وأنا متأهب لصلاتها بمسجد الحبيبي في شارع السيدة زينب ، وهذا الخاطر عجيب ! فبعد أن صليت لم أرجع إلى المنزل بل جلست وحدي في الحلاء لأفهم ماورد إلى خاطري من الآراء ، وذلك الخاطر ملخصه .

إن عوالم اللادة ترجع كلها (كما تقدم في سورة النور عند آية : الله نور السموات والأرض) إلى نقط كهربائية بدور سالبها حول موجها نحو ستة آلاف مليون مليون مرة في الثانية الواحدة ، وباختلاف عددها كثيرة وقلة وتبايناً أشكالها تظهر لعيوننا جيلاً وجملاً وشجراً وحجراً الخ فهناك خطر لي أنه من المسلم به الآن عند الأمم شرقاً وغرباً أن المادة ما هي إلا حركات ، وهذه الحركات في الأثير ، والمحرك لها هو الله عز وجل .

حدثني أيها التكي رعاك الله ما الصوت ؟ قال : هو حركات تنتقل في الهواء وفي الأثير من فم القائل إلى أذن السامع . فقلت له : وهذه الحركات إن كانت أقل من ٣٢ في الثانية الواحدة لم تسمعها الآذان ، وإن كانت فوق ذلك سمعت ، وتزداد شدة كلما ازدادت عدداً حتى تصل إلى نحو ٣٢ ألفاً في الثانية الواحدة ، فإذا زادت عن ٣٢ ألفاً لا يسمعها الناس . قال نعم هكذا تقدم في هذا التفسير . فقلت له : : ما هي المادة ؟ فقال هي حركات في الأثير . فقلت : إذن السلام حركات في الأثير ، والسادة حركات في الأثير ، وقصاري الأمر وحماة أن الحركات التي يحدثها الإنسان في الأثير بأعضائه فهذه للتصللات أضعف أنراً وأقل عدداً من حركات الأثير التي صنعها الله لأحداث الأجسام والأضواء وجميع العالمين . فقال هذا حق لأن الضوء لا يصل لأبصارنا إلا إذا كانت حركته قد وصلت إلى ٤٠٠ مليون مليون حركة في الثانية فيحس بلون الحرة ، ولا يزال يزداد فتكون هناك ألوان أخرى حتى تصل عدد الحركات إلى ٧٠٠ مليون مليون حركة في الثانية فيكون اللون البنفسجي وما وراء ذلك غير معلوم .

فقلت له : إذن أيها الأخ جميع الحركات من ٣٢ ألفاً إلى ٤٠٠ مليون مليون لم نعط لها حاسة حتى

نعرها ، وما فوق ٧٠٠ مليون مليون لانعرفه حتى نصل إلى ستة آلاف مليون مليون فهذا لانعرفه ،
وتجلى لنا تلك الحركات بصفة مذوقات ومشعومات وملوسات ناعمة وخشنة وهكذا ، فها هنا أمران : حركات
لانعلمها ، وحركات وصل لنا علمها ، والحركات التي وصل لنا علمها ، منها ماهو من فعلنا ، ومنها ماهو من
فعل خالقنا ، فما كان من فعلنا فهو ضعيف حركات تسمى أصوات كالكلام والغناء ، وما كان من فعل خالقنا
فهو قوى جدا يظهر بهيئة ضوء تارة ، وتارة بهيئة حديد ونحاس وأرض وسما ، وهكذا ، ونسبة كلامنا إلى
قوة كلام الله وهي هذه العوالم نسبة ضئيلة جدا ، ذلك أن ٣٢ ألفا بالنسبة إلى مليون واحد إنما هي نحو جزء
من ٣٠ جزءا ، فكيف بها إذا نسبت إلى ألف مليون ، ثم إلى مليون مليون ، ثم إلى ستة آلاف مليون
مليون ، إنما إذا تصبغ كالهدم ، فهي كنسبة الإنسان الضعيف الذي يشبه المعدم إلى خالقه القادر العظيم ،
أليس هذا معناه أن العوالم كلمات الله فعلا ، لأنها حركات حركات كلامنا بحسب ما كشفه العلماء في عصرنا
وهو يقرأ في مدارس الشرق والغرب . قال بلي . قلت : أفليست كلمات الله إذن هي هي أنفسها هذه المذوقات
وهو هو للتكلم بها ، ثم كلماته إن كانت أصواتا سمعنا آذاننا كأصوات الرياح ، أو كانت مذوقات أو مشعومات
أو مبصرات أو حارة أو باردة أو بيضاء أو حمراء ، مثلا أدركتها حواسنا ، إذن الكشف الحديث أبان لنا معنى
قوله تعالى : « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » الآية « قل لو كان البحر مدادا لكلمات
ربي » ، « وكلمته ألقاها إلى مريم » وليس معنى هذا أن ذلك كلام الله القديم . كلا . وإنما هو كضرب
مثل له ، إن من هذا النوع الإنساني من صفت أرواحهم فيرون أن هذا العالم خطاب من الله لهم وكأنهم
في حضرته الآن ، هكذا يحظر لي أن في الأرض أناسا على هذا اللوال .

أقول : إن آية : « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » وإن كان يراد بها ضرب المثل
فإن العلم أرانا أن الممثل له قريب المنال ، فهو وإن لم يسم في العرف كلاما ولكنه يشبه الكلام لأنه حركات في الأثير ،
وهذه الحركات قوية متينة وآثارها مدهشة بحيث تشعرها جميع حواسنا على اختلاف طبقاتها وتعطينا
جميع اللذات المحسوسات واللعقول الآت في الدنيا ، فإذا متنا وانكشف العطاء لنا ، وتجردت أرواحنا
ذابت من اللذات أضعاف أضعاف ما تذوق هنا وهي محبوبة في هذه الحياة ، إذن خطاب الله بصدره
للتكلم به ويظهر في الخارج عند النطق به (وهذا ليس هو الكلام القديم بل ضرب مثل له) ويبقى آمادا
ونحس به جميع الحواس ، وكلام الخلق لا قدرة له إلا على الوصول إلى الأسماع لحسب ، ولا نتيجة له إلا
ما يفعله السامعون .

ولما عرفت ذلك وكنت إذ ذاك خارج القاهرة تبين لي أن هذه الأشجار والأحجار والأنهار والأزهار
والماء والسماء كلها كلمات ، وهذه الكلمات مفرقات على حواس الإنسان والله نفسه كأنه بها يحاطبنا ، فالعلوم
الشروحة في هذا المقام جميعها شرح لبعض تلك الكلمات التي تعيش فيها ؛ إذن العالم كله كلمات فعلا .
والكلمات مقروءات لأولى الألباب .

هذا ما خطر لي يوم الجمعة السابقة في التاريخ المذكور والحمد لله رب العالمين : فرغت من هذه المقالة
صباح يوم الاثنين ٢٣ صفر سنة ١٣٥١ هجرية - ٢٧ يونيو سنة ١٩٣٢ م بحسب السيدة زينب بشارع
زين العابدين .

حديث طريف

حضر صاحب العالم بعد ذلك في نفس اليوم وقال لي : لقد نسيت أن تذكر شيئا أشرت إليه في علم التربية
ألم تقل فيما تقدم إن الإنسان في أدوار حياته يضارع أطوار الخليفة ، ووعدت أن تشرح ذلك . فقلت حقا :

« إن الله لا يخلف الميعاد » إن العلماء في عصرنا نظروا في لعب الأطفال فأروها أمرا عجبا مدهشا ، وهذا الأمر المدهش معناه قول الله تعالى : « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين » ونحن نسمى لعب الأطفال لعبا ولكن للأطفال غريزة ومزرعة والله هو الزارع ، فهل يخلق الله اللعب ؟ هذا اللعب عندنا ، وجد عند الله والحكماء ، إن الحكيم ينظر إلى لعب الأطفال والصفار ويصدق بنظره إلى أسلاف الطفل وأسلاف الحيوان فيجد ذلك اللعب ما هو إلا ما فطر عليه أجداده في كرم وفرم ، وصيدهم وقتصمهم ، سواء أكان إنسانا أو حيوانا ، وهذا اللعب من جهة أخرى يدل على مستقبل الطفل ، فهو وارث لأعمال الآباء ، يبعدها من جهة وهو من جهة أخرى يستعد لحياة جديدة يتمرن عليها ، إذن اللعب أعطى صورتين : صورة للماضي ، وصورة للمستقبل كلاهما في آن واحد ، الفتاة تلعب بالمعروس وتغني لها ، والفق يتقلد السيف والرمح ويركب العود كأنه فرس ، وهما يحكيان أفعال الآباء والأجداد ، ومن جهة أخرى هما يتأهبان للمستقبل القريب ، بل الأمر أعظم من ذلك .

إن الإنسان يلخص في الرحم جميع الأدوار ، فالتى مرت فيها الخليقة كلها من خلية واحدة إلى الإنسان ثم هو يلخص في أدوار تربيته من وقت ميلاده إلى نضوجه جميع الأدوار التي مر بها الجنس البشري في تقدمه من الوحشية إلى الحضارة . إن كل لعب من ألعاب الأطفال يدل على دور من أدوار الآباء في أعمالهم العادية تقبله الطفل هنا بهيئة لعب ، ثم إن لكل امرئ مواهب خاصة تظهر ما استعد له ، فإذا راقبنا ذلك ووضعنا كل امرئ فمما خلق له فذلك هو اليوم الذي يسعد فيه الإنسان ، وهذا القول ملخص آراء الأستاذ (ستانلي هول) والأستاذ (كارل جروس) أحد أساتذة (جامعة بال) في سنة ١٨٩٦ م انتهى الحديث في نفس التاريخ ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

تذكرة

سنذكر إن شاء الله تعالى في سورة « والشمس وضحاها » فصولا من علم الترية جميلة نافلة اهـ

جوهرة في قوله تعالى : « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون »

ففرأوا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين »

خلقت اللهم من كل شيء زوجين ، ودعوتنا للتذكر ، وأمرتنا بالفرار إليك ، ونحن لا نتذكر إلا بالعلم لاسباب علم الحيوان الذى ظهر فيه الزوجان ظهورا تاما ، وصمناك تقول في (سورة الجاثية) : « وفي خلقكم وما يبث من دابة » الخ وفي (سورة الزخرف) : « والذى خلق الأزواج كلها وجهل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون لتستووا ، إلى : وما كنا له مقرنين » وفي (سورة الفاشية) : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت » ثم تقول : « فذكر إنما أنت مذكر » نحن الآن تذكرنا ونظرنا فوجدنا أن ذكر الإبل في الآية لم يقصد به إلا ضرب مثل ، لأن الإبل مراكب الصحراء والعرب عليها يركبون ، وهى تحمل أثقالهم ، فذكر ما يناسب عملهم ، ولو أن القرآن نزل على رجل هندي لقبيل أفلا ينظرون إلى القبيل كيف خلق ، أو على الذين يعظمون الحيات في أواسط أفريقيا لذكر الحيات ، أو الذين يجالون القرود في الهند أيضا لذكر القرود ، إذن الله بهذه الآية وأمثالها فتح لنا باب التذكرة والعلم فلنبعث إذن في كل حيوان ، ولنقدم مقدمة فنقول :

إن الله عز وجل أكثر في القرآن من ذكر العقول فيقول : « إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون » ومن ذكر التدبر والتذكر ، وعول جد التعميل على العقول ، فلنتنظر بمقولنا في هذه القطرة الإنسانية العامة ،

إننا لما خاقنا في هذه الأرض وجدنا لنا شهوة لطلب الغذاء ، ولطلب التناسل ، وغضبا لمداغمة الأعداء ، وقوة أعلى منهما لمعرفة الحقائق كلها كالذي نحن فيه ، ووجدنا الديانات تطالب منا الاعتدال في القوتين الأوليين فنسمع الله يقول : « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا » ويقول : « ولا تقربوا الزنا » ويقول : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » إذن الديانات والوعظ والقضاء إنما جاءت لتلطيف هذه القوى فينا لا غير ، إن شهوة الغذاء ، وشهوة التناسل ، والقوة الغضبية فينا كلها قوى شريفة رفيعة المنزلة أنزلها الله لحياتنا ، وإنما للذموم الخروج بها عن مقاصدها ، وإلا فنحن بغيرها لآحياة لنا ، فكل قانون ، وكل وعظ ديني أو دنيوي وظيفتها أن تجعل هذه القوى معتدلة لا غير ، ولكن القوة العليا وهي الفكرية المسيطرة على القوتين السابقتين لها مطالب أيضا ومطالبها هو العلم وغذاؤها صور المعلومات ، فكما كان لشهوة الغذاء أنواع الطعام ، ولشهوة الوقاع أنواع النساء ، وللقوة الغضبية أنواع القتال ، هكذا للقوة العاقلة أنواع الصور العلمية المكتسبة من المواد المحيطة بنا ، وهذه وظيفة تامة قائمة بنفسها لأنها مهذبة لحسب ، بل هي شهوة مقدسة وهي الخاصة بالإنسان ، فإذا غداها صار إنسانا تاما وإذا تركها بقي حيوانا لأنه لم يرتق عن الحيوان فهو مثله في الشهوتين السابقتين ، نعم إذا كان قد هذب الشهوتين السابقتين فقد تكمل في العمل ، ولكن العلم هو الخاصة الإنسانية ، الحيوان ليس في حاجة إلى التهذيب أما الإنسان فهو في حاجة إليه ، واذكر منظرا شاهدته قبل كتابة هذه الأسطر بساعات لأني الساعة أكتب هذا قريبا من منتصف ليلة الجمعة ١٧ يناير سنة ١٩٣٠ م وفي عصر الخميس كنت أرتاض ماشيا عند مصر القديمة مارا على (كوبري الملك الصالح) فرأيت راعيا يسوق عزرات ذوات ضروع مملوءة لبنا ومعهن تيسهن فتأملت ذبولهن إذا هي مرفوعة دائما ، وقد عرى السيلان عما يغطيها فترى الثدي كأنه قوس رجع إلى الخلف فقلت في نفسي : يقول الله تعالى : « يا بني آدم قد أنزلنا عليك لباسا يوارى سواتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير » فنحن أمرنا وأمنن الله علينا باللباس الذي يوارى سواتنا ، أما هذه الحيوانات فقد كشفت سواتها وعاشت بهذا والله لا يخلق إلا السكال ففكرت فيما علق بالنفس من أمر هذه الحيوانات ، وأن ذكورها لا تقرب إناتها إلا وهي غير حامله ، ومتى حملت لا تقربها ، وهذا عجيب ! إذن كشف العورة لا يضرها هي ، لأن هناك قانونا مسنونا ، وهو أن التيس لا يقرب العز إلا ورحمها خال من الجنين ، فسألت الراعي فقال نعم إنها متى حملت لا يقربها التيس ولو في اليوم الثاني ، فأما الإنسان فإنه أعطيت له الحرية في كل شيء ، فشهوة الغذاء لاحد لها وهكذا شهوة الوقاع ، فهذه الحرية وجب أن تقيد بالقيود الشرعية والعقلية لتحفظ حياته وكاله ، وهذه الحرية شرف له لأنه طلب منه الجهاد بنفسه ، فهو هو الملزوم بالمحافظة على قواه فإذا قدر على أنواع الطعام وفنون ألوانه ولم يجد مانعا يمنعه من تناول أنواع الشهوات في الوقاع ، فهو المكلف بأن يمنع نفسه بنفسه كما منعت ذكور تلك الحيوانات بغيرها في بعض الأحوال ، وهكذا ترى الحيوانات لا تشرب إلا إذا عطشت بخلاف الإنسان فإنه يشرب الحلوى متلذذا بغير عطش ، فهذه حرية أعطيت له وقد كلف أنه هو الذي يقيد هذه الحرية ، أما الحيوانات التي في البرية فالغريزة والسليقة أغنتها عن الشرائع وتكليف الإنسان بمقاومة شهواته إعظام له فكأنه قيل له : أنت حر فدير نفسك بنفسك ، لأننا نريد أن تكون مسلكا على عواطفك لأنك مقيد بقيود طبيعية تحجرك ، بل قيودك تكون من تلقاء نفسك وهذا شرف لك ، وتخذلان لك إن قصرت ، والمقصود من هذا الجهاد أن تعناد نفسك المران على العمل ؛ وترتقي إلى ما هو أعلى منه وهو تغذية القوة العاقلة بالصور الحسكية ، ولن تستقيم أبها الإنسان حالك إلا بمجدك واجتهادك .

إن هذه العزرات التي رأيتها اليوم فرأت فيها درسين : الدرس المتقدم وهو درس الشهوات وحفظها بالغرزة في الحيوان ، واحتياج الإنسان في حفظها إلى العلم والدين ، ودرس الألوان ، فإن العزرات رأيت منهن البيضاء والسوداء والحمر والصفراء والما كنة اللون ، ومنهن من كان جسمها مختلط البياض بالسواد أو بالحمر ، أو بالصفرة ، أو بالجميع ، أو ببعض ، وهن متصاحبات متحابات ، فقلت في نفسي هذا معنى قوله تعالى : « قتل الإنسان ما أكفره » لأن الناس كما احتاجوا في طعامهم وشربهم ودفاعهم إلى وازع ليحفظ قوام هكذا في السياسة العامة يحتاجون إلى وازع يرفع من شأنهم ، فهلم أولاد أهل أمريكا يمدى البيض منهم السود لجرد اللون ، وهكذا في بلاد الانجليز في هذه السنة لم يقبل أصحاب المطاعم والمجتمعات العامة رجلا أسود أمريكيا مع أنه متر عظيم ، ذلك كله لجرد اللون ، فهؤلاء لم يجدوا ما يهذب هذه النفوس المهبوسة في أمور تافهة كالألوان ، ولكن هذه العزرات متحابة معا وهن مختلفات الألوان لأنهن يرين أن النظر لهذه القوارق اللونية أمر تافه ونظرة حقا وقلة عقل وقصر في العلم ، ولكن ليس هذا عندهن علما وإنما هو غرزة كغريزة امتناع الوقوع أثناء حمل الأثني ، فهاهنا درسان درستهما اليوم على هذه العزرات درس أخلاق ودرس سياسة ، ولهذا قال الله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وورد في الحديث : « لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » وقال صلى الله عليه وسلم : « اسمعوا وأطيعوا وإن ولي عليكم عبد حبشي » وأمر بلالا أن يؤذن في السكبة يوم فتح مكة بمحضر من قريش ، كل ذلك تهذيب لهذه النفوس الإنسانية في الأمور السياسية العامة ، والحيوان لم يخرج إلى هذا لأن غريزته تسكبه ، الحيوان ليس مستعدا لحوز العلوم والمعارف ولذلك لم يكلف بالجهاد لحفظ شهوراته ، بل كفته الغريزة كما قدمنا ، أما الإنسان جهاده في مدافعة شهوراته يكون مقدمة لجهاده في إكمال نفسه بالعلم وإدراك الحقائق التي لم يخلق إلا لإدراكها ، إذن هذه الشهوات وإطلاق الحرية للإنسان فيها جعلت أشبه بامتحان له فإن جد في المحافظة على قواه الشهوية كان ذلك دليلا على أنه سينال العلوم العفوية ويكون رجلا كاملا ، وإن بقى في غمرات شهوراته دل ذلك على أنه ليس أهلا لأن يستكمل نفسه بالعلم .

هذا ما أردت جعله مقدمة لما سأكتبه في هذه الآية : « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » وما ماثلها من قوله تعالى : « والذى خلق الأزواج كلها » الخ . فلا تشرع إذن في دراسة هذه الأزواج الحيوانية وأقول :

لقد تقدم الكلام عليها مفرقة في هذا التفسير ، فتراها في سورة فاطر ، وفي سورة النحل ، وفي سورة الحج عند آية : « إن الذين تدعون من دون الله إن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له » وهكذا في سور كثيرة ، ولسكني أريد هنا أن أذكر حادثة عجيبة . ذلك أني قدمت في سورة يونس أني أرسلت خطابا إلى الحكومة المصرية ، وإلى رجال البرلمان أبين لهم فيه أن تعليم الشبان في المدارس الثانوية ناقص إذ لا نبات ولا حيوان ولا تشريح . ولا علم طبقات الأرض ، ولا علم الفلك تدرس فيها ، فالتلميذ يخرج وهو جاهل ماحوله ، فيجب أن تدرس هذه العلوم ، وأن يجعل التعليم الثانوي خمس سنين ، لأن هذه المواد قد حذفت من المدارس لما دخل الانجليز البلاد فوجب رجوعها وأنتم الآن عندكم استقلال ، وبقية الخطاب تجده هناك مسطورا .

أفلا تعجب معي أن هذا القول قد عمل بأكثره الآن ! أفلا تعجب أن ما كنت أقوله كثيرا في هذا التفسير أن بلاد الإسلام سترتقي قريبا قد أخذ يتحقق بعضه ، وهذه بلادى لما كتبت ذلك الخطاب منذ بضعة سنين لم تكن هذه العلوم فيها ، فها أنا ذا الآن أرى أممي علم الحيوان وعلم النبات مشروحين في كتبهم

شرحا وافيا عجيبا، وأنا لا أزال أزاول طبع التفسير، أفليس هذا معناه أن ما بشرت به المسلمين من أنهم سيرتقون سريعا قد ابتدأ تحقيقه وهذا من البشائر . وها هو ذا أمامي كتاب في علم الحيوان تأليف ثلاثة من علماء هذا الفن المصريين، فلا يبين طرفا من ذلك الكتاب هنا بحيث يكون مفيدا فوائدا أحسن مما سبق في هذا الكتاب وأريد بذلك أن أبين لك طريقة دراسة هذا الفن في بلادنا اليوم بعد أن حرمت تلك العلوم في أيام الاحتلال، فقد جاء في الكتاب المذكور تحت العنوان التالي مانعه :

أقسام المملكة الحيوانية

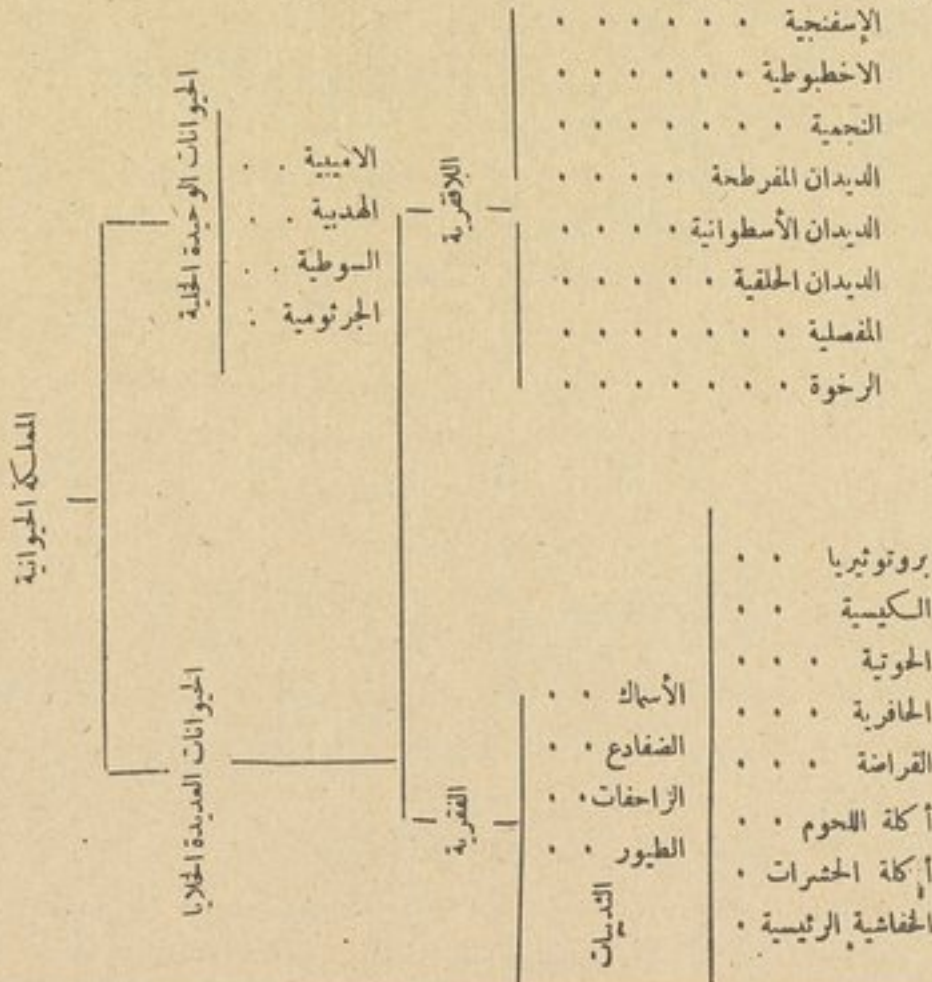
تنقسم الحيوانات تبعاً لتركيبها الخلوي إلى مملكتين وهما :-

(١) الحيوانات الوحيدة الخلية أو البروتوزوه ؛ وتسمى كذلك بالحيوانات الأولية ، وهي ما يتركب جسمها من خلية واحدة .

(٢) الحيوانات العديدة الخلايا أو الميتازوه ، وهي ما يتركب جسمها من خلايا عديدة تتكون عنها أنسجة مختلفة تقوم بالوظائف الحيوية للجسم . وتنقسم الحيوانات العديدة الخلايا إلى قسمين كبيرين وهما :

(أ) الحيوانات اللاقصرية هي ما ليس لها سلسلة قصرية ، وتنقسم إلى ثمان رتب كما هو مبين بالجدول الآتي :

(ب) الحيوانات القصرية هي ما لها سلسلة قصرية ، وتنقسم إلى خمس رتب كما هو مبين بالجدول كذلك



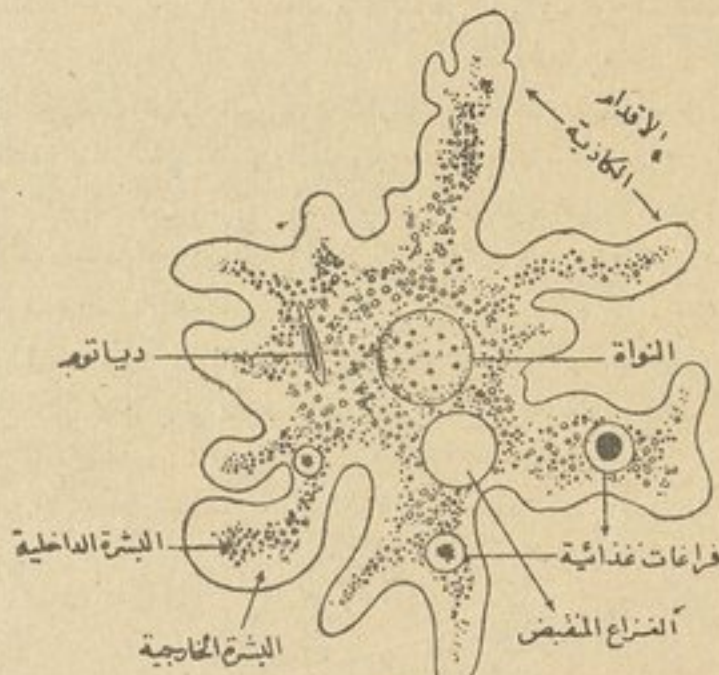
فالحيوانات الوحيدة الخلية هذه جعلت أربعة أقسام تراها فيما تقدم هنا ، ومن هذه الأربعة (الأميبا)
(انظر شكل ٣٥) .

الأميبا

الأميبا كائن حي دقيق الحجم يعيش في البرك والمستنقعات ، أو على سيقان النباتات المائية ، أو على الأحجار
الراسية في القاع ، ويرى أكبرها بصعوبة بالعين المجردة .

شكلها

عند ملاحظتها (الأميبا) بالمكروسكوب تكون عبارة عن كتلة بروتوبلازمية شفافة هلامية عارية أي
لا جدار لها ، وليس لها شكل معين حيث تتشكل بأشكال مختلفة في وقت قصير تبعاً لبروز أجزاء بروتوبلازمية
من جسمها ، ويلاحظ كذلك أن البروتوبلازمية في حركة مستمرة . (انظر شكل ٣٥) .



(شكل ٣٥ - الأميبا)

القسم الثاني من وحيد
الخلية : الحيوانات الهدية
والذي يهمنها أنها تعرف
أن الحيوانات الطفيلية التي
تعيش في الغشاء المخاطي للأمعاء
الغليظة فتسبب الاسهال المخاطي
الدموي المسمى (الدسناريا)
إنما هي من هذه الحيوانات
الهدية ، وهي من الوحيدة
الخلية . انتهى الكلام على
القسم الثاني .

القسم الثالث من وحيد
الخلية

الحيوانات السوطية .

والحيوانات السوطية هي حيوانات أولية ، يكون في أحد طرفيها زائدة سوطية تشبه الذنب ، تساعد
على الحركة ، وقد يكون لبعض أنواعها سوطان ، والبعض الآخر لا سوط له ؛ تعيش هذه الحيوانات في وسط
سائل ، وتتحرك فيه بواسطة حركة سوطها الكرواجية .

والذي يهمنها من هذا النوع (البوجلينا) وهي حيوانات ميكروسكوبية تعيش على سطح المياه العذبة
الراكدة في البرك والمستنقعات ، وشكلها مغزلي ، وبأحد طرفي جسمها سوط طويل يجانبه فتحة الفم ؛
وتغذى بالكائنات الدقيقة ، وبقايا المواد العضوية التي تجدها في الماء ، وتتغذى (البوجلينا) بطريقة
بنائية ، وهي أنها تستخلص الكربون من غاز ثاني أكسيد الكربون الذائب في الماء وتمثله في جسمها ،
ثم تمتص الآزوت وغيره من العناصر بشكل أملاح ذائبة في الماء .



(شكل ٣٦ - البوجلينا)

وتغذى كذلك بطريقة حيوانية، وهي إدخال قطع المواد العضوية السائلة الذكر من فتحة فمها (انظر شكل ٣٦) وهو حيوان سوطى صغير يعيش معيشة طفيلية في دم الإنسان، ويسبب له مرض النوم وهو مرض منتشر في أواسط أفريقيا وتقله إلى الإنسان ذبابة خاصة تسمى (جلوسينا)

يمض في جسمها حيوان مرض النوم جزءا من حياته، وعند ما عصى الذبابة اللوثة دم الإنسان عبر هذه الحيوانات في لعابها إلى الجرح الذي تمس منه ثم تدور مع الدم وتتكاثر فيه وتسبب الأعراض المرضية للمصاب.

القسم الرابع من الحيوانات الوحيدة الخلية

الحيوانات الجرثومية

الحيوانات الجرثومية هي حيوانات أولية ليس لها أعضاء خاصة بالحركة، وتعيش معيشة طفيلية في الأنسجة المختلفة لأجسام الحيوانات التي تصيبها وتسبب لها أمراضا قاتلة. فمنها:

(١) (الككسيديا): وهو حيوان دنى، يصيب حيوانات مختلفة، ففي الأرانب يعيش في أنسجة كبدها ويسبب لها مرض تعفن الكبد، وفي الأغنام يعيش في الغشاء المخاطي لأمعائها. وينتشر بينها بسرعة ويعرف بوباء الككسيديا.

(٢) (حيوان الملاريا): وهو يعيش في دم الإنسان، ويسبب له حمى الملاريا.

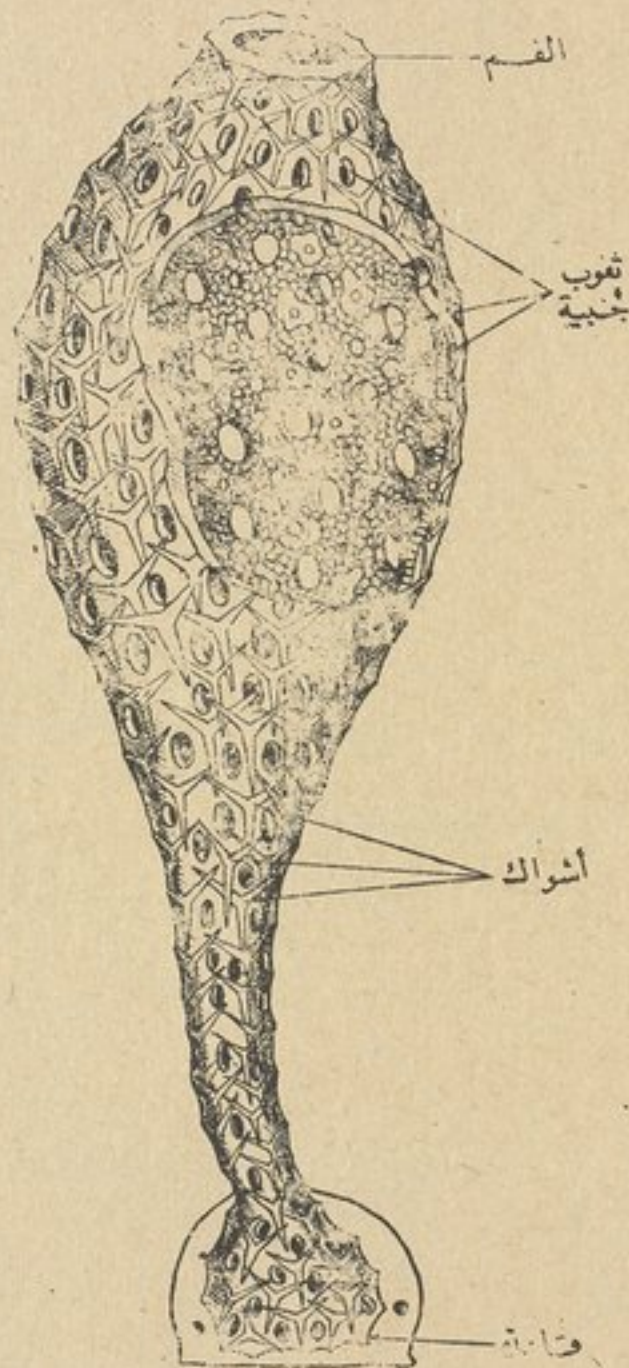
ثم إن التاموس على قسمين: قسم ينقل هذه الملاريا، وقسم لا ينقلها، والقسم الذي ينقلها حبة تغذى بدم الإنسان المصاب بالملاريا تتناسل تلك الحيوانات في جوف التاموسة، وهناك تكون معدية فتنتقل ذلك النسل إلى جسم إنسان آخر فتحصل العدوى، وهذه صورة معدة التاموسة المذكورة (انظر شكل ٣٧)



(شكل ٣٧ - معدة التاموس وعلاها حوصلات الملاريا)

الكلام على الحيوانات المعقدة الخلية

فمنها الإسفنجية كما تقدم وهذه صورتها (انظر شكل ٣٨) في أول الصفحة التالية:



(شكل ٣٨ - نوع من الإسفنج الحجرى البسيط)

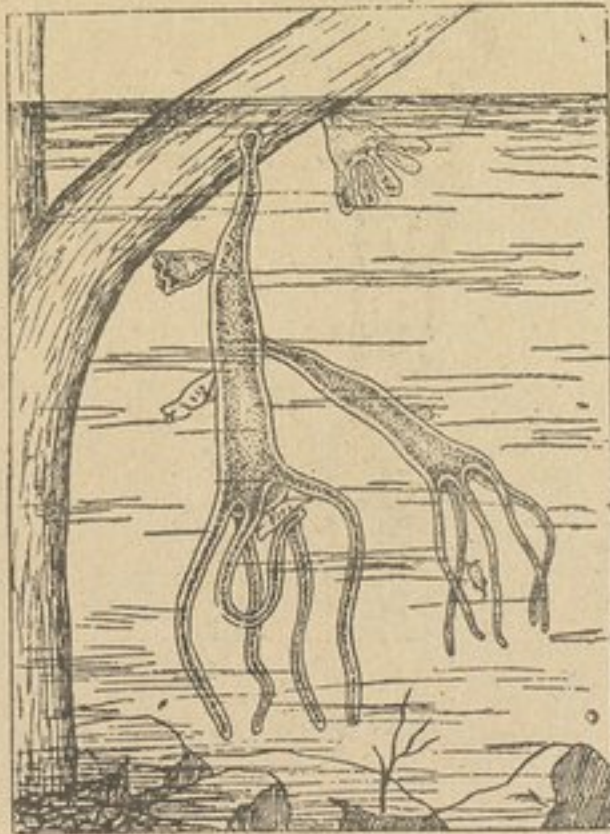
ومها إسفنج الحمام ، وهذه صورته (انظر شكل ٣٩) فى الصحيفة التالية :



(شكل ٣٩ - إسفنج الحمام)

القسم الثاني من الحيوانات كثيرة الخلية
الحيوانات الأحطوطية

(انظر شكل ٤٠)



شكل ٤٠ - أخطوط في حالته الطبيعية (٧×)

ومن الحيوانات الأحطوطية حيوان المرجان ، وقد تقدم في سورة الجاثية ، وفي سورة النحل .

القسم الثالث من الحيوانات العديدة الخلايا
الحيوانات النجمية ، وهي ذوات الجلد الشوكي
(انظر شكل ٤١)



نجم يفتس محارا
(شكل ٤١)

حيوانات هذه الرتبة كلها بحرية ، يعيش بعضها على سواحل البحار كنجم البحر ، والبعض بالقرب من الشواطئ كتمغذ البحر ، والبعض الآخر في وسط البحار كخيار البحر .
وكل هذه الحيوانات ذات شكل منتظم . أعضاؤها متشعبة كأنصاف أقطار الدائرة حول مركزها ، وأجسامها في العادة مغطاة بأشواك قد تكون طويلة كما في قنفذ البحر ، أو قصيرة كما في نجم البحر ، وقد لا تظهر أصلا وتتموض بصفائح حجرية صغيرة موضوعة تحت الجلد كما في خيار البحر ، وقد تكون هذه الصفائح كثيرة وتتصل بعضها ببعض فتكون شبه صندوق كما في قنفذ البحر ، وقد توجد الصفائح والأشواك معا في الحيوان الواحد ، وتشاهد على أجسام هذه الحيوانات زوائد بيضاء اللون متحركة تمتد وتتكسح عند الإرادة ، وتنتهي كل واحد منها بقراص صغير مقعر قليلا ، وهذه الزوائد هي أعضاء الحركة والاتصاق والحركة في هذه الحيوانات بطيئة جدا .

الذكور في هذه الحيوانات منفصلة عن الإناث ، ومن الصعب جدا التفرقة بينهما من غير الاستمانة

بالشرخ .

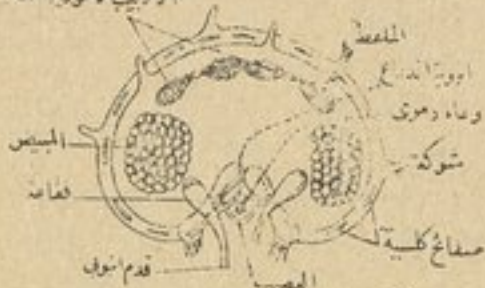
(نجم البحر) يشبه هذا الحيوان النجمة في شكلها لهذا سمي نجم البحر ، ويركب جسمه من قرص وسطى

يتفرع منه عدد من الأعضاء (حسنة في الغالب) وكلها متشابهة شكلا وفي الغالب متساوية حجما ، وتعرف هذه الأعضاء بالأذرع ، وللاحيوان سطحان : أحدهما علوي والآخر سفلي ، والسطح العلوي أقدم لونا من السفلي ، وبواسطة فتحة صغيرة جدا لا ترى بسهولة تعرف بالأسف .

ويوجد على حافة القرص من أعلى أيضا وبجوار نقطة اتصال ذراعين من أذرع الحيوان جزء قشري مستدير به عدة ثقب صغيرة يعرف بفتحة الجهاز المائي .

ويوجد عدد كبير من صفائح كلسية منتشرة تحت جلد الحيوان تبرز منها أشواك كثيرة تظهر فوق سطح الجسم كما أنه تبرز من بعض هذه الصفائح أعضاء صغيرة كالأشواك شبيهة بالملقط . وظيفتها التقاط الأشياء الصغيرة كالحشائش المائية ، وكذلك تنظيف جسم الحيوان مما قد يلتصق به من أوساخ (انظر شكل ٤٢)

الانبيبا لعمود المعدة-



(شكل ٤٢ - مقطع عرضي في الذراع)

وتظهر على جسم الحيوان في المواضع الحالية من الصفائح الكلسية زوائد صغيرة شبيهة بالأصابع ذات جذر جلدية رقيقة للغاية يحصل الحيوان بواسطتها على ما يحتاج إليه من الأكسجين الذائب في الماء المحيط به ، فهي إذن أعضاء للتنفس .

وتوجد في وسط القرص من أسفل فتحة تعرف بالفم محوطة بأشواك كلسية .

القسم الرابع من الحيوانات العديدة الخلايا التي لا فقرات لها كالتى قبلها

الديدان المفرطة ومنها الدودة الكبدية



(شكل ٤٣)

الدودة الكبدية الكاملة

تعيش الدودة الكبدية وهي في طورها الكامل في القنوات المرارية الكبيرة في كبد الأغنام والموابي والجمال ، وأحيانا الإنسان ، ويبلغ طولها سنتيمتران أو أكثر ، وتسبب لهذه الحيوانات مرض تعفن الكبد أى تعفن الكبد ، لأن الكبد المصاب يصير حشن اللس غير مرن ، وسهل التفتت . (انظر شكل ٤٣) .

ومنها دودة البهارسيا (انظر شكل ٤٤ في الصفحة

التالية) .



(شكل ٤٤ - دودة البلهارسيا)

(١) بيضة بلهارسيا المجارى البولية . (٢) بيضة بلهارسيا المستقيم .

القسم الخامس

من الحيوانات عديدة الخلية

الديدان الاسطوانية

ديدان (الانكاستوما) هي ديدان رفيعة بيضاء ، يبلغ طولها سنتيمتر تقريبا وتميش في الأمعاء الدقيقة ملتصقة بجدرانها وتمتص الدم منها ، وتحدث الحصاب بها ضعفا وانحطاطا مستمرا في قواه ناشئ من فقر الدم ينتهي بالموت ، ويسمى فقر الدم الناتج من الانكاستوما عند الفلاحين (بالرهقان) أى سرعة دقات القلب عند القيام بأى مجهود جسمانى .

وإنثى الانكاستوما أكبر بقليل من ذكورها ، وتميش الإناث منفصلة عن الذكور بخلاف البلهارسيا ، ولا تتصل بها إلا عند التزاوج .
(انظر شكل ٤٥)



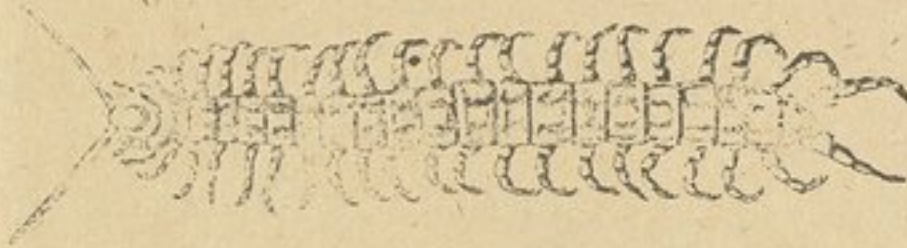
(شكل ٤٥ - دودة الانكاستوما)

(١) الذكر (٢) الأنثى (٣) فم الدودة مفتوحا (٤) البيضة عند وضعها (٥) البيضة عند نضج الجنين فيها (٦) البرقة

القسم السادس من الحيوانات عديدة الحلية
 الديدان الحلقية ، وهي من الحيوانات التي لا فقرات لها
 ومنها دودة الأرض ، وقد تقدم الكلام عليها في (سورة فصلت) فراجعها هناك إن شئت :
 القسم السابع من الحيوانات عديدة الحلية التي لا فقرات لها

الحيوانات المفصليّة

ويدخل في هذا القسم الحيوانات القشرية كالجمبري ، أو السكينة الأرجل كأنم أربعة وأربعين (انظر شكل ٤٦) والعنكبوت ونحوه ، والحشرات : كالجراد ، وفرس النهر ، والصرصار ، ودودة القطن ، والذباب والناوس ، والبق ، والبرغوث ، والتمل (انظر شكل ٤٧) ودودة الفز ، والنحل ، والعقارب (انظر شكل ٤٨) . و (شكل ٤٩) تراه في الصفحة التالية) ثم الجنيري (شكل ٥٠ تراه في الصفحة التالية أيضا)



أنم أربعة وأربعين (شكل ٤٦)



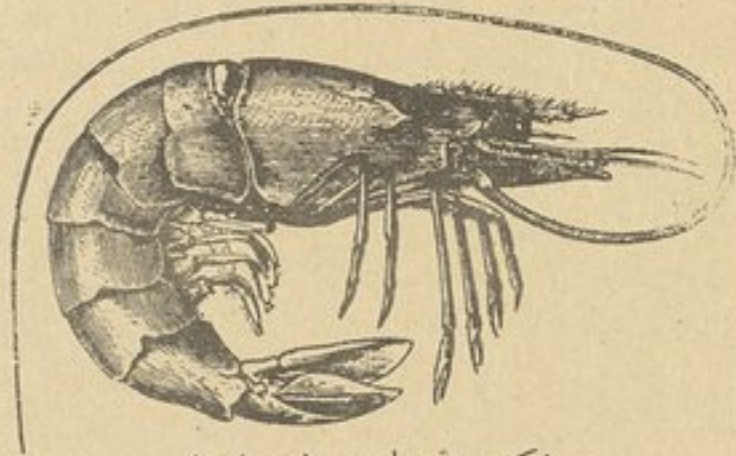
تمل الرأس (شكل ٤٧)



(شكل ٤٨ - عقربان يتصالحان عند مقابتهما)



(شكل ٤٩ - عقربة تحمل صغارها على ظهرها)



(شكل ٥٠ - الجمبرى بالحجم الحقيقي)

القسم الثامن من الحيوانات عديدة الخلايا وهي ليست ذات فقرات
الحيوانات الرخوة ، ومنها القواقع ، وبلع البحر
(انظر شكل ٥١)



(شكل ٥١ - القوقع الروماني)

(١) القدم (٢) ازوائد الأمامية (٣) الزوائد الخلفية الحاملة للعين (٤) حافة البرنس (٥) القدم (٦) الفتحة
التنفسية (٧) الفتحة الشرجية (٨) الفتحة التناسلية



(شكل ٥٢ — بلح البحر مدفوناً في الدهر بحالته الطبيعية)

هذا ما أردته من كتاب «علم الحيوان» في هذا المقام . وبهذا تم الكلام على أقسام الحيوانات الثمانية
الوحيدة الخلية والعديدة الخلية ، والحمد لله رب العالمين .

مهجة الحكمة في هذه المناظر الخيالية وعجائبها وديانتها

أما الله وجميع نعمين عجائبك وأقرأ هذا التفسير لطلعتين على أكثره من أهل الفطنة موقنون
إيماناً متيناً على المباحث العقلية ، والاشعاعات الحسية ، والنظريات الحكيمة : إنك رحيم رحمة لا حد لها .
بحيث أصبحت رحمة الأمهات والآباء بالنسبة لها قليلة الجدوى . وبهذا فهمنا قولك : «شهد الله أنه لا إله
إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم» فأنت عززت حكمتك وأحكمت
التدبير وأولو العلم هم الذين يشهدون بالحق . والجهال مؤمنون لا غير . وفهمنا أيضاً معنى قولك في القرآن :
«وهو أرحم الراحمين» فكذلك مناعته رحمة ولكبر رحمة جارية . فأما رحمتك التي شهدناها فإنها لا حد
لها ، ومن آيات ذلك إحكام الصنع في أجسامنا . ودقة صنع أعيننا ، وتلك الطبقات المعجزة المنظمة .
وكيف وضعت بهيئة بها تقبل ضوء الشمس . وهذا الضوء يوصل الصور المرئية . وهذه الصور تدل
في تلك الطبقات وتخترق العدسة وتعمل في الشبكية ورأبها . ثم تصل إلى أعصاب الإحساس البصري وتوجه
إلى القوة الباصرة في الدماغ وهناك يكون الإحساس . وما هذه إلا وسائط . وقد فعلت أمثال ذلك في إحساسنا
بالأصوات وفهم الكلمات والحمل . وأدعت وصورت وأحكمت . وأودعت في آذاننا قطعاً تتلوها قطع
تنحرك حركات تنتقل من واحدة إلى الأخرى . وهكذا من العجائب التي لو كانت ممثلة لنا دائماً لاستغرقت
قوانا وعقولنا الأوقات في الإعجاب ثم الحب والهيام والغرام بصانعها الحكيم .

ومن أنعم النظر في عجائب الأشجار والأزهار والأوراق والجذور وبدائع الحيوان يدعش من تلك التروية
الحكيمة ، وأن نظرة واحدة لورقة واحدة (كما تقدم في سورة يس عند آية : سبحان الذي خلق الأزواج
كلها الخ) بل خلية واحدة من خلايا الورقة المرسومة هناك يدعش كل الدهش ويعجب كيف خلقت الشمس
وبيننا وبينها نحو ٣٥٠ سنة بسير القطار و ١٢ سنة بجري قلة المدفع و ٨ دقائق و ١٨ ثانية بسير النور .
خفت هذه الشمس في ذلك البعد العظيم عنا ، ولو أنها قربت منا لأحرقتنا فلم نعيش . فهذه الشمس ترسل

ورا لأعيننا به ترى الطرق وتقرأ الكتب ، وهذا النور نفسه يدخل في الخلية من لورقة المحتوية على آلاف من الخلايا بل عشرات آلاف الآلاف في بعض الورق ، وهذه الخلية ذات حيطان شفافة مسقوفة بسقف من مواد شفافة موضوعة وضع اللبنة في أبنيتنا لبنة بجانب أخرى ، فهي إذن مقفلة ، وهذا الإقفال لا يمنع دخول نور الشمس ، فماذا يفعل ذلك النور ، يأرى يقابل السائل الذي في وسط تلك الخلية ، فيجذبه مادة خضراء وهو (كلوروفيل) فاجتماع هذا الضوء المسافر من أقطار شاسعة مع هذه المادة الخضراء يجذب الورقة (المادة الكربونية) من الهواء .

الله أكبر : إذن هذه الخلية أشبه بالزئبق للحيوان والكربون أشبه بالأوكسجين للحيوان والأوكسجين الذي يخرج من الورقة قائم مقام الماء الكربونية التي يخرجها الإنسان والحيوان .

هاهاها هاهاها وصاننا إلى المقصود وهو أن خلية واحدة من خلايا الورقة أتحدت مع الشمس المرسله ضوءها لحياة الشجرة . ولا ريب أن هذه الرثة واحدة من آلاف آلاف آلاف آلاف الخلايا في الشجرة ، والشجرة واحدة من آلاف آلاف النباتات والشجر في الأرض ، وكل هذه صنعت لأجل حياتنا نحن ، فهأهاها رحمة لاحد لها وحكمة وإتقان لانهاية لهما ، والرحيم الحكيم محبوب على مقدار رحمته وحكمته . ولعمري ليس يحب الله أحد من الناس حبا حقيقيا إلا من درسوا أمثال ما نسكتبه الآن ، فالرحمة والحكمة لاحد لهما ، وإذا نظرنا نظرا أرقى وقلنا إن نفس هذه المادة وأوراقها وأشجارها وحيوانها كلها ليست موجودة بالفعل وما هي هذه إلا حركات انقلب ضوءا . وهذا الضوء كهربائي متحرك سالبه حول موجبه آلاف آلاف في الثانية الواحدة : وباختلاف الحركات والأحوال اختلفت المظاهر كما هو رأى علماء عصرنا الحاضر .

أقول : إذا نظرنا هذه النظرة أدركنا معنى : «الله نور السموات والأرض» وأدركنا «والله خلقكم وما تعملون» وأنه هو التجلي في كل عمل دق أو جل «ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه وما يمزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين» .

فما سمع صاحبي ذلك . قال : هذا المقال جميل ، ولكنه ليس أمرا جديدا في هذا التفسير ، فهو كله على هذا النمط ، وإن كان هذا الأسلوب شيق يبهج القلوب ويحركها إلى المعالي ، وعندى سؤال : وهو أنك في هذا المقال أبنت الرحمة العامة ، وحل هذا الموضوع يناسب ذكر الصور المتقدمة ، أنت ابتدأت السلام بذكر مشاهدته من الرجل الذي يرجي العز ، وأنت استنتجت من منظر العز والوانها أمرين : الأمر الأول علم الأخلاق ، الأمر الثاني علم السياسة ، وأن انكشاف عضو التناسل في أنثى العز جاء لحكمة ، وهي أن الحيوان عنده غريزة تحفظه من التهاذي في شهوة الوقاع ، وأن الإنسان حر يتصرف كما يشاء ، فهو أبدا يعوره المذكرات العقلية والدينية ومن محجات الأيام والليالي حتى يرجع من تلقاء نفسه بتلك المذكرات فيعرج بهذه القوة التي اكتسبها من المران على حفظ شهوته إلى الحكمة والعلم اللذين خلق في الأرض لهما ، ويظهر من كلامك أن أهل الأرض جميعا لافائدة تامة لهم إلا لطائفة خاصة وهم الحكماء وبقية الناس جميعهم المميج ، فإن هؤلاء الذين ظنوا الشهوات من المطعم والشرب ، أو غلبة الأعداء هي المقصودة من الحياة جاهلون أغبياء إلا من تاب وعرف وقراء الحكمة .

فهذا هو الذي ذكرته أنت في مقدمة هذا المقال ، ورسمت بعده صور الحيوانات ، وأبنت الحيوانات ذوات الخلية الواحدة الأربعة وهي : (الأميبية) و (هديبية) و (سوطية) و (حرثومية) ثم الحيوانات ذوات الخلايا التي لاقترات لها مثل : (الاسفنجية) و (الأخطبوطية) و (النجمية) إلى آخر الأقسام الثمانية المتقدمة

فهذا هو الذي ذكرته أولا ، فهل الكلام على رحمة الله بعدها مناسب لها كل المناسبة ؟ هذا ما أريد سؤالك عنه ؟ قلت حياك الله . إن الرحمة التي ذكرتها بعد انتهاء هذه الصور الحيوانية إنما نقلتها على سبيل التمثيل للرحمة بمثل سهل مقبول ، ورحمة الله تعالى لنا بتلك الحيوانات رحمة شريفة عالية ، إن الرحمة على قسيتين : رحمة الأم ، ورحمة الأب ، أما رحمة الأم فإنها يقل فيها التفطن والتفكر والتأديب ، أما رحمة الأب فهي الكاملة ، لأن الأب واسع النظر حكيم يريد للولد مستقبلا ، أما الأم فهي تريد الأحوال الجزئية والمنافع السطحية .

فهذا المثل الذي ضربته هنا بخلية الورقة جاء في الرحمة المشبهة رحمة الأم ، فأما هذه الحيوانات وما فيها من الأعضاء والمنافع فإنها كرحمة الأب التي تشتمل على التأديب والزجر كما تشتمل على تغذية البدن بأنواع الغذاء . قال : فبين لي هذا المقام على شريطة أن تكون الأمثلة من نفس تلك الحيوانات المصورة فيما تقدم . قلت : اللهم إنا خلقنا في هذه الأرض فرأينا أسلوبا واحدا متبعا في حياتنا ، فكأن أن الشهوات للغذاء وللتناسل حفظتها بالفرائض في الحيوان وهذبنا في الإنسان (الذي أعطى الحرية في التصرف) بالمنذرات والعبر والعلوم والمعارف ، وجعلت عقولنا هي المسيطرات على قوانا المخلوقة فينا . وغرائز الحيوان لا حاجة معها إلى عقل كبير ، ثم إننا نظرنا حولنا ياربنا فرأينا أغذية تعاطاها وفيها الضار والنافع ، فقامت عقولنا بما تعرفه من التجارب والعلم ، فاختارت منها ما ينفعنا ونبذت ما يضرنا ، وهكذا رأينا ماء ينزل من السماء ويسبح على الأرض ، فألممت عقولنا أن نحفر لها الأنهار ونقيم له السدود لنحفظه فيسقي زرعنا كما أقامت هذه العقول موانع وحواجز حجرت شهواتنا عن التوغل والإسراف لحفظ حياتنا .

ثم إن هذه العقول أنفسها بما نظمنا دولنا ، فنحن في هذا كله أرقى من الحيوان ، لأن الحيوان نظم دوله بفرائضه ، أما نحن فقد أحكمتنا عقولنا فتصرفت في شهواتنا بخلاف التيسر مع المنزلات في المشاهدة التي ذكرتها سابقا ، فالمنافع له غريزته ، وتصرفت أيضا في نظام طعامنا وشرابنا ، وسقى زرعنا ، وإقامة دولنا ، والغريزة عندنا لاحكم لها هنا وإنما الحكم لعقولنا ، وبهذه العقول قويت إرادتنا ، وعملنا باختيارنا لا بفرائضنا . أما الحيوان فهو مسوق لاسائق ، ومقود لاقائد ، فإذا رأينا حيوان الملائيا يدخل السكرات الدموية الحمراء ويهلك ما فيها ويميتها ، وبهذا العمل ترتفع درجة الحرارة في فترات منتظمة كل يومين أو ثلاثة على حسب نوع الملائيا ؛ ثم تستمر هذه الثوبات بضع أسابيع حتى يضعف المصاب بها (وهذا الحيوان دقيق الجسم جدا من الحيوانات الجرثومية ذوات الخلية الواحدة وهو يتكاثر ، ثم يساعده في الانتقال إلى جسم إنسان آخر ليجعل له مستعمرة هناك حشرات التاموس المعروفة لتتخصه الإناث منها وتذهب به إلى إنسان آخر فتتمتص دمه وتبقى بجسمه ذلك الحيوان الفئاك فيتكاثر فيه) .

أقول : إذا رأينا حيوان الملائيا هكذا فلم يخرج ذلك عن إعطائنا الحرية والعلم وعن أنه مهجاز يسوقنا إلى العمل ، ولولا ذلك لكان الكسل وكان الموت .

الله أكبر : أي فارقة بين شهواتنا التي أطلقت لنا الحرية فيها (بخلاف الحيوان ذي الغريزة) وبين خلق هذه الحيوانات لنا ، الحيوانات هي المساعدات لنا ، كما أن الشهوات لولها لم نعش ، فالخلوقات الخارجية مساعدات لنا ، والقوى الباطنية فينا كشهوة الغذاء والوقوع لاجل الحياة لنا بدونها ولا بقاء ، وقد أطلقت لنا الحرية في شهواتنا وبالمحافظة عليها يتم لنا نظام الحياة ، وبعد المحافظة عليها والأسراف يكون شقاء الحياة فالنتيجة من ذلك تدربنا على حكم أنفسنا وأن تتولى نحن بأنفسنا العمل لها بخلاف الحيوان ، فهل نحن إذا رأينا (حمى الملائيا) تقتل آلافنا منا (كما أن حشرة النمل ودودة الحرير وأنواع الجاموس والبقر والحيل جالبات الخير والسعادة لنا) قد خرجنا عن المثال السابق . كلا . فلو أننا أعطينا العسل والحرير والصوف واللحم

واللبن من الحيوان ثم لم يصاحب هذه النعم ضدّها لكننا أغبياء كسالى ، بل كنا حيوانات أقل من الانسان لأننا قلنا فى مثال العنزات إن الفارق بيننا وبين الحيوان المحافظة بأنفسنا على قوانا وطى نعمنا حتى نستأهل للارتقاء إلى عالم فوق هذا ، إذن الله عز وجل يكلمنا دائماً ليلاً ونهاراً بكلام بلا حرف ولا صوت ، يقول : يا عبادى اعقلوا عنى هذه قواكم فيها الخير وفيها الشر فاحترسوا ، وهذا الماء وهذا الهواء وهذا الحيوان فيها كلها الخير والشر فاحترسوا ، وعملى هذا يعلم أشبه لكم بعمل الأب لابنه منكم « وثه المثل الأجل » فهو يأخذ فى دكانه ، أو فى حقله ، أو فى محل تجارته ، ويترك له الحرية حتى يخطئ ويصلح خطأه بعقله وبفسه ، ولكنه عادة فى بعض بلاد الشرق لا يعلم ابنته هذا التعليم ، لأنها فى نظره غير أهل لتلك النعمة ، نعمة الرجال الذين يشكرون بأنفسهم لأنهم خلقوا للاستقلال ، ولو أنى لم أخلق من الحيوان إلا ما تمعكم ، ولم أخلق لكم أنواع اللاريا التى تربي فى دمائكم ، ويعملها الناموس من واحد إلى آخر منكم لكنكم فى مرتبة صغيرة حيوانية جاهلة .

بهذا تفهمون أيها الناس قولى : « فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرم من ، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن ، كلا بل لانكرمون اليتم ولا تحاضون على طعام المسكين » .

أيها الناس : إن المدار على عملكم أنتم لاعلى العطايا والمواهب وحدها ، وأعظم عطائى ونعمى عليكم وعملكم ، لهذا خلقتم فى الدنيا ، وعلمكم وعملكم لايتان إلا بالمتضادين ، ولذلك قلت : « ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ، ففروا إلى الله » فها أنا ذا هنا خلقت لكم الضار والنافع فى قواكم الشهوية والغضبية ، فالاعتدال نافع ، والإسراف ضار ، وخلقت الضار والنافع فى الهواء وفى الماء وفى الحيوان ، وتركتم لكم الحرية فلتختاروا ما تشاءون لأنكم إلى راجعون ، وهل يرجع إلى ويكون عندى فى مقعد صدق وأنا الملك المقتدر أحد إلا إذا تخلق بالصفات الشريفة من العلم والعمل ، وكل من ازداد علماً وأحسن عملاً فى صناعة أو أى عمل كان قريباً منى بقدر منفعتة للناس وإتقانه لصناعته .

يا عبادى : هاهو ذا عملى معكم ، خلقت فىكم حيوان اللاريا ، وما هو إلا كلمات يعقلها الموقفون ، وهذا القول مجسم بخلاف أفواككم فهى أصوات والأصوات يفهمها العلماء والجهلاء ، والكلام المجسم لا يعقله إلا الحكماء ، فهؤلاء الذين أفهمهم أنا كلمائى المجسمة يفهمونها ويعلمونها للناس فى مشارق الأرض ومغاربها ، وهؤلاء الحكماء هم الذين يقولون لكم عنى ويبلغونكم أنى أنزلت هذه الحيوانات الخلوية الدقيقة ، وخلقت دودة (البلهارسيا) وقلت لها : أيتها الدودة عيشى فى أكباد بنى آدم ، وكلتى واشربى من دمائهم ، واحدى ضففا فيهم ، ثم انزلى إلى المجرى البولية فيكون التزيف الدموى ، أو انزلى فى المستقيم ، واحدى نزيفا دمويًا فى البراز ، فيكون هناك صعوبة وآلام فى أثناء قضاء الحاجة ، فإذا نزل ييضك بهذه الصفة ووقع فى نهر فإنى أجعله يفسس هناك وتخرج الدرية على مثالك فألهمها أن تعتمد على القواقع التى تلتصقها هناك فتدخل فيها بعد أن تثقبها وتعيش فيها ، ثم تخرج الدرية فتعوم فى الماء ٤٨ ساعة ، فإن لم تجد إنساناً يعيش فى جسمه ماتت ، فإن رآته فهناك تكون سعادة ذريتك فتثقب جلده وتوجه إلى كبده كما تنبجته إلى كبده القوقمة أولاً ، ودخولها جسم الانسان إما بالاستحمام أو الشرب أو الاغتسال بالماء الملوث بها ، ذلك هو عمل دودة البلهارسيا ، ومثلها الدودة الشريطية التى تعيش فى بعض الحيوان ، وتصيب من لم يطبخه طبخاً جيداً إن لم يكشف عليه كشفاً صحياً الطبيب العام فى البلاد ، وهكذا دودة الانكلستوما وبقية الحشرات السابقات كالقمل والمقارب وما أشبهها ، فكل هذه أيها الناس كلمائى المجسمة أنزلتها عليكم وقلت لها : لاتدخرى وسما فى إلحاق الأذى

والسكروه بالأمم في الأرض وبالأفراد ، فإن أجمعوا أمرهم بينهم على قتالكن وإزالتهن من الأرض وانتهاوا بأنهم صاروا متضامنين جميعا في الشرق والغرب فذلك هو الذي أريد سوقهم إليه بهذه الرزايا والنوابج بحيث تنقل العدوى من بلد إلى بلد ، ولا فرق بين البلدان في هذه الرزايا . فإيا أنتها الخلوقات المؤذية لبني آدم استمرى في عملك ولا تفرق بين أهل الديانات والممالك ، وافندي بهم فتكا ذريعا حتى يعلموا أنهم خلقوا أمة واحدة تتعاون ، وهناك تكوينين قد أدبت مهنتك الشريفة في هذه الأرض .

هذا ما يقوله الحكماء لأهل الأرض في هذا الزمان ليدلومهم على المحبة والموودة ، وتعميم السلام العام ، والحمد لله رب العالمين ، كتب ليلة السبت ١٨ يناير سنة ١٩٣٠ م قبيل الفجر :

زيادة إيضاح قوله تعالى : «ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون»

كتب ليلة الثلاثاء قبيل الفجر يوم ٢١ يناير سنة ١٩٣٠ م

بعد أن كتبت ما تقدم ملخصا من ذلك الكتاب أخذت أطلع ماجاه في أحوال الديدان الحقيقية التي منها دودة الأرض التي تقدم رسمها ووصفها في (سورة فصلت) وأنها تكون سببا في خصب الأرض الخ ومنها العاق الطي ، فإذا رأيت ؟ رأيت أن الأمم المستعمرة إذا منعت الناس عن العلم والحسكة ودراسة أمثال هذه العجائب فإنها بهذا نفوز وتملك البلاد ، ولماذا تملكها ؟ تملكها لأن الناس بلا علم بأمثال هذه العجائب يكونون أشبه بالبهائم فيسهل التسلط عليهم وإذلالهم وتسخيرهم كما تسخر الدواب .

ولما وصات إلى هذا اللقار . قال صاحي بعد ما قرأ هذا : ها أنت ذا رجعت إلى التدم والتقريع فعلام هذا اللوم ؟ أعلى دودة في الأرض منبوذة لاعلاقة لها بالدنيا ولا بدني ، فهل يكون المسلمون وقد جهلوا هذا الدود قد استعدوا لإذلال الأمم لهم ، إن هذا منك مبالغة ، ثم لماذا أعدت القول في هذه الدودة وحدها ، وهل الجهل بها وبأمثالها هو الذي مكن الإنجليز من بلادكم فيما مضى ؟ قلت : اعلم يا صاح : أن الجاهل أعمى والأعمى يستحق فائدا بقوده ، لقد كنت في حقل وأمامي ساقية قد دار فيها ثور ، وكان على عينيه غطاء ، فأنكشف الغطاء فوقف الثور ، فلما أن أعيد إليه الغطاء جرى كما كان ودارت الساقية ، وما أشبه الأمم الإسلامية وقد غطيت بصاؤها عن نظر العجائب السكونية إلا بهذا الثور الذي كان أمامي لما غطيت عيناه وأنا لا أشبهها وقد أزيل هذا الغطاء عن بصاؤها بالعلم والعلم إلا بنفس هذا الثور إذا أزيل عن عينيه الغطاء فوقف عن السير .

فقال صاحي : هذا لم يزد عن أنه من ضرب الأمثال . قلت : يا صاح إن للقول بقية ، لقد أدهشني وصف دودة الأرض المتقدمة في (سورة فصلت) بل أذهل عقلي أي إذهال من فرط التعجب وزاد بقيتي بأن هذه الدنيا جنة خلقنا فيها وحجبتنا عن بسايتها وحدائقها وأزهارها وأثمارها ، نحن معذبون في الدنيا لشدة جهالتنا فإذا علمنا فنحن من القريين ، دود منبوذ في الأرض يكون سببا لإسعادنا وإمدادنا بالخبز والفاكهة والتين والرمان والحب والمصفر والريحان ، دود منبوذ يكون سببا لتغذية العلماء والحكماء والأنبياء ، دود منبوذ يقوم بحرث الأرض وتسميدها والناس لا يعلمون ، دود منبوذ يفتت القطع الأرضية فيدخل الهواء فيها فيحسن الزرع فتكون سعادة الحياة ، ويحجلى والله أن نعيش في الأرض ونحن غافلون .

أما أنا فإني أحمدك يا رب على نعمة العلم ، وأنا أعلم أن من الناس من يقرءون ما ذكرته فيها ولا يعجبون وأكثر علماء النبات والحيوان يعرفون أضعاف ما في هذا الكتاب وهم غافلون ، فهم يرون الجمال وكأنه لاجمال ، ويرون الحسن ولا يحسان وكأنه لا حسن ولا إحسان ، أكثرهم عمى وقد رأوا الغداة الحسان . صم وقد سمعوا أجمل النغمات ، وليس هذا عجيبا فقد نرى الحسان ونسمع أبهج النغمات . وقد اعترانا

في النفوس مواعظ وهموم ، فلانهزطربا ولا نهتاج شوقا وغراما ، هكذا أغلب نوع هذا الإنسان ، إنني لما قرأت ما استسمعه تذكرت أن هذه العوالم التي نعيش فيها إنما هي شمس في مجرات والمجرات كثيرات ، ووراءها السدم ، ووراء السدم سدم وهكذا إلى ما لا نهاية له كما هو مقرر في علوم الفلك اليوم ، وهذا هو الذي يندى نفوسنا ، إن نفوسنا تود أن تزيد علما ، ولو كان العلم نهاية لكان ذلك عذابا لنفوسنا إذن العلم غذاؤها فإن انتهى العلم فقد القذاء .

قد كنا أيام الصبا وزمن الراهقة نحمل الشمس (الصنارة) لنصطاد السمك ، ونبحث في الطين لنستخرج دود الأرض (قد تقدم رسمه والكلام عليه في سورة قصص فراجع هناك إن شئت) لنضعه فيها فيأكله السمك فيعلق بالشمس فنصطاده فأكله فهذه علومنا ونحن صغار بالنسبة لهذه الدودة ، والفلاحون وجميع السليين غالبا لا يزيدون علما بهذا عن الأطفال .

أقول : فهل كان يدور بخليدي وأنا مراهق ، أو يدور بخليد أكثر عامة للسليين وعلماهم أن القديان الواحد فيه ٥٣ ألف دودة ، وكل هؤلاء إنما هم حرائون يحرقون الأرض ويقدمون لها عمادا ينطى نصف سنتيمتر من سطح الأرض .

والحق أقول : إن الله لما خلق لنا الحيات والعقارب ، وأمثال هذا الدود جعلها في المحسوسات أشبه بالحكايات الخيالية في السموعات ، نسمع حكايات (كليلية ودمنة) وماشا كلها من حكايات (ألف ليله وليله) فنظن أننا بها عالمون ، ومتى عقلنا وعلما أدركنا أنها أعظم قدرا مما كنا نظن ، الجهال والأطفال يسمعون حكاية الحمامة الطوقية ، وقد اجتمعت مع صواحبها في ذلك الكتاب ، وقد أجمعن أمرهن وتخلصن من الشبكة بمساعدة حيوانات أخرى ، فيظنون أن هذه حقائق وأنهم بها عالمون ، ويقصونها على غيرهم وهم لا يقولون ، ولكن الحكماء والعلماء يستنتجون منها نتائج وهم يفكرون ، هكذا المقارب لا يعرف منها الناس إلا أنها مؤذية ، وقد علمت فيها تقدم في غير هذا المكان أنها آكلات لحشرات ضارات بأمتعتنا ، وهكذا الحيات لا يعرف الناس إلا أنها سامات ، ولكنهم في الوقت نفسه يرون رجلا وهو الشموذ الذي يسمونه (الخاوي) تأبط منها كثيرا فلا تلدغه ، وهو قد حمل معه الحيات التي لاسم لها وهي تملأ الخائقين والناس لا يعلمون ، وهكذا دودة الأرض التي كلامنا فيها يراها الناس مزودة محقورة إذا هي عونهم وفوتهم وحارثهم ومسد أرضهم .

يا سبحان الله وبأسعدائه ، يقول الله : « وجعلنا الليل لباسا ، وجعلنا النهار معاشا ، وبينا فوقكم سباعا شدادا ، وجعلنا سراجا وهاجا » ، فهذا السراج الوهاج إذا أظهره لنا كان المعاش وإذا غيبه عنا كان اللباس ، ولكن هذه الدودة التي نحن بصددها ، ومثلها النور والأسود والفهود وجميع السباع كالثدييات قد عكس الأمر عليها ، فالليل معاشها والنهار لباسها ، فالسبع الشداد ياربنا جعلت فيها سراجك الوهاج فأقمت به طائفة وأبعت أخرى إذا أضاء وإذا أظلم ، فإذا أضاء أمرت أنواع الصافير مثل أبي ذيل أبيض وأبي ذيل أحمر وأبي ربة بيضاء ، ومثل اللقي في الصفصاف ، ومثل اللقي الأصفر واللقي الأحمر ، وأبي ذيل طويل وأبي فصادة وأبي ذور أحمر وآكل الثباب والقنبرة الأفريقية والوروار بأنواعه والمهدهد والعنز وأبي قردان والسكروان والزقزاق للطوق والزقزاق الشامي ، والزقزاق البلدي مما شرحت هناك في أول سورة يوسف ، فهؤلاء أنت يا الله تأمرهم إذا أطلعت شمسك أن يأكلن الحشرات الآكلات لزعلنا ، ويحفظن بلادنا ، ويكون عوننا على حياتنا وحيواننا كما أن الليل إذا جن تبتث دود الأرض فيطوف حقولنا ويلتقط الورق منها ويبعث في هناه وسعادته ، ويغيب في جوفها إذا طلع النهار ، فالليل والنهار آيتان مدهشتان فلاندرى أيهما تفضل وقد عرفنا

هذا العلم أن الماتوبة كاذبون إذ يقولون بالهين : إله الخير ، وإله الشر ، وأن إله الشر هو الذي خلق الليل
فما هو ذا الليل فيه يتمتع الهدود النافع لمزارعنا المنمي لحاصلاتنا .

باركت بأفك وتضاليت ، وأريتنا رختك الواسعة ، وعرفتنا أننا غافلون جاهلون ، ندرس القليل ،
ونجهل الكثير ، وأصبحت اليوم أقول : لو أنني درست بمد موني جميع المخرات وجميع السدم التي كشفت
حديثا واطلعت على جميع سكانها ، وخبرت مواطن أحوالهم ، وأسرار حياتهم لقلت إنني لأزال كما أنا الآن أيضا
أجهل الكثير كما جهل اليوم عموم المسلمين إلا النادر منهم عجائب دودة الأرض التي ذكرناها ، ومنافع الطيور
التي بيناها ، وإحساننا بالجهل بحسنا على العلم ، والعلم غذاء أرواحنا ، فلنكن باحثين في الدنيا لترقى الأمم
وذلك يجعلنا من المجددين في العلم بعد الموت لتتغذى به أرواحنا ، وكما ازددنا علما قربنا من ربنا ، وربنا هو
الجليل الحكيم الذي منه ينزل كل جمال وكل حكمة .

ألا فليسمع المسلمون أني أكتب هذا وأنا أحس بسعادة تفوق كل سعادة أرضية ، ولقد جربت كما جربت
جميع الحيوانات والناس أنواع السعادات والذات فوجدت اللذة العلمية تطورا لاصلة بينه وبين تلك الأطوار ،
إن ارتباط الشمس وضوئها ، ودود الأرض وحشراتنا ، ومزارعها وطيورها ، وآكلها وما كولهما أشبه
برواية تفوق كل الروايات . إن الناس في أحوالهم العادية يذهبون إلى محال الصور المتحركة ودور الخيال
التي تمثل فيها الروايات الفرامية ويفرحون بذلك العلم ويقروون الروايات في (ألف ليله ووليه) وهم فرحون
بتلك الصور الخالية ، إن سعادة الناس بالعلم تابعة لمقداره ، فهي في الخيالات خيالية ، وفي الحقائق حقيقية
وهل يستوي الرجلان : رجل عرف هذه الحقائق فرأى تمثيلا حقيقيا ، وامترجت في نفسه مشرقات الكواكب
ومنيرات الشمس مع الطيور والطق والدود ، وانكشف لنفسه بدائع المناظر المعبية ، يرى ستارا ينزل
فيكون الظلام ، فهناك تمثل الروايات الليلية التي أسلفناها ، فإذا أشرقت الغزاة أسدلت الستار على مناظر
الليل فغابت تلك المناظر الكوكبية في دياجى الظلمات ، وهجعت الطيور الليلية واليوم في أعشاشها ،
والأسود في آجامها ، ودود الأرض في باطنها ، وأخذت الشمس تظهر الألوان ، والبحار والأشجار ،
والمسالك والممالك .

وسيكون من قراء هذا التفسير من تكون الأرض لهم جنات ونعيم وإن شاركوا الناس في آراهم
وأفراحهم ، ولكنهم يرون في نفوسهم مالا يراه الأكثرون ، وهؤلاء إذا أخذوا يصلون وهم يسلمون على
أنفسهم في التشهد ، وعلى عباد الله الصالحين وعلى الأنبياء والمرسلين ، إذ يقولون : السلام عليك أيها النبي
النع يفهمون معاني تشبه ما ذكرناه الآن ، إذ هم بعد أن درسوا الوجود على هذه الشريطة وأدركوا أنه عالم
جميل وبديع ومتسق ، وبين أعلاه وأدناه نسب بديعة بحيث يرون الرباط محكما بين دودة الأرض وعلقها ،
وبين الطيور والنبات والإنسان والشمس ، هكذا هنا يرون المناسبة والرباط بين المصلى وبين عباد الله
الصالحين والأنبياء والمرسلين ، وأن هذا الوجود مبنى على هذا ، فالصلاة نوع من العلم والتذكرة ، فالمسلم
يذكر نبيه صلى الله عليه وسلم وجميع الصالحين من الأمم القديمة والحديثة والآتية بعدنا ليعلم من الآن أن ربنا
سيجمع جميع الصالحين على مقتضى درجاتهم بعد مفارقة الأجسام أولا وبعد الحشر : فهو من الآن يتعرف
بهم ، ومنهم الملائكة الذين يذكرون في جميع الديانات ، فالصلاة تذكرة حتى إذا فارقتنا أجسامنا وقابلنا
الأرواح من جميع الأمم ومن الملائكة لم نكن في حال شديدة الغرابة علينا ، والعلم الآن يساعدنا على الرقى
هناك ، لأن عالمنا الحسى قد ضرب مثلا لعالم الروحي ، فهنا رباط وثيق عجيب بين أحسن الأشياء وأرضها ،
وهناك نفس هذا الرباط بين الأخرس والأرفع ، وترى أضعف المؤمنين يقول : «السلام عليك أيها النبي»

كما ترى دود الأرض بين ظهرها نينا ذاعلاقة بالشمس إذ يطلع ليلاً فيأكل الورق ، والورق مانما إلا بسبب ضوء الشمس الذي أشرق عليه فامتص الكربون من الهواء ، ولولا ذلك الضوء مع (الكلوروفيل) ملون الورق لم يكن ذلك الامتصاص فلم يكن نبات ، ولم تسكن دودة تمثل في دياجى الظلمات في مسرح الوجود هذه الفصول التي شرحناها . فأعلى الأرواح له صلات بأدناها كما أن للشمس صلة بأذى الحيوان وهو دود الأرض ، وهذا كله يظهر في التشهد في صلاتنا الإسلامية .

ولا جرم أن هذه المعارف التي شرحت في هذا المقام تجعل نفوسنا مشوقة إلى إسماع جميع الناس ، لأننا إذا عرفنا أن للشمس صلة بالدودة أفلا يكون لنا صلة بنوع الإنسان ، فياحسرة على الأمم الإسلامية الحالية ، اللهم إنك أنت تعلم أن الجهل فرقههم ، والبدع طمست على بصائر الكثيرين منهم ، ولكن أن أوان ارتقايمهم وإسماع أمهم ، والله هو الولي الحميد ، والحمد لله رب العالمين . كتب في ضحى يوم الثلاثاء ٢١ يناير سنة ١٩٣٠ .

مسامرة بين وبين أحد العلماء الفضلاء

في آيات : وفي السماء رزقكم وما توعدون ، فو رب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنتم تنطقون مع آية : «ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون . قفروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين»

حضر صاحبى العالم الذى اعتاد الحديث معى في هذا التفسير يوم الاثنين صباحا ١٤ من شهر المحرم الحرام سنة ١٣٥١ هـ — ٣٠ مايو سنة ١٩٣٢ م فأخذ يجاذبنى أطراف الحديث في هذه الآيات ، ومما قاله لى .

لقد رأيتك في آيات القرآن المتشابهة المائى بحسبظواهرها تذكر في كل منها من المعانى مالميس في غيرها فيكون ذلك مسرة وتذكرة للناس ، وعبرة للمعتبرين ، وانشاطا للقارئين ، فإذا تقول في قوله تعالى هنا : «ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون» وما هذا القرار إلى الله الذى ذكر عقبا ، وما هذا الإنذار؟ قلت : لقد تقدم الكلام على الذكر والإناث من أنواع النبات في سورة الأنعام ، وفي سورة طه ، وفي سورة (الشعراء) وغيرها . فقال : ولكنى في سؤالى لك قد صرحت بأنك دائما تنوع الكلام في الآيات المتشابهات ، نعم قد تقدم في (سورة الأنعام) أن علماء النبات لم يجدوا طريقا لتقسيمه إلا بتسريح الزهر ، وتبيان ذكرانه من أناته ، ولكن المقام يعوزه إباح أم . قلت : لقد اطلمت على ما ذكره (بول بيرت) العالم الطبيعى الفرنسى ، وهو أستاذ فى (السربون) ووزير المعارف العمومية فى كتابه المترجم إلى اللغة الانجليزية . قال فى صفحة ٩٨ ما ترجمته :

«سأشرع فى الكلام الآن على تقسيم النبات إلى فصائله ، ولكن هذا ربما كان أشد تعقيدا وأكثر صعوبة من تقسيم الحيوان ، ألا ترى رعاك الله أن فصائل الحيوان وأنواعه يمتاز بعضها عن بعض بسهولة ، ولا كذلك النبات ، فإن أنواعه وفصائله متشابهة ، إن الناس يعرفون بكل سهولة الفرق بين الحشرات والطيور ، بل يعرفون أيضا الفرق بين الذباب وحشرة أبى دقيق اللذين هما من نوع الحشرات ، ولكنهم لا يتسنى لهم بسهولة أن يرسموا خطوطا فاصلة ما بين فصائل المملكة النباتية وأنواعها ، إن ذلك على الناس عسير» .

ثم نادى أحد التلاميذ قائلا : (يا بول) لو أننى كلفتك بأن تقسم النبات إلى فصائل فماذا أنت صانع؟

(ج) كيف يصب ياسيدي هذا؟ إنه لأمر سهل ، أنا أقسمه إلى ثلاثة أنواع : شجرات ، وشجيرات وأنجم : أى وهو مالا ساق له ، كالقمح ، والذرة ، والشعير .

(س) حسن ، إن هذا الرأى يفلح على كثير من المفكرين ، ولكن انظر هل تعرف كم من العقبات فى طريق تسميتك هذا ، وكم من المتشابهات فيه التى تورث العقول حيرة وارتيابا ، وتضيق الزمان على المفكرين ، فأرجو أن تبين لى الحدود الفاصلة بين هذه الأنواع الثلاثة ، فبغرنى إلى أى مدى تنهى أصناف الشجيرات ؟ ومن أين تبتدى الأشجار ؟ ومتى نطلق على النبات أنه شجيرة بدل أن نطلق عليه أنه نجم ، خبرنى يا بنى : أنبات البندق من الشجرات أم من الشجيرات ؟ وهل مايقال له (دفرز) باللغة الانجليزية (وهو نبات شوكى دائما أخضر وله زهر أصفر) أمن الشجيرات هو أم من الأنجم ؟ اللهم إن الفاصل بين هذه الأنواع والفصائل عسير غير يسير . ثم أشار إلى تنفيذ آخر فقال :

(س) مالى تى تقوله يا جورج ؟

(ج) ياسيدي أنا أقسم النبات إلى نبات سنوى ، وإلى نبات ذى سنتين ، وإلى نبات ذى سنين كثيرة بسبب جذوره فقط ، وإلى نبات ذى سنين كثيرة حقيقية .

(س) هذه فكرة أجمل وأتم ، ولكن يرد عليها اعتراض ، فانظروا : أليست مظاهر للراعى تشابه مظاهر مزارع الجبوب ، ولكن الحب سنوى أما الحشائش فلإنها تعيش سنين فى الأرض . إن الحشائش والحب إذن يدخلان تحت نوعين مختلفين من أنواع النبات ، فهما من جهة ذوات حب ، ومن جهة أخرى هذا سنوى وهذا ذو سنين كثيرة ، بل هناك ماهو فوق ذلك ، فهذا نبات (الشوفان) وقد تقدم الكلام عليه فى هذا التفسير ، فهذا إذا زرعتاه صار سنويا ، ولكنه إذا نبت بنفسه بدون زرع كالتى ينبت فى جوانب الطرق فإنه يعيش سنين كثيرة . وأيضا هاهنا نوعان من نبات ترجمته بالانجليزية (كأس الزبدة) . هأنا إذا وضعت ماختلف منه بعضه بجانب بعض ، فها هو ذا بعضه سنوى والآخر ذو سنين كثيرة ويمس إزالته من الأرض وإهلاكه ، إذن هذا غير موافق للتقسيم حقه ، ولا قائم بما توخينا :

أهمية الزهر فى تحقيق تقسيم النبات

هاهنا أخذ المؤلف يشرح هذا التقسيم النباتى بواسطة درس الزهرة النباتية . جل الله . جل الله . يا عجبنا يا ربنا ! يعيش الناس فى الدنيا ويموتون وينظرون ياربنا جمال زهرك ، ويشمون روائحهم ، ويتهادونهم ويغرحون ويمرحون ، وهم ساهون لاهون .

يا سبحان الله : فى الأرض أزهار ، وفى السماء شمس وأقمار ونجوم وسدم ومجرات ، هناك المجموعة الشمسية ، فالشمس تحيط بها السيارات ، ولها أبعاد خاصة لولاها لاختل النظام وتقدم موضعا فى هذا التفسير .

الله أكبر : منه الجمال وهو مفيضه على الأرض وعلى الناس ، العوالم التى تعيش فيها كتاب مفتوح لا ينقل ، صفحة منه تظهر لنا نهارا ، وأخرى تظهر ليلا ، فصفحة النهار تظهر بواسطة ضوء الشمس ، وصفحة الليل تظهر بواسطة النجوم ، فهذه النجوم بينها وبين زهر النبات مناسبة ، وأى مناسبة هذه ؟ إنها لمشابهة قويع ، ألم تر أن الزهرة الواحدة فيها أوراق خضر يسمونها الكأس ، وفى داخلها أوراق ملونة يسمونها (تويج) وفى داخل هذه أعضاء الذكور التى فيها اللقح ، ووراء هذه أعضاء الإناث التى تلتقى هذا الطلع ، وينزل فيها إلى محل النمو ما يشبه الجنين فى الحيوان فيكون الحب أو الثمر ، وفى داخل الثمر يكون النوى ، فهأنا ملكة ، ولكن الأحكام والإبداع فيها يدعش العقول العظيمة كما يدعشها نظام المجرات ونظام

المجموعة الشمسية ، إذ يرى الإنسان السيارات جاريات بنظام حول الشمس ، وهن يرسلن الأشعة لمنظمة أهل الأرض هكذا هذه الزهرة الصغيرة منظمة محكمة مبدعة ، وهذا الإبداع كله لأجل حصول الثمرات النافعات للإنسان والحيوان ، وأعظم مساعد على تغذية النبات ضوء الشمس الآتي إلينا من بعد شاسع جدا يبلغ سير قلة المدفع ١٢ سنة ، وسير القطار السريع نحو ٣٥٠ سنة ، ضوء الشمس بهجم على الورقات من منافذها فيساعد على التغذية فيكون النمو فالثمرات والحبوب ، وينتج من الزهرات وثمراتها منافع تناسبها كما ينتج من الشمس والكواكب منافع تناسبها ، وهناك ضوء وجمال ، وهنا بهجة وجمال ، وصحيفة الليل بهجة جميلة ، وصحيفة النهار بديعة بهية .

رباه : هذا كتابك الذى صنعه أنت ، وأريته لنا ، وقلت أنظروا فنظرنا فأدهشنا صنعك . تقول لنا «ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون» نذكرنا فوجدنا أن علماء النبات حاروا في قسم النبات أيقسم بأنه شجر وشجيرات وأنجم . وسترى صور هذه الثلاث في سورة النبأ إن شاء الله

ولكن هذا التقسيم غير مجد ولا نافع ولا محدد ، أم يقسمونه باعتبار أنه سنوى ، أو ذو سنتين ، أو ذو سنين كثيرة ، ولكن هذا التقسيم أيضا غير مجد ، لأننا نرى البرسيم في بلادنا المصرية منه ما هو سنوى وهو البرسيم العناب ، ومنه ما يبقى سنين كثيرة وهو البرسيم الحجازى ، وهو الآن مزروع في حقولنا جهة (الرج) فهذا أمثل به ليتضح لأهل الشرق الأدنى فوق أمثلة المؤلف ، فإذا يصنمون إذن ؟ رجوا إلى الزهرة والثمرة والحبة ، فدراسة هذه هي التى بها قسم النبات إلى فصائل بحيث تجتمع كل طائفة منه تحت شكل من أشكال الزهرة ، ولا تختلف فيه إلا قليلا ، وبهذا انحل الاشكال عند أهل الأرض ، انحل الإشكال بفعل الله عز وجل في نظام الزهرة وهو نظام ثابت جميل .

ثبت نظام الكواكب والمجموعة الشمسية وبثباتها انحل إشكال ما على الأرض من سير السفن في البحار لأنها لا تعتمد إلا على النجوم الثوابت والسيارات ، ثباتها في السماء وحسن نظامها ، واتساقها في مسيرها هو الذى على مقتضاه سارت السفن ، السفن في بحر الظلمات ، وفي بحر الهند وجميع الاقيانوسات إن لم تهدها النجوم ويلاحظها الريان ضلت سواء السبيل وهلكت ، لولا ثبات النجوم في السماء لصاعت معالم فن المساحة في الأرض ، فمساحة الأرض الواسعة ووضع حدودها يقتضى ملاحظة الكواكب ، وهذا لا يعرفه إلا أكبر علماء المساحة .

لولا ثبات النظام السماوى ونجومه لم يثبت للكيال المصرى مثلا ولا اليزان ولا القياس ، ألم تر إلى ما تقدم في سورة يونس وأن العلم أثبت أن هناك ارتباطا بين مساحات الهرم بالجيزة وبين بعد الشمس ومدارسيرها وأن أبعاد الهرم أساس للأردب والكيالة الخ وللقدان والقبراط الخ وللذراع المعارى والبلدى الخ وللقطار والرطل والأوقية الخ . كل هذا موضع في (سورة يونس) فارجع إليه أيها الدكي إن شئت . هذا فعل الله عز وجل بالكواكب في أرضنا «فبارك الله أحسن الخالقين» .

الزهرة تنوب عن النجوم في بعض آثارها

انظر إلى الزهرات في النباتات ، إن كل زهرة أشبه بمجموعة شمسية ، لأن نظامها متزن كما تقدم قريبا . الله أكبر : كأس وتويج وأعضاء ذكور وأعضاء إناث وروائح ومادة عسلية ونحلات وحشرات أخرى تندو وتروح وهناك يكون الثمر وهناك تكون الحياة ، فالزهرة في نظامها الدقيق البديع قائمات مقام المجموعات الشمسية بهجة سارة للناظرين . وبهذا الثبات وهذا النظام قسم النبات إلى أنواع وفصائل ، فالتقسيم هنا تابع لثبات نظام الزهرات كما كانت الكواكب والوزن والمساحات وسير السفن في البحر تابعات لثبات

السكواكب ، وكما كانت الساعات والدقائق ، وحساب الناس في المعاملات تأمات لسير الشمس الصادق للثقل ، فلي الاتقان وحسن النظام يكون ثبات الأعمال ، فهانها في الزهرة ثبت نظام تقسيم النبات لحسن اتقانها بخلاف ظواهر النبات من حيث إنه شجيرات أو شجيرات ، ومن حيث إنه سنوي أو غيره .

جملت النجوم ، وجملت الزهرات ، والجمال أس السمادات ، فلترجع إلى ما وراء النجوم ليلا ، وإلى ما وراء الزهرات نهارا ، ولنتظر بقولنا فترى تلك العقول تلمح وراء هذا الجمال من هو أجمل وهو الحكيم وهو البديع وهناك تطمئن وتحس بالسعادة في الحياة ، ثم ترجع ثانيا هذه النفوس فتدرس أقسام هذه الزهرات لماذا ترى ؟ ترى أن من الزهر ما يكون الذكر والأنثى منه في زهرة واحدة كزهرة القطن ، ومنه ما يكون أحدهما في زهرة والآخر في زهرة أخرى في نبات واحد كما يرى في الدرة ، فالذكر أعلى ، والأنثى في وسط العود ، ومن الزهرات ما يكون زهرة الذكر في نبات وزهرة الأنثى في نبات آخر كالنخل ، وهذا القسم إن تباعدت الديار بحيث صارت الذكور في إقليم والأنثى في إقليم آخر فلا تمر لهؤلاء ولا لهؤلاء ، وذلك كشجر الصنصاف فإن الصنصاف الذي في بلاد آسيا كله ذكور ، والصنصاف الذي في أوروبا كله إناث ، فلا تمر لهذا ولا لذلك ، فلو اقترب هؤلاء من هؤلاء لكان للصنصاف ثمرات .

وما يدهشنا أن ترى ذكور الصنصاف في الشرق دلالة على أن الشرق هو الذي يجب أن يلقح الغرب ، لأن الغرب يأخذ بالظواهر ، والشرق يبحث عن البواطن ، ولذلك كانت البيانات من الشرق فاستمرت الغرب ، إذن الشرق لا بد منه لإصلاح عقول الغرب ، وهذه الإنسانية لن تستقيم ما لم يظهر في الشرق ناخبون يصلحون الأمم ، ذلك مأخوذ من الإشارة التي فهمناها من نظام شجر الصنصاف ، فهو في الشرق ذكر وفي الغرب أنثى ، وهما الآن عقبان . الله أكبر ، إن نظام الزهر كما قدمنا به كان تقسيم النبات .

الفصيلة الأولى من فصائل النبات

ومن أهم أقسام النبات الفصيلة الحضرية ، سميت بذلك لأن كثيرا من هذه الفصيلة يطبخ لأكله ، ومن هذه الفصيلة : الفول ، واللوييا ، والبسلة (الجلبان^(١)) شجيرة شوكية ذات ورق دائم الخضرة وزهر أصفر ، والمدس ، وشجر السنط ، وشجرة تسمى المكسنة والبرسيم وغيرها ، فهذه النباتات كلها كأسها مكون من خمسة أوراق ، والتوزيع كذلك ، وفي داخلها عشرة ذكور : واحد مرتفع إلى أعلى ، وتسعة متحدة عند القاعدة تكون أنبوبة واحدة ، ثم ينتج اللقاح في آخر الأمر قرونا ، وهذه القرون في داخلها حب ، وكل حبة فلقتان .

كل نبات إما مخرج ذا فلقة واحدة وإما مخرج ذا فلقتين

الله أكبر : إن جميع النبات لن يخرج عن إحدى حالتين : إما أن ينتج ماهو ذو فلقتين ، وإما أن ينتج ماهو ذو فلقة واحدة ؟ فما كان مخرجا ذا فلقتين فإن ساقه تكون مخروطية ، وما كان مخرجا ذا فلقة واحدة فإن ساقه تكون أسطوانية ، أليس هذا من العجب ! أليس من العجب أن ترى النخل أسطوانى الشكل ، بخلاف المدس والفول واللوييا وكل ما كان ثمره ذا فلقتين ، فليس أعلى عود المدس واللوييا كأسفله ، وهكذا الشوك والسنط والبرسيم ، فهذه كلها ترى أعلاها أدق من أسفلها ، أما النخل مثلا فأعلاه كأسفله لماذا ذلك ؟ لأن النواة في الثمرة غير منقسمة قسامين كما انقسمت حبة الفول وحبة اللوييا وقرظ السنط .

أليس هذا أيها الذي هو السر الذي قدمته من أن جمال الزهر والحب والنوى والفاكهة يشبه الثبات والجمال في المجموعات الشمسية ، وأن الثبات في العالم العلوي ظهر أثره في قطراتنا وساعاتنا المنظمتة وسفنا .

(١) بضم الجيم وتشديد اللام وفتح الباء .

كما ظهر أثر نبات الحب والفاكهة والزهورات الجميلات في تنظيم فصائل النبات ، ومن أروعها وأبدعها نظام كل ساق لكل نبات لأن ذلك النظام يتبع الحبة ، فإن كانت ذات فلقين كان نظام ذلك الساق مخروطيا ، وإن كانت ذات فلقة كان نظام ذلك الساق أسطوانيا ، نظام في السماء أنتج ثباتا في الأرض ، ونظام في الأزهار وما والاها أثبت نظاما في تركيب النبات .

تذكرة

إن ذكر القلقة والعلقين جاء هنا تبعا للكلام على الفصيلة الأولى الخضرية التي يطبخ بعض أفرادها ، فلنرجع الآن إلى فصائل النبات ولنذكر الفصيلة الثانية وهي الفصيلة الوردية ، ويدخل فيها الورد والكثيرى واللوز والكريز والعليق (والبريس) الذي يشبه ثمرة نمر التوت والتفاح والبرقوق وهكذا ، فهذه كلها منشابهات من حيث نظام زهرها ، فالكأس في الورد البري خمسن والتويج خمس ، فأما أعضاء الذكور فهي كثيرة جدا ، وبقية المذكورات معه ونحوها مثله تماما ، فسحبت كلها باسم الفصيلة الوردية ، وهناك فصائل أخرى كالقصبية الزنبقية الخ .

فهذه الفصائل إنما رتبنا ونظمنا على مقتضى الأزهار والتار والحبوب ، وكيف كان الزهر منظم الكأس والتويج وأعضاء التناسل ، وهذا النظام يكون متجدا في كل فصيلة من فصائل النبات .

الله أكبر : هاهنا هاهنا ظهر سر قوله تعالى : «ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون» . الله أكبر : الله أكبر بنظام الذكور والإناث في الأزهار عرف الناس فصائل النبات ، وبنظام الذكور والإناث في نوع الإنسان ألفت أنا «طنطاوى جوهرى كتاب» (ابن الإنسان) لنظام هذه الأمم الأرضية على مقتضى نظام الله في وضعه عوطف أصناف الناس واستعدادهم كما أنه وضع بنفسه نظام الذكور والإناث .

الله أكبر : إذن آية : «ومن كل شيء خلقنا زوجين» فيها نبات ، نظام النبات ، وثبات نظام الانسان في السياسة . أما النبات فقد انتظم وعرف ، وأما نظام الجمعية الانسانية ، فإنه لا يزال في اختباط واختلاط حتى يظهر في بلاد الشرق رجال يعلمون أوروبا بالتخطيط الجشعة التي يعوزها عقول من الشرق تدبر أمرها في السياسة كما دبرت أمر الدين ، والله هو الولي الحميد .

فما سمع ذلك صاحبي قال : حيا الله العلم ، وحيا الله الحكمة ، إن هذا لعجب ! وحكمة ونظام ، كيف تكون آية : «ومن كل شيء خلقنا زوجين» يعوزها نظام الأزهار ، وتقسيم فصائل النبات حتى تفهم ، ويعوزها نظام الأمم وعوطفها وقواها المختلفة ، وكيف حملتنا هذه الآية على أن نسيح في هذه العوالم فندرسها وكيف كانت هذه الأزهار التي تصيغها الآية لها ارتباط بالكواكب العليا من حيث أن ضوء الشمس يساعد على نمو أشجارها فتزدهى وتثمر ، وكيف نرى الله في نفس السورة : أي سورة الداريات بقول : «وفي السماء رزقكم وما توعدون» ويقول : «والسما بينناها بأيدينا وإنا لموسعون» فهو نفسه كما ربط هذه الأزهار بالعوالم العلوية جعل الكلام على العلويات مرتبطا بالزوجين الذكر والأنثى ، فجعل كلامه كقوله ، فقول الصانع راجع لعمله . ثم قال : وهاهنا قد عرضت لي تذكرة ثان :

التذكرة الأولى في أنحاء العقول الإسلامية قديما

إني ليدهننى هذه الفارقة ، فبينما القرآن يوجه العقول إلى النظام الجميل البديع ، وهذا النظام لا يحل إلا بدراسة الزهورات وأنواع النبات والجمال البديع في السموات والأرض إذا بشعراء الإسلام لا يشتنون إلا بما يثير الشهوات ، ويظن هؤلاء الغافلون النائمون الجاهلون أنهم سيروضون عقولهم لبلاغة القرآن فوالأسفاه فهل بلاغة القرآن وصديق القرآن وإبداع القرآن لا يتم إلا بالنفى بما يثير الشهوات .

أمم والله نائمة ، هام شيوخها وهام شبانها بما ينم العقول ويضيع الوقت ، ويرجع بالإنسان إلى الحال
البيمية ، فالقرآن في ناحية والمسلمون في ناحية .

لقد تقدم في هذا التفسير عند آية : «والشعراء يتبعهم الغاؤون» في سورة الشعراء ، كيف حكم العلماء
في أوروبا بأن ضياع بلاد الأندلس إنما نشأ من إكباب العلماء على الشعر وترك العقول فارغة ، والأسباب
في نفس الوقت يفكرون في تدمير المسلمين :

إن المسلمين في المستقبل غير هؤلاء السابقين في القرون المتأخرة ، هم سيكونون كالصدر الأول ومخرج
جيل لانظير له ، ويكونون تلاميذ الصحابة والتابعين الذين يعرفون من أين تؤكل الكتف .

فيا ليت شعري : أهذا الذي نراه من الجمال الرائع والإبداع في نظام هذه العوالم الجميلة ، أم مايتقى به
أطفال الرجال ولا يتعدونه في القرون المتأخرة الإسلامية ، فيقرءون موشحة الوزير أبي عبد الله بن الخطيب
شاعر الأندلس والمغرب لعصره إذ يقول :

جادك الغيث إذا الغيث همي	يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حلما	في السكري أوخلة الخنلس
إذ يقول الدهر أسباب المني	تنقل الخطو على مآرسم
زمرنا بين فرادى وثني	مثل مايدعو الوفود الموسم
والحيا قد جلل الروض سنا	فسنا الأزهار فيه تبسم
وروى النعمان عن ماء السما	كيف يروي مالك عن أنس
فكساه الحسن ثوبا معلا	يزدهى منه بأبهى ملابس
في ليل كنت سر الهوى	بالدجى لولا شموس القدر
مال نجم السكاس فيها وهوى	مستقيم السير سعد الأثر
وطر مافيه من عيب سوى	أنه مر كلمح البصر
حين لد النوم منا أو كا	هجم الصبح نجوم الحرس
غارت الشهب بنا أو ربما	أثرت فينا عيون الترجس
أى شيء لا مريء قد خلصا	فيكون الروض قد كئن فيه
تهب الأزهار فيه القرصا	أمنت من مكروه ماتقيه
فإذا الماء تناجى والحصا	وخلا كل خليل بأخيه
تبصر الورد غيورا بدما	يكنسى من غيظه مايبكتسى
وترى الآس لييا فهما	يسرقن الدمع بأدنى فرس
بأهيل الحمى من وادى العضا	وبقاي مسكن أتم به
ضاق عن وجدى بكرحب القضا	لا أبالي شرقه من غربه
فأعيدوا عهد أنس قد مضى	تنقدوا عائذكم من كربه
واتقوا الله وأحيوا مفرما	يتلاشى نفسا في نفس
حين القلب عليكم كرما	أفترضون خراب الحبس
وبقاي فيكمو مقرب	بأحاديث المني وهو بيد
قمرنا بطلع منه المغرب	شقوة الملقى به وهو سعيد

قد تساوى محسن أو مذنب في هواه بين وعد ووعد
 ساحر القيلة معسول المني جال في النفس مجال النفس
 سد السهم رمي وري بفؤادي نهبه للفترس
 إن يكن جار وخاب الأمل وفؤاد الصب بالشوق يذوب
 فهو للنفس حبيب أول ليس في الحب محبوب ذنوب
 * أمره متمل بمثل في ضلوع قد براها وقلوب
 حكم اللحظ بها فاحتكا لم يراقب في ضفاف الأنس
 يصف الظلوم بمن ظلا ويحازي البر منها والنس
 ما قلبي كلما هبت صبا عاده عيد من الشوق جديد
 كأن في اللوح له مكتبا قوله إن عذابي لشديد
 جلب المسم له والوصبا فهو للأشجان في جهد جهيد
 لا عج في أضلعي قد أضرمنا فهي نار في هشيم اليبس
 لم تدع من مهجتي إلا الدما كبقاء الصبح بعد الفس
 سلمى يا نفس في حكم القضاء واعمري الوقت رجعي ومتاب
 واتركي ذكرى زمان قد مضى بين عتي قد تقضت وعتاب
 واصرفي القول إلى المولى الرضى ملهم التوفيق في أم الكتاب
 الكرم النهي وللتنمي أسد السرح وبدن المجلس
 ينزل النصر عليه مثل ما ينزل الوحي بروح القدس

فإذا كان الوزير هذا ديدنه يضيع ذكاه في أمثال هذا النظم ، وليس لهذه النجوم ، ولا لهذه الأزهار
 في نظره إلا أنها ضرب أمثال للحبيب وابتسامته ، وأمة هؤلاء حكمها لا بد من أن يمتورها الانحلال .
 قلت هذا حق أيها الحبيب ، إن نسج هؤلاء الذين لا يعرفون من الزهر والكواكب إلا ظواهرها ،
 وذكرى الحبيب بها إلى العارفين بعجائب الكواكب وبواطن الزهر كنسبة لون الكوكب والزهر ونحوها
 إلى حقائق العوالم السماوية ونظامها وتركيب الزهرات وإبداعها ، فالأول كطفل لثاني ، وهؤلاء الأطفال هم
 أكثر شعراء الإسلام الذين يعيشون ويموتون ولا هم يذكرون « والشعراء يتبعهم الغاؤون . ألم تر أنهم في
 كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون » وترى للتعللين في البيمار المريية على هذا للنوال في زماننا
 إلا قليلا منهم وهم العقلاء .

وهذا الكتاب الذي نقلنا عنه نظام الأزهار لم يؤلفه إلا وزير المعارف في فرنسا ، فالوزير الفرنسي قبله
 معلق بنظام النبات والنجوم وغيرها ، والوزير الأندلسي مثلا ليس له من العلم إلا الحظ الأدنى وهو تحويل
 العوالم الجلية إلى مسألة التناسل التي تنقض إذا حل الكبر واشتعل الرأس شيئا ، ثم ينظر الإنسان فلا يجد
 في عقله متسعا للحكمة وهو خال من كل فضيلة وكال .

فقال صاحبي : هذه هي التذكرة الأولى ، أما التذكرة الثانية فلإن حينما سألتك في أول الأمر عن أمر
 الأزهار ومأمعها أجبته بجواب هو في أسلوبه أشبه شيء بما جاء فيها تقدم في الأجزاء السابقة في (سورة
 الزمر) من حيث الكلام على انكسار الضوء فإن الأسلوب هناك جميل كالأسلوب هنا ، والذي ذكرني به
 تليذ في للدرسة الحديثة في السنة الرابعة ، فإنه لما قرأ انكسار الضوء هناك اغرورقت عيناه بالدموع وقال

هذا الأسلوب أسهل وأجمل مما نعطاه في للدرسة ، لأنه بهيئة سؤال وجواب ، فلما سمعت الأسلوب هنا في مسألة الأرتار وجدتها تطابق ذلك الأسلوب ، فقلت حياك الله إن المؤلف واحد .

فقال صاحبي : إذن أرجو أن تفصل الكلام على عالم السماء المذكور هنا في هذه السورة بهذا الأسلوب كما فصلته على أزهار النبات في آية : « ومن كل شيء خلقنا زوجين » ! فقلت أيها الأخ الذكي : إن اللقاه هنا قد طال جدا فسأوضح الكلام بهذا الأسلوب في (سورة الملك) على عالم السموات وعلى الأنوار ، وكيف نرى الضوء النازل من الشمس النافذ في حجراتنا يصطبغ معه بحرارة ثم نحكم عقولنا بأن ذلك النور يجري على خط مستقيم ، ونحكم علومنا بأن سرعته في الثانية تبلغ نحو ١٨٥ ألف ميل ، ثم نضع أيدينا على ذلك النور فنحكم بالحرارة المصطبغة معه ، فهأجنا حكمان : حكمان باستقامة الخط بالبر ، وبالحرارة بالفلس ، ثم ننقل من هذا إلى أن الصور الواصلة من الخارج إلى حجراتنا معكوسة مقلوبة لتقاطع الأشعة الداخلة في حجراتنا وهكذا ندخل في أودية من العلم فيها أرهار وأثمار وحدائق وجنات ، فترى أن هذا الضوء إذا عارضناه بمراءاتنا فإنها تمكسه على الحائط المقابل للضوء الداخل ، وتكون تلك الأنوار الساطعات على ذلك الحائط تابعة في ثباتها وذبذبتها إلى للراءة التي بأيدينا ، وتكون هناك زاوية للسقوط وأخرى للانعكاس بينهما ارتباط وثيق .

أليس هذا من أعجب العجيب : إن ما تقدم يفسر وضع صورنا في المرآة أمانا ، فيعيننا موضوع في المرآة جهة اليسار والعكس بالعكس ، وهكذا ترى البعد الواقع بيننا وبين المرآة بمثابة البعد الذي بين المرآة والصورة المصورة كما حصل لما عرضنا المرآة للضوء وانعكس منها على الحائط المقابل ، وهكذا ننقل من المرآة الزجاجية إلى الماء فنجد مرآة أيضاً ، وهو يتقبل الصور المحيطة به كما يتقبلها الزجاج ، وهناك ترى أن النور متى دخل في الماء حصل له ما يسمى بانكسار الضوء الذي وضعناه في (سورة الزمر) كما ذكرنا به أيها الأخ الذكي الآن ، وهذا الانكسار نعمة عظيمة في هذه العوالم ، ولولا انكسار الضوء ما كان صبح ولا مغرب . وانكسار الضوء له حالان : فإما أن يسير الضوء من طبقة لطيفة إلى أخرى كثيفة ، فهناك ينكسر الضوء إلى ناحية خاصة ، وإذا كان العكس فإنه ينكسر إلى الجهة الأخرى .

العدسات والميكروسكوبات والتلسكوبات والمناظر

وأضواء الشمس السبعة

هناك هناك يدخل الماء في باب واسع من العلم ، وهأهنا يكون الكلام على العدسات ، وهي إما محدبات ، وإما مقعرات ، فالعدسات المحدبات زجاجات منتفحات من الجانبين ، فهذه تكبر الأحجام المنظورة من خلالها ، فإذا عمن وضعنا جملة من هذه الزجاجات متحدة بنظام خاص كان عندنا ما نسميه ميكروسكوب (الآلة للمظنة) وهذه قد تكبر الشيء ألف مرة بل أكثر ، وقد توضع تلك العدسات بهيئة خاصة أخرى وهي تسمى (التلسكوب) الآلة المقربة ، فهي تكبر الأجسام البعيدة فترى قريبة لنا ، فهذا سميت مقربة ، وهل أتاك نبأ العدسات المقعرات التي تفعل عكس العدسات المحدبات ، إن هذه تصغر الأجسام كما كانت التي قبلها تكبرها ، وهأهنا يدخل الضوء في علم الطب فتكون العدسة المصغرة لصاحب النظر القصير والمكبرة لصاحب النظر الطويل .

للعدسات المكبرات عمل آخر

وذلك أنها تستعمل لإحداث حرارة وضوء على ما وراءها من ورق مخصوص مثلا ، فهأهنا يدخل ضوء الشمس في العدسة ، ويستمر جاريا إلى ما وراءها ، وهناك تكون بؤرة خاصة في بعد مخصوص : أي أن

الحرارة في بطن مخصوص تجتمع في نقطة خاصة، وهذه الحرارة قد تنقد بها النار، بل إن ربان السفينة لما عنده من العلم إذا كان في الأفطار الشمالية التي ليس فيها إلا الثلج بقدر تلك العدسة المكبرة للضوء الهدية الوجهين أن يستعملها في إيقاد النار في الصوفان مثلا، وذلك بأن يستعمل عدسة من نفس الثلج، وهذا الثلج يجمع ضوء الشمس الضيف في تلك الأفطار، وفي البؤرة في البعد المخصوص يضع ذلك الربان ما يريد إحراقه فيشتعل، فيذهل من ذلك نوتية السفينة، ويذهل سكان الأفطار الشمالية (وهم الإسكيمو).

وها هنا مباحث أخرى لا محل لفصلها الآن مثل أضواء الشمس السبعة وعجائبا، ولعلنا تفصل الكلام على هذه العجائب في (سورة الملك) إن شاء الله تعالى بشرح أطول وصور بديعة تشرح الموضوع كما تشرح الصدور. ولعلنا أيضاً تفصل الكلام إن شاء الله تعالى في (سورة النبأ) «عم يتساءلون عن النبأ العظيم» على أنواع النبات المتقدمة، والفصائل بصورها وأشكالها بمناسبة قوله تعالى: «وأزلنا من المصبرات ماء نجاها، لنخرج به حياً ونباتاً وحنات ألقاها» كما نذكر بعض ما تقدم مجلا عند الكلام على قوله تعالى في (سورة الحشر): «هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم. هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن للهيمون العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون: هو الله الخالق الباري المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم» لئيب أن هذه العجائب لا تفسر أسماء الله حق تفسيرها إلا بها، وأن من أراد أن يفقه معنى الباري والمصور ونحوها فليس له إلا طريق هذه العجائب.

فلما سمع صاحبي ذلك قال: الحمد لله قد أنجحت صدرى بهذا البيان. فقلت الحمد لله رب العالمين: وبلى هنا تم الكلام على (سورة التاربات) كتب في ١٥ ربيع الثاني سنة ١٣٥١ هجرية.

تفسير سورة الطور

هي مكة

آياتها ٤٩ - نزلت بعد السجدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَسْنُورٍ * فِي رَقٍ مَنشُورٍ * وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ * وَالسَّقْفِ
الْمَرْفُوعِ * وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ * يَوْمَ
تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا * فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ
يَلْعَبُونَ * يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا * هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكذَّبُونَ *
أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ * أَصَلُّوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا

مُجْرَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ • إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَتَسِيمُ • فَأَكْبَهُنَّ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُنَّ
 وَوَقَاهُمْ رَبُّهُنَّ عَذَابَ الْجَحِيمِ • كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ • مُتَّكِئِينَ
 عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ • وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ
 أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ صَاحِبِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهينٌ •
 وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَحَلِيمٍ بِمَا يَشْتَهُونَ • يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَعْنُ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمُ •
 وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ • وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ •
 قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ • فَمَنْ آتَاهُ عَذَابًا عَذَابَ السَّعِيرِ • إِنَّا كُنَّا
 مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ • فَذَكَرْنَا فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا
 مَجْنُونٍ • أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ تَتَّبِعُهُ بِهِ رَبِيبٌ أَلْمُونِ • قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ
 الْمُتَرَبِّصِينَ • أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَائِفُونَ • أَمْ يَقُولُونَ تَقَوْلَهُ بَلْ
 لَا يُؤْمِنُونَ • فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ • أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ
 الْخَالِقُونَ • أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ • أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ
 أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ • أَمْ لَهُمْ سُلْمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعِيَهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ •
 أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ • أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ • أَمْ عِنْدَهُمُ
 الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ • أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ الْمَكِيدُونَ • أَمْ لَهُمْ آلَةٌ
 غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ • وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ
 مَرْكُومٌ • فَذَرَهُمْ حَتَّى يَلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ • يَوْمَ لَا يُفْنِي عَنْهُمْ كَيْدَهُمْ
 شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ • وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ
 لَا يَعْلَمُونَ • وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ • وَمِنَ
 اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ •

هذه السورة ثلاثة أقسام

القسم الأول في تفسير البسملة .

القسم الثاني في ذكر العذاب والنعيم ، ووصف أهل الجنة وأهل النار ، مبتدئا ذلك كله بالقسم بما في العلويات والسفليات من أول السورة إلى قوله : « إنه هو البر الرحيم » .
القسم الثالث في إزام الكافرين بالحجة ، ومجادلتهم بالحق هي أحسن في صدق النبوة ، وإثبات الألوهية من قوله تعالى : « فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون » إلى آخر السورة .

القسم الأول في تفسير البسملة

تنوعت الرحمات في هذه العوالم التي أبدعها الله عز وجل ، وهذا التنوع يدعو إلى استيقاظ الأرواح ، ونشاط النفوس التي خلقت في هذه العوالم ، موت وحياة ، وذل وعز ، وجهل وعلم ، وشقاء وسعادة ، ثم نار وجنة ، وهذان هما المذكوران في هذه السورة ، كل مخلوق في هذه العوالم الأرضية يبدو في أول أمره ناقصا ثم يأخذ في الاستكمال شيئا فشيئا حتى يصل إلى درجة الكمال كالزروع والحيوان والإنسان ، فالنقص قبل الكمال ، والنار قبل الجنة « وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ، ثم تنجي الذين آمنوا وندر الظالمين فيها جثيا » .

الإنسان يخرج من بطن أمه لا يعلم شيئا والعلم يبدو له قليلا قليلا ، وأكبر منزلة في هذه الحياة للأفراد والأمم الجهل ، وأعظم سعادة بالعلم ، وأولهما مقدم على ثانيهما ، وفي هذه السورة ترى آيات العذاب جاءت في أول السورة ، وتلتها آيات النعيم والجنات كما يتلو العلم الجهل والسعادة الشقاء ، ومن أجل الرحمات وأبهيح السعادات أن تصل النفوس إلى مبتغاهها بعد حرمانها ، وإلى سعادتها بعد شقاوتها ، وتذكر ما كانت تعانيه وتوازنه بما نالته من الهناء والسعادة ، ويشير لذلك إقبال بعض أهل الجنة على بعض يتساءلون ويتذكرون أنهم كانوا يخافون العاقبة وسوء التقلب ، فنجوا من العذاب وتمتعوا بأنواع اللذات ، متكئين على سرر مصفوفة وهم مترجون بالخور العين .

ومن أبدع ما يسر النفوس ويشرح الصدور الحجج القيمة والبراهين المنتظمة ، كأن يقال : أهدا العالم خلق نفسه ؟ أم وجد بلا خالق ؟ وكلاهما باطل ، إذن له خالق وهو الله تعالى ، وهذا أيضا راجع للعلم بعد الجهل ، والعز بعد الذل ، فكأن الرحمة في هذه السورة متجهة لمنهج واحد معبد (بتشديد الباء) وذلك على سبيل النشوء والارتقاء ، فالإنسان قبل تمام الحجة جاهل بالعقيدة والجهل عذاب ، ورسوخ العقيدة بنام الحجة نعيم ، كما أن الجنة بعد المرور على الجحيم ، ولقد جاء في (إخوان الصفاء) أن شقاء الناس تابع لجهلهم . وقد مثل ذلك سقراط فإنه أبان أن الإنسان لا يفعل المصيبة إلا لظنه أنها نافعة له من وجه ، ولو أبين أنها ضارة له لم يفعلها ، وأوضح ذلك الإمام الغزالي رحمه الله تعالى فقال : لو أن طبيا قال للمريض هذا الكوب فيه سم قد تخلل الشراب الذي يملؤه وهو واثق طبعا بكلام الطبيب لم يشربه المريض ولم يقربه ، وفر منه فراره من الأسد ، فلو أن الناس أيقنوا بمضرة الذنوب وثوقا حقيقيا لم يذنبوا ولكن العلم ناقص لا يفيد ، إذن نقص العلم باب من أبواب جهنم ، والعلم التام باب من أبواب الجنة .

وليس ينال المرء كمالا في هذه الحياة إلا بأمرين : الصبر عن الشهوات ، وطى البلاء ، وفي الأعمال حتى تكمل ، ومن أجل الأعمال في هذه الحياة الدنيا الوقوف على سر هذا النظام ، وسره أن كل شر في هذا العالم لم يقصد به إلا أنه مقدمة لخير ، فالخير والشر يتجهان معا لنظام العالم نظاما تاما يستوجب الحمد ، ولذلك

ختم السورة بهذه الآيات : « واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم » .

في أول السورة ذكر العذاب والنعيم ، وفي آخرها اطمئنان النفس بالصبر وبالعلم وهما المقصودان من هذه الحوادث الإنسانية في هذا الوجود ، التسييح والتحميد معا سر هذه الحياة ، فالتسييح كما شرحناه مرارا ملازم للتحميد ، إذ ترى سلامة عيوننا من المرض ملازمة لتمتعنا بالنعمة الموجبة للحمد ، فنزله الله عن العتب وعن الظلم بطريق البحث العلمي ملازم لحصول الخيرات لنا ، ولذلك كان التسييح والتحميد ملازمين لأهل الجنة ، فهم هم الذين أدركوا سر هذا الوجود واطمأنوا بنور عقولهم إلى أن كل شر لم يقصد به إلا الخير بل أيقنوا أنه لاخير بلا شر ، ولا يمكن حصوله بدون ، فالشر لا بد منه لحصول الخير ، وهذه الطمأنينة نهاية سعادة هذا الإنسان في الدنيا والآخرة ، فإذا لاحظ النجوم وسيرها وجمالها فرح بجمالها وجمال مبدعها ، وكان في هذه الحياة الدنيا في سعادة وحبور ، ومن أيقن بهذا بطريق العلم فهم معنى : « وسبح بحمد ربك حين تقوم ، ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم » انتهى الكلام على القسم الأول في تفسير البسملة . كتب يوم الثلاثاء ١٦ أغسطس سنة ١٩٣٤ م .

القسم الثاني : في ذكر العذاب والنعيم

ووصف أهل الجنة ووصف أهل النار

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(والطور) طور سينين ، وهو جبل بمدين كالم موسى عليه السلام فيه ، والطور بالسريانية الجبل (وكتاب مسطور) مكتوب ، يقال سطره رتب حروفه المكتوبة ، والكتاب المسطور كل ما كتب من القرآن أو التوراة ، أو بقية الكتب السماوية ، وما سطر في القلوب الإنسانية من المعارف ، وما في نفوس اللائكة من الحكمة ، وما في اللوح المحفوظ ، بل كل ما دل على حكمة يرمز له بالكتاب المسطور (في رق منشور) الرق هو الصحيفة ، أو الجلد الذي يكتب فيه ، وأريد به هنا مجازا ما هو أعم ، والمنشور المفتوح لاختم عليه (والبيت للعمور) أي السكمة العمورة بالحجاج والمجاورين ، وقلب المؤمن المتلى بالمعارف والحكمة والإخلاص ، وهكذا كل مكان فيه عبادة كالذي ورد في الحديث الآتي ، وهو بيت في السموات العلى قدام العرش (والسقف الرفوع) أي السماء (والبحر المسجور) أي اللوقد المحمى بمنزلة التنور المسجور كما قاله ابن عباس ، وهذا البحر هو الهدي كشف في العصر الحاضر على سبيل الظن ، وقد أشارت له الأحاديث ، ولكن الأمم قديما لم تعرفه ، فمن عبد الله بن عمر : « لا يركب رجل البحر إلا غازيا أو معتمرا أو حاجا فإن تحت البحر نارا وتحت النار بحرا » ولا جرم أن هذا البحر هو باطن الأرض الذي انضح اليوم وعلم من الكشف أن الأرض كلها كبطيخة وقشرتها كقشرة البطيخة : أي أن نسبة قشرة البطيخة إلى باطنها الذي يؤكل كنسبة قشرة الأرض إلى النار التي في باطنها ، فنحن الآن نسكن فوق نار عظيمة : أي فوق بحر مملوء نارا ، وهذا البحر مغطى من جميع جهاته بالقشرة الأرضية المحكمة سدا عليه ، ومن وقت إلى وقت يتصاعد من ذلك البحر نار تظهر في البراكين أو بالزلازل كالزلازل اليابانية التي حدثت في سنة ١٩٢٥ وكبركان ازوف بايطاليا ، وهذا البحر المسجور الآن يعتبر من أكبر المعجزات للقرآن ، فإنه لم يعلم به أحد من الأمم الإسلامية ، ولا غير الإسلامية بعد النبوة ، ومن عجب أن يذكر في الحديث أن تحت البحر نارا ، وهذا عجيب ! وأما كون النار تحتها ماء فبمعناه أن البحر فوق الأرض والنار في باطنها ، وفي الجهة المقابلة يكون

البحر ، فالبحر في الجهتين المتقابلتين والنار محصورة بينهما . أقسم الله بهذه كلها وجواب القسم (إن عذاب ربك لواقع) لنازل (ماله من دافع) يدفعه (يوم تمور السماء مورا) تضطرب ، وللور تردد في الهبء والذهب (وتسير الجبال سيرا) أي تسير عن وجه الأرض فتصير هباء (فويل يومئذ للكاذبين) يقول : إذا وقع ذلك فويل لهم (الذين هم في خوض يلعبون) أي يندفعون في الباطل والكذب كما قال تعالى أيضا في سورة أخرى : « وكنا نخوض مع الخائضين » (يوم يدعون إلى نار جهنم دعا) يدفعون إليها بعنف بحيث تفل أيديهم إلى أعناقهم وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم ويقال لهم (هذه النار التي كنتم بها تكذبون) ولقد كنتم تنسبون لحمد أنه يسحر العقول ويغطي على الأبصار ، فهل هذا الذي هو مصداقه سحر أيضا ، وهذا قوله (أنسحر هذا أم أنتم لا تبصرون) هذا أيضا كما كنتم لا تبصرون في الدنيا ما يدل عليه ، وهذا تفرغ وتهمك (اصلوها فاصبروا أو لا تبصروا) أي ادخلوها على أي وجه شتم من الصبر وعدمه (سواء عليكم) الأمران الصبر وعدمه . ثم علل الاستواء المذكور بأن الجزاء لا بد منه فلا يتوقف على الصبر فقال (إنما تجزون ما كنتم تعملون) .

ولما فرغ من ذكر أهل النار شرع في الكلام على أهل الجنة فقال (إن المتقين في جنات ونعيم فأكبر من معجبين بذلك ناعمين) بما آتاهم ربهم من الخير والكرامة (ووقاهم ربهم عذاب الجحيم) يقال لهم (كلوا واشربوا هنيئا) مأمون العاقبة من التبعة والسقم (بما كنتم تعملون) في الدنيا من إيمان وطاعة (متكئين على سرر مصفوفة) موضوعة بعضها إلى بعض مصطفة (وزوجناهم بحور عين . والذين آمنوا واتبعهم ذريتهم بإيمان) هذا مبتدأ خبره (الحقنا بهم) أي نلحق بهم (ذريتهم) في إيمانهم ولو كان أولئك الأبناء مقلدين لآبائهم ، فالآباء إيمانهم نظري والأبناء إيمانهم تقليدي لاتباعهم الآباء ، فنحن نلحق الأبناء بالآباء في الإيمان ، ونجعل غير الناظرين للناظرين المفكرين ، ويلزم من ذلك أن يدخلوا الجنة معهم (وما ألتناهم) وما نقصناهم (من عملهم من شيء) بهذا الإلحاق (كل امرئ بما كسب رهين) بعمله مرهون عند الله تعالى ، والعمل الصالح يفكه وإلا هلك (وأمددناهم بما كرهه وطغى بها) أي وزدناهم وقتا بعد وقت ما يشتهون من أنواع النعم الحسية والمعنوية (يتنازعون فيها كأسا) يتعاطون في الجنة هم وجلساؤهم ويتجادون خمرا في كأس (لا لغو فيها ولا تأثيم) لا يتسكون بلغو الحديث في أثناء شربها ، ولا يفعلون ما يؤثم به فاعله ، بخلاف خمر الدنيا ، فالشارب لها كثير اللغو فعال للآثم (ويطوف عليهم) بالكأس (غلمان لهم) مماليك مخصوصون بهم (كأنهم) في الحسن والبياض والصفاء (لؤلؤ مكنون) مخزون مصون لم تمسه الأيدي « وقد سئل صلى الله عليه وسلم قيل له هذا الخادم فكيف الخدم ؟ فقال : فضل الخدم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » (وأقبل بعضهم على بعض يتسائلون) يسأل بعضهم بعضا في الجنة أي يتذاكرون ما كانوا فيمن الخوف والتعب في الدنيا (قالوا إنا كنا قبل في أهلنا) في الدنيا (مشفقين) خائفين من العذاب (فمن الله علينا) بالمغفرة (ووقانا عذاب السموم) عذاب النار النافذة في المسام نفوذ السموم (إنا كنا من قبل ندعوه) أي كنا من قبل ذلك في الدنيا نعبده ونسأله الرحمة ووقاية العذاب فنقول « وقنا عذاب النار » ثم إن في تجاذب الكأس بينهم وإقبالهم بعضهم على بعض ، وعدم اللغو في مجالسهم إشارات إلى لذات فوق لذات أهل الأرض كما قال ابن العارض :

صفاء ولا ماء ولطف ولا هوا ونور ولا نار وسكر ولا خمر

وقوله (إنه هو البر) أي الحسن (الرحيم) انتهى التفسير اللفظي للقسم الثاني من السورة .

القسم الثالث في إلزام الكافرين بالحجة

ومجادلتهم بالقى هي أحسن في صدق النبوة وإثبات الألوهية

قال تعالى (فذكر) ففظ يا محمد بالقرآن كفار قريش ومن معهم (لما أنت بنعمة ربك) برحمته وعصمته وإنصافه عليك بالنبوة ، أو بحمده وإنصافه (بكاهن ولا مجنون) الكاهن من يوم الناس أنه يعلم الغيب ونجبر به (أم يقولون شاعر نترصد به ريب المتون) أى بل يقولون هو شاعر ، وريب المتون ما يعلق النفوس من حوادث الدهر ، أو نفس الموت ، يقال منه إذا قطعه (قل ترصدوا فلانى معكم من المترصدين) أترصد هلاككم كما ترصدون هلاكى (أم تأمرهم أحلامهم بهذا) أى بل تأمرهم عقولهم بهذا التناقض في القول ، فالشاعر غير الكاهن غير المجنون ، وفرق عظيم بين مجنون العقل ومن بزى الشعر بحكمة ودقة ومن هو كاهن (أم هم قوم طاغون) مجاوزون الحد في العناد (أم يقولون نقوله) اختلقه من تلقاء نفسه (بل لا يؤمنون) فيرمونه بهذه المطاعن كفراً وعناداً ، وفي قوله « بل » رد لما زعموا أى ليس الأمر كما زعموا (فليأتوا بحديث مثله) أى بحديث محتلق مثل القرآن (إن كانوا صادقين) في زعمهم ، وفيهم القسحاء . ثم شرع يبين فساد نظرياتهم في الإلهيات بعد النبوات فقال (أم خلقوا من غير شيء) أى بل أخلقوا من غير خالق ، ومعلوم أن الحادث لا بد له من محدث ، أم هم أحدثوا أنفسهم ويلزم عليه أن الشيء مقدم على نفسه وهو مستحيل ، فهم باعتبار أنهم خالقون مقدمون على أنفسهم في الوجود باعتبار أنهم مخلوقون ، وهذا هو قوله (أم هم الخالقون) أى بل أم (أم خلقوا السموات والأرض) أى وإذا فرض أنهم خلقوا أنفسهم فهل هم خلقوا السموات والأرض اللتين عليهما تتوقف حياتهم ؟ فإن من يخلق شيئاً يخلق أسبابه ، وإذن لا بد أن يخلقوا السموات والأرض ، وهذا معلوم كذبه طبعاً (بل لا يؤمنون) إذا سئلوا من خلقكم ومن خلق السموات والأرض ؟ قالوا الله ، ولو أنهم أيقنوا ذلك ما عرضوا عن العبادة (أم عندهم خزائن ربك) خزائن رزقه حتى يسطروا النبوة لمن يشاءون ، ويصطفوا لها من يختارون (أم هم المصيطرون) الغالبون على الأشياء يدبرونها كيف يشاءون (أم لهم سلم) مرتقى إلى السماء (يستمعون فيه) كلام اللائكة وما يوحى إليهم من علم الغيب حتى يعلموا ما هو كائن من تقدم هلاكه على هلاكهم وظفرهم في العاقبة دونه (فليأت مستمعهم بسطان مبين) بحجة واضحة تصدق استماع مستمعهم (أم له البنات ولكم البنون) سفة سبحانه أحلامهم إذ اختاروا لله البنات ولهم البنين ومن كان هذا رأيهم لا يعتد بهم (أم تسألهم أجراً) على تبليغ الرسالة (فهم من مفرم) من التزام الغرم (مثقلون) مملون الثقل فلذلك زهدوا في اتباعك (أم عندهم الغيب) اللوح المحفوظ للثبت فيه القيات (فهم يكتبون) ما فيه حتى يقولون لا نبعث ، وإذا بعثنا لم نعتذب (أم يريدون كيدا) وهو كيدهم في دار الندوة برسول الله صلى الله عليه وسلم (فالذين كفروا) أظهر في موضع الإضمار لتسجيل الكفر عليهم (هم السكيدون) هم الذين يحيق بهم السكيد ويعود عليهم وبال كيدهم وقد تم يوم بدر (أم لهم إله غير الله) يعينهم ويحرسهم فيكفرون بالله ويلتجئون إلى ذلك الإله (سبحان الله عما يشركون) عن إضرائهم (وإن يروكسفا) قطعة (من السماء ساقطاً يقولوا) من فرط طفيتهم وعنادهم هذا (سحاب مراكوم) تراكم بعضه على بعض ، وهذا جواب لقولهم : « فأسقط علينا كسفا من السماء » . يقول الله : لو عذبناهم بسقوط قطعة من السماء لقالوا أول ظهورها ليس بمذاب مكابرة كاهي عادتهم (فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصفون) عند النقطة الأولى (يوم لا ينفى عنهم كيدهم شيئاً) أى شيئاً من الاغناء في رد العذاب (ولام ينصرون) يمتعون من عذاب الله (وإن للذين ظلموا) من كل أمة وجيل (عذاباً دون ذلك) أى دون عذاب الآخرة في الحياة الدنيا كتحط قريش وقتلهم يوم بدر ، وهكذا الصائب التي تحيط بالمسلمين اليوم

بإشارات الفريجة عليهم وغير ذلك ، وكذاب القبر (ولكن أكثرهم لا يعلمون) ذلك (واصبر لحكم ربك) إذ أمهاتهم وأوقعت في نسب مهمهم فذلك لأجل معلوم (فإنك بأعيننا) في حفظنا ورعايتنا فنحن نراك ونكادوك ، وجمع العين للمبالغة في الحفظ (وسبح بحمد ربك حين تقوم) من أي مكان قمت ، من منامك ، وإلى الصلاة (ومن الليل فسبحه) فإن العبادة فيه أشق على النفس وأبعد من الرياء (وإدبار النجوم) وإذا أدبرت النجوم من آخر الليل : أي في أعقابها إذا غربت أو خفيت ، والمراد أن يقول « سبحان الله وبحمده » في هذه الأوقات ، وقيل التسبيح الصلاة إذا قام من نومه ، ومن الليل صلاة العشاءين ، وإدبار النجوم صلاة الفجر . انتهى التفسير اللفظي للقسم الثالث من السورة .

* * *

وينبغي للإنسان أن يقول : سبحانك اللهم رب محمدك إذا قام من المجلس . وزاد الترمذي : أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، فإنها تسكفر ما بينهما . وغيره يقول : ذكر الله بالليل من حين تقوم من الفراش إلى أن تدخل الصلاة . وقالت عائشة رضي الله عنها : « كان صلى الله عليه وسلم إذا قام بالليل يفتتح بالتكبير عشرا والتسبيح عشرا والتهليل عشرا والاستغفار عشرا ويقول : اللهم اغفر لي وارحمني واهدني وارزقني وعافني ، وكان يتعوذ من ضيق القام يوم القيامة . وأيضاً كان صلى الله عليه وسلم يفتتح الصلاة بقوله : سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جدك ، وجل ثناؤك ، ولا إله غيرك » .

لطائف هذه السورة

(١) في قوله تعالى : « والطور » الخ .

(٢) وفي قوله . « والبيت المعمور ، والسقف الرفوع ، والبحر المسجور » .

(اللطيفة الأولى في قوله تعالى : والطور)

أقسم الله في هذه السورة بأعلى مكان وأشرفه وأكثره رحمة وهو السماء ، وبأدنى مكان قدمي جحيم وعذابا وهو البحر المسجور في باطن الأرض ، وبما بين ذلك من السكتب للسطورة والمعلوم للشورة ، والحكم للشورة ، والآراء للثبونة ، المقروءة في كتب الديانات ، وبدائع الآيات ، وحكم السموات ، ومعارف النفوس وإشراق القلوب ، وبأما كن العبادات من البيت الحرام ، وغيره من أماكن في عوالم لا يعلمها أحد إلا الله .

أقسم الله بالسموات العلى ، وبما تحت الثرى ، وبيوت العبادات في الأرض والسموات ، وبالمعلوم المقولات في الأرض وفي السماء .

أقسم الله بذلك كما أقسم بالناربات ذروا ، هناك أقسم الله بالرياح وتصريفها ، وبالسماء وحسنها وجمالها ، وهنا أوسع القسم إيساعاً فلم يدر عالمها وأيا ولا أرضياً ، ولا موضع عبادة ، ولا مكان علم إلا أدخله في القسم أو أشار إليه ، انتهت اللطيفة الأولى .

(اللطيفة الثانية في قوله تعالى : والبيت المعمور الخ)

وأوجب ما أقسم به البحر المسجور الذي في باطن الأرض على ما يظن الناس ، والبيت المعمور ، والرق المشور ، وقد روى « أن الله تعالى يجعل البحار كلها يوم القيامة ناراً فيزد بها في نار جهنم ، فإذا أضفنا هذا الحديث إلى الحديث المتقدم وهو إن تحت البحر ناراً يكون البحر الذي هو باطن الأرض منضياً إليه البحر الملح فيتسع نطاق النار ، فإذا باطن الأرض نار الآن ، والبحار يوم القيامة تصير ناراً ، وهذا واضح لأن البحر المسجور الذي هو عبارة عن باطن الأرض إذا جاء أجل الأرض ووقع ماء البحر في باطن الأرض

لم تسكن البحار التي على وجه الأرض شيئا منذ كورا بالنسبة للنار فتتحول نارا في ملح البصر ، فلما نشاهد أننا إذا أنزلنا الماء على النار ليطفئها وكان الماء قليلا تحول الماء إلى نار ، وزاد في اشتعالها ، لأن الأكسجين القوي في الماء نار فيقلب الماء إليها ، وهذا من أعجب العلم والمعجزات في القرآن .

وأما البيت المعمور الذي يقال له (الضراح) فيقال إن حرمة في السماء كحرمة الكعبة في الأرض . وقد جاء في حديث المعراج من أفراد مسلم عن أنس « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى البيت المعمور في السماء السابعة قال فإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه . وفي رواية أخرى : فأنتميت إلى بناء قلعت للعالم ما هذا ؟ قال بناء بناء الله للملائكة يدخل فيه كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون يسبحون الله ويقدمونه ، ولعل ذلك البيت في عوالم مما لا يحيط بالبال ذكرها غابت عنا لبعدها ، ومن تأمل علم الفلك أيقن بما تقدم لاسيا ما روتنه روح الفيلسوف غاليلي لما أحضرت وطلب منها التكلم عن العالم ذكرت أن هناك كواكب شمسية بالنسبة لها كجبة بالنسبة لجبل ، وحياتهم ونظامهم أرقى من حياة أهل الأرض ونظامهم ، بل لا يحيط بالبال السعادة هناك والهناء والعظمة وأنواع العيشة ، وهناك الشمس والنواجم جمع توأم فإن نظام أهلها لا يحيط بالبال ، ولم تسمه أذن ، ولم تره عين ، بل هو فوق متناول الحواطر من البهجة والجمال ، ويقول : إن تلك العوالم كلها مسكونة وهي تعد بثبات الملايين ، فما جاء في هذا الحديث وهذه الآية أصبح مما يقرأ في العلم الفلسفي والعلم الروحي بأوروبا .

وأما الرق المنشور الذي ذكر بعد الطور المتناول كتاب التوراة وكل كتاب سماوي وحكي الخ فإنه قد ظهر أنه ظهور في هذا الزمان ، إذ لم يكن النوع الإنساني ليعرف رق منشورا كما نعرف نحن الآن ، فقد أظهر الله في سائر الأرض الجرائد والمجلات منشورة يتف بها الباعة في الطرقات والحارات والشوارع ، وقد نشرها في أيديهم وقرأها الناس في كل مكان ، ولم يكن ذلك معروفا قبل هذا العصر عصر الورق ، والقرآن يسميه الرق المنشور .

فانظر كيف أقسم الله بالبحر ، وبالبيت المعمور ، وبالرق المنشور ، ولم يظهر بحر النار ، ولأن هناك عوالم في الكواكب لا تنتهي ، ولأن هنا في الأرض حرائد تنشر وتباع للعامة والخاصة ، ولأن هناك تعليما عاما يشترك فيه الخاصة والعامة من كل الأمم إلا في هذا الزمان .

نشر الصحف على قسمين : أحدهما انتشار التعليم والترقية وهو التعليم العام الذي أخذ ينتشر انتشارا سريعا في الوقت الحاضر . وثانيهما ظهور الجرائد والمجلات منشورة في كل مكان ، ومن هذا الباب عموم التليفون والتلغراف (البرق) الذي له سلك والذي لاسلك له . وهكذا المسرة (التليفون) . كل هذه في معنى الرق المنشور ، فهذان القسمان من الصحف المنشورة لم يكن لهما وجود قبل هذا الزمان أخبر عنها القرآن .

لم يكن في الأرض أمة قط تعلم تعليما عاما أيام النبوة . لم يكن في دولة الرومان تعليم إلا لأبناء الأشراف ، وهكذا دولة القريش الذين يجعلون التعليم لطبقة معلومة ، جاء القرآن وقال : « اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق » .

كانت البراهمة تجعل الناس أربع درجات : فمنهم من هم كالرأس وهم رجال الدين ، ومنهم من هم كالصدر وهم رجال الجيش ، ومنهم من هم كالبطن ، ومنهم من هم كالرجلين ، ومعنى هذا أن الرق لم يكن منشورا عاما بل كان خاصا ، جاء الإسلام وعمم العلم وقال : « في رق منشور » ولا تشير على الوجه الأكمل إلا في هذا الزمان ، فهو رمي لغرضين : الأول تميم التعليم ، والثاني الإخبار عما حصل في هذا الزمان من قوتهم : (انتشار التعليم) وقوتهم (تميم التعليم) وقوتهم (نشر الصحف) وقوتهم (نشر المدينة والحضارة) وقوتهم (نشر الكتب) وما أشبه ذلك .

تناجح هذه المعجزة القرآنية في النفوس

إن تناجح هذا المقال في العقول قسماً : القسم الأول ما يحصل في عقول بعض المؤمنين من أمتنا فيفرحون بهذا القول ويقولون الله أكبر : إن نبينا حق والإسلام حق وفرحون ؛ وهؤلاء هم الكسالى الغافلون الذين يقتصرون على الإيمان وهم ناعمون (القسم الثاني) هم أهل الحكمة والبصيرة الذين سيفرحون هذا الكتاب وأمثاله ويدركون بنور البصيرة مستقبل الإسلام فيقولون : لم يذكر الله ذلك ليريد مجرد الإيمان كلا . وإنما يريد أن نمحنا نحن أبناء هذا الجيل على العلم والحكمة ، وأن نأخذ حظنا في الأمم ومركزنا في الحياة ، وهذا الفريق يقول : إن هذه الآيات حجة علينا ، فإذا كان الله يشر العلم في العالم الإنساني ، وأبرز مكنون الحكمة كالبحر المسجور والبيت للعمور ، وإذا كان جل جلاله يقسم بما هو فوق السموات العلى ، وبما هو تحت الأرض السفلى ، وبما بينهما من العلم المنثور ، وقد أقسم قبل ذلك بعجائب الرياح والسحاب والمطر التي بها كان نظام حياتنا ، وذلك بعد أن لفت عقولنا للسماء والأرض في (سورة ق) . إذا فعل الله ذلك وكرره فليس له نتيجة إلا أن المسلمين إذا قصرُوا في معرفة علوم العالم العلوي والسفلي لاسيما بعد ظهور الصحف المنثورة في عصر العلم والعرفان فإنهم لا يستحقون الوجود ، وأن هذا الدين يتقل منهم إلى قوم آخرين ويسكن الله أرضهم قوماً خيراً منهم لأنهم لا يصلحون للحياة ، فالناظر لهذه الأقسام من أرباب الفكر يجدون في ارتقاء أمتهم خائفين من ربهم إذا قصرُوا في العناية بما أقسم به .

أقول قولي هذا ، وأستغفر الله لي ولوالدي وللمسلمين والمسلمات ، وأسأل الله أن يمنح بهذا الكتاب بانه يلجج المسلمون للعلوم والعرفان ، وأن يكثر في هذه الأمة من رجال العلم العاملين ، وإلى هنا تم الكلام على «سورة الطور» والحمد لله رب العالمين . كتب في ٢٠ ربيع الثاني سنة ١٣٤٥ هجرية .

تفسير سورة النجم

هي مكية

إلا آية : «الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم عن اتقى» مدنية

آياتها ٦٢ - نزلت بعد الإخلاص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ * إِذْ يَنْفَىٰ السُّدْرَةَ مَا يَنْفَىٰ * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ *

لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى • أَفَرَأَيْتُمْ اللَّاتَ وَالْمَرْيَ • وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى •
 أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى • تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى • إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا
 أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ
 وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى • أَمْ لِلإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى • فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى • وَكَمْ
 مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُعْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى •
 إِنْ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْإِنثَى • وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ
 إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا • فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ
 ذِكْرِ نَاوَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا • ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ
 سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى • وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا
 بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى • الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِنْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا
 اللَّغَمَ إِنْ رَبُّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ
 فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى • أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى •
 وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى • أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهوَ يَرَى • أَمْ لَمْ يُدَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ
 مُوسَى • وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى • أَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى • وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا
 مَا سَمَى • وَأَنْ سَمِيَهُ سَوْفَ يَرَى • ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى • وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى •
 وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى • وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا • وَأَنَّهُ خَلَقَ الزُّوجِينَ الذَّكَرَ
 وَالْإُنثَى • مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى • وَأَنْ عَلَيْهِ النُّشْأَةُ الْأُخْرَى • وَأَنَّهُ هُوَ أَعْنَى وَأَقْنَى • وَأَنَّهُ
 هُوَ رَبُّ الشُّعْرَى • وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى • وَتَمُودَ فَمَا أَبَقَى • وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ
 إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْفَى • وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى • فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى • فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ
 تَتَمَارَى • هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأُولَى • أُرِفَتِ الْأَرْفَةُ • لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ
 كَاشِفَةٌ • أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ • وَتَضَحَّكُونَ وَلَا تَتَكُونُونَ • وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ
 فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا •

هذه السورة ثلاثة أقسام

القسم الأول في تفسير البسملة .

القسم الثاني في أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوحى إليه ، وفي قرينه من ربه ، من أول السورة إلى قوله : « لقد رأى من آيات ربه الكبرى » .

القسم الثالث : تقرير الشركين على جهلهم وكفرهم بعبادة الأصنام ، ونسبتهم البنات إلى الله ، وأخذهم بالظن وعملهم ، وفي حكم عليية ، وفي صفات لله عليه .

القسم الأول في تفسير البسملة

إيضاح الرحمة في البسملة في (سورة النجم) وبيان أن الرحمة قد اكتفت بالبسملة ، فإن

في آخر السورة قبلها رحمة كصلاة الليل ، وفي أول السورة بعدها إفاضة علمهم على الناس

آخر سورة الطور وأول سورة النجم

خواطري في صلاة الصبح يوم الخميس ٢٧ أغسطس سنة ١٩٣١

كتب هذا في يوم الجمعة ٢٨ أغسطس سنة ١٩٣١ م

كنت أقرأ في الركعة الثانية من صلاة الصبح أول سورة النجم ، فخطر لي في الصلاة وبعدها ما يأتي :
 إن سورة الطور محتومة بقوله تعالى : « واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم
 ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم » إن آخر سورة الطور متصل بأول سورة النجم كأن الله يقول : أيها
 الناس قوموا الليل إلا قليلا ، تهجدوا في آخر الليل ، وسبحوا واحمدوا ، ثم أخذ يقسم بالنجم مذكرا
 للصلى بالنجوم التي تقارن صلاته آخر الليل ، أقسم بالنجم ليذكر المصلى والصبح والنجوم في إدبارها آخر
 الليل إن الصلاة والتسبيح العاريتين عن المنكر ضعيفتا الأثر ، قليلتا الخطى ، لاهما في العير ولا في التنفير ،
 وهل يقسم الله إلا بما هو جليل وعظيم ! والجليل والعظيم والآيات الكبرى هي التي إليها توجه الأنظار وبها
 تطمئن القلوب :

(١) أقسم الله بالنجم وقال فيه : « وإنه لقس لو تعلمون عظيم » لماذا هذا ؟ لأنه يعلم قبل أن ينزل
 القرآن لأهل الأرض أن أما وأما ستظهر بعد نزول القرآن ، وتدرس النجم ، وتفتح لها أبواب السماء
 والأرض ، وذلك يعلم النجوم ، ذلك العلم الذي به أمكن الناس السير في المحيط الهادى والهندي والسيني
 والأطلسي والبحر الأبيض للتوسط وغيرها . يا سبحان الله : كيف يعرف الربان مكانه في وسط البحار اللاجية
 إلا بواسطة الآلة الفلكية التي لا اعتماد لها إلا على النجوم الثوابت والسيارات ، فإذا غفل ثانية طاح وضاع
 في وسط اللجج ولات حين مناص .

(٢) أقسم الله بالنجم إذا هوى ، لأن النجم في وسط السماء في خط نصف النهار ، لا يعرف اتجاهه ،
 لكنه إذا هوى ومال إلى الغروب عرف اتجاهه فهدي السارين في الصحراء . أقسم بهذا النجم للوصوف
 بهذه الصفة أن محمدا ما ضل وما غوى ، وكان أن النجم إذا هوى لا يصحبه في هذه الحال ضلال ، هكذا محمد
 صلى الله عليه وسلم لا يصحبه ضلال ، بل هاد للناس كما يهدي ذلك النجم الربان :

(٣) أقسم الله بالنجم لأنه يعلم أن أما وأما تبحث في مقادير الكواكب وأعدادها ، وهذا من آيات
 الله العظيمة ليرشد المسلمين إلى تلك الآيات ، إن سير نور الكواكب ١٨٦ ألف ميل في الثانية أو ٣٠٠ ألف
 كيلومتر ، وهكذا الأمواج التي لا سلك لها وكلاهما يجرى حول الأرض في سبع ثانية مرة واحدة ، ويجرى
 حول الكون كله نحو مائة مليون سنة ، إذن نسبة محيط الكرة الأرضية إلى محيط ما عرف من الكون

(٤) أقسم الله بالنجم على شرف الهداية المحمدية ليفتح لنا باب العرفان ، ولما فتح لي في الصلاة ذلك الباب ولجيت منه ، فدخلت في دائرة المعارف ، فألقيت فيها تلاميذ مبتدئين ، وآخرين قد آتموا الدروس منتهين ، وفيها أساتذة معلمون مهذبون ، ولقد هالني الأمر إذ وجدت في هذه الدائرة كل ما جادت به الأمم للتحضرة في دوائر تعليمها .

محاورة بيني وبين صديقي العالم الذي اعتاد مجالسني في هذا التفسير

فلما اطلع على ذلك صاحبي سكت واجما وقال نعم أحسنت في ذكر النجوم وعددها ومقاديرها العظيمة وأحسنت أيضا في ذكر القسم والإبداع فيه : وأن السلم لمن يعرف معنى هذا القسم ولا عظيمته إلا بدراسة هذه العلوم حتى يعرف عظمة مبدع هذا الوجود ، هذا قول لامرية فيه وقد جمع الحسن كله ، فأما قولك إنك رأيت في الصلاة قد دخلت في دائرة العرفان ، وأن تلك الدائرة حوت كل نظام علمي في الأمم المتحضرة ، فهذا من الأقوال التي اعتاد الناس أن يرسلوها سهلا ، ولعمري ما هذه بمارتك ، إن من نعم الله على أممنا الإسلامية أن الكتاب (بالشديد) اليوم فيها يكتبون وأكثرهم يرهن على ما يكتب وأنت منهم ، فكان الأجدر أن تترك هذه الجملة الأخيرة وتحذفها من نظام هذا المقام . فقلت جياك الله أيها الأخ : لقد وقفت من الجملة على المبتدأ ولم تنتظر الحر ، أو على الجملة ولم تصبر حتى ترى تفسيرها .

أيها الأخ : أنا جعلت الذين في دائرة العرفان ثلاثة أقسام : قسم منهم مبتدئ ، وقسم منهم قد انتهى في التحصيل ، وقسم بعد إتمام التحصيل يعلم غيره . قال نعم . فقلت : إن المبتدئ في التعلم الآن في بلاد الإسلام يجب على القائمين بتعليمه أن يقرنوا العلم بالتطبيق سواء أكان ذلك في العلوم الرياضية أم الطبيعية أم الحلقية والأدبية ، أم في العبادة . وأي أمة علمت تلاميذها الأخلاق بلا ممارستها ، أو الحساب بلا تطبيق ، أو النحو وما معه من علوم اللسان ، أو الدين بلا عمل ، فإن هذا التعليم لا فائدة منه .

فعلى المسلمين في الأزهر ، وفي المعاهد الدينية ، وجميع مدارس الإسلام في الشرق والغرب أن يقرنوا التلاميذ من أول درس في كل علم ، وذلك التمرين يختلف باختلاف العلوم ، وفي الدين يكون بالعبادة كالصلاة وكالتبجذ ليل ، وكالصدقات ، وكالصيام الخ .

فلما سمع صاحبي ذلك ظهرت عليه هيئة الأفعال والغضب ، وقال ما هذا الذي تقول ؟ أين هذه الأقسام الثلاثة ؟ أنت إنما وصفت قسما واحدا وهم التلاميذ ، ولكنك لم تسمعي من الآية شيئا ، فأما هذه الآراء فإنك تعرفها من المدارس ومن الكتب ، فأما الآية فما الذي فيها من هذا ؟ فقلت : إن الأقسام الثلاثة في هذه الآيات فإن في آخر سورة الطور التسييح والتحميد ، وبعبارة أخرى قيام الليل ، وهذا من أعظم العبادات والعبادة تمرين على الإيمان ، لأن الأستاذ يقول للتلميذ «الله خالق كل شيء» فإذا لم يكرر التلميذ هذه المعاني في الصلوات وغيرها حرم التمرين ، ومن حرم التمرين على النظريات عاش جاهلا ، فمن تشر التعليم المبتدئ ولم يقرن المؤمنين على تلك النظريات بالأعمال الصالحة فدينه ناقص لانعرة فيه والتمرين في كل شيء بحسبه ، فأما في معرفة الله فبالعبادات كالصلوات ، وأما في الأخلاق فبالعود عليها كالصدق وطى عدم إخلاف الوعد وعلى الإحسان ، ويبتدئ ذلك من أول الدراسة من أول سنى التمييز ، إذن آخر سورة الطور يشير إلى التمرين على المعارف الإسلامية ، وذلك التمرين ضرب له مثلا بالتسييح والتحميد في كل وقت وفي آخر الليل هذا هو القسم الأول وهو القسم الابتدائي ، فإذا أخذ التلميذ في الترق شيئا فشيئا في المعارف وقد اتقن الصور الأول بالتمرين على الطاعات فهو لاجرم يوما ما واصل إلى النهاية للشار إليها بقوله تعالى : «ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى ، عندها جنة لأوى» وأخذ يصف تلك السدرة بأنها غشيا ماغشيا ، فهل

كان يشاها فراش من ذهب ، أو يشاها ملائكة كأنها الطيور ؟ أو غشها نور الله ؟ ونبقها كقلال هجر وأوراقها كأذان الفيلة ، أو هي تحمل الحلى والحلل والبار من جميع الألوان ؛ والورقة منها لو وضعت في الأرض لأضأت لأهل الأرض وهي شجرة طوبى .

نحن لسنا في مقام أن الأحاديث حسنة أو صحيحة أو ضعيفة ، نحن في مقام عام ، إن هذه الأوصاف كلها إعراب عن العجائب الإلهية ، فلتكن أنوار ، وليكن فراش من ذهب ، أو لتكن حلى وحلل ، كل هذا عند حكماء الإسلام جمال الله وجلاله ، ولم يذكر في الأحاديث من جماله وجلاله إلا ما عتمله عقولنا ، فهذه المناظر غاية ما تسمع به مخيلاتنا الضعيفة فنخرج من هذا المقام بنعمة عظيمة ، وحكمة قوعة ، وآية مبينة ، ونعمة حديثة قديمة ، وهي أن المقام جمال وجلال وحكمة وبهاء ، وهذا كله ليس يدركه إلا الذين كان مبدؤهم العبادة كالمذكور في آخر الطور ونهايتهم العلم بحال الله وكاله ، وهو المشار إليه بقوله تعالى : «وقل رب زدني علما» فالتى صلى الله عليه وسلم في كل وقت يزيد علما ، فلتكن سدرة المنتهى عظيمة جدا يسير الراكب في ظلها أو في ظل فرع منها مائة عام أو أكثر ، ولتكن الأنوار محيطة بها ، وليكن القرائن من الذهب حولها وليكن الجمال كل الجمال فيها ، فالمتشوق في العلم لن يقفوا في معارفهم عند حد ، لأن الوقوف عن الرقى عذاب للواقفين .

إن نهاية كل امرئ أن يزداد علما في كل ساعة من الزمان كما ورد عن سيدنا على كرم الله وجهه : «إذا طلعت شمس يوم ولم أزد فيه علما فلا بورك لي في ذلك اليوم» وهذا هو الحق الصراح ، إذن هنا مرتبتان : مرتبة للبتئين ، وهي أن يتمنوا على الإيمان والاسلام بالعبادات ، ومرتبة للتهين في العلم ، وهم الذين درسوا هذا الوجود وأدركوا حقائقه بقدر طاقتهم .

وأما الدرجة الثالثة فهم أولئك للتهين في العلم إذ أخذوا يفيضون على تلاميذهم وعلى الأمة مما امتلأت به صدورهم ، فهؤلاء يفيضون على الناس من العلم الذي أحرزوه بالجد ، وثبتوه بالطاعة ، فصارت العلوم عندهم ملكات أشبه بالمواطف فيلقونها على الناس بعد إلقاء الأنبياء العلم للناس بالوحي ، وللإشارة إلى هذه الدرجة جاء أنه ماضل وما غوى ، وأنه ما ينطق عن الهوى .

ومن عجب أن وصف النبي صلى الله عليه وسلم بأنه يوحى إليه وأنه ما ينطق عن الهوى إنما ذكر بعد القيام بالليل مباشرة في السورة قبلها للإشارة إلى أن التمرين بالعبادة على قواعد الإيمان هو الأس الذي يبنى عليه نهاية العلم أولا وإفاضته على الناس ثانيا ، ولا جرم أن النبوة كانت على هذا الميسع ، فإنه صلى الله عليه وسلم كان يتمدد في غار حراء ، ثم أفيضت عليه العلوم بالوحي وأفاضها على الناس ، فهاتان المرتبتان مؤخرتان عن العبادات ، وهي التمرين العملي على القواعد الدينية .

فلما سمع صاحبي ذلك قال : هذه الآراء جميلة وهي من جهة أخرى غريبة ، فإذا أفضت فيها بشرح يكفل تبيانها بضرب أمثال تكون المقالة قد أتمرت وآتت أكلها بإذن ربها . قلت اسمع يا صاح زادك الله هدى وآتاك تقواك ، ماذا يفعل الناس في تعلم النحو ؟ قال : يتدثون بمعرفة الاسم والفعل والحرف ، ويركبون الجمل ، ويأتون بأقسام الأسماء والأفعال والحروف وما تفرع منها ، ويبينون النصب والرفع والجر وهكذا . قلت : والصرف ؟ فقال : يأتون بالمصادر ويشقون منها الأفعال وأسماء الفاعلين والمفعولين وهكذا . قلت : وعلم المعاني ؟ فقال : يأتون بالجبر والإنشاء والسند ، والسند إليه ، وحذفهما ، وذكرهما ، وتوابعهما ، وقصرهما والفصل والوصل ، والإيجاز والإطناب ، والساواة ، وهكذا . قلت : والبيان ؟ قال يأتون بالتشبيه والمجاز والكناية وما أشبهها ، ويفصلون الكلام تفصيلا . قلت : والبديع ؟ قال يأتون بالمحسنات اللفظية والمعنوية

فالجناس وأنواعه والطباق والاستخدام وهكذا : فقلت : والحساب ؟ فقال : يجمعون ويطرحون ويقسمون ويضربون ، ويأتون بأبواب كثيرة مبنية على ذلك مثل الحطيطة الداخلية والخارجية ، وحساب الكسور ، وحساب اللوغارتم ، والقاعدة الثلاثية البسيطة والركبة وهكذا . فقلت : والهندسة ؟ فقال يأتون فيها بالنقطة والحظ المستقيم والنحنى والسطوح والأجسام التعليمية والربعات والمخمسات وهكذا ، والدوائر والكرات ، وسطوح الكرات ، والاسطوانة والمكعبات وهكذا ، والمخروط وما أشبه ذلك ، وبينون بعض هذه على بعض فالخطوط تتكون منها الزوايا ، ومن الزوايا الثلاث تتكون المثلثات ، ومن المثلثات يكون من كل اثنين منها مربع ، وازدياد مثلث آخر يكون الخمس ، وهكذا يقال في مساحة محيط الدائرة ومساحة نفس الدائرة وسطح الكرة وحجم الكرة (انظر هذا المقام موضعاً أيضاً تماماً في سورة الروم عند قوله تعالى : ﴿ فطرت الله التي فطر الناس عليها ﴾ الخ) . فقلت : والطبيعة ؟ فقال : يأتون بأقسام الجسم من حيث إنه صلب أو سائل أو غاز ويأخذون في تقسيم هذه الأجسام كلها ، ويبحثون في خواصها ، وهي قسبان : خواص عامة لجميع الأجسام ، وخواص يختص بها أنواع من الأجسام ، فالمسام عامة في الأجسام ، وكذا عدم التدخل ، ومثل السرعة في الضوء ، وسرعة الصوت وهكذا ، ويبحثون في الحرارة والضوء والصوت والكهرباء والمغناطيسية وهكذا ، فأما الكيمياء فإنهم يبحثون فيها عن أعقاد الأجسام بحيث تصعب بعد تركيبها فاقدة خواصها الأصلية كما في تركيب الماء من الأوكسجين والهيدروجين فإن خواص الماء وكذا خواص الحيوان والإنسان والنبات غير خواص العناصر التي تركيب منها . فقلت : بناء عليه يكون علم الطبيعة أقرب إلى علم المعاني ، ألا ترى رعاك الله أن الماء إذا صار ثلجاً أو صار بخاراً فإنه يكون أشبه بالمعنى الواحد بذكر بطرق مختلفة مرة بالإيجاز ، والمساواة أخرى والإطناب آونة فالمساواة كحال الثلج ، لأنه يكون أكبر من حجم الماء والماء كالأبجاز ، والغاز كالإطناب ، وهكذا ترى علم البيان يقرب من الكيمياء فله بها نوع من الشبه بسيط لأننا نخرج عن اللفظ الحقيقي وتتجاوز له بلفظ فهو أشبه بانقلاب العناصر إلى مركبات بمخاوص جديدة .

فقال صاحبي حسن ما تقول . فقلت : كيف أجبني حين سألتك عن هذه العلوم ؟ فقال : تلك الإجابة حضرت عندي لأني مرنت على هذه العلوم . فقلت حسن جدا ، وهناك علم آخر يموزه التمرين مثل هذه العلوم ، فإذا كان النحو وعلم الحساب والهندسة لا يحسن أحدهم إفاضة هذه العلوم على الناس إلا إذا ثبتت تلك العلوم في نفسه بسبب التمرين وقتاً بعد وقت فيركب جملاً معربة أو مبنية ويصرف المشتقات ويبقى بمحليات الحساب ويحلها ويحل مسائل الهندسة والطبيعة ، ويدخل العمل بالمدرسة لأجلها ولأجل الكيمياء ، وهكذا هناك علم آخر له تلاميذ يتعلمون ويصيرون أساتذة ، ولن يفيضوا العلم على الناس إلا بعد أن يثبتوا قواعد ذلك العلم بالتمرين ، ومن هم هؤلاء الناس ؟ هم هداة النفوس ، فأما العلماء المتقدمون فإنما يعلمون أموراً أقرب إلى الأجسام الحسية ، أما هداة النفوس فعلومهم وتمرينهم كلها نفسية ، وهؤلاء لن تعيش أمة في الأرض إلا بأن يكون هؤلاء منبئين بين أفرادها ، وعلم هؤلاء معرفة الله وتوحيده ، وتمرينهم هي الصلوات ، فإذا قرأ الناس ديناً ولم يمرنوا نفوسهم على صلواته فإن هذا الدين لا يرفع هذه الأمة كما لا يرفع علم الحساب ولا علم النحو صاحبهما إلا إذا كانا قد تمرنا على هذين العدين ، فإذا سمعنا الله يقول في آخر سورة الطور : ﴿ وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم ﴾ قلنا هذا هو تمرين هذه الطبقة على قواعد علمهم كما يتمرن النحو على الرفع والنصب ، فالنحو يحفظ لسانه بذلك التمرين ، وهذا العالم النفساني الذي يرفع نفسه بالصلوة وتصيب نفسه ذات صلة بخالفه لكثرة التكرار في الصلوات كما يتكرر الحل لمسائل الحساب

فذاك محل مشاكل الحساب بسهولة وهذا تتوارد المعاني على قلبه بسبب تكرار الصلوات والعبادات ، وهذا هو السر في ذكر الوحي بعد قيام الليل .

اسمى يا أمة الإسلام : يجب تغيير المناهج الحالية ، أظهر واعواطف الإسلام ، لا يتبدتوا بعلم الفقه كره واحدة بخلافه ، بل يجب الابتداء بما يرقق القلوب ويصفيها ، فذكرون صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم ورحمته وأخلاق أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ؛ وليحذف من التلميم كل خلاف شجر بين الصحابة ، ثم لتسمعوم جمال الطبيعة المسمى بعلم الأشياء مقرونا بالآيات القرآنية ، وأتم في ذلك تصلون معهم صلاة حاضرة فيها قلوبهم ، بل مروعم أن يقوموا بالليل كما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فهذا التمرين لا يبد منه حتى ثبت حب الله في قلبه ويعتزج بدمه ، ثم بعد ذلك ادرسوا علوم الفقه والأصول والعلوم الأخرى كما تشاءون .

لماذا وجب للران في كل شيء

قد ظهر أن المادة ليست شيئاً مذكورا ، اللهم إلا أنها أنوار متحركة اجتمعت وقد اختلفت مظاهرها باختلاف حركاتها (انظره في سورة النور عند آية . الله نور السموات والأرض) .

يا عجباً : إذن أجسامنا نور متكاثف ولكنه متحرك حركات سريعة جدا تبلغ نحو ستة آلاف مليون مليون حركة في الثانية ، ثم إن هذه الأجسام لا تظهر نمرانها إلا بالحركات كأن ذلك الأجسام بهيئة خاصة فتكون الكهرومغناطيسية ، لأنها لما كانت دائمة التحرك أتت أن يستخرج ما فيها من الأسرار إلا بحركات جديدة غير حركاتها الطبيعية ، العالم حركات منظمات لا غير في شيء سموه الأثير ، ولن تستخرج كنوز المادة إلا بالحركة أيضاً ، ولو أمكن استخراج ما في الجوهر الفرد بأي عمل كان وخرج منه ما كان كامناً فيه لأخرج حرارة وضوءاً بهما تصبغ الأرض مشتتة جميعها . هذا كلام علماء زماننا .

الله أكبر : إذن نحن الآن في وسط عجائب وغرائب ، إذن جسمي أنا فيه من الكنوز ما لا حصر له ، وذلك في ذراته هو المادية ، وإذا كان جسمي على هذا النمط فكيف بأرواحنا تلك الأرواح التي لها صلة ما بصانع العالم ، وهو على طريق المجاز نور وشعاع من إبداعه فلها قرب ما ، ولكن لن يستخرج ما كمن فيها إلا بالعبادات لأنها تكرار وتمرين على القواعد الكلية للدين ، فهذا يذكر اسم الله ، ويذكر نعمه ، ويتوجه العبد إليه .

فإذا كان الجوهر الفرد باستخراج ما كمن فيه إن أمكن يقرب الأرض كلها ، فرجل واحد إذا استخرجت قواه بالصلوات والعبادات ، وكان ذا قلب سليم محب للعالم مخلص فهذا يقرب نوع الإنسان كله أو بعضه ، وهؤلاء هم الأنبياء ويتبعهم المخلصون المحققون من أممهم .

وملخص هذا المقام أن العلوم لا يتم الاتضاع بها إلا بالتمرين ، وأجل العلوم معرفة الله ، وهذه لا تتم إلا بالعبادات ، وهذه العبادات مثبتات لتلك المعرفة ، معينات على تلقي ذلك العلم إلى النهاية فيصل لربه ويصير مرشداً للأمم ، والتي صلى الله عليه وسلم كان يصلي بالليل ، ورأى من آيات ربه الكبرى ، وأوحى إليه ، فهدى الناس ، وهكذا تابعوه المخلصون من هذه الأمة لكنهم لا يوحى إليهم بل يهتدون بهديه ويصلون ، وخواصهم يقومون الليل كما كان يقوم ، ويتعلمون ويفتح عليهم ، ويقروون علوم الأمم حتى إذا ما سمعوا أن شجرة المنهى يسير الراكب في ظل كل فن من أفتانها مائة سنة ، أو يستظل بظلها مائة ألف راكب فإنه يقول إن العلوم اليوم قربت هذه المسائل لأننا إذا رأينا في السدم المتقدم ذكرها وهي ألفا مليون مليون سديم وكل سديم منها فيه ألف مليون شمس على الأقل ، والضوء يجري في مجرتنا وحدها مئات الألوف من السنين

فهذا مما نراه أن عالم المادة مدهش وعجيب فكيف بعالم الغيب الذي لا يعرفه إلا الأنبياء . فأصبحت العلوم اليوم مفهومات ومقربات لمسائل الدين .

فما سمع ذلك صاحبي قال الحمد لله الذي بتمتته تم الصالحات . وإلى هنا تم الكلام على القسم الأول في تفسير البسطة . انتهى ليلة السبت ٢٩ أغسطس سنة ١٩٣١ م

مقدمة : في مناسبة هذه السورة لما قبلها

لقد خدمت السورة المقدمة بعبادات تقرب العبد من الله ، وأخلاق شريفة : كالصبر على ما يصيب الإنسان ، وأن يقول المرء عند القيام من الليل ، وعند القيام إلى الصلاة ، وعند القيام من أى مجلس كان : « سبحانك اللهم وبحمدك » ونحوها وبالعبادات ليلاً ، كصلاة المغرب والعشاء ، وكصلاة ركعتين بعد الفجر إذا أدبرت النجوم ، وهما ركعتا الفجر قبل الفرض كما أن إدار السجود اركعتان بعد المغرب ، فهذه العبادات مذكرات بالله ، مقربات العبد من ربه ، لأن كثرة الذكر تؤثر في النفس ، تستحضر المذكور استحضاراً تقر به النفس على طول الزمان ، وذلك هو الذي هي . النفس الإنسانية للإلهام في عامة الناس وللوحى في الأنبياء . ولقد كان صلى الله عليه وسلم يتعبد في غار حراء فأوحى إليه ، فها هنا ذكرت العبادة في آخر (سورة الطور) وأنبئت بالوحى في (سورة النجم) تعليلاً للأمة أن من أكثر من ذكر الله عند قيامه من النوم . ومن مجلسه ، وللصلاة ، وصلى المغرب والعشاء بحضور قلب ، وفي بعض الليل ، وركعتي الفجر ، فإنه أقرب إلى الإلهام من غيره .

ويبقى لمن يتصدى لإرشاد الأمة أن يكون هذا خلقه ، فإن لم يفعل ذلك كانت آثاره ضائعة في الأمة لأن النفوس التي لا تتورق بذكر الله لا تتورق في الأمة . وكأنها أكر باقتراب قلبه من المذكور يتحنى عليه فيفيض العلم على قلبه فتحس النفوس بذلك الفيض فتقبله . وفي ذكر إدار النجوم وتعقيبه بالنجم إذا هوى مناسبة لطيفة ، وكأنه يقول : أيها الناس ، إنه صلى الله عليه وسلم يقوم الليل وصلى المغرب والعشاء . ويذكر الله عند قيامه من النوم ، وعند قيامه للصلاة ، ويصلى ركعتي الفجر ، فهو في عبادة إلى مطلع الفجر إذا أدبرت النجوم فاستحق بذلك أن أفيض عليه العلم والوحى ، وذلك في :

القسم الثاني : في أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوحى إليه . وفي قرينه من ربه

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(والنجم إذا هوى) أى أقسم بحسب النجوم إذا غربت أو طلعت ، يقال هوى هويًا (بالفتح) إذا سقط وغرب ، وهويًا (بالضم) إذا علا وصعد ، أو بالنجم من نجوم القرآن إذا زل ، فالنجم الساقط عند شروقه وعند غروبه يشمر النفوس بحمال الإبداع وحكمة الخلق وهكذا نجم القرآن وقد زل القرآن في عشرين سنة . أقسم الله بذلك وجواب القسم قوله (ماضل صاحبكم) ما عدل محمد صلى الله عليه وسلم عن الطريق المستقيم (وما عوى) وما اعتقد باطلا ، والحطاب لقريش (وما ينطق عن الهوى) أى بالهوى : أى لا يتكلم بالباطل ، وذلك رد لقولهم : إن محمداً يقول القرآن من تلقاء نفسه (إن هو إلا وحي يوحى) أى ما القرآن إلا وحي يوحى الله إليه (عله شديد القوى) ملك شديد قواه وهو جبرئيل ، ويقال إنه اقتلع قرى قوم لوط وحملها على جناحه ، ورفعها إلى السماء ثم قلبها ، وصاح صيحة بشمود فأصبحوا جاثمين ، هذا هو الذي يقوله علماء التفسير رحمهم الله ، وقد جاء في علم الأرواح الحديث أن للأرواح من القوى ما يحجز البشر ، وكلما ارتقت الروح كانت أعلم وأقدر على الأعمال العظيمة ، ولقد مر عليك في هذا التفسير في (سورة البقرة) ما رآه

خمسة عشر ألف نفس إلى مجلس الأعيان في الولايات المتحدة وقولهم: إنا رأينا أنوارا ومعنا أصواتنا وشهدنا زلزلة وأمورا عظاما ، فها نحن أولاء جئنا إلى مجلسكم الوقر لنستجلى حقيقة الأمر في ذلك ، وهذا عند استحضار الأرواح إلى آخر ما هناك وقد ذكرته هناك بلفظه فارجم إليه ، وإذا كان هذا في الأرواح التي فارقت أرضنا لما بالك بالأرواح الملوية كجبريل ، فانظر للعلم الحديث كيف أظهر ما كان العقل لا يصدقه وإنما يؤمن الناس به إيمانا ، فالملائكة أقوياء الأجسام في عقولهم حصافة رأى وتديير وحكمة ، وهذا هو قوله (ذو مرة) ولعلك تذكر مامر في هذا التفسير نقلا عن عداء الطبيعة في أوروبا لاسيا (أو لفرلودج) وقوله: «إنني أصبحت موقنا أننا نعيش في عالم نحن بالنسبة إليه كأنه لنا وهم يساعدونا ويحافظون علينا ويقول هذا وقتت عليه بطريق علمي يريد تحضير الأرواح ، ثم قال: فأذن ماقاله القديسون من أنهم رأوا للملائكة ، أو أنهم رأوا الله ، كل ذلك حق لامرية فيه ، وهذا من عجائب القرآن ، إن سمعياته أصبحت اليوم تداع بين الناس بصفة علوم روحية وكشف حديث ، وذلك هو قوله تعالى: «سترهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم» فقوله «في الآفاق» راجع لما كشف حديثا كالبحر للسجور المتقدم ، وقوله «وفي أنفسهم» كقوله «شديد القوى ذو مرة» فإن القوة الجسمية والعقلية للعالم الروحي قد ظهرت بطرق علم الأرواح ، وهذا يستحيل أن يعرفه الناس إلا بالاستحضار أو التنويم المغناطيسى، وكلاهما إن يكون إلا بالأنفس البشرية، فإن التنويم المغناطيسى معناه اغتلاص النفس عن البدن اغتلاصا جزئيا أو كليا وهي به مروطة وهناك تتصل بالعوالم الروحية ، فإذن معرفة العالم الروحي لم تتم إلا بواضحة أنفسنا ، ولعلك تذكر مامر في (سورة البقرة) من تنويم المريض حتى اطلع على مرضه وعلى دوائه ، وبين أوقات المرض للقبلة بالدقة، وبين الأدوية اللازمة . وهذا كان أمام أكابر الأطباء بفرنسا كما شرحت هناك، وتم كل هذا ببدالامتحان الدقيق والحرم الشديد والانتباه التام ، فهذه النفوس الإنسانية المتعلقة بأجسامنا هذا شأنها ، ومن شأنها أن تنطلق وتكلم الأرواح الأخرى كما عرفت ، فهذا هو المقصود من إراءتنا آيات الله في الأنفس والآفاق . ولقد تجلى لك في هذا التفسير أكثر ما تجلى في الآفاق من عجائب الطبيعة ، وما تجلى للأنفس من عالم الأرواح والملائكة ، وسترى بعد ذلك ما يظهر من المجائب ، فلي للسلمين أن يفكروا فيها ، وأن يعلموها ، وقوله (فاستوى وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى) أى استقام على صورته الحقيقية التي خلقه الله عليها حين أحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يراه في صورته الحقيقية ، فظهر له في الأفق الأعلى : وهو أفق الشمس ، فملا الأفق ، ثم أخذ جبريل يدنو من رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتدلى : أى يزيد في القرب والتزول بقرب النبي صلى الله عليه وسلم حتى كان منه مقدار قوسين ، والعرب تقدر بالقوس وبالرمح وبالسوط وبالذراع والباع : أى فكان مقدار مسافة قربه مثل قدر قوسين أو أقرب على تقديركم ، وعلى مقدار فهمكم . إذ تقولون قدر رحمين أو أنقص ، وليس بعد التدلى والقرب إلا الوحي ، فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد صلى الله عليه وسلم ما أوحى ، عبر بذلك تفخيا للوحي به ، مثل أنه أوحى إليه «ألم يجدك يتيما فأوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك غائلا فأغنى ، فأما اليتيم فلا تنهر ، وأما السائل فلا تنهر ، وأما بنعمة ربك كحدث» وهذا من عظام الأمور ، ولا جرم أن تظهر الأرواح في صور مرئية أصبح الآن معروفا ، وقد قص علماء الأرواح عجائب ، إذ تظهر الروح في صور بشرية وصور نورية وتخطبهم ، وذلك في حال التنويم المغناطيسى ، وتحضر القواكه ، وقد تم ذلك في جهات كثيرة من الأرض والسلمون لا يعلمون ، وقد ذكرت كثيرا من هذا في هذا التفسير في مواضع كثيرة ، ظهر ذلك على يد الأمم الأوروبية من أرواح ليست في شرف جبريل ، ولا هي مستنزلة على أنبياء ، بل على

أناس امتازت قواهم بأنها مستعدة للتنويم المغناطيسي وإن لم تسكن قدسية كأرواح الأنبياء ، فإذا صح هذا بالنسبة لآحاد الناس اليوم فليكن للأنبياء من باب أولى بطريق يناسب مقامهم ، إذ لا تتجلى الأرواح إلا بالمناسبة بين التجلي والتجلى عليه ، وهما هنا ظهر جبريل لنبينا صلى الله عليه وسلم وتبدت صورته له صلى الله عليه وسلم وهذا راجع لقوله : «شديد القوى» لأن ظهوره في صورة مرئية راجع لقوته وشدتها ، وقوله : «فأوحى إلى عبده ما أوحى» راجع لقوته العلمية : أي قوله «ذو مرة» فهو على سبيل اللف والنشر للرب ولما كان الإنسان كثيرا ما يظن أنه قد تخيل ما رآه ويكذب قلبه ما ظهر له ، بل قال علماء الأرواح إنهم لما خاطبوا الأرواح قالوا لهم : إنكم كثيرا ما يظهر لكم عجائب روحية فتظنونها من الوهم وتنسبونها إلى خداع الحواس ، فالناس في أكثر أحوالهم يكذبون ما يقع لهم من غرائب الأرواح مع أن فيهم من هم أقرب استعدادا لتجليها ، فلما كانت هذه عادة الناس أعقبه الله بما يفيد أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقم بنفسه إن هذا خداع الحواس ولا أنه وهم فقال (ما كذب الفؤاد ما رأى) أي ما قاله فؤاده لما رآه لم يعرفه كما يحصل لبعض العامة بعض التجليات الجزئية فيظنونها وهما لأنهم ليسوا مؤيدين من الله (أفتأرونه على ما يرى) أتجادلونه على ما رآه بعينه تلك الليلة ، بل صدقه وحققه (ولقد رآه زلزلة أخرى ، عند سدره المنتهى) أي ولقد رآه مرة أخرى كما رآه هذه المرة فكان ظاهرا له بهيئته ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم فما حصل في الأولى حصل في الأخرى ، ولم يكن ذلك في الأرض ، بل كان عند شجرة نبق في السماء السابعة عن عرش العرش ، وهي في منتهى الجنة أي آخرها ولم يجاوزها أحد في الرقي من الخلائق وعلم الملائكة ينتهي إليها ، وما وراءها غيب لا يعلمه إلا الله ، وأرواح الشهداء أيضا تنتهي إليها ، أو هي منتهى ما يهجر من الأرض فيقبض منها ، وإليها ينتهي ما يهبط من فوقها فيقبض منها . وفي الحديث أن نبقها كقلال هجر ، وإن أوراقها كأذان الفيلة ، وقد غشها من نور الله ما غشها فتغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن يتعنا من حسنها ، ومن وصفها أن الراكب يسير في ظل الفتن منها مائة سنة ، أو يستظل بظلها مائة ألف راكب فيها فراش الذهب ، ووصفها مقاتل أنها شجرة تحمل الحلى . والحلل والتار من جميع الألوان ولو أن ورقة وضعت منها في الأرض لأضاءت لأهل الأرض ، وهي شجرة طوبى التي ذكرها الله في (سورة الرعد) ولقد فهمت من هذا الملخص قوله تعالى (عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة ما يغشى) أي رآه إذ يغشى السدرة ما يغشاها من الخلائق الدالة على عظمة الله وجلاله ، ومن الأنوار والإشراق والبهجة والحسن والنضارة ، ومن الملائكة ، ومن فراش الذهب ، من كل ما ورد في الحديث (ما زاغ البصر) أي بصر رسول الله صلى الله عليه وسلم أي ما عدل عن رؤية العجائب التي أمر برؤيتها ومكن منها ، وما مال بينا ولا شمالا (وما طغى) وما جاوز ما أمر برؤيته (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) أي والله لقد رأى الكبرى من آياته وعجائبه الملسية والملكوتية لبلة الممرج ، ومنها نور رب العزة الذي غشى السدرة فلم يزغ بصره ، بل ثبت في ذلك المقام الذي نزل فيه الأقدام حافظا قواه ، والآيات الكبرى منها ما ذكر ومنها ما لم يذكر ، ومنها أنه رأى رفرقا أخضر سد أفق السماء ، وأنه رأى جبريل له ستائة جناح .

ثم كأن الله يقول : هذا وصف ما رآه ، فماذا رأيتم أنتم أيها المشركون ؟ فهل ترون في اللات والعزى ومناة من العجائب ما رأى محمد ؟ وكيف تحضرون نفوسكم في العالم المنادي وأصنامهم وتضطنون على أنفسكم طريق الوصول والارتقاء ، إن النفس لا ترقى إلا بما استعدت له ، فإذا وقفت نفوسكم عند هذه الملحة وأصنامها لم يكن لها عروج إلى السماء .

القسم الثالث : تبريع الشركيين على جهلهم وكفرهم بعبادة الأصنام
 ونسبتهم البنات إلى الله ، وأخذهم بالظن وبغلمهم ، وفي حكم علمية ، وفي صفات قه عالية
 قال تعالى (أفرايتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى) هذه الثلاثة أصنام كانت لهم ، فالات كان
 رجلا يلت السوق للحاج ، فلما مات عنكفوا على قبره يعبدونه ، ثم صنعوا له صورة تعبد ، والعزى شجرة
 بظفان كانوا يعبدونها فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد فقطعها ، فجعل يضرها
 بالقأس ويقول :

يا عزى كفرانك لا سبحانهك إنى رأيت الله قد أهانك

ومناة صخرة كانت لهذيل وخزاعة ، أو ثقيف ، وكانت دماء النساءك تسمى عندها أى تراق ، وقوله
 صفة ذم : أى المتأخرة الوضعية المقدار كما في قوله تعالى : « وقالت أخراهم لأولاهم » أى وضعاؤهم لرؤسائهم
 وأشرفهم ، ولفظ الأخرى متعارف بين أبناء العرب المصريين بهذا المعنى ويقولون هو الآخر وهي الأخرى
 بمعنى الضعة . وتأخر القدر والشرف .

ولما قرعهم على نزل عقولهم لعبادة الأصنام ، وتناهبها في الجهالة ، وسقوط المنزلة عن المقام الأرفع عند
 سدرة المنتهى أخذ يذكر جهالات أخرى من جهالاتهم فقال (ألكم الذكر وله الأنثى) كانوا يزعمون أن هذه
 الأصنام لها كل للملائكة ، أو مواطن لجنيات تسكنها ، والملائكة والجنيات بنات الله ، أفرايتم هذه الأصنام
 الثلاثة (ألكم الذكر وله الأنثى) تقر بها لهم وتوبيخا ، إذ يجعلون هذه الهياكل لبنات الله من ملائكة
 أو جن ، وهم يأتون من البنات ، ويصطفون الذكور . فكأن الله قد منحهم ما حرمة على نفسه ، وقوله
 « أفرايتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى » مفعوله الثاني « ألكم الذكر وله الأنثى » كقوله « أفرايتم
 ما تعلمون ، أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون » (تلك إذن قصة ضري) جائرة حيث جعلتم له ما تستنكرون منه
 وهي فعلى كفضلى من الضير : وهو الجور ، لكن كثرت فاؤه لتسلم الياء (إن هي إلا أسماء) أى إن الأصنام
 من حيث الألوهية إلا أسماء ، تطفون عليها ويقولون إنها آلهة وليس فيها شئ . من معنى الألوهية (سميتوها)
 أى سميت بها (أنتم وآباؤكم) بهسواكم (ما أرسل الله بها من سلطان) برهان (إن يتبعون إلا الظن) إلا
 توهم أن ما هم عليه حق تقليداً وتوهمها باطلاً (وما نهوى الأفسس) وما تشبهه أنفسهم (ولقد جاءهم من
 ربهم الهدى) الرسول أو الكتاب (أم للإنسان ما عصى) بل الإنسان ما يتناه : أى ليس له كل ما يتناه ،
 إذن ليس لهم مطمع في شفاعته الآلهة المحترقة وليس لهم أن يطعموا حيث يقولون : « ولئن رجعت إلى ربي
 إن لى عنده للحسنى » ويقولون « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » وما أشبه ذلك ،
 ومثل هذا أمانى الإنسان في نفسه أو أمته ، فإنه هو الدبر ، وعلى الإنسان العمل والجد (فق الآخرة والأولى)
 يعطى منهما ما يشاء لمن يريد وليس لأحد أن يتحكم عليه في شئ . منها (وكم من ملك في السموات لا تنفى
 شفاعتهم شيئا) أى وكثير من الملائكة لا تنفى شفاعتهم شيئا ولا تنفع ، فإذن أمر الشفاعة ضيق فإن الملائكة
 مع قربهم من ربهم وكثرتهم لو شفَعوا بأجمعهم لأحد لم تنفع شفاعتهم قط ولم تنفع إلا إذا شفَعوا من بعد أن
 يأذن الله لهم في الشفاعة لمن يشاء الشفاعة له ويرضاه وبراء أهلا لأن يشفع له ، وإذا كان هذا أمر الملائكة
 الذين هم عالم روى أقرب إلى الرب من الأصنام وعبادة الأصنام ، فكيف يكون الأمر إذن في أصنام أرضية
 ميتة لا روح لها في غاية البعد عن ذلك المقام الأقدس ، وبهذا فهت قوله تعالى (إلا من بعد أن يأذن الله
 لمن يشاء ورضى ، إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون للملائكة) أى كل واحد منهم (تسمية الأنثى)
 بأن سموه بنتا (وما لهم به من علم) أى وما لهم بما يقولون من علم (إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يبنى
 من الحق شيئا) فإن الحق الذى هو حقيقة الشئ . وما هو عليه إنما يعرف بالإيقان لا بالظن والنوهم (فأعرض

عمن تولى عن ذكرنا) فأعرض عن رأيه ممرضاً عن ذكر الله وهو القرآن (ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك)
 أى اختارهم الدنيا والرضا بها (مبلغهم من العلم) انتهى علمهم (إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو
 أعلم بمن اهتدى) يقول إنه يعلم من استعد للهداية ومن ليس أهلاً ، فلا تعب نفسك في دعوهم وإنما عليك
 البلاغ (والله ما فى السموات وما فى الأرض) خلقاً وملسكاً وعبداً يهدى من يشاء ويضل من يشاء (ليجزى
 الذين أساءوا بما عملوا) أى يعقاب عملهم (ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى) أى بالثبوتة بالحسنى وهى الجنة
 على مقتضى النظام الذى وضعه بحيث يسير كل فى الطريق الذى قدره له الله على مقتضى الاستعداد . ثم
 وصف الحسنيين فقال (الذين يحبون كباثر الإثم) أى الذنب الذى يستحق صاحبه العقاب (والفواحش)
 جمع فاحشة ، وهى ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال (إلا ما قل وصغر من الذنوب أو مقارنة
 للعصية من غير موافقة ، فهذا مغفور من مجتنى الكبائر ، والاستثناء منقطع (إن ربك واسع الغفرة) حيث
 يقفر الصفات باجتناب الكبائر ، وله أن يفر ما شاء من الذنوب صغيرها وكبيرها ، وإنما ذكرها هنا لئلا
 يئس صاحب الكبيرة من رحمة الله . والكبيرة كل ذنب حنمه الله بنار ، أو غضب ، أو لعنة ، أو عذاب
 أو حسد فى الدنيا ، أو أقدم صاحبه عليه من غير استنطار خوف أو نعم . أو ترتب عليه مقاسد كبيرة ،
 ولو كان فى نظر الناس صغيراً ، فمن أمسك إنساناً بالقله ظالم ، أو دل العدو على عورات البلاد ، فقد فعل
 كل منهما أمراً عظيماً فيكون أكل مال اليتيم بالنسبة لهذين قليلاً جداً مع أنه من الكبائر . ولو كذب على
 إسان كذباً ولم أنه يقتل بسببه فهذا من الكبائر أيضاً ، فأما إذا كذب عليه وترتب على الكذب أخذ
 تغلعة منه فليس من الكبائر . يقول الله إنه واسع الغفرة (هو أعلم بكم) أعلم بأحوالكم منكم (إذ
 أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم) أى علم أحوالكم ومصارف أموركم حين ابتدأ
 خلقكم من التراب وحين صوركم فى الأرحام (فلا تزكوا أنفسكم) تنسبونها إلى زكاه العمل ، وتنشأ عليها
 زيادة الخير والطاعات ، أو بالطهارة من المعاصي ، فدعوا الشياطين عليها واهضموها ، إن الله علم الزكى
 منكم ، والتقى أولاً وآخرها قبل أن يخرجكم من صلب آدم ، وقبل أن يخرجوا من بطون أمهاتكم .

وسبب ذلك أن ناساً كانوا يعملون أعمالاً حسنة ويقولون صلاتنا وصيامنا وحجنا . وكان ذلك على
 سبيل الإعجاب والرياء ، وليس على سبيل الاعتراف بالنعمة فإنه جائز ، والسيرة بالطاعة طاعة ، وذكرها
 شكر مالم يصح كالحجاب على النفس فتنتع ما يرد عليها من الواردات كما تقدم منقولاً عن الإمام الغزالي فى
 (سورة آل عمران) وهذه الآية كآية : « إن ذلك فى كتاب على الله يسير لكيلا تأسوا على
 ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » فهناك يقول : كل شئ فى كتاب ، فما جاءكم من نعمة أو فاتكم منها فينبغى
 أن لا يؤثر فيكم فرحاً ولا ترحاً لأننا نحن كتبنا فى كتابنا ، فكهذا هنا يقول : لا ينبغى تزكية النفس لأن
 ما علمناه مقدر . وملخص الآيتين أن الكامل لا يفرح بنعمة ، ولا يحزن بنقصه ، ولا يفرح بفضل ، لأنه لا يعمل له
 ولا يفتدبر والعمل لله وحده . وهذه مرتبة شريفة متى وصلها الإنسان كان سعيداً ، وهذه هى التى تقولها فى صلواتنا
 فى الرقع والاعتدال : « أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد ، لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى
 لما منعت ، ولا راد لما قضيت ، ولا ينفع ذا الجند منك الجند » فهذا الدعاء يقصد منه الاستكمال بهذه النعمة
 الشريفة ، وقوله (هو أعلم بمن اتقى) أى يعلم اتقى وغيره منكم قبل أن يخرجكم من صلب آدم (أفرايت
 الذى تولى) أعرض عن الإيمان (وأعطى قليلاً و أكدى) قطع عطيته وأمسك ، وأصل ذلك أن الحافر
 تلقاه ككدية أى صخره عظيمة فيمسك عن الحفر (أعنده علم الغيب فهو يرى) أن الكفر والبخل من
 الأعمال النافعة عند الله (أم لم ينأ بما فى صحف موسى) أى بل ألم يخرجنا فى صحف موسى وهو التوراة

(وإبراهيم) أى وصحف إبراهيم (الذى وفى) أى وفى وأتم لما أمره الله بشئ. إلا وفى به ولم يسأل مخلوقا ، فلما قذف فى النار قال له جبريل : "ما حاجتك؟" فقال أما إليك فلا ، وأيضاً صبر على نار النوروز وذبح ولده وقد كان يمشى كل يوم فرسخا يرتاد ضيفا فإن واقفه أكرمه وإلا نوى الصوم . ثم ذكر الله ما فى صخفهما ، وهو ما يأتى :

- (١) أن لا يؤاخذ الإنسان بذنب غيره .
 - (٢) ولا يثاب إلا على عمله .
 - (٣) وأن عمله سوف يرى يوم القيامة فى ميزانه .
 - (٤) وأنه يجازى عليه الجزاء الأوفر .
 - (٥) وأن انتهاء الحلائق ورجوعهم إنما هو إلى ربهم فيجازيهم بأعمالهم .
 - (٦) وأن الله خالق الضحك والبكاء والفرح والحزن .
 - (٧) والموت والحياة .
 - (٨) وأنه خلق الذكر والأنثى من نطفة إذا تصب فى الرحم .
 - (٩) وهو الذى أعطى التنى ، وأفاد القنية وهى أصول الأموال وما يدخرونه بعد الكفاية .
 - (١٠) وأنه هورب الشعرى ، وهو كوكب يطلع بعد الجوزاء فى شدة الحر وكانت خزاعة تعبدها فقال الله كلا إنه هو ربها . وأول من سن لهم ذلك أبو كبشة من أشرفهم بعدها وقال لأن النجوم تقطع السماء عرضا ، والشعرى تقطعها طولا ، فهى مخالفة لما تعبدها ، وخزاعة تبعه ، وتسمى الشعرى أيضا [كلب الجبار] والشعرى اثنتان : بمانية وشامية ، والمجرة بينهما ، وإحدهما تسمى العبور ، والأخرى تسمى القميصاء وهى أخفى من العبور ، والمراد هنا العبور .
 - (١١) وأنه أهلك عادا الأولى القدماء لأنهم أولى الأمم هلاكا بعد قوم نوح .
 - (١٢) ونوح لما أبقى الفريقين .
 - (١٣) وقوم نوح من قبل عاد ونموذ ، وقد كانوا أظلم وأظنى من الفريقين ، فلقد كانوا يؤذونه وينفرون عنه ويضربونه حتى لا يكون به حراك .
 - (١٤) والمؤنفة : وهى القرى التى انفكت بأهلها : أى انقلبت ، وهى قرى قوم لوط ، أهواها الله وأسقطها ، فهو بعد أن رفقها قلبها (ففشاها ما غشى) فيه نهويل عظيم .
- هذه أربع عشرة مسألة مذكورة فى صحف موسى وإبراهيم وإعماجى بها لأن الذى تولى وأعطى قليلا وأمسك عطاءه عاقل عن علم الله وعن العلم الذى أنزل على أنبيائه ، ومن هذا العلم هذه المسائل ، ومنها أنه لا ينفعه إلا ما عمل من صالح كالعطاء فلماذا يمسه ، والعطاء بدون إيمان لا ينفع فكيف يمرض عن الأصل وهو الإيمان وعن القرع وهو العطاء ، وأكثر المفسرين رحمهم الله أنها نزلت فى الوليد بن المغيرة ، كان يتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم فعيره بعض الشركين وقال تركت دين الأشياخ وصللتهم فقال أخشى عذاب الله فضمن بعضهم أن يتحمل عنه العذاب إن أعطاه بعض ماله ، فارتد وأعطى بعض الشروط ثم نحل بالباقي ، فهذا يذكره الله بأنه لم يطلع على علم الله حتى يعرف حقائق الأشياء وأن قوله المذكور ليس مرضيا عند الله وأنه لا يؤاخذ أحد بذنب أحد فكيف ظن أن ذلك الرجل يتحمل عنه ذنبه يوم القيامة والآية عامة لا تختص بهذا السبب ولا بغيره كما رأيت .
- ولما عدد الله تلك المسائل وفيها عبر وحكم ، ومن اعتبر بها الإنسان صارت نعمة قال تعالى (فبأى

آلاء ربك تتبارى) أى فبأى نعم ربك أيها المخاطب تتشكك أبما أولاك من النعم أم بما كفاك من النعم ؟ وكلها دالة على وحدانية ربك وربوبيته فبأيها تتشكك مع أنها واضحة (هذا) أى محمد (نذير) منذر (من النذر الأولى) من النذرين الأولين ، أو الأولى على معنى الجماعة ، أو القرآن نذير من جنس الإنذارات الأولى التى أنذر بها من قبلكم (أذرت الآزفة) قربت الساعة للوصوفة بالقرب فى قوله تعالى « اقتربت الساعة » (ليس لها من دون الله كاشفة) أى ليس لها نفس كاشفة أى مظهرة ومبينة متى تقوم إلا الله ، أو الكاشفة بمعنى الكشف كالعافية أى لا يكشف عنها ولا يظهرها إلا الله ، وهما يشولان لمعنى واحد ، أو يقال ليس لها نفس قادرة على كشفها إذا وقعت إلا الله غير أنه لا يكشفها لأنه لا بد ماض فى جزاء كل بما يستحقه كما يقتضيه نظامه فى السموات والأرض ، فالمعنيان الأولان بمعنى بيانها ، وللمعنى الأخير بمعنى كشف غمها إذا وقعت . ثم قال تعالى (أفمن هذا الحديث) القرآن (تعجبون) إنكاراً (وتضحكون) استهزاء (ولا تكونون) تحزناً على ما فرطتم (وأنتم سامدون) لاهون أو مستكبرون يقال سمداً البعير إذا رفع رأسه فى مسيره ، أو مضوز من السمود وهو الغنا . لتشفوا الناس عن اسماعه (فاسجدوا لله واعبدوا) أى واعبدوه دون الآلهة . انتهى التفسير اللفظى للقسم الثالث من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذه السورة

- اللطيفة الأولى فى قوله تعالى . « والنجم إذا هوى » .
اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : « وأنه هو أضحك وبكى ، وأنه هو أمت وأحيا » .
اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى : « وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ، من نطفة إذا تمنى ، وأن عليه النشأة الأخرى » .

اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : « والنجم إذا هوى »

لقد علمت مناسبة أول هذه السورة لما قبلها ، وأدركت السر فى ذلك ، وأزيدك الآن وضوحاً فأقول لقد ختمت السورة السابقة بقوله تعالى : « وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم » والتسبيح بالحمد إما سبحان الله وبحمده ، وإما الصلاة ، ولا جرم أن التسبيح هو التنزيه ، والحمد هو الذكر بالجليل على الجليل الاختيارى : أى أن يشكر الإنسان النعمة ، ليس المقصود مجرد الألفاظ ، إنما يراد بالألفاظ وتكرارها إيقاظ القلوب إلى نعم علام الغيوب . وبجارية أصرح : أن يتغلغل الإنسان فى معرفة النعم أى أن يدرس هذا النظام الذى نعيش فيه ، فالعامة يكفون بالتسبيح والتحميد اللفظيين العيين على نور القلب واستعداده للفيض ، وحكام الأمة الإسلامية يسبحون ويحمدون ويكبرون لفظاً ، ثم يتغلغلون فى الفكر والحكمة والعلم ، ويوقنون بأن الذكر بالقلب واللسان لها فى أثر المعارف والمعلوم ، وعلى ذلك يجدون فى الحكمة ، ولعلك تقول : أين هذا فى هذه الآيات ؟ أقول لك : انظر إلى سورة قـ وإلى سورة التداريات وإلى سورة الطور ، فى (قـ) قرع الكفار ووجههم على أنهم لم ينظروا ما فى السموات وما فى الأرض ، وفى التداريات والطور جمال الرياح والسحاب والطر مقسماً بها تعظيماً لشأن العلم بها ودراستها ، وفى الطور أقدم بالمرش والفرش وبمعرفة ما بينهما . ولما ختم السورة أمر بالتسبيح والحمد ، والحمد يرجع إلى النعم ، والنعم إن لم تعرف فلا حمد عليها ، فأصبح أمر الحمد هو نفس أمر العلم ، والعلم بكل مخلوق فى الأرض وفى السماء بقدر الطاقة البشرية ، وما فى الأرض والسماء ، مذكور أول السورة وما قبلها ، وابتداء سورة النجم بأن أقدم به لفتنا لئلا ينظر العبد إلى النجوم فى إقبالها وإدبارها ، وإصباحها وإمساءها ، حتى لا يعيش الإنسان فى دار وهو يجهل ما يحيط به فيها ، وفى ذكر النجم تذكراً بإشراق النجوم وإشراق النفوس بالعلم وبالعبادة وإشراق

القرآن ، ويأشراق الشرائع المنزلة ، ويأشراق نور النبوة ، وأن صاحبها صلى الله عليه وسلم دنا من ربه فتدلى
إليه آخره أو دنا الله منه ، أو دنا هو من جبريل ، هذه معان ثلاث رآها علماء آخرون جاءت في التفسير
ذكرتها لتطلع عليها حتى تصف على ما ذكره العلماء ، ولا تضع وقتك في اقتفاء آثار الأقوال ، وإنما يهنا
الحكمة والعلم فنقول :

طار رأي النبي صلى الله عليه وسلم من آيات ربه الكبرى كان هذا نوعا من العلم ، لأن كل ما رآه
الإنسان يبصره أو يفتقه فهو علم ، وهذا العلم يستوجب الحمد المذكور في آخر السورة السابقة . يقول الله
« فبسط محمد ربك حين تقوم » وهنا يقول : إني أطلعتك على عجائب ملكي ، وعلى شجرة عظيمة ، وعلى
فرائض من ذهب الخ وهذا العلم هو اللوجب للحمد ، فكأنه في السور السابقة شوق النفوس للعارف ،
ذلك لأنه أقسم بالخلاوقات في السورتين السابقتين ، وهذا تشويق للعلم بها ، وذكر في سورة الطور البيت
المعمر ، وهو في السماء ففتح بهذا بابا للنفس ، وهنا يقول : انظر إلى عجائب خلقي ، ومتى اطلمت عرفت
ومتى عرفت النعمة حمدت الله عليها ، فالحمد اللساني قليل الجدوى .

يقول الله : إن محمدا ماضل وما غوبى ، ثم قال إنه أطلع على عالمنا وعجائبنا ، فإذا يكون حمده المصحوب
بالتسبيح في آخر السورة السابقة حمدا مصحوبا بعلم ، فلا حمد إلا على نعمة ، ولا بد أن تكون معلومة
للعماد وها هو ذا قد أطلع على عجائبنا وحكمتنا في خلقنا .

ثمرة هذا المقام في أمم الإسلام

ما من امرئ إلا وأحس في نفسه بقول خفي تحدثه به نفسه فتقول في وقت ما ما هذا الكوكب ؟
ما هذا النبات ؟ ما هذا الشجر ؟ ما هذا الحجر ؟ ما هذا اللطر ، ومن أين جاء البحر ؟ وما هذه الشمس ؟
وما هذا النور ؟ وما أشبه ذلك ، ويود لو يقف على حقائقها ، ففي هذه السورة ابتداء بذكر النجم تشويقا
لبراسته ، وجاء فيها اطلاع النبي صلى الله عليه وسلم على عجائب هذه الدنيا وغرائبها ، فلئن كان هذا
للأنبياء من غير تعليم فليكن لنا بطريق التعليم : وليس عظيمة الثروة عند الأغنياء إلا مشوقة لمن دونهم أن
يكونوا على شا كلتهم ، فمن جملة صورته طبعاً ، ومن ورث الملك عن أبيه ، ومن هو حاد الذكاء من
الناس قد كانوا قليلين في الناس ، وليس معنى هذا أن الناس لا يتولون الأحكام مالم يكونوا مالوكا ، ولا يدرسون
مالم تكن أذهانهم خارقة للعادة ، ولا يتعلمون مالم يكونوا آية في الجمال ، كلا . فالأدني يقلد الأعلى ،
فلذا رأينا في أنفسنا شوقاً إلى الاطلاع إلى العالم فلنجد في العلم حتى نعرف ما نطقه ، وإذا أطلع الله نبيه على آياته
الكبرى وجعلها له نعمة فلندرس نحن بعض آياته للشاهدة في الطبيعة والملك ، وإذا وجدنا أنه صلى الله
عليه وسلم رأى البيت المعمور ، وأن هناك ملائكة يدخلون وهم كثير والمدد الخ فلندرس العلوم الفلكية
ولنقرأ ما عرفه الناس فإن هناك عوالم عظيمة وكواكب تصغر شمسا دونها ، وإذا رأينا أن سدره المنتهى قد
انتهت إليها علوم الخلائق فلا يعرفون ما وراءها فلنعلم أن ذلك يفتح لنا باب العلم فلندرس ما في طاعتنا دراسته
حتى نقف عقول الناس : إن الناس إلى الآن يزيدون علما في معرفة الكواكب والأفلاك والطبيعة ولم يقف
الناس وهم يزيدون كل يوم كشفاً وعلما فلندرس علومهم لأنها في حيز الإمكان . وبعبارة أخرى : لم تصل العلوم
إلى حدرة المنتهى فلو أنها وصلت إليها لوقفت العقول وأعلن العلماء أن العلم لا يزيد ، ولكن العلم يزيد ،
ولا يجوز للسليبي أن يقولوا : إن العلم قاصر على الفرنجة ، فما هو ذا نبينا صلى الله عليه وسلم يقول : إن
للخلائق حدا في العلم ، وليس معنى هذا أن يكون العلم خاصاً بشير السليبي فإن قدوتنا صلى الله عليه وسلم هو
الذي أطلع على آيات ربه الكبرى بلا تعليم ، فنطلع نحن على آيات ربنا بالتعليم لأننا من الخلائق ، ولا يصح

أن نستثنى أنفسنا لهذا نكون قد جهلنا ديننا ولم نقدد بنينا الذي أمره الله أن يقول « رب زدني علما »
فليس يصح لنا أن نقول ذلك .

يفتح لنا صلى الله عليه وسلم باب العلم ويقول إنه رأى سدرة المنتهى ، وأن هناك علوما ومعارف ، ويقول
إن ما وراء سدرة المنتهى ممنوع عن الخلائق ، وكل هذا يؤخذ من « سبحان الله والحمد لله والله أكبر »
فالتسبيح تنزيه الله . والتحميد معرفة حق النعمة ، والتكبير الاعتراف بأنه أكبر مما نعلم ، فإذا كان التسبيح
والتكبير والتحميد وراء الصلوات فهو مذكر لنا بذلك ، مذكرا بأن تصفو نفوسنا أخلاقا وآدابا ، وتضرف
للعلم ، فتزبه الله عن المادة ولو احتمها يفتح لنا باب التفرغ للعلم وترك المألوفات ، والتبري من الماديات ، لأن
العلم لا يدخل إلا قلوبا لها حظ من التهذيب والتأديب ، وهذا نوع من التنزيه عن المادة والعلم للنفوس المهذبة
أقرب وهو المشار إليه بالحمد ، والعلم أمد طويل ولا حده ، فليجد الإنسان فيه يقرب من خالقه ، وعلى مقدار
علمه يكون قربه ، فما قرب صلى الله عليه وسلم لإقربا علميا ونحوه ، لا قرب الذات بل قرب المعنى ، ثم نعلم فوق
ذلك أن الله أكبر من كل ما عرفناه وما يعرفه الخلق من ملائكة وجن وإنس ، فالتسبيح والتحميد والتكبير
في الإسلام فوائع لرفق المسلمين كما تراه في هذا المقام ، فلم يقصد ذكر اللسان وخلو الجنان ، ولو قصد ذلك ما ذكرت
سورة النجم بعد الطور التي ختمت بالتسبيح والتحميد ، بل جاء بسورة النجم التي في أولها للمعارف والمعلوم
وأنه رأى من آيات ربه الكبرى ، فليقرأ المسلمون علوم العوالم المحيطة بنا ، فليقرءوا تلك الكواكب
البيدة المدهشة التي يصل ضوؤها في مئات السنين ، بل في ألوف السنين ، بل في ملايين السنين ، وإذا
تكون شمسا قريبة جدا ، بل تكون المسافة بيننا وبينها بالنسبة لغيرها أشبه بطول رمح صغير بالنسبة لمحيط
الأرض عشر مرات ، ويكون ضوؤها وقدرها بالنسبة لغيرها ضعيفين جدا وقليلين ، فراجع ما تقدم في (سورة
آل عمران) نجد ما نقلته هناك من أبعاد الكواكب عن أرضنا وفي سور غيرها كالأنعام وهكذا تقدم في هذا
التفسير ما ذكرت روح غالبى من العوالم البديعة ، والخلائق العجيبة ، التي تعيش عيشا لا يعلم به أهل الأرض
وإلى هنا تم السلام على اللطيفة الأولى في قوله تعالى : « والنجم إذا هوى » والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثانية

في قوله تعالى : « وأنه هو أضحك وأبكى ، وأنه هو أمات وأحيا ، وأنه خلق الزوجين
الذكر والأنثى ، من نطفة إذا نعى ، وأن عليه النشأة الأخرى ، وأنه هو أغنى وأقنى
وأنه هو رب الشعرى ، وأنه أهلك عادا الأولى ، وعمودنا أبقى ، وقوم نوح من قبل
إنهم كانوا هم أظلم وأطغى ، وللمؤتفة أهوى ، فقشاها ماغشى ، فبأى آلاء ربك تتبارى »
قال صاحبى الذى اعتاد مسامرتى في هذا التفسير : الله أضحك وأبكى ، الله أمات وأحيا ، الله أهلك
عادا ، الله أهلك عمودا ، وقوم نوح ، وأهوى للمؤتفة ، وانتهت الآية أن هذه آلاء الله ، والآلاء النعم ،
أمن النعم أن يبكي الميون ويهلك الأمم ؟ نعم هذا السؤال ورد كثيرا في هذا التفسير وكثرت الإجابة عليه
ولم يكن النفس لازال تطالب بالمزيد ، فعدتني أليس الله أرحم الراحمين ؟ أليس الله قدوة لنا في أماله ، الله
أهلك أمما وأبكى عيونا ، وإذا قتل أحدا إنسانا عمدا دخل جهنم ، الله يهلك أمما ، الله يسلط ليكروب
على الأمم فيهلكها ، ويسلط الأمم القوية على الضعيفة فتذلها ، الله يسلط الوحوش على آكلات الحشائش
فتأكلها ، كل هذا فعل الله ، لأن هذا نظامه ، ثم تشرجه لنا على خلاف ذلك ، فنحن بقتلنا إنسانا عمدا
نعذب في جهنم يوم القيامة ، ونحسب شربتنا علينا بالقتل . وإذا كان الله أرحم الراحمين هذا فله فكيف
بنا نحن الضماف في الأرض ؟ هذه اللامى تتردد في نفسى صباحا ومساء ، وكل ما جاء في هذا التفسير من

الأجوبة فيما مضى وإنما هي أجوبة جزئية ، والجزئيات لا تفي عن الكلّيات ، فأنا الساعة يوم الأربعاء ١٢ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية - ٢٠ يناير سنة ١٩٣٢ م أريد إجابة شاملة كاملة حتى لا أحتاج إلى سؤال بعدها في هذا الشأن . قلت : ماذا تقول في آية : « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » . فقال : وماذا تقول في آية : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائمًا بالقسط » فنحن الآن في مقام السير في طريق أولى العلم الذين يشهدون ببصائرهم أن صانع العالم قائم في عمله بالقسط والعدل ، زيد أن تشهد ونحن في الأرض كيف كان الله قائمًا بالقسط في تدبير الخلق ، وفوق ذلك زيد أن تفهم كيف يمكن الجمع بين هذا الأهلاك والابكاء والتدمير وإبادة الأمم وإذلالها وبين اسمه (الودود) . ألم يقل الله (وهو الغفور الودود ذو العرش المجيد ، فعال لما يريد) ولا جرم أن الودود يفعل ما يريد . ولكن هل يلقى وده إليهم ويكون فله محبوبًا لأنه أتى على سبيل المحبة ، وهو إهلاك للذن ، وإزالة الدول ، وإبكاء العيون أبكون ذلك ودا وأيضًا جاء في القرآن آيات في سور كثيرة كلها دالة على تزيهه في ذاته وصفاته وأفعاله ، وذلك بصفة التسبيح ، والتسبيح تزيه ، وهذا المعنى جاء مصدرًا وفعلًا ماضيًا وفعلًا مضارعًا وأمرًا ، فهو مصدر في سور كثيرة مثل : « سبحان الذي أسرى بعبده ليلا » . « سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون » وفي هذه السورة ، وفي آخر السورة قبلها : « ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم » وسبأني في (سورة الحديد) : « سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » وذكر الإحياء والإماتة هناك كما ذكرها هنا ، وفي آخر (سورة الحشر) : « يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » وفي آخر (سورة المجادلة) : « رضى الله عنهم ورضوا عنه » إن رضا العبد عن ربه وتزيهه وجه ووده يعوزه الاطلاع على جمال الأفعال ، والأفعال الإلهية المذكورة مشكلة مع أوصاف الحب والود والرضا الخ فأرجو الإجابة على هذا حتى لا أعود إلى السؤال مرة أخرى . قلت : سأسامرك إن شاء الله في أول (سورة الحديد) في هذه المعاني وهناك تتجلى للماني التي تريدها وإن كان أكثر ما سأضه عليك هناك قد مضى كثير منه متفرقا فيما مضى من التفسير . وسأشرح :

- (١) النظام التكويني .
- (٢) والنظام التشريحي وأنها متفقان :
- (٣) وأبين درجات التربية الست .
- (٤) تربية الأم لولدها .
- (٥) وتربية الأب له .
- (٦) وتربية المعلم .
- (٧) وتربية الحكومة للأفراد مع ما يتبع ذلك من نظام الجندي .
- (٨) التربية الإلهية وأنواع الزلازل والحوادث العظيمة .
- (٩) وأن الأم حين تمنع ولدها ما يضره وهو يبكي لم يمنع ذلك حبها له ، وقد ضربت مثلا لدرجات التربية التي بعدها ، وبمقدار ازدياد العلم تعرف حقائق تلك التربية ويزداد الحب للربي .
- (١٠) ويان أن العلم إما بيهية سطحية كعلم الشعراء والأدباء ، وإما بيهية حكيمية فلسفية عالية كعلم الحكماء ، وإيضاح ذلك وتفصيله من كلام (كونفوشيوس) فيلسوف الصين الذي توفي في القرن الرابع قبل الميلاد .

(١١) ثم بيان أن الحب على مقدار العلم .

(١٢) بيان أن الله توارى عنا بحجبه ولكنه قذف لنا كرات جميلة لاحصر لعددتها ، وهي الشمس والكواكب ، وهو يقر بها ويبيدها ليجذبنا إلى حضراته ، وجعل الشطرنج والترد عند اللاعبين مثلاً لذلك كما جعل الجمال والحب الأدنيين مثليين لجماله وجهه الأعلى ، وضع للناس في الأرض عجائب لولا حوادث الموت والحياة ومزعجات اللبالي لدهلت عقولهم ، فمن سرج تجرى في سقف رفوع تدور حولهم ، ومن حدائق وحقول حولهم ومناظر بهجات ، وتارة يرسل لهم شيئاً تقترب من أرضهم ليوقظهم إلى العلا ، ونسبة هذه الأعاجيب إلى صانعها كنسبة صفات السكره والصولجان والترد والشطرنج إلى مخترعيها ، والتعجب يكون على مقدر اتقان الصنعة .

هذا ما سأذكره هناك إن شاء الله مع شذرات في الآيات التي ذكرتها أيها الأخ الفكي . فلما سمع ذلك قال : إن هذا لعجب ! وإني لفي غاية الشوق إلى ما وصفت انتهت اللطيفة الثانية .

اللطيفة الثالثة

في قوله تعالى : « وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى ، وأن عليه النشأة الأخرى »

بسم الله الرحمن الرحيم

الرحمة المذكورة في البسملة في أول هذه السورة وهي منبثة في كل أجزائها كما هي منبثة في أجزاء العالم الذي نعيش فيه الذي هو محل دراستنا كما أنه مناط حياتنا .

اللهم إنك أنت الحكيم العليم الملمم الهادي ، نحمدك اللهم على الهداية ، وعلى الحكمة ، وعلى النور والعرفان ، العرفان الذي انتهجت به يوم الأحد الماضي في تفسير هذه الآيات ، وذلك بتاريخ ١٤ مارس سنة ١٩٣٢ م في شهر شوال سنة ١٣٥٠ هـ .

خرجت من القاهرة مع أهل بيتي لمشاهدة حقنا الذي اعتدت في هذا التفسير أن أكتب خواطري فيه تلك الخواطر التي ترد في المزارع والحقول ، وقد امتزج العقول فيها والنقول ، نور والله على نور ، نور الوجود على نور الكتاب المبين ، نور الحكمة العلية بزدان بكتابتنا للقدس ، كتابنا الذي جاء به الوحي تفسره المناظر الطبيعية ، وتشرح تفسيره البهاج الحقلية ، ركبتنا القطار من القاهرة ، آذن القطار بالمسير إذ ارتفع صفيره ، وازداد شهيقه وزفيره ، وأخذ يطوى الأرض طياً من محطة الليمون عند القاهرة ميمماً محطة المرج وهي التي منها تتوجه إلى حقنا ، هنالك أخذنا الفسكرك يحول في عالمنا الذي خلقناه ، وخيل لي أن روحاً علوية بجاني قد تمثل لي بشراً سوياً ، وقد أخذ يخاطبني ، وما أجل الخطاب ، وما ألد حديثه للمستطاب إذ أخذنا نتجاذب أطراف الحديث من قديم وحديث ، هنالك نسيت القطار ومن فيه وخرجت من ضيق الأرض إلى فسيح السموات ، وغبت عن عالم الحس ، وارتقيت إلى عالم الروح والعقل ، ومموت إلى فسيح السموات تذكيراً وتفكيراً .

هناك قال لي الروح ، أنظر إلى عجائب الشمس ، أنظر إليها كيف ترسل ذرات النور متتاليات متتابعات في الجو ، وانظر كيف تسافر تلك الذرات في فسيح الجو جاريات منها إلى الأرض ، ما أسرع جريها ، إنها تجرى حيثما من حين خروجها إلى أن تصل إلى أرضك هذه في ٨ دقائق و١٨ ثانية ، تجرى وتلتحقها أخرى بتقدير محكم ونظام عجيب ، وهذه الذرات الضوئية للشاهدة بحسبها الناس غير موزونة وهي موزونة (لقد تقدم في هذا التفسير أن علماء عصرنا قد وجدوا للضوء وزناً ، وأن الشمس تخرج في الثانية الواحدة منه ما يقدر بمئات اللابن من القناطر للقنطرة ، وكل هذا واضح فيما تقدم بأجلى بيان ، ذلك لأن النور عبارة

عن حركات ، والحركات طبعا لها ميل واتجاه ، وهذا الاتجاه له ثقل وإن كان ذلك لا يكاد يشعر به أحد ، ولكن اجتماع الكثير الذي لا حصر له يوجب ثقلا عظيما كما قدمناه . ثم قال : وهذا الضوء الذي هذه صفته يجري في جو أثقل منه بما لا حد له أقول : انظر ما تقدم في أول سورة الصفات ، فقد أثبت العلماء في عصرنا أن هذا الجو الفسيح يقطع النظر عن الهواء الذي هو فيه مملوء بما يسمونه (الأثير) والأثير عالم لا نحس به ، وقد قلنا إنه أشبه بخيالاتنا نحن ، فكما أن خيالاتنا لا وزن له وهو موجود هكذا هذا الأثير يظن الإنسان أنه لا وزن له بل لا وجود ، ولكن العلماء أثبتوا وجوده ووزنه معا ، ولكنه وزن مدهش إذ قالوا إنه لو قدر وكان مادة محسوسة لكان أثقل من الحديد بمئات اللرات ، وهذا القام محقق هناك بقدر الإمكان فارجع إليه ، ويقرب من ذلك أن الشمس والكواكب والأرض كلها متجاذبات ، والجبال التي تتجاذب بها وتمسك بها هذه الأجرام الكبيرة ، هذا هو الأثير فلنرضه جبلا ، وهذه الجبال المعنوية بها تجذب الشمس الأرض والسيارات ، وتجذب الأرض القمر (وبعبارة أخرى) أننا نعيش في جو مشبع بالجذب ، فهذا الجذب قوة ، وهذه القوة لو جمعت اسكانت أثقل من الحديد والرصاص والأحجار بألاف اللرات ، وهذا الذي قلته الآن سهل عليك أيها الأخ فهم مقال الروح لي ، ويزداد به فهم ما ذكره العلماء وثقلته في أول (سورة الصفات) وذكرت هذا الإيضاح هناك .

ثم قال الروح بعد ذلك : انظر الطيور ، انظر الحشرات ، انظر الأشجار ، انظر هذا كله . قلت : ثم ماذا ؟ قال : قد فهمت منظر الشمس ، وفهمت إخراجها لأنوارها ، وأنها جاربات في عالم قوى متين ، وهذا العالم القوى اللتين هو الأثير ، ذلك الأثير القوى اللتين الذي به عرفتم قوله تعالى : « وبيننا فوقكم سبعا شدادا » فكل كوكب يحيط به أثير ، والعيون تنظر الجو إلى أمد محدود ، وهناك ترى قوة منظورة واضحة لا يشك من رآها أنها سماء تظله كما لا يشك الرجال والنساء في سقوف بيوتهم أنها انظلم ، وهذه السماء المنظورة عبارة عن أجزاء من الهواء منبثة في أجزاء الأثير ، والأثير هو الأصل ، والأثير قوى متين قوة لا حد لها ، وهذا قوله تعالى : « وبيننا فوقكم سبعا شدادا » فالشدة الآن واضحة أشد وضوح في زمانكم ، وقوله بعدها : « وجعلنا سراجا وهاجا » بيان للضوء الجارى من الشمس في ذلك الجو الشديد القوى اللتين ، وهذا الجو القوى اللتين هو العمدة الذي لم تروه في آية : « الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها » فهذا الأثير عمر غير مزمية ، وهذه العمدة قوية متينة ، وكيف لا تكون قوية متينة ، وقد رفع فوقها سماء شديدة (وبيننا فوقكم سبعا شدادا) .

ثم قال : إذا عرفت هذا فأنت الآن وجميع بني آدم وكل حيوان ونبات تعيشون في وسط واحد يعمركم جو الأثير ، ذلك العالم الحقى القوى اللتين ، النور يشرق عليكم جميعا ، إذن هذا العالم جسم واحد ، وهذا الجسم يشرق عليه نوران ، : نور حسي ، ونور معنوي ، فالنور الحسى شرحناه ، والنور المعنوي هو الذي سنشرحه الآن ، فهذه الطيور لها غرائز وأنواع من الإدراك وهذا الإنسان ، بل النبات له نوع إحساس ، وما ذلك كله إلا أنوار معنوية ، وإذا كان للنور منبع وهو الشمس ، وقد سطع على كل بر وبحر ، وعامر وقمر ، ونبات وحيوان وإنسان ، فهكذا ذلك النور المعنوي المنبع من عوالم أرقى من الشمس ، عوالم هي هي شموس العقول والادراك ، عوالم أنتجت بقدرة الله وعلمه ، هذه الشموس هي أولى باسم الوجود ، هي أولى باسم النور ، هي أعمدة لهذه العصافير الطائرات ، الفردات اللريات لتربتها ، هي المعطيات لهذه الحشرات إدراكها وعلمها .

أيها الجوهري : ألا خير في رعاك الله ؟ ألم تقرأ ماجاء في كشفكم الحديث في أرضكم أن هناك في المزارع

التي تراها مادة تسمى (الفيتامين) وهي مادة الحياة ، والفيتامين المذكور يقوى في الفواكه والخضر ، ويقبل في غيرها ، ويشهد ظهوره في البرتقال وماقاربه ، ويقبل في نحو الأرز الذي فصل من قشره ، كما جربوا ذلك مع الفيران في ألمانيا ، إذ رأوا ما أكلت الارز منها وهي في الظلمة قد مرضت وهلكت ، وما أكلت البرتقال منها قويت وصحت ، فعلموا أن البرتقال أخذ من مادة الحياة المنبثقة في ضوء الشمس ، المنبثت منها عليه أكثر مما أخذ الأرز ، لأن القشر الذي كان عليه هو الذي تلقى ضوء الشمس ، فلما فصل منه أصبح هو قليل القوة والمثانة ، وأصبح آكله المقتصر عليه أضعف من آكل البرتقال ونحو البرتقال .

ثم قال : إذن هنا ضوء للشمس فيه قوة الحياة ، وهذه القوة منبعها الشمس ، وهذه القوة تكثر وتقل بحسب القابليات ، فعلى مقدار القابليات تكون العطايا .

الله أكبر . جل الله : أليست هذه الحيوانات من حشرات وطيور وداية وإنسان قوايل لنور الفكر والعالم العلوي الملئ أشبه بشمس تنبث منها الأنوار الفكرية ، وهذه الأنوار الفكرية تكون في الإنسان أكثر من الحيوان ، وتختلف الأنوار الفكرية باختلاف القوايل الحيوانية ، إذن الأنوار الفكرية لا تزال تنبث عن عوالم نورية تسمى بلسان الشعاع ملائكة ، ولسان الحكمة عقولا ونفوسا ، اختلفت للأسماء ولكن المسمى أصبح معلوما لكم بطريق القياس ؛ لأتينا نكلمكم على قدر عقولكم أيها الناس ، فهناك عوالم روحية نورية عقلية نسبتها إلى عقولكم وعقول حشراتكم ودوابكم كنسبة أجرام هذه الشمس والكواكب إلى أحجام أجسامكم ، وإذا كان للنور المحسوس أجرام عظيمة هي منابعه ، هكذا للنور المعقول منابع هي أصوله ، إذن المحسوسات جعلت أمثلة للمعقولات ، وهل أدار الله الشمس حول أرضكم وأجراها جريا متتابعا بحساب لإلتدروسها ، ومن أجل دراستها أن تفكروا وتقولوا هاهي ذه أنواع المأكل اختلفت قوة الحياة فيها قدرا ومنفعة . حتى إن قشور الفاكهة والحبوب قد كمنت فيها قوة الحياة المستمدة من ضوء الشمس أكثر مما كمن فيها وراء تلك القشور من لب الثمار ولب الحبوب البعيدة عن ضوء الشمس ، فأكل تلك القشور ينال من قوة الحياة أكثر مما ينال آكل ما تحت تلك القشور :

ثم تقولون : وإذا كان ذلك كذلك في عالم الحس فليكن هكذا عالم الروح ، وأن النفوس لا تأخذ من العوالم الروحية إلا على مقدار ما استمدت له ، فإذا رأينا إنسانا وحشرات وطيورا ودواب ، فهذه لم تختلف في إدراكها إلا باختلاف قابليتها لما يرد عليها من العوالم الروحية التي تحيط بالشمس وبالنباتات وبالسيارات وإذا كان المسلمون اليوم في أنحاء الأرض أقل علما من غيرهم في الأمم فما ذلك إلا لأنهم قد أصبحوا أشبه بما تحت قشور الحبوب والثمار والفواكه ؛ لأن الحرافات قد أحاطت بعقولهم ، وأضلهم بعض شيوخهم ، فمهمهم العلم ، ومنحوم مواعيد عرقوية ، وأفهموم أن حظوظ الحياة وحظوظ الممات ليس مدارها على العمل ، وانكسروا على المغفرة المجانية ، ونسى كثير منهم أنفسهم وغراهم وعقولهم . فلم يصل لهم من تلك العقول العالية إلا قليل كما لم يصل لما تحت قشور الحبوب إلا قليل ، فقلت مادة الحياة في الدقيق الناعم في نحو البر وكثرت في النخالة وفيها يسمى (بالسن) وهو الذي يتركه الناس فلا يأكلونه ، وقد بطعمونه البهائم جهلا منهم ، وهو الذي فيه قوة الحياة والمنفعة .

إن نور الفكر منتشر انتشار ضوء الشمس ، نور مشرق على جميع هذه الكرة الأرضية كما ينتشر نور الشمس وجميع كواكب السماء ، لا مكان في الأرض ، ولا في الجو إلا وهو مشبع بأنوار لاحصر لها ، أتم يابني آدم لا تكادون تفهمون من الأنوار العلوية في أرضكم إلا نور الشمس والقمر ، مع أنكم في الحقيقة تشرق عليكم أنوار كثيرة جدا لاحصر لها ، فكل كوكب كشف أولم يكشف يسطع نورة الآن على الأرض

وتصل منه آثار إلى أجسامكم كما تصل آثار من الشمس والقمر ، وتلك الآثار لها عمل فيها . إذن هنا أنوار كثيرة لا حصر لها تسطع على أجسامكم ، وأنتم لا تزونها ؛ وإذا كان ذلك محققا فعلا في نور محسوس فإن الأنوار العقلية المشرقة العلوية الروحية تحيط بكم ولا حصر لها من مشرقات عليا وهي عوالم الملائكة ونفوسكم تنقل منها كما تنقل أجسامكم أنوار الشمس والكواكب والأقمار .

فلتعرضوا لتلك الأنوار الروحية أيها المسلمون وإن كانت خافية فنظيرها في الخفاء أضواء الكواكب البعيدة مع أنها محففة ، وإن يتم ذلكم لكم إلا ببند الحرفات ودرس نفس هذا الوجود ونفس القرآن وليس بغنى والله ما قرأتم في كتب أسلافكم الذين درسوا ما يناسب زمانهم ولم يتوسعوا في العوالم العلوية والسفلية توسع أهل زمانكم وإن كانوا لم يقصروا في ذلك ونحوها تلميحا إلى ما ظهر في هذا الزمان ، إذن ها هنا أمران اثنين لئلا تكون لهما : نور محسوس ، ونور معقول ، والمعقول أصل المحسوس ، وهذا جسمك يا جوهرى تشرق عليه الشمس ويشرق عليه نور الفكر ، يشاركك في ذلك كل إنسان وحيوان ، بل النباتات له حظ من الإدراك ، وهذه العوالم كلها في المجموعة الشمسية ، والمجرة العامة والمجرات كلها جسم واحد . تجاذب فلا فضاء إذن ، وهذا الجسم المتجاذب له قوى متعددة مختلفة ، خلقه الله وبث فيه أنوار الكواكب وأنوار العقول العالية ، فهو الخالق لتلك العقول العالية وتلك الشمس الكبيرة ، ولا تعجب أن تكون أنت الساعة لك اتصال بعوالم علوية مشرقة وأخرى تزجي الفكر ، وأنت وكل حيوان ونبات تستمدون من النورين وتستمدون بالإشراقين . الله عز وجل لا يرونه لأنكم الآن في حال التربية ، وهذه العوالم هي العطاء فالعوالم الحسية عطاء حسي ، والعوالم الروحية عطاء روحي ، هما عطاء ان لو كشفنا لرأيتم الله ، ولكنهما لن يكشفنا رحمة بكم وإحسانا ولطفا ، لو أن الله كشف هذه الحجب ورفع العطاء عن أعينكم الباطنية لهلكتم ولذبتهم ، ولكنه لرحمته العظيمة خلق لكم شموسا ظاهرة وشموسا أجمل منها باطنة ، وهي العوالم الروحية وقال لهما تعاونا في تربية كل إنسان وكل حيوان فتعاونت أضواء الشمس مع أضواء العقول على تربية العالمين .

حيرتى ورفاقتى لتلك الروح الجميلة

والسلام على الهواء والضياء والقوى الفكرية في الرثة وفي الغذاء وفي المنع

هنالك وصل القطار إلى محطة المرج ، ومدة جريه نصف ساعة من الزمان ، فأققت من عشيق ، ورجعت إلى حسي ، وغاب عني حالا ذلك الروح الذى تمثل لى بشرا سويا ، فساورتني حيرة ، واعتراى هم ذلك أن ما تخيلته وأنا في القطار له قيمة علمية ، ولكن المقصود من تفسير الآية لم أصل إليه بعد ، لأنى أريد أن أفهم لماذا يذكر الله تعالى «النشأة الأخرى» بعد ذكر الزوجين الذكر والأنثى ؟ وما المناسبة بين الذكر والأنثى وبين النشأة الأخرى ؟ ثم لماذا نسمع الله يقول في (سورة الأنعام) «كتب ربكم على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة» ولا جرم أن جمعنا يوم القيامة يكون بالنشأة الأخرى ، فهل كون الإنسان ذكرا وأنثى هو الرحمة التي جعلها الله مقدمة لتلك النشأة ؟ أم ماذا يكون ؟ فإذا رأينا الرحمة جعلت في مقابلة ذكر الزوجين وجعل ما بعد كل منهما هو النشأة الأخرى ، فإذا رأينا أن نفهم هل في الذكر والأنثى مبادئ للنشأة الأخرى ، هذا هو الذى حار فيه فكري ، هنالك زلت من القطار ، ولكنى لم أمش في طريق من المرج إلى مزرعتنا كما جرت عادتي لأنثى اعتدت كما ذكرت في هذا التفسير مرارا أنى أنزل من القطار وأمشى نحو ساعة حتى أصل إلى الأرض وهكذا في الرجوع طلبا لرياضة البدن ، وفرحا بنعمة العلم ، واستنشاقا للهواء النقي ، فإنه إذا كانت أجسامنا لا بد لها من غذاء وأهمه الفيتامين أى مادة الحياة السكاملة

في الخضر والنماكة والحبوب ولا سيما في قشورها . وإذا كانت عقولنا لا بد لها من أنوار فكرية تصل لها إذا خلت من الشواغل الحسية والعنوية ، وهذه الأنوار الفكرية يحصل عليها كل حيوان بحسب استعداده وكل إنسان بحسب قابليته . هكذا الرثة لا بد لها من هواء يدخل بالشهيق ويخرج بالزفير ، وقد ظهر اليوم أن الإنسان إذا استنشق بالشهيق مقدارا كبيرا وهو في الخلاء وعند شواطئ البحار ، وأخذ إذ ذلك يدخل النفس بلطف ويحبه قليلا ثم يخرجه بالتدرج بلطف فيدخله في نحو ٦ ثوان أو ٧ مثلا ويقيه في مدة كذلك ثم يخرجه في نحو هذه المدة بالتدرج ، ثم يقيه خارجا كذلك ، يفعل ذلك أنا فأنا حتى يتعوده ، ثم يزيد في الزمن على مقدار الطاقة إدخالا وإخراجا ، وحسبا للنفس داخلا وحسبا له خارجا ، فأنا هكذا كنت أفعل أثناء الشيء كل مرة وأنا مع ذلك أدرس هذه الطبيعة الجميلة البهجة ذات الجمال .

أقول : ففي هذا اليوم لم أمش بل ركبت مع عائلي سبارة وسرنا إلى أن وصلنا الأرض (مزرعتنا) عد كافر الباشا من أرض بركة الحج .

منظر الأرض وتفسير الآيات في مزارع الحقول

أخذنا نجوس خلال الأرض ، وجلنا فيها جولات ، وجلسنا هناك إلى قرب صلاة العصر ، فكان منظر الحقل جميلا أي جمال ، حتل أمامه الجبل شرقا ووراء المزارع الخضرة والنخيل وأنواع الحبوب والحشائش المختلفة غربا ، وقد هبت النسيمات فتذكرت الأثر الوارد : «إذا هبت الأرواح ، وفاءت الأفياء ، فليذكروا الله فيها ساعة الأوابين» .

مناظر الأشجار المحيطة بالحقل فيها النخيل الكثير ، وهناك الأثل : أي العبل ، والطبوع مفردات والحشرات مغنيات ، وأنواع الشعير والقمح والبرسيم والقول وهي متبايلات طربا وبهجة . تهتز اهتزاز الوطيين ، وتمش مشية العروس بهجة للناظرين ، والريح تهب بالسنايل وتلعب بجريد النخل وأغصان الأشجار تقلبها ذات اليمين وذات الشمال .

ول هذه الأنواع أصوات موسيقية ، ورنات غنائية ، وهي موسيقى حقيقية لاجتيازية (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) . وللحشائش من النغمات ما ليس للأشجار والنخيل والأعشاب ، العوالم كلها في طرب وبهجة وجبور ، ولكن هذا الإنسان هو الذي حيل بينه وبين ذلك الطرب والحبور للجهل القاشي في نوع الإنسان . هذه هي الحواطر التي خطرت في أثناء جولاني في وسط الحقول .

حضور الروح الحياي في الحقل معي وتفسيره آية «وأن عليه النشأة الأخرى»

وبينا أنا غارق في هذه الأفكار في الحقل إذ حضر الحياي الروحي الذي كان معي في القطار . فقال : إن ما ذكرناه معك في القطار يحمل العقل الإنساني كأنه ناظر إلى ربه ، إن الأمر أصبح واضحا ، إنسان عاقل تحيط به أنوار ، ويدخله فكر ، هو في أنوار عقلية وأنوار حسية ، هي مراسلات له من الله ولكنه لا يزال في حال الترية ، وهو وإن حجب بذلك عن أن يرى الله فإنه إذا صفت بصيرته يرى أنه هو جزء من هذه العوالم التي أرسلها له الله ، وهذه العوالم جميلة جمالا حسيا وجمالا معنويا ، ألا ترى إلى جمال الحقول واختلاف الصور والنغمات ، ألا ترى إلى جمال القول واختلاف إدراك العصفور والزنبور والنحلة وإدراك الإنسان تلك مناظر ذات جمال وبهاء وسناء . فلئن اختلف شجر النخل وشجر العنب والرمان وأنواع القول والقمح والشعير من حيث أشكالها ، ومن حيث نغمات الهواء للتحللة أوراقها وأغصانها فلتختلفن آراء الإنسان والحيوان من حشرات ودواب وطبوع ، اختلفت الأحجام والأصوات والإدراكات ولكن الأخيرة هي الباقية ، أما الأصوات وأما الأجرام فمن كلمن ذاهبات وعالم الفكر هو الذي إليه تشد الرحال ، وبه يصد

الرجال . وبينما أنا كذلك إذ لاحظت منى التفاتة إلى نخلتين في الحقل إحداهما ذكر والأخرى أنثى ، فأردت أن أقتلع (الكفرى) (١) أى وعاء الطلع من النخلة ، فتمتنى السلاء التى يحملها قحف الجريد المحيط بذلك الطلع ، هنالك تذكرت ما مر فى هذا التفسير من أن تلك الشوكات الطالعات بجانب أوراق شجر السنط لم تخلق إلا للمحافظة على تلك الورقات لضعفهن ضعفا كثيرا ، فهذه الشوكات تساعدها حتى تتحمل العواصف وتقلب الهواء فى الأجواء والأوقات المختلفة ، ولذلك ترى ورق السنط مع ضعفه يعيش جنباً لجنب مع خوص النخل القوى اللين ، وخوص النخل لا يعوزه ما يقويه ؛ أما ورق السنط فهو ضئيل ضعيف ، أما ما هنا فى النخلة فإن هذا الشوك المنتظم على جانبي القحف لم يعمل إلا للمحافظة على الطلع فى ذكر النخل ، وعلى خلق التمر ورتبته فى أثناءه ، إذن هذا الشوك اعترضنى حتى لا أمد يدي فأتناول الكفرى من هذه النخلة التى أتتجه لأنى أستعمله فيها لم يخلق له ، خلق هذا الطلع ليقتحى ثمر النخلة قريبة أو بعيدة ، وفى حقلنا نخلة تقرب منه لذلك جعل الله هذه السلاء (جمع سلاءة) لتمنع الأيدي العابثة فلا تمتد إليها ، هذا الحاضر ورد إلى أثناء هذه المحاولة فجاء غلام صغير فى الحقل وقال : إن هذا يشوكك فابتعد عنه وأنا أنزعه لك ، فتقدم ليترع (الكفرى) فلم يقدر وقال : إني إن أنزعتك انكسر ، ونحن نريد أن نعطيه لك سالماً ، فبقول هذا الغلام تم الدرس الذى كنت أفكر فيه ، فجاء رجل من نفس الحقل ، وقال : لا يمكن قطعه إلا بسكين حادة ، فقلت فى نفسى الآن صحص الحق ، أعني أن هذا الطلع لا يأخذه إلا من له به عناية ، ولا عناية إلا بمنفعة وللنخلة هنا الإقحاح ، والإقحاح كثيراً ما يكون بيد الإنسان ، فيأخذ الطلع من الذكور إلى الإناث ، وهذه العناية النافعة يتخذ الإنسان لها عدة ، وهى آلة حديدية حادة ، بها يقطع ذلك المطلوب .

هنالك قلت لا يتسع الوقت للبقاء وأشكرك ، وأنا الساعة أريد الرجوع إلى المنزل بالقاهرة . هنالك خاطبني الروح قائلاً أنسيت الدرس الذى كنا ندرسه فى القطار ، إن له أصله بهذا الموضوع الذى هو التفسير لهذه الآيات . فقلت : وكيف ذلك ؟ فقال إن النخلات الذكور والإناث متصلات بنور الشمس الذى شمر حناه قريباً ، فهانها شمس وهانها نخل ، ولولا النظام الدقيق فى حساب الشمس ما أثمر النخل ، هذا أو أن فصل الربيع قد بقيت له أيام قليلة ، ولا جرم أن الشمس فى هذا الفصل تأخذ فى الاقتراب من بلادكم ، وبها تزدهر الأشجار والزرورع ، وتكون الثمرات ، وتزواج الحيوان ، وظهور الأنوار ، والجمال والحسن ، والعشق والغرام وهانها ذكر ، وهانها أنثى ، وهانها سلاء شائكة حارسات لمؤلاء الذكور وهؤلاء الإناث ، الشمس يقربها أرسلت نورا ، وذلك النور له آثار يفعل الله فى غمها النبات قريباً وبعداً ، وفى إنتاجه أنواع الثمرات ، وهذه الشمس لولا حسابها الدقيق لم يكن شجر ولا ثمر ، لأن السماء لا بد أن يكون بنظام ، وهذا النظام لا بد أن يسبقه نظام فى حساب سير الشمس ، ولو لم تكن الشمس جارية بحساب لم تر عينك اليوم هذا الطلع فى النخلة الصغيرة التى أمامك الآن ، ولو أن الشمس قربت وبعدت بغير نظام لم يكن شيء من هذا ، بل لم تكن أنت موجوداً فى هذه الأرض ، ويقال لك : يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجموا ، فترجعون إلى عالم الأموات ، إذن بين هذا الطلع وبين نفس الشمس وبين حساب سيرها مناسبة تامة ، وإذا صح ذلك بالنسبة لنور الشمس فليصح نظيره فى مسألة ظهور السلاء على قحوف الجريد : جمع قحف كحمل ، فهل هذه السلاء بارزات بهذه الدقة وهذه العناية والنفعة والمحافظة على تلك الثمرات وطلعها من تلقاء نفسها فإذا كان برور الثمرات من تلقاء نفسها ولم يكن بأسباب الضوء الجبارى من الشمس بنظام وحساب فليكن برور السلاء الشائكة على قحوف الجريد بغير علة ، بل نظام بلا منظم ، ولكن الأمر ليس كذلك ، إن الثمر فى ظواهره حالة تابع المؤثر الظاهرى ، وهو ضوء الشمس قريباً وبعداً بحساب ، ولكن ضوء الشمس لا يعقل ولا يفهم أن هذا الطلع الضعيف يعوزه سلاء تحافظ عليه فتمتنى أنا من أخذ الطلع ، إذن هناك

(١) بضم الكاف وتشديد الراء .

تلك الأرواح اللاتي ضربت لها الشمس مثلاً في الوجود، وهن مرسلات أنواراً حكيمة على كل بقعة، فإن كانت في الإنسان فهي عقل، أو في الحيوان فهي للسميات غرائز، وإن كانت في النخلة، أو في أجسام الإنسان والحيوان كان ذلك تنظيماً وإحكاماً بحيث يعطى كل ذي حق حقه.

فهذه السلاء أيها الجوهري التي أمامك نظمت بنور حكيم استمدت من أرواح عالية كما استمدت هذه النخلة أنواراً من الشمس قريباً وبعداً، وكما كان الحساب في سير الشمس ظاهر الأثر ظهور الطلع في إبانته هكذا كان الحساب عند تلك الأرواح العالية ظاهر الأثر في إبداع تلك الشوكات المختصات بشعر هذه النخلات.

أيها الجوهري: هذه الحكمة التي وضحت الآن تفسر هذه الآية تفسيراً جميلاً لم يسبق له في كتب المسلمين نظير:

انظر أيها الجوهري. انظر، انظر في جسمك، ألت الآن في آخر العقد السابع من حياتك، انظر ألت ترى الرأس مشتعلة بالمشيب، ألت ترى هذا الجسم قد أدر بشبابه وأقبل هرمه؟ قلت بلى. قال: ماذا يقول هذا الجسم بلسان حاله؟ السلاء في النخلة ها أنا ذا أصمتك قولها، فهناك أصمتك أقوال جسمك الذي أدر بشبابه وقوته، وأقبلت أيام هرمه وضعفه. يقول جسمك اليوم وجسم كل إنسي على شاكلة: أنا لباس روحك، تلك الروح التي تحيط بها أنوار حسية وأنوار عقلية، تشرق عليها من عوالم الجمال والكمال، كنت فتى وشاباً وكهلاً، كل ذلك لتنمو روحك في هذه الحياة وتجرب هذه الدنيا وتدرسها، ولكن هذه الحال مقدمات، والمقدمات لها نتائج، فإذا أنا ضعفت اليوم فهذا الضعف مقدمة لازوال، ومقتزلة عنك كشفت روحك هذا الوجود. فقلت للروح الذي تخيلته: أنا إلى الآن لم أفهم المراد، ولم أعرف سر الآية؟ فأقول أنا أوضح ذلك.

إيضاح تفسير الآية بمسألة الذكور والإناث

هنالك أخذ الروح يسألني. هل ترى أن الذكورة والأنوثة واستقلالهما ضروري في الحيوان والنبات؟ قلت لا. قال ولم؟ قلت: لأن من النبات ما يتولد بغير ذكر كما ترى من الأغصان التي تأخذها من شجرات وتزرعها فتكون شجرات كأمهاتها وذلك كثير في الأشجار وهكذا.

(المحار): من أنواع الحيوان. إن المحارة الواحدة تلد الألوف بهيئة بيض، وهذا البيض يبقى فيها أمدأ حتى يفقس، ومتى فقس عاش حولها في البحار وتربى وهو صغير بهيئة الدر كأنه مادة تلون الماء (هذا المقام واضح في سورة مريم فاقراء هناك) فهذه المحارة فيها الذكورة والأنوثة معاً، فلا عشق ولا غرام ولا هجر ولا فراق، بل هناك ولادة بغير هذه التكاليف كلها، فلا طلاق ولا طلق ولا ثقة ولا عادة ولا أحكام شرعية ولا حقوق لزوج، ولا حقوق لرجل، بل كل هذا استغنى عنه المحار: إذن هذا كله لا ضرورة له في خلق الحيوان. فقال: إذن ما الحكمة في هذه التكاليف والغرام والهيام، والوصل والفراق؟ قلت: أنا لا أعلمها. فقال: أنا بذلك أعلم. أعلم أن كل ما هو حولكم وما يحيط بكم دروس لكم، ولا جرم أن ما في نفوسكم أقرب إليكم مما حولكم، ومع كونه أقرب إليكم مما حولكم تزونه أبعدهم عنكم، فانكم لا تفقهون نفوسكم إلا بعد دراسة ما حولكم لتشابه العالمين. درسنا معك السلاء والطلع، وعرفنا أن هناك أسباباً ونتائج هكذا الأسباب هنا لها نتائج، وذلك أن العشق والغرام والجمال والحسن، كل ذلك جعل مقدمات لما بعده من حصول الزوجة أولاً والولد ثانياً، فهناك جمال يتبعه شوق له فزواج ووصال، وهناك قد تحصل تبيجتان: أولاً هناه الحياة بقدر الامكان بين الزوجين، ثانياً إنتاج القرية، إذن جمال أجسامكم في حال الشباب له تبيجتان: إحداهما قاصرة على الزوجين وهي هناه الحياة، وثانيتهما متمدية وهي إنتاج القرية البقية

جد موت الأوبان ، إذن انفصال الذكر عن الأنثى في الإنسان الذي يهتما السلام فيه ، وحصول الهجر والوصل ، والأحوال المختلفة ، والمسرات والأحزان ؛ كل ذلك مقدمات لنتائج والنتائج هي تعاون الزوجين في أمور الحياة وإنتاج الثرية الباقية بعد المعات ؟ إذا صح ذلك في ذكورة الإنسان وأنوثته فإنما ذلك جعل مقدمة لما نحن فيه الآن .

النفوس الإنسانية في شوقها للعلوم أشبه بالشبان في شوقهم إلى الشابات

إن هذه الأجسام الحاملة لأجسامكم اليوم تقوم بأود الروح وتحملها وتحفظها إلى يوم الموت وهي في أيام الشباب غارقة في مهمات الحياة ، ولكنها إذا أقبلت أيام الشباب فتفتح لبعض العقول أبواب الفكر والبحث ، وتشتاق شوقاً على مقدار همتها إلى الاطلاع على هذه العوالم ، وكلما ارتقت في العلم ازدادت ولوعاً ، ولا تزال في ازدياد حتى تمانى ما يعاينه الشبان من الهجر والفراق ، وخير أيام الفكر أيام كبر السن ، فنذكرت ماقاله الدكتور (شاهين باشا) رئيس الأطباء في مصر اليوم في خطبة خطبها في العام السابق (سنة ١٩٣١ م) إذ قال : « إن الدم يتحول إلى اللع في زمن الشيخوخة ، فليقتبز تلك الفرصة الشيوخ ، وليفكروا في تلك السن » . أقول : ولكن ليس معنى هذا أن كل الشيوخ يقدرون على ذلك ، فإن كثيراً من الشيوخ ضعفت قواهم العقلية في زمن الشباب بالانهماك في اللذات ، فجاءوا إلى زمن الشيخوخة وهم مقلون فلا يفكرون ، بل يرجعون كالأطفال .

ثم قال الروح : إن هذه العوالم المحيطة بكم غذاء لأرواحكم ، وكما أن من يجلس ليلاً وهو فارغ من المم يحس بسعادة في منظر النجوم وجمالها هكذا أرواحكم المحبوسة الآن إذا خلت من هذه الأجسام ورجعت إلى عوالم الأرواح تحس بسعادة لا حد لها ، وليس للثل كالمثل له بل هو مجرد تنظير وإلا فأرواحكم تصبح إذا فارقت الجسد وعندها استعداد لعالم الجمال سعيدة سعادة مطلقة مغمورة بالجمال ، إذن انقسام الناس إلى ذكور وإناث فيكون شوق وتوق وهجر ووصل ، كل ذلك يهد لما هو أعلى ، فأتم في أيام حياتكم تشتاقون إلى المعرفة والعلم ، والمعرفة والعلم في الحقيقة غذاء لأرواحكم تلك الأرواح المستعدة للبقاء ، وهي تغتذى بتلك المعارف التي هي زاداها وتفيد الأرواح التي هي أقل منها هناك علماً ومعرفة ، فإذا هناك فوائد قاصرة على الروح ، وفوائد متعددة ، فهي بالعلوم تستلذ وتغتذى ، وهي بها تفيد غيرها علماً ومعرفة كما يفعل ذلك الزوجان ، فهما بعد الشوق بداعي الجمال والهجر يتصلان فيكون هناك سعادة زوجية بينهما ، وذرية هما يسعدان بتربيتها ، وهكذا تسعد الأرواح بعد الموت بالاطلاع على هذه العوالم الجميلة فتغتذى بها كما تغتذى الأجسام اليوم بالحبوب والثمار وتفيد أرواحاً صغيرة فوائد تكون سعادة لها أيضاً كما سعدت بترية الثرية وأحست بلذة في هذه الحياة ، إذن ظهر لك السر الآن أيها الجوهري ، وبان لك واتضح أن الجمال والعشق التابع له ، والهجر والفراق وما مثله كل ذلك مقدمات لما هو أهم ، وهو أن المهاراة التي لم يتميز فيها الذكر من الأنثى ليست أهلاً للمعارف التي ستنالها أرواحكم بعد الموت ، فلم تعذب في الحياة الدنيا بالهجر والخلع والطلاق والفراق ، بل حملت وولدت بلا كلفة من هذا النوع لأنه تعذيب لا نتيجة له ، أما التعذيب في الإنسانية فإن له ثمرة ، لأنه يعلم النفس ماهو الجمال ، وما هو الحب ، وما هي السعادة مع الإخوان ، وما هي السعادة في منح الغير هبات وعطايا كالثرية . حتى إذا ارتقت النفس واشتاق للعلوم والمعارف وأغرمت بها : هنالك تبحث وتجد ، وكلما كبرت وعرفت الحقائق اشتاقت لغنت وأنت وبكت واشتكت ، حتى إذا فارقت هذا البدن المانع لها من عالمها حصل لها الهناء والفوز بحصول المطلوب والعز المرغوب ، فتصبح مغمورة في جو من الجمال والحكمة والنور لا يدركها أحد في هذه الحياة ، وهنالك يفهم المسلمون لماذا يقول الله في القرآن :

« فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني برى بما تشركون إني وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً » وذلك لأن الله لا بد أن يكون حاضراً بملئه وقدرته والشمس تقرب وتبعد وتشرق وتأفل، بدليل أن بعدها أورش البرد في دياركم ، وقربها أورش بروز طلع النخل في حقلكم ولكن الله ليس كذلك ، ألا ترى أن السلاء الطالمة في قحف الجريد المذكور آنفاً ، وهاهو ذا أمامك معتق به ليلاً ونهاراً ، فإن نحو كل نام لا يقف ليلاً ولا نهاراً ، أى أن النمو مستمر وإحكامه وتدبيره مستمر ليلاً ونهاراً ، وهذا من عالم روحى « يسبحون الليل والنهار لا يفترون » فعوالم الأرواح لاتنام كإتمام الإنسان ولا تغيب كما تغيب الشمس ، وعالم الأرواح أقرب إلى الحضرة العلية من عالم الحس فذلك اعتدت بهذه السلاء في ظهور الشمس وفي أفولها ، إذن عالم الأرواح أقرب إلى ربه (اللزء عن كل مخلوق ، المتعالى عن كل مربوب) من عالم الأجسام ، وكل محسوس فلقربه منه وكثرة استمداده منه دام إقباله ولم يغب كما تغيب الشمس ، ولو غابت تلك القوى الحافظة للعالم لحظة لهلك كله ، ولتصدعت هذه السلاء طبعاً ، فإذا كانت القوى الروحية المحيطة بكم مشرقة لاتغيب فكيف بالله عز وجل فهو إذن أكثر منها ظهوراً بما لاحدله ، فإذا ارتقت نفوسكم فإنها يوماً ما ستعرف ربها ، وهذا سر الحديث الوارد في إنكم سترون ربكم كما ترون الشمس ليس دونها سحب ، وفي رواية أخرى : جاء ذكر القمر على حسب اختلاف مراتب الناس من علماء بهذه العجائب ، ومن عباد محجوبة أفكارهم فلا يدركون من كمال الله إلا قليلاً كما يدرك الناس من أنوار الشمس على ما تنعكس منها على القمر ثم أشرق على الأرض .

هذا هو السر أيها الجوهرى في قوله تعالى : « وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ، من نطفة إذا تمنى ، وأن عليه النشأة الأخرى » ففي الله كورة والأنوثة تمهيد للشوق والغرام والعشق الحاصلات لكثير من الشبان والشيوخ في هذه الدنيا ، وهى نفوس مصطفاة لا تخلو منها زمان ولا مكان ، يعيشون في أرضكم وفيهم هذا الشوق ، وإذا ماتوا تنعموا بنعيم العالم الروحى ، بل كثيرا ما يحسون في هذه الحياة كأنهم غرقوا في بحر لظى من جمال الأرواح ، وكأن ربهم يحاطبهم ، وكأنهم يرونه وإن كانوا لا يرونه فعلا لضعف مراتبهم وللحوائل الكثيرة ، وهذه النفوس هى النمشات للأمم جيلاً جليلاً وآناً فأنا ، وهذه النفوس تقول في هذه الحياة : لو كشفت عنى الغطاء ما زددت يقيناً . فالنشأة الأخرى التى مقدمتها الموت لها مقدمة وهو عشق العلوم . وعشق العلوم له مقدمة وهى بهجة الناظر ومحاسنها التى تغرم بها بعض النفوس .

فإذا كانت آية الأتمام جاء فيها أن الرحمة أعقبتها أن الله يجمعنا ليوم القيامة ، ففي (سورة النجم) كانت الرحمة اللودعة في انقسام الناس إلى ذكور وإناث متبوعة بالنشأة الأخرى ، لأن الله كورة والأنوثة مرت نفوس على الغرام فالوصول إلى آخر ما تقدم ، فهكذا هنا غرام وحج ثم هجر وبعد ، ثم خلوص النفس بالموت فتصل إلى السعادة الأبدية . هذا هو السر الذى يمكن أن ألقيه إليك الآن لتشره في نوع الإنسان ، وكم في القرآن من أسرار : « وفوق كل ذى علم علم » .

كل ذلك وأنا واقف أمام شجرة النخل إذا قائل يقول لى : لقد أزف الوقت لأن موعد صاحب السيارة أن يوافينا الساعة الرابعة ، ولم يبق إلا دقائق ، فاستعددت للرجوع ، وأخذت أهلى ووصلنا إلى المكان الذى أمكن السيارة أن تقف فيه ، فتأخر ذلك السائق مدة ، وكنا لم نعطه أجراً حتى يكون ذلك حاملاً على الرجوع إلينا ثم حضر ، وما وصل إلينا حتى قال : أنا أعلم أنى قد أخطأت ، ولكن لتكن المغفرة . قهلت لا بأس ، ثم ركبتنا السيارة ورجعنا إلى محطة الراج ، وسار بنا القطار إلى محطة القاهرة ثم للنزل ، وذلك يوم الأحد ١٥ مارس سنة ١٩٣٢ م وإلى هنا تم الكلام على (سورة النجم) والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة القمر

هي مكة

إلا ثلاث آيات وهي: «أم يقولون نحن جميع منتصر» ، سيهزم الجمع ويولون الدبر ، بل الساعة موعدهم
والساعة أدهى وأمر» ، فمدنية .

آياتها ٥٥ - نزلت بعد الطارق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ • وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ •
وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ • وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ •
حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُخِنُّ الزُّنُورُ • فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ • خُشْيًا
أَبْصَارَهُمْ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ • مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ
الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ • كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ
وَازْدَجَرٌ • فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ • فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَرٍ • وَفَجَّرْنَا
الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ • وَحَمَلْنَا عَلَى ذَاتِ الْأَوَّاحِ وَدُسِرَ • تَجْرِي
بِأَعْيُنِنَا جَزَاءُ لِمَنْ كَانَ كَافِرًا • وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّيرٍ • فَكَيْفَ كَانَ
عَذَابِي وَنُذُرِي • وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّيرٍ • كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ
كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِي • إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ • تَنْزِعُ
النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازٌ تَخِلُّ مُنْقَمِرٍ • فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِي • وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ
لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّيرٍ • كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ • فَقَالُوا أَبَشْرًا مِثْلًا وَاحِدًا تَبِعَهُ إِنَّا
إِذَا لَنَاهِي صَلَاحٍ وَسَعِيرٍ • أَهْلَقْنَاهُ الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ • سَيَعْلَمُونَ
عَذَابَ مَنْ الْكُذَّابُ الْأَشِرُّ • إِنَّا مُرْسِلُوا النَّافَةَ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ • وَنَبِّئْهُمْ

أَنْ الْمَاءَ قِسْمَةٌ يُنْتَهَمُ كُلُّ شَرِبٍ مُخْتَصَرٌ • فَتَادُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ • فَكَيْفَ
 كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي • إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ •
 وَوَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ • كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذْرِ • إِنَّا أَرْسَلْنَا
 عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ • نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ •
 وَوَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذْرِ • وَوَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ صَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا
 عَذَابِي وَنُذْرِي • وَوَلَقَدْ صَبَّحَهُمُ بَكْرَةٌ عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ • فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرِي • وَوَلَقَدْ
 يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ • وَوَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْغَيْبِ نَذْرٌ • كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
 كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ • أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيَّتِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ
 فِي الزُّبُرِ • أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ • سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُؤْتُونَ الدُّبُرَ • بَلِ السَّاعَةُ
 مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ • إِنْ الْمَجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ • يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ
 عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُقُوا مَسَّ سَقَرٍ • إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ • وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ
 كَلِمَةً بِلَيْسٍ • وَوَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاءَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ • وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ
 فِي الزُّبُرِ • وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ • إِنْ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ • فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ
 عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ •

هذه السورة ثلاثة أقسام

القسم الأول في تفسير البسملة .

القسم الثاني ٦ مذكرات بالساعة وعذاب الدنيا بالهلاك من أول السورة إلى قوله « فأخذناهم أخذ

عزير مقتدر » :

القسم الثالث : في توبيخ قريش ، وقياس حلمهم على حال الأمم الماضية ، وأنهم سيهزمون كما هزم

الأولون ويدخلون النار كما دخلوا ، من قوله تعالى : « أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر »
إلى آخر السورة .

القسم الأول : في تفسير البسملة

يجب الإنسان من أمر آي القرآن ، وكيف كانت الرحمة المحسوسة في الشمس والقمر والنجوم قد ذكرت
في القرآن بحيث لم يبعدها الرب الذين نزل القرآن بلغتهم ، يذكر الله الشمس فيقول : « والشمس وضحاها »
ويذكر النجم فيقول : « والنجم إذا هوى » ويذكر القمر فيقول عطفًا على « والشمس وضحاها ، والقمر
إذا تلاها » رحمة عامة ظاهرة واضحة مجسمة ، لذلك يكرر الرحمة في أول كل سورة ليلفت نظرنا إلى
رحمات مجسمة وغير مجسمة ، ومن غير المجسمة ما جاء في هذه السورة من المعبر والحكم والواعظ والآيات

البيئات . سبحانك اللهم وبحمدك جعلت الرحمة تحيط بنا من بين أيدينا ومن خلفنا ، وعن أيماننا وعن شمائلنا .

الله أكبر . الله أكبر : رباه ظهرت أنوارك ولكنها غشت على عقولنا لأنها أنوار لاحد لها ولا نهاية ، شمس وقمر ونجوم وجمال وبهاء وعجائب تتلوها عجائب ، ولكن لما كانت العقول خاملة ، والنفوس جامدة ، منحها نعماً على قدر طاقتها ، وهى عبر التاريخ وبدائع السير ونظام الأمم ، فأخذ يحدثنا بتاريخ من قبلنا ، فذكر تلك الأمم البائدة التي قرعت أسماع العرب من قوم نوح وعاد وقوم لوط وآل فرعون أخذ يحدثهم بما يعرفون وليس مما ينفعهم أو يؤرثهم فيهم أن يذكر لهم أمم الصين ، وأهل استراليا ، وأهل أوروبا ، فهؤلاء لا علم لهم بتلك الأمم فلم يكن هناك بد من تكريمهم بما يأتون ، وإعلامهم بما يفعلون .

فسبحانك اللهم جعلت السابقين عبرة اللاحقين ، والأولين نبراس الآخرين ، إن ذكر هذه الأمم فتح لباب علم التاريخ ، يرشد الله المسلمين إلى الاعتبار بتاريخ كل أمة من الأمم السابقة واللاحقة شرقاً وغرباً ، فليس ذكر قوم نوح وعاد وعمود بقيد في علم التاريخ كما لم يكن ذكر الإبل وحلقها والسماء ورفعتها والجبال ونصها ، والأرض ونظامها مقيدا لأمم الإسلام بهذه مخلوقات ، بل إن هذه أمثلة وعماذج لعلم التاريخ والائتاط والائتناس بمحادثته المختلفة ليحتمر الحلف بالسلف ، ويقتدى الآخرون بالأولين ، واللاحقون بالسابقين ، ومتى درسوا هذه الدنيا عرفوا أنها منتظمة : وأن كل شئ موزون بميزان لا يخس فيه ، وعلى ذلك النظام ستهزم الجموع الكافرة كما انهزم من قبلهم أمام جيوش الأنبياء السابقين « ستهزم الجمع ويولون الدبر » .

ونتيجة ذلك النظام كله أن يقرب الناس من ربهم متى عرفوا أن عمله متقن وأدركته عقولهم ، وذلك القرب بالعلم والمكانة لا قرب بالمسكان ، والنهاية أن يكون الإنسان في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، وهذه نهاية السعادات في الحياة الدنيا والآخرة ، فأما في الدنيا فإن الناس جميعاً في حيرة مغمورون إلا طائفة واحدة وهى التي أدركت هذا النظام وأهبطت به ، ولن يكون في حضرة الملك القدوس إلا هذه الطائفة ، أما بقية الناس فإنهم إما في جنة ولا يرون الله إلا على مقدار ما عرفوا ، وإما في نار وهم عنه محجوبون ، والحمد لله رب العالمين . انتهى الكلام على القسم الأول في تفسير البسطة . كتب ظهر يوم الثلاثاء ١٦ أغسطس سنة ١٩٣٢ م ١٥ ربيع الثاني ١٣٥١ هـ .

القسم الثاني : مذكرات بالساعة وعذاب الدنيا بالهلاك

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(اقتربت الساعة وانشق القمر) أى سينشق يوم القيامة ، وأوأنه قد انشق كما روى عن أنس « إن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرهم آية فأرأهم انشقاق القمر مرتين » أخرجه البخارى ومسلم وكيفية ذلك أنه انشق فلفتين : فلفة فوق الجبل ، ولفة دونه . ومعنى هذا أنه يقول سبحانه : قربت القيامة ، وهاهوذا القمر انشق من الآن كما تقول : أقبل الأمير وقد جاء البشير بقدمه ، فإن انشقاق القمر دلالة على ما سيؤول إليه حال العوالم العلوية والسفلية فإن مآلها الانحلال والبوار . يقول الله : انظروا أيها الناس ، إنكم تظنون الكواكب والشمس والقمر لا يمتريها البلى ، إن القمر يقبل الفناء والدليل على ذلك انشقاقه الذى استبان لكم ليدلكم على أنه سيبيد من الوجود كما تبديد أرضكم ، والممكنات بأسرها تقبل الفناء .

يقول المؤلف : ومن عجب أن علماء الهيئة في العلم الحديث لم يذكروا أن شيئاً اشتق من الأرض إلا القمر ، ويقولون انه أثناء دورانها قديماً انحلت عنها ودار حولها ، وهذا نوع من الانشقاق ، ولكنه اشتق من غيره ، وانشقاق القمر من الأرض دليل على أن الأرض تبدل غير الأرض والسموات ، فإذاً يكون انشقاق القمر في القرآن من المعجزات العلية لا من حيث إن قريشاً رأوه منشقاً وجبل حراء بين فلقته على رواية ابن مسعود بحسب ، بل إن هذا الذي حصل زمن النبوة نذكرة باشتقاقه من الأرض وانفصاله عنها ، فكما انشق القمر نصفين هكذا كان هومع الأرض سابقاً وانشقت الأرض فانفصل عنها القمر ، ومعنى هذا تجزؤ المادة وفناؤها وذهابها وتبدلها ، هذا ما تشير له الآية وإلا فلماذا خص القمر بالانشقاق ؟ ولماذا لم يختر الله له الشمس أو كوكباً من الكواكب ذلك لهذه النكتة وهو أن القمر هو محل البحث الحديث ، وأن له انشقاقاً عن غيره ، فانشقاقه شقين على الجبل ودونه يشير إلى ما كان له قبل ذلك من اشتقاقه من الأرض ، ويكون ذلك من دواعي العلم والكشف والبحث ، فانظر كيف جاء في هذه السور : البحر المسجور تحت الأرض ، والقمر المنشق من الأرض ، والرق المنثور إشارة لمصر الورق وعصر المدينة والعلم ، والبيت المعمور إشارة إلى العوالم التي كشف الناس بعضها ، كل ذلك نذكرة للفلسفين الناعمين الآن ، المستيقظين في مستقبل الزمان ، فهذه كلها محرضات على العلم مشوقات له ؟ وسيقوم بهذه العلوم أبناء أمة الإسلام في مستقبل الزمان ، انشقاق القمر فتح لباب العلم والبحث في أصل الأرض وأصل القمر ، وكل ذلك واجب على أمة الإسلام (وإن رواه آية يرضوا) عن تأملها (ويقولوا سحر مستمر) مطرد ، وذلك أنهم رأوا آيات متتابعات فلم يبروها التفاتاً (وكذبوا) النبي صلى الله عليه وسلم (واتبعوا أهواءهم) وهو ما زين لهم الشيطان من رد الحق الظاهر (وكل أمر مستقر) كل شيء ينتهي إلى غاية تناسبه فأمركم ينتهي إلى غاية من الخذلان والعذاب في الآخرة : وأمر محمد صلى الله عليه وسلم ينتهي إلى نصر في الدنيا وجنة في الآخرة ، وكل حركات الأفلاك ، ونظام العمران ، وأعمال الأمم ، ونظام الإنسان والحيوان والنبات ، كل ذلك داخل في هذه القاعدة ، فكل من هذه غاية ينتهي إليها ، وهذه من جوامع الكلام ومحائب الحكم ، قضية النبي صلى الله عليه وسلم وقضية للشركين داخلتان في هذه القاعدة العامة ولذلك أعقبها بقوله (ولقد جاءهم من الأنباء) أي جاءهم في القرآن من أنباء القرون الخالية وأنباء يوم القيامة (ما فيه مزدجر) ازدجار من تعذيب العاصين يوم الدين وهلاك دولهم في الدنيا ، وأبدل من (ما) قوله (حكمة بالغة) غايتها لا تخطئ فيها ، وللخص أن كل أمر ينتهي إلى غاية ، ومن تلك الأمور المنتهية إلى غايتها ما يتلى في كتاب الله من العذاب الذي يزجر من يجتر ، ومن الحكمة المنتهية إلى غايتها مصداقاً لما ذكر من أن كل شيء ينتهي إلى غاية تناسبه ، ومع ذلك لم يتعظوا وهو قوله (فأتىهم النذر) أي فأتى غنى النذر ؛ جمع نذر بمعنى للنذر ، إذا علمت أن الإنذار لا يفيدم (فتول عنهم) واذكر (يوم يدع الداع) أسقطت اليا. اكتفاء بالكسرة والهاء هنا بمعنى الأمر كقوله تعالى « كن فيكون » أو الداعي إسرافيل (إلى شيء نكر) فظيع تنكره النفوس لأنها لا عهد لها بمثله ، وهو أهوال يوم القيامة (خشماً أبصارهم يخرجون من الأجداث) أي يخرجون من قبورهم ذليلاً أبصارهم من الهول ، خشماً حال من الواو ، وتقول خشماً أبصارهم كاتقول يخشع أبصارهم ، وقرئ خشمة أبصارهم ، وأما قراءة خشماً أبصارهم فهي على لغة أكلوني البراغيث كأنك قلت : يخشع أبصارهم ، وقوله (كأنهم جراد منتشر) في كثرتهم وتوجهم وانتشارهم في الأمكنة (مهطمين إلى الداع) مسرعين مادي أعناقهم إليه مقبلين (يقول الكافرون هذا يوم عسر) صعب (كذبت قبلهم قوم نوح) قبل قومك (فكذبوا عبداً) نوحاً عليه السلام ، وهذا تفصيل جيد إجمال (وفالوا مجنون) أي هو مجنون (وازدجر) أي وزجر عن التبليغ بأروع الألفاظ

(فقداربه أنى) بآنى (مغلوب) غلبنى قومى (فاتتصر) فاتتتم لى منهم ، وذلك بعد أن يشس منهم (فقتحنا أبواب السماء بماء منهمر) منصب ، وهذه الجملة مبالغة وتمثيل لكثرة الأمطار وشدة انصبابها (ونجرنا الأرض عيوناً) أى وجعلنا الأرض كلها كأنها عيون متفجرة ، وفي هيئة الإعراب عند النحاة يقال أصلها جمرنا عيون الأرض فعدل عنها إلى ما يفيد المبالغة (فالتقى الماء) ماء السماء وماء الأرض وقرى الماءان (على أمر قد قدر) على أمر قد قدره الله وهو هلاك قوم نوح بالطوفان (وحملناه على ذات ألواح ودسر) هذا من فصيح الكلام وبديعه إذ جعلت الصفة القائمة مقام اللوصوف نائبة عنه فأدت مؤداه ، وذكر الصفة التى على هذا النوال أبلغ من ذكر اللوصوف ، فقولاك قبيصى مسرودة من حديد أبلغ من قولك قبيصى درع ، فهكذا هنا ذات الألواح ودسر (جمع دسار ، وهو السهار من الدسر وهو الدفع لأنه يدفع منفذه) أبلغ من سفينة ، وقوله (تجرى بأعيننا) أى تجرى حال كونها محفوظة بنا ، لأنها إذا كانت بمرآنا فهى فى حفظنا ، وإنما فعلنا ذلك (جزاء لمن كان كافر) وهو نوح ، لأن النبى نعمة من الله ورحمة ، فإذن نوح نعمة مكفورة (ولقد تركناها) أى السفينة ، أو الفعلة أى جعلناها (آية) يعتبر بها إذ شاع خبرها واشتهر أمرها (فهل من مدكر) معتبر (فكيف كان عذابى ونذرى) جمع نذير وهو الإنذار : أى فانظر يا محمد كيف كان عذابى ، وكيف كان حال إنذارى لهؤلاء الذين أنفروم نوح ؟ ألم يتم نصرى لنوح الذى أنذرم وهلاكى لهم لكفرهم ، وذلك من الحكمة السابقة « وكل أمر مستقر » فهكذا ستكون الأمم وأحوالها ، وهكذا عواقب أمورها (ولقد يسرنا القرآن) سهلناه (لذكر) أى ليتذكر ويعتبر به (فهل من مدكر) أى متعظ بمواعظه (كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذرى) وإنذارى لهم بالعذاب قبل نزوله ، ألم يتم ، ألم يكن مهولاً ؟ وكأنه يقال ما هذا العذاب فقال (إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً) باردة أو شديدة الصوت (فى يوم نحس) شؤم (مستمر) أى استمر شؤمه فاستمر عليهم حتى أهلكتهم (تنزع الناس) تظلمهم من أما كنهم حال ككونهم (كأنهم أعجاز) أصول (نخل متفرع) متفرع من مغارسه ساقط على الأرض ، وإنما شبهوا بالأعجاز لأن الریح طيرت رؤوسهم وطرحت أجسادهم ، والنخل اسم جنس جمعى يذكر ويؤنث ، فلذلك جاء فى القرآن : « أعجاز نخل خاوية » وجاء هنا « أعجاز نخل متفرع » ونظير ما هنا « إليه يصعد الكلم الطيب » (فكيف كان عذابى ونذرى) كرره للتحويل ، ولأن لهم عذابين : أحدهما فى الدنيا ، والثانى فى الآخرة ، وجاء فى قصتهم « لنذيقهم عذاب الحزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أذى » (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ، كذبت نمود بالنذر) بالإنذارات واللواعظ التى جاء بها صالح (فقالوا أشبرا منا) من جنسنا أو من جملتنا (واحداً) منفرداً (تبعه إنا إذا لقي ضلال وسعر) الضلال الخطأ والسعر الجنون ، ومنه ناقة مسعورة وهذه الكلمة مستعملة اليوم عند العامة فى أمتنا المصرية بهذا المعنى (ألقى الذكر عليه من بيننا) وكيف يكون كذلك وفينا من هو أحق منه به (بل هو كذاب أشير) حمله البطر على الترفع علينا بادعائه الوحى فقال الله تعالى على لسان صالح عليه السلام (سيعلمون غداً) عند نزول العذاب بهم فى الدنيا ويوم القيامة (من الكذاب الأشير) الذى حمله أشيره على الاستكبار عن الحق وطلب الباطل أصالح أم من كذبه ؟ (إنا مرسلوا الناقة) مخرجوها وباعثوها (فتنة لهم) امتحاناً لهم لأننا نمتحن بالنعم وبالنقم (فارتقبهم) فانتظروهم وانظر ماذا يصنعون أيشكرون أم يكفرون (واصطبر) على أذامهم (ونبشهم أن الماء قسمة بينهم) مقسوم بينهم ، وفيه تغليب العقلاء على غيرهم فللناقة يوم ولهم يوم (كل شرب محتضر) أى محضور يحضره صاحبه فى نوبته ، يحضر القوم الشرب يوماً وتحضر الناقة يوماً كما فى آية أخرى « لها شرب ولكم شرب يوم معلوم » ثم ستموا النعمة (فنادوا صاحبهم) قدار بن سالف أحيمر نمود (فتعاطى) فاجترأ على تعاطي الأمر العظيم

غير مكرث له (فعقر) الناقة ، أو فتماطى السيف الخ (فكيف كان عذابي ونذر ، إنا أرسلنا عليهم) في اليوم الرابع من عقرها (صيحة واحدة) صاح بهم جبريل (فكانوا كهشيم المنتظر) أي كالحشيش اليابس الذي يجمعه صاحب الحظيرة لما شيته . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : هو الرجل يحظر لغنمه حظيرة من الشجر والشوك دون السباع فما سقط من ذلك فداسته الغنم فهو المشيم ، والمعنى أنهم صاروا كيابس الشجر إذا بلى وعظم (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ، كذبت قوم لوط بالنذر ، إنا أرسلنا عليهم حاصبا) أي الحصاء وهي الحجارة دون الكف ، وقد يراد بالحاصب الرامي : أي أرسلنا عليهم عذابا يحصبهم أي يرميهم بالحصاء (إلا آل لوط نجيتنا من البحر) أي في سحر ، وهو آخر الليل (نعمة من عندنا) أي إنعاما منا (كذلك نجى من شكر) نعمتنا بالإيمان والطاعة (ولقد أنذرهم) لوط (بطشنا) أخذتنا بالعذاب (فثاروا بالنذر) فشكوا بالانذارات ولم يصدقوا (ولقد راودوه عن ضيفه) أي طلبوا منه أن يسلم إليهم أضيافه لما يقبض فعله (فطمسنا أعينهم) فمسحناها وسويتها كسائر الوجوه ، وذلك لما دخلوا داره عنوة ، أو طمس الله أبصارهم فلم يروا الرسل فقالوا لقد رأبناهم حين دخلوا فأين ذهبوا ؟ قال تعالى (فدوقوا عذابي ونذر) أي ما أنذركم به لوط من العذاب (ولقد صبحهم بكرة) أي جاءهم وقت الصبح (عذاب مستقر) أي دائم : أي استقر فيهم حتى أفضى بهم إلى الهلاك (فدوقوا عذابي ونذر ، ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) تكرر هذه وتكرر أمثالها في القرآن كما في (سورة الرحمن) الآية للإيقاظ والتنبيه وهذا كثير في كلام العرب كقوله :

قربا مربط النعامة منى لفتحت حرب وائل عن جبالى

قربا مربط النعامة منى شاب رأسى وأنكرتني عيالى

وهي طويلة على هذا النسق ، وهذا التكرار يكون في الأمر العظيم كما هنا ، فقوله : « ويل يومئذ للمكذبين » ، وقوله : « فبأى آلاء ربك تكذبان » عند النعم في الأول ، والنعم في الثانى من هذا القبيل وذلك لتكون العبرة حاضرة عند السامع مصورة في الأذهان ، وكذلك تكون صور النعم غير منسية ، ثم قال تعالى (ولقد جاء آل فرعون النذر) وفرعون أيضاً من باب أولى (كذبوا بآياتنا كلها) وهي الآيات التسع (فأخذناهم أخذ عزيز) لا يقبل ولا يغالب (مقتدر) لا يعجزه شيء . انتهى التفسير اللفظى للقسم الثانى من السورة .

القسم الثالث : نوبيخ قريش وقياس حالهم على حال الأمم الماضية

وأنهم سيهزمون كما هزم الأولون ويدخلون النار كما دخلوا

قال تعالى (أ كفاركم) يامعشر العرب (خير من أولئكم) أي أقوى وأشد من الذين أحللت بهم تعقبي مثل قوم نوح ومن بعدهم (أم لكم براءة) من العذاب (في الزبر) أي في الكتب أنه لن يصيبكم ما أصابهم (أم يقولون) أي كفار مكة (نحن جميع) جماعة أمرنا مجتمع (منتصر) تمتع لآرام ولا نضام ، أنذر الله الأمم السالفة وتم ما أنذر به هكذا هنا يقول سبحانه (سيهزم الجمع ويولون الدبر) أي الأدبار فكل واحد يولى دبره ، وهذا من دلائل النبوة فإنهم هزموا يوم بدر وما بعده ، ولم يكن له صلى الله عليه وسلم في مكة جيش بل كان أتباعه مشردين في الآفاق ومعذب بعضهم . قال عمر رضى الله تعالى عنه : لما نزلت لم أعلم ما هي ؟ فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس الدرع ويقول « سيهزم الجمع » فدلته . أقول : وليس ذلك قاصرا على يوم بدر بل استمر انهزامهم (بل الساعة موعدهم) موعدهم عذابهم الأسمى ، وعذاب الدنيا كالمقدمة لعذاب الآخرة (والساعة أدهى) أشد وأعظم داهية من الأسر والقتل

يوم بدر وما بعده ، والداية أمر فطيع لا يهتدى لدوائه (وأمر) مذاقا من عذاب الدنيا (إن المجرمين في ضلال) عن الحق في الدنيا (وسمر) ويران في الآخرة (يوم يسحبون في النار) يحرون فيها (على وجوههم) ويقال لهم (ذوقوا مس سقر) أى ذوقوا حر النار وألمها ، فإن مسها سبب للتألم ، وسقر علم على جهنم ، تقول سقرته النار وصقرته إذا لوحته (إنا كل شيء خلقناه بقدر) أى مقدرًا مرتبًا على مقتضى الحكمة ، وهذا يقرب من قوله فيما تقدم : « وكل أمر مستقر » وأتبع تلك الحكمة بقصص الأمم وختمها بإنذار أهل مكة ، ولما أتت ذلك ذكر النتيجة . فقال : إن كل شيء مرتب على مقتضى الحكمة ، فالأول كأنه قضية يراد الاستدلال عليها ، ولما ذكر قصصهم وإنذار مشركي مكة ذكر الحكمة إشارة لسطوع البرهان وظهور النتيجة ، وهذا كقوله تعالى : « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » فالعوالم متشابهة ، وأحوال الأمم متشابهة ، فالصلحون كلهم نافذة منصورون ، والفسدون مقهورون معذبون ، ثم أعقبه بأن هذا يسير عليه فقال (وما أمرنا إلا واحدة) فعلة واحدة ، وهو الإيجاد بالمعالجة ومعاناة ، أو إلا كلمة واحدة (كلح بالبصر) في اليسر والسرعة ، ومنه أمر الساعة فهو كلح البصر ، وإذا ثبت لديكم أن كل أمر مستقر ، وأن كل شيء خلقناه بقدر ونظام وحكمة بما قصصناه عليكم من أمر الأمم فكيف تغفلون ولا تتعظون بمد ثبوت هذه الحكمة ؟ وهذا قوله (ولقد أهلكنا أشياءكم) أشباهكم في الكفر كما قصصناه (فهل من مدكر) متمظ (وكل شيء فعلوه في الزبر) مكتوب في كتب الحفظ (وكل صغير وكبير) من الأعمال (مستطر) مسطور في اللوح (إن للتقين في جنات ونهر) كسبب أى أنهار ، وإنما وحده لمواقفة رؤوس الآي ، وهي أنهار الجنة التقدمية في (سورة القتال) وقرى كجنب جمع نهر (في مقصد صدق) في مكان مرضى ، أو في مجلس حق لا تقو فيه ولا تأتم ولا تكذب لأن الله صادق فمن وصل إليه امتنع عليه الكذب فهو في مقصد صدق (عند ملك مقدر) مقربين عند من تعالى أمره في الملك والاعتدار ، وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم : « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » فهؤلاء هم الذين يحفظون بالقرب من ربهم . انتهى التفسير اللفظي للقسم الثالث من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذه السورة

- اللطيفة الأولى في قوله تعالى : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » .
- اللطيفة الثانية في قوله تعالى : « إنا كل شيء خلقناه بقدر » .
- اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : « وما أمرنا إلا واحدة كلح بالبصر » .

اللطيفة الأولى في قوله تعالى : ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم إنا نحمدك على ما منحتنا من العلم ، وحبوتنا من التيسير ، وأفضت من الخير علينا وعلى المسلمين في سائر الأقطار في هذا الزمان الذي به أشرق نور الإسلام وازدهر ، وظهر نوره وانتشر ، وأشرقت أرض الإسلام بنور ربها وأظهرت أسرارها من الفرقان وعلوما من العرفان لأمة الإسلام تناسب حالها ، وتنشأ منها وهدتها ، وتوقظها من غفلتها ، وترفعها من كبوتها ، وتطلقها من عقابها ، وتهدئها إلى سواء الصراط .

أقصد اليوم السبت ١٢ ديسمبر سنة ١٩٣١ م قصص ما كان بيني وبين صديقي العالم الذي اعتاد أن يحادثني في هذا التفسير ، إذ حضر الليلة وأفاض على من الأسئلة ، وكلفني فوق طاق من المباحث ، ولكن والحمد لله استنحت به سبحانه وأجبت. بقدر طاقتي « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » وسيظهر في الأمم

الإسلامية بعدنا أناس لهم قدم صدق وخبرة وحكمة في كل زمان بحسبه ، فالله لا يظهر الحكم والعلوم إلا مناسبة لزمان ظهورها .

قال صديق العالم : إني قرأت اليوم (سورة القمر) فوجدت الله تعالى يقول في سفينة نوح : « ولقد تركناها آية فهل من مدكر » . ويقول : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » وهكذا يقول في آخر قصة فرعون وعاد ، وفي قصة نوح ، وفي قصة قوم لوط ، ثم أعاد آية : « فهل من مدكر » عند قوله « ولقد أهلكنا أشياعكم » كرر التذکر وطلبه سبع مرات بيثية الاستفهام المقصود به الأمر ، وهذا أبلغ في طلبه ، والقرآن جاء لهدينا نحن ، وإذا نحن أمرنا أن نتفكر في سفينة نوح وأن الله تركها لنا آية ، وفي هلاك من كذبوا من أمته ، وفي قوم فرعون وهلاكهم ، وقوم عاد ونمود ولوط وجميع الأمم التي كذبت ؛ وهذه كلها غائبة عنا وتذكيرنا بها نافع ، أفليس هذا يكون داعياً حثيثاً بالأولى أن نتفكر فيما هو محيط بنا .

الله أكبر : إن هذه السورة فتحت لنا من العلم أبواباً « فتحت لنا أبواب العلم على مصراعينها ، جل الله عز وجل هو الذي أمرنا بالاعتبار بتاريخ الفراعنة وهلاكهم بعد قول نوح وهلاكهم (وبعبارة أصرح وأبين) إن السليين في زماننا يجب عليهم أن يعتبروا بقدماء المصريين ويدرسوا تاريخهم ، وتاريخهم تقدم منه شيء في هذا التفسير ليكون أنسا لقرائه ، وفيه عجائب دول المصريين القدماء من حيث تطور أحوالهم من الأحسن إلى الحسن إلى الرديء ، وقد كانت كتبهم وزوال ملكهم تابعين لانحرافهم وسوء سلوكهم ، وهذا تقدم في سور كثيرة ومنها سورة غافر عند آية مؤمن آل فرعون ، وهكذا بلاد حضرموت التي تقدم وصفها في سورة الأحقاف ، وكيف كان بها قوم عاد ، وأن آثارهم باقية ، وهناك قبر هود عليه السلام ، وللسلمون جيما مقصرون لأنهم لم يرسلوا من يفك تلك الرموز التي في ذلك القبر كما أخبرني بذلك من شاهدهه هناك ، وكذلك قبر صالح عليه السلام في تلك البلاد ، فهذه الأمم التي بقيت آثارها يجب استقصاؤها بالدرس لمعرفة علومها والانتفاع بها ، وكيف تدهورت واضمحلت حتى مجتنب نحن ما وقعت فيه تلك الأمم بالتفصيل ، أما الإجمال فلا خيرة ، فالادكار المذكور في الآية يستحيل أن تناله إلا بالتفصيل ، أما الإجمال فهو مقفل الأبواب معطل الحكمة ، والتفصيل هو الخير وهو العلم والحكمة .

هذه الآراء أذكرها الآن لأنني فهمتها من سابق هذا التفسير ، فإن ماضى من التفسير يجعلني أفهم هذه الآية على هذا الوجه ، وأقول : إن أمم الإسلام المستقبلية ستكون فيها جماعات مختلفات موزعات على العلوم لكل طائفة منها جماعة تدرسها ، هذا هو الذي سيكون ، وإنما قلت إنه سيكون لأن ذلك تكرر مراراً في هذا التفسير والسلمون يقرءونه ، فهم لا جرم سيقومون بهذا الأمر وهو توزيع العلوم على جماعات مستعدات للدرس الخاص ، فأنا من هذه الوجهة مطمئن على تلك الأمم الإسلامية المستقبلية ، إنما الذي أريد أن أسأل فيه اليوم (الأمر الأول) ما أشاهده في مصر من أن السليين قد جعلوا قراءة القرآن ذات هيئة خاصة في ولادتهم وأعراسهم وختان أبنائهم ، وكذلك إذا استهلّت أطفالهم بالولادة ، أو مات أحياؤهم ، فإني أراهم قد جعلوا أناساً اختصوا بالقراءة في هذه الأحوال بأجر معين ، فالولادة وللموت ووليمة العرس والختان وغيرها كل هذه يقرأ القرآن فيها أناس مختصون ، فالقراءة حرقهم والناس يسمعونها لاسياً إذا كانت تلك بصوت حسن ، فهل هذا من الذكر المذكور في الآيات؟ هذا هو الأمر الأول. أما الأمر الثاني فهو ما نسمعه عن الصوفية أو تفرؤه في كتبهم من ذكر آيات أشبه برموز لبعض المعاني الدقيقة ، فهذا أيضاً من الذكر المذكور في الآية إذ يقول : « فهل من مدكر » وكيف يكون ذلك الذكر ؟ وإذا كنا مأمورين أن نذكر

آل فرعون وعاد ومجود وغيرهم من الأمم البائدة أفلا تتذكرون وتدبر أمر هؤلاء الأولياء الذين هم أفرت إلينا وكتبهم بين أيدينا ومن هم أحياء الآن وهكذا قراءة القرآن المتقدمة في الأمر الأول فيجب علينا أن نتذكر وتدبر في أمر هذه كل بحسب حالها فما كان منها ضارا اجتنبناه ، وما كان منها نافعا قبلناه ، وبما قرأته من كلام هؤلاء الصالحين فأتجاء في كتاب (درر القواص ، على فتاوى سيدي الخواص) تأليف الشيخ عبدالوهاب الشعراني ، فهذا الكتاب وغيره يقرؤه المسلمون ويجدون آيات لامناسبة بينها وبين المعاني التي سيقت الآية لأجلها ، فهل هذا ادكار أم هو أمر لا يليق بكتاب الله ؟ فها هنا يجب تخصيص الحقيقة لأن هذا الزمان زمان مبدأ ظهور الحقائق ، ومن ذلك ما يقوله الصالحون ، ومنه ما هو مشاهد في عمل العامة في الأمر الأول فالتدبر نشاهده في مصر من قراءة القرآن يجب درسه ، والتدبر نسمعه عن الأولياء يجب تحصيله بقدر الإمكان ولقد جاء في كتاب (درر القواص) ما لحواه :

(١) أولا : أن الشيخ الشعراني سأل الشيخ الخواص الذي كان رجلا أميا لا يقرأ ولا يكتب عن الخواطر القبيحة هل تقع للخواص كاتع للعوام ؟ فقال له : كلا ، إن الخواص لا يشاركون العامة في خواطرهم التي تطرفهم ، ووصف أكل الخواص بأنه له النصيب الأتم من مقام العبودية لأنه منزه من أن ينحصر في وصف دون آخر من حال أو مقام ، قال تعالى : (بأهل يثرب لا مقام لكم) هذا كلام الخواص للشيخ الشعراني ثم استمر صاحبي في حديثه قائلا : أين الآية وأين الكلام في وصف العارف ؟ هل معنى الآية ينطبق على ذلك والآية في واد ووصف العارف في واد آخر هل هكذا يكون التذكر ؟ وهل هذا تيسير القرآن للتذكر ؟ وهل يكون ذكر القرآن بأمور هو براء منها ؟ فأين التريا وأين الترى ؟ مدينة يثرب معروفة ، والآية سيقت لأحوال العارف ، والقصة في غزوة الأحزاب ، وفي سورة الأحزاب ، كل هذه أمور متناقضات لا بد من تخصيصها حتى نفهم هذه السورة وكيف يقول الله : (ولقد يسرنا القرآن للتذكر فهل من مدكر) . أهكذا يكون تذكر الخواص من أمتنا .

(٢) يقول الشعراني : سألته رضى الله عنه عن قوله صلى الله عليه وسلم : (الجنة تشتاق إلى أربع : على وعمار ، و سلمان ، و بلال) ما حكمة تخصيص هذه الأربعة ؟ فأفاده الخواص بأن العلو والعمارة والسلامة من الآفات والبله ، وهي برد القلب من خطوط زوال ذلك النعيم ، هذه المعاني الأربعة هي أركان نعيم الجنة وإنيهم لا يتم نعيمهم إلا بها وهؤلاء الأربعة هم اللوكلون بالأشهر الأربعة التي هي مظاهر العلوم والأعمال للكسوبة والوهمية :

(٣) ثم قال : ويوضح ذلك (وإن الدار الآخرة لمي الحيوان لو كانوا يعلمون) فأين على وعمار و سلمان و بلال .

(٤) وأين أشهر الجنة والعلوم والمعارف والأعمال للكسوبة والوهمية ! وأين هؤلاء أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وآية : (وإن الدار الآخرة لمي الحيوان) أمور متباعدة قرنت معا .

(٥) وسأله عن حقيقة الشجرة التي أكل منها آدم عليه السلام فقال هي الأفعال للقبالة لما عليه الأنبياء وكمل ورتتهم من كمال الأفعال والأخلاق ، والسر في ذلك إظهار منة الله على العبد ، وحله عليه لا غير والسكل منه وإليه ، لكن لا يخفى تفاوت الناس في التذوق ، فربما كان ما تقرب به عبد يتوب منه عبد آخر ، فأين الشجرة التي في الجنة ؟ وأين أفعالنا نحن للغايرة لأخلاق الأنبياء ؟ وكيف يجعل الأكل من الشجرة نفس ذنوبنا نحن وأعمالنا ؟ هذا أمر غير ما يقول القرآن ، فهل هذا ذكر ؟ وهل هذا ينطبق عليه قوله تعالى : « فهل من مدكر » فأين الادكار هنا ؟

(٦) وسأله الشعرائي : أبيض ملح من مدحه ؟ فأجاب بقوله : لا تركن قط إلى من بمدحك فإن النفس تألف ذلك وأنت لا تشعر ، وكل شيء ألقته نفسك تخلفت به عن الحقوق والتخاق بأداب العبودية التي من شأنهم قفرك دائما ، وغنى ربك دائما ، إذ لا كمال يدعيه الإنسان إلا وهو في الحقيقة قد وهو في ذلك منازع لأوصاف الربوبية . من حيث لا يشعر ، غفاله كمال فرعون والخرود وسواهما ، حيث ادعى ما ليس لهما من صفات ربهما . وكان ذلك سببا لهلاكهما ، وقد وقع التوبيخ الإلهي لمن يدعي ما ليس له بقوله تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » . وقال : « يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تغذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا » كل ذلك جاء إعلاما للمبيد أن يتنبهوا لأنفسهم ويعترفوا بالعجز والذل والسكنة ، وأن لا يعتمدوا صفات العبودية التي خلقوا لها ، والله أعلم اه — ثم قال صاحبي : فأين آية بأمرنا الله فيها بالعبادة وترك مدح السادحين ؟ أفليس هذا اتساع في معنى الآية غير مألوف .

(٧) ثم قال : وقد سألته بلسان الافتقار عن الأحذية السارية في الوجود ، ولشدة ظهورها مع صفاتها (ظهور الأحذية وضاؤها قد ظهر بعض سرها في سابق هذا التفسير) فأجاب بقوله : (الها) ثم سكت وقال (كم) ثم (التكاثر) ففهمت ، فأين آية (الها كم التكاثر) ومعنى سر الأحذية التي ظهرت في كل مخلوق ، ولكن غفل عنها أكثر الناس مع أن الآية واردة في التكاثر في الأموال والأولاد ، ووحدة الله السارية في الوجود للشرقة للخواص أمر آخر غير الوارد في الآية .

(٨) ثم سأله عن سبب تنوع طرق الأولياء وكثرتها مع أن المطلوب عند الجميع واحد لا تصح فيه القسمة ولا يقبلها . فقال : إنما تعددت الطرق لتعدد القوابل والاستعدادات لأنه لا يدرك الاثنان بصفة واحدة أبدا ، ومحال أن يوجد الحق عند واحد ويكون مفقودا عند آخر كما أشار إلى ذلك قوله تعالى : « كل يوم هو في شأن » واليوم هو الزمن الفرد الذي لا يدرك ، وكذلك أشار إليه قوله تعالى : « ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما » فان الرحمة غير الذات والعلم صفتها ، فأية : « كل يوم هو في شأن » واضحة في نظام هذه العوالم ، أما تنوع المعارف على حسب الاستعداد فذلك مسلك آخر .

(٩) ثم سأله عن خشوع التواكبرين الذي يذهب حالا بعد تمام الذكر ، لماذا يذهب سرهما ؟ فأجاب بجواب واسع أدخل فيه مسألة كرامات الأولياء ، وأن كثيرا منهم تميل نفوسهم إلى السكرامات ليرتفعوا على أبناء جنسهم ، وهذا من حب النفس ، والحق لا يدرك لمحبة النفس وتكبرها وتلصصها على مراتب الأولياء وإنما يدرك تعالى به فضلا ، ومنه : « هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم » فسأله ماملة أينما إبراهيم ؟ قال التسليم والنفويض لله رب العالمين ثم قال له : إن ستر جالك عنك الآن خير لك ، لأن من أعطى شيئا من محبوبات النفوس في هذه الدار نقص رأس ماله وخرج من الدنيا بخسارة ، اللهم إلا أن يعطيه الحق ابتداء من غير ميل للنفس ، فذلك محمول عن صاحبه ، إلى أن قال : فإياك أن تميل إلى شيء تألفه النفس فإن السم معه ، ولا يعين السم إلا النفس ، وانظر إلى قوله تعالى : « ولا تقربا هذه الشجرة » مع علم آدم عليه السلام بها حال تعليجه الأسماء ، فلما أراد نفوذ قضائه وقدره ألف بينه وبين من كان سببا لأكله من الشجرة وليست إلا حواء الخ .

قال صاحبي لي : فأين ميل النفس إلى السكرامات ؟ وأكل آدم من الشجرة ، وأين آية « هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج » الخ من مسألة ميل النفس إلى الكرامات وظهورها للناس ، هذا ما أردت سؤالك عنه اليوم فأرجو الإجابة فقلت غدا إن شاء الله عسى الله أن يأتي بالفتح من عنده وهو الفتاح العليم .

حضر صاحبي في القيد وأخذ يطالبني بالإجابة على ما سبق في المجلس السابق فقلت له : إن سؤالك مُس
يرجع لأمرين : الأول قراءة القرآن المعروفة اليوم بين المسلمين في الطرقات وفي المنازل والمقابر وفي الحنان
والولادة واللوت وما أشبه ذلك ، وجوابه أن أقول :

أيها الأخ القدي : لقد كنت أيام الشباب أقف وأنا مدرس بمدرسة الجيزة الأميرية على شاطئ رعة
هناك وسط المزارع الجميلة ، وأفكر في أمر الديانات واختلافها وكثرتها ، ثم في أمر الفرق الإسلامية وشعبها
وأقول : كيف يكون من الديانات ما يحصر الفكر ويضر العقل ، ومنها ما يسرع برقي الأمم ، ومن الديانات
ما هو أرفعها وأصلحها ولكن أهله جاهلون فيرجعون لطريقهم ، ويجعلونه على حسب مألوفهم ، فما كدت
أتم ذلك حتى رأيت الجواب في الحقول ، وكان الزرع والشجر تحاطبني قائلات : إننا نحن ثلاثة فرق : فرقة
للغذاء ، وفرقة للدواء ، وفرقة للهلاك ، فأكثرنا غذاء ، وأندرنا للهلاك بالمواد السمية ، والقليل للدواء . القمع
للغذاء ، الحروع للدواء ، المواد السمية للهلاك ، ولكل منازمة خاصة لفائدة شريفة ، وحذف أحدنا من
الوجود نقص في الطبيعة وخلل في النظام .

ثم انظر إلى هذه البرك والمستنقعات : ألت ترى فيها حشرات وهوام وحشائش فذرة في مائها الراكد
ومع ذلك تكون هذه الحشائش مأوى لتلك الحشرات وتلك البرك وما فيها زينة لتلك الحشرات ومرتع وغذاء
ومتاع إلى حين ، إن البرك ماؤها ضار ولكن أصله من ماء النيل السعيد المبارك ، فما مثل الديانات إلا كمثل
النباتات اختلافا ، فلكل أمة عقائد ألقتها وإن كانت باطلة ، ونحل ورتتها وإن كانت عاطلة ، وملل واعتقتها
وإن كانت منحرفة ، وهذه العقائد كلما كثرت فيها مناهج الأخلاق كانت أقرب إلى إصلاح تلك الأمم ،
وكما كثرت الحرافات والضلالات والنواكل كانت أقرب إلى الإهلاك والتدمير ، فالأولى أشبه بالقمح ، والثانية
أشبه بالسم في النبات ، ولهذا نتائج في النظام العام العقلي كالنتائج المترتبة على النظام النباتي ، والنظامان متناسبان
للأدى والعقلي

وأقول الآن : ما مثل قراءة القرآن في الطرقات وعلى المقابر وفي حال الحنان والولادة واللوت وولائم العرس
إلا كمثل تلك المستنقعات والبرك التي انقطع النيل عنها وتكاثر فيها أنواع الليكروبات والحشائش واللياء
القدرية وصارت تنفع لأدنى الحشرات وإطعام لليكروبات ، وإذا أكلت منها الدواب استضرت بالأكل منها
وأهلكت بعضها ، فهذه فيها منافع للحشرات وبعض الحيوانات وللإنسان فإنه يصطاد منها السمك ويقتات
به ، ولكن سوائه قد تعرض للخطر بالأكل من تلك الحشائش ، حتى إن الفلاحين في بلادنا المصرية
يقولون (فلان جاموسته مشوشة) يريدون بذلك أنهم يجدون بعد ذبحها في بعض أحشائها أنواعا من الديد
والحيوانات الرخوة ، كانت تهلك جنباتها في حال حياتها ، فهؤلاء الفلاحون إذا ظلوا عاكفين على ما هم عليه
والتي القوه فيهم يأخذون في الاقراض والذل والخضوع ، ولكنهم إذا أصلحوا تربعتهم وقناطرهم ، وسارعوا
إلى إدخال ماء النيل في مزارعهم فإن الوباء يخف ، والضرر يزول ، وتصلح أرضهم للزرع ، وعقولهم إلى
الملم ، ونسلهم إلى السكال ، هكذا هذه العادات الموروثة ، عند بعض أمم الإسلام كأمتنا المصرية فإنها اتبعت
دين الإسلام الذي نزل في جزيرة العرب ، وحمله أجدادنا ، وعملوا بقوله تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن
أم على قلوب أقفالها » ورفع دولهم أيام الصحابة والتابعين ، ولما زال ملك الأمويين وحل محلهم العباسيون
وحمل القرآن أمم غير عربية كالفرس والترك ، وذل الناس وخضعوا للترهات ، وتخلص ظل الدين ، وأصبح
زسوما مرسومة ، وأقوالا محفوظة ، وطرائق مخصوصة ، ونزع لها ، وحفظ قشرها ، هناك أخذ الناس
يتلدون الآباء وهم مجهلون علومهم ، ويحفظون القرآن بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير .

فقال صاحبي : إذن أنت تقول إن قراءة القرآن على هذه الشرائط وفي تلك الأحوال المعتادة في أمثال بلايا المصرية غير محمودة ؟ قلت : إنى قد أوضحت بضرب المثل ، وأقول أيضا : إن قراءة القرآن على هذا النمط لها نفع ما ، فإن الأموات إذا أحسوا بأن الأحياء يذكرونهم حصلت لهم مسرة بذلك ، وإذا قرئ القرآن لأجلهم زادت مسراتهم ، هذا حسن ولكن يظهر لي أن هذه الأمة نسيت أصل دينها ، دينها إنما نزل لتذكر الأحياء وتعليمهم ، وترقيهم وإصلاح شئونهم لا إلى الأموات ، وغاية الأمر أنهم لما ماتت نفوس الأحياء حولوا القرآن وقراءته للأموات ، فقد فعلوا في أنفسهم ما حكاه لي أحد نظار المكاتب المصرية قبل الاستقلال الداخلى لبلادنا المصرية في أيامنا هذه ، إذ دخل مفتش انجليزى للدرسة الأولية ، وأخذ يسأل هل عمل ناظر المدرسة بتعليماته ؟ وماهى تعليماته ، إهم في ألعابهم يثقلون الميت محمولا على النمش وهم يضحكون ويفعلون قدام نعشه ووراءه مثل ما يفعله الفقهاء من الترتيل والأقوال المعلومة تدريبا لهم على الاستخذاء والاستجداء والنذل والمهانة ، واتباع الجنازات ، وتعليما لهم أن يكون ما يحفظونه من القرآن وسيلة لطلب الرزق من هذه الناحية إحياء للنذل والجهل وإماتة للنخوة والعلم ، فهذا تدريب لهم في حال الصغر منه يضحكون لينشطوا في دروسهم ، حتى إذا كبروا لم يعوزهم كبير عناء في الاستباق إلى اتباع النمش ، وتحصيل أجور المشى في تشييع الأموات إلى قبورها ، ومقاضاة الأحياء في أجورها ، وهذا قصد جميع المستعمرين ، والمستعمرون على قسمين : قسم هذا شأنه وهو ظاهر فيما تقدم ، وقسم آخر استعماره خفي ، وهو استعمار الجهل الذي حاق بالأمم الإسلامية دهورا ، وأناخ بها قرونا ، فأذل الأبناء وأضر البلاد ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ، وهذه الطوائف بقيت في مصر مثلا جعلها الله لنا تذكرة كما جعل اللغة الميريوغليفية عند الأقباط بمصر في أديرتهم ومحال عبادتهم ، يقرءونها تبعدا لأجل دينهم ، وهم منهمكون فيها حتى إذا جاء (شامبليون) العالم الفرنسى وحل هذه اللغة وألغزها ، وأعان على ذلك هؤلاء العباد (بتشديد الباء) فنشرها في العالم كله ، وانتفعت نفس مصر بهذا العمل ، هكذا هذه العادات الموروثية وقراءة القرآن على هذا النمط إنما أبقاها الله إلى أيامنا هذه لتفضل مافلته بلادنا المصرية إذ ردمت المستنقعات ، وروت البلاد بماء النيل ، وحولت تلك البرك إما إلى مزارع نضرة يسقيها ماء النيل ، وإما إلى بيوت وحدائق وجنات وأعتاب وفواكه ، فيحول المسلمون بعدنا تلك المقارىء وعاداتها إلى أن يقيموا في تلك الأوقات وعاطفا فضلاء ، مدربين على إلقاء المواعظ الحسنة ، يقفون وسط الجموع في ولائم أفراسهم ، وختان أطفالهم ، وأيام الولادة والوفاة ، ويلقون لهم المواعظ مستشهدين بالقرآن الذى القوا سماعه فذلك خير وأبقى ، وذلك كاحول أهل بلادنا البرك إلى مزارع ، وحول شامبليون الفرنسى اللغة الميريوغليفية المحفوظة في هياكل العبادات إلى لغة نحل بها الرموز وتظهر بها السكونز الملوية ، والأسرار الحكيمية ، المودعة في النواويس المنجوبة في المقابر والبرابي والاهرامات ، وفي صناديق الأموات وعلى حيطانها ، والله خير حافظا وهو أرحم الراحمين .

فقال صاحبي : الله أكبر ، إنى رأيت اليهود والنصارى يفعلون ذلك في محافلهم ومجتمعاتهم ، فيقوم خطيب واعظ يذكرهم بما في التوراة والإنجيل . قلت : إن هذه أمم قدرقت في العلم قبلنا في هذه الأيام ففعلوا ذلك بقولهم ، وقد كانوا في غفلة مثلنا ولذلك ارتقوا عنا وإن كان دينهم منسوخا ، ونحن جون الله سترتقى سريعا ، ويكون ارتقاؤنا أسرع من ارتقاؤهم ، لأن ديننا أرفع الأديان ، وهو الناسخ لها إلى آخر الزمان « والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » .

فقال صاحبي : إن هذا المقام جميل وبديع ، وهذا التشبيه الذى بنيت عليه الجواب بديع قد أظهر الموضوع وجلاء فأصبح واضح الميا جميل المظهر بديع الخبر ، والحمد لله على نعمة العلم والحكمة ، إنه هو السميع المجيب

وأرجو الشروع في الإجابة على الأمر الثاني وهي الحكم الملقاة على السنة الصالحين والأولياء . فقلت : قد تقدم الكلام على ذلك في هذا التفسير في (سورة بونس) عند آية : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » الخ فارجع إليه هناك إن شئت .

اللطيفة الثانية

في قوله تعالى : إنا كل شيء خلقناه بقدر

القضاء والقدر (١)

لمهج الناس في كل زمان ومكان بذكر القضاء والقدر ويقولون إن الله يقول : « إنا كل شيء خلقناه بقدر » وإذا كان كذلك فلم العذاب ولم العقاب والعتاب ؟ ثم إنه رحمن رحيم ، فأين الرحمة للمعذبين ؟ وأين السعادة للفظالميين ؟ ولئن هم في عذاب الجحيم .

هذه حال الإنسان على أي ملة كان ، وأي دين في مشارق الأرض ومغاربها ، حيرة لاحد لمداها ، وأسئلة لاجواب عليها إلا من أناس صفت نفوسهم وعلت عقولهم ، فيكونون في نوع الإنسان أشبه بالدين . هذه صورة منطبقة على أهل هذه الأرض أجمعين ، فهناك أيها الذكي فاستمع ما ألقيه الساعة إليك بقلب صاف ونفس واعية وتدبر فإنه لهذا الداء دواء ، ولمرض الحيرة في القلب شفاء ، وكمن من المستبصرين .

لأضرب لك أولاً مثلاً برجل مهندس عبقرى في الهندسة ، عزم على أن يبني بيتاً ، وهو بأنواع البيوت عليم فسكر في صورها بقله وانزع منها صورة صورها في نفسه واصطفاها لمسكنه ، ثم رسم ما اختاره وبناءه وشاده على أحسن منوال وأجمل مثال ، وفي البيت فرش مرفوعة ، وأكواب موضوعة ، ونمازق مصفوفة ، وزرابى مبشوتة ، وعلى حيطانه أنواع الصور المختلفة الأشكال ، البديعة الجمال ، ويحيط به بستان تفر به عيون الناظرين ، ويسر بمرآه جمهور الزائرين ، فدخل البيت زائرون منهم العميان ومنهم البصرون ، ولما كان هذا المهندس كريم الشيم ترك للزائرين الحربة أن يدوروا في البيت كإيشاءون ، ويتفرجوا على فرشه ونمازقه وأشجاره وهم آمنون ، فانطلق أحد العميان في النزول ، فاصطدم في أرض الحجرات بالأثاثك ، فخر على الأرض كالصريع ، وما كاد يقف حتى لطمته الألواح للعلاقات فأدمت أعنه ، وما كاد يمسحه أو يغسله وقدمتى خطوات حتى سقطت رجله في المرحاض فتمعد حزينا كئيبا . وأخذ يقول : إن رب هذا البيت رجل عظيم ورحيم ، فكيف خاب ظنى فيه ؟ فأين الهندسة والنظام ؟ وأين السكرم والرحمة للزائرين ؟ ولم يزل كذلك حتى جاءه رجل مبصر فأخذ يشرح له دقائق البيت وما فيه من الجمال وحسن الإتيان ، ففرح أشد الفرح وقال هذا هو النظام ، وهذه هي الرحمة والإحسان . هذا أيها الذكي هو اللثل الذي ضربته لبيان هذا اللقام . (إن علم المهندس) بنظام البيوت واصطفاه منها واحدا هو أجملها ضرب مثل للقضاء ، فالقضاء راجع لما ثبت في العلم القديم للسكنات ، وإبراز البيت على ما قدره المهندس في نفسه على أحسن منوال ضرب مثل للقدر لأنه راجع لظهور الخلوقات على ما سبق به العلم القديم .

(العميان) ضرب مثل لجميع الجهلاء على أي دين كانوا ، ولطائفة للمحدثين والتعلمين تعلميا ناقصا في مدارس الشرق والغرب أجمعين (والبصيرين) ضرب مثل لأناس جادت قرائعهم ، وزكت نفوسهم ، واشتد شوقهم للعلم والبحث فلم يكونوا كأولئك العميان يهرفون بما لا يعرفون ، فدرسوا هذه الدنيا دراسة متقنة من الرياضيات والفلك والطبيعات ، وأدركوا بصفاء عقولهم جمالها وبهاؤها ، ثم رجعوا إلى إخوانهم وأخذوا يخاطبونهم بما يفهمون ، ويكفونهم بما يقولون ، وسعدوا سعادة لاحد لها وكانوا من الفائزين ،

(١) هذا المقال نشر في (مجلة المعرفة) بقلم المؤلف .

وهؤلاء يقال لهم : « يا أيها النفس اللطيفة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي »
 فإذا مغموم يتحدثون في القضاء والقدر يخاطبونهم قائلين : أيها الأعزاء : ليس لامرئ أن يقصر في عمله
 محتجا بالقضاء فتلك حجة الكسالى العافلين ، فإذا ما أتم على حقيقته واجتاحت الجوائح ، فهناك يقول :
 القضاء سلوة للكافرين وراحة للبائسين ، إن هذه المسألة ليست بنت اليوم ، ألم تروا كيف يقول الله
 حكاية عن كفار العرب أيام النبوة . « وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من
 شيء » فرد الله عليهم مهددا بالوعيد فقال : « كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم
 من علم فتخرجوه لنا إن تنبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرون . قل فقه الحجة البالغة فلو شاء لهداكم
 أجمعين » .

وتقول : كما قامت حجة المهندس رب البيت على الأعمى ، هكذا تقوم حجة الله على من يخوضون في القضاء
 والقدر وهم جاهلون ، إن الأمم التي فتحت على نفسها باب القضاء والقدر هي التي قد استمدت للفناء وباءت
 بالويل ، ونسيت عقولها ، وعدتها حملا ثقيلًا عليها ، لأنهم على الشهوات عاكفون ، وفي غمرة الجهالة
 ساهون ، وكيف يفتحون هذا الباب وهم يجهلون ؟ وأنى للعيمان أن يدركوا محاسن الجمال في القنات والقنات
 إن السلم الذي شغله القضاء والقدر وهو بعد لم يدرس نظام الدنيا وعلوها لحرى به أن يبوء بالخسران ،
 فهذه الطائفة في الدين أشبه بأولئك الذين يجلسون في أماكن الشرب العامة ييلادنا للصبرية ، ويدور كلامهم
 على سبحة الدول وأسرارها وهم يجهلون سياحة منازلهم وأمتهم ، فهم في ذلك مغرورون .

إن الناس ثلاث طبقات : عامة مصدقون ، وحكام محققون ، ومتوسطون بين هذين مذنبون
 متحيرون فالفرقان الأولان مطمئنان ، والفريق الثالث جعلت حيرته مهمازا بسوقه إلى البحث ، فإذا قصر
 فهو في ضلال مبين ، وكيف يخوض في القضاء والقدر من يجهل تشريح جسمه وبدائع تركيبه ، وأن في كل عين
 من عينه سبع طبقات وثلاث رطوبات ، ومن الطبقات السبع طبقة تسمى الشبكة ، وهي لا تزيد في سمكها على
 سمك ورقة الكتابة ، وهذه وحدها فيها ثلاثة ملايين مخروط وثلاثون مليون اسطوانة ، وهذه كلها مبنية
 بالتصور الشمسي واضحة ، وبهذه الملايين يكون الإحساس والنظر . بعد كتابة ما تقدم في هذا المقال وجه
 إلى أحد الأصدقاء اعتراضا جاء فيه ما يأتي :

إن هناك فرقا بين كمثل والمثل له فإن المهندس رب البيت ليس مسئولًا عن العمى فليس من حق الأعمى
 الذي حصل له الألم بشج رأسه أن يقول له لم كنت أعمى ؟ لأن المهندس لاسلطان له على عين الأعمى ولكن
 للمثل له غير ذلك ، فإن الذي أصبح متشككا متحيرا هو نفسه من صنع الله ، وإذن فالإشكال باق ، والمسئلة
 على حالها ، والثالث لا يجدينا نفعًا ، فأمن الحاضرون على كلامه . قلت : لا إشكال ، لا إشكال . فقال
 الحاضرون : أين أين البرهان ؟ قلت : هناك أسرتان : أسرة كبرى وهي نوع الإنسان ، وأسرة صغرى
 وهي المروفة ، أستم ترون في الأسرة الصغرى أن صاحب المنزل هو الذي يديره ، وأن الخدم لا اعتراض لهم
 عليه في الغالب ، وأن أطفاله لا يفقهون شيئا مما يفعل أبوهم إلا بالتدرج ؟ قالوا نعم . قلت : فهل وجود
 الأطفال مع جهلهم للطبق بنظام المنزل يعتبر عند العقلاء خللا وظلما ؟ قالوا : كلا ، بل الأطفال نعمة وعدم
 وجودهم يعتبر نعمة . قلت : إن العامة في العالم الإنساني يمثل لهم بالخدم ، لأنهم يعملون ولا يفكرون إلا
 قليلا . وأما رب البيت فهو ضرب مثل لصانع العالم ، وأما الأطفال فيمثل لهم بالطبقة الوسطى من المتعلمين
 الذين ارتقوا عن العامة قليلا وفكروا في نظام هذه الدنيا ، فهؤلاء أطفال الإنسانية ، والأطفال خلقوا
 ليجلسوا محل آباءهم وهؤلاء هم المتعلمون تعليما ناقصا ، فهؤلاء إذا أحسوا بحيرة فهذه الحيرة نعمة لأنهم
 لأنها تدفعهم إلى استيعاب العلوم ليسيروا حكاما فإذا كسلوا واناموا كما هي الحال عند كثير من المتعلمين

الحالين فانهم لاجرم يحيون حياة كلها اضطراب ، ورجعون القهقري ، وتكون الشهوات سلوهم الوحيدة ، وهذا هو السر في تأخر بعض أمم الشرق التي كثر العلم فيها ولكن لاستقلالها لأن الرجال القاعين بأمرها يبنون حياتهم على أساس علمي غير مكين ، فهل وجود أطفال الأمم خلل في النظام ؟ قالوا : كلا ، لأنهم يبحثون عن الحقائق كأطفالنا . قلت : إذن العميان في مثل الهندس رب البيت ضرب مثل هؤلاء . باعتبار قصصهم ، وخلق الناقص الستمد للكمال حلالا أو مآل عدل وحكمة وكال . فقالوا نعم ، فقلت الحمد لله إذ عرقت الحقيقة . انتهى .

هذا ما كتبت في (مجلة المعرفة) تفسيرا لقوله تعالى : « إنا كل شيء خلقناه بقدر » وإن أردت أيها الله كي الزيادة فاقرا ما كتبت في (سورة الفرقان) عند آية : « وخلق كل شيء بقدره تقديرا » وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة الثانية ، والحمد لله رب العالمين :

اللطيفة الثالثة

في قوله تعالى : « وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر »

يقول تعالى خلقنا كل شيء مقدرًا مرتبا منظما على مقتضى الحكمة ، وقد كان مكتوبا قبل ذلك في اللوح المحفوظ معلوما عندنا ، فمضى أمرنا ما من أمورنا التي قررناها في علنا ، وقدرناها في لوحنا المحفوظ فإننا نعلمه فعلة واحدة ، ونوجده بلامعاجة ولامعانة ، فقد رنا سابق ، وقضاؤنا لاحق ، ولا قضاء إلا وهو مرتب على القدر السابق ، وقولنا (كن) هو القضاء . واعلم أن في أمم الإسلام السابقة قوما يقال لهم القدريّة ، وهؤلاء يقولون : « إن الله لا يعلم الأشياء قبل وقوعها ، وكل ما في الوجود مستأنف لم يعلمه الله فيما مضى ، ولكنه يعلمها بعد وقوعها لا غير » فهم صموا قدريّة لإنكارهم القدر ، وقد قال أصحاب المقالات من المتكلمين : إن هذه الفئة قد انقضت ، ثم قالت طائفة بعدهم : الخير من الله والشر من غير الله ، وهؤلاء كالجوس الذين ينسبون الخير إلى (زيدان) والشر إلى (اهر من) والخير يرجع إلى النور ، والشر إلى الظلمة .

جمال هذا المقال

اعلم أن الله عز وجل علم قبل خلقنا أننا لا ينسئ لنا الوقوف على حقيقة التكوين ولا بدائع القدرة ، جعلنا نحن أشبه بمثل مضروب لذلك ، ألا ترى رعاك الله أن هنا (ثلاث مراتب : المرتبة الأولى) العالم كله (المرتبة الثانية) الإنسان الواحد (المرتبة الثالثة) القوى الذهنية في الإنسان . هذه هي المراتب الثلاث في الوجود ، فالمرتبة الأولى والمرتبة الثانية من فعل الله عز وجل أما المرتبة الثالثة فهي من فعله بواسطة أنفسنا .

جل الله ، الله أكبر : المرتبة الأولى العالم كله من العرش إلى الفرش هيكل واحد ، وهذا الهيكل نشاهد فيه أجسامنا وصورا شتى لا قبل لنا بحصرها ، وهذه الكواكب التي لا يحصرها العد ، والمجرات والسدم التي أصبحت تعد بالملايين ، وكل مجرة وكل سديم يحوى من الشمس ومما هو في حكم الشمس ما يعد بالملايين ، وتلك الشمس إما كشمسنا أو أكبر منها أو أصغر ، وكل هذه نشاهد لها حركات منتظمة ، وهكذا كل ما على أرضنا ، وما في جونا ، وما في بحارنا من المخلوقات كلهن ذوات أفعال منتظمة مقدرات منتظمة باعتبار خلقها ، ولا جرم أن هذه الأفعال والصفات والأصباغ إنما كانت بفعل عقل وحكمة فلنفس ذلك عقلا عاما ، وهذا العقل العام لا يمكن إنكاره ، لأننا نشاهد آثاره المنظمة وأفعاله الجميلة .

أما المرتبة الثانية فهي الأجسام الحيوانية والنباتية ، وأخص ذلك كله جسم الإنسان ، فله أفعال إرادية وله جسم كما أن العالم كله جسم وروح .

أما المرتبة الثالثة وهي قوانا العقلية التي تحت تصرفنا نحن فإنها تصور لنا ما شاهدناه أو علمناه .
 يا عجباً يا ربنا وألف عجب الانكاد نفس تتوجه للمجرات ، وللشموس ، وللجيب ، ولالمدو حتى
 يحضر فيها كلج البصر ، فلندرس هذه القوى التي فينا فإنها كافية لنا في فهم لغز الوجود ، وأنا أحس بصور
 لا عددها ، صور تضارع صور هذا العالم المشاهد ، فأرى الشمس في مخيلتي مثل ما رأيتها عيني ، وهكذا الأرض
 والسماء ، ومتى تصورت صورة حسنة أو قبيحة أو مؤذية أو نافعة ظهرت في نفس آثارها ، وقد أتصور إنساناً يؤذيني
 فأشعر في الحال بعم وتجديد عداوة وحقد وضغن ، وقد يتصور المرء صورة ذات جمال فتخرج شهوته ، إذن
 الصور الخيالية الحادثة في أذهاننا تبيث تارة على الشهوة وتارة على الغضب ، وهذان عالمان لا ينبع لهما
 إلاخيالنا ، وهناك عوالم أخرى في الذهن ، ولكن من جهة أخرى أحس في نفسى بعالم آخر أرقى من هذه
 العوالم ينهى النفس ويقول لها : اطردي صور الأعداء ، واطردي صور الشهوات ، ويتحكم في هذه الصور
 ويقرب ويبعد .

إن في الذهن لصوراً كثيرة من فريقي الغضب والشهوة والجمال والشجاعة وأضرابها ، وهذه الصور
 خاضعة لتأثير مؤثر نسميه القوة المفكرة أو العقل وهكذا ، إذن هنا أمران : أمر هو كالصورة الجسمية ،
 وأمر هو كالروح فالتي هي كالصورة هي الخيالات ، والأمر الذي هو كالروح هو الفكر . ثم ننظر فترى هذه
 القوى الذهنية لها السلطان المطلق على الحواس ، ومن الحواس البصر ، والبصر يرى الصور على الشبكية
 فالشبكية هي التي تعيد الصورة وتوصلها إلى القوة الباصرة في الدماغ فيراها الإنسان ، وما الذي رآه ؟ هولم
 ير إلا صورة مرسومة دلت على صورة في الخارج ، فالمرئي حاصل داخل العين ، وهذه الصورة أقرب إلى
 الروحانية ، وهي دالة على الصورة الجسمية الخارجية : أي إن ما في النفس مطابق لما في الخارج ، إذن المعلوم
 ما ملكته النفس فيها وما في الخارج مطابق له ، إذن البصر في لحظة يرى صورة أقرب إلى الروحية دلت على
 ما يباطمها ، وهي الصورة الخارجية في لحظة صغيرة من الزمان ، فلننظر في سير هذه الصورة فتراها أصبحت
 في الخيلة ، وصارت إحدى الصور التي وصفناها بأنها صورة مؤذية أو سارة أو شهوية أو غضبية ، ولكنها بعد
 أن كانت أشبه بالروح وهي في العين أصبحت الآن في الخيال كالجسم ، وأصبحت القوة المفكرة كالروح .
 وهذا الجسم وهذه الروح اخترعتهما أرواحنا بناية ربها ، اخترعتهما من الدم ، ليس عند روي مادة لتصور
 صورها ، ولامادة لطيف لتصور أفكارها ، هكذا فعل الله في عالمه الكبير ، ولا يعزب عن ذهنك ما قررناه
 غير مرة وبيناه في (سورة النور) أن هذا العالم لامادة فيه ، كلا . إنما العالم حركات في أمر يشبه خيالنا سميناها
 الأثير ، وما هو الأثير ؟ هو خيال الكون ، خيال الفضاء وهذا الخيال قوى يتبين أمثن من المادة ، والحركات
 فيه تحدث تقطاً كهربائية ، والنقط الكهربائية باختلافها كما وكيفا تتكاثف بنسب مختلفة لاحصر لها فتظهر
 لحواسنا على هذه الصور المشاهدة ، وإلا فالحقيقة أن هذه العوالم ما هي إلا نور مضغوط مكبوس تبدي
 لميوتنا على هذا المنوال . وبعبارة أخرى : العالم حركات لا غير ، وهذه نظرية (انشتين) والحركات تنقلب
 نورا ، وهذا النور هو هذه الدنيا ، وبتنوع النور يكون جمال لاحدله ذوبهجة ، وهذه الصور الحادثات
 في العوالم منها ما ينعنا ومنها ما يضرنا على قياس الصور الذهنية . وملخص هذا المقام ما يأتي :

- (١) كأن الصور الذهنية لامادة لها هكذا الصور التي في خيال القضاء .
- (٢) وكما أن السكر مظهر إلا من أرواحنا بلا واسطة هكذا الأرواح منبعثة من العناية الإلهية خلقاً أولياً ،
 ونظيره في ذلك أفكارنا .

(٣) وكان أن الصور في الأولى منها ما يضرنا ومنها ما ينفعنا ، هكذا الصور الظاهرة في خيال العالم وهو هذا القضاء .

(٤) وكما أننا نحن نتصرف في الصور الخيالية بواسطة عقولنا ، هكذا نحن نتصرف في عوالم المادة من أنواع ما يطينا منفعة وما يورثنا مضرة كالنحل والزناير .

(٥) وكان أن فكرنا له الحرية المطلقة في إصلاح الصور الحاصلة في الذهن أو محوها وإحداث غيرها محلها ، كذلك نحن نفعل في أعمالنا المعتادة في الأرض .

(٦) تشابه العالمان : عالم الأذهان ، وعالم الميان .

(٧) ومثل ما رأينا في هذين العالمين يحصل في العالم العام .

(٨) ففي هذه العوالم نفوس وعقول نسبتها إلى هذه العوالم المادية كنسبة أفكارنا إلى صورنا الخيالية وكنسبة عقولنا وقوانا المتصرفة إلى أعضائنا العاملة كاليد والرجلين والحواس .

(٩) وكان أن نفوسنا وأفكارنا نتصرف في صور الخيال التي لانهاية لها ، وفي صور المادة التي لاحد لها فيما حولنا ، هكذا تلك النفوس والأرواح العالوية تفعل بنظامها في هذه العوالم العلوية والسفلية بقوانين منظمة مترتبة بقدر وحكمة ، ويمتد من تلك الحكمة فروع تصل إلى عقولنا فتهدينا إلى صراطها المستقيم .

(١٠) المادة كلها أنوار بل حركات مضغوطات ومكبوسات ، فأجسامنا وأجسام ما حولنا ماهي إلا أنوار ذات جمال حجبنا عنه ، وهذه الأنوار حركات في الأثير ، كما أن الصور الرسومات في أذهاننا أيضاً حركات أو أنوار في الأثير ، فذهن نور يعيش في نور .

(١١) خلاصة الخلاصة أن هذا الموضوع كله توطئة لفهم قوله تعالى : « وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر » والتقصود الأصلي سرعة الإيجاد بعد إرادة الفعل ، وأدى ذلك إلى البحث في أمر الصور الذهنية ؛ فالصور الجسمية ، فالأرواح والأجسام ، فاللائكة والموالم كلها ، وفي غضون ذلك برزت صور من علم الأخلاق ومحاربة القوة العاقلة قوتى الغضب والشهوة ، وتنظيم صور لانهاية لها كما ينظم العقل العام صوراً لانهاية لها في العوالم كلها ، وبجهادنا للخلوص من علائق المادة نصل إلى النور الأسمى ، والحمد لله رب العالمين وهو حسبنا ونعم الوكيل . انتهى صباح يوم الخميس ١٩ نوفمبر سنة ١٩٣١ م

نور على نور

حضر صاحب العالم الذي اعتاد مناقشتي في هذا التفسير فقال : إن هذا القال حسن ، فقد كان قوله تعالى : « وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر » وحصر التمثيل بلح البصر في الآية وتقريب المعاني البعيدة بما نألفه سبباً أثار تلك العجائب ، وكان لمح البصر وما يرتب عليه من صور ذهنية وأخرى خارجية مخرجاً لما استكن من العلم ، وموجباً الارتقاء في الأسباب طبقاً عن طبق حتى وصلنا إلى مستوى يسمع فيه الأنبياء واللائكة صرير الأقلام المسطرات مقادير العوالم في اللوح المحفوظ ، ولكن ألا تذكر أن هذا القام له ارتباط وثيق والتلاف ؛ بل تكميل لما تقدم في (سورة القتال) عند آية : « فاعلم أنه لا إله إلا الله » فقد ذكرت هناك رأى أفلاطون وفيه الكلام على المثل السماء مثلاً أفلاطونية ، وأن هذه المثل نبذها أرسطاطاليس بعده وقال إن العلم لا يعتمد إلا على ثابت ولا ثابت إلا المادة وصورتها ، وأن الرواقيين الذين جاءوا بعده وكان رئيسهم (زيتون) في القرن الثالث قبل الميلاد ردوا عليه كما رد هو على أستاذه وقالوا : أنت لم تبين لنا كيف يكون ارتباط هذه المادة بصانع العالم الذي أنت توفن به ، وما المناسبة بينهما ؟ ثم إنك تقول : إن المادة مجرد

إمكان محض ، وتقول إنها تنشق للصورة ، وهذا كلام لا دليل عليه ، لأنها إذا كانت مجرد إمكان فأين عشقها للصورة التي تدعيه ، وهل هي تعقل ؟ .

فلما رأى ذلك الرواقيون وبعدهم العلماء الذين جاءوا بعد الميلاد وهم الفرع الإسكندري ، والفرع الشامي والفرع اللاتيني نظروا في آراء الحكميين ، فقوم منهم أكبوا على العلوم الطبيعية كالطب ، وقوم أكبوا على الرياضة ، وهؤلاء أكثرهم من الرواقيين ، ثم إن هذه الفروع الثلاثة بعد الميلاد وققوا بين الآراء واستخلصوا خلاصة ، وإليهم ينسب كل ما وصل إلى علماء الإسلام كابن سينا والفارابي والصوفية ، فهذه الخبرة التي فيها وقع القوم بعد الحكميين سببها أنهما لم يوفقا لانتهاج خطة بها يصلان إلى الطريق التي بها يعرفون كيف توجد هذه العوالم من إله لاصلة بينها وبينه ، فلا أفلاطون قدر أن يبين ، ولا أرسطاطاليس كذلك ، وهما السبب في اختلاف الأحزاب فيما بعد ذلك ، وقد نقلت من كلام (الأستاذ ستلانه) المكتوب بخطه في كتابه (تاريخ الفلسفة العربية) أن حكاء أوروبا لم يبرعوا في الفلسفة ولم ينالوا من العلم إلا ما كان من قبيل العلوم الجزئية كالطبيعات والرياضيات ، فاخترعوا وزرعوا وطاروا وحاربوا ، أما العالم الأعلى وعجائب النفس وأصل التكوين التي لأجلها وضعت الفلسفة ، والتي هي المقصود الأصل لنوع الإنسان من أبحاثه فهم فيها ليسوا بالنسبة لسقراط وأفلاطون إلا كنسبة البقرة إلى القبيل ، وأنهم لو عرفوا ذلك مثل هذين الحكميين لم يكونوا إلا ملائكة .

هذا كله تقدم في هذا التفسير في مواضع كثيرة ، وأنت قد رفعت صوتك عالياً وقلت : إلى نوع الإنسان كله شرقاً وغرباً : أيها الناس إذا كان (أفلاطون وسقراط) قد ضربا مثلين لأصل العوالم ، واختلف الأحزاب من بعدهم ، وإذا كان الأستاذ (كانت) الألماني قد خالف طريقهما لما رآها وعرة المسالك ، صعبة المرتقى ، بعيدة المنال ، مربكة العقول ، عرج على أن يصل الإنسان لصانع العالم من طريق علم الأخلاق وأبان أنه إذا لم يكن هناك إله يكون المجرم كالمحسن ، فأثبت الإله من هذه الجهة الضعيفة ، وقد نقلت أنت ذلك عن مترجم (كتاب الأخلاق) لأرسطاطاليس من اليونانية إلى العربية ، وذكرت أنت أن هذا المترجم الفرنسي كما تقدم في سورة حم فصلت وهي حم السجدة عند آية : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا » الخ جعل أفلاطون في الدرجة العليا والأستاذ (كانت) في الدرجة الوسطى ، وأرسطاطاليس في أدنى الدرجات ، كل هذا ذكرته أنت وأبنته في غير ماموض .

هاهنا رفعت أنت صوتك عالياً وقلت في (سورة القتال) في رسالة مرآة الفلسفة مامعناه ملخصاً موضعاً مشروحاً بعبارة أوسع .

أيتها الإنسانية : اسمي اسمي : إن أفلاطون وأرسطاطاليس لم تكن الأم في زمانهما لتعقل الحقيقة واضحة فأعطيا العلم للناس على مقدار استعدادهم ، وأعطى كل منهما صورة للناس يظن أنها تقبل عندهم ومضى ٢٥ قرناً انتقلت فيها العقول وارتقت الأفكار فاستعدت لقبول الحقيقة .

أيتها الأمم . اسمي اسمي : إن أفلاطون لم يقل المثل الأفلاطونية وهو نائم أوساه ، كلا . إنه لما رأى أن المعقولات هي الفعالة والمؤثرات وما عداها لا حراك له قال مقالته ووضع قاعدته ، ولكن أنا أنبئكم بالحقيقة ، الحقيقة هي أننا لا يتسنى لنا معرفة العوالم الغائبة عنا إلا بما نشاهده في أنفسنا ، وسبب ذلك أن أنفسنا أكل هذا العالم ، هي أرقاه لأنها جمعت العوالم الجسمية والعوالم الروحية ، ولنا صور ذهنية وهذه الصور نحس بها ، هي موجودة ، نحن لاننتكرها ، وهذه الصور لم تكن لها مادة تخلق منها ، ولا وجودها إلا من أنفسنا ، فلا واسطة بينها وبين نفوسنا ، أفلا نقول هكذا في العوالم : إن العوالم

حركات في ضمير الكون وخيال الفضاء ، كما أن صورنا الذهنية حركات في خيالنا ، فهانا نحل الإشكال ، وفك العقال .

هذا معنى ما تقدم في غير ماموضع لاسيا (سورة القتال) فهل لك أن تفيض في هذا الموضوع هنا ليتم المقام وينتظم شمله؟ قلت له: حياك الله أيها الأخ وبياك : ألم تر ما كتبتة الآن؟ ألم أذكر لك عشر جمل هي خلاصة ما ذكرته في هذا المقال هنا زيادة عماسبق . فقال بلى ولكن أريد زيادة تحقيق ، نعم إنك في (سورة القتال) لم تذكر إلا الصور الذهنية الخيالية ، وهنا ذكرت الخيالية والفكرية وشرحتهما ، فلتفصل لي المقال بعبارة أوضح وقول أبين ، قلت : إن كل ما زاوله من أفعالنا ، ونصنه في مدتنا وحقولنا ولبنا ونهارنا لا يصدر إلا عما قررناه في نفوسنا .

الله أكبر : لاعمى للانسانية إلا الفكر ، لو سلب الإنسان العقل لسميناه مجنوننا ، فيصبح ذا غريزة ، كالحيوان فيأكل ويشرب ويتناسل ، وهو صنوا الحيوان لا يفكر عنده ولا يميز .

الله أكبر : الأرض وما عليها لانساوى شيئا مذكورا في نظرنا لولا درا كنا لها ، إذن الإدراك والتنقل هما أصل كل شيء . عندنا ، إذا عقلنا فهناك الوجود ، وإذا لم نعقل فهناك العدم جرد المرء من شهوة الطعام إذن لا يجابه ، جرده من شهوة الغضب إذن لا يجارب العدو ، جرده من العقل لا يدري شيئا ، فالإدراك هو الأصل ، وما عداه تبع ، فالوجود كله لاعمى له إلا إذا أدركناه ، نحن علماء بالإدراك ، نحن جهلاء بعدمه ، العالم موجود عندنا لأننا أدركناه غير موجود إذا لم ندركه ، لا وجود للألوان إذا لم تكن عيون ، أو كان الانسان أعمى ، لا وجود للأصوات إذا كان الانسان أعمى ، لا وجود لهما إذا كان أعمى ، لا وجود لهذا العالم لمن لا يحس بالحواس ، بعض الموسوسين والمرضى بالأمراض العصبية ومرضى (الميستريا) يسمون أصواتا ورون صوراً لا وجود لها ولكنها تفعل فعلها فيهم وتضرهم ضرراً بليغا ويموتون ، وأنا شاهدت بعضهم ، وبعضهم يرى صوراً في الظلام ، ومن شدة خوفه يرى صوراً تزعجه وهو مستيقظ ولا يشك في وجودها ، يحلم الانسان بصور وأشكال ، وجمال وقبح ، وصدق وعدو ، وحقل وجبل ، وهي عنده حقائق لا يجارى فيها ، ولها في ذهنه آثار ، ولها في نفس حياته في اليقظة بعض الآثار ، فبعضها يورث القرح وبعضها يورث الحزن الخ دالة على أن لها وجودا ، والشمس قدر للنخل باعتبار ما وصل إلينا بالعين لا بحسب الواقع ، إذن الوجود كله الذي أدركناه يرجع إلى ما وصل إلينا في أنفسنا وما تقبلته وتصورته لا غير وإن خالف الحقيقة ، فإننا إذا أثبتنا للنفي لما أدركناه ، وثبتنا للثبوت لما لم ندركه نحن في نومنا نوقن بما ليس بوجود لما أدركناه ونذعن بدم ما هو موجود تبعا لما تصورناه ، فالعبرة بأنفسنا لا غير ، ففيها سعادتنا وفيها شقاؤنا ، وإذا تبدى لنفس ما يسعدها فهي سعيدة ، وإذا تبدى لها ما يشقىها فهي شقية ، والعالم الخارجي أمر آخر غير نفس فهو صالح للأمرين ، ولو أن الإنسان عاش أمدا وأبدا ، وحياته كحياة النائم الذي يرى أنه في روضات الجنات ، فهذا النائم سعيد سعادة حقيقية ، وإن كان كل ما رآه لاحقيقة له ، وإن رأى حيات وعقارب وسعيرا وزمهريرا ودام إلى الأبد فهو الشقي شقاء أبديا ، فنفسنا لا يسعدها إلا ما أدركت ولا يشقىها إلا ما لديها مما هو مؤلم ، فالنفوس إذن أصل للوجود عندنا ، ليس هذا أيها الأخ الذي هو السر الذي وصل إليه قول (أفلاطون) في أن أصل العالم هو العالم العقلي ، فإذا كان ذلك هو أدب نفوسنا وهي فروع لنفوس أكبر تدبر هذا العالم . أفلا تقول : إن النفوس التي اشتقت منها نفوسنا هي على هذا النمط ، فهي أصل لوجود العوالم ، والمدار على تلك النفوس لا على ما تضرع منها من العوالم ، وما هذه العوالم إلا صور لما في تلك النفوس العالية لأن المدار عليها كما أن المدار في الوجود وعدم الوجود إنما هي عقولنا وإرادتنا وهي الحقيقة عندنا لا غير ،

فإن كان في المنام فالحقيقة ما تراه ، وإن كان في اليقظة فالحقيقة ما شاهده ، وأصل الوجود هو الأثير والحركات فيه ، واختلفت المناظر باختلاف أحوال الناظر فيها ، وإذا كانت عقولنا ونفوسنا هذا دأبها فلنقل هكذا دأب العقول التي اشتقت عقولنا منها ، وتلك العقول الأولى منزلتها من صانع العالم منزلة أفسارنا من أنفسنا وإن كان هذا مجرد تشبيه لا غير وليس موضعاً للحقيقة ، والتشبيه ما هو إلا ضرب مثل لا غير ، وهذا الذي عولنا عليه إيضاح وتبيين للسر الذي ذكره أفلاطون ، وبهذا الإيضاح سينزل إشكال الأمم في أصل وجود العوالم العلوية والسفلية ، والله هو الولي الحميد .

مسامرتان

ولأذكر لك هنا مسامرتين : الأولى عن الإمام الغزالي . الثانية عن (بامسرك) يقول الإمام الغزالي : لو أنك خبأت كنزاً ثميناً وفيه أموال عظيمة فإنك تجد نفسك به فرحاً مغتبطاً ، ولو أن امرأ سرق ذلك الكنز وأنت لم تعلم به سنين عديدة لم يؤثر ذلك في فرحك بل فرحك به دأبهم مادمت معتقداً وجوده وأنه ملكك . انتهت المسامرة الأولى .

المسامرة الثانية

ما جاء في كتاب (مختارات الترجمة) باللغة الإنجليزية تحت عنوان «لغافة التبغ التي تمتع بها بامسرك من غير أن يدخنها» وذلك أنه كان في (كونيكارتز) وقد حمى وطمس الحرب واشتد الكرب ، وشمرت الحرب عن ساقها ، وعم ضررها ، ولم يبق لديه إذ ذاك لغافة تبغ واحدة ، قال هو بنفسه ما يأتي :

« إن قيمة لغافة التبغ لا تعرف إذا لم يكن لديك سواها وكانت آخر ما تملك من هذا القبيل ، ولم يكن هناك سبيل ليل غيرها ، وفي (كونيكارتز) لم تكن عندي إلا لغافة تبغ واحدة ، لحفظتها في أمتعتي ، وحافظت عليها حفظ البخيل على كنز ماله مدة الحرب كلها ، وقد قررت في نفسي أن العقل يقضى ببقائها وليس من الحكمة تدخينها ، ولقد كنت أحس بأجل السمادات ، وأهسى اللترات ، وأعز الساعات ، بعد أن وضعت الحرب أوزارها حينما آتمت بالنظر إليها وأشلهدها وهي قرّة عين لي ببقائها ، ولكن وأسفاه قد وقع ما ليس لي في الحسبان ، ذلك أن فارما قطعت يدها أثناء الحرب أخذ يهوس ملتصقاً ما يسلى نفسه المسكينة وينمش فؤاده الحزين ، فأخذت أفتش في حقيبتي ، فوجدت فيها النقود الذهبية ، ولكنها لا تغنيه شيئاً مذكورا ، ولا تعش قواه المنهوك ، فقلت له اجلس أنا أعطيك لغافة التبغ العزيزة لدى ، والتي هي سلوتي مدة الحرب ، فأشعلت النار فيها ، ووضعت ثمها بين شفتيه الواهتين ، هنالك تبسم ذلك المسكين فرحاً مسروراً شاكراً ، أنا لم أمتع بلغافة تبغ مدة حياتي كهذه اللغافة التي تمتع بها ولم أدخنها ، انتهى .

هاتان المسامرتان أيها الأخ الذكي تلقيان شعاعاً على موضوعنا ، شرح الله صدرك للحكمة وأنا بصيرتك بالعلم ، وزين صدرك بالإيقان ، ومماثل هاتين المسامرتين إلا كمثل نور المصباح يلقي شعاعه على أصل الموضوع الذي أختمه بما يقوله الفلاسفة : « إن الإنسان يمشى على الحائط فيقع وما أوقفه إلا وهمه ، وهو يمشى على الأرض في أقل من عرض الحائط » ، فالصور الذهنية مبدأ الشقاء والسعادة ، فكأن الفكر أصل أعمالنا والعالم الملوكي الأعلى أصل عوالمنا ، فأصل الوجود للعقول وجميع العوالم إن هي الاتابعات ، والعوالم كلها أشبه بشجرة ، وهذه الشجرة فيها زهرات كثيرات ، والزهرات هي الأبصار التي ضرب بها للثل في القدر فقال : « وما أمرنا إلا واحدة كلح بالصر » فلع البصر كترع الأزهار على الأغصان ، ووراء

الزهرات الثمرات ، كما أن وراء العين العقول والنفوس الأرضية والسموية وترتيب القضاء والقدر ، أفلا
تعجب من سر القرآن ! .

فقال صديقي : إن هذا البيان عجب ! ولم أسمع مثل هذا السر في هذا التفسير . فقلت الحمد لله رب
العالمين . انتهت اللطيفة الثالثة في ١٠ جمادى الأولى سنة ١٣٥١ هجرية ١١ سبتمبر سنة ١٩٣١ ميلادية .
انتهى تفسير (سورة القمر) .

تم بحمد الله وحسن توفيقه الجزء الثالث والعشرون من كتاب « الجواهر » في تفسير
القرآن الكريم ، وبليه الجزء الرابع والعشرون وأوله : تفسير سورة الرحمن

فهرس

الجزء الثالث والعشرون

من كتاب

الجواهر في تفسير القرآن الكريم

صفحة

- ٢ تفسير (سورة ق) .
- ٤ بيان أنها نزلت في إثبات النبوة والحشر ، والسورة مكتوبة مشكلة كلها .
- ٤ بيان أن فيها مبحثين : البحث الأول فيه ثلاث مقامات : تفسير البسمة ومعنى ق ، وتفسير الآيات من أول السورة إلى قوله « بل هم في لبس من خلق جديد » .
- ٥ وجه الرحمة هنا .
- ٧ المقام الثاني في معنى (ق) وأن المسلمين علم الله قبل أن يخلق العالم أنهم سينامون عن العلوم غفلة وجهالة فرمز لهم هنا بحرف (ق) إشارة إلى القرآن :
- ٧ المقام الثالث تفسير الآيات (ق) ، والقرآن المجيد (الخ .
- ٩ البحث الثاني في السلام على الموت وسكرته وعلى الملائكة الراقبين حركات الإنسان وسكناته ، وفي أحوال يوم القيامة .
- ١٣ بيان أن في هذه السورة ثلاث لطائف : اللطيفة الأولى والثانية في عجائب الأرض والنبات .
- ١٦ بيان عشرين حكمة في الشجر والنبات : الحب ، الشجر ، نسج الورق ، العجم والنوى ، صلابة النواة ، قشر الحب والنوى ، الحب والنوى الخ .
- ١٨ شذرات علمية في النبات .
- ١٩ اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : « إذ يتلقى التلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد » .
- ٢٠ اللطائف العامة في هذه السورة .
- ٢١ اللطيفة الأولى في سر (الم) في قوله تعالى : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج » . وتبيان أننا ذكرنا في أول (سورة آل عمران) المعاني الإشارية التي أوردتها المتقدمون في هذه الحروف التي في أوائل السور ، وأن (الم) في أول سورة (آل عمران) خاصة تشير إلى ما هناك من قصة اليهود الذين حرقوا التوراة وكنتموا العلم الخ .
- ٢٦ اللطيفة الثانية في قوله تعالى : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج » .

- ٢٧ مسامرة بيني وبين صديق لي أذكرني بما شرحته من عجائب العين وغيرها فيما تقدم الخ .
- ٢٨ العين ومنفعتيها ، وأن الناس يستعملونها ولا يحقلونها . وبيان كيف ركب طبقات العين وكيف جعلت تلك الطبقات بهيئة موسيقية عجيبة جدا الخ .
- ٢٩ (شكل ١) قطعة من العين الإنسانية ، وفيها وضحت ١٥ قطعة من داخل العين مثل الصلبة والقرنية واللتحمة وغطاء الشبكية ، وآخرها الرطوبة الزجاجية .
- ٣٠ (شكل ٢) فيه أجزاء العين مفصلة ، ولكن شرحها قد تقدم في (سورة المؤمنين) فلم يذكر هنا وهو معلوم .
- جمال العين وبهجتها وعجائب إتقانها ، وذكر أهم أجزاء العين وهي القرنية : الرطوبة البيضاء ، البلورية ، الزجاجية ، الشبكية ، وهذه تفهم بشكل (٣) وهي تجربة تبين منفعة أجزاء معلومة من العين ، فترى الصباح يمثل ضوء الشمس مثلا ، واللوح الأبيض اللغوب يمثل القرنية ، والزجاجية المائية تمثل البلورية ، واللوح عمرة ٤ القابل للصورة يمثل الشبكية ، وبهذا ظهرت قيمة القرنية فهي المساعدة لنظام الصورة على الشبكية .
- ٣١ الكلام على المنشورات البلورية القائمة مقام الزجاجية الملوثة ماء . إن الزجاجية المتقدمة يعرفها الخاص والعام وهي تمثل البلورية ، ولكن العلم يعوزه ما هو أعظم من ذلك وهي أجسام زجاجية مضلعة (شكل ٤) قطعة من بلوريتين محدبتين وجزء من منشورين .
- تحليل الضوء إلى ألوانه السبعة سير الضوء في منشورين قاعدة أحدهما منسقة بقاعدة الآخر فصار أبيض في الوسط ، والأشعة الزرقاء أسرع فاجتمعت أولا ، والحمراء اجتمعت بعد ذلك الخ :
- ٣٢ وظائف القرنية والبلورية والشبكية : فالأولى لحفظ الصورة واضحة ، والثانية ترسلها ، والثالثة توصلها إلى الدماغ ، والشبكية عشر طبقات مفصلات في (شكل ٦) .
- ٣٣ بيان آخر طبقة منها أن فيها ثلاث ملايين مخروط وثلثون مليون أسطوانة ، وصورة هذين النوعين (شكل ٧) .
- ٣٥ تأثير الضوء في النبات والحيوان والجماد .
- البحث الثاني من اللطيفة الثانية في عجائب السماء والكواكب ، وهاهنا الكلام الإجمالي على السيارات وتلى الشمس الكبيرة والمجرات ، والشمس تبعد عن سطح المجرة خمسين ألف سنة نورية ، وهي تسير مع شموس أخرى بسرعة مليون ميل في اليوم .
- بيان أنه ظهر ١٩ نجما جديدا من سنة ١٣٤ ق م إلى الآن .
- ٣٩ تطبيق أقوال الصلاة على عجائب البصر وعجائب السموات :
- ٤٠ تسبيح المخلوقات وشرح الكلام في القرنية وأنها تضبط النور .
- ٤١ سر من أسرار حكم العين وسواد قرنتيها .

- ٤١ اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : « والأرض مددناها » الخ . وفيها مقالتان : المقالة الأولى في قوله تعالى :
« وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » .
- ٤٢ (شكل ٨) .
- ٤٣ (شكل ٩) :
- ٤٤ (شكل ١٠) وفيه نوع الخلايا وهي هنا ستة أنواع : مثل الخلايا الرستيمية الخ .
- ٤٥ شرح الساق في النبات ذو الفلقتين مثل (الكيونين) ومثل البشيرة تحته ، وهكذا إلى سبع طبقات
وأخرها أشعة نخاعية (انظر شكل ١١) و (شكل ١٢) و (شكل ١٣) و (شكل ١٤) ،
و (شكل ١٥) .
- ٤٨ امتحان الساق في ذى الفلقتين يظهر في الحلبة واللوخية بسهولة . شرح ساق النبات ذى الفلقة الواحدة
وفهم (شكل ١٦ ، ١٧ ، ١٨) . الفرق بين نمو الساقين أن أحدهما يزداد في السمك عاما بعد عام
وهو ذو الفلقتين وبالعكس ما كان ذالفة واحدة كالخجل .
- ٤٩ الحلقات السنوية (شكل ١٩) .
- شكل الخشب في أشجار مختلفة (شكل ٢٠) و (شكل ٢١) لبيان الجذور ، وأشكال (٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤)
لأصل النباتات الحزازية .
- ٥١ (شكل ٢٥) للنباتات السرخسية ، ويلبها (شكل ٢٦) .
الكلام على النباتات المرارة البذور والغطاة البذور .
- ٥٢ الموازنة بين النباتات ذوات الفلقة وذوات الفلقتين ، وهي خمس فوارق .
المقالة الثانية في قوله تعالى « تبصرة » والتبصرة باستنتاج ١٤ حكمة مما تقدم .
- ٥٤ المقالة الثالثة في قوله تعالى : « وذكرى لسكل عبد منيب » إيضاح هذا المقام .
- ٥٥ التسييح والتحميد : والكلام على التسييح والتحميد من المخلوقات أهو باللفظ أم بالمعنى ؟ .
- ٥٧ جمال العلم وبهجة الحكمة في الكلام على وادي الموت بأمريكا ، فكل من دخله مات من حرارته
وعلى غور الشيطان بأمريكا أيضا وعمقه ١٧٥ مترا ، وذلك بسبب جرم سماوى صنعته ، ثم الكلام
على الجايد والفحم القطبي .
- ٥٩ ثلاث جواهر : الأولى في آية : « وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » .
- ٦٠ الجوهرة الثانية في قوله تعالى : « تبصرة وذكرى لسكل عبد منيب » .
- ٦١ الجوهرة الثالثة في قوله تعالى « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » وفيها ذكر بعض آفات من
(الإحياء) .
- ٦٨ بيان ما رخص من التكذب ، كمن يكذب لاصلح بين اثنين .
- ٧١ بيان الحذر من الكذب بالمعاريض :
- ٧٣ الغيبة والنظر فيها طويل .

- ٧٥ بيان معنى الغيبة وحدودها .
- ٧٦ بيان أن الغيبة لا تقتصر على اللسان .
- ٧٨ بيان الأسباب الباعثة على الغيبة :
- ٨٠ بيان العلاج الذي به يمنع اللسان عن الغيبة .
- ٨٢ بيان محرم الغيبة بالقلب .
- ٨٣ بيان الأعدار المرخصة في الغيبة .
- ٨٥ بيان كفارة الغيبة .
- ٨٦ التسمية .
- ٨٧ بيان حد التسمية ، وما يجب في ردها .
- ٩٠ كلام ذي اللسانين .
- ٩١ آفة للدح .
- ٩٣ بيان ما على المدوح .
- ٩٣ الآية التاسعة عشرة : الغفلة عن دقائق الخطأ في غوى الكلام .
- ٩٤ الآية المشروون : سؤال العوام عن صفات الله تعالى ، وعن كلامه ، وعن الحروف أهي قديمة أم محدثة ؟
- ٩٥ شذرات من كتابنا (جوهر التقوى) من الحسد وأسبابه .
- ٩٧ الثبات والعزيمة ، والصبر وأنواعه ، والعفة والشجاعة ، وكنم السر وإفشاؤه ، والقناعة والشره :
- ١٠٣ (١٣) سؤالاً للتطبيق على الأخلاق المتقدمة : الكرم والبخل الخ .
- ١٠٥ اللطيفة الخامسة في قوله تعالى : «يوم تقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد» .
- ١٠٧ جوهرة في إعجاز القرآن من حيث بلاغته .
- ١٠٨ موازنة بين الأدب في هذا العصر : أي سنة ١٩٣٢ وفي المدة الأولى أيام شباني في نحو سنة ١٨٨٧ م .
- ١٠٩ (سورة الناريات) مكتوبة مشكلة كلها .
- ١١٠ بيان أن هذه السورة ثلاثة أقسام .
- ١١١ القسم الأول في تفسير البسملة ، وبيان غفلة الإنسان في هذه الأرض .
- ١١٢ القسم الثاني من السورة في تفسيرها اللفظي من أولها إلى قوله «لعلكم تذكرون» .
- ١١٥ القسم الثالث من السورة في تفسير الآيات من قوله تعالى : «فروا إلى الله» إلى آخر السورة .
- ١١٦ لطائف هذه السورة ثلاث : اللطيفة الأولى والثانية في مبحث علمي ومبحث أدبي . وبيان أن العلمي يرجع إلى أن (ق) جرى به مذكرة للمسلمين بعد غفلتهم في زماننا ، والأدبي يرجع إلى الموازنة بين أقسام العرب وأقسام القرآن .
- ١٢١ اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : «فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون» :

- ١٢١ اللطائف العامة في هذه السورة .
- اللطيفة الأولى في قوله تعالى : « وفي الأرض آيات للموقنين » الخ
محاورات بيني وبين صديقي العالم الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير :
- ١٢٢ في هذه المحادثة فصلان الفصل الأول في ملخص ما تقدم في (سورة الفتح) لمناسبة قوله تعالى : « وفي السماء رزقكم وما توعدون » .
- ١٢٤ الفصل الثاني في علاقة أجسامنا بعالم السموات ، وما يتبع ذلك من طول العمر وقصره الخ .
- ١٣٦ اللطيفة الثانية في قوله تعالى : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » وما بعدها . وبيان بدائع الحساب من الجذر والتربيع والجمع والطرح في الأعداد (١-٢-٣-٤ الخ) وكيف كانت أنواع الحساب المذكورة فيها .
- ١٣٧ هاهنا ثلاثة فصول : الفصل الأول في الجذر والتربيع .
- ١٤٥ الفصل الثاني في حقائق العلوم التي تفياً الناس ظلالتها من علم الفلك والطبيعة ، وظهور غاية الدهش من حساب الأحجار الساقطة في نظام سرعتها ؛ وكيف دخل فيها الجذر والتربيع الخ :
- ١٤٨ (شكل ٢٧) و (شكل ٢٨) يمثلان نظام أوراق أمثال شجر التفاح الذي يرجع إلى كسر بسطه عدد (٢) ومقامه عدد (٥) والأول للأشكال الحلزونية في الدائرة الواحدة ، والثاني لعدد أوراقها ، وكيف كانت الورقات الخمس في الدائرة بينها مسافات متساوية ٧٢ درجة من محيط الساق وهو دائرة تامة .
- ١٤٧ الفصل الثالث في أن الأمم وإن استظلت بظلال تلك العلوم في حياتهم لم تكن ثمراتها .
- ١٤٨ بيان أن الإنسان لم يدرس حقائق السياسة كادرس أحوال الحياة .
- ١٤٩ اللطيفة الثالثة : في قوله تعالى أيضاً « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » وفيه ثلاث شذرات .
(الشذرة الأولى) في كريات الدم الحمراء .
(الشذرة الثانية) في بعض النافع الطبية والمحافظة على الأسنان وتنظيفها ونحو ذلك ، وأن الأسنان الذهبية قاتلة لنوع الإنسان ، وأن الأسنان لا بد من تسويكها واللثة لا بد من تنظيفها بالأصبع لا بالسواك .
- ١٥٤ الشذرة الثالثة في أمر النفس وعجائبها ، وبيان أن الحقول هي السكية الأولى لعلم النفس وهي ثمانية وذلك في ثمانية فصول :
- ١٥٥ بيان أن المؤلف نظر في كتب الفلاسفة المتقدمين ، ثم فلاسفة أوروبا ، فوجد للتقدميين جعلوا العلوم هكذا : رياضيات ، طبيعيات ، إلهيات ، والطبيعات هي سماع السكيات والسماء والعالم ، والسكون والفساد ، والآثار العلوية ، والمعادن ، والنبات ، والحيوان ، والإنسان . ثم هم يقولون إن للنفس ثلاث قوى ، ثم يأتون بعد ذلك بالعلم الأعلى وهو خمسة علوم ، وهذه كلها مع الرياضات ومع تهذيب الشخص ونظام الأسرة ونظام الأمة تبلغ ١٧ علماً ، ولهذا فروع كثيرة الخ .
- ١٦٠ الكلام على آراء (إخوان الصفاء) في هذا المقام ، وعلى مافي جمهورية أفلاطون فيه ، وهو مفهوم

في مواضع كثيرة من هذا التفسير ، وينحو نحو هذا الترتيب بعينه (كوتشيبوس) الصيفي .

١٦٢ فصل فيما جاء في علم النفس الحديث :

نظرة عامة في علوم النفس عند القدماء والمحدثين ، والكلام على كتاب (سلوك المالك ، في تدبير الممالك) مثل أن الرذيلة لها دواء كالشره والمجرب ، وأنه لا فرق بين دواء المرض بضده ، ومداواة الرذيلة بضدها .

١٦٤ تبصرة وتذكرة في آية : « وفي الأرض آيات للموقنين » الخ وفيها (شكل ٣٠) للمخ الإنساني ، وأنه منقسم إلى قسمين كل قسم منهما أربعة فصوص وكل فص من هذه الثمانية ينقسم إلى أقسام أخرى على حسب التلايف .

١٦٦ (شكل ٣١) مقطع جانبي للمخ يبين الألياف الرابطة ، وبيان الألياف الضامة والألياف المصدرية والألياف الموردة ، ويوضح ذلك أيضا (شكل ٣٢) .

١٦٧ (شكل ٣٣) مقطع في اللحاء .

وظائف المخ ، مناطق اللحاء ، وهاهنا مناطق عجيبة موزعة على أعضاء الحس وعلى أعضاء الحركة .
١٦٨ مراكز اللحاء في المخ أربعة : مركز الكلام والكتابة ، وإدراك الألفاظ للسموعة ، والألفاظ المكتوبة وبين هذه الأربعة اتصال ، وكلما كانت كلها متعاونة كان الفهم أسرع ، وذلك نافع في علم التربية في المدارس ، وذلك واضح في (شكل ٣٤) .

١٧١ الخيخ : وظيفته تنظيم حركات الجسم ، ومق عطل كانت حركات الإنسان غير مضبوطة ، فهو نظير المناطق الثلاثة في المخ التي تحكم بين الحواس المختلفة وتنظمها .
نظرة عامة على هذه المشاهدة في علم النفس .

١٧٥ جوهرة في آية : « ومن كل شيء خلقنا زوجين » وبيان أن القرآن يسمع مخاطبين ماتقبله عقولهم وليست الأمثلة التي فيه حاضرة لما يجب علينا ، وعلى العقول التفكير في كل شيء .

١٧٨ أقسام المملكة الحيوانية وأنها إما وحيدة الخلية وإما كثيرة الخلايا ، ولكل منهما أقسام وهي أربعة في الأولى ، وأقسام كثيرة في الثانية مثل الفقرية وأقسامها الخمسة ، والخامس منها ثمانية أقسام مثل اللاقورية وأقسامها الثمانية .

١٧٩ الأميبا (شكل ٣٥) .

القسم الثالث من وحيد الخلية : البوجلينا (شكل ٣٦) الحيوانات الجرثومية .

١٨٠ حوصلات الملاريا المعدة (شكل ٣٧) و (شكل ٣٨) حيوان الإسفنج .

١٨٢ إسفنج الحمام (شكل ٣٩) ، (شكل ٤٠) أخطبوط .

١٨٣ (شكل ٤١) نجم بحري يفترس محاراً .

١٨٤ (شكل ٤٢) قطاع عرضي في الذراع .

(شكل ٤٣) الصودة الكبدية الكاملة .

- ١٨٥ (شكل ٤٤) دودة البلهارسيا (شكل ٤٥) دودة الانسكاستوما .
- ١٨٦ القسم السادس من الحيوانات عديدة الخلية ، والقسم السابع منها وهي التي لا فقرات لها ، وهنا شكل (٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١) أما (٥١) فذلك في القسم الثامن من الحيوانات عديدة الخلايا وهو القوقع الرومانى .
- ١٨٨ (شكل ٥٢) بلح البحر مدفوننا :
- ١٩٢ زيادة إيضاح «ومن كل شئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون» .
- ١٩٥ مسامرة في آية : « وفي السماء رزقكم وما توعدون » وفيها الكلام على تقسيم النبات أيسكون بالشجرات والشجيرات والأنجم ؟ أم يكون بأنه ذو سنة أو سنتين أو سنين الخ .
- ١٩٧ بيان أن الزهرات تنوب عن النجوم في بعض آثارها .
- ١٩٨ الفصيلة الأولى من الفصائل الحضرية كالقوئل وجميع أوراق زهرها خمس لاغير ، وهى من ذوات الفلقتين التي لا يخرج ساقها عن أن تكون مخروطية الشكل ، فأما ذوات الفلقة الواحدة كالنخل فإن ساقها أسطوانية الشكل .
- ١٩٩ الكلام على الفصيلة الوردية ، وفيها التفاح والبرقوق الخ ، فالكأس خمس والتويج خمس ولكن أعضاء الذكور كثيرة جدا ، بخلاف ما قبلها فعددهن عشر لاغير .
- الكلام على اتجاه العقول الإسلامية .
- ٢٠٢ المكروسكوبات والتلسكوبات والمناظر وأضواء الشمس السبعة ، وكيف يمكن استخراج النار بالعدسات الثلجية في الأقطار الشمالية .
- ٢٠٣ تفسير سورة الطور ، وهى مكتوبة مشكلة .
- ٢٠٥ بيان أن هذه السورة ثلاثة أقسام .
- القسم الأول تفسير البسطة .
- ٢٠٦ القسم الثانى : ذكر العذاب والنعم في التفسير اللفظى لهذه السورة إلى قوله : « إنه هو البر الرحيم » .
- ٢٠٨ القسم الثالث من أول « فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون » إلى آخر السورة .
- ٢٠٩ لطائف هذه السورة .
- اللطيفة الأولى في قوله تعالى « والطور » .
- اللطيفة الثانية في قوله تعالى : « والبيت المعمور » وبيان أن هذه الأقسام كلها تمت بصلة إلى ما نحن عليه الآن من العلوم المنشورة ، وإشراق القلوب ، وظهور نار في باطن الأرض كشفها الناس الآن وهى البحر المسجور . والكلام على « الضراح » الذى يقال إن حرمة في السماء كحرمة الكعبة

في الأرض ، وأن هناك ملائكة يصلون إليه كل يوم ولا يعودون أبدا الخ .

٢١١ نتائج هذه المعجزة القرآنية في بعض النفوس .

تفسير سورة النجم كلها مشكلة .

٢١٣ بيان أن هذه السورة أقسام .

القسم الأول في تفسير البسملة ، وبيان أن الله أقسم بالنجم وأعظم أمره فقال : « وإنه لقسم لو تعلمون عظيم الخ » .

٢١٥ مجاورة بيني وبين عالم ، وفيها الكلام على أن كل علم لا بد له من تمرين ، والتمرين على علم الدين بالعبادة المذكورة في آخر (سورة الطور) ثم تمام العلم المذكور في (سورة النجم) : « ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى » ومتى انتهى الإيمان في العلم أفاض على غيره ، وهذا قوله : « ما ضل صاحبكم وما غوى » .

٢١٨ لماذا وجب المران في كل شيء ؟ وبيان أن المادة نفسها عبارة عن حركات كثيرة انضمت فصارت مظاهر مختلفة .

٢١٩ مقدمة في مناسبة السورة لما قبلها ، وبيان أن المتصدى لارشاد الأمة ينبغي له أن يقوم بالليل ويفعل ما هو مذكور في آخر سورة الطور ليقبل الناس قوله .

القسم الثاني في التفسير اللفظي للآيات من أول السورة إلى قوله تعالى : « لقد رأى من آيات ربه الكبرى » .

٢٢٢ القسم الثالث تقريع المشركين على جهلهم وكفرهم بعبادة الأصنام ، وفيه تفسير الآيات من قوله : « أفرايتم اللات والعزى » إلى آخر السورة .

٢٢٥ لطائف هذه السورة

اللطيفة الأولى في قوله تعالى : « والنجم إذا هوى » وهما هنا مذكرة واسعة النطاق بالآيات التي في آخر سورة الطور ، وبما في أول سورة النجم . وبيان أن الحمد المذكور في آخر الأولى لن يتم إلا بالمعارف الخ .

٢٢٦ ثمرة هذا المقام في أمم الاسلام وبيان أن هذه المعارف التي لا يتم الحمد إلا بها تكون للانبياء بالتعليم ولكنها لا تكون لنا بغير تعليم الخ .

٢٢٧ اللطيفة الثانية في قوله تعالى : « وأنه هو أضحك وأبكي الخ » .

٢٢٩ اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : « وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى الخ » .

٢٣٨ (سورة القمر) مكتوبة كلها مشكلة .

٢٣٩ بيان أن أقسام هذه السورة ثلاثة :

القسم الأول في تفسير البسملة وبيان أن الأنوار ظهرت بالشمس والقمر والنجوم فلم يفقه مغزاها أكثر الناس ، فأعطاهم نماذج من التاريخ كقوم عاد ونوح الخ .

٢٤٠ القسم الثاني مذكرات بالساعة وعذاب الدنيا بالهلاك .

التفسير اللفظي للسورة كلها .

٢٤٣ القسم الثالث توبيخ قريش ، وقياس حالهم على حال الأمم الماضية .

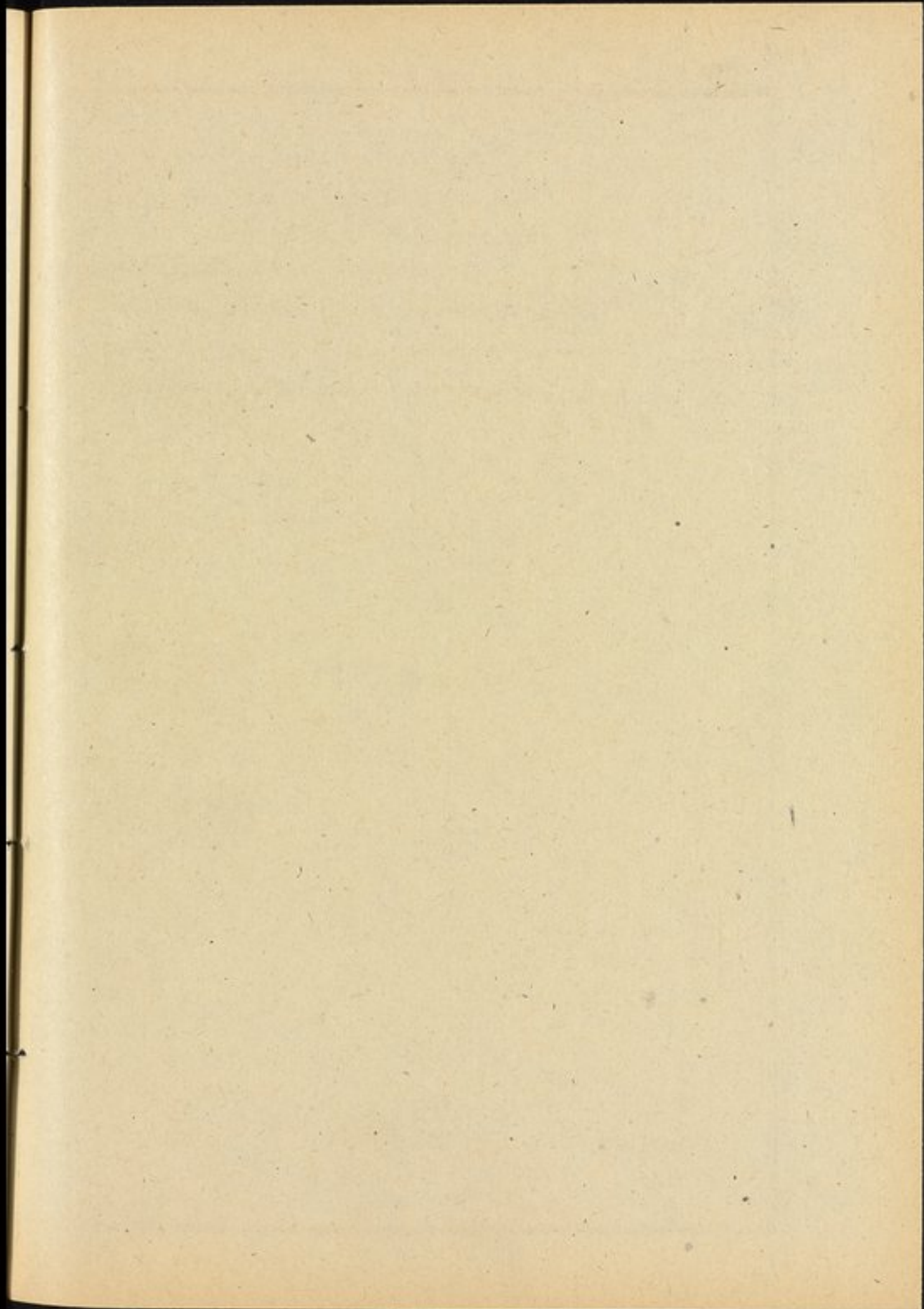
٢٤٤ لطائف هذه السورة ثلاثة .

اللطيفة الأولى في قوله تعالى : «ولقد يدرنا القرآن للذكر فهل من مدكر» .

٢٥٠ اللطيفة الثانية في قوله تعالى : «إنا كل شيء خلقناه بقدر» فيها معنى القضاء والقدر .

٢٥٢ اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : «وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر» .





الجواهر

في تفسير القرآن الكريم

الشمس على مجانب أربع الكثرنا وغربنا الدنيا باهرا

تأليف

الأستاذ الحكيم شيخ طنطاوى جوهرى
للمدرسة الجامعة المصرية وميدوة دار العلوم سابقا
مع الله المستودع بمجانته آمين

الجزء الرابع والعشرون

الطبعة الثانية

١٣٥٠ هـ - رقم ١٧١

حقوق الطبع محفوظة

طبع بطبعة

مصطفى الباقى الحلبى وأولاده بمصر
مباشرة بميدوة عمران

« وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ »

(قرآن مجید)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسیر سورة الرحمن

ہی مدنیہ

آیاتها ۷۸ - نزلت بعد الرعد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَنُ • عَلَّمَ الْقُرْآنَ • خَلَقَ الْإِنْسَانَ • عَلَّمَهُ الْبَيَانَ • الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
بِحُسْبَانٍ • وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ • وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ • أَلَّا تَطْغُرَا
فِي الْمِيزَانِ • وَأَقِيمُوا أَوْزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَخْسِرُوا الْمِيزَانَ • وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ •
فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ • وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ • فَبِأَيِّ آلَاءِ
رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ • خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ • وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ
مِن نَّارٍ • فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ • رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ • فَبِأَيِّ
آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ • مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ • بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ • فَبِأَيِّ
آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ • يُخْرِجُ مِنْهُمَا الطَّاوُفَ وَالْمَرْجَانَ • فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكذَّبَانِ • وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ • فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ •
كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ • وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ • فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا

تُكذِّبَانِ • يَسْتَلْهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ • فَبِأَيِّ
 ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ • سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيَّةَ تَقْلَانِ • فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ •
 يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتِظَمْتُمْ أَنَّ تَنفَعُوا مِنِ افْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 فَأَنفَعُوا لَا تَنفَعُونَ إِلَّا بِإِذْنَانِ • فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ • يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا
 شَوْطِئِن مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٍ فَلَا تَنْصِرَانِ • فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ • فَإِذَا انشَقَّتْ
 السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ • فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ • فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْئَلُ
 عَن ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ • فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ • يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ
 فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ • فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ • هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي
 يُكذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ • يَطُوفُونَ فِيهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ • إِنِ • فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا
 تُكذِّبَانِ • وَلِإِن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتَانِ • فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ • ذَوَاتَا
 أُفْنَانٍ • فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ • فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ • فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا
 تُكذِّبَانِ • فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ • فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ •
 يُتَكَبَّرُونَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَّا الْجَدَّتَيْنِ دَانِ • فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا
 تُكذِّبَانِ • فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ • فَبِأَيِّ ءَالَاءِ
 رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ • كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ • فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ •
 هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ • فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ • وَمِن دُونِهِمَا
 جَنَّاتَانِ • فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ • مُدَمَّنَاتَانِ • فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ •
 فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ • فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ • فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ
 وَرَمَّانٌ • فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ • فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ • فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا
 تُكذِّبَانِ • حَوْرٌ مُّقْصُورَاتٌ فِي الْإِلْيَامِ • فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ • لَمْ
 يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ • فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ • مُتَكَبِّرِينَ عَلَى

رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ۝ فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * تَبَارَكَ اسْمُ
رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ *

هذه السورة ثلاثة أقسام

القسم الأول في تفسير البسملة .

القسم الثاني : في عجائب عالم الدنيا من أول السورة إلى قوله تعالى : يرسل عليكما شواظ من نار
وعماس فلا تتصمران .

القسم الثالث : في عجائب عالم الآخرة من قوله تعالى : « فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهات »
إلى آخر السورة .

القسم الأول: في تفسير البسملة

هذه السورة فصلت كثيرا من رحمت الله عز وجل مخلوقة به ، فكانت تضيء للرحمة في البسملة للكررة
في كل سورة ، فمن رحمته :

- (١) إزال الديانات ونشرها بين الأمم ، وآخرها دين الإسلام وكتابه القرآن .
- (٢) وخلق الأجسام والمقول الإنسانية .
- (٣) وإلهامها العلم والفهم والنطق والحكم .
- (٤) فيدرس هذا الإنسان الذي قرأ الدين المنزل نظام الشمس والقمر والكواكب والمجرات والسم
وحسابهن وأقدارهن وأبادهن .
- (٥) ثم ينظر نظرة أخرى في نتائج هذه العوامل العلوية فيجد نوعي النبات من التي لاسبق لها وهي
السما بالنجم ، والتي لها ساق وهي السما بالشجر :
- (٦) ثم إذا فرغ من هذين ونظر تبصرة وتذكرة اعتراه الدهش من الحساب التقن فهما كما تقدم في
هذا التفسير فإذا ترى ؟ يرى ميزانا منصوبا ، وحسابا معقولا ، ويفهم كيف انتظم هذا العالم من
علوى وسفلى في القللك بالرياضات ، وفي النبات بحس الطبيعة ، والواليد الثلاثة ، والكفاء
العضوية ، ومق درس ذلك ارتسمت تلك للزايا في نفسه ، وامتزجت بعقله وعواطفه ، وشمر
في نفسه بأن النظام صفة من صفاته لكثرة ممارسته النظام الذي به تربي لللكات الإنسانية
فيحكم بالعدل ويعاشر بالإنصاف ، وتكون حياته كلها موزونة لما شاهده من الكمال والميزان
وذلك يصبح كالفرزة له ، ومن ذلك كيله وميزانه للناس فيما وشراء وأخذاء وإعطاء ، وهذه
نم لاحصر لها ، وجمال لا يوازيه جمال .
- (٧) ثم ينظر فيرى أن العوامل الأرضية المذكورة وما فيها من الفاكهة والريحان الخ وما تقدمها من
الكواكب جميعها منتجات ظهور الحيوان والإنسان المخلوق من طين فنتطفة فملتقة إلى أن يصير
شرا سويا ، فتزيد النعم في قلبه ظهورا ، ويزداد شكرا وحبا ، وإذا كان نفس الإنسان
لن يراها أحد فهذا دليل على جواز وجود عوامل عاقلة لأراها جاء بها الدين ، وهذه العوامل
هي الجنان ..

(٨) وبعد أن يدرس ماتقدم إجمالاً يأخذ في التفصيل كالشرق والمغرب اللذين أمرها يرجع إلى علم الفلك المتقدم ، وكالبحر المفلح والعذب اللذين يرجعان للعالم الأرضي المتقدم ذكره . ولما كان البحر يحوي لؤلؤا ومرجانا خصصهما بالذكر تبيانا للسلمين الناعمين نوما عميقا ، كأن ربنا يقول لكم أيها المسلمون : يا عبادي : ألم يكف في هذه السورة أن أذكر لكم الشمس وحسابها استثناء بها عن الشرقيين وعن الغربيين؟ أو لم يكف ذكر الأرض وأنى وضعها للأنام عن ذكر ما عليها من الريحان وما فيها من البحار؟ أو لم يكف ذكر البحار عما فيها من الدر والرجان ، وما عليها من الجوار للنشآت في البحر كالأعلام .

إذن الله عز وجل يقول لنا : لا تكتفوا أيها المسلمون بالمعرفة العامة ، فلتقرءوا الأجزاء بعد الإجمال ولتقرءوا الجزئيات بعد الكليات ، أليس من العجب أن يتبدى السورة باسمه (الرحمن) ويسند إليه التعليم ؟ إذن هذه السورة جاءت لتبيان طريقة التعليم التي يتبعها المسلمون في المستقبل ، وهذه الطريقة أشبه بالتي قالها ابن خلدون في المقدمة ، وذلك أنه رأى للمسلمين في زمانه قد نصب معين العلم عندهم فأخذ يفند آراءهم ولكنه أيس من إصلاحهم في ذلك ، واعتقد أن الداء عضال وقد صدق ، ولكن هذا الداء قد أخذ يزول اليوم والمسلمون استيقظوا استيقاظا لاسبيل لرده ، ولا راد لارتثائه وبلوغه أوج الكمال ، فقد ندد على طريقة التعليم ، وعلى الكتب الصعبة ، وعلى مضايقة التلميذ وحشو رأسه بأقوال متناقضة واختلاف كثير . ثم قال : إن التعليم يكون على ثلاث درجات : فأولا يؤتى بالقواعد العامة إجمالاً ، ثم يعاد مرة أخرى بطريقة أوسع ، ثم يعاد مرة ثالثة ، وهناك تربي للملكات ، والذي في الآية هو هذا فلم يذكر الله الأرض مكتفيا بها ، ولا يذكر ما فيها من الأشجار والبحار ، ثم انتقل الكلام من الشجر والتجم العامين إلى أفرادهما المفصلات كالفاكهة ، وزاد الأمر تفصيلا بذكر النخل والحب والعصف والريحان .

هاهنا استكمل النظام الذي يتبع في التعليم الأولى في العالم الإنساني ، وهو أولا دراسة العوالم العلوية والسفلية في المدارس الابتدائية والثانوية ، فلا بد أن تدرس هذه العوالم إجمالاً ثم تفصيلا ، فالإجمال هو العلم الذي يسمونه (علم الأشياء) وهذا العلم يشار له بالجل في أول السورة ، ثم تدرس في نفس المدارس الثانوية نفس تلك العلوم ، وهذا هو التفصيل بعد الإجمال المتقدم . ثم إن الذين يختصون بهذه العلوم أي أولئك الذين يدخلون القسم العلمي في المدارس العالية الذين يخصصون أنفسهم لدراسة هذه العلوم يدرسون هذه العلوم بطريقة أوسع .

إلى هنا تمت دراسة الحياة الدنيا ، وما هذه الدنيا إلا لوح كتبت فيه هذه الأرقام . وإذا تعلم الأطفال ما كتب يجب محوه لكتابة غيره ، هاهنا أخذ يذكر بناء هذه العوالم وأنهم مظاهر جلاله وجماله ، وهي الحجب للسدولة بيننا وبينه ، ومتى نهبنا الدرس الذي أعطاه لنا عرفنا كيف نقابله ونرى وجهه الكريم ، وهاهنا يذكر بعد الشقة بين هذا الإنسان الضعيف وبين صانع العالم جل جلاله فمن يتمتع ببقائه والسعادة بجواره إلا بعد أن يسأل عما قرأه في اللوح الذي نشر له في الدنيا ، والدين الذي أنزله ، فكما أنهم عليه بالسماوات والأرض في الحياة الدنيا يحاسبه على تلك النعم يوم القيامة ، كما أن التلميذ بعد الدراسة يتحنن فيما تلمه . فكما أن العبد كأن يسأله ربه في الدنيا للمونة وقد آتى الناس من كل مأسأله ، هكذا يسألهم هو يوم القيامة عما عملوه ، فالسؤال مختلف باختلاف السائل والمستول .

ثم أخذ هاهنا يصف النعم والعتاب في الجنات والنيران مما يبهر العقول لفته وجمالا ، ويغنت الأكباد شقا . ونسكالا . ذلك خلاصة ما انتظم في هذه السورة من معان وما جاء فيها من حكم ، ورحمات مفصلات ،

وآيات سينات، ورقائق ساحرات. وجور مقصورات، وجواهر مكنونات، وعلوم مخزونات. ونصايا عجيبات. نهج السلمون المهيج الحسن في الأعرس الأولى. ثم تدلى التعليم في الصور المتأخرة شيئا فشيئا. فأخذوا يذمون علوم الحكمة في بلاد الشرق بالدولة العباسية وفي بلاد المغرب الأقصى والبلاد الأندلسية. وأخذ الملوك يترلقون إلى العامة بمقاطعة العلماء كما فعل بعض ملوك المغرب في أواخر القرن السادس الهجري في دولة الموحدين إذ نفي ابن رشد، وكما فعل بعض ملوك العباسيين كذلك في بغداد فيما يقرب من ذلك التاريخ، فأزوى العلم في بلاد الإسلام ففر هاربا إلى أوروبا مع تلاميذ ابن رشد المسلمين واليهود كما مر مفصلا في هذا التفسير. وهؤلاء دخلوا في حضي بعض ملوك ألمانيا. وتغلغل العلم في بلاد أوروبا فقامت قومها ثم رجعت إلينا عقابا من الله على ما فرطنا.

يارباه يارباه. ليك ليك يارباه، نحن أذنبنا وإليك تبنا. كنا نجهل طريقة التعليم والآن أخذنا نرجع إلى سواء الصراط فيها بتعليمك. ولقد عرفنا أن رحمتك التي وسعت كل شيء. لم نخل المسلمين المتأخرين قبلنا بما يحفظ عليهم دينهم.

رباه عرفنا أن المسلمين لما غم عليهم الأمر وذهبت الحكمة من بلادهم تستر العقلاء فيهم بالتصوف وحببوا عن العلوم التي جعلت أساءة التصوف. قرأنا الإمام محي الدين بن عربي ذا العلم الواسع يؤلف في التصوف وهو متضلع من علم الحكمة، ولكنه لا ينطق باسم الفلسفة بل يسمى ذلك تصوفا. ثم رأينا المسلمين بعد ذلك يتدلى التعليم عندهم شيئا فشيئا إلى أن تجاوز سننك المعروف في هذه السورة. فانت يارباه ذكرت لنا العوام التي نعيش فيها، ولكن رجال التصوف والأسرار لما نشروا آراءهم جعلوها عويصة مع أنك أنت أربنا الجمال الذي يراه الخاص والعالم، وأن مذكركه العارف بالله الاستاذ (عبد الكريم الجيلي) المتوفى سنة ٨٩٩ هجرية في رسالته «الكهف والرقم» في شرح فوائده بسم الله الرحمن الرحيم «تبيان لطرق التعليم عند متأخري الصوفية لأهم الإسلام للسكينة».

إنه رحمه الله ابتداء هذه الرسالة بخطبة يصف بها الله عز وجل بنعمت الجمال والجلال. وأخذ يذكر أنه استخار الله تعالى في إملاء كتابه هذا لمن طلبه وهو عماد الدين التونسي. ثم أخذ يطلب من القراء أن يفهموا العبارات والإشارات، والنصريحات والكتابات، والتقديم والتأخير في رسالته، ثم أخذ يذكر أن سر الكتب المنزلة كلها في القرآن، وما في القرآن في العائنة وما في العائنة في البسملة، وما في البسملة في الباء، وكل ما في الباء في القطة التي تحت الباء، ولا جرم أن هذا القول يجري اليوم على كل لسان في بلاد الإسلام يشيعه رجال الصوفية كآبوا عن كآبوا.

ثم أخذ يبين أن البسملة يتكلم فيها قوم من جهة علوم النحو والعرف واللغة، وقوم من حيث منافعها وأسرارها. ولكن هو يتكلم عما فيها من المعاني التي تليق بمجناب الحق. وهذه المعاني التي سبق لها في الرسالة ألفت على قلبه. وهما نبيت القصيد. وهو أن القطة التي تحت الباء فيها السر كله، منها نشق الأسرار والعلوم. وأخذ يذكر أن من الحروف مالا يعرف إلا بالنقط. هكذا الـواو لم يعرفها لنا إلا الله. فألف الذي فصل العوالم به عرفت العوالم كما عرفت الحروف بالنقط. وهما هنا أخذ يتوسع في هذه المعاني، وأخذ يبين أن القطة في الحروف المهمله متحدة بالحرف كالألف والـدال مثلا فذلك لم تكن للألف نقطة والألف أقلها نقطتان. وهذا القول مأخوذ في علم الهندسة. يعرفه من قرأ مبادئها. ولما وصل إلى هذا أخذ يذكر أنها ظاهرة في جميع الحروف. فالجيم ألف معوجة الطرفين والـدال منحنية لوسط، وانتقل منها إلى أن الحقيقة المحمدية خلق العالم بأسره منها معتمدا في ذلك على حديث جابر وهو ليس من الصحاح فهو أولا يقول: إن القطة في الحروف سواها كانت منفصلة كما في الحروف المهمله أو متصلة كما في الحروف

المهيلة كالحق سبحانه وتعالى فهو مع كل أحد بكائه كما أن النقطة مع كل حرف بكائها . ولما كانت الألف مركبة من نقطتين كانت كالحقيقة الحمديّة التي ورد فيها ذلك الحديث المتقدم ، وأن الله خلق العالم كله من النور الحمدي ولتلك قدم الألف على جميع الحروف كما قدم صلى الله عليه وسلم على جميع الأنبياء .

ثم أخذ يجعل هذه النقط إشارات إلى الأحاديث مثل : « مارأيت شيئا إلا ورأيت الله قبله أو بعده أو معه » روايات ، ورجع ذلك إلى حال النقط المختلفة ، ومن النقط ما تكون بيضاء كالنقطة البيضاء في قلب الميم والواو وأمثالها ، وهذه نص عبارته ، فانه محل مارأيت شيئا إلا ورأيت الله فيه ولهذا تجوف ، لأنه ظهر في جوفه شيء غيره ، فدائرة رأس الميم محل مارأيت شيئا ، ونقطته البيضاء محل إلا ورأيت الله فيه ، والألف محل « إن الذين يبايعونك » الخ .

وأخذ يفصل الكلام في الحروف على هذا النحو وجعله فصولا ، فصل مثلا لتطويل الباء بعد إسقاط الألف ، ثم آخر للفق الباء بالسين في البسملة ، وآخر يقول فيه : إن السين عبارة عن سر الله وهو الإنسان . ثم أخذ يفسر الآيات من أول (يس) وآية آخر التوبة ، ثم رجع إلى الألف ، ثم إلى الميم ، ورجع إلى عددها بالجل وهو ٤٠ وقال إن هذا العدد هو عين كمال الاعتدال في كل شيء ، وهو الموافق لعدد مراتب الوجود وهي :

ذات ساذج (١) العماء (٢) الأحديّة (٣) الواحديّة (٤) الألوهية (٥) الرحمانية (٦) الربوبية (٧) العرش : وهو الجسم السككي (٨) القلم الأعلى : وهو العقل الأول (٩) اللوح المحفوظ : النفس السككية (١٠) الكرسي : وهو العقل السككي وقال هو القلب (١١) الهبولى (١٢) الهباء (١٣) فلك العناصر (١٤) الملك الأطلسى (١٥) فلك البروج (١٦) فلك زحل (١٧) فلك المشتري (١٨) فلك المريخ (١٩) فلك الشمس (٢٠) فلك الزهرة (٢١) فلك عطارد (٢٢) فلك القمر (٢٣) فلك الأنثير (٢٤) فلك النار (٢٥) فلك الهواء (٢٦) فلك الماء (٢٧) فلك التراب (٢٨) فلك المولدات (٢٩) فلك الجوهر البسيط (٣٠) فلك العرض اللازم (٣١) المركبات : وهي للمعدن (٣٢) النباتات (٣٣) الجمادات (٣٤) الحيوانات (٣٥) الانسان (٣٦) عالم الصور : منه ما يلحق بالدينا (٣٧) عالم العاني : منه ما يلحق بها البرزخ (٣٨) عالم الحقائق ، ويلحق بها القيامة (٣٩) الجنة والنار (٤٠) السكيب الأبيض الذى يخرج إليه أهل الجنة .

هذه زبد الكتاب ، فينظر شبان المسلمين في زماننا الذين يدرسون أمثال هذا التفسير حال الأمم الإسلامية للسكنية ، كيف حجوا عن العلوم ، واضطر رجال الصوفية والصالحون أن ينتقلوا بهم من الجوهر إلى العرض ومن الحقيقة إلى المجاز ، ومن الأصل إلى الفرع ، ماهو الأصل ؟ هو هذا العالم ، هو المذكور في سورة الرحمن ، وهذا العالم تدل عليه الحروف ، والحروف لا حصر لأشكالها من اللاتينية والعربية والصينية والمهير وغلغية وغيرها ، ولما كانت الحروف عندنا نحن المسلمين هي العربية قالوا هذه محل السرمع أن الشجر والحجر والقمر كلها جمال وأسرار ، وهذه جمعت لتدل عليها ، ثم انتقلوا من الحروف إلى الذات العلية وأخذوا يتفننون ، ومن أعجب هذا التفنن أن حرف الميم يشير من حيث شكله إلى حديث : « مارأيت شيئا إلا ورأيت الله فيه » ومن حيث عدده إلى أن مراتب الوجودات (٤٠) وهذا أمر عجب ، وهاهنا عمدوا إلى العلوم التي نقلت عندهم عن علماء اليونان ، والمعروف عندهم الكواكب السبعة وملك البروج والفلك الأطلسى فأتى بها كلها وزاد عليها أشياء كالذات الساذج والواحديّة والأحدية ونحوها ، ثم كرر في بعضها فذكر المولدات وهي نفس المادّ والنبات والحيوان ، ومن العجب أن يجعل للعرض اللازم فلسكا ويجعل المركبات هي المعادن مع أن هذا عند القدماء خطأ بل المركبات تشملها وتشمل الحيوان والإنسان ، ومن أعجب العجب أن يجعل الجمادات

فما وحدها ، وهذه كلها خطأ محض في التقسيم والتعليم ، وهذا دليل على أن القوم رحمهم الله كانوا يجتهدون ولو بطريق التقريب في أن يجعلوا هناك معارف مبنية على هذه الحروف من حيث عددها مثلا ، لأن المراتب إذا كانت أربعين وعدد الميم أربعون أحدثت عند الجهال إيمانا وتصديقا ويقولون هذا من الأسرار ، ثم إذا ثبت في ذهنه ذلك أصبح يرى أن كل العلوم قشور لقيمة لها ، ويعتقر ماسوى ذلك ، ويعيش ويعوت مؤمنا موحدا ، ولكنه يجهل مقاصد دين الإسلام ومقاصد الأنبياء وإن كان هو صالحا ، ثم يرى الأمة كلها دون مرتبته ، لأنه فهم حقائق الوجود والناس دونه ، وأن علماء الدين وشيوخ الإسلام محجوبون ، أما هو وأمثاله فإنهم الواصلون أو شبه واصلين .

أنا أقول إن القوم كانوا يكتبون ذلك وهم يتقربون إلى الله به ، وقد فعلوا ما قدروا عليه في زمانهم ، وقد قلنا إن العلم هرب من الشرق إلى الغرب قبل ذلك بزمان ، فإذا كان موت الشيخ الجليل رحمه الله في أواخر القرن التاسع فذلك في إبان سقوط دول الإسلام وقد فارق العلم بلادهم قبل ذلك لأن ابن رشد كان قبل ذلك بثلاثة قرون ، فإذا رحل العلم إلى أوروبا قبل هذا الكتاب بثلاثة قرون فأهل الصلاح معذورون إذا تفننوا في بقايا العلم وأصقوها بالحروف الهجائية متبعين في ذلك الباطنية الذين جعلوا الأسرار في الحروف قبل ظهور حسن بن الصباح في [قلعة الموت] في أواخر القرن الخامس الهجري كما قدمناه في غير هذا المكان فكانوا يحسبون حملها ويجعلونها أسراراً مع أنها تقبل الضدين ، ولكنهم جعلوها آلة في أيديهم يتصرفون فيها كما يشاءون (انظر هذا المقام في سورة الكهف عند آية «وما كنت متخذ المضلين عضدا» في غضون الكلام هناك إشارة لبعض ذلك) .

الله أكبر : ظهر الحق واستبان السبيل ، نحمدك ياربنا ، نحمدك على التعليم ، وعلى تنوير أمة الإسلام في زماننا . الله أكبر ، سيقوم الشبان بعدنا ويقروءون جميع كتب القدماء ، وينقدونها ، ويعرفون عنها من سمينا .

الله أكبر : إن هذا النوع من التعليم يربط القلوب ويقفها فلا تقبل إلا ما كان من قبيل هذه الأحوال وما بعد ذلك وهم باطل ، بذلك ضاعت أمم الإسلام وذلت قرونا وقرونا ، وما أشبه هذا التعليم من حيث تحكمه في العقول بما قدمناه في (سورة سبأ) عند ذكر المهدي محمد بن تومرت ، ذلك العالم الذي أذاه اجتهاده إلى أن المسلمين في زمانه لا يحكمون إلا بطريق الاعتقاد ، وأنه المهدي المنتظر ، وجعل له دولة وقال إن هذه الدولة ستبقى إلى آخر الزمان ، ويظهر المسيح عليه السلام ويقابل آخرها ، ولكن هذه الدولة دالت بعد نيف وقرن من الزمان ، انظر قصته هناك في (سورة سبأ) كما قدمناه ، ولكن هناك نقطة لم تتضح ، فسأذكرها هنا ليظهر للمسلمين في زماننا كيف كان يحكم آباءهم ، وكيف كان الشيوخ لا يجدون طريقا لحكمهم إلا إبهامهم ، وهذا الإبهام يتناقله الحكماء بطرق مختلفة ، ويتناقله كثير من الصوفية إلى الآن اعتقاداً منهم أن هذا أمر لا بد منه فإذا رأينا المهدي محمد بن تومرت يقتل سبعين ألف مسلم لأنهم على خلاف رأيه بالحيلة والحداع . فهكذا ترى الأساندة المحترمين في الأمة بعد ذلك يعتمدون إلى ألقاظ من العلوم ويجعلونها في كتاب ويربطونها بالبسملة ، وينشرونها باسم أنها أسرار فيربطون القلوب ويقرؤها الجهال من أيام تأليفها إلى الآن أي في مدة ٤ قرون ونصف قرن وهم يظنون أنها علوم ولا علم فيها وإنما هي أخلاط وضعت معايبها للطلاب أنها أسرار ، وإذا نجح المهدي محمد بن تومرت في أنه نظم دولته والدولة نفعت الناس ثم انتهت ، وإذا نجح الجليل رحمه الله في كتابه ، وأن الناس قرءوه وآمنوا بالله ، وناموا على ذلك وهم جهال بكل علم وفن فليس معنى هذا أن ذلك ينفع في زماننا . كلا والله . فلالحاكم الذي يشنا باليوم بمن فيلأكلوك بنى عبان

في أواخر أيامهم ، ولا ذلك الذي يدعى أنه واصله تعالى وهو خال من علوم الحكمة صلح أن يعود
أمام الإسلام الآن .

لاظلم اليوم بأمام الإسلام . أيها المسلمون : أنا في هذا المقام قرنت إيهام المهدي محمد بن تومرت بإيهام
الملوك العثمانيين في أواخر الدولة . وإيهام شيوخ الصوفية كالجيلي رحمه الله ، لأن العلم والحكم من واد واحد
فالحاكم لا يقدر على إيقاع الوهم على العلماء وإنما الوهم يقع على الجهال ، ولقد جمع الأمرين مما المهدي محمد
ابن تومرت الذي اجتهد فإخفاً ، وهالك بعض حديثه الذي أشرت إليه من كتاب (زحلان) تحت عنوان
(ذكر قيام محمد بن تومرت أنه المهدي المنتظر) إذ ذكر أنه من جبل السوس ، وادعى أنه شريف علوي
حسني . قرأ علوماً بالمغرب وارتحل إلى المشرق ، وقابل الإمام الغزالي رحمه الله ، ورأى مرتين أنه شرب ماء
البحر ، فقام في نفسه أنه المهدي ، فأخذ في الزهد وفي الذكر والعبادة ، وكان يقتصر على رغيف كل يوم
وعلى الزيت ، ومن أتباعه عبد الله الوشيري ، وكان هذا عالماً متضلماً في العلوم ، فأمره أن يكتم ما عنده
من العلوم ، وأن يجعل نفسه أصم أبكم كالحمازيب حتى يأتي الوقت الذي تظهر فيه علومه كمعجزة لتبصير
ما يريد ، فبقى أبكم بين الناس أبه ، ولعابه يجري على صدره ، ولا يتكلم إلا مع الشيخ في خلوته ، ثم إنهم
دخلوا مراکش وأثاروا ثورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وجعلوا ذلك ذريعة لقلب الدولة وجسر
بين يدي أمير المسلمين في مراکش ، وكان وزيره مالك بن وهب رجلاً حازماً فأشار على أمير المسلمين بقتله
لأنه لا يريد بالوعظ إلا الملك ، ولكن الملك عفا عنه ، وذهب هو ومن معه إلى السوس ، وذلك سنة
أربع عشرة وخمسة ، وكان من أمره ما كان ، وتقدم ذكره في (سورة سبأ) وقد بقيت دولتهم
نحو مائة سنة وكانوا يزعمون أن هذه الدولة ستبقى حتى نزل عيسى ابن مريم وأنه هو المهدي المنتظر إلى
آخر ما هنالك .

ولقد كان من أصحاب المهدي عمر بن يحيى الهنتاني ، قيل إنه ينتهي نسبه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه
صار بعد المهدي من وزراء عبد المؤمن ، وأعطى بنو عبد المؤمن أولاد عمر المذكور ولاية تونس فكانوا
يسمون الحفصيين ، استمر ملك تونس فيهم إلى سنة تسعمائة واحدي وعشرين ، فانزعج الملك منهم الدولة
العثمانية ، وكانوا يلقبون بالحفصيين ، وكانت مدة ملكهم تونس ثلاثمائة وعشرون وسبعين سنة ، وهم من
فروع دولة محمد بن تومرت ، واختاف الناس في أمر ابن تومرت فقال بعض العلماء : إنه أرلاد إظهار الحق
فاجتهد وأخطأ ، وقال بعضهم . إنه كان على الأمة شراً من الحجاج ويزيد ، والله أعلم بحقيقة الحال هـ .

ملخص هذا المقام : أن الرحمة التي ذكرت في بسملة (سورة الرحمن) يدخل فيها عجائب السموات
والأرض وما بينهما المذكورات في السورة ، وفيها كيفية تعليم الإنسان ، لأن السورة مبدوءة به ، وأنه
يكون بالتدرج الأعم فالأخص ، وأن هذه الطريقة ذكرها ابن خلدون ، وأقول الآن : إن إخواننا رجال
(دار العلوم) قد اتبموها في تعليم اللغة العربية ونجحوا ، وقلبوا تعليم الأمم الإسلامية في ذلك ، وإذا كانت
رحمة الله عز وجل قد انتشرت في زماننا في طريقة التعليم ، فقد ذكرنا بما كان عليه التعليم في القرون
الظلمة الإسلامية أيام أن طردوا العلم قتل من بينهم ، فأتبنا بكتاب (الكهف والرقم) ، في شرح فوائد
بسم الله الرحمن الرحيم (للجيلي رحمه الله عليه ، فرأيناه رجوع المعارف كلها إلى باء البسملة ، ثم إلى تقطعها
والنقطة في مقابلة الذات الملية إلى آخر مقال واتمى أمره إلى اللب من البسملة ، فأدخل في عددها وهو
٤٠٤٠ مرتبة ، وهذه ال مراتب عبارة عن الكواكب المعروفة في زمانهم ونظام طبقات الهوام على حسب
ذلك الزمن مع تحريف وتكرار واختلاط ، فذكرنا نظام هذا العلم بنظام الملك فوجدناهما قريبين وهما
فالملوك العثمانيون في أواخر أيامهم بوهمون الشعوب بمظمتهم الجوفاء في قصورهم ، وبعض رجال الصوفية

والهيديين يستحلون الأكاذيب مجتهدين خطأ أن هذا هو الباب الموصل لحفظ الأمة في زمانهم ، ولكن الأمة الآن قد أخرجها الله من هذه الجهالات والظلمات ، ومق استنارت بالعلم طردت كل دجال فلا يلمها ولا يحكمها لأن الحق أحق أن يتبع .

لقد كان أمثال للهدى محمد بن تومرت ومن مائله (من المذكورين في سورة الشعراء عند ذكر السحر وهم الشعوذون الذين اتخذوا الشعوذة سبياً في الملك) أشبه بالطبيب يستعمل كي المريض ، فترى ابن تومرت يردم البئر على الثلاثة الذين شهدوا للونشريسي وأعدم سبعين ألفاً قتلاً ظلماً ليكون أتباعه كالغنم تتبع راعيها وهكذا فعل (حسن بن الصباح) في قلعة الموت بجبهات أصهان ، فكان يحرم على أصحابه العلم ليقنوا جهلاء والله يقول : « الرحمن علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان » وهكذا فعل ملوك العثمانيين إذ منعوا العلم عن المسلمين ، وقد أخبرني شاب حجازي منذ أيام في هذه السنة ١٩٣١ م للمواقفة سنة ١٣٥٠ هـ أنهم ما عرفوا شيئاً من العلم ، ولا من أخبار العالم ، ولا من اللغة العربية التي هي لغتهم إلا بعد ذهاب دولة السلطان (حسين الهاشمي) لأنه كان أولاً نائباً لتركيا ، وهي أوجبت أن لا يقرأ النحو إلا باللغة التركية ، وبعد أن خلع طاعتها حرم الجرائد ، ولما زالت تلك الدولة تعلم الناس وقراءوا الجرائد ، هكذا أخبرني ، فالإنسانية في مثل هذه الحال تنزل إلى درجة تحت درجة الحيوان في النظام ، لأننا قرأنا نظام جمهوريات النحل والنحل مثلا فلم نثر على هذه الضلالات والأكاذيب والخداع ، إذن الإنسان أمكنه أن يعيش وهو أدنى من الحيوان منزلة مع بقاء عقله محفوظاً ولكنه مغمور في الجهالة ، وهذه الحال التي عاش بها المسلمون قروناً بعد الصور الأولى جعلها الله درسا للمسلمين الذين يأتوننا بعدنا ، وهذا التفسير قد جعله الله معلوماً من العبر والابتداء والخبر ليكون تذكرة لهم فلن يقنوا فيما وقع فيه آباءهم ، ولن يضحك عليهم أحد بعد اليوم ، وسيتمتع الرجال والنساء ، ويدرسون علوم الأمم ولغاتهم كل بحسب طاقته ، فالرحمة هنا من وجهين :

الوجه الأول : أن الأمة مع جهلها أمكنها أن تعيش وإن كانت في نظامها أزل من نظام الحيوان .

الوجه الثاني : أن هذه الشقاوة التي حلت بالآباء بسبب الجهل تكون مهمازا يسوق الأبناء إلى العلم

الصحيح والالحكم الصحيح ، والتباعد عن الدجل والكذب والبهتان .

إن الأمة تعتبر كلها أولها وآخرها كنفس واحدة شاء الناس أم أبوا ، غلطاً الآباء يحترس منه الأبناء ، وعلم الآباء نافع للأبناء ، الأمة الواحدة في نفس هذه الحياة نفس واحدة ، فتراها في الحرب وفي النصر ، وفي المرء وفي النذل مشتركة ، ويظهر لي أن هذا النوع الإنساني برئ في هذا العالم وفي عوالم أخرى في البرزخ ليصل إلى درجة أن تكون الأنفس كلها نفساً واحدة ، وأهل الأرض اليوم جهال بهذه القضية متشاكسون والله هو الولي الحميد ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وهذه من أسرار التلميح في قوله تعالى : « الرحمن علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان » كتب ليلة الجمعة ١٥ جمادى الأولى سنة ١٣٥١ هجرية ، وفرغت منها بعد نصف الليل .

بهجة العلم في هذا المقال وهو تفسير البسملة في سورة الرحمن

لقد لحصت الكتاب الذي ألّفه (الجبلي) رحمة الله عليه منذ ٤٥٠ سنة تقريباً ، فظهر منه أن العلم إذ ذاك عبارة عن بقايا علوم وآثار منها وأشتات ، فإنه ذكر ردوس المسائل الفلسفية القديمة مثل الأفلاك التامة للبروفة عندهم ، وترتيب العالم السفلي ، وهذا ملخص الفلسفة القديمة مع انضمام المدن والنبات والحيوان فضع ذلك كله بالاسم لا بالشرح ، وزاد عليه ألفاظاً مبهمه وجملها مراتب الوجود ، والأمم الإسلامية في هذه القرون تجهل علم الفلسفة القديم لأنها متناصه وفادتها ضعفة ، ولأن الترك إذ ذاك تحت إمرة

بنى عنان قد قتلوا الأمم الإسلامية تفتيلاً ، وأناموم فناموا نوما عميقاً ، لذلك أخذ للتلون منهم ذلك باعتباره سرا مصوناً ، وما هو بالسر للصون ، وإنما هي كلمات من شطايا العلوم أضيف إليها شطايا من آراء الباطنية ، وهي الحروف وأسرارها ، وضم هذا إلى ذلك ، ووصل به آيات قرآنية ، وأضاف إليه معرفة الله بواسطة الألف وما بعدها من الحروف ، وجعل ذلك أشبه برموز ، كل ذلك إبعاداً للمسلمين عن معرفة الله بالعلم والحكمة ، وزحزحتهم عن الطبيعة الجميلة إلى حروف صنمها الإنسان ، وما هي الحروف ؟ إن هي إلا رسوم دونها قدماء المصريين وتبعهم اليونانيون فالأمم كلها كاللاتينيين والعرب ، ألم تر إلى الليم فلإنها عند قدماء المصريين على صورة البومة ، وإلى الناء فلإنها مأخوذة من حية سامة ، وترى حرف الليم في العربية ، وفي اللغات الفرنجية له نوع شبه بالبومة وكذا الناء بالحية ، فهل في شرعة الإنصاف أن ينحاز للتلون إلى رسوم اخترعها الإنسان ويتعدوا عن صنع ربهم ! ويجهلوا مواطن حياتهم ومعرفة ربهم ، ألا ساء مثلاً القوم المتأخرون .

رباه ، رباه : فهمنا والله ما حاق بنا من الجهل ، أنت رحمن وأنت رحيم ، علمتنا العلوم ومنها القرآن ، إننا معاشر المسلمين في جهلنا العلوم في القرون المتأخرة أشبه بالأمم كلها في جهلها المركب في أمر الماء كل . الناس يأكلون الطعام مطبوخاً ، وهذا كأنه إجماع النوع الإنساني وهو خطأ فاحش أظهره الأطباء في زماننا إذ يقولون إن النار تضييع منه قوة الحياة ، إذن كل ما طبخ من الطعام ، أوقى أو شوى صار في ذهاب قوة الحياة منه على رأى الأطباء في زماننا أشبه بكل ما هو متفنن ، أو أصبح نبيذاً أو خمرًا ، فإن الأطباء اليوم بالإجماع يقولون بضرر ذلك كله ، إذن كل ما غير الطعام غالباً ضار بالإنسان ، بل الفاكهة والخضر التي ليست طازجة تقل منفعتها .

هذا ملخص كلام الأطباء في زماننا ، ولقد شرحته عشرات المرات في هذا التفسير ، فهكذا أمور دين الإسلام ، إن للمسلمين في القرون المتأخرة جهلوا العلوم ومقصودها ، فراحوا يبنون ما هو النافع منها ، ويكتفون بالثلاثات والقمامات والفضلات والرجيع والقتات فتركوها للناس فعاشوا بها زماناً ونسوا عهد آبائهم حتى إذا أراد الله ظهور المجد الإسلامي أظهر العلم كرة أخرى ، وعلمنا تلك العلوم فبحثنا فألفيناها على ما ذكرناه في بيانها في هذا الكتاب .

واعلم أن من رحمة الله الواسعة ما تقدم في أول (سورة القتال) من صور الحشرات المرسومات هناك التي تعيش على العفونات ، فإذا كان الله واسع الفضل حلماً فإنه لا يذر العفونات ولا الرطوبات بلا فائدة بل خلق لها خلقاً يلائمها ويناسبها بما يعيش كما خلق عقولاً في الإنسان نسبتها إلى العقول العالية فيه كنسبة الحشرات إلى أعلى الحيوان تعيش بالغبية والنجاسة والآراء الجزئية ، فهكذا في الأمم الإسلامية المتأخرة لما حرمت العلوم والمعارف سخر الله لها من جمعوا لها قمامات العلم فعاشوا عليها عيش الحشرات على العفونات ، وعيش صفار العقول من الناس على الأحوال الجزئية ، والأخبار العادية ، سنة الله في خلقه ، وهو الرؤوف الرحيم .

واعلم أيديك الله أيها الذي أن الشيخ الجليل وأمثاله قوم صلحاء يريدون الخير بالأمم ، وقد كتبوا ما رأوا أنه خير في زمانهم ، وبكتابتهم صلح قوم وصاروا أتقياء ، ولكن ليس ذلك بمنعنا من أن نظهر الحقيقة ، ونقول هذه ليست والله بأسرار هي تنف من العلوم ، وما هي هذه العلوم فتدرس نفس العلوم لا بقاياها ورجيمها وقماماتها ، فمن ذا الذي يكتبني من الفاكهة بقشرها ، أو من الكتاب بعنوانه ، أو من الجوهر بالمرض . فرحم الله الجليل ، ورحم الله علماء الإسلام والصوفية أجمعين ، ولكن الاحترام لهم شيء والرجوع إلى الحقيقة شيء آخر ، وحسن النية ليس كل شيء ، فلا بد من العمل كما لا بد من النية ، ومم لم يكن لديهم

من العلم إلا ما رأته من رموز وإشارات ترجع إلى علم الفللفة القديم ، وقد جاء في هذا الكتاب قديم الفللفة وحديثها ، فالحمد لله إذ وفقى لهذا الكتاب ، أتركه للسليين جدى ، وقد فك فعلا عقالم وانطلقوا بقرءون علوم الأمم . وإلى هنا تم الكلام على القسم الأول في تفسير البسملة والحمد لله رب العالمين .

كتب يوم الأحد ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٣٠ م .

مقدمة في مناسبة هذه السورة لما قبلها

اعلم أن السور المتقدمة من (سورة ق) إلى (سورة القمر) قد مر فيها الكلام على العالم العلوى والسفلى ، فهو في سورة ق حث على النظر في السموات والأرض ، وبناء الأولى وتزيينها ، وأنها لا فروع فيها ، وفي الثانية لفت النظر إلى مدها ، وخلق الجبال فيها ، وإنبات النبات فيها ، وجعلها بسائر لدوى العقول ، وذكر للطير وما يترتب عليه من الجنات والحب والنخل ، وعجيب الثمر وعموم نفع هذه المخلوقات لنوع الإنسان . وفي (سورة الداريات) خصص للطير المذكور في (ق) والرياح بالذكر ليحث الناس على دراسة الآثار العلوية من رياح ومطر وكيف تهب ، وما سبب هبوبها ، وما آثاره ؟ وجعلها في صورة القسم تمظيا لعلمها ، وتفخيا لقدر العالمين بها . وفي (سورة الطور) عمم القسم بما في السماء وما تحت الأرضين ، من بيت معمور ، وسقف مرفوع ، وبحر مسجور ، وبما بينهما من علم منشور ، وحكمة مأثورة ، وآيات مفروءة ، ودروس معلومة ، ومدنية مشكورة ، فأصبح بهذا العلم بكل شيء مطلوباً ، والنظر في الحقائق كلها مرغوباً ، وفي (سورة النجم) ذكر إبداع الوحي ، وعجائب الخلق ، إذ لم يبق بعد ذكر العوالم كلها علوها وسفلها ، وإعظام قدرها وقدر العلم بها والعالم بها لما أن الله أقسم بها إلا أن يذكر أول نفس عالمة بها ، قارئة لنظامها ، مطلعة على بدائعها ، تشويقاً للنفوس ، وتعليماً للأمم ، فأبان أن نبينا صلى الله عليه وسلم اطلع بطريق الوحي لا بطريق التعليم على آيات ربه الكبرى ، وقد رأى ما لم يره أهل الأرض قاطبة من عجائب الله ، فأول سورة النجم أشبه بضرب مثل لمن علم ذلك من أهل الأرض ، كأن الله عز وجل يقول : أضرب لكم مثلاً بنبي آخر الزمان ، فقد اطلع على ما يمكن أن يصل إليه أعلى إنسان في الأرض ، واتسعى إلى سدرة المنتهى ،

فأما ما وراء ذلك فإنه خاص بي ، ولما أن ضرب هذا المثل وضحت مسألة العلوم والتخيل فلم يبق إلا الإنذار لمن هو غافل عنها ، فجاءت سورة القمر التي أعقبت سورة النجم للمناسبة القطبية والإشراقية على سبيل الترقى ، فأبان فيها أن المنافقين من أهل الأرض يجب أن يندروا باقتراب يوم الحساب فيقال لهم : أيها الناس : إذا غفلتم عما أوضناه ، وعن العلم الذي ذكرناه ، وإعظام المالمين به ، فإنى أنذركم يوم الحساب وقربه ، والدليل على ذلك ماترون من انشقاق القمر من الأرض كما قاله علماء العصر الحاضر ، ويمثل لتلك بانشقاقه على جبل حراء وإطلاعكم عليه ، فإن هذا كقدمة ليوم الحساب : « يوم تنشق السماء فتكون وردة كالدخان » :

ولاريب أن ذكر الساعة لا يراد منه إلا تحذيرهم وزجرهم بقرب تلك الحقائق وبمقدماتها ، فهم يزجرون بالقيامة وعذابها وبمذاب الدنيا ، فإن من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا ، والجاهل في الدنيا جاهل في الآخرة ، والأمم الجاهلة في الدنيا جاهلة يوم القيامة ، فانتراب القيامة يتقدمه انشقاق القمر قديماً ، أو زمن النبوة . فها هنا أمران : ساعة تقرب ، ومقدمات تسبقها ، ولتلك جاءت أحاديث

يوم نوح وهاد ونمود ، وقوم لوط وآل فرعون ، متفقات على أن العذاب في الدنيا يتبعه العذاب في الآخرة على وفاء ما في أول السورة من اقتراب الساعة ومقدمتها انشقاق القمر (وبعبارة أخرى : إن العذاب سببوه في الحياة ونهايته في الآخرة التي لانهاية لها ، فاذا ذكر الله اقتراب الساعة وتقدم انشقاق القمر عليها كالتقدمة لها فهكذا ذكر قصص الأولين وكيف أتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ، ثم أتى بما هو كالنتيجة لذلك من أن كفار مكة سيهزم جميعهم ويولون الدين ، وأن الساعة موعدهم : والساعة أدهى وأمر ، ثم جعل ذلك كله في قاعدة وهي « وكل أمر مستقر » وأخرى وهي « إنا كل شيء خلقناه بقدر » أي إنا خلقنا كل شيء مرتبا مقدرا على مقتضى الحكمة : وجعل تلك القصص بينهما مصوغة من الحكمة البالغة ، ومن الأمور للرتبة ، ومن استمرار كل أمر ، فإذا ن تكون نتيجة هذا كله وأوله وآخره أن هناك قانونا عاما . وهو أن كل أمر يسير إلى غاية لا يتعداها ؛ فمن كان في هذه أعمى بالجهالة فهو في الآخرة أعمى بالندامة والعذاب الأليم ، وهذه هي الحكمة النامة والنظام الأعلى بحيث يشمل العالم كله وأوله وآخره ، فإذا كان الجاهل هذا شأنه أتبعه بالعالم فقال « إن للتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر » فوصف للتقين بأنهم منعمون في الجنات والأنهار ، ثم أخذ يرتقي بهم في المعارف والعلوم رجوعا إلى ما ذكر في السور السابقة فقال هم أهل أن يكونوا في مقاعد صدق مقربين عند ملك تعالى أمره في ملكوته ، وعظم اقتداره في خلقه ، ومعلوم أن ملوك الأرض الضعاف لا يعطى بالقرب منهم غالبا إلا الذين نالوا حظا عظيما من الأخلاق ومن العلوم ، فكيف تكون حال من يحظى بالقرب من ملك الملوك ، إن ذلك يكون في أعلى درجات العلم والحكمة والأخلاق ، وكلما كان أعلى منزلة علمية كان أقرب إلى رب البرية ، وهاهنا آن الأوان أن نبث في (سورة الرحمن) ومناسبتها لما قبلها من سور القرآن ؛ هاهنا أخذ يبين الصفات التي تؤهل للتقين ليكونوا في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، لذلك أخذ يشرح ما صنعته ذلك الملك اللطيف وما أفاده برحمته لأهل الأرض فأفاد أنه (أولا) علم القرآن إذ أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو بلفه لأمته ، ولاجرم أن ما أوحى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم أصبح برئه الخلف عن السلف جيلا بعد جيل ، وهذا من رحمته (وثانيا) ذكر خلقه للإنسان ، ونظام جسمه ، وعجائب اتقانه (وثالثا) أبان أنه علمه النطق وإفهام غيره وهذا لا يتم إلا بنفس وعقل وعجائب تقدم كثيرا منها في التفسير (ورابعا) أبان تسخير الشمس والقمر ونحوهما له (وخامسا) أبان تسخير الزرع والشجر له (وسادسا) أبان أنه رفع السماء وأقام الخلق بالحكمة والنظام (وسابعا) ذكر الأرض وما فيها من النخل والفاكهة ، وما يشم منه رائحة طيبة (وثامنا) خلق الإنسان من طين مطبوخ (وتاسعا) خلق الجنان من نار (وإشرا) كونه رب مشرق الصيف والشتاء ومغربيهما (وحادي عشر) أنه أرسل البحر للملح والحلو متجاورين لا يختلطان ، (وثاني عشر) أن اللؤلؤ والمرجان يخرجان من البحر للملح والحلو (وثالث عشر) السفن الجارية في البحار (ورابع عشر) أن كل هذا سيفنى ويبقى وجه الله (وخامس عشر) أن كل أهل السموات وأهل الأرض مفتقرون إليه فيسألونه .

فهذه هي النعم التي ذكرها الله لنا وتواجها ولولوازمها ، ولكنه لم يذكرها بدون أن يقدم في أولها أنه علم القرآن ، وأنه علم الإنسان البيان ، وهذا الإنسان للتصف بذلك قد ذكر عقب قوله : « في مقعد صدق عند مليك مقتدر » فكأنه يقول : إن للملك اللطيف الذي يكون لكم مقعد صدق عنده هو نفسه كثير الرحمة ، وأم شيء من الرحمة أن تفرءوا العلوم التي رمز لجلتها بالقرآن ، فهذا الملك اللطيف الذي أنتم ستكونون في حضرته وتقرءون من مقامه كثير الرحمة للعباد . أنزل لهم الكتب السماوية وأهمها هذا القرآن ليقرأه الناس ، وإنما أنزله لهم لأنهم مخلوقون على هيئة تقبل علومه ، ألم تر أنه قد ألمح لصلت يبين بها مراده

وأعطى علوما عقلية وغيرها ليرزها ببيانه، ويقرأها بلسانه، ويحفظها ببحانه، فإذا كان هذا شأن الإنسان الذي يرجى أن يكون له مقعد صدق عند مليكه المقدر، فمن حقه أن يقرأ علوم هذه الكائنات فيدرس الفلك ونظامه، والتشريح وأحكامه، والشجر وأحكامه، والأرض وعجائبها، والمزارع وغرائبها، وأصول الإنسان وغرائب عالم الأرواح، والبحار وماءها، وما جرى فوقها من سفن، وما بنت تحتها من المرجان أو الدرر الحسان؛ وأن يبحث هذا العالم بحثا مدققا حتى يعلم أنه كله ذو افتقار إلى من بينه ويحفظه ويقيه إن الإنسان إذا كان مقعده صدقا عند مليكه فطيه أن يتخلق بأخلاق الله، وأخلاق الله الكمال المطلق فليكن كاملا على قدر إمكانه، ألا ترى أنه وضع الميزان والنظام العام لأجل أن لا ينطفيء في ميزاننا، وزن كل شيء وقدره تحديرا من حركات الأفلاك ونظام النبات والأشجار والأزهار والأوراق ونظام الأعمار وهياتها وطعومها لأجل أن تقدر الأشياء وزنا وكيلا ومساحة وشهادة بالأقوال الصادقة والشهادات الحقة والموازن المنتظمة، والمكاييل التامة، فيعمل كما فعل، فإذا رأينا نظم حركات الأفلام فلننظم حركاتنا، وإذا رأينا هندس وزوق الأشكال فلنحسن ظواهرنا. وإذا رأينا جعل كل نبات وكل حيوان بمساحة خاصة ووزن خاص وقدر معلوم فلنعامل في بيعنا وشرائنا بالمكاييل والموازن والقاييس الحقة، فهذا هو الصدق الذي تتصف به حتى نستعد أن نكون في مقعد الصدق. ومن جلس في مجالس الملوك وهو غير أهل لها ينفوه وطرده.

تفيد (سورة الرحمن) أن العلوم كلها من خصائص الإنسان من كواكب محسوبة. وشموس منتظمة المسير. وأقمار بديعة، وكواكب مضيئة. فالحساب فيها لا يعرف إلا بالحساب والهندسة والجبر. وذكر الشجر والنجم والنخل والفاكهة والرياحين المشمومة يرجع لعلم النبات. وذكر خلق الإنسان يرجع لعلم النفس والتشريح. وذكر الأرض يتضمن المعادن. وأما علم الحيوان فهو مفهوم من المقام إذ الحيوان بين النبات والإنسان، والحيوان خادم للإنسان مخدوم بالنبات فكأنه ذكر بذكر الطرفين. ولم يبق من العلوم الفلسفية في سورة الرحمن إلا علوم الطب والبيطرة والكيمياء وخواص المادة وما أشبه ذلك. وكل هذا يرجع إلى ما هو مذکور. فعلم الزراعة وعلم الطب وعلم البيطرة للنبات والإنسان والحيوان. فالعلوم كلها تضمنتها هذه الآيات. وقد صرح فيها بالسفن والمرجان وبالؤلؤ. وبالاختصار إن الله أبان أن هذه العلوم كلها من رحمة الله. وأنه هو الذي غرس في قلب الإنسان حبها، والغرام بها، وهياها لمعرفتها، ولا جرم أن ذلك يؤهل الإنسان لمقعد الصدق عند مليكه المقدر، وليس معنى هذا أن كل واحد في الأمة يعرفها بل يكون لها شيوخ في الأمة، ويكون لكل طائفة اختصاص بعلم من العلوم ودراسة طائفة من تلك العلوم باعتبار أنها فرض كفاية وكل علم من العلوم له نفع، وكل صناعة لها فائدة في كل جيل من أجيال الإنسان يحرم على المسلمين أن يهملوه بحيث يأثم الجميع إذا لم يكن فيهم من يقوم به ويكفهم أمره، وهذه هي مصيبة أمة الإسلام الآن. وإليه الإشارة بقوله: «خلق الإنسان علمه البيان» فالمقصد المجموع لا كل فرد فإن هذا مستحيل ولتتلم الطائفة الخاصة الراقية من كل فن طرفا، وليختص كل فن بعد ذلك، ذلك هو الصراط المستقيم في سعادات الأمم، انتهى الكلام على المقدمة.

القسم الثاني في عجائب عالم الدنيا

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(الرحمن ، علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان) أي علم محمد القرآن ومحمد علم أمته ، خلق جنس الإنسان وميزه عن سائر الحيوان بالبيان ، وهو التعبير عما في الضمير وإفهام التبر لما أدركه ، وهذه الجمل الثلاث خلت من العاطف وجعلت أخبارا مترادفة للرحمن على نهج تعداد النعم كما تقول زيد أغناك بعد فقر ، أعزك بعد ذل ، كثرك بعد قلة ، فعل بك ما لم يفعل أحد بأحد ، لما تنكر من إحسانه ، كأن كل واحد من هذه المعدودات يصح أن يكون كافيا في حفظ الجليل ، وإنكاره وحده كاف في نعت التنكير بقران النعمة (الشمس والقمر) يجريان (بحسبان) بحساب معلوم مقدر في بروجهما ومنازلهما ، وعلى مقتضى هذا النسق تنتظم أمور المخلوقات السفلية والفصول والسنون وجداول الحساب ، ولما كان النبات الذي ينجم من الأرض المسمى بالنجم ، وهو مالا ساق له ، والشجر وهو الذي له ساق (فالأول كالحنطة والثاني كالنخل) من جملة العوالم المرتبة على سير الشمس والقمر وحسابهما ، وبذلك الحساب انتظم أمر سائر النبات بحيث يزرع في فصل مخصوص ، ويؤخذ ثمره في فصل مخصوص ، وينمو على مقتضى حركات الشمس والقمر والنجوم أودفه الله تعالى بذلك فقال (والنجم والشجر يسجدان) يتقادان لله فيما يريد منهما طبعاً كما يتقاد المكفون اختياراً ، وهذا الاتقياد ظاهر ، ألا ترى أن الشجر والزرع لا يخرجان عن نظام سير الكواكب ، ولا يفران عن نهج الشمس في سيرها ، ثم انظر أيضاً كيف كان الشكل والمهيئة واللون والمقدار والطعوم والروائح جارية بقدر ، سائرة لغاية ، كل هذا سجود وطاعة للمبخر الذي نظمها .

واعلم أن ظاهر النظم يقتضى أن يقال : « علمه البيان » أجرى الشمس والقمر بحسبان ، أسجد النجم والشجر ، ورفع السماء ، ووضع الميزان الخ ولكنه عدل عنه ليمتاز البيان عن اللين (بالفتح) .

وإيضاحه أن النوع الإنساني عرف اللغات والفهم والافهام ، وأودع في غريزته الاستعداد لكل العلوم ، واللغات المختلفة في الأرض التي أبلغها بعضهم إلى أربعة آلاف لغة كلها علمها الله للإنسان للبيان والفهم والافهام ، فكل قوم لهم لغة ، ولكل قوم كتابة ، فإذا يكتبون ، وماذا يقرءون ، وما الذي عنه يبرون ؟ فذلك ذكر الشمس والقمر وما جدها تبياناً للمعبر عنه واللين بعد أن ذكر البيان ، هذا هو السبب في تمييز نظم العبارة ، وإنما بدأ بالشمس لأنها مبدأ الحياة على وجه الأرض وبدونها لا حياة فيها كما تقدم شرحه (والسماء رفعتها) خلقها مرفوعة محلاً ومرتبته (ووضع الميزان) العدل والنظام الذي مر شرحه في أغلب سور القرآن بحيث كان حساب سير الكواكب ، وحساب أجزاء النبات الداخلة في تركيبه ، وحساب الأحجار الساقطة المحسوبة بالتربيع كما تقدم في (سورة آل عمران) وحساب الجسمين المتجاذبين كالفلبيتين على سطح الماء المتجاذبتين بحساب الترييح أيضاً وحساب البندولين المختلفين طولاً بحيث يكون الأقصر أسرع اضطراباً من الأطول على نسبة عكسية ترييحية ، وهكذا مما شرحناه لك في هذا التفسير وهكذا نظريات (نيوتن) و (كليبر) التي أبانت للثلاث الساحية عند جري الكواكب بحيث تكون متكافئة في الأزمان للتساوية

مع اختلاف الأقواس المقطوعة صيفا وشتاء ، فيكون القوس الذي تقطعه الشمس في الشتاء وهي مسرعة أكبر من القوس الذي تقطعه في الصيف وهي في الرأس مبطئة مع أنهما متساويان مساحة كما تقدم فيها أيضا موضعا مرسوما فارجع إليه ، كل هذا وكل علم الفلك ، وكل علوم الطبيعة ، وكل نظام اللوسبق الذي تقدم في (سورة يوسف) وكل قواعد العلوم ، وكل قواعد الشعر التي تجري على نسق واحد موسبق كما في بحر الطويل إذا لم تدخله العلل ولا الزخافات يكون ١٢ سيبا و ٨ أوتادا ، والمجموع ٤٨ حرفا ، والسواكن بالنسبة للمتحركات هكذا ٥ - ٧ - ١٠ - ١٤ - ٢٠ - ٢٨ - فتكون المتحركات ٢٨ والسواكن ٢٠ ، ومعلوم أن حاصل ضرب الوسطين يساوي حاصل ضرب الطرفين ، كل ذلك داخل في الميزان ، إن الميزان هنا لا يفهمه إلا من درس جميع العلوم ، ومن قرأ هذا التفسير كله فقد عرف الميزان ، وإذن يكون في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، وقوله (ألا تظفوا في الميزان) أي ثلاثا تظفوا فيه^(١) ولا تمتدوا ولا تجاوزوا الإنصاف ، فإذا نظمتا ملكنا بحيث جرى على تلك النسبة المنظمة . فإن ذلك يدعوكم لنظام أعمالكم ابتداء بسنتنا ، وسعي في رقي نظامكم ، وتحسين أعمالكم وأخلاقكم (وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان) ولا تنقصوه فإن من حقه أن يسوى ، لأنه المقصود من وضعه ، وإعما كرهه مبالغة في التوضيعة ، ولأن كل واحد من العدل في الميزان ومن النقص ومن الزيادة مرغوب ذكره للقيام به في الأول وللتناهي عنه في الأخيرين (والأرض وضعها) خفضها مدحوة (للأنام) للخلق (فيها فاكهة) ضروب مما يتفكه به (والنخل ذات الأكام) أوعية الثمر التي يكون فيها الثمر ، لأن ثمر النخل يكون في غلافه وهو الطلع مالم ينشق ، وكل شيء ستر شيئا فهو كم . ولذلك قال بعضهم : الأكام ما يكتم أي يغطي من ليف وسعف وكفري فكل ما يغطي وكل مغطى به ينتفع الناس به كالجذع والجار والثمرة (والحب ذوالصنف) الحب كالحنطة والشعير والذرة والأرز ، والصنف ورق النبات إذا يبس والتبن (والريحان) هو إما الذي يشم ، وإما الرزق من قولهم خرجت أطلب ريحان الله أي الرزق (فبأي آلاء ربك تكذبان) أيها الثقلان الإنسان والجان الآلاء جمع ألى وهو النعمة وإنما خاطب الثقلين لدلالة الأنام عليهما ، والأنام الخلق ، وكل ذي روح . أي فبأي نعم من هذه النعم المذكورة تكذبان أيها الثقلان ؟ وهذه الآية كررت في أحد وثلاثين موضعا من السورة تقريرا للنعمة وتأكيدا للتذكير بها ، فتراه عدد نعمه على الخلق ، وفصل بين كل نعمتين بما يذكركم بها ويقررها ، فإذا قال الرجل لمن أحسن إليه بنعمة وهو يكفر بها : ألم تكن فقيرا فأغنيتك ، أفتنكر هذا ؟ ألم تكن عريانا فكسوتك ، أفتنكر هذا ؟ ألم تكن خاملا فعززتك ، أفتنكر هذا ؟ وهذا كثير في كلام العرب شائع ، هكذا يقول الله هنا : ألم أخلق الإنسان وأعلمه البيان ؟ وأنظم الشمس والقمر بحسبان ، وأنوع الشجر وأبدع الثمر ، وأعمهما في البدو والحضر ، لمن آمن ومن كفر ، وأسقيهما تارة بالمطر ، وآونة بالجداول والنهر ؟ أفتنكرون أيها الناس والجان هذه النعم . فبأيها أنتم مكذبون ؟ .

ولما كانت النعم المذكورة بعضها يحتاج لزيادة شرح وإيضاح كخلق الإنسان ، وحساب الشمس والقمر ، وأسباب نمو الزرع والشجر ، وهذه الثلاثة مجامع ما تقدم أعقبه سبحانه بما يبينها على اللف والنشر المرتب فقال في الأول (خلق الإنسان من صلصال) من طين يابس له صلصلة بحيث يصوت إذا نقر (كالفخار) أي الخرف وهو الطين المطبوخ ، وهذا إيضاح لخلق الإنسان ، ويانه أنه كما أن الطين المطبوخ مركب من

(١) إن مسألة الميزان ونظام الحياة التابعة لنظام الأفلاك تقدم في سورة يونس شرحها بأكثر مما ستراه هنا . فهناك ترى رسم الميزان وشرحه فضلا عن حسابيه .

مادة أرضية وحرارة سوته وأنضجته لتعطي كيانه، هكذا هذا الإنسان له شهوة الطعام والشراب والتزواج لتبقى بينته وتدوم حياته بالمادة الأرضية التي اجتذبتها النباتات من الأرض، وله قوة غضبية تورثه الشجاعة والقوة ليحافظ على بقائه وحياته، ويمنع عن نفسه عاديات الكواسر، ومهاجمات الجيوش والأعداء المحيطة به من كل جانب، وهذه في الإنسان تقابل طبع الطين ليصير فخاراً إذا لاقى له الطين بغير طبخه بالنار لتستعصم أجزاؤه ويبقى بناؤه، هكذا لولا القوة الغضبية، ومحافظه الإنسان على هيكله المنصوب، وجسمه المحبوب، من عاديات الكواسر، وأهل القسوة من بنى الإنسان لهلك جسمه وأصبح قتيلاً في القلوات تأكله الطير، أو تنهوى بأجزائه الريح بعد تفرقتها في مكان سحيق كما ترى الطين إذا لم يطبخ يتفتت وتذروه الريح، أو يذوب في أجزاء الأرض. هذا هو معنى الآية، وقد تضمن علوم الشهوة وعلوم الغضب المذكورات في سورة (آل عمران) ثم إنه من حيث ترتيب خلقه، خلقه من تراب فصار التراب طينا لازبا أى يلقى باليد لما اختلط بالماء، ثم صار حمأ مسنونا وهو الطين الأسود اللين فلما يبس صار صلصالا، فاختلاف العبارات في القرآن على مقتضى هذه المراتب (وخلق الجنان) الجن (من مارج) من صاف من الدخان، ثم بينه فقال (من نار) يقول: خالق الله الجنان من النار الصافية، والمارج المختلط بفضه ييمض فيكون اللهب الأحمر والأصفر والأخضر مختلطات: وكأ أن الإنسان من عناصر مختلفات هكذا الجنان من أنواع من اللهب مختلطات، ولقد ظهر في الكشف الحديث أن الضوء مركب من ألوان سبعة غير عالم بعلومه، فلفظ المارج يشير إلى تركيب الأضواء من ألوانها السبعة وإلى أن اللهب مضطرب دائماً، وإنما خالق الجن من ذلك المارج المضطرب إشارة إلى أن نفوس الجنان لا تزال في حاجة إلى التهذيب والتكميل، تأمل في مقال علماء الأرواح الذين استحضروها، إذ أفادتهم أن الروح الكاملة تكون عند استحضارها ساكنة هادئة. أما الروح الناقصة فإنها تكون قلقة مضطربة. وانظر إلى مقاله سقراط:

اعلم أن الظالمين من نوع بنى آدم يمدبون في هذه الحياة، لأنهم إذا عتوا وظلموا الناس أحسوا من نفوسهم بآلام تقلبهم، فالظلم سيف ذو حدين يقتل المظلوم والظالم، فإذا استغاث المظلومون وتألوا هكذا الظالمون، لأن نفوسهم من عالم شريف، فإذا أحست بالظلم اضطربت وأقلقتهم، وهذا أيضا من سر قوله تعالى: «إنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون».

أقول: فإذا مات هؤلاء بقيت نفوسهم في فراق، فالظالمون قلقون في الحياة وبعد الممات، فلفظ «مارج» أفادتنا علمين: علم ألوان الطيف من علم الطبيعة، وعلم أخلاق الجن من علم الأرواح، أليس هذا من بدائع القرآن وعجائب العلم، وانظر كيف جمع خصائص النفس الإنسانية من حيث شهوة الطعام ونظامه، وقوة الغضب وعجائبه، وحفظ النفوس، ونظام الجيوش، والدفاع عن الديار، انظر كيف جمع ذلك كله في الصلصال، وكيف أبان عذاب الروح الناقصة من الجن، ومثلها الروح الناقصة الإنسانية بعد موتها. لأنهم يكرنون أشبه بالجن في أخلاقهم، كل ذلك في لفظ «مارج» ومن هنا فلتعلم حكم القرآن وعجائبه، وقوله (فبأى آلاء ربكنا تكذبان) ظاهر.

ولما فرغ من إيضاح خلق الإنسان شرع بوضع ما بعده وهو الشمس والقمر بحسبان، فذكر أنه رب مشرق الصيف والشتاء ومغربهما، وهذه الترية يترتب عليها الفصول الأربعة، ويتبع ذلك تقلب الهواء وتنوعه، وما إلى ذلك من الأمطار والشجر والنبات، وما يتخلل ذلك من الأنهار الجارية، ولما كان النبات وهو المذكور بعد الشمس والقمر لا يكون إلا بماء عذب ناجم من السحاب للستمد من البحار لللثة، وهذه البحار فيها نعمتان، نعمة في باطنها وهي الدر والرجان، ونعمة فوقها وهي السفن الجارية بمكانها

الجبال الطوال ، أخذ يشرح ذلك كله على سبيل الترتيب . فقال (رب المشرقين ورب المغربين فبأى آلاء ربكما تكذبان ، مرج البحرين) أرسلها ، يقال مرجت الدابة أرسلتها : أى أرسل البحر الملح والبحر العذب معا ورجن متلاقيين ، قرى العذب يخرج من الجبال كنبيل مصر يجرى من جبال القمر وراء خط الاستواء فيمر شمالا حتى يصب في البحر الأبيض المتوسط ، فلا الملح يطفى على العذب فيجعله ملحا ، ولا العذب يجعل البحر الملح مثله (بلتقيان) ومع هذا الالتقاء منعهما الله عما في طبعهما بالبرزخ ، وهو ما يعجزها ويصدها عن الاختلاط ، والامتزاج وهو قوله (بينهما برزخ) حاجز الهى (لايبغيان) لا يختلطان ولا يتغيران أو لا يخرقان الساس بطغيانهما عليهم (فبأى آلاء ربكما تكذبان) الخروج منها للؤلؤ والمرجان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان) اللؤلؤ هو الدر الخلق في الصدف ، والمرجان الحرز الأحمر ، وهما يخرجان من الملح وحده وإنما عبر بقوله «منهما» لأن العذب والملح بحر واحد لا ينفصل أحدهما عن الآخر ، لأن الأنهار والجداول إنما تكون من ماء الأمطار ، وماء الأمطار من البخار ، والبخار من البحار ، والبحار إليها يرجع ماء الأنهار في جريه فإذن الملح والبخار والسحاب والأنهار كرة واحدة تحيط بالأرض ، وهذه الكرة بنها ما يبلغ سبعة من عشرة من محيط الكرة الأرضية وهى البحار كبحر الروم والبحر الأحمر وبحر فارس وبحر الهند وبحر الصين والمحيط الهادى والمحيط الباسفيكى وبحر البلطيق ، فهذه هى الأصل ، فإذا نظرت فوقها رأيت كرة الهواء تحيط بالأرض وبالماء ، وهى دائما مشبعة بالبخار المستمد من البحار ، ومن هذا البخار تكون السحب فالأمطار فالأنهار الجارية على اليابسة كالليل ودجلة والفرات ونهر النيجر وزمبيزا وما أشبهها وكل هذه الأنهار أصبحت كفروع تتصل بالبحر الملح من جهة مصها ، وبالجبال من جهة منبعها ، وتستمد ماؤها من السحاب ، وهو من بخار الهواء المستمد من البحار الملحة ، لما البحر الملح إلا كشجرة جدولها الأنهار فوق اليابسة ، وكان كل نهر غصن ، وكل جدول ورقة ، وكل حقل من الحقول قطعة من الورقة إذا ثبت هذا علمت معنى قوله تعالى «يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان» فانه جعلهما بحرا واحدا . فمن جهة الطبوية واللوحه يقال لهما بحران . ومن جهة خروج الدر والمرجان جملا كأنهما بحر واحد . وقيل خرج منهما . يقال خرجت من بيوت هذه البلدة وهو لم يخرج إلا من بيت واحد (فبأى آلاء ربكما تكذبان . وله الجوار للنشآت في البحر كالأعلام) أى وله السفن الكبار أى للصنوعات التى ترفع خشبها بعضه على بعض أو هى التى رفعت شرعها فى الهواء . وقوله (كالأعلام) أى كالجبال جمع علم . وهو الجبل الطويل (فبأى آلاء ربكما تكذبان) وانظر فى الجبال التى شئت بها السفن فوق الماء كيف كانت هى التى جرى منها الماء فى الأنهار . وكأن الله لما خلق الجبال فوق الأرض وهى يابسة تحمل الجبل أراد أن يجعل فى البحر ما يشبه الجبال فى البر . وكأنه يقول : انظروا إلى التواميس الطبيعية كيف خرقتها فان ناموس المادة لا يحمل الثقل إلا الكيف . أما اللطيف كالماء فلا يحمل الثقل . فها أناذا أريتكم العجب . ووضعت الجبل فوق ظهر الماء بآيات اخترتها . وعجائب اخترتها . وألقيت عليكم دروسا من التواميس تفهمكم أن الجسم إذا كان يزن بما يمثله حجما من الماء وزنا طفا فوقه . وإن كان أثقل من وزنه من الماء غرق فيه . هذا هو القانون الذى وضعت ، والصراط المستقيم الذى اخترته . والسمة عرفت ذلك بغيرتها . فإذا أرادت أن تنزل فى أسفل الماء قبضت عوامه فى بطنها مملوءة هواء . وإذا أرادت أن تطفو على وجه الماء فتخنها فتمظم حجمها تخنت فطفت . وإن أرادت أن تساوى سطح الماء توسطت فى تخنها . وكل سفينة عائمة فى بحر ملح أو عذب على هذه الطريقة . فإنك إذا وزنتها كلها ألويت جميع وزنها يسارى الماء الذى أزاحته من مستقرها فى البحر ولو أن الماء المزاح بحجمها كان أخف لفرقت . وجسم الإنسان أثقل من مقدار حجمه من الماء ولذلك

بخرق في الماء ، وهذه هي نظرية (أرشميدس) الذي أحس بأن جسمه وهو في الماء قد خف فاعتقد أن الأشياء وزنها في الماء أخف من وزنها في الهواء ، وظهر بعد ذلك أن الذي ينقص من وزن الأشياء هو مقدار وزن الماء المساوي لها في الحجم ، فخرج من الماء وهو لا يمشي ويقول عرقها عرقها ، وذلك بعد أن تحير ثلاثة أيام في معرفة الذهب المغشوش . وكيف يعرف غشه ، فأنتج له عقله ، ودله فهمه على هذه الطريقة وأخذ يزن الذهب والمواد الأخرى التي كان الذهب بها مغشوشا حتى عرف الحقيقة ، وسر ملكه بذلك وأظهر له حقيقة الفسح فهذه النعم التي ذكرها الله في هذه السورة هي مجامع ما أنعم به على أهل الأرض وكأنه تعالى يتكراره التذكير بها وقوله (فبأي آلاء ربكما تكذبان) يقول: أي عبادي: هل ظنتم أن مجرد الإيمان بكنفيكم؟ فهل خلقت الشمس والقمر والنجم ، والشجر والزرع والحب ، والأنهار والبحار ، والدر والرجان لقوم لا يعقلون ، أم خلقتها لقوم يقبلون مني النعمة؟ وكيف يقبلونها إلا إذا عرفوها .

أيها الناس : اشكروا نعمتي ، ولا شكروا عليها إلا إذا عرفتموها ، ولا معرفة إلا بالدراسة ، حتى تكونوا عندي في مقدم صدق ، أليست هذه النعم من رحمتي؟ ألم أنزل عليكم القرآن؟ ألم ألهمكم النطق والبيان؟ ألم أجعل حاجتكم في الحياة موقوفة على هذه النعم . فهل خلقتها لمن لا يعلمون؟ أم نظمها لمن لا يقبلون . وهذه الآيات وتكرار الآلاء فيها ٣١ مرة في هذه السورة أشبه بالإنذار لأمة الإسلام إنهم إن تركوا هذه النعم فكأنهم أنكروها ودخلوا في الأمم التي ذكرت في (سورة القمر) يقول الله فيها «فكيف كان عذابي ونذر» وهذا وإن لم يذكره القرآن صريحا لوح له تلويحا . وإلا فكيف يشكر النعمة جاهل بها . والجاهل بالنعمة كالمكذب : ثم أردف ذلك كله بأنه فان ، فقال (كل من عليها فان) أي كل من على الأرض من الحيوانات والركبات من الثقلين وغيرهما فان (ويبقى وجه ربك) ذاته بل كل مخلوق الآن من حيث هو فان ومن حيث ربه موجود ، فهو فان من وجه موجود من وجه (ذو الجلال والإكرام) ذو الاستثناء اللطيف والفضل العام ، فهو ذو العظمة والكبرياء ، وهو مع علوه يعطى جميع خلقه من النعم والإكرام ما يليق بحالهم جميعا وهو لطيف بهم ، يراعي العالم ويكلم الجاهل ، ويتلطف بأذى الحيوان وأضره ، ولا يحجب فضله عن مخلوق خلقه . لا يحجب عظم القيل عن التلطف بالبقية ، بل أعطاها أجنحة وحرمة منها وسلطانا عليه . وكرم بني آدم . ومع ذلك أغرى الحيوانات التربة الصغيرة فتوغلت في جسمه وأوردته الحمام بالملي والوباء والجدرى وما أشبه ذلك ، ثم أرسل له الأطباء ليداووه . فهو لطيف بتلك الحيوانات الدقيقة حيث يكتمها من جسم الإنسان ولطيف بالإنسان من حيث إنه سخر له الأطباء ، وعلمه علم الطب ، وإذا مات قلبه من حال الجسمية إلى حال الروحية وهي أرقى من هذه الحال . ففناؤه من أنواع اللطف ، ومرضه من الفضل :

ينظر الإنسان هذه النجوم الثواقب في ظلمات الليالي فيراها مشرقة بهجة بهجة ساطعة باهرة تلتألأ نوراً وبهجة وتشرح الصدور ، وبهذا تتجلى العظمة والكبرياء ، ويراه يميت الأحياء وتلك النجوم باقية . والأرض باقية والأحوال لم تتغير بحسب ما يظهر للناس فهذا مظهر الجلال والعظمة جمال في النجوم بهجة في الإشراق مناظر باهرة أنوار ساطعة أجسام عظيمة وأحجام كبيرة وأحوال تتقلب وأحوال تتعاقب والناس من بينها يخرون صمغين فهذا لعمرك هو الجلال والعظمة ثم تراه من جهة أخرى يتلطف بالمريض ويواسيه بالطبيب وإذا مات أرسله إلى عالم رحي يسبح لطيف ، فهذا بعض الإكرام ، ويقرب من هذا قوله تعالى «إن بطي ربك لشديد» إنه هو يدي . ويبدد هذا عما يقرب من الجلال ثم أتبعه بقوله (وهو الغفور الودود ، ذو العرش المجيد) وهذا يقرب من معنى الإكرام فبينما تزامنت تكبر أعمدنا للأموال الهائلة إذا هو يتلطف ويودعنا ، ويواسيهم في مرضهم . وفي حال نزعم ،

وبعد موتهم، وفي حياتهم، فانظر لكبريائه ولطفه وعظمته وتحننه وارتفاعه ودنوه، وهذا قوله تعالى « وهو معكم أينما كنتم » وأيضا « إن ربى لطيف لما يشاء ». وبهذا فهمت قوله تعالى « فبأى آلاء ربكما تكذبان » فالنعم واضحة في تحليل الركبات . لولا تحليل أجسامنا وموتنا لمجدت هذه الأرض ، ولتعطلت الحياة، والمادة الأرضية إذا بقيت على حال واحدة كانت القدرة محدودة ، ولكن انبعثت الصور الكثيرة وتلاحقها جيلا بعد جيل ، وقرنا بعد قرن هو عين العدل ، إن من العدل أن تلبس المادة جميع الأشكال ، وجميع الأشكال لا تكون دفعة واحدة ؛ فلذن يجب أن تلبس شكلا وتخلع شكلا آخر ، وهذا هو الحاصل فيها ، هكذا بنو آدم إذا بقى جيلنا الآن وأخذ هذا الجيل يتوالد قرونا وقرونا فلا يمضى قرون معدودة حتى يكون على القدم ألف قدم ، وتمتلى الأرض بالآدميين فلا يكفهم حيوان أرضى ولا نبات مأكول ، وإذن يأكل الناس بعضهم بعضا وتمتلى الأرض بالرمم . إذن الفناء فيه نعمتان : نعمة الرحمة بتلاحق الأجيال ، ونعمة الخروج من سجن المادة إلى نسيج الرحمة بعد الموت ، لذلك قال تعالى : « فبأى آلاء ربكما تكذبان » ومن الآلاء الجميلة الفناء الذى هو نعمة بتلاحق الأجيال وبخروجنا من سجن هذه الحياة طوعا أو كرها . ولما كان ما ذكرته لك يتضمن الافتقار للتجدد أوضحه ؛ فقال (يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن ، فبأى آلاء ربكما تكذبان) قد علمت أن المادة كلها تلبس جديدا وتخلق قديما وأجسامنا وأجسام الحيوان على هذا للنوال . فالحيوان والإنسان كل فى حاجة إلى بقاء جسده ، وإلى التغذية والداواة . وإذا انحل جسم من الأجسام أخذ يفتقر إلى حال جديدة ، فالغيرات المستمرة فى المادة افتقار ، والافتقار المذكور دائم فى كل لحظة ؛ فالسؤال المذكور سببه الافتقار ، والسؤال إنباطى ، وإنباطوجه النفس ، وإنباطلسان الحال ، فالمادة الجامدة مفتقرة لبقاء حال يناسبها ، أو تغيرها بما هو أنسب لها ، والنبات فى كل لحظة مفتقر إلى ما يبقى ذاته من ماء وهواء ومواد ، والحيوان جميعه يطلب بهيمته ما يحتاج إليه ، والإنسان يسأل نفسه داخلا ويلسانه نطقا ، فمعنى الآية أن من فى السموات والأرض مفتقرون إليه فى ذواتهم وصفاتهم ، وسائر ما بهمهم وبين لهم ، كل وقت يحدث أشخاصا ، ويجدد أحوالنا على ما سبق به قضاؤه ، واقتضاه مراده ، فليس كما قالت اليهود : إن الله لا يقضى يوم السبت شيئا . إذا فهمت هذا عرفت قوله « فبأى آلاء ربكما تكذبان » . فكم من سؤال أجبت ، وكم من جديد أحدثته ، وكم من ضعيف فى الحياة أرحته إما بصحة تسمده أو بموت من سجن المادة يخرججه (سفرغ لكم أيها الثقلان) أى ستخرجكم لحسابكم وجزائلكم ، وذلك يوم القيامة واعلم أن هذا على سبيل التمثيل بدليل قوله تعالى : « يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن » أى هو فى كل وقت يحدث أمورا ، ويجدد أحوالا ، ومع ذلك لا يشغله شأن عن شأن ، فإذن تقول لمن تهذه : لأضرغن لك : أى سأعجزد للإيقاع بك من كل ما يشغلنى ، والمراد التوفر على إحداث النسيكيات به والانتقام منه ، ولا جرم أن شأن الآخرة ما هو إلا شأن من الشئون فلا يشغله عن شئ آخر ، وهو القائل : « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » والقائل : « وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر » (فبأى آلاء ربكما تكذبان) والثقلان الإنس والجن لثقلهما على الأرض ، ولأنهما مثقلان بالنسكاليب (يامعشر الجن والإنس إن استطتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا) أى إن قدرتم أن تخرجوا من جوانب السموات والأرض هاربين من الله ، فارين من قضاائه ، إذ أعطاكم النعم السابعة وبعدها عليكم ، ونهيك إليها ، ثم إنه يغنيكم ويميتكم ، وبعد الموت يقصد حسابكم ، وهذا هو أولكم وآخركم ، فأنتم فى الدنيا فى قبضته ، وبعد الموت فى قبضته ، وأنتم ما دمتم ناقصين غير كاملين فإن أرواحكم مضطربة معذية فى قبضته تعالى ، هو يريد رحمتكم يا كالكم ، والإكمال لا يكون إلا بالإيقاظ بالعلوم ، وبالوازل ، وتخلب الأحوال عليكم ، كل هذا من الرحمة المذكورة أول السورة ، ولكنكم بحسب ما بين لكم وأنتم فى حال

نفس تشعرون بأنهم معذبون كما يحس التلميذ بقسوة العلم الذي يريد إبلاغه الكمال ، فإن استطعت أن تهروا من أقطار السموات والأرض فاتفقوا : أي فاخرجوا (لا تنفذون) لا تقيدون على النفوذ (إلا بسلطان) إلا بقوة وقهر ولا قدرة لكم على ذلك ، وأولى من هذا الوجه أن يقال : أيها الثقلان إن قدرتم أن تنفذوا في أقطار السموات والأرض لتنظروا صنعنا فاتفقوا ولكنكم لا تنفذون إلا بقوة عليية وبقدمات نسبتها لكم وهي العلوم والمعارف والتهديب ، وأم ذلك حب العلم وحب الخالق واجتماعهما يعطى المرء قوة بها يطالع على العلوم والمعانيب ليخرج من سجن هذه المادة (فأي آلاء ربكما تكذبان) من التنبيه والتعذير واعفو وكال القدرة ، أو المعارج العظيمة التي نسبتها الله لارتقاء العقول الإنسانية في العلوم العقلية فينفذون بها إلى العوالم العجيبة فوق السموات العلى .

إن النفوس الإنسانية لا يقر لها قرار إلا بالاطلاع على عجائب هذه العوالم التي ظهر لنا نورها ، وبدت لها أنوار كواكبها بحيث ترى ضوءها من بعد لا يتخيلها الوم بحيث يصل لنا الضوء [الذي يقطع في الثانية ثلثمائة ألف كيلومترا في ألف سنة ، أو مائة ألف سنة ، أو ألف سنة ، بل أكثر من ذلك] فهذا مما يشوق نفوسنا إلى الاطلاع على هذه العوالم المدهشة ، وكيف تنفذ لها ونحن محبوسون في هذه الأرض ؟ بل كيف تخترق أرواحنا هذه المسافات الشاسعة لو أرادت الصعود لهذه العوالم بعد الموت ، أو عقولنا معرفتها ونحن في الأرض ممنوعون عن ذلك بوائقي ، فإن لكل عالم من العوالم التي فوقنا جوا خاصا وأحوالا ليست تليق إلا لمن استعد لها ، ونحن لا بقدرتنا لا اخترق أي جو من الأجواء إلا إذا كانت أرواحنا صافية مستعدة لاخرتها ، ومهيئة له ، والنفوس الإنسانية في الدنيا لا قبل لها بمعرفة علوم تلك العوالم أيضا معرفة عليية إلا باستعداد خاص عقلي وخالقي ، فالناس في الدنيا محبوسون إلا من لهم استعداد وعلم وعمل فيعرفون قليلا ، وبعد الموت كذلك إلا النفوس الصافية المستعدة ، ولا يهيئ للناس السفر في تلك الأقطار إلا الاستعداد لها في هذه الحياة الدنيا بالأخلاق والعلوم والإخلاص ، فقول له (يرسل عليكما شواظ) لخب خالص (من نار ونحاس) وهو الدخان (فلا تنتصرا) فلا تمنعان من الله ، ولا يكون لكم ناصر منه ، يقول الله : إذا عجزتم الآن عن أن تنفذوا من الأقطار فأنتم عن النفوذ والمهرب يوم القيامة أعجز ، فإنكم هناك إن هربتم يرسل عليكما لخب ودخان فلا تقدران على المهرب ، إن هذا كاه ليفهم الله الناس أنهم في قبضته ، لا يخرجون من حكمه وقضائه .

واعلم أن هذا الذي في الآية له نظير في نفوس الناس اليوم ، فكل امرئ في عاداته ودياناته ومعارفه وأخلاقه وشهوته ووطنه محبوس ، حتى إن من يعيش في خط الاستواء ، ومن يعيش في الجزائر الحضرية قرب القطبين إذا نقل كل منهما من مكانه تألم لذلك بل ربما مات ، وهكذا حيوان البر لا يعيش في البحر وبالعكس ، فحيوان البحر إذا نفذ من أقطاره أرسل عليه نيران الشمس وعصير الهواء الجاف فأذاقاه كأس الحماق ، وترى الناس فوق الأرض يكرهون الموت ، لأنهم لم يعرفوه ، ولم يروا هناك حياة غير هذه ، وترى القلوب كلها مستعدة للعلوم ، ولكن الشهوات ، وأنواع الغضب ، والعادات المستحكمة تمنعهم من المعرفة والحكمة وتصدم كما روى : « لولا أن الشياطين يحومون حول قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السموات والأرض » فالشهووات والوسوسة والعوارض في حياتنا تمنعنا من إدراك العوالم فهي تشبه الدخان والذباب ، فالذباب كالشهووات ، والدخان كالعادات والمقائد للربكة المانعة من العلم ، ونحن إذا مشا لا نكون هناك إلا في المكان اللائق بنا في الجنة أو فيها هو أعلى منها « ولكل درجات مما عملون » بحيث لا يتجاوز أحد ما رسم له لأنه محبب عنه هناك كما يمنع حيوان البحر أن يعيش في البر . وإياك أن ترى قولي مأهول أعلى من

الجنة خارجاً عن أقوال العلماء ، فارجع إليه في (سورة البقرة) عن الإمام الغزالي فنفكر ، فإرسال اللهب والدخان على أهل المشرووحسبهم فيه له نظير في كل شيء في الدنيا والآخرة ، وفي معارج الأرواح ، والاستعداد هو الذي يعين منازل الناس في الدنيا والآخرة ، والاستعداد لا يكون إلا بمقدمات ، إنك أيها الذكي لو بحثت اليوم في الناس لوجدتهم جميعاً وأنا وأنت في حال مخصوصة بحيث لو تركناها لرأينا العوائق دوننا كما صد اللهب والدخان أهل المشرو عن الخروج من القضاء والقدر : فترى كل امرئ لا يعدو ما استعد له وما اعتاده ، هذا تراه في نفسك وفي أهلك وفي جارك وفي أمك ، وفي أمم الغرب والشرق ، كل حكم عليه بما هو بسببه أشبه بحيوان ألب وحيوان البحر ، وبعد الموت يسرون جميعاً فيما استعدوا له ، ولا ينفكون عنه جزاء وفاقا وقانونا مطردا ، فالمعادات أحاطتنا بسياج من لهب ودخان لا يجاوزه ، ولو قلت لنصراني صل صلاة المسلمين لآه في عذاب وهكذا اليهود وبالعكس ، وتفصيل هذا لانهاية له ، ولعلنا بعد الموت نطلع على عالم الكواكب بنفس أحجامها ، وليس ينال ذلك منا إلا من استعدت أرواحهم لذلك خفت فارتقت ، فأما الأرواح الضعيفة فإنها لاتنال ذلك لعدم استعدادها ، ولا تظن أن هذا يغير ما قاله علماءنا ؛ فلتعلم أن العلم هو أعظم نعيم في الجنة بل كل نعيم الجنة بالنسبة له أمر ضعيف . وبالعلم تستأهل النفس للتظن إلى وجه الله الكريم ، وما سوى ذلك فهو متاع لا يهم النفوس الشريفة ، والله لأمضى لهذه الحياة إلا بتلك النتيجة العالية الشريفة :

على نفسه فليكن من ضاع عمره . وليس له منها نصيب ولا سهم

هذا هو نهاية تفسير القسم الثاني إجمالاً مع بعض التفصيل . وفي هذا القسم (لطيفتان : الأولى) في قوله تعالى : « ووضعت لليزان » .

(الثانية) في قوله تعالى : « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » .

اللطيفة الأولى في قوله تعالى :

« ووضعت لليزان »

قد علمت مما ذكرناه في هذا المقام وغيره أن اليزان لا يعرفه إلا من درس العلوم كلها ، ولكن لليزان الأرضي من كل ما يقدر به الأجرام الأرضية بمساحة أو بكيل أو بوزن يحتاج إلى بحث مستفيض ليعرف الناس أن هذه مشتقات مقتبسات من النظام السماوي واليزان الإلهي . وكيف يعرف الناس أن القدر الذي يقيسون به الثياب ، والقياس الذي يمسحون به الأرض ، والرطل الذي يزنون به اللآكولات وما أشبهها كيف يعرفون أن ذلك كله مأخوذ من نفس سير الشمس فملا لا مجرد قول . ولعمري إن من يقرأ ما سأقوله الآن في هذا الموضوع ليرين العجب العجيب . وليسمن في هذه المقالة ما يدعشه حيث يرى أن الأردب والقنطار والدرهم ومساحة الفدان ترجع فعلاً إلى ميزان السموات .

(وبجارية أخرى) إلى مدار الأرض حول الشمس ، أو مدار الشمس حول الأرض بحسب الظاهر ، وأن هذه كلها مرتبطات بذلك .

الحق والحق أقول : إن من يفهم أن ما سأوضحه سيمجب غاية العجب ا ويقول : حقا إن هذه معجزة للقرآن مدعشة أكبر من كل معجزة . وكيف لا تكون معجزة والله يقول : « ووضعت لليزان ألا تظنوا في اليزان » أي وضعتنا نظامنا لأجل ألا تظنوا في ميزانكم أي أن ميزانكم : مبنى على ميزاننا . وهاك ما قلته

من رسالة صغيرة سميتها « التربة العملية في الإسلام » لم تطبع إلى الآن ، قد وضعتها على هيئة محاضرة . فيها ما يناسب للقام هنا منها :

(س) قد فهمت ذلك ولكن من أين لنا أن نؤمن بأن علوم الرياضيات التي أوجبها أفلاطون كما ينبغي أن تطلبه الأمة الإسلامية لأجل دينها ، وأين ذكر الله هذا في القرآن ؟

(ج) لقد ذكر الله ذلك في القرآن في مواضع كثيرة كقوله تعالى : « والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » الآية .

(س) أنا أريد أبين من هذا ؟

(ج) اقرأ كتبنا : جواهر العلوم . وميزان الجواهر . والنظام والإسلام . ونظام العالم والأمم . نجد فيها آيات كثيرة وحسابات رياضية جبرياً وفلكياً حقيقياً . وتقف إذ ذاك على ما أودع في القرآن في نحو : ٧٥٠ آية أبانت أنه ينبغي لأذكاء المسلمين تعلم الرياضيات والطبيعات لا كما فعل أفلاطون وسقراط إذ خصوا التعليم بالرياضيات فإنها مناط الحق والصدق . ولكنا نقول ان يكن للره حاكماً صالحاً إلا بالقوة البدنية والنبوغ في الرياضيات والطبيعات . ولقد كذب الذين قالوا إن العلم يصد عن ضبط مصالح الناس فإنما ذلك خاص بالعلم الذي لا يصحب بهتذيب وتفويم ، ولا تمرين عضلي ، ولا عشق للحكمة والبحث . فأما ذلك الذي استوفى تلك الشرائط . فما أجدره أن يرفع ذوى النفوس الشريفة إلى مستوى الحكم ، والحكم والعدل في القضية ، والتسوية بين الرعية . وسأتي لك في هذه الرسالة بفائدة عجيبة خلت منها كتبنا السابقة ، وهي من أعاجيب الدهر وعجائب الحكمة ، بل هي درة بهية ، وآية سنية ، وحكمة جوهريّة ، وشمس إشراقية ، وبديعة نورانية ، تلك آية الرحمن . إذ قال الله تعالى : « الشمس والقمر بحسبان ، والنجم والشجر يسجدان ، والسماء رفعها ووضع الميزان ، ألا تطغوا في الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » .

(س) وأي عجب في هذه الآية وأهم إبداع ؟

(ج) فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب التكبرين . ألا ترى أنه تعالى يقول : رفعت سمائي وحركتها بالحركات العجيبة ، وقدرتها ووزنتها بالميزان العجيب ، فلا شمس تشرق إلا بنظام ، ولا قمر يطلع إلا بحساب ، ولقد وزنت حركاتها وزنا ، وضبطت سيرها ضبطاً ، فلا تأخير ولا تقديم ، ولا نجم ولا شمس ولا قمر يتحرك حركة إلا بحساب وميزان ظهر لكم في تفويمكم السنوي ، وعرضتموه في نتائجكم المعروفة . فهل رأيتم في عمل من خلل ؟ أو اطلعت على تفاوت ، هل نجم النجم قبل إبانة ، أو بدر البدر قبل أوانه ، أو غربت شمس بعد وقتها ، أم أخطأ الليل والنهار ؟ كلا . إن في ذلك لبرة لأولى الأبصار لتكون أعمالهم موزونة بهذا الميزان . فكما نظمت سماواتي ، وقدرت كواكبي ، وأدرتها بحساب : فهكذا باعبادي نظموا أعمالكم كما نظمنا ، وإياكم أن تحجموا عما رحمتنا ، فلا تستأخرون دقيقة أو ثانية ولا تستقدمون .

(س) قد فهمت إنشاءك ، وعرفت منهاجك ، وعقلت طريقك . فما تبنت في هذه الآية أكثر مما

في غيرها ؟

(ج) على رسلك صبرا ، ولا ترهقني من أمرى عسرا . فسأ تكل المقال لتطلع على ما يجبهه الأكترون . انظر إلى قدماء المصريين ، ألم تر أنهم جعلوا القدان والأردب والقنطار مشتقات من دائرة الشمس السنوية .

(س) وكيف كان ذلك ؟

(ج) إن الأرض ليس يضبط محيطها كما يضبط مدار الشمس . فلما كان العالم العلوي أضبط وأبقى جملة أولئك الملاسفة مقياساً لنا : أى جعلوا منه الرطل المصرى والسكيلة والقندان والقيراط وما أشبه ذلك تصديقاً لقوله تعالى : « ألا تظنوا فى الميزان » أى إنا وزنا السماء وقدرناها وحسبناها وضبطناها فى حركاتها تسلياً تزيدوا فى موازينكم كالتفاضيل والأرطال . ومكاييلكم كالإردب والسكيلة ، ومقاييلكم كالفدان والقيراط ، إن هذه كلها مبنية على نظام شمسا ، ولو اختلف نظام مدارها لم يضبط لى ككيل ولا ميزان كما لا تضبط أعمالكم إذا تقدم كوكب عن أوانه ، أو طلعت الشمس أو القمر قبل إبانها .
(س) هذا قول عجيب لأنهمه أوضحه لى ، فإذا عجبت من جهل الناس فلا تعجب إذا عجب الناس من غموض قولك .

(ج) حياك الله : مهلاً . إن الفرنسيين الذين جعلوا وحدة القاييس ترجع إلى محيط الأرض ، إذ جعلوا المتر جزءاً من ٤٠ مليوناً من محيط الدائرة الأرضية قد وقع الخطأ فى عملهم . فإنهم رأوا بعد ذلك أن محيط الأرض ليس ٤٠ مليوناً بل يختلف اختلافاً بيننا . فإذا اختلف الناس فى المتر فما بعد فإلام يرجعون . أما قدماء المصريين فإنهم قاسوا مدار الشمس السنوى بالحساب العالى فبنوا الهرم الأكبر على أن محيطه جزء من مليار جزء من محيط مدار الشمس السنوى : أى جزء من ألف ألف ألف جزء من ذلك المحيط ، وارتفاعه جزء من ألف ألف ألف جزء من البعد بين الشمس والأرض : أى مليار و نصف الارتفاع المذكور يساوى قطر محيط دائرة مساوية لمحيط الهرم . فالارتفاع نفسه كما تقدم يساوى جزءاً من مليار من البعد بين الشمس والأرض ، ومحيط الهرم يساوى جزءاً من مليار من الدائرة التى تدور عليها الشمس التى ذلك البعد نصف قطرها .

وعليه يكون ضلع الهرم مساوياً لجزء من ربع مليار من محيط الدائرة الشمسية . ومعلوم أن الضلع المذكور يساوى ٤٠٠ ذراع بلدى ، أو ٣٦٠ هنداسة ، فيكون الذراع البلدى واحداً من مائة مليار من محيط الدائرة الشمسية : أى جزء من مائة ألف ألف ألف جزء من ذلك المحيط ، ثم إن ربع الذراع البلدى المكعب يسع ألف درجم من الماء اللقطر ، وكل اثنى عشر درهما أوقية ، وكل ١٢ أوقية رطل ، فالرطل ١٤٤ درهما ، والقنطار مائة رطل ، وعليه تكون القاييس منها عشرى ومنها ذو الاثنى عشر ، والأردب ذراع بلدى مكعب ، فتعجب كيف كان الأردب ذراعاً مكعباً منسوباً إلى ضلع الهرم ، فهو جزء من ٤٠٠ منه ، أو واحد من مائة ألف ألف ألف جزء من محيط الدائرة الشمسية ، ألا ترى كيف فسنا ووزنا وكلنا على نسبة لمحيط الشمس .

إن الفدان عبارة عن $100 \times 100 = 10000$ عشرة آلاف هنداسة ، فطوله ١٠٠ وعرضه ١٠٠ وهو نسبة عشرية ، والهنداسة جزء من ٣٦٠ جزءاً من ضلع الهرم المنسوب لربع محيط الدائرة الشمسية فأصبح الفدان بنسباً مقياسه للدائرة الشمسية . أليس هذا بينه قوله تعالى : « ألا تظنوا فى الميزان وأبعموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » فأمر بالاعتدال ، وألا تنقص وألا تزيد فى وزنا ولا فى كيلنا ومساحتنا كل ذلك على تحسب مدار الشمس .

واعلم أن الذراع النبلى ٩ من الهنداسة فيكون ضلع الفدان ١٢٠ ذراعاً نبلياً ، والفدان ١٤٤٠٠ ذراعاً نبلياً ، ويكون القيراط ٦٠٠ والسهم ٢٥ والدانق ١٠٠ ، فالذراع النبلى والهنداسة كلاهما يسعان الفدان $14400 = 144 \times 100$.

هل يدري ذلك الفلاح الذى يبيع قطنه بالقطن أن لقطنار نسبة إلى مدار الشمس فى السماء ؟

هل يعلم أن القنطار المنقسم إلى أرطال إلى دراهم، أن تلك الدراهم منسوبة إلى الذراع البلدي الذي إذا كعب ربه وسع ألف درهم، وإذا كعب هو وسع ٦٤ ألف درهم، وأن هذا الذراع البلدي جزء من أربعمائة من ضلع قاعدة الهرم، وأن ضلع قاعدة الهرم جزء من ألف ألف جزء من ربع محيط دائرة الشمس حول الأرض، وأن هذا المحيط أحد المحيطات التي للشمس العظيمة التي لا يعلم عددها إلا الله، وهل تدري الفلاح الذي يقيس أرضه بالقصبه أن هذا القصبه يساوي عشرة آلاف هنداسة، وأن الهنداسة جزء من ثلثائة وستين جزءاً من ذلك الضلع المنسوب لمحيط الشمس.

وهل علم من يبيع أردب قمح أنه منسوب إلى الذراع البلدي الراجع إلى ضلع الهرم، المستمد من مدار الشمس، سبحانه الله، وأن الشمس وما فوقها «إلى ربك منتهاه» هل علم الناس أن الذراع البلدي اشتق كما اشتق الكيل والوزن وما من الحساب ذي الاثنى عشر، وأن للساحة من الهنداسة والذراع النبلي أولهما عسري والثاني فيه ذوالاثنى عشر، وأن هذا كله راجع إلى مدار الشمس، الناس في بلادنا لاهون لا عيون جهلوا الدين وجهلوا نظام المدن، وعاشوا عالة على الدين حلوا من قبل في ديارنا، وعلى الأمم حولنا، جهلوا أن هذا الأردب، وهذا القنطار، وهذا القدان، كل ذلك مقادير موزونة محسوبة منظومة راجعة لا يباع الشمس ونظام سيرها، كأن القدماء لما رأوا أن الناس غافلون ذكروهم بهذه اللوازين العجيبة البديعة في غدوم ورواحهم وحسابهم وليلهم ونهارهم لتلايقفوا عن ذكر ربهم، وعن ذكر نظام مدنها، وعن نظام الفلك، ليس هذا عجيباً! إى وربى إنه لحق، إى وربى إنه لحق، لقد وضع وقصة بن داهر الحكيم الهندي الشطرنج، ووضع غيره الترد، وكان لتلك الأوضاع بهجة تذكر اللاعبين بسير الشمس والقمر والأيام وأعدادها والشهور وأدوارها، ولكن أعجب من ذلك نظام قدماء المصريين الذين أبرزوا مكنون العلم في الأعمال اليومية لا الألعاب الصيانية فتأمل وتجب! وانظر كيف تعلم اليونانيون علم المصريين، ودرسوا هرمهم وحكمتهم وميزانهم ورطلهم وقنطارهم وأردبهم، وعرفوا أن ذلك منسوب لضلع الهرم المنسوب لهارة الشمس وأن ذلك كله لم يتم إلا بعلم الحساب والهندسة والجبر العالي، وأمثال ذلك فأوضحه أفلاطون في جمهوريته وقال: «لن يكون الإنسان عدلاً مطيعاً قائماً بأمره صادقاً في حكمه حتى يبرع في الرياضيات ويتخلق بأخلاق الله» ثم قرأنا ذلك ونظرنا في القرآن فرأيناها آزلت على النبي العربي بلا تعليم: «والسما رخصاً ووضع لليزان ألا تظنوا في اليزان».

أفليس هذا يكفيك أن توقن أن أمة الإسلام اليوم نائمة نوما عميقاً، جاهلة بما بين يديها وما خلفها، وأن الله عز وجل أيقظ فريقاً منها ليوقظوها من نوم الغفلة والجهالة والغرور، وأن الحكمة الأفلاطونية الفيثاغورية كانت مصرية، كانت بضاعتنا فردت إلينا، وقد أوحى إلى نبينا بضمونها، فهلا أعددتنا للأمر عدته، ونهجتنا منهج نبينا صلى الله عليه وسلم. وقد وافق شرعه شرع النبي إدريس عليه السلام الذي علم قدماء المصريين؛ وجاء وفاق له في (سورة الرحمن) (علم القرآن) انتهى ما أردته من رسالتى المسماة: [التربية العملية] كتب الساعة ٦ بعد عصر يوم السبت ١٠ أغسطس سنة ١٩١٨ م — (بالنحلة: مصر العامرة). وبهذا تم الكلام على اللطيفة الأولى في قوله تعالى: (ووضع الميزان) والحمد لله رب العالمين.

اللطفية الثانية في قوله تعالى : يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان

قد تقدم الكلام على اللؤلؤ في (سورة الفاتحة) وعلى المرجان في سور أخرى مفصلاً ، ولكن لابد من فصل قصير تزين به جيد تفسير هذه السورة فنقول :

من ذا الذي كان يظن أن تلك المرجانة التي تزين بها النساء فوق براقعهن يبيلادنا المصرية في القرى بحيث تراها صفا واحدا منتظما على برقعها ، منتظما من أعلى إلى أسفل ، ويقع قطع من الذهب فيكون المرجان في الأعلى والذهب في الأسفل :

أقول : من ذا الذي كان يظن أن تلك المرجانة كانت صنع حيوان صغير جدا ، وأن تلك الحيوانات باجتماعها آلافا وآلافا كونت مساكن ، وتلك المساكن أشبه بأغصان الأشجار ، ثم تتكامل اجتماعا ، وتلاحق اتساعا ، وتمتد ذراعا وباعا ، وتنتسج انفراجا في البحر حتى تكون منها جزائر ، وتلك الجزائر أيضاً تتكاثر وتتكاثر وعلى مدى الزمان تراها في المحيط الهندي والمحيط الهادي (الباسيفيكي) وكيف تراها على شكل الخاتم ، ووسعها فيه ماء لونه يخال لونه المحيط الذي هو أزرق ، وإذا اجتمعت جزائر كونت حلقة أيضا ، وتعيش الحيوانات في مائها ساكنة مطمئنة ، آمنة عاديات الدهر وهيجان المحيط ، وترى شجر (الشكولاته) يكسوها وهو جميل بهيج ، ولورابت شجر المرجان لرأيته له فروع غرباء كقطب الصحراء ، أو صفراء برتقالية ، أو حمراء قرنفلية ، أو زرقاء تتلاعب بها الأمواج ، والريح تمسح بأغصانها . فانظر كيف تصبح هي أنفسها نفس الصخرات المسكونات للجزائر المرجانية ، وتكون منها جزيرة حجرية ، وقد تزيد إلى عشرة إلى مائة إلى ألف إلى عشرة آلاف إلى مائة ألف جزيرة كالجزائر المعروفة باسم (بلكاديف) فهي مائة ألف جزيرة . والجزائر المعروفة باسم (ملاديف) فهي ألف جزيرة كلها صخرية حجرية أصلها شجرات نابتات وليست بشجرات إنما هي مساكن بناها الحيوان المرجاني الدقيق الذي سخره الله مع ضعفه ليبنى الجزائر في البحر ويحفظها لتكون مسكن الحيوانات بعد ذلك وموطن الأشجار النافعة للانسان والحيوان ، والجزيرة الواحدة من تلك الجزائر يبلغ محيطها فراسخ عديدة تنكسر أمواج المحيط على جوانبها الناصعة البيضاء « تبارك الله أحسن الخالقين » .

فصل : في اللؤلؤ

وهل أتاك نبأ ما عرفته أنا بعد ما رأيت فيما تقدم ؟ رأيت عجباً . ذلك أن عادة علماء التفسير أن يقولوا إن اللؤلؤ والمرجان لا يخرجان إلا من البحر للتح مع أن الله يقول (منهما) وقد أولوه بما علمت وتابعتهم عليه . فانظر كيف جاء العلم الحديث جازياً على نفس ظواهر القرآن إذ كشفوا أن اللؤلؤ يكون من الماء العذب . فانظر ما يقوله الناس اليوم ، قد جاء في مجلة « السياسة الأسبوعية » بتاريخ يوم السبت ٢٧ رمضان سنة ١٣٤٤ هجرية — ١٠ إبريل سنة ١٩٢٦ م تحت العنوان الآتي مانصه :

تكوين اللؤلؤ

يتكون اللؤلؤ في أنواع كثيرة من الحيوانات الصدفية ، أو المحارية التي تمسح في الماء العذب أو في الماء الملح ، وكانت لألى الماء العذب شهيرة عند الرومانيين ، وهي تستخرج حتى الآن من بعض جهات في أمريكا والسين وغيرها ، وأجمل نوع من اللؤلؤ هو ما يتكون في الحيوانات الرخوة الصدفية التي تمسح في البحر

الحارة، والحيوان موجود داخل محارتين منطبقين على بعضهما، ويوجد منها نحو الثلاثين نوعاً. وأم هذه الأنواع ثلاثة :

أولاً : مليجربينا مرجريتيغرا : وهو الاسم العلمي، وهو حيوان صدف كبير، يصل قطره إلى قدر ثلاثين سنتيمتراً، ويصل ثقله إلى نحو عشرة الكيلوجرامات، ويعيش في المحيط الهندي والبحر الأحمر، وفي بحر الهند وسيلان وفي الاقياوسية، ويوجد اللؤلؤ فيه بنسبة لؤلؤة في كل أربعة حيوانات .
ثانياً : مليجربينا وديانا : وهو حيوان صدف أصغر حجماً من الأول، لأن قطره يصل إلى اثني عشر سنتيمتراً، وقله لا يزيد عادة عن مائتي جرام، وهو يعيش في أغلب البحار الحارة، وخصوصاً في البحر الأحمر والمحيط الفارسي .

ثالثاً : مليجربينا امريكاتا : وهو حيوان صدف صغير يعيش في البحار القارية لشواطئ استراليا، وهو يخالف النوعين السابقين في أنه يعيش في مكانه ملتصقا على الصخور بعضو خاص، لهذا النوع من الأصداف عضو اسمه (البسوس) توجد هذه الأصداف على شكل جماعات عديدة الأفراد .

واللؤلؤ اللطيف الشكل الجليل الماء (كما يقولون) هو ما يسمى باللؤلؤ الحر أو الصافي، وهو ذو القيمة التجارية الهائلة، وهو ما يطلق عليه عادة اسم اللؤلؤ، ولا يستخرج أغلبه الآن إلا من الحيوانات البحرية التي سبق ذكرها . وأغلاء ما كان جميل الماء كروي الشكل، أو مائلا للكثري في شكلها، وتختلف ألوانه فمنه الأبيض، وهو أكثر شيوعاً بين الناس، ومنه الرمادي والوردي، والأخضر والأحمر والأصفر والأسود والأزرق، واللؤلؤ الأسود نادر جداً وقيمه التجارية كبيرة .

وهناك نوع من اللؤلؤ الحر ذولمان ذهبي جميل، يفضل بعض الغاوين على غيره، وما يجعل اللؤلؤ هذه القيمة الاقتصادية للمروفة هو لمعانه وماؤه ولونه، وبمرور الزمن وكثرة الاحتكاك في استعماله وتأثير المرق (وهو سبب غير أكيد) يذهب اللؤلؤ من الماء، إذ ييخر كمية من الماء الذي يكون ضمن اللؤلؤ للسكونة لهذا اللؤلؤ فيقول إذ ذاك العارفون : إن اللؤلؤ مات، وهناك أنواع من اللؤلؤ تموت قبل غيرها بمدة طويلة أو قصيرة رغماً من وجودها في نفس الظروف الفروض أنها هي سبب الموت، وهذا الاختلاف يرجع إلى ما سماه الأستاذ (دوبوا) ضعف اللؤلؤ أو قوته، ففي نظر هذا العالم هنالك أمزجة مختلفة في اللؤلؤ تجعل بعضه يتحمل المؤثرات الخارجية، والبعض الآخر لا يتحملها فيموت البعض قبل البعض الآخر .

وموت اللؤلؤ هو السبب في أن أغلب لآلئ اللصاغ المحفوظ في للتاحف ذهب ماؤها، واندثر لمعانها . واللؤلؤ الكروي أو القريب منه هو أغلاء . وهناك أنواع من اللؤلؤ نصف كروية تسمى بأصناف اللاللي وهي أقل قيمة من الأولى، وتستهمل في أنواع الصانع التي لا يرى فيه إلا أصناف اللاللي كروس الباييس وماشابه ذلك . انتهى ماجاء في المجلة المذكورة، وبهذا تم الكلام على اللطيفة الثانية، والحمد لله رب العالمين.

جوهرة في قوله تعالى :

« يرسل عليكاً شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران »

تأمل في هذه الآية من [وجهين : الأول] أنه عبر عنها بشواظ من نار وفيما تقدم بقوله : « من مارج من نار » والشواظ واللارج كلاهما اللهب الخالص، فلماذا جعل اللجان مخلوقة من مارج ولم يقل من شواظ ؟ فاعلم أن المارج فيه معنى الاضطراب كما تقدم، وقد أبنت ذلك هناك، وهذا الاضطراب بخلاف اضطراب الروح كما تقدم في علم الأرواح . وأيضاً اختلاط الألوان الآن معروف في التحليل فهو من هذا القبيل، فأما

أعدت الكلام فيه لورود هذا اللفظ هناك ولم يرد هنا ، فان ذكره هناك لهذا الغرض ، وهذه الصكرة لم
تلق قط إلا في زماننا هذا فان تحليل الضوء والعلم بأنه مختلط والاطلاع على عالم الأرواح الناقصة وأنها
مضطربة لم يكن إلا في زماننا ، وهذا من أعاجيب القرآن التي لا تدرك إلا بقراءة العلوم ، وليس يحفلها
الناس بفن البلاغة المعروف ، فلا أصحاب للعلاقات يدركونها ، ولا الذين يبدم يملونها ، فهل مثل امرئ
القيس ، أو لأبي العلاء أو للثبي أن يتناولوا هذه المعاني في أقوالهم ؟ كلا . فهذه بلاغة لا تحظر بياهم ،
وأنى لهم علم الروح حتى يخصصوها بلفظ مارج ، وعند إنزال العذاب يذكرون الشواظ (الوجه الثاني) أن
الشواظ والنحاس الوارد في الآية لهما نظائر في أحوالنا الإنسانية اليوم كما تقدم ، ولكن أريد أن
أزبدها أيضا :

(١) الناس محبسون في شهواتهم كسرب الدخان ، والخمر ، والكوكابين .

(٢) في أنواع من الطعام :

(٣) في أنواع من اللباس .

(٤) في أنواع من الزينة :

(٥) في أنواع من المادة .

(٦) في أوطانهم .

(٧) في دياناتهم .

(٨) في أرضهم لا يخرجون عنها إلى المريع .

(٩) وكل محبوب عند نفوسنا إذا فارقتنا أحسنا بآلام الفراق ، فنحن للأوطان ولبن نعشقهم ،

ونحزن لفراق المألوفات من مال وولد وملك وجاء وما أشبه ذلك ، ولا فراق إلا يصحبه حزن

والحزن يعبر عنه الناس بالزار ، يحسون بها في باطنهم وقد يتعدى الباطن فيورث الحمى والسهر

فيقول شاعرهم متحسرا :

يا ليل مالك آخر برجي ولا للشوق آخر

يهنيك بدرك حاضر باليت بدري كان حاضر

حق يبين لناظري من منهما زاه وزاهر

والأشعار كثيرة نبغ فيها أسلافنا ، وكلها تصف الأشجان والفراق ونار البعد والحسرة والتوجع فهذه
الآية وإن كانت في أمر الآخرة فهي من جوامع الكلم شملت أحوال الناس من حيث طباعهم في الدنيا
والآخرة ، لأن (من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا) ومثل هذه المعاني لن يتصورها
الشعراء قديما وحديثا . انتهى تفسير القسم الثاني من السورة .

القسم الثالث في عجائب عالم الآخرة

قال تعالى (فإذا انشقت السماء فكانت وردة) أي حمراء فهي كلون الورد الأحمر (كالدهان) أي مذابة
كالدهان ، وهو اسم لما يدهن به بوزن الحزام أو جمع دهن (فبأي آلاء ربكنا تكذبان ، فيومئذ) أي
فيوم تنشق السماء (لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان) لأنهم يعرفون بسياهم ، وذلك حينما يخرجون من
قبورهم وعشرون إلى الموقف وبعد ذلك يسألون (فبأي آلاء ربكنا تكذبان ، يعرف المجرمون بسياهم)
هناك ، ولقد عثر النوع الإنساني مع قلة علمه على قليل من ذلك فاتنعه به في حصر المجرمين وإذلالهم ، فهذه

حكومتنا المصرية قد جعلت إدارة خاصة لعلامات الشبقة فيهم ، وذلك أن لكل امرئ خطوطا خاصة في إبهامه لا تشابه خطوط غيره ، ولا يحصل التباس ، فحق أخذوا صورتها على الورقة لم يفت ذلك المجرم . إذ يعرفونه بتلك العلامة التي لا يشارك فيها سواه في الشرق ولا في الغرب ، وهذا أيضا في أوروبا وجميع العالم الإنساني (١) وهناك بعض العرب في البادية يعرفون الإنسان بأثره وربها الابن ورائته طبيعية ، وذلك مشهور في طوائف قليلة من الناس وهو من خاصيتهم . وإذا كان هذا في الدنيا فما بالك بيوم القيامة عندما يعلم التيب . والحاصل أن لكل امرئ أحوالا تخصه في جسمه ، وفي عقله وأخلاقه يعرف الناس قليلة الآث وبقية علمه عند الله يعلمه للملائكة وهم يعرفونهم بسماهم (فيؤخذ بالنواصي والأقدام) مجموعا أو يؤخذون بالنواصي تارة والأقدام أخرى (فبأي آلاء ربكما تكذبان ، هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون ، يطوفون بينها وبين النار يحرقون بها (وبين حميم) ماء حار (آن) ماء حار قد انتهى حره . فهم يسعون بين الحميم وبين الحميم ، فاذا استغاثوا من النار جعل عذابهم الحميم الآتي الذي صار كالملهل ، والملهل هو دردى الزيت أي عكره (فبأي آلاء ربكما تكذبان) والنعم في هذا نعمة الناجي منه فضله ورحمته وأن في الانذار به تنبيها وإيقاظا (ولمن خاف مقام ربه جنتان) أي قيام ربه عليه يعني اطلاعه عليه ، فاذا تم بمصيبة ذكر الله وأنه مطلع عليه فتركها من مخافة الله ، فمثل هذا يراقب الله في السر والعلانية ، فيفعل الخير للناس في جوارحه ويحب لهم الخير بقلبه ، ويزداد علما بملا قلبه ، فمثل هذا ينال جنتين : جنة روحانية لقلبه ، وجنة جسمانية على شاكلة ما عمل في الدنيا ، فهو في جنات ، ونعيم ، وقلبه مطلع على جمال الملكوت ناظر لربه ، أو يكون أولا في الجنات الحسية ، ثم تلتطف روحه شيئا فشيئا ، وكلما خلعت عاداتها الغليظة لطفت ولا تزال تلتطف وهي في الجنات الحسية ، ونور علمها يزداد بالجنة الروحية . وهكذا يستمر ازدياد المعنويات ونقص الحسيات حتى تخلص الروح من العوالم كلها وتكون إلى ربها ناظرة . وهذا هو غاية المراد .

وهذا التقرير قد رأيت بعض ما يشير إليه في كلام محبي الدين بن عربي ، إذ قال : « إن الروحية يكون لها سلطان على الجسمانية » وهذا بعض ما قلناه ونقلته أيضا عن علماء الأرواح في العصر الحاضر ، وقوله (فبأي آلاء ربكما تكذبان ، ذواتا أفنان) أي أغصان جمع فتن وهو الفصنة التي تنشعب من فروع الشجر ، ولا حرم أن الفتن هو الذي يورق ويشمر ويمد الظل ، لذلك خصه بالذكر (فبأي آلاء ربكما تكذبان ، فهما عيان بحريان) حيث يشاءون في الملالي وفي الأسافل (فبأي آلاء ربكما تكذبان ، فهما من كل طائفة زوجان) أي صنفان ونوعان . وروى أن فاكهة الدنيا كلها لها نظير في الجنة ، وهذا المقام له تحقيق مر في (سورة البقرة) في أولها (فبأي آلاء ربكما تكذبان ، متكئين على فرش بطائنها من إستبرق) الفرش جمع فراش ، والبطائن جمع بطانة ، والاستبرق ديباج نخين ، ومتكئين حال من الحائضين ، لأن من خاف في معنى الجمع (وجنى الجنيتين) ثمرها (دان) يتاله القائم والقاعد والمضطجع (فبأي آلاء ربكما تكذبان ، فهن قاصرات الطرف) أي في الجنان المدلول عليها بالجنيتين لكل خائف وتمدد الحائف يتكاثر عدد الجنان ، نساء قصرن أبصارهن على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم (لم يطمئنن إنس قبلهم ولا جان) الطمئ الجماع بالتدمية : أي لا يمسن الانسيات إنسي ، ولا يمسن الجنيات جنى (فبأي آلاء ربكما تكذبان ، كأنهن الياقوت) صفاء (والمرجان) في حمرة الوجنة ، أو أن ألوانهن يياض مشرب بحمرة ؛ فالبياض كالؤلؤ ، والحمرة كالمرجان ، فتعاشق اللونين يحدث منظر الجميلا ،

(١) قد تقدم الكلام على هذا المقام موضعا بالصور والأشكال في هذا التفسير عند آية « حتى إذا ماجاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون » في سورة فصلت في المجلد التاسع عشر .

وهو أحسن الألوان (فبأى آلاء ربكما تكذبان، هل جزاء الإحسان) في العمل (إلا الإحسان) في الثواب وهو الجنة (فبأى آلاء ربكما تكذبان، ومن دونها جنتان) أي ومن تينك الجنة للمؤمنين وللخائفين جنتان لمن دونهم من أصحاب اليمين (فبأى آلاء ربكما تكذبان، مدهامتان) خضروان تضرمان إلى السواد من شدة الخضرة، فينبت في هاتين الجنة النبات والرياحين القريبة من وجه الأرض أو المبسطة عليها، وأما أولئك فلهن أشجار فيها فواكه وثمرات وثمرات (فبأى آلاء ربكما تكذبان، فيهما عينان نضاختان) فوارتان بلناء، ووصف الأولين الجمل (فبأى آلاء ربكما تكذبان، فيهما فاكهة ونخل ورمان، من عطف الحاس على العام ففصلهما لفضلهما، وأيضاً الرمان فاكهة ودواء، وثمر النخل فاكهة وطعام فليسا خالصين للنفك. ولذلك قال أبو حنيفة رضي الله عنه: إذا حلف لا يأكل الفاكهة فأكل رطباً أو رماناً لم يحنث، وخاله صاحبه (فبأى آلاء ربكما تكذبان).

واعلم أن الفاكهة إما عطرية كالنفاخ، وإما مائية كالبطيخ، وإما حمضية كالليمون، وإما زبقية كالتوتون، وإما سكرية كالتمر، وإما غير ذلك كثمر التوت. وقوله تعالى: (فيهن خيرات حسان) أي خيرات (بتشديد الياء) فهن أقل من السابقات لأن هؤلاء لسن أخير، لأن خير بمعنى أخير لا يجمع، وحسنهن في الخلق والخلق (فبأى آلاء ربكما تكذبان، حور مقصورات في الخيام) أي قصرن في خدورهن والمرأة القصيرة والقصورة والقصورة المخدرة (فبأى آلاء ربكما تكذبان، لم يطمنهن إنس قباهم ولا جان، فبأى آلاء ربكما تكذبان، متكئين على رفرف خضر) الرفرف الخضر الوسائد الخضر جمع رفرقة (وعبقري حسان) العبقري منسوب إلى عبقر تزعم العرب أنه اسم بلد الجن فينسبون إليه كل شيء عجيب، وهو جنس يدخل فيه كل أمر غريب كالديباج الجليل والطنافس وغيرها.

ثم اعلم أن العبقري أيضاً كل جليل نفيس فاخر من الرجال وغيرهم فهو أمم مما هنا. قال صلى الله عليه وسلم في حمر «فلم أربعقرباً يفري فريه» ووصف العبقري بالحنان لحنه على المعنى (فبأى آلاء ربكما تكذبان، تبارك اسم ربك) تعالى اسمه، وإذا كان الاسم يتعالى فما بالك بذاته تعالى! (ذو الجلال والإكرام) ذي العظمة والإنعام لأوليائه ولغيرهم فيعطى كلا ما هو أهله.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سلم من الصلاة لم يقعد إلا مقدار ما يقول: اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام» أخرجه أبو داود والنسائي وغير قولاً «لم يقعد إلا مقدار ما يقول».

وروى مسلم عن ثوبان قال «كان صلى الله عليه وسلم إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً وقال اللهم أنت السلام إلى ذا الجلال والإكرام».

لطيفة في قوله تعالى:

«كل من عليها فان»، وقوله: «تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام».

لما ذكر الله نعم الدنيا ختمها بغنائها، وأن الباقي هو الله، ولما ذكر نعم الآخرة ختمها بأن الله ذو العظمة والإنعام على العباد وجميع المخلوقات، وتكون نتيجة السورة هكذا: الدنيا كلها نعم ولا يبقى سوى النعم، والآخرة كلها نعم للخائفين ومن دونهم، والله هو مستحق للتسبيح والتتزيه: فهو ذو الجلال، ومستحق للحمد على النعم لأنه ذو الإكرام، فتكون النتيجة أن هذه الدنيا وما بعدها نتيجتهما العلم، لأن الحمد لا يكون إلا على العلم بالحمود عليه، وبالاختصار أعظم نعيم في الجنة العلم، وقد رمز له بالإكرام،

إذ لا أعرف إكرام الله إلا إذا درست نموه ، ومن أعطى إنسانا نعمة فوجده يجهل قيمتها لا يباود إنشائه عليه ثانيا ، ولنا نعرف نعم ربنا لنشكرها إلا إذا درستناها في هذه الدنيا ؛ فانظر إلى أول السورة كيف بدت بالرحمة والعلم والتطعيم ، وختمت بما يشير إلى الحمد ، وما بينهما راجع لهما ، فالشمس والقمر والشجر والميزان العام في السموات والأرض ، وبقية النعم التقدمية لا تعرف إلا بدراستها ، وبهذه الدراسة يمكننا أن نشكر الله بالقلب بحيث نخلص لله وللناس ، وباللسان بالثناء على الله بالحمد ، وبالأفعال بحيث نحسن وتصرف بالخير بأيدينا .

إن (سورة الرحمن) نزلت إيقاظا للسلبيين أن يكونوا مفكرين حق يدرسوا النعم وإذن يصكونون حامدين لربهم الذي أكرمهم ، والسورة فيها تعريض بأن من جهل النعمة كأنه كذبا ، وفي هذا ما هو كالانذار لمن جهلوا هذه النعم ، ولللسون اليوم أقل الأمم علما بل يوم الكائنات . وقد آن أن يرجع لهم مجدوم ويعرفوا نعم ربهم ، ويسابقوا لنيل الحيرات ، والحمد لله رب العالمين اه .

اللطفات العامة في هذه السورة^(١)

اللطفة الأولى في قوله تعالى : « ووضع الميزان » مع قوله « مرج البحرين يلتقيان » الخ .

اللطفة الثانية في مجاب الحسيان في سورة الرحمن :

اللطفة الثالثة في قوله تعالى : « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » .

اللطفة الأولى في قوله تعالى:

« ووضع الميزان ألا تظنوا في الميزان » مع قوله « مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان » .

لك الحمد اللهم على نعمة العلم وبهجة الحكمة ، أنت معلم المعلمين ، ومعلم الصالحين ، ومرسل الأنبياء والمرسلين ، تباركت وتعاليت ، قد هديتنا وعلمتنا وأعنتنا على إبراز ما أقر في النفس من نعمة العلم والحكمة أنت الرحمن الرحيم ، وبرحمتك أذعت العلم بين الأمم ، وأنزلت القرآن ، وأبدعت في خلق الإنسان ، ورييته وعلمته البيان ، فعلم خواصه علما يقينا أن الكواكب كلها بحساب ، ودرسوا أنواع النبات فألقوها ذات بهجة ونظام ، ودرسوا العلويات فألقوها حسنة القوام ، جميلة الإبداع ، رفيعة اللقار ، مشرقة مبهجة منعشة مسعدة للأنام ، ورأوا كل مخلوق مترنا بميزان لا تقص فيه ولا خلل ولا زيادة في الميزان ، وبهذا الميزان حفظت الكواكب في مداراتها ، والسيارات في أبراجها: والحيوانات في مسارحها ، وأزهر النبات وأثمر الشجر وسعد بالحياة نوع الانسان .

هذه هي الآلاء والنعم الكبريات ، ولما أفضت على من نعمك العلية وأردت أن أشرح الميزان ألفت المقام متسما ، والمجال فيسجا ، بل هو يجر لبي لا يعرف مداه ، ولا يدري منتهاه ، ولقد تذكرت اليوم ما اتفق لي في زمان الشباب إذ كنت أفكر في نظام السموات والأرض ، فقرأت للامام التزالي جملة هذا معناها : [لا يعرف الميزان إلا من درس جميع العلوم] فطار إذ ذاك لبي وحار فكري ، وأخذت أنشد المعارف . وأبحث في كل تليد وطارف ، وأسأل كل عارف وغير عارف ، ودرست ما قدر لي ، ثم ألفت كتاب

(١) يقول المؤلف : هذه اللطائف لم يكن لها وجود عند التأليف ، ولم يفتح الله بها إلا عند تقديم هذه

[جواهر العلوم] وأثبتته بكتاب [ميزان الجواهر] تذكرة بما قاله الإمام الغزالي رحمه الله تعالى ، وهل كان يمدح بخلقى أو يخطر ببالى أن أعيش حتى هذا الزمان ، وأن أؤيد بروح منك فأفسر القرآن ، وأصل إلى سورة الرحمن كما هي الحال الآن فأفسر آية : « ووضعت الميزان ألا تظفوا فى الميزان » :

هذا لم يكن ليخطر لى ببال ، ولم تكن نفسى تشرب إلى ذلك المقام ، وفى هذا المقام أنشد قول القائل :

وإذا العناية ساعدتك عيونها نم فالخاوف كلهن أمان

واسطدبها العناء فى حباله واقطبها الجوزاء فى عنان

فإذا كنت فوقنا أن العناية ساعدتني فى التفسير عامة ، فبالعناية الإلهية أبتدى فى تفسير هذه الآية

التي يشمل معناها جميع ما تضمنه الوجود من النظام ، وأجترى بأن أذكر طرفا يسيرا من ذلك النظام :

(١) فأبتدى بذكر حقائق الجماد بوصف بعض الأحجار الثمينة .

(٢) ثم أتقى بالإشارة إلى نظام النبات :

(٣) ثم أذكر بعض الحيوان الذى يعيش فى البحر :

(٤) ثم أتقى على آثاره بعجائب خلق الحيوان الذى يعيش فى البحر صغيرا . وفى البر كبيرا ، وهو

الضفادع التي يرى العاقل فى نموها وتدرجها من العجائب ما تحر له العقلاء سجدا من تلك المادة

الهلامية التي تحيط بالبيض وتأخذ فى رفقه كلما زاد نموه حتى تصل به إلى سطح الماء فيكون

إذ ذلك قد قس البيض ، فأما المادة الهلامية فانها تنحل بتدبير آخر وإبداع عجيب .

(٥) ثم أتقى بذكر بعض حيوان البر وأبتدى بالنعكبات ، وأبين كيف يبتدى فى نسجه وهيشميره

فيه مما لم يتقدم له نظير حتى تعلم أيها الصديق أن تلك العناية التي أحاطت بأجسام الحيوان

تعدت إلى إدراكه وغرائزه فأخذ ينظم أعماله كما نظمت هيئة جسمه وكأنه تليذ تربي فى معهد

جسمه المنظم فأخذ ينسج على منواله .

(٦) ثم أتبعه بذكر عجائب النحل وإبداعه فى عمله مما لم يسبق له نظير فيما مضى ، وكيف كان منه

بناءون ونساجون ونجارون وغيرهم .

(٧) ثم أذكر ما يقرب منه وهو الزنبور ، وكيف يغلف عشه بما يشبه الورق فيكون ذلك الغلاف

سبيا لدفء صغاره داخل خلاياه التي بناها ونظمها .

(٨) ثم أختتم المقام بذكر النمل وعجائبه التي لم يسبق لها نظير مثل النجارين منه والبنائين الذين يبنون

أربابا سترى بعضها قريبا ، وإليك تفصيل ما أجمناه .

فأولا لا أتقى عند ما فى الجماد من إبداع وإتقان ونظام مثل (الزمرد) (انظر شكل ١) : ومثل الباقوت

الأزرق البلورى (انظر شكل ٢) . ومثل الزمرد البلورى المركب (انظر شكل ٣) : ومثل أحد الأحجار

السكرية المضروونه المسمى بالفرنجية (برل) (انظر شكل ٤) ومثل الحجر المسمى (كوارتز) (انظر شكل ٥)

وهالك أشكالها فى الصحيفة التالية :



(شكل ٣ زمرد بلوري مركب)



(شكل ٢)



(شكل ١ الزمرد البلوري)

(شكل ٥ - كوارتز البلوري
ذي الخطوط العرضية المقاطعة)

(شكل ٤ - بل البلوري ذي الخطوط الطويلة)

فهذه الأنواع الخمسة من الأحجار اليمينة نراها ونرى غيرها في الطبيعة على هيئة البلور مسدسة الأشكال منظمة الأوضاع ، بهجة الألوان ، زينة للدنيا ونورا للعالماء المفكرين ، فهل أقف عند هذه وحدها نموذجاً للميزان المنسوب في الأرض والسما ؟ كلا . بل أقفي بذكر الميزان في النبات فأقول :
ثانياً : نرى الحكمة كما سرت في الجراد ونانته وأحكته سرت فيما هو أرق منه وأبدع وهو النبات كما تقدم في قوله تعالى في (سورة الحجر) ، «والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شئ موزون » وفي هذا التفسير من وزن ما يذهل الألباب ، فبأي مقام أذكرك أيها النبي ؟

(١) أبلذكور في سورة (ق) .

(ب) أم بالذكور في (سورة حم فصلت) .

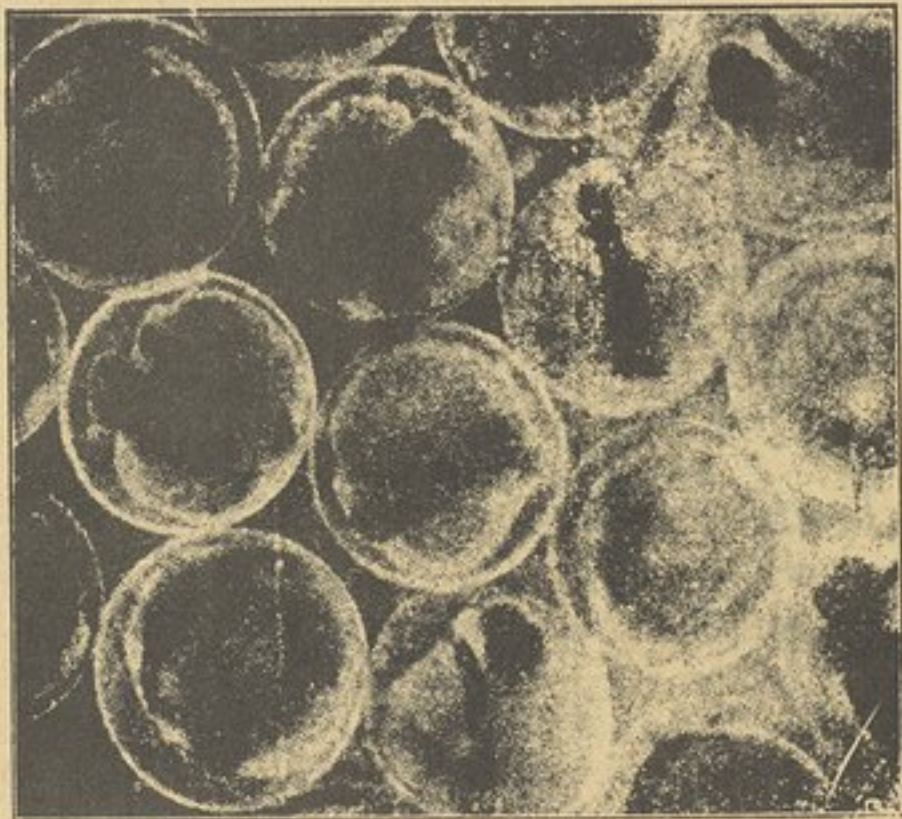
(ج) أم بما قبل ذلك في (سورة يس) :

(د) أم بالمدكور قبلها في (سورة فاطر والسجدة) من تلك الصور البديعة العجيبة ، والأشجار الموثقة البهجة الجميلة وأشكالها ، وتشريح سوق الأشجار وانتظام حلقاتها بمدد سنها من بدائع الحكم المودعة في النبات ، وكيف كان للأشجار طبقة فوق قشرتها تمنع الماء في داخلها أن يبخر وتحتها طبقة أخرى تمتد منها شعرات تمنع شدة ضوء الشمس من طغيانها على النبات ، وربما ملئت بسائل حريف أو مر أو نحو ذلك مما يمنع الحيوان عن تعاطي ذلك النبات ، وهناك عجائب الطبقات الخشبية التي جعلت ناقلة الغذاء من الساق إلى فروع وأوراقه . وعجائب اللحاء التي توصل العصارات التي اكتملت نضجها في الأوراق إلى بقية الأجزاء في النبات ، فلقد تقدم هذا هناك موضعا بصورة العجيبة ، ودروسه المنتظمة ، فانراه على مكث .

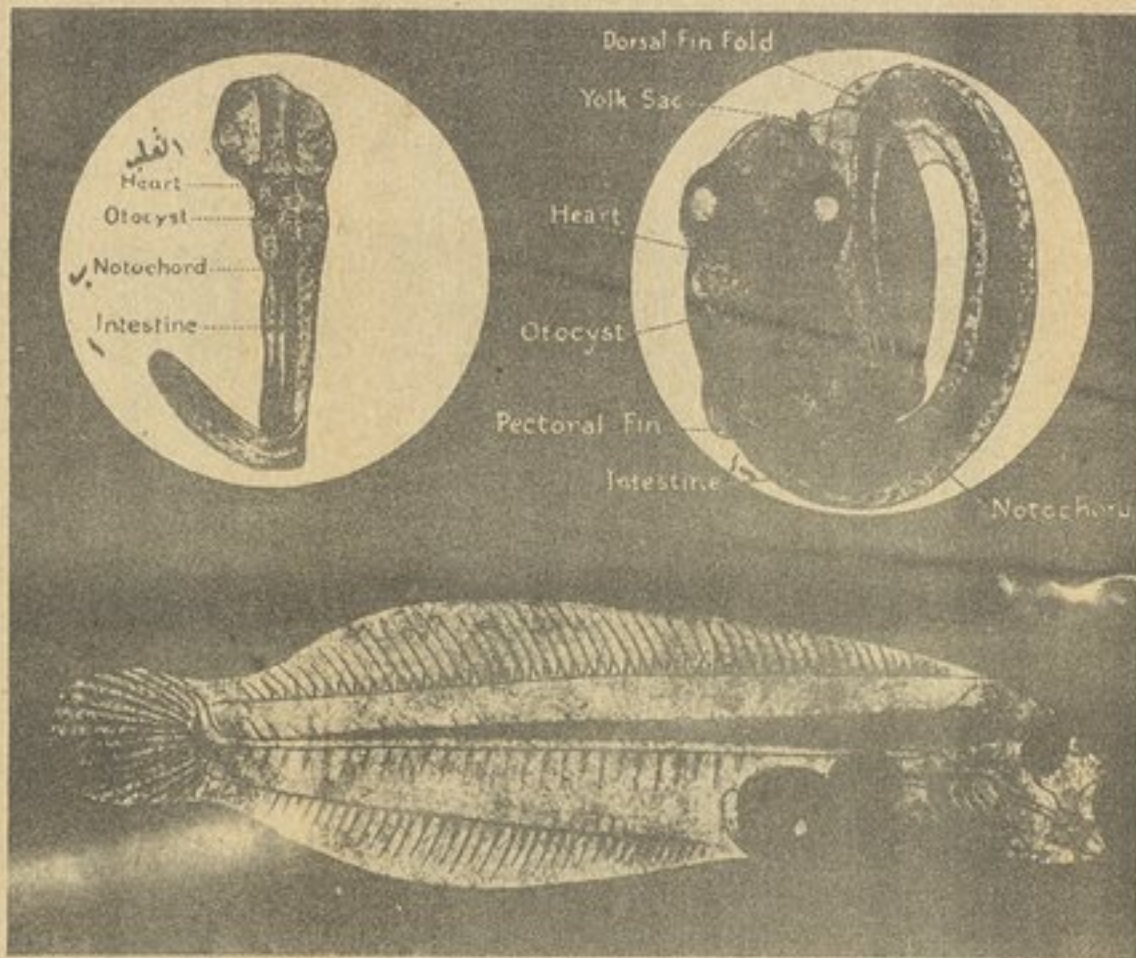
(هـ) أم بما ذكرناه في (سورة الحجر) عند آية : « وأنبثنا فيها من كل شيء موزون » وهناك ترى شجرات مرسومات منتظمة الدوائر الحاصلات من منابت الأوراق . وفيها بدائع تذهل العقل وتبهج النفس . فبينما نحن نأكل التفاح . وتنفكه به ونظن أن هذا هو المقصود منه في حياتنا ونفرح به ونقول الحمد لله ، إذا نحن نرى حياة جديدة . ترى الأوراق التي لانأبه لها قد جعلت كل خمس منها مشكلات لدائرة تامة ، بحيث يكون بين كل ورقتين ٧٢ درجة من ٣٦٠ درجة من الدائرة . وفي كل دائرة تامة شكلان حلزونيان . ومن عجب أن الورقة الأولى من الدائرة الأولى على خط مستقيم مع الورقة الأولى من الدائرة التي فوقها . وهكذا الورقة الثانية فيكون هناك فوق نظام الدوائر التامة والأشكال الحلزونية أمر آخر وهو الحياوط المستقيمة المنتظمة فيها بين النظائر في الدوائر . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أصبحت هناك نسبة بين تلك الأشكال الحلزونية ودوائرها مع كل الدوائر الأخرى في نباتات كثيرة وأشكالها الحلزونية حتى إنك ترى هناك سلسلة حساية منتظمة تسرى في كل نبات . ولما كان هذا قد تقدم فلا حاجة لاعادته هنا وكفى ما ذكرناه تشويقا لمراجعتة ، هذا هو الميزان في النبات وهو المقام الثاني .

ثالثا : فلأخط خطوة فوق ماتقدم إلى حيوان البحر لأنه مقدم على حيوان البر مكتفيا بذكر سمكة تسمى (بلاس) أو (بليس) بإمالة اللام فأقول :

إن هذا السمك الذي يشبه ما يسمى في بلادى المصرية (القنومة) والواحدة منه تضع نحو نصف مليون بيضة وكل بيضة يبلغ قطرها جزءا من ١٢ من البوصة ، وهذا البيض يكون عارفاً قرب سطح الماء . ونحو الجنين في البيض يمكن ملاحظة درجاته المختلفة في داخل البيض (انظر شكل ٦) في الصحيفة التالية ، (شكل ٧) في صحيفة ٣٦



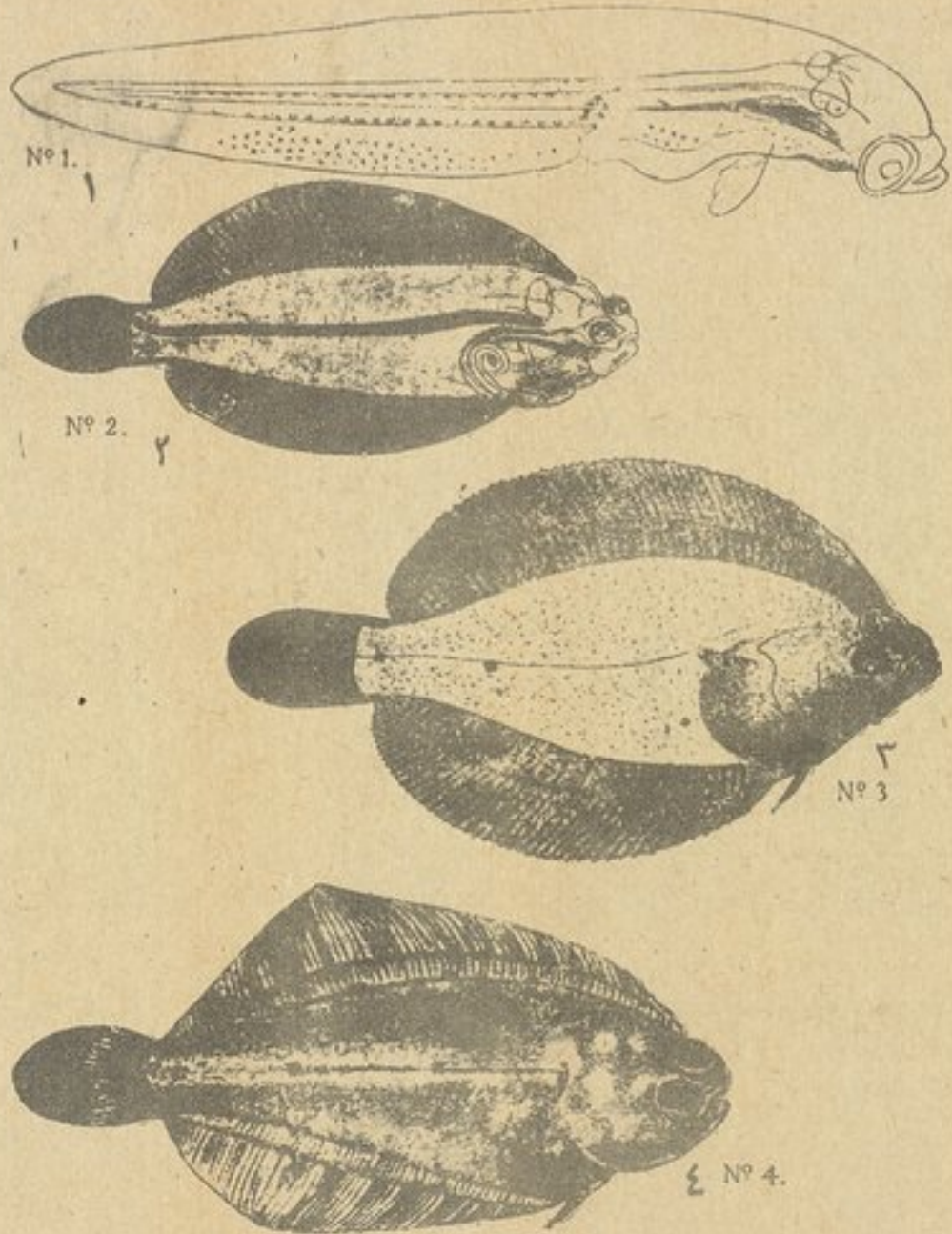
(شكل ٦ - مو صمك بلاس)



(شكل ٧)

نمو السمك بلاس

- (١) إن الصورة العليا اليسرى ترينا جنين السمكة في اليوم التاسع بعد الاقحاح والتقطت الصغيرة عبارة عن حواصل ملونة والحجم الطبيعي أقل من جزء من ١٢ من البوصة .
- (٢) الصورة العليا اليمنى ترينا الجنين مستعدا للخروج من البيض بعد ١٧ يوما بعد الاقحاح. الخلايا الملونة بالسواد أخذت الآن تظهر .
- (٣) والصورة السفلى ترينا السمكة الصغيرة نحو ثلاثة أخماس البوصة وهامى هذه أخذت الآن تأكل المع (صفار البيض) وقد التهمتة جميعه ثم انظر (شكل ٨) في الصحيفة التالية :



(شكل ٨)

- (١) هاهى السمكة الصغيرة تامة مع التوازن المهود فى السمك.
 (٢) ترينا تقريبا واضعا بنجاح، فالجسم أصبح الآن مسطحا من ناحية إلى الأخرى واليمين اليسرى صارت مدورة للجهة اليمنى مائلة نحو الجنب وطولها إلى الآن لا يصل إلى نصف البوصة.
 (٣) سمكة شابة وهو تمييز مجازى وصلت الآن قاع النهزمى تستريح تارة وتقوم أخرى على جنبها الأيسر وقد صار طولها بوصة.
 (٤) سمكة شابة فى قاع البحر وحوصلاتها الملونة قد أخذت تنحو نحو الجانب الأيمن وهى لا تظهر من الجهة اليسرى نحو الجانب الذى هو قصى اللون أما العينان فانهما جنباً لجنب متجهان إلى أعلى نحو الجانب. انتهى المقام الثالث فى السمك.

رابعا : هل أقف عند السمك في الميزان ؟ كلا . بل هناك ما هو أجل منه وهو عالم الحيوان الذي هو أرقى منه، ولقد مر في سور كثيرة في البقرة والأنعام، وسورة المؤمنين، وسورة النور، وسورة السجدة، وفاطر، وسورة حم فصلت وغيرها، وكنت أود أن أذكر هنا الحيوان الذي يعيش في البر وفي البحر كعالم الضفادع تنميا للأقسام، ولكن بمعنى من ذلك أنه قد تقدم مفصلا موضعا بالصور في (سورة البقرة) في الطبعة الثانية فإنه هناك أوضح وأجمل وأبدع مما كتب عنها في (سورة طه) .

ألا ترى رعاك الله أن فيه نوعي الضفادع وكيفية نمو أجنحتها، وحسن إبداعها، وإتقان صنعها، وكيف يرى يعضها في الماء على هيئة الخطوط المتوازية، ولقد فاتني هناك أن أذكر أن الذي حبينى في شرحها أنني حينما نظرت ذلك الرسم خطر لي خاطر كان يسبح لي وأنا تلميذ بدار العلوم، ذلك أننا كنا نتعلم فن الرسم وكنا نرسم خطوطا منتظمة، فكنت في أثناء الرسم أتفكر في (أمرين : أولهما) أنني في هذا العمل أعتبر نفسي في طاعة الله تعالى، وهذا كان شأني في جميع الأعمال .

(ثانيهما) : أني كنت أثناء الرسم أحس كأنني في عالم السموات الذي هو عالم منظم، ورسم هذه الخطوط يذكرني به .

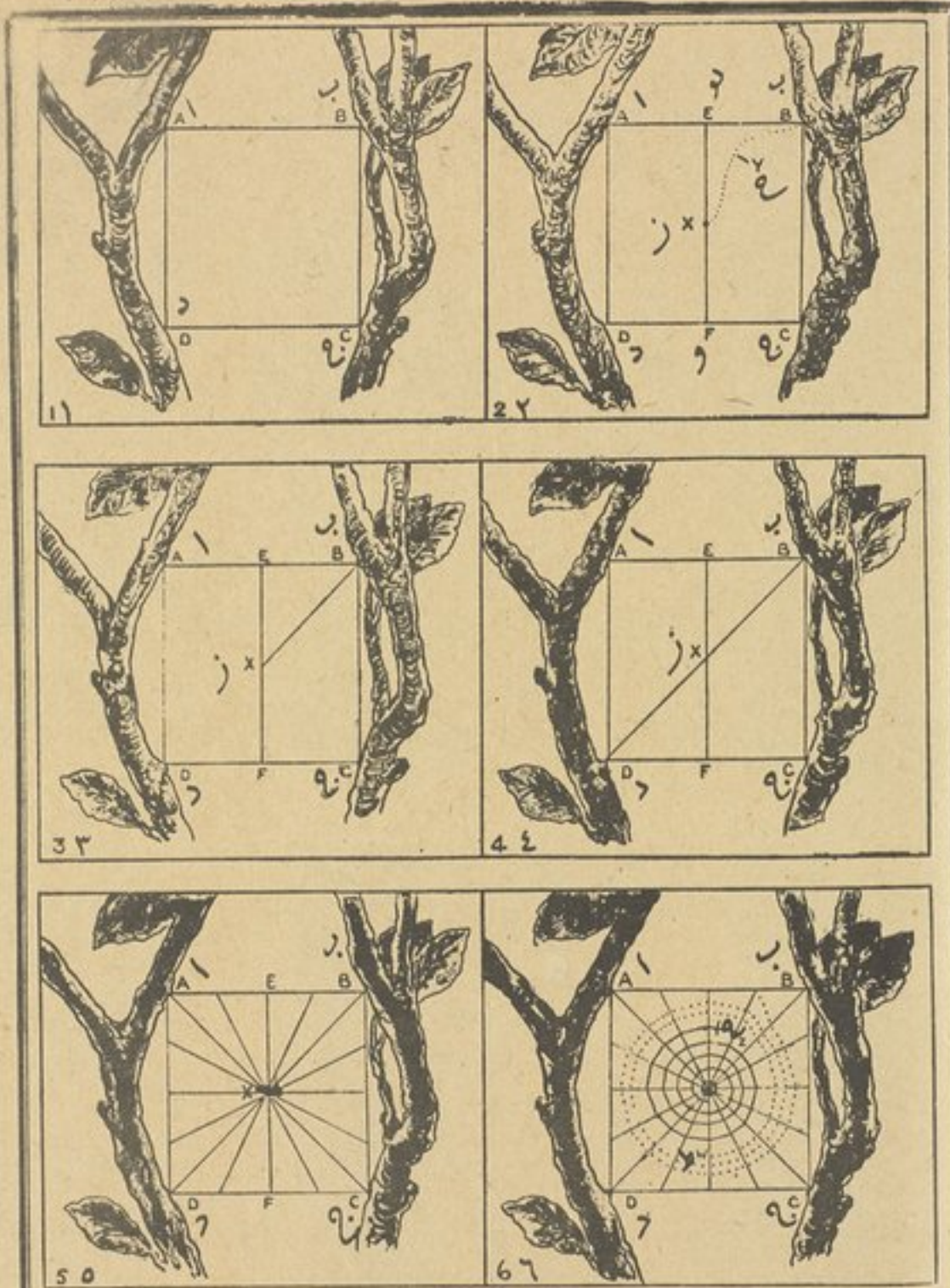
هذا هو الذي كان يدور بخليدي أيام الدراسة، فلما رأيت رسوم الخطوط ليبيض الضفادع المتوازية أذكرني ذلك فرحمتها وشرحتها، والحمد لله رب العالمين .

•••

ولكني لأقف في الميزان عند حد الحيوانات البرية والبحرية . كلا : فلا أتقل للكلام على العنكبوت وهي من الحيوانات التي لا تعيش في غمرة اللأواء، وبهذا نبدأ الكلام على عجائب جديدة لم تكن من قبل ويان أن ماتقدم في الأحجار الثمينة والنبات والسمك والصفادع، إن كل ذلك إلا صنعة لم تر صانعها، فأما هذه الصنائع التي يزيد دراستها البدوء بصناعة العنكبوت (التي لم يسبق إيضاحها في سورته كما هنا) فإن أمرها عجب ! نعم عجب للحكيم، أما الجهال فهم فريقان : فريق هم السواد الأعظم لا يعرفون من العنكبوت ولا من النحل، ولا من الزناير، ولا من النمل إلا ما يمس عواطفهم كراهة وجبا، فيتبرمون من العنكبوت، ويفرحون بالنحل، ويغشون الزناير والنمل :

هذه آراء أغلب نوع الإنسان في أرضنا، ويلحق بهم أكثر أولئك الذين يتعلمون في مدارس الشرق والغرب علم التاريخ الطبيعي، فهؤلاء يقرءون هذه العلوم وأكثرهم لا يدرسه إلا كما يدرس علم النحو أو علم الزراعة كأن أرواحهم لا تعرف إلا الأمور المحسوسة، أما التفكير والتذكر بل السعادة الحقيقية فإنها هاربة منهم، بعيدة عنهم، رحلت من عقولهم، فهم لا يعقلون ولا يسمعون، وفريق آخر وهم أقل هذا النوع الإنساني إذا درسوا أمثال ما سنذكره هنا فإنهم سيدهشون ويقولون نعم رأينا الإبداع في الأحجار الثمينة البلورية وفي النبات وفي السمك وفي الضفادع، لأن الذي صنع هذا هو صانع العالم له فلا غرابة في ذلك، إنما الأمر للدهش أن صانع نسيج العنكبوت هو نفس العنكبوت، وصانع خلايا العسل إنما هو النحل، ويقرب منه الزنبور، وزرى في النمل والنحل بنائين ونجارين، وضباطا وجيوشا ومريين .

فما هذا الحادث الجديد ؟ فهؤلاء يرون أن هذه العوالم ما هي إلا كتلاميذ تربوا في بيت الحكيم ونحت رعايته قلدوه ونحوا نحو عمله، وهل عمله إلا النظام المحكم ؟ مثلا شكل ٩ وهو رسم يأتى لنسيج العنكبوت (انظر الرسم الآتي في الصفحة التالية) :



(شكل ٩)

(١) أربع خطوط أصلية (٢) أول خط رأسى (هـ و) ، (ز) مركز (ح) كيفية صنع الخط الشعاعى
 (٣) : (ز ب) خط شعاعى (٤) : (ز د) خط شعاعى آخر (٥) خطوط شعاعية صنعت أولا
 فى جانب ثم صنعت بعد ذلك فى جانب آخر، وليست هذه الخطوط كلها متساوية، فهنا أخذت العنكبوت تم
 نسجها بإتقان (٦) الخط الأسود الحازونى الأولى للنتف بعضه فوق بعض ينتهى عند (ح) وأما الخط
 الحازونى المنقط : أعنى الخط الثانوى الحازونى فإنه ينتهى عند (ط) .



(شكل ١٠ - نسيج عنكبوت الحداائق)



(شكل ١١)

(نحل العسل حاملا كرات الطلع الصفراء، من هذا النبات المسمى «سم النعر»)

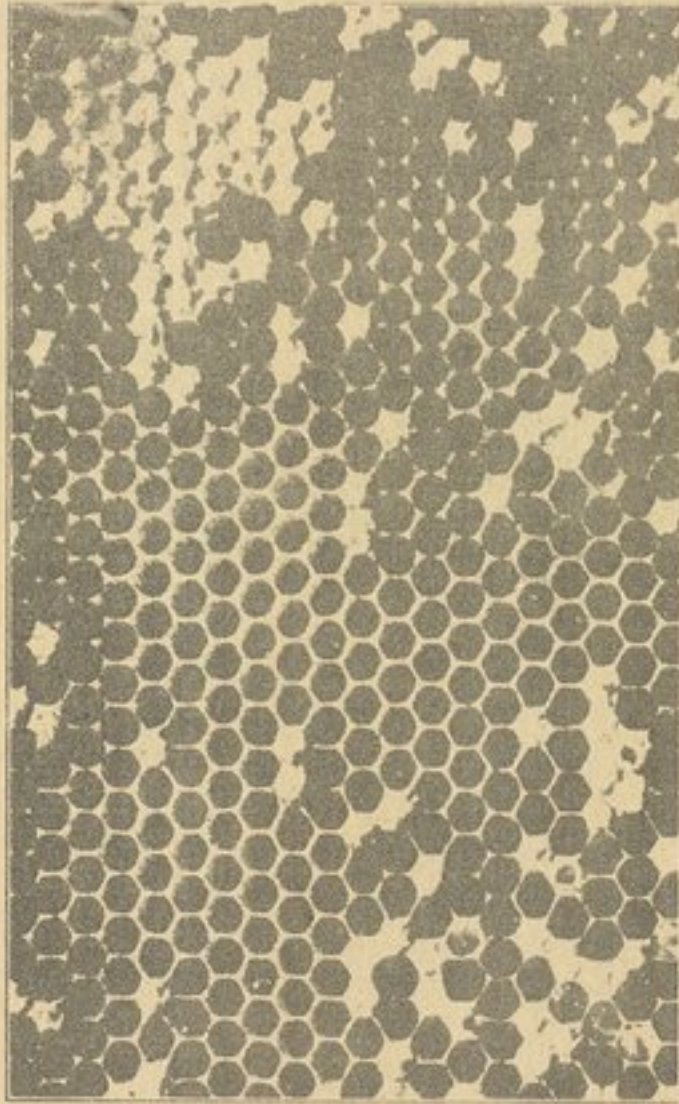
هذه صورة شمسية لنسيج عنكبوت الحداائق ترينا الخط الأعلى الأساسى للنسيج وهو لزوج وهذا النسيج جالس في الوسط وربما غادرت العنكبوت ذلك المركز وحينئذ يحمل معه خيطا بسيطا به يقدر أن يميز أى ذبذبة تعرض في النسيج فكأنها أشبه بآلة التلغراف البرق. انتهى الكلام على القسم الخامس سادسا وهذا القسم ليس كافيا لمعرفة الليزان فهنا نبدأ في الكلام على النحل فنقول:

نبتدى بذكر نبات يسمى سم النعر يشتر منه النحل العسل وهذه صورته

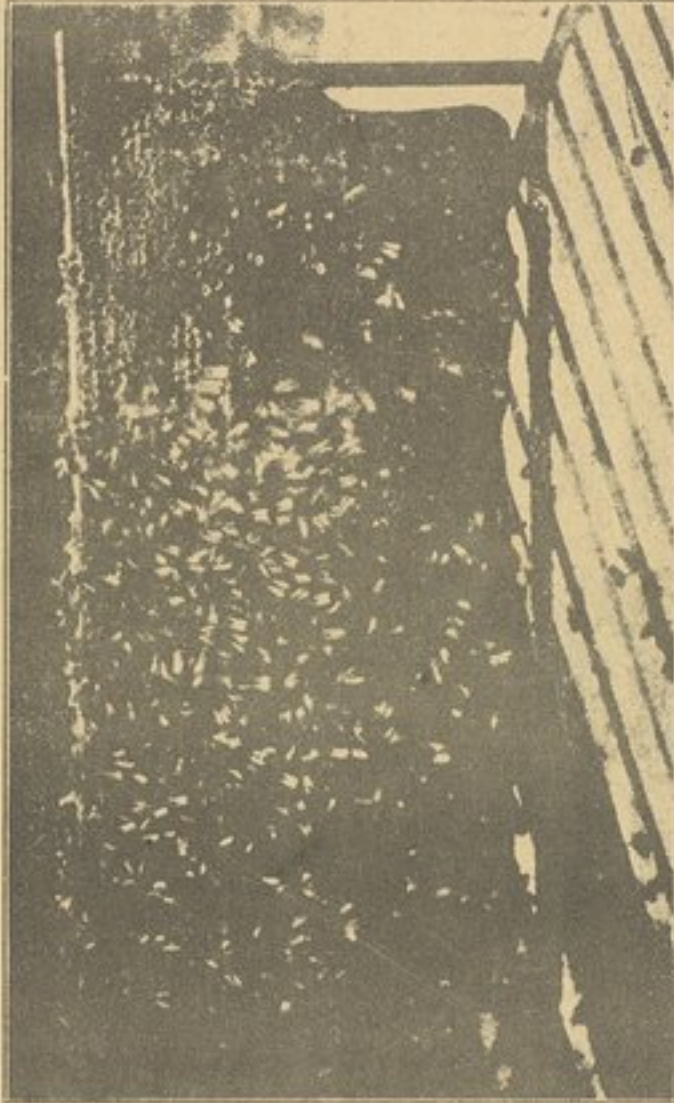
انظر شكل ١١

هاهو ذا نحل العسل حاملا كرات الطلع الصفراء من هذا النبات المسمى سم النمر بالعربية وهو
بالعربية تابد الشمس .

إن بعض الأزهار يجمع منها النحل ما يصير في باطنه عسلا ، وبعضها يجمع منه ما يصير غذاءا للذرية
الصغيرة ، وهي الدود في الخلايا ؛ وهناك أزهار تصانع للحالين معا ، ويوضع ذلك (شكل ١١) للتقدم ،
ثم انظر شكل ١٢



قراص عريضة قراص النحل مع خلايا تحوي دود عاملات النحل
وهي التي تسمى عادة الشغالة
(شكل ١٢)



(شكل ١٣ - قرص غسل النحل يشتمل على ذكور النحل وعاملاته والخلايا التي فيها العسل)

إن الخلايا التي تربي فيها العاملات من النحل هي الصغريات ، أما التي ينمو فيها الذكور فانها أوسع ،
وأما التي فيها الملكات فانها أكثر اتساعا ، وليس في فقير النحل ما يزيد على ست ملكات .
إن الخلايا الحازنات العسل تساوى في حجمها الخلايا التي تربي فيها ذكور النحل ، هذه القطعة من
قرص العسل موضوعة وضعا رأسيا عموديا .



(شكل ١٤ - عش النحل الحجري)

في هذا العش قد زرع الغطاء الرقيق من فوقه يظهر الفرس وخلاياه ، وقد كسرت خليتان من أعلام الدودات الصغيرة السمينة البيضاء ، وهي ذرية النحل ، إن هذه النحل تعرف بنقطة حمراء في انتهاء دبل جسمها الأسود ، وهي لاتصنع عشا أبدا إلا تحت الحجر ، ثم انظر شكل ١٥ وهذه صورته :



(شكل ١٥ - هذا عش للنحلة المنفردة وحدها في هيكل قوفة الخدائق)

ترى في الشكل للتقدم (شكل ١٥) نوع النحل الذي يعيش في عزلة منفردا عن غيره ، ولن يعيش إلا في مكان محوف ، والقوقعة الوسطى تربك نحلة حديثة الولادة قد خرجت حالا من شرفتها ، والصورة اليمنى عبارة عن قوقعة قد كسرت فظهرت فيها الدودة الصغيرة التي تنقلب فيما بعد ذلك شريقة ، وفي كل قوقعة دودتان دائما إحداهما ذكر والثانية أنثى .



العليا النحل المستقل بنفسه قطع الورق الذي حجمه بقدر حجم محل القفير يقطع الورقة ليتخذ منها بهذا القطع خلية انظر النحلة تعمل وترى في الجزء الأعلى الأيمن من الورقة فجوتين مقوستين مرتبتيين منظمين وقد قطع منهما أجزاء من الورقة والحللة تراها في إحدى الفجوتين وقد حفر تحت جسمها .



(شكل ١٦)



(الوسطى) ههنا النحلة تعمل قطعة من ورقة الورد للخلية ثم الخلايا مركبات من قطع من الورق مقوسة على بعضها والأغطية مصنوعة من القلع الصغيرة :

الخلايا نامة

(العمل) الأعشاش مصنوعة في التحاويف والخلايا مرتبة منظمة . آخر كل خلية متصل بآخر الأخرى يظهر من الشكل : إنها لمسطحة مما صنعت : إن كل خلية مملوءة إلى نصفها باللقاح ، وتحتوى على بيضة مفردة ثم انظر شكل ١٧ في الصفحة التالية .



(شكل ١٧ النحل الثاقب للخشب متعلقاً بحكه في حالة سكون)

هنا النحل ثاقب الخشب أو النحل النجار يمضي فصل الشتاء في حالة حياة موقوفة لا يعمل له الهم إلا انه عادة يبحث عن زاوية ليتخذها مأوى . ثم انظر الشكل الآتي في الصفحة التالية .



(شكل ١٨ - خلايا النحل ثاقب الخشب)

هذه الخلايا العريضة التي صنعها النحلة القوية المتينة مصنوعة من قطع خشبية قد انسقت وانتظمت بواسطة اللعاب الذي يفعل فعل الغراء . ثم انظر شكل ١٩ الآتي في الصفحة التالية .



(شكل ١٩ - النحل الثاقب للخشب وهو خارج من خليته)

هذه الخلايا التي ينمو فيها جنين النحلة تكون عادة في أروقة مستطيلة بمرئيش أساسي مثقوب في الخشب ، وهذه التي ترى في أسفل الصورة مفصولة من مركزها الطبيعي والنحل الجار (كما يسمى عادة) أدكن اللون ذو شعر وهو معزلة مستقل له قوة عضلية ، وهو بها قوى متين ، ثم انظر شكل ٢٠ وهذه صورته :

هذا الشكل أبان

خليتين ونخلتين ، النحل

البناء المستقل المنفرد قد

صنع عشا في غاية الثانة

والقوة من الأرض مخلوطا

بسائل من ريقه وهذا

الريق يستعمل للعق

الحصيات الصطفيات

بمخفق ومهارة تامتين ،

إن الخلايا حينئذ مملوءات

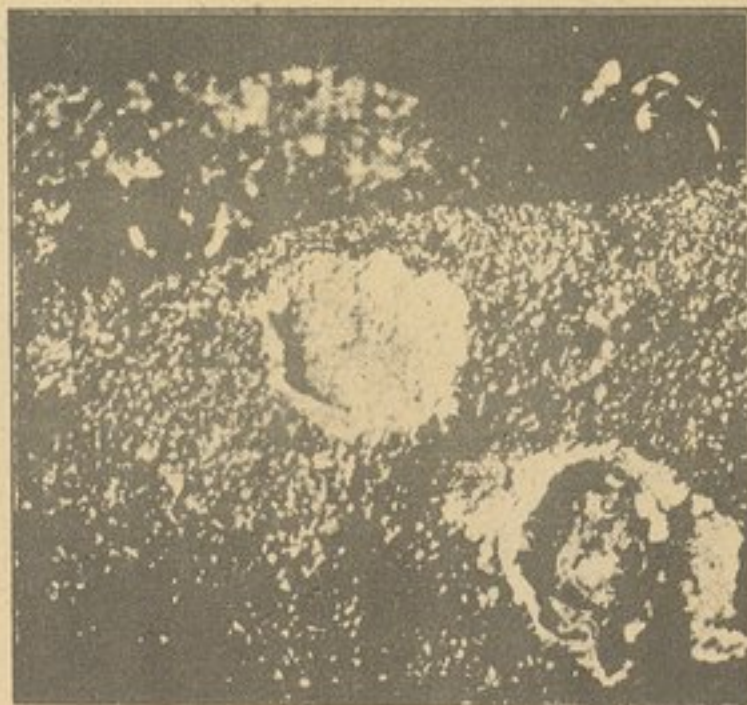
إلى أنسافهن بنوعين مما

جنته النحلة وهما الطلع

والعسل وبعدها أن توضع البيضة

تقفل الخلية بمادة الأممنت .

اتهي الكلام على النحل .



(شكل ٢٠ - النحل البناء)

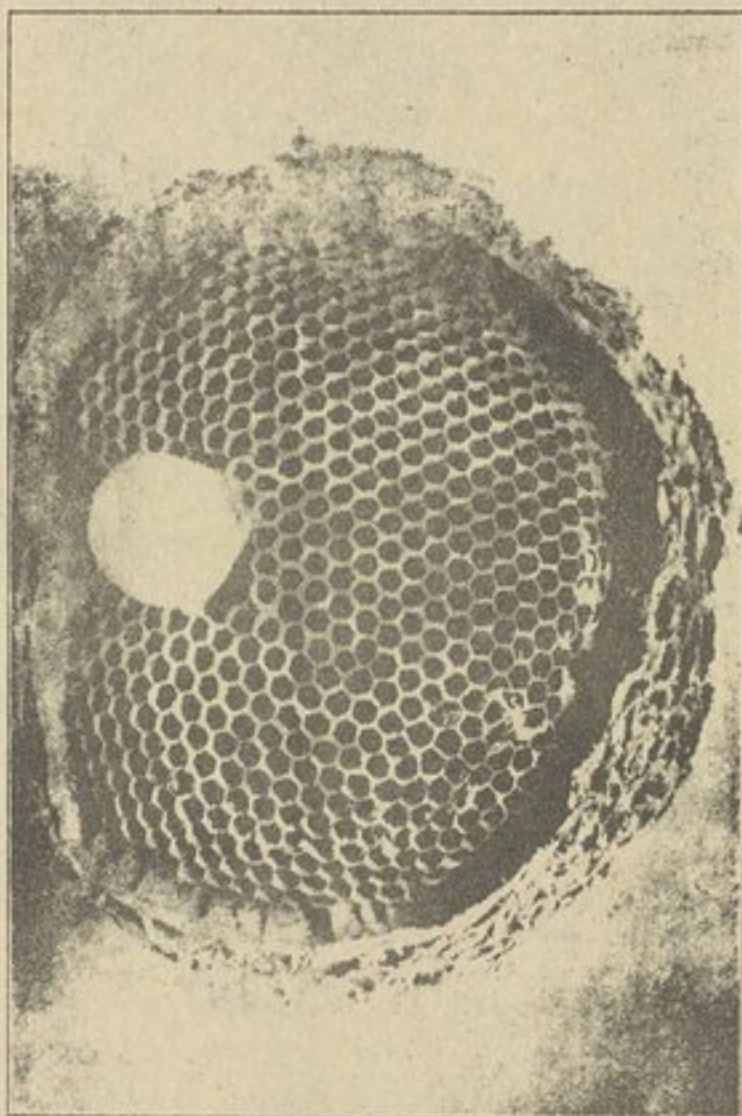
الكلام على الزناير



(شكل ٢١ - عش زناير الخشب)

إن عش هذا الزناير للعناب يبنى من أعصاب الأشجار ، أو من الأخشاب ، وهذا قرص معلق على آخر

بواسطة حامل عمودي، والخلايا مغطاة بأغشية مصنوعة أشبه بورق الكتابة عند الإنسان (وقدمت في سورة طه) أن الزنبور صنع الورق قبل الإنسان، وهذه الأغشية تمنع الطرآن بدخل الخلايا وتحفظ الحرارة في داخلها فتبقى دافئة، ودرجة الحرارة في داخل الخلايا قد تكون أعلى منها في خارجها ٣٥ درجة بميزان فهرنهايت: الخلايا تكون مفتوحة لأجل إدخال الطعام للدود الصغير وهو ذرية الزناير، فإذا كبر الدود أخذ يتسج شرقة ويقفل باب الخلية إنفلا من أعلاها إلى أسفلها. ثم انظر (شكل ٢٢) وهذه صورته (١)



(شكل ٢٢ - قطعة من العسل: أو فرس الزناير من بلاد البرازيل متصلة بغصن من الشجرة)

إن الصورة الشمسية (الفوتوغرافية) تزيينا طبقات بالعسل فتحفظه من الماء والهواء، وفي داخل خلاياه المدسة الأشكال، ينمو البيض فينقلب ما في داخله إلى دود، والدود ينقلب شرانق (فيلج) والفيلج يصير زناير كبيرة، والدائرة البيضاء التي تراها عند أسفل العسل عبارة عن غصن مقطوع ثم انظر شكل ٢٣ الآتي في الصفحة التالية.

(١) هذه الصورة كلها وما شرحته به قد ترجمته من مجلة (التاريخ الطبيعي الجديد) الباحثة في عجائب الأرض المدهشة، عجائبها الطبيعية لصاحبها الأستاذ الإبروفسورا (ارثورنومسون):



(شكل ٢٣ - عش الزنبور البناء)

الزنبور البناء يصنع عشه من الطين في شقوق الحيطان ، ويكون العش غالبا بهيئة طينية خشنة بحيث ترى على وجهه لطع من رشاش الطين غير منتظمة ، وهذه تكون سببا لنجاة الزنبور من أن يراه أعداؤه ومع ذلك نرى العش مبنيًا بمهارة فائقة ، حافظًا لعناصر بنائه مثبتًا لها ، وترى دود الفراش (الذي لسه الزنبور فلقحه بسمه قد أصبح مشلولًا عديم الحركة) محزونا في الخلايا ليكون قوتا للذرية فيها ومتى خزن ذلك الدود للشلول في الخلايا سدها الزنبور ، وهذه الصورة تظهر اثنتين مقلتين على الذرية وعلى قوتها ، فأما غيرها فلم يكمل . وإلى هنا تم الكلام على الزناير ، والحمد لله رب العالمين .

الكلام على النمل

لقد تقدم الكلام على النمل والنمل والمنكبيوت في سورهن . ولكن مارسنا ههنا أو كتبناه لم يتقدم نظيره وهو هنا تفسير للميزان العام

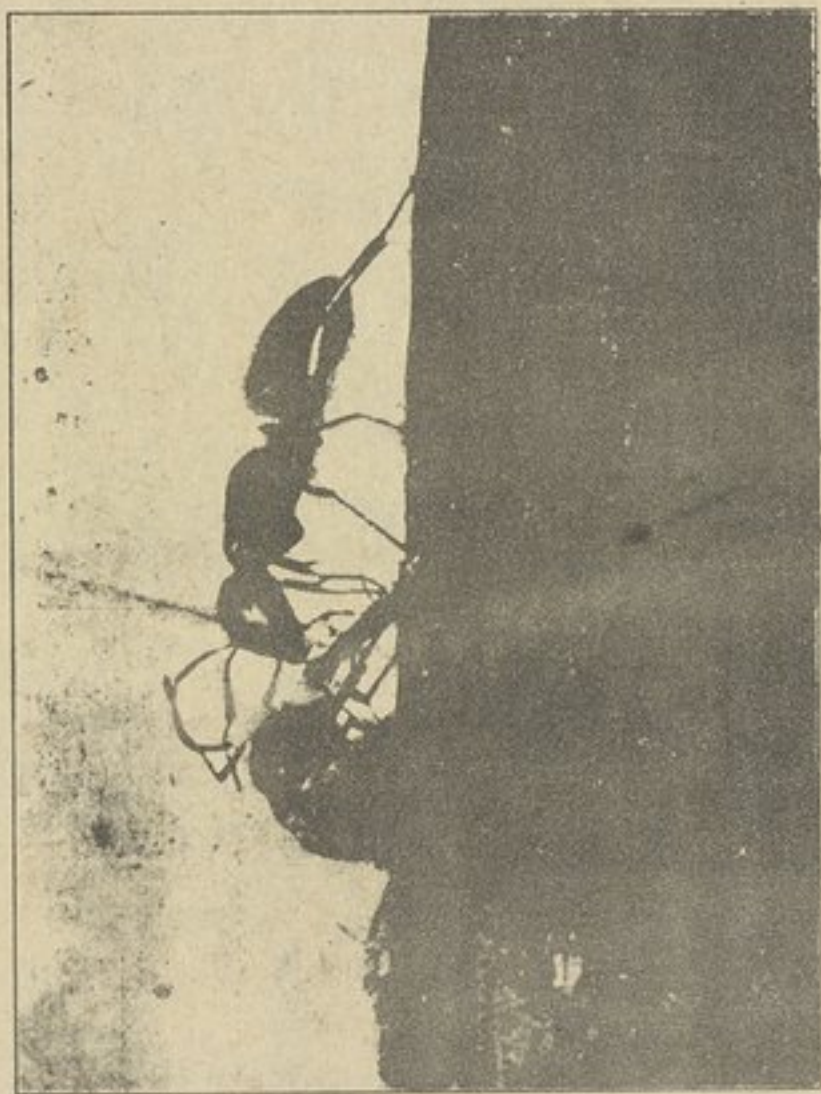


(شكل ٢٤ - عش نمل الحشب وهو ثلاثة أقدام ارتفاعا)

إن هذا العش النمل المعتاد المصنوع من الحشب مبنى من إر الصدور وقطع من المعى، وهو غالبا فوق التعمين ارتفاعا والمحيط الدائري أربعون قدما ، وترى حبر لاحصر ليددها وطرقا شتى في القبة نفسها وفي الأرض من تحتها ، وطبعا هناك الآلاف من الكائن والمداعل الكبيرة إلى القبة تقفل عند غروب الشمس ، ولعل ذلك تدفع الأعداء الصغيرة من الدخول فيها .

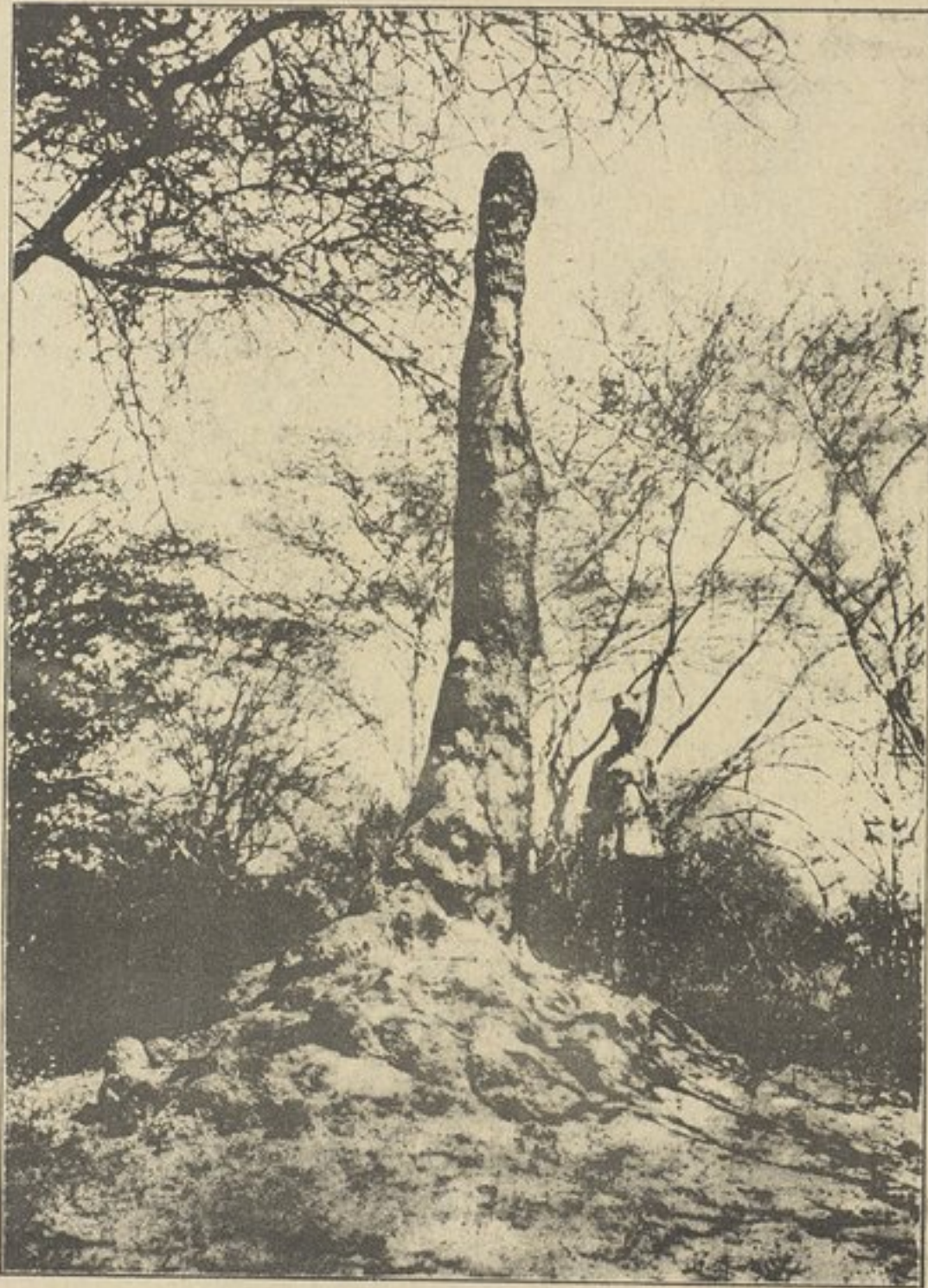


(شكل ٢٥ - نمل تسوم ماشيتها ، وهي طائر صغير أخضر على عصف من عشب وهناك أنواع من النمل تستعمل هذا الطائر الأخضر للسمي (أفيد) كأنه قطمان ترعى تحت نظرها في هذا الشجر للسمي جوزبري)



(شكل ٢٦ - النمل النجار في عمله)

النملة التي في جهة اليسار الواقفة في مدخل العش المتخذ في الخشب هاهي ذه تسلم قطعة من الخشب
للمامل (العنكب) جهة اليمين الذي شرع يحملها ليلقيها بعيدا .



(شكل ٢٧)

هذا البرج الموحش الغريب الحلقة قد شيده النمل الأبيض في شرق أفريقيا، إن النمل الأبيض ليس من أنواع النمل الحقيقي . كلا ، ولكنه يشبهه في أطواره ، فترى فيه أخلاق الملكة والدكتور ، والنمل القائم بالعدل والعسكر إن البرج في هذه الصورة الشمسية صنعها النمل من مواد الأرض بعد أن مضغها بفكيه وعجنها بريقه : انتهى ما أردت ذكره في آية «والسما رفعتها ووضع الميزان» والحمد لله رب العالمين .

هذه صفحة من مناظر هذا العالم الذي نعيش فيه ، هذه صفحة جميلة بهجة . يألفه ما أجمل صنعك . وأبداع إبتفانك ، نظمت الأحجار الثمينة الجامدة فجعلتها أشبه بالبلور في تسديس أشكالها وإبتقان نظامها وجمال هيئتها . أربتنا في هذا الزمان بواطن السمك فدرسنا أعضائه الباطنة مفصلة عضوا عضوا بما أعطيتنا من نعمة التصوير الشمسي وفاء بوعدك : «سربهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم» وذلك لتعرف معنى اللبزان ومن أعجب العجب ، وأبداع الخلق ما زادني حيرة ، وأحدث في نفسي نار الشوق العلى وهو أمر ذرية الضفادع (التي تقدم صورها والكلام عليها في الجزء الأول من الطبعة الثانية من هذا التفسير) . ألا ترى رعاك الله النوع الأول الذي يترى بيضه في كرات هلامية تلازمه في قاع البرك والمستنقعات ، وهناك يكون للبرزان فكلاهما ازداد الماء تفلأ ازدادت السكرات الهلامية اتفاحا حتى تقاوم ذلك الثقل فتترفع ، أليس من عجب أننا نرى رحما موضوعة في الماء خارج الحيوان ، وهذه الرحم فيها قوة تجعلها مناسبة لما يحيط بها فترفعه بقانون مسنون .

وأعجب من هذا أن نفس هذه السكرات الهلامية إن هي إلا سجن سجنت فيه تلك الذرية ، فهي من جهة رحم لها وحفاظ ، ومن جهة أخرى إذا طال عليها الأمد وقفس الحيوان كانت شرابا ويلا عليه وعذابا أليبا ، وهلاكها حاضرا . فماذا فعلت تلك الحكمة بموازيتها ؟ فقلت معها ما فعلته في دول أوروبا بالنسبة لبلاد الإسلام . ذلك أن أوروبا في هذه السنين أرادت أن تستحوذ على بلاد الشرق وخصوصا بلاد الإسلام . وهل كان أعدى عدو لهذه الأمم إلا دولة الروس التي بمناواتها لبلاد الصين من جهة وبلاد الترك العثمانيين من جهة أخرى فتحت الباب لفرنسا وانكسرت فأوغلتنا في بلاد الإسلام إهلاكا وتدميرا وإذلالا ، فماذا فعل الله بأوروبا ؟ أخرج لها أناسا من بلادها ، فأحدثوا الرأي الاشتراكي ثم البلشفي ، وهذه البلشفية اليوم أخذت حقها في بلاد روسيا ، وهذه الدولة الآن هي التي منعت عن بلاد الشرق والإسلام شرها ، وساعدت على استقلال بعض الأمم ، فصارت أوروبا أشبه بمجد قوى أخذ الداء يفتك فيه من نفسه في داخله وهذا هو نفس ما حصل في بيض الضفادع ، ذلك الذي أحاطت به كرات هلامية فرقته بمقدار ، ولما انتهى عملها مزقت كل ممزق كما تمزق للشيمة عند ولادة الطفل ، وما الذي يمزقها ؟ هي تلك الحشائش الدقيقة التي لا يراها وما يلازمها من حيوانات ذرية ، فهذه كلها تفتك بتلك السكرات فيخرج الجنين سلبا معافي من كل شيء يؤذيه البرزان واحد ، فهو في سياسة الأمم نظيره في سياسة الأفراد ، مزقت كرات أجنة الضفادع بمخلوقات نبتت في باطنها ، هكذا الأمم الظالمة يكون هلاكها بتفريق كلمتها : « ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون » .

مسامرة

هنا حضر صاحب العلامة وقرأ هذا الموضوع فسرأ بما سرور ، وأعجب بالصور الشمسية والتعليق عليها وقال هذه صفحة جميلة أبانت لنا الضار كالزبور ، والنافع كالنحل ، والأحجار الثمينة ، والحيوانات الجميلة وأدركنا كيف تنسج العنكبوت مسكنها وهو نفس شبكتها ؟ وكيف تكون لزجة جميلة ؟ وهذه الصورة الشمسية الأولى من صورته تربنا أن عمله في بناء بيته يشبه أعمال النساجين ، إذ يبتدون بالسدى ويقفون باللحم ثم كيف رأينا الزناير يجوزها دود يكون بجانب ذريتها على شريطة أن يكون في حال شلل فأحضر له الأبوان دودا على هذه الشريطة وبقى حتى قفس البيض وخرجت الذرية وعندها غذاؤها ، ولا علم للأبوين بها ، أليس هذا هو البرزان والعجب العجاب ! وكيف كان من تلك الحشرات بناء ونساج وثقوب خشب ، وقاطع ورق ، ومتخذ من نحو الجبال بيوتا ، ومن القواقع ، وكيف رأينا منة ما يعيش وحده كالعرب في البادية

ومنه ما يعيش جمادات ، هذا عجب عجاب ! قلت نعم قد درك ، إن لليزان مجعها ، وباليزان كان الصر في الزنبور ، والنفع في النحل واجتماعهما في الأرض عندنا واجتماع كل صديق من خير وشريكه يكون استغراباً لقوانا وملكاتنا ، وتذكرة للعقلاء ، وبصيرة للحكام . إن غرائز الحيوان وعجائبه جعلت في الأرض بصرة وتذكيراً ، إن الجسم الإنساني يعوزه ملبس ومسكن وغذاء ودواء وهواء وماء ، فهذه كلها قوام لجسمه ، هكذا قوام عقله يكون بدراسة هذه المخلوقات ، فظواهرها لجثائه ، وبواطنها لروحه ، فإذا قصر في أحدهما فهو للسؤل .

تربية الأمم الإسلامية في مستقبل الزمان

ثم قلت : أيها الأخ الذكي ، إن بناء جسم الإنسان تابع لما يتفدى به ، فإذا أكل ما كل رديشة ضارة فالضرر لاحق بجسمه ، وضدها تتميز الأشياء . هكذا غذاء العقل إن كان صالحاً صلح وإلا فلا ، والغذاء الصالح لعقول أمم الإسلام في تربيتهم هو هذه العجائب ، فإنهم إذا درسوها صارت تلك الدراسة مهيماً لعقولهم ، فتكرار تلك الباحث وتواردها على العقل شيئاً فشيئاً يجعل العقل يصلح ، ويكون أشبه بتلميذ عاشر حكماً فقلده ، وأي حكيم في العالم يضارع صانعه ، فمن راض عقله من الصغر على هذه المشاهدات أصبح عقله مرتاضاً على الحقائق ، مفيداً لغيره ، نافعا لنوع الإنسان . إن كتاب الله المجهم دل عليه كتابه المنزل فقال : « ووضع الميزان » .

درجات الحيوان في الإدراك ودرجات الإنسان

إن هذا الذي يشاهد هذه العجائب وقد مرن عليها ينظر فيجد غرائز الحيوان ترتقى من أدناها إلى أعلاها ثم يرى من الحيوان ما يقبل التعليم كالكلب والأعنام وبعض الطيور ، ثم ينظر فيرى منها ما يقبل الإنسان بدون أن يعلم ، فهذا أرق مما قبله وأعظم وهو القرد ، ثم ينظر فيجد نوع الإنسان يرتقى من أدناه ، وهم الذين يقربون من القردة إلى أعلاه ، وهم الذين يقلدون صانع هذا العالم في إتقانه البديع . إن الإنسان اليوم بلغ في العلم حد للراهنين ، لأنه أخذ يتلس الحقائق ، ويدرس الحيوان ، ويتقن أثر صانع العالم اقتفاء ما ، فما هو ذا أخذ يطير في الجو ، ويقطع السافات سريها ، واخترع وأبدع أيما إبداع ولكنه لا يزال في مبدأ الليدان ، نظر هذا الإنسان فلم يكن نظره قاصراً على بناء بيته كالعنكبوت ، ولا على مله خزائنه بالغذاء كالنحل والنمل ، بل فكر في هذا العالم كله ، لأن روحه من عالم فوق هذه المادة . لماذا فصل ؟ فكر فرأى الصور حوله ثلاثة أقسام ، لأنها إما صور مركبة من مادة محسوسة تحيط به . وإما صور حملها الضوء فوصلها إلى العيون ، وإما صور في الهواء بهيئة حروف شكلتها الأصوات فوصلت إلى الأذان . هذه صور العالم كله الذي يعيش فيه ، نظر الإنسان فرآه محوطاً بهذه الصور . فألطفها الصور الضوئية وأغلظها الصور المادية ، وأوسطها الحروف والكلمات في الهواء . درس الإنسان الجماد والحيوان والنبات والسماء والأرض فكانت علوم وعلوم تقدمت في هذا التفسير كالتالي في (سورة الروم) عند آية : « فطرت الله التي فطر الناس عليها » وكالتالي في سورة الم السجدة وكالتالي في سورة لقمان عند آية : « ولقد آتينا لقمان الحكمة » . أوليس من العجب أن الحروف والكلمات التي يحملها الهواء صور تعبر عما فوقها من الصور النورية الواصلة إلى العيون وعما تحتها من صور النبات والحيوان . درس الإنسان علوم التاريخ الطبيعي وعلم طبقات الأرض ونحوها ، وهذه هي الصور النظيفة ، واستخرج لها موازين من الليزان الذي وضعه الله

علم ودرس الصور في الهواء، وهي جميع اللغات؛ واستخرج لها موازين كإرفع الفاعل ونصب المفعول في النحو في اللغة العربية، وكالأبواب الستة في الفعل الثلاثي وهي باب نصر وضرب وفتح وعلم وشرف وحسب وكوازين اسم الفاعل واسم المفعول وهكذا في الصرف، وكالمسند والمسند إليه، والتقديم والتأخير وأحوال متعلقات الفعل، والتذكير والحذف والحصر، والفصل والوصل، والإيجاز والإطناب والمساواة في علم اللغات وكالتشبيه وأقسامه، والحجاز وأنواعه، والسكتانية وفروعها في علم البيان، وكالجناس والطباق في علم البديع وكما وضع موازين للصور الحرفية الهوائية أخذ يضع موازين للصور العقلية، وابتدأ بالمنطق كما تراه موضعا في (سورة الروم) بهيئة عامة تسر الناظرين. ولعلم النفس كما في كتابنا (نظام العالم والأمم) ولعلم السياسة العامة، ولكل شأن من شئون الحياة جل أودق، ومن ذلك أنه حسب الأجرام الفلكية بما انبث منها من صور ضوئية، فوصلت إلى شبكية العين، فأدركها العقل، فكان علم التكوين، وعلم النجوم والمجرات والسدم العظيمة، كل ذلك تمبر عنه الحروف.

الله أكبر: إن للإنسان سبع قوى مدركات: ثلاث عليا، وثلاث سفلى، وواحدة هي واسطة العقدة النظيم، أما الثلاثة العليا فهي البصر والعقل والقوة القدسية التي اختص بها الأنبياء والمهمون. وأما الثلاثة السفلى فهي اللس والدوق والشم، وأما الوسطى فهي حاسة السمع وهي التي اختصت بإدراك صور الحروف المعبرات عن الأقسام الست أعلاها وأدناها.

هذا ملخص نظام هذا الإنسان، وهو الذي أدرك أدق الأشياء من الكهربياء والمغناطيس والراديو وخواص أخرى لا يزال يترقى فيها، وهو الآن في مبدأ الرقى، وهناك هناك معال ومدارج هو فيها ساثر إلى الأمام، فبالت شعري أي مناسبة بين ما رأيناه في صناعة العنكبوت والنحل والنمل وبين ما عرفناه من صناعة الإنسان؟

الله أكبر: إن الإنسان لم ينل هذه النعم العظيمة إلا بدراسته غرائز أصغر الحيوان، لأن من لم يفهم الأدنى لا سبيل له أن يدرك الأعلى، ومن جهل القدمات حرم النتائج، فهذه الأمم التي ارتقت في مدارج الحياة العلمية هم الذين درسوا أصغر المخلوقات الترية التي هي بعض قوله تعالى: «ووضع الميزان ألا تطغوا في الميزان».

فانظر إلى أي حد بلغ الإنسان في أمانيه وهو مسرع إلى الأمام طار في الجو وفاق الطيور، وهاهوذا يسارع إلى المعالي، يقول في نفسه: لماذا لا أصل إلى القمر؟ لماذا لا أصل للريخ؟ فهل هناك ما يعنى وأي عائق يقف في طريق ذلك إلى المصاعب وفتحت لي المعائل، ففتحت في قاع البحر وطرقت في الجو. كل ذلك بمعرفة الميزان، إن الطيارات التي أطير بها لم تسكن في أول الأمر إلا للعبات للصبيان، إن غريزي التي غرست في قدكمن فيها كل شيء، أنا من عالم أعلى أوحى الله إلى غريزي وأنا طفل أن أطير في الجو طيارات لعبا ولهو لأن نفسي من عالم أعلى فلعبها يشير إلى ما كمن فيها، فأخذت أدرس الطيور. فاستنتجت منها علم الطيارات. ثم أرى الناس يطلقون السهام النارية للهو واللعب فلماذا أقف في الارتقاء على الطيارات ولماذا لا أرتقي أعلى وأعلى؟ ولماذا لا أجعل هذه الصواريخ حاملة لجسمي ولأمتعي، ألسنت أنا الذي كنت أسير في الأرض على قدمي فرأيت الخيل والبغال والحمير فخطر لي أنها تحملني فحملتني، ثم رأيت الورق وخفيف الخشب يحوم في البحر فصنعت المراكب وسافرت عليها، ثم رأيت القدر على النار يرتفع فيها البخار فإذا كانت القدر مغطاة رأيتها تضطرب وترتفع، فاستنتجت من ذلك أنها تساعد على الانتقال في البر، ثم كانت الطيارات كما تقدم فلماذا لا أجعل الصاروخ مركبي وحامل أمتعي أنا فوق الجميع الموازين أمامي فلا أدرسها أنا هنا في الأرض خليفة الله استخلفني، وركب في العقل وقال لي فكرك واعمل، وهذا هو الذي

يجد فيه العلماء اليوم فانظر ماجاء في جريدة الأهرام يوم ١١ أكتوبر سنة ١٩٣١ م ، واعجب كيف يكون هذا في وقت كتابة هذا المقال ، لأجعله بهجة لجماله ، وحلية بهية في نظامه وهذا نصه :

عصر الاختراع والاكتشاف

السهم أو الصاروخ . معجزة هذا القرن

الصاروخ أحدث استتباط لا يزال رهن التجربة ، قد يزال الوقت ويلاشي الأبعاد وينقل البريد بسرعة عشرة أميال في الثانية ، وقد يوصل الناس إلى المريخ ، ويستأصل الحروب أو يزيد لها هولاً وويلاً : فبدك معالم الحضارة دكا ، فهي بلغ حد السكك الحديدية ينقل الناس عن التراسل بالبريد أو البرق ، وعن التخاطب بالتليفون ويعتمدون على الصاروخ فينقل رسائلهم من أميركا إلى أوروبا في نحو خمس دقائق .

فلا تعجب أيها القاريء الكريم ، ولا تقل ان زمان العجائب قد مضى فان عصر عجائب العلم لا يزال في أول عهده ، وقد أرانا في الأعوام القليلة الماضية العجب العجيب ، ولكن الصاروخ هذا سيكون أعجوبة القرن العشرين بدليل التجارب السرية التي أجريت في ألمانيا وروسيا وأميركا .

إن هذا الصاروخ الذي كان فيما مضى من السهام النارية التي يطلقها الناس في الفضاء احتفالاً بعيد ، أو تسكيراً لبطل فاتح قد أصبح بعد أن تناولته يد العلم ، وأتقنته الهندسة ، وأحكم تركيبه الدماغ المبتدع من أعجب ما استنبطه العقل الإنساني ، فالراديو والطيارة ، ونقل الصور بالراديو : والمدفعات الأخرى التي آخفنا بها هذا الجيل سوف تصبح من التوافه بالنسبة إلى الصاروخ ، فهو سيحدث انقلاباً هائلاً في وسائل النقل والطيران والحرب ، وما بدأ منه حتى الآن رسم لنا صورة المستقبل كالسفر إلى القمر والمريخ . والدوران حول الكرة الأرضية في أقل من ساعة ، فإذا خامر القاريء الشك فيما تقدم بيانه (وهو سيشتك في انكاره دون ريب) فإني أنقل له ما قرأته عن ذلك ليزول ما به من الارتباب ، فإن أعظم الأدمغة في العالم قد رهنت مؤخرًا بما لا يقبل الريب على أن يحقق ما ذكرته ليس بالحدث البعيد ، فإن مشاكل هذا الاختراع الأساسية قد انحلت ، وأهمها مشكل الجاذبية لاختراق الفسحة السكائنة بين عالمنا والعالم الأخرى : فمن مضى أشهر معدودة أطلق سهم هائل في الجو على مقربة من برلين فبلغ الطبقات العليا وعاد بعدئذ إلى الأرض . وكان ارتفاعه عظيمًا جدًا ، مع أنه لم يكن فيه من الوقود سوى جزء من أربعين جزءاً مما يسمه ، وقد وافقت الحكومة الألمانية مبتدع هذا السهم على القول أنه لو جهز بكيفية وافية من الوقود لاجتاز مسافة ألف ميل في أعماق الجو ، وقد قال الأستاذ (هرمان أوبرت) الألماني أنه أطلق واحداً منها مؤخرًا وركب فيه آلة تدفعه من ذاتها ، فبقي محلقاً في الفضاء أكثر من ساعة ، والصاروخ الأستاذ أوبرت قوة دافعة تضاهي قوة دفع القطار الحديدي الكبير تولدها فيه آلة تماثل زجاجة اللبن الصغيرة ، وهذا يدلنا على القوة الهائلة الممكن توليدها في الصاروخ متى تم للقائمين باتقائه أمر وضع مولد كبير للقوة فيه ، ومن التجارب التي أجريت في أميركا التجربة التي قام بها المستر (روبرت جودارد) فقد أطلق واحداً من هذه السهام التي تحمى الأنابيب فلت على الأرض ستين ميلاً ، وقال بعد ذلك إنه قد اكتشف السر العظيم الذي يمكنه من ارسال صاروخ إلى القمر ، وجرت مثل هذه التجارب قبل ذلك في روسيا ومبتدعها الأستاذ (فيودوروف) وهو الآن يعمل لانتقامها تحت رعاية حكومة السوفييات في إدارتها الخاصة بالمواصلات الجوية ، ومثله فعل الأستاذ الروسي (زبولوسكي) وهو الآن يجهد الفكر في تحسين الصاروخ التوربيدي على حساب الحكومة الروسية وكان الغرض الأول من ابتداع هذه الصواريخ أن تحشى بالبريد وتقله بسرعة بين أوروبا وأميركا فيكون تخليقها

فوق الاوقيانوس أهل كثيرا من سكان الأرض حيث لا تلاقى أقل مقاومة من الهواء فتسير عندئذ بسرعة تتراوح بين الخمسة والعشرة أميال في الثانية ، والصواريخ تدار بالراديو بحيث إنه إذا حدث خطأ يمكن إصلاحه والصاروخ طائرة ، ويدبر الصاروخ بواسطة الأجهزة اللاسلكية رجل يبق على الأرض محققا على الدوام في لوح أمامه بربه طريق الصاروخ والسكان الذي وصل إليه من حيث للسافة والعلو، فإذا أراد المدير تخفيض سرعة الصاروخ أو مضاعفتها وضع يده على مفتاح معلوم فتنتطبع بذلك على مولد القوة في الصاروخ إرشادات المدير الذي على الأرض ، وتنجم عن ضغطها عليه ما يراد من سرعة أو بطء ، أو تحول عن خطة السير ، وهذا من الأمور التي يصعب تصديقها، إلا أن مبتدعي الصواريخ يقولون إنها في منتهى السهولة، وقد جربوها مرارا في ألمانيا من بضعة أشهر ، فعند ما ابتدأ الصاروخ من السكان الذي يقصده ، فإذا كان ذلك المكان [نيويورك] مثلا فإن مديره في لندن يضغط زرا فيؤثر بالراديو على لوحة الصاروخ فيقلت كيبسا من البريد يهبط إلى الأرض في شبه مظلة ، ومثل ذلك يفعل إذا أراد إنزال الصاروخ فلا تمر أعوام معدودة حتى تضع على الكتاب الذي ترسله عبر الاوقيانوس طابعا خاصا يبريد الصاروخ فيصل بعد ساعة إلى صديقك في أوروبا ، ولا يبعد أن تبلغ هذه الصواريخ حدا من الاتقان تصير معه صالحة لشحن البضائع وتكون نفقات إرسالها تافهة إلى الغاية، ذلك لأن نفقة تسييرها معدومة تقريبا، غير أن التجارب المحفوفة بالضموض التي تجرى اليوم في روسيا وغيرها من البلدان تشير إلى وجه آخر يعث على القلق ألا وهو استخدامها في الحروب فلا ريب في أن صاروخ (التورييد) سيكون من أعظم مدمرات العمران هولا ، فإذا عول البشر على استخدام هذه الآلة الجهنمية في الحرب فلا يقي لإنسان مهرب ولا ملجأ بل يهلك الناس بالألوف ، فهو يضرب بلا إنذار ، ويحول أعظم العواصم إلى آكام من رماد في بضعة دقائق ، وفي أوروبا اليوم أناس يستطيعون إذا شاءوا توجيه واحد من هذه الصواريخ التورييدية عبر الاوقيانوس إلى الولايات المتحدة فيحدث فيها من التدمير وإهلاك النفوس مالا تحده الحرب الطاحنة في خلال أشهر كاملة ، ومن المعلوم أن الطائرات الحربية مهما كثر عديدها لا تقوى على ضد الصاروخ ، فهو يخترقها بسهولة وبدون أن يصاب بأذى ، وإذا وجه إلى الأساطيل الحربية فانه يفنيها قبل أن يتيسر لها الوقت للفرار ، ولكن الوجه الآخر لهذا الابتداع الجهنمي هو أنه قد يعمل على إبطال الحروب لأنه عند ما تبلغ حد الكمال تقتنى كل دولة منه عددا ، ناذا أرادت دولة بدولة أخرى شرا يكون إقدامها على ذلك من قبيل الانتحار، وأين هي الدولة التي تسول لها النفس خوض غمرات عراق تكون نهايته خرابها المهتم ؟ ومن أجل هذا نقول : إن الساعي الكثيرة التي يندلجها دعاة السلام اليوم لإنهاء الحروب سوف يكلفها الصاروخ بالنجاح ، ولكن استخدام الصاروخ في الحروب وفي نقل البريد ليس بالشيء الذي يذكر في جنب ما يتوقمه منه مبتدعوه وهو القيام باكتشافات مهمة في القبة السماوية كالذهاب إلى المريخ ، وهذا كان بعد حديث خرافة إلا أن ما أعمه العلم للآن وما قام به رجاله من التجارب بالصاروخ قد أدناه من الحقائق ، فالصاروخ الذي يوجه إلى المريخ يكون بشكل قنبلة كبيرة الحجم ، ويكون فيها من الخمسين إلى الستين مولدا للقوة يذهب فيها جماعة صغيرة من الرجال الشبان محصورين في مكان لا يدخله الهواء ومعهم من ضروريات الحياة ما يستطيعون معه اصطفاها مدة ١٥٠ يوما وهي المدة اللازمة للوصول إلى المريخ والرجوع منه حسب تعديل الفلكيين، ومن الطبيعي أن يزور الإنسان المريخ قبل غيره من السيارات ، وذلك لوجود دلائل عديدة على أنه مأهول بمجنس من المخلوقات التي نحاكي سكان الأرض، ويستفد العلماء أن ألمانيا ستكون السابقة إلى إتقان هذا السهم العجيب كأنها ستكون السابقة في كثير غيره، فقد قرأت لمراسل جريدة أميركان في برلين أن كبار علمائها هم مكون

في درس القوى الكامنة في الجواهر الفردة للاستفادة منها ، وهزنى الطرب عند ماقرأت أن عالما مصريا
اسمه الدكتور (عدنان) يساعدهم في ذلك اهـ .
مكاتب الأهرام بنيويورك
وبهذا تم الكلام على اللطيفة الأولى في قوله تعالى : « ووزع اللوزان » مع قوله « مرج البحرين بلقيان » الخ
والحمد لله رب العالمين

اللطيفة الثانية : عجائب الحساب في سورة الرحمن

ابتداء سورة بذكر أنه رحمن ، وأخذ بعد الرحمة مبتدئا بما هو أشرف وهو العلم وأنبعا مخلق من
بحمله وهو الإنسان ، ثم أعقبها بما يجمعهما معا وهو التلميم ؛ لأنه لا تلميم إلا حيث يكون متعلم وعلم وههنا
قص علينا مبدأ العلوم في سياق حديث الشمس والقمر وأنهما بحساب ، وبني على ذلك بناء شامحا ومجدا
رفعا من حيث انتظام أنواع النبات والشجر ، فلو لا الحساب في العلويات لم تنتظم السفليات ، وهنا آتى بما
يجمع النظم في السموات والأرض وهو اللوزان السائد في كل دقيق وجليل وعظيم وحقيق ، ولكن مبدأ ذلك
كله الحساب ، فلنبين في هذه العجالة ما فتح الله به في ليالي الأحد والاثنين والثلاثاء في أواخر شهر مارس
سنة ١٩٣١ .

فذلك أن هذا الموضوع أخذ يهتاج قلبي ، ويشير شعوري ، ويحرك وجداني ، اللهم إن أمر الحساب
لحجب : فنه الشفع والوتر ، وبهما أقسم الله فقال : « والشفع والوتر » أفليس من الغريب أن يقسم الله
بأمور مكشوفة للنام والحاس والناس لا يهتمون بها ، ولا يولون وجوههم شطرها ، الشفع والوتر عند الجاهل
كأجسامهم ، وكالهواء والماء ، فهم غالبا لا يذكرون نعمة الله فيهن . الأعداد حاضرة عند نفوسنا تشاهدها
عقولنا كما تشاهد عيوننا الضوء ، ولكن غلب على عقول بني آدم أن الأعداد معدومة لا وجود لها ؛ فأما
الضوء والشمس والقمر ، والجبل والجل ، والبحر والبر ، فهن موجودات ؛ ذلك لما وقر في نفوسنا أن
ما تشاهده الحواس موجود ، وما لا تشاهده الحواس وجوده عدم .

لما وصلت إلى هذا اللقاه حضر صديقي العالم الذي اعتاد أن يناقشني في هذا التفسير . فقال : الشفع
والوتر والوجود والعدم مادة الفلسفة ، القرآن واضح والتفسير قد طال فإذا تريد بهذه الكلمات قلت له
التفسير لم يطل ، ولقد استبان لك الآن أن القرآن إلى الآن لم يفسر حق تفسيره فأين تفسيره أيها الصديق
فقال : الحمد لله قد فسره للفسرون رحمهم الله وفسرته أنت فقلت : أما من جهتي أنا فأني أقول لك : إن
ما خطر لي بحق وصدق في تفسير هذه الحجة الحروف حسابان يوزنه مجلد أو مجلدان ، فقال تريد بذلك علم
الحساب ؟ قلت : كلا . فعلم الحساب شيء والحكمة المنتجة منه شيء آخر ، وتلك الحكمة هي التي بها
يعرف بعض سر القرآن ؛ فحياك الله يا أخي ، قل لي : أي تبدي الله بالحساب في أول التم في السورة التي وسماها
بسورة الرحمة مصادفة ، أفلا تتذكر ما جاء في خطبة الصديق رضي الله عنه ، إذا استدلت بتقديم المهاجرين
على الأنصار في القرآن على أن يكون الأمراء من المهاجرين والوزراء من الأنصار ، قال بلى . قلت : أفلم
تم بذلك دولة بني أمية ودولة بني العباس اللتان لم تكونا إلا من المهاجرين . قال بلى . قلت : فإذا كان
عشرات الملوك والممالك قامت على مجرد أمر اعتباري وهو التقديم والتأخير في كلمتين اثنتين ، فما الذي تفهمه
الآن من تقديم الحساب على جعل كثيرة في سورة هي عنوان الرحمة ، ولقد أعظم الله أمر الحساب فقال
« إن الله سريع الحساب » وقال : « وأحصى كل شيء عددا » الخ فقال : حقا إن الأمر لعظيم ، ولكن أمر
الحساب دقيق ، فترجو أن تلخص حكما منه لتكون نبراسا ونورا بين قراء التفسير قلت :

- (١) إن الواحد ليس قبله عدد .
 (٢) وهو بعد جميع الأعداد بخلاف الاثنين فإنه بعد نصفها وهكذا .
 (٣) إذا زال الواحد زالت جميع الأعداد ، ولقد تزول الأعداد ولا يزول الواحد فهكذا :
 (١) الله ليس قبله شيء .
 (٢) وهو متصرف في كل موجود .
 (٣) ولولا الله لم تكن هذه الوجودات ، وإذا زالت الوجودات لم يزل الله .
 فطامع صاحب ذلك قال هذا حسن ولكنه من باب التشبيه : أى أنك الآن ضربت لنا مثلاً من
 العوالم للعقولة في نفوسنا ، وهذه المقولات نظمها الله فصارت ضرب مثل لنا .

ثم ماذا ؟ قلت : إن هذه الأعداد وحضورها في أذهاننا أمرها عجب . فقال حضورها في أذهاننا عجب
 وأى عجب في ذلك الحضور ؟ قلت : إن وجودها حقيقي وثابت بخلاف ما تراه من الشمس والقمر والأرض
 والإنسان . فقال : إذن أنت تعتبر العدد في نفوسنا الذى وجوده ذهنى ثابت وحق ، فأما المحسوسات التى
 عشناها وملاها الله بها القرآن والحكمة ليست ثابتة ، قلت نعم ، فقال : إن عقلى لا يحتمل فهم هذا قلت
 له : هم ثبتت عندك الأرض والسماء وما بينهما ؟ قال بالحواس فنحن نراها ونلمسها الخ وهى باقية . فالشمس
 والأرض والجبال بقيت ألوف السنين ، أو ألوف الألوف ، والآباء والأجداد يرون ذلك ، فأما الأعداد فأما
 هى أمر ذهنى لا غير فوجودها عدم . قلت : أفلا تعتبر العقل له إدراك كالحواس ؟ فقال : له إدراك أقوى
 من الحواس . قلت : العقل هو الذى يحفظ الأعداد ويتصورها كما ترى العين الضوء وتلمس اليد الحجر .
 فقال : ولكن الحجر ثابت . قلت العدد أثبت من ثلاثة وجوه . ألم تر أن حاسة البصر قد تخطئ فترى
 الصغير كبيراً كالنار من بعد ليلا ، وبالعكس كالشمس بعدها ، قال بلى . قلت : حاسة الذوق فى المرضى تحس
 بالحلوى مر ، قال بلى ، قلت : والناس يختلفون فى الجمال ، فكل له فيه ذوق خاص قال حقا . قلت ونفس الجبال
 والبحار تتبدل بعد مئات الألوف من السنين ، لأن الماء يفتت الصخور ، ويحصد الرمال ويقذفها فى البحر
 والجبال تترى هناك فى عصور وعصور ، ثم تأتى زلزلة فتظهر تلك الجبال التى كانت أجنة فى أرحام البحار
 فقال حقا والله ، قلت : إذن المحسوسات يتغيرها التغير من طريق نقص فى الحاسة ، أو من طريق اختلاف
 الأشخاص ، أو من طريق تغير المحسوس ، إذن هذه السموات وهذه الأرضون تختلف مناظرها من ثلاثة
 وجوه ، هى إذن ليست ثابتة فوجودها أشبه بالعدم .

ثم قلت : وضيف إلى ذلك أمرا رابعا ، وهو أن هذه العوالم للشاهدة ليست شيئاً سوى نتائج حركات
 ظهرت لحواسنا فأدركتها بحسب ما ظهر لها من عدد الحركات فى الثانية الواحدة ، فإن كانت الحركات فى الأثير
 فى الثانية الواحدة نحو ٦ آلاف مليون مليون مرة فذلك هو أمثال الحديد والنحاس . وإن كان عدد الحركات
 أقل من ذلك بحيث يكون فى الثانية الواحدة من ٤٠٠ مليون مليون مرة إلى ٧٠٠ مليون مليون مرة
 فى الثانية الواحدة ، فذلك هو النور بألوانه السبعة ، فالأحمر أدناه والبنيضجى أعلاه : ولا جرم أن هذا الأمر
 الرابع يفيدنا أن هذه المحسوسات فى نفسها غير موجودة ، وإنما هى تظهر لحواسنا بحسب عدد حركاتها فى
 الثانية منوعة للظاهر بتنوع حركاتها لا غير ، فأين الوجود الحقيقى إذن لهذه الظواهر . اقرأ هذا المقال واضحا فى
 سورة (النور) عند آية : «الله نور السموات والأرض» إذن ما يظنه الناس والحيوان موجودا وهو الشاهد ليس
 له حقيقة . وما جهلته الحواس وأدركه العقل أحق باسم الوجود كالأعداد وجميع الحقائق الثابتة . فالأعداد
 لا تتغير فى العقول والشمس تزول ، ولكن العدد هو هو ، فكل عقل وجد تيمم له الأعداد كما بدت لنا ،

وإذا اعترض على ذلك بأنه لم يوجد إلا في ذهننا ، قلت وهل المحسوسات ظهرت إلحواستنا ؟ وهل هي شيء غير حركات خفية ظهرت لحواستنا على هذه الأنماط ، فالاعتراض واحد على المحسوس والفقول ، ولكن هتاز للفقول بأنه لا يمتريه تغير في نفسه ، ولا تغير باختلاف الأشخاص ، ولا باختلاف الأزمان ، إذن الحساب من الحقائق الثابتة ، فهو موجود ثابت دائم علمه الله في الأزل ، وجعل العالم على منواله « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق » فهذا من الحق الذي بنيت عليه السموات والأرض ، الأعداد عوالم لا تحتاج إلى مادة في وجودها ، هكذا الأرواح عوالم مجردة مثلها ، فكلاهما كالآثير أصل لغيره ، وهو مخلوق ابتداء بلا مادة اشتق منها ، وهذا من بعض أسرار القرآن ، لأن الرحمة بالألف واللام أى كالمها لا تتحقق إلا بالعوالم والعوالم للحقائق الثابتة ومنها الحساب ، ولذلك قال : « الشمس والقمر بحسبان » وقال فى آية أخرى : « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لأعين ، ما خلقناهما إلا بالحق » وهل الحق إلا ما كان ثابتا؟ والحساب ثابت ، فبنى الله العالم عليه وعلى غيره من الحقائق الثابتة فى علمه القديم . فقال : إن هذا القول إجمالى . فأريد تفصيله ، فقلت لأفصله فى أربعة فصول :

(١) أولا : إن العدد منه ما يقبل القسمة مثل ٤ ر ٦ ومنه ما لا يقبلهما مثل ٧ و٥ فان ٤ مضاربها ٢ و ٢ و ١ و ٦ و ٢ مضاربها ٢ و ٣ و ١ و ٦ و ٥ فلا مضارب لهما ، وإنما يقسمان على نفسيهما وعلى الواحد لاغير ، فهذا عدد أولى أو أصم .

(٢) ثانيا : إن العدد فيه الكامل والناقص والزائد ، وفيه الأعداد المتعاقبة وغيرها من عجائب الحساب

(٣) ثالثا : العدد فيه للتوالي العددية مثل ٢ - ٤ - ٦ وهكذا ، والتوالي الهندسية مثل ٢ - ٤ - ٨ - ١٦ - ٣٢ وهكذا ، ومثل ٣ - ٦ - ١٢ - ٢٤ وهكذا .

(٤) رابعا : العدد فيه الكسر الدائر البسيط مثل $\frac{1}{6}$ فإنه يساوى $\frac{3333}{10000}$. فهذا كسر لا ينتهى . والكسر الدائر للركب مثل $\frac{1}{6}$ فإنه يساوى $\frac{142859}{100000}$. فهذا الكسر لا ينتهى وهو مركب من ٦ أرقام وكسر $\frac{1}{6}$ بسيط لأنه عدد واحد مكرر .

وهذه الصفات الأربع تراها جلية فى المدودات الشاهدات (أولا) العدد الأصم وغير الأصم لمعانظير فى العوالم المشاهدة ، فإنك ترى الماء والهواء كالعدد القابل للقسمة الصحيحة ، أما الحجر والحديد فهو كالعدد الذى لا يقبل القسمة الصحيحة ، قسمة ٤ على ٢ ليدت كقسمة ١١ على أى عدد ماعد نفسها والواحد .

فقال صاحبي : أريد أن أعرف الأعداد الأولية معرفة إجمالية لأبني عليها ذلك ؟ فقلت : إنها فى الآحاد ٢ - ٣ - ٥ - ٧ وفى العشرات ١١ - ١٣ - ١٧ - ١٩ - ٢٣ - ٢٩ - ٣١ - ٣٧ - ٤١ - ٤٣ - ٤٧ - ٥٣ - ٥٩ - ٦١ - ٦٧ - ٧١ - ٧٣ - ٧٩ - ٨٣ - ٨٩ - ٩٧ فهى فى المائة الأولى (٢٥) عددا وفى المائة الثانية ٢١ أولها ١٠١ وآخرها ١٩٩ .

الأعداد الصماء فيها	أولها	آخرها	
١٦	٢١١	٢٩٣	مائة الثالثة
١٦	٣٠٧	٣٩٧	المائة الرابعة
١٧	٤٠١	٤٩٩	المائة الخامسة
١٤	٥٠٣	٥٩٩	المائة السادسة
١٦	٦٠١	٦٩١	المائة السابعة
١٤	٧٠١	٧٩٧	المائة الثامنة

آخرها	أولها	الأعداد الصماء فيها	
٨٨٧	٨١١	١٤	المائة التاسعة
٩٩٧	٩٠٧	١٤	المائة العاشرة

وهكذا إلى ٩٩٠١ الذي ينتهي إلى ٩٩٧٣ ، وفي هذه المائة الأخيرة ٩ أعداد لاغير ، وفي المائة قبلها ١٢ عددا ، وهكذا لا نجد مائة في هذه المئات خالية من الأعداد الأولية :

(١) ولا جزم أن العوامل المشاهدة أكثرها أشبه بالأعداد التي تقبل القسمة ، وأقلها أشبه بالأعداد الأولية ، فضاء الشمس والقمر وعالم الأثير والهواء والماء أكثر جدا من الأرض كما أن الأعداد التي تقبل القسمة أكثر من الأعداد الأولية .

(٢) إن كل مائة فيها أعداد أولية كما تقدم قد تكون ٩ وقد تكون ٢٥ وقد تكون عددا بينهما

مثل ١٤ و ١٥ وهكذا في كل قرن أناس يظهرون في الأمم لهم مبادئ وحكم جديدة لم تكن من قبل ، وناخبون في الحرف والصناعات ، نسج الناس على منوالهم ولكن الأكترون مقلدون ، فهم أشبه بأعداد ٤ و ٨ و ٩ و ١٢ وغيرها من كل عدده مضارب ترجع إلى أعداد أولية . فقال : أنا لم أفهم هذا ، قلت :

(١) اعلم أنا تعد هكذا : ٤ ٣ ٢ ١ الف أو ٢ - ٤ - ٦ - ٨ - ١٠ - ١٢ وهكذا ، أو تقول :

٣ - ٦ - ٩ - ١٢ - ١٥ وهكذا : أو تقول : ٥ - ١٠ - ١٥ - ٢٠ وهكذا : أي أننا نعد : إما بالواحد

وإما بالاثنين وإما بالثلاثة وهكذا ، فإذا وصلنا إلى عدد أولى من الأعداد الكبرى مثل : ١٠٠٩ و ١٠١٣ و ١٠١٩ و ١٠٢١ و ١٠٣١ وهكذا وأردنا أن نعد به فلا بد أن نكرره مرة ومرتين وثلاثا وهكذا كما

تقول ١١ - ٢٢ - ٣٣ ، فها هنا لا بد لنا أن نعد في تكراره ١ - ٢ - ٣ - ٤ وهكذا أي أننا مع كل عدد

أولى بعد ألف أو مائة ألف أو غيرها لا بد أن نعد من أول واحد ونسير كطريقتنا الأولى ، ولا جرم أن هذا

معناه أن الناخبين في كل قرن لا بد أنهم يعرفون ما في التاريخ ، وبينون مجدم على مقتضاه بطريقتهم م

كما أن العدد الأصم يعد من الواحد وما بعده :

(٢) ثم إننا كما نحلل المركبات في المعامل الكيمائية إلى عناصرها كتحلليل الماء إلى أكسوجين

وأودروجين هكذا نحلل الأعداد إلى عواملها الأولية ، فتحليل الأعداد في نفوسنا له نظير في الخارج وذلك

في المركبات مثل تحليل عدد ٤٧٢٥ فإننا نقسمه على ٣ فيكون الخارج ١٥٧٥ وهذا نقسمه على ٣

فالخارج ٥٢٥ وهذا نقسمه على ٣ فالخارج ١٧٥ وهذا نقسمه على ٥ فالخارج ٧ وهذا نقسمه على

١ فالخارج ١ فيكون ٤٧٢٥ يساوي $27 \times 25 \times 7 = 4725$ وهذا كما تقول

الماء حلل إلى ١٦ جزءا من الأكسوجين ، وجزءين من الأودروجين وزنا أيضا ، فالتحلليل في المادة أظهر

حقاتها فتصرفنا فيها كما أظهر تحليل الحساب عوامله فتصرفنا فيها واتقنا بها ، هذا هو الفصل الأول من

الفصول الأربعة .

الفصل الثاني في عجائب العدد الكامل والأعداد المتحابية

وحساب الجذر والتربيع ونحوها وفي هذا الفصل مسائل : المسألة الأولى

العدد إما كامل وهو ما يساوي جميع مضاربه مثل عدد ٦ فإن مضاربه هي ١ - ٢ - ٣ وبمجموعها ٦

وكذلك ٢٨ فإن مضاربه هي ١ - ٢ - ٤ - ٧ - ١٤ يساوي ٢٨ فهو عدد كامل ، وإن كانت المضارب

أقل منه فهو ناقص مثل ١٠ فإن عواملها ١ و ٢ و ٥ فهي ٨ فهذا عدد ناقص لتقص مجموع مضاربه عنه

وعدد ١٢ مضاربيته ، هي ٢ و ٣ و ٤ و ١٠ المجموع ١٦ فهو عدد زائد وأكثر الأعداد ناقصة أو زائدة كما أن أكثر هذا النوع الإنساني غير معتدل ، والكامل قليل ، كأن الكامل في الإنسان قليل ، فهو هكذا :

٦
٢٨
٤٩٦
٨١٢٨
١٣٠٨١٦
٢٠٩٦١٢٨
٣٣٥٥٠٣٣٦

وهكذا ، فترى أنه من عدد (١) إلى (١٠) لا عدد كامل إلا واحدا ، وكذلك من ١٠ إلى ١٠٠ وهكذا من ١٠٠ إلى ١٠٠٠ ومن ١٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠ ولكنك في هذا الجدول لا تجد في الأعداد من ١٠٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠٠ عددا واحدا كاملا ، وهكذا لا تجد فيه من مائة ألف إلى مليون إلا عددا واحدا كاملا ، أليس هذا يشابه العالم الخارجي ، فإننا نجد الراديوم قليلا والذهب والبلاطين وغيرها كثيرة ، ونجد الأنبياء والحكماء قليلا .

موازنة بين العدد الكامل والأصم

العدد الأصم يكثر لأنه نظير ذوى الاختراع في الصناعات والنبوغ في مختلف الحرف ، أما العدد الكامل فهو أقرب في ندرته إلى ندرة الأنبياء والحكماء والراديوم وهكذا .

للسؤال الثانية

قد وجد العلماء أن عدد ١٢٠ يساوي نصف مجموع مضاربيته ، فهذا أشبه بكونه نصف الكامل ، وللضارب هي : ١ - ٢ - ٣ - ٤ - ٥ - ٦ - ٨ - ١٠ - ١٢ - ١٥ - ٢٠ - ٢٤ - ٣٠ - ٤٠ - ٦٠ ومجموعها ٢٤٠ ونصفه ١٢٠ ، ومثله في ذلك عدد ٦٧٢ فإنه يساوي نصف مجموع الأعداد للتدخله فيه وهو ١٣٤٤ ونصفه ٦٧٢ :

للسؤال الثالثة

الأعداد للتحابة مثل عدد ٢٢٠ وعدد ٢٨٤ ومجموعها متحابين لأنهم وجدوا أن كلا منهما مؤلف من مضارب الآخر ، فإن (٢٢٠) يساوي مضارب (٢٨٤) وهي ١ - ٢ - ٤ - ٧١ - ١٤٢ ، و (٢٨٤) يساوي مضارب (٢٢٠) وهي ١ - ٢ - ٤ - ٥ - ١٠ - ١١ - ٢٠ - ٢٢ - ٤٤ - ٥٥ - ١١٠ إذن عندنا عدد لا مضارب له وهي الأعداد الأولية ، وعدد مضاربيته أكثر منه وهو العدد الزائد ، وعدد مضاربيته أقل منه وهو العدد الناقص ، وعدد يساوي هو نصف مضاربيته وقد تقدم ، وعدد يساوي مضاربيته وهو الكامل ، وعدد يساوي مضارب غيره وغيره يساوي مضاربيته وهما العددان للتحابان ، فهذه ستة أنواع .

فما سمع ذلك صاحي قال ما أجل هذا العلم ، وما أبدع قوله تعالى : « الشمس والقمر بحسبان » ، والله إن شأن الحساب لعجب ! فقلت أيها الصديق : إذا سرك هذا فلا تسمعك ما هو أعجب وأبهج وأبدع ،

قال أحب ذلك ، فقلت : إن هذه الأعداد المتحابة أمكن العلماء البحث عنها واستخراجها . فقال وكيف ذلك ؟ فقلت : يحملون عدد ٢ هو الأس . فقال ثم ماذا ؟ فقلت : ثم يأخذون ثلاثة أمثاله وستة أمثاله و٩ أمثاله في مربع العدد وهو ٤ فيحصل عندهم هذه الأعداد بالتوالي ٦ - ١٢ - ٧٢ ، لأن ٢ في ٩ يساوي ١٨ و ١٨ في ٤ يضربها في ٤ يكون ٧٢ . فقال : هذا واضح ، ثم ماذا ؟ فقلت يتقصون من هذه الأعداد واحدا واحدا فتكون هكذا : ٥ - ١١ - ٧١ ، فإذا ضربنا ٥ في ١١ وضربنا الناتج وهو ٥٥ في ضعف عدد ٢ وهو ٤ كان الحاصل ٢٢٠ وهو أحد العددين المتحابين ، فأما العدد الآخر فكيفية إيجادها أن نضرب عدد ٧١ وهو العدد الثالث في ضعف ٢ عدد وهو ٤ كما فعلنا في العددين السابقين فيكون عندنا عدد ٢٨٤ .

فلخص ذلك أن عددين ضربا في ضعف ٢ وعدد ٤ ضرب فيه أيضا ، وصار الأمر واضحا ، وأيضا أمكنهم استخراج الأعداد المتحابة من مكعب ٢ بالطريقة للتقدمة ، فيضربون مكعب ٢ وهو ٨ في ٣ ثم في ٦ ثم في ٦٤ وهذا الأخير هو مربع ذلك للمكعب الذي هو ٨ فيكون الحاصل بالتوالي ٢٤ و ٤٨ و ١١٥٢ فإذا نقصنا من كل واحد منها عدد ١ كان الباقي هكذا بالتوالي : ٢٣ - ٤٧ - ١١٥١ ، فإذا ضربنا ٢٣ في ٤٧ وهما العددين الأولان ، ثم ضربنا حاصل الضرب في ضعف المكعب المذكور وهو ٨ وهذا الضعف هو ١٦ فإن حاصل الضرب يكون ١٧٢٥٦ فهذا عدد متحاب أول ، والعدد المتحاب الثاني تفعل فيه ما فعلنا هناك ، فنضرب ١١٥١ في ١٦ أيضا فيكون الحاصل ذلك العدد ١٨٤١٦ :

وهذه القاعدة التي رأيتها أيها الذي هنا يمكنك بها إيجاد أعداد متحابة لا نهاية لها بحملك قوة عدد ٢ هي الأس ، فالعدد المتقدم بقوتها الثالثة أي بضربها في نفسها ٣ مرات ، وقوتها الرابعة ، وقوتها الخامسة وقوتها السادسة : أي ضربها في نفسها ٤ مرات . وضربها في نفسها ٥ مرات ، وضربها في نفسها ٦ مرات وهكذا يمكنك بها أن تستخرج أعدادا متحابة إلى ما لا يتناهى على شريطة أن تحافظ على هذا النظام .

ثم قلت . وذن أبداع الحكم وأعجب العلم ما استنبطه العلماء غير ما تقدم لإيجاد قاعدة للأعداد المتحابة ذلك أنهم وضعوا صفا أفقيا مركبا من متوالية هندسية تصاعديا أسها ٢ وحدها الأول ٢ أيضا هكذا : ٢ - ٤ - ٨ - ١٦ - ٣٢ - ٦٤ ثم يضعون تحت هذا الصف صفا آخر مركبا من هذا الصف مضروبا في ثلاثة فيكون هكذا : ٦ - ١٢ - ٢٤ - ٤٨ - ٩٦ - ١٩٢ ويضعون فوق الصف الأول صفا تكون أعضائه هي عين أعضائه بشرط أن تنقص ١ فهي هكذا : ٥ - ١١ - ٢٣ - ٤٧ - ٩٥ - ١٩١ إذن تكون الصفوف هكذا :

١٩١	٩٥	٤٧	٢٣	١١	٥
٦٤	٣٢	١٦	٨	٤	٢
١٩٢	٩٦	٤٨	٢٤	١٢	٦
١٨٤٣١	٤٦٠٧	١١٥١	٢٨٧	٧١	٠

وهذا الصف الرابع إنما حدث بضرب ١٢ من الصف الثالث في ٦ قبله فالحاصل ٧٢ ويتقص ١ فيكون ٧١ وهكذا يصنعون في الحد الثاني فيضربون الحد الثالث من الصف الثالث في الحد الثاني منه أعني ٢٤ في ١٢ وي طرح من حاصل الضرب ١ وعلى هذه السكيفية يحصل الحد الثالث والرابع وهكذا : وهذا الجدول تؤخذ منه الأعداد المتحابة ، أفلا تصب أنك إذا أخذت ٧١ وهو الحد الأول من الصف

الرابع وضربته في ١١ وهو الحد القابل له من الصف الأول فإنك تحصل على عدد ٢٨٤ ولو ضربت عدد ١١ في العدد الذي تحته وهو عدد ٤ لحصل عندك عدد ٤٤ فضربه في ٥ الذي على عين ١١ يكون عندنا ٢٢٠ وهذان العددان هما العددان للتحابان المتحدان ، وبهذه الطريقة يمكن استخراج أعداد متحابية كما تريد بشرط أن تكون الأعداد المختارة بهذه الطريقة أعداداً أولية لا غير .

فلا سمح ذلك صاحبي قال : إن هذا الموضوع طال ، وكان الأولى أن تقف بنا عند القاعدة للتقدمة قبل هذا الجدول . أما هذا الجدول فإن أعماله كثيرة ، وشروطه كثيرة ، وهو صعب على فزاه هذا التفسير أصعب جداً ، فما كان يليق ذكره في تفسير آية : « الشمس والقمر بحسبان » قلت : أما هذه الصموية فأنا أعلمها وأنا أكتب هذا قاصداً ، فقال : لماذا ؟ قلت : لأن هنا عجباً عجائباً ، فقال : وما هو قلت لسر مصون ، وجوهر مكنون :

• ومن خطب الحسنة لم يغلها مهر •

لا تحسب المجد تمراً أنت آكله لا تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

أيها الأخ الذكي : إن أمة الإسلام اليوم يجب أن تلقى إليها العلم لتفكر في أمرها ، وتبحث في الأرض وفي السماء ، أذكرك أيها الذكي بما مر في (سورة الحجر) عند قوله تعالى : « وأنبتنا فيها من كل شيء موزون » . فقال أتذكر ذلك ؟ قلت : ماذا رأيت هناك ؟ فقال : رأيت هناك نظام النبات وهو مرسوم . وهناك مناسبة عجيبة بين أوراق الأشجار (اقرأ هذا اللقمة وانظر صورته البديعة هناك إن شئت) .

ثم قلت له : إن بين أوراق النباتات المختلفة مناسبات عديدة ، ولكل صف علاقة مع بعض الصفوف الأخرى ، أليس هذا هو نفس الوزن ، وهذا الوزن اشتق منه الميزان المذكور في هذه السورة فإذا سمعنا الله يقول هنا : « والنجم والشجر يسجدان ، والسماء رفعها ووضع الميزان ، ألا تطفئوا في الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ، والأرض وضعها للأنام ، فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام والحب ذو العصف والريحان » فذلك كله بحسب موزون كوزن النبات . قال نعم . قلت : جلل الله وجل العلم ، فإذا أنا أيها الأخ الذكي أثبتت بالأعداد المتحابية ووضعت الجدول المذكور وهو الصعب فلم أضعه جزافاً . كلا . إن المضطر يركب الصعب من الأمور وهو عالم بركوبه ، فأنا الآن أريد أن أبين أن الحساب الذي فطرنا عليه وهو حقائق ثابتة لا تحوّل لها ولا تغيير ، بل يستحيل تغييره قد قام عليه نظام العالم ، فكما وجدنا الأعداد المحسوبة في نفوسنا ذات نظام ثابت ، هكذا وجدنا الأوراق في الأشجار لها ذلك النظام الثابت ، ووجدنا لها جداول ذات ارتباط وانتظام كالانتظام الذي رأيناه في نفوسنا عند دراسة الأعداد للتحابية .

فواحسرتاه على السليمن أولاً ، وعلى نوع الإنسان ثانياً ، جهل هذا الإنسان نفسه ، وجهل ربه ، يدرسون الحساب وأكثرهم يعيشون ويموتون وهم لا يفكرون : « قتل الإنسان ما أكرهه » . فيأبى شعري أيها الأخ الذكي كيف نرى نفوسنا مفضورة على الحساب والنظام البديع ، ثم نجد نفس ذلك النظام أو ما يشبهه في نظام الكواكب ، ونظام النبات ونظام الحيوان .

الله أكبر : إن دراسة هذه العجائب هي السعادة ، أليست هذه هي الباب والسلم لمعرفة عجائب نفوسنا ؟ إن نفوسنا مفضورة على الحساب ، والحساب كامن فيها ، والحساب جميل بديع مشوق لما فيه من البديع والعجائب ، وهذا الحساب الذي عرفنا طرفاً منه ثابت في علم الله عز وجل ، وقد بنى نظام الدنيا عليه ، وبهذا نفهم معنى : « الشمس والقمر بحسبان » ونعرف مثلاً الآيات من القرآن إذ يقول : لكل أمة أجل ، ويقول : « لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون » ويقول : « وكل شيء عنده بمقدار » ويقول :

« إن ذلك في كتاب، إن ذلك على الله يسير » ومن هنا نشعر بمعنى القضاء والقدر ، ومن هنا نحرف كيف يكون تهذيب الأخلاق :

قال : تهذيب الأخلاق ! لعل هذا خروج عن الموضوع ؟ فقلت هو في نفس الموضوع ، بل هو تنعيم له : فقال : إن الموضوع هو أن عجائب الحساب تعطينا نموذجاً مثيلاً يبررنا نظام الله وقدره وعجائب صنعه ، وأن هذه العوالم منشآت على حساب فطرت عليه نفوسنا ، وهذه حقائق ثابتة ، والله يقول : « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ، ما خلقناها إلا بالحق » وهكذا ، فهذا عرفنا أن هذه العوالم بنيت على حقائق ونفوسنا نشعر بطرف من هذه الحقائق ، فأما الأخلاق فهي شيء آخر . فقلت : إن تمرين الطلاب في مدارس العالم قاطبة على مقدار تمرينهم في العلوم الطبيعية والعلوم الرياضية بحيث تسهل نفوسهم بحمد الصفات وجميل الأفعال ، لأن تلك النفوس تشعر بجمال ونظام ثابت في هذه العوالم فيكسبها صفة الجمال والبهاء والمدل والنظام ، فيظهر ذلك في أفعالها ، فقال : هذا مقبول عقلاً وتؤيده أفعال الإنسان ، لأنني رأيت إلهي حينما يأتي له شيء يعلمه يأمره أن يقف زمناً وهو يشاهد مزاوله الخلاق فيكون ذلك أول باعث له على التقليد وسهولة المدل ، وللشاهدة أثر فعال ، فهكذا مزاوله العلوم الطبيعية والرياضية ، ولكن أنا أريد نصاً من القرآن على ما نقول ، لأننا الآن في تفسيره ، ولن يعتقد المسلمون هذا القول إلا بنص من القرآن بشرط أن يكون في هذه السورة . فقلت : إن النص فيها ، ألم يقل الله تعالى : « ووضعت الميزان ألا تظفوا في الميزان » يقول : نصبت الموازين في سماواتي وفي أرضي ، وخلقكم فيها لتشهدوا أفعالاً بالبحث والتفتيش ، فتتربى ملكاتكم على النظام ، ومن أحب عملاً أحب تقليده طبعاً ، فيكون ذلك داعياً لكم أن تزنوا أعمالكم فلا إفراط ولا تقصير . فقال : الحمد لله الذي علم الحكمة وهدى ، وسيكون لهذا القول ما بعده ، وستكون في الإسلام أمة لم يحلم بها التاريخ ، فإن تفسير الآية اللفظي من غير تدقيق لا يعطى كمال هذه المعاني التي تغلب عقول النوع الإنساني وتغيره من حال إلى حال .

المخطاط تعاليم الحساب في بلاد الإسلام

وهل له نظير في الشهادات الحسية

وكيف عرف الأوروبيون أن الأخلاق تسهلها هذه العلوم ، وإذا كانت أخلاق المتعلمين منهم

شريفة فلماذا نرام يتعلمون في الشرق ؟

ولكنني أريد أن أسألك إذا أذنت لي في بعض أمور مرتبة على هذا النظام الحسابي ، فقلت جاب وكرامة فقال : (أولاً) إني وأنا مجاور بالجامع الأزهر كنت أطلع على بعض كتب نحو (شمس المعارف الكبرى) لبونى فأجده يذكر هذه الأعداد للتحابة ، ويقول : نخرج أعداد اسم الرجل بأعداد اسم للراءة الخ وله هناك دعوات وبحور وهكذا . إن للطلع على هذه الكتب يظن أن هذا من الدين . فقلت : اعلم أن هذا الموضوع لا يتم فحده إلا بمثل وهو نهر النيل . إن نهر النيل يستمد مائه من المطر النازل من السماء وهذا المطر ينزل بعضه فيكون ثلجاً فوق الجبال العالية هناك ، وإن كان ذلك في خط الاستواء لشدة الارتفاع ، وبقية المطر ينزل بعضه في باطن الأرض ، وبعضه يجري على ظاهرها ، والذي يجري على ظاهرها هو الذي ينزل في البحيرات هناك ، ومنه يكون نهر النيل ، والثلج فوق الجبال يمد النهر طول السنة بما ينحل من مائه بحرارة الشمس ، فإذا مر الماء في بلادنا إلى البحر الأبيض المتوسط سقى الزرع وأبد الضرع ، ولكن بعض الماء يتفرد ولا يتصل بالنهر فيكون في برك ومستنقعات ، فهو منفصل من النيل المتصل بالبحيرات والمطر والجبل ، وهذا الماء النقطع هو من أفعال الله عز وجل ، ومعلوم أن الله هو الرحمن ، فرحمته تسري في كل

شبه ، فهذه البرك والمستنقعات لا يصلح ماؤها للشرب . بل تكون ضارة للإنسان والحيوان ، فيخلق الله عز وجل فيها التاموس والذباب والحشرات ، ويعطيها من رحمته قوة وسلاحا ، ويحفظ نسلها مهما حاربها الإنسان وآذاها ، لأنه (أولا) يريد بقاء هذه الحيوانات وتكاثرها لأنها مخلوقاته (وثانيا) يجعلها مطهرات للجو (وثالثا) ليجعلها جنودا تقبل هذا الإنسان الجاهل النظام حتى يرجع عن جهله .

إذا فهمت هذا أيها الأخ الحكيم فاعلم أن الأمم جميعها في أول أمرها تكون نشطة مفكرة ذكية ، فإذا حل بها الضعف ، وانتابها الجور فكنت أوصل علومها ، وأغلت عراها ، واستعملت العلوم في غير ما وضعت له ، وأصبحت تلك العلوم فيها أشبه بالتاموس والذباب وبقية الحشرات فلا تزال تؤذى .

والحشرات مؤذيات . والله فيها أيضا رحمة ، فهو كما خلق الحشرات وجعل حياتها جارية على قوانين هكذا إذا جهلت الأمم أصول علومها تبعت تلك العلوم وتناوتت بعد أن كانت قلادة واحدة ، فترى علم الأعداد مستعملا في غير ما وضع له بحيث ترى الأعداد المتحابة المتقدمة قد جعلت لأمر صبيانية بعد أن كانت دراستها لمعرفة الحكمة ، ونظام الحليقة ، وحب صانع العالم ، والتحكيم من العلوم ، لسعادة الحياة وارتقاء الإنسانية وترى علم النحو والصرف والمعاني والبيان والبدیع لا تتجاوز معرفة ألفاظ القرآن فيضيق المرء فيها ويقف العقل عندها بعد أن كانت مقدمات لمعرفة أمثال هذه الأسرار ، وترى علم الفقه وأصوله لا يقصد إلا لمعرفة آراء الشافعي وأبي حنيفة أو نحوهما مع بقاء عقل الطالب في قيد ذلك الامام لا يتجاوز مع أن الأصول ما وضعت إلا للاجتهاد لا للاستبعاد ، ثم إن القاضي يتولى القضاء لغرض التبسط في الحياة ، وحوز الهرم والدينار مع أن هذا ترف ، والترف أصل الشقاء في هذه الحياة نفسها ، والقضاء في زماننا هم الذين يطلبون القضاء لأجل المال ؛ ولأجل الترف والتنعم في الحياة ، كل ذلك لأن هذه العلوم تقرأ والطالب ذاهل عن أصل وضع الدين ، لأن أصل الدين جاء ليجعل في الناس طبقة تكون سياجا للأمة وقواد لها ، والقواد يكونون أقرب إلى الزهد ، وهكذا الملوك والأمراء كلهم يحرصون على المال لأنفسهم لا للدولة ، وكل ذلك ناشئ من الجهل بأصول الحياة وبأصول الدين ، فإن صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم لم يحز المال لنفسه بل للأمة ، وعمر رضى الله عنه كذلك وبقية الخلفاء ، خلف من بعدهم خلف جعلوا الإمارة مغنا ، فهؤلاء وهؤلاء أشبه بالحشرات الناشئات في البرك والمستنقعات ، والتشبيه صحيح لأن الدين يقرءون سورة يس لأجل جلب الرزق ، أو الذين يكتبون وفقا محسوبا بهيئة خاصة لأجل ذلك ، أو الذين يتولون القضاء أو الإمارة وهم غافلون عن حقائق مام بصدده أو الذين يتولون الزعامة لاعطاء العهود ولكن قسدم جمع المال فقط ، فهؤلاء وهؤلاء لا فرق بينهم وبين الحشرات في البرك وفي المستنقعات ، ومثلهم في ذلك الذين يحسبون [بالزارجة] فهؤلاء لهم حساب منظم نظاما بديما ، وقد يكون وراء هذا الحساب أخبار ببعض الحقائق ، والأكثر منه يتخلف كما حققته أنا معهم ودرسته دراسة تامة ، وهكذا الذين يعرفون علم الرمل وأمثالهم ، ومثلهم من يحضر الأزواج لقصد المنافع الدنيوية ، فشكل هؤلاء يجب الاستيقاظ لهم .

على قادة الأمة (وهل القادة إلا المفكرون الذين قرءوا وعلوموا شق ومنهم قراء هذا التفسير) أن يحذفوا من البلاد الإسلامية تلك الكتب التي فيها اليازرجة والرمل ، وأمثال كتب اليوناني ، فهذه مضطت للهرام . فإن الإنسان يترك العمل ويتكل على الأمل ، وجميع ذلك بضر الأمم ضرا بليغا ، لأن الساحر وأمثاله يريدون أن يعيشوا على حساب الأمة ، وهذا هو الووال والضلال ، بل يجب أن تحصى الأمة ولا يترك أحد بغير صناعة ، فهذا هو الواجب الآن .

فقال صاحبي : لقد شفيت صدري في هذا السؤال فأرجو الإجابة على السؤال الثاني .
فقلت سل ما نشاء .

السؤال الثاني

إن هذا القول أحدث عندي إشكالا وإشكالا وحيرة ، إنك أثبت من القرآن في هذه السورة أن العلوم الرياضية والطبيعية تصقل العقول وتهذب الأخلاق : أى تساعد على ذلك ، ولكن يقتضى هذا (أمرين : الأول) أن أبا بكر وعمر رضى الله عنهما وبقية الخلفاء الراشدين كانوا على سداد في آرائهم وفضل عظيم ، وقد أجمع الناقدون من الأمم المعاصرة لنا أن أبا بكر وعمر رضى الله عنهما كانا أذكي وأعدل من بقصر وكسرى في زمانهما مع أن للدارس في الفرس والرومان كانت مكتظة بالطلاب ، وهؤلاء اللوك تعلموا فيها ، وكيف وجدنا من لم يقرأ رياضيات ولا طبيعيات أعدل وأم أخلاقا من القارئین المتعلمين .

(الأمر الثاني) أن بعض الأوروبيين الحاليين الذين يقرءون الرياضيات والطبيعيات هم شر خلق الله على الناس وعلى أنفسهم . ثم أخذ يقول : وأى دليل أنم وبرهان أعظم على نقض هذه النظرية ما أراه من الموازنة بين أخلاق الأوروبيين الذين في زماننا وهم بلا مراء دارسون هذه العلوم ، وبين أخلاق الصحابة الذين لم يدرسوها ألبم عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وسرد ماجاء في الجزء الثاني من كتاب « حاضر العالم الإسلامى » من أن الأمم الأوروبية في هذه الحرب الكبرى عاهدوا المسلمين ونقضوا المهود ، فهذه أمم ناكثة للمهد لا يوثق بها . ثم قال : أليس من أقيح الأخلاق نقض المهد ! أولم يقرأ هؤلاء هذه العلوم ؟ ثم لننظر ماجاء في سيرة عمر بن الخطاب رضى الله عنه في كتاب « أشهر مشاهير الإسلام » فقد جاء فيه في صفحة ٣٣١ تحت العنوان الآتى ما نصه :

خبر جندى سابور ، وأمان عبد أمضاء جيش المسلمين

روى الطبرى أن أبا سيرة لما فرغ من السوس خرج في جنده حتى نزل على جندى سابور ، وزير بن عبد الله بن كليب محاصرهم ، فأقاموا عليها بغادونهم وبراحونهم القتال ، فلم يفجأهم يوما إلا وأبواب البلد تفتح ، ثم خرج الناس وخرج الأسواق وانبت أهلها ، فغار المسلمون من ذلك ، وأرسلوا فسألواهم أن مالكم ؟ قالوا ربيتم إلينا بالأمان قبلناه وأقررنا لكم بالجزية على أن تمنعونا ، فقال المسلمون ما فعلنا ، فقال أهل جندى سابور ونحن ما كذبنا ، فسأل المسلمون فيما بينهم ، فإذا عبد يدعى (مكثفا) كان أصله منها هو الذى كتب لهم ، فقالوا إنما هو عبد ، فقالوا إنا لانعرف حركم من عبدكم قد جاءنا أمان فنحن عليه قد قبلناه ولم نبدل فان شتم فاعدروا ، فأمسكوا عنهم وكتبوا بذلك إلى عمر فكتب إليهم يقول : إن الله عظم الوفاء فلا تكونون أوفياء حتى تضوا ، مادمتم في شك أجزوهم وفوا لهم ، فوفوا لهم وانصرفوا عنهم اه .

•••

ولما تم هذا القتال حتى يصره إلى وأخذ يقول : إن النظرية لاحظ لها من الحقيقة ، فهام أولا ، القياسرة والأكاسرة قديما ، وهكذا ساسة أهل أوروبا حديثا سقطوا في الميدان الأخلاقى وهم دارسون لهذه العلوم ، والصحابة وعمر لم يخونوا المهد وصدقوا ما عاهدوا ، وأهل أوروبا اليوم ناكثو المهود !

جواب هذين الاعتراضين

قلت أيها الأخ الذكي : إن الأمم لها دوران : دور البداوة ، ودور الحضارة ، فهي في دور البداوة تكون أقرب إلى الخير لأنها لا تزال على الفطرة ، ولا يعوزها إلا أمران : إزالة الخرافات في العقائد ، وهدايتهم إلى الصراط المستقيم في الأخلاق . ومضى زال هذان العائقان انبثت الفطرة إلى الأعمال الصالحة لأنه لا غشاة تحجبها ، ولا غطاء ، ولا ران عليها ، وهذا جوابي على اعتراضك الأول ، فإذا رأيت أبا بكر وعمر وبقية الخلفاء أفضل من ملوك زمانهم ، فذلك أن هؤلاء الملوك قد حجبت عنهم فطرتهم بالحضارة وغشوات الزلات النسكرة القاشية في الأمم التي طال عليها المهمل وقتت قلوبهم وكثير منهم فاسقون .

فأما الأمم في دور الحضارة فإن الشرور والشهوات ، والطمع والنبى ، تكون حجابا على القلوب فلا بد من دراسة العلوم الرياضية والطبيعية لتسقل النفس فتقرب من فطرتها ، وتحب الحق الذي درسته لأنه محبوب في النفس وظاهر في الطبيعة ، فمضى شهدته أخذت ترجع إلى فطرتها شيئا فشيئا ، وذلك من غير جدال شأن جميع الطبقة المتعلمة في الأمم الراقية ، وهم بلا جدال حافظون لكيان دولهم ، وعندما عدل بقدر إمكانهم فقال : مادليلك على هذا ؟ قلت : دليلي أننا نرسل أبناءنا يتعلمون القوانين في مدارسهم وأيضا أن الأمم التي تغبر على بلادنا بقضها وقضيضها وتغلبنا ، لن يتم ذلك لها إلا بحفظ بلادها أولا ، لأن الأمم أشبه بالآلات التي تستخرج الماء من الأرض ، فكل صناعة وعلم جزء من تلك الآلة ، ومضى فسدت قطعة منها وقتت حركتها . فإذا كنا نرغم على هذا الخط فمن الاستعجال أن يكون القضاء مجبولين على الظلم والإلاحتل النظام ونحوها في بلادهم جامعين .

فقال : هذا حق ، ولكني أقول إنهم يظلموننا نحن ، وقد وازنت بين إخلافهم وعدنا وبين وفاء الصحابة ، قللت : حقا إن هؤلاء القوم أخلفوا عهدهم معنا ، ولم تنفعهم ثقافتهم بالعلوم ، والصحابة كانوا أقرب إلى العدل مع الأمم منهم ، ذلك لأن هؤلاء أشبه برجل اتبع رأى الأطباء في الطعام والشراب فأكل الفاكهة والحضر ولكنه ابتلى بشرب الخمر واتبع الشهوات ، فهؤلاء وإن غذيت عقولهم بالعلوم الطبيعية والرياضية وصلحت كما تصلح الأجسام بالأغذية الصحية اتنابتهم أمراض اجتماعية أفسدت فطرتهم بالنسبة للأمم الشرق كما يفسد الجسم المعتدل بالأغذية الطبيعية إذا شرب الخمر أو أكثر من التبغ والقهوة والشاي والمهدرات الأخرى .

إن هذه الأمم يعطون تلاميذهم في جامعاتهم وكتباتهم درسا خاصا بأهم الشرق فيقولون : إياكم أن تعاملوا هذه الشعوب معاملة الأوروبيين لأننا نريد أن نقيم على حال أدنى ليكونوا تحت طاعتنا خاضعين ، وهذا جوابي عن اعتراضك الثاني ، ولا فرق بين هؤلاء الأوروبيين الذين يذلون الأمم الشرقية وبين كثير من أسلافنا بعد عصر الخلافة الذين ظلوا الأمم وخربوا البلاد (اقرأ في مقدمة ابن خلدون وارجع إليه في سورة الحمل عند آية : « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها » الخ . فقال شرحت صدرى شرح الله صدرى ، وبهذا تم الكلام على الإجابة على السؤال الثاني ، والحمد لله رب العالمين .

ما يخص ما تقدم

هنالك أخذ صديق العالم يحدثني في هذا الموضوع قائلا : إنى أخاف أن يكون هذا القول خارجا عن الموضوع . نحن في آية « الشمس والقمر بحسبان » وإنى لما سمعت منك أن دراسة هذه العلوم تعلم العدل خرجت عن الموضوع بذكر السياسة بين الشرق والغرب ، وأردت بذلك اختيار طريقك ، هل ما يقوله كثير من الناس حق بالنسبة لك من حيث إنك دائما تخرج عن دائرة التفسير ؟ قلت إن ما يقوله كنت ألاحظه أثناء كلامك واعلم أنك تريد إخراجي من الموضوع استدراجا ، ولكنى أنا أعلم أن الكلام لم يخرج عن الموضوع لما رأيته أنت نقصا للأسلوب أراه أنا كالا . فقال وكيف ذلك ؟ قلت إننا قلنا إن الموالم كلها مبنية على الحساب ، والحساب ثابت في النفس ، والعالم على مقتضاه ، قلنا إن الأعداد الأولية أقل من الأعداد التي تقبل القسمة ، وإن الأولية يعوزها بعض البحث ، والأعداد الكاملة تحتاج إلى بحث أتم ، والأعداد المتحابة العجيبة يعوزها تنقيب أكثر لجمالها ولقلتها وإبداعها وعجائبها ، وإن هناك التوالي الهندسية والمددبة ، والجذر والتربيع ، والكسر الدائر وغير الدائر ، وأثبت أن هذه العلوم تصقل العقول ولها دخل في تهذيب الأخلاق ، فلما اعترضت أنت على ذلك بأعمال الأكارسة والقياصرة ، وبأعمال أهل أوروبا أجبته بما أفتنك . وبعد هذا وذاك أرى أن هذا كله في تفسير الآية ، ألم تر رعاك الله أن الشمس والقمر مبنيان على الحساب . قال بلى . قلت والزرور بأقسامها كلها مبنيات على حساب الشمس والقمر ، فقال بلى . قلت أليست هذه هي العلوم الطبيعية والرياضية ؟ قال بلى . قلت أوليس قوله تعالى « ووضع الميزان ألا تطغوا في الميزان » راجع لعلم الأخلاق والسياسة معا لأن السياسة أخلاق أيضا في ساحات أعم من الأخلاق الفردية . قال بلى وربى . قلت إذن ما أوردته أنت لم يخرج بنا عن الموضوع بل هو إتمام له وأنت في ذلك من الصالحين . قال الحمد لله والشكر له ، وبهذا تم الكلام على الفصل الثاني في العدد الزائد والناقص والأعداد المتحابة فلنبتدى في :

الفصل الثالث في : الجذر والتربيع

والتوالي العددية والتوالي الهندسية

ولا أريد أن أطيل الكلام على بقية المواضيع هنا ، فمن أراد فليراجع ما تقدم في (سورة الداريات) عند آية : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » في المجلد الثالث والبشرى من هذا التفسير ، وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة الثانية في عجائب الحسبان في سورة الرحمن ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثالثة

زيادة إيضاح قوله تعالى « يخرج منها اللؤلؤ والمرجان »

اعلم أن اللؤلؤ على ثلاثة أنواع طبيعية ومولدة ، وصناعية ، وهذه سنتكلم عليها من (طريقتين : الطريق الأول) تميز كل منها ، وبين نفعها المادى في التجارة (الطريق الثانى) يبارت حملها على الحكمة في الحكمة .

الكلام على الطريق الأول وهو تمييز أنواع اللؤلؤ الثلاثة

اللؤلؤ الطبيعي

لقد تقدم الكلام عليه في (سورة الفاتحة) وهناك بيان أنه يخلق في (المحار) الذي يعيش في البحار ويتكون في باطنه : وهناك إيضاح كاف لحياة وأوصاف هذا المحار ، وزيد عليه هنا أن نقول :
لقد اختلف العلماء في سبب تكون اللؤلؤ في جوف المحار ، فمن قائل إن اللؤلؤ يتكون بسبب حيوان حلى صغير يدخل جسم المحار فتجتمع حوله المادة اللؤلؤية لتقتله ، وقد بحث (هردمان) و (هورتل) في لؤلؤ سيلان فقالا إن في قلب كل لؤلؤة بحثنا فيها نواة هي بذرة دودة من نوع الدود القرعى ، وواقفهما غيرها على ذلك
فهذان العاملان ومن واقفهما عينا نوع ذلك الداخل الغريب في جوف (المحار) الذي اجتمعت حوله مادة اللؤلؤ.

وقال الدكتور (جايموس) قولاً لا يخالف ما تقدم بل يوضحه فقط ، ذلك أنه امتحن نوعاً مخصوصاً من محار اللؤلؤ فوجد أنه تحمل فيه الدودة الحلمية المعروفة بلفظ (جنوفالس) وهذه الدودة يحيط بها كيس من نسيج بشرة المحار الذي يفرز المادة الصدفية ، فإذا ماتت أو خرجت من الكيس أخذ الكيس يفرز المادة اللؤلؤية طبقات بعضها فوق بعض فيكون لؤلؤة ، ولا يتكون هذا الكيس حول جسم آخر إذا دخل أنسجة الحيوان سواء أكان هذا الجسم جماداً أو حيواناً حليماً غير (الجنوفالس) إذن هذه الدودة المتخصصة هي سبب تكون اللؤلؤ في هذا النوع من المحار ، أما غيره فإنه يتكون بأى جسم غريب دخل المحار بدليل ما سياتى في اللؤلؤ الصناعي وإنه يتكون بإدخال أى جسم .

اللؤلؤ المولد

لما عرف الناس ما سبب تكون اللؤلؤ في جوف المحار قالوا لماذا لا نربيه كما نربي الدجاج والسماك وسائر الحيوان ؟ فمدوا إلى المحار ، وأدخلوا في جوف كل واحدة منه (هنة صغيرة) كالهنة التي تدخل في الهيئة الطبيعية فتكون اللؤلؤ ، ولكنه يحتاج إلى زمان طويل كالذي يقضى في اللؤلؤ الطبيعي ، فأخذوا يدخلون في جوف المحار (هنة كبيرة) فهذه يتكون حولها اللؤلؤ سريعاً على مقدار كبير حجمها ، وقد كسب القوم بهذا في التجارة مالا كثيراً بسبب العلم ، لولا العلم بسبب تكون اللؤلؤ ما أمكنهم تربيته ولا تصير زمنه ولا إكثاره ، ولا يعرف اللؤلؤ الطبيعي من المولد إلا بأشعة [إكس] .

اللؤلؤ الصناعي أو المقلد

جاء في تاريخ اللؤلؤ أن رجلاً فرنسياً سنة ١٦٥ م يسمى (جاكون) كان يفضل نوعاً من السمك في ماء عذب فرأى في غسانه لمعانا كالمعان اللؤلؤ حين يجف ، فخطر له أن يطلى به خرزاً من الزجاج بعد مزجه بشيء من الشمع حتى يلبس بالزجاج ، ففعل وصنع أول لؤلؤة صناعية في التاريخ ، فاشتهرت لأنه وأقبلت عليها التواني في ذلك العصر ، وصارت الغاية لا تحسب جواهرها كاملة إن لم يكن بينها عقد من هذا الخرز اللعاب ، وقد أصبحت هذه صناعة فرنسية أشار لها العالم (زوير) سنة ١٧١٦ ومصدر هذه المادة نوع من السمك يسمى (البنوس لوسيدوس) وفي اسكاترا يستخرجونه من قشر سمك (الرنكة)

المرتج . فهذه الأسماك تنزل بالماء العذب غسلا لطيفا حتى تنتظف من الملح والقدر ثم تحك الحراشف التي على بطنها بغصا سكين فترسب المادة اللؤلؤية في الماء ، وإذا أريد حفظها في الماء أضيف له شي من (الأمونيا) حتى لا يتطرق الفساد إليها سريعا ، وكيفية صنع الحرز الذي يطل بهذه المادة اللؤلؤية هو ما يأتي :

(١) أن يؤتى بحرز فارغ من الداخل يستحضر بنفخ زجاج عادي غير ملون في قوالب صغيرة بحسب الحجم المطلوب .

(٢) أن يؤتى بكتل صلدة من الزجاج ، فلينوع الأول من الحرز الزجاجي يطل من الداخل ، ثم يحشى بنوع من الشمع ملون أو غير ملون . أما النوع الثاني فيطل من الخارج إذ لا يوف له يطل ، وهذا يروق الأول في مشاكلته للؤلؤ الحقيقي ، ولكن طلاؤه معرض للدثور بخلاف الأول . ونمن العقد الواحد من هذا النوع من ربال إلى جنبه فقط : انتهى الكلام على الطريق الأول وهو تمييز أنواع اللؤلؤ . والحمد لله رب العالمين :

الطريق الثاني : بيان جمالها العلمي في الحكمة

هذا الطريق الثاني لا يتسنى معرفته إلا بعد فهم الطريق الأول لذلك قدمناه . إن الله عز وجل جعل هذه الدنيا ونظامها مرقاة للعقول الإنسانية ترتقي بها إلى معارج الحكمة ، فانظر إلى نظام اللؤلؤ ، وما اللؤلؤ إلا طبقات دقيقة (مباورة) أي مشكلة بأشكال منتظمة من كربونات الجير ، ثم إن هذا الذي نشاهده من الألوان الزاهية على سطحها لم يكن شيئا سوى تكسر أشعة النور على هذه الطبقات الدقيقة ، هذا هو اللؤلؤ وهذا هو السبب في جماله ، وهنا بيتدي العجب في العلم فنقول :

اللؤلؤ إذن جبر مع كربون : أي جبر مع لحم ، مادتان أتحدت إحداهما بالأخرى اتحادا خاصا بأجزاء محدودات ، امتصهما الحار من ماء البحر ، فالحار هو الذي يتغذى بهذه المواد الجبرية والمواد الفحمية وغيرها . وهذا الغذاء يصطنق منه هاتان المادتان : الجبر والفحم ، ثم يصيران جسما متحدأ واحداً ، وهذا الجسم يلعب لماذا يكون هذا الجمال ؟ ذلك الجمال بسبب ضوء الشمس وغيره ، فضاء الشمس الآتي لسا من طبقات بعيدة يقع على هذا الجسم الجبري الفحمي ، فيجد هناك ذرات منظمة تحيط بهذا الجرم صالحة لأن تمكس عنها ذلك النور فيحصل تجمج باهر وجميل ، فهذا هو جمال اللؤلؤ ، هو ناشئ من تدبير في باطن الحار ، وتدبير في ضوء الشمس ، وتدبير في هيئة خلق اللؤلؤة ، فهناك مادة من جبر ولحم ، وهناك نظام القدرات للظلم ، وهناك شماع الأنوار كالشمس ، وهذا قوله تعالى : « إن ربي لطيف لما يشاء » فظهر هنا في هذا كما في غيره لطفه في صنع اللؤلؤ ، إذ استخرجه من مواد معروفة عندنا لا يريق فيها ولا لمعان ، فما هو الفحم ؟ إن هو إلامادة مظلمة تحرقها فنستدفي بها ، وبها تجرى القاطرات والسفن في البحار ، وبها ندير آلاتنا ، ونصنع حبرنا وما نريد من الأعمال ، ومنه اشتقت ماثت الألوان في الصباغة ، وهكذا كان الغاز الذي تضاء به شوارع المدن الكبار كالقاهرة والإسكندرية وغيرهما ، إن الفحم أو الكربون هو نفس الناس على شرط أن يكون تقياً وهو اللؤلؤ على شرط اتحاده مع الجبر ، إن الله اشتق من هذه المادة لؤلؤا وما سا كما اشتق العقل في الإنسان من المادة الجامدة ، إن الفحم للظلم قد اشتقت منه الأنوار ، واشتق منه الجمال ، فالأنوار معروفة ومشاهدة ، وهكذا أنواع ألوان الصباغة ، وأما الجمال فهو مانحن بصدده من اللآلئ الجميلة ، حصل الله الجمال هنا من مادتين منبذتين . الفحم والجبر ليبين للناس أن كل ما حولكم فيه أسرار لانهاية لها بل كمن في كل مخلوق جمال لا يدركه الناس إلا بالعلم ، وأكثر هذا الإنسان مغرورون محجوبون ، والعلم هو الذي

يوظفهم لأمرين : رقى دنيوي ، و رقى نفسى ، أما الرقى الدنيوي فمثل ما ظهر فى هذا اللقاه من توليد اللؤلؤ وعدم الاكتفاء بما يكون من المهار بحسب طبعه كما قال الله تعالى : « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان » فجعل ذلك من الآلاء أى النعم ، وذكر لفظ رب وأضافه للمخاطبين فقال ربكما أيها الإنسان ، وبأىها الجان ، وذلك ليدلنا على أمرين . تربيته هو سبحانه لهذا اللؤلؤ ، وتربيتنا نحن له ، وهو اللؤلؤ المولد فإن الناس ربونه الآن ، ولعمرك ما ذكره الله هنا وعبر بما فيه معنى التربية إلا ليوقظ للمسلمين إلى أن فى ذلك علما نجب دراسته وجوبا كفاثا لرقى العقول ولرقى الصناعات بالتربية العملية من نوع الإنسان لهذا اللؤلؤ ، وكرر الله لفظ « رب » وراء كل نعمة من النعم فى هذه السورة إيقاظاً لنا أن نشكر فى تربية هذه العوالم كلها ونقف على الحقائق ، وهذا هو سر الفاعمة التى يقرؤها المسلم صباحاً ومساءً فيقول « الحمد لله رب العالمين » .

فسورة (الرحمن) التى جمعت ذكر المخلوقات فى الدنيا والمخلوقات فى الآخرة قد ناطت ذلك كله بالتربية وأفادت إيضاح (سورة الفاعمة) وبينت التربية وأنواعها إجمالاً ، فلم تذكر شمساً ولا قرماً ولا نجماً ولا شجراً ولا سماء ولا أرضاً ولا فاكهة ولا نخلاً ولا جبا ولا عصفاً ولا إنسا ولا جانا ولا شرقاً ولا غرباً ولا بحرأ ولا برزخاً ولا لؤلؤاً ولا مرجاناً ولا ناراً ولا نحاساً ولا سفينة فى بحر ولا جنة ولا حوراً أعينا ولا غيرها إلا ذكر بها مبرأ عنه بالنعمة والتربية ذكرى للمسلمين بعدنا ، فيسقرءون هذا القول وأمثاله ، ويدخلون فى بحر لحي من العلم والحكمة وهم مجدون .

من عجائب هذا اللقاه أنك ترى أن أنواع اللؤلؤ لم تفارق البحر سواء أكان طبيعياً أم مولداً أم كان صنعياً ، ألم تر أن الصناعى إنما هو عبارة عما يكون من مواد عالقة بحراشف السمك ، وهذه المسادة اللامعة يطل بها الزجاج ، فالطبيعى من المهار ، والصناعى مما يرى على حراشف السمك ، وهذا يطل به الزجاج إما من داخل وإما من خارج ، وما هو الزجاج ؟ إن هو إلا رمل متحد مع مغنيسيا وجير ، فرجع الأمر إلى أن الجمال من لحم وجير ورمل ، فأما للمادة التى تلتصق على حراشف السمك فإنما خلقت فيه لمنفعة نفسه ، ذلك أنه يعكس بسبب تلك المسادة بريق فضى وهاج عن بطنها ، فبذلك تخفى عن أعين أعدائها لما تلقى على أعين أولئك الأعداء من النور الذى يبهر أبصارها فلا تتمكن من رؤيتها فلا تقتنصها ، فتجذب من مادة جاءت للسمكة وقاية من الأعداء ، وللغادات الحسان جذبا للأحباب والأصدقاء « فتبارك الله أحسن الخالقين » . « وفى الأرض آيات للموقنين » وإلى هنا تم الكلام على قوله تعالى : « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » وبهذا تم تفسير (سورة الرحمن) والحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الأربعاء ١٧ من شهر أغسطس سنة ١٩٢٧ م .

تفسير سورة الواقعة

هي مكة

إلا قوله تعالى: أفبهذا الحديث أنتم مدمنون، وتعملون رزقكم أنكم تكذبون. فمدنية
آياتها ٩٦ - نزلت بعد طه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لَوْعَتِهَا كَأَذِيَّةٍ * خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ * إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ
رَجًّا * وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا * وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً * فَأَصْحَابُ
الْمَيْمَنَةِ * مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ
السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَى * وَقَلِيلٌ مِنَ
الْآخِرِينَ * عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ * مُتَكِنِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ
مُخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ * لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْفَكُونَ *
وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَنْخَيْرُونَ * وَلَحْمٍ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ * وَخُورٍ عَيْنٍ * كَأَمْثَالِ الْأَوْلَادِ
الْمُكْتُونِ * جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَنًّا وَلَا تَأْنِيًا * إِلَّا قِيلًا
سَلَامًا سَلَامًا * وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ * مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَنضُودٍ *
وِظَلِّ مَمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ *
وَقُرْشٍ مَرْفُوعَةٍ * إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * مُرَبًّا أَزْوَاجًا *
لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ * ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَى * وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ * وَأَصْحَابُ الشَّمَالِ
مَا أَصْحَابُ الشَّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلِّ مِنْ تَحْتُمُومٍ * لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ *
لَهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ * وَكَانُوا يَقُولُونَ
أَنْذَا بِنَّا وَكُنَّا زُرَابًا وَعِطَامًا * أَوَءَابَاؤُنَا الْأَوْلَادُ * قُلْ إِنَّ الْأُولَى

وَالْآخِرِينَ • لَتَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ • ثُمَّ لَأَنصُرَنَّ عَلَيْكُمْ أَنفُسًا لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَلَا شَاءُ لَهُمْ لَئِيْلَ الَّذِينَ أَقْرَبُوا • أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا يُصَدِّقُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا • فَيُصَدِّقُهُمْ فِي الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ الدُّنْيَا • لِيُكْفِرُوا بَأْسَ اللَّهِ الَّذِي كَفَرُوا بِهٖ فَيُكْفَرُوا بِهِ • وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّاسَ قَوْلًا لَا يَتَذَكَّرُونَ • أَلَمْ نَعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ السَّمْعَ كُلَّهُ حَسْبُ الْعِلْمِ • وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّاسَ قَوْلًا لَا يَتَذَكَّرُونَ • أَلَمْ نَعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ السَّمْعَ كُلَّهُ حَسْبُ الْعِلْمِ • وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّاسَ قَوْلًا لَا يَتَذَكَّرُونَ • أَلَمْ نَعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ السَّمْعَ كُلَّهُ حَسْبُ الْعِلْمِ • وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّاسَ قَوْلًا لَا يَتَذَكَّرُونَ • أَلَمْ نَعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ السَّمْعَ كُلَّهُ حَسْبُ الْعِلْمِ •

هذه السورة ثلاثة أقسام

القسم الأول في تفسير البسملة .
 القسم الثاني في ذكر السابقين وأصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة وجزأهم من أول السورة إلى قوله تعالى
 « هذا نزلهم يوم الدين » .
 القسم الثالث في ذكر العجائب الكونية والاسئلال بها على وجود الخالق سبحانه وتعالى وقدرته ،
 واختتام ذلك بملخص القسم الأول .

القسم الأول في تفسير البسملة

أكتب هذا في صباح يوم السبت ٢٠ أغسطس سنة ١٩٣٢ م ذاكرا ماشاهدته في مساء يوم الثلاثاء
 الثالث ١٦ من هذا الشهر ، ذلك أنى توجهت إلى مزرعتنا بجهة المرج بالقرب من القاهرة سيرا على قدمي
 كما ذكرت نظيره سابقا في هذا التفسير ، لأن ذلك أقرب للصحة وأروح للبدن، وكل مؤلف لا يسير كل يوم
 أميالا على قدميه لا حظ له غالبا في انتفاع الناس بمؤلفه لضعف النشاط في روحه واعتلال صحته ، وبينما أنا
 سائر إذ رأيت امرأة أعراية ترعى غنات وشابا معها يساعدها في ذلك ، والمرأة لابسة أهداما قالصة تحمل
 حذلة على ظهرها فخطر لي ما يأتي :

هذه المرأة في نظر هذا الشاب أجمل امرأة وأشرف ، لأنهم يرون الفلاحين وأهل المدينة أدنى منهم
 منزلة وأقل سعادة ، ثم وازنت بين هذه المرأة وأختها التي تعيش في القصور بمصر وهي جارتها ، وهذه
 الأخيرة لا ترى لها سعادة إلا في أن تكون مرفهة البال ، محبوبة في القصر ، قد حرمت من الشمس
 وضحاها، والقمر إذا تلاها، وتمتد بأنواع اللذات في قصرها ، ولاعمل لها غالبا إلا أن تزين صباحا ومساء
 وإذا ذكرت لها هذه الأعراية حقرتها وعدتها من سقط المتاع ، إذن السعادة في هذه الحياة تابعة للعقيدة ،
 فالبدوية سعيدة بعقيدتها ، والحضرية سعيدة بعقيدتها وإن كانت الأولى أقرب للحقيقة لصحة بدنها وارتياضا
 في الهواء وضوء الشمس ، وهاهنا ظهرت لي هذه القاعدة : السعادة تتبع العقيدة ، فأهل كل دين في الأرض
 يرون سعادتهم بدينهم سواء أعبدوا صنما أم فيلام شجرا أم حجرا ، وفي الآية : « وقال إنما اتخذتم من
 دون الله آوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويبعض بعضكم بغيرهم وما أولئك
 النار وما لكم من ناصرين » فالناس جميعا يتبعون ما ألقى لهم من العقائد والآراء ، فأرباب كل حرفة سعاداء
 بحرفتهم ، بل اللصوص يظنون أنفسهم في مجبوحة السعادة والهناء .

اللهم إن رحمة كل حي في الأرض رحمة جزئية ، وهذه الرحمات الجزئية جالمتنا تحيط بها الشمس
 والأقمار والكواكب ، تلك العوالم التي تدوم قرونا وقرونا ، وعشرات آلاف آلاف السنين ، إذن هذه
 الرحمات الجزئية فوقها رحمة كلية كأنها دائمة ، تشرق الشمس وتغرب وهكذا القمر والنجوم ، جل الله ،
 جل الله ، هب وهب اشروق وغروب للكواكب، وحياة وموت لمن على الأرض وهم يسعدون سعادات
 جزئية سواء أكانت تلك السعادات ضالة خاطئة ، أم مهدية سالحة ، عبد الناس الشمس والقمر . لماذا
 عبدوها لسواهما ، ومالا دوام له لاسعادة فيه ، السعادة الوقنية كلا سعادة ، فليعيش الناس في الأرض

وليجوتوا وليتمتعوا وليأكلوا ولينأكلوا ولينأكلوا ولينأكلوا ، فهذه سعادات جزئية ، بل الشمس والقمر والنجوم أيضا لا دوام لهم فقد ثبت أنهن متغيرات ، وسيأتي يوم تبدل فيه الأرض غير الأرض والسموات كما أثبت ذلك العلم الحديث .

الله أكبر ! إذن سعادة نفوسنا بعقائدها ، والعقائد المرصنة للتغير لا سعادة بها ، وأهل الأرض غير باقين ، والشموس والأقمار والكواكب ذاهبات من الوجود كأهل الأرضين ، إذن هذه أيضا رحمت جزئيات والرحمة الكلية مصدر تلك الرحمت ، إذن الرحمة هي ثلاثة أقسام : رحمة جزئية سريعة التغير ، ورحمة جزئية بطيئة التغير ، ورحمة كلية هي مصدر الرحمتين السابقتين ولا تتغير ، ولقد أثبتنا أن السعادة تتبع العقيدة ، بل لا دوام لحى من العقلاء إلا بغيره يحتديه ورأى يتبعه ، إن الآراء غذاء العقول كما أن الحبوب وأنواع النبات غذاء الأجسام ، وأكبر العقول من تنفذ بأكبر العلوم وأبهاها وأدومها ، وهو ذلك المصدر الذى منه استمد ذلك الجمال والبهاء وأنواع الرحمت من شموس وأقمار وأغذية وفواكه وأنواع الحيوان والإنسان يعبد الناس ربهم ، ويظن جهالم أن ذلك أشبه بما يفعله العبيد مع ساداتهم وهو خطأ فاضح ، إن الناس يفرمون بأعظام الناس لهم ، ولكن الله هو الذى خلق الناس فلا وزن لهم عنده من هذا القبيل ، لأنهم لا عمل لهم إلا بإعاقته هو ، أما السيد والملك فعمل الناس ليس مستمدا منه ، فلذلك يفرح بأعظمتهم ، إذن قول الله تعالى « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » ليس يقصد منه إلا منفعة العابدين وارتقاؤهم ، وقد قدمنا أن السعادة على مقتضى العقائد والآراء ، فكلما ازداد الإنسان عبادة أو علما بهذه الدنيا وجمالها ازدادت النفس اطمئنانا وارتقاء وحكمة بمن هو باق ، ويتبع بقاءه بقاء الشمس والقمر وكل من على الأرض ، وعلى ذلك تبقى هذه النفوس إلى الأبد حية سعيدة لأنها تحيا وتتبع بحياة بقاء من تفكر فيه بعبادة ويعلم ، إذن بقاء الناس بعد الموت سعاد لمن يكون ولن يتم إلا بأن نفوسهم تمتلئ علما بمن هو أجمل وأدوم وأرحم الأحياء وهو الذى أبدع هذا الجمال والبهاء والحسن والإشراق ، وهذا معنى (بسم الله الرحمن الرحيم) فى أول سورة (الواقعة) هنا .

فى سورة الواقعة قوم أشقياء بالنار وقوم سعداء بالجنة ، وأعقب ذلك بعجب وأى عجب ! ذكر الماء والنار والنبات والإنسان والشرقات فى السموات ، فما على الأرض ليس له إلا السعادة الجزئية لقله دوامه والشرقات فى السموات أدوم وأبقى ، وقد ذكرت بعد ذلك فى السورة : « فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسام لو محملون عظيم » ، إذن عظمت النجوم لا تمقل إلا بالملم ، ذلك أنها أدوم من الماء والنار والحيوان والنبات المتقدم فى السورة ، وختم السورة بالسعادة العليا وهو القسم الثالث من أقسام الرحمة ، وهى السعادة الدائمة فقال : « فسيح باسم ربك العظيم » فذكر التسبيح ، وذكر الرب ، وذكر العظمة ، التسبيح تنزه عن كل مالا يليق لمقام القدس ، فإذا خلق الموت والحياة فى أهل الأرض ، وإذا غير الشموس والأقمار فى السموات فذلك لأن العوالم لا يتم نظامها إلا بهذه الدرجات ، فكل ألم وكل شر جزئى لم يكن إلا مقدمة للرحمة ، والرحمة الحقيقية امتلاء النفس بمعرفة الربوبية والعظمة الباقيتين : ولولا ذلك لم تخلق هذه النفوس فى الأرضين .

فضحة الرحمت

لما وصلت إلى السمعة أخذت أطوف بين الحقول ، وأجلس تحت الأشجار ، فخليل إلى أن نمت الأشجار الباسقات ، وحفيف الأوراق ، وغور الأعشاب ، وتريد الطيور ، وطنين الحشرات ، وهبوب الفسحات

في الطاح ، وأن ضياء الشمس ونور القمر وتلاؤل الكواكب نهاراً وليلاً لم يحقن إلا ليكن أعراساً لهذه الأرواح التي تزف الآن من عالم الحشرات إلى عالم السكك والجمال ، فالغيات المذكورات قائمات مقام الدفوف والمزامير في الأعراس الأرضية ، والمشرقات في السموات قائمات مقام الشاعل في الأعراس ، بل أنا حينما جلست في الحقل تخيلات أن نفسي هي التي تزف إلى ذلك العالم الجميل ، والمشرقات في السماء تزف للوك وكان الرحمت العليا تمدني بهذه الغيات ، وتؤنسني بحفيف الأشجار ، وبدائع الأزهار ، وتقول لي : هيا إلى العلا ، قم فبشر أهل الأرض بهذه البشارات ، إن في الأرض نفوساً امتلأت بهذه المعاني وفهمت هذه الرحمت ، وهذه هي التي تزف إلى العوالم الجميلة ، وهذه الأرواح هي الخلائف في الأرض ، وهي التي تفهم آية : «وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات» وإلى هنا تم الكلام على القسم الأول في تفسير البسملة كتب صباح يوم السبت في التاريخ المذكور ، والحمد لله رب العالمين .

القسم الثاني

في ذكر السابقين وأصحاب اليمين وأصحاب المشأمة وجزأهم
مقدمة في مناسبة السورة لما قبلها

اعلم أن هذه السورة بينها وبين (سورة الرحمن) مشابهة ، ففي هذه ذكر النعم في القسم الثالث ، وهو خلق الإنسان وخلق الزرع والماء والنار ، وفيه الإقسام بمواقع النجوم على عظمة القرآن ، وهذه كلها من آلاء الله كالمذكورة في سورة الرحمن ، وفي القسم الثاني وصف الجنة والنار ، وذلك في سورة الرحمن فيبين السورتين تشابه ، وإنما قدم ذكر القيامة وأصحاب الجنة وأصحاب النار ووصف المقامين ليناسب آخر سورة الرحمن ، فإن القسم الثالث منها في وصف أهل النار وأهل الجنة والعذاب والنعم ، وقد وصف أهل الجنة لمناسبة ذكره في آخر السورة : فكأن (سورة الواقعة) من حيث ترتيبها بعكس (سورة الرحمن) ابتداءً وانتهاءً ؛ ولتشرع في التفسير اللفظي للقسم الثاني من السورة فنقول ومن الله التوفيق :

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(إذا وقعت الواقعة) إذا قامت القيامة سميت واقعة لتحقق وقوعها (ليس لوقعتها كاذبة) أي نفس كاذبة ، فهي حين تقع لا تكون نفس تكذب على الله فتكره ، ولا على القيامة فتسكرها ، لأنها عتقتها بالوقوع والظهور والمعاناة والعذاب ، فأما في الدنيا فما أكره النفوس الكاذبة على الله بإنكاره وإنكارها لأنهم لم يعانوا العذاب كما عاناه العذبون ، هي (خافضة) لقوم (رافعة) لآخرين ، وأيضاً تزيل الأجرام من أماكنها فتخفض وترفع ، وهذا بيان لمعناها ، فإن الوقائع العظام هذا شأنها (إذارجت الأرض رجاً) يقول تعالى هي خافضة رافعة وقت تحريك الأرض حركة شديدة وزلزلتها بحيث ينهدم ما فوقها من بناء وجبل ، وقوله (وبست الجبال بساً) أي صارت كتيها مهيباً وسيرت على وجه الأرض حتى ذهب بها ، يقال بس الفم إذا ساقها (فكأنها منبثاً) منتشراً (وكسماً أرواحاً) أصنافاً (ثلاثة) ومعلوم أن كل صف يذكر أو يوجد مع صف آخر يسمى زوجاً كالعين والرجلين واليدين والتعليق فكل منهما يسمى زوجاً ، وهما

مما زوجان فهاتنا أزواج ثلاثة لا زوجان (فأصحاب الجنة ما أصحاب الجنة ، وأصحاب للشامة ما أصحاب
 للشامة) أى فأصحاب للزلة السنية وأصحاب للزلة الدنية ، لأن العرب كانوا يقيمون باليمن ويتشاءمون
 بالثمال ، ويصح أن يقال أصحاب اليمن والشؤم ؛ وقوله : « ما أصحاب الخ » أى أى شئ هم ، وهو تسيب
 من جالم في اللقامين ارتفاعاً وأعطاطاً وهو مبتدأ وخبر أخبر بهما عن البتداء الأول في اللقامين (والسابقون)
 مبتدأ : أى السابقون إلى الحيرت في الدنيا خبره (السابقون) إلى الجنات في الآخرة (أولئك القربون في
 جنات النعيم) أى هم في جنات النعيم (ثلث من الأولين وقليل من الآخرين) أى هم ثلث ، وثلثة الأمة
 الكثيرة : أى هم كثير من الأولين ، يعنى الأمم السالفة من آدم عليه السلام إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم (وقليل من
 الآخرين) أى أمة محمد صلى الله عليه وسلم ولا ينافى هذا ماورد : « إن أمتي يكترون سائر الأمم ، فمضى أن يكون
 سابقو سائر الأمم أكثر من سابقى هذه الأمة ، ويكون أتباع هذه الأمة أكثر ، ويقول بعضهم : من الأولين
 متقدمى هذه الأمة ، ومن الآخرين متأخريها ، لما روى مرفوعاً أنهما من هذه الأمة . يقول الله : هم ثلث من
 الأولين وقليل من الآخرين كالتون (على بررموضونة) منسوجة بالذهب مشبكة بالدر والياقوت (متكتين
 عليهما) على السرر (متقابلين) لا ينظر بعضهم في قفا بعض ، فهم حسنوا الشرة في المجالسة ، لاسيما إذا صاروا
 أرواحاً صافية ، فهناك صفاء العيش ، وذهاب الأخلاق السادية من كل ما يوجب الاقتراق أو غلبت الروحانية
 على الجسائية (يطوف عليهم) للخدمة (ولدان مخلدون) مقبون أبدأ على هيئة الولدان وطراوتهم (بأكواب
 وأباريق) الأكواب جمع كوب ، وهى الأنداح المستديرة الأفواه لا آذان لها ولا عرى ، (والأباريق
 جمع إبريق ، وهى ذوات الحراطين والمرى وكأس) وقدح فيه شراب ، فإن لم يكن فيه شراب فليس بكأس
 (من معين) من حمر تجرى من العيون (لا يصدعون عنها) أى لا يفرقون بسببها كما يحصل في أهل الدنيا ،
 أولاً يصدع صداعهم بسببها كما في حمر الدنيا فإنها تصدع وتحدث الاقتراق حال السكر والغربة (ولا يفرقون)
 ولا يسكرون ، يقال زرف الرجل ذهب عطفه بالسكر ، وقرفى ، بكسر الزاى أى لا ينفذ شرابهم ، يقال أرف القوم
 إذا فنى شرابهم (وفاكهة مما يتحرون) بأخضون خيره وأفضه (ولحم طير مما يشتهون) يشتهون (وحوار عين)
 جمع حواراء عيناء : أى ولحم حوار عين ، أى يبيض صخام العيون ، أو مطروف على ولدان ، أى يطوف عليهم
 ولدان وحوار (كأمثال اللؤلؤ للكنون) الصون مما يضربه في الصفاء والنقاء ، يفعل ذلك كله بهم (جزاء
 بما كانوا يعملون) أى بأعمالهم (لا يسمعون فيها لغواً) باطلاً (ولا تأثيها) ولا نسبة إلى الإنم . أى لا يقال
 لهم أتمم (إلا قبلاً) أى إلا قولاً ، ثم أبدله منه (سلاماً سلاماً) أى إلا قولاً ذا سلامة ، وهذا استثناء منقطع
 أو سلاماً مفعول قبلاً : أى لا يسمعون فيها إلا أن يقولوا سلاماً سلاماً : أى أنهم يفشون السلام بينهم فيسلمون
 سلاماً بعد سلام ، ويسلم الله عليهم ، والللائكة ، فهم آمنون من للكروه أبداً بخلاف أهل الدنيا إذ لا سلام
 في الأرض ، فالأمم في حرب ومكر دائماً ، والأفراد يتعادون ، والله من فوقهم يرسل عليهم صواعق وأنواعاً
 من للكروه ؛ أما في الجنة فهذا كله لا وجود له ، فهم متحابون ، والله لا يرسل عليهم من للكروه ما نراه
 الآن في الدنيا (وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين في سدر مخضود) السدر شجر الزبق ، والمخضود الذى لا شوكة
 له كأنما خضد شوكة (وطلح منضود) الطلح شجر اللوز ، والنضود الذى تضد بالحلل من أسفه إلى أعلاه ،
 فليست له ساق بارزة (وظل ممدود) منبسط متمد لا يتقلص ولا يتفاوت ، فهو أشبه بظل ما بين طلوع الصبح
 وطلوع الشمس (وماء مسكوب) مصبوب يسكب لهم كما يشاءون بلا تعب ولا نصب ، فهاتنا أصحاب اليمين
 ونعيمهم التام هو أكل ما يتصور لأهل البوادي ، ونيهم السابقين في تمامه أشبه بأكل ما يتصور لأهل المدن
 وذلك ليظهر التفاوت بين المقامين بما نراه نحن الآن في أهل الدنيا . قال تعالى (وفاكهة كثيرة) كثيرة

الأجناس (لا مقطوعة) لا تقطع في وقت (ولا ممنوعة) ولا تمنع عن يتناولها (وفرش مرفوعة) أي نساء مرتفعة على الأرائك (إنا أنشأناهن إنشاء) أي ابتدأناهن ابتداء جديدا من غير ولادة ، وورد في الحديث : « هن اللواتي قبضن في دار الدنيا عجائز شطرا رمضا جعلهن الله بعد الكبر أنرابا على ميلاد واحد كلما أنهن أزواجهن وجدوهن أبكارا » (جعلناهن أبكارا) عذارى (عربا) جمع عروب ، وهي للتعبية إلى زوجها الحسنة التبعيل (أنرابا) مستويات في السن بنات ثلاث وثلاثين سنة وأزواجهن كذلك فهؤلاء أنشأناهن (لأصحاب اليمين ؛ ثلثة من الأولين ، وثلثة من الآخرين) أي هم ثلثة من المؤمنين الذين هم قبل هذه الأمة ، وثلثة من الآخرين . وهم مؤمنو هذه الأمة (وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال في صوموم وحميم) في حر نار ينفذ في اللسام ، وماء متناه في الحرارة (وظل من محموم) من دخان أسود في جهنم (لا يارد ولا كريم) أي لا يبارد الهواء ولا كريم للنظر ، فإن فائدة الظل أمران : دفع الحر وحسن المنظر ؛ وهذا الظل من دخان حار أسود ، فلا يبارد من أذى الحر ولا يسر النظر ، ثم بين سبب ذلك فقال (إنهم كانوا قبل ذلك) في الدنيا (مترفين) منعين فشفطهم ذلك التمتع عن الاعتبار والإدكار كما في آية أخرى : « أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون » وهذا قاعدة عامة في المتعتمين من المؤمنين والكافرين ، فالنتعم يصد الإنسان عن تهذيب نفسه ، بل إن عاقبة التمتع في هذه الدنيا الفقر والقلّة كما يفعل بعض المسلمين ، إذ يتقربون من الفرنجة ويحاربون إخوانهم المسلمين طلبا لحطام الدنيا كما نسمع اليوم في بعض بلاد الإسلام ذلك لأجل التمتع فهؤلاء جزاؤهم يتبدى في هذه الدنيا فيصرون أذلاء هم وأقاربهم ، وهكذا للسرفون لأجل النعمة يصبحون أذلاء ، ثم قال تعالى : (وكانوا يصرون على الحنث العظيم) أي الذنب العظيم ، وهو الشرك ، ومن هذا القبيل بلغ الغلام الحنث أي الحلم ، وهو وقت التواخذه بالذنب (وكانوا يقولون ألفنا متا وكنا ترابا وعظاما أننا لمبعوثون أو آباءنا الأولون) كررت الممزة للدلالة على أن البعث يكون إنكاره أشد إذا كنا ترابا وعظاما ، ويكون أكثر شدة إذا تعلق بالآباء الأولين لتقدم عهدهم (قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم) أي أنهم يجتمعون ويحشرون ليوم الحساب (ثم إنكم إليها المصالحون للكذبون) بالبعث ، والخطاب لأهل مكة ومن نحا نحوهم (لا تكون من حجر من زقوم) من الثانية للبيان ، والأولى للابتداء (فالثون منها البطون) لشدة الجوع ، وشجرة الزقوم تنبت في أصل الجحيم (فشاربون عليه من الجحيم) لقلبة العطش (فشاربون شرب الميم) أي الإبل التي أصابها الميام ، وهو داء يشبه الاستسقاء جمع أهيم وهيء كأحمر وحمراء (هذا زلهم يوم الدين) أي ما ذكر من الزقوم والجحيم ما أعد لإكرامهم ، وهذا كقول حمرو بن كلثوم :

قريناكم فمجلنا قراكم قبيل الصبح مرداة طحونا
يكون نغالها شرقي نجد ولهوتها قضاة أجمعينا

يقول قريناكم وقت الفجر بصخرة تطحنكم . أي حاريناكم فمجلناكم ، وهذا هو إكرامكم باعتباركم جنتهم ضيفا في ديارنا ، هكذا هنا إكرام الله هؤلاء بالزقوم والجحيم . انتهى التفسير اللفظي للقسم الثاني من السورة ؛ والحمد لله رب العالمين .

القسم الثالث : في ذكر المجائب الكونية

والاستدلال بها على وجود الخالق سبحانه وتعالى وقدرته

قال تعالى (نحن خلقناكم فلولا تصدقون) أي فهل تصدقون بالبعث ؟ ومن قدر على الابتداء يقدر على الإعادة (أفرايتم ما نعبدون) ما نعبدون في الأرحام من الطف (أنتم تخلقونه) تقدرونه وتصورونه وتجملونه بشرا سوا (أم نحن الخالقون ؟ نحن قدرنا بينكم الموت) أي جعلناكم في الموت سواء شربكم ووضعكم ويكون قدر بمعنى قضى ، أو قسمناه عليكم قسمة الأرزاق على اختلاف وتفاوت فاختلفت أعمالكم من يوم لل سنة إلى مائة أو أكثر أو أقل (وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم) وما نحن بواجزين عن أن نأتي بخلق مثلكم بدلا منكم في أسرع حين (وننشئكم) ونخلقكم (فبما لا تعلمون) أي ننشئكم النشأة الثانية في وقت لا تعلمونه ولا تعلمون كيفيته كما علمت النشأة الأولى من جهة التنازل . والقصد التحريص على العمل الصالح ، فإن التبدل والإنشاء أولها بالموت ، وثانيهما بالبعث ، وكلاهما لا يعلم وقته ، فلا الموت معلوم ولا البعث وقته محدد ، فليتخذ الإنسان عدته قبل القوت (ولقد علمت النشأة الأولى) الحلقة الأولى ولم تكونوا شيئا مذكورا (فلولا تذكرون) أن من قدر عليها قدر على النشأة الأخرى (أفرايتم ما تحنون) أي ماتت من الأرض وتلقون فيه البذر (أنتم تزرعونوه) تبتون (أم نحن الزارعون ؟) للبتون (لو نشاء لجلناها حطاما) هشيا (فظلمت نفسكم) تنجبون عما نزل في زرعكم ، أو تندمون على اجتهادكم فيه وغري* فظلمت على الأصل ، وتقولون (إنا لمفرمون) والفرم : ذهب المال بغير عوض (بل نحن) قوم (محرومون) حرمانا رزقا ، إذ حرمانا الذي كنا نطلبه من الربيع في الزرع (أفرايتم الماء الذي تشربون ، أنتم أنزلتموه من المزن) المزن : السحاب واحده مزنة ، أو المزن السحاب الأبيض وماؤه أعذب (أم نحن المزلون ؟) بقدرتنا ، والرؤية وهي بمعنى العلم قد علقت عن العمل بالاستفهام (لو نشاء جملناه أجاجا) معنا أو مرا لا يقدح على شربه (فلولا تشكرون) فهل تشكرون أمثال هذه النعم (أفرايتم النار التي تورون ؟) تقدحون من الزند ، يعني التي تقدح منها النار كما تقدم في (سورة يس) وما شجرتان رطبثان : المرخ والغفار ، فأحدهما يتبر زندا ، والثاني يتبر زنده ، والماء يقطر منهما ، والبار عند القدح تخرج بينهما ، وليست النار خاصة بهما بل هما ممتازتان ، قد قالوا : في كل شجر نار واستمجد المرخ والغفار (أنتم أنشأتم شجرتها أم نحن للنشون ؟) الشجرة التي منها الزناد ، أو نار الدنيا فلها تذكره بنار جهنم . عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ناركم هذه التي توقدون جزء من سبعين جزءا من نار جهنم » وقد مضى أن هذا يوافق الكشف الحديث في (سورة آل عمران) محققا هناك (نحن جعلناها) جعلنا نار الزناد (تذكرة) تبصرة في أمر البعث وفي الظلام ونموذجا لنار جهنم (ومثانا) ومنفعة (للمقوين) الذين يتزولون القواء وهو القفر ، أو للذين خلت بطونهم أو مزادهم من الطعام ، يقال : أقوت الدار إذا خلت من ساكنها ، فهؤلاء للقيون جعلت النار لهم لإنضاج طعامهم فيصلح لأكلهم (فسبح باسم ربك العظيم) أي قل سبحانه ربك العظيم ، ولما نزل قال صلى الله عليه وسلم « اجعلوها في ركوعكم » (فلا أقسم) يقول تعالى : أنا لا أقسم لأن الأمر واضح فلا حاجة للقسم ، أو فأقسم ولا مزيدة لتأكيد ، وكلا الوجهين دال على شرف النجوم ومواقع النجوم ، وأن الناس ينبغي أن يشكروا فيها ويبتروا بها ، وقوله (بمواقع النجوم) أي بمساقطها في مغارها أو منازلها . ولما كان أمر النجوم في مواضعها عظيما شأنه أعقب ما تقدم بحجة مخرنة

في أخرى معترضة بين القسم والقسم به إشعاراً بظلمتها وآثارها النافعة فقال (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم)
وقوله (إنه لقرآن كريم) حسن مرضى نفع جم المنافع (في كتاب مكيون) الكتاب اللوح المحفوظ ،
والسكنون المصون فلا يطلع عليه إلا المقربون ، فقوله (لا يسه إلا المطهرون) بيان لسكونه مكتوباً فلا يطلع
على اللوح المحفوظ إلا المطهرون من المادة التي تموت عن إدراك الحقائق ، ولا يكون ذلك إلا في الملائكة ،
وإن جعل الكتاب هو القرآن كانت صيافته ألا يأتيه الباطل ولا يطلبه إلا المطهرون من الكفر . وقوله :
(تزييل من رب العالمين) أي منزل منه وهو صفة رابعة للقرآن (أفبهذا الحديث) القرآن (أنتم مدهسون ؟)
مهازون ، يقال أدهن في الأمر لأن جانبه فيه ولم يتصلب نهاوناً به (وتجمعون رزقكم) أي شكر رزقكم
(أنكم تكذبون) بمن منحه فتتسبون الرزق للأنواء ، فتقولون مطرنا بنوء كذا ، أو تجمعون حطكم وتضيق
من القرآن أنكم تكذبون (فلولاً إذا بلغت الحلقوم ، وأنتم حينئذ تنظرون ، ونحن أقرب إليه مسك
ولكن لا تبصرون ، فلولاً إن كنتم غير مدبئين ترجمونها إن كنتم صادقين) لولا : للتخصيص في الآيتين ،
والعمل الذي يستلزمه للتخصيص هو ترجمونها ، ولولا الثانية مكررة للأولى للتأكيد ، ومدبئين : محريبين
وم القيامة ، أو مملوكين مقهورين ، يقال دانه إذا أذله واستعبده ، يقول الله لأهل الميت : هلا ترجمون
مس ميتكم إذا بلغت الحلقوم وهو يعالج سكرات الموت إن كنتم غير مملوكين؟ والحال أننا نحن أقرب إليه
مسك بقدرتنا وعلتنا وبملائكتنا وأنتم تنظرون إلى المتضرر ولكن لا تعلمون ذلك ، أولاً تبصرون الذين
حسروهم من الملائكة . والمعنى أنكم أيها الناس شأنكم عجب ! جحدتم آيات الله ، وكذبتم رسله ، وكتابه ،
وقلمه هو سحر واقراء ، وجعلتم رزقكم من الأنواء ، فمخلص حالكم أنه خالق ولا رازق ، وإذا كان الفعل
لا بد له من فاعل . وقد نفيت الله وكذبتم رسله ، فإذا الفاعل لهذا كله أنتم لأن الخالق إمام الله وإمام أتم ،
فإذا نفيت الله فأنتم الخالقون ، إذن فلما لا ترجعون الروح لبيتم وهو يعالج سكرات الموت فإن كنتم
صادقين فارجموها الحق أنكم لا تعلمون بالبرهان فلما لم تروا الفاعل كذبتم به ، وهذه صفة الحيوان
والجهال ، إذ للدليل علوم فليس عدم رؤية الشيء دليلاً على عدمه (فأما إن كان) المتوفى (من المقربين
فروح) فله استراحة وفرح ورحمة (وربحان) ورزق طيب (وجنة نعيم) ذات نعم (وأما إن كان من
أصحاب اليمين فسلام لك) بأصاحب اليمين (من أصحاب اليمين) أي من إخوانك يسلمون عليك : أي
وبالسلام لك ، أو فسلام لك يا محمد ، أي سلامة منهم ، أي فلا تهم لهم فإنهم سلموا من عذاب الله (وأما إن
كان من المكذبين) بالبعث (السالين) عن الهدى وهم أصحاب الشمال (فزل من حميم وتصلية جحيم) إذ
يجدى الفرح محوم النار ودخانها ، وهو الذي جعل زلاً لمقدمه كما يجعل للضيف كما تقدم على سبيل الإهانة ، والتصلية
الإدخال (إن هذا) الذي ذكر في السورة (لموحق اليقين) أي حق الخبر اليقين الذي لا شك فيه (فسيح باسم ربك
العظيم) أي فتره ربك العظيم عن كل ما لا يليق به ، أو فصل بذكر ربك العظيم وأمره ، وكان صلى الله عليه
وسلم يقول في ركوعه : « سبحان ربّي العظيم » وفي سجوده « سبحان ربّي الأعلى » انتهى التفسير اللفظي
للقسم الثالث من السورة : والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذه السورة^(١)

في هذه السورة لطيفتان :

اللطفية الأولى في آية : « إنهم كانوا قبل ذلك مترفين » وهي رسالة أرسلتها إلى بلاد المغرب الأقصى يوم الأربعاء ٢٣ مارس سنة ١٩٣٢ م ثم نشرت هناك .
اللطفية الثانية في قوله تعالى : « نحن قدرنا بينكم الموت » .

اللطفية الأولى في قوله تعالى : إنهم كانوا قبل ذلك مترفين

تحذير المسلمين من الخطر فيما يشربون

أيها المسلمون : أحذركم من كل ما يعطيكم لذة وقتية ، ويمتعه انحلال في القوى وضرر عظيم . أيها المسلمون : أنا لا أقول لكم دعوا الخمر فإنها محرمة فإنكم بذلك عالمون ، ولكني أقول لكم فوق ذلك إنها جعلت غملا لاصطياد أمم الإسلام وإهلاكهم وإذلالهم وإنها كقوامم فيصبحون صرعى الأوهام في ديارهم خادمين .

أنا لا أقول لكم إن أمريكا المسيحية حرمت الخمر حفظا لأهل بلادها من عادات الدهر ومصائب المرض واخل العقول وضمف الأجسام . أنا لا أقول ذلك لكم لأنكم به عالمون ، فإذا كنتم تعلمون ذلك فاعلموا أنكم أولى بذلك المنع ، لأنكم أولا مسلمون ، ولأن كثيرا منكم تحت دول مستعمرة تنتهز الفرص لإذلال المحكومين .

وهل أنا كم نأ أهل الأندلس قديما ؟ وقد يش با باروما ودوق فينيزيا وبارونات أوربا من إخضاع الأمة العربية إذ ذاك ، وكيف أشار عليهم (براق بن عمار) بأن يمددوا معاهدة لحرية التجارة والتعليم والدين حتى يتاح لشبانهم شرب الخمر والتمتع بلذات الحياة ، فتقل الحمية والنخوة والروءة ، وبذلك يخضعون ثم يطردون ، وما وصلت تلك المعاهدة إلى مالك بن عباد بقرطبة وقد فرغ من تحصين مدائنه وقلاعته حتى أرسلها للأمرأء فأقروها ، ولم يكذب عجب مدادها حتى أسسوا أربع مدارس كبرى على نفقة (دوق فينيزيا) وصار عدد البشرين بالأندلس ألفا ، وعدد المعلمين بالمدارس التي أنفق عليها البابا ٤٥ ، وأنفق البابا من خزائنه لترويج الخمر خمسمائة ألف (فلورين) راجع كتاب [غادة الأندلس] :

- (١) هناك شرب الشبان الخمر جهارا نهارا .
- (٢) وخلعوا رداء الحياء والحشمة .
- (٣) وحرقوا عوائد آبائهم ودولهم .
- (٤) ولبسوا الحرير ونبذوا الصوف والشعر .
- (٥) وأهملت تعاليم البلاد .

(١) يقول المؤلف : هذه اللطائف لم يكن لها وجود عند التأليف ولم يفتح الله بها إلا عند فهم هذه

السورة للطبع .

وكانت نتيجة ذلك ما تعرفون أيها الشبان مما فعله فرديناند وزوجته إزابيلا ، وهو طرد العرب من تلك البلاد أجمعين أكتفين أصعبين .

أيها السلمون : حذار أن تظنوا أن الرواية تمت فصولها ، إن للرواية لديولا ، آهجون أن أحدنكم بشأنها ؟ استنوا إلى واحصوا : تملون في بعض الروايات أن النبي صلى الله عليه وسلم أنذر السلمين وحذرم من السبع الدجال ، وجاء فيها أن معه جنة ومعه نار ، وأن من اغتر بجنته دخل النار ، ومن اصطلى بناره دخل الجنة ، وأنا أقول رافضا صوتي لكم : أيها السلمون القضاة : إن هذه الروايات لها آثار في زماننا وأسرار في أحوالنا الحاضرة ، وذلك أن كل أمة فعلت في السلمين ما فعله (بابا رومه) و (دوق فينيزيا) و (بارونات أوروبا) من بث الفجور والفسق والخلاعة بين السلمين لإذلالهم وإضعافهم ، فهو من أخبار ومن أمثال ومن أشباه السبع الدجال ، فهو يطينا الحجر ليسكرنا ثم يدخلنا تحت سيطرته مصطل بنا . نعم هذه الأمم ليست هي نفس السبع الدجال ولكن الفعل هو نفس الفعل ، فكل من أظهر لنا اللوعة وأراد إذلالنا فهو لا يشبه السبع الصادق بل هو السبع الكذاب الدجال :

فلتحرصوا أيها السلمون من كل مطعم أو مشرب أو ملبس يفرمكم بهجته ولذته تكون عاقبة الدمار والهلاك والعار والبوار :

ليس مما يؤلم النفوس أن تقرأ في التاريخ المتقدم أن قيسيا اشترى عنب قرطبة كله وعصره عنبا ، وقال : لا أعطيه إلا لأحبابي الشبان السلمين ، فخدع الأمة وأهل البلاد غافلون نائمون لا يعقلون ولا يفهمون فطاحرا أجمعين .

أوليس من العجب أن تقرأ في كتاب [الكونت هنري دي كاستري] الضابط العظيم القرنى في بلاد الجزائر للسمى [خواطر وسوانح في الإسلام] مانسه بالحرف الواحد في النسخة المترجمة صفحة ١١١ .
« أما امراض الأهالي شيئا فشيئا كلما دخل التمدن الأوروبي بلادهم (الجزائر) فضعف لانصدقه إلا قليلا ، لأن احتكاكهم بالتمدنين ربما قلل من وسائل العيش لديهم ولكنه لا يؤثر في وجودهم ، بل م زالون يتناسلون أكثر من الأوروبيين ، ونضيف على ذلك أن السكرات التي استعملها الأوروبيون لتجليل على وجود بعض الأمم القارية لهم لا تؤثر عند أهالي الجزائر لكونهم يعتقدونها مقنا شديدا » انتهى بالحرف الواحد .

أيسجكم هذا أيها السلمون ؟ أيسجكم أن تكون الدروس بالأندلس لا تزال تتلى إلى اليوم ، وأن الحجر ونشراها في البلاد يراد بها القضاء على أبنائكم وخراب البلاد ، أفليس هذا كلام رجل من أعظم الفرنسيين يقول لقومه : الحجر والتيم لم يقللا نسل السلمين فلتنظر طريقا آخر للعيش معهم « أليس الدرس مستمرا ورواية الأندلس تمثل وللسلمون نائمون هائمون ، أتدرون ماذا حصل بعد ذلك أيها السلمون ؟ لعبت الدول للشمرة دورا آخر في إبادة السلمين ، وعرفوا أن الحجرة إذا نجحت في بلاد لا تنبالي بالقل ولا بالدين فإنها لا تؤثر في الأمم التي لا تزال ذات مجد أنيل ، وشرف وفضل مبين كالمرآة كشيئين .
ماذا دهى إخواننا للرا كشيئين ؟ انتشر الشاي بينهم ، والشاي لا يدمعه من السكر ، والسكر يباع بأعلى الأمان .

رحمك اللهم رحماك اللهم . إن أمر الشاي أشد خطرا ، وأبعد أثرا ، لأن الشاي لا تنظن فيه الظنون ولم تفسه الهبات ولا الترائع ولا القوانين .

أيها السلمون : هل تسمعون ما أقول لكم واحسرتاه قد قرأت في كتاب اسمه [كتاب اليد في الصحة

والعلاج) للأستاذ (كيلوج) الأمريكى الذى نشره قبل تحرير الحمر بشرين سنة ، فرأيت ربم المضار أربع
 رعب : الحمر ، ثم الدخان والشاي . ثم القهوة ، ثم الكاكاو ، فجعل الحمر أهد ضررا ، ويلها الدخان والشاي
 وآتى يراهمين كثيرة . وأتذكر منها أنهم أتوا بورق الشاي فأكله حضان فوات ، فدوه إذن مما بطبا ،
 وهناك تجارب لا محل لها كرها الآن ، وإنما الذى أريد أن أقوله الآن إن السكر الذى يشرب مع الشاي قد عدوه
 من الأغذية للميتة ، إن أكل الفواكه وما فيها من السكر الطيبى نافع وجيد للصحة ، ولكن السكر الصناعى
 مفسد للأجسام ومنهكها ، وإن كان فى أول الأمر يعطى قوة ، وتظهر الصحة على وجوه الشيوخ والشبان
 والأطفال . أنا لست طبييا فعلى أن أقول لكم من كلام أطباء أوروبا ما به تقتنعون ، جاء فى كتاب (مستور
 التغذية) لسديقنا الأستاذ محمد فريد وجدى صفحة ٢٦ مانصه :

« قال الدكتور (جاستون دورفيل) : إذا كان الإفراط فى الأكل من الأخطار الكبيرة فإن تناول
 الأغذية المركزة كالسكر واللحم بقصد التقوى ، أو تحسين التغذية أشد خطرا على الصحة .
 نعم إن تلك الأغذية القوية توجد لنا قوة فنحس بسعادة جسمية ولكنها سعادة وقتية ، إذ تنقلب إلى
 ضعف وانحطاط ، فهذه الأغذية التى يخيل للناس أنها مقوية هى كضربة سوط تنزل على الحصان الذى فتجعله
 بحرى قبل أن ينحط انحطاطا لا قيام له منه ، فمن من الناس ضحايا هذا القرن الذى يقال إنه قرن النور لم
 يتناول الأغذية المركزة ، وهاهنا عدد أصنافا وذكر منها السكريات والشكولاتات والحلاوات المشبعة بالسكر
 والكحول ، فإن هذه المواد مهما كان مقدارها صغيرا فإنها تنجس إلى خلايانا مجتمعة فتحدث اضطرابا ،
 وهذا الاضطراب تنوم أنه قوة بدنية ، ولكنه ليس فى الحقيقة إلا خطورة نحو الصدمة الأبدية» انتهى ملخصا
 وجاء فيه بعد ذلك مانصه : «وقال الدكتور (جاستون دورفيل) أيضا : السكر أحد الأغذية للهلكة
 لأجسادنا ، فالتناول منه كمادة معاصرنا من أربع قطع إلى ست قطع فوق الغذاء للفرط ينتج أمراضا مجتة
 لقد كان أبائنا يجهلون السكر الصناعى ، وكانوا أبطأ منا انحطاطا فى قوام ، والأرق الذى يكثر فىنا الآن
 إنما هو من السكر المعروف . إن السكر إنما ينفع بهيئة علاج ، فهو دواء والدواء إذا استعمل شرابا أوغذاء
 عاديا كان من الهلكات ، فهو نافع إذا وصف للدواء ، ضار إذا تعاطيناه فى أكثر الأوقات كالطعام والشراب ،
 ومن أراد السكر فليأكل الفاكهة فيها سكر طبيعى وهو غذاء نافع ، إن السكر الصناعى مهلك الأبدان»
 انتهى باختصار .

الشاي الذى مع السكر

فلننظر فى هذا الشاي الذى يشربه الناس مع السكر . قد قدمنا أنه من المواد التى تلى الحمر فى إهلاك
 الأمم وأزيد عليه الآن أن الشاي يضاف إليه ماء مشبع بالأفيون ، ومضى شرب الإنسان منه فإنه يعود عليه
 فلا يأتى موعده إلا وقد انحطت القوى فلا يبق إلا يشربه . إذن فى الشاي الذى يشرب فى أكثر بلاد
 الإسلام ثلاث مضار : نفس الشاي بنس علماء الطب ، والأفيون المضاف إليه ، والسكر الصناعى الذى صاحبه :
 ولو كان سهما واحدا لا تفتته . ولكنه سهم وثان وثالث
 أيها المسلمون عموما ، وأهل شمال أفريقيا خصوصا «قتل الإنسان ما أكفره» - إن الإنسان لظلوم كفار -
 إنه كان ظلوما جهولا .

الإنسان اليوم كثير النمام ، كثير المكر ، عرفت أوروبا أن الحمر لا يتطاطها الصالحون من المسلمين
 فلقد تصنع أوروبا تجلب الشاي ، وهل جلبه إلا التجار ، هذا أمر سهل ، ولكن السم فى اللحم والسكر

بحسب الظاهر لا صرر فيه، فانظروا كيف أصبح الناس مستعبدين بسبب الشاي والسكر أشد من استعمارهم بالخمير. يؤلف العلماء في أوروبا كتباً في ضرر أغذية ثلاثة مخبئة ويعدون منها السكر وأهل الإسلام ناغمون. لا لا. أيها المسلمون: من تمكنت عادة الشاي ومعه السكر منه فليعلم أن الأفيون مهمما، وأنه أصبح فريسة. فيا أيها الشاربون للشاي في مراکش، يامن حكم عليكم أن تكونوا شاربين صباحا ومساء اتقوا الله في أبنائكم وبناتكم، حذروهم، بل اشربوا سرا ولا تعطوهم جرعة واحدة، ولست أقول لكم أتركوه لأن القدي يتركه منكم أصحاب النفوس الكبيرة أهل العزائم والهمم والمجاهدات.

هذه نصيحتي لأهل مراکش خاصة، والمسلمين عامة، أهدركم فتنة أصابت البلاد والعباد، الله أكبر، استقلال الأمم إنما يكون بعد الامتحان، والله قد امتحنكم أيها المسلمون بالملابس الفرنسية. والخمور والشاي والسكر وجعلكم لهذه مستعبدين، فإذا قلتم الاستقلال الشخصى بلبس الملابس الوطنية ونبذ المهرجات من الخمير والشاي المثلث المضار، فأنتم إذن أهل للاستقلال السياسى، لاستقلال الأمة إلا باستقلال أفرادها من الملاذ الفردية.

يامن تشربون الخمور وتسكرعون الشاي والسكر معها أنتم مقيدون بقيود من حديد أذلا. فنخلصوا من هذه القيود الفردية تحل عنكم الروابط الاجتماعية، وتصبحوا سادة في بلادكم، أحرارا في دياركم، سعداء في أوطانكم ومخرج إذ ذاك المستعمرون.

أين عزائمكم؟ أين مجدكم القديم؟ أين نخوتكم العربية؟ أين ملككم العظيم؟ أعدكم بهذا كله جد أن تذكروا ما حذرتكم، فقد حذرت وأنذرت وبرهنت لكم وأنتم أهل لما أقول، وستعملون به وأنتم به موقنون.

وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة الأولى في قوله تعالى: «إنهم كانوا قبل ذلك مترفين» وهى الرسالة التى أرسلتها إلى بلاد مراکش في التاريخ المذكور ونشرت هناك، والحمد لله رب العالمين. كتب في صباح الأربعاء ٢٣ مارس سنة ١٩٣٢ م بحى السيدة زينب.

اللطيفة الثانية

في قوله تعالى: «نحن قدرنا بينكم الموت»

نذكر في هذه اللطيفة ماجاء في جريدة الأهرام مناسبة لهذه الآية بتاريخ ٣ ديسمبر سنة ١٩٣٠ م تحت العنوان الآتى، وهذا نصه:

الخلود وطول العمر

حوادث مذهشة عن طول الأعمار

ذكر الفلاسفة والأطباء قديما وحديثا في حياة الإنسان من جهة إمكان إطالة العمر عن المتوسط المعروف أو إلى أن يكون المتوسط مائة أو مائة وخمسين أو مائتين، ومن جهة ما إذا كان ممكنا أن يعمر الإنسان إلى الخلود. ظهر مؤلف حديث للسيو جورج لا كورسكي بعنوان (العلم والسعادة) وله قبل ذلك مؤلفان أحدهما باسم (أصل الحياة) والثانى باسم (سر الحياة).

في كتاب (العلم والسعادة) يرض مسيو لا كورسكي لمسألة طول العمر والخلود. أشار للتوقف إلى كتاب لمسيو خان فينو الفيلسوفى باسم (فلسفة طول العمر) وقال: إن هذا الفيلسوف بطلنا على أن الأمثلة النادرة

جدا التي يعرفها الناس بشأن طول الأعمار ليست ندرتها بالدرجة التي يتصورونها ، فمن الأسف أن الإحصاءات الصحيحة الدقيقة لم تسكن إلا قرية العهد ، ومن المستحيل علينا مثلا أن نتمتع على سجل المواليد عن ٩٦٩ سنة عاشها (ماتوسالم) أو ٨٠٣ التي زعم أن ملك جزيرة (لوكباز) قد عاشها والتي تكلم عنها (بلين) و (فاليرما كسيم) . وقد ذكر (استرابون) أن بين سكان بنجاب أفراد قد عاشوا ٣٠٠ سنة ، وقال (بلين) : إنه في عهد فيسباسيان عمل إحصاء ظهر فيه أن عدد سكان بلاد المغول سيرالين ٣ ملايين نفس كان فيه ١٧٠ شخصا يبلغ عمر كل منهم أكثر من ١٠٠ سنة أي بنسبة واحد من ذوى الأكثر من المائة إلى كل ٢٠ ألف من السكان .

ويقول (بلين) : إن ماركوس ابونيوس عاش أكثر من ١٥٠ سنة ، ويقول لوسيان . إن تيريدياس عاش ستة قرون ، وإن سكان جبل آتوس كان يعيش الواحد منهم ١٣٠ سنة . وقال الإسكندر كورنيليوس إن أحد اللابريين عاش ٥٠٠ سنة واسمه دودون . وقال انكربون : إن (سنجرين) ملك قبرص عاش ١٦٠ سنة ، وفي حياة القديسين عاش القديس سيمون ١٠٧ سنوات ، والقديس تاكريس ١٦٥ سنة والقديس انطوان ١٠٥ سنوات ، والبوما مطران الحبشة ١٥٠ سنة .

ويقول (هالار) في كتابه « العناصر الطبيعية » إن الإنسان من الحيوانات التي تعيش زمانا طويلا . ويظهر أن الحد الطبيعي لوجوده حيا هو ٢٠٠ سنة ، ويقول بأن اثنين من المعمرين مات كل منهما بمحادثة (الأول) توماس بار وعمره ١٥٢ سنة ، وقد مات إثر عسر هضم بعد غداء حفلة أقامها ملك إنجلترا سكرعاه . وأن الثاني توفي متأثرا ببرودة شديدة ، وكان للأول عند وفاته ابن عمره ١٠٢ سنة وللثاني ولد عمره ١٤٠ سنة .

وظهر من إحصاء سنة ١٨٩٧ في بونس إرس أن عبدا اسمه برنو كوتريم جاوز عمره ١٥٠ سنة . وفي سربيا بلغ عمر ثلاثة من المعمرين ما يأتي : (الأول) ١٣٥ سنة (والثاني) ١٢٥ سنة والثالث ٢٩٠ سنة . وبلغ في الولايات المتحدة عدد المعمرين الذين جاوزوا المائة سنة في سنة ١٨٩٠ م ٣٨٩١ ، وفي لندن ٢١ شخصا . وفي روسيا يبلغ عدد المعمرين الذين جاوزوا المائة سنة كثيرا ، ويدل إحصاء ليفونيا على أن معمرا يبلغ عمره ١٦٨ سنة ، ومات في سنة ١٣٤٦ رجل في لوسرن يبلغ عمره ١٨٦ سنة ، ومات زارع يقاسى عندما بلغ عمره ١٨٥ سنة .

وحال ميش في مصر معمّر عمره ١٥٤ سنة مازال يذكر عمله القنصلي في عهد نابليون ، وفي تركيا كان يوجد رجل عمره ١٥٦ سنة اسمه زارو ، وقد أرسل إلى أمريكا ليكون مثلا على فوائد منع المسكرات وقد مات أخيرا ، وقد شوهدت صورته في الأفلام السينمائية وصوره الشمسية ، وقد أعجبت بها إذ الناظر إليه لا يقدر للرجل من العمر أكثر من سبعين سنة إذا نظر إلى مشيته .

لسكرة المعمرين في الدنيا وضع بعض النساء قوانين عامة ، ومنذ القرن التاسع عشر عملت إحصاءات كثيرة بواسطة الذين يشتغلون لمصلحة شركات التأمين ، إذ هي تبين العمر والسنة وعدد المعمرين في جهات مختلفة من أوروبا أو الولايات المتحدة .

ومما يلفت النظر أنه في الإحصاءات الصادرة ببيان المعمرين الذين وصلوا أو جاوزوا المائة سنة لا تظهر السيدات ، ذلك لأنهن يضعفن بالأمراض المختلفة ، وأن جميع القوى العقلية والحسية تضعف مرة واحدة عندهن . فقد ظهر أن الرجال المعمرين إلى ما فوق المائة سنة عند ما مروا بسن الشيخوخة فقدوا حتى خاصاتهم ، ولكن بعد ذلك مجددت لهم قوى شباب جديدة .

ويقول (هالاروبلادين) وأطباء آخرون : إنهم لاحظوا ظهور أسنان جديدة ابتداء من ٨٠ سنة ،
ويذكر الدكتور حراف أنه شاهد أن امرأة عجوزا صار شعرها أبيض اللون من المشيب عندما كان عمرها
١١٠ سنين ولكن بعد هذا التاريخ عاد إليها لونها الأول ، وآخرون نجدت أسنانهم عند سن ٩٠ و ١٠٧
سبع ، وما يذكر أن القوى العقلية والبدنية عند المعمرين كانت سليمة جدا .
لقد اختلفت في تليل طول العمر عند المعمرين ، ويمكن القول إجمالا بأن الحياة الهادئة التي يعيشها
المعمر ، وفراغ قلبه من الحسد والبغض والهموم والظوم والغيرة والطمع من أسباب إطالة العمر ، والمعمر
م الذين يحفظون النسبة بين قوالم العقلية وقوالم البدنية طول حياتهم ، وعند الباحثين في أمر إطالة العمر
يسعى الوسائل التي تؤدي إليها من رياضة وامتناع عن المسكرات ، وحياة هادئة ، لانغمرها المطامع ، ولا تحفها
التسهوات والأحقاد ، ولا يغالجها اليأس ، إن الوصول إلى إطالة العمر ، أو رفع نسبة أعمار الأحياء هو
خطوة أولى ولازمة في سبيل تحقيق الخلود ، فهل الخلود ممكن للإنسان ؟ .
هذا ماجاء في جريدة الأهرام في التاريخ المذكور ، وبهذا تم الكلام على اللطيفة الثانية في قوله تعالى
« نحن قدرنا بينكم الموت » والحمد لله رب العالمين . انتهى تفسير سورة الواقعة .

تفسير سورة الحديد

هي مدنية

آياتها ٢٩ - نزلت بعد الزلزلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ • لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ يُخَبِّرُ وَيُبَيِّنُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ • هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ
وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ • هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى
عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلْسَجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا
وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ • لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى
أَعْيُنِهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ • يُؤَيِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَيِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ
الصُّدُورِ ؕ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْقِضُوا مَا جَعَلَكُمْ مُتَخَلِّفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا
مِنْكُمْ وَأَخْفُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ • وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ

لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ • هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى
عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ لَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ
رَحِيمٌ • وَمَالِكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَهُوَ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي
مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا
وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ • مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ
لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ • يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ
وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمْ يَوْمَ الْيَوْمِ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ
الْعَظِيمُ • يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ
ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ
مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ • يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَاسْكِنْتُمْ فَنَنُتِمُّ أَنْفُسَكُمْ
وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّبْتُمْ الْأَمَانِي حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ •
فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ
وَبِئْسَ الْمَصِيرُ • أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنْ
الْحَقِّ وَلَا يَسْكُرُوا كَالَّذِينَ اتَّوُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ
وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ • اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ • إِنَّ الْمَصْدُقِينَ وَالْمَصْدَقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضَاعَفُ
لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ • وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَادَةُ
عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ
الْجَحِيمِ • اعْلَمُوا أَنَّا الْحَيَّةُ الدُّنْيَا لَيْبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ
فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ

يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا
إِلَّا مَتَاعُ الغُرُورِ • سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ
الْعَظِيمِ • مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلٍ
أَن نَّبْرَاهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ • لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا
ءَاتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ • الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ
وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ • لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ
الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ
لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ • وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا
وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنهُمْ مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ
فَاسِقُونَ • ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ
وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاَهَا
عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ
أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ • يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ
يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنَ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ • لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ
اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ •

هذه السورة أربعة أقسام :

القسم الأول في تفسير البسملة .

القسم الثاني في صفات الله ، وأسمائه الحسنى ، وظهور آثاره ، في بدائع مخلوقاته ، من أول السورة إلى قوله : « وهو علم بذات الصدور » .

القسم الثالث في الخس على الإنفاق من قوله تعالى : « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير » إلى قوله : « وله أجر كريم » .

القسم الرابع في عشر جواهر (١) بشرى المؤمنين بالنور يوم القيامة (٢) وحث لهم على الجد وذكر الله (٣) ونواب المنفقين (٤) وذم الدنيا (٥) والترغيب في الآخرة (٦) والتسليية على المصائب (٧) وذم البخل (٨) والحث على العدل (٩) والاعتبار بالأمم السابقة (١٠) والأعمال التي توجب النور للتقدم ذكره ، وذلك من قوله تعالى : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ، بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم » إلى آخر السورة .

القسم الأول في تفسير البسملة

تجلت رحمة الله في عالمنا هذا ، وما علمنا هذا المادى ، أليس عالمنا عديميا ؟ وكيف لا يكون عديميا وما هو إلا حركات في عالم سموه الأثير ، وما الأثير إلا عالم أشبه بخيالنا نحن ، علمنا حركات في خيال الفضاء ، وهذه الحركات للذكورات هي التي أجمع عليها علماء زماننا شرقا وغربا في مدارسهم وشرحناها في سور كثيرة في هذا التفسير لاسيما في (سورة النور) عند آية : « الله نور السموات والأرض » وأثبتنا هناك أن الحديد والصلب والهواء والماء والضوء جميعها حركات والاختلاف بينها لن يكون إلا بعدد الحركات ، فإن كان عددها نحو ٦ آلاف مليون مليون في الثانية فهمى المواد التي نحس بها بحاسة اللمس والشم والتذوق من طعام وشراب وفاكهة وما حولها ، وإن كانت أقل من ذلك فنقصت عن هذا العدد فكانت من نحو ٤٠٠ مليون مليون في الثانية إلى نحو ٧٠٠ مليون في الثانية فهمى الأضواء كضوء الشمس ، فالأحمر ذو العدد الأقل ، والبنفسجى ذو العدد الأكبر ، وبقية الألوان بينهما كالأخضر والأصفر والبرتقالى والنيلى والأزرق . هذا القول وأمثاله مشروح في هذا التفسير كثيرا ، ولكن القصود الآن التعجب من هذا العالم ، فما هو إلا مشبه عدم ، هو خيال ، وهذا الخيال فيه حركات ٥ وهذه الحركات أشبه بحركات أفكارنا في خيالنا فلا نعجب نحن من ذلك لأن الله يقول : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » فلما أبصرنا أنفسنا ألقينا فيها أمرا موجودا لا يشك في وجوده وهو الخيال ، وهذا الخيال نحس بأننا مجبولون على أن نجدده ونصفيه ونهذبه ، ونضع فيه حركات فكرية تنتج لنا علوما ومعارف ، فلا نعجب إذن إذا رأينا خيال الفضاء فيه حركات أحدثت آثارا أبصرتها عيوننا كما أحدثت حركات الأفكار في الخيال آراء شهدت عقولنا ، إن نفوسنا نبراس علومنا ، ومهيح تفكيرنا ، إن نفوسنا في صفاتها وجمالها واتساعها لحوز العلوم أشبه بمانشاهد في المادة المحسوسة من أنها كما تعطينا غذاء ودواء وفاكهة هي نفسها تكون مجال أفكارنا ومناطق علومنا كما أن نفوسنا كما تكون سببا في حياتنا وأعمالنا في الحياة تكون هي مدرسة لنا وكتابا تحرؤه ، فكما تفكر في أعراضها الخليفة

ومواهبها الطبيعية تفكر في هبتها فجلها لنا مجال دراسة ، فنحل المشكلات بقرائها ودراسها ونقول : لقد رأينا فيها خيالا قامت به حركات أفكارنا ، وهذان طلمان موجودان حيث لا مظنة للوجود ، هكذا هذا الفضاء فيه خيال نسميه أثيرا ليس مظنة الوجود ، وفيه حركات لا تدرى ماهي ، وجمت فصارت عالما نحس به حواسنا .

الله أكبر : لقد أجمع علماء الطبيعة أن البعد بين القرة والكرة في المادة كالبعد ما بين الشمس والأرض إن دقائق الماء والهواء والسحاب والأرض والحجر والمدر كلها متباعدات تباعدا يقف العقل دونه ، فالمادة فضلا عن أنها مجرد حركات وتلك الحركات تنقلب أنوارا كهربائية ، وهذه الأنوار يجرى سالبها حول موجبها فتكون الأشكال المختلفة عند حواسنا باختلاف أعداد حركاتها وهياتها ، هي متباعدات تباعدا مدهشا عجيبا ، وبألت أمرها وقف عند كونها أشبه بالأمور الوهمية من كونها حركات فيما يشبه الخيال ، بل أمرها تصدى ذلك فصار هذا الأمر الشبيه بالوهمي هو نفسه قليل أيضا يشبه المدموم ، وماذا نقول في عالمتنا هذا الذي نعيش فيه ، وقد أثبت ذلك علم الطبيعة الذي يقرؤه أصغر تلميذ في مدارس العالم الإنساني قد قيل فيه : إن للسام الصغيرة وإن تكن لشدة صغرها لا ترى إلا بالمكروسكوب فهي أكبر من الجواهر بما لا يقاس ، فلنصورنا أن في السام حيوانا صغيرا جدا بحيث يعيش على جوهر من الجواهر كما يعيش إنسان منا على الأرض وفرضنا أن ذلك الجوهر واقع في وسط حجر لكان الحيوان المشار إليه يرى أقرب الجواهر إليه بيبة جدا عنه كما ترى نحن الشمس والقمر والنجوم ، وربما كان يحتاج لمعرفة تلك الجواهر إلى نظارات كبيرة كما يحتاج نحن إليها لمعرفة الأجرام السماوية ، فيظهر من ذلك اتساع المسام بالنسبة إلى الجواهر .

هذا ماجاء في كتب الطبيعة في عصرنا الحاضر ودرس للتلاميذ ، إذا كانت هذه صفات المادة ونفس جسمي والفكر الذي أكتب به هذه المقالة والحبر والقرطاس ، وكلها إن هي إلا فضاء واسع كالفضاء بين السماء والأرض والنجوم تتخلل حركات تكون أنوارا كهربائية ، وما تلك الحركات وأنوارها إلا ذرات أشبه بالمدموم وسط هذا الخلاء ، فهي أمور أشبه بالخيالية نادرة جدا في وسط جو فسيح تأوهات فيه ومع ذلك ترى جسما وقفا وقرطاسا ونقول نحن موجودون ومادتنا ملتزمة مسدودة الأبواب مقفلة ، إذن هذا العالم الذي نعيش فيه حركات وأنوار لاغير ، وهي مع كونها كذلك نادرة جدا ، فأجسامنا هذه أشبه بفضاء واسع لا مخلوق فيه ، فلوركبنا قطارا في ذلك الخلاء صادفنا في كل بضعة أيام نباتا تراه أجسامنا ثم نحتمى بسبب سرعة القطار ، إذن عالمتنا مبنى على المدد .

يا عجبنا : وهل امتاز الحديد والرصاص والماء والهواء والفضاء إلا بالمدد ، حركات وأضواء امتازت بأعدادها إذن المدد كأنه أصل الوجود ، وكيف لا يكون أصل الوجود وبه انتظام الأجسام ، وهل الأجسام إلا حركات في أثير تتجت عنها أضواء ، وهذه الأضواء والحركات لا امتياز لبعضها عن بعض ولا تفرق إلا لمدد الحركات ، فإن قلت كانت لطيفة كالأضواء ، وإن كثرت كانت كثيفة كالأجرام الضخمة والصلبة .

سبحان الله : إذن المدد به تباينت الأجسام ، والمدد قرأناه في نفوسنا ، هل أحد منا يجهل الأعداد ؟ الأعداد مرتبة ثابتة في نفوسنا ، فهذه الأعداد بها نظمت النفوس العالية أمر الأجسام فباعدت ما بينا بمراتب الأعداد ، إذن مراتب الأعداد في نفوسنا كانت سببا في مراتب ما نضه في أرضنا ، هكذا هناك حوس كبيرة نسبها إلينا كنسبة العوالم الهبطة بنا إلى أعمالنا الضئيلة اليومية ، إذن الأعداد كأنها أصل الوجود لأن الأعداد ثوابت والحركات غير ثوابت ، وما كان غير ثابت لا يصلح أصلا ، إن الأعداد ثابتة في نفوسنا ، وفيها أنواع الواجب والجائز والمستحيل ، فإن ٦ في ٦ يساوي ٣٦ وهذا واجب ، ومستحيل أن يكون

أقل أو أكثر ، و ٣٦ كما يكون من ضرب ٦ في ٦ يكون من ضرب ٣ في ١٢ و ٢ في ١٨ و ٤ في ٩
ومن واحد ونصف في ٢٤ فيه الواجب والجائز وللتجيد ، والعلم كله لم يخرج عن هذه الأقسام للربط
في عقولنا ، العالم الذي نبين فيه لا يخرج كله عن عالمين اثنين : رياضي وطبيعي ، فالعالم الرياضي راجع
للمدد لأن الممدد سار في الحساب والهندسة والفلك وللموسيقى ، كل العالم الطبيعي موزون محسوب بحساب
مهندس هندسة ، نظامي بشكله ، راجع للوحدات ، تلك الوحدات للرتبات في قوسنا ، فالعلم من عرصة
لقرشه مقدر موزون محسوب ، والحساب مبدؤه ثابت في قوسنا .

من هذا البيان يفهم الناس في زماننا قول (فيثاغورس) : إن الممدد أصل العالم ، وذلك لأنه لا عالم
إلا هو إلا حركات في أمر يشبه للعدم ، والحركات وجودها ضعيف ، وهذا معنى قول علماء عنصرنا : إن
المادة لا وجود لها ، وإن هي إلا حركات ، وللحركات أضواء ، وإذا كانت معدومة فنظامها الممدد ، والممدد
مرتب في قوسنا ، لذلك نسمع الله يقول : « والفجر ليلال عشر ، والشفع والوتر » وما الشفع والوتر إلا
جميع الأعداد ، وهذا أيضا يوضح لنا قول القدماء : « إن المادة لم يظهر وجودها إلا بالسورة » وهل هذه
الصورة للمادة إلا ما حددت بالممدد أي عدد الحركات .

نتيجة هذا المقام

إن نتيجة هذا القال أن الأمر كل الأمر أن علمنا ثبت أنه أشبه بالقي ليس بوجود ، وأن ما يشبه
للوجود منه ما هو إلا حركات مع كثرتها في نفسها هي معدومة في جانب الخلاء الذي تقع فيه وتضوء في
مواضع نادرة منه ، وهذه المظاهر الباهرة كلها أشبه بالوهم ، والوهم أخوالعدم ، أليس هذا به فهم « بسم الله
الرحمن الرحيم ، سبح الله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » فإذا كان العلم أشبه بالعدم ومع
ذلك نراه ونسمعه ونتمتع به ، ولم يمتز بفضه عن بعض إلا بالممدد ، إذن الأمر فوق ذلك إن هو إلا تجليات
ومظاهر للمحيط علما بالعوالم كلها ، لأن هذه العوالم لا ظهور لها إلا بامتياز أعدادها وأقدارها ، والأعداد
أمور معقولة لا محسوسة ، وهذا العالم محسوس مشاهد ، إذن للوجود الحق الذي لا وهم يلحقه هو للوجود
الذي يستحق اسم الوجود ، وما هذه الصور والأشكال إلا مظاهر أعماله هو أو آثار معلوماته ، طبقت
في هذا الجو الفسيح طبعا ظهرت لنا أصوله بيئة حركات وأضواء ، وتبجلى لميوتنا بيئة نبات وحيوان ونمس
الخ . فهذا معنى قوله : « هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم » فأما هذه التي ذكرناها
فما هي إلا مظاهر رحمته وآثارها .

ضرب مثل

اعلم أيها الذكي اللطع على هذا القال ، أن هذا القال خطر فإن عقولنا لا تقدر أن تجمع بين وجود ولا
وجود : أي لا تجمع بين الوجود والعدم ، مما تقيضان ، والتقيضان مستحيل جمعهما ، فمن الآن موجودون
فكيف ساغ لنا أن نقول إن هذا كله وهم كما يقوله علماء الطبيعة أجمعون ، وكيف يقول الله : إن الله هو
الأول والآخر والظاهر والباطن الخ فالعلم والقرآن أعدا على أمر واحد وهو أن هذا العالم وجود ولا وجود ،
فماذا حول إذن ؟ لا سبيل لنا إلا ضرب الأمثال ، هذه الشمس مشرقة ، وذرات النور مسافرة في الجو
الصباح : أي في الدم باعتبار النظر الظاهري ، أوفيا يشبه الدم وهو الأثير ، وهذه الذرات الضوئية لا يظهر

ضوؤها في الجو إذا ظهر إلا على جسم ، ولا جسم في جو السماء إلا ماطر فيه . فإله ضرب مثلا للشمس ، وأرواح المخلوقات ضرب مثلا للذرات الضوئية وهي تسافر في الصدم المحض بحسب الظاهر أو فيها يشبه العدم وهو عالم الأجسام القدي هو رتبة في مراتب عالم الأثير ، إن الذرات الضوئية مخفية في أثناء سفرها من الشمس إلى الأرض أي في ثمان دقائق و ١٨ ثانية ، وإنما يكون ظهورها إذا وصلت إلى أرضنا لا غير ، حياة أرواحنا في أجسامنا أشبه بظهور ضوء الشمس على الأرض التي أشبهتها أجسامنا في أن كلا منهما مظهر ، فأحدها مظهر للنور ، وثانيهما مظهر للروح ، فإذا نظرنا ضوء الشمس على الأرض فإننا لانجده شيئا سوى حركات مبدؤها الشمس ظهرت لنا بهيئة نور ، وإذا نظرنا للشمس ونحن في الجو لم نجد إلا ظلمات متراكمة تنتهي بوجود مضيء عظيم هي الشمس ولا يرى للذرات الضوئية أثرا في تلك الظلمات التي لا حد لها ، نعم لها وجود مستعار من الشمس يظهر لنا إذا ظهرت على جسم معتم كالأرض ، فمن وقف في جو السماء فإنه لا يرى إلا الشمس الشارقة بنورها فيقول عجباً ! هي الأول وهي الآخر وهي الظاهر وهي الباطن ، لأن هذه كلها ظلمات وغاية الأمر أن لها آثارا مستتارة منها على الأرضين ، وهذا ضرب مثل لا غير « والله للثل الأعلى » والله ليس كمثل شيء ، ولكن مرادنا هنا الإيضاح لا غير ، فإله منزّه عن المادة وعن الشبيه والتظير ، وإياك أن تظن أن ضوء الشمس جزء منها . كلا . بل هو حركات في الأثير لا غير ، وهذه الحركات غير الشمس كما أن الأرواح غير ذات الله ، فالمخلوق غير الخالق .

بهذا نفهم : « هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ، هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يخرج فيها وهو معكم أينما كنتم » أي يعلمه ، ولولا أنه معنا ما علمنا بوجود أنفسنا ، كما أنه لولا أن الشمس مع أضوائها للنبئات منها ما ظهرت تلك الأضواء على وجه الأرض ، هذا ما فتح الله به في تفسير البسملة في (سورة الحديد) والحمد لله رب العالمين . كتب يوم الثلاثاء ٨ مارس سنة ١٩٣٢ م .

مقدمة في اتصال هذه السورة بما قبلها

(١) إن السورة المقدمة والسور قبلها سور ترجع إلى العلم ، وهذه السورة أكثرها للأعمال .
(٢) إن آخر السورة السابقة قوله : « فسبح باسم ربك العظيم » الذي هو مرتب على ما قبله من جزاء كل فريق من أصحاب اليمين وأصحاب الشمال والسابقين كل بما هو أهل له ، وهما هنا بين صفات الذي أمر بتسبيحه ، وأن تسبيحه ليس خاصا بأهل الأرض ، بل هو عام ، وهذا كقوله « فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون » من بعض الوجوه . انتهت المقدمة .

القسم الثاني : في صفات الله تعالى ، وأسمائه الحسنى ، وظهور آثاره ، في بدائع مخلوقاته

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(سبح) ذكر التسبيح بالماضي هنا وبالأمم في السورة قبلها ، وذكر بالماضي أيضا في الحشر والصف ، وذكر بصيغة المضارع في الجمعة والتغابن للإشارة إلى أنه يسبح في جميع الأوقات ، بل هو مأمور به ، ويقال سبحته وسبحت له كقول نضحت له ونضحته ، وتزبه الله وتسبيحه من العلاء هو القول الدال على تزويه كما هو معروف ، فأما غير هي آدم والملائكة ، فالتسبيح منها الدلالة على العظمة والتزويه ، أو الاتقياد والتسخير

لله تعالى ، فأشارتك لصاحيك بيدك على هيئة محصورة يفهم منها تأن واصبر ، وإشارتك بها على هيئة أخرى
 خاصة يفهم منها لا تفعل وهكذا ، فهذه الدلالة في الخالين أفهمت صاحيك إفيهما كإفهام السلام بل أشد منهما
 وأبلغ أثرا ، وكلم للإنسان في حركاته من معاني يفهمها الآخرون ، فإذا كان هذا من الإنسان المهدود العلم :
 فما بالك بما أطلعنا الله عليه من بدائع العلم والحكمة معاشر بني آدم وفهمنا منه مالا نفهم بالقول ، ولو أنك
 وقفت في الخلوات ، وراقبت المزارع والجنات ، والشجر مترعجات ، والحشائش متحركات .. والأوراق تنفي
 بحور الأضواء ، وقد أرخى الليل سدوله ، وأرسل من الخافقين جعافل جنوده ، وتخللها برق السكواكب
 تلعب في السباب ، هناك تتجلى لك العبر ، وتقرأ علوم للبدا والخبر ، وتغني لك النسمات ، على أعواد
 الغابات ، مما يشغف سمعك ، ويقرب أنسك ، ويشرق شمسك . وهناك هناك تتأجيك اللذات ، وتشارك
 الآيات ، وتحيط بك الإشارات ، وتقصص عنها العبارات ، وترى فيها مالا تراه العيون ، والناس حولك ساهون
 لاهون ، هنالك الأنس والنور ، وهنالك الجنات والحدور ، وهنالك السعادة والحبور . وهنالك تفهم قوله
 تعالى (سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز المتكبر) . عيش ويموت وهو لا يعقل ذلك التسبيح الذي
 نطق به الترات ، وشهدت به الآيات . فضلا عن تركه التسبيح هو . فإذا أمر المعلم أن يسبح في آخر
 السورة السابقة فإن الله يعاقبه إذا تمكن من إدراك بعض أسرار الكائنات التي يمر بها عنها التسبيح وأقل
 عنها عينيه ، وأصم عن سماعها أذنيه ، وقوله (الحكيم) أي في مجازاة من عقل ذلك وسبح لله فيكون عالما
 عاملا . ويم نوره بقية المسلمين من حيث العلم والافتداء به (له ملك السموات والأرض) لأنه الخالق المنصرف
 حال كونه (عجيب ومبني وهو على كل شيء قدير) أي عجيب الأموات ويميت الأحياء ، وهو على كل شيء
 من الإحياء والإماتة وغيرهما قدير (هو الأول) السابق على سائر الموجودات ، لأنه أوجدتها (والآخر)
 الباقي بعد فنائها . وأيضا منه ابتدأت الأسباب . وإليه انتهت السبب (والظاهر والباطن) فقد ظهرت دلائل
 وجوده وتكاثرت ، وبطلت ذاته فلم ترها العيون ، واحتجبت عن الظنون ، فهو ظاهر بآثاره وأفعاله .
 باطن بذاته ومشرق جماله وكاله . قد ظهرت غلبته على المخلوقات وعلم حقائقها . ولم يخف عليه بواطنها
 فهو ظاهر بقلبه عليها ، باطن لعله بما بطن منها (وهو بكل شيء) من الظاهر والباطن والجلي والخبئي (علم
 هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام) تقدمت الحكمة في أنها ستة في سورة الفرقان ولماذا اختيرت
 الستة (ثم استوى على العرش) تقدم السلام عليه في سورة بونس وفي سورة هود (يعلم ما يبلغ في الأرض)
 ما يدخل فيها من السكروز والبذور واللوق والعادن . ومن أهمها الحديد الآتي ذكره . الذي فيه بأس شديد
 ومنافع للناس . فلم يدخل البذر في الأرض إلا للقوت ومنفعة الناس والهواب . ولم يدخل الناس في الأرض
 إلا لإخراج أزواجهم من عالم المسادة وإسعادهم ، أو تزيينهم إذا كانوا عاصين النع . ولم يدخل السكروز في
 الأرض إلا ليبحث الناس عنها ويستخرجوها . فهو لم يولج للعادن إلا يعلم يعلم منافعها . فلذلك دققنا ثم
 مستعدون لاستخراجها (وما يخرج منها) كالعادن المذكورة والزرع والموتى إذ يخرجون من القبور (وما ينزل
 من السماء) من الملائكة والمطر ونحوهما (وما يخرج فيها) كالأشجار والأعمال والدعوات (وهو معكم أينما
 كنتم) لا ينفك عنه وقدرته عنكم بحال (والله بما تعملون) في أمور دينكم ودنياكم (بصير) فيعطى كل ذي
 فضل فضله «ولا يظلم ربك أحدا» ثم قال (له ملك السموات والأرض) وإنما كرره ليرتب عليه ما بعده
 (وإلى الله ترجع الأمور) . يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل) تقدم شرح ذلك في (سورة البقرة)
 وغيرها (وهو علم بذات الصدور) أي بمكنوناتها . انتهى التفسير اللفظي للقسم الثاني من السورة ، والحمد
 لله رب العالمين .

لطيفة في قوله تعالى : يعلم مايلج في الأرض وما يخرج منها

اعلم أن الكلام على هذه الآية قد تقدم في (سورة سبأ) وشرحت لك هناك ما تشير له الآية من السكون والآثار والعلوم المدفونة في خرائب بلاد اليمن ، وكيف سخر الله الفرنجة فقاموا بالحفر والتنقيب والمسلون هم النائمون لا يدرون ما حولهم كأن البلاد ليست ببلادهم . وكأن هذه الآية ليست من دينهم . أو كأنها نزلت لمن لا يفكرون فيها . لماذا يذكر الله الإبلج في الأرض في أول سورة ذكر فيها قصة سبأ . فهكذا هنا بدأ الله هذه السورة بما يفيد أنه يعلم مايلج في الأرض وما يخرج منها . ثم رأينا بعد ذلك يقول : « وأزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » فعلمنا أنه يرمز إلى نعمة المعادن التي هي من قبيل الحديد والتي هي الآن في قبضة الفرنجة . وكيف نام المسلمون عنها والله يقول إنه يعلم مايلج في الأرض وما يخرج منها . فيعلم منفعتها ، ويعلم الذين ينتفعون بها . ويعلم متى ينتفون بها . ويعلم متى يستخرجونها ، ويعلم من الذي يحرم منها فتكون الدائرة عليه لجهله فلم يذكر الله ذلك لمجرد معرفة الله مجردة من كمال العباد ومنافعهم وإلا لم يقل في (سورة ق) : « والنخل باسقات لما طلع فضيد رزقا للعباد » فهذه المخلوقات بها الاستدلال تارة وبها الرزق أخرى ، فليستخرج المسلمون الحديد والذهب والتحاس وجميع المعادن ، ولا يكونوا عالة على أوروبا . وما يستخرج من الأرض آثار الأولين كما تقدم في (سورة سبأ) أيضا . ولن يكون هذا إلا إذا ملكت الهولة رشدها ، وكل نظامها ، وعظم عمراتها . فهل أنت بك بأمر عجب قرأته في إحدى جرائدنا المصرية يوم الأحد الخامس من شهر مايو ١٩٢٥ عند تفسير هذه الآية : ذلك أن القواصين الذين يغوصون على (السفنج) ليستخرجوه في البحر الأبيض أمام تونس . كان أحدهم قد غاص وزل في البحر على عمق ثلاثين قدما . وبينما هو يجالج الاسفنج إذ لمح من بعيد امرأة جميلة لم ير الراءون مثلها ، معتدلة القوام ، باهرة الحسن ، بأمة الهيا ، والحشائش نابتة حول جسمها ، والسماك يغدو وبروح حولها ، فلما رأى هذا المنظر دهش وظن أن عقله ليس في حاله العادية ، فأشار إلى رفاقه في البر إشارة الخطر ، فرفضوه فأخبرهم الخبر فنزل رفاقه فوجدوا الأمر كما قال . وأن هناك مدينة ذات شوارع ومنازل والسماك ذاهب آيب فيها . فأخبروا الحاكم الفرنسي بتلك الأقطار بالجزائر ، فظير الخبر إلى بلاده ، فأرسلوا إلى عالم كبير بالآثار من أمريكا فلما درس الموضوع . قال : إن هذه المرأة هي صورة آلهة الجمال في قديم الزمان . وإنه يظن أن تلك المدينة ومدنا أخرى قد ابتلعها البحر منذ ثلاثة آلاف سنة ، وأنه يريد أن ينظر في أمرها هل يبقى سورا حولها إن كان ميسورا ، أم يرفع الأشياء الثمينة منها ويتركها إن لم يتيسر الأول ؟

هذا ملخص الخبر في جريدة البلاغ المصرية ، فهذه الحادثة مما يلج البحر وما يخرج منه والله جلها . وذلك أن الله أولجها في البحر الذي هو بمثابة الأرض لعله أن قوماسينتفعون بها بعد خروجها . فإن التأخر إذا طلع على صناعة للتقدم أدهشه الحسن والجمال والدقة في الصنع فيستمسك بما ليس عنده ، ويجسد في الوصول إلى السكال ، فإن العلم منشؤه التعجب . ومتى تعجب الناس من جمال صنعة المتقدمين زادم ذلك نشاطا وجداء . ولي أن أقول لأمة الإسلام : هذا كلام ربنا وهذه آثاره في الأرض . وهناك آثار سبأ المتضمنة في سورة سبأ وهي في أرض المسلمين الآن . وآثار هذه المدينة المجهولة التي أخرقها الله في البحر أمام تونس ، تونس التي هي بلاد إسلامية والمسلون هم الآن نائمون . ملكت فرنسا تونس ، فأصبح أهلها وأهل الجزائر وطرابلس وغيرها من شمال أفريقيا لا يعلمون شيئا في بلادهم ولكن الله يقول . « يعلم مايلج في الأرض »

ثم يطفه ويحجر عباده به ، فانظر لأمة الإسلام التي تركت الدنيا تسمى من بناها ، وتقول لأمتهم هي . فلامع ولا مال ولا دولة ، وقد آن أوان أن تشرق أيامهم ، وتزدان مدنتهم ، ويكون منهم في كل جيل طوائفون في الأرض ، وعلماء في كل فن كما هو أوامر شرعنا أن يكون في المسلمين طوائف لكل فن طائفة تتكفي للمسلمين الحاجة ، وهذا هو السعى فرض كفاية بحيث لو ترك لأنهم للمسلمين جميعا ، فيعلم المسلمون ذلك ويستولون نظام الأرض كما تولتها أوروبا التي ضيقت الحصار على المسلمين ، وأرغمتهم وهم في كل واديهميون وسياخذ المسلمون حظههم الوعود ، ويومهم المقبل «ولنعلمن نبأه بعد حين» انتهى الكلام على القسم الثاني من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

القسم الثالث في الخوض على الإنفاق

قال تعالى (آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) من الأموال التي هي ملكة في الحقيقة ومآلتهم إلا خلائق في التصرف فيها (فالذين آمنوا) بالله ورسوله (منكم وأنفقوا لهم أجر كبير ، ومالكم لا تؤمنون بالله) أي وأي عذر لكم في ترك الإيمان بالله والرسول يدعوكم إليه ويتلو عليكم كتابه الناطق بالبرهان وهذا قوله (والرسول يدعوكم لنؤمنوا بربكم) الجملة حالية (وقد أخذ ميثاقكم) بالإيمان قبل ذلك بنصب الدلائل والتحكيين من النظر (إن كنتم مؤمنين) أي إيمان كل منكم لوجب ما ، فان الإيمان لهذا اللوجب أعظم وهو أخذ الميثاق (هو الذي ينزل على عبده) محمد صلى الله عليه وسلم (آيات بينات) القرآن (ليخرجكم) الله تعالى أو نبيه بدعوته (من الظلمات إلى النور) من الكفر إلى الإيمان (وإن الله بكم لرؤوف رحيم) إذ أنزل عليكم الكتاب ولم يقتصر على نصب الدلائل العقلية (ومالكم) ألا تنفقوا في سبيل الله وفي ميراث السموات والأرض (أي وأي عرض عرض لكم في ترك الإنفاق في سبيل الله والجهاد مع رسوله مع أنكم ستموتون وتركون أموالكم لغيركم ، فالأولى لكم أن تنفقوها فيما يقربكم إلى الله تعالى وتستحقون به الثواب . ثم أخذ يبين درجات للتقنين ، فقال (لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير) الفتح فتح مكة ، فمن قاتل وأنفق قبله فأجره أعظم ممن أنفق وقاتل بعده مع أن كلا منهما وعده الله الثوبة الحسنى وهي الجنة كما تقدم في (سورة الواقعة) من الفرق بين السابقين وأصحاب اليمين والله يعلم بظواهر أعمالكم وباطنها فيجازي كلا بما فعل . وأعظم من قاتل وأنفق قبل الفتح أبو بكر الصديق رضي الله عنه . وأكثر للتفسيرين يرون أن الآية نزلت فيه ، ولكنها بحسب حكمها أعم (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا) أي من ذا الذي ينفق ماله في سبيله رجاء ثوابه ، ففيه استعارة لفظ القرض ليفيد لزوم الجزاء (فيضاعفه له) أي يعطيه أجره أضاعفا (وله أجر كريم) أي إن هذا الأجر في نفسه كريم حسن فكيف وقد ضوعف أضاعفا . انتهى التفسير اللفظي للقسم الثالث من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

القسم الرابع

قال تعالى (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم) وهو ما يوجب نجاتهم وهدايتهم إلى الجنة من العلم والعمل والعبادات والحسنة (بين أيديهم وبأيمنهم) لا من شمالهم ولا من وراء ظهورهم كالكافرين ، فاختصاص النور بالأمم وبجهة اليمين للاشعار بأنهم هم الذين بحسناتهم سعدوا ، وبصحاتهم البيض أظفحوا فإذا مروا على الصراط يسعون يسمى بسعيهم ذلك النور وتقول لهم لللائكة (بشراكم اليوم جنات) أي

دخول جنات (مجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم) ثم أبدل من «يوم ترى» قوله (يوم يقول المنافقون والناقصون للذين آمنوا انظرونا) أى انتظرونا ، وذلك إذا رأوهم قد أسرعوا كالبرق الخاطف إلى الجنة ، أو انظروا إلينا فإنهم إذا أقبوا عليهم بوجوههم استضاءوا بنورهم ، إن نظرونا (فتبس من نوركم) نستضيء من نوركم (قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا) وهذا تهكم بهم وتخييب لآمالهم من المؤمنين واللائكة ، أو قيل ارجعوا وراءكم إلى الدنيا فالتمسوا نورا بتحصيل العلوم والمعارف الإلهية والأخلاق الفاضلة فلا نور إلا منها ، وأما هنا فلا سبيل لكم أن تتلوا نورا ، إذ لا ينفع الراء إلا عمله ، ومن لم تستمد نفسه للهداية فلا ينفعه آخر (فضرب بينهم) أى بين المؤمنين والناقصين (سور) بحالط (له باب) يدخل فيه المؤمنون (باطنه) باطن السور أو البلب (فيه الرحمة) لأنه يلى الجنة (وظاهره من قبله العذاب) من جهته لأنه يلى النار (ينادونهم) أى ينادى المناقصون المؤمنين من وراء ذلك السور حين حجز بينهم وبغوا في الظلمة (لم نكن معكم) في الدنيا صلى ونصوم وزكى ونحج (قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم) أهالكتموها بالنفاق والمعاصي والشهوات ، فهذه كلها فتنة (وربصتم) بالمؤمنين وبالنبي صلى الله عليه وسلم الدوائر (وارتبتم) وشككتم في الدين (وغرتكم الأماني) الأباطيل وما تمنونونه كامتداد أعمالكم (حتى جاء أمر الله وهو الموت) وغرتكم بأفقه الغرور) أى الشيطان أو الدنيا (فاليوم لا يؤخذ منكم فدية) فداء (ولامن الدين كفروا) ظاهرا وباطنا (مأواكم النار هي مولاكم) أى مصيركم النار هي أولى بكم لما أسلفتم من الذنوب وهي مكانكم الذى يقال فيه هو أولى بكم (وبئس المصير) النار . اعلم أن المؤمنين لما قدموا المدينة أصابوا من لبن العيش ورفاهيته ففتروا عن بعض ما كانوا عليه فموجبوا ونزل في ذلك : «لم بأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق» الآية . وقال ابن مسعود ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين . وقال ابن عباس : إن الله تعالى استبطأ قلوب المؤمنين فما قبلهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن فقال (لم بأن للذين آمنوا أن تخشع) أى ترق وتلين وتخضع (قلوبهم لذكر الله) لمواظب الله (وما نزل من الحق) أى القرآن ، وقوله «لم بأن» أى ألم يأت وقته ، يقال أى الأمر يأتى إذا جاء الله أى وقته (ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل) معطوف على تخشع (فطال عليهم الأمد فقتت قلوبهم وكثير منهم فاسقون) أى فطال عليهم الزمان بينهم وبين أنبيائهم وكثير منهم خارجون عن دينهم راضون لما في كتابهم ، من فرط قسوة قلوبهم ، والمقصود أن الله نهى المسلمين أن يكونوا في صحبة القرآن كاليهود والنصارى الذين قست قلوبهم لما طال عليهم الدهر . وروى عن أبى موسى الأشعري أنه بث إلى فراء البصرة ، فدخل عليه ثلثائة رجل قد قرءوا القرآن ، فقال : أتم خيار أهل البصرة وقراؤم فاتلوه . ولا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم .

أقول : ولما كانت الأمة الإسلامية اليوم قد أصابها الوهن بطول المدة التي ليست ثلاث عشرة سنة (كما قال ابن عباس بل مضاعفة مائة مرة ، فقد اتبينا الآن من القرن الثالث عشر) كانت هذه الآية أقرب إلى التعبير عن حالها . وإذا كان الله قد وعظ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم قد ضفت عزائمهم ، فالمسلمون بعد ذلك بثلاثة عشر قرنا ظهر الوهن في عزائمهم ظهورا فاضحا أكثر مائة مرة وأفرط الأفرنج في إذلالهم ، وإذا كان الله يقول لآبائنا الأولين أيام النبوة (اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها) أى يحيى القلوب القاسية بالذكر والتلاوة والنشاط في العلم والعمل .

أقول : إذا كان الله يبشرهم بذلك ونينا صلى الله عليه وسلم بينهم فالبشارة لعمر الله اليوم لنا أكثر تحقيقا وأقرب رحمة ألا ترى أن الأرض إذا نزل المطر عليها بعد طول الفترة كانت قد استراحت فخصى نورا أعظم جروط خاضوكما كان الليل أشد ظلاما كان النهار أبهج إشراقا ، وطول المشقات يتقبه الفوز ، والضديبجه ضده

«وتلك الأيام نداولها بين الناس» وإني أنا أبشر المسلمين اليوم بهذه الآيات وبأشياء أخرى لا محل لذكرها، أشير المسلمين وأقول لهم قد جاء يومهم الموعود ، وأقبل إسماعيل المأمول ، وسترون العلم والحكمة ، وستكونون أمة لها شأن وأى شأن . وسيكون قراء هذا التفسير من أول العاملين لرفعة شأن هذه الأمة وليقومون في شمال إفريقيا وفي الحجاز والشام وبلاد العراق واليمن وباقي بلاد الإسلام علماء قريبا ، وحكام محمديون الأمر ، ويقتنون أثر أجدادهم ، ويجددون ما اندرس من العلم ، وستكون الأمة الإسلامية حد هذا الزمان أمة مفكرة ، بحانة نافعة لنوع الإنسان ، رحمة للعالمين ، قال تعالى (قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون) أي كي تكمل عقولكم (إن المصدقين والمصدقات) أي المصدقين والمصدقات ، وقرى بتشديد الدال وحده من التصديق (وأقرضوا الله قرضا حسنا) عطف على المصدقين (يضاعف لهم) يضاعف لهم (ولهم أجر كريم) هي الجنة (والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم) أي إن المؤمنين عند الله بمنزلة الصديقين والشهداء ، وهم الذين سبقوا إلى التصديق واستشهدوا في سبيل الله (لهم أجرهم ونورهم) أي لهم مثل أجر الصديقين والشهداء ومثل نورهم ، والفرق بين هؤلاء وهؤلاء أن نورهم من غير تضعيف ، فأما الآخرون فتواهبهم مضاعف (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) وإلى هنا تم الكلام على بشارة المؤمنين بنورهم يوم القيامة ، وعلى حضهم وحتمهم على بذل الجهد وترك الغفلة ، وعلى ثواب المصدقين والمصدقات ، ثم أخذ يشرح وصف سرعة زوال الدنيا فقال (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب) كالعاب الصبيان في الملاعب من غير فائدة (ولهو) بلهون به أضخم عما يهمهم كاهو الفتيان (وزينة) كالملابس الحسنة ، والمرآكب البهية ، والننازل الرفيعة . وكزينة النساء (وتفاخر بينكم) كتفاخر الأقران بالأنساب (وتكاثر في الأموال والأولاد) مباحاة بكثرة الأموال والأولاد ، ثم قرر ذلك فقال (كمثل عيث أعجب الكفار نباته) الكفار الزراع لكفرهم : أي سترهم الأرض بالبذر ، والنبات مانبت بذلك الفيت (ثم يبيع) يبيع (فتراه مصفرا) بعد خضرته (ثم يكون حطاما) يتحطم ويتكسر بعد بسه ويفنى (وفي الآخرة عذاب شديد) لمن كانت حياته بهذه الصفة ، فمن انهماك في الدنيا كانت عاقبة شدة العذاب ، وقوله (ومغفرة من الله ورضوان) أي لمن جعلها سبيلا للآخرة (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) لمن عمل لها ولم يعدل للآخرة ، ثم شرع في ترغيب العباد في العمل للجنة فقال (ساقوا لى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض) أي عرضها كعرضها ، فإذا كان ذلك عرضها فإذا يكون طولها ؟ (أعدت للذين آمنوا بالله ورسله) فهي مهيشة الآن مخلوقة (ذلك) الموعود (فضل الله يؤتية من يشاء) يتفضل به على من يشاء من غير إيجاب (والله ذو الفضل العظيم) فالفضل منه ممكن وإن عظم قدره ، ثم أعقبه بتوبيخ المصائب على المؤمنين تعجيلا للسعادة ، لأن هذه المسألة أهم المسائل في الحياة الدنيا ، وعليها تكون السعادة ، وبخلافها يكون الشقاء ، ألم تر إلى ما نقلته لك عن الحكيم قيس اليوناني ، وكيف شرح جميع أنواع النعم من مال وولد وعلم وصيت ، وانتهى في آخر الأمر إلى أنه لا سعادة إلا من حيث الصبر ووصول النفس إلى نهاية كمالها الأخلاقي بحيث يمر المال والولد والقوة والعلم عليها تصيبها تارة وتخطئها أخرى وهي بحالها مطهنة ، لا يزددها الاتصاف بما تقدم ، ولا يحزنها القوت .

هذا آخر آراء المتقدمين من الفلاسفة في سعادة الأتفس البشرية في هذه الحياة الدنيا ، فكأن الله يقول : أيها المؤمنون : الحياة الدنيا غرور فساقوا إلى الجنات ، واعلموا أنكم في هذه الحياة التي سميناها غرورا واقفون في خبرها وشربها ، فلنجد لكم السعادة قبل اللوت حتى تشموا رائحة الجنة وأتم أحياء ، وذلك مما نصفه فنقول (ما أصاب من مصيبة في الأرض) كالجدب والفاقة واحتلال الأجانب من الظالمين ،

واستيلاء الحكام الفاسقين من المسلمين (ولا في أنفسكم) كمرض وفاقة (إلا في كتاب) إلا مكتوبة في اللوح المحفوظ ، مثبتة في علم الله (من قبل أن نبرأها) نخلقها أي الصيبة (إن ذلك) أي إثباته في كتاب (على الله يسر) لاستغناؤه تعالى عن العدد والعدد ، إني أثبت ذلك وكتبته وأخبرتكم (لكيلا تأسوا) تحمروا (على ما فاتكم) من نعيم الدنيا (ولا تفرحوا بما آتاكم) بما أعطاكم الله منها ، فانظر كيف يقول قابس اليوناني : « إن الصبر مخرج من الشقاء » ويحییء القرآن بما هو أقرب من أول وهلة فيقول : إن كل شيء قدر في الكتاب فكيف تفرح أو تحزن ! قال عكرمة « ليس أحد إلا وهو يحزن ويفرح ، ولكن اجعلوا الفرح شكرا ، والحزن صبرا » . وقال صاحب الكشف : « المراد بالحزن المخرج إلى ما يذهل صاحبه عن الصبر والتسليم لأمر الله ورجاء الثواب ، وبالفرح اللطفي الملهي عن الشكر » (والله لا يحب كل مختال) متكبر بما أعطاه الله في الدنيا (غفور) بذلك الذي أوتي على الناس .

ذم البخل

قال تعالى (الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل) والخبر محذوف مثل فإن الله غني عنهم محمود وإن لم يحمدهم ، وهذا الخبر مأخوذ من قوله (ومن يتول) أي يعرض عن الإنفاق (فإن الله هو الغني الحميد) أي الغني عنه وعن إنفاقه ، محمود في ذاته ، لا يضره الإعراض عن شكره .

التحريض على العدل

قال تعالى (لقد أرسلنا رسلا إلى الأنبياء ، والأنبياء إلى الأمم) بالبينات) بالحجج والمعجزات (وأزلنا معهم الكتاب) التضمن للأحكام وشرائع الدين (والميزان) أي العدل : أي وأمرنا بالعدل (ليقوم الناس بالقسط) ليتعاملوا بينهم بالعدل ولا يظلم بعضهم بعضا ، ولما كان ما يزرع السلطان أكثر مما يزرع القرآن وكان الناس فريقين : فريقا يقوده العلم والحكمة ، وفريقا يقوده السيف والعصا ، وكان العدل والقانون لا بد له من حام يحميه وهو الدولة والملك وجنوده وأعوانه ، وهؤلاء لا بد لهم من عدة يحمون بها القانون والعدل في داخل البلاد وخارجها أعقبه بأنه أزل الحديد لتكون منه السيوف والرماح والسفن البحرية وما أشبه ذلك ، وهذا قوله (وأزلنا الحديد) قبل أن نخلق الإنسان والحيوان على الأرض حينما كانت آخذة في التبرد شيئا فشيئا فإنه كان هو وبقية المعادن سائلا تارة وبخارا أخرى ، يرفع كالسحب في الجو ، ويمطر على اليابسة ، ويترس في شقوق الأرض عاما بعد عام هو والذهب والفضة ، وبقى للمعادن قاتها كلها في تلك الدهور القديمة كانت مرتفعة الحرارة جدا ، وكلما بردت الحرارة نوعا ما أخذت تلك المواد تبرد بالتدرج ، ومنها الحديد في دوره الخاص به كما تقدم إيضاحه بالتفصيل في الأجزاء السابقة من هذا التفسير مع بيان الدرجة التي يصير فيها سائلا ، والدرجة التي يصير فيها جامدا صابا فلا نعيده ، فصح أن الحديد أزل من السماء كما يزل للطر ، وهذا من عجائب القرآن التي أظهرها علم طبقات الأرض الآن في المعادن والحديد الذي قال الله فيه (فيه بأس شديد) قوة شديدة ، فيه يقاتلون ، ومنه يصنعون السفن في هذا العصر للقتال والدروع (و) منه (منافع للناس) في جميع الصناعات ، فهو في قطارات السكك الحديدية في سائر أقطار الأرض كما هو في الإبرة وما بينهما ، لافرق بين صنع الكرسى وصنع القصر العظيم ، كلاهما داخل فيه الحديد ، وإنما قلنا ذلك لتجاهدوا في سبيل (وليعلم الله من ينصره) باستعمال الأسلحة في مجاهدة

الكفار ، والمحافظة على سلامة الأوطان ، التي هي من أمم الجهاد كما قال تعالى : « وما لنا ألا نقاتل وهم يرسلون » وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا » ومعنى [ليعلم الله] ليرى الله (من ينصره) أى من ينصر دينه (ورسوله بالقياس) أى حال كونه غائبا عنهم : أى ينصرونه ولا يصرونه (إن الله قوى) يدفع بقوته بأس من جرح عن ملته (عزيز) يربط بعزته جأش من يتعرض لنصرته . واعلم أن كتاب الله المنزل من السماء ، والعدل الذي أمر الله به والحديد الذي يجعل في المدافة عنهما مرتبطات كما شرحت لك .

ذكر بعض الأمم السالفة التي أنزل عليها الكتاب والميزان

وأن منهم من اهتدى ، ومنهم من فسق . ليرتب عليه ما بعده

قال تعالى (ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب) فجعلناهم أنبياء وأوحينا إليهم الكتب (فمنهم مهتد) أى فمن المرسل إليهم مهتد (وكثير منهم فاسقون) خارجون عادلون عن الطريق المستقيم (ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى بن مريم) وذلك بأن أرسلنا رسولا بعد رسول حتى انتهى إلى عيسى (وآتينا الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رافة ورحمة) الرافة المودة واللين ، والرحمة التمطط على الإخوان (ورهبانية ابتدعوها) وهى أنهم يترهبون في الجبال ، فارين من الفتنة في الدين ، مخلصين أنفسهم للعبادة ، والرهبانية هى الصلة المنسوبة للرهبان كخشيان من خشى ، والرهبان المبالغ في الخوف ، ومعنى ابتدعوها أخرجوها من عند أنفسهم ، وذلك بعد المسيح بقرون . أيام اضطهاد النصرانية بمصر ، فإن بعض العلماء ترك البلاد وخرج إلى الجبال كما جاء في كتاب [الحريرة النفيسة] ، في تاريخ الكنيسة [الذى ألفه أحد الرهبان بمصر وطبع سنة ١٨٨٤ م (ما كتبناها عليهم) ما فرضناها عليهم ولكنهم ابتدعوها (إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها) أى الذين جاءوا بعدهم (فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم) أى الذين ابتدعوها ابتغاء رضوان الله (وكثير منهم فاسقون) وهم الذين جاءوا بعدهم فلما أرسل النبي صلى الله عليه وسلم انحط رجل من صومنته وجاء سائح من سياحته وصاحب دير من ديره فآمنوا به وصدقوه فقال الله (يا أيها الذين آمنوا) بالرسول المتقدمة ومنهم عيسى (اتقوا الله) فيها نهاكم عنه (وآمنوا برسوله) محمد صلى الله عليه وسلم (يؤتاكم كفلين) نصيبين (من رحمته) لإيمانكم بمحمد وعن قبله (ويجعل لكم نورا تمشون به) وهو المذكور في قوله « يسرى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم » (ويخفر لكم) الكفر والمعاصي (والله غفور رحيم) وإنما فعلنا ما ذكر (لتلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدر أن يفعلوا من فضل الله) أى فعلنا ذلك ليعلم أهل الكتاب أنهم لا ينالون شيئا مما ذكر من فضله ، ولا يتمكنون من الكفلين من رحمته ، ولا من النور والمغفرة إذا لم يؤمنوا برسوله محمد صلى الله عليه وسلم فليس ينفعهم إيمانهم بمن قبله وحده ولا يكسبهم فضلا فتكون إذن « لا » زائدة وقوله « وأن الفضل بيد الله » عطف على « ألا يقدر أن يفعلوا » أى يعلموا عدم قدرتهم على ما ذكر وبملاوا أن الفضل المذكور في ملك الله وتصرفه يؤتاه من يشاء من عباده ، وإذا جعلت « لا » غير مزينة يكون المعنى لأجل ألا يعتقد أهل الكتاب أنه لا يقدر النبي والمؤمنون به على شيء من فضل الله ولا ينالونه أن الفضل بيد الله ، فلذلك أعطاه للنبي والمؤمنين . انتهى التفسير اللفظي للقسم الرابع من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذه السورة

- (١) في قوله تعالى : فضرب بينهم بسور « أى بحائط الخ .
 (٢) وفي قوله : « وجنة عرضها كعرض السماء والأرض » .
 (٣) وفي قوله : ورهبانية ابتدعوها « الخ .

اللطيفة الأولى في قوله تعالى : فضرب بينهم بسور

اعلم أن هذه الآية تفيد أن بين الجنة والنار حائطا له باب ومن دخله دخل الجنة ، ومن هو خارجه فهو في النار ، والناقون واقفون خارج هذا السور يقولون لمن كانوا معهم من المؤمنين « انظرونا نقبس من نوركم » وأولئك لا يجيبونهم إلا بالتقريع والتوبيخ . واعلم أن هذا الوصف له نظير في الدنيا ، بل إن مراتب الناس في الدنيا على هذا النوال . بل جميع العوالم الزامية من حيوان وإنسان ، ولأضرب لك ثلاثة أمثال :

(المثال الأول) كل فاكهة من الفواكه ، أوجب من المأكول ، أو زهرة في شجرة ، تجدها ذات قشر غليظ من أعلى يليه ماهو ألطف منه ، ولا يكون في داخل الجميع إلا الفاكهة المطلوبة ، ولا يكون في المركز إلا ماهو أعم وهو المقصود، ترى الزهرة يحجبها أولا الورقات المسماة بالكأس ولاجرم أنها أغلظ مما بعدها وهى الوريقات الملونات المسماة بالتويج ، وفي داخل هذين تجد أعضاء الذكور وأعضاء الإناث في داخل الزهرة ، إذن ظاهر الزهرة أقرب إلى العالم الحشن ، وباطنها أقرب إلى العالم اللطيف ، وهو المقصود بالذات ، انظر إلى البندق وإلى الجوز كيف كان القشر الأظلم غليظا وما تحته لطيف ، وفي داخله المادة المأكولة المحفوظ عليها ، وهكذا البطيخ والمان وجميع الفواكه ، وترى التمرة وجميع النخلة كأنها خوادم لنواة التمر لتكون أصلا لشجرة أخرى ، وهكذا كل نواة فهى محفظ عليها بمثل ذلك :

(المثال الثانى) إن جراثيم الأجنة في أرحام الأمهات من كل حيوان يرى أو بحرى تمر في أدوار من الخلق ، ثم إنها إذا وصلت إلى ماهى أهل له من الخلق وقتت ولم تتجاوز ما استعدت له ، ترى الحيوانات النعاعية التى هى في آخر مراتب الحيوانية تبقى على حالها لا ترتقى وهى في دور التربية ، وترى أنواع العنكبوت والنمل والنحل إذا خرجت من البيض لا تعدو مرتبة أصلها ، أما الحيوانات الفقيرة فإنها تتجاوز تلك المراتب ولا تتجاوز مرتبتها هى ، والإنسان يتجاوز المراتب كلها ويرتقى إلى مرتبة الإنسانية ، فكأن كل درجة من درجات الحيوانية غلاف يحفظ ما تحته ، وآخرها ارتقاء هو الإنسان الذى أحاط الجميع به محافظة عليه كما يحفظ القشر على لب الثمار ، وكما يحفظ الكأس والتويج في الزهرة على أعضاء الإلقاح .

(المثال الثالث) : دراسة العلوم في اللغة العربية ، مثلا : الحظ ، الإملاء ، النحو الصرف ، البلاغة القرآن : حكمه وعلومه ، إشراق النفس به . وانظر إلى نوع الإنسان كيف كان كل لا يتعدى حده الذى حده له استمداده والبيئة التى هو فيها .

يكتب الإنسان ويقرأ ثم يقف بعد ذلك لا يتعدى القراءة البسيطة ، وهو قد امتاز عن من لم يقرأ ومن يكتب . ثم يتجاوز ذلك طائفة علماء النحو ويجاوزهم علماء البلاغة ، ويظن هؤلاء أنهم وصلوا إلى قمة العلم ،

فيرتقى عنهم قوم إلى قراءة أعمار العرب وثرها وخطبها في الجاهلية والإسلام، ويظن هؤلاء أنهم أهل الجميع،
 ويزيد عليهم آخرون فيقروا تاريخ العرب وأنسابهم ولا يتعدون ذلك، ويتجاوزهم آخرون فيعرفون معاني
 القرآن وبلاغته ويظنون أنهم أرقى: ويتجاوزهم آخرون فيدركون مقاصده من الأخلاق والعلوم ويقفون،
 ويتجاوزهم آخرون فيعملون بذلك ويدرسون هذه الدنيا ونظامها، ويتخامون بحميل الأخلاق، ويقفون
 عند هذا الحد، ويتجاوزهم آخرون فيكونون مخلصين لربهم، نافرين لأمتهم، وهؤلاء هم الصديقون
 والحكماء، فكل طائفة متقدمة كالقشر لما بعدها، وكأن كل واحدة تقول لمن تقدم عليها وتجاوزها: ألم
 نكون معكم؟ قالوا بلى ولكنكم ظلمتم أنفسكم، واغتررتهم بعلدكم، ووقفتم عند جد مخصوص، ولكن نحن
 عرفنا الحقيقة ووصلنا، فلا تلوموا إلا أنفسكم، إنك ترى هذه الحقائق مجسمة أمامك في كل آن، وإلى هنا
 تم الكلام على اللطيفة الأولى، والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الثانية في قوله تعالى:

وجنة عرضها كعرض السماء والأرض

تقدم هذا في سورة (آل عمران) فارجع إليه هناك إن شئت.

اللطيفة الثالثة في قوله تعالى:

ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم

لنشرح هذا اللقمة من كتاب (الحريفة النفيسة، في تاريخ الكنيسة) فنقول: جاء في الكتاب
 للذكور الذي ألفه أحد رهبان دير السيدة بزموس في بيرة أنبا مقاريوس الطبعة الأولى بالمطبعة الأميرية
 بيولاقي مصر القاهرة سنة ١٨٨٣ هدية للأب السكلى الوقار (أنبا يوانس) مطران البحيرة ووكيل السكران
 المرقيه صفحة ١٦٢ وما بعدها مانصه:

في أبناء القرن الثالث للمسيح أى في أواخره أن (بولس السائح) قد انفرد للوحدة واتقطع للعبادة
 منذ صغره: فكان قسوة فضائله للأولين والآخرين، وقد ارتشد منه القديس (أنطونيوس) مقتنيا أثره
 ومنتجها منهجه الصارم لما كشفه وهو محتف في مغارة، ويان ذلك أن القديس أنطونوس اختلجه فكر
 العظمة طانا أنه هو أول من سلك طريق الرهبة منفردا للعبادة والنسك في البرية، فتداركته نعمة الله
 باعلان إلهي بأن في البرية رجلا أقدم منه زمنا، وأفضل قداسة، فأخذ عكازه وخرج بطوف في البرية قاصدا
 مكان عبده، وبعد ماسار يوما بتمامه ولم يجد آرا يدل عليه قام مصليا الليل أجمع مستمدا الارشاد من البارى
 ثم أخذ بطوف في اليوم الثانى، فرأى غروبا ذئبة صاعدة إلى جبل، فتبأرها ولم يدعها حتى خيم
 الظلام، فتركها ومال إلى مغارة يريد أن يبيت فيها، وبينما هو سائر في الظلام دنا من النور فشر به القديس
 بولس، فأسرع وأطلق دونه الباب، فلما وصل إليه جثا على الأرض باكيا وصارخا، إني لوائق بأنك تعلم
 عن أنا، ومن أين جئت، ولماذا أتيت؟ ولا تخفى عليك أننى لا أخرج من هنا أو أبصرك، فهل يمكنك
 بلذا الذى يقبل الحيوانات أن تطرد الإنسان، إني طلبتك وقد وجدتك، وقد قرعت بابك لتفتح لى فلن لم
 تقبل فلن أموت هنا. فأقل ما يكون أنك تجدى بعد موتى، ففتح له الباب. وطبق كل صاحبه مسلما
 عليه جمعه، فقال له القديس بولس: أبصر الآن من فقتت عنه بنياية عظيمة، فترى أعضائى قد وهنت

من الشيخوخة ، وقد ابيضت لحيتي كلها ، وجف جلدي ، فانظر إنسانا يرتد إلى الرماد سريرا قد تكذب كثيرا بالاستصحاء عني ، فأخبرني عن حال العالم من بعدى ، وهل يوجد من يبد الشيطان فيه ؟ فأجاب أنطونيوس على ذلك بالتفصيل . ثم سأله عن السبب الذي أحضره إلى ذلك المكان ، فأجابه القديس بولس قائلا : إنه بينما كان للملك (ديسيوس) يفتك بنصارى مصر والصعيد حيث ولدت مات والذى إذ كان عمرى ١٢ سنة ، فدخلت مدارس الفلاسفة ، وحرزت علوما وافرة ، فلما اشتدت المصائب على المؤمنين انضردت في منزل كان لى بين مزارعى ، فمرض لى خطر عظيم ، وذلك أن زوج أختى قام على ورام أن يختلس أموالى أو يشكونى إلى الوالى بأنى مسيحي ، وكنت سمعت بأن هذا الوالى أرسل إلى كل مكان رسلا بفحصوت عن المسيحيين ليعذبهم . أو ينكروا المسيحية فهربت إلى هذه البرية وتخلصت من خبث خصمى ، وبينما كما تتفاوض طار إلينا غراب حاملا فى منقاره رغيفا وتركه بين أيدىنا وطار ، فقال القديس بولس مباركا الرب الذى أرسل إلينا ما كالا ، فاعلم ياأخى أن منذ ستين سنة يأتينى هذا الغراب كل يوم بنصف رغيف واليوم أتى برغيف كامل من أجلك ، فشكرا لله الذى يهتم بقديسه ، ثم صرفنا الليل كله فى الصلاة ، وفى القد استدعانى وقال لى : أنا عرفت منذ زمان أنك مستوطن هذه البرية ، وقد وعدنى الله بأنك مزعم أن تزورنى وتوارى التراب . وقد وافى الوقت الذى فيه أفارق هذا الجسد البالى ، وأنطلق إلى الرب فأطلب إليك أن تعود إلى ديرك وتأتينى بالرداء الذى أعطاه لك أناسيوس لتكفنى به ، فبدأت أذرف الدموع متأسفا ، وطلبت أن لا يفارقنى قبل أن يلتمس من المسيح أن أنطلق معه ، فقال لى : يجب أن تحمك مدة من أجل خير إخوانك ، ثم أخبرنى عن مستقبل مجد الرهينة وفضلها ، فودعته وعدت مسرعا إلى ديرى . ولما صادفت اثنين من الرهبان وسألانى عن سبب غيابى لم أجبهما بكلمة ، بل قلت لهما إننى رجل خاطى ولا استحق أن اسمي راهبا (لكلام وقت ، وللمصمت وقت) ثم أخذت ذلك الرداء ورجعت إلى حيث القديس راجيا أن أعينه وهو حى ، فلما لم يبق إلا مسافة قليلة أبصرت جوقا من اللامسكة يرتلون وبينهم نفس البار (القديس بولس) غزنت وبكيت بكاء مرها ، ولما دخلت الغارة وجدت جسده جالسا جانيا على ركبتيه ، ورأسه مستقيما ، ويديه مرفعتين ، فظننت أنه حى ، فثوت أصلى بقربه ، ولما نظرت أنه لم يتهد كعادته فى الصلاة ، تفردت فيه جيدا فأنكدت أنه توفى ، فوثبت على جسده أقبه ذارفا الدموع ، ثم كفته بذلك الرداء ، وفيها أنا مفكر فى كيف أنا أدفنه إذ لم يكن معى آلة أخفر بها حفرة ساق الله لى أسدين وبدأ يحفران فى الأرض حتى أكلا قبرا ، وجثيا أمامى كأنهما يطلبان إذنا للانصراف ، فأثرت لهما يدي ، ثم وارتب الجسد فى التراب ، وأخذت ثوبه للنسوج من الخوص ، وعدت به إلى ديرى ، وكنت ألبسه فى الأعياد الإلهية انتهى .

هذا هو الذى نقلته من ذلك الكتاب ، أنا أكتب هذا وأنا فى غاية العجب ، هذا كتاب لم يظهر إلا فى هذه الأيام ، والمسيحيون فى مصر لم يعلموا به إلا فى هذه الأيام ، والسبب فى نقل هذه الرواية على إعلانها أنى كنت اطلمت فى بعض الجرائد على مقالة لمسيحي مصرى يقول : «الرهبانية مبتدعة وليست من أصل الدين» وما كنا نعلم ذلك من قبل ظهور قصة القديس بولس الذى عثر عليه أنطونيوس فى كتاب الحريفة المذكور فقلت فى نفسى عجب ! يقول الله «ورهبانية ابتدعوها» وجميع المسيحيين لم يعلموا أنها مبتدعة إلا فى هذه السنة لما عثروا على تاريخ (القديس بولس) الذى ظله الملك بمصر ، وقلت فى نفسى لابد من البحث على هذا الكتاب ، فاهتديت إليه ، ونقلت منه العبارة بنصها وهأنذا قرأتها وعرفتها .

أقول : أنى يقظة أنا فى منام . هذه معجزة تفوق جميع المعجزات النبوية الإسلامية ، هذا الابتداع

لرهبانية لايحه المسلمون بالإيمان بالقرآن، أما اليقين فهو محتاج إلى العلم ولا علم عندنا، وإذا كان السجود أعظم لا يعلون فمن الذي يعلم ما إلا بالسماع من القرآن، إني أحمد الله إذ وقت لهذه النعمة وهي المعجزة الكبرى للإسلام والقرآن، وهل لك أن أسمعك ماجاء في الآثار، فقد ورد عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر أن طائفة لم يستطيعوا القيام مع الملوك الذين ظلموهم لأجل إقامتهم على دين المسيح فاحوا في البلاد، وترهبوا، وهم الذين قال الله فيهم: «ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم».

وقال أيضا: «كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم على حمار وذكر نحو هذا، ومنه: فتمروا في غيران الجبال وأحدثوا الرهبانية، ثم قال صلى الله عليه وسلم «رهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله» وقال ابن عباس (كانت ملوك بعد عيسى عليه السلام بدلوا التوراة والإنجيل، وأطال في ذلك إلى أن قال فجعل الرجل يقول نسكون في مكان كذا نتعبد كما تعبد فلان، ونسبح كما سبح فلان، وتتخذ دورا كما اتخذ فلان إلى أن قال: فذلك قول الله «ورهبانية ابتدعوها» أي ابتدعها الصالحون منهم والذين جاءوا بعد الصالحين «مارعوا حق رعايتها فآتيننا الذين آمنوا منهم أجرهم» وهم الصالحون المبتدعون «وكثير منهم فاسقون» أي الذين جاءوا بعدهم انتهى ملخصا.

وإني ليأخذني العجب كل مأخذ أن أجد ابن عباس والآثار والأحاديث كلها تنحو منحى قصة بولس وأنطونيوس ونحوهما، فذكر النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه اضطهاد الملوك والسياحة في البرية والمغاور والخوف من الملوك والضلالة من اتباعهم في عدم الرعاية أمر عظيم، والحمد لله الذي نعمته تتم الصالحات وهذا من أعظم توفيق في هذا التفسير من الله عز وجل، وإلى هنا تم الكلام على قوله تعالى: «ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم» والحمد لله رب العالمين.

اللطائف العامة في هذه السورة^(١)

- (١) في قوله تعالى: «سبح لله».
- (٢) في قوله تعالى: «يعلم ما يبلغ في الأرض وما يخرج منها».
- (٣) في قوله تعالى: «اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو».
- (٤) في قوله تعالى: «ما أصاب من مصيبة».

اللطيفة الأولى في قوله تعالى:

(سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم له ملك السموات والأرض

عجى وبميت وهو على كل شيء قدير) الآيات

حضر صديق العالم الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير فقال: نحن نسبح الله ويسبحه ما في السموات والأرض، فهو منزه في ذاته وصفاته وأفعاله، فأذكرك الآن بسؤال وجهته لك في (سررة النجم) تحت عنوان (لطيفة في قوله تعالى: وأنه هو أضحك وأبكى، وأنه هو أمات وأحيا، وأنه خلق الزوجين الذكر

(١) يقول المؤلف: هذه اللطائف لم يكن لها وجود عند التأليف ولم يفتح الله بها إلا عند تقديم هذه السورة للطبع.

والأسمى ، من نطفة إذا نمتي ، وأن عليه النشأة الأخرى ، وأنه هو أغنى وأقنى ، وأنه هو رب الشعري وأنه
أهلك عادا الأولى ، وعمود لما أبقى ، وقوم نوح من قبل إتهم كانوا هم أظلم وأظنى ، والمؤنكة أهوى ،
فتشاها ماغشى ، فبأى آلاء ربك تنارى) فقد قلت لك مانسه :

الله أضحك وأبكى ، الله أمات وأحيا ، الله أهلك عادا ، الله أهلك عمودا ، وقوم نوح ، وأهوى
المؤنكة وانتهت الآية . إن هذه آلاء الله . الآلاء النعم . أمن النعم أن يبلى العيون ويهلك الأمم ؟ نعم هذا
السؤال ورد كثيرا في هذا التفسير ، وكثرت الإجابة عليه ، ولكن النفس لا تزال تطالب بالمزيد فحدثني .
أليس الله أرحم الراحمين ؟ أليس الله قدوة لنا في أفعاله ؟ الله أهلك أمما وأبكي عيوننا . وإذا قتل أحدا إنسانا
عمدا دخل جهنم . الله يهلك أمما . الله يسلط اليكروب على الأمم فيهلكها . ويسلط الأمم القوية على الضعيفة
فتذلها . الله يسلط الرحوش على آكلات الحشائش فتأكلها ، كل هذا فعل الله ، لأن هذا نظامه ، ثم تشريعه
لنا على خلافه ذلك ، فنحن بقتلنا إنسانا عمدا نعذب في جهنم يوم القيامة ، ونحكم شريعتنا علينا بالقتل ؟
وإذا كان الله أرحم الراحمين هذا فعله فكيف بنا نحن الضعاف في الأرض ؟ هذه المعاني تتردد في نسي
سباحا ومساء . وكل ما جاء في هذا التفسير من الأجوبة فيما مضى فإنما هي أجوبة جزئية ، والجزئيات لا تنى
عن الكلبيات . فأنا الساعة يوم الأربعاء ١٢ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية - ٢٠ يناير سنة ١٩٣٢ م
أريد إجابة شاملة كاملة حتى لا أحتاج إلى سؤال بعدها في هذا الشأن . فقلت : ماذا تقول في آية : « ولا يسأل
مما يفعل وهم يسألون » . فقال : وماذا تقول في آية : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم
فأثما بالقسط » فنحن الآن في مقام السير في طريق أولى العلم الذين يشهدون بيسارهم أن صانع العالم قائم
في عمله بالقسط والعدل . نريد أن نشهد ونحن في الأرض كيف كان الله قائما بالقسط في تدبير الخلق وفوق
ذلك نريد أن نفهم كيف يمكن الجمع بين هذا الإهلاك والابكاء والتدمير وإبادة الأمم وإذلالها وبين اسمه
(الودود) . ألم يقل الله « وهو الغفور الودود ، ذو العرش المجيد ، فعال لما يريد » ولا جرم أن الودود يفعل
ما يريد ، ولكن هل يلقى وده إليهم ، ويكون فعله محبوبا ، لأنه أتى على سبيل المحبة ، وهو إهلاك المدن
وإزالة الدول ، وإبكاء العيون ، أيكون ذلك ودا ؟ وأيضا جاء في القرآن آيات في سور كثيرة كلها دالة على
تزيهه في ذاته وصفاته وأفعاله . وذلك بصفة التسييح ، والتسييح تزيهه ، وهذا المعنى جاء مصدرا وفلا ما ضبا
وفلا مضارعا وأمرا مثل : « سبحان الذي أسرى ببيده ليلا ، وسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون »
وفي سورة النجم ، وفي آخر السورة قبلها : « ومن الليل فسيحبه وإدبار النجوم » وكذلك في (سورة الحديد)
« يسبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » ذكر الإحياء والإماتة ، وفي آخر سورة الحشر
(يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم) وفي آخر (سورة المجادلة) رضى الله عنهم
ورضوا عنه .

إن رضا العبد عن ربه ، وتزيهه وجهه ووده يعوزه الاطلاع على جمال الأفعال ، والأفعال الإلهية المذكورة
مشكلة مع أوصاف الحب والود والرضا الخ فأرجو الإجابة على هذا حتى لأعود إلى السؤال ككرة أخرى .
فصلت : سأوضح الكلام في هذه اللطيفة إن شاء الله تعالى في هذه المعاني ، وهناك تتجلى المعاني التي تريدها
وإن كان أكثر مما أسألك عليك هنا قد مضى كثير منه متفرقا فيما مضى من التفسير وسأشرح :

(١) النظام التكويني .

(٢) والنظام التشريعي وأنهما متفقان .

(٢) وأبين درجات الترية الست .

(٤) ترية الأم لولدها .

(٥) وتربية الأب له .

(٦) وتربية للعلم .

(٧) وتربية الحكومة للأفراد مع ما يتبع ذلك من نظام الجندية .

(٨) والتربية الإلهية وأنواع الزلازل والحوادث العظيمة .

(٩) وأن الأم حين تمنع ولدها ما يضره وهو يبكي لم يمنع ذلك حبه له ، وقد ضربت مثلا لدرجات التربية التي بعدها وبمقدار ازدياد العلم تعرف حقائق تلك التربية ويزداد الحب للعربي .

(١٠) ويبان أن العلم إما بهيئة سطحية كعلم الشعراء والأدباء . وإما بهيئة حكيمية فلسفية عالية كعلم الحكماء ، وإيضاح ذلك وتفصيله من كلام (كوتفوشوس) فيلسوف الصين الذي توفي في القرن الرابع قبل الميلاد .

(١١) ثم يبان أن الحب على مقدار العلم .

(١٢) يبان أن الله توارى عنا بحجبه . ولكنه قذف لنا كرات جميلة لا حصر لعدددها وهي الشمس والكواكب ، وهو يقربها ويبعدنا ليجذبنا إلى حضرتها ، وجعل الشطرنج والزراد عند اللاعبين مثلا لذلك كما جعل الجمال والحب الأدنيين مثلين لجماله وجهه الأعلى ، وصنع للناس في الأرض عجائب لولا حوادث الموت والحياة ومزججات الليالي لذهلت عقولهم ، فمن سرج تجرى في سقف مرفوع تدور حولهم . ومن حدائق وحقول حولهم ومناظر بهجات . وتارة يرسل لهم شهيات تقرب من أرضهم ليوقظهم إلى العلاء ، ونسبة هذه الأعاجيب إلى صانعها كنسبة صفات الكرة والوصولان والتردد والشطرنج إلى مخترعها ، والتعجب يكون على مقدار إتقان الصنعة .

هذا ما سأذكره هنا قريبا إن شاء الله مع شذرات في الآيات التي ذكرتها أيها الأخ الذكي ، فلما سمع ذلك قال : إن هذا لعجب ! وإني لفي غاية الشوق إلى ما وصفت ، وهأنحن أولاء وصلنا بعناية الله في التفسير إلى المقام الذي وعدتني أن نجيبني فيه . قلت : ها أنا ذا أفى بعهدي الآن والله هو الموفق .
أيها الأخ الذكي : مدار سؤالك على أن حب الله ووده وتزبيبه وعدله متوقفات كلها على إدراك مقاصد أممائه ، فلا تجعل هذا المقام في اثني عشر فضلا مرتبات على مقتضى السؤال :

الفصل الأول في النظام التكويني

اعلم أيها الأخ الذكي أن نظام التكوين مهما قلبنا طرفنا فيه لا نجد فيه إلا مقاصد الإصلاح والبقاء ، وكل هدم وتخريب وإهلاك فإنه موجه إلى الإصلاح ، خذ لك مثلا : هذه العوالم حولنا ، تراها في تغير مستمر ، وهذا التغير منشؤه كله أن المادة لن تقبل إلا صورة وراء صورة فليست كعمولنا التي هي أشرف منها وأرقى ، إن عقولنا تسع مالا حد له من الصور والمعلوم في آن واحد ، ولكن هذه المادة التي جعلت لحكمة عقولنا لن تقبل إلا صورة وراء صور ، وصانع العالم يعلم صوراً من الوجود لا حد لها ، وهذه الصور بحسب الرحمة العامة لا بد من وجودها ، ولكن وجودها يستحيل أن يكون في آن واحد ، فلا يحبس إذن من شتاء وصيف وموت وحياة ، وهكذا جميع المتناقضات ، ولا مفر إذن من زلازل وبراكين لإحداث تربة جديدة ، ولا يحبس من موت الأحياء لتلبس أجسامهم صوراً جديدة لأرواح حديثة ترسل إلى الأرض ، وهكذا كل حيوان وكل نبات ، فالقتل بهذا البرهان يقضي أن تتعاقب الصور على هذه المادة ، وأن هذا عدل وخلافه

ظلم ، وأيضاً الحياة في هذه المادة فيها شقاء ، فلا بد من عروج هذه النفوس إلى عالم الأرواح لتستريح من هذا الشقاء .

فلئن رأينا موتاً وحياة فذلك عدل وسواء ظلم بهذا البرهان ، وكل ما نخرج على هذه القاعدة تابع لها . فمن فروعها عوالم الحيوانات الذرية التي تسمى بالميكروبات ، تلك للعوالم التي أعدت لإبادة أمم وأمم من الحيوان والإنسان . ومن فروعها عوالم الطيور الكواسر في الجو ، والوحوش والسباع في الحلال ، والحر والبرد المفرطان المهلكان بعض الحيوان ، وعوالم الأمراض القاتلات ، وعوالم الجيوش الإنسانية القانصة بجيوش أخرى من بني آدم فوق الأرض كما في الحرب الكبرى للبتدنة سنة ١٩١٤ م للنتية سنة ١٩١٨ م فهذه كلها من النظام التكويني ، وصانع العالم كما ألهم الحيوانات الذرية أن تفتك بالإنسان والحيوان ألهم الجيوش الإنسانية في الأمم التي تسمى نفسها (متمدنية) بإهلاك جيوش أخرى ، وعلمهم اختراع المهلكات والمدمرات لإبادة إخوانهم ، كل هذه أفعال صادرات عن نفوس ، تلك النفوس مخلوقة لصانع هذا العالم الذي صنعها وصنع نفوس الوحوش والأسود ، فهذه الفروع كلها ترجع للأصل الذي قررناه وهو أن المادة لاتسع إلا صورة وراء صورة ، فلا بد من تلاحق هذه الصور ، وكل ما رأيناه من هذه الأعمال تنوعات ترجع لذلك الأصل ، إذن أيها الصديق نظام التكوين معقول ومقبول . انتهى الفصل الأول .

الفصل الثاني : في النظام التشريعي

ولا جرم أننا إذا أقررنا النظام التكويني السابق فليس معناه أن نجعل النظام التشريعي على مقتضاه كما بل التشريع شيء والتكوين شيء آخر ، فقال صاحبي : أليس الأمران من صانع واحد اقلعت نعم ولكن الصانع ميز عالم الإنسان عن هذه العوالم التي حوله كلها من ثموس وكواكب وحيوان ، أعطاه قوة عقلية وقال له : أنا وضعتك هنا بين المتناقضات ، ووهبتك قوة فاستملمها ، وإياك ثم إياك أن نحتاج بأني خلقتك ، فلك قوة تميز فاعمل بها ، فإذا قتل الإنسان إنساناً عمداً وقال لصانع العالم إنك أنت تقتل الألوف والألوف ، وتهدم المدن ، وأنا يارب ما قتلت إلا واحداً أو مائة ، فأنا أفضل ما تفعله السباع في البرية ، وما تصنعه الكواسر في الجو ، وما تصنعه الحيوانات الذرية من إهلاك الناس ، فهني يارب ميكروبات ، أو فهني يارب من كواسر الطيور ، أو من أسد البرية ، أو هني جندياً من جنود أمة من الأمم تغزو أمة أخرى فإنك سلطتها على غيرها فتبيد منها جنوداً وجنوداً ، وقد قضى نظام تكوينك أن تلبس للمادة صورة وتخلع أخرى ، وأنا من الذين ساعدوا في ذلك ، فهل على من سبيل ؟

إذا قال الإنسان ذلك لصانع العالم يقول له مجيباً : أيها الإنسان ، هذه الكواسر والسباع وحيوان الميكروب القاتلات كلها مسخرات بأمرى ، لها غرائز قضت عليها بذلك ، ولا حياة لها إلا به ، فلم يكن مقصدها الإهلاك والتدمير ، وإنما غرائزها موجبات لما خلقت له ، فهي أشبه بالحر والبرد والزلازل ، فلا مقاصد شريرة هنا ، فالحر والبرد لا إدراك لهما ، وكذا الزلازل ، وهذه الحيوانات مرغمات على ذلك أما أنت وإن كنت مثلها في أنك مساعد على أن تلبس للمادة صورة غير الصورة التي تلبسها ، فتخلع قديماً وتلبس حديثاً ، فإن عملك عمل موجه لفكرة جزئية وهي فكرة الانتقام ، وإما كراهة في القتل ، وإما أن تفعل ذلك لتأكل ثمرات كسبه ، والأمور بمقاصدها ، فإذا فعلنا الإهلاك والتدمير في أرضنا فذلك قام عليه البرهان السابق الذي لا مناقض ولا مناهض له ، لأننا نريد الإصلاح العام ، فأما أنت فلم ترد بعملك الإصلاح العام ، وإنما أنت أردت شهوة خاصة وهو إشباع قوتك العنصرية انتقاماً ، أو إشباع شهوتك البهيمية اغتناماً لكال للقتول وفرق بين عملنا وعملك ، فالوجود هذه القوة فيك أصبحت بها مسئولاً أمامنا ، نعم أنت يقتلك إنساناً ، فقلت ما فعله نحن بحسب الظاهر ، ولكن ليس المدار على القتل بل على الباعث عليه ، وبعثك شهوتك

وعضبك وابتعت فلنا رحمة عامة موجبة للمجموع ، وقد تفرغ عن هذه الرحمة كل ما حولكم مما اشقته عليكم ولعلك بهذا نهم قولنا في الكتاب الكريم « فقه الحجة البالغة » فهذه من حججنا البالغة التي ادخرناها في عوالمنا لتظهر للمقول الكبيرة في أرضكم ، انتهى :

أقول : هذا هو الجواب الذي خطر لي اليوم ، الوجه من جناب صانع العالم إلى عبد من عباده يسأله الأروال التقدم ، كتبته اليوم صباح الجمعة ١٦ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية - ٢٢ يناير سنة ١٩٣٢ م. وعلى هذا يتفرغ أن قتل الخطأ لاقتل فيه ، وإنما فيه الهدية ، وبه يظهر معنى « متعمدا » في الآية : وإلى هنا تم الكلام على الفصل الثاني ، والحمد لله رب العالمين .

الفصل الثالث : في ذكر الآلام التي تحيق بالإنسان

قال صاحبي ، : هذا الجواب جميل وبهيج وحسن ولكني أريد أن أتبين وجوه تلك الآلام التي تمررنا وما وجه الحكمة فيها ؟ قلت : لقد شرحت هذا في التفسير في مواضع كثيرة جدا ، لاسيما في تفسير البسطة التي تكررت هي وتفسيرها في كل سورة . قال : ولكننا نريد أن نعرف هنا معرفة عامة . قلت :

الفصل الرابع : أول مثل ضربه الله لفعله في خلقه هو فعل الأم في طفلها

معلوم بما تقدم أن الأم أكثر الناس عطفًا على ولدها ، ولكنها قد تجرعه الدواء ، وتلبسه اللباس ، وتغسل جسمه ، وهو كاره وكثير البكاء ولكن الأم لا تبالى بذلك كله ، بل تفعل الصلحة ولا تبالى بآلامه ، ولما كانت الأم أقل من الربين لولدها إدراكا ، تلقفه بدها من هو أولى بتدريسه وتعليمه وتهذيبه منها ، وهو الأب المذكور في :

الفصل الخامس

ذلك أن الأب يأخذه إلى الحقل ، أو إلى العمل ، أو إلى المدرسة ، ويحكم عليه بأن يعمل ويعبد ، والأم غالبا تشفق عليه في ذلك كله ، ولكن الأب لا يبالى بما يقاسيه ولده ، وهناك من هو أوسع علما من الأب ، وهو المذكور في :

الفصل السادس

ألا وهو المعلم ، فيزيد في تثقيفه وتعليمه ، وتدريسه ، وهذا يسلمه إلى الأمة ، وإلى الحكومة في :

الفصل السابع

ذلك أن هناك ما هو أوسع مدى من الأم ومن عطف عليها حتى المعلم ، ذلك أن في الأمة حكومة وقضاء والقضاء قد يحكم عليه بالتغريب ، أو الأشغال الشاقة ، والجرم ارتكبه ، فها هنا رحمة أوسع من رحمة من تقدم ، ذلك أن الرحمة هنا شاملة للمجموع الأمة ، وهذا فرد منها ، وحياة الفرد لا قيمة لها إلا بحياة المجموع ، فإذا ظهر من الفرد ما يخل بحياة المجموع مرض المجتمع ، ويتبعه الأفراد ، وهذا واحد منهم ، فهذه رحمة أوسع ، وقد تجمع الأمة للمجموع لحرب غيرها ، دفاعا عنها ، أو اضيالا وظلما لها ، فالقدر

هنا مسير بقوة المجموع ، ونيته هنا (وإن كانت تابعة للمجموع في حال الاغتيال والظلم) موجهة لموم أمته لا
وحده ، والقائل لغيره عمداً أكثر إجراماً من هذا وإن كان كلاهما مجرماً ، وهل هناك تربة فوق هذه
إلا الآتية في :

الفصل الثامن

في التربية الإلهية التي لا تنف عند ما تقدمها ، فهناك المصلحة العامة ، فلتسكن الزلازل ، ولتسكن
البراكين ولنزل بلاد ، ولتبت أهلها ، وليسكن وباء عام ، ولتخسف أرضون ، بل لتزل شمس ؛ وأرض
من لوح الوجود فهل هذه كلها إلا كموت زيد وولادة عمرو ، القاعدة مطردة والقفل في غاية النظام ، ولتثل
لهذا كله ما في :

الفصل التاسع

وهو ما نشاهده من رحمة الأم بولدها مع صبرها على بكائه عند إعطائه الدواء الذي أمرها به الطبيب ،
وهل بعد ما يبناه من درجات التربية من أدناها إلى أعلاها إلا أن نذكر في :

الفصل العاشر

التربية العامة في مدارس العالم الإنساني قديماً وحديثاً ؛ وإلى أي حد وصل هذا الإنسان ؟
. وهل الأولون والآخرون يرمون لغرض واحد ؟ وما هو ذلك الغرض ؟

فاعلم أيها الدكي أن التعليم إما ظاهري سطحي ، وإما بهيئة حكيمية عالية ، فالأول كعلم الشعراء والأدباء
والخطباء والوعاظ ، ورجال الديانات في الأرض ، والثاني كعلم الحكماء ، والفلاسفة ، وهاهنا وصلنا إلى
أبواب المحبة والجمال والسعادة ، لا جمال ولا سعادة إلا بالحكمة ، نعم الأم تربي ، والأب وللعلم ، والمدن
تنظم ولكن المقصود من وجود هذه الأرواح الأرضية استنارتها وحبها ومعرفة الجمال ، ثم عروجها إلى
أعلى ، وذلك لم يكن ، ولا يكون ولن يكون إلا بجد الإنسان نفسه ومحبه هو ، إن مباحث الإنسان كلها
موجهات إلى إدراك حقائق جميع الأشياء إجمالاً وذلك من الحب والشغف للوجه للمعرفة ، فلنذكر أولاً
أوصاف هذا الحب إجمالاً ، ثم نتقى على آثاره بوصف الشعراء له ، ثم نتبعه بالأثار المالية للحب وهي الفلسفة ،
فهاهنا ثلاث جواهر :

الجوهرة الأولى في وصف الحب

ولقد أمجبنى للموضوع الآتي في وصفه

قال بعض الأدباء : « إن الإنسان الذي يبتغى أن يعيش بالسلام والهناء لا بد له من معرفة قواعد الحب
كما يعرف قواعد الكيمياء مثلاً ، أو أنظمة البلاد التي يقيم فيها ، وهي مسألة حياة أو موت ، فليس الحب
أعمى كما يزعم بعضهم ، بل هو بعكس ذلك يعرف دون سواه أن يبصر الحقيقة ، ولا يقتصر في ذلك على
العلاقات بين البشر ، بل يتناول غير ذلك أيضاً ، فلماذا بعد (اديسن) في مصاف الدهاة حيناً يدور الكلام
على اختراعاته على اختلاف أنواعها قد يحاوب بعضهم على هذا السؤال بقوله : لأنه أوتى دهاء ، وعلماً - لانتي

ماللهاء والعلم من المقدرة ، ولكن الأمر الجوهري الذي مهد له سبيل الوصول إلى أغراضه هو حبه للعمل في محنته ووقف نفسه عليه .

إن الذي لا يحب الخيل لا يستطيع أبدا قيادة الخيل ، إن الطاهي البارح هو الذي يسر في مزاوله الطبخ إن القصص القدير هو الذي يحب الأشخاص الذين يختلفون بحبه شديدة ، إن الممثل الممتاز هو الشديد الولوع بفنه ، والخطيب المصقع هو الذي يميل ميلا شديدا إلى الفصاحة ، وليس في العالم قوة أعظم من قوة الحب ، وليس فيه رؤيا جليلة أجلى من الحب ، وليس فيه حكمة أسمى من الحب ، وليس فيه فضيلة دينية أفضل من الحب ، ولا يستطيع المعلم أن يعلم التلاميذ شيئا إذا لم يكن يحبهم ، ولا ينشأ عن المال خير دائم ، ولكن القلب المحب ينشأ عنه خير حقيقي أكبر مما ينشأ عن جميع هبات (كارنجي) و (روكفلر) .

الحب ير الأشياء واضحة أما عدم الاكتراث فيراها قائمة ، وليس في العالم سوى مأساة واحدة وهي فقد الحب ، والحب دون سواء مبدع أما البرودة فقيمة ، ويزعم (غوت) أن (مفيستوفيلس) روح الشر هو تخيل محض وأنه لم يحب أخدا ، وقد جاء في الإنجيل : إن الله محبة ، ولم تصنع الأرض إلا للذين يحبون ، أما الذين لا يحبون فعدودون في جملة الأموات وإن كانوا أحياء برزقون ، وكانوا على سطحها يرحون « انتهى ماأردته من جريدة الأهرام ، وبهذا تم الكلام على الجوهرة الأولى ، والحمد لله رب العالمين .

الجوهرة الثانية وهي طبقة الشعراء

فهل لك أن تسمع قصيدة بديعة لشاعر صيني برئى نفسه قبل موته ، عاش سنة ٢٣٥٠ ق . م . جاء في جريدة « الجهاد » يوم الإثنين ١٨ يناير سنة ١٩٣٢ — ١٠ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية مانصه بالحرف الواحد :

نشرت « البرلترتاجيلاط » ترجمة قصيدة بديعة عثر عليها المنقبون حديثا ، وقد كتبها برئى بها نفسه الشاعر الصيني (تاوباينج) الذي ولد في سنة ٤٢٧ قبل الميلاد وتوفي في سنة ٣٦٥ ق . م والقصيدة تدل على حياء بديع ، وزهد في الحياة ، واحتقار لمتاع الدنيا ، وإليك ترجمتها :

« نحن في الشهر الأخير من سنة (تنجماو) والبرد شديد ، والليل طويل ، كأنما لا آخر له ، والريح تنصف بقوة ، وطيور الليل تضرب بأجنحتها ، وترسل صراخها الثاقب . أما الأشجار فقد رأيتها في النهار وقد ذبلت أوراقها ، وجفت غصونها ، ودب فيها الجفاف كما يدب الموت في الحياة ، وها أناذا أتأهب لمغادرة دار الضيافة (الدنيا) التي عشت فيها غريبا وحيدا ، لكي أعود إلى الأبدية التي لا نهاية لها ، والتي هي موطن الحقيقى سيكي الذين عرفوني ، وسيتصدق أهلى بالبيد النقي ، والفاكهة الناضجة ، وستترقرق الدموع في عيونهم فما أتعب الحياة .

أتم بامن ستفرون مرثيق لنفسى ، إنكم وفرتم لأبدانكم كل أسباب النعمة ، أما أنا فولدت فقيرا . وعشت فقيرا ، وكنت دائما في حاجة إلى الطعام ، وكانت شرابي تنقصها الدماء : كنت في الشتاء أرتدى ملابس الصيف ، ولكني عشت سعيدا وأموت الآن سعيدا : ولطالما انحدرت إلى القدر أملأ من ماله أتيت وأعود منه مسرورا أغنى قصائدي وأررد مقطوعاتي .

كنت أحتي تحت كومة من الأوراق الدابة ، وأواصل الليل بالنهار في نظم القصائد ، متى فرغت من قصيدة أخذت أغنيها كالليل الفرد ، أغنيها وأشتغل في حديثي ، والرياح يقبل وينفضي ، والحريف يأتي

تلا الحريف ، وأنا أزرع ، وأحصد ، وأنظم القصائد . كنت أجد في القراءة ، والعزف على القيثارة سرورا ليس بمدى سرور ، وكنت في الشتاء أبحث عن الشمس ، وفي الصباح أصبح في ماء الفدبر ، وكانت حياتي مجموعة من العمل الشاق ، ولكنني كنت سعيدا مرتاح البال : أقابل إرادة السماء بنفس طائعة مطمئنة وهأنذا أوشك أن أعاد الحياة كما دخلتها .

الناس يحبون الحياة ، ولديهم دائما أعمال ، يشفقون أن يخترتهم الموت قبل أن يفرغوا منها ، فهم عبيد الأيام والساعات وهم محبوبون طامسا هم يعيشون ، ومتى طوام الموت قتل أن يذكرهم أحد ، وإن ذكروا فبطيئة أو خبيثة ، أما أنا فأعادر الحياة وحيدا ، ولم أخلف فيها ما يشرفني أو يوصفي ، وليس لي فيها ما أحرص عليه ، فأنا سعيد في الحياة ، سعيد في العتات ، وسين عندى البقاء والعدم انتهى ما جاء في الجريدة المذكورة .

أقول : أعيا اخترت هذا الشاعر لأنه من الأمور الغريبة لتوغله في القدم ، فلنجز هذه الدرجة إلى ما هو أعلى منها وهي الآتية في :

الجوهرة الثالثة: آثار الحب العالية وهي الفلسفة

فأعجب لحكمة الأم المتوغلة في القدم وهي التي سأذكرها لك الآن كيف اصطلمت وانفتحت مع الحكم التي عرقها أمم بعدها ، ولا مواصلة بين الأولين والآخرين ، فأعجب هنا من قصائد (المهابارات) السنسكريتية ومعلوم أن (المهابارات) مجموعة علوات ، أو قصائد حماسية ، تحوى أكثر من مائتي ألف بيت في وصف الحروب القديمة ، ويقدر أنهما وضعت في القرن الخامس عشر أو السادس عشر قبل المسيح ، فأصبحت وكأنها دائرة معارف لعلوم الحكمة البرهانية وتعاليمها ومنبع آداب وجمال لا ينضب :

ومن المجموعة الشعرية الأخرى التي تضارعها شهرة وأهمية هي (الرامايانا) فهذان الكتابان في الهند بمثابة (الإلياذة) و (الأوديسا) في بلاد اليونان ، ولئن نسب كتابا الأغرقي إلى شاعر فرد هو (هوميرس) رغم قول القائلين اليوم بأن هذا الشاعر لم يوجد أصلا) فإن شاعر (الرامايانا) يدعى فليكي ، أما علوات (المهابارات) فتعرف باسم (فياسا) جامعها فقط ، إن المهابارات المذكورة تشمل قسما عظيما منها يختص باسم (البهجاوات جيتا) وهذه خاصة ترجمتها إلى الإنجليزية السيدة (اني بيزانت) فاطلع عليها قراء اللغة الإنجليزية في زماننا . ولقد وصفت (مسز بيزانت) المذكورة هذه القصيدة التي ترجمتها إلى الإنجليزية قائلة ماملخصه : « بين التعاليم الثمينة للودعة في (المهابارات) الكتاب الهندي العظيم ، ليس من تعلم أندر وأتمن من (البهجاوات جيتا) ومعناه «نشيد السيد» فنذ أن أرسلت هذا النشيد الفخم شفا (سكريشتا) الإلهتان في ميدان الوغى لهدى انفعالات تليذه وصديقه (ارجونا) : كم من قلب هو طمأن وشدد ، وكم من روح معذبة قد اقتاد إليه ، إنما الغرض منه رفع طالب الرفعة من أدنى دركات التضحية السطحية إلى أعلى المراتب حيث تتضاءل الرغبات ، وحيث يمكث الحكيم الصميم في تأمل هادئ ، بينما جسده وعقله يقومان في نشاط بالواجبات المنوطة به في الحياة ، فألحكمة الحكمة حقا لاتمضي انزال الجانب الروحي من الإنسان ، بل توجب تحقيق اختياراته في الأعمال الزمنية اليومية ، كائنة حقارتها ما كانت ، على أن يفكر المرء في رقيه الخفي والروحي . وعلى أن يعلم أن الجواجز القائمة دون ذلك الرقي ليست متأتية من الخارج ، بل هي منبتقة من داخل النفس ، ولبوغ الرفعة الروحية لا بد من الحصول على كمية خاصة من التوازن والانسجام النفسى بحيث يصبح للمرء غير متأثر بالمسرات والآلام ، بالشوق والغور وغيره من الانفعالات المتناقضة المتعاقبة

فليتعلم القارى، إذن فن ترويض نفسه على أن لا تجذبها الجوازب . ولا تزجره الزواجر : بل يستخلص من هذه وتلك دروسا تقوده وتهديه إلى أعلى المبادئ، في وسط المحن والغموم ، فيقوم بواجبه كله على أتم وجه ممكن لأنه ينتظر نتائج عمله بل لأن القيام بالواجب مفروض عليه . يعمل لأن في العمل شرفا وترويضاً وفائدة يعمل ليعمل ويزرع البذور دون أن ينتظر لنفسه جنى الثمار اه .

أنا اخترت بل هذه القطعة من كلام هذه السكانية المترجمة ممجبا بتعاليم صدرت قبل الميلاد نحو ١٦ قرنا ونار انبعثت من الوجدان الإنساني العميق . ثم ظهرت الآن حديثا . فأدهشنا وأقهذا القول أدهشنا لأننا نرى روح الانسان الوثابة لم تفتأ تجدد . وان تفتأ حتى تقرب من الحقيقة ، وهل الحقيقة التامة إلا أن نعمل حيا في نفس العمل : نعم هو ذلك . فهاهنا يقول الله : « سبح لله مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم . له ملك السموات والأرض عبي وبعبت وهو على كل شىء قدير » . إن عمل الله موجه للمصالح العامة كما قدمناه . وكل من كان أقرب إلى نفس المصالح العامة بشوق فهو إلى الحكمة العليا أقرب ولن يبلغ هذه المرتبة أحد بمجرد القراءة . بل لابد من شعور يفيض من النفس بعد الإطلاع والتعمق . أما ظواهر العلم فلا تعطى هذا الشعور والإدراك الجليل . وقد آن أن أحدثك عن سير علم الحكمة في العالم بعد ذلك التاريخ ولقد تقدم في (سورة الحجرات) عند آية : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا » حكمة (كسوف وشيوس) حكمه للسبعين المتوفى سنة ٣٧٨ ق م وأنه جعل نظامها هكذا :

- (١) أولا مشاهدة الأشياء والأفعال المحيطة بنا .
- (٢) ثانيا : متى كانت المعرفة خالصت الأفكار وتزهت الأغراض .
- (٣) ومتى تزهت الأغراض تهذب الأخلاق وتفتت النفوس .
- (٤) ومتى تفتت النفوس انتظمت الأسر .
- (٥) ومتى انتظمت الأسر انتظمت الدول .
- (٦) ومتى انتظمت الدول أصبحت الأرض كلها ترحم في السعادة والحبور :

هذا ملخص ما تقدم هناك وهو هنا أكثر وضوحا مع الاختصار ، اللهم إنك أنت العزيز الحكيم . سبحت لك الأفلاك . سبح لك مافى السموات والأرض ، لأن كل ما فيها يرى لك عزة بها فمرت كل مادة فصارت مصوغة كما تريد وهذه الصياغة محكمة فأنت عزيز وأنت حكيم .

بنظر العقلاء في سمواتك وأرضك فيرون مادة بلا نهاية يرونها . وحكمة في تلك الصور لا حد لها . ثم يرجعون إلى الحقائق والعقول فإذا يرون ؟ يرونك جعلت العقول المنقطعة التواصل . التباعدة التناهي . الانفصال المساكين . المتطاولة الأزمنة . ترمى لغرض واحد . وما هو هذا الغرض ؟ هو تسييحك وتقديسك بحب وشوق وغرام لك وولوع .

باربنا : هاهى ذه (الهابارانا) باللغة السنسكريتية قبل ٣٥ قرنا وهى مائتا ألف بيت . هذه (الراماياتا) هاتان موسوعتان لعلوم أمم وأمم قبلنا . وهاهى ذه خلاصة من أولى المجموعتين . فكانت النتيجة نظرة عامة في الوجود ، وحب لحالقه ، وصبر على السراء والضراء ، وذلك كله تابع للحب ، وها هو ذا الشاعر الصيبي منذ ٢٤ قرنا تراه يحوم حول هذا المعنى بدون تعمق ، وها هو ذا في نفس ذلك القرن الفيلسوف كنفوشوس الصيبي يلقي لنا درسا في عدة أسطر ، فترى علم الفلسفة كلها ملخصة فيها ، فقد ذكر ظواهر الطبيعة التى تشمل الرياضيات والطبيعات ، وانتقل إلى تهذيب النفس وآداب الأسرة ونظام الدولة .

هذا ماخص فلسفة الأمم الحديثة قد ظهرت عند الصين قبل الميلاد ، والترتيب هو نفس الترتيب ولما كانت فلسفة اليونان قد نقلت إلى علماء الاسكندرية ، وبني الفرع الشامي والفرع الأثيني بعد الميلاد وأيام حكم الرومان قرءوا نفس هذه الفلسفة على هذا الأسلوب نفسه ، وانتقلت إلى المسلمين بنفس هذا الترتيب ، طواهر الأشياء ، ثم معرفة الله ، تهذيب النفس ، ثم الأسرة الخ وهو نفس ماقاله كنفوشيوس الصيني ولما وصلت هذه الفلسفة إلى أوروبا وقرأها (يكون) الإنجليزي غير النظام ، ولكن الجوهر واحد ، قال أولا إن جميع العلوم نسميها تواريخ ، والتواريخ ترجع لقوة الذاكرة ، فالذاكرة تذكرنا بالتاريخ البشري والتاريخ الأثرى الذي جاء في الديانات والتاريخ العلمي ، فنقول التاريخ الطبيعي والتاريخ الرياضي الخ وهما يتنصرت أناس بعد هذه العلوم بالبحث في نظام الطبيعة ومعرفة الله ومعرفة النفس ، فهانذا نظام عام في مقابلة نظام أجسامنا الخاص ، وهانذا مبدع عام لهذا النظام في مقابلة المبدع الخاص لأجسامنا وهي نفوسنا فكان علم النفس التي بها يعرف المنطق فعلم الجمال فنظام الأمة والأسرة والقوانين العامة ، إذن نظام الفلسفة الذي صوره (يكون) هو نفس النظام القديم النقول عن اليونان ؛ وهو هو ذلك الذي أجمله (كونفوشيوس) الله أكبر ؛ علم واحد ونظام واحد تهتدى به العقول قديما وحديثا . ونسمعك في كتابك تقول : سبح لله ما في السموات والأرض فكان جميع المسلمين على نمط واحد ، وكيف لا يكونون على نمط واحد والمنبع واحد ، وكيف لا يكونون على نمط واحد ونحن نرى كنفوشيوس الصيني الذي يهر الصين بحكمته منبر ما بك غرام كتاب (المهاباراتا) وما فيه من (البهجاوات جيتا) الذي اتضح فيه معنى آية هي في نفس سورة الحديد ، كتاب البهجاوات جيتا الذي ترجم إلى الإنجليزية حديثا ، وقد ترجمته فتاة ، هذا الكتاب يتبعه قد ظهرت في آية في نفس هذه السورة ، أي سورة الحديد ، يقول الله : «اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ، ثم يهيج قراء مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ساعوا إلى مغفرة من ربهم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله ذلك صد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ، لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور» .

أفلا تعجب معي أيها الذي المطلق على هذا التفسير ؛ فهل كان بدور بخدي حينما ابتدأت في كتابة نصير (سورة الحديد) وأنا أرتب هذا الموضوع أن خلاصة ما في كتاب (البهجاوات جيتا) هي نفسها في آية من هذه السورة ، إذ يقول تعالى : إن ما يصيبكم أيها الناس قد كان عندى في كتاب ، وإنما أقص عليكم ذلك لأجل ألا تفرحوا ولا تحزنوا ، فإذا كان كل شيء مرتبا منظما عندى فما شأنكم أتم ؟ وكيف تفرحون بشيء لا عمل لكم فيه ، أم كيف تحزنون على شيء فاتكم وأنا الذي قضيت بفواته لكم ، فلتسكن حياتكم حياة تسلم في كل وقت ، وقد ضربت لكم المثل المحسوس ، وهي الأم تستعذب العذاب في سبيل مرضاة ابنها لها تحبه ، فالجب يجعل الصعب سهلا ، أحبت الأم ابنها فهي لا يهنا لها طعام ولا شراب ولا حياة إلا بإرضائه وإسعاده .

هنا مثل مشاهد لأنار الحب ، وليست الفلاسفة للخصلة من تاريخ علوم الأمم قديما وحديثا للمبر عن نتائجها بقوله تعالى : « سبح لله ما في السموات والأرض » الخ إلا نبراسا للحب : أي حب صانع العالم ، وحب نفس العالم من حيث نظامه ، وحب الناس وإسعادهم ، وهذا الحب نتاجه استعذاب العذاب في سبيل اتباع الحطة للث التي اختطها مبدع العالم من حيث المعرفة العامة وسعادة المجموع ، فإذا كانت الأم مغفرة

بأنها وهذا الترام أنساها الآلام . فهكذا كان حكام الأمم قديما ، وهكذا سيكون حكام هذه الأمة الإسلامية في مستقبل الزمان .

بإله ، تحطمت قلوبنا أسى وحسرة على أمم الإسلام ، فأنتنا ما تريد فوق ما أنتنا ، بإله : أنا لا أدرى وأنا أكتب هذا للوضوع بأي فكر أكتب ، أكاد أكون منفذا لفكر ليس لي .

حدثنا بنعمة الله . لست حين أردت الابتداء في هذا الموضوع ، فرأيت موضوعا مبهتا غير . منتظم وكل ما ليس منتظما فليس بشوق لقراءته ، لأن الجمال يتبع النظام ، وما ليس منتظما ليس جميل ، هناك ودعت القلم والقرطاس وقلت إلى اللتقي ، ثم رأيت الشمس أمامي ضحي ، وقد تقدم في هذا التفسير في أول (سورة يونس) عند الكلام على الشمس وضياها كيف نصح الأطباء بأن يجلس الإنسان في الشمس طريا ماعدا العورة شرعا ، وماعدا الرأس طبا ، فضلت ذلك وبقيت فيها أنلني أشعتها ، وأحمد خالقها ، الذي علنا علما يجهله أكثر هذا النوع التمدن الإنساني ، الذي حرمت عاداته عليه أن تباشر أشعة الشمس جسمه وهي أكبر نعمة حظي بها النبات والحيوان ، وحرمها الإنسان لجهاله ، وبذر وأسرف في اللابس جهلا وغرورا ، ورثها عن الآباء تقليدا ، وما أقبح التقليد ، جلست نحو ساعتين ، وفي أثناء ذلك كنت أحس بسعادة ، لأنني تلقيت أشعة الشمس ولو قليلا من ساعات النهار ، وما كدت أقوم من مجلسي حتى رأيت في نفسي عجا ، رأيت هذا الموضوع للشعب قد رتب اثني عشر فصلا منظمة مرتبة ، فلم يسعني إلا أن ألت من فوري وقيدت الفصول التي أسمعتها لك قريبا ، وأخذت أشرحها ، وهذا تمام الفصل العاشر منها .

الفصل الحادي عشر: في بيان أن الحب على مقدور العلم

إن هذا اللقام ظاهر في كثير من مواضع هذا التفسير ، ولكن نذكر هنا جملة وخبرة تناسب هذا اللقام ، الأمم تسبح ربها ، وما في السموات والأرض يسبح لله ، وفلاسفة الصين واليونان والعوالم كلها تسبح له . والتسييح ذكر ، والذكر يتبعه الفكر ، أم تر إلى قول الله تعالى : «الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض» الخ والتفكر يوجب للمعرفة واللمعة يتبعها الحب .

الأعمى لا يحب الصورة الجميلة لأجل جمالها ، لأنه لم يعرف . هكذا عمى القلوب لا يعرفون جمال هذه الدنيا . لأن عيون قلوبهم لم تشاهدها ، وهذا باب واسع لا آخر له ، وانظر آخر حديث في البخاري قال حدثني أحمد بن إسحاق حدثنا محمد بن فضيل عن عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : «كلمتان حبيبتان إلى الرحمن ، خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في اللبّان سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم» هـ .

فهاتان الكلمتان الخفيفتان على اللسان هما التسييح للقرون بالحمد تارة وبظمة الله أخرى الله أكبر . نطق اللسان بها وهي سهلة عليه ، ولكن اللبّان بها ثقيل ، وهل يتحمل اللبّان إلا بما أودع في التسييح من العلوم التي يتعلمها الإنسان . وهل لعلوم التسييح آخر ؟ أليس له ملك السموات والأرض ، أليس يحيي ويميت ، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن الخ . كل هذه مقرونة بالترية ، وهذه جوزها علوم وعلوم ، وعلى مقدار الترام بالعلم والوصول للحقائق يتحمل اللبّان ، وإذا لم تحس في أنفسنا في الحياة الدنيا بيهجة العلم وارتقاء النفس به والابتهاج بآثاره فلا وزن في الآخرة ، إن اللبّان في الآخرة على مقدار ما حصلنا في الدنيا فإن كنا من البعاد ، فاللبّان على مقدار إحساسنا بآثارها ، وإن كنا من المفكرين فعلى مقدار علومنا

وتأثرنا بها يرداد ميزاننا رجحانا « إن ربي على صراط مستقيم » انتهى الكلام على الفصل الحادى عشر
والحمد لله رب العالمين .

الفصل الثانى عشر

في أن الله عز وجل يوارى عنا بحجبه ، ولكنه قدف لنا كرات لا حصر لعدددها . وهي
الشموس والكواكب ، وهو يقربها ويبعدنا ليجذبنا إلى حضرة العلية ، وجعل الشطرح
والتردد عند اللاعبين مثلا لذلك كما جعل الجمال والحلب الأدينين مثلين لجماله وجهه الأعلى
وضع الله للناس في الأرض عجائب لولا حوادث الموت والحياة ومزججات اليبالى لدهلت عقولهم ، فمن
سرج نحري في سقف مرفوع تدور حولهم ، ومن حدائق وحقول تحيط بهم ، ومناظر بهجات ، ولم يكنف
بتلك الكرات البعيدة الجميلة ، بل أرسل لهم شهابا تقرب من أرضهم ليوقظهم إلى العلاء ، كأنه يقول : هذه
نموذج للشموس والكواكب ، ونسبة هذه إلى صانعها كنسبة صفات الكرة والصولجان والتردد والشطرنج
إلى مخترعها ، أو كنسبة آلات النور وآلات الصوت إلى مخترعها ، وهو (إدسون) في زماننا .

الله أكبر : صنع العبد بالنسبة لصنع صانعه أقل بما لا حد له من عمل الأطفال وهم يركبون العيدين
وعروى في الطرقات بالنسبة لأبائهم وهم يركبون الجمال والحيل . جل الله : أين نحن من عجائب مدهشات
أشار لها الله تبارك وتعالى هنا في هذه الآيات فقال إنه له ملك السموات والأرض وإنه يحيى ويميت وإنه على
كل شئ قدير الخ فما هو هذا الملك ؟ هذا الملك منه شمسا ، منه مجرتنا ، مجرتنا التي يقول (سيرز) (وهو
أحد علماء مرصد جبل (ولسن) إن فيها ٣٠ ألف مليون نجم ، ويقول (تايلى) وهو أحد أساتذة الفلك
في (هارفرد) إنها مائة ألف مليون نجم ، ويبلغ قطع المجرة الأطول ٢٢٠.٠٠٠ سنة ضوئية . وهي المسافة
التي يقطعها الضوء في ٢٢٠.٠٠٠ سنة بسرعة ١٨٦.٠٠٠ ميل في الثانية الواحدة ، هذه مجرة واحدة ، أو
هذه جزيرة واحدة من الجزائر التي خلقها الله في هذا البحر الواسع ذلك البحر الذى امتلا بمادة ليست ماء
مولسها أمر أشبه بخيالنا سموه الأثير ، تبارك الله رب العالمين .

فهذه الجزيرة التي سميناها مجرة فيها شموس كشمسنا أو أعظم بما لا حد له ، وعدد الشموس من ٣٠
ألف مليون شمس إلى مائة ألف مليون شمس ، فهذه الجزيرة الواحدة لها أخوات فما عدد هذه الأخوات
يا ترى ؟ عدد ما يمكن معرفته منها مليونان (كما يقوله جبل أحد علماء مرصد جبل (ولسن) على اعتبار أن
تلسكوب المرصد المذكور في الوقت الحاضر ١٠٠ بوصة ، وكل واحد من هذه الجزائر التي سميناها مجرات
يبعد عن الآخر مليون سنة ضوئية ، وأبعدها عنا يبعد ١٤٠ مليون سنة ضوئية ، ومضى ثم بناء التلسكوب
الجديد الذى سيكون قطر مرآته ٢٠٠ بوصة يتمكن الراصدون من الوصول به إلى ١٦ مليون مجرة
من هذه المجرات بدلا من مليونين ، والمجرة الواحدة من هذه السة عشرة مليون فيها مادة تكفى أن
يكون منها نحو ألفى مليون نجم .

هذه آراء علماء الفلك في معرفة ملك الله (وبعبارة أخرى) هذا آخر ما يفهمه النوع الإنسانى
في تفسير قوله تعالى : « له ملك السموات والأرض » فيقال :

أولاً : ما الذي عرف الناس من ملك السموات

وثانياً : ماذا عرفوا من ملك الأرض

والإجابة عن الأول أن الناس يظنون اليوم أن هذا الملك يصل إلى ١٦ مليون مجرة تضرب في ألى مليون شمس كشمسنا ، ما هذه العظمة ؟ ما هذا الملك العظيم ؟ ما هذا الابداع ؟ هذا هو قول الصلى ، الله أكبر » وهذا قوله في صلواته « الحمد لله رب العالمين » وهذا قوله (الرحمن الرحيم) وهذا هو التسييح : (سبح لله ما في السموات والأرض) . يقرأ للسلم : (ومن الليل فسبحه وأدبار النجوم) في آخر سورة الطور ، ثم يقرأ بعدها (والنجم إذا هوى) . أقسم الله بالنجم وهذا بيت القصيد ، أقسم بالنجم ليأمننا إليه لعرف سعة ملكه الذي ظهر بعضه في زماننا ، ولذلك يقول في (سورة الواقعة) (فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لاقسم لوتعلمون عظيم) .

عجب ! يقول (لوتعلمون) ولقد علمنا اليوم بعض تلك العظمة التي بها نفهم أمرنا بالتسييح في آخر نفس سورة الواقعة ، ونفهم الأخبار بأنه (سبح لله ما في السموات والأرض) في أول الحديد .

أيها المسلمون : القرآن لهذا نزل ، أيها المسلمون : أتم مأمورون أن تسبحوا ، وهذا هو التسييح ، وهل يكفيننا في هذا القام : أي في الإجابة عن السؤال الأول ، وهو ملك الله المذكور في آية : (سبح لله ما في السموات والأرض) أن نؤلف صفحات أو كتبنا ، إن الإجابة يعوزها آلاف آلاف من العلماء في آلاف الآلاف من السيارات والأرضين وهم يدونون فلا يستطيعون سيلا نهاية الإجابة ، ها هو ذا علم الفلك أرانا شذرة من العلم فأدهشنا ، ها هو ذا علم الفلك يحدثنا :

فيا سعد حدثنا بأخبار من مضى فانت خير بالأحاديث يا سعد

وقال ابن القارض :

وعلى تفنن واصفيه بحسنه يفي الزمان وفيه مالم يوصف

يقول علم الفلك ولو على سبيل الظن إذا هو الممكن لنا ونحن على هذه الأرض : إن ١٦ مليون من المرات التي قدرها علماء الفلك بحسب المرصد الذي بيني الآن وقطره ٢٠٠ بوصة بضربها في ٢ مليون كوكب يبلغ الحاصل من ذلك كله ٣٢ ألف مليون مليون كوكب (وبعبارة أخرى) أن الشمس التي بقدر وجودها الناس اليوم في ملك الله الذي نسبحه ونعظمه في هذه الآيات ، هي هذه الأعداد التي يذهل العقل في تقديرها بعد أن كان هذا النوع الإنساني لا يعرف من عظمة الله إلا شمسا واحدة ، وهي شمسا هذه التي يذهل العقل حين يرى أن ذوات الأذئاب الدائرات حولها كسمك البحر عدا ، وهكذا النيازك والشهب ، فالجموعة الشمسية تذهلنا عظمتها ، والمجرة التي تشمل المجموعة أشد إذهالا لنا ، وعدد المرات أعظم وأعظم . هذا هو الذي به نفهم قوله تعالى : « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لغد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي » وهذا مبدأ تفسيره ، إن تفسير كتاب الله كل علم ظهر ، وكل علم يظهر ، وإذا كان الإجمال هكذا مدهشا لاحد له فالتفصيل من باب أولى ، فليقل علماء الفلك اليوم إننا نظن أن الشمس الآن قد مضى من عمرها خمسة ملايين مليون سنة ، وأن الأرض قد مضى لها نحو ألى مليون سنة ، وأن عمر الحياة عليها نحو ٣٠٠ مليون سنة ، وعمر الإنسان عليها ٣٠٠ ألف سنة .

وليقولوا كذلك^(١) : (إن الشمس ستبقى مدة تراوح بين ٥٠ مليون مليون سنة و ٥٠٠ مليون مليون سنة ، فليقولوا ذلك ، وسيقول غيرهم كلاما غير هذا : وهكذا ليقولوا إن هناك شموسا أكبر من شمسا ٢٥ مليون مرة كشمس من شموس الجوزاء ، وضوء شمسا بالنسبة لضوء ذلك الكوكب كضوء الجاحب بالنسبة لضوء الشمس ، ثم ليقولوا إن هناك شموسا لا تبلغ سوى جزء من عشرة آلاف جزء من تألق شمسا ، فليقولوا ذلك وليقولوا فالأمر عظيم ومدهش ، فليقولوا فإنهم إنما يسرون قوله تعالى هنا «سبح قصص السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» فهذا هو ملك السموات وهذه هي الإجابة على السؤال الأول .

الإجابة على السؤال الثاني : وهو ملك الأرض

فما هو ملك الأرض باترى ، الأرض سيار يتبع الشمس ، إذن هو عدم صرف ، وكيف لا يكون عدما وهذا الملك الذى اطلعت عليه بحسب ما وصل إليه العقل الإنسانى لو أن الأرض صغرت فصارت جوهرافردا يكون كله ألف مليون أرض كأرضنا بحجمها الحالى : أى أن الملك يصغر بنسبة صغرها هي ، فهى صغرت حتى صارت جوهرافردا ، فيكون الملك كله ألف مليون أرض ، كهذا الحجم الحالى ، إذن الأرض عدم والسكان عليها لا معنى لذكرهم أيضا لأنها هي أشبه بالعدم فهى إذن عدم ، ولكن عند البحث نجد ما فوقها من العوالم يدهشنا أيضا ، فهو يفعل في عقولنا ما فعلته أعداد المجرات اللاتى يظن أنها ربما تبلغ ١٦ مليون مجرة ، وهى الآن مليونان اثنان : أى ما علم منها . ثم هذه الأعداد بالنسبة لما عرفناه وما لم نعرفه أعظم وأعظم ، والمجرة الواحدة تحوى مادة لا تقل على أن يصاغ ضحا نحو ألفى مليون شمس وهكذا إلى آخر ما تقدم . فنفس هذه الحيرة قد أذهلتنا في العوالم التى على أرضنا التى تشبه العدم ، حيوان أنواعه تعد بمئات الألوف . ونبات كذلك ومعادن : وغرائب لا حصر لها . والذى قلناه في تلك العوالم قوله في هذا العلم الذى يشبه العدم :

عجب حياتنا كلها . عجب هذا الوجودا سعادة تنتظر نفوسنا بعد مفارقة هذه الدار . نور ، بهجة ، جمال لك الحمد يا الله على العلم وعلى الحكمة . فلنتصبر في هذا المقام الذى لا حصر له على زهرات من العلم . ونذكر بعض جمال النبات وجمال الحيوان مما تقدم شرحه في هذا التفسير . ولنذكر بعض جمال النبات المذكور في المجلد التاسع عشر :

- (١) فمنها أن هناك شجرة تسمى (شجرة البقرة) من كراكاس وهى تعطى لبنا خالصا سائما للشاربين وأهل كراكاس يتغذون منه . ومن العجب أن صفات هذا اللبن هي نفس صفات لبن البقر ويفضل عليه بأن الأحماض لا تؤثر فيه . ومن عجب أيضا أنه يستخرج منه عطر .
- (٢) وشجرة (ذات اليد) يستعمل ورقها لعلاج الصرع وهى تنبت في البرازيل .
- (٣) وشجرة الحرير : وهى شجرة ماسقة جدا (واللسيو برتران بوكانديه) يقول : إن في كازاما منى مراكب طولها ١٥ مترا في عرض مترين ونصف ، تصنع الواحدة من ساق إحدى هذه الأشجار وتزرع الشجر عند ميلاد التلام : فإذا كبر وعقل واستقل أخذ كل ما يلزمه من هذه الشجرة . فلها فاكهة ولها وبر قطنى حريرى كثير جدا تقذفه على الأرض إلى مسافات بعيدة . تراها كأن السماء أمطرت لؤلؤا وثلجا وهذا الوبر يجعل في الوسادات والفرش الوثير .

(١) يقول للؤلؤف : إن أكثر هذه الحقائق من الكتاب السنوى الثانى الذى يحتوي على مجموعة المحاضرات التى ألقىته في مؤتمر الجمع الطبي للثقافة العلمية لسنة ١٩٣١ .

(٤) وشجرة الدهن : تزرع في الصين ، يصنع منها شمع كشمع السبل فيض ، وهكذا يستخرج منه دهن ونوع من الزيت .

(٥) وشجرة الثعابين : تزرع في البرازيل ، وجذرها يستعمل في الشفاء من لسع الثعابين .

(٦) وشجرة السكرى الياباني (ولها لبن وقشدة .

هذا ملخص ما تقدم هناك ، أنا لست الآن إلا في مقام ذكر ملك الأرض ، وملك الأرض اكتشفنا منه يعص زهرات العلم . وهذا التفسير فيه كثير من علم النبات في مواضع مختلفة تكفي اللبيب فلنقف عند هذا الحد ، إننا ذكرنا ستة أشجار فقط ، فألقينا حريرا وفاكهة ، وشفاء من الصرع ، وشفاء من لبغ الحيات ولبنها ودهنها وعطرها ، ومراكب كبيرة ، وعجائب كثيرة ، فأصبحنا أمام هذه الشجرات الست وما يعانلها مما يعد بثبات الألوف من النبات كأننا في حيرة المهرات والشموس والسيارات والأرضين العظيمة عظمة لا حد لها فيما قل وفيما أكثر ، إذن فلنفض في الكلام على شذرات من علم الحيوان فنقول :

شذرات من علم الحيوان

أنا الآن في مقام التسييح ، والذي نسبجه وهو صانع العالم له ملك السموات والأرض ، ومن ملك الأرض الحيوان ، وقد قلنا ان في هذا التفسير ما يكفي للثقافة العامة في أمم الاسلام ، ولكن لا بد من ذكر نبد من أجل ما تقدم ، فأذكرك أيها القاري بما تقدم في (سورة طه) عند قوله تعالى : «قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى» فانظر هناك نجد :

(١) الثعالب ونحوها تعلم منها الإنسان حرفة الصيد .

(٢) ومن الفيران تعلم سكنى الكهوف .

(٣) ومن نحو الطباء تعلم أن يمشي في الآجام .

(٤) ومن الخمل اتخذ البيوت .

(٥) ومن حيوان يسمى (السكرتور) بنى الجصور الثينة ليجتمع السيل .

(٦) ومن الدب في الأقطار الشمالية تعلم صناعة السفن .

(٧) ومن العنكبوت تعلم الصيد بالشبكة .

(٨) ومن بعض السمك تعلم صناعة النجارة باستعمال البلطة والمشار .

(٩) ومن السرطان في البحر تعلم صناعة الدروع التي تقي جسمه النبال .

(١٠) ومن أم الخولول تعلم أحقاق النشوق .

(١١) ومن الخنزير تعلم حراثة الأرض .

(١٢) ومن الهرة تعلم الاحتراس من الروائح للتصاعده من الفحم .

وهكذا من الصناعات التي تبلغ ٣١ صناعة مذكورة ، وهذه قل من جل من تلك الصناعات الحيوانية التي عرفها الحيوان وقلده الإنسان فيها ، فمملكة الحيوان مملوءة من العجائب كمملكة النبات فيما تقدم ، فاقرا بقية ما ذكر في (سورة طه) .

ثم اعجب مما حفظ به الحيوان من الهلاك ، فهو كما كمل بالصناعات العجيبة النافعة فعاش قرير العين أسبغت عليه نعم أخرى بها حفظ من الهلاك ، فانظر ما تقدم في (سورة المؤمنون) عند آية : «وما كنا عن الخلق غافلين» وتأمل الفيران مثلا كيف كان لونها السواد ، ذلك لأنها مضطهدة من جميع الناس لأنها مسطحات على ذروعهم يأكلها ، وعلى أحسامهم بما تنقل لهم من العدوى : ولكن الصانع الحكيم الذي برأها هو

التي يدافع عنها ، بماذا يكون ذلك الدفاع ؟ يكون الدفاع بأمر عدي ، ماهو ذلك العدي ؟ هو عدم اللون وهو السواد ، فانه إذا حرم من الخروج نهارا ، فلا بد له من السمي ليلا ، ولو كان لونه غير السواد لظهر فهذا حفظ .

أها المسلمون : لهذا يقول الله : «سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز» عز أي غلب وقهر هذه المواد ولم يبال بالأهواء ، كأن يقال لماذا لا يكون القار كالطاوس جمالا وبهجة . فلا يكون هناك حواب غير نفس العلم (الحكيم) فهو حكيم في صنعه ، وبمحكمته سود القيران لتجيا محاربة للإنسان ، لأنه يريد حياة الحصىين معا لا أحدهما ، وبهذه الخاصصة تتم الحياة ، ولو عاش الإنسان بغير مضاد له لسكن أقرب إلى البله ، وضعف تفكيره ، ومثل ماقلنا في القيران نقول في عشرات الحيوانات المذكورات هناك من الأسود والنور اللاني تشبه آجامها ماحولها في الصحارى والقفار ، ولو أن ألوانها لم تكن كذلك وكأنت واضحة لرأينا فرانسها فقرت منها فهلكت تلك الحيوانات المفترسة في يوم أو بعض يوم . وهكذا نقول في نحو الجمال (الإبل) إنما كان لونها كلون ماحولها في الجبال والوهاد ، لأنها لو لم تكن كذلك لافترسها السباع لظهور ألوانها . الله أكبر « يسبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ، له ملك السموات والأرض » .

وهكذا يقال في طائر ليلى بأمرىكا مذكور هناك ، فهو ذو ذيل طويل أبيض يقف ، وسكن هذا البياض إيلا لا يضره لأن له سلاحا يقيه العطب ، وهي الرائحة الكريهة كرائحة الظربان ، كان الزناير الملونة ألوانا رافة بالنهار لا تخشى العطب من هجوم أعدائها ، لأن هؤلاء الأعداء يملون ما عندها من السلاح والسكرع وفس على هذا بقية الحيوانات المذكورة هناك فراجع .

ومثل ذلك يقال في أنواع الحشرات من أبي دقيق المذكورات في (سورة الروم) المرسوم صورها هناك كما رسمت صور كثيرة للحيوانات المتقدمة في (سورة المؤمنون) ففي هذه التي في سورة الروم ترى نوعا من حشرات أبي دقيق لها لون جميل شديد اللعمان ، وهذه الحشرات إذا أمسكتها بيدك لومت جسمك وثيابك بمادة قدرة ، عرفت ذلك كل الحيوانات فتجامتها ، ولكن المدهش أن هناك حيوانات أخرى لا سلاح لها تعيش مع هذه في مكان واحد ، وتلون كالونها حذو القذة بالقذة فتتحامها أعداؤها فيسكدر نسلها (ارجع إلى هذا المقام هناك نجد تفننا في أساليب الدفاع بالمشابهة في الألوان اختصارا في سورة الطبيعة البديعة .

نعم هذا هو الملك ، وهذا هو الإبداع ، وحسن الصنع والتزويق ، وإظهار الجمال تفنن في المجرات . تفنن في الشمس ، تفنن في السيارات تفنن في النبات ، كل هذه أفانين وأفانين لا أحد ولا انتهاء .

جمهوريات الحيوانات

ضرب مثل يذكرنا بأجتماع الأرواح بعد مفارقة الأجسام

يظهر لنا أن كل ما تتصف به جمل ضرب مثل لنا . ومن الأمثال المضروبة لنا جمال الصور في كل ما نراه . فإنا نفرح به ثم يزول . كأنه يقال : هناك جمال لا يزول وهذا جمال زائل . فابحث عمالما يزول من الجمال الذي هو السبب فيما يزول ألا وهو جمال الله ، نفرح بملك وبسلطان ثم يزولان . فيقال هناك ملك وسلطان دائمان فابحثوا عنهما « وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا » .

تنتظر النحل والنمل وبعوها تفرح بالملكات التي تحكمها وتكون لها أشبه بالأستاذ للتلميذ والأم لولدها والأب الرؤوف لأبنائه . وترى السيارات تدور حول الشمس . والأقمار تدور حول الأرض ، والأبناء ترجع

لأمهاتها رجوع مودة وحب وألفة وانعطاف ، والجيوش ترجع للقواد في أمورها ، وهذا درس لنا نحن في الحياة كأنه قيل لنا : إن الله شمس والأرواح تستمد منه استمداد السيارات من الشمس . إن أرواحكم جاءت من عند الله . وإذا رجعت إليه وتركت هذه الأجسام فقد نالت بغيرها كما يرجع الساء إلى البحر والحجر المرمي به إلى الأرض ، والثرى النفوخ في الماء إلى أصله وهو الهواء ، ولكن الفرق بين المثل به والمثل له عظيم ، لأن الله ليس كمثل شيء ، فهو يجعل عن الأفهام . فهذا ضرب مثل . والأمثال يكفي فيها التقريب تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا «تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليبا غفورا» . كتب في فجر يوم الخميس ٢٠ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية الموافق ٢٩ يناير سنة ١٩٣٢ م

مذاكرة

حضر اليوم صديق العلامة الذي اعتاد مناقشتي في هذا التفسير فقال : إن هذا القول حسن في ذاته من حيث إنه تفسير لآية : «سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم . له ملك السموات والأرض عسى ويعيت وهو على كل شيء قدير» نعم هاهنا ظهرت قدرة الله فرأينا النوع الإنساني المستمر المدهش ولكن هنا نقطة أحب أن أعرفها . لقد ذكرت أن جمهوريات الحيوانات أمثال مضروبنا لنا من حيث إن اجتماع أزواجنا بعد الموت يكون مثل اجتماع جمهورية النحل مثلا على «يسوبها» وهي الملكة وهذا القول مبهم أحب إيضاحه ؟ قلت : قد طال المقال . فقال : ولكن لا بد من تفصيل هذه المسألة لئلا تذهب فيها الآراء كل مذهب قلت :

النحل حول اليعسوب ضرب مثل لرجوع الناس لربهم

ومقدمة ذلك الصلاة إلى القبلة توجهها إلى الله حول الكرة الأرضية

أيها العزيز : إن هذا الخاطر مكث في نفسي أياما جاء سؤالك على مقياسه : وبيانه أن التسبيح والتقدس والتكبير هيام بصانع العالم . وهذا الهيام يزداد بازدياد العلم الذي ماهو إلا شرح هذه الممالك المذكورة في أول (سورة الحديد) وهي ملك السموات والأرض والإحياء والإماتة فيهن إلى آخر ما تقدم . وهذا الهيام يتمثل في الصلاة . وهيئة الصلاة حول الكرة الأرضية كهيئة اجتماع النحل حول يسوبها . فالكعبة في المركز كما أن ملكة النحل في وسط النحل . وأهل آسيا وأفريقيا والمسلمون من أمريكا وأستراليا صوبها فإذا تأملت بصيرتك المصاين وجدتهم قد ولوا وجوههم صوبها . وهي في وسطهم فتوجه المصلين جميعا نحو مركز واحد وهي القبلة كاجتماع النحل حول اليعسوب . فهؤلاء يحيطون بكعبة وهؤلاء يمثلون كعبة . وهذه الأرواح الإسلامية الحية العائشة في أجسامها هي التي سترجع إلى ربها بعد انقوت وجمعهم عليه وأنا أعرف من سؤالك أنك تخاف أن يقطن ظان أنه اجتماع مادي فيجعلها مغمزا من المغامز في التفسير . فقال نعم هذا هو الذي خطر لي مع إرادة تبيان أتم ، فقات أيها الأخ الذكي : أنا أوضح المقام بأنهم من هذا فأقول :

إن سر الصلاة والتسبيح كما قدمنا الحب لصانع العالم ، والحض على الصلاة في كل دين حق نزل من السماء فتح باب لذلك الحب ، فالصلى الجاهل يصل أولا للخوف من عقاب ربه ، وللطمع في جنته ، ولكن ليس هذا كل شيء ، بل المهم الوصول لحال الحب ، والحب يحصل بتكرار العبادات ونحوها ، ثم الدراسة ومعرفة جمال هذه الدنيا كالمذكور هنا في (سورة الحديد) إذ نخصه العقول ، الصلاة في الإسلام كلنان اثنتان :

تكبير وسلام ، وما أدهش أن هاتين الكلمتين هما سر كل السر ، فالتكبير يرجع لجميع العارف في الأرض والسموات ، وحكمة الحكماء المستخرجة فيما ، والسلام يرجع لاجتماع الأرواح كلها ، وإذا كانت الآية فيها : « هو الأول والآخِر والظاهر والباطن » فهي إذن تشير إلى أنه لا مادة كما تقدم في سورة النور عند آية النور ، إذ قد اتضح هناك بما جاء في العلم الحديث أن العوالم كلها حركات في الأثير إلى آخر ما تقدم هناك . فآية هو الأول والآخِر ، وهذه شئون من شئونه صدرت عن حضرته ونجلت لميوتنا ولميوت الحيوان كما هو نظرية [انيشتين] إذن للوجود هو آفة والأرواح الطيبة والحبيثة ، وما أول الفأحة لإصافات الله من رحمة وملك ، وأنه محمود الخ وكل ذلك راجع لأول الأمرين وهو الله ، وما آخرها إلا النعم عليهم والمقضوب عليهم ، وهذه هي عوالم الأرواح الصالحة وغيرها في الأبدان أو في البرازخ ، والسلام راجع إلى الأرواح الطيبة ، فأول الفأحة يرجع للتكبير وآخرها يرجع للتسليم ، ثم التحيات في التشهد موجهات لله ، ويلها السلام على الأنبياء والمرسلين وجميع الصالحين ، وعلى النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله وإبراهيم وآله وهذا راجع للكلمة الثانية وهي السلام (وبشارة أخرى) الصلاة في الإسلام مختصرة في تكبير وتسليم ، تكبير لصانع العالم وتسليم على الصالحين من الأرواح والملائكة ، فلننظر إلى المسألة التي نحن فيها نجد أن المسلمين حول الكرة الأرضية يصلون متوجهين إلى القبلة ، وهذا رمز إلى اجتماعهم على ربهم بعد الموت ، ويرمز لهذا كما قلناه اجتماع النحل على يعسوبها ، وتكورها حولها ، فهائنا أمران : حب النحل وإعظامها ليعسوبها ، وثانيهما اتحادها وزرع الفل من قلوبها فكونت مملكة واحدة ، فالأول في مقابلة التكبير في الصلاة ، والثاني في مقابلة السلام ، فهائنا عظمت النحل وأجبت ملكتها ، ثم هي مع بعضها متحابات متحدات ، فأول الأمرين كتكبير الصلاة ، وثانيهما كالسلام في الصلاة ، إذن وصلنا إلى مطلوبكم من السؤال ، فتوجه الصلي للقبلة مرموز له بتوجيه النحل للمملكة وتسليم المسلم على صالحى الملائكة ، وكل روح سالحة كالسلام والتعاطف والمودة الحاصلة بين أفراد النحل اللتف حول ملكة النحل .

إذن جمهوريات الحيوانات التي تراها في الأرض كالنمل والنحل والأرسة والقران وكسلاّب البحر ضربت مثلا كصلاة المسلم التي ترجع لأمرين اثنين : حب الله بالعلوم والعارف ، ويشير لها التكبير واللودة والتعاطف والسلام والأمانة الحاصلات بين جميع الأرواح ، المسلمين منهم وغير المسلمين ، من كل من كانوا على دين صحيح غير منسوخ قبل بعث النبي صلى الله عليه وسلم .

فقال صاحبي : أنت كنت ترى بعيدا ، إذ جعلت المنظور لنا في بعض السنين من نحل يمر فوق رؤوسنا كأنه كرة قد التف حول ملكته في حقول بلادنا المصرية مثلا لصلاة المسلم الراجعة إلى كلتين ، واجتماع الأرواح برها ، ولكن أريد إيضاحا أتم . فقلت : نعم هناك [فرقان : الأول] أن اجتماع النحل على يعسوب اجتماع جسمي واجتماع الأرواح على ربها اجتماع روحي قلبي (الفرق الثاني) أن يعسوب النحل محسوس مادي والله عز وجل منزّه عن المادة ، ولذلك احتاج الناس إلى القبلة ليتوجهوا إليها ، ولذلك سميت بيت الله ، ففي المثل مادي توجه لمادي ، والممثل به أرواح توجهت إلى من ليس كذلك شيء يتعالى عن الأرواح وللملائكة والعقول .

فقال : الحمد لله على نعمة العلم . الآن قد نجلت لنا بهيئة جميلة الآيات في أول (الحديد) فإذا رأينا السبارات تجري حول الشمس ، ورأينا كل ولد يرجع لأمه ، ورأينا كل حجر يرجع إلى الأرض بعد ففده ورأينا أفراد كل مملكة من ممالك الأرض يتجهون إلى رؤسائهم ، ورأينا الحشرات وسائر الحيوانات ترجع لرؤسائها . فراجع ذلك كله أمران : حب وإعظام من جهة ، واتحاد والثناء من جهة أخرى ، وهذه كلها

ضرب مثل محسوس لأمر مقبول وهو حب الله إعظاما ، واتحاد النفوس أديا ونظاما وهذا المقبول غير
عنه بالتكبير والسلام ، وهاتان الكلمتان وزعت عليهما أقوال الصلاة كلها ، فهنا أمور مقبولة وأمور
محسوسة بحاسة البصر ، وأمور مسموعة بالأذن ، فالشاهد بحاسة البصر نظام الحيوان ، والسموع بالأذن
الصلوات مختصرة بالتكبير والسلام ومطولة بتفصيلها ، والمعروف بالعقل الأرواح وسانها : فالمحسوس
بالبصر ضرب مثل للسموع بالأذن مختصرا ، والسموع بالأذن مختصرا ضرب مثل للصلاة مطولة ، والصلاة
لخواها توجه الأرواح إلى خالقها ، إذن الموالم كلها متشابهات . قلت : لقد أحسنت تلخيصا . قال :
كفى هذا البيان في تفسير الآيات في أول (سورة الحديد) . كتب قبل غروب يوم الجمعة ٢١ رمضان سنة
١٣٥٠ هجرية .

يهجة هذا المقام في التسبيح وجماله

يوم الأربعاء ٢٦ من شهر رمضان للمظم سنة ١٣٥٠ هجرية - الثالث من شهر فبراير سنة ١٩٣٢ م
حضر صديق العالم الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير ، فأخذ يحادثني في المقالة السابقة التي تختص بآية
«سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم» ، له ملك السموات والأرض يحي ويميت وهو على كل
شيء قدير » وقال : لقد تجملت معاني هذه الآيات واضحة بحيث يرى للتسبيح كأنه في روضات الجنات ، وكيف
لا يكون في روضات الجنات وهو عند النطق بالتسبيح مستحضرا تلك المعاني ، يشعر كأنه منضم إلى أرواح
أخرى تعطف عليه ويعطف عليها ، وهم يتسابقون معا إلى التلقي إلى صانع العالم فتجدد في نفوسهم السعادة
وروح الحياة والبهجة .

سبحان الله : أهذا هو التسبيح وما في مناه من التحميد وأمثالها ، وهذه المعاني كلها محبوبة فيه ؟
أهذا هو جماله ؟ إذن التسبيح الذي يخطر لأغلب المصلين والمسبحين تسبيح جاف لا يطنى غلة ، ولا يثقي
من غلة ، قلت : نعم إن التسبيح مرتبط بحياة النفس وسعادتها وبهجتها ، وهو التغلغل في العلوم والجمال
هذا سر الآيات في آخر (سورة الحشر) . فقال وما سرها ؟ قلت : من سرها الذي ستقرؤه هناك قوله
تعالى : « له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض » . إن حسن أسماء الله راجع إلى المدلول ،
ومن آثار ذلك المدلول هذا الجمال المشاهد في هذا العالم الذي عبر عنه بقوله : « له ملك السموات والأرض »
فوصف الأسماء بذلك فتح باب يلبح منه الحكماء العاشقون الممثلون حياة وحكمة للرموز لهم بآية : « يا يحيى
خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا » . إن هذه الأرض خلق فيها أناس لهم طبائع خالفت أهل عصرهم
إذ يحسون بدافع قوى في أنفسهم ، ذلك هو الحياة الحقيقية فيكونون بذلك نورا لأنهم ، ذلك النور هو
سر خفي في أنفسهم التي أحست بجمال العالم المرموز له بأن أسماء الله حسنة فهذه النفوس هي التي بها ارتقى
أمم وأمم في معراج الحياة بحسب درجتها الحسية أو اللغوية ، ولقد تجلى في نفس معنى أحب أن أبدى الآن
وهو أن في هذه الأرض أناسا يشعرون من الآن بأنهم في حضرة ربهم مجذوبين بمواطفهم محبولون عليها
فينطبق عليهم للثل الذي ضربناه في المقال السابق من حيث إنهم مع أنهم مسوقون إلى ربهم ، فهؤلاء
رون في نفوسهم عطفًا على أمهم وحبًا لربهم ، فنفسهم من الآن تشعر كأنها في حضرة ربها ، وهؤلاء
يستوى عندهم الموت والحياة ، والأحوال العارضة عليهم ، فلا الفرح يستخفهم ، ولا الحزن يقدمهم ، وهذا
هو السكال الحقيقي .

ومن أعجب العجب أن هذه المعاني التي تجلت في نفسى من إشراق أنوار التسبيح في آيات أول الحمد
يكاد ينطق ببعض نتائجها عالم أمريكي يسمى (ستانلي هول) وهو أكبر علماء النفس في أمريكا ورئيس

إحدى جامعاتها الكبرى ، وقد بلغ ٧٧ سنة من عمره ، هذا العالم لما اطلمت على آرائه دهشت فإتها أشبه بآر من آثار الآية والله يقول في القرآن : « بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم » وقد قررنا مرارا في هذا التفسير أن نتائج مباحثات العقلاء كلها وحكمتهم التي أدركتها عقولهم يتضمنها القرآن ، وهذا من عجائب ، بل من معجزاته فقال صديقي ، لقد شوقني لمقاله ، فأريد أن أسمه ملخصا ؟ قلت : قرأت في بعض الكتب ما نصه :

« كتب (مستيرولز) الكاتب الإنكليزي المعروف مقالا عن النجاح قال فيه : إن مستر لويد جورج ليس من الناجحين بينما هو يعد (اينشتين) صاحب نظرية النسبية منهم ، وقد ختم مقاله بهذه العبارة : « ليست الثروة ، أو الشهرة ، أو اللقاه دليلا على النجاح ، وإنما يقاس النجاح الحقيقي بنسبة ما عملنا إلى ما كان يمكننا عمله » .

أما (ستانلي هول) وهو أكبر علماء النفس في أمريكا ، ورئيس إحدى جامعاتها الكبرى ، وقد بلغ السابعة والسبعين من عمره ، فحاز بذلك الشيخوخة المهنية ، والسمة الطيبة ، وخدم أمته بجملة تأليف قيمة فانه يرى شروطا أخرى للنجاح ، وقد وضع هذا العالم كتابا حديثا عن تاريخ حياته ، وعقد فصلا عن شروط النجاح الإنساني قال فيه : « إن أول شرط لذلك هو الصحة ، فإن الأعمال العظيمة التي قام بها عظماء الناس في هذا العالم إنما أدوها وهم في أحسن أيام صحتهم ، وليس من يشك في أن المرضى قد أتوا أحيانا بالعجائب ولكن هذا من الشذوذ فإلما القاعدة هي أن الصحة شرط للنجاح حتى ليصح أن يقول : « لكي تنجح يجب أن تكون حيوانا صحيحا » .

والشرط الثاني : هو معرفة القوى الكامنة في أنفسنا ، ففي كل منا قوى كامنة يعرفها الصوفيون عندما يشعرون بأن فيضا من الذات القدسية اتصل بهم ، وكأن حياة جديدة قد لا بست بشرتهم ، فالمؤلف يشعر بها عندما تتملكه الفكرة ، وتدفع في ذهنه تريد أن تتكشف وتوضح .

والشرط الثالث : هو كيفية ضبط عواطفنا ، فنحن في أغلب أيامنا تتراوح بين التفاؤل والتشاؤم ، فان تعلمنا كيف نضبط عواطفنا ، فلا يستخفنا النجاح ، ولا يبطئ عزيمتنا الفشل الفجائي ، وإذا وقفنا عند حد الاعتدال دون غلو في السرور والافتخام كان النجاح أقرب إلى أعمالنا .

والشرط الرابع : هو غرس العطف في أخلاقنا فإن الذين لا يعطفون يفقدون صلتهم بالطبقة بل بطقوبلهم ولا نجاح للأديب ، أو الشاعر ، أو السياسي إلا بغرس العطف في نفسه وتنشئها عليه .

والشرط الخامس : هو حب الطبيعة ، فيجب على الناس أن يكثروا من المشي في الحقول . لرؤية أحسن للناظر وأسراها ، وبمعنى أن يمشي الإنسان صحبة آخرين وخير الوطنية ما كانت أصولها نابعة من الحقول .

والشرط السادس : هو رقي فن العواطف ، فعاطفة الغضب ، أو الخوف ، أو الطمع ، إذا تركت في حالها الأولى تتج عنها أضرار كبرى ، فإذا هذبت عادت بالقائدة ، وخير مثال لذلك هو العاطفة الجنسية ، فهي إذا لم تهذب صارت غلظة حيوانية ، وإذا لم تضبط أدت إلى خراب العائلات ، وهدم البيوت . بينما هي عند رفها تصير حبا جميلا يعمل على ارتقاء الإنسان . وهي في هذه الحال أصل للأدب وخير ما يحرك القرائح للشعر وسائر الفنون .

والشرط السابع : هو إيجاد توازن بين المزاج العملي والمزاج الذهني : فمن الناس من يكون مزاجهم ذهبيا محبوبون القاء ، وادعين . يتأملون ويفكرون ، كما هو شأن أكثر التجار ورجال الأعمال ، وكلاهما لا يمكن أن يعتبر ناجحا رافيا ، لأن الترقى والنجاح إيجاد توازن بين هذين الخلقين .

أما الشرط الثامن : فهو الولاء ، وهو يريد بذلك ولاءنا لصدقائنا ، ولما اتانا ، ولأمتنا ، وولاءنا أيضا للعلم والنوع الإنساني . انتهى .

هذا هو نهاية الكلام على اللطيفة الأولى في قوله تعالى . « سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ، له ملك السموات والأرض يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير » والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثانية

في قوله تعالى : « يعلم ما يليق في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء ، وما يعرج فيها » مع قوله : « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » الخ ولا جرم أن ماء البحر الميت له بخار يرتفع إلى السماء ، وهنا ماء يصب فيه ، فهذا يليق في الأرض وهذا يخرج منها ، فأين الاتفاق من هذا البحر إذا لم يعلمه المسلمون ؟ فقد جاء في إحدى جرائدنا المصرية يوم ١٦ شوال سنة ١٣٤٩ هجرية — ٦ مارس سنة ١٩٣١ م تحت العنوان الآتي ما نصه :

ثروة البحر الميت

سكنوز لا يستفيد منها أحد

في أوائل عام ١٩٣٠ م جرى اتفاق بين الدولة البريطانية وشركة دولية على استثمار البحر الميت المشهور وقد مكفلت الحكومة البريطانية أن تمنح تلك الشركات الحقوق الثامنة لاستثمار هذا البحر الذي لا يشمن على شرط واحد وهو أنه بعد عشرين سنة يجب على الشركة أن تستخرج لا أقل من ١٠٠٠ رطل من البوتاس النقي ومن السنة الحادية عشر أيضا يجب أن تستخرج في كل عام لا أقل من ٥٠٠٠ رطل ، ومن السنوات التي تزيد قيمة المواد المستخرجة من هناك كون البحر الميت قريبا من قناة السويس الباب لسلك أسواق العالم المهمة ، أربعة وسبعون ميلا في الطول وعشرة أميال في العرض تبلغ مساحة ذلك البحر ، وفي كل يوم ينخر ما يقدر بـ ٦ مليون طن من المياه ، وهذه الكمية المدهشة تزيد بكثير عما يفرغه نهر الأردن يوميا في ذلك البحر ، ولولا بحار صغيرة عديدة تكسر مياهها فيه لأصبح قطعة يابسة من الأرض منذ قرون عدة واليوم يرى أن البحر الميت يرتفع مستوى سطحه بين كل مدة وأخرى بالرغم من الكمية الهائلة التي تنخر يوميا ، ومنذ سنة ١٨٨٣ حتى سنة ١٩٣٠ ارتفع مستواه ٣٨٠ قدما ، أما عمقه فيبلغ ١١١٠ أقدام وهكذا يكون عمق سطح البحر الميت أوطأ من سطح البحر المتوسط بألفين وستائة قدمين .

ولقد كان من أعظم أماني الإنجليز في زمن الحرب الكبرى أن يضعوا أيديهم على هذا البحر ، لكي يستثمروا كنوزه التي طالما حلموا بوجودها ، وها هو ذا الآن اكتسح (الجنرال النبي) فلسطين وامتلك البحر الميت بجيوشه الجرارة ، حتى أمر فئة من الكيميائيين أن تحلل مياهه ، ولقد كانت نتيجة التحليل أن تلك المياه هي بوتاس أو ما يقدر بـ ٢٠٠٠ رطل من هذا المعدن و ٩٨٠ رطل من المغنيزيا و ١١٩٠٠ رطل من كلورات الصودا و ٢٢ رطل من كلورات المغنيزيا و ٦٠٠٠ رطل من كلورات الكلس ، وهذه الكميات الهائلة تثبت أن البحر الميت الصغير هو أغنى بحر بين كل البحار في العالم .

ولقد كانت دهشة (الجنرال النبي) عظيمة عند ما اطلع على النتيجة لدرجة أنه قال جملة المأثورة : « حقا هذه هي مزوج الذهب ! » أما قيمة المواد التي ذكرناها فتقدر بـ ٢٠٠٠ رطل .

دولارا ، أو ما يعادل ٣٠٠ مرة من قيمة مجموع ديون بريطانيا العظمى كلها في الحرب للولايات المتحدة ، ومن الغريب أن تكون هذه الثروة الطائلة مدفونة بين مد الأمواج وجزرها في مساحة صغيرة هي أوطأ من سطح البحر بـ ١٢٩٢ قدما .

وعلاوة على المعادن الطبيعية يمكن لفلسطين أن تستفيد من البحر الميت استفادة مهمة ثانية . فقد قدم للهندسون الألمان تقريرا بكيفية إيصال البحر المتوسط بنهر الأردن الأعلى بواسطة نفق ، وهذه الطريقة لا تحفظ المياه للوجود في البحر الميت غصب ، بل تستخرج منها قوة كهربائية تعادل مليون حصان يمكن توزيعها لإدارة دولاب الأعمال في كل فلسطين وسوريا حتى تركيا

أما الأتراك فقد كانوا يعيشون في بلدان تدر عليهم الذهب أنهارا ولكنهم كانوا غافلين لا يعرفون كيف يستثمرونها ، ولم تكن الحياة يوما إلا فريسة النشاط المجهتد وكفى هـ .

•••

ومما يناسب هذه الآية أيضا ما جاء في جريدة الأهرام بتاريخ يوم الاثنين ٢٣ مارس سنة ١٩٣١ م الموافق ٤ ذى القعدة سنة ١٣٤٩ هجرية فقد جاء فيها تحت العنوان التالي مانصه :

كهربة القطر المصري ومشروع القطارة

خلاصة خطبة حسين (بك) سرى في المجمع العلمي

قال : لقد آن لمصر أن تفكر جديا في تحويل جهود بنها نحو الصناعات حتى تتمكن من الزيادة للطردة في عدد سكانها من إيجاد موارد رزق جديدة لهم بجانب الزراعة ، وحتى يمكنها مواجهة الصعوبات الاقتصادية بحجة متنوعة للوارد ، وهي لن تصبح بلدا صناعيا حقا حتى يتمكن رجالها الفنيون من إيجاد حل موفق لتوليد القوى المحركة من موارد داخل حدود المملكة وبأسعار قليلة تمكن المصنوعات المحلية من منافسة مثيلاتها الأجنبية .

ثم ذكر أن هذه الموارد هي مساقط المياه التي يمكن بواسطتها توليد الكهرباء لإدارة مختلف الآلات مبينا أفضلية هذا النوع من التوليد على غيره ، ثم استعرض للوجود حاليا من القوى في القطر المصري وحل ما يحتاج إليه القطر من القوى الكهربائية في مدى قرن يبدأ من سنة ١٩٤٥ قاصر الحساب التفصيلي على الوجه البحري ، وذا كرا في النهاية حسابا إجماليا للوجه القبلي .

وقال إنه يؤمن كل الإيمان بأن الصناعات التي يجب أن تزدهر في هذا القطر هي تلك الصناعات التي تكون مواردها الأولية من نأج الزراعة كالنسيج القطن والسكر والورق والكتان والتي تستخرج موادها الأولية من تربة مصر كالزجاج والأسمدة ، أو لتحويل نأج الزراعة إلى مواد غذائية كالدهن ، وعمل حسابا للقوى اللازمة لكل ذلك في خلال القرن من ١٩٤٥ - ٢٠٤٥ وعلى حسابه تحتاج مصر سنة ٢٠٤٥ إلى نحو ٣٥٠ ألف كيلواط .

ثم بين أن هناك موردين للقوة الكهربائية الأول منخفض القطارة للوجه البحري ، وخزان أسوان للوجه القبلي . ثم أخذ يشرح مشروع منخفض القطارة موضعا ذلك بمخارط مساحية ورسومات هندسية ، مشيرا إلى أن الفضل في اكتشاف ذلك المنخفض العظيم يعود إلى الدكتور (بول) مدير مساحية الصحاري وقد أشاد به سرى بك لما يقوم به من الباحث الجليل في مشروع الانتفاع بالمنخفض لتوليد القوى المحركة ، ثم وصف المنخفض وصفا جغرافيا وجيولوجيا ، وهو كائن في الجزء الشمالي من صحراء ليبيا في منتصف

للساق بين وادى النيل والحدود الغربية ، ويبلغ متوسط عمقه ٦٠ مترا ، وأوطأ نقطة فيه . ننخفضة عن سطح البحر ١٣٤ مترا ، وهي أوطأ نقطة اكتشفت حتى الآن في قارة أفريقيا ، ثم أشار الماهر إلى تبليغ الحكومة خبر هذا الاكتشاف في سنة ١٩٢٧ ويانه الفائدة العملية التي تعود على البلاد من استغلال سقوط المياه فيه ، ولخص الأسس التي وضعها لهذا المشروع وأهمها :

- (١) حفر نفق يمر فيه المياه من البحر إلى هذا المنخفض .
 - (٢) حفظ منسوب المياه ثابتا ، وذلك يقتضى أن الوارد من مياه البحر ، وما يسقط من المطر يساوى ما يتبخر من سطح البحيرة التي تكون فيه أولا وما يتسرب إلى الأرض .
 - (٣) تقدير منسوب سطح المياه فيه ، وبالتالي مقدار سقوط المياه ما بين النفق والترينيات .
- ثم فصل هذه الأركان وماتم من البحث حتى الآن ، وخصوصا التجارب التي جريت في (بحيرة فارون) لمعرفة مقدار التبخر ، ومقدار ما يتسرب من الماء إلى الصحراء لحفظ النسبة بين الوارد من المياه من البحر أو من الأمطار ، والفاقد تبخرا في الجو وتسربا في الأرض .
- ثم ذكر النقطة الجوهرية في المشروع ، وهي القوة التي يمكن توليدها من سقوط المياه مفصلا جعل منسوب سطح البحيرة خمسين تحت الصفر : وهكذا تتولد لدينا قوة مقدارها ١٨٠ ألف كيلوواط عند مخرج المحطة ، ولا يؤثر ذلك على عملية الصرف في مديرية الفيوم التي تتسرب مياهها الآن من بحيرة فارون إلى القطارة .

ثم عرض لبناء القناة التي توصل المياه من البحر إلى المنخفض مفضلا أن تكون في العشرين كيلو مترا الأولى المجاورة للشاطئ . ترعة عادية تحفر في الأرض الجيرية ، ثم تدخل المياه في نفق طوله ٤٥ كيلو مترا وقطره ١٧ مترا حتى تصل إلى المنخفض .

واقترح تنفيذ هذا المشروع على ثلاث درجات ، لأن الوجه البحري لا يستطيع أن يستعمل ١٨٠ ألف كيلو واط رأسا ، لذلك يقترح جعل النفق ثلاثة أنفاق حقيقية ، فيولد أولا نحو ٦٠ ألف كيلو واط ، فإذا تحققت آماله في كهربية القطر المصري فيبدأ سنة ١٩٧٠ ببناء نفق ثان لتوليد نحو ٦٠ ألف كيلو واط أخرى وفي بداية القرن الحادي والعشرين يبني الثالث ويتم المشروع .

ثم رد على الأسئلة التي وجهت إليه فيما يتعلق بنفقات المشروع ، فقال : إن الجواب تقريبا لا يتحمل مسئوليته لكثرة المباحث الاختبارية التي يجب إجراؤها في أرض لم تدرس درسا جيولوجيا وافية ، وإنما يقدر النفقات اللازمة لتتبع التلث الأول من المشروع وتوليد نحو ٦٧ ألف كيلو واط بنحو ١٠ مليون ونصف مليون من الجنيهات .

ثم وازن في الختام بين هذا المشروع ومشروع مائل لتوليد القوى الكهربائية بإقامة محطة ترينيات بحارية على النيل ، وبرهن على أن مشروع القطارة من الوجهة المالية وبصرف النظر عن مميزات الوطنية وفوائده الاقتصادية الأخرى أفضل من المشروع البخاري . انتهى ماجاء في الجريدة المذكورة .

هذا هو نهاية الكلام على اللطيفة الثانية في قوله تعالى : «يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها» والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثالثة في قوله تعالى:

اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو الخ

دخلت أحد المساجد الذي يقرب من منزلنا بشارع زين العابدين يوم الجمعة ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٣٢ فسمعت القاريء يتلو في (سورة الكهف) آية: «إنما مثل الحياة كماء أنزلناه من السماء» لما أسرع أن منح لي ما يأتي؛ وهو أن تمثيل الحياة بالماء النازل من السماء ظهر بعض سره الآن؛ ذلك أنه تقدم في هذا التفسير أن علماء عصرنا يقولون: إن الحياة ليست من هذه الأرض؛ بل هي من عالم آخر؛ وأقول إذن كما أن الماء والضوء والحرارة تنزل من السماء هكذا الحياة وهي منزلة من عالم روحى يمثل له بالماء؛ ومن أراد فهم هذا الموضوع حق فهمه فليقرأ رسالتي المسماة «مرآة الفلسفة» المذكورة في (سورة محمد) صلى الله عليه وسلم عند آية: «فاعلم أنه لا إله إلا الله» انتهت اللطيفة الثالثة؛ كتب ليلة أول أكتوبر سنة ١٩٣٢ م

اللطيفة الرابعة في قوله تعالى:

« ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها
إن ذلك على الله يسير، لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم
واقه لا يحب كل مختال فخور»

خطر لي في صلاة العشاء قبيل فجر يوم الثلاثاء ١٣ سبتمبر سنة ١٩٣٢ م وأنا أقول: «والسلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» ما يأتي:
السلام على قسمين: سلام أدنى، و سلام أعلى، فالسلام الأدنى: هو السلام العام الذي تنشده أمم الإسلام في الأرض الآن، وهذا الذي جاء الإسلام مقدما له، أما السلام الأعلى فهو الذي يعم الأمم والأفراد وهو الذي إليه تشد الرحال، وتعد الآمال، وهو أن يدرس هذه الدنيا دراسة صادقة، ويعرف مآدب وطار ولا يتأدر حكمة إلا قرأها، ولا علما إلا اطلع على عجائبه، لافرق بين العلويات والسفليات، حتى تقتنع النفس اقتناعا تاما بحسن النظام وجمال الوضع.

ومنى وصل الإنسان إلى هذا اللقاه أصبح في عيشة راضية وهو لم يزل في الدنيا، ودخل فيمن قال الله فيهم «رضى الله عنهم ورضوا عنه» وذلك لأنه يرى أن كل دقيق وجليل قد وضع بحكمة، ويرى أن كل مصيبة في الحياة أو الموت لا محيص منها لرقينا، وأنه لولا ذلك لم يكن ارتقاء، وذلك على سبيل العلم والبحث والاستفراء، وههنا يفهم العاقل آية: «ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير، لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم» وهذه الطائفة في النوع الإنساني قليلة جدا، بل نادرة وإن كانوا يقرءون هذه الآية ويؤمنون بها، لأن الإيمان غير الإيمان وإن كان مقدما له، وهذا هو السر في كون أمة الإسلام هم المحمدون، وفي أن ذكر أهل الجنة «سبحان الله وبحمده» كل ذلك يرجع إلى وصول أقوام إلى ذلك يقينا لا تقليدا. انتهت اللطيفة الرابعة. وبهذا تم تفسير (سورة الحديد) والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة المجادلة

هي مدنية

آياتها ٢٢ - نزلت بعد المنافقون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا
 إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ • الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنَّ أُمَّهَاتَهُمْ
 إِلَّا اللَّائِي وَلَدَنَّهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَفُودٌ غَفُورٌ • وَالَّذِينَ
 يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا ذَلِكَمْ تَوْعَظُونَ
 بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ • فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا
 فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ
 وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ • إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَذَبُوا كَمَا كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ
 قَبْلِهِمْ وَفَدَأْنَاهُ آيَاتِ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ • يَوْمَ يَبْتَئِثُ اللَّهُ جَمِيعًا
 فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ • أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَقْلُمُ مَا فِي
 السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ
 سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا
 يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ • أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَهَوْنَا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا
 نَهَوْنَا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِاللَّانِثَةِ وَالْمُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ
 يُحِبَّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَيَنْسَوْنَ
 الْمَصِيرَ • يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِاللَّانِثَةِ وَالْمُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ
 وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُخْشَوْنَ • إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ

لِيَحْزَنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ •
 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا
 قِيلَ انشُرُوا فَانشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ
 بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ • يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ
 صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ • وَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا
 بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا
 الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ • أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ
 اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ • أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ
 عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ • اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
 فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ • لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ
 النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ • يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ
 أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَافِرُونَ • اسْتَعْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ
 أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَالِيسُونَ • إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ
 وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ • كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْيَابِنَ أَنَا وَرَسُولِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ •
 لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا
 آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ
 بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ
 وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ •

هذه السورة ثلاثة أقسام

القسم الأول في تفسير بسملة (سورة المجادلة) وما بعدها إلى (سورة تبارك) .
 القسم الثاني في أحكام للظاهرة من أول السورة إلى قوله : « وللكافرين عذاب أليم » .
 القسم الثالث في أحكام المجالس من التجوى والتفسيح فيها ومناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن
 ذم للناقطين وما يتبعه من قوله تعالى : « إن الذين يحادون الله ورسوله » إلى آخر السورة .

القسم الأول : في تفسير بسملة سورة المجادلة

وما بعدها إلى سورة تبارك

(١) - ملخص السورة

اللهم إنا نحمدك ونشكرك على نعمة العلم وبهجة الحكمة ، لقد آتيت بصائرنا وأسعدتنا بالمرئان ، هذه الرحمات المترادفات في أول هذه السور : (المجادلة ، والحشر ، والمنحة ، والصف ، والجمعة ، وسورة المنافقين ، والتغابن ، والطلاق والتحرير ، وسورة الملك) .

هي عشر سور ذكرت الرحمات في أوائلها عشرين مرة ، إن هذه الرحمة موجهة في هذه السور العشر غالباً لتسبب خاص ، وطريق معبد ، ومهيع طريق بديع ، ذلك أن الأمم يعوزها علم وعمل ، والعمل هنا في هذه السور العشر راجع إلى نظام الأسرة ونظام الدولة ، فلئن رأينا النبي محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم في زوجها ، وتشتكى إلى الله ، والله يسمع تحاورهما ، وقد رحم المرأة وجعلها قريرة العين مع زوجها فهذا كله من الرحمة الإلهية العامة التي يراد بها حفظ الأسرة ، وبقاء الألفة بين الزوجين ، وثبات الأحوال وزوال الشقاق ، فهذه رحمة وجهت لنظام الأسرة ، وحفظ العشرة ، ودوام الألفة ، فعلى الولاة أن يستنبطوا لهم شعث الأسرات والأمم أسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهذا إنما هو مثل ضربه الله لتلك وليس خاصاً بهذه المرأة ، نعم هي حادثة وقعت أيام النبوة ولكنها مضرب أمثال للولاة والحكام أن يستنبطوا الطرق لهم الشعث وجمع الكلمة ، ويتبع ذلك آداب المعاشرة من ترك النجوى التي بها يحزن الإخوان في المجلس ويسوؤهم فعل المتناجين ، وهكذا التفسح في المجالس ، ثم ترك مضايقة الرسول صلى الله عليه وسلم لأن وقته لا يتسع لتلك ، فليقدم الذي يريد مناجاته صدقة ، ثم التخفيف بترك تلك الصدقة ، ثم النهي عن موالات الأعداء بخيانة الأمة وتفريق الكلمة . إذن (سورة المجادلة) راجعة في مجملها إلى :

(١) ألفة الأزواج في المنازل .

(٢) وألفة الأصحاب في المجالس .

(٣) والأدب مع الحكام بترك مضايقتهم لكثرة أعمالهم .

(٤) ورفق الحكام بالمحكومين إذا رأوا أمراً يتقلم .

(٥) ومجانبة خيانة الأمة بموالات أعدائها ، وبالنفق والشقاق ، فإن ذلك يضمنها ويفرق جمعها وينطأ ،

إذن الرحمة في (سورة المجادلة) موجهة بنوع أخص إلى حفظ الأسرة وحفظ الدولة .

تفسير البسملة وتلخيص سورة الحشر

أما في (سورة الحشر) وهي السورة الثانية فإن الرحمة فيها موجهة إلى حفظ الدولة كالشق الأخير من (سورة المجادلة) فكأن السورتين سورة واحدة ، لحفظ الأسرة ، وحفظ نظام المجالس ، وحفظ الدولة في المجادلة تبعاً في الحشر ما يفيد ذلك . وبيانه أن اليهود هنا تحاذلوا وتباغضوا ، والتخاذل يتبعه انبثاق العرب في القلوب ، ومتى انبثقت العرب في القلوب زال الأمن . ولم تنفع الحصون . وقطعت الأشجار ، وكان الجلاء عن الوطن ، أو الاستعباد فيه . يقول الله في الموالين لمؤلا : « لأنتم أهدر دماً في صدوركم من لله » ويقول : « بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يفقهون » هؤلاء اليهود الكفرة في هذه السور تقدم في مصعب ما يقرب من هذا في (سورة آل عمران) مد . . .

إلى الدين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون ، فإنهم هناك استكلوا على شفاعة آبائهم وهم مذنبون ، فخذوا كتاب الله وهو التوراة في الأحكام الشرعية ، فأصابهم التخاذل ففرقوا شذر منذر ، وأخذ المسلمون ديارهم ، وذلك مشروح هناك شرحا ضافيا ، وهناك سر (الم) في أول السورة فارجع إليه إن شئت ، فما هنا وما هناك ضرب مثل للأمم كلها ومنهم المسلمون ، فإذا سمعت الله يقول : « تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » فعناه أن كل أمة على هذه الشاكلة فإنها لا تعقل ، فأباؤنا العرب في الجاهلية يصح أن تقول فيهم ذلك ، لأنهم كانوا فريقين : فريق يتبعون الأكرسة في جهة بلاد الفرس ، وفريق يتبعون القياصرة في جهة بلاد الشام وما والاها ، وإذا رأينا الأمم الإسلامية العربية بعد العصر الأول قد تفرقوا ، وذاق بعضهم بأس بعض ، فلنا الحق أن نخترس عما وقعوا فيه ، وأن تقول : تجب المحبة العامة والإحقت علينا كلمة الله إذ يقول : « تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » .

وإذا رأينا بلاد العراق قد دخلت في عصبية الأمم في هذه الأيام وأنا أكتب هذا صباح يوم الجمعة ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٣٢ - الموافق ٢٨ جمادى الثاني سنة ١٣٥١ هجرية ، وزال عنها احتلال الانجليز وأعلن ذلك في الجرائد شرقا وغربا ، وإذا رأينا أمة الترك استقلت من قبلها ، وأمة الأفغان كذلك ، وأمة الفرس أيضا ، فمضى هذا أن هذه الأمم الإسلامية التي استقلت بعد الحرب الكبرى للنتية سنة ١٩١٨ م قد نبذت الشقاق ، وخلصت من النفاق ، ولم يصبها ما أصاب الأمم الجاهلة للتخاذلة التي قال الله فيها : « تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » أي أن هؤلاء قوم لا يعقلون . هذه الشنشة وهي الانحداد طارئة على هذه الأمم بسبب ما أنعم الله عليهم به من رحمة التواصي بالحق ، فأصبحوا على نمط الدين ذكروا هنا في [سورة الحشر] إذ جاء فيها أن الأنصار يحبون المهاجرين ويؤثرونهم على أنفسهم ، وهؤلاء للتحذون على الضد من الذين ناققوا .

(٣) تفسير البسمة وتلخيص سورة المتحنة

ثم أليس من العجب العجيب أن نرى (سورة للمتحنة) تجري على نفس هذا الأسلوب إذا ابتدئت بالنهي عن اتخاذ الأعداء أولياء كما في سورة الحشر قبلها ، وكما في آخر سورة المجادلة من حيث المعنى ، إذن هذه السور أشبه بسورة واحدة فصل بينها بذكر الرحمة لتذكير الناس بنعمة العلم وإيقاظهم للانحداد ولم الشمل وحفظ الجمع . ومن أجمل الحكم أن يذكر فيها امتحان المهاجرات ، وهل هن مؤمنات حقا ، وربما كن مناققات ، ومعنى هذا ألا نفر أحدا من الأمم التي تناوتنا يدخل معنا إلا بعد امتحانه ، سواء أكان ذكرا أم أنثى ، وإن كان الامتحان في السورة خاصا بالإناث ، وإذا احترسنا من المرأة فالاحتراس من الرجل من باب أولى .

(٤) تفسير بسمة سورة الصف

والرحمة في (سورة الصف) واضحة متممة لما تقدم ، فإننا إذا حفظنا الأسرار والمجالس والدولة ، ونبذنا المناقطين ، فقام ذلك أننا إذا حاربنا الأعداء لا نكون متخاذلين ، بل نكون صفا واحدا كأننا بنيان مرصوص . ومستحيل أن يكون الناس كالبنيان المرصوص في الحرب ، وقاتل العدو ، وحط الدولة ، والتعاون في هذا عمل العامة إلا بعد نبهوى الصلوة بعد امتحانهم وإحراجهم من صعوف الأمة حتى لا يكونوا

سيا في شريق الصفوف ، متى اجتمعت الصفوف كان النصر المذكور في آخر (سورة الصف) « نصر من الله وفتح قريب » .

(•) تفسير بسملة سورة الجمعة

ومن أعجب العجب أن يتبع اتحاد الصفوف في الحرب بأعقاد النفوس في صلاة الجمعة ، فليس الاتحاد على السدو بمن عن الاتحاد في العبادات للوجوب لتقارب القلوب وانتظام الألفة ، بل لا انتظام لصفوف القتال إلا بعد الانتظام في الأعمال العامة والعبادات كصلاة الجمعة ، ومن عجب أن يذكر فيها أن الذين آمنهم الله كتابه ثم لم يصلوا إلى أمثال هذه النتائج فأولئك مثلهم « كمثل الحمار يحمل أسفارا » . (وجارة واضحة) إن أمم الإسلام الحالية ، وأخص بالذكر الأمة العربية التي أنا واحد منها إذا لم يصلوا لهذه الدرجة من النعمة والقوة بترك التخاذل والعمل بكتاب الله في الأعمال العامة فإنهم يحسبهم نصيب من آية « مثل الذين حملوا التوراة » ومن آية : « تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يفقهون » لأنهم اجتمعوا في اللغة والدين والمادات والنسب وتجاور الأوطان ، واختلفوا في أمور فرعية في الدين فجعلوها أصلا وتخاذلوا .

وأنا أحمد الله إذ رأيت في هذه الأمم من سعدوا بالألفة ، وهن الأمم الأربعة المتقدمة ، وإحداهن عربية والأخرى من تركية ، ومنها أفغانية ، ومنها فارسية ، ولقد رأيت من اهتمام بقية أبناء العرب ما يشرح الصدر في زماننا ، فهذه اليمن ، وهذه نجد ، وهذه الحجاز ، كل هذه الأمم مستقلة ، ولكن بقيت مصر وبقية بلاد سوريا وفلسطين وبلاد شمال أفريقيا : طرابلس وتونس والجزائر ومراكش .

أيها الأمم العربية المستقلة وغير المستقلة ، عار عليكم أن يكون هذا كتاب ربكم وأنتم تتلون ، والحوادث قد أبطنكم ، ومع ذلك لا تتحدون .

عجب أن يكون السوداني للسلم العربي وغير العربي مع المصري ، وسكان شمال أفريقيا وأهل فلسطين وسوريا والحجاز ونجد واليمن والعراق كلهم أمة واحدة ، إن لم يفعلوا ذلك فإن مثلهم كمثل آباءنا العرب في الجاهلية ، وكمثل اليهود إذ قال الله فيهم : « تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يفقهون » .

أيها اللسوف : أيها العرب : هذا هو التصود الأعظم من هذه السور ، ولهذا أنزل القرآن ، وإذا طنت هذه الأمم أن اختلاف أوطانها أو ملوكها أو مذاهبها كالشافعية والحنفية والمالكية والحنبلية والزيدية والوهابية والشيعة وغيرها يوجب تخاذلها وعدم اتحادها ، فإن ذلك يدل على عدم تبصرها وعلى جهلها .

فيا عجباً لأمة الإسلام ! (تلك الأمة التي جاء الدين لها ، وهو يجمع الأمم كلها في دولة واحدة ، يضم تحت رايها كل نحلة وملة ، ويحافظ على عباد الله) كيف تجمل ما به الإنفاق عين ما به الشقاق ، ويقول كل أصحاب مذهب نفسى نفسى ، وبقية العرب وبقية المسلمين كفار أو فساق : وربما استحلوا دماءهم وأموالهم وقتلواهم قتيلاً .

والحق الصراح أن هذا إذا ظهر في هذه الأمم فإنه ينطبق عليها قوله تعالى : « تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يفقهون » وإنى أرى أن أمم الإسلام عربية وغير عربية اليوم تسمى جهدها للكامل والأفضل

(٦) تفسير بسملة سورة المنافقين

ولما كانت السور الخمس السابقة مدارها على نظام الألفة المنزلية تارة ، ونظام الأمة بنيد النفاق ثانيا
أكد الشق الثاني في سورة المنافقين أن هذه السورة وتناسقها وتلاحقها يدعو للبحث والتفكير فيها : كررت
السور التي تدعو إلى الوفاق وترك الشقاق ، وهذه السورة سادستها ، وذلك دلالة على أن هذا الدين يسع أمتها
وأمتها ، وليس ديننا ضيق الصدر ، وسع ديننا منافق المدينة ، ووسع صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن
أبي بن سلول ، وسعه وهو القائل في إحدى النزوات كما سيأتي : « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها
الأذل » ، وسعه ولم يكدر صفو ابنه السلم بقتله لهذا القول ، خيفة أن يقال : إن محمدا يقتل أصحابه ، دين
واسع ، ولكن بعض الفرق الإسلامية تبيح قتل المسلمين تدبيرا لأنهم كفار في نظرم ، نظريات خاطئة ،
وموس ضائعة ، وعقول نائمة بالتقليد الأعمى ، وسع ديننا المنافقين فيه ، ووسع جميع الديانات أن تعيش تحت
كنف دولة الإسلام ، ولكن الأمم الإسلامية العربية لم تقدر في القرون المتأخرة أن تعيش في دولة واحدة
تباعدا عن الحق وجهلا بالدين .

(٧) تفسير بسملة سورة التغابن

ولما كان مقام حفظ الدولة من النفاق قد جاء فيه ما يكفي لقوى الألباب أتبعه بسورة التغابن يراد بها
استراحة القلوب وشرح الصدور بتذكير الناس بيوالم السموات والأرض للسبحات لربها فيها ، وتذكير الناس
بالأمم الحالية ، والقرون الماضية ، وإنذار بعضهم بالنار ، وتبشير آخرين بالجنات ، ثم إراحة الأفتدة بأن
للصائب مقبرة في الأزل ، فلي الناس أن يرحموا نفوسهم ، ولا يحملوها ما فوق طاقتها من الغم على مافات ،
لأنهم لا بد لهم في وقوعه ، فلي الإنسان إذن أن يصفح عن ذنوب أهله وذريته لأنهم مسجون ، وقد جعلوا
اختبارا له لينظر أجبر ، فكما صبر رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنافقين في المدينة يجب على رب الأسرة
أن يتحمل ما يصيبه في سبيل حفظ أسرته اقتداء بنبيه صلى الله عليه وسلم ، وليعف وليصفح .

(٨) تفسير بسملة سورة الطلاق

وإذا طلق المسلمون أزواجهم ، فعلى للطلق ، وعلى للقاضي ، وعلى سائر الحكام أن يكونوا عادلين
في المعاملة ، وليلاحظوا النفقة والعدة ، وذلك رجوع إلى نظام الأسرة اقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم ،
إذ عامل أزواجه أمهات المؤمنين بالرفق واللين والشفقة . فكما أن الله سمع قول المرأة التي تجادل في زوجها
وتفتك إلى الله .

(٩) تفسير بسملة سورة التحريم

هكذا هو سبحانه أهم رسوله أن يكون قدوة في حفظ الزوجات والمعاشرة ، فأعرض عن إذاعة بعض
الأسرار التي أذاعتها إحدى أمهات المؤمنين : وضرب الله الأمثال لحسن المعاشرة في الدنيا والعبر على مضم
المعاملة فيها بامرأة نوح إذ صبر عليها ، وكذا امرأة لوط ، فهذان مثلا ضربا لرسول الله صلى الله عليه وسلم
اطمئنانا لقلبه فيصبر على الزوجات كما صبر نوح ولوط ، وهكذا مريم ابنة عمران وآسية امرأة فرعون صبرا
فدخلتا الجنة . فهذه الأمثال الأربعة المصروبة مثلا لدوام المعاشرة والصبر على المعاشرين وإن كانوا كافرين
أو منافقين رجالا ونساء ، وهكذا صبر صلى الله عليه وسلم وحفظه لأهل بيته . كل ذلك يثبت به فؤاد المسلمين

في معاشرته الأهل المذكورة في سورة التائبين: « يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم ». هذا نموذج لأهم المقصود بهذه السور النسخ المتباينات .

(١٠) تفسير بسملة سورة تبارك

ثم أتبعها بمآثرها وهي « سورة تبارك التي يده الملك » وأشار إلى ما قلناه كله في هذا المقام فقال في أولها « ليلوكم أيكم أحسن عملا ». فكانه يقول: إن جميع ما تقدم من أحوال الأمم ، وشقاق بعض رجالها ، وشقاق نساءها ، وما يتبع ذلك ، كل هذا إنما جعلته اختبارا لكم وامتحانا ، وهنا أخذ يخرج بقول المسلم من ساحات الأرض الضيقة إلى ساحات السموات الواسعة ، ويشرح عالم السموات والأرضين ، والليل والنهار والجبال والجنات الواسعات في الدنيا وفي الآخرة ، وكذلك جهنم ترويحاً لنفوس الناس ، وإرشادا إلى أن هذا هو المقصود الأتم من الحياة ، وما تقدم إنما هو مقدمات ، وقد تقدم نظير هذا في (سورة البقرة) عند آيات الطلاق والحلع ونحوها . وإلى هنا تم الكلام على القسم الأول في تفسير بسملة سورة المجادلة وما بعدها إلى سورة تبارك ، وإنما فعلنا ذلك لأن الرحمة تقدم الكلام عليها كثيرا في هذا التفسير ، فاكثفنا هنا بذكر ملخص السور العشر مخافة التطويل :

كتب صباح يوم الجمعة ٢٨ جمادى الثانية سنة ١٣٥١ هجرية للوافق ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٣٢ م والحمد لله رب العالمين .

القسم الثاني: في أحكام المظاهرة

الفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

روى « أن خولة بنت ثعلبة ظاهرها زوجها أوس بن الصامت فاستفتت رسول الله صلى الله عليه وسلم أوقالت: يا رسول الله إن زوجي أوس بن الصامت تزوجني وأنا شابة غنية ذات أهل ومال حتى إذا أكل مالي وأفنى شبابي، وتفرق أهلي، وكبر سن ظاهري وقد ندم، فهل من شيء يجمعني وإياه وتفتني به؟ فقال صلى الله عليه وسلم: حرمت عليه، فأعادت الكرة وهو يعاود الجواب حتى قالت: أشكو إلى الله فافق ووحدني، قد طالت له صحبتي، وثرت له بطني، وإن لي صبية صفارا، إن ضممتهم إلى جاعوا، وإن ضممتهم إليه ضاعوا، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتستغيث وتشكو إلى الله، فزلت هذه الآيات الأربع، فقال لها صلى الله عليه وسلم: ادعي لي زوجك، فنلا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها) تجادل: أي تخاصمك وتكلمك في شأن زوجها (وتشتكي إلى الله) تظهر ما بها من الكروه (والله يسمع تحاوركما) مراجعتكما الكلام (إن الله سميع) يسمع شكوى الضطر (جسير) بحاله (الذين يظاهرون منكم من نسائهم) الظهار أن يقول الرجل لامرأته: أنت علي كظهر أمي، وألحق بالظهار الفقهاء كل جزء من أنتي محرم، وهذا كان من أيمان الجاهلية (ماهن أمهاتهم) أي ما اللاتي يحملونهن من زوجاتهم كالأمهات بأمهات: أي لسن بأمهاتهم (إن أمهاتهم إلا اللاتي ولدنهم) فلا تشبه بهن في الحرمة إلا من حكم الله بالحاقن كالمرضعات وأزواج الرسول صلى الله عليه وسلم (وإنهم ليقولون منكرا من القول) لا يعرف في الشرع (وزورا) كذبا (وإن الله لعفو غفور) لما سلف إذا تاب الإنسان منه (والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا) أي يعودون لتحليل ما حرموا، أو يعودون لتفرض ما قالوا، أولئذ يركه، والسود لتفرض أولئذ يركه أو لتحليل نتيجتها متقاربة، وذلك إما بالسكوت عن الطلاق بعد الظهار زمانا يمكنه أن

بظنها فيه وإما بالندم فيرجع إلى الألفة بعد الظهار ، أو استباحة الوطء ولللمسة والنظر بشهوة ، أو مجرد العزم على وطئها أو نفس الوطء . والأول قول الشافعي . والثاني قول ابن عباس . والثالث قول أبي حنيفة . والرابع قول مالك . والخامس للحسن وقتادة وطاوس والزهري . وهناك وجه سادس : أن الظهار كان في الجاهلية فالتلفظ به نفسه رجوع إلى حال الجاهلية . ووجه سابع : أنه لا يقع الظهار إلا إذا كرر لفظ الظهار ، وإلا لم يكن عوداً ، فإن لم يكرر اللفظ فلا كفارة ، وهذا الأخير قول أهل الظاهر .

هذا ملخص الأقوال : فإذا عاد الظاهر بعد التلغظ بالطلاق أو بالندم ، أو بالعزم على الوطء ، أو بنفس الوطء ، إلى آخر ما تقدم (فتحرير رقبة) أي فالواجب عليهم إعتاق رقبة (من قبل أن يتأسا) أي أن يستمتع كل من المظاهر والمظاهر منها بالآخر فيحرم عليه الاستمتاع قبل التكفير ، فلا جماع ولا مس بشهوة ونحو ذلك (ذلكم) أي ذلكم الحكم بالكفارة (توعظون به) أي إن غلظ الكفارة وعظ لكم حتى تركوا الظهار ولا توادوه (والله بما تعملون) من التكفير وتركه (خير) ثم أخذ يذكر حكم من لم يقدر على الرقبة فقال (فمن لم يجد) الرقبة (فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتأسا) فإن أفطر بغير عذر فليستأنف ، وإن أفطر بعد ذلك فليه خلاف ، وإن جامع ليلا عصى الله . ولا ينقطع التتابع عند الشافعي . وعند أبي حنيفة ومالك ينقطع التتابع (فمن لم يستطع) الصوم لهرم ، أو مرض مزمن ، أو شبق مفرط (فإطعام ستين مسكينا) ستين مداً ، وهو رطل وثلاث مما يخرج في زكاة الفطر ، ويقول أبو حنيفة : يعطى كل مسكين نصف صاع من بر أو صاعاً من غيره ، ولم يذكر الخماس مع الطعام اكتفاءً بذكره مع الآخرين (ذلك) البيان والتعليم للأحكام فرض (لتؤمنوا بالله ورسوله) أي لتصدقوا بالله ورسوله في قبول شرائعه ورفض ما كنتم عليه في جاهليتكم (وتلك حدود الله) لا يجوز تمديها (وللكافرين) الذين لا يقبلونها (عذاب أليم) في نار جهنم .

مسائل

(١) من ظاهر من امرأته مرارا ، فالشافعي وأبو حنيفة يوجبان لكل مظاهرة كفارة ، ما لم يكن في مجلس واحد وأراد التأكيذ فتكون كفارة واحدة ، وأما مالك فجعل المظاهر في مجالس متفرقة ليس عليه إلا كفارة واحدة .

(٢) يقول مالك رحمه الله : إن أراد التكفير بالإطعام يجوز له الوطء قبله ، وعند غيره يحمل الإطعام على غيره .

(٣) إذا جامع قبل أن يكفر فعليه كفارة واحدة عند مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد وسفيان ، وبعضهم يقول : عليه كفارتان .

انتهى القسم الثاني من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

القسم الثالث

في أحكام المجالس من النجوى والتفسيح فيها ، ومناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم
ومن ذم المناققين وما يتبعه

قال تعالى : (إن الذين يحدون الله ورسوله) يحدونها ، أو يختارون حدوداً غير حدودها (كتبوا) أخزوا أو أهلكوا (كما كتبت الذين من قبلهم) من كفار الأمم الماضية (وقد أنزلنا آيات بينات) تدل على صدق الرسول وما جاء به (وللكافرين عذاب مهين) يذهب تكبرهم وعزيم (يوم يختم الله جميعاً فينبتهم بما عملوا)

الظرف متعلق بمبين (أحصاء الله) حفظ الله ما عملوا وأخطأ به عددا لم يصب منه شيء (ونسوه) لأنه كثير ، وهم به متهاونون (والله على كل شيء شهيد) لا يفتيب عنه شيء :

الكلام على النجوى وأحكامها

قال تعالى (ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض) الكليات والجزئيات (ما يكون من نجوى ثلاثة) ما يقع من أسرار ثلاثة : أى مسارة ومشاورة : أى ما من شيء يتاجى به ثلاثة بعضهم بعضا (إلا هو رابعهم) بالعلم يعلم نجواهم كأنه حاضر معهم ومشاهدهم (ولا خمسة إلا هو سادسهم) وإنما خص هذه الأعداد لأن الله وتر يحب الوتر (ولأدنى من ذلك) ولأقل كالواحد والاثنتين (ولأكثر) كالثلاثة فما فوقها (إلا هو معهم) يعلم ما يجري بينهم (أينما كانوا) بالعلم والقدرة (ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة) إظهارا لذنوبهم ليفتضحوا وبجازوا (إن الله بكل شيء عليم) ثم إن اليهود والنصارى كانوا يتناجون ويتغامزون بأعينهم إذا رأوا المؤمنين فيظن المؤمنون أنهم يتناجون بما يسوءهم كأن يكون بلغهم خبر عن سرية هزمت أو أكثر فيها القتل فيحزنون لذلك ، فتهاهم رسول الله ﷺ ثم عادوا مثل ما تمهوا عنه ، فهذا قوله تعالى : (ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان) وهو ذلك السر الذي كان بينهم لأنه يكون إما مكرا وإما كيدا بالمسلمين أو شيئا يسوءهم ، وهذان إثم وعدوان . وقوله (ومعصيت الرسول) أى بوصى بعضهم بعضا بمعصيته صلى الله عليه وسلم (وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله) فقد كان اليهود يدخلون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقولون : السام عليك يا محمد ، والسام الموت ، والله يقول : « وسلام على عباده الذين اصطفى » و « يا أيها الرسول » و « يا أيها النبي » (ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله) أى يقولون فيما بينهم : لو كان نبيا لعاقبنا الله (بما نقول) من الاستخفاف به (حسبهم جهنم يصلونها) أى حال كونهم يدخلونها (فبئس الصير) للرجع جهنم .

ورد في حديث البخارى « أن رهطا من اليهود دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : السام عليك فقال : وعليكم ، فقالت عائشة : السام عليكم ولنكم الله و غضب عليكم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يا عائشة عليك بالرفق ، وإياك والعنف والفحش » اهـ .

ثم خاطب الله المؤمنين فقال (يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتهم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصيت الرسول) كما يفعل المنافقون (وتناجوا بالبر والتقوى) كخبر للمسلمين وعدم معصية الرسول (واتقوا الله الذى إليه تحشرون) فيها تأتون وتذرون (إنما النجوى من الشيطان) أى إنما النجوى بالإثم والعدوان منه فإنه للزينة لها والمهرض عليها (ليحزن الذين آمنوا) أى إنما يزبن الشيطان ذلك ليحزن المؤمنين ، وفي البخارى وسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إذا كانوا ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث ، فإن ذلك يحزنه » وهذه الجملة الأخيرة لأبى داود (وليس بضارهم شيئا) الضمير فى ليس إما للتناجى وإما للشيطان (إلا يؤذن الله) إلا ما أَرَادَ اللهُ تعالى (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) فليكل المؤمنون أمرهم لله .

الكلام على التفسح في المجالس

قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا) أى إذا قيل لكم توسعوا فيها وليفسح بعضكم عن بعض فوسعوا وتوسعوا ، وقد كانوا يتنافسون في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحبون القرب منه ، فكانوا إذا رأوا رجلا مقبلا تضاموا في مجلسهم ، فأمرهم الله أن يفسح بعضهم لبعض

بقوله « فافسحوا » (يفسح الله لكم) فيما تريدون التفسح فيه من المكان والرزق والصدر وفي الجنة .
واعلم أنه لا فرق في هذا بين أن يكون المجلس في صلاة الجمعة ، أو في صف القتال ، أو في حلقة العلم ، أو الذكر
وفي بعضها وردت أحاديث أسندت السبب إليها ، والآية أعم (وإذا قيل انشزوا فانشزوا) أي ارتفعوا عن
مواضعكم حتى توسعوا لإخوانكم فارتفعوا (رفع الله الذين آمنوا منكم) بامثال أوامره (والذين أوتوا العلم)
والعالمين منكم خاصة (درجات والله بما تعملون خبير) وهذه الدرجات في الدنيا بالرتبة والشرف وفي الآخرة
في الجنة ، فكان ابن مسعود إذا قرأها يقول : يا أيها الناس افهموا هذه الآية ولترغبنكم في العلم . وقال صلى
الله عليه وسلم : « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » وعنه صلى الله عليه
أيضا : « يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ، ثم العلماء ، ثم الشهداء » .
وورد أن سليمان خير بين العلم والمال والملك ، فاختار العلم ، فأعطى المال والملك معه ، وورد أيضا : أوحى
الله إلى إبراهيم عليه السلام : يا إبراهيم إني عليم أحب كل عليم . ثم إن في قوله « انشزوا » تفسير آخر : أي
إذا قيل لكم انهمضوا إلى الصلاة ، وإلى الجهاد ، وإلى كل خير ، فانهضوا ولا تقصروا عنه ، وقوله « والله
بما تعملون خبير » تهديد لمن لم يمثل الأمر :

حكم مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم

قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة) أي فتصدقوا قدامها ،
شبهت النجوى بمن له يدان على سبيل الاستمارة المسكنية ، وذلك فيه [أمران : الأول] إعظام مناجاة
الرسول صلى الله عليه وسلم ، فإن الإنسان إذا وجد الشيء بمشقة استمطمه ، وإذا ناله عفوا وبسهولة احتقره
(والثاني) نفع الفقراء ، وذلك أن أهل اليسرة منهم كانوا يكثر من المناجاة معه صلى الله عليه وسلم دون
الفقراء حتى تآذى بذلك النبي صلى الله عليه وسلم فنهأهم الله عن ذلك وأمرهم بالصدقة قبل أن يتناجوا مع النبي صلى الله
عليه وسلم (ذلك) أي الصدقة (خير لكم) من الإمساك (وأطهر) لقلوبكم من الذنوب ، أو أطهر لقلوب
الفقراء (فإن لم تجدوا) الصدقة بأهل الفقر فتكلموا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بما شئتم غير التصدق (فإن الله
غفور) متجاوز لذنوبكم (رحيم) لمن تاب منكم ، وهذه تفيد طلب الصدقة من الأغنياء دون الفقراء قبل المناجاة ،
قيل إنهم يتصدقون لكل كلمة بدرهم ، ومع الاختلاف فيها أهي للندب أو الوجوب نسخت بآية « أشفقتم »
الآية ، وعن علي رضي الله عنه : « إن في كتاب الله آية ما عمل بها أحد غيري ، كان لي دينار فصرفته فكنت
إذا ناجيته تصدقت بدرهم » وقوله (أشفقتم) أي أبخلتم وخفتم العيلة والفاقة إن قدمتم ، وهذا هو قوله
(أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا) ما أمرتم به (وتاب الله عليكم) تجاوز عنكم ونسخ الصدقة
قبل المناجاة بعد عشر ليال ، وإذ يعني إن (فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله) فيما أمر
ونهى (والله خبير بما تعملون) فهو محيط بأعمالكم ونياتكم .

الكلام في المنافقين

قال تعالى (ألم تر إلى الذين تولوا والوا) (قوما غضب الله عليهم) وهم اليهود (ما هم منكم ولا منهم)
لأنهم منافقون مذنبون بين ذلك ، ولولا النفاق لم يوالوا اليهود المنضوب عليهم (ويحلفون على الكذب)
وهو ادعاء الاسلام (وهم يعلمون) أنهم كاذبون . روى أنه صلى الله عليه وسلم كان في حجرة من حجراته
فقال يدخل عليكم الآن رجل قلبه جبار ، وينظر بعين شيطان ، فدخل عبد الله بن نبتل المنافق ،

وكان أزرقي فقال صلى الله عليه وسلم : علام تشتمني أنت وأصحابك ؟ حلف بالله ما فعل ، ثم أمر أصحابه
 حلفوا فزلت « (أعد الله لهم عذابا شديدا إنهم ساء ما كانوا يعملون) فتمرنوا على سوء العمل وأصروا عليه
 (اتخذوا إيمانهم جنة) وقاية دون دمائهم وأموالهم (فصدوا عن سبيل الله) فصدوا الناس عن الإيمان
 بدين الله بتثيبتهم وتحريشهم (فلهم عذاب مهين) ذكر المذابين: الأول للقبر ، والثاني عذاب الآخرة (لن ترضى
 عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) تفسيره واضح مما سبق في التفسير
 (يوم يبعثهم الله جميعا) الظرف متعلق بقوله « لن ترضى » (فيحلفون له كما يحلفون لكم) لأن الأخلاق
 تلازم الإنسان في الآخرة كما كانت ملازمة له في الدنيا (ويحسبون أنهم على شيء) في حلفهم الكاذب ، ذلك
 أنهم لا يعتادهم رواج الأيمان الكاذبة في الدنيا وخذعهم يظنون أن الله كذلك تروج عنده الأيمان الكاذبة (ألا
 إنهم هم الكاذبون) الباطنون غاية الكذب (استحوذ عليهم الشيطان) استولى عليهم ، يقال خذت الإبل
 وأخذتها إذا استوليت عليها (فأناسم ذكر الله) لا يذكرونه بقولهم ولا بألسنتهم (أولئك حزب الشيطان)
 جنوده وأتباعه (ألا إن حزب الشيطان هم الحاسرون) وأي خسر أعظم من أن يغوت عليهم العمى الأبدي
 (إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين) أى في جملة من يالحقهم التلذذ في الدنيا والآخرة ، فإذا
 كانت عزة الله لا نهاية لها فذل أعدائه عظيم (كتب الله) في اللوح المحفوظ وأبرز آثاره في نظام العالم أن
 يغلب هو ورسوله ، وهذا قوله تعالى (لأغلبن أنا ورسلى) فمنهم من ألقنه الحجة فيغلب بها ، ومنهم من أعطيه
 القوة فيغلب بالسيف ، لأنه لا يبقى في الوجود إلا ما هو أصلح له وأنفع (إن الله قوى) فهو ينصر أنبياءه
 (عزيز) غالب أعدائه (لا تعبد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله) فاذن إيمان
 المؤمنين يفسد بموادة الكافرين ، ومن كان مؤمنا حقا لا يوالى كافرا ، لأن من أحب أحدا امتنع أن يوالى
 عدوه . واعلم أنه ليس في مخالفتهم ومعاشرتهم محذور ، إنما المحذور مناصحتهم وإرادة الخير لهم دينا ودنيا
 مع كفرهم ، قال تعالى مبالغا في زجر موادتهم (ولو كانوا آبائهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم)
 فهؤلاء وإن كان الليل لهم أمرا طبيعيا يجب أن يقاوم هذا الليل لكفرهم . ومن ذلك أن حاطب بن أبى بلتعة
 كتب إلى أهل مكة كما سيأتي في (سورة المتحنة) بالمنصحة فنهى عن ذلك بهذه الآية هو وأمثاله (أولئك
 كتب في قلوبهم الإيمان) أثبتت فيها (وأيدهم بروح منه) من عند الله ، وهو نور القلب والنصر والإيمان
 والقرآن (ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه) ولا جرم أن
 رضوان الله بعد دخول الجنة أعظم من الجنة (أولئك حزب الله إلا إن حزب الله هم للفلسون) أى الفاضلون.
 انتهى التفسير اللفظي للقسم الثالث من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذه السورة

- (١) في قوله تعالى : « قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما »
- (٢) في قوله تعالى : « أشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات » .
- (٣) في قوله تعالى : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى » .
- (٤) في قوله تعالى : « لا تعبد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله » :

اللطفية الأولى والثانية

اعلم أن هذه السورة كالتممة لسورة الحديد ، وكالمفصلة لبعض ما فيها ، ذلك أن الله قال في أواخر سورة الحديد « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأزلنا معهم الكتاب واليزان ليقوم الناس بالقسط وأزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » وقد تقدم أن الآية تفيد أن الله تعالى أعطى أنبياءه العدل ، وأعطاهم بالقوة اللادية ، فيستعملون القهر بالسيف والرمح عند الاقتضاء ، فهأنا أمران : قانون ونظام تام في الدولة ، وجيش وسلاح يحافظ على ذلك النظام ، فإذن لابد من شريعة وقضاة وحكام ، ثم لابد من جند ودفاع وشرطة يحملون السيوف ليحافظوا على الأمن في الداخل ، ويسدوا المدو من الخارج ، وهذا كل النظام ، ولا ريب أن من يعطى هذه القوة فليس هناك من قوة فوق قوته ، ولا راد لقضائه ، وعلى الناس أن يسمعوها ويطيعوها وليس ذلك للأنبياء وحدهم ، بل إذا ولى عليهم عبد حبشي وخاطبهم بالقانون ورفع السيف فوق رؤوسهم وجب عليهم أن يطيعوه ، فلما كان ذلك مقتضى القانون وقوة السيف جعل الله سورة قد سمع بعد ذلك ليبين أن من الحوادث ما يقبل الأخذ والرد ، ومراعاة الجمهور ، وحفظ القلوب ، ألا ترى أن الله سمع قول امرأة شككت إلى الله ضياع عيالها عندهم وجوعهم عندها فما أسرع أن نزل الوحي بما سر قلبها ، هكذا لما نزلت آية المناجاة وظهر أن ذلك فيه صعوبة عليهم نزلت الآية بعدها لنسخ ذلك الأمر ، والقصود من هذا أن الله عز وجل يعلم الحكام كيف ينظرون في أمر رعائهم ، فإذا أصدروا أمرا فليحشوا في أمر الرعية فإن وجدوه قد أخرجهم وشق عليهم فلا عار عليهم إذا رجعوا عنه فإن في ذلك الصلحة العامة للحكام والمحكومين . جاء في آخر (سورة الحديد) : « وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة » فأراد أن يعلم حكام المسلمين هذه الرأفة والرحمة ، ويقول : إذا أمرتم بأمر ترون فيه مصلحة الجمهور ، ثم تمسرتفيذه على الرعية فلا ترهقوهم من أمرهم عسرا ، ولا تجعلوا القوة التي خولتكموها من السيف والجيش الحافظين للقانون عسفا بالناس وظلما لهم ، بل كونوا ذوي رأفة ورحمة كما جاء في آية أخرى : « ولو كنت فظا غليظ القلب لانقضوا من حولك قاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر » فهذا من العفو عنهم جاء من طريق الوحي . أن القرآن إنما نزل ليعلم الناس ، وهذا من أعظم التعاليم ، ولذلك نجد الأمم العظيمة تراعى مصالح الجمهور ، بل إنهم زادوا على ذلك أنهم جعلوا البلاد تحت أمر نوابهم للتخمين من تلك البلاد ، فكأن الله يقول : أيها الحكام المسلمون : إذا كنت أنا الذي نسخت آية الصدقة بآية أخرى وليس بينهما إلا عشر ليال ، وأنا العليم بكل شيء وأعلم أني سأنزل الآية ، وأنها ستشق عليهم ، وأنى سأنسخها ، وأنكم ستقولون : إثبات الانفاق ونفيه معناه أنه لا فائدة في هذه الآيات التي شغلت بها هذه السورة ، وإذا كان الله يعلم كل شيء فما أجدره أن لا يأمر ولا ينهى توفيراً للزمن ، وهو بكل شيء عليم كأنه تعالى يقول : أنا أعلم أنكم تقولون ذلك ، ولكني فعلت ذلك وأثبت الآيتين تعليماً لكم حتى تهجوا نهج السكال وحفظ قلوب الرعية ، ولا تكونوا كالفرنجة الذين يضربون المسلمين بالمدافع في شمال أفريقيا وفي الهند إذا عصوا لهم أمرا ، إن ذلك مما يزيل ملكهم سريعا ، فلذلك علمتكم بهذه الآيات كيف تحفظون القلوب وتحافظون على الدولة . هذا هو السر في جعل هذه السورة بعد سورة الحديد . انتهى الكلام على اللطيفتين ، الأولى والثانية ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثالثة

في قوله تعالى : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز »

اعلم أن القانون المسنون في هذه الدنيا ، وفي نظام البرية أن من عمل عملاً لمصلحة عامة وكان جديراً بها فإن الله يساعده ويحفظه ، ويخلصه من المصائب ، وإذا أصابه مكروه فذلك لرضة شأنه وزيادة معونته لتقوى روحه على ذلك الأمر العظيم ، فلتجرب ذلك أيها الذكي ، بل ليكن استدلالك على صحة الدين بمثل هذا ، فذلك هو البرهان على صدق النبوة ، ففكر فيما أقول وقم بنصيحتك من منفعة الإنسانية بشرط أن تكون قادراً عليه ، وثابر بجد على ما تقدر عليه من نفع المسلمين أو بقية النوع الإنساني ، فإنك تجد الله معك في كل حركة وكلمة ، لا يقوتك ولا يتركك ، فان وجدت الأمر كما ذكرت لك بان لك صدق قوله تعالى : « لأغلبن أنا ورسلي » ، وكلما كان العمل أعم كان نظر الله للعامل أعم ، وكلما كان العمل أضعف كانت المساعدة على مقتضاه .

وكم من مسلم يتصدق على من يقدر على العمل ويظن أنه يفعل حسناً . وكم من مؤمن يكب على عمل مبرور كالحج ، أو الصلاة ، أو الصيام ، ويظن أن البالغة في ذلك العمل هي كل شيء ، والحق أن الإسلام أمر أعم مما يظن هؤلاء ، الإسلام يوجب أن يقوم الناس بالآداب النفسية ، والأعمال الجسمية ، ومساعدة الناس ما استطاعوا لذلك سبيلاً ، ومن قصر أو اقتصر على بعض ذلك فهو مذبذب متى كان له قدرة على ما هو أعظم وهي المنافع العامة للمسلمين ، أو للعالمين ، لأن الله رب كل شيء ، وأقرب الناس إليه من كان خيره أعم .

هذا معنى : « لأغلبن أنا ورسلي » فهذا فليعرف الناس صدق الأنبياء عملاً لا سماعاً على شريطة أن يلاحظوا ما كتبناه ، وبهذا تم الكلام على اللطيفة الثالثة ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الرابعة

في قوله تعالى : « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله » الخ .

اعلم أن الله كرر هذه الآيات في سور كثيرة . وجعل الوعيد شديداً على من والى الأعداء ، وذلك هو مصيبة الإسلام اليوم . إن الأمة الإسلامية اليوم أصبحت في أخريات الأمم ، وأبناؤها في شمال أفريقيا وفي مصر وغيرها يوالون الفرنجة وينصرونهم على أبناء جنسهم ، ذلك داء عضال قد استحکم ، وقد كررنا أن هذه الأمة سيزول منها هذا الشر المستطير ، وتأخذ حظها بين الأمم في زمن قريب . انتهت اللطيفة الرابعة . وإلى هنا تم الكلام على سورة المجادلة ، والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة الحشر

هي مدنية

آياتها ٢٢ - نزلت بعد البينة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ • هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ
 الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرِجُوا
 وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ
 فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ •
 وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ •
 ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ • مَا قَطَعْتُمْ
 مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِجَ الْفَاسِقِينَ • وَمَا آفَاءَ
 اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَا كَيْفَ اللَّهُ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ
 عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ • مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ
 وَاللِّرَسُولِ وَاللَّذِي الْأُتْرُبِي وَاللِّيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ
 الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ
 اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ • لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ
 يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ • وَالَّذِينَ
 تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ
 حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ
 فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ • وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا
 الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ

رَحِيمٌ * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَاقَظُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
 لَئِن أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ
 لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَئِن أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن
 قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ وَلَئِن نَصَرُوهُمْ لَيُولُنَّ الْأَذْبَارُ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ * لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً
 فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ * لَا يَقَاتِلُوكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى
 مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى
 ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ * كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاتُوا وَيَالِ أَمْرِهِمْ
 وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي
 بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ
 فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ
 وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ
 أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ
 الْفَائِزُونَ * لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ
 الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ
 وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ
 الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّبُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ
 الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ
 الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *

هذه السورة ثلاثة أقسام

- (١) في ذكر غلبة الله ورسوله لأعدائه في قوله: « هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب » إذ أخرجوا من ديارهم وأخذ منهم الفية وما يتبع ذلك من أول السورة إلى قوله: « ربنا إنك رؤوف رحيم »
- (٢) في ذكر أخلاق المنافقين، وأنهم هم وأهل الكتاب الذين ناققوا لهم مغلوبون على أمرهم كمثل أهل بدر، وأبى قينقاع، وكمثل الشيطان الذي يفر الإنسان ثم يترأ منه من قوله تعالى: « ألم تر إلى الذين ناققوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتكم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون » إلى قوله « وذلك جزاء الظالمين ».
- (٣) في ذكر نصح المؤمنين، وإعظام أمر القرآن، ووصف الله بأوصاف الجلال والجمال، لأن هذا هو المقصود من هذه الحياة من قوله تعالى: « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لقد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » إلى آخر السورة.

القسم الأول من السورة

التفسير اللفظي

(بسم الله الرحمن الرحيم)

اعلم أن الله لما ذكر سورة المائدة وكانت ترجع إلى أحكام شرعية وتزجيع للمنافقين ونحو ذلك، وأعقبها الله بهذه السورة، وكانت في جملتها تشبه سابقها، ولم يكن في ذلك ذكر الله الذي هو المقصود الأعظم ابتداء هذه السورة وختمها بالتسبيح، وبذكر أوصافه تعالى حتى يكون القاري متذكرا أوصافه العالية سبحانه، وهذا قوله (سبح لله ما في السموات وما في الأرض) باللسان وبالقلب من غفلانهم، فأما غيرهم فبلسان الحال بحيث يدل كل مخلوق على أن صانعه منزّه عن المادة ولواحقها، أو أن كل مخلوق متفادله، يتصرف فيه، وينفذ فيه أمره كيف يشاء، فجميع أجزاء السموات والأرض فيها هاتان الدالتان: ترفع فاعلها وتنزهه، واتقيادها له وخضوعها (وهو المزين) القاهر لكل مخلوق، الغالب من حاد عن الجادة (الحكيم) فيما يصنعه:

روى أن هذه السورة نزلت بأسرها في بني النضير، وذلك « أن النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة صالح بنو النضير رسول الله صلى الله عليه وسلم على ألا يكونوا عليه ولا له، فلما ظهر يوم بدر قالوا هذا الذي الذي جاء نعتة في التوراة، فلما هزم المسلمون يوم أحد ارتابوا ونكثوا، فخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكبا إلى مكة، فخالف أبا سفيان عند الكعبة، فأمر صلى الله عليه وسلم محمد بن مسلمة الأنصاري فقتل كعبا غيلة، ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الجيش إليهم فحاصرهم إحدى وعشرين ليلة، وأمر بقطع نخيلهم، فلما قذف الله الرعب في قلوبهم طلبوا الصلح، فأبى عليهم إلا الجلاء على أن يحمل كل ثلاثة آيات على بئر ماشاءوا من متاعهم فجلوا إلى الشام إلى أريحاء وأذرعات، ثم إن عبد الله بن أبي ابن سلول قبل ذلك قال لهم هو وأصحابه لا تخرجوا من حصنكم، فإن قاتلوكم فتحن معكم ولا تخدلكم ولننصرنكم، ولئن أخرجتم لنخرجن معكم، فخصنوا الأزقة، وبعد ذلك أرادوا مكيدة فكشف أمرها، فخرج إليهم صلى الله عليه وسلم مع الجيش وحاصرهم كما تقدم، وهذا قوله تعالى (هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر) أي في أول حشرهم: أي جمعهم من جزيرة العرب وبقية إلى الشام، وآخر ذلك الحشر إجلاء

حمر إمام من خير إلى الشام، وكان هؤلاء من سبط لم يصيبهم جلاء قط، وهم أول من خرج من أهل الكتاب من جزيرة العرب، والحشر لإخراج جمع من مكان إلى آخر (ما ظنتم أن يخرجوا) لشدة بأسهم ومنهم (وظنوا أنهم ما عنهم حصوم من الله) أي أن حصونهم تمنعهم من بأس الله (فأتاهم الله) عذابه وهو الرعب والاضطرار إلى الجلاء (من حيث لم يحتسبوا) وهو أن الله أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بقتالهم وإجلالهم، وكانوا لا يظنون ذلك (وقذف في قلوبهم الرعب) الخوف الشديد يقتل سيدهم كعب بن الأشرف (يخرجون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين) فلأنهم كانوا ينظرون إلى الحشب في منازلهم فيهدمونها، ويزعون ما استحسوه منها فيحملونه على إبلهم، ويحرب المؤمنون باقيها، ويقلمون الممد، ويتقضون السقوف، ويتقبون الجدران، ثلاثا يسكنها المؤمنون حسدا منهم وبغضا (فاعتبروا يا أولي الأبصار) أي فاتعظوا بعالم فلا تنفروا، ولا تتمدوا على غير الله، وهذه الآية استدلت بها على ربيع الدين الإسلامي، وهو القياس، وأنه حجة من حيث إنه أمر بالجاورة من حال إلى حال، وحملها عليها في حكم لما بينهما من المشاركة القتضية له (ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء) الخروج من أوطانهم (لغزبهم في الدنيا) بالقتل والسبي كما فعل بين قريظة (ولهم في الآخرة عذاب النار) سواء أجلوا أم قتلوا (ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فلإن الله شديد العقاب) ولما نزل صلى الله عليه وسلم بين النضير وأمر بقطع النخيل، قالوا: قد كنت يا محمد تنهى عن الفساد في الأرض، فما بال قطع النخل وتحريقها؟ فوجد المسلمون في أنفسهم من قولهم وخشوا أن يكون ذلك فسادا في الأرض فقطع بعضهم، وقال بعضهم: لا تقطعوا فإنه مما أفاء الله عليكم، وقال الآخرون: بل تعيظهم، فزلت هذه الآية بتصديق من نهى، وبتحليل من قطع، وهي (ما قطعتم من لينة) أي أي شيء قطعتم من لينة، واللينة: النخلة الكريمة، والجمع ألبان (أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله) أي قاطعها وتركها بإذن الله، وإنما أذنا في ذلك وقطعتم بإذنا النخل لنظير البلاد منهم (وليغزى الفاسقين) على فسقهم بما ظلمهم (وما أفاء الله على رسوله) أي ما أعاده عليه، وصيره إليه، وأورده إليه، لأنه أولى به، لأن الصالحين في الأرض أولى الناس بما فيها (منهم) من بني النضير (لما أوجستم) أي لما أجرينهم على تحصيله، والوجيف: سرعة السير (عليه من خيل ولا ركاب) والركاب ما ركب من الإبل، غلب فيه كما غلب الراكب على راحته وذلك أن قري بني النضير كانت على ميلين من المدينة، فمشوا إليها رجالا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنه ركب جملا، أو حمارا، ولم يكن ليجري معهم عظيم قتال (ولكن الله يسلط رسوله على من يشاء) بقذف الرعب في قلوبهم (والله على كل شيء قدير) فهو يسلط ظواهر الأسباب تارة وبواطنها أخرى.

ولما تم الكلام على جلاء بني النضير وعلى فيهم أعقبه بالكلام على مصرف هذا الفاء فقال سبحانه (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى) أي من أموال كفار أهل القرى كقريظة والنضير وفدك وخيبر (فقد وللرسول ولذي القربى) وهم بنوهائيم وبنو اللطلب (واليتامى والسالكين وابن السبيل) كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم) أي إنما حكمتنا بذلك وجعلناه لهؤلاء المذكورين ثلاثا يكون الفاء الذي حقه أن يعطى المذكورين ليعيشوا به متداولين بين الأغنياء دأرا بينهم كما كان في الجاهلية يتكاثرون به، والدولة ما يدول للانسان: أي يدور من الجدد والحفظ (وما آتاكم الرسول فخذوه) أي ما أعطاكم من قسمة غنيمة، أو فية فاقبلوه (وما نهاكم عنه فانتهوا) أي ما نهاكم عن أخذها فانتهوا عنه ولا تطلبوه (واقنوا الله) أن تغالطوه وتتهاونوا في أمره (إن الله شديد العقاب) لمن خالف رسوله صلى الله عليه وسلم، وليست الآية خاصة بالتيه فنحن مأمورون أن نتبعه في كل شيء. أمرا ونهيا، ثم أبدل من «لذي القربى» وما بعده قوله (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم) فإن كفار مكة أخرجوهم وأخذوا أموالهم (يبتغون فضلا

من أشود وضوانا وينصرون الله ورسوله) بأنفسهم وأموالهم (أولئك هم الصادقون) الذين ظهر صدقهم، ثم عطف على المهاجرين قوله (والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم) وهم الأنصار، فهم لزموا المدينة والإيمان، وتكاثروا فيها من قبل هجرة المهاجرين (يحبون من هاجر إليهم) ولا يتحمل عليهم (ولا يجردون في صدورهم) في أنفسهم (حاجة) ما يحمل عليه الحاجة من الطلب والحسد والحزاة والغيظ (أوتوا) مما أعطى للمهاجرين من النية وغيره (ويؤثرون على أنفسهم) أي ويقدمون المهاجرين على أنفسهم، حتى إن من كان عنده امرأتان نزل عن واحدة وزوجها من أحدهم (ولو كان بهم خصاصة) أي فاقة (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) الفأزون بالنساء العاجل، والثواب العاجل.

روى أن عمر رضي الله عنه قرأ: « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى » حتى بلغ « للفقراء المهاجرين » إلى قوله: « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان » ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم » وهي الآية الآتية، ثم قال هذه قد استوعبت للمسلمين عامة، قال: وما طي وجه الأرض مسلم إلا وله في هذا القىء حق إلا ما ملكت أيمانكم.

وللشافعي قولان: أحدهما أن النية للمقاتلة، والثاني وهو الأنسب بالآية لمصالح المسلمين، ويبدأ بالمقاتلة ثم بالأمة فالأهم من مصالح المسلمين، وأكثر العناء أنه بصرف جميعه لجميع المسلمين كما هو قول عمر، وأحد القولين عند الشافعي، قال تعالى: (والذين جاءوا من بعدهم) عطف على المهاجرين، ودخل في هذا النية كل من هو مولود إلى يوم القيامة في الإسلام: أي وذلك من العطف المذكور على المهاجرين كما تقدم عن عمر (يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان) أي لإخواننا في الدين السابقين، وهم المهاجرون والأنصار، وهذا خبر بمعنى الأمر، أمر الذين جاءوا بعد الصدر الأول أن يستغفروا لهم، قالت عائشة رضي الله عنها: أمروا بأن يستغفروا لهم فسبواهم (ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا) أي حقدا لهم (ربنا إنك رؤوف رحيم) لطيف بنا أن نجيب دعوانا.

انتهى الكلام على القسم الأول من السورة، والحمد لله رب العالمين.

القسم الثاني

في ذكر أخلاق المنافقين، وأنهم هم وأهل الكتاب الذين ناقوا لهم مغلوبون على أمرهم
كمثل أهل بدر أو بنى قينقاع، أو كمثل الشيطان الذي يغر الإنسان ثم يبرأ منه

ولما أمم الكلام على بنى النضير وعلى تقسيم النية أعقبه بإتمام الكلام على ما حصل من المنافقين قسلا الجلاء كما تقدم في التفسير قريبا من مناقحة عبد الله بن أبي ابن سلول لليهود هو ومن معه. وقوله لهم: « لئن أخرجتم لنخرجن معكم » الخ فقال (ألم تر إلى الذين ناقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب) أي الذين بينهم وبينهم أخوة الكفر والصدافة والموالاتة (لئن أخرجتم) من دياركم (لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم) في قتالكم وخذلانكم (أحدا أبدا) أي من رسول الله والمؤمنين (وإن قوتلتم لنصرنكم) لنناوننكم (وإن شهد إنهم لكاذبون) لعنه بأنهم لا يفعلون ذلك، وهو قوله (لئن أخرجوا لإخراجهم معكم ولئن قوتلوا لا يندرونهم) وهذا هو الذي كان، فإنهم أخرجوا من ديارهم وما خرجوا معهم، وتوجه المسلمون لقتالهم فلم يدافوا عنهم (ولئن نصرهم) على الفرض والتقدير (ليولن الأدبار) منهزمين (ثم لا ينصرون) أي ينهزم اليهود ثم لا تنفعهم نصرة المنافقين (لأنتم أشد رهبة) أي أشد رهوية (في صدورهم من الله)

فذلك يظهر لكم في العلانية خوف الله وأتم أهيب في صدورهم منه (ذلك بأنهم قوم لا يفقهون) لا يعلمون
الله وعظمته حتى يخشوه حق خشيته (لا يقاتلونكم) أي اليهود والناققون (جميعا) مجتمعين (إلا في حربي
محصنة) بالهروب والحنادق (أو من وراء جدر) لفرط رهبتهم (بأسهم بينهم شديد) أي إن البأس الشديد
الذي يوجفون به إنما هو إذا حارب بعضهم بعضا ، ولو قاتلوكم لم يبق ذلك البأس والشدة ، لأن من حارب
الله ورسوله يجنب (عسبهم جميعا) مجتمعين متفقين (وقلوبهم شق) متفرقة لا ألفة بينهم لا تقراق عقائدهم ،
واختلاف مقاصدكم (ذلك بأنهم قوم لا يعقلون) مافية صلاحهم ، ولا يعلمون أن نشئت القلوب بوهن القوى
وبضعفها . ثم قال : مثل اليهود (كمثل الذين من قبلهم) أي كمثل أهل بدر ، أو كمثل بني قينقاع (قريبا)
أي في زمان قريب ، ثم بين ذلك فقال (ذاقوا وبال أمرهم) أي سوء عاقبة كفرهم في الدنيا (ولهم عذاب أليم)
في الآخرة ، ومثل الناققين مع بني قريظة حيث خذلوا (كمثل الشيطان) مع الإنسان (إذ قال للإنسان
اكفر فلما كفر قال إني برىء منك إني أخاف الله رب العالمين) فهؤلاء الناققون فعلوا مع اليهود كما فعل
الشيطان مع الإنسان ، إذ يستغويه بكيد ثم يترأ منه ، ومن هذا الاستغواء أنه استغوى قريشا يوم بدر
وقال : «لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم» الخ (فكان عاقبتهما) أي عاقبة الإنسان الكافر
والشيطان (أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين) وهذا القول يدخل فيه ما ذكر من استغواء
الشيطان للكفار يوم بدر ، وما روى عن رصيصة الراهب الذي حكى أنه كان كثير العبادة ، ثم أغواه
الشيطان أن يتلم الاسم الأعظم الذي تجاب به الدعوات ، ثم تكاثرت عليه الناس ، وأخيرا أتوا له بأجل
فناء ليقوم بأمرها ، فأبى أولا ، ثم أخذ يدعو الله لها وهي تشفى كلما مرضت بدعائه ، ثم إن الشيطان سول
له فواقعها ، فحامت منه ، ثم أغواه أن يقتلها ويدفنها ، ثم جاء إلى إخوتها في المنام فأخبرهم ، فوجدوها
مدفونة فهدوا صومعة رصيصة وقتل الملك ذلك الراهب ، وانتهى الأمر ، وهذه الحكاية وإن كانت من
أقاصيص بني إسرائيل فهي ذات مغزى يناسب ما نحن فيه وإن لم تكن حقيقية .

فانظر كيف فعل الناققون بالمدينة مع اليهود ما شاهدته كل يوم من أعمال الناس يضل بعضهم بعضا
ويخونونهم ثم يتركونهم ، وهذا العمل بعينه هو الذي يفعله أمم أوروبا الآن ، ألم تر أنهم فتحوا مدارس في
بلاد سوريا وأظهروا أنهم خلقوا لرقى الأمم وإسعادها وأن الله خلقهم لذلك . وأذاعوا العلوم والعارف
واشفاق الشبان والشيخ لذلك الشعب الفرنسي النافع للإنسانية ، وكانت نساؤهم تمنى أن يشاهدوا هؤلاء
اراضعين للإنسانية ، فلما كانت الحرب الكبرى أخذوا تلك البلاد ، وأخذوا يذيقونهم سوء العذاب ،
ويوقعون بهم النكال .

الهم إن فعل الناققين مع اليهود ، وفعل الشيطان مع رصيصة العابد هو الذي نشاهده كل يوم من
أوروبا ، إن الله أنزل هذا القرآن ليبين للمسلمين وجوه النفع ، يقرأ بعض المسلمين هذه الآيات فيقولون في
أعسهم «تلك أمة قد خلت» وأي شيء الناققون ويهود بني النضير ؟ لقد ماتوا ، ومن هو رصيصة الراهب
وشيطانه الذي هو من أقاصيص بني إسرائيل ؟ نقول لهم هذا هو الذي تروونه كل يوم ، إن الشيطان الذي
ظهر لبرصيصة في تلك الحكاية كان يتظاهر بالصلاة ، فلا يزال يصلي أربعين يوما ولا يبعث من صلاته فظن
رصيصة أنه أحسن منه ، فلما لفته الدعوات قبلها وكان قبوله للدعوات سبب وقوع الفناء عنده .

إن هذه حال أوروبا الآن حرفا بحرف : يتظاهرون بالمدينة . وعشرون المدارس ، ويضلون عن
الشعوب ، ونرقى الجنس البشري : ثم هم في الوقت نفسه يمتصون دماء الشعوب ، وقتلون أمم ويبتزون
المال ويعملون الناس طعمة لهم ، وفاكهة وأبا ، متاعا لهم وتقوية لشهواتهم وفسوسهم .

ومن هذا القبيل مقاله (غاندى) الحكيم الهندي في زماننا منناه : « إن الشيطان يخلع في إضلال الناس إذا ظهر وفي له ذكر الله » .

فهذا كمثل قصة برصيصا الكاهن ، فهذه الآيات يجب على المسلمين أن يتذكروها ، ويؤلفوا رسائل سياسية تناسبها بألفاظ وأمثال يفهمها الناس ، وفي كتاب [كلية ودمنة] من الأمثال ما فيه مقنع ، لأنه كتاب كله سياسة ، فانظره إن شئت . وإلى هنا تم الكلام على القسم الثانى من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

القسم الثالث

في ذكر نصائح المؤمنين ، وإعظام أمر القرآن ، ووصف الله تعالى بأوصاف

الجلال والجمال لأن هذا هو المقصود من هذه الحياة

ولما أتم الكلام على أخلاق للضليين من الناققين والضالين ، وحذر من أفعالهم ، شرع ينصح المسلمين بلزوم التقوى فقال (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لعد) ليوم القيامة ، وإنما سماه غذا لهنوه وقربه ، أو لقرت ما يدل عليه من عذاب الدنيا وعذاب القبر (واتقوا الله) تكرر للتأكيد (إن الله خير بما تعملون) وهذا وعيد (ولا تكونوا كالذين نسوا الله) نسوا حقه (فأنساهم أنفسهم) أى أنساهم حظوظ أنفسهم فلم يقدموا لها خيرا ينفعها ، ولم يدرسوها ويعرفوا العالم حولها حتى يفتنوا لها (أو تلك هم الفاسقون) الكاملون في فسوقهم (لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة) وهم الذين كملت نفوسهم فدخلوا الجنة . والذين استمهنوها فاستحقوا النار (أصحاب الجنة هم الفائزون) بالنعيم المقيم .

إن الآيات المقدمة فيها عبر وأمثال ، ومنها قوله : « كمثل الشيطان » وقوله « كمثل الذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم » فإن ذلك رمز إلى ما ذكرناه من انخداع النفوس الإنسانية بشياطين الإنس تارة وبشياطين الجن تارة أخرى ، ألا ترى أن وعد الناققين بالمدينة لليهود ، ووعد الشيطان لأهل مكة يوم بدر مثلالن ينطبقان على كل ما ابتلى به الناس في هذه الدنيا ، إن الناس لا عذاب عليهم ولا شقاوة إلا من جهة الجهل فالجهل هو الباب الواسع الذى فتح لهذا الإنسان فأوقعه في الشقاء ، والضلال والإغواء لا يخرجان عن أمرين : إما أن يكونا بلسان الأحياء من بنى آدم ، وإما أن يكونا بهواجس في نفوسنا ، وآراء داخل قلوبنا ، وهذا منسوب لشياطين الجن :

- (١) فالشره في الطعام الذى يعقبه المرض .
- (٢) والبخل بالمال الذى يعقبه كراهة الناس .
- (٣) والخوف من الموت الذى يورث الجبن فيتبعه قهر الأعداء .
- (٤) والإسراف في المال الذى يتبعه الفقر .

كل ذلك من آراء من داخل النفس ، فهى شيطانية من شياطين الجن أو الهوى أو النفس ، وأما من خارجها فهى من شياطين الإنس ، وأعم الأمور وأهمها فى أيامنا الحاضرة ما ابتلى به السلون من ضحك القرنية عليهم ، وابتلائهم أيام بالأنسجة المزخرفة ، والسناعات الجميلة ، والنساء الهيات الطلعة ، واستفوائهم أيام تارة بالماديات ، وتارة بالمضويات ، كأن يملوهم فى مدارسهم ، ويغشون على عقولهم ، ويقولون لهم نحن نشتر للندية والحربة حتى إذا ما أناموا العقول ، وابتزوا الأموال ، وأصبح الشرقي كأنه منوم (بالفتح) تو بما مضطجبا انقضوا على البلاد فأورثوها النكال والبوار ، وجروا عليها الحرب ، وورثوا أرض المسلمين

وديارهم، فهذا من الأمثال المضروبة في هذه السورة: «كثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين» .

إن الأوروبي لا يقول للشرق اكفر ولكنه يقول له: دع الأمور القديمة، واعلم أن الديانات أصبحت لا قيمة لها، ويبيضونه في عادات آباءه وأجداده، ويحرقون ذلك في عينه، وهكذا يتفوضون عزائمهم حلقة حلقة حتى ينخلع من وطنه ودينه وهو لا يشعر، فإذا جاء دور الاحتلال وأخذ البلاد أصبح ذلك للفتون بهم فيمن تعلمهم التل (ولات حين مناص) .

ذلك هو الذي صنعه الأسبانيون في بلاد الأندلس، وهو الذي استمر بعد ذلك في مصر وسوريا وشمال أفريقيا، دخل الفرنجة بلادنا، وكان دخولهم أشبه بالحكاية للفقلة عن بني إسرائيل التي ابتدعوها كضرب الأمثال من باب الاستمارة التمثيلية، وقد أشرنا إليها فيما تقدم، فإن الشيطان السمي بالأبيض الذي أرسله إبليس لإصلال برصيا الراهب فيما يزعمون هم العلماء في الكليات في أوروبا ورجال الدين. ثم إن حضور الأبيض في سومة برصيا وإظهاره العبادة والصلاة والصيام حتى صار لا يأكل إلا كل أربعين يوما مرة أشبه بما يفعله أولئك العلماء الأوروبيون ورجال الدين في المدارس من أنهم جاءوا لترقية أبناء الشرق، ثم إن قول ذلك الشيطان لبرصيا: سأعذك كلمات تدعو بها الله فيستجيب لك، كقول الأوروبي لأحد الحديويين في مصر سابقا: [قل للعسكر يتركوا الدعوات والعبادات، لأن المتدين ضعيف الإرادة، أما حر الضيقة فإنه شجاع] :

وأما دعاء برصيا بتلك الدعوات واستجابتها وحب الناس له والتفافهم حوله، ثم وقوعه أخيرا في القنب الذي نصبه له ذلك الشيطان إذ وقع بنت الملك في مرض أشبه بالجنون، ودلهم على برصيا فحضرت عنده وأغراه بالسق بها فحملت، ثم أمره بقتلها، ثم أخبر أهلها في المنام، وعرفهم محلها التي دفنت فيه في الجبل، فهو بينه ما تفعله أوروبا الآن يتدخلون في كل شيء بصفة الإصلاح ويكتبون إلى دولهم حتى إذا حان وقت ابتلاع البلاد أحاطوا بها من كل جانب بسبب مالدتهم من الرسوم ومعرفة الأماكن والعورات، فيسهل فتح البلاد وتصبح ملكا لهم، وهذا قتل للأمة كما قتل الملك برصيا الراهب لوقوعه في جريمتين: الزنا والقتل، وهؤلاء الشريكون وقعوا في جريمتين: الانحلال من الفضائل، وهذا بالزنا أشبه، وترك جبل الأمور على غارها، وهذا قتل للأمة، فإذن يستحقون القتل، وقتلهم استعبادهم .

الآن ترى أن هذا كله في ضمن الآية، أفلا ترى معي أن جميع ما نخطئ فيه في صحتنا ومالنا وسياسنا ومخارتنا إنما هو من آراء تكون في أفئدتنا من داخلها أو من الخارج، أفلا ترى أن قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لقد) بعد ما تقدم للإشارة إلى أنه يجب الحرص على ما في هذه السورة ونحوها من المعاني، أفلا ترى أن قوله تعالى بعد ذلك (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) إنما جيء به بعد هذه التشبيهات للإشارة إلى عظم خطرها وأهميتها بالنسبة للمسلمين، وإلا فلماذا لم يذكر هذا القول إلا في هذا المقام، وماذا عثل الجبل برجل ذي عقل، وقد قرئ عليه القرآن فيكون خاشعا متصدعا من باب التخيل، ثم جمعه مع تلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) وذلك كله لأجل تعليم المسلمين التفكير، وطريق التفكير يكون مثلا كشماء فإن القرآن لم ينزل إلا ليتفكر فيه، وفي هذه السورة فتح أعظم باب للفكر. ولقد عظم أمر القرآن وأمر الأمثال، وقال: «لعلهم يتفكرون» .

إن جميع بني آدم مسحورون إما بفكر داخلي، وإما بشيطان إنسي. إن شياطين الإس هم كثير من

أهل أوروبا يحرصون بأموال الشرفيين لاسيما المسلمين . ويجدون في قناتهم جاهلين ، ليكونوا لهم حولا وعبيدا حاضرين . لعمرى لقد أعطيت الآية من العناية ما يليق بهذا التفسير ، فلأتم الكلام على بقية السورة (هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة) ما غاب عن الحس من عوالم الملائكة ، وما حضر من الأجرام المادية . والسر والعلانية ، والآخرة والدنيا ، والمعدوم والموجود (هو الرحمن الرحيم ، هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس) المنزه عن القبائح ، وعن كل ما يلبس المادة وما فيه نقص (السلام) الذى سلم الخلق من ظلمه . إذ جعلهم على نظام يكفل رفاههم ، ولا تعرف هذا حق المعرفة إلا إذا رجعت إلى تفسير قوله تعالى : « بيدك الخير » فى [سورة آل عمران] . وأيضا هو الذى سلم من النقائص ، وكل آفة تلحق الخلق فيكون السلام أعم من القدوس (المؤمن) واهب الأمن ، ولذلك ترى كل مخلوق فى الأرض يعيش وهو فى أمن نسي . فالطائر فى جوه ، والحية فى وكرها ، والسماك فى البحر ، والإنسان فى القرية ؛ ولا يعيش قوم على الأرض ما لم يكن هناك حراس يحرسون قراهم وإلا هلكوا ، فهذا من معاني « المؤمن » (المهيمن) الشهيد على عباده بأعمالهم الذى لا يغيب عنه شيء ، أو الرقيب الحافظ لكل شيء ، فهو على الأول راجع للعلم وعلى الثاني للقدرة (العزيز الجبار) أى الغالب الذى جبر خلقه على ما أراد ، أو جبر حاله : أى أصلحه ، وربما دخل المعنى الثانى فى عموم الأول ، لأنه يسوقهم إلى ما يريد ، ومن ذلك إصلاح حالهم (المنكبر) البليغ الكبرياء . والعظمة (سبحان الله عما يشركون) نزه ذاته عما يصفه به المشركون (هو الله الخالق) المقدر للأشياء على مقتضى الحكمة (البارئ) الموجد لكل شيء بريئا من التفاوت (المصور) الموجد لصورها وكيفياتها كما أراد ، ولا جرم أن هذه المعاني يمكن معرفتها من تتبع أجزاء هذا التفسير ، فإن آثار ذلك فيما كتبناه من جمال هذه الدنيا ونظامها وعجائتها (له الأسماء الحسنى) لدلالاتها على محاسن المعاني . ومحاسن المعاني تظهر فى مظاهر هذا الوجود ، فمن جهل نظام هذه الدنيا التى نحن فيها فقد جهل آثار صفات الله ، ومن جهل أثر الصفة جهل نفس الصفة ، والله لا يعرف بذاته ، وإنما يعرف بصفاته ، فهذا كله حث على العلوم التى أنزلها الله على قلوب عباده فى الشبرق والقرب ، والحكمة فى هذا الوجود من الفلك وعلوم الطبيعة . ومن ظن أن تلاوة أسماء الله ، أو معرفة معانيها وشرحها كافية فهو جاهل ، وإنما تعرف الأسماء بالآثار ، فمن جهل الآثار فقد بار .

ولعمرى ما أوقع أمة الإسلام فى الجبال ، وأضاعها فيما مضى من القرون والأجيال . إلا ما اعترأها من الجهالة ، وما أحاط بها من الجهال الذين اكتفوا بالقشور وتركوا العلوم ، فعميت الأبصار . فبالت شعرى كيف تعرف للصور إلا بآثاره : أى بالصور التى صورها فى المعادن والنبات والحيوان ، وكيف تعرف أنه رحمن رحيم إلا إذا درسنا نظام الحيوان ، فنذكر لطفه ورحمته به ؟ وكيف ندرك حمطه لكل شيء ، إلا إذا تتبعنا الأشياء بقدر طاقتنا البشرية ؟ وكيف نفهم قوله : (يسبح له ما فى السموات والأرض) وأنه منزّه عن النقائص كلها إلا إذا شاهدنا كمال صنعه بالدراسة ، فهتدى بالكمال فى الأثر إلى الكمال فى المؤثر ، وقوله (وهو العزيز) أى الغالب (الحكيم) الجامع للكمالات بأسرها ، فإن الحكمة رجع للكمال فى القدرة والعلم .

وبلى هنا تم الكلام على القسم الثالث من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

بهجة الحكمة ونور العلم

في قوله تعالى : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ، هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ، هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون ، هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » .

إن أول هذه الآيات ضرب مثل وتخييل ، وهذا التمثيل مثل ما جاء في قوله تعالى : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً » . والمراد من ذلك توبيخ الإنسان على عدم تحشمه عند تلاوة القرآن ، لتساوة قلبه ، وقلة تدبره ، والتصدع التشقق . إن الجبل مع صلابته ورزاقته لو أعطى تميزاً لأشفق من خشية الله ، وحذر من ألا يؤدي حق الله تعالى في تنظيم القرآن ، والكافر مستخف بعقه ، ومرض عما فيه من العبر والأحكام ، كأنه لم يسمعها ، وصفه بقسوة القلب ، فهو غافل عما يتضمنه القرآن من المواعظ والأمثال ، والوعد والوعيد ، وتمييز الحق من الباطل ، والواجب مما لا يجب ، بأحسن بيان ، وأوضح برهان ، ومن وقف على هذا وفهمه أوجب له الخشوع ، ولقد دل على أن ذلك تمثيل قوله تعالى بعد ذلك « وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » ثم شرع في المفصود الأعظم ، والمهم الأتم من هذه المقدمة العظيمة ، وهو تبيان أسماء الله الحسنى .

[وعبارة أخرى] إن الله عز وجل ابتداء سورة الحشر بقوله : « سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم » فهو منزّه عن كل مالا يليق بالربوبية في ذاته وصفاته وأفعاله ، وذلك كله مقتضى التسييح ، فلا يكون من أفعاله ما يشعر بالنقص أو الثبوت ، وكل ما في العالم من الشرور والنقائص إن هي إلا مقدمات للخير والكمال ، وهو الذي عز في سلطانه ، وقهر كل مخلوق أن يسير على مقتضى أمره ، وهو حكيم فيما يدبره من النظم المجيبة ، والأفعال البديعة . وختم السورة بوصف القرآن بأن الجبال تصدع من خشيته ، وجعل هذا مقدمة لما بعدها ، وهو الإشارة إلى أسمائه الحسنى ، تلك الأسماء التي تبلغ ٩٩ اسماً ، وقد دخل في معانيها هذا الوجود كله من سموات وأرضين ، ودخل فيها أيضاً أفعال المكلفين ، ففيها العلم وفيها العمل ، وهذا عجب والله وألف عجب أن يصف القرآن بأن الجبال تنشق من خشية الله لو أنها سمعته ، ثم يتبع ذلك بأسمائه التي وصفها بأنها حسنى ، وهذه الأسماء تتضمن الوجود كله ، والقرآن كله ، لأن معاني القرآن كلها وجميع هذه المخلوقات لا تخرج عن معاني هذه الأسماء :

(١) ألم تر أن الرحمة التي تضمنها اسم (الرحمن الرحيم) نزل على إرادته الخير والمنة والإحسان إلى خلقه جميعهم ، وأن كل نعمة ، وكل نازلة ، وكل خطب أسود يلهم لم تخرج عن كونها مبهديات ومعدت لرحمات واسعة تشمل هؤلاء للتكويين الأذلاء ، ولن يعرف هذا حق المعرفة إلا أئمة صفت نفوسهم ، ودرسوا علوم هذه الدنيا دراسة كاملة ، أو قوم فهموا هذا التفسير بأعمان أو أكثره ، فإنهم لا جرم يوقنون بأن كل نعمة في هذه العوالم نعمة عظيمة لأنها مقدمة لها ، بل لا تتم تلك النعم العظيمة إلا بتلك التفاصيل والآلام التي جعلت أساطين لها ودعائم ومقومات .

(٢) ولما كانت الرحمة بدون حكمة في الفعل تدعو إلى عدم النظام والحطل في الأحكام، أعضه بما يدل على نظام الأمور وحفظ التوازن في العوالم كلها، ولو ألم ذلك الأحياء من هذه الخلوقات فقال: « هو الله الذي لا إله إلا هو الملك، فوصف نفسه أولا بالرحمة حتى يعلم نوع الإنسان أن انفراده بالحكم في هذه العوالم وسياسته في نظامها لا يقتضى ظلما، فهو منفرد بالملك، متصرف بالأمر والنهي في جميع خلقه، وهم تحت ملكه وقهره وإرادته، ولكن ذلك كله مسبوق بالرحمة، فليس انفراده بالملك كانفراد ملوك الأرض بملكهم، لأنهم يظلمون الناس ويسخرونهم لشهواتهم، وتلك الشهوات تطمس وتغشى تلك الرحمة الكامنة في النفوس، ذلك أن المستبدين بالملك يرون أنهم إن لم يكن لهم في ذلك الملك منافع فلا فائدة فيه، والدافع عندهم خاصة بالشهوات واللذات التي تعرفها البهائم، وهم في قلوبهم رحمة، ولكن تلك اللذات تغشى هذه الرحمة وتطمسها كما تطمس تلك اللذات رحمت الناس بالحيوان عند ذبحه. فهو يعلم أن الحيوان متألم عند ذبحه، وفي قلبه رحمة له، ولكن تلك الرحمة قد نامت تحت ذلك الغطاء لاسيما أن الشرائع المزعومة أيدت ذلك، هكذا هؤلاء الملوك والأمم المستبدون قد أنامت الرحمت التي كمننت في قلوبهم تلك اللذات العاجلة فلم يحسوا بالآلام تلك الأمم المظلومة، لاسيما إذا أيد ذلك كتابهم (بتشديد التاء) ورجال سياستهم الذين يشيرون الجشع في أفئدتهم، ويبيحون لهم الفتك والظلم، وهذه الإباحة من مخلوق لا تدفع إغما ولا تمنع ذنبا، بخلاف الإباحة الدينية فهي مقدسة. هذا كله في أفعال العباد، فهم إذا ملكوا بطشوا الجبارين ونامت الرحمت، وليسوا عند الظلم والبطش بمرئيين الخير للمظلومين بالبطوش بهم. كلا. بل هم إنما يريدون منافع نفوسهم لا غير. أما الله عز وجل فإنه منفرد بالملك والتصرف، ولكنه ليس كالملوك والأمم المستبدة، بل رحمته كاملة تامة شاملة.

هذه هي الحكمة في أنه ذكر انفراده بالألوهية والملك بعد وصفه بالرحمة:

(٣) ويشير إلى ما قررناه في هذا المقام أنه ذكر بعد ذلك أنه (القدوس) أي البليغ في الزهارة عما يوجب نقصانا في ذاته وصفاته وأفعاله. ولذلك يقول اللائكة: «سبح قدوس رب الملائكة والروح» ألا تعجب أيها الأخ متى كيف يكون ذكر انفراده بالألوهية والملك بعد وصفه بالرحمة قد اقتضى أن يخالف من انفرادوا بالملك من الخلق في أن هذا الانفراد وسيلة لسلب الرحمة من قلوبهم، فهم إذن غير منزهين ولا طاهرين والله يخالف لهم، فهو منزه من كل ما يلبق له، ثم كيف يصرح بما فهم ضمنا بما تقدم بقوله (القدوس):

(٤) و (٥) ثم أكد ذلك المعنى بقوله بعده (السلام للمؤمن) وهو ذو السلامة من كل نقص وآفة، وهذا مصدر وصف به للبالغة، وزاده تأكيداً بوصفه بأنه واهب الأمن، فقد أمن الخلائق من ظلمه، وقد أمن من آمن به من عذابه إذا كان مطيعاً بخلاف المنفردين بالملك من الناس، فهم ليسوا منزهين عن الظلم، ولا سالمين من النقص، ولا آمنة رعاياهم بوائدهم كما ترى ذلك في الأمم الأوروبية التي تحكم بعض بلاد الإسلام، فهؤلاء المحكومون أبداً في فزع وجزع من ظلم هؤلاء ومقتهم وشتمهم، ولكن هذه الأمم الإسلامية يجب أن تطمئن، لأن الله رحمن رحيم، ملك قدوس، سلام مؤمن، وإذا كان هو المتصرف في الخلق بالرحمة فهو لم يسلط هؤلاء على المسلمين تشفياً وانتقاماً. كلامهم كلا. بل الله، ولكنه سلطهم على المسلمين حتى يستيقظوا من غفلتهم، ويقوموا من رقبتهم، وهناك يخرج تلك الأمم من ديار الإسلام، لأنه قدوس. ولأنه سلام، ولأنه مؤمن، فالناس في أمان، وربهم منزه عن الظلم، ولكنه يابهم بعض عباده أن يؤذوا آخرين ليوقظهم هو بذلك الابداء، كما أنه سبحانه يلهم الأسود والنور والوحوش أن تهاجم فطعان الماشية وتقتنص

منها ما يكون به قوتها، فستفيد الآساد قوتها، وتستفيد القطمان الاتحاد والوثام والهبية، لأن القطيع كله يجرى حيثما عندهما حمة الآساد والدواب له، وهناك لا يقتصر إلا واحدة من مائة أو ألف، وهذه الواحدة تكون ضئيفة ولكن بقية أفراد القطيع يهتم بعضها ببعض، ويتدخل بعضها في بعض، وهذا هو الاتحاد الذي لا يتم إلا بالهبية، وهذه الهبة يعيش القطيع بالسعادة والسلام، فهذه الأمم المهاجرة على ديار الإسلام لن تبقى فيها إلا ربنا تسقيظ تلك الأمم، ولن تأخذ منها إلا ما تأخذ الآساد من قطمان الماشية، فحفظها شيع بطونها، ولكن حظ الأمم للقهورة الإسلامية الاتحاد والوثام وانتشار العلم الذي بوجهه توالى الضغط المنصب على هذه الأمم، إن الله قدوس وسلام ومؤمن.

(٦) وهو الرقيب الحافظ لكل شيء، الشهيد على عباده بأعمالهم فلا يغيب عنه شيء، والقائم على خلقه برزقهم، وذلك معنى اسمه (المهيمن)، ويقال إنه مأخوذ من الأمن فهو (مؤمن) قلبت الهمزة هاء. (٧) و(٨) و(٩) ثم أتبع ذلك بصفات العزة والغلبة، فهو (العزيز) الغالب غير المغلوب (الجبار) الذي جبر خلقه على ما أراد (التكبر) الذي تكبر عن كل ما يوجب حاجة أو نقصا، وهو البليغ الكبرياء والعظمة، وهذه الصفات المسبوبات بالرحمة والأمن وبالسلمة متمات لها، وكيف تكون رحمة وأمن وسلامة إلا بالاحتياط لها والأخذ بأسبابها؟ وكيف يداوى الطبيب المريض إذا لم يقطع عضوه الفاسد حفظا لسلامة جسمه؟ فلا يزال يألم المريض ولا يئنه، لأن رحمته بهذا المريض رحمة صادقة بخلاف رحمة الأم للشفقة على ولدها أن يلاقي المصائب، فهي رحمة جاهلة، فذكر للملك أولا والعزة والجبروت والكبرياء ثانيا، وذكر القدس والسلام والأمن والهيمنة فيما بين ذلك لإفادة أن الرحمة ليست كرحمة الأمهات، بل يضرب لها المثل برحمة الأب ورحمة الحكومات العادلة التي لا تبالى بالألام القليلة في جانب المنافع الكثيرة، ولذلك يقتلون القتال، لأن الألم الناجم من قتله يختص بمشيرته، ولكن المنافع تتم الأمة كلها لأنها تكون في أمن من الظلم، ويصبحون في سلام وإطمئنان، فالآلام القليلة إذا أدت إلى منافع كثيرة تكون خيرا لا شرا، فإذلال الغرب للشرق الآن من الله عز وجل، فهو سيوح قدوس، فزعه عن العبث في أفعاله: أي أنه لم يسلط هؤلاء على هؤلاء للاذلال أو للانتقام. كلا والله. وإنما هو سبحانه يريد اليسر ولا يريد العسر، وإنما فعل ذلك كما يفعل الطبيب بالمريض، يؤلمه ساعة ويربجه عشرات السنين، وليس هناك سبيل للطبيب في نفع المريض غير ذلك، هكذا الله عز وجل قد علم سبحانه أن هذه الأمم لا يرفها إلا هذا الأذلال والإحراج وتسيط الظالمين عليها، وتكون فائدة الظالمين مادية حقيرة، وفائدة المظلومين معنوية دائمة، ثم هو بعد ذلك قد يخفف هذه الأمم الظالمة ويرفع المظلومة: «وتلك الأيام نداولها بين الناس»، ثم رجع إلى التنزيه ثانيا يؤكد هذه المعاني فقال: (سبحان الله عما يشركون).

واعلم أن معاني الرحمة وما معها، والكبرياء وما شاكلها، تجتمع كلها في نظام هذه المخلوقات. ليس من العجيب أن نرى العناصر التي تبلغ فوق الثمانين متضادة متافرة، فمنها محرق كالأكسوجين والصودا والبوتاسا ومنها ما ليس كذلك كالأدروجين فهو غاز لا يورث احتراقا ولكنه هو قهرها وأذنها وصورها، فخلق الماء من الأكسوجين والأدروجين، وجعل القطن من مواد محرقة، وأخرى غير محرقة كما تراه موضحا في سورة البقرة [عند آية الطير وإبراهيم، ليس هذا معنى قوله بعد ذلك:

(٩٠) و(٩١) و(٩٢): (هو الله الخالق) المقدر للأشياء على مقتضى الحكمة (البارئ) الموجد لها بريثا من التفاوت (المصور) الموجد لصورها وكيفياتها كما أراد، فهذه الصفات أفادت الأمرين معا: قهر هذه العناصر وإذلالها: وقد خلق عنها ما ليست من صفاتها وألبسها لباسا آخر كما ترى، أن الصودا والبوتاسا في القطن قد عريت عن احراق وأصبحت ملبسا، فها هنا اجتمعت الكبرياء والعظمة والقهر مع الملك والسلامة

والأمان والهيمنة والرحمة . ومن أعجب العجائب أن تصح هذه المادة المتشاكسة المتنافرة متوادة متحاببة ولم يكن ذلك إلا برحمة وأمان وسلام أولا ، وكبرياء وقهر ثانيا ، وهذا معنى قوله : (سبحان الله عما يشركون) ومعنى قوله في أول السورة : (سبحان الله ما في السموات والأرض) وهذا هو قوله بعد ذلك : (له الأسماء الحسنی) لأنها دالة على محاسن المعاني ، وختم ذلك بمجمل ما تقدم كله ، بل بمجمل هذا الوجود ، فذكر أنه يسبح له ما في السموات والأرض ، وأنه عزيز حكيم ، فالتسبيح راجع للتزه عن قصد الشر ، والعزة راجعة لصفات القهر المتقدمة ، وواجباً عنهما معا انصف بأنه (حكيم) وحكته ظاهرة واضحة عند الحكماء وحدهم ، أولئك الذين يشهدون في صور الموجودات كالقواكه والأقوات والملابس عناصر متنافرات ، قهرها وذلكها لتلبس صفات الشر عنها وتلبس خلق الخير ؛ فأما سلبها صفات الشر فذلك بصفات السلام والقهر والكبرياء والبطش والعلو والملك ، وأما لباسها لباس النفع فذلك بصفات الرحمة والسلامة والأمان والهيمنة والقدس والتزه .

واعلم أيها النبي أن هذه المعاني جميعها ظاهرة واضحة لدوى البصائر في هذه الدنيا وهم أحياء يرونها بأعينهم في ملابسهم وما كلهم ومشاربهم ، فكأن الماء وهم يشربونه مخاطبهم قائلا : ها أنا ذا مصور مبروء مغفوق من عنصرين متنافرين ، فبالكبرياء والملك كان اجتناعي ، وبالرحمة والرافة والسلامة والأمان كانت هذه النافع المزجاة إليكم بشري ، وهكذا يقول القطن للابس لو كان يعقل ما يلبس ، أو يفهم لغة الجمادات الناطقات للتكلمات لدوى البصائر لالجاهلين الغافلين ، إذ يقول :

أيها الإنسان : أنت تلبسني ولا تعلم أي مكون من عناصر بعضها نيران محرقة ، ولكن هذه النار أصبحت بردا وسلاما عليك وعلى الناس أجمعين كما كانت النار بردا وسلاما على إبراهيم .

أيها الإنسان : إنك لجهلك وقلة عقلك وغفلتك وقف عقلك عند إبراهيم وناره ، وظننت أن آيات الله خاصة بخوارق العادات . كلا . ثم كلا . إن آيات الله تحيط بك من كل جانب ، وها أنا ذا أحيط بجسمك ، وأيقك حر الشمس ، وأنا نفسى مركب من مواد بعضها محرقة ولم أحترق أنا ولم أحرقك ؛ فالمعجب تحيط بك أيها الإنسان وأنت لا تشعر بما هو ظاهر واضح لك : « قتل الإنسان ما أكفره » . « إنه كان ظلوما جهولا » .

هذه لغة الماء ولغة القطن ، ومثلها لغة الدرة والقمح ؛ وكل ما تراه يحيط بك ، تذهب إلى حقل الدرة فيجيبك روثه ، ولكن ذلك بالنظر الظاهري ، أما هو فإنه يخاطبك بلسان حاله الذي هو أفصح من لسان اللقال ، ويذكرك بما فيه من العناصر للذكورة في (سورة البقرة) فارجع إليها ، ويريك أن الكبريت الذي يستوقد الناس النار به هو نفسه داخل في ضمن الدرة ، ويقول لك :

أيها الإنسان : أنت تأكل المحرق لجسمك وهو الكبريت الداخل ضمن أجزاءي ، ولكنك لا تحترق وأنا لا أحترق به ، فأنا معجزة ماثلة أمامك ، الجاهل لا يعرف من آيات الله في هذا المقام إلا نار إبراهيم ، والحكيم العالم يشاهد إبداع الله في الشهادات أمامه والله يقول لكم يا بني آدم : « وما نرسل بالآيات إلا تخويفا » . فالجاهلون لا يعرفون إلا خوارق العادات ، والحكماء يرون هذه المعاني تحيط بهم فلا يميزهم خوارق العادات .

محاورات بيني وبين أحد الأصدقاء

اطلع على هذا بعض الأصدقاء الأعزاء العلماء ، فقال : إن ما تقدم كله حسن ، ولكني الآن أريد أن أفهم معنى كون أسماء الله حسنى وأنهم هذا الحسن بالمشاهدة والبيان تضييلا ، وأما هذا لما هو إلا إجمال ،

وأريد أن أقص عليك مذكره النزالي في كتابه الذي جعله شرعا لأسماء الله الحسنى ، وبعد أن أتم مقاله أود أن تربي هذا الحسن عيانا ؟ لأن الله يقول : « سنبهم آياتنا في الآفاق ونفي أنفسهم » وأنت طالما قلت لنا إن هذا هو الزمان الذي يرى الله الناس فيه الآيات ؟ قلت : أنا لأمنع أن تذكر مقاله الامام النزالي في هذا المقام ، وأنا إن شاء الله أريك هذه المعاني عيانا ومشاهدة لتنال اليقين والسعادة في الحياة الدنيا قبل الموت ، وأسأل الله أن يلهمنا جميعا الخير ، فذلك إذن (فصلان : الفصل الأول) مقاله الإمام النزالي في معنى هذه الأسماء (الفصل الثاني) في عجائب ومحاسن أسماء الله الحسنى في العوالم للشاهدات .

الفصل الأول : في معاني هذه الأسماء

من كلام النزالي رحمه الله تعالى

قلت : أسمى ما قاله النزالي رحمه الله في معاني هذه الأسماء . فقال : (الرحمن الرحيم) هما اسمان مشتقان من الرحمة ، وملخص المعنى الذي قاله . إن الرحمة لا تكون تامة إلا إذا شملت المستحق وغيره ، وشملت الضروريات والحاجيات والكليات والدنيا والآخرة ، والرحيم من الناس عادة يحس بألم في نفسه من رفته على المرحوم ، وهذا الألم مستحيل في جانب الله ، فتكون الرحمة أم ، لأن رحمنا فيها إزالة الألم عن أنفسنا ، وليست كذلك رحمة الله ، والرحمن أخص من الرحيم ، ولذلك لا يسمى به غير الله ، فهو جار مجرى العلم ، فالرحمن للسعادة الأخروية ، وهذه الرحمة خاصة بالله :

(١) هو عطوف على العباد بالإيجاد .

(٢) والهداية إلى الإيمان وأسباب السعادة .

(٣) والإسعاد في الآخرة .

(٤) والإنعام بالنظر إلى وجهه الكريم .

وحظ العبد من اسم الرحمن أن يرحم العبد الغافل فيعظه باللطف ، وأن ينظر إلى العصاة بعين الرحمة ، وأن تكون معاصي الناس كأنها معاصيه ، فيسمى في إزالتها .

وحظ العبد من اسم (الرحيم) أن يسمى في إزالة فاقة كل محتاج ، فإن عجز فبالدعاء وإظهار الحزن اه .

(الملك) هو الذي يستغنى في ذاته وصفاته وأفعاله وبقائه عن كل ما سواه ، ويستمدسواه الوجود وسائر الصفات منه ، والعبد لا يتصور أن يكون ملكا مطلقا بهذا المعنى ، فهو لا يستغنى عن كل شيء ، بل هو مفتقر أبدا ، ولما كان يملك شيئا ويفتقر إلى شيء كان له شوب في الملك ، وأعظم ملك في العباد هو المستغنى عن كل ما سوى الله ، وقد أطاعته رعيته الخاصة به قلبه ولسانه وقالبه وجنده وشهوته وغضبه وهواه وسائر أعضائه وقواه ، فإذا ملكها ولم تملكه واستغنى عن الناس واحتاج الناس إليه في حياتهم العاجلة والآجلة فهو الملك في العالم الأرضي ، وهذه رتبة الأنبياء ، ويلهم العلماء وملكهم على قدر إرشادهم واستغنائهم عن الاسترشاد وبهذه الصفات يقرب العبد من اللاتسكة ، وهذا الملك عطية من الحق .

أوصى بعض العارفين تلميذه فقال : (كن ملكا في الدنيا تكن ملكا في الآخرة) ومعناه انقطع طمعك وشهوته عن الدنيا فإن الملك في الحربة والاستغناء .

(القدوس) الله قدوس أي منزّه عن كل صفة من صفات العباد الكاملة كالقدرة والعلم الخ فضلا عن نواقصها ، وقدرته وجميع صفات الكمال فيه ما كان ينبغي أن يجبر عنها بالألفاظ التي تدل على ما يظنه المطلق

كلا فيهم ، ولولا أن الرخصة وردت في التشرع باطلاق ذلك لم يجز ، إن الناس نظروا في أنفسهم فوجدوا
نفسا وكالا ، فنزوا عنه النفس وأثبتوا الكمال ولكن الله فوق كلهم فضلا عن تصهم .

(تنبيه) حظ العبد من هذا الاسم أن يكون علمه متعلقا بما هو دائم فيكون منزها عن كل ما يشارك
فيه البهائم من كل محسوس ومتخيل وكل متغير بحيث لو سلب آلة العلم بقي العلم في نفسه ، وهكذا تكون
إرادته قدسية ، أي أنه لا يلحظ في نفسه إلا لقاء الله والفرح بقربه ولا يكتفى بالجنة ونعيمها ، وبالجملة جميع
الإدراكات الحسية والخيالية يشارك الإنسان فيها البهائم فيتعالى عنها في الدنيا والآخرة ، ومن لم تكن همته
إلا في الله فدرجته على قدر همته ، وبالجملة من رقى علمه عن درجة المحسوسات والتخيلات وقدس إرادته عن
مقتضى الشهوات فقد نزل بمجبوحة حظيرة القدس . هذا ملخص كلامه رحمه الله .

أقول : وإياك أيها التذكي أن تظن أن هذا ينافي ما كتبناه في هذا التفسير ، بل هو عينه . وحب الله
وحب لقائه لن يتم لأمرى في هذه الحياة الدنيا إلا بأمر واحد ، وهو عشق العلم والفرح بالطبيعة ودرسها
دوسا مدقا ، وكتابتنا هذا كاف لنيل هذه الدرجة وفتح باب المزيد منها .

(السلام) هو الذي تسلم ذاته عن العيب ، وصفاته عن النقص ، وأفعاله عن الشر . أقول : وقد
تقدم في هذا التفسير براهين كثيرة على أنه لا شر في هذا العالم إلا وقد جعل مقدمة لخير ، حتى أن الموت
مقدمة لصفاء الروح وخروجها من سجنها ، وحظ العبد من هذا الاسم أن يسلم قلبه من الحقد والغش وإرادة
الشر ، وأن تسلم جوارحه من الآثام والمخطورات ، ومثل هذا العبد يأتي الله بقلب سليم ، فهذا العبد سلام
قريب من السلام المطلق الحق ولا سلام لمن أصبح عقله أسير شهواته .

(المؤمن) هو الذي يعزى إليه الأمن والأمان بإفادته أسبابه ، وسده طرق المخاوف ، وللمؤمن المطلق هو
الذي يستمد منه كل أمن وأمان ، وجميع حواس الإنسان تعطيه من الأمن ما يلائمها كالعين تبصر العدو
تحتأشاه ، واليد تبطش به فيكون الأمان من شره ، فالمؤمن هو الذي خلقها ، ولا جرم أن الإنسان في
أصل فطرته ضعيف ، وهذه الجنود من العقل والجوارح قوة لها بها يتعاطى الطعام والشراب ، ويدافع الأعداء
فذلك كله من صنع المؤمن ، ومن جنود الأمن والأمان والدين والعقائد ، والآراء الشريفة التي تجعل الإنسان
في أمان في الدنيا والآخرة ، وحظ العبد من هذا الاسم أن يأمن الناس شره ، وأن يكون عضدا لكل
خائف ، وأحق الناس بشرف هذا الوصف من يكون سببا في أمان الناس من عذاب الآخرة بتعليمهم
وتقويمهم ، وأفضل الناس في ذلك الأنبياء ، وليس وصف الله بأنه مؤمن بما مع أن يكون الله محظوظا ، فإنه منه
الأمن وأسبابه ، ومنه الخوف وأسبابه ، كما أنه معزومذل ، وخافض ورافع ، ولا يمنع أحد الوصفين الآخر ،
وقد ورد التوقيف بالمؤمن ولم يرد بأنه مخوف .

(اللهيمن) أي القائم على خلقه بأعمالهم وأرزاقهم وآجالهم ، فهو مطلع ومستول عليهم وحافظ ، وكل من
هو مشرف على كنه الأمر مستول عليه حافظ له ، فهو مهيمن عليه ، والإشراف يرجع إلى العلم ، والاستيلاء
إلى كمال القدرة . والحفظ إلى الفعل ، فالجامع لهذه المعاني اسمه الهيمن ، وهل يجمعها على سبيل الاطلاق
إلا الله ، وحظ العبد من هذا الاسم أن يهمن أو يشرف على أغوار أسرارها ، ويستولى على تقويم أحواله
وأوصافه ، ويحفظها على الدوام ، فذلك مهيمن على قلبه ، فان أشرف على عباد الله يتعرف بواطنهم بالاستدلال
بظواهرهم والتفرس فيها كان نصيبه من هذا المعنى أوفر وحظه أتم :

(العزيز) هو الحظير الذي يقل وجود مثله ، وتشتد الحاجة إليه ، ويصعب الوصول إليه ، فهذه
أربعة مسان إن لم تجتمع في الوصف لا يسمى عزيزا ، فالأرض والشمس تنهما عظيم ولا يتغير لهما

[بحسب الظاهر عند أهل الأرض وإلا فكيف من فموس وأرضين كما تقدم] والحاجة مشتدة إليهما ، ولكن نحن نشاهدنا فلم يصعب الوصول إليهما ، فأين العزة إذن ؟ وحظ العبد من هذا الاسم أن يحتاج إليه العباد في أمم أمورهم في الحياة الدنيا والآخرة ، والأنبياء أولى بهذه الصفة ، ويقرب منهم الخلفاء الراشدون والعلما الخ .

(الجبار) هو من تنفذ مشيئته في كل أحد على سبيل الاجبار ، ولا تنفذ فيه مشيئة أحد ، ولا يخرج عن قبضته أحد ، وتقتصر الأيدي دون حسي حضرته ، والجبار من العباد من ارتفع عن الأتباع ونال درجة الاستتباع بحيث يجبر الخلق بهيئته وصورته على الاقتداء به ومتابته في سمته وسيرته فيفيد الخلق ولا يستفيد ولا يشاهده أحد إلا ويضئ عن ملاحظة نفسه ويصير متشوقا إليه غير ملتفت إلى ذاته ولا يطمع أحد في استدراجه ، وهذه صفة الأنبياء لاسيما خاتمهم صلى الله عليه وسلم .

(للتكبر) هو الذي يرى الكل بالنسبة له حقيرا بالإضافة إلى ذاته ، ولا يرى العظمة والكبرياء إلا لنفسه وذلك هو الله ، والتكبر من العباد على هذا للنوال تكبره باطل ، والتكبر من العباد هو الزاهد العارف فيزه سره عما يشغله من الخلق ، ويتكبر على كل شيء سوى الحق فيحقر الدنيا والآخرة جميعا بحيث لا يشغلانه عن الحق تعالى .

أقول : وأنت أيها التلميذ خبير أن عجائب العوالم تجعل في النفس قريبا لمبدعها ، وإرشاد الخلق وإعطاء الأمم من ضعفها ، كل هذا لم يخرج عن كونه مقربا لله تعالى .

(الخالق البارئ المصور) : فالأول راجع للتقدير ، والثاني للإيجاد ، والثالث للتصوير . إن المهندس يفكر في نظام المنزل ، فهو له مقدر ، يقدر مالا بد منه من الخشب والابن والساحة الخ ، ثم يكون البناء ثم يكون الذي يتقن ظاهره ، وهذا بالترتيب : « الخالق البارئ المصور » ولكن الله هو الذي يتولى هذه الأفعال الثلاثة بنفسه .

أقول : ومن نعم الله عز وجل أن هذا التفسير من قرأ أكثر ما فيه أو مقدارا كبيرا منه أدرك بحق وصدق ويقين عجائب اسمه تعالى المصور ، فإنه يرى الاتقان في كل صغير وكبير كالعين والأذن وتركيبهما وبدائع النظم في أعالي السواحل وأسافلها ، ولقد أطلت في ذلك الإمام النزالي : ولكن زماننا والحمد لله زمان هذه العلوم في ذلك فليرجح المسلمون ، فبشرى لهم بنابغين سيظهرون في بلاد الإسلام ، يزرعون ما بذرنا في الأفتدة ، وسيكونون حقا خير أمة أخرجت للناس . وحظ العبد من اسمه تعالى المصور أن يحصل في نفسه صورة الوجود كله على هيئته حتى يحيط بالعالم علويه وسفليه من المجرات والشموس والسدم .

أقول : ومن قرأ أكثر هذا التفسير فقد نال هذه الأمانة إن كان من الأذكياء العاشقين للعلم ، وهكذا يشرف على صورة الإنسان من حيث بدنه وأعضاؤه الجسدية ، فيعلم مفصلها بالتشريح وترتيب أجزائها ، وعددها والحكمة في خلقها ، ثم يشرف على صفات الإنسان المعنوية ومعانيه الشريفة التي بها إدراكه وإراداته ، وكذلك يعرف صور الحيوانات والنباتات ظاهرا وباطنا بقدر وسمه حتى يحصل نفس الجميع وصورته في قلبه ومعرفة الأمور الجسدية صورة مصغرة للأمور الروحية ، وهاهنا يدخل في عالم الملائكة وهم المتصرفون في عالم السموات والأرضين ، وهم المأمون بأمر الله لكل إنسان وحيوان ، حفظ العبد من هذا الاسم اكتساب الصور العلمية المطابقة للصورة الوجودية ، فإن العلم صورة في النفس مطابقة لصورة المعلوم ، وهذا في الحادث ، أما علم الله بالصور فهو سبب في وجود الصور في الأعيان ، هذا كله في الاسم (المصور) .

أما الخالق والبارئ فليس للعبد حظ فيهما إلا بطريق المجاز ، إن للعبد علما وقدره ، وهذان لا ارتباط لهما بالتأثير في عوالم السموات والأرضين ، نعم للإنسان أعمال كالصناعات والسياسات والعبادات والمجاهدات ، فإذا هذب العبد نفسه وساسها وانفرد بأمور لم يسبق لها نظير كصنع الطائرات والراديو في زماننا ، فإن المخترع يطلق عليه هذا الاسم مجازا فيقال خالق وبارئ ، فهذا في حق الله حقيقة وفي حق العبد مجاز ، بخلاف الصبور الشكور ، فهما في حق العبد حقيقة ، وفي حق الله مجاز ؟ وينبغي أن نلاحظ أيها الذكي مع المشاركة في الاسم للتفاوت بين المقامين .

هذا ملخص ما كتبه الامام الغزالي مع تفسير يسير كضرب الأمثلة ، فهو قد مثل للمخترعين بالمشترنج وأنا أمثل الآن بما لا حصر له من الأمثلة . ومن أعجب العجب أن يكون دين الاسلام هذا مقامه وأن يكون المسلم باختراعه قريبا من ربه ، والمسلمون نيام كأنهم لم يقرأوا كلام علمائهم فناموا فقر العلم والاختراع إلى بلاد أوروبا ، وانتقل إلى أمريكا والشرق الأقصى ، أما بلاد الاسلام فلا ، وأنا أندram الاسلام قاطبة صاعقة العذاب المنون بما كانوا يجهلون .

اللهم لك المشتكى ، أمة تكون أمتاؤك أنفسها أعينها نبراسا لهدايتهم للاختراع ، والاختراع يقربهم من من حضرتك العلية وهم لا يعلمون ، ولا يدرسون إلا القشور .

اللهم إنى أبرا إليك من السكتان ، وها أنذا أنشر لهم ما فتحت به على وألمنتيه حتى ألقاك ، وقد فعلت ما قدرت عليه ، ولا تؤاخذنى بتقصيرى فإنى وعزتك قد نشرت مع إعانتك لى بقدر إمكاني ، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، وهو أرحم الراحمين . انتهى الكلام على الفصل الأول ، والحمد لله رب العالمين .

الفصل الثاني

في تبيان محاسن أسماء الله الحسنى بالمائة والشاهدة

مصفاة لقوله تعالى : « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها » . وقوله « إن علينا الهدى »

وقوله : « سترهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »

هناك ابتدأ صاحبي يسألني قائلا : ما معنى كون أسماء الله حسي ؟ أمحاسنها في ألفاظها أم في معانيها ؟ أم في الآثار للتطبيق على معانيها ؟ وأنا أذكر أنه ورد في بعض الآثار أن من أحصى أسماء الله الحسنى عددا دخل الجنة ، ورأيت للملاء أقوالا في ذلك ، فمن قائل من حفظها ، ومن قائل من فهم معناها ، ومن قائل من تخلف بها ، وأنا لا أدري ماهو الحق من ذلك ، وأيضا هاهو ذا الإمام الغزالي يضرب أمثالا في تفسيره لهذه الأسماء بذكر أعضاء النملة وتركيبها ، وتركيب العين وعجائب طبقاتها وهكذا مما تقدم شرحه ، فهأنذا أريد أن أرى بين البصر بعض هذه العجائب على شريطة أن تكون داخلة تحت أسماء الله الحسنى دخولا حقيقيا ؟ فقلت : يا صاح : أنا أجيبك بعون الله في المقامين (اللقاه الأول) في تبيان ماهو الحق من هذه الأقوال (اللقاه الثاني) في تبيان محاسن الأسماء الحسنى بالبيان والمشاهدة .

المقام الأول : في تبيان ماهو الحق من هذه الأقوال

اعلم أيها الأخ الذكي أن هذه الأقوال لم تكن في أمم الإسلام سدى ، فالقول الأول يناسب الأطفال ليحفظوا هذه الأسماء ، وهذا يناسب عقولهم لأنهم لا يعقلون المعاني ، والقول الثاني يلقي إلى الطفل متى عقل فيقال له : إن الجنة ودخولها لن تكون بمجرد اللفظ ، لأن اللفظ يراد به المعنى ، ومتى زاد تعقلا يقال له :

أيها النبي : أنت فهمت للمنى ، وعرفت أن إلهارحيم وقديوس الخ فاقرا القرآن وادرس العلوم تجد في الأول
 حرمات فاجتنبها ، وواجبات قم بها ، لتبرأ من العيوب الإنسانية ، وتحلى بالصفات الملكية ، فلا بد لك من
 علم وعمل ، ثم إذا ازداد تعقلا يقال له : أيها الإنسان : لا سعادة في هذه الحياة إلا بالوقوف على الحقائق ،
 ولن يقف الانسان على الحقائق وقلبه مغمى بالردائل ، فإذا صفت نفسه قبلت الحكمة والعلم ، وظهرت له نفس
 هذه الدنيا بصورة بهجة جميلة ، وكأنها جنات ، يحس بها والناس لا يملكون ، ويكون ذلك مقدمات للهجات
 الحقيقية ، والسعادة الأبدية ، بمشاهدة صانع هذه العوالم بعد الموت ، ولن يطمع امرؤ عدم عشق هذه
 العجائب في الدنيا في أن يرى ربه إلا من وراء حجاب ، وعلى مقدار حجاب المسدول عليه في هذه الحياة
 الدنيا يسدل عليه الحجاب يوم القيامة وبعد الموت ، لأنه لا درجة هناك مستأنفة ، فالحياة الدنيا هي أس
 السعادة وأس الشقاء ، وهناك يشتاق العاقل إلى أن يسمع :

المقام الثاني من الفصل الثاني

قال صديقي : أريد أن تذكر لي بالمشاهدة معنى (اللطيف ؛ والنور الهادي) فاني رأيت في شرح
 الفزالي في معنى اللطيف أنه هو العالم بدقائق المصالح وغوامضها ، وما دق منها وما لطف ، ثم يسلك في إحاطتها
 إلى السحق سبيل الرفق دون العنف ، فإذا اجتمع الرفق في الفعل واللفظ في العلم تم معنى اللطف ، ولا
 يتصور كمال ذلك في العلم والفعل إلا لله تعالى . فأما إحاطته بالدقائق والحفايا ، فلا يمكن تفصيل ذلك بلى الحقي
 مكشوف في علمه كالجلى من غير فرق ، وأما رفق في الأفعال ولطفه فيها فلا يدخل أيضا تحت الحصر ، إذ
 لا يعرف اللطف في الفعل إلا من عرف تفاصيل أفعاله ، وعرف دقائق الرفق فيها ، وبقدر اتساع المعرفة
 فيها تنوع المعرفة بمعنى اسم اللطيف ، وشرح ذلك يستدعى تطويلا ، ثم لا يتصور أن يفى بشر عشره مجلدات
 كبيرة ، وإنما يمكن التنبه على بعض جملة ، فمن لطفه خلقه الجنين في بطن الأم في ظلمات ثلاث وحفظه
 فيها وتغذيته بواسطة السرة إلى أن يفصل فيستقبل بالتناول بالفم ، ثم إلهامه إياه عند الانفصال التمام الذي
 وامتصاصه ولو في ظلام الليل من غير تعليم ومشاهدة ، بل فلق البيضة عن الفرج وقد ألهمه التقاط الحب
 في الحال ، ثم تأخير خلق السن عن أول الحلقة إلى وقت الحاجة للاستغناء في الاغتذاء . باللبن عن السن
 ثم إنباته السن بعد ذلك عند الحاجة إلى طحن الطعام ، ثم تقسيم الأسنان إلى عريضة للطحن ، وإلى آنياب
 للكسر ، وإلى ثنايا حادة الأطراف للقطع ، ثم استعمال اللسان الذي القرض الأظهر منه النطق في رد الطعام
 إلى المطحن كالمهرفة ، ولو ذكر لطفه في تيسير لقمة يتناولها البدن من غير كلفة يتجشمها ، وقد تعاون على
 إصلاحها خلق لا يحصى عددهم من مصلح الأرض وزارعها ، وساقها وحاصدها ، ومنقها وطاحنها وعاجنها
 وخابزها ، إلى غير ذلك لكان لا يستوفى شرحه ، وعلى الجملة فهو من حيث دبر الأمور حكيم ، ومن حيث
 أوجدتها جواد ، ومن حيث رتبها مصور ، ومن حيث وضع كل شيء في موضعه عدل ، ومن حيث لم يترك
 فيها دقائق وجوه الرفق لطيف ، ولن يعرف حقيقة هذه الأسمي من لم يعرف حقيقة هذه الأفعال ، ومن
 لطفه بعباده أنه أعطاهم فوق الكفاية وكفاههم دون الطاعة ، ومن لطفه أنه يسر لهم الوصول إلى سعادة
 الأبد بسعى خفيف في مدة قصيرة ، وهي العمر ، فانه لانبية لها بالاضافة إلى الأبد . ومن لطفه إخراج
 اللبن الصافي من بين الغرث والدم وإخراج الجواهر النفيسة من الأحجار الصلبة ، وإخراج العسل من
 النحل ، والابريسم من الدود ، والبرمن الصدف . وأعجب من ذلك كله خلقه للانسان من النطفة القذرة
 وجهه مستودعا لمرفقه ، وحاملا لأمانته ، ومشاهدا للنكوت حواته ، وهذا أيضا فوق لا يمكن إحصائه

(تنبيه) حظ المبد من هذا الوصف الرفق بعباد الله تعالى والتلطف بهم في الدعوة إلى الله والهداية إلى سعادة الآخرة من غير ازدراء وعنف ، ومن غير خصام وتعصب ، وأحسن وجوه اللطف فيه الجذب إلى قبول الحق بالتبائن والسيرة المرضية والأعمال الصالحة فاتها أوقع وألطف من الألفاظ اللزينة اه .

وقال في معنى (النور الهادي) مانصة : «النور هو الظاهر الذي به كل ظهور ، فإن الظاهر في نفسه المظهر لغيره يسمى نورا ، ومهما قوبل الوجود بالعدم كان الظهور لامحالة للوجود ، ولا ظلام أظلم من عدم فالبريء عن ظلمة عدم ، بل عن إمكان عدم والمخرج كل الأشياء من ظلمة عدم إلى ظهور الوجود جدير بأن يسمى نورا ، والوجود نور فائض على الأشياء كلها من نور ذاته ، فهو نور السموات والأرض ، وكأنه لافرة من نور الشمس إلا وهي دالة على وجود الشمس المنورة ، فلا ذرة من موجودات السموات والأرض وما بينهما إلا وهي بجواز وجودها دالة على وجود وجودها ، وما ذكرناه في معنى الظاهر يفهمك معنى النور ويفنيك عن التمسفات المذكورة في معناه .

(الهادي) هو الذي هدى خواص عباده أولا إلى معرفة ذاته حتى استشهدوا بها على معرفة مخلوقاته وهدى عوام عباده إلى مخلوقاته حتى استشهدوا بها على ذاته ، وهدى كل مخلوق إلى مآلبد منه في قضاء حاجاته ، فهدى الطفل إلى التقام الثدي عند انفصاله ، والفرخ إلى التقاط الحب وقت خروجه ، والنحل إلى بناء بيته على شكل التسديس لكونه أوفق الأشكال لبدنه ، وأحوالها وأبدها عن أن يتخللها فرج ضائعة وشبرخ ذلك مما يطول ، وعنه عبر قوله تعالى : «الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى» ، وقوله تعالى : «والذي قدر فهدى» والهداية من العباد الأنبياء والعلماء التي أرشد الخلف إلى السعادة الآخروية : وهدوم إلى صراط الله المستقيم ، بل الله الهادي لهم على ألسنتهم ، وهم مسخرون تحت قدرته وتدييره اه .

هذا ما قاله الإمام الغزالي ، وأنا أريد أن أشاهد هذه الأمور عيانا : أي أشاهد هدايته لمخلوقاته بالصورة المشاهدة ، وكيف كان لطفه بهم مشاهدة أيضا ، فقلت بإصاح : إن هذا التفسير مفعم بهذه العجائب فارجع إلى (سورة البقرة) في الطبعة الثانية ، ففيها عجائب كثيرة مثل تدرجه في خلقه طبقا عن طبق ، فراه هناك مصورا بالتصوير الشمسي عند آية الطير وإبراهيم ، والمزير وحماره ، وهكذا في سور كثيرة . فقال نعم ولكني أريد الآن أمرا آخر ، وهو التلطف في هداية الناس في الأرض ، وكيف يتوصلون إلى أعظم الأمور بأصاغرها ؟ فقلت : ذلك هو علم الهندسة والحساب والجبر والفلك والطب ، فمن درس هذه العلوم أدرك ذلك اللطف والهداية والنور ، فإذا كان ذا بصيرة فإنه يعرف أنه قد ارتقى في الهندسة من الخط والزوايا والمثلث والمربع إلى السكزات والمكعبات ودراسة الكواكب في السموات ، ذلك مدون في كتب جميع الأمم غاية الأمر أن أكثر هذا النوع الإنساني يدرسون ويفهمون ولكن لا يعقلون أن هذا لطف بهم وهداية بل يعيشون ويموتون وكأنهم لا يدرسون ولا يعلمون .

فقال نعم ، هذا حسن ، ولكن الأحسن منه أن تربى مثالا واحدا كما وعدت في أول المقال ؟ فقلت : الآن أحدثك حديثا جميلا ، ولكن هذا الحديث سأحدثك به إن شاء الله في (سورة الملك) عند آية «ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح» الخ فارتقب ذلك هناك ، إن هذه العلوم السجوية والأضواء كلها المرتبطات بأسماء الله ، وهل الأسماء إلا دالة على الصفات ، وهذه الآثار دالات على الصفات ، وهكذا ستشاهد عجائب النبات والأزهار في (سورة النبأ) في المجلد الخامس والشرين من هذا التفسير .

هذا هو نهاية الكلام على قوله تعالى : «لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية

الله ونلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون، هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم، هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون، هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم»

وبهذا تم تفسير سورة الحشر، والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة الممتحنة

هى مدنية .

آياتها ١٣ - نزلت بعد الأحزاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ * إِنْ يَتَّقُواكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيهِمْ وَالسِّبْتُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ * لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا الْقَوْمِ هَيْهَذَا بُرءُؤُاؤِ امْنِكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * عَمَى اللَّهُ أَنْ يَجْمَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ فَهْرٌ رَحِيمٌ * لَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَآمَنُوا بِحُرُوبِكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبْرُوهُمْ وَتَقْسِطُوا

إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ بِحَيْبِ الْمُقْسِطِينَ • إِنَّمَا يَنْبَأُكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُواكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ •
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاثُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَسْئَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْئَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكَمُ حُكْمُ اللَّهِ يُخَيِّمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ • وَإِنْ قَاتَلَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَمَا قَبَّيْمُ فَمَا تَأْتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ • يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأُزْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ •
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَتَّبِعُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَتَّبِعُ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ •

هذه السورة فيها مستلثان

الأولى : ألا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء فيفشون إليهم أسرار المسلمين .

الثانية : مسألة المؤمنات المهاجرات وامتحانهن ونحو ذلك .

مقدمة

قال القسرون : إن سارة التي كانت مغنية ونائحة بمكة آمنت بالمدينة تشكو الحاجة ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بن عبد المطلب أن يعطوها ما تحتاج إليه ، فأعطوها نفقة وكسوة وحملوها ، فجاء لها حاطب ابن أبي بلتعة ، وكتب معها كتابا إلى أهل مكة ، وأعطاهما عشرة دنانير وكساءها ، وهذا نصه : «من حاطب ابن أبي بلتعة إلى أهل مكة إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدكم خذوا حذرکم ، فأخبره جبريل ، فبحث صلى الله عليه وسلم عليا وعمارا وعمر وطلحة والزبير والقداد وأبا مرثد ، وكانوا فرسانا ، وقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها ظمينة معها كتاب من حاطب إلى أهل مكة فخذوه منها وخلوها ، فإن آبت

فاضربوا عنقها فأدركوها فجحدت وحلفت ، فهموا بالرجوع ، فقال طي : والله ما كذبنا ، ولا كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسل سيفه ، وقال لها : أخرجي الكتاب أو تضحى رأسك ، فأخرجته من عقاص شعرها ، فاستحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطبا ، وقال : ما حملك عليه ؟ فقال يا رسول الله ما كفرت منذ أسلمت ، ولا غششتك منذ نصحتك ، ولا أحببتهم منذ فارقتهم ، ولكني كنت امرأة مملوكة في قريش ، ولم أكن من أنفسها ، وكل من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون أهلهم وأموالهم غيري غشيت على أهل فأردت أن أتخذ عندهم بدا ، وقد علمت أن الله ينزل عليهم بأسه ، وأن كتابي لا ينشئ عنهم شيئا ، فصدقه وقبل عذره ، فقال عمر : يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق ، فقال صلى الله عليه وسلم : وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال لهم اعلموا ما شئتم قد غفرت لكم ، ففاضت عينا عمر رضى الله عنه ، فنزل :

بسم الله الرحمن الرحيم

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة) تفضون إليهم بالمودة بالمكاتبة ، والباء زائدة ، أو تلقون إليهم أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم بسبب مودتكم لهم (وقد كفروا بما جاءكم من الحق) الجملة حالية (يخرجون الرسول وإياكم) من مكة (ممن تؤمنوا بالله ربكم) أى لأن آنتم : أى يفعلون ذلك لأجل إيمانكم بالله الخ (إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي) فلا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء ، وأبدل من قوله « تلقون » قوله تعالى (تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم) أى منكم (ومن يفعله منكم) أى من يفعل الاتخاذ منكم (فقد ضل سواء السبيل) أخطأه (إن يتفقوكم) يظفروا بكم (يكونوا لكم أعداء) ولا يفتحكم إلقاء المودة إليهم (وييسطوا إليكم أيديهم والسبب بالسوء) ما يسوءكم فيقتلون ويشتمون (وودوا لوتكفرون) أى وتحنوا كفركم : أى ارتدادكم فتكونون سواء . وللقصود أن الاختلاف في العقائد يجعل التناصح معدوما ، فلا تناهضهم لأنهم لا يرحمونكم إذا ظفروا بكم (لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم) أى قراباتكم ولا ذريتهم الذين نوالون للشركين لأجلهم (يوم القيامة يفصل بينكم) يفرق بينكم من شدة الهول (والله بما تعملون بصير) فيجازيكم عليه .

وإلى هنا تم الأمر في اتخاذ الأعداء أولياء . فلم يبق إلا ما بقى ذلك بالاعتداء بالأنبياء السابقين كما هي طريقة القرآن . فذلك قال (قد كانت لكم أسوة حسنة) قدوة . وهي اسم لما يؤتى به (في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم) كظريف وظرفاء (وبما تعبدون من دون الله كفرننا بكم) أى بدينكم أو بمعبودكم (وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده) فإذا تبرأ إبراهيم وأصحابه من قومهم فليتناس حاطب والؤمنون بهم ، فلكم أن تتأسوا بإبراهيم في جميع أموره إلا في الاستغفار لأبيه للشرك فلا تتأسوا به ، فإن إبراهيم كان قد قال لأبيه « لأستغفرن لك » فلما تبين له إقامة على الكفر تبرأ منه ، وهذا قوله تعالى : (إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء) وهذه الجملة ليست مقصودة بالاستثناء إنما للقصود به قوله لأبيه ، ثم أمر الله المؤمنين أن يقولوا تماما للوصية السابقة قبل الاستثناء (ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك للصير ، ربنا لا نجعلنا فتنة للذين كفروا) بأن تسلطهم علينا فيفتنون بعباد لا تحمله ، أو فيظنوا أنهم على الحق ، أو لا تعذبنا بأيديهم ، ولا بعباد من عندك ، فيقولوا : لو كان هؤلاء على الحق ما أصابهم ذلك .

وملخص ذلك أن الفتنة إما عذاب للؤمنين ، وإما ما يترتب عليه من ظن الكافرين أنهم على الحق لتصرتهم عليهم (واغفر لنا) ما فرط منا من مكاتبة الكافرين (ربنا إنك أنت العزيز الحكيم) ومن ههنا صفته فهو

حقيق أن يجير من يتوكل عليه، ويجيب داعيه، ثم أكد ما تقدم من التأسى فقال (لقد كان لكم فيها أسوة حسنة) اقتداء حسن، ثم أبدل من «لكم» (لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتوكل) أي عرض عن الإيمان ويوالي الكفار (فإن الله هو الغني الحميد) أي الغني عن خلقه المحمود المستحق الحمد من جميع خلقه، ثم إن هذه الآيات حملت للسلمين أن يظهرُوا براءتهم من أقربائهم، وعداوتهم لهم، ولما كان ذلك شديدا عليهم أوقفه بوعده قد تم فيها بعد فقال (عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير) على ذلك (والله غفور) لما فرط من موالاتهم (رحيم) بالتوفيق في المستقبل، وقد فعل الله ذلك ويسر فتح مكة وأظفرهم الله عليهم، فأسلم قومهم وتم بينهم التحاب، وعسى من الله وعد على عادات اللوك حيث يقولون: عسى أولعل، والحجاج لا يشك في تمام ذلك، ومن تمام ذلك الوعد أنهم خالطوهم، وناكحوهم، وتزوج النبي صلى الله عليه وسلم أم حبيبة بنت أبي سفيان، ولان لهم أبو سفيان، ثم أسلم أخيرا.

ثم أخذ الله سبحانه يبين من نهى للمؤمنين عن موالاتهم، ومن لم ينههم عنها. فمن ذلك أن خزاعة صالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ألا يقاتلوه ولا يمينوا عليه أحدا، فرخص الله في برهم. ومن ذلك أن أسماء بنت أبي بكر قدمت أمها إلى المدينة بهدايا وهي مشركة. فقالت أسماء: لا أقبل منك هدية ولا تدخل بي حتى أستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فأذن لها، وفي هذين وأمثالها قال الله تعالى (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤم) أي لا ينهاكم الله عن بر الذين لم يقاتلوكم في الدين النج (وتسخطوا إليهم) وتمدلوها فيهم بالإحسان إليهم والبر (إن الله يحب للتقطين) العادلين (إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم) كمشركي مكة. فلأنهم قسمان: قسم سعى في إخراجهم من مكة، وقسم ساعدكم على ذلك وأعانهم (ومن يتوهم فأولئك هم الظالمون) لأنهم وضعوا اللوالة في غير أهلها.

وهنا أخذ يذكر القسم الثاني من السورة الذي ابتدئ به بمسألة المؤمنين المهاجرات. وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما صالح أهل مكة بالحديبية اشترط سبيل بن عمرو - كما تقدم في سورة الفتح - أنه لا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلا رددته إلينا وخلصت بيننا وبينه؛ فلم يأته أحد من الرجال إلا رده، وأولهم أبو جندل بن سبيل للذكور وهم جميعا مسلمون ثم جاءت مؤمنات مهاجرات منهن سبيعة بنت الحارث الأسلمية وهي مسلمة، فأقبل زوجها مسافر الهزومي طالبا لها، فنزلت: (يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن) فاختبروهن بما يغلب على ظنكم وانظروا هل توافق قلوبهن ألسنتهن، أم هن منافقات؟ فكان صلى الله عليه وسلم يستحلف للراة أنها ما خرجت من بطن زوج، ولا رغبة عن أرض إلى أرض، ولا حدث أحدثته، ولا التماس دنيا. وما خرجت إلا رغبة في الإسلام؛ وحبا لله ورسوله. فاذا حلفت على ذلك لم يردها، فاستحلف صلى الله عليه وسلم سبيعة حلفت فلم يردها، وأعطى زوجها مهرها وما أنفق عليها، فتزوجها عمر بن الخطاب رضى الله عنه. وقوله (الله أعلم بواطنهم) أي اللطع على ما في قلوبهن وإنما أتم تكنتهن بالظواهر (فإن علمتموهن مؤمنات) أي إن ظننتموهن ظنا غالبا بالحلف وظهور الأمارات (فلا ترجوهن إلى الكفار) أي إلى أزواجهن في الكفر، وبين سببه في قوله (لاهن حل لهم ولا يحلون لمن وآتوم ما أنفقوا) مادفوا من مهر إليهن (ولا جناح عليكم أن تنكحوهن) نفي عنهم الجناح في تزوج هؤلاء المهاجرات (إذا آتيتموهن أجورهن) مهورهن. (ولا تمسكوا بضم الكوافر) العصمة ما يتصم به من عقد وسبب، والكافرة مفردة الكوافر هي التي بقيت في دار الحرب، أو التي لحقت بدار الحرب مرتدة فلا يكن بينكم وبينهن عصمة، ولا عطفة زوجية، فمن كانت له امرأة كافرة بمكة فلا تعد من نسائه، لأن اختلاف المهرين قطع العصمة بينهما كما قاله ابن عباس (وأسألوا ما أنفقتم) من مهور أزواجكم

اللاحقات بالكفار ممن تزوجهن منهم (وليسألوا ما أتفقوا) من مهور نسأهم المهاجرات ممن تزوجهن منهم (ذلكم حكم الله) أى جميع ما ذكر فى هذه حكم الله . ثم استأنف فقال (بحكم بينكم والله علم حكيم) يشرع ما تقتضيه الحكمة، وليس فى إبقاء النساء تقضى للمهد، لأنه روى عن على أن سبيلا قال : لا يأتيك منا رجل وإن كان على بينك إلا رددته: أى بخلاف المرأة، فرد المهر إذن يكون مندوبا لا واجبا . وقيل إن رد النساء واجب كالرجال، إذن يكون رد المهر المذكور واجبا . وهل الآية منسوخة أو هى غير منسوخة ؟ فلا ترد المال على الأول ورتده على الثانى إذا شرطنا ذلك مع الكفار رأيا . ولما نزلت الآية المتقدمة أبى المشركون أن يؤدوا مهر الكوافر فقال تعالى (وإن فاتكم) سبقكم وانفلت منكم (شئ من أزواجكم) أى أحد من أزواجكم (إلى الكفار فاقبتم) أى ظهرتم وكانت العاقبة لكم على الكفار بأن أصبتم النعمة منهم (فأتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أتفقوا) فأعطوا المسلمين الذين ارتدت زوجاتهم بدار الحرب مهور زوجاتهم من هذه النعمة (واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون) ثم بين مبايعة النساء فقال (يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايكن) الجملة حال (على ألا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزني ولا يقتلن أولادهن) وهو وأد البنات (ولا يأتين بيهتان يفتريه بين أيديهن وأرجلهن) ذلك أن للمرأة كانت تلتقط للولود فتقول لزوجها هو ولدى منك، فالبيهتان مجاز عن الولد إذ تلتصقه بزوجها كذبا، وذلك أن بطنها التى تحمل الولد فيه بين اليدين والفرج الذى هو محل الولادة بين الرجلين، وقد بايحه صلى الله عليه وسلم نحو ٤٥٧ امرأة، ولم يوافق امرأة منهم قط، ومن بايحه هند: فلما سمعت هذه الجملة من الآية قالت : إن البيهتان لقبيح، وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق (ولا بصينك فى معروف) أى فى حسنة تأمرهن بها . ومن كلام هند له صلى الله عليه وسلم لما قال : «على ألا يشركن بالله شيئا» والله إنك لتأخذ علينا أمرا مارأيناك أخذته على الرجال ! وكان قد بايع الرجال يومئذ على الإسلام والجهاد فقط، ولما قال «ولا يسرقن» قالت هند : إن أبا سفيان رجل شحيح وإنى أصبت من ماله هتات فلا أدري أيعجل أم لا ؟ فقال أبو سفيان : ما أصبت من شئ فى ماضى فهو حلال، فضحك صلى الله عليه وسلم وعرفها وقال لها : وإنك لهند بنت عتبة ؟ قالت نعم ، فاعف عما سلف عفا الله عنك ، ولما قال «ولا يزني» قالت هند : أوتزنى الحرة ؟ ولما قال «ولا يقتلن أولادهن» قالت هند : ربيناهم صفارا وقتلهم كبارا، فأنتم وهم أعلم، وكان ابنها حنظلة بن أبى سفيان قد قتل يوم بدر، فضحك عمر حتى استلقى ، وتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم، والباقي تقدم، وجواب الشرط قوله (فبايعهن) على هذا (واستغفر لمن الله) عما مضى (إن الله غفور) لما سلف (رحيم) بالتوفيق فى المستقبل، وهذه البيعة كانت بعد فتح مكة بعد أن فرغ من بيعة الرجال، وقد كان صلى الله عليه وسلم على الصفا وعمر قاعد أسفل منه يبايعن عنه بأمره، ويلفن عنده، وكانت هند متفمنة متكررة خوفا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يعرفها لما صنعت بحمزة . (يا أيها الذين آمنوا لاتولوا قوما غضب الله عليهم) وهم اليهود، إذ كان بعض الفقراء من المسلمين يوالونهم ليصيبوا من ثمارهم (قد يئسوا من الآخرة) أى من حظهم فيها، لهمم بأنهم خالفوا ما فى التوراة التى فيها وصف النبي صلى الله عليه وسلم، فعاندوه وقاوموه، فهم يئسون من ذلك الحظ كئاس الكفار من رجوع من ماتوا ودفنوا فى القبور منهم، وهذا قوله (كما يئس الكفار من أصحاب القبور) .

اتمى التفسير اللفظى للسورة كلها، والحمد لله رب العالمين .

خاتمة تفسير هذه السورة

اعلم أن هذه السورة منامبة لما قبلها من حيث إن السورة للتقدمة فيها ذم المنافقين الذين حرضوا اليهود على القتال، وذم اليهود الذين يظنون جميعا وقلوبهم متفرقة، ووصفهم بعدم العقل، وذم الذي يتبع الشيطان في وسوسته وخذاعه. فأما هذه السورة فلها تعليم للمسلمين، ينههم عن موالات الأعداء لتلايكونوا جميعا وقلوبهم شتى، ولتلا يوصفوا بعدم العقل، وإذا فعلوا ذلك ينطبق عليهم « مثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك » جاءت هذه السورة بمد للتقدمة إيقاظا للمسلمين أن يكونوا يدا واحدة، وألا يطلعوا العدو على أسرارهم، فإذا فعلوا ذلك انطبقت عليهم الأمثال المضروبة في الكفار في السورة السابقة، علم الله أن المسلمين سيصابون بهذا الداء، فحذرهم عاقبة سوء فعلهم، وكرره في مواضع كثيرة، وهذا الداء قد استفحل في المسلمين اليوم، وغلبوا على أمرهم. أما الفرجة فإنهم متحدون لما بينهم من الاشتراك في انقسام أمم الإسلام وظلمهم.

حكاية مصرية

أخبرني رجل من الصالحين، تركي الأصل: ذكر لي أن ابنه كان ييلاد فرنسا بصحبة أحد أبناء الأمراء لربيته هناك، قال: وبينما هو يوما جالس في جماعة من علية القوم، إذ قدم له أحدهم طباقا (التبغ) ليشره، فقال: لا أدخن اليوم فإني صائم، فقال له رئيس إحدى الكليات: عجبا لك! أتبقى على هذه العقائد المتبقية بعد ماتنورت وعظم شأنك، وارتقى عقلك، وكان بين الجالسين فيلسوف من علماء الهنود البوذيين، فلما أرادوا الانصراف قال ذلك البوذي للشاب التركي المصري: إذا كان القد ققابلي في مكان كذا، فلما قابله توجه به إلى كنيسة تقام فيها الصلوات، وفيها رئيس تلك الكلية يصلي، فقال له انظر ماذا ترى؟ قال أرى رئيس الكلية يصلي، قال: لهذا طلبتكم، إن هؤلاء يريدون أن يرجعونا عن أديتنا حتى يصطادونا بسهولة فلنحذرهم فإنهم لنا مهلكون محادعون اه.

وأقول: لقد قرأت في جرائدنا المصرية اليوم أن كثيرا من علماء فرنسا، ومدرسي الكليات، وعلماء الأدب والحكمة قد أرسلوا خطابا إلى العسكر المحاربين ييلاد مرا كمش، يحضونهم على مواصلة القتال لاستعباد المسلمين هناك، فهؤلاء من الذين حذرنا الله منهم، ووجب على المسلمين أن يفهموا أهل أوروبا فإنهم يريدون هلاك المسلمين وابتلاعهم.

لطائف هذه السورة

الأولى في قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لاتخذوا عدوي وعدوكم أولياء».

الثانية في قوله تعالى: «فامتنحوا من الله أعلم بلوعانهم».

اللطيفة الأولى

إن آثار هذه الآية اليوم ظاهرة في مصر والشام والهند، وأظهر حركات اليقظة بادية اليوم في بلاد الهند قد جاء في جرائدنا المصرية يوم ٢ فبراير سنة ١٩٣٢ م ما ملخصه أن الكتلة الوطنية هناك قائمة بحركة الصياليين للذي: أي إنهم لا يريدون أن يشتروا شيئا من تجار الإنجليز، والإنجليز يذبحونهم الضباب الشديد،

ولكن هؤلاء لا يزالون بما يصيبهم حفظ الحريتهم، وحباً لبلادهم، وقد زاد الانجليز عليهم الظلم، فأمروا بالأخذ بمجرد الشبهة بدون تحقيق.

وبالجملة فإن المقالة قد ختمت بهذه العبارة: « وهذا السلاح الاقتصادي الوحيد هو الذي يشجع الكثيرين على الاعتقاد أن أشد الحكومات إرهاباً وسطوة لابد وأن نغني رأسها في النهاية أمام الحركة الوطنية الهندية، حتى إن الذين يعتقدون بأن مذهب غاندي خشن وقديم، ويرجع إلى عدة أجيال إزاء التقدم المصري أصبحوا الآن من الساخطين على أساليب الحكومة الحاضرة » وهذا أشبه بقبس من قوله تعالى: « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء » وبهذا تم الكلام على اللطيفة الأولى، والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الثانية في قوله تعالى

« فامتنوهن الله أعلم بآمنهن »

حضر صديق العالم الذي اعتاد مباحثي في هذا التفسير، فقال: لقد تقدم في (سورة الحجرات) عند آية: « أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى » إني سألتك في أمر امتحان النساء والرجال، وقلت لك مامعناه: إن الله عز وجل شرع الامتحان، وامتنح القلوب كما في (سورة الحجرات) وأمرنا أن نمتحن المؤمنات كما في هذه السورة، فالامتحان إذن مشروع في الجملة، ولقد ذكرت أنت قبل صفات الرجل الكامل وما شابه ذلك. فحفظني ذلك أن أسألك في هذا الموضوع، فهل ما يشاع من أن الحكومات تريد بحث جسم الرجل وجسم المرأة، أما قوبان، وهل بهما عاهة أو مرض؟ وهل هناك عارض عرض لها يجعل ذريتهما ضعيفة كداء الزهري وغيره؟ ولكنك أحلتني على هذه السورة، وإني أسألك فيها، فقلت: أتذكر ذلك، وهماو ذا الجواب:

اعلم أن الله عز وجل أعطي جميع الناس والحيوان في الأرض قوة يحكمون بها، لحكم الحيوان ظاهري بالفرزة، والقصور من وجود الأرواح في هذه الأرض كالمسا، ولا كمال إلا بالعقول، ولا عقول كاملة إلا في أجسام قوية، ولا منفعة لعقول وأجسام قويتين إلا مع حسن الأخلاق التي بها كمال العاشرة. وإذا كان الرجل لا يكفل إلا بقوة بدنه، وحسن خلقه، ورجاحة عقله، وهكذا المرأة، فوجب أن ينظر في أمر الزواج نظراً محدوداً بحيث تسكون الأخلاق والأجسام والعقول سالحة للمشاركة في الحياة، وهذه يستحيل أن يحددها القانون. وقد جاء في شريعتنا في مذهب الشافعي أن الجنون والجذام والبرص كلهن مبيحات فسخ العقدة واقتراق الزوجين، والتفصيل في الفقه، وليس هذا محله. إذن أيها الصديق شريعتنا المطهرة لم تدر هذا الباب أيضاً، فالجنون مرض في العقل، والجذام مرض في الجسم، ولا جرم أن الأخلاق بضعفها ضعف الجسم، كما بضعفها أيضاً ضعف العقل.

وعليه أقول: إن هذا اللقاع لا يموزه كثير عناء، فلي العقلاء بعدنا أن يبحثوا هذا الموضوع، وأن يفكروا في أقوال الأئمة ويلخصوها، ويرجعوا لأصل الدين ومقاصده، وليبنوا أحكامهم الاجتهادية على ذلك الأصل، وعلى ما استتجوه منه، ولتكن الأحكام على مقتضى ما يصل إليه نظرهم، وما يفتح الله به عليهم، فليس لي الآن أن أحكم بما لم أشاهد من أحوال ستكون في المستقبل، فلكل مقام مقال، والله جعل ديننا بسراً « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » فديننا يسر، واليسر والعسر تعرفه العقول في كل زمان بحسبه، مع حفظ أصل الدين، والمحافظة على أساسه وقوانينه « والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ».

قال حسن هذا، ولكن أريد ضرب مثل يقرب لي هذا المقال ؟ قلت :

اعلم أن الله عز وجل أودع في الإنسان وفي الحيوان كما قدمت لك قوة بها يحكم على ما يراه، وهو موافق أم مباين ؟ والحكم بالفرأز لا يعوزه نصب ولا بحث عميق، فالحشرات ترى النار فتسرع إليها حيثما، فتقع فيها تموت، وهي إنما قصدت الضوء ولم تقصد الاحتراق، فهي حفظت شيئاً وغابت عنها أشياء، وما من رجل أو امرأة إلا وهو يفرق بين من يحب ومن لا يحب ممن يريد أن يصاحبه أو يعاشره. فالرجل يري المرأة فيعجبها جمالها فيتزوجها، وأصل الوضع الإلهي أن حسن الشكل وصباحة الوجه واعتدال القامة، كل ذلك منشؤه الصحة، ومق كانت للرأة صحيحة الجسم والولد كذلك كان النسل على مقتضاها، فإذا رأينا الشاب يهوى شابة لبهجة جمالها، فهما لم يطلبوا إلا قضاء شهواتهما المبنية على بهجة الظواهر، والحكمة الأصلية بقاء النسل الخيوة تحت تلك المظاهر البراقة المهيبة المنعشة، يريد الله بقاء النسل بهذه المظاهر، ويريد الإنسان بها التمتع .

هاهنا تقابل المقصدان: المقصد الإلهي، والمقصد الإنساني الحيواني . الله يريد بالزواج أو أي اقتران الولد وهو الذي سلط الشهوة المنبعثة بسبب نتائج الصحة على الحيوان والإنسان . هاهنا تقابل المقصدان ورجعا إلى نقطة واحدة، صانع يريد أن تكون صنعة في الولد متقنة، وذو شهوة يريد أن يكون المشتغى مقبولاً، قبول الصورة للتمتع . وقبولها لجودة الدرية أحداً وبهما نال الحيوان شهوته، وأجاد الله صنعة، هذا أصل الصنع الإلهي في كل حيوان ومنه الإنسان .

الله أكبر : حصل اقتران وزواج واختلاط على أي سبيل كان وبأي وسيلة، ولكن ليس ذلك بكاف لنوع الإنسان، لأن أحواله غير أحوال الحيوان، فإن أحواله مختبطة مختلطة، مشتتة متشعبة، لا تجزيه نظرة ولا تكفيه لحظة، وإذا كنا نراه لم يكنف في تعاطي الطعام والشراب بمجرد لذته وحسن ظواهره، بل رأيناه يحد في البحث ويقاسي الأمرين في الدقة، حتى إنه في أيامنا هذه أخذت أوضاع الطعام والشراب تتغير وصار ما كان خيراً بالأمس شراً اليوم، وما كان مقبولاً أصبح مردولاً .

الله أكبر : ألم يصبح الخبز المنخول الذي تصنع منه القطائر وأنواع الرقاق وأمثالها مردولاً مبغضاً مكروها يحدث الإمساك والمرض . إذن لذة الطعام ليست بدالة على جودته . أليس الخبز الذي فيه نخالته بحيث لا ينخل هو الذي أصبح للعول عليه الآن في الصحة . وهذه النخالته وما معها مما يسميه الناس (السن) في بلادنا المصرية يصبح الخبز نافعا في الصحة، لأن ما يرميه الناس هو الذي فيه قوة الأبدان وصحتها، ويتبع ذلك قوة العقل، ومق نخل الدقيق كان الخبز المصنوع منه أقل تغذية، وهو يوجب الإمساك، والعكس بالعكس .

وإذا كان طبخ الطعام أصبح اليوم في كشف الطب الحديث من مسببات الأمراض، وكذلك السكر، بل الأطعمة الطازجة التي لم تدخل النار في إنضاجها كالحضرة والفاكهة هي النافعة في الصحة على شرط النظافة .

أقول: إذا كان الأمر كذلك في الطعام وقد تغير الرأي الآن فيه، ومعلوم أن البدوي الثر الجاهل في البادية أسعد وأصح بدنا من التعلّم للترف للتمتع، والعالم الجليل، والفيلسوف العظيم، والملك الكبير، فكل هؤلاء يأكلون متبعين عادات أسلافهم، يتغالون في التفتن في المأكل والشرب، ويتبع ذلك ضعف أبدانهم، وسقم أجسادهم، وموت إحساسهم، ثم موتهم الأدبي، ثم الطبيعي، ويتبع الجليل الجليل، والملك الملك، والعالم العالم، وهم يرون أهل البدو في سعادة لأنهم يقللون البذخ في طعامهم وشرابهم، فأمامهم فانهم لا يذكرون

ولا يقفون ، ويميشون ويموتون ، وهم ساهون سامدون لاهون ، فجاء العلم الآن وقال : أيها النائمون : استيقظوا أتم غافلون ، هذه اللذة معناها أنكم تمرضون وتموتون في عناء .

أقول : إذا كان الأمر كذلك في الطعام والشراب أفلا يكون كذلك في اقتران الرجل بالمرأة ؟ فنقول : إذا كانت لذة الطعام لا يكتفى بها في جودته ، فأحربنا ألا نحكم ظواهر الجمال في صلاحية المرأة للحياة الزوجية وإذا كان الطبيب لا يكتفى في معرفة المرض بما يسمعه من وصف مريضه ، ولا بما يسمعه بواسطة آلة السمع التي يسلمها على دقات قلبه ، ولا بما يراه من لون بوله ، ولا بحس نبضه ، بل نراه يسلم الأشعة على بعض أعضائه لتتخرق الأشعة جلده ، وتتغلغل في جسمه ، فتظهر لنا ما خفي عنا ، وحينئذ يحكم على حال المريض ويصف الدواء :

حقيق بنا ألا ندع بابا من أبواب البحث إلا ولجناه ، ولا طريقا من طرق التدقيق إلا سلكناه ، فليبحث الرجل ، ولتبحث المرأة ، ولينظرا في أمرها ، أفى أحدهما مرض معد ؟ أو ضعف قوة عقلية أو جسمية ؟ وهل ذريتهما إذا حصلت تكون ضارة بالمجتمع لما فيها من المرض المعدى . وإذا لم تكن ضارة من هذه الجهة هل تكون على الأمة لضعف أجسامها ، أو لضعف عقولها ؟ وهل يكون ضررها أكثر من نفعها ، أم بالعكس ؟ وكل ما كان ضرره أكثر من نفعه يجب الاحتراس من بقائه ، لأننا نرى الحكمة الإلهية ، والميزان المنصوب في السماء والأرض ألا موجود إلا على هذه الشريطة نفعها أكثر من ضررها .

هذا هو المثل الذي ضربته لك أيها الأخ الذكي ، وعلى العلماء بعدنا البحث والتدقيق بكل ما أوتوا من علم ، وما نالوا من حكمة ، والله هو الولي الحميد ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، فاكثري صاحبي بذلك وقال : الحمد لله رب العالمين .

انتهت الطيفة الثانية ، وبها تم تفسير (سورة المنتحة) .

تفسير سورة الصف

هي مدنية

آياتها ١٤ - نزلت بعد التغابن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْمَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَعْمَلُونَ * إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَتْهُمْ بَنِيَانٌ مَرْصُوصٌ * وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَوَدُّونَنِي وَقَدْ تَمَلُّونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ * وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ

مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ
 بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ • وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى
 إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ • يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ
 مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ • هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ
 عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ • يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ
 مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ • تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ
 ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ • يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ
 تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِينٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ • وَآخِرَى
 تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ • يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ
 اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ
 اللَّهِ فَتَأَمَّنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتِ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ
 فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ •

وهذه السورة فيها لوم وتعنيف على مخالفة الفعل والقول ، فإنهم وعدوا الصدق في القتال فولوا يوم
 أحد ، وفيها ذكر ما يحبه الله من القتال ، وفيها ذكر موسى وعيسى عليهما السلام .

تفسير بعض الألفاظ

بسم الله الرحمن الرحيم

(سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم) تفسيره معلوم (لم تقولون ما لا تفعلون)
 إذ قلتم لو علمنا أحب الأعمال إلى الله تعالى لبدلنا فيه أموالنا وأنفسنا ، فأُتِلَ اللهُ : « إن الله يحب الذين
 يقاتلون في سبيله صفا » فوليتهم يوم أحد (كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) القت أشد البغض (صفا)
 مصطفين (كانهم ببيان مرصوص) في تراصهم من غير فرجة ، والرص اتصال بعض البناء ببعض واستحكامه
 (وإذ قال موسى) أي واذكر إذ قال الخ (لم تؤذوني) بالصبيان والقذف بما ليس في (وقد تعلمون أني
 رسول الله إليكم) أي بسبب ما جئتمكم به من المعجزات (فلما زاغوا) عن الحق (أزاغ الله قلوبهم) صرفها عن
 قبول الحق واللبيل إلى الصواب (والله لا يهدي القوم الفاسقين) هداية توصلهم إلى معرفة الحق (مصدق لما
 بين يدي من التوراة ومبشرا) حالان (اسمه أحمد) يريد محمدا صلى الله عليه وسلم . بقول عيسى : إن ديني

مصدق بالكتب الإلهية السابقة التي أشهرها التوراة وبآخر الرسل وهو محمد صلى الله عليه وسلم (ومن أظلم
 ممن اتقى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام) أي لا أحد أظلم ممن يدعى إلى الإسلام فيضع موضع
 إجابته الاقتراء على الله بتكذيب رسوله صلى الله عليه وسلم (يريدون ليطغثوا نور الله) أي أن يطغثوا، واللام
 مزيدة للتأكيد، ونور الله دينه أو كتابه أو حجته (بأفواههم) بطعنهم (وأنه متم نوره) مبلغ غاية بشره
 وإعلائه (ولو كره الكافرون) أرغاماً لهم (أرسل رسوله بالهدى) بالقرآن (ودين الحق) للقرآن الحنيفية (ليظهره
 على الدين كله) ليعليه على جميع الأديان (ولو كره المشركون) لأنهم لا يحبون إلا الإشراف، وهو فيه التوحيد
 المحض. وقوله (تؤمنون بالله ورسوله) مستأنف لبيان التجارة النجية من عذاب أليم. وذلك أمران: إيمان
 مكمل للنفس، وجهاد مكمل للغير (ذلكم) أي ما ذكر من الإيمان والجهاد (إن كنتم تعلمون) أي إن كنتم
 من أهل العلم، فإن هؤلاء يعلمون أن الإنسان عليه أمران تكميل نفسه وإكمال غيره. ثم قال: أن تؤمنوا
 وتجاهدوا (يفغر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك
 الفوز العظيم) ثم قال: ولكم إلى هذه النعمة المذكورة نعمة أخرى عاجلة محبوبة، وهذا قوله (وأخرى
 تحبونها) ثم أبدل من أخرى قوله (نصر من الله وفتح قريب) عاجل أي تنصرون على قريش وتمتحن لكم
 مكة وما بعدها من البلدان وفي قوله «تحبونها» شيء من التوبيخ على حجة العاجلة (وأنبئ المؤمنين) معطوف
 على تؤمنون: أي كأنه يقول: آمنوا وجاهدوا أيها المؤمنون، وجرم أيها النبي بما وعدتهم عاجلاً وأجلاً
 (من أنصاري إلى الله) أي من جندي متوجهاً إلى نصرته الله (نحن أنصار الله) أي الذين ينصرون الله،
 والحواريون أصفياء محبون، وهم أول من آمن به، وكانوا اثني عشر رجلاً، وحواري الرجل صفيه من الحور
 وهو البياض الخالص (فأيدنا الذين آمنوا على عدوم) بالحجة أو بالحرب جد رفع عيسى عليه السلام (فأصبحوا
 ظاهرين) أي فصاروا غالبين.
 انتهى تفسير بعض الألفاظ.

إيضاح

كأن الله يقول: كيف تعدون أيها المسلمون وتخلفون، وتماهدون وتفتضون؟ فما أشد اللقت والغضب
 والعقاب على من اتصف بهذه الخلة الشنعاء، والطريقة السوءى، فليكن صل المؤمن مصداقاً لقوله. وهذا
 القول يشير إلى ما حصل للمسلمين اليوم من بوار التجارات، وضياع الأوقات، وذهاب المجد. ويانه أن
 المسلم يستبيح إخلاف الوعد إلا قليلاً من الصادقين. وكذلك الكذب والحلف. والفرجة بين ظهرائنا
 قد أصبحت التجارة في أيديهم بأغلى الأثمان لأنهم غالباً يحفظون الوعد، ويتظاهرون بأنهم صادقون مخلصون
 وقلما يخلفون.

فأما للمسلمون: أي الجهلة منهم، فالحلف ذائع شائع، والكذب وإخلاف الوعد كل ذلك مباح في نظرهم
 لتلك تنصرف الناس عنهم ويتوجهون إلى مجال الفرجة التي يقولون فيها إن الثمن محدد، مع أنهم يملونه أضعافاً
 مضاعفة، وليكن صدق القول وعدم إخلاف الوعد هما الخلتان اللتان اتصف بهما الفرجة بيننا، مع نظافة
 محالهم وحسن اللقاء والبشاشة. وأم هذه الأوصاف صدق الوعد الذي من خلفه وقع في أشد النضب، وهو
 مقت الله، وأي مقت أشد مما نحن فيه الآن؟ أصبحنا لا يأمن بعضنا بعضاً إلا قليلاً. فبارت التجارة، وقلت
 الأمانة، هذا من اللقت التي حل بأمة الإسلام اليوم.

يطلب الله منا أن تطابق أفعالنا أقوالنا ، وأن نكون صفا واحدا في قتال العدو . ومقتضى ذلك أننا نكون صفا واحدا في أمور الحياة كلها ، فلاجهاد لإلامع نظام الأحوال الداخلية ، وجميع مرافق الحياة . فالجندي في الحرب محتاج للطرق الحديدية ، ومقابلها من زراعة وتجارة وصناعة وأمن ومدارس ، وهذا كله لا يكون إلا بحكومة منظمة تحفظ البلاد . وهناك يكون الاتحاد ، والاتحاد هو الذى عليه نظام هذا العالم . فهذا هو سر قوله تعالى : « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا » ثم أتبع ذلك بخرنين :
الغرض الأول : أن يوقع اليأس في قلوب الكافرين من محاولتهم إضعاف الإسلام ، وأن الله سيظهره ، وأن يسلى النبي صلى الله عليه وسلم على كفر من كفر .

الغرض الثانى : تحريض المسلمين على كمال أنفسهم ، وتكميل غيرهم ووعدهم بالنصر . فقال فى الغرض الأول ما يفيد أن موسى أرسل لقومه فزاعوا عنادا فحتم الله على قلوبهم لأن الأعمال الظاهرة من الأقوال والأفعال لها آثار تقع فى القلب ، فتكسبه نورا تارة وظلمة أخرى ، وهؤلاء زبهم عن الحق ، وعنادهم أكسب قلوبهم ظلمة فحتم عليها . وهكذا عيسى عليه السلام جاء مصدقا بالتوراة مبشرا بمحمد صلى الله عليه وسلم فكفر به قومه ، فليكن لك يا محمد أسوة بمن سبق من الأنبياء فقد صبروا على إيذاء قومهم وتكذيبهم . ثم قال : وإن الله قضى أن من قام بالحق منصور . فهل يتصور هؤلاء أن يمنع الهداية عن عباده : إن الله حكيم أن يرفع منار الحق ، ويهدم بنيان الباطل ، إذ لا يبقى إلا الأصلح للوجود . فليس يؤخر الله رقى الإنسان لأجل طائفة تكره الفضائل .

والغرض الثانى كأن الله يقول فيه ، أيها المسلمون : الإيمان بالله والجهاد هما الخلتان اللتان بهما تخوضون فى الدارين ، إذ لا فوز فى الدنيا ولا فى الآخرة إلا بعلم وعمل ، والإيمان أفضل مافى العلم ، والجهاد أفضل مافى العمل ، فلتكن فيكم الخصلتان أضمن لكم ثلاث خلال : غفران الذنوب ، ودخول الجنة ، والنصر للصحاب بالفتح قريبا ، ولتقتدوا بحوارى عيسى إذ قالوا : « نحن أنصار الله » ونصرناهم على أعدائهم فأصبحوا ظاهرين عليهم ، ولا جرم أن النصرارى ظاهرون على اليهود إلى الآن ، وإلى يوم القيامة ، هكذا ستكونون أيها المسلمون ظاهرين على أمم العالم قاطبة ، هذا معنى هذه السورة .

أقول : ولكن فى هذا الزمان لا ظهور للمسلمين إلا قليلا ، ذلك لأنهم لم يقوموا بالصدق والجهاد ، والجهاد لا يتم إلا بنظام تام فى الدولة كما تفعل الأمم المحيطة بنا .
ثم لتعلم أيها الذكى أنى موقن أن هذا التفسير سيكون من دلائل الرقى الإسلامى المنتظر قريبا ، وأن الله سيؤيد الدين بشهره ، وأنه سيرؤه الأذكىاء من المسلمين فى حياتنا وبعد موتنا ، وستكون لهم آثار حسنة .

إن وعد الله حق ، وقد وعد المجاهدين بالنصر ، والجهاد يبتدىء من تعليم الصبيان فى الكتائب ، إلى المزارع والحقول ، إلى التجارة ، إلى إنشاء الطرق والتلغراف (البرق) إلى صنع الطيارات والمدافع ، إلى علم السياسة والعمران والاقتصاد ، كل ذلك من الجهاد ، وتمامه غلبة العدو وحفظ البلاد ، وقد تضمن هذا التفسير ذلك كله ، وحض عليه ، فلتكن مجاهدا بما سمعت ، ولتحرض للمسلمين على الأخذ بأسباب العمران والرقى ، فهذا أوائل أسباب الجهاد ، بل لاجهاد إلا بعلم ، فاذا لم يكن علم فلاجهاد ، كما هو حاصل فى الإسلام اليوم .

جهلوا جميع العلوم التى بها الحياة فناموا فأخذتهم الفرنجة ، فأول كل شىء فى الجهاد اليوم هو العلم ، هو بث الفكرة ، إن العالم اليوم هو المجاهد الأكبر ، هو الذى يحيى ما اندرس من المجد ، فاذا كانت هذه حال

العلم أفلا أقول لك بحق إن الله سيذيع هذا التفسير وينشره ، وينشر نظيره من آراء أرباب الأفكار الثاقبة في مصر والهند وجميع بلاد الإسلام ؛ ويقرؤه ويقرؤها الأذكاء من المسلمين ، ويخرجون الناس من الظلمات إلى النور ، نعم هذا سيتم حقا كما قال تعالى : « والله من نوره » وكما قال : « ليظهره على الدين كله » .
أقول : ولا أخشى في الحق لومة لأثم إن ظهور الإسلام سيكون في الأزمان المقبلة ، وسيظهر فضله .
ويعلو شأنه .

أبها الذكي : كن عبد الربك مخلصا له ، واقصد بالإسلام منفعة الجنس البشري كله وللمسلمين خاصة ، وتعرف هذا من سابق هذا التفسير ، ثم إن قوله تعالى : « ومبشرا برسول يأتي من بعدى اسمه أحمد » .
قد تقدم الكلام عليه في (سورة البقرة) و (آل عمران) وغيرهما تقلا عن أنجيل برنابا ، فلارجع إليه هناك إن شئت .

وإلى هنا تم الكلام على سورة الصف ، والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة الجمعة

هي مكة

آياتها ١١ - نزلت بعد الصف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * هُوَ
الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ * مَثَلُ الَّذِينَ
حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْجِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا
بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ
أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَا تَتَمَنَّوْا أَنْ تَكُونَ
أَوْلِيَاءَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ بِالظَّالِمِينَ * قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ
تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا

فُودِي لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْمَعُوا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ وَمَنْ التَّجَارَةَ وَاللَّهُ خَيْرٌ الرَّازِقِينَ *

هذه السورة مناسبة لما قبلها تمام المناسبة ، إن في السورة السابقة الأمر للمؤمنين بالجهاد وأن يكونوا صفا كأنهم بنيان مرصوص ، وفيها توبيخهم على أنهم وعدوا أن يقدموا في الجهاد أنفسهم وأموالهم فولوا الأدبار يوم أحد ، فأمر الله المؤمنين في هذه السورة بالسعي إلى ذكر الله وصلاة الجمعة ليكونوا صفا منظمة فيها كصفوف الحرب ، وعنفت اليهود ووجهم على أنهم حملوا التوراة ثم لم يعملوها كمثل الحمار ، وليس ذلك خاصا باليهود ، بل كل أمة تركت مقاصد دينها ، ولم تعمل فهي كالحمار ، فذكرها هنا ليذكر المسلمين كيف يقولون ما لا يفعلون ، فإذا أصبح ذلك خلقا فيهم والعباد باقوا أصبحوا مثل اليهود يحملون الكتب ولا ينتفعون بها ، فلم يواجه الله المسلمين بذلك بل وكلها إلى الفطن والعقول الذكية ، وأيضا ذكر في السورة السابقة التجارة الأخروية الراجعة بالجهاد ، وهنا ذكر التجارة التي هي دنيوية ، وهذه السورة مبدوءة بما يفيد أن النبي صلى الله عليه وسلم مرسل للأمة ولأن بدم إلى يوم القيامة ، وبلى ذلك ذم اليهود على عدم عملهم بكتابتهم ، وبلي وجوب السعي لنداء الجمعة وتوبيخ من لم يسارع إليها . ولنتشرع في تفسير السورة فنقول :

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(يسبح لله ما في السموات وما في الأرض للذك القديس العزيز الحكيم) فكل شيء في السموات والأرض إذا نظرت إليه ذلك على وحدانية خالقه وعلى تنزيهه ، وجميع الأشياء مسخرة له مقهورة ، فالنسيج إما دلالة للعقلاء ، وإما حصول الآثار في الأشياء المسخرة لله (هو الذي يث في الأميين) هم العرب ، والأمة هو الذي يكون على ما خلق عليه كأنه منسوب إلى أمه (رسولا منهم يتلو عليهم آياته) مع أنه هو نفسه أمي مثلهم (ويزكهم) يطهرهم من دنس الشرك (ويعلمهم الكتاب) أي القرآن (والحكمة) السنة (وإن كانوا من قبل) من قبل إرسال محمد صلى الله عليه وسلم (لئلا ضلال بين ، وآخرين منهم) أي من المؤمنين ، وهم المؤمنون إلى يوم القيامة من جميع الأمم ، ومنهم الفرس .

روى عن أبي هريرة رضى الله عنه ، قال : [كنا جلوسا عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ نزلت سورة الجمعة فتلاها ، فلما بلغ : « وآخرين منهم لما يلحقوا بهم » قال له رجل يارسول الله : من هؤلاء الذين لم يلحقوا بنا ؟ فلم يكلمه حتى سأله ثلاثا ؛ قال : سلمان الفارسي فينا ، فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على سلمان وقال : والذي نفسي بيده لو كان الإيمان بالتريا لتناولوه رجال من هؤلاء] أخرجاه في الصحيحين وقوله (لما يلحقوا بهم) أي لم يلحقوا بهم بعد وسيلحقون (وهو العزيز) في تمكنه من هذا الأمر الحارق للمادة (الحكيم) في اختياره وتعليمه (ذلك فضل الله) أي ذلك الفضل الذي امتاز به على أقرانه فضل الله (يؤتيه من يشاء) تفضلا وعطية (والله ذو الفضل العظيم) الذي يحقر في جانبه نعيم

الدنيا والآخرة ، فإذا كان محمد قد أرسلته إليكم أيها الأميون وإلى من يأتي بعدكم فإني أمرهم أن يعملوا بالكتاب ولا يكونوا كاليهود الذين لم يعملوا بكتابتهم ، وهو قوله (مثل الذين حملوا التوراة) أي علوها وكلفوا العمل بها (ثم لم يعملوها) لم يعملوا بها ولم ينتفعوا (كمثل الحمار يحمل أسفارا) أي كتبنا من العلم يتعب في حملها ولا ينتفع بها ، وقوله « يحمل أسفارا » صفة لآجال ، لأن الحمار لم يقصد أن يكون معنا (ينس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله وأنه لا يهدي القوم الظالمين) وهم اليهود ، والمخصوص بالذم محذوف ، ثم إن شأن من لم يعمل بالكتاب الذي أنزل إليه أن يكون غافلا جاهلا محبا للحياة الدنيا تاركا للآخرة ، فأعقبه بما يدل على ذلك بأوضح سبيل كأنه يقول : أيها الناس : أتم كالحمار ، فلا عقل ولا تكبير ولا هدى ولا كتاب منير ، ولو كنتم مهديين ولحقق عارفين لفرحتم بالموت وتمنيتم لقاء الله ، ومن كره لقاء الله كره لقاءه ، فنشوا في صدوركم ، وانظروا ما نقش في قلوبكم ، وسأوا ضامركم ، ألسنتم للموت كارهين ولقاء الله مبغضين ، وللحياة محبين ، ولو كانت الأعمال مرضية ، والنفوس مضيئة قوية ، مشرقة بنور ربها لأعرضت عن الدنيا إعراضا ، وفرحت بلقاء الله ، وتمنت الموت ، والموت باب يدخله الله المحبون ويلججه بسرور وفرح الصالحون ، ولكنكم لا تحبون الموت لما ران على قلوبكم من الحباثت ، وما حتم عليها وهذا قوله تعالى (قل يا أيها الذين هادوا) تهودوا (إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين) كانوا يقولون : نحن أبناء الله وأحباؤه : أي إن كان قولكم حقا وأتم على ثقة منه فتمنوا على الله أن يميتكم وينقلكم سريرا لتحفظوا بكرامته ، وتفرحوا بإسماعه ، والتمتع بالنظر إلى وجهه الكريم (ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم) بسبب ما قدموا من الكفر والمعاصي (والله عليم بالظالمين) فيجازيهم (قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملائكم) أي لا ينفكم الفرار منه ، فما الإنسان في الدنيا إلا كما قال طرفة بن العبد :

لَمَمَرْتُكَ إِنَّ الْمَوْتَ مَا أَخْطَأَ الْفَقَّ لَكَا الطُّوَلِ الْمُرْتَحَى وَثِيغِيَاءُ بِالْيَدِ

مَتَى مَا يَشَأُ يَوْمًا يَقْدُهُ سَلْطِنُهُ وَمَنْ يَكُ فِي حَتْفِ الْمَنِيَّةِ يَنْقَدُ

وقوله (ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) فيجازيكم عليه (يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة) أي إذا أذن لها عند جلوس الإمام على المنبر للخطبة (من يوم الجمعة) أي في يوم الجمعة ومضى بذلك لاجتماع الناس فيه للصلاة ، وكانت العرب تسميه العروبة (فاسعوا إلى ذكر الله) فامضوا إليه مسرعين قصدا ، والسعي دون العدو ، والذكر الخطبة ، أو الصلاة (وذروا البيع) وأتركوا المعاملة (ذلكم) أي السعي إلى ذكر الله (خير لكم) من المعاملة في ذلك الوقت (إن كنتم تعلمون) مصلح أنفسكم ، أو من أهل العلم (فإذا قضيت الصلاة) أدبت وفرغ منها (فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله) كعبادة المريض ، وحضور الجنائز ، وزيارة الإخوان في الله ، وطلب العلم ، والتصرف للتجارة ، وهذا الأخير هو المباح ، وما سواه مندوب أو واجب .

وعن عراك بن مالك : أنه كان إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد ، وقال : اللهم أجب دعوتك ، وصليت فريضتك ، وانتصرت كما أمرتني ، فارزقتي من فضلك وأنت خير الرازقين .
وقوله (واذكروا الله كثيرا) واذكروه في مجامع أحوالكم ، ولا تخصوا ذكره بالصلاة ، بل اذكروه قايما وقعودا ومضطجعين ، والطاعة أيضا من أنواع الذكر (لعلكم تفلحون) .

روى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخطب للجمعة ثم يبعث من دقيق وبر وزيت وغيرها ، قدم بها دحية بن خليفة الكلبي من الشام بالتجارة ، وكان إذا قدم لم يبق عائق بالمدينة إلا آتته ، ثم يضرب بالطبل ليؤذن الناس بقدمه فيخرج إليه الناس ليلتاعوا منه ، فخرج الناس إليه إلا اثني عشر ، فنزلت (وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها) أي إذا رأوا تجارة تفرقوا إليها ، أو لهوا تفرقوا إليه ، واللهو هنا الطبل للذكور (وتركوك فأعما) على النبر (قل ما عند الله) من الثواب (خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازيين) إذ لا يغوتهم رزق الله بترك البيع ، فهو خير الرازيين . انتهى التفسير اللفظي للسورة كلها ، والمجد لله رب العالمين .

في هذه السورة لطيفتان

- (١) في قوله تعالى : « فتمنوا اللوت إن كنتم صادقين » .
 (٢) في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسمعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » .

اللطيفة الأولى في قوله تعالى :

« فتمنوا اللوت إن كنتم صادقين »

اعلم أن في هذه السورة تبيان حقيقة الولاية وشرح أصولها ، وأحوال الأمة الإسلامية ، ويانه أن الله ابتداء السورة بأن الأمة الأمية أرسل الله لها رسولا أميا ليتلو عليهم الكتاب ويعلمهم ، ثم أردف ذلك بدم اليهود على أنهم أعطوا الكتاب فلم يعملوا به فأصبحوا كالحجر ، ولاداعي لذلك في كتابنا المقدس إلا إذا كان لتهديتنا ورقينا وإسعادنا ، إن القرآن ذكر للعالمين ، وليس مجرد ذم اليهود بدون فائدة لنا وإنما ذمهم بأنهم حير تلميحا لنا إذا خالفنا وتمريضا بالأمة الإسلامية النائمة اليوم الذين ناموا عن العلم بالحكمة ، وللأمة الإسلامية مراتب ثلاث الأولى أنها حين أنزل عليها القرآن كانت بدوية فكانت تلقن الكتاب تلقينا (الثانية) أنها بعد اتساع الملك أصبحت دارسة للملوم مدة بالمعارف الواسعة (الثالث) أن يصفى الله منها أناسا يكونون واقفين على أسرار هذا الوجود ، محبين لربهم ، عاشقين له ، مولعين بالآخرة ، متمنين أن يكونوا معه ناظرين إلى وجهه الكريم بما قدموا من صالح الأعمال فأول المراتب رمز لها بأول السورة ، وهو قوله : « هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » والثاني رمز له بدم اليهود على عدم العمل بالكتاب ، فإذن هو يمدح العالمين بالكتاب العالمين به ومعرفة الكتاب تتسلم علوم شيء . والثالثة رمز لها بقوله لليهود « قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين » .

واعلم أن هذا هو السر المصون ، والجوهر المكنون والنور المبين والحسن والبهاء ، والإشراق الإلهي الذي أرسله الله للأمة الإسلامية تمليا لهم وتفهيما .

علم الله أن المسلمين سيقعون في هذا الدور الذي أصبحنا فيه ، فأخذ يطننا اليوم ماجهلهنا ٩ ويدرس

لنا ما أغفلناه ، ويذكرنا مانسيناه ، يذم اليهود ويقول إنكم أيها اليهود كالخير - ، لماذا ؟ لأنكم أعظم كتابا فلم تعلموا ما فيه ، وإن علمتم لم تعملوا .

أيها الذكي : قل لي : أليس هذا هو الذي وقعنا فيه الآن ؟ أليست هذه حالنا ؟ أصبحت الأمم كلها في الشرق والغرب متعلمين ، وأمم المسيحية تلاميذ آبائنا هم العلماء في سائر العلوم ونحن أقل الأمم علما ، وأخسهم منها حظا .

باعجبا كل العجب ! أمة يأتي نبيا بلا كتابة ولا قراءة ويقول الله « ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم » ويقول في آية أخرى : « ن ، القلم وما يسطرون » ، وفي أخرى : اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » :

يقول الله « علم الإنسان ما لم يعلم » لعلمه أن كتاب الله يستلزم قراءة جميع العلوم واستيعابها ، أمة هذا شأنها تصيح أقل الأمم علما وأكثرها جهلا ، أمة ينزل القرآن عليها ويحفظه أبناءها عن ظهر قلب ويكتفون بذلك في أكثر البلاد الإسلامية ، وهم عن العلم معزولون ، وعن طريق الرشاد ناكبون ، وفي ميدان الحرب والسياسة مخذولون ، الأسماء ما يصنع الجاهلون ، يكتفون بما دون الأئمة رحمهم الله من علم الفقه ويظنون أنه لاشيء وراءه كذبوا والله ، القرآن بحاله لم يغير منه شيء ، ولم ينسخ ، وهو باق ، فليدرس القرآن وليفهم ، لما وقع المسلمون في هذا الداء الويل قرونا وقرونا أصبحوا عبرة الأمم ، ومثلا في الجهالة والضعف ، ولكن بعد ما بينا في هذا التفسير ، وهكذا كثيرا من علماء الاسلام شرقا وغربا ستكون أمة لم ينجب الدهر مثلها . ومما مثل الأمم الإسلامية المستقبلية إلا كمثل زرع وضع في أرض خصبة لم تضعف تكرار الزراعة فيها ، ثم سقيت وسمدت ، فإن زرعها يكون أسرع نباتا ، وأغزر ثمرا ، وأعظم ثمرا ، ذلك مستقبل المسلمين ، فإنهم سيحيثون عقب أمم نامت نوما عميقا ، والعقول بها لها مهينة مستعدة للعلم والعمل فينبغون ويرشدون ، والله هو الولي الحميد :

السلام على الولاية

علم الله أن المسلمين في القرون المتأخرة سيكثر فيهم السلام في الولاية والأولياء ، فأنزل هذه الآية بشكل لا يكدرك صفو المسلمين ، فلم يقل : أيها المسلمون ، إذا أتمم كرهتم الموت فليستم خواص لله ، لم يقل ذلك ورك الأمر للمقول تفكر فيه ، بل خاطب اليهود وقال لهم : إن كنتم خواص الله حقا فما لكم لا تحبون الموت بقلوبكم ، كلا . أتمم لستم خواص لله ، بل أتمم كمامة الناس تفرون من الموت والموت ملاقيكم . هذا ظاهر القول ، ولكن حقيقة تعليم المسلمين ، فهو من حيث الظاهر ذم لليهود من جهة وتكذيب ومن جهة أخرى تعليم للمسلمين ليعرفهم من هم أولياء الله ،

من هو الولي

اعلم أن النوع الإنساني وكل أنواع الحيوان يكرهون الموت بالطبع كراهة تامة ، إن في الموت قطع اللذات وفراق الأحباب ، والإنسان بعد الموت جيفة فذرة ، يأكله الدود ، وتمافه النفس ، فالموت أكبر المصائب في أرضنا ، لذلك فر منه الإنسان والحيوان ، وهذا الفرار نعمة من الله عليهم ، إن العالم الذي نحن فيه أحيط بالجهالة العمياء ، من جميع جهاته ، وبعض الجهالة نافع . فإذا سلط الله على الحيوان وعلى

الإسنان الجهل بمصيره بعد الموت ، فذلك ليحافظ الحى على حياته ، إذ لو علم أن هناك حياة أخرى في عالم اللطف من هذا السارع إلى الخروج من هذه الحياة مع أن وجود الإنسان في الأرض دروس لابد منها حتى يهتأ له المقام هناك ، حياتنا إذن نعمة وجهلنا بالموت نعمة ، وإنما كان الجهل بالموت نعمة لأننا لانعرف المصالح لضعف قوانا العاقلة ولو كانت عقولنا لعرفنا مصالحنا ، وأن الحياة في الأرض دروس نحافظ عليها ولو كان هناك عالم أجل من هذا وبقى في سجن الأرض حتى يأتي الوقت الذى فيه تفارقها ، ونحن مزودون بالقوى والأخلاق التى تساعدنا على الرقى هناك ، ولكن علم الله أننا لاتقدر على الإحاطة بهذه العلوم ، وأتأنا لأقل مرض أو حزن أو ألم تقادر الأرض وتركها لعلنا أننا أحياء في عالم آخر ولو في أدنى درجات الحياة ، لذلك ترى الإنسان والحيوان كل منهما محبول على كراهة الموت وحب هذه الحياة ، فلا فرق بين المسلم واليهودى والمجوسى والحيوان في هذه الحياة . ولما كانت حياتنا في الدنيا للدراسة والعلم للارتقاء هنا ، وكان ترك الناس بلامذكر بحملهم على التفلة ذكروا تارة بالأنبياء ، وأخرى بالحكماء ، وآونة بعلماء الأرواح ، فيقولون لهم : « إن لكم حياة بعد الموت فجدوا للوصول إليها » وهؤلاء إذا سمعوا هذا القول يعملون كل على قدر جهده وطاقته مع كراهة الموت التى غرست في القلوب ، فترى المسلمين يصلون ويصومون ، وكذا جميع الأمم تعبد على طريقها ، ولكنهم يكرهون الموت لأنه لايقين عندهم بأن هناك حياة بعد الموت : إذا فهمت هذا فلنبحث في معنى (الولى) .

اعلم أن كل مسلم في الأرض ، أو تابع لنبي لم ينسخ دينه ، فهو ولى الله ، قال تعالى : « الله ولى الذين آمنوا » والولى من تولاه الله برعايته وتولى هو الله بطاعته ، فكل مؤمن في الأرض فهو ولى ، وليس المقام في الولاية العامة إنما نحن الآن في مقام الولاية الخاصة كما قال تعالى : « إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين » وهذا يكون الكلام فنقول :

قد علمت نظرية الموت وأنها مبغضة عند جميع الناس ، ولكن في كل جيل وفى كل أمة نبع أناس سارعوا إلى العلم والعمل والدراسة والنظر والفكر ، واطلموا على أعاجيب الخليقة ، وأسرار الطبيعة ، وأدركوا أن هناك جمالا وبهجة وحكمة وعلما ، وأن هذه العوالم تدار بيد لم نرها ، وبحكمة فوق متناولنا فبتشتاقون شوقا حقيقيا ، بل يهيمون هياما ، ويفرطون في العشق : أى عشق تلك الإدارة التى أدارت هذا العالم ، وهؤلاء يحبون النوع البشرى حبا جما فيفيضون الخير عليه ، ويرسلون من قلوبهم أشعة العرفان إلى أقاصيه وأدانيه ، ورون أنهم خلفاء الله في أرضه ، وأنهم بما استكملت نفوسهم من علم ، وبما تحلت جوارحهم من عمل جديرون أن يكونوا آباء للنوع الإنسانى ، فهم إذن خلفاء الأنبياء والقائمون مقامهم ، وهؤلاء يحشم الله أننا فآنا بوظفون النائمين ، وينصحون المستيقظين ، وإذا حرصوا على الحياة فإنما يحرصون عليها للغاية المذكورة ، والأعمال المشكورة . وفى الوقت نفسه يقول الواحد منهم : « رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين » بقولها لا كما تقال الآن بل يكون هذا القول خارجا من النفس بل هو حالها وإن لم ينطق به ، فترى الرجل منهم يعيش ليكمل نفسه ويكمل غيره فإذا علم أنه قد أتم ما عليه ، وأنه لم يبق عنده كمال إلا وقد أخذه عنه تابوه ، فإنه إذ ذاك يحب للموت لعله أن الحياة لم يبق لها قيمة ، وأن روحه قد أصبحت ملائمة لذلك العالم العلوى مناسبة له فتأنف إذ ذاك من البقاء هنا ، وهذه الطائفة القليلة فى أرضنا إذا جاءها الموت كانت مستريحة مطمئنة منسرحة الصدر ، وإذ ذاك تموت موتا يسرها .

هذا هو الولى كما تقدم فى قوله تعالى : « أنت ولى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين »

لأن روحى تناسب تلك الأرواح الشريفة وترتاج لناجاتها ، هذا هو الولي الخاص ، وهذه الطائفة هي التي قال الله فيها : « وقليل من عبادى الشكور » . وقد قلنا في هذا التفسير مرارا أن الأمم الإسلامية سيذبح فيها التعليم وترتقى وتأخذ حظها في الأمم ، ومماثل الأولياء في المسلمين في العصر الحاضر بالنسبة للأولياء في الأجيال المقبلة إلا كمثل جهل المسلمين اليوم بالنسبة لرقى الأمم الإسلامية المستقبلية ، فالأذكيا ، في أمة أشبه بالأمّة ، وكذلك الحكام ، فهذا ولي الله الخاص الذي امتاز عن الناس حوله من مسلمين وغيرهم كما قال تعالى : « إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين » . هذا هو الولي أوضحه القرآن فأما ذلك الذى يفرح بكثرة الأتباع للشهوة أو بتقبيل اليد أو نحو ذلك فإنما هو رجل ابتعد عن ولاية الله واقترب من ولاية الشيطان ، فإن القرب من الله يستدعى احتقار الحياة الدنيا ، وقد قلنا أن هذا لا يكون إلا لمن ذكرناه .

ثم اعلم أيها التلميذ أن عذاب النوع الإنسانى في الدنيا والآخرة إنما يكون بالجهل ، فكل عذاب ناشئ من الجهل ، والعلم هو الذى يمنع العذاب ، ومن عذاب الدنيا أن الموت موكل بنا ونحن له كارهون ، فالنظام العام لا يتغير ، ونحن للنظام العام كارهون ، والكمال يقضى أن تكون العقول تحب ما يقتضيه النظام العام ، ولا سبيل إلى ذلك فى أرضنا كما قدمنا إلا بصرف النفس إلى الكمال العلمى والكمال الخلقى ، فلا تدر حجرا ولا شجرا إلا فكرت فيه ، ولا تدع علما إلا اطلمت عليه بقدر الإمكان ، وابحث عن الأسباب والنتائج ، وفى هذا التفسير ما يغنى اليب ، وفكر فى كل شيء عام وخاص ، وخذ من كل شيء عبرة ، واجعل هذا ديدنك وأحب منفعة الناس بقلبك وبمملك لأن الناس أشبه بنفس واحدة قد تفرقت إلى نفوس كثيرة ، وليكن هذا ديدنك ، فإنك إذا فعلت ذلك وواظبت عليه تجد الله أمامك فى كل أمر ، وتجد بينك ولا يتركك ويأخذ بيدك ولا تزال تتقرب إليه وهو يلحظك حتى تعرف الحقائق التي ذكر فى هذا التفسير بعضها ، وإذن تصبح نفسك موافقة للنظام العام ، فلا ترى فى اللوت إلا خروجا من سجن إلى حرية ، فإن لم تجد فى نفسك هذا اليوم فستجده غدا ، ومن جد وجد ، فأحرص الحرص كله أن تكون نافعا للناس بعلم أو بعمل أو بهمة ، وأن تكون عاشقا للحكمة التي نقشها الله بيده فى هذا الوجود ، وأبرزها فى كل موجود ، وإذن تكون ولي الله حقا ، فلا تخاف ولا تخزن ، وكيف تخزن على ما خلفت وأنت موقن أن الله يحفظه ، أو تخاف من أمر فى المستقبل ، وأنت عرفت الحقائق ، والله هو الولي الحميد . انتهى الكلام على اللطيفة الأولى .

اللطيفة الثانية فى قوله تعالى :

يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة

لأخلص لك أيها التلميذ هنا ما جاء فى الأخبار وأقوال الفقهاء :

(١) - (مسلم) : « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها » .

(٢) - (البخارى ومسلم) : « فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو يصلى يسأل الله شيئا إلا أعطاه إياه وأشار بيده يقللها » .

(٣) - (البخارى ومسلم) : « من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح فى الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة ، ومن راح فى الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ، وذكر فى الثالثة الكبش الأقرن ،

وفي الرابعة الدجاجة ، وفي الخامسة البيضة . فإذا أحرم الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر .

(٤) - (مسلم) : « من توضأ فأحسن الوضوء ، ثم أتى الجمعة واستمع وأنصت ، غفر له ما بين الجمعة والجمعة .

(٥) - (البخاري) : « لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر ما استطاع من الطهور ، ويدهن من دهنه ، ويمس من طيب بيته ، ثم يخرج فلم يفرق بين اثنين ، ثم يصلي ما كتب له ، ثم ينصت إذا تكلم الإمام إلا غفر له ما بين الجمعة إلى الجمعة الأخرى » .

(٦) - (مسلم) : قال صلى الله عليه وسلم لقوم يتخلفون عن الجمعة : « هممت أن آمر رجلاً أن يصلي بالناس ثم أحرق على رجال يتخلفون عن الجمعة بيوتهم » .

(٧) - (الفتاوى) : يجب على كل مسلم حر بالغ عاقل ذكر مقيم إذا لم يكن له عذر في تركها ، ولا الجمعة على صبي ولا مجنون ، ولا على النساء ، ولا العبيد .

(٨) - (الفتاوى) يقول أبو حنيفة : لا الجمعة على أهل السواد سواء أكانت قريتهم قريبة أم بعيدة . وقال الشافعي : يلزمهم إذا سمعوا نداء مؤذن جهوري الصوت ، وحدهم الزهري ذلك بستة أميال ، وربعة بأربعة أميال ، ومالك والليث بثلاثة أميال .

(٩) - التخلف عنها لعذر جائز إذا كان هناك طين ودحس وزلق أو نحو ذلك .

(١) كان النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر ، فلما كان عثمان وكثر الناس زاد النداء الثاني على الزوراء ، وهو موضع عند سوق المدينة ، قريب من المسجد ، ويقال إنه مرتفع كالمنارة .

(ب) السعي إلى ذكر الله بالقلب والحشوع ، وقد نهوا أن يأتوا إلى الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار ، وفي حديث البخاري ومسلم : « إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة وعليكم السكينة والوقار ولا تسرعوا ، فما أدركنم فصلوا . وما فاتكم فأتوا » .

(١٠) - (الفتاوى) : لا تتعقد بأقل من أربعين رجلاً عند الشافعي وأحمد وإسحق ، ابن عمر شرط أن يكون في الأربعين وال ، والشافعي لم يشترط هذا الشرط : على بن أبي طالب شرط أن تكون الجمعة في مصر جامع ، وأبو حنيفة على هذا الرأي .

(١) تعقد عند أبي حنيفة بأربعة ، والوالي شرط عنده :

(ب) الأوزاعي وأبو يوسف قالا تعقد بثلاثة بشرط أن يكون الوالي فيهم .

(ج) الحسن : تعقد باثنين كسائر الصلوات .

(د) ربيعة : تعقد باثني عشر رجلاً .

(هـ) لا تتعقد إلا في موضع واحد من البلد ، وهو قول الشافعي ومالك وأبو يوسف .

(و) وقال أحمد : تصح بموضعين إذا كثرت الناس وضاق الجامع . ورد في البخاري ومسلم أنه

صلى الله عليه وسلم قال : « إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة أنصت والإمام يخطف فقد لغوت » .

هذا هو نهاية الكلام على اللطيفة الثانية في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ، وإذا رأوا تجارة أو لهموا انفضوا إليها

وركوك قائما قل ما عند الله خير من الله ومن التجارة والله خير الرازقين .
 وبهذا تم تفسير (سورة الجمعة) يوم الجمعة ١٩ من ذى الحجة الحرام سنة ١٣٤٣ هجرية . للوافق
 ١ يوليو سنة ١٩٢٥ م .

تفسير سورة المنافقون

هي مدنية

آياتها ١١ - نزلت بعد الحج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ أَرْسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ أَرْسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ
 إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَسَكَاذِبُونَ * اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا
 يَعْمَلُونَ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ * وَإِذَا
 رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ
 صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا
 يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّارَهُ وَوَسَّهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ * سَوَاءَ
 عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
 الْفَاسِقِينَ * هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَاللَّهُ خَزَائِنُ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ * يَقُولُونَ لَنْ نَجْعَنا إِلَى الْمَدِينَةِ
 لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ
 * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ
 يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * وَأَنْفِقُوا بِمَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ
 الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَلَنْ
 يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ *

في هذه السورة مستثنان : وصف المنافقين ، والحض على الإنفاق قبل الموت .

التفسير اللفظي

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(إذا جاءك المنافقون) عبد الله بن أبي وأصحابه (وأنه يعلم إنك لرسوله) كلام مستأنف ليس من كلام المنافقين (وأنه يشهد إن المنافقين لكاذبون) أي في قولهم: «نشهد إنك لرسول الله» لأنهم أضمرُوا خلاف ما أظهرُوا، وكل من أخبر بشيء وهو يعتقد خلافه فهو كاذب، فالكذب هنا مخالفة اللسان للجان (أخذوا أيمانهم جنة) سراً يستترون به من القتل، وقد كانوا يخلفون بأفئدتهم لمنكم ويقولون «نشهد إنك لرسول الله» (فصدوا عن سبيل الله) أي منعوا الناس عن الإيمان والجهاد في السر (ذلك) إشارة للحال المذكورة من النفاق والكذب الخ (بأنهم آمنوا ثم كفروا) أي بسبب أنهم آمنوا ظاهراً ثم كفروا سراً، فتمرنوا على الكفر وصار التلون سجية لهم (فطبع على قلوبهم) حتم عليها واستحكمت الكفر فيها (فهم لا يفقهون) حقيقة الإيمان ولا يعرفون سمته.

ثم وصف هيئاتهم الظاهرة والباطنة. فهم في الظاهر ضخام الأجسام صباحها، ومنطقهم عذب، ولكلامهم عذوبة وحلاوة، وهم في الباطن كأنهم خشبات نخر جوفها، فهي في الظاهر ضخمة حسنة، وفي الباطن فارغة مجوفة، فلذلك ترام جنائهم، حتى إذا سمعوا منادياً ينادي، أو انقلبت دابة، أو نشدت ضالة، ظنوا أنهم هم المقصودون، وأن أمرهم افتضح، فهم سبهانون، لأن المريب يكاد يقول خذوني، والسارق يكاد إذا رأى القيد أن يقول ضعوني، فخذ حذرَكَ منهم فإنه كافيك أمرهم ولا عنهم، وهذا قوله تعالى (وإذا رأيتهم تمججك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة) الخشب جمع خشباء، وهي الخشبة التي نخر جوفها، شبهوا بها في حسن النظر، وقبح الخبر، فهم كأشباح بلا أرواح، أو أجسام بلا أحلام، ومعنى «مسندة» أي إلى الحائط فليست بأشجار مثمرة ينتفع بثمرها وغيره في المستقبل (يحسبون كل صيحة) واقعة (عليهم هم العدو فاحذرهم) لأنهم منهمون، وقوله (قاتلهم الله) دعاء عليهم كأنه سبحانه يطلب من ذاته أن يلعنهم (أني يؤفكون) أي كيف يصرفون عن الحق (وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لو آوا رؤسهم) أي أمالوها وأعرضوا بوجوههم رغبة عن الاستغفار، وقوله (يصدون) أي يمرضون عما دعوا إليه (وهم مستكبرون) عن الإيمان.

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين لقي بني الصطلق على الربيع وهو ماء لهم وهزمهم وقتلهم ازدحم على الماء رجلان: رجل يقال له (جهجاه) وهو أجبر عمر، ورجل يقال له (سنان الجهمي) وهو حليف عبد الله بن أبي واقتتلا، فصرخ جهجاه وقال بالمهاجرين، وسنان قال بالأَنْصار، فأعان جهجاهما رجل من المهاجرين ولطم سنانا فقال عبد الله للمهاجر: ما محبنا محمداً إلا لناطم، والله ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال: (سمن كلبك يأكلك) أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعرز منها الأذل (يريد بالأعرز نفسه وبالأذل رسول الله صلى الله عليه وسلم) ثم قال لقومه: لو أمسكتم عن هذا وذوبه فضل الطعام لم يركبوا رقابكم، فلا تفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق يا رسول الله، قال إذن ترعد أنف كثيرة ييثر، قال فإن كرهت أن يقتله مهاجر فأمر به أنصاريًا، قال: فكيف إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه! ثم قال صلى الله عليه وسلم لبيد الله: أنت صاحب الكلام الذي بلغني، قال والله الذي أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئاً من ذلك وإن زيدا (يريد زيد بن أرقم البلخي) لكاذب، فنزلت هذه الآيات، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد بن أرقم: يا ضالم: إن الله صدقك وكذب المنافقين، فلما بان كذب عبد الله قيل له: قد نزلت فيك آي شداد، فاذهب

إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغفر لك، فلو تى رأسه وقال: أمرتوني أن أومن فأمنت، وأمرتوني أن أركى فركبت، وما بقى إلا أن أسجد لحمد، ولم يلبث إلا أياما حتى اشتكى ومات، وقوله (سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم) أى سواء عليك الاستغفار وعدمه (إن يغفر الله لهم) لرسوخهم في الكفر (إن الله لا يهدي القوم الفاسقين) الخارجين الذين لا يمكن إصلاحهم (هم الذين يقولون) للأتصار (لا نتفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا) يريد قراء المهاجرين (وثة خزائن السموات والأرض) فهو الذى بيده الرزق والقسم (ولكن المناققين لا يفقهون) ذلك لجهلهم (يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل وثة العزة ورسوله وللمؤمنين) أى وثة الغلبة والقوة ولن أعزه من رسوله وللمؤمنين، وهذا القول قد تقدم شرحه في ذكر السب (ولكن المناققين لا يعلمون) لقرط جهلهم ثم قال (يا أيها الذين آمنوا لا تلمكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله) نعى للمؤمنين أن تشغلهم الأموال وتديرها عن ذكر الله بالقلب واللسان في الصلاة والعبادات وفي سائر الأوقات كما شغلت المناققين (ومن يفعل ذلك) اللهم وبها (فأولئك هم الخاسرون) وأى خسر أعظم ممن باع حقيرا فانيا بعظيم باقى (وانفقوا مما رزقناكم) أى بعض أموالكم (من قبل أن يأتي أحدكم الموت) أى دلائله (فيقول رب لولا) هلا (أخرتى) أمهلتنى (إلى أجل قريب) أمد غير بعيد (فأصدق) فأصدق (وأكن من الصالحين) بتدارك ما فات (ولن يؤخر الله نفسا) ولم يعملها (إذا جاء أجلها) آخر عمرها (والله خير بما تعملون) فجاز عليه.

انتهى التفسير اللفظى للسورة كلها، والحمد لله رب العالمين.

إيضاح

اعلم أن (سورة الجمعة) إنما دعت إلى فهم كتاب الله وحوز العلم والحكمة، وألا يكون المؤمنون كالبيهود الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها، وانضح فيها صفة الولي، وأنه هو الذى سارع إلى الخبرات، ولم يبال بالموت بل يتمناه، ثم ذكر الصلاة، وذكر الله في كل حين لإنهاء المحبة الإلهية في النفس حتى تحب لقاء الله فلما فرغ منها أتى بهذه السورة التى أماطت اللثام عن الصبر على إيذاء المناققين، وعداوة الأصحاب المخادعين، وبيانه أن الإنسان في هذه الدنيا يقوم بما قسم له من الأعمال، وكلما كان أكثر نفعاً وأبعد أثر كانت العداوة له أعظم خطراً، وحساده أشد ضرراً، وترى الزوج يسمى على زوجته، والوالد يكسب لأبنائه، والأستاذ يجد لارتقاء تلاميذه وينصحهم، ومع ذلك كم من زوجة كانت هى الداء العضال لزوجها، وكم من ولد كان حسرة ونقمة على والديه، وكم من تلميذ كان حرباً عواناً على أستاذه، فأنزل الله في القرآن: «يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم» وقال: «إنما أموالكم وأولادكم فتنة» وأنزل (سورة التحريم) الآية قريباً، وذكر فيها إيذاء الزوجات لأزواجهن، وأنزل هذه السورة بعد (سورة الجمعة)، كل ذلك ليعلم الصبر على الصائب، والحق أن فى أكثر الناس استعداداً لأعمال الشريعة، ولكن من يجوز الامتحان ويصبر عليه قليل. ألا ترى أن كثيراً من الناس يسي فى الأعمال النافعة حتى إذا صدمته صدمة أو أصابته نكبة، أو آذاه من أحسنوا إليه، أو واجهوه بالازدراء والسخرية والتهم، فإنه ينصرف عن نفهم، ويقطع عن نصهم، ويرجع لعقربيته مدحوراً، ذلك لأنه لا قدرة له على السير فى الامتحان، وليس من رجال هذا اليدان، ولا هو من طالبى الجليلات الحسان، فيرجع القهقري، ويترك الورى، كأنه لا يسمع ولا يرى، خالبا وهو كليل، كأن الله بهذه السورة يقول: أيها المؤمنون: هاهو ذاتي أمددته بالقرآن، وجعلت الناس يلغون حوله ويعظمونه، فليس منك من يعظمه الناس ويحلمونه مثله، فالمعلمون منك والمدرسون لا يبالغون من

تعظيم تلاميذهم ماناله، ولا يؤثرون في قلوبهم ما أثره، ثم إنه آذاه المنافقون من أصحابه، وأوحى الله إليه بما أسروا في أنفسهم، وما أظهروا بالستهم، ومع ذلك لم تكن عزيمته، ولم تضغف همته، بل دام على النصح والإرشاد وهذا من خلة الصبر والعزيمة؛ فصاحب العزيمة لا يقنيه عن عزيمته الجيوش الجرارة، ولا السيوف البتارة، ولا الأصدقاء الخائون، ولا الأبناء الماصون، ولا الزوجات الماكرات، فالعزيمة والهمة يخضع لها الجبارون، ويذل لها المتكبرون؛ ولا يقف في طريقها أعظم الصعاب، ولا عيب من عاب.

يستعظم العلم أنفة من تلقى علمه، أفلا يذكر هذا العلم أن خير الخلق قد آذاه من أسلم على يديه، ثم ظهر نقاقه وثبت بالقرآن، والنبي صلى الله عليه وسلم صابر على من آذوه؛ ماض في عمله، مطيع لربه. والله هو الولي الحميد.

فتكون إذن (سورة الجمعة) للعلم والعمل (والمناققون) للصبر وقوة الأمل: «والعصر، إن الإنسان لفي خسر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر» فلا وصيك بالحق فقم به في هذه الأمة التي خفضها الجهل، وأزرى بها الكسل، وسترى من تلاميذك وبعض أسرتك من بناوثنوك إما سرا وإما جهرا، فلتسر في طريقك.

واعلم أن الرجل إذا سافر فشا كته شوكة فإنه لا يضيع الزمن في الكلام عليها ولا في الشكوى منها، بل يقبع الركب ولا يتوقف فيضيع الزمن لأجل الشوكة وكيف دخلت، ويأخذ في سبها، فإن ذلك كله ضياع لمصلحته، فهكذا هنا هؤلاء المنافقون الذين يحيطون بالعامل الصادق من كل جانب لا ينبغي أن يصدوك عن عملك: «فاصدع بما تؤمر وأعرض عن الجاهلين، إنا كفيناك المستهزئين» انتهى تفسير سورة المنافقين، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة التغابن

هي مدنية

آياتها ١٨ - نزلت بعد التحريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوْرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ * يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرَوْنَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُوءَاتُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * ذَلِكَ بِأَنَّهُ

كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَفْتَى اللَّهُ وَاللَّهُ
 غَنِيٌّ حَمِيدٌ • زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ
 وَذَلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ • فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ •
 يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّفَافِينِ وَمَنْ يُؤْمِنِ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكْفَرْ عَنْهُ
 سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْمَطْمَئِينُ •
 وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبئسَ الْمَصِيرُ • مَا أَصَابَ
 مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنِ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ • وَأَطِيعُوا اللَّهَ
 وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ • اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَىٰ
 اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ • يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوٌّ لَكُمْ
 فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ • إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ
 وَأَوْلَادُكُمْ فَتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ • فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا
 وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِنَفْسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شَعْنَهُ فَإِنَّهُ يَنْفَعُ نَفْسَهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ • إِنْ تَقَرَّبْتُمْ إِلَى اللَّهِ
 قَرَّبْنَا حَسَنًا يَضَاعِفُهُ لَكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ • عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ
 الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ •

مقدمة

هذه السورة مع ما قبلها تتحدان في أمر، وهو الصبر على القراء، فسورة المنافقين فيها صبر النبي صلى الله عليه وسلم على نفاق من حوله، حين بها لتكون ذكرى للعلماء، وللحكام أنهم إذا رأوا منافقين من إخوانهم وتلاميذهم ورعاياهم فلا يبعدن ذلك بهمهم عن الجِدِّ والتشهير في خدمة المجموع، وسورة المنافقين ذكر فيها أن من الأزواج والأولاد أعداء، فيكون للخص من هذين ألا يبتس الإنسان بما يقاسى من الأصحاب والتلاميذ والرعية والزوجة والولد.

وملخص ذلك أن الإنسان في الدنيا وحده، فلا يطمئن فيها أن يكون وانما كل الثقة بأحبه، فإذا كانت (سورة الجمعة) للعلم والعمل فسورتنا (المنافقين والمنافقين) للصبر، فإذا نبتنا معرض على الأعمال القلبية وهي عنده بالمقام الأول، فبغير الصبر لا علم ولا عمل، ثم إن السورتين اشتركتنا أيضا في الإنفاق والحث عليه في آخرهما. ولنشرح في التفسير اللفظي فنقول:

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(يسبح لله ما في السموات وما في الأرض) التسييح بالدلالة على تزيه الصانع وكأله، وبأن هذه المخلوقات مسخرة منقادة، فالاعتقاد تسييح، والدلالة تسييح، وقوله (له الملك وله الحمد) فهو يتصرف تصرف اختصاص فلا حمد إلا له، لأنه مصدر الخيرات، ومفيض البركات (وهو على كل شيء قدير) يفعل ما يشاء، ولا جرم أن عدم تنامي القدرة على الأشياء مما يوجب جلال الملك، واتساع نطاق الحمد (هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن) فإذا منتم وبشتم رجتم إليه بصفاتكم التي منتم عليها.

وفي حديث مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ لِلْجَنَّةِ أَهْلًا خَلَقَهُمْ لَهَا وَمِنْ أَصْلَابِ آبَائِهِمْ، وَخَلَقَ لِلنَّارِ أَهْلًا خَلَقَهُمْ لَهَا وَمِنْ أَصْلَابِ آبَائِهِمْ» اهـ

وإنما كان ذلك لأن كل مخلوق تابع لاستعداده المستمد من النظام العام، وهذا الاستعداد مخلوق فيه للتربية كما يربي النبات والحيوان، ولذا أعقبه بقوله (واقه بما تعملون بصير) أي عالم وبصير بكفركم وإيمانكم اللذين هما من عملكم، وبما كان سبباً لها من استعدادكم، وبما يكون نتيجة لها من جزائكم (خالق السموات والأرض بالحق) بالحكمة البالغة، ولقد ظهر أثر تلك الحكمة في تصويركم فكنتم مختلفين في الصور كما اختلفتم في العقائد، فإذا كان في صوركم السوداء، والبيضاء، والتي بينهما، فكذا في عقائدكم الكفر والإيمان والصين، فالكفر كالسواد، والإيمان كالبياض، والوسط بينهما كالصفرة والحمر في أهل الصين وأهل أمريكا الأصليين، فإذا كانت هذه حالكم في صوركم التي اقتضاها النظام ولم يكن هناك تناقض بل النظام محكم، ولم يقل أحد من الحكماء ولا الفلاسفة أن السواد خطأ، أو البياض خطأ، أو الصفرة أو الحمر العنصرية، هكذا سيكون في العالم الروحي نظام ستفهمونه بعد الموت إذا انكشف عنكم الغطاء، فإنكم سترون أن كفر الكافر من حسن نظامنا كما كان إيمان المؤمن من حسن نظامنا، فإذا كان الحنظل في الأرض والبطيخ والقرب والجراد والذئب والفزال والسم والغذاء والنار والماء، كل ذلك من مقومات هذا الوجود، أو من حسن نظامه، هكذا ستعرفون في عالم الأرواح أن اختلاف العقائد لمصالح كصالح اختلاف الأغذية والأدوية والمهلكات في هذه الحياة. وسترون أن الأنبياء والعلماء والحكماء أشبه بالزراع يزرعون المزارع لمصالح الانسان، وأن العقائد الزائفة كالحشائش التي يتعمد الفلاح اقتلاعها من الأرض بقائمه، هذه العاني بعض ما يفهم من قوله (وصوركم فأحسن صوركم وإليه الصير) فليجد الله منكم أن يكون بمن تأهلوا لقاء الله جلوب صافية عاقلة، وليحذر أن تكون صورته القلبية مشوهة فلا يصلح لقاء الله كما لا يصلح المشوه الوجوه لقاء الملوك، وللأنس الأصحاب (يعلم ما في السموات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون واقه علم بذات الصدور) فلا تخفي عليه خافية، قد استوى في علمه ظواهر الأمور وبواطنها، ثم خاطب أهل مكة قائلاً (أم يأتمنكم بنى الدين كفروا من قبل) كقوم نوح وهود وصالح (فذاقوا وبال أمرهم) أي ضرر كفرهم في الدنيا وهو ما لحقهم من العذاب، وهكذا الأمم العاصية التي كسات وتركت ما يجب عليها من أمة الإسلام في القرون الآخرة ذاقت وبال أمرها في الدنيا فأصبحوا عبرة للأمم ومضرب الأمثال بالجهل والقتل، فهؤلاء يصلحون للاعتبار بهم، فهم قد وقموا في عذاب الاختلال واحتلال أهل أوروبا لعقلتهم وجهلهم، فهؤلاء يصلحون لأن يعتبر بهم المسلمون الحاليون والدين يأتيون بعدهم، بل الاعتبار بهم أقرب، لأنهم ذاقوا وبال أمرهم. وفي التعبير بقوله: «أم يأتمنكم بنى الدين كفروا من قبل» فتح باب للاعتبار بالتاريخ، لا فرق بين قوم نوح وقوم من أمة الإسلام كأهل الأندلس الذين أذاقتهم أوروبا كأس القتل، وأخرجتهم من ديارهم

كما أخرج المسلمون اليهود من جزيرة العرب . بمثل هؤلاء فيعتبر المسلمون . وقوله (ولم عذاب أليم) أى فى الآخرة ، وهكذا المسلمون المقصرون فى فروض الكفايات ، وهى جميع العلوم والصناعات سيعدون بحسب اللوت عذاب التقصير لا عذاب الكفر لأنهم مؤمنون .

واعلم أن كثيرا من أهل العلم اليوم فى بلاد الإسلام ظافلون نائمون ، فقد بلغنى أن أحدهم اطلع على ما كتب فى (سورة البقرة) من قولى : (إن علم الأجنة بحرم تركه على المسلمين) فظن ذلك الناقل أن هذا القول شئ اخترعته ، ففرح بذلك وقال : إن هذا ليس فى الدين ، وقد وهم ، لأن هذا ليس واجبا عينيا بل هو فرض كفاية ، وهكذا جميع العلوم والصناعات والأمة كلها تمذب بترك فرض الكفاية ، لأنه نقص لاحق بالأمة كلها (ذلك) المذكور من الوبال والعذاب (بأنه) بسبب أن الشأن (كانت تأنيبهم رسلهم بالبينات) بالمعجزات (فقالوا أئبشر يهودنا) أى أنكروا أن يكون الرسل بشرا ، فهم لا ينكرون أن يكون معبودهم حجرا ، وينكرون أن يكون رسول المعبود إنسانا ، كأن الرسول يجب أن يكون أشرف من المرسل الذى أرسله (فكفروا) أى جحدوا وأنكروا (وتولوا) أعرضوا (واستنق الله) عن إيمانهم وعبادتهم (والله غنى) عن خلقه (حميد) فى أفعاله .

هذا تمام الكلام فى كفرهم وتكذيبهم الأنبياء ، ثم أتبعه بذكر إنكار البعث فقال : (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل) يا محمد لهم (بلى وربى لتبعثن) هذا قسم ليؤكد به الجواب (ثم لتنبؤن بما عملتم) بالمحاسبة والمجازاة (وذلك على الله يسير) أى أمر البعث والحساب يوم القيامة (فآمنوا بالله ورسوله) محمد صلى الله عليه وسلم (والنور الذى أنزلنا) وهو القرآن (والله بما تعملون خبير) فجاز عليه وقوله (يوم يجمعكم ليوم الجمع) متعلق بتنبؤن ، ويوم الجمع هو يوم القيامة ، إذ يجمع الله فيه الأولين والآخرين ، وأهل السموات وأهل الأرضين (ذلك يوم التغابن) مستعار من تغابن القوم فى التجارة ، وهو أن يغبى بعضهم بعضا ، كأن يبيع أحدهم الشئ بأقل من قيمته . فهذا غيبى للبائع ، أو يشتريه بأكثر من قيمته ، فهذا غيبى للمشتري ، وأى غيبى أعظم من أن قوما ينمون وقوما يعذبون ، وأن قوما مغلوبين مظلومين فى الدنيا أصبحوا فى الآخرة غابطين لمن غبنوهم فى الدنيا وظلموهم : إن الكفار غبنوا فى شرائهم ، لأنهم اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة . فأما المؤمنون فقد ربحت تجارتهم (ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا) أى عملا صالحا (يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم ، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير) وهذا هو التغابن . فالؤمن الذى عمل الصالحات فى الجنة ، والكافر فى النار ، وهذا هو ملخص التغابن .

وهاهنا يرد السؤال فيقال : ولم هذا ؟ وكيف خلقهم ونوعهم ؟ هلا جعلتهم جميعا سعداء ، مع أنك قادر على كل شئ ؟ وكيف تعذب وأنت أرحم الراحمين ؟ إن العقل هنا لا يستطيع الإجابة على هذا . ومما يؤيد هذا السؤال ويقويه أنه يقول (ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله) أى بقضاء الله وقدره وإرادته ، ولا جواب على هذا السؤال إلا ما جاء فى أول السورة : « هو الذى خلق السموات والأرض بالحق وصورك فأحسن صوركم » وقد تضمن الاختلاف فى الصور ، فالاختلاف هنا كالاختلاف هناك . ومن الحكام وأرباب البصائر من يعرفون سر هذا الاختلاف ، وأن وجود الحنظل والبطيخ ، والبقعة والفيل ، والحر والبرد ، والار والحلو ، مشابهات تمام للشابهة لما فى العقول من كفر وإيمان ، وخير وشر ، وجهل وعلم ، وأن النظام فى العالمين واحد ، ولكنهم لا يريدون أن يذكروا الحقائق التى عرفوها ، لأن جمهور النوع الإنسانى غير كفؤ لفهم هذه الحقائق فذلك يكتمونها ، وهكذا أنت أيها القارىء إذا كنت ممن عرفوا الحقائق ، فأنت مضطر أن تكتمها عن الناس

في هذا الموضوع وحده، لأن عقولهم لا تحمله، وهذا المقام فيه مقال واسع في (سورة الأعراف) عند قوله تعالى: «ورحمتي وسعت كل شيء» فارجع إليه إن شئت.

هذا في معنى الآية من حيث العسم. أما مغزاها من حيث العمل فإن سورة المنافقين التقدمة، وأهم كانوا يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما يأتي في هذه السورة بعد هذه الآية من إيداء الأزواج والأولاد للبعولة والآباء، فإن الله يبين لنا أن هذه المصائب مقدره، فإذا عاب المنافقون نبيهم وأنكروا نعمته، وإذا أنكر التلاميذ نعمة أساتذتهم، والأبناء نعمة آبائهم، فلا يحزن النبي ولا الأساتذة ولا الآباء، وكيف يحزنون على شيء قدر عليهم قبل خلقهم؟ كما لا ينبغي أن يحزن الناس على الاختلاف في الكفر والإيمان والجنة والنار، لأن ذلك الاختلاف من جملة النظام الذي وجد عليه العالم، وليس معنى هذا أن الإنسان لا يحمل ولا يعبد في هداية الكافرين، ونصح العاصين، وتأنيب المنافقين، وإرشاد وتأديب النساء والبنين كلا: إنما ذلك القول ليستروح به الناس بعد أن يكونوا قد عملوا ما يجب عليهم وأعموه، فأما إذا لم يتموا ما يجب عليهم من هداية أو تهذيب لأنفسهم ولغيرهم، وسعى في الكسب والعمل لهم ولغيرهم فإنهم معذبون بهذا عذابا شديدا، ويكون ذلك وفق القضاء.

وملخص هذا أن الإنسان يتم ما يجب عليه ولغيره، ثم بعد ذلك لا يبالي بما يأتي به القضاء، وهذا هو التوكل: ولما كان هذا تمام السعادة في الدنيا والآخرة بحيث يكون الإنسان مجدا في عمله، والقيام بأمره، والسعي لتمام الأمور، مريحا نفسه من عناء المهمل والتم، لعله أنه قد فعل كل ما يجب عليه، وأن ما فوق ذلك ليس في طاقته، فهما كان من خير أوشر بعد ذلك قلن بهوله أمره، ولن يحزن عليه، لذلك أعقبه بقوله (ومن يؤمن بالله يهد قلبه) بوقته لليقين، وهذا هو عين اليقين، وأي نعمة أعظم من هذه النعمة، جد في عمل واستراحة من غم وحزن واطمئنان نفس، ووثوق بفضل، وعلم بأنه لم يقصر (وأنه بكل شيء عليم) والقلوب من جملة الأشياء فهو مطلع عليها (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتهم) فلا بأس عليه (فإنما على رسولنا البلاغ المبين) لأن وظيفته التبليغ وقد بلغ فماذا عليه بعد ذلك؟ هل يكلف بما فوق طاقته؟ إذن هو لا يحزن بعد ذلك، وقد هدى الله قلبه، وعرف أن للقضاء والقدر أنرا تاما في البرية.

هكذا كل امرئ في الأرض فليعمل ما يجب عليه، وليس عليه غير ذلك. ولهذا أشار بقوله (الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون) أي فليعملوا غاية جهدهم، ثم ليكفوا إلى الله نتائج أعمالهم. ولا يحزنوا على ما يصيبهم، إذ ليس في طاقته رده. وإنما الحزن يكون على التقصير. وعمودج التوكل مسألة التبليغ: فقد بلغ النبي صلى الله عليه وسلم وليس عليه بأس إذا لم يؤمنوا. نعم إذا أمر بتألم وهو قادر وقصر فإنه يؤاخذ على ذلك. لأن في القتال ضررا قليلا لطائفة من الناس فيدخلون في الإيمان ثم يأتي بعدهم مالا نهاية له من الأمم إلى يوم القيامة، فيدخلون في الدين طوعا لا كرها.

ثم أعقبه بمسألة تصيب الناس في داخل منازلهم؛ وهي مما ينبغي التوكل فيه بعد التأديب الشديد والقيام بالنظام على أم وجه فقال (يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم) أي إن من الأزواج أزواجا يعادون بولنتهم وبخاصمتهم؛ ومن الأولاد أولادا يعادون آباءهم ويعقونهم. وهكذا الأزواج والأولاد يكونون سبب جبنكم عن القتال وبخلكم بالمال وجهلكم؛ لأنهم يشغلونهم بحلب المال لهم؛ كما اضيق لعوف بن مالك الأشجعي. وكان ذا أهل وولد. فاذا أراد أن يغزو بكوا عليه ورقوه وقالوا إلى من تدعنا؟ فيرق عليهم فيقيم.

وأيا كان رجال آخرون من أهل مكة أرادوا أن يأتوا النبي صلى الله عليه وسلم . فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوه أن يأتوا النبي ﷺ . فلما أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى الناس قد قفوا في الدين فهموا أن يعاقبهم فزل قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم » (فاحذروهم) ولاتأمنوا غوائلهم (وإن تصفوا) عن ذنوبهم بترك المعاقبة (وتصفوا) بالإعراض وترك التريب عليها (وتغفروا) بإخفائها وتمهيد معذرتهم فيها (فإن الله غفور رحيم) يعاملكم بمثل ما عملتم ويتفضل عليكم وهذا العمل هو الذي فعله النبي ﷺ مع المنافقين فإنه لم يعاقبهم وعفا عنهم وحذرهم ، فالإنسان إذن في منزله أشبه بقائد الجيش في حومة الوعى لا ينفك عن مهاجمة عدوه وصيانة عسكره ، فهو دائما في حذر . ثم أتى بالنتيجة وأبان أننا اليوم سائران لله في هذه الحياة ، وليس هؤلاء الأولاد ولا النساء ولا الأصحاب هم المقصودون ، بل المقصود الأعظم الوصول إلى الله ، ولو كان المقصود هؤلاء لكانوا نعمة لا نقمة فيهم ، فنعيا لا عذابا ، ولكن الله جعل السم في دسمهم ، والعذاب في نعيمهم ، والشقاء عجبوا في الاسترواح لهم ، ليكون ذلك دليلا أن هؤلاء ليسوا نهاية الأعمال إنما هم بمن ابتلينا بهم في طريق سفرنا الطويل الشاق .

والنتيجة أننا نكون في دار لا يكون الخير فيها مشوبا بالشر ، وهذا قوله تعالى (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) اختبار لكم (والله عنده أجر عظيم) لمن آثر حجة الله وطاعته ، إذن فليكن المقصد الأعظم نهاية الأمر لا الوقوف في أثناء السفر .

ولما كانت هذه الأمور فيها اختلاط على النفس واختباط فلا يدري الإنسان ماذا يعمل وجب عليه صيانة أهله وولده ، ووجب عليه جهاد عدو البلاد والتزال معه للحرب ، فلا يدري ماذا يصنع إن حارب العدو ترك أهله ، وإن بقي مع أهله دخل العدو البلاد ، وهكذا يعيش الإنسان بين المتناقضات وهو في حيرة ، والفؤاد معذب بين الأمور العامة والخاصة ، لذلك أعقبه بما يفيد أن الإنسان يفكر فيما فيه المصلحة بقدر طاقته ، وهذا قوله تعالى (فاقضوا الله ما استطعتم) أي ابدلوا في تقوا جهدكم وطاقاتكم (واسمعوا) مواظبه (وأطيعوا) أوامره (وأنفقوا) في وجوه الخير لوجهه واتقوا (خيرا لأنفسكم) أو وأنفقوا إنفاقا خيرا (ومن يوق شح نفسه) الذي استوجبه الفتنه بالأموال والأولاد (فأولئك هم الفلحون) أي هم الفائزون (إن ترضوا الله) بصرف المال فيما أمرتم به (قرضا حسنا) مقرونا بالإخلاص وطيب القلب غير مكترئين بما تسمعون من أولادكم وأزواجكم (يضاعفه لكم) عشرا وسبعائة أو أكثر (ويغفر لكم) بركة الإنفاق (وانه شكور) يحطى الجزيل بالقليل (حلیم) لا يجادل بالمقوبة (عالم الغيب والشهادة) ما غاب وما شوهد (العزيز الحكيم) تام القدرة والعلم :

انتهى تفسير (سورة التغابن) والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة الطلاق

هي مدنية

آياتها ١٢ - نزلت بعد الانسان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِمَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَمَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا * فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا * وَاللَّائِي يَتُسَّنُّ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرَبْتُمْ فَمِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِيضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُنْظِمْ لَهُ أَجْرًا أَسْكَنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُوهُنَّ يَضْيَقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمِلْنَ فَلْيَفْقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ أَكُمْ فَتَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَأَتَمُّوا رِيَسَتِكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَمَسَّرْتُمْ فَسَرِّضِي لَهُ الْآخِرِي * لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُفْسِقْ فِيمَا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا * وَكَأَيُّنَ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَلَبْنَاَهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاَهَا عَذَابًا نُكْرًا * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنْزَلَ

۱۹۱
 اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا • رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مَبِينَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا
 وَصَلُّوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ
 تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا • اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ
 سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْمَلُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
 وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا *

مقدمة

هذه السورة فيها معاملة الزوجات حال بقائهن في الصمة وحال مفارقتهن من الإمساك بالمعروف ،
 ومن الطلاق والعدة ، ومن الإنفاق في مدتها، فناسب أن تذكر بعد (سورة التباين) التي ذكر فيها الصبر
 والتمسك عن الأزواج والأولاد الذين هم فتنة، فها هنا أبان أن من هؤلاء الذين فتنتهم من تقدرين على
 مفارقتهم، فلتكن المفارقة بالمعروف كما يكون الإمساك بالمعروف . أما الأولاد والأصحاب الذين لا مفر من
 صحبتهم كالأبناء العاقين، وكلنا قين أزمان النبوة، فليس لهؤلاء حال يتبرأ منهم الإنسان إلا حال الكفر ،
 فإن تكون البراءة . أما فيما عدا ذلك فلتكن النصيحة والتأديب تارة والنفو والصفح أخرى، ثم يتخلل تلك
 الأحكام الشرعية في هذه السورة ذكر التوكل وإرجاع الأمور إلى الله كما في (سورة التباين) إذ في هذه
 السورة كالتممة التي قبلها والموضحة لبعض ما أجمل فيها .

ولما طال الكلام في هذه السور على علوم المعاملة، وهذا يجعل الإنسان إذا استغرق فيه ناسيا ذكر ربه
 ختم السورة بأن الله خلق سبع سموات وسبع أرضين، وأنزل قضاؤه وأمره بينهن بنظام حسن ، ليعلمنا علم
 مبدعاته ، ويرقى نفوسنا ببدائع حكمه، وعظيم آياته، هذا ملخص هذه السورة إجمالا .

ملخص الأحكام في هذه السورة

- (١) إن للطلقة عدتها ثلاثة قروء وهي الإطهار، أو الحيضات رأبان :
- (٢) ولا يخرج من البيت حتى تنقضي عدتها إلا في أحوال خاصة .
- (٣) فإذا شارفت العدة أن تنقضي فللرجل الخيار إما أن يراجعها وإما أن يفارقها بالمعروف .
- (٤) وإذا راجعها أو فارقها فليشهد على ذلك ذوي عدل .
- (٥) المرأة التي بثت من الحيض ، والتي لم تحض عدة كل منهما ثلاثة أشهر :
- (٦) الحامل عدتها بوضع الحمل وينفق على الحامل حتى تضع حملها وتخرج من العدة .
- (٧) فإذا أرضعت المرأة فلها أجر الإرضاع .
- (٨) الإنفاق من المصروف ومن اللوسر كل بقدره اه .

التفسير المفصل
بسم الله الرحمن الرحيم

(يا أيها النبي) قل لأمتك (إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن) أي لزمان عدتهن ، وهو الطهر لأنها تحصل في العدة عقيب الطلاق فلا يطول عليها زمان العدة ، وقد كان ابن عمر يطلق امرأته وهي حائض ، فذكر ذلك عمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتنيط منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : مرة فليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ، ثم يحبس ، ثم تطهر ، فإن بداله أن يطلقها فيطلقها قبل أن يمسكها . فذلك المدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء . وفي رواية لمسلم أنه قال : « مرة فليراجعها ثم يطلقها طاهرا أو حاملا » . (وأحصوا العدة) واضبطوها وأكلوها ثلاث أقرأه كوامل لا نقصان فيها ، وإنما خوطب الأزواج لفقلة النساء (واتقوا الله ربكم) في تطويل العدة والإضرار بهن و (لا تخرجوهن من بيوتهن) أي من مساكنهن التي يسكنها قبل العدة ، وهي بيوت الأزواج ، فتكون السكنى إذن واجبة ، فلا يخرجهن البعولة غضا عليهن وكراهة لما كنهن ، أو لاجتباب لم إلى الساكن ، وألا يأذنوا لمن في الخروج ، إذا طلب ذلك ، إذ لا أثر لإذنتهم في دفع الحظر (ولا يخرجن) بأنفسهن إن أردن ذلك (إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) كالإفشاء على أهل زوجها فيجعل إخراجها لسوء خلقها ، وكفروها قبل انقضاء عدتها (وتلك) الأحكام المذكورة (حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه) بأن عرضها للمعاقب (لا تدرى) أي المطلق (لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا) فربما حصلت لك الرغبة في المطلقة فراجعها ، وفي الحديث : « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « أيما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير ما بأس به حرام عليها رائحة الجنة » أخرجه أبو داود والترمذي (فإذا بلغن أجلهن) شارفن آخر العدة (فأمسكوهن) فراجعوهن (بمعروف) بحسن عشرة وإففاق مناسب (أو فارقوهن بمعروف) أي اتركوهن حتى تنقضي عدتهن فتبين منكم (وأشهدوا ذوي عدل منكم) على الرجعة وعلى الفراق ، وهذا مندوب كالإشهاد على التبايع ، وعن الشافعي أنه واجب في الرجعة (وأقيموا الشهادة لله) أي الشهود عند الانقضاء (ذلكم) أي جميع ما في الآية (يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر) فإنه الذي ينتفع به ، ولما كان هذا اللقاع فيه الكلام على الطلاق والمدة وعدم الإخراج من السكن وتمدى حدود الله وإقامة الشهادة وما يناسب ذلك من القضايا والشاكل الكثيرة التي تنفس العيش وتورث الألم أنزل الله فيه هذه الآية (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب) فإذا لم يطلق الرجل امرأته في الحيض فتطول مدة عدتها ولم يخرجها من مسكنها ولم يتعد حدود الله ولم يكتم الشاهد شهادته ، ولم يعص الله المؤمن على وجه العموم في سائر أحواله فإن الله يخرج من العموم والوقوع في المضايق ويفرج عنه ويعطيه الخلاص ويرزقه من جهة لا يخطر بباله ، وبالاختصار من اتقى الله جعل له مخرجا ومخلصا من غموم الدنيا والآخرة ، ومن غمرات اللوت ، ومن شدائد يوم القيامة : قال صلى الله عليه وسلم : « إني لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتمهم : ومن يتق الله ، فما زال يترؤها ويعيدها » وروى أن عوف بن مالك أسر للشركون ابنا له ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أسرا بني ، وشكا إليه العاقبة ، فقال : ما أمسى عند آل محمد إلا مد ، فاتق الله واصبر ، وأكثر من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، فناد إلى بيته وقال لامرأته : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرني وإياك أن نستكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، فقالت نعم ما أمرنا به ، فجعل يقولان ذلك ، فبينما هو في بيته إذ قرع ابنه الباب ومعه مائة من الإبل تنقل عنها الصدو فاستأقها فترلت ، وقوله (ومن يتوكل

على الله فهو حسبه) أي ومن يكلي إليه أمره فهو كافي في الدارين (إن الله بالغ أمره) أي يبلغ ما يريد لا يفوته مراد ولا يعجزه مطلوب (قد جعل الله لكل شيء قدرا) تقديرا وتوقيتا ، وهذا بيان لوجوب التوكل على الله وتفويض الأمر إليه ، لأنه إذا علم أن الرزق وغيره لها أوقات ومقادير محدودة لم يحزن على ما فاتته منها .

دفع وهم

ثم اعلم أيها الذكي أن كثيرا من الناس يقرءون أمثال هذه الآيات ولا يفهمون المقصود منها ، فربما ترك الإنسان الحزم في أمر والتفكير فيه والسعي في طلبه فيفوته فيقول إني توكلت على الله ، وهذا توكل لا قيمة له ، بل التوكل أن تعمل كل ما يمكنك عمله ، وتكل ماعداه إلى الله ، وكم من مسلم يسمع حديث عوف بن مالك ويظن أن هذا هو التوكل ، ولم يدرك أن هذا قد انقطعت به الأسباب ، فلم يبق له إلا الالتجاء إلى رب الأرباب ، أما من عنده قدرة وعقل فعليه أن يسخرها في عمله مجدا ، ولا يترك فرجة ولا خلا في نظامه ويكل أمر النتيجة لربه ، فأما من ليست لديه حيلة فليس له إلا الرجوع بالقلب إلى الله ، فإذا التوكل للقادر علم وعمل وتوجه بالقلب إلى الله ، فأما العاجز فليس له إلا الالتجاء بالقلب ، وهذا تحقيق للقمام ، فأكثر المسلمين يأخذ الأمور من وجه واحد وينسى ماعداه ، وهذا هو الذي قد بالههم ، وأهيات الأمم ، فرجعت القهقري ، قال تعالى (واللآئ يئسن من المحيض من نسائكم) لكبرهن (إن ارتبتم) أي أشكل عليكم حكمهن وجهنم كيف تكون عدتهن (فعدتهن ثلاثة أشهر) أي فهدنا حكمهن ، وقيل : إن ارتبتم في دم البالغات مبلغ اليأس أهو دم حيض أو استحاضة فعدتهن ثلاثة أشهر ، وإذا كانت هذه عدة للرتاب بها فقيرها أولى بذلك ، وقد قدر العلماء سن اليأس بستين سنة ، أو خمس وخمسين سنة (واللآئ لم يحضن) وهن الصغيرات فعدتهن ثلاثة أشهر ، فأما الشابة التي كانت تحيض فارتفع حيضها قبل بلوغ سن الآيسات فهذه تنتظر سن اليأس ثم تمتد بثلاثة أشهر إلا أن يعاودها الدم فتعد بثلاثة أقراء ، وهذا مذهب أكثر العلماء ، وقال عمر رضي الله عنه : تربص تسعة أشهر فإن لم تحض تعد بثلاثة أشهر . وهذا قول مالك وما قبله قول الشافعي وعطاء وعثمان وغيرهم ، وقال الحسن : تربص سنة فإن لم تحض تعد بثلاثة أشهر ، وهذا كله في الطلاق ، وأما المتوفى عنها زوجها فعدتها أربعة أشهر وعشر سواء أكانت ممن تحيض أو لا تحيض ، وأما الحامل فعدتها بوضع الحمل سواء أطلقها زوجها أو مات عنها ، وهذا قوله تعالى (وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن) مطلقات كن أو متوفى عنهن أزواجهن (ومن يتق الله) في أحكامه فيراعى حقوقها (يجعل له من أمره يسرا) يسهل عليه أمره ويوقه للخير (ذلك) أي ما ذكر من الأحكام (أمر الله أنزله إليكم ومن يتق الله) في أحكامه فيراعى حقوقه (يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا) بالمضاعفة (أسكنوهن من حيث سكنتم) أي بعض مكان سكنكم (من وجدكم) أي من سعتكم وطاقتكم ، فالموسر يوسع عليها في السكن والنفقة ، والفقير يفعل على قدر طاقته (ولا تضاروهن) لا تؤذوهن (لتضيقوا عليهن وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن) فيخرجن من العدة ، وهذه الآية أوجبت النفقة للحامل مدة الحمل ، والرجعية حكمها أنها لها النفقة والسكنى على الزوج مادامت في العدة ، لأنها في حكم الزوجة فلتبقي في البيت للملوك له والنؤجر ، وإلا فلها أجره السكن . وأما البائن بالطلاق الثلاث ، أو بالخلع ، أو باللعان ، فلها السكنى حاملا وغير حامل ، وقيل لاسكنى لها إلا إذا كانت حاملا ، وهل لها نفقة ؟ قيل لانهقة لها إلا أن تكون حاملا ، وهو قول الحسن وابن عباس والشافعي وأحمد ، وقيل يجب بكل حال ، وهو قول ابن مسعود والنخعي والثوري وأصحاب الرأي ، فإذا أصحبا الرأي يحملون السكنى والنفقة عامتين في الجميع ، ثم قال تعالى (فإن أرضعن

لكم) بعد انقطاع علقه النكاح (فأتوهن أجورهن) على الإرضاع (واتتمروا بينكم بمعروف) أي ليقبل
بضكم من جنس إذا أمره بالمعروف ، أوليتراض الأب والأم على أجر مسمى ، فهو أمر للزوجين معا أن
يأتوا بالمعروف وما هو الأحسن ، ولا يقصدوا الضرر ، وعلى ذلك لا يقصر الرجل في حق المرأة ونفقها ، ولا المرأة
في حق الولد ورضاعه (وإن تعاسرتن) في حق الولد وأجرة الرضاع فلم يعط الرجل الأم الأجرة ، ولم ترض
الأم بإرضاعه فليس له إكراهها على الإرضاع ، إذن فليست أجر للعبي مرضعا غير أمه ، وهذا قوله تعالى
(فسترضع له أخرى) أي امرأة أخرى (لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله)
فلينفق كل من الوسر والعسر ما بلغه وسعه (لا يكاف الله نفسا إلا ما آتاها) فإن الله لا يكلف نفسا إلا
وسعها ، وهذا القول تطيب لقلب بالمعسرين الذين وعدم باليسر فقال (سيجعل الله بعد عسر يسرا)
عاجلا أو آجلا ، وهذه الآية وهو قوله تعالى : « لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها » تفتح بابا واسعا لمباحث
العلوم والصناعات المذكورة في (سورة البقرة) عند قوله تعالى : « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، » فإذا رأيت
القضاة يحكمون على زيد بمائة قرش في الشهر للمرأة ، وعلى خالد بألفي قرش على حسب طاقتهما ، هكذا يجب
على زيد من العلوم أو الصناعات ما يطيقه ، وعلى خالد بأكثر أو بأقل ، وكما خلق الله في الأمة الأغنياء والفقراء ،
هكذا خلق فيها قدرا وطاقات مختلفات في العلوم والصناعات فليحتسب التلاميذ في العلوم التي يجب أن يعم
تعليمها ، وليجعل كل تلميذ في العلم الخاص به وينبغي فيه .

ولما كان هذا المعنى المذكور في : « لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها » ينتقل من الفرد إلى الجماعة ، ومن
مسألة الإلتحاق على النساء إلى سائر فروع الحياة وكانت الأمة التي تهمل القدر والاستعداد لبعض المسلمين اليوم
آية للحراب ، لأنها أهملت ما خلقه الله لها من العقول النيرة المحبوة في أجسام أبناء الفقراء وأبناء الأغنياء
فلم تستخرج تلك المواهب ولم تستقص القوى والقدر التي خباها الله في أبنائها ، فصاعت سياستها ، وبارت
أرضها ، وقلت حاصلاتها ، وضاع الفكر فيها ، وأصبحت طمعة لغيرها من الأمم كثير من أمم الشرق الآن ،
لما كان الأمر كذلك أعقب ما تقدم سبحانه بقوله (وكأين من قرية) أي أهل قرية (عتت عن أمر ربها
ورسله) أي أعرضت عنه إعراض العاق الماندة فأهملت شعبون أرضها وطبقاتها وجبالها ومعادنها وحاصلاتها
وقوى الشبان فيها (لحاسبناها حسابا شديدا) أثبتنا ذنوبهم جميعها في صحف الحفظلة (وعذبنا عذابا نكرا)
منكرا في الدنيا بالعدل والاستجداء مثلا (فذاقت وبال أمرها) أي عقوبة كفرها ومعاصيها (وكان عاقبة
أمرها خسرا) لا يربح فيه أصلا (أعد الله لهم عذابا شديدا) يوم القيامة (قاتحوا الله يا أولى الألباب)
يا ذوى العقول ، ثم نعمتهم فقال (الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكرا) هو القرآن ، وأرسل إليكم (رسولا
يتلو عليكم آيات الله مبينات) صفة لرسول ، ويصح أن يكون رسولا مبدلا من ذكر كأن الرسول نفس
الذكر مبالغة (ليخرج الذين آمنوا وعمالوا الصالحات من الظلمات إلى النور) أي ليخرج من علم سبحانه
وقدر أنه يؤمن (ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدون فيها أبدا قد
أحسن الله له رزقا) في هذا القول تعظيم لما رزقوا من الثواب ، ثم إن هذه السورة مرجع أحكام شرعية
ومناهج دينية ، وأدلة فقهية ، وفتاوى إسلامية ، وضعت لإقامة العدل ونهج الصراط السوي ، وذلك العدل
على نهج العدل الذي في السموات والأرض الجاري بين المشرقين والمغربين . وما أهل الأرض ولا أركانهم
ولا شرائعهم ولا دياناتهم إلا له من نور العدل العام ، وقبسة من إشراقه ، وقبضة من نوره ، وزهرة من شجرته
فلئن قضى القضاة على كراسي الحكم بين العباد ، وأعطوا زيدا ما يجب على عمرو ، وقالوا للحامل عدتك
وضع الحمل ، ولقي تحمض عدتك ثلاثة قروء ، فكيف بين السموات والأرض من قضاء في هذا القضاء الصامت

لفظا الناطق معنى ا فكم في حكم بيننا نرى أثره ولا نسمع النطق بحركه ، نرى الشمس محكوما عليها أن تطلع من مواضع في الشرق وتغرب في أما كن في الغرب لا تجاوزها في دقائق وثوان لا تنفك عنها بحسب النظر الظاهري وإن كانت الأرض هي الجارية ولكن الحكم لا يتغير ، ونرى الرياح قدحكم عليها والسحب مأمورة والأشجار جارية بالحكم المهتم عليها والمزارع يحكم عليها أن تكون في زمن خاص ، فليس للقطن أن ينبت في البلاد الباردة ، ولا أن يثمر في زمن الشتاء ، ولا للثفل أن ينبت في البلاد الباردة ، ولا أن يثمر إلا بعد عدد من السنين ، وقضى على المزارع أن تكون قصيرات الأعمجار ، فيزرع القمح والذرة والشعير والعدس والفول وتحصد كلها برأشهر معدودات، ولا تنمو إلا في فصول خاصة، كل ذلك حكم لمصلحة الناس. فلو أن تلك المزارع لا تثمر إلا بعد سنين كالثفل لضاق الناس ذرعا في الحياة ، ولقل سكان الكرة الأرضية هذه أحكام حكم بها الله ونابجها سعادة الناس وراحتهم ، كما أن حكم القاضي بنفقة الحامل على المذاهب كلها وبنفقة غيرها على بعض المذاهب لمصلحة المطلقة ، فانظر أي الحكيمين أكثر منفعة بأحكام لمصلحة أشخاص مخصوصين متنازعين، أم حكم لسعادة هؤلاء المتنازعين وغيرهم وغيرهم من كل أهل دين ونحلة؟ بل كل حيوان ونبات على الأرض ، لذلك أعجب ما تقدم سبحانه بقوله (الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن) أي وخلق مثلهن في العدد من الأرض ، وهذا العدد ليس يقتضى الحصر ، فإذا قلت عندي جوادان تركب عليها أنت وأخوك فليس يمنع أن يكون عندك ألف جواد وجواد ، هكذا هنا فقد قال علماء الفلك كما تقدم « إن أقل عدد ممكن من الأرضين الدائرة حول الشمس العظيمة التي نسميها نجوما لا يقل عن ثلثمائة مليون أرض » ، هذا فيما عرفه الناس ، وهذا القول من هؤلاء ظني ، فلم يدع أحد أنه رأى أو قطع بشيء من ذلك ، اللهم إلا علماء الأرواح . فإنهم لما سألوها قالت : « عندنا كواكب أهلة بالسكان لا يحصى عددها وفيها سكان أتم بالنسبة لهم كالتمل بالنسبة للإنسان » هذا معنى ما قالوا ، ارجع لما نقلته لك عن الأستاذ (غاليلي) لما أحضرت روحه وسألوها ، وإياك أن تقول إنى أجزم بهذا القول ، بل أقول لكم : فكروا وادرسوا فالعلم علمكم والدين دينكم ، ولا يجوز أن تختص أوروبا بالبحث ونحن نترك لكم الأرض ونحصى منها ونهاجر إلى الله متى جاء الأجل ، وقوله (ينزل الأمر بينهن) أي يجري أمر الله وقضاؤه بينهن ، وينفذ حكمه فيهن (لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما) فأنه خلق السموات والأرض وهن ينزل الأمر بينهن لندرس هذه العوالم ونعقلها ، فنعلم عموم القدرة والعلم فيهما ، ولا يتم ذلك إلا إذا كانت دراستنا لتلك العوالم كدراسة الفقهاء لعلم الفقه ، إن الفقيه لا قدرة له على إصدار الأحكام ، والقاضي ليس بقادر أن يصدر حكما ، والمفتي لا يستخرج الأحكام من الدين إلا بعد دراسة تامة ، هكذا لا يعرف سعة علم الله وقدرته ، ولا يفرح بنظام السموات إلا من أضاع العمر في مباحث العلوم الفلكية والطبيعية ، وقد تضمن هذا التفسير حقا عظيما من تلك المباحث .

انتهى تفسير سورة الطلاق ، والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة التحريم

هي مدنية

آياتها ١٢ - نزلت بعد الحجرات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *
 قَدْ لَمْ يَرْضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * وَإِذَا أَسْرَأَ
 النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ
 بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَاكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ * إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ
 صَفَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةِ
 بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ * عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ
 مُؤْمِنَاتٍ قَاتِنَاتٍ تَأْتِيَنَّاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اقْوَا
 أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ
 اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَدُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا جَزَاءُ
 مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ
 عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ
 وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْمَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتَيْنَا نَارَ الْغَوَاغِرِ
 لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفْرَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ
 وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحَ وَامْرَأَتَ
 لُوطَ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَاتَمَهُمَا فَلَمْ يُنَيَّا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ
 ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاهِلِينَ * وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ

ابن لي عندك يتنا في الجنة وَ نَجِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَ عَمَلِهِ وَ نَجِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ • وَمَرِيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَدَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَ كَتَبْنَا لَهَا الْوَجْدَانَ مِنَ الْأَرْحَامِ لَأَنَّهَا كَانَتْ أَزْوَاجًا مُخَلَّقِينَ وَ غُرُوحًا رُطَبًا • وَ كَانَتْ مِنَ الْقَائِمِينَ •

هذه السورة قسمان

القسم الأول في نساء النبي صلى الله عليه وسلم ، وحلف النبي صلى الله عليه وسلم ألا يشرب العسل إرضاء لبعضهن ، وفي اطلاع الله على ما أفشين من سر أمرهن بكنمه وما يتبع ذلك من أول السورة إلى قوله : « وما أوام جهنم وبئس المصير » .

القسم الثاني ضرب مثل لذلك بامرأة نوح وامرأة لوط عليهما السلام من قوله تعالى : « ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين غفائهما » إلى آخر السورة .

مقدمة في مناسبة هذه السورة لما قبلها

سورة الطلاق كلها في حسن المعاشرة مع النساء والقيام بحقوقهن . وهذه السورة فيها حصل منهن مع النبي صلى الله عليه وسلم تعلبا لأمته ، وأن يهدروا أمر النساء ، وأن ياملوهن بالسياسة اللطيفة كما عاملهن صلى الله عليه وسلم بذلك وينصحوهن نصحا مؤثرا .

أسباب نزول هذه الآيات ما جاء في البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها ، قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الحلواء والعسل ، وكان إذا انصرف من العصر دخل على نساءه ، وكان يمكث عند زينب بنت جحش ، فيشرب عندها عسلا ، فتواطأت أنا وحفصة أن أبتنا دخل النبي صلى الله عليه وسلم عليها فلتقل له إن أجد منك ريح مغافير أكلت مغافير ، [فدخل على إحداها ، فقالت ذلك له ، فقال بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش ولن أعود » . وللمغافير صنع حلوه رائحة كريهة ينضجها شجر يقال له الرفط يكون بالحجاز .

وقد كانت عائشة وحفصة متصافيتين متظاهرتين على سائر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، ويقال إن النبي دخل عليها النبي صلى الله عليه وسلم وحرم على نفسه العسل أمامها هي حفصة ، فأخبرت عائشة بذلك مع أن النبي صلى الله عليه وسلم ابتكتها الخبر كما استكتنها ما أسرها به من الحديث الذي يسرها ويسر عائشة إذ قال لها لا تخبري أحدا ، وذلك الحديث أنه قال : « إن أبك وأبأ عائشة يكونان خليفتين على أمي من بدي » ، فصار السر لها بأمرين : بتحريم العسل الذي كان يقيه عند زينب بنت جحش ، وبأمر الخلافة اه .

هذا ملخص ما جاء في الأحاديث ، وفي الروايات تناقض يسير ، ولكن استخلصت الرشد المتفق مع سير الآية ، وهناك روايات أخرى مثل كون النبي صلى الله عليه وسلم شرب عندها العسل هي حفصة ، ومثل كون التحريم إنما كان لما رية القبطية للعسل ، لأن مارية القبطية كان صلى الله عليه وسلم دخل معها في بيت حفصة فنضبت حفصة لذلك فأرضاه بما تقدم ، فلندع ذلك الاختلاف ولنسر في التفسير على وجه واحد ، لأن قصة مارية لم تأت من طريق صحيح ، وكون المتظاهرتين حفصة وعائشة هو من حديث لابن عباس الروي في الصحيحين ، ولنشرح الآن في تفسير السورة فنقول ومن الله التوفيق .

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(يا أيها النبي لم تحرم) من شرب العسل (ما أحل الله لك تبغى مرضاة أزواجك) أي حال سكونك تبغى (وأنه غفور) لك تحريم ما أحل لك (رحيم) رحمتك حيث لم يؤاخذك (قد فرض الله لكم تحلة إيمانكم) أي قدر الله لكم ما محللون به إيمانكم ، وهي الكفارة المذكورة في سورة المائدة ، فيقال إن النبي صلى الله عليه وسلم لما قالت له حفصة أكلت مغافير وقال لها كما قال لعائشة : سقتني زبيب شربة عسل قالت : جرت نخله العرفط : أي أكلته فصار منه العسل ، حينئذ حلف ألا يشربه ، فموتب على ذلك ، أو شرع الله لكم الاستثناء في إيمانكم ، يقال حل فلان في يمينه إذا استثنى فيها ، وذلك أن يقول إن شاء الله عقيها حتى لا يحنث ، ويقال : إن تحريم الحلال يمين عند بعض الأئمة ، فسواء أكلان صلى الله عليه وسلم حلف فلا يفكر ، أو مجرد تحريم الحلال يمين فيفكر عنه فالأمر ظاهر ، لأن الكفارة مشروعة ، وما بعدها أخذ به بعض الأئمة ، والاستثناء في اليمين مشروع ، وقوله (والله مولاكم) متولى أموركم (وهو العليم) بما يصلحكم (الحكيم) المتقن في أفضاله وأحكامه (وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه) وهي حفصة (حديثاً) تحريم العسل ، ومسئلة الخلافة للذكور تين (فلما نبأت به) فلما أخبرت حفصة عائشة رضی الله عنهما بالحديث (وأظهره الله عليه) وأطلع النبي صلى الله عليه وسلم على إفشائه الذي يحزن قلب زبيب إذا علمته ، إذ ينكسر قلبها لما ترى من أن إحدى أزواجه صلى الله عليه وسلم قدرت أن تحتال حتى حلف ألا يشرب العسل في بيتها ، وذلك نكابة لها وألم عظيم ، وفي إفشاء أمر الخلافة خلل في سياسة الأمة وتخريق لجامعتها ، إذ يحصل التنافر والشقاق قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم على الخلافة كما حصل بعد وفاته ، وفي هذا تعجيل للمآثم بعد عقباه وجواب لما قوله (عرف بعضه) أي عرف صلى الله عليه وسلم حفصة بعض ما أفشيت من السر (وأعرض عن بعض) أي عن إعلام بعض ، كأن يذكر لها إفشاء مسألة تحريم العسل ويترك مسألة الخلافة لتلا تهلح وتحزن على إفشائه أشد من الحزن على إفشاء مسألة العسل مثلاً أو العكس (فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأني العليم الحبير) أي العليم بما تكنه الضمائر وبخفيات الأمور ، ثم خاطب حفصة وعائشة فقال (إن تتوبا إلى الله) فقد وجد منكما ما يوجب التوبة ، وهو ميل قلوبكما عن الواجب من امتحان حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم بحب ما يحبه وكراهة ما يكرهه ، وهذا قوله (فقد صفت قلوبكما وإن تظاهرا عليه) أي وإن تظاهرا عليه بما يسوءه (فإن الله هو مولاة وجبريل وصالح المؤمنين) فهؤلاء جميعاً ينصرونه (وللائكة بعد ذلك ظهير) متظاهرون ، أو فوج مظاهر له ، وإنما ذلك كله لعظم أمر إفشاء السر ، لاسيما في مسألة السياسة ، فانه ربما أزال دولة بتأمها بالثورات والفتن (عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات) منقادات مصدقات (قانتات) مواظبات على الطاعات (تائبات) عن الذنوب (عابدات) متعبدات (ساجدات) صائمات : إذ للصائم يسبح في النهار بلا زاد (نيات وأبكارا) أي عذارى جمع بكر ، يقال إنه صلى الله عليه وسلم غضب من إفشاء سره وجزاى حفصة بأن طلقها فجاءه جبريل وأمره بمراجعتها ، وقيل لا بل هم بطلاقها ، فقال له جبريل لا تطلقها فانها صوامة قوامة ، وإنها من نساءك في الجنة . ولما كان هذا القول خاصاً بأمر النبي صلى الله عليه وسلم وأزواجه أردفه بخطاب عام فقال : (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم) بترك المعاصي وفعل الطاعات (وأهليكم) بالنصح والتأديب (ناراً وقودها الناس والحجارة) أي ناراً تتعد بهما افتاد غيرها بالحطب (عليها ملائكة) تلى أمرها وهم الزبانية (غلاظ

شداد) غلاظ الأقوال شداد الأفهام (لا يصبون الله ما أمرهم) فيما مضى (ويفعلون ما يؤمرون) فيما يستقبل
 فليقت الله الناس ، وليؤسكوا للعاصي ، وليؤذّبوا نساءهم ، وينهون عما لا يهمل ، فرب امرأة أفشمت سرا
 فأهلكت أمة بتامها ، وأوقدت فيها نار الفتنة ، فإذروا أن تطوا سرهم إليهن ، فإذا كان الله عصمى أن
 يذبح سرى وأطعن عليه فليس يتفق لكم ذلك ، فليكن المرء سره لئلا تفسد امرأته عليه أمره ، وتنص
 عيشه ، وتصنع حياة المرء في قلق ونفس وهكذا لتكن المرأة سالحة ، وإلا كانت الحياة لا تطاق بين الزوجين
 وتنفوت على أهل المنزل المصالح المادية والمعنوية فيكون القوت ثم الموت ، فيجد الزوجان أنهما أضاعا حياتهما
 فلا يكون لهما جزء إلا جهنم ، لأن الناقص في أخلاقه وأعماله ليس له إلا ذلك « ومن كان في هذه أعمى
 فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا » .

واعلم أن الحياة المنزلية هي أس الحياة العمرانية ، ومن لم ينظم أهل بيته فهو عن تدير أمر الدولة أهمل
 فلم يستعن صلى الله عليه وسلم على امرأتين من نسائه باقه وجبريل والملائكة والمؤمنين إلا لما في أمر تدير
 المنزل وحياته من الأهمية ، ولم يذكر جهنم وزبانيته إلا لما في ذلك من سر حياة الأمة ، فالأمة مركبة من
 أسر ، والأسرات إذا كانت حياتها على غير أساس لحياة المجموع كذلك ، لأن الأمة ماض ، إلا أفرادها
 وهي فرد مكرر ، والفرد إذا كانت سياسته في الداخل غير منتظمة فقد ضاعت دولته ، هذا هو السر في ذكر
 الله والملائكة ، وذكر جهنم ونارها وحجارتها .

أمر الله المسلمين أن يقوا أنفسهم وأهلهم نارا ، فإر يوم القيامة بما جنيناه في الدنيا ، وهو في هذا المقام
 تنفيس العيش ، وضياح أمر الأسرة ، والشقاق والزجاج للتوالي ، وفي قوله : « لا يصبون الله ما أمرهم » إشارة
 إلى أن الأسرة إذا كانت مفككة الأوصال غير مجتمعة الرأي لا تطيع المرأة زوجها ولا الولد أباه كانت سائرة
 على نهج يخالف نظام الله الذي نظم السموات والأرض وجعلها مرتبطين ، وجعل ملائكته طوع أمره :
 « ومن يتمد حدود الله فقد ظلم نفسه » وذلك هو اللوجب لجهنم ، إن نار جهنم في هذا المقام لم تخرج عن
 كونها نتيجة للنافر والشاجرات والأكدار والتنفيس المفرقات للقلوب في الدنيا ، فإذا مات الناس دخلوا
 في جنس ما كانوا فيه في الدنيا ، فهل جزاء السيئات إلا السيئات ؟ قوم كانوا في نزاع دائم وقلوبهم لم تعرف
 في الدنيا إلا للشاجرات والشتائم ، فأين يذهبون إلا للمدارس التي استمدوا لها في الدنيا ، وهي مدارس نارية
 محرقة ، فقد أحرقت القلوب في الحياة بتنفيسهم ، فأحرقت الأجساد والقلوب معا بعد اللوت جزاء وفاقا ،
 ليكون ذلك طهارة لهم إن كانوا مؤمنين ، فأما الذين كفروا فيقال لهم (يا أيها الذين كفروا لا تتذروا اليوم)
 وذلك حين يعاينون النار (إنما تجزون ما كنتم تعملون) فإن أعمالكم السيئة ألزمتكم العذاب ، فإن الجهالة
 والناد وإنكار الحق قد وضعت على قلوبكم حجابا في الدنيا ، فلما تم حجبتكم عن الجمال للطلق كما يذب
 للمؤمنون بفعل العاصي كترك تأديب زوجاتهم ، وكفساد نظام الأسرات المترتب على ذلك ، ولذلك قال تعالى
 لهم : (يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا) بالغة ، وأذات نصح نصح صاحبها بترك المود إلى الذنب .
 والتوبة النصوح تجممها ستة أشياء :

(١) على الماضي من الذنوب التدامة .

(٢) وللغرائض الإعادة .

(٣) ورد للظالم .

(٤) واستحلال الحسوم .

(٥) وأن تعزم على ألا تعود .

(٦) وأن تربي نفسك في طاعة الله كما ربيتها في معصيته :

ثم قال تعالى (عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار) وفي ذكر عسى إطاع جريا على عادة الملوك ، وقوله (يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه) متعلق بـيدخلكم ، وفيه تمريض بأن الناوتين لهم يغزون ، حال كونهم (نورم يسمى بين أيديهم وبأيمانهم) على الصراط (يقولون) إذا أطفئ نور الناقين الذين - مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون - (ربنا آثم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير) ولا جرم أن الأنوار على مقتضى الأعمال فيسألون إتمامها (بأياها النبي جاهد الكفار) بالسيف (والناقين) بالحجة والزجر والوعيد (واغلظ عليهم) واشدد على الفريقين بالقول والقلم (ومأواهم) مصير الناقين والكافرين (جهنم وبئس المصير) جهنم . ولما كانت هذه السورة مسوقة لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، وأعقب ذلك أن أمر المؤمنين أن ينصحوا زوجاتهم ويؤدبوا أنفسهم وهدمهم بالنار ، ثم أتى بنصائح عامة أعقبه بما يفيد أن الرجل ليس عليه إلا ما أمر به ، والمرأة ليس عليها إلا ما أمرت به ، فإذا خالفت المرأة الرجل بعد نصحتها وأذنت ، وكان الرجل فاسقا والمرأة سالحة فلا ذنب إلا على المذنب منهما وليس على الآخر من سبيل ، وبين ذلك بمثلين : مثل للمرأة الفاسقة التي صلح زوجها ، ومثل للمرأة الصالحة التي كفر زوجها ، فسكل عليه وزره ، ولا يعمل من إثم صاحبه شيئا مادام قائما بما عليه خير قيام ، فقال تعالى (ضرب الله مثلا) بين الله صفة (للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين غفرتاهما فلم يقنيتاهما) أي لم يدفعها عنهما (من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين) فهاتان المرأتان لما خانتا الرسولين أدخلتا النار ولم ينفعهما صلتهما بالنبيين ، بل ذاقتا وبال أمرهما : هكذا هؤلاء الكفار يعاقبون على معاداتهم للمؤمنين بلا محاباة ولا ينفعهم ما بينهم وبين المؤمنين من النسب والمصاهرة ، ولو كان الذي يتصل به الكافر نبيا ، كما لم ينفع المرأتين لما خانتا الرسولين أنهما زوجتاها فمدبنا على خبائتها وإفشاءها أسرارهما ، فدخلت المرأتان النار مع سائر الداخلين ، إذ لافرق بين الشريف والصعلوك في العقوبة ، فهي لا تترك أزواج الأنبياء كما لا تترك أزواج العصاة والعصاة جميعا (وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون) وهي آسية بنت مزاحم ، فقد آمنت لما غلب موسى عليه السلام السحرة ، فلما علم فرعون بإعانتها عذبها فصرف الله العذاب عنها ، شبه حال المؤمنين في أن اتصلهم بالكافرين لا يضرهم بحال آسية ، فهي مرضية عند الله ، مع أنها متصلة بمن ادعى الألوهية ، إذ كر (إذ قالت) وهي تعذب (رب ابن لي عندك بيتا في الجنة) قريبا من رحمتك ، أو في أعلى درجات القرين (ونجني من فرعون وعمله) من نفسه الخبيثة وعمله السيئ (ونجني من القوم الظالمين) من القبط التابعين له في الظلم ، ثم عطف على امرأة فرعون قوله (ومريم ابنت عمران) التي لازوج لها فليقل بها الأرامل ، ففضل الله يسع الزوجات واللاتي لأزواجهن ، ثم وصف مريم فقال (التي أحصنت فرجها) حفظت فرجها من الرجل (فنفخنا فيه) في فرجها (من روحنا) من روح خلقناه بلا توسط أصل (وصدقت بكلمات ربها) بالشرائع التي شرعها الله لعباده بكلماته المنزلة على أنبيائه (فوكتبه) الكتب المنزلة على الأنبياء (وكانت من القانتين) المطيعين ، وهم رهطها وعشيرتها ، لأنهم كانوا أهل بيت وصلاح . انتهى التفسير اللفظي للسورة كلها ، والحمد لله رب العالمين .

خاتمة لتفسير هذه السورة

وازن أيها الذي بين أول السورة وآخرها تجد للمنى متسقا ، فإذا تظاهر على النبي صلى الله عليه وسلم امرأتان فهما ناران امرأتان : امرأة نوح ، وامرأة لوط تظاهرتا على عبدين صالحين وهما زوجاهما ، فإذا

حل بهما؟ أدخلنا النار ، ولم ينفعهما اتصالهما بالنبيين ، وهذا المثل وما بعده لم يجعله للزوجات لحسب ، بل عمم الأمر لكل امرأة عاصية أو كافرة اتصلت بمؤمن ، ولكل امرأة صالحة أو رجل صالح اتصل بكافر ، فهو في معنى : « لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم » ، وبهذا تم الكلام على (سورة التحريم) والحمد لله رب العالمين . كتب يوم الأحد ٢٣ ذى الحجة سنة ١٣٤٣ هجرية - الموافق ١٤ يوليو سنة ١٩٢٥ م .

تفسير سورة الملك

هى مكية

آياتها ٣٠ - نزلت بعد الطور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ * وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّمِيرِ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورٌ * تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنْ النِّيفِظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتُمْ خَزَنَتَهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا لَيْ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ * وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّمِيرِ * فَأَعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّمِيرِ * إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ * وَأَسِرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ * هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ * ءَأَمِنْتُمْ

مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ
 عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ * وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ
 نَكِيرٍ * أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ
 بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ * أَمْنَ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ
 الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ * أَمْنَ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ
 وَتُفُورٍ * أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ *
 قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ *
 قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُخْشَرُونَ * وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ
 صَادِقِينَ * قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ
 الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ
 مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ
 تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ
 يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ *

هذه السورة تشتمل على وصف السموات ، وأن نظام هذا العالم لا عوج فيه ولا اختلاف ، وعلى وصف
 عذاب الكافرين في الدنيا والآخرة ، وتخلل ذلك تذكير الإنسان بخلقه ورزقه وما أشبه ذلك .

إن الكلام على هذه السورة ينحصر في (ثلاثة أقسام : القسم الأول) في تفسير البسملة : أي ما ذكر
 فيها من الرحمتين مع جميع الرحمتين العشرين اللواتي في البسملة التي في السور العشر التابعة لها إلى سورة
 للرسالات (القسم الثاني) في التفسير اللفظي للسورة كلها (القسم الثالث) في اللطائف :

القسم الأول

في الكلام على الرحمتين المذكورتين في البسملة هنا مع جميع الرحمتين في السور العشر التي بعدها
 لما كانت الرحمتان المذكورتان في البسملة هنا في (سورة الملك) تقدم الكلام عليهما في أول (سورة
 المجادلة) وجب أن نحصر الكلام الآن في الرحمتين المذكورتين في السور العشر التي تليها من أول
 (سورة القلم) إلى (سورة الرسالات) فنقول :

إن الرحمت في هذه السورة موجّهات إلى تخليّة الأمم من الرذائل وتخليتها بالفضائل، ألا ترى أن العذاب الشديد والإنذار للناس في هذه السور يقصد به الإقلاع عن الآراء الشريرة، والأعمال الخبيثة، فذلك نجد هذه السورة مشحونة بالكلام على إهلاك الأمم في الحياة الدنيا، وعلى عذاب الآخرة، فهاتنا وجهت الرحمت إلى الإنذار وبه يتخلى الناس عن رذائلهم، فلا تخليّة بالفضائل إلا بعد التخليّة من الرذائل، فأما التخليّة بالفضائل فذلك ما جاء في غضون هذه السور من أخلاق نوح وصبره على قومه سنين وسنين، وما أبدع في الدعوة من شرح العوالم الملوّية والسفلية، فهذه فضائل في الأنبياء تخلّوا بها، وهكذا نبينا صلى الله عليه وسلم الذي نودي مرة بصفة الدثر في ثيابه والمزمل، فهذه نفوس كاملة تخلّت بصفات الجمال وناجت ربها في دياجي الظلمات، وعرفت أخبار الأرواح الناقصة المسحيات بالجن تريد تكيلها كما عرفت النفوس الكاملة في ذاتها اللاتي هي ملقيات ذكرا، فهذه النفوس الكاملة القائمة بذلك ذكرت في مقابلة الناقصة المتردية في هاوية الهلاك، وهؤلاء الكاملون يدعون الناقصين ليلاحقوا بهم في السكّال، وهناك نفوس متوسطة، وهي النفوس اللوامة، ولكن لها فضلها في الجهاد، وهناك نفوس أخرى كتبت أخلاقها فقيل لها: « يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا »، وهناك نفوس مفارقة للمادة، وهي التي عبر عنها بالملقيات ذكرا للاعذار وللانذار، فهذه مجامع ما في هذه السور من الرحمت، إن الإنذار بالإهلاك والتدمير والعذاب الأليم رحمة ليتخلى الإنسان بذلك عن الرذائل خوفاً من نتائجها، وهكذا معرفة أخلاق النفوس الكاملة (التوجهة لربها في ظلمات الليالي، وهي تدعوه وتناجيه وتسهر على إسعاد غيرها) تدعو حينئذ إلى الافتداء بها، فتوجه لخالقها، وتدعوه ليساعدها في ارتقاها وفي انتشال غيرها من أحوال المادة ورذائل الاخلاق:

هذه مجمل الرحمت في هذه السور إلى آخر (سورة الرسائل) فليبدأ في تفصيلها سورة سورة فنقول

ومن الله التوفيق:

الرحمت في سورة القلم

أقسم الله فيها بالقلم دلالة على شريف منزلته، وعظيم قدره، إن رحمة الله بالأقلام وفقن الكتابة ونشر الصحف واتساع نطاق المعارف رحمة عامة تضاهي في عمومها إشراق الكواكب والشموس وضياءها الأبرياء، وإذا أقسم الله بالقلم فقد أقسم بالشمس والقمر والنجم، ولكن نعمة القلم أعلى منزلة وأشرف وأكمل ألا ترى رعاك الله أن العلم وحده الذي يرفع الأرواح إلى العلى، بالعلم الهداية وورق النفس إلى السكّال، وبدون العلم الذي لا قيام له إلا بدولة القلم والإنشاء لا كمال لهذه النفوس، تلك النفوس التي أُنزلت إلى الأرض وعاشت بالأضواء الشرقة من الشمس والقمر والكواكب فالسكّال، السكّال للشرقات على الأرض كأنهن أظارير بين النفوس الإنسانية تربية أولية، ولكن نفوس الأنبياء والأقلام التي تكتب ما يقولون، والأقوال الحسنة هي السكّال لهذه النفوس، فالسكّال والأقلام والنجوم مقدمات، والأنبياء والعلماء نهايات، جل الله وجل العلم، سيأته القسم بالشمس، وتقدم القسم بالنجم والقمر، والقسم بالقلم جاء في الوسط بينهما، إن أمة الإسلام، وإن كانت اليوم ضعيفة القوة، فهي هي الأمة التي كانت سببا في انتشار التعليم بين الأمم كلها في أوروبا وفي الشرق الأقصى، العلم قد ملأ الأقطار، ولكنه في القرون الماضية قد تخطى أمة الإسلام، وأحاط بها من الشرق والغرب، كأنه يقال لهم: أيتها الأمم الإسلامية: أقسم ربكم بالقلم وبالعلم علمت الأمم، وبالعلم تلمت الأمم، إن هذه الأمة اليوم أخذت تتعلم وستنود الأمم إلى الفلاح، لأنها أمة وسط، وهم شهداء على الناس، ولن يكونوا شهداء على الناس بحق وصدق إلا بتعميم العلم الذي أقسم

الله بالقلم الذي يسطره ، إن رحمة الله عز وجل قد ظهرت نتائجها التي لا حصر لها في نشر العلم في العالم كله بالقلم بعد الرسالة المحمدية التي كانت سببا في بث هذه الروح في الأمم ، وأي رحمة أعظم من هذه ، وهي التي لا رحمة توازيها في كوكب ولا شمس ولا قمر وقد ظهرت على يديه صلى الله عليه وسلم والأجر سيكون على مقدار ذلك الإنتشار ، فإن نعيم الإنسان على مقدار آثاره بين الأمم ، وهل يكون الفضل منتشرا لا مري* إلا على مقدار ماله من الفضائل رحمة عامة بالمرغان ناجمة من الانصاف بأخلاق حسان ، فهل صاحب هذه الفضائل والموارف ينسب له الجنون كلا . بل إنه جاء ليكمل النفوس الناقصة اللاتي لا تعرف إلا اللداهنة ووذائل الأخلاق ، ولذلك أمر بالصبر على تكذيب المكذبين ، وحكم عليه ألا يقف في الفضائل دون الغايات ، فإذا رأى نبيا من الأنبياء كونس عليه السلام الذي لولا أن تداركه نعمة من ربه لبذ بالعراء وهو مذموم فاجتنبه ربه فجعله من الصالحين ، فإنه يصدع بما أمر به ويصبر لحكم ربه ولا يكون كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم ، إذن رحمة الله تعالى تجلت واضحة لرسوله صلى الله عليه وسلم في أخلاقه وعوارفه ، فهو صبور كما أمره الله ، ومن الرحمت في هذه السورة تبيان نتائج البخل الحاصل من أصحاب الجنة ، وكيف كان هذا الشرح سببا في إبادة وإهلاكها ، وكيف كانت التوبة عليهم نعمة وفيها بيان الفرق بين التقيين والمجرمين اه

(سورة الحاقة) — إن سورة الحاقة أشبه بتفصيل لما أجمل في (سورة القلم) فالرحمت فيها مفصلة لبعض ما أجمل في تلك ، ففي سورة القلم جعل الناس فريقين : فريق مجرمون ، وفريق مسلمون ، ولكل جزاءه ، وفيها أصحاب الجنة وأشجارها الذين لا يرعون الأخوة العامة ؛ وإنما يريدون اتباع شخ نفوسهم ، فهؤلاء ذاقوا عذاب الدنيا بإبادة أشجارها وأثمارها ، ولهذا المناسبة ذكر عذاب الآخرة وأنه أكبر ، فهانها جاء ذكر العذابين ، فثمود وعاد وفرعون وقوم نوح هلكوا ؛ وسيهلك العالم كله يوم القيامة ، فهانها تفصيل أتم لهلاك ، ففي سورة القلم هلكت جنة بشع أهلها ، وهانها ذكر هلاك أمم بل زوال الأرض وما عليها ، وتبع هذا ذكر ما سيلقيه الفريقان من عيشة راضية وعيشة ليس فيها طعام إلا من غسلين ، كل هذا من الرحمت الواسعة ، فذكر العذاب في السطور بوجه النفوس إلى الأعمال الشريفة التي تؤدي إلى النعيم .

(سورة المعارج) — ويقرب من ذلك وصف أوسع في (سورة المعارج) ، أفلا تعجب معي كيف أبان سبب ذلك كله . الله أكبر : إن الجنة والنار خلقنا لأجل هذه النفوس ، هذه النفوس المسكينة الخالوقة في أرضنا المحبوسة فيها قد جعلت بهيئة محزنة ، كيف لا وهي التي إذا مسها الشر جزعت ، وإذا مسها الخير منعت هذا هو السر الأكبر في هذا الإنسان ، الإنسان في عمومه أشبه بالطفل يبكي لأدنى شيء ، وإذا أعطى المال يخل به كأنه يظن أنه مخلوق وحده والناس مسخرون جميعا له وقد عمى عن هذا الجمال الرائع في السموات والأرض والأنهار ، والجمال الذي به ينتفع البار والفاجر ، جهل هذا الإنسان المسكين أنه يشترك مع جميع نوع الإنسان في المنافع ، فإذا لم يفكر إلا في نفسه ، فهذا هو المبدأ الأول لإذلاله وشقائه ، فأصحاب الجنة بادت أشجارهم فيها ، لأنهم لم يفكروا في غيرهم من الناس . فهذا أشبه بذكر السبب الذي به عوقبوا بذلك ، لأنهم منعموا الخير عن الناس (وببشارة أخرى) إن الإنسان خلق ليعلم ، ومن أجل الأعمال اتجاه النفس للمنفعة العامة عموم الأنوار وعموم المنافع القلبية العلية بين الأمم ، ومن أجل الرحمت في هذه السورة تلك الصفات الشريفة التي بها يثقل الإنسان نفسه فتضوه وتشرق بعد إظلامها بحب النفس ، [وببشارة أخرى أيضا] إن النفس في أول أمرها تميل إلى أن تختص بكل نعمة ولا تفكر في غيرها كما قدمنا ، وعليها وحدها بإذاعة الله أن تثقل بصقال الكمال فتصير مهذبة ، وذلك بالعبادات وإفناق المال في وجوهه ، فتكون للإنسان في حياته وجهات ثلاثة ، وجهة إلى نفسه يكملها ؛ ووجهة إلى ربه ليعبده ،

ووجهة إلى الناس فيكون نافعاً لهم . فأما تكميل نفسه فذلك بالأخلاق الفاضلة كحفظ الأمانة ، والصدق في الوعد والهدى ، وإليه الإشارة بقوله : « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » . وأما توجهه إلى ربه فذلك بنحو الصلوات ، وإليه الإشارة بقوله : « إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون » . وأما وجهته إلى الناس ، فذلك أنه يمد يد المساعدة لهم ، وإليه الإشارة بقوله : « والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » إذن أعظم أسرار هذه السورة أنها كشفت القناع عن سر الأسرار ، وهو هذه النفس ، وأبانت أنها ناقصة ، ولن يخرجها من هذا النقص إلا تهذيبها باجتهاد الإنسان وجده هو بنفسه والمثابرة على الصبر على الاعمال الشريفة وعن الشهوات ، وذلك تفصيل لما أجمل في آخر (سورة القلم) من قوله تعالى : « فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم » والحياة لا كمال فيها إلا بالصبر ، ومن الصبر ما أسبغ عليه صلى الله عليه وسلم إذ كان الدين كفروا عن يمين وشمال يؤذونه فصر ففاض ، هكذا كل امرئ في الدنيا لا سعادة ولا فوز له إلا بالصبر على تحمل المشاق في أمر تهذيب نفسه وتكميل غيره هذا من أسرار تسمية هذه السورة بالمعارج ، إذ لا خروج ولا صعود إلا باستخراج ما كمن في النفوس من السكالك والجلال ولن يتم ذلك إلا بصفتها من الأدب والأخلاق الناقصة ، فهي إنما تخرج من حال نقصها المبر عن بقوله تعالى : « إن الإنسان خلق هلوعاً » إلى كمالها بالأدب التي شرحناها هنا ، وهي مأخوذة من آيات السورة . (سورة نوح) — ويتلو ذلك في وضوح الرحمة إنذار نوح عليه السلام لقومه ، وكيف هلكوا بعد أن أنذروهم فلم يسموا ، ولكن في هذه السورة اتضح جمال النفوس وبهاؤها ، ففي التي قبلها شرح الله كيف يكون معراج النفس من خستها ، وفي هذه السورة أبان كيف تلبس تاج العرفان . وكال الإنسان كالان : كمال علمي ، وكال أدبي ، فالكمال الأدبي تقدم في السورة قبلها إذ يصف قوما بأنهم ينفقون من أموالهم . وبأنهم حافظون فروجهم الخ . وهاهنا ذكر السكالك العلمي بطريق شيق . إذ ذكر خلق السموات وإنارة القمر فيها ، وإشراق الشمس . وذكر النبات بعد أن ذكر التوبة والاستغفار . فهو لم يطل القول في السكالك الأدبي لأنه تقدم في السورة قبلها . ولكنه فصل القول تفصيلاً في السكالك العلمي الذي لا تمام له ولا كمال إلا باستيفاء السكالك الأدبي أولاً ، ولذلك عوقب القوم أشد عقاب . هلاك في الدنيا وعذاب في الآخرة : لماذا ذلك ؟ لأنهم أعطوا علماً جما فأعرضوا عنه :

(سورة الجن) — طال القول في هذه السور في الكفر والإيمان . والمعاصي والطاعات والنعيم والعقاب يفصل بعضه بعضاً ، ويتبع بعضه بعضاً . ولكن بقيت هناك نقطة لا بد من تفصيلها . وهي قوله تعالى : « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » ، فالعالم متشابه . فهذه الأرض التي نسكنها ظهر اليوم أن العناصر فيها هي أنفسها من عناصر الشمس : واستبان أيضاً بالكشف الحديث أن أشعة المعادن في الأرض مثلا ككأشعة العناصر التي في الشمس ، فهذه العوالم من هذه الجهة لا تتفاوت فيها . وإذا كان ذلك كذلك في العالم المادي فهكذا يرى العالم الروحي : فإذا كان في عالم الإنسان وهو العالم العاقل المنظور فيه مسلمون وفيه مجرمون . هكذا في عالم الجن العاقل الذي لا يراه مسلمون ومجرمون . فإذا كان هناك تشابه بين عناصر الأرض والشمس في العالم المادي . فهكذا هناك تشابه بين عالم الجن وعالم الإنسان باعتبار أن الجميع من العالم الذي يحس ويعقل ، وهذه الدرجات المختلفة في نوع الإنسان يرى نظيرها في عالم الجن الذي لا يراه ، وهذا كله طبعا سمعي لا يدخل للعقل فيه ، ولذلك جاء في هذه السورة بطريق الوحي ، فكأن السور السابقة على هذه السورة كانت أقرب إلى عالم الشهادة ، وهذه السورة صارت أقرب إلى عالم الغيب الذي جاء به الوحي . ولما وصلت الحال إلى ذلك العالم الغائب عنا وجاء فيه ذكر الوحي ناسب أن يشرح كيف كان بدء ذلك الوحي فأتى بسورتي :

(للزمل والمدثر) — وفيهما صفتان عامتان : صفة الإشراق في النفس ، وصفة هداية النفوس الأخرى ، فأما إشراق النفس فلن يكون إلا بالتهجد وقيام الليل ، لأن الروح لا تقوى على تحمل الشاق إلا بإشراقها ، والقيام بالليل معين لها على ذلك ، لأن الإنسان إذ ذاك يخاطب ربه كأنه يراه ، وهذه ترفع النفس عن هذا العالم اللادى ، فإذا كملت بذلك رقت إلى درجة أعلى ، وذلك بأنها تفيض النور على غيرها ، وأول الأمرين واضح في سورة الزمل ، وثانتهما واضح في سورة المدثر ، ففي أولهما تكميل النفس ، وفي ثانيتهما تكميلها لغيرها ، والثاني مرتب على الأول ، ولذلك جاء بعده :

(سورة القيامة) — ولما كانت النفس الكاملة في نفسها تكمل غيرها (والكمال على قسمين : كالبدئي ، وكمال نهائي ، فالكمال البدئي أن تصير النفس لوامة تجاهد للكمال ، والكمال النهائي أن تكون النفس كاملة ، وإن لم تصل لدرجة من علمها) جرى بسورة القيامة أولا وفيها ذكر النفس اللوامة ، وأتبع بسورة (الإنسان) وفيها ذكر النفس الكاملة التي وإن كانت مخلوقة من أمشاج وأتليت بأنواع من المهن فإنها فازت ونجحت ، وصارت من الأبرار ، وشربت من كأس كان مزاجها كافورا ، وصارت نفسا مطمئنة تعطى لا لجزاء ولا لشكور :

(سورة الرسائل) وهذه النفوس المتقدمة نهاية سعادتها أن تكون في جوار تلقى الأمر والنهي عن الله نفسه في العالم الثاني كما يتلقى للملائكة الكرام المذكورون في أول (سورة الرسائل) عند آية « فالملقيات ذكرا » ويتخلل ذلك الإنذار والتبشير ، وذكر العذاب والتعيب . هذا يجعل الرحمت في هذه السور الشر من (سورة القلم) إلى (سورة الرسائل) وإعناقلنا ذلك هنا بحافة التطويل ، لأن الرحمة تقدم الكلام عليها كثيرا في هذا التفسير ، والرحمة لا حد لها ولا حجر عليها ، ولنتشرع الآن في تفسير السورة فنقول ومن الله التوفيق :

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(تبارك الذي بيده الملك) فله الأمر والنهي والسلطان ، فيمن من يشاء ويذل من يشاء (وهو على كل شيء قدير) من الممكنات ، ومن ذلك الإنعام والانتقام (الذي خلق الموت والحياة) قدرهما (ليلاوكم) ليما لمكم معاملة المختبرين أيها الكلفون (أيبك أحسن عملا) أسويه وأخلصه ، وأحسن عقلا ، وأورع عن محارم الله ، وأسرع في طاعته (وهو العزيز) الغالب المنتقم ممن عصاه (الغفور) لمن تاب إليه (الذي خلق سبع سموات طباقا) طبقا على طبق بعضها فوق بعض ، يقال : طبقت النعل إذا خصفتها طبقا على طبق ، فهو من باب الوصف بالمصدر ، والكلام على السموات وتحقيقها وكونها سبعا قد سبق في سورة البقرة فلأنبيده (ماترى في خلق الرحمن من تفاوت) وقرئ : من نفوت ، كالتعهد والتعاهد وهو الاختلاف وعدم التناسب ، فإن كلامنا للتفاوتين فات عنه بعض ما في الآخر ، والجملة صفة ثانية لسبع ، وضع فيها خلق الرحمن موضع الضمير للاشعار بأنه يخلق ذلك بقدرته الباهرة رحمة وفضلا ، وأن الرحمة عامة في هذه العوالم (فارجع البصر هل ترى من فطور) الفطور الشقوق ، والقصد ومنها الخلل من فطره إذ اشقه فكأن الخلل في نظامه مشقوق متباعد كل شق منه عن الآخر (ثم ارجع البصر كرتين) رجعتين أخريين في ارتياد الخلل : أي ارجع البصر مرارا كثيرة كافي ليك وسمديك إن أرجعت البصر تطلب أن ترى ذلك الخلل (ينقلب) ينصرف (إليك البصر خاسئا) صاغرا ذليلا مبعدا لم ير ما بهوى من الخلل كأنه طرد عنه طردا (وهو حسير) كليل منقطع لم يدرك ما طلب من أن يرى خلا في النظام ، ثم أعقبه بذكر بعض ما يرى من النظام الشاهد وجماله

لتكون زينته وحسنه دليلا على جمال ماوراءه من حسن النظام والإتقان والإحكام فقال (ولقد زينا السماء الدنيا) القربى من الأرض ، وهي التي يراها الناس (بمصاييح) كواكب مضيئة بالليل ، فكما زين الناس منازلهم ومساجدهم بمصاييح ، وهي السرج التي يوقدون فيها هكذا زين الله سمواته بمصاييح ، ولكن لانسبة بينهما وبين مصاييحكم ، والتعبير بمصاييح لينبه الناس إلى القياسة والموازنة بين السرج والكواكب التي سماها بأسماء السرج في البيوت ليلاحظوا الفرق بين النظامين نظام منازلنا ونظام السموات العام ، فإذا كان الناس ينظمون منازلهم وينتهي نظامها بالسرج ، هكذا نظم الله السموات وزينها بالكواكب والنسبة بين نظامنا ونظامه كالنسبة بين سرجنا في البيوت وبين الكواكب ، فليس رجوع البصر كرتين يجعله ينقلب مقطوعا عن أن يرى خلافا للنظام لحسب بل الأمر أعظم ، إن النظام يفوق جماله الحصر ، وأي نسبة بين سرج الناس وسرج الله ، فأرضنا بالنسبة لبعض الكواكب لا قدر لها فضلا عن جلالها وعن السرج في البيوت ، فكان قوله : « الذي خلق سبع سموات طباقا » انتقال من الكلام عن اليأس من رؤية الخلل إلى القول بأن النظام لا حد له ، فهو ترقى في الوصف ، يقول أولا إن النظام لا خلل فيه ، ثم يقول بل الأمر أعظم من ذلك ، وضرب مثلا بالسراج والكواكب ، كل هذه المعاني تؤخذ من التعبير بلفظ مصاييح ، ولمرعى من هذا تشم بلاغة القرآن ، وبهذا فلتعرف ، عبر بالمصاييح مشيرا إلى عدم تنامي الحسن ودقة النظام ، وليس عند نوع الإنسان من قوة يدرك بها علو النظام وغاية الإتقان أكثر من التعبير بمصاييح ، وقوله (وجعلناها رجوما للشياطين وأعدنا لهم عذاب السعير) إتمام للكلام على النظام ، يقول : إن النظام للتناهي في الحسن لا يتم إلا بجمع الأضداد بحيث لا يكون أحد الضدين بدون الآخر ، فهذه المصاييح التي زينا بها السماء لا تقف عند الزينة بل بأضواء الكواكب والشموس يكون مافي الأرض من رزق وحياة وموت تبعاً للناموس الذي سنناه ، والقدر الذي أمضيناه ، فيكون في العالم الإنساني وعالم الأرواح التي فارقت أجسادها نفوس تتقاذفها الأهواء في عالم المادة ، وتصطهر بأنواع الذنوب والشهوات في الدنيا ، وتفتحم ما نهينا عنه بحيث تفتتها الشهوات ، وتجذبها للذات التي نجحت من العناصر المتفاعلة بسبب الأضواء الشعة النازلة من عالم الكواكب للشرقة في السماء التي هي زينتها ، فهي كما كانت زينة السماء ، وأسبابا لرزق ذوى الصلاح والأنبياء والعلماء والحكماء ، هكذا هي سبب لتكون الأرزاق المهيجة لشهوات شياطين الإنس وشياطين الجن ، وهذا العالم قد اختلط فيه الضر بالنفع بحسب ما يظهر ، وخلق كل على حسب ما استعد له ، فالنفوس التي هي مستعدة للفضائل والنفوس الشريرة كلاهما استعد من هذه المادة السخرة للقهورة بالقدرة التي أضادت الكواكب فأشرقت عليها وبها تكونت صور الحيوانات والنباتات ، فإذا النجوم صارت سببا لعذاب النفوس الخبيثة بما سببت لها بأمر الله غذاءها وشهواتها ، ومن ذلك أن النجمين تكون لهم فيها رجوم وظنون ، فهم أيضا من شياطين الإنس فالعصاة شياطين ، والنجمون شياطين ، والمائدون الجاحدون شياطين ، كل هؤلاء استمدوا شيطنتهم من مظاهر الطبيعة المصورة بواسطة الحرارة والضوء من الكواكب ، وهذا معنى قوله : « وأعدنا لهم عذاب السعير » أي في الآخرة ، فمن كان محترقا بالذات في الدنيا وانجذب إلى الشهوات وقالت له نفسه هل من مزيد منها ، وغفل عن جمال هذه العوالم ، ولم يعرف من هذه العوالم إلا شهواته ، أما عقله فإنه قد حجب عن الجمال والكمال ، فهذا هو الذي هيء له عذاب السعير على مثال ما عود نفسه في الدنيا ، إن الجمال في العالم الذي لا حد له التمدج في ذكر مصاييح لا تعرفه النفوس المحجوبة ، إن السماء قد أضادت على البر والفاجر ، فالفجار حصرت نفوسهم في شهواتهم فلم ينظروا إلى السماء فوقهم نظرا ففكر وعقل ، وكأنه قيل : ارجع البصر يا محمد هل ترى من اختلاف في طراز هذا العالم ، بل ليس لهذا

النظام نهاية في الحسن ، ولكن ليس يعقل هذا إلا نفوس شريفة لم تنحصر في شهواتها ، بل كان لها إدراك يفوق غيرها من الناس ، فأما الشياطين وهى النفوس الناقصة فليس لها حظ من الحياة إلا ما به قوام الجسم ، وكما أن أنوار الشمس فيها حرارة وضوء ، وبالحرارة تكون الحياة ، وبالضوء تكون الهداية ، هكذا النفوس الناقصة لم تأخذ من آثار الكواكب والشموس إلا ما به الحياة الناجمة من آثار الحرارة ، أما هداية العاقلة التى ترسمها الأضواء للأبصار وتلقاها البصائر بالبحث والتنقيب ؛ فهؤلاء الشياطين مبعدون عنها ، وهؤلاء هم الذين أعدنا لهم عذاب السعير فى الآخرة لأننا نضع كل شيء فى موضعه فندخلهم فيما يشاء كل حالهم فى الدنيا وهم كانوا محبوسين فى نيران الغضب ، ونيران الحرص ، ونيران البخل ، ونيران الحقد ونيران الطمع وهكذا ، فهذه النيران كلها تطلع على القلوب بعد الموت ويوم القيامة ، ثم تصير نارا مشاهدة يراها كل امرئ ملازمة : « إن عذابها كان غراما » .

ولما كان الكفار من شياطين الإنسان أو تلاميذهم الذين يصغون لوسوستهم أعقبه بقوله : (وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير ، إذا ألقوا فيها ممعوا لها شهيقا) صوتا كصوت الخمر (وهى نفور) تظى بهم غليان الرجل بما فيه (تكاد تميز من الفئط) تتفرق غضبا عليهم ، وهذا من باب الاستعارة التمثيلية يمثل شدة اشتعالها بهم (كما ألقى فيها فوج) جماعة من الكفرة (سألمهم خزنتها ألم يأتكم نذير) يخوفكم هذا العذاب ، وهذا سؤال توبيخ (قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا مازلنا نزل الله من شيء إن أتمم إلا فى ضلال كبير) واللعن أفرطنا فى التكذيب (وقالوا لو كنا نسمع) كلام الرسل فنتقبله اعتقادا على ملاح من معجزاتهم (أو نعقل) فنتفكر فى حكمه ومعانيه مستبصرين حتى نوقن بقولنا (ما كنا فى أصحاب السعير) فى عدادهم (فاعترفوا بذنبهم) حين لا ينفعهم ، والاعتراف إقرار عن معرفة (فسحقا لأصحاب السعير) أى بعدا : أى أبعدهم الله من رحمته (إن الذين يخشون ربهم بالغيب) يخافون عذابه حال كونه غائبا عنهم لم يعاينوه بعد أو حال كونهم هم غائبين عنه (لهم مغفرة) لتوبهم (وأجر كبير) فلا نسبة بينه وبين لذات الدنيا ، ثم أخذ يشرح عموم علم الله بالغيب والشهادة لمناسبة قوله « يخشون ربهم بالغيب » (وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه علم بذات الصدور) أى بالظاهر قبل أن يعبر عنها سرا أو جهرا (ألا يعلم من خلق) ألا يعلم السر والجهر من أوجد الأشياء على مقتضى علمه وحكمته ، وكيف يخلفها وهو لا يعلمها ؟ (وهو اللطيف) باستخراج ما فى الصدور (الخبير) بما فيها من السر والوسوسة ، فهو حقيق إذن أن يخشى بالغيب ، فكأن هذه الآيات لتبيان أن خشية الله بالغيب واجبة (هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا) لينة سهلة ليسهل لكم السلوك فيها ولا يمتنع للشئ فيها لحزوتها وغلظها وخلق فيها أنواع المعادن والحجارة والطين وسائر المواد التى تصلح للأنواع المختلفة من الصناعات والأعمال ، فمن طين خاص للأواني إلى حجارة مختلفة للبناء ، إلى جبال طلبة الهواء ، وأخرى مكسوة بالأشجار ، إلى أرض صالحة للزراع ، إلى أخرى لا تصلح ولكن تستخرج منها المعادن ، إلى صحارى واسعة وفيافى قاحلة كالتى بين مصر وطرابلس ، يقل فيها الماء تنصب سكانها لتكون فاصلة بين المالك ، ليقل تحرش بعضها ببعض ، ولينظف فيها الهواء من العفونات ويلطف ويكون بمثابة مرشح الماء ليصلح للشرب إلى جهات ثلجية فى القطبين تبقى ماثات الألوف أو عشراتها لتستريح من الأعمال النباتية والحيوانية حتى إذا جاء أجلها أدبرت الأرض دورة بمحدث لجأتى فصار القطب خط استواء وبالعكس ويتبدى دور العمل ، والدليل على ذلك أن جهة القطبين قد وجد بالقرب منها فيلة عظيمة مطمورة فى باطن الأرض مما دل على أن هذه الجهات كانت خط استواء فاقبلت فجأة إلى قطبين ، فالأرض مذلة لنا وفيها مالا يحصى من النافع فلذلك أعقبه بقوله (فامشوا فى مناكبها) فى جوانبها مشيا عقليا ومشيا عمليا ،

فالقلى بالاستدلال وبالبحث في منافعها ، والعمل باستخراج ما فيها من المنافع والمعادن (وكلوا من رزقه)
والتمسوا من نعم الله (وإليه النشور) للزجج فيسألكم هل شكرتم نعمه ؟ هل قبلتموها وانفتم بها حتى
تؤدوا شكره ؟ :

ولما ذكر نعمه أخذ يحذر من عقوبته فقال : (أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي
تمور) أى أمنتم الله الذى هو فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم : أى أمنتم خسفه بكم الأرض كما
خسف بقارون فإذا هي تضطرب أى تحرك الأرض عند الخسف بكم حتى يقلبكم إلى أسفل وتعلو الأرض
عليكم وتمور فوقكم ونجى ، وتذهب (أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا) أى ريحا ذات حجارة
صغار كما فعل بقوم لوط (فستعلمون كيف نذير) كيف إنذارى إذا شاهدتم للنذر به ولكن لا ينفعكم العلم
حينئذ ، وكيف يأمنون من فى السماء أن يصب عليهم العذاب من فوقهم ومن تحتهم ؛ وقد ذل لهم الأرض
وزين لهم السماء بمصابيح ، فإذا لم يشكروا النعمة بالبحث فيهما والانتفاع والتفكر فهو حرى أن يقلب
النعمة نعمة ، فإذا زين السماء وذل الأرض فهو قادر أن يجعل المزين والمذل للتعذيب وللانعام إذا لم يكن
للنعمة موضع ، وكيف يأمنون ذلك وقد حصل لمن قباهم من الأمم (ولقد كذب الذين من قباهم فكيف
كان نكير) أى إنكارى عليهم بإنزال العذاب تارة من تحتهم وتارة من فوقهم . إن الله كما ذل الأرض
وزين السموات لم يذر ما بينهما بلا نظام ورحمة (أو لم يروا إلى الطير فوقهم) فى الهواء ، صافات باسطات
أجنحتهن فى الجو عند طيرانها (ويقبضن) أى ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهن وقتنا بعد وقت الاستظهار
بذلك القبض على التحريك ، والمعنى ويصفغن ويقبضن ، وذلك أن الطير فى أكثر الأوقات يكون صافا
أجنته ، ثم هو يقبضها وقتنا بعد وقت ، فالقبض هو الأصل ، والقبض يكون أنا فأنا (ما يمكن) فى
الجو حال القبض والبسط وهن أجسام كثيفة من طبيعتها أن تقع على الأرض بالجاذبية (إلا الرحمن) الذى
خلقهن على شكل خاص أدهش علماء العصر الحاضر حينما شرعوا فى فن الطيران فأدركوا بعض تلك الحكم
التي قاومت طبيع الجاذبية وجعلت الهواء مسرحا للطير كما تسرح الأنعام فى البرية . إن هذه الحلقة دقيقة
الصنع حتى إن الطائر فى خلقه مختصر من الأنعام فوق الأرض ، فشكل عضو كثيف فى الأنعام عضو يقابله
فى الطير غاية فى الخفة أو الصغر أو اللطف ، فكيف ترى الجناحين قد خف سمهما وقد كسبا بالريش
الخفيف السكون من أنابيب مجوفة وشعرات حريرية ، وجعل لها المنقار مديبا كيلا تصادم الهواء فى طيرانها
فيرق جريها بخلاف ذوات الأربع فإن وجوهها عريضة وأرجلها المقدمة القامة مقام الجناحين ثقيلة منبهة
بما تعتمد عليه عند سيرها فى الأرض من حافر أو خف أو ظلف ، لذلك أعقبه بقوله (إنه بكل شئ عبير)
أى يعلم كيف يخلق الغرائب ويدير العجائب ، وإذا كانت هذه بعض العجائب التي أبرزناها والحكم التي أظهرناها
فهل أمنتم أن تدبر بحكمتنا عذابا نصبه عليكم صبا ، فنحن نغير النظم بحكمتنا ، فقد أبدعنا الطيور فى الجو
فقويت على مغلبة ثقلها فلم تسقط على الأرض ، هكذا نحن نقدر أن نغير حالكم ونهلككم بقدرتنا وحكمتنا
فمن ذا الذى ينصركم منا؟ ألكم جنود يمنعونكم من عذابنا وقد رأيتم سطوتنا وبطشنا ؟ (أمن هذا الذى هو
جند لكم بنصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا فى غرور) لامتد لهم ، وعبر بلفظ الرحمن فى مقام
العذاب إشعارا بأنه برحمته أبقى الناس فى الأرض مع ظلمهم وجهالهم ، لأن رحمته وسعت كل شئ ، وسعت
البار والفاجر ، والطير فى السماء ، والأنعام على الأرض (أمن هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه) أم من
يشار إليه ويقال هذا الذى يرزقكم إن منع المطر عنكم أو أوقف الهواء فلم تجر الرياح ، أو جعل ماء البحر
غورا ، ومحصل ذلك أنكم لا جند لكم ينصرونكم إن عذبكم ، ولا رازق يرزقكم إن حرمتكم ، فلما لم يتظنوا

أضرب عن ذلك وقال (بل لجوا) تمادوا (في عتو ونفور) في عناد وشراد عن الحق (ألن يمشى مكبا على وجهه أهدى أمن يمشى سويا على صراط مستقيم) يقال كعبته فأكب : أى أمن يمشى وهو يمشى كل ساعة ويخرط على وجهه لوعوث طريقه واختلاف أجزائه أهدى يمشى قويا سالما من العثار على طريق مستوى الأجزاء والجهة ، فالمكب على وجهه مثل الشرك ، والذي على صراط مستقيم مثل الموحد ، وهذا المكب على وجهه هو الذى يمشى على وجهه في النار يوم القيامة ، ومن يمشى سويا الآن بالتوحيد هو الذى يمشى على قدميه إلى الجنة .

ولما ذكر فيما تقدم زينة السماء وتذليل الأرض وإمساك الطير في الهواء أخذ هنا يذكر ما هو أقرب إلينا وهو خلق أنفسنا فقال : (قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار) لتسموا للواعظ ولتنظروا صنائمه فتبهجوا بزينة السماء بالكواكب وتسخير الأرض وتذليلها ، وتعلقوا كيف أمسك الطير في جوار السماء (والأقنعة) لتفكروا فيما ذكر وتعتبروا وتستفيدوا فوائد مادية وأخرى عقلية (قليلا ماتشكرون) باستعمالها ثم لحص هذا كله فقال : (قل هو الذى ذرأكم في الأرض) بقوله « ذرأكم » أى خلقكم يشمل السمع والبصر والعقل ومنافع الأعضاء ، وقوله « في الأرض » يشمل جميع النافع المذكورة من تذليلها وتسهيلها وإشراق الكواكب عليها الخ وما فوقها من طيور في الجو ، وقوله (وإليه تحشرون) أى للحساب ، هل شكرتم هذه النعم ؟ هل فكرتم فيها ؟ هل عقلت ذلك ؟ :

ولما أتت الكلام على النعم والحساب عليها أخذ يذكر المنكرين لتلك النتيجة الغائبة عنا وهى الحشر والقاب فقال : (ويقولون متى هذا الوعد) أى الحشر وما يتقدمه من الحسف في الدنيا وإرسال الحاسب (إن كنتم صادقين) أيها النبي وللمؤمنون (قل إنما ألم عند الله) أى علم وقته (وإنما أنا نذير مبين) أيين لكم الشرائع (قلما رأوه) أى العذاب للوعود (زلقة) أى حال كونه قريبا منهم (سيئت وجوه الذين كفروا) أى ساءت رؤية الوعد وجوههم بأن عتيا الكتابة واليساء ، وغشيتها القفرة والسواد (وقيل) هذا الذى كنتم به تدعون) أى وقال الزبانية هذا الذى كنتم تسألون تعجيله وتقولون اثنتا بما تعدنا استهزاء ، بقوله « تدعون » على هذا من الدعاء لامن الدعوى فهو على وزن تفتعلون (قل أرايتم إن أهلكنى الله) أماتنى (ومن معى) من المؤمنين (أو رحمتنا) بتأخير آجالنا (فمن يجير الكافرين من عذاب أليم) وهذا القول لشركى مكة الذين كانوا يتمنون هلاكه صلى الله عليه وسلم ومن معه ، يقول : إن هلكنا أو رحمتنا فلا يجير لكم من العذاب ، وقد فرها ابن عباس بما يأتى :

« أرايتم إن أهلكنى الله » أى فعدبى « ومن معى أو رحمتنا » أى ففقر لنا فنجن مع إيماننا خائفون في أن يهلكنا بذنوبنا ، لأن حكمه نافذ فينا ، فمن يجيركم أو يمنعكم من عذاب أليم وأنتم كافرون ١١٢ .
ثم قال (قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو في ضلال مبين) منا ومنكم (قل أرايتم إن أصبح ماؤكم غورا) غائرا في الأرض بحيث لا تاله الدلاء (فمن يأتيكم بماء معين) جار أو ظاهر سهل المأخذ : أى أخبرونى إن صار ماؤكم ذاهبا في الأرض فمن يأتيكم بماء ظاهر تراه العيون ؟ إذن لا بد أن يقولوا هو الله تعالى ، حيث يقال لهم : فلم نجعلون معه من لا يقدر على شيء أصلا شريك له في العبادة ! انتهى تفسير السورة اللفظى ، والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذه السورة

- (١) في قوله تعالى : « الذي خلق الموت والحياة » .
 (٢) وفي قوله : « ولقد زيننا السماء الدنيا بمصابيح » الخ .
 (٣) وفي قوله : « أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات » .
 (٤) وفي قوله : « قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار » الخ .

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى

« الذي خلق الموت والحياة »

لنتظر الآن لم قدم الموت على الحياة ، وكيف يتبدى السورة بما يفيد أن خيره عام شامل ، ثم يتبدى بذكر الموت مع أن الموت عدم ، والعدم ليس خيرا لا كثيرا ولا قليلا ؟ فنجيب على ذلك فتقول :
 إن النظر السطحي في هذه الأرض التي نسكنها والجهل بما اللذان جملا أهلها معذنين ، فالجهل سبب العذاب في الدنيا بالنذلة وسبب العذاب في الآخرة بجهمهم وبأنواع الذل والإهانات ، ومن الجهل عدم فهم نعمة الموت ، إن الموت مزرعة الحياة وحقلها ، ولولا الموت لم تسكن الحياة ، فتقديم الموت أشبه بتقديم السبب على المسبب والأصل في الفرع ، وإيضاحه أن تقول :

إن الحيوان والنبات هما اللذان يعترهما الموت والحياة ، وقد وضع الله في طبيعة أكثر النبات وأكثر الحيوان كثرة القدرة كثرة مفرطة جدا ، وتلك الكثرة الطبيعية لحكمة ، وهي أنها تكون ضمانة لبقاء الأنواع على الأرض ، فلولا هذه الكثرة المفرطة لانقرض كثير منها ولم يعوض بثله في الأرض ، فلو تركت تلك القدرة المتعاقبة حينئذ من الدهر لامتأ وجه الأرض بالحيوان فلم تعد الأرض تصلح لحيوان جديد ، فموت هذه المخلوقات وسرعة فنائها هي النعمة العظمى لأنها تخلى وجه الأرض لما بعدها ، فالموت أشبه بالتحلية ، والحياة أشبه بالتحلية ، وهذا هو السر في تقديم الموت ، ولأضرب لك مثالا لذلك فأقول :

(١) إذا نظرت إلى مقدار مافي النخل من لقاح ، ومافي النذرة مما ينتشر في الهواء أو يقع على الأرض نجد لو صادف صلاحا وأثمر كله لم تسعه الأرض .

(٢) كلنا نرى السمك ومافي باطنه من القنادير الكبيرة من البيض الصغير الدقيق جدا وهو عدد غزير كثير يسمى (البطروخ) يأكله الناس ويباع في الأسواق ، فلو أن هذا البيض كله صار ممكنا لأصبح البحر للملح قطعة جامدة .

(٣) نرى أن في البيوت من أنواع الحشرات كالبق والبراغيث وأمثالها ما لو تركت ولم يهلكها الناس ولم يسلط عليها البرد فهلكها وغيرها من الحشرات كالجراد وغيره لأصبحت الأرض كلها مظفة بطبقة منها فامتعت الحياة عليها :

(٤) ذكر العلامة (وولاس) عشبا ينتج من البندر كل سنة ثلاثة أرباع مليون بذرة ، وقدر أنه لو عاش هذا النسل ثلاث سنين فقط وأعقت كل بذرة في هذه اللدة ما بقى مكان في الأرض غير مغطى بها ، وقال : لو أن كل نبات أنتج حبتين اثنتين في السنة واستمر النسل على الإنتاج لبلغ عدد الإنتاج

- (٥) إن بعض الحيوانات الدقيقة المسماة (ميكروبات) إذا استمرت على التوالد مدة خمسة أيام بدون انقطاع للأحيط كله ينسله إلى عمق ميل .
- (٦) وميكروب الوباء (السكوليرا) الذي يتضاعف كل عشرين دقيقة لو مضى عليه يوم واحد وهو يسير بهذا المعدل بلاعائق لبلغ وزنه ٧٣٦٦ طناً ، وبلغ عدده رقم ٥ وإلى يمينه ٢١ صفراً .
- (٧) والفيل معلوم أنه أبطأ الحيوان ولادة ، فإن الفيلة لا تلد إلا مرة واحدة في كل عشرين سنة ، وقد حسب أحد العلماء أنه إذا استمر التناسل بدون عائق لبلغ نسل الزوجين بعد ٧٥٠ سنة ١٩ مليون فيل .
- (٨) الجراد كثيراً ما يهجم على القرى والزارع وهو كالسحاب فيأكل ما أمامه ، ومتى لم يجد ما يأكله أكل بعضه بعضاً .
- (٩) السمك الذي يشرب الناس زيته لتقوية الجسم ، تبيض في العام الواحد الواحدة من إنثائه مليوني بيضة ، فلو أصبحت كل هذه البيضات المستخرجة من سمكة واحدة في سنة واحدة سمكا لصار البحر كنلة جامدة .
- (١٠) بعض الحمار في البحار تبيض الواحدة ستين مليوناً من البيض ، وهذا النسل لو بقي كله ما بين عام وعامين لژاد على الكرة الأرضية .
- (١١) الدباب الذي ينغص عيش الإنسان إذا تكاثر أمامه تبيض الأنثى منه خمس أوست مرات ، وفي كل مرة تبيض من ١٢٠ بيضة إلى ١٥٠ بيضة ، فلو عاشت كلها لم يعيش شيء على الأرض معها . هذا قل من كل من سرعة تكاثر الحيوان والنبات ، فلولا اللوت لم تكن حياة ، هذا هو السر في تقديم اللوت على الحياة .
- (١٢) ربما كان حيوان يعيش على آخر ، فإذا انقرض ذلك الآخر مات الحيوان ، مثال ذلك الثعابين تعيش في بعض البلاد على الجرذان ، وموت الجرذان وانقراضها يموت الثعابين وتقرض من تلك الجهة ، فإذا كثرت القطة أكلت الجرذان وبفنائها تفتى الثعابين ، إذن تكون حياة القطة هلاكاً لنوعين الجرذان والثعابين ، وذلك في بعض البلاد ، وهذه رحمة عظيمة .
- (١٣) جراثيم المرض المسمى (الملاريا) إنما تعيش في جسم الناموس ، فإذا أزيل الناموس زال معه ذلك الحيوان المهلك .
- (١٤) لولا حياة البقر ما ابتلى الإنسان بالدودة الوحيدة ، إنها تعيش أولاً في لحم البقر ، ثم تنتقل إلى جسم الإنسان وتعيش في أمعائه ، فلو لم يكن بقر لم تكن دودة وحيدة .
- بهذا وأمثاله من الحكمة التي أشرفت بها الأرض وأضاء نورها نعرف نعمة الله في الموت ، ونعرف السر في تقديم اللوت على الحياة في هذه السورة .
- ياسبحان الله : ظهر أن الموت نعمة على الأحياء ، هو أصل الحياة لمن في الأرض لغير البيت ، ولكن هل هو نعمة للبيت ؟ نعم هو نعمة كبرى لسبيين : الأول أن ينتقل من هذه الأرض الضيقة التي ضاقت صدورها وضاقت هي بمن فيها فكثير الموت . الثاني أن يدخل في عالم أوسع منها ، فهذا من سر تقديم اللوت على الحياة .

البلاغة في القرآن

انظر أيها الذكي لكلمتين في هذه السورة : الموت في أولها ، ولفظ مصاصيح في وسطها ، وكيف اختير اللفظان فيها ، انظر كيف كان تقديم الموت على الحياة نظر فيه لعم الطبيعة والتاريخ الطبيعي ، وكيف كان اختيار لفظ المصاصيح لتلك الجمال والموازنة بين نظامنا في بيوتنا ونظام العالم كله كأن تقدم ، ويكون مذكرا بقوله تعالى : « الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح » فمثل هناك لنظام الله في العالم بنظام مصباحنا حتى نعلم كيف نظم على مقدار عقولنا ، وهنا يشير إلى أن توازن ما بين الدقة هناك والضعف هنا ، فترى مالا يتناهي من المحاسن في ذلك النظام ، مثل هذه المعاني لا يدركها ولا يعقلها من قصرها وبلاغة القرآن على أساليب الكلام ، وقد بينا بعضه في سور كثيرة ووازننا بينه وبين كلام العرب ، فأين الترياق وأين التري ، من أين للبلغ اللفظي أن يستعرض علوم الحيوان والنبات كلها لأجل تقديم لفظه على أخرى ؟ من أين له أن يستعرض نظام الكوكب ونظام البيوت لأجل لفظه جاءت مجازا ، فالحق والحق قلت إن هذا القرآن يطلب جميع العلوم ، فلیدرس المسلمون علوم الطبيعة ، وعلوم الفلك ، وعلوم هذه الدنيا كلها وإلا فلا رقي لهم ولا قرآن لهم إلا ما تحفظه الأطفال ويعر به النحويون ويستدل به الفقهاء في أحكام القضاء ثم محرمون من كل نعم في الحياة بعد ذلك في الدنيا والآخرة ، ولقد نصحت وأفردت جهدي ، وسيتولى الله الأمة برعايته ، ويحيطها بكرامته ، ويحرسها بكلماته . انتهى الكلام على اللطيفة الأولى ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثانية في قوله تعالى : ولقد زيننا السماء الدنيا بمصاصيح

لقد كتبنا فيها في سورة متقدمة ، وفي هذه السورة ، قال الله في (سورة الصافات) : « إننا زيننا السماء الدنيا بزينة الكواكب ، وحفظنا من كل شيطان مارد ، لا يسمعون إلى اللأ الأعلى ويقذفون من كل جانب دحورا ولهم عذاب واصب » ، وهنا قال فيها : « وجعلناها رجوما للشياطين وأعدنا لهم عذاب السعير » فهائنا أمران : طرد عن الاستماع ، وعذاب في الآخرة ، إن كل مافي القرآن من عذاب في الآخرة يتقدمه عذاب في الدنيا ، فهذه الشياطين في الدنيا محجوبون عن الاستماع ، وفي الآخرة لهم جهنم ، وإن أردت أن تفهم نتائج هذه المعاني بنفسك فانظر في أمثك التي أنت فيها وفي مجالسها وتأمل الناس حولك فاجلس في مجلس عام وخاطبهم بمجالس النجوم وبهجة هذا العالم ، فانك ستجد قليلا منهم يفرحون ، والباقي لا يبالون ، فهؤلاء الذين لا يحبون هذه المباحث هم تلاميذ الشياطين الذين هم عن السمع معزولون ، تلك الشياطين عزلت عن السمع لما في العالم الأعلى ، وهؤلاء نظراؤهم عزلوا عن معرفة بهجة العلوم ، وهي من بهجة العالم الأعلى ، فأولئك عن السمع معزولون ، كلاهما غير مستعد لهذه الأمور العجيبة ، ثم تأمل أيضا في الناس حولك تجد الجهال منهم قد تلوح منهم التفاتة إلى العلماء فيحزنون على جهلهم ، وقلة علمهم ، وحرمانهم من التمتع بالمباحث العلمية الشريفة ، فهذا مبدأ العذاب في الدنيا ، وسيكون بعد الموت ويوم القيامة أشد ، فينتقل من العذاب النفسي ويرتقي إلى الجسمي ، فهذا أثر من آثار هذه الآيات تراها في الدنيا وأنت حتى ترزق . انتهى الكلام على اللطيفة الثانية ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى

« أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمكنهم إلا الرحمن » والكلام عليها في مقامين
المقام الأول في علم الطيران الحديث ومناسبتها لطيران الطير ،
المقام الثاني في بنية الطيور ، وأن أجسامها مختصرة من أجسام ذوات الأربع

المقام الأول

إن قارىء هذه الآية يمر عليها من الكرام ، يقرأ : « أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن »
وقد خرج منها خاوى الوفاض ، بادى الأنقاض ، يمر عليها كما يمر الطير في الهواء ، ولكن مسألة طيران
الطير ليست سهلة التناول ، إنها أمرها عجب لقد مرت العصور والدهور والناس يقصون في حكاياتهم ويتخيّلون
أنه لو كان لهم أجنحة كأجنحة الطير لطاروا إلى أحبابهم ، وسعدوا كما سعد الطير في طيرانه في الهواء ،
الآ ترى أن هذا مذكور في قصة حسن الصائغ البصرى ، وفي آداب اليونان ما يشير إلى ذلك الخيال ،
ولما أفاق الإنسان من سباته العميق أخذ يفكر عسى أن يكون هذا الخيال يوماً ما حقيقة ، وعسى أن يتاح
له أن يطير كما يطير الطير ، ظن الناس أن الإنسان ليس عليه إلا يحمل له ريشا كريش الطائر بحيث تكون
نسبته إلى جسمه كنسبة ريش الطائر إلى جسمه ، وتكون أجنحته أيضاً على تلك النسبة ، ففكر الناس
في ذلك وقاموا بهذه التجربة ، وأذكر لك منهم :

(١) رجلا إيطاليا في بلاط الملك جيمس الرابع الاسكتلندي في بدء القرن السادس عشر :

(٢) وجد ذلك بنحو قرن قام راهب ألماني بالتجربة أيضا .

(٣) وحاول مركز فرنسي عاش في أواسط القرن الثامن عشر أن يطير بالأجنحة .

(٤) وعباس بن فرناس صاحب صحاح الجوهري .

فهؤلاء الأربعة نموذج لمن حاولوا الطيران قبل هذا القرن الذي نحن فيه فأخفقوا جميعا ، وأما الأول
فإنه لما حاول الطيران لعبور بحر اللانش ، وقد استمد بمخاريج عظيمين مصنوعين من ريش طيور مختلفة
وثب عن برج قصر (سترلنغ) فهوى إلى الحضيض فكسر عظمه ورض جسمه ومات ، والثاني سقط فمات
كذلك ، والثالث وهو المركيز حاول أن يقطع نهر الرين ، فعمل تجارب ، فبدا له أن يقلع عن العمل فنجأ ،
والرابع أراد أن يطير فسقط فمات كما هو معروف ، هذه أول خطوة .

(الخطوة الثانية) : في هذه الخطوة رأى الإنسان أن طيران الطير ليس بقوة الأجنحة لحسب ، وإنما
هناك أمر آخر فليس يكفي الإنسان أن يلبس ريشا على النسبة للتقدمه ليطير . كلا . والذي عرف ذلك رجل
يسمى (بورلي) سنة ١٧١٣ م فدرس حركات الطيور ، وقدر قوة عضلاتها الصدرية ، فتبين له عجز
الإنسان أن يضارع الطير بهذه الوسيلة ، كما ثبت بالاختبار أن الإنسان فشل في هذه التجربة ، فئس الناس
من الطيران .

(الخطوة الثالثة : عمل النايطيد^(١)) في هذه الخطوة وقد ئس الناس من الطيران كالطير رجعوا إلى
مسئلة السفينة في البحر . إن السفن إنما تسير في البحر لأنها مصنوعة بطريقة خاصة بحيث يكون حجمها

(١) انظر صورة المتلاذ والكلام عليه في المجلد الحادي والعشرين من هذا التفسير اه .

أ كبر من حجم الماء الذى يعاثلها وزنا ، فلو أن حجمها كان أقل من حجم الماء المذكور لفرقت ، هكذا هنا صنفوا للتأيد من مواد خفيفة تكون أخف من الهواء ، كما أن السفينة أخف من الماء ، كما نرى الريش يطير ، وكما نرى طائرات الأطفال فى الأعياد ، وكان اختراع للطراد سنة ١٧٨٢ م فلم يكن غير ثلاث سنين حتى قطع بحر اللانش من (دوفر) إلى (كاليه) فى النطاد سنة ١٧٨٥ م والذى قام به (جان بيار بلانشاد) وهو معدود من أكابر الذين جادوا بأنفسهم ، وهو معروف عند جميع المشتغلين بهذا الفن ، ومعنى هذا أن الإنسان لا يمكنه أن يطير لأن جسمه أثقل من الهواء ، فالنطاد شئ وطيران الإنسان فى الجو شئ آخر ، وبقي الناس فى حيص بيص من أجل طيران الإنسان كما يطير الطير . الطير يطير وجسمه أثقل فلم لا يطير الإنسان وقد عرفنا أن الأجنحة لا تسكنى فأين السر إذن ؟ وهنا جاءت :

(الخطوة الرابعة) وابتدأها سنة ١٨٩١ م إذ قام (ليليانتال) وراقب الطيور فى حركاتها عشرين سنة . وبني عدة على شكل طائرة منبسطة الأجنحة ، ووضع آلة للموازنة فى طيارته وقوة محركه لاطالة مدة الطيران ، وقال : إنى درست من هذه الطيور أن سر الطيران يتم للإنسان إذا تسنت له قوة رافعة كافية لأن تدفعه بالسرعة الواجبة للارتفاع عن الأرض ، وحينئذ يمكنه أن يحوم فى الفضاء كما يشاء ، ولكنه مع نجاحه المبدئى أيضا سقط ثمان سنة ١٨٩٦ م .

ومما كشفه أيضا أن الأجنحة المحدودة فيها قوة للرفع تزيد عنها فى الأجنحة المنبسطة ، ولكن كان هناك شابان أمريكيان فى تلك الآونة هما الأخوان (ويلبور) و (أورفيل رايت) يشتغلان سرا فى بلدهما (دايتن أوهايو) فى درس علم الطيران وإجراء الامتحانات الصغيرة الابتدائية من المركبات الهوائية ، وقد كان محرهما إلى ذلك نجاح (ليليانتال) فى الامتحانات التى قام بها بما اصطنع من الطائرات المنبسطة الأجنحة والمسيرة بالقوة ، لكنهما لم يعمدا إلى ببيان مركبة كبيرة قبل سنة ١٩٠٠ ، ومنذ ذلك المهد أخذتا يتحنتانها ويحسنان فيها ويضيفان إليها حتى كانت سنة ١٩٠٥ م ، فطار أحدهما فى الهواء مسافة أربعة وعشرين ميلا فى مدة ثمان وثلاثين دقيقة فوق حقل بالقرب من بلدهما ، فكان الأخوان أول من وفق إلى النجاح فى اكتشاف سر مبدأ الطيران وفتح مملكة الهواء لمساعى الإنسان .

وفى سنة ١٩٠٧ م أعلنت حكومة الولايات المتحدة رغبتها فى الحصول على طائرة من أوصافها أن تكون أجزاءها سهلة التركيب والتفكيك تسهلا لنقلها فى مدة لا تتجاوز الساعة الواحدة ، ومعدة لحل رجلين يبلغ وزنها على الأقل ٣٥٠ بونا ، وتقطع مسافة أربعين ميلا ، فجوابا على هذا الاعلان قدم الأخوان إحدى طيارتهما للامتحان ، وفى سنة ١٩٠٨ جاء (أورفيل رايت) بالطيارة إلى (واشنطن) وفى خلال الامتحانات الابتدائية غير الرسمية طار طيرانا مدهشا استمر فيه ساعة و ٢٥ دقيقة و ٢٠ ثانية ، ثم أراد القيام بالامتحان الرسمى فبين الملائم فى الجيش (سلفردج) للركوب معه ، فخلقت الطيارة فى الفضاء ، وكانت فى بدء الطيران عند رغائب المراقبين ، ولكن الرقاص الحشبي انكسر من سرعة دورانه فسقطت الطيارة ، وقتل الملائم (سلفردج) ، أما (أورفيل) فأصيب بجراح ورضوض بليغة حالت دون إجراء الامتحانات فى تلك السنة ، ولكن فى السنة التالية امتحنت طيارة (رايت) مرة أخرى فأتمت شروط الحكومة التى قبلتها واشترتها ودفعت لمخترعيها الأخوين جائزة مالية قدرها ٢٥ ألف دولار .

أما فى فرنسا فكان تقدم الطيران سريعا وعجيبا ، لأنه لم يكن أحد قبل بدء سنة ١٩٠٨

قد طار أكثر من ثمانمائة واثنين وأربعين ذراعا ، ولكن لم تنقض تلك السنة حتى كان الطيار الفرنسي (فارنهام) قد تمكن من الطيران مسافة ٢٥ ميلا ونصف ميل ، وحتى كان (ويلبور رايت) الأمريكي في أواخر تلك السنة قد طار مدة ساعة و ٤٥ دقيقة و ٢٢ ثانية وقطع ٦١ ميلا .

سنة ١٩٠٩ م ينزل ذكرها في التاريخ بأنها فاتحة العهد الجديد في فن الطيران ، لأن ماتم فيها من الأعمال العجيبة يدل على سرعة تقدم هذا الفن إلى درجة فوق حد التصديق ، ففي الولايات المتحدة طار (كان كورتس) مدة ٦٧ دقيقة ونصف دقيقة ، وطار (أورفيل رايت) في فورت ماير مدة ساعة و ٢١ دقيقة يحمل معه راكبا ، وقد قطع مسافة ٥٠ ميلا ، وفي فرنسا ربيع (كورتس) الجائزة في السباق الذي جرى في (ريمس) وقام (بليرو) بمطيره التاريخي المشهور ، إذ قطع لأول مرة بحر المانش من فرنسا إلى إنجلترا مسافة ٣١ ميلا في مدة ٣٧ دقيقة ، وقام (فارنهام) بمطير عجيب استمر فيه ٤ ساعات و ١٧ دقيقة ٣٥ ثانية قاطعا مسافة ١٣٧ ميلا ، وطار كل من (أورفيل رايت) و (الانام) و (بولهان) خلق إلى أعلى من ألف وخمسمائة قدم وطار (بولهان) من لندن إلى مانشستر ، وطار (لورتس) من البني إلى نيويورك ، وطار (هملتون) من نيويورك إلى فيلادلفيا ، وطار القبطان (رولز الإنجليزي) من إنجلترا إلى فرنسا ، ثم عاد دون توقف قاطع بحر المانش ذهابا وإيابا في مطير واحد ، وما زال فن الطيران في ذلك العهد بين تجربة واختبار واصطلاحات وتحسينات وإضافات هامة حتى قام الكونت (زابيلين) الألماني المشهور الذي نظر إلى هذا الفن نظرة باحث ، فأنشأ في بلده للعامل الكبيرة ، وكانت فاتحة أعماله الجليلة اجتياز الأوقيانوس الأتلنطيكي في الهواء ، وبعدها ابتداء ببنية المناطيد الهوائية التي تنقل الركاب جاعلا لها أوقانا محمدا للسفر على نحو ما هو الأمر مع البواخر والقطارات الحديدية ، فما فكر فيه (الكونت زابيلين) الألماني من عشرات السنين يفكر فيه الآن دول الحلفاء ويقومون بتنفيذه ، كان فن الطيران في عهد طفولته يوم استلم زمامه الألمان ، وهذا ماوجه له الأنظار والأفكار بمزيد الاهتمام ، ولا سيما من حيث استخدامه في الحرب للاستكشاف والدفاع والهجوم برا وبحرا ، ولقد كان للمركبات الهوائية (الأيروبلان) أو بساط الريح شأن يذكر في الحرب العالمية للناضية من سرعة قضاء المهمات ، أو من حيث قيام رجل أو اثنين في مركبة هوائية بما لا يقدر على القيام به غير كوكبة من القوسان .

وتستخدم الطائرات في تدمير الأساطيل وتشيتت الجيوش وتخريب الحصون برمي القذائف الانفجارية من علولا ينالها فيه رصاص البنادق وكرات المدافع .

ها أنا ذا لحصت لك علم الطيران ، فمن أجنحة أهلك الطائرين ، ومن بأس قدم بالطائر ، إلى منطاد يطير بحفته ، إلى طائرات تطير كما يطير الطير ، أجسامها ثقيلة ولها محركات وقوات موازنة وترفع بقوة ثم تحوم إلى أساطيل في الهواء تحمل الجيوش والمدافع ، وأنواع التجارات المختلفة حتى يغلو وجه الأرض من الطرق الحديدية .

لعلك تقول : إنك قرأت موضوعا فكتبتة لمناسبة الآية ، وأي علاقة للآية بهذا التاريخ الطويل العريض ؟ أقول لك : إن الآية بهذا القول يظهر سرها ، أليس من العجب أن (ليليا نال) أخذ يدرس الطيور في طيراتها عشرين سنة لم هذا كله ؟ ولم كان الطيارون في أول أمرهم إذا طاروا بالأجنحة يموتون ولم لجأوا إلى ألا يطير إلا المناطيد ، ونكسوا على أعقابهم فلم يحسروا على طيران الإنسان ثم ما هذا الجهد والجد والعناء كله ؟ ثم لم يوفق الناس إلا في أيامنا هذه للطيران ، ومعنى هذا كله أن قوله تعالى : « أولم يروا

إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمكنهن إلا الرحمن » لا تعرف بعض حقايقه إلا بهذا العلم ، أي أن طيران الطائر ليس أمرا سهلا كما يتصوره الناس ، فهاهو إلا أن يزود بأجنحة ويطير . كلا . فقد سقط الناس وما نوا لما ظنوا ذلك ، وإذا قلنا إن السفينة تجري فوق البحر فالطير ليس على هذا النظام ، بل الطير جسمه أثقل من الهواء ، أما السفينة فجسمها أخف من الماء الذي على مقدار حجمها ، ولذلك تزيح من البحر ماء على مقدار وزنها ، ولم يعرف الإنسان سر الطيران حتى قطع شوطا بعيدا ، فقله : « ما يمكنهن إلا الرحمن » ليس مما يدرك بسهولة ، بل يدرك بهذا العلم : أي إن هذا العلم هو الذي نعرف منه مقدار الصنائع والدقائق والحكم التي أودعها الطائر حتى طار ، إن كل شيء في نظر الجاهل سهل ، وفي نظر العالم يحتاج إلى أبحاث ، ياليت شعري : من كان يظن من أمم الأرض قبل هذا القرن أن طيران الطائر فيه هذه الحكمة والأسرار . بهذا نفهم في هذا العصر وحده معنى قوله تعالى : « إنه بكل شيء بصير » ، هذا العصر هو الذي فيه يظهر سر القرآن وسر الوجود ، فإذا كان العالم يظهر سره الآن فالقرآن يظهر سره الآن ، لأن هذا فعله وهذا قوله وهما متلازمان ، فليقرأ هذا المسلمون وليعلموا « بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ » وبهذا انتهى الكلام على المقام الأول ، والحمد لله رب العالمين .

المقام الثاني في بنية الطيور ، وأن أجسامها مختصرة من أجسام ذوات الأربع

أعلم أن الأصناف الأربعة من الحيوان البري وهي : الأنعام ، والبهائم ، والسياب ، والوحوش أكلت بنية وأنم نظاما من الطيور والجوارح ، وكان هذين قد جملا مختصرين من الأربعة الأول ، ولو أنك نظرت إلى الطير صافات في جو السماء تخيل لك أنها صورة مصغرة من البقر والجاموس إذا كنت من الناظرين في علم الطبيعة بقولهم لا مختصرين على حواسهم ، فإذا رأيت أبا قردان وهو يأكل الدود في الأرض المصرية والجاموس يرعى في مرعاه لرأيت للجاموس أسنانا وآذانا ظاهرة ومعدة وكرشاومثانة وخرزات ظهر ، وجلدا نحينا وشمرا كما كان للغنم صوف وللابل وبر ، وهو ينزو ويلد ويرضع أولاده ويربها ، أما أبو قردان مثلا وسائر الطيور فإنها مختصرة من الحيوان البري ، فليس للطير أسنان ولا آذان بيضاء ولا معدة ولا كرش ولا مثانة ولا خرزات ظهر ولا جلد نحين على أبدانها ولا شعرا ولا صوف ولا وبر ، وهذا جدول ذلك :

في حيوان البر	في الطير
البديل منه	البديل
الأسنان	النقار
المعدة	الحوصلة
السكرش	القناصة
الجلد النحين وما عليه	الريش
الحمل والولادة والإرضاع	البيض وتربية الفراخ
رأس عريضة	مناقير مدبية ورءوس صغيرة

ثم إن الريش جعل لباسا لها ودثارا يقبها الحر والبرد ، وهو غطاء ووظائفه من الآفات العارضة ، وهو فوق ذلك يعينها على النهوض والطيران ، أما للمناقير والرءوس الصغيرة فإنها لو لم تكن كذلك بل كانت كالبهائم لعاقها ذلك عن سرعة الطيران ، لأنها تصادم الهواء فيعوقها عن سرعة الطيران . انتهى الكلام على اللطيفة الثالثة ، والحمد لله رب العالمين ،

اللطيفة الرابعة في قوله تعالى : هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة الخ
يقول الله إنه أنشأنا ، وإنه خلق لنا السمع والأبصار ، ثم يقول إن شكرنا قليل ،
وباليت شمري : أي شكر لمن يخلق في هذا العالم ثم يغادره وهو غافل عما فيه ، هذه مسألة الطيران
براها أمرا سهلا في بادي النظر ، ثم يتضح في آخر الأمر أنها احتاجت إلى أعمار وعصور حتى عرفها
الإنسان ، وكم في الدنيا عندنا من مجبول ، إن أسمعنا وأبصارنا وعقولنا نحن مسئولون عنها يوم
القيامة ، ومسئولون عنها في الدنيا ، أما سؤال الدنيا فواضح ، إننا لما أهملنا التفكير فيها حولنا حرمتنا منافعها ،
والآخرة أدهى وأمر :

إن المسلمين اليوم مهملون مواهبهم وعقولهم وأسماعهم وأبصارهم ، أفلا نخجل حينما نرى
أن علم الطير وطيرانه في الجو لم يقم به إلا قوم ليسوا مسلمين حتى اضطرتنا أن نقل أبحاثهم ونجعلها
تفسيرا للقرآن .

إن المسلمين لا ينظرون مواهبهم التي أودعت فيهم إلا إذا عمموا التعليم للذكور والإناث تعميما تاما ، ثم
اصطفوا منهم طوائف للتعليم العالي ، وقامت مدارسهم بكل ما يطلبه المجتمع من تجارة وحدادة وحياسة
وكهرباء . وما شابه ذلك بحيث تكون المدارس كلها كأنها مملكة لا تحتاج إلى إبرة من الخارج ولا آلة ،
فهم الذين يصنعون الآلات والأدوات . وهم الذين يحرثون ويزرعون ويطبخون ويخدمون وينظفون الأواني ،
وبالجملة يفعلون كل شيء ، ولا يفونهم علم من العلوم الطبيعية والرياضية وغيرها إلا خصص له منهم طائفة .
انظر هذا اللقاع في سورة آل عمران عند الكلام على قوله تعالى : « ألم تر إلى الذين أتوا نصيبا من الكتاب
يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم » .

ذلك كله فرض كفاية بإجماع أئمة الدين ، وفرض الكفاية إذا أهمل أئمة المسلمون جميعا ، فالمسلمون
آثمون اليوم ، والعذاب واقع الآن في الدنيا بتسلط الفرنجة ، وفي الآخرة بعذاب أليم ، قال تعالى : « ولعذاب
الآخرة أشد وأبقى » انتهى الكلام على اللطيفة الرابعة ، والحمد لله رب العالمين .

• • •

وإذا فرغنا من الكلام على هذه اللطائف الأربع فلنتشرع الآن في ذكر اللطائف العامة التي لم يكن لها
وجود عند التأليف ، والتي لم يفتح الله بها إلا عند تقديم هذه السور للطبع :

اللطائف العامة في هذه السورة

(١) اللطيفة الأولى في قوله تعالى : « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من
فطور » .

(٢) في قوله تعالى : « ولقد زيننا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين » .

(٣) في قوله تعالى : « أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء
بصير » .

اللطيفة الأولى

في قوله تعالى: « ماترى في خالق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور »

اعلم أن هذه الآية فيها من العلوم المنتشرة اليوم عجيبتان تعدان معجزتين في القرآن ، ويانه أنك إذا نظرت في المادة وفي ألوانها لا تجد أبدا فيها شقوقا وفطورا ، فإذا رجعنا البصر ألف مرة وألف مرة إلى الألوان وإلى الأجسام كالحجر والشجر فاننا لا نرى فطورا ، فاعجب ثم اعجب من العلم اليوم في أمر المادة وفي أمر الألوان ، أما المادة فلقد تقدم الكلام عليها في مواطن كثيرة ، ومن أهمها ماجاء في (سورة النور) عند آية : « الله نور السموات والأرض » فإن هي إلا ذرات كهربائية سالبة جاريات حول أخرى موجبة وعدد حركاتها في الثانية نحو ٦ آلاف مليون مليون مرة ، فراها حجرا وشجرا وجيلا وجملا وسحابا وكتابا وذئبا ورحابا ، وبين كل ذرة من ذرات الحجارة والشجر وغيرها فروج وفطور بحيث لو كان على ذرة منها سكان تناسها لم يكن لأحدهم أن ينظر الكرة التي تليها إلا بمنظار معظم (وبمباراة أخرى) إن الفروج بين كل ذرة من ذرات المادة والأخرى كالمسافة التي بين الأرض وبين النجوم والشمس والقمر ، إذن مع كون المادة عبارة عن حركات ضوئية ترى ذراتها غير متصلة ، إذن كلها فطور وشقوق ، ولكن لشدة الإحكام والإتقان وعدم التفاوت لا نرى شقوقا نجفنا وزعجنا ولا فطورا ، فالمادة مع أنها مفعمة بالفطور بل هي أولها وآخرها فطور تسكد تسكون فراغا كالتي بين السماء والأرض ومع ذلك ترى لافطور فيها ، إذن عالم المادة عجيب ، فطور ولا فطور ، كما أن أرضنا دائرة غير دائرة ، نحن نراها ساكنة ولكنها دائرة لانها ذلك لشدة الإحكام والإتقان ، وازدياد الأمان لمن عليها .

الفطور في الألوان

وكا قلنا في المادة نقول في ألوانها ، ألوانها سبعة : البنفسجية ، والنيلية ، والزرقة ، والخضرة ، والصفرة والبرتقالية والحمرية ، ولم نر في لون منها فطورا وشقوقا ، فهذا لون الزرقة الذي يراه الإنسان في السماء فلننظره فهو أحد الألوان السبعة ، فإذا نظرناه ولم نجد في المادة التي قام بها شقوقا لأنها محكمة مع كونها ذات فروج عظيمة جدا وهوات واسعة كما تقدم ، فهكذا نفس الزرقة لا نجد فيها لونا بداخلها ويقاطعها ، وهذا بحسب الظاهر وما نراه بالعين ، ولكن الحقيقة أن في كل لون من الألوان السابقة خطوطا سوداء تقاطعها وكشفها وأبرزها في الرسم العلماء ، فكل معدن من المعادن له ضوء خاص ، وهذا الضوء تقاطعه خطوط سود ، وهذه الخطوط السوداء تختلف في ضوء كل معدن عن الخطوط السوداء في ضوء كل معدن سواء ، وبهذا الاختلاف في الخطوط السوداء : أي الفطور والشقوق اللونية قدّر الناس أن يعرفوا ما في الكواكب والشموس من المعادن المختلفة بخطوطها السوداء في أضوائها ، وبهذه الطريقة عرفوا أن عناصر الأرض من عناصر الشمس ، فهاتان معجزتان قرآنيتان ظهرتا في الكشف الحديث ، وعسى أن يزيد المقام تبيانا في (سورة النبأ) عند آية : « وبيننا فوقكم سبعاً شدادا » وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة الأولى في قوله تعالى : « ماترى في خالق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور » حكمت قبيل الفجر يوم الأربعاء ١٤ ديسمبر سنة ١٩٣٢ م - ١٦ شعبان سنة ١٣٥١ هجرية .

اللطفية الثانية في قوله تعالى : ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح

مسامرة بيني وبين صديقي العالم الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير

حضر اليوم ٣١ مايو سنة ١٩٣٢ م وأخذ محادثتي قائلا : لقد ذكرت في (سورة التاريات) مجمل الكلام على ضوء الشمس ، وكيف عرف الناس منه عجائب وعجائب ، ووعدت أنك تشرح المقام كله في هذه السورة ، ووعدت أيضا بذلك في آخر (سورة الحشر) كما أنك وعدت أن تشرح عجائب النبات وبدائمه بأوضح مما تقدم في التفسير في (سورة النبأ) فأرجو أن تفي بما وعدت الآن . فقلت : حبا وكرامة : « وأوفوا بالعهد إن العهد كان شهولا » هاأنا ذا أحدثك حديثا جميلا ، انظر هداك الله إلى ضوء الشمس يأتي من نافذة في مصراع الباب ويدخل في حجرتك ، فأما الجاهل فإنه لا يرى في هذا النور سرا ولا علما وإنما هو أمر عادي ، ولكن أهل العلم يقولون .

(أولا) — إن هذا النور بدخوله في الحجرة المظلمة قد أعطانا علمين : العلم الأول أن النور يسير على خط مستقيم ، العلم الثاني أن هذا النور الذي يسير على خط مستقيم في الحجرة تصعبه حرارة ، فهذان علمان : علم أدركناه بحاسة البصر ، وعلم أدركناه بحاسة اللمس ؛ فالأول هو الخط المستقيم ، والثاني هي الحرارة .

(ثانيا) — إن هذا النور بدهشنا أمره ونعجب من سره ، ذلك أن النور الداخل في الحجرة المستقيم الخط الحار لللمس نراه يحمل صور الأبنية والأماكن والأشجار التي مر بها ولكنه يعكسها فيكون الأعلى أدنى وبالعكس ، وذلك بسبب سيره على الخطوط المستقيمة كما ستراه واضحا قريبا .

(ثالثا) — إن هذا النور السائر المستقيم الخط الملازم للحرارة الذي يقلب وضع الصور فيجعل عاليها سافلها سريع السير جدا ، فهو يسير في الثانية الواحدة ١٥٧ و ١٨٥ ميلا في الثانية ، ويدور حول الأرض في سبع ثمانية واحدة .

(رابعا) — إن هذا النور إذا أخذنا مرآة صغيرة وتلقيناه بها فأنا نراه أخذ يعكس على الحائط في الحجرة ، وتكون هناك زاويتان : إحداهما زاوية السقوط ، والأخرى زاوية الانعكاس ، وهذا مشاهد في الأماكن التي فيها ماء وقد سقط ضوء عليه من النوافذ فإن الضوء يعكس على الحائط الآخر المقابل لما سقط منه الضوء ، وكما اضطرب الماء اضطربت صورة الضوء المنعكسة على ذلك الحائط هكذا هذه المرآة كما حركناها تحرك الضوء المنعكس عنها تبعاً لها ، فهذا هو المسمى عند علماء الطبيعة انعكاس الضوء .

(خامسا) — وبما تقدم يفهم الناس أولا لماذا يرون صورهم في المرآة كأن المسافة التي بين صورهم وبين المرآة ماثلة للمسافة التي بينهم وبين تلك المرآة ، ثانيا : لماذا تكون أيماهم في الصورة جهة الشمال ؟ ولماذا تكون شمائلهم جهة اليمين في الصورة .

(سادسا) — يرون أن الماء كالمراة سواء بسواء ، فهو يعكس الضوء كما تعكسه المرآة كما قدمناه .

(سابعا) — إذا وصلوا إلى هذه النقطة : أي مسألة الماء يرون أمرا عجبا ! يرون أن الصور في الماء يحصل لها انكسار ، إذ معلوم أن النور يمشي على خط مستقيم ولكنه في الماء ينكسر ولا يستقيم . فقال صاحبي الانكسار ليس جمالا . فقلت ستم علم اليقين أن هذا الانكسار هو الجمال كله ، فلولا انكسار الضوء الآتي من الشمس السائر في الجو اللائق للهواء الجوي وما فيه من الذرات والهباء ، تلك اللاتي تجعله يجري على غير استقامة . فينتشر في الكرة الأرضية ، ويكون عند الناس شفق وفجر وصبح .

أقول : لولا ذلك الانكسار لم يكن صبح ولا شفق ولا جمال في الناطق الباردة ، فالانكسار هنا اعتدال ،
 إذ أ هذا المقام في أول (سورة الزمر) فهناك ترى العجب العجيب ، وترى علم الطبيعة وعلم الفلك متأخين
 ومتصاحبين ومتحابين ومتعاقبين ، وذلك كله موضح بالصور الشمسية هناك . فقال حسن قفلت :
 (ثامنا) « إن العقلاء متى وصلوا إلى هذا المقام أخذوا يبحثون في الزجاج ، كما بحثوا في الماء من
 حيث انكسار الضوء ، فهو ينكسر في الزجاج كما انكسر في الماء ، وهناك يستخرجون (قاعدتين :
 القاعدة الأولى) أن الماء ينكسر إلى جهة من الجهتين عند مروره من جسم لطيف إلى كثيف وينكسر
 إلى الجهة الأخرى إذا مر من كثيف إلى لطيف .

(تاسعا) - وهناك يدخلون في علم العدسات ، وكل ما تقدم مقدمة له ، وذلك بأن ينظروا أولا
 في أنواع الزجاج المذكور ذلك أن الزجاج طوع أيدى الناس وليس كالماء ، فهم يقدرن أن يجعلوا الزجاج
 محدبة الوجهين فتكون منتفخة من الناحيتين ، ويقدرن أن يجعلوها مقعرة الوجهين ، فتكون من وسطها
 كالخصر النحيل ، وقد وجدوا لها في الحال الأولى خاصة تخالف الحال الثانية ، ولكن الماء ليس كذلك ،
 بل هو جسم لا يقدر الإنسان أن يحكمه كما قدمناه ، فالعدسات المحدبة الوجهين تكبر الأجسام وقد تقر بها ،
 والقعرة الوجهين تصغر الأجسام وتبعدها ، وهناك يدخل الناس في باب العمل بهذا العلم والانتفاع به فيجعلون
 هذه الزجاجات مقويات لأبصارهم ، مقربات للصورتارة ، مبعديات لها أخرى على حسب الأبصار طولاً وقصرًا .
 (عاشرًا) - وهناك يركبون الزجاجات للكبرة بعضها مع بعض بهيئة مخصوصة فيكون المنظار العظيم
 والآلة المكبرة التي قد تكبر الجسم عشرين ألف مرة في زماننا هذا .

• • •

فقال صاحبي : حسن والله ما تقول ، إذن الناس انتقلوا من ضوء داخل من نافذة في حجرة مظلمة إلى
 انعكاسه على الحائط وانقلاب صورته ، وهكذا تدرجوا في العلم من انعكاس الضوء إلى انكساره وإلى تكبيره
 للصور وتصغيره وقربها وبعدها ، إلى مساعدة العلماء في الأرض بتقوية أبصارهم بالزجاجات البصرية ، إلى
 تكبير الجسم ٢٠ ألف مرة لازدياد العلم واليقين .

الله أكبر : هذا أحسن جدا ، ولكن هذه الهداية ، واللطف اللذان تضمنتهما أسماء الله الحسنى كاسمه
 اللطيف ، واسمه النور ، واسمه الهادي التي كلامنا فيها لا يتم ذلك فيها إلا بالمشاهدة التي عليها بنيت سؤالي
 فأريد أن أشاهد ذلك عيانا وإن كنت تصورته بذهني كما تصورت كلام الإمام الغزالي رحمه الله تعالى بعقل
 قفلت : هذا المقام لحسه الأستاذ (بول برت) الأستاذ بالسربون بفرنسا ، ووزير وزارة المعارف الفرنسية
 الذي ترجمته من الفرنسية إلى الإنجليزية زوجته (جوسيفيا كليتون) الإنجليزية الاسكتلندية ، وهالك
 ترجمته من صفحة ١٦٤ من ذلك الكتاب المسمى « العلوم الطبيعية » إلى صفحة ١٧٦ فقد جاء فيه
 تحت العنوان التالي مانصه :

أشعة الضوء

أخذ الأستاذ (بول برت) يخاطب تلميذه في الفصل قائلا :
 (س) جورج : من أين جاءت الحرارة ؟
 (ج) من النار يا سيدي .

(س) نعم ولعل هذه النار خارج حجرة الفصل الذي ندرس فيه .

(ج) آه : أمن خارج الحجرة . كلا . بل هي من الشمس .

(س) حسن جدا ، ولكن أتري النار والشمس ليس لهما إلا الحرارة وحدها ؟

(ج) كلا . إنهما يعطيان أيضا نورا .

(س) حقا هذا ، وإذا كانت الحرارة مصاحبة للنور فإننا إذا نظرنا إلى النور نعرف بواسطة رؤيته أن

هناك حرارة ، وهذا أسهل من معرفة الحرارة بواسطة الترمومتر (مقياس الحرارة) .

وهنا أخذ المؤلف يثبت أن الضوء يجري على خط مستقيم ، وأن الحرارة .



(شكل ٢٨)

مصاحبه ، فقال : إننا أولا نرى النور يتحرك على خط مستقيم ، انظر في هذه

الحجرة من حجرات المدرسة ، فإنك تری ضوء الشمس يسقط على مصراعى

بابها من الخارج وهما مقفلان (انظر شكل ٢٨) .

ولكن لما كان في هذين للمصراعين ثقب رأينا الأشعة دخلت منها

على استقامة في الحجرة محترقة مالا حصر له من الثرات الصغيرة الترابية

الرائحة في جو الحجرة .

ثم قال للتلميذ : ضع يدك في خط من هذه الخطوط الضوئية ، إنك ستحس بحماسة الشمس بالحرارة

ثم قال : لاجرم أن هذا برهان آخر على أن الحرارة مصاحبة للنور .

الحجرة المظلمة

ثم قال الأستاذ : إن هذه المسألة تدعوني أن أريك أمرا عجيبا غريبا يابول ، اذهب إلى الحجرة المظلمة

وضع قطعة ورق مقوى أبيض حرف (س) (انظر شكل ٢٩) تحت خطوط الشماع الشمسية (ا د)

(ب ج) وهكذا تلك الخطوط اللامعات من - لال مصراعى الباب :

ألا تعجب معى من ذلك ، فهذه المناظر وإن كانت واضحة متميزة مفصلة على اللوحة (فدونك هذه البركة

التي بجانب منزل [جيمس] وهذه الطريق المرتفعة وفيها العربة) تراها منقلبة ، وهذا عجب عجاب ! قد

جعلت أعاليها أسافلها وأسافلها أعاليها ، ولكن تعليل ذلك أمر سهل ، فإنك ترى أطراف شجرة الحور عند

حرف (ا) مثلا قد جرت الأشعة الشمسية منها على خط

مستقيم كما تقدم ، ولكن بعض تلك الأشعة فقط أمكنها

أن تدخل من ذلك الثقب حتى وصلت إلى لوحة الورق

المقوى عند حرف (د)



(شكل ٢٩)

الصور الخارجة ظهرت واضحة مفصلة على لوحة الورق

المقوى حرف (س) ولكن جعل أعاليها أسافلها

خط مستقيم فنصل إلى (ج) انظر شكل ٢٩

وكما أمكن ذلك عند الحرفين (د) و(ج) يمكن أيضا فيما بينهما ، وبسبب ذلك ترى أن شجرة الحور

عاليها أسافلها ، ومثل ما قلناه في ذلك نقول بكل وضوح في جميع مناظر النقط الأرضية ، فنكون الأعلى أسافل

وبالعكس يجرى النور على خطوط مستقيمة متقاطعة فتكون صور مقلوبة ، ثم شرع المؤلف يذكر سرعة ضوء الشمس ، وهذا تقدم ، وأخذ يشرح بعد ذلك انعكاس الضوء فرسم هذين الشكلين :



(شكل ٣١)

هناك علاقة بين اتجاه الشعاع
الضوءى الواسل لزجاجة والشعاع
الضوءى المنعكس عنها الواسل تارة
إلى حرف (أ) وتارة إلى حرف
(ب) بحسب اتجاه الشعاع الواسل
إلى الزجاجاة أولا .



(شكل ٣٠)

شعاع الشمس يرى منعكسا
على الحائط عند حرف (أ)
بواسطة الزجاجاة العاكسة
الضوء .

وهاهنا أخذ يوضح ذلك . فقال : فها أنت ذا ترى على حائط حجرة المدرسة جزءا من الشعاع الشمسى قد ظهر عند نقطة (أ) ففى حركتنا المرآة تحرك ذلك الشعاع مثل حركتها فى اتجاهها ، إن هذه النقطة الشعاعية صورها ضوء الشمس ثم سقطت على المرآة ، ومن المرآة أخذت تظهر ثانيا ، وهذا يسمى انعكاس الضوء ، ثم أخذ المؤلف يشرح هذا الموضوع فقال : لندخل الحجرة المظلمة (شكل ٣١ المتقدم) ثم لنضع المرآة فى وسط ضوء الشمس الذى يحترق النافذة (ر) التى فى مصراع الباب محترقا ظلام الحجرة ، ومنى وصل إلى المرآة أخذت ينعكس عنها مرتدا إلى الحائط الآخر جاريا فى الهواء المنعم بالندرات الهوائية الترابية واصلا إلى نقطة (أ) إذا أنا أمسكت بالمرآة على هيئة استقامة ، فإذا أنا أملت المرآة فإن نقطة الشعاع تصل إلى حرف (ب) فى الشكل المذكور ، وعلى هذا تكون هناك علاقة تامة بين اتجاه الشعاع الساقط على المرآة واتجاه الشعاع المنعكس عنها .

وها نحن أولاء الآن شارعون فى معرفة قيمة هذه العلاقة شيئا شيئا فنقول : فهذه توضح لنا كيف كانت المرآة مظهرنا لنا صورنا إذا نحن وقفنا أمامها ، وكيف ترى تلك المرآة أن صورنا تبعد عن المرآة خلفها بمقدار البعد الذى بين أجسامنا وبين تلك المرآة ، ولذلك ترى المتوحشين إذا نظروا وجوههم فى المرآة لا يزالون يبحثون وراءها عن ذلك الذى يرونه مائلا أمامهم من خلفها ، وكيف ترى الصورة فى الناحية المخالفة لناحية أجسامنا وأيضا ترى الناحية اليمنى من أجسامنا مصورة فى الناحية اليسرى والعكس بالعكس .



(شكل ٣٢)

المرآة التى انطبعت فيها الصورة

قال : ولما كان هذا البحث يعوزه بعض المذكرات الهندسية لينجلى

واضحا وجب تأجيله حتى تعرف تلك المذكرات ، ثم نشرع بعد ذلك فى هذا البحث ، وهنا أخذ يشرح للمرآة فقال : هذه المرآة التى استعملتها منذ دقائق لم تكن إلا من زجاج مطلى بالقصدير ، وبعض المرايات

تصنع من المعادن بعد أن تصقل صقلا جيدا ، وهكذا كل سطح مصقول لامع يمكننا استعماله مرآة .
فهاك شكل ٣٤ وهو الآتي :



(شكل ٣٣)

سطح الماء قد انعكست فيه الصور وظهرت كما ظهرت في وجه المرآة سواء بسواء .

فهاهي ذه الزجاجاة المملوءة ماء (شكل ٣٣) ، انظر فيها أناذا أرفعها قليلا إلى مسافة أرفع من عيني حتى يمكنها أن تنظر سطح الماء من أسفل الزجاجاة ، إن هذا السطح قد ظهر لي كأنه فضاء مصقولة صقلا جيدا ، انظر إليها أنت نفسك ، فيها أنت ذا ترى جميع الصور التي حولها قد عكست عليها واضحة ظاهرة كما تتضح وتظهر على وجه المرآة الحقيقية سواء بسواء . هذا تمام القال في هذا الموضوع ، والحمد لله رب العالمين .

ثم أخذ يشرح انكسار الضوء فقال : فلنذكر الكلام في موضوع انعكاس الضوء ، ولنبتدى القال في انكساره فنقول :

انكسار الضوء



(شكل ٣٥)

المصاصة من التبن ظهرت كأنها مكسورة في الماء ، وهذا هو الانكسار .



(شكل ٣٤)

إن الشعاع اللامع هاهو ذا أخذ يتكسر حينما دخل الماء وهو الذي أظهر أن قطعة النقد (بني) قد ظهرت عند حرف (أ) في الماء . وهذا المكسر جاء بدل النقطة الحقيقية التي كان عنها هذا الانكسار .

إن لفظ انكسار الضوء قد وضع للحقيقة التي تراه منطبقا عليها ، فانظر رعاك الله هذه الزجاجاة المملوءة ماء (شكل ٣٥) هاأناذا وضعت فيها عصافاة من التبن ، والعصافة قد ظهرت لأعيننا وهي مكسورة في الماء ، وهكذا نراها تزداد اقترابا من الوضع الأفقي كلما أوغلت في دخولها في الماء ، هاأنت ذا تعلم علم اليقين أن العصافة ليس بها انكسار ، هذا لا تشك فيه ، ولكنك لن تقدر أن تمنع مخيلتك من تصورها مكسورة . وهناك تجربة أخرى تثبت نفس النتيجة التي قدمناها ، وهو ما تراه في (شكل ٣٤) هنا .

ثم أخذ يصف الصندوق في هذا الشكل ، فقال : هذا صندوق من الفصدير ، وقد وضعت فيه قطعة (بني) من النقود في قاعة ، وها أناذا أضع للماء في قاع الصندوق ، تعال هنا يا جيمس وقف بحيث تقدر أن تنظر الحافة البعيدة من البني ، هاأناذا أصب الماء في الصندوق قليلا قليلا مع الاحتراس حتى أنجب أن يتحرك البني من مكانه ، قل لي يا جيمس ما الذي تراه ؟ فأجاب : هاأناذا أرى قطعة النقد ترتفع وتتحرك رويدا رويدا نحو نقطة (أ) . فقال الأستاذ : نعم ذلك حاصل بسبب أن الشعاع الضوئي اللامع من قطعة



(شكل ٣٦)

إن شعاع الكتاب في مروره من الزجاجاة إلى الهواء يبيل وهذا انكسار بسيط .

النقد أخذ يتكسر كما انكسر من العصافة المتقدمة قريبا ، هذا هو المسمى « انكسار الضوء » وهاهنا قاعدة مطردة ، وهي أن الشعاع متى مر من وسط لطيف إلى وسط كثيف فإنه يبيل إلى جهة من جهتيه كما رأيت فيها تقدم وإذا مر من وسط كثيف إلى وسط لطيف مال إلى الجهة الأخرى .

واعلم أن الزجاج المسطح يفعل في الضوء ما يفعله الماء من حيث الانكسار . هاأناذا أضع قطعة من الزجاج مميكة مسطحة (انظر شكل ٣٦) . ويمكنك أن ترى الشعاع الضوئي يبيل كما مالت العصافة فيها تقدم ، فإذا



(شكل ٣٧)

الشمع حينما يترك
الكتاب مال في مروره
أولا من الهواء إلى
الزجاجية ، ثانيا من
الزجاجية إلى الهواء فهذا
انعكس مرتين .



(شكل ٣٨)

عدسات محدبة الوجهين
مدورة التاحيتين

ما الذي جعلك متعجبا في دهش ، فأجابه التلميذ قائلا : ولم لأعجب يا سيدي ، إنني لم أر شيئا ألبتة ، فقال



(شكل ٣٩)

زجاجتان محدبتان
الوجهين مكبرتان



(شكل ٤٠)

المكروسكوب بمثل الصور أكبر

أنا وضعت تلك القطعة من الزجاج على بعد مسافة كبعدها من الكتاب (انظر شكل ٣٧) فإن ميل الشعاع في هذا الحال ينكسر انكسارين : الانكسار الأول يكون حينما يسير الشعاع من الكتاب في الهواء إلى القطعة الزجاجية ، ويتخللها . الثاني حينما يخرج الشعاع من قطعة الزجاج إلى الهواء ثانيا .

العدسات : (البلوريات)

وهنا أخذ يشرح أحوال الزجاج المقوى ليس مسطحا ، بل هو إما محدب وإما مقعر ، والمحدب والقعر أمرهما عجب فلنعمل منهما عمل خاص في الصور الواردة عليه ، فهذا مكبر وهذا مصغر ، وبيانه أننا إذا وضعنا قطعة من الزجاج غير مسطحة بل هي محدبة الوجهين فإن ميل الضوء عنها يكون أتم وأكمل . (س) - يابول بماذا تسمى هذا القطعة الزجاجية التي في شكل ٣٨ العنونة بحرف (ا) التي هي محدبة الوجهين .

(ج) فأجاب قائلا : اسمها زجاجة معظمة للصورة .

(س) نعم هو كذلك ولكن علماء الطبيعة يسمونها (عدسة) أو (بلورية) إن اسمها العادي (الزجاجة المكبرة) يدل على حقيقتها ، لأنها تكبر الأشياء الصغيرة خذ هذه في يدك وانظر إلى حروف المطبعة الدقيقة في هذا الكتاب (شكل ٣٩) . ثم قال له : حسن ما الذي جعلك متعجبا في دهش ، فأجابه التلميذ قائلا : ولم لأعجب يا سيدي ، إنني لم أر شيئا ألبتة ، فقال الأستاذ : انتظر رويدا ، لا تضع العدسة على عينك ، ولا تجعل أنفك على الكتاب ، بل انظر كما جرت به عادتك ، ولكن بواسطة الزجاجية المكبرة فاجعلها أولا قريبة من الكتاب (انظر شكل ٣٩) ارفعها قليلا قليلا إلى أعلى وأنت لا تزال تنظر بها ، فهأنت ذاتري الحروف أكبر شيئا فشيئا فاستمر في الرفع حتى تراها مفصلة ، ولكن إذا داومت على ذلك واستمرت في رفع الزجاجية المكبرة فانك ترى الحروف تصغر شيئا فشيئا حتى لا تعود ترى ألبتة إذن البعد المناسب يجب أن يعرف ، وكل ما كان أطول منه أو أقصر يجب أن توضع له عدسة ؛ وهذه العدسة التي معك الآن تكبر الأشياء بالضعف ، ويجب أن تجعل العدسة قريبة من الجسم المنظور بمقدار بوصة .

الزجاجة المركبة المعظمة : (المكروسكوب)

أولا : إذا وضعنا عدة عدسات معا بهيئة خاصة فلإنها تربنا الشيء أكبر مما هو عليه من حيث حجمه ١٠ مرات أو ١٢ مرة مثل حجمه الحقيقي وهذه تسمى (الزجاجة المركبة المعظمة)

ثانيا : (المكروسكوب) يصنع من عدسات أكثر نظاما في ترتيبها وأبداع إحكاما في تركيبها (انظر شكل ٤٠) .

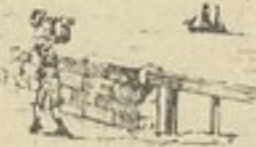
إن (الميكروسكوب) (١) فيه قوة عظيمة جدا على تكبير الصور ، فقد يعظم الحجم ١٠٠ مرة ، و ٢٠٠ مرة . بل ألف مرة أكبر من الحجم الحقيقي .

ثم قال : إن ما أقوله في أمر (الميكروسكوب) ربما لا يدهشك ، ولا يحدث عندك غرابة ، لأنك تقول في نفسك : وما قيمة تكبير الشيء عشرة أو مائة أو ألف ؟ إن الرجل المخرف الدجال ربما يقول لنا أنا أكبر الشيء ألف مرة ، فإذا كبرت بالميكروسكوب الجسم عشرات أو مئات فذلك ليس بدهش لنا سمعناه . والجواب على ذلك أن أقول لك : إن طريقة البعد عند الدجال غير طريقها هنا في الميكروسكوب ، لأن طريقتنا هنا أننا إذا قلنا إن الميكروسكوب يكبر الشيء عشر مرات فمعناه أنه إذا كان طوله عشر البوصة يصبح ذلك الطول بواسطة الميكروسكوب طول البوصة بتمامها ، وهذا ليس بمعناه أنه كبر عشر مرات فحسب . كلا . بل إننا إذا قلنا إن هذا الجسم كبر طوله عشر مرات فمعناه أنه كما كبر في طوله كبر في عرضه كبر في عمقه ، وبضرب ١٠ في ١٠ في ١٠ في ١٠ يصير ألف ، فقول الدجال : إن أكبره مليون مرة ليس أمر أكبر من أنه زاد طوله فجعله ١٠٠ ومق زاد طوله مائة كان عرضه كذلك وعمقه ، فهذا هو اللبون بعينه ، إذن تعبيرنا نحن أقرب إلى عدم ضجيج الجهلاء ودهشهم وتعبيره أدنى إلى ضجيجهم ودهشهم .

لا أمر أعجب ، ولا منظر أدهش وأدعى إلى سرور نفسك وبهجتها من أن تشهد بنفسك أيها القاري الكريم بالزجاجة المكبرة عجائب المخلوقات أمامك ، أنا لا أقدر أن أعبر لك عما يخالج نفسك من الدهشة والغرابة والبهجة والاستحسان والروعة عند امتحانك حشرة ، أو زهرة ، أو أي شيء حولك ، أو نفس جلدك وثوبك وغيرها ، بماذا تدرس هذه العجائب كلها بزجاجة مكبرة منها شلنان اثنان لا غير :

هل في الوقت سعة لتفصيل ما تظهره هذه الآلة البديعة من العجائب التي تدهش اللب وتخبر العقل وتبعث على الحيرة والمجب آلاف من الأحياء الصغيرة السابحات في قطرة ماء ، في مستنقع وملايين كثيرة من الأجسام الصغيرة الحمراء في قطرة من الدم ، أنا لا أجد وقتا للنوسم والتفصيل ، فذلك ليس في الإمكان .

التلسكوب ، أو (سيكلاس) الآلة المقربة



(شكل ٤١)

تلسكوب يكبر الجسم من حيث المسافة ، وينتج ذلك أن الجسم يصير قريبا .

وهناك نوع من (الميكروسكوب) يكبر الأجسام باعتبار قربها (ومعنى هذا أن الأجسام البعيدة صغرها البعد . وهذا التلسكوب مقربها ظهرت قريبة ، فهذا تكبير للبعد فيصير في النظر قريبا) فهذه مكبرة تكبيرا يظهر أثره في اقتراب الأجسام (انظر شكل ٤١)

وهذا التلسكوب بواسطة وضع عدسات مختلفات بهيئة أخرى ونظام خاص ، فهذه كما تسمى سيكلاس تسمى تلسكوب (شكل ٤١) بمساعدة هذه الآلة تقدر أن تدرس النجوم وتنتظر فيها عجائب مفصلة تفصيلا بديما لا ترى بالعين المجردة .

(١) كلمة ميكروسكوب كلمة مركبة من كلمتين يونانيتين : ميكروس صغير ، وسكوبو : تنظر إلى : اه

زجاجة العين ، أو المنظار

وهناك نوع آخر من الزجاجات المكبرات للأحجام معلوم للعموم ، وهو المنظار العتاد ، وهو عبارة عن قطعة من الزجاج صغيرة يضاوية الشكل يضعها أمام عينه من اعترى نظره ضعف .

قال المؤلف لتلاميذه : وها أناذا ملزم أن أضع هذا المنظار على عيني لأني كبير السن ، فما أنت ذا ترى أن هاتين عدستان بسيطتان مكبرتان ولكن قليلا ، فغذا في يدك واستعمالهما كما كنت تستعمل الزجاجاة الكبيرة قليلا ، وانظر هل يمكنك أن تقرأ بها ؟ فأجاب هنري وقد حرك رأسه قائلا : آه : ها أناذا أرى ، لماذا ؟ أنا لست الوحيد في المدرسة الذي يحتاج إلى منظار يضعه على عينيه ، إن جيمس (وإن كان شابا) يعوزه منظار على عينيه ، فلما وضعها هنري على عينيه وجدها على هيئة خلاف ما تقدمه ، فحصلت للتلاميذ حيرة ، لأن هذا المنظار بعد لامقرب كالأول .

(شكل ٤٢)

عدستان مقعرتان من الجانبين
مما ، فهذه بدل أن تجعل
المجسم كبيرا ترىه اللاتيين
صغيرا ، وبدل أن تجعله قريبا
تجعله بعيدا .

فقال الأستاذ : أنا أشرح الموضوع لكم تمام الشرح : يجب أن تعلموا أن هناك عدسات أخرى غير الهدبة وهي القعرة (انظر شكل ٤٢) .

تمال هنا يا جيمس بجانبى ، وأحضر معك منظاريك ولكن لاتضعهما على عينيك ، وأنا كذلك لا ألبسهما ثم تمال هنا يا هنري ، يا من عيناه قويتان سليمتان ، لا قصر فيهما ولا طول ، تمال معنا أيضا ، فلنقرأ نحن الثلاثة في كتبنا ذات الحروف المتحدة من حيث مطبعتها ، أما أنا فإني ملزم أن أجعل الكتاب بعيدا عن عيني جدا على طول ذراعى حتى أقدر أن أتبين حروف الكتاب ، لأن نظري طويل ، فأما جيمس فإنه على العكس منى ملزم أن يجعل الحروف بجانب عينيه ، لأن نظره قصير ، وأما أنت يا هنري فان نظرك معتدل ، لذلك تضع الكتاب في المسافة المعتدلة التي تبعد نحو ثمان بوصات عن عينك (انظر شكل ٤٣) فلنضع مناظرنا على أعيننا أنا وجيمس ، الآن صار النظر تاما ، نحن الثلاثة قد وضعنا كتبنا في مسافة واحدة (انظر شكل ٤٤) .



(شكل ٤٤)

نحن ليستنا مناظرنا أنا وجيمس ،
ونظرنا المنحرف قد اعتدل الآن
كنظر جيمس .



(شكل ٤٣)

هنري سليم النظر ، وأنا طويل
النظر ، وجيمس قصير النظر .



(شكل ٤٥)

إن جميع الأشعة الضوئية قد
اجتمعت عند نقطة (أ) المسماة
بؤرة .

ثم قال الأستاذ : إن سبب هذه العجائب سأوضحه عند قراءة علم التشريح والآن نريد أن ندع الكلام على العدسات الصغيرة ، ولنجعل كلامنا خاصا بالعدسات الكبيرة ، إننا إلى الآن لم نستعملها إلا في أمر واحد ، وهو أننا نضعها بين أعيننا وبين الأشياء التي نريد أن نبصرها ، ولكننا الآن نريد أن نستعملها استعمالا آخر ، وهو (بؤرة العدسة) ، انظر الآن هذه العدسة قد وضعها في ضوء الشمس (انظر شكل ٤٥) .

ثم قال : انظر هذه المرة ما يأتي : ها أناذا وضعت العدسة في ضوء الشمس (شكل ٤٥) وقد وضعت وراءه قطعة من الورق ، وهذه الورقة أخذت أوجه نحوها بالتدريج العدسة ، فما أنت ذا (أولا) ترى أن بقعة بيضاء حرف (ا) حاصلة في الورقة في بعد خاص ، ظاهرة على الورقة أمامك ، وهذه البقعة يأخذ شكلها في الصغر شيئا فشيئا كلما اقتربت منها العدسة شيئا فشيئا أيضا ، ولا تزال تصغر حتى تصبح نقطة صغيرة في مقدارها ، ولكنها في أثناء تدرجها في الصغر تدرج أيضا في ازدياد لمعانها وضياؤها ، ولا عجب في ذلك ، لأن ألوان ضوء الشمس كلها التي سقطت على العدسة قد اجتمعت معا في هذه النقطة . (ثانيا) هذه النقطة نسميها (بؤرة العدسة) في الاصطلاح ، ومعناها في اللغة العربية حفرة النار . (ثالثا) إذا أردنا أن نستعمل هذه العدسة زجاجة مكبرة وجب علينا إذ ذاك أن نضع الجسم المراد تكبيره بين العدسة وبين بؤرتها ، إياك أن تنسى ذلك .



(شكل ٤٦)

عند البؤرة (ا)
فوق يدك كل الأشعة
قد اجتمعت معا .

ثم قال الأستاذ : تعال هنا يا جيمس وضع يدك فوق قطعة الورق (شكل ٤٦) انظر نجد أن بؤرة العدسة تضيء على يدك . ولكن لماذا أراك تسحب يدك فترجمها إلى الوراء ؟ فأجاب : ذلك لأنني أحس بأن النقطة شديدة الحرارة . (رابعا) فأجاب الأستاذ : حسن جدا ، إن هذا يدلك على أن الحرارة دائما تصاحب النور ، وأن البؤرة الجامعة للألوان هي عينها أيضا بؤرة جامعة للإشراق والإضاءة فهي تجمع الألوان والإشراق ، كلما كانت العدسة أوسع وأكبر كانت كميات النور التي تجمعها من الشمس في مركز النور وهي البؤرة أعظم ، وكانت تلك البؤرة أكثر إشراقا وأشد حرارة على مقدار ما جمعت من الأنوار .



(شكل ٤٧)

عند بؤرة عدستي الصغيرة (ا) كل
أشعة الحرارة اجتمعت معا فأوقدت
قطعة السوفان .

(خامسا) إننا بهذه العدسة الصغيرة نقدر على إيقاد النار في السوفان (شكل ٤٧) ، ولكن ليس من الواجب المهتم علينا للوصول إلى هذه النتيجة العجيبة ، وهي إيقاد النار بسبب هذه البؤرة أن تكون العدسة من زجاج . كلا . بل تكون هذه النتيجة ، ولو كانت العدسة من أي جسم شفاف ، مثلا الثلج جسم شفاف ، ولقد نعلم أن قائد السفينة في الأقطار الشمالية القطبية يوقد النور بالأشعة الشمسية الضعيفة في الأقطار القطبية الشمالية المجتمعة في بؤرة عدسة كبيرة جدا متخذة من الكتل الثلجية الكبيرة .

الله أكبر ، فكم يتعجب سكان تلك الأقطار ، وهم الأكسيمو من ذلك للنظر البديع ، ولهم يدهش البحارة التابعون لقائد السفينة من ذلك للنظر البديع الذي أبرزه العلم فأخرج الحرارة من البرودة وكأن الضد نشأ من ضده ، ذلك أمر عجيب .



(شكل ٤٨)

القطعة الزجاجية حلت النور
الشمسي إلى سبعة ألوان :
البنفسجي ، والنيل ، والأزرق
والأخضر ، والأصفر ، والبرتقال
والأحمر ، واجتماع هذه السبعة
يسمى : سكرام .

الألوان

ها نحن الآن نريد أن نبحث في تجارب خاصة بأمر أكثر عجبا ، وأجمل منظرا ، وأشد بهجة في القلوب ، مظهر تحليل النور وتفرق أشعته والكلام على ألوان الشمس السبعة ، ها هي ذه قطعة بلور ذات ستة وجوه (انظر شكل ٤٨) .

فها هي ذه أنا أدبرها في ضوء الشمس فوق هذه الورقة ، فها نحن أولاً نرى أنها في وضع خاص تحدث فوق الورقة نقطة ذات ألوان كثيرة ، فإذا نظرنا بعناية إلى هذه النقطة وتأملناها نجد أن مركزها يشتمل على لونين ، وهما أصفر وأخضر ، وعلى أحد الناحيتين الحمرة ، وعلى الناحية الأخرى الزرقة والبنفسجية ، ولا جرم أنكم قد لاحظتم (قوس قزح) ، ومعلوم أن الألوان المجتمعة فيه سبع ، فإذا ابتدأنا بالبنفسجي الذي هو أسفل الألوان التي في (قوس قزح) قلنا هكذا : البنفسجي ، النيلي ، الأزرق ، الأخضر ، الأصفر ، البرتقالي ، الأحمر .

هذا بحسب الظاهر ، ولكن في الحقيقة أن هناك أنواعاً من الطيف كثيرة يختلط بعضها ببعض بمزجات متحدات من الأحمر إلى البنفسجي بحيث لا يقدر الإنسان أن يميز أولها من آخرها ، ولا مبدأها من منتهيها .



(شكل ٤٩)

الضوء الأبيض حاصل
بسبب اتحاد الألوان
السبع (ألوان ضوء
الشمس) .

وعلى ذلك تكون دراسة ألوان ضوء الشمس تخص هذه الألوان السبع المجتمعة في صورة (قوس قزح) المعروف ، وهي التي أظهرتها لنا الزجاجاة البلورية السدسة الأوجه التي بها عرفنا كيف يتفرق النور وينتشر فيصير ألواناً مختلفة .

إن ما تقدم به نعلم أن الألوان كلها مجتمعاً في ضوء الشمس وإن كانت بحسب الظاهر بيضاء لا لون لها .

تركيب ضوء الشمس الأبيض

لنبرهن الآن بتجربة بسيطة على ما تقدم فنقول ، ها هي ذه قطعة من الورق المقوى مدورة ، إلى لونها بسبعة الألوان الظاهرة في (قوس قزح) (شكل ٤٩) .

إن الورق المقوى التقسم في مركزه فتحة صغيرة ، وفيها قد أقمنا عوداً ، وعلى ذلك ها أناذا أدبرها بسرعة على هذا المود كأنها تدور حول محور ، ها أتم أولاً ترون الألوان قد اختفت اختفاء تاماً بعد الدوران وكانت ظاهرة قبله ، وأصبحت هذه الورقة للقوة بيضاء تسر الناظرين .

على أنه ليس من الضروري أن أرسم الورقة بسبعة الألوان حتى تظهر بيضاء عند دورانها السريع ، إنه ليجزئي في ذلك أن أرسم الثلاثة الألوان الرئيسية ، وهي الأحمر والأصفر والأزرق ، وسبب ذلك أن بقية الألوان مشتقات من هذه الثلاث ، وهي : البرتقالي ، والأخضر ، والبنفسجي (المؤلف : لم يذكر السابعة ، وهو النيلي) .

ثم شرع بين ذلك فقال : إن هذه الثلاثة تحصل باتحاد اثنين من هذه الثلاث ، وبياناً أننا ننظر في قطعة أخرى من الورق المقوى ونلون نصفها بالحمرة والنصف الآخر بالزرقة ونفعل فيها ما فعلناه بسابقتها ، فلما قل ذلك ظهر اللون البنفسجي ، ثم إنه لون قطعة أخرى نصفها بالحمرة ونصفها الآخر بالصفرة ، فأدارها بسرعة فظهر اللون البرتقالي ، ثم إن لوني الصفرة والزرقة أنتجا الخضرة .

ما معنى ألوان المادة المشاهدة

ما الذي نرى بقولنا هذا : الورق المقوى أو غيره أبيض أو ذلك أخضر أو أحمر أو أسود ؟

(الجواب) : إن معنى أن الورق المقوى أبيض ، أو أي شيء آخر أبيض أنه قد نشر وأذاع كل ما وصل

إليه من الألوان السبعة ولم يمتص منها شيئاً ، والأزرق والأحمر قد امتص كل منهما ما وصل إليه من الأشعة ولم يمتص الأول الزرقة ، ولا الثاني الحمرة ، أما الأسود فإنه قد امتص جميع الأشعة فلم يبق منها شيئاً يشكسر

عنه وينتشر انتشاراً فسأل أحد التلاميذ المؤلف قائلاً : ما سبب هذا ؟ فأجاب : أنا الساعة لست على استعداد للاجابة ، فلتنعموا مؤقنا بهذه المعرفة .

وعلى هذه الطريقة يكون قولنا : إن الماء أبيض ، وإن الحجر حمراء ، وإن الحجر أسود ، معناه أن الماء أجاز لجميع الألوان السبعة أن تقاطعه وتعمر في طريقها به ، ولم يحبس لونا منها ، ولم يمر لون من الألوان السبعة في الحجر إلا لون الحجر ، والبقية قد امتصها ذلك السائل ، أما الحجر فقد امتص جميع الألوان ولم يسمح بمرور واحد منها به ، ذلك هو المعنى الذى يفهم من هذه الصفات اللونية ، إن التلون يحصل بإحدى حالين إما بانتشار الضوء ، وإما بمروره من جسم شفاف ؛ فمثال الأول ما تقدم من انتشار الضوء بواسطة الورق القوي للون ، ومثال الثانى أن نضع بين أعيننا وبين الضوء أجساما غازية ، أو أجساما سائلة ، أو أجساما صلبة شفاقة كالزجاج .

ومن أندر ما عرف من صفات الأجسام وعجائبها أن الجسم الواحد يكون له لوانان باعتبارين مختلفين : أى بانتشار الضوء عنه ، أو بمروره منه بهيئة جسم شفاف ، ثم أتى بورقة شفاقة رقيقة جدا من الذهب وقال : انظروا هذه ، فهى صفراء متى انتشر الضوء عنها : أى إن لونها نفس لون الذهب للمروف ، ولكن إذا نظرناها فى حال وضعها بين أعيننا وبين ضوء الشمس فإنها تظهر لنا خضراء ، ومثل هذه الحال فى اللواد قليل جدا اه .

ملخص ما تقدم

فقال صاحبي : ما ملخص هذا ؟ فقلت : ملخصه أن هذا العقل الإنسانى يستنتج أعظم الأشياء من أصاغرها ، فإنه لما رأى الضوء دخل حجرتة على خط مستقيم ومعه الحرارة استخرج منه أمرين : ملازمة الحرارة للضوء ، وذلك بحاسة اللمس ، وكون جريه على خط مستقيم بحاسة البصر ، ثم أخذ يستنتج ما فوق ذلك مثل إن الأجسام ترسم على الأجسام القابلات للضوء على هيئة مقلوبة ، وإن الضوء إذا وقع على جسم شفاف كالماء فإنه ينعكس عنه وتكون هناك زاويتان : زاوية للسقوط وزاوية للانكسار ، ومن وضع فى يده مرآة وانعكس عنها النور كان ذلك النعكس تابعا لحركة المرآة ، ثم انتقل العقل الإنسانى من هذه المبادئ إلى ما هو أشرف منها ، فنظر فى أمر الصور المرسومة فى المرآة ، فوجد أن المسافة التى بين الإنسان وبين المرآة مساوية للمسافة المقدره بين نفس المرآة وبين الصورة التى ينجل له أنها وراء المرآة ، وهذه راجعة إلى المسألة المشابهة لها هنا ، ثم رأى أن يمينه أصبح فى الصورة يسارا وبالعكس ، فوجد هذه المسألة راجعة إن أن الصور ترسم مقلوبة كما تقدم قبل ذلك .

هنالك أخذ يوازن ما بين الماء والزجاج ، فوجدهما يقبلان الصور لأنهما شفافان ، ثم أخذ الإنسان يبحث فى انكسار الضوء كما عرف انعكاسه ، وهو فى حال الانكسار تعثره أحوال : مثل أن الجسم فى بعض أحواله يكون حجمه أكبر مما هو عليه إذا غمره الماء ، فبدأ لهذا الإنسان النشاط أن يتخذ العدسات ، فجعل منها ما هو مكبر للأجسام الصغيرة ، ومنها ما هو مصغر لها ، ومنها ما هو مقرب لمسافتها ، فكانت العدسات المحدبة الوجهين مكبرات للأجسام ، وبوضع عدد منها بهيئة منتظمة أمكنه أن يكبر الحشرات بالآلات المعظمة (مكرسكوب) وبوضع آخر منتظم أمكنه أن يقرب مناظر الأشياء البعيدة (تلسكوب) .

ثم انتقل من هذا إلى أمر طبي ، فاستعمل العدسات على العيون الإنسانية ، فإن كانت مقعرة نعت طويلا النظر ، وإن كانت محدبة (وظيفتها تصغير الأجسام) نعت قصر النظر ، وهاتنا أخذ الإنسان ينظر

في الألوان فوجد أن (قوس قزح) في السماء شرح له ضوء الشمس شرحا وافيا فدهش إذ رأى سبعة ألوان واضحات أمامه مبتدئة من الأسفل إلى الأعلى على هذا النمط : بنفسجي ، نيلي أزرق ، أخضر ، أصفر ، برتقالي ، أحمر . فالأحمر أعلى في قوس قزح ، والبنفسجي أقرب إلى الأرض هنالك خطر لهذا الإنسان أن ينظر جسما شفاقا عسى أن يرى هذا المنظر : فماذا فعل ؟ أخذ صمامه من البلور ، ذلك الجسم الجميل استخرج من الرمل مع أجسام أخرى مثل البوتاسا أو الصودا ، وجعله مضلعا ، فرأى هذه الألوان واضحة خلفه ، فكان الأزرق والبنفسجي من جهة ، والأحمر من جهة أخرى والأصفر والأخضر في الوسط .

سبحانك اللهم : زوقت السحاب وحملته بقوس قزح ، وجعلته للناس درسا جميلا ليبتهجوا بالمنظر الجميلة ، عجب هذه حدائق وجنات ، الأزهار في الحدائق ذوات ألوان كألوان الطيف . وهذه البلورة المضلعة تصنع نفس هذه الألوان البديعة التي تكاد تكون مجردة عن المادة .

اللهم إنك لا يحجبك عن الإبداع أمر ما ، فهذا السحاب في السماء خلقته لإصلاح حال كل حي على الأرض ، ولكن في أثناء ذلك لم تدع التزييق والإبداع وتحسين أشكال السحاب .

فقال صاحبي : هل ما ترجمته من هذا المقال أحدث أثرا غير ما ذكرته الآن في نفسك . فقلت : لقد تقدم ذكر الآلة المكبرة للأجسام فشاقني ذلك أن أقابل الأستاذ شوقي بك بكبير الذي هو أعظم عالم طبيعي في مصر ، وهو يسكن حلوان ، وأراني (المكروسكوب) الذي عنده ، وأطلقني على رجل الدبابة التي كبرها أربعة آلاف مرة ، وذلك في يوم (شم النسيم) سنة ١٩٣٢ ثم وضع حجرا صغيرا لا يؤبه به استخرجه من جهة تسمى (الحوف) وهو واد يمتد في وسط الجبل الشرقى بالبلاد المصرية ، وما كاد يضع هذا الحجر تحت الآلة حتى ظهرت أنواع من الفواقع مختلفات الشكل مما دل على أن هذه الأحجار ، وهذه الصخور وهذه الجبال قد خلقت في البحر ثم اعترتها أحوال عظيمة غيرت نظام الأرض وأوضاعها ، فظهرت تلك الجبال على ظهر الأرض كما هو الرأي السائد عند علماء هذا الزمان .

ومما قاله إذ ذاك إن في وادي الحوف المذكور نباتات تخرج بالقطرة تنفع للمداوة ، فإذا زرعتها فقد خواصها ، وهذا عجب يدل على أن العناية الإلهية ربت نظام العوالم لثمرات خاصة وأكثر الناس لا يعلمون . هنالك أراني أمرا عجبا : فقال انظر ، فنظرت إذا فوق سقف منزله سلكان مصنوعان من النحاس ، دقيقا صنعهما ، موضوعان بهيئة هندسية بحيث يميل السلك الأول عن خط الشمال إلى الغرب عشرين درجة ويميل الثاني عن الأول نحو ٦٠ درجة ، وهذان السلكان يجتمعان في زاوية عند الحائط ، وقد اتصلا بهما سلك نزل إلى أسفل المنزل واتصل بالآلة (الراديو) .

فهذان السلكان فوق سقف المنزل يتلقيان ما يأتي به الجو من الأصوات التي في الجهات الأوروبية وغيرها المحصورة بين هذين السلكين ، فكل موج من الأمواج الواقعة بينهما يلتقطهما هذان السلكان ويتلقاه عنهما السلك النازل إلى الآلة في الدور الأسفل من المنزل : « فتبارك الله أحسن الخالقين » .

سلوك من النحاس تكون فوق السقف توضع بهيئة خاصة ، تعطى قوة سحرية بأن تساب من الجو حركات الأصوات الجارية في الأثير فتجلبها إلى صوت كالذي صدر هناك في باريس أو لندن أو برلين أو فيينا . إن هذا الأمر عجيب ! فقال صاحبي : هذا من أعجب العجائب فكيفني هذا في الاستطراد ، فهل من رجوع إلى المبحث الذي كنا فيه ، وهو ضياء الشمس ؟ فقلت نعم .

ضوء الشمس كما يفيد الهداية يفيد الحياة

أيها الصديق : تقدم كلامنا في أن ضوء الشمس منه صنع الناس الأعاجيب ، في الهداية به اهتموا إلى غرائب وغرائب تقدم وصف بعضها في هذا المقام .
رباه ، خلقت الشمس وأرسلت منها ضوءاً لأرضنا برحمتك ونعمتك ، وجعلت لها نظاماً تاماً في سيرها ، فنظمتنا أسماننا بنظام سيرها ، ثم نوعنا في الارتفاع بذلك النور البديع .
ثم أننا نظرنا نظراً آخر فألفينا هذا النور ليس قاصراً على هدايتنا . كلا . بل هو مفيد لنفس حياتنا ، فهو حياة كما هو هداية ، إن النور يسطع على الورق في الأشجار والحشائش وسائر النبات ، فيمتزج بالمصارات الجارية في تلك النباتات ، فيكون التفاعل والامتزاج ، فيتم نمو النبات (تقدم هذا واضعاً في سورة يس مشروحاً مصوراً بالتصوير الشمسي عند آية : سبحان الذي خلق الأزواج كلها) وكيف كان النور مساعداً على تغذية النبات وجلبه من الهواء مواد الكربون الساخرة فيه فيقوى النبات ويميش ، وبه تكون حياة الحيوان والإنسان .

فقال صاحبي : ما أجل هذا القول ، فهلا أفضت فيه كما أفضت في هداية النور . فقلت : أيها الصديق أنت تعلم أن هذا تقدم في سور كثيرة مستوفى موضعاً ، ولكن إن شاء الله تعالى سأبحث بحثاً مفصلاً في (سورة التبا) ، وأذكر هناك إن شاء الله تعالى عجائب أهبج مما تقدم عند آية . « لنخرج به حبا ونباتا ، وجنات ألقاها وهناك إن شاء الله تعالى ترى بهجة الأشجار والشجرات والنجوم : أي النبات الذي لا ساق له وكيف تنوع الشجر في هيئة أغصانه وأوراقه ، وكيف تكون الأزهار وهي مصورات قد تبديت أنواع كأسها وتوجيهها ، وأعضاء ذكورها ، وأعضاء إناثها بحيث ترى واضحة في الشكل ، وكيف كان من الذكور والإناث ما جاء في زهرة واحدة كالقطن ، ومنها ما جاء في زهرتين في نبات واحد كالدرة ، ومنها ما جاء في نباتين وهما إما في جهة واحدة فيحصل اللقح فالتمر كالنخل ، لأن اللقح قد يحصل بالهواء ، أو بفعل الإنسان ، وإما أن يكون الذكر في قارة والأنثى في أخرى كما في الصفصاف ، فكل صفصاف أوروبا إناث ، وكل صفصاف آسيا ذكور ، لتلك لم ير الناس لهذا النوع ثمراً ألبنة ، وهناك ترى عجائب الأزهار ، وكيف حار العلماء فلم يهتدوا لتنظيم أنواع النبات إلا بواسطة أزهارها ، وما عدا ذلك لم يجدوا له قيمة ، وهناك ترى كيف كان ماله فلقه واحدة كالقمح كالنخل بخالف تركيبه ماله فلقتان كالقول والبطيخ ، وكيف كانت العلاقة بين الثمرات والحبوب وبين نظام أجزاء النبات محكمة كما ستره هناك إن شاء الله تعالى ، وبهذا انتهى الكلام على اللطيفة الثانية في قوله تعالى : « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح » . والحمد لله رب العالمين . كتب يوم الخميس ٥ صفر سنة ١٣٥١ هـ - ٩ يونيو سنة ١٩٣٢ م قبيل الظهر .

اللطيفة الثالثة

في قوله تعالى : « أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يسكنن إلا الرحمن » الخ سألت العلامة صديقي الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير . فقال : ما السر في ذكر : « إنه بكل شيء بصير » بعد ذكر أن الطير صافات في جو السماء ، وأن الله هو للمسك لها ، ثم ما عجائب الطيور وما تعريفها وما أقسامها ؟ إنني أرجو أن تذكر لي هنا مجللاً من ذلك ليعلم السلون في أقطار الأرض أنهم مقصرون في هذه الآية ، وأنهم عليهم أن يفهموا هذه الجوانب ، فلن يشكروا النعمة حتى يعرفوها ، وللمعرفة أساس السعادة في الحياتين . فقلت : لقد ذكرت في هذا التفسير مقالات كثيرة على الطيور وعلى غيرها . فقال :

ولكن المجلد في هذا المقام لا بد منه مع بيان صور أهم الطيور ومناقضها بقدر الإمكان . فقلت : أماي الآن كتاب الأستاذ (بول بيرت) الوزير الفرنسي الذي ترجمته زوجته الإنجليزية (جوسفينا كلايتون) مدام بول بيرت الاسكوتلاندية وفيه المختصر المطلوب وصور الطيور . لا بد قبل الشروع في مختصر الكلام على الطيور أن أقدم مقدمة في مجمل علم الحيوان فأقول :

أقسام الحيوان أربعة^(١)

القسم الأول : الحيوانات العنقوية

وهي تشمل : الإنسان ، وذوات الأربع . والطيور ، والزواحف ، والسماك فهذه الخمس هي أقسام الحيوان التي اشتمل على هيكل عظمي وفقرات ودم ، فالإنسان والبهائم من الخيل ، والبغال والحمر ، والأنعام من الإبل ، والبقر والغنم . والسباع كالذئب ، والكلب ، والطيور الجارحة وغير الجارحة ، والزواحف كالحيات . والعقارب ، والسماك في البحر ، وهو معروف ، كل هذه لها عظام ردم . ولكل نوع من هذه أصناف كثيرة .

القسم الثاني : الحيوانات الحلقية

أي التي تركيب جسمها من حلقات مجتمعات منضجات يكون منها جسم هذا الحيوان ، وهذا القسم أنواع وهي : الحشرات ، والعناكب ، وذوات الأرجل الكثيره والحيوانات القشرية ، والدود . أما الحشرات فهي ما كان لها ستة أرجل ، ولها إما جناحان كالذباب ، وإما أربعة أجنحة كأبي دقيق الذي يعيش في بلادنا المصرية ويكون منه الدود الذي ينسد شجر القطن ، وهذا سلينا قطننا ، فلذلك درسه الناس الآن في مصر بعض الدراسة ، وهناك حشرات أخرى لها أربعة أجنحة تسمى باللسان الإفريقي (درا كوفلاي) .

أما العناكب (جمع عنكبوت) فهي مالها ثمانية أرجل ضعف ما لذوات الأربع ، وأما ذوات الأرجل الكثيرة فهي ما قد تصل أرجلها إلى عشرين زوجا من كل ناحية عشرين رجلا ، ويقال لها في بلادنا المصرية (أم أربعة وأربعين) .

وأما الحيوانات القشرية فهي تشمل قراض الحشب وحيوانا يسمى (كرايفش) باللسان الأفريقي . وهو مركب من حلقات مدحجة قوية ، وأما الدود فهو يشمل دود الأرض والعلق ، وهذان رؤوسهما متدة بجسمهما ، وليس لهما أرجل ، وليس جلد لهما صلبا قشرياً كجلد كرايفش .

القسم الثالث

الحيوانات الهلامية التي جسمها أشبه بالفالودج الذي هو نوع من الأطعمة ، ومن هذا حيوان يسمى (القوقمة) وهذا الحيوان جسمه يكون من هذا الهلام ، وقد أعطى وقاية من المخابراتية العاديات والهليكات وهي معدة كمنزل تسكن فيه ، ومنه حيوان يسمى باللسان الأفريقي (ميوزل) وجسمه محفوظ بين صدفتين

(١) انظر تفصيل هذا المقام في المجلد الحادي عشر من هذا التفسير في سورة الحج عند الكلام على آية « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله إن يخلقوا ذبأ ولو احتسبوا له » اه .

من الحمار ، فهذا القسم وهو الثالث من أقسام الحيوان لاعظم له ، فليس من ذوات الفقرات ، ولا حشرات له فليس من ذوات الحلقات ، فهو إذن حيوان هلامي .

القسم الرابع : الحيوانات الشعاعية

وهذه منها ماهو على شواطئ البحار المسمى (سمك النجم) ومنها ماهو في البحار يعيش كمبيضة مستعمرات مكونة من تلك الحيوانات الصغيرة ، ومن اجتماعها تتكون أجسام صخرية ، وقد تتكون منها جزائر ، فترى هذين النوعين يختصان بأمرين : الأول أن لهما لما مركزيا يشاهد في الوسط . الثاني أن الحيوانات حول ذلك القم ترجع إلى حلقات ضوئية تحيط بذلك القم أول الدخول ، ثم إن مشاهدة صورنها تدخل في النفس عجباً ! فإن سمك النجم تراه على هيئة ذات خمسة فروع تحيط بمركزها ، وتلك الفروع كأنها أصابع الإنسان ، وذلك الوسط كالسقف ، وكل أصبع من هذه الأصابع على بأهداب تغطيه ، وفي أصول تلك الأهداب تشاهد نقطة مضيئة كأنها مصابيح لامعة على طول تلك الأصابع ، وهناك أيضا الحيوان المسمى باللسان الأفرنجي (بولبيا) فإنك ترى القم المتقدم أو المدخل ليس متصفا كما في سمك النجم ، بل تراه نقطة صغيرة تحيط بها حيوانات لاحصر لها مجتمعة بهيئة ثمان ورقات جميلات ذات شعاع جميل ، وكل هذا تراه موضعا بالصور الفوتوغرافية في سورة الحج عند آية : « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له » الطع فراجعه هناك إن شئت اهـ .

• • •

وقد جاء في الكتاب الإنجليزي المذكور في صفحة ٤٤ وما بعدها ما ترجمته : « إن الطيور لها منقار وريش وجناحان ورجلان » . فالمنقار يمكن رؤيته في رأس هذا الطائر الذي أحضرته لأجل الدرس (هذا كلام المؤلف الفرنسي) ، ثم وصف هذا المنقار فقال : إنه حجاب عظمي يكون غلافا وغطاء للفكين ، أما الريش فانه في حال كمال نموه يشتمل على ما يأتي :

(١) أولا : أنبوبة بها ينبت الريش في جلد الطائر .
(٢) وبلى هذه الأنبوبة ساق تحمل فوق كل واحد من جانبيها (دوارة تدل على جهة الريح) ، وهذه الدورات أيضا تحمل دورات أصغر منها ، وهؤلاء أيضا قد يحملن (كما في الإوز) دورات هوائية أقل من الحملات لها ، وكل هذه الدورات ملتصقة ببعضها بإحكام ومنسوجة نسجا بديعا منتظما .
وليس كل ريش تام النظام على هذا النوال ، وإنما وصفنا هذا لما تم نماؤه كما قدمناه ، أما الأجنحة فلها عادة قوية متينة ، بها يقدر الطائر أن يطير في الهواء ، وبعض الأجنحة ترى قصيرة جدا مثل أجنحة النعامة بها تقدر أن ترتفع عن الأرض ، وبعض الأجنحة يستعملها الطائر استعمال السمك لزعانفه وبمساعدها تنوم تحت الماء ، إن كل طائر ببيض ، ومعظم الطير يبني عشاً ، إن البيض مركب أولا من قشرة حجرية تحوى في داخلها مادة بيضاء ، وفي داخل هذه مادة أخرى صفراء .

ثم يقول المؤلف : إنه أرى التلاميذ يخطئون : إحداهما نية والأخرى منضجة بالنار ، فلما فتح الأولى أمام الطلبة لما كان داخل القشر أسرع إلى الانحدار في الطبق . ثم قال . انظروا ألستم ترون في وسط المادة الصفراء مادة صغيرة بيضاء : هذا هو أصل الجنين الذي يخلق في البيضة ومنها يخرج فروج صغير إذا حافظنا عليه مدة كافية لينمو في البيضة تحت حضن الدجاجة . ثم قال : هاأنذا الآن أنتزع قشر البيضة اللصجة

بالر . وهأنا ذا أقسمها بهدوء تام ومحافظة عليها إلى قسمين حتى يميزوا موضع المادة البيضاء . وموضع نادر الأخرى الصفراء .

كيف تصير البيضة طائرا صغيرا؟

إن البيض متى حفظ في مكان دافئ في مدة طويلة معينة من الزمان فإن الجرثومة البيضاء التي تلتصق وسط المادة الصفراء التي هي أصل الفروج تنقلب بالتدريج طائرا صغيرا . ينمو في سجنه وفي أثناء نموه يمتص ما - رله من المادة الصفراء والبيضاء حتى يصير كبيرا يتألف داخل القشرة ، وحينئذ يكسرها هو بمنقاره هنالك يخرج أعمى لا حراك له مثل هذه الحمامة الصغيرة (انظر شكل ٥٠) أو كمثل ما يخرج من البيضة . وهو نشيط الحركة خفيف عالم كيف يلتقط من الأرض ما يقوته من الطعام ، وكيف يجرى على الأرض وذلك كهذا الفروج (شكل ٥١) ومن صغار الطير ما يخرج وقد استعد لما هو فوق ذلك ، فلا يكتفي بالجرى في الأرض ، بل يعم في البحر أو النهر ، وذلك كالإوز والبط ، وهاهنا أخذ المؤلف يشرح حضن البيض بالطريق الصناعية بحيث يقوم الإنسان بهذه العملية بدل الأم ، وأبان صور الصندوق الذي يقوم مقام الأم في حفظ حياة الجنين ، ودوام الحرارة المعادلة للحرارة الطبيعية للأم في عشها المناسب لحال نوع الطير هيئة ومقدارا .



(شكل ٥١)

فروج خارج من بيضة
الدهساجة قادر على
السعي



(شكل ٥٠)

حمامة خرجت من
عشها وهي عمياء ولا
تقدر على الحركة

الطيور على قسمين : طيور مهاجرة وطيور غير مهاجرة

ثم أخذ المؤلف يقول : لست أقصر معكم في الطير على ما تقدم ، بل أقول لكم : إن من الطير ماله هجرة كل عام في أوقات محددة تحديدا تاما ، مثال ذلك : الخطاف واليهاني (١) ، وهو (الساوي) والبلبل . فهذه طيور تبيض في البلاد الحارة في زمن الشتاء ، فإذا أقبل فصل الصيف هاجرت إلى بلادنا (يريد المؤلف بلاد أوروبا) فتعيش على الحشرات الخلوقات فيها ، وتبنى أعشاشها ، وتحضن بيضها ، وتربي صغارها ، ومتى أقبل فصل الشتاء وقلت الحشرات قفلن راجعات إلى أقطارهن الحارة في أفريقيا ، وبذلك أبدأ بدين ودهر الدهارين .

وهناك طيور أخرى مهاجرة بهيئة مخالفة للسابقة كالإوز والبط الوحشيين . فإن هذه تبيض في الأقطار الشمالية الباردة ، فإذا اشتد عليها البرد شتاء أقبلت تسعى إلى بلادنا (يريد أوروبا) . وهاهنا أخذ يشرح أنواع الطيور وهي :

(١) الجارحة .

(٢) الطيور المقلدة للإنسان (كالقروود) ذوات المناظر الجميلة ، والأصوات البديعة .

(٣) الحمام .

(١) يضم أوله وآخره نون مقصورة بوزن جباري .

(٤) والطيور الدجاجية .

(٥) والطيور الحائضة .

(٦) والنعام .

(٧) والطيور المنسوجة الأرجل .

(٨) وأنواع المصفر الدوري . وهاك تفصيلها :

أولا — (الطيور الجارحة) : إن من الطيور ما تعيش على لحم الحيوان الحى من طيور أخرى ومن ذوات الأربع ومن الزواحف فلذلك سميت طيوراً جارحة ، ولذلك تراها قد وهبت سلاحاً حاداً قويا به تحدث تمزيق فرائسها .

(١) ألا ترى إلى هذا المنقار الحاد المنسوع كهيئة الشمس والحطاف والكلاب (انظر شكل ٥٢)

(ب) وإلى هذا الخلب الطويل المد لاختراق أجسام الفرائس والقبض عليها (انظر شكل ٥٣)



(شكل ٥٣)
مخالب الجوارح



(شكل ٥٢)
منقار الطيور الجارحة
الحاد المنقوس

(ج) وإلى الجناح الطويل المهدد . إنهن يطرن سرعاً بخفة ، ومن أمثلة ذلك أن صقرا من النوع السسمى بالافرنجية (فلكون) فر من غابة بلدة فى وسط فرنسا تسمى (فونتنبيل) عثر عليه فى اليوم الثانى بجيزة مالطة .

الجوارح على قسمين

إن الطيور الجارحة تنقسم إلى قسمين : جارحة ليلية و جارحة نهائية ، فمن الثانية النسر (شكل ٥٤) وهو يعيش على لحوم الحيوانات الميتة ، وبعض هذا النوع عظيم الحجم يعيش فى أوروبا ، إن النسر لها منفعة عظيمة جدا فى الأنطار الحارة ، لأنها تنظف الجو من الرمم التى إذا بقيت أفسدت الهواء ، وأمانت الأحياء ، ومن طيور هذا النوع الحدأة الكبيرة التى تعيش فى شمال أمريكا (شكل ٥٥) ، وهى حدأة كبيرة الحجم قد يصل مقياسها (إذا مدت جناحها) من طرف إلى طرف ١٢ قدما ، ومنها نسر جبال الألب (شكل ٥٦) وهذا أيضا كبير الحجم كسابقه ، وهو ذو لحية ، ومنها الصقر (شكل ٥٧) ، وهذا أقوى أجنحة وأحد مخالب من النسر ، وهذئه تعيش على لحم الحيوان الحى ، ومنها الباز ، وهو نوع من الصقور (شكل ٥٨) وهو أشد قوة على مقتضى حجم جسمه وأكثر جرأة ، وهذا النوع قديما كان الناس فى بلادنا (يريد بلاد أوروبا كالإنجليز) يربونه ، ولا يزال أهل الجزائر يبيدون به إلى الآن ، وهكذا فى بلاد الشرق ، ومن ذلك نوع آخر من الصقور (شكل ٥٩) وهاك صورها بالترتيب :

(شكل ٥٦)
نسر الألب(شكل ٥٥)
مذاة شمال أمريكا(شكل ٥٤)
القدر(شكل ٥٩)
سقر آخر(شكل ٥٨)
الباز(شكل ٥٧)
الصقر

ونوع آخر من الصقور أيضا (شكل ٦٠) ومنه نوع يسمى صقر الصفور الدوري (شكل ٦١) ، ومنه المذاة (شكل ٦٢) وهالك صورهن .

(شكل ٦٢)
مذاة(شكل ٦١)
صقر الصفور الدوري(شكل ٦٠)
سقر آخر أيضا

هذا هو نهاية الكلام على الطيور الجارحة النهارية. ولنشرع الآن في الكلام على الطيور الجارحة الليلية ، فنقول ومن الله التوفيق :

الكلام على الطيور الجارحة الليلية

- (١) هي طيور لما ريش زغبى به تقدر أن تطير فلا يسمع لطيرانها صوت .
- (٢) ولها آذان مفتحة واسعة جدا :
- (٣) وأعين مدورة متجهة إلى الأمام ، وهالك صور بعضها :

(شكل ٦٦)
أسفر اليوم حيسا
كالطائر الأسود(شكل ٦٥)
بومة الصقر(شكل ٦٤)
بومة المرى(شكل ٦٣)
بومة العادة

إن هذه الجوارح الضالّة لا تدر فأرا ، ولا حيوانا ضارا إلا أهلكته ، لأجل ذلك يحافظ عليها الناس لتساعدهم في إبادة الهلكات ، ومن الناس من يحلون فائدتها فيتلاعبون بها ، ويسمرونها في أبواب بيوت مواشيهم حماقة وهم لا يحفلون ، وبهذا تم الكلام على الطيور الجارحة بقسمها ، والحمد لله رب العالمين .

النوع الثاني : الطيور المقلدة للإنسان كالقرود

وهي فصيلة البيغاء



(شكل ٦٧)
البيغاء

والبيغاء له منقار غليظ ولسان لحمي به يقدر على تقليد الإنسان في النطق ، واثنان من أصابع رجليه متجهتان إلى الامام ، واثنان إلى الخلف ، وبذلك يسهل له الاستمساك بالأغصان والتسلق عليها ، وعجيب ذكائه وفهمه جعله يسمى (فرد ذوات الريش) كالقرود ، وهذا النوع يسكن الأقطار الحارة ، وبهجة ألوانه وبديع صوته الطريف يسحران قلوب سكان الأقطار الاستوائية في الدنيا الجديدة والقديمة ويستهوون أفئدتهم وهم طربون .

النوع الثالث : الحمام

وهو ظاهر ، فلا حاجة بنا إلى الكلام عليه .

النوع الرابع : الطيور الدجاجية

وتسمى بالقرنيجية (كليناسن) و (كالينا) باللاتينية معناها الدجاجة ، ومن هذا النوع ما يسمى (بيزنت) (شكل ٦٨) والطاوس (شكل ٦٩) والديك الرومي (شكل ٧٠) وهذه انطير الدجاجية تشبه الدجاج في أنها تأكل الحبوب وهاك صورها :



(شكل ٧٠)
ديك رومي



(شكل ٦٩)
طاوس



(شكل ٦٨)
بيزنت

النوع الخامس : الطيور الخائضة

سميت بذلك لأنها ذات أرجل طويلة عارية ، وأكثرها تعيش في المستنقعات ، وتغوص في الوحل والماء ، وقد منحت رقبا طويلة ، ومنافع كذلك فضلا عن أرجلها الطويلة ، بها تقدر أن تقتنص الحيوانات

الصفيرة التي عليها مدار حياتها ، وهاك منها البجع (شكل ٧١) وما يسمى بالافرنجية (هيرون)
(شكل ٧٢) والكركي (شكل ٧٣) وطير الماء (شكل ٧٤) وهاك صورها :



(شكل ٧٤)
طير الماء



(شكل ٧٣)
الكركي



(شكل ٧٢)
هيرون



شكل (٧١)
البجع

النوع السادس : النعام

وهذا النوع حجمه كبير وأجنحته (وإن كانت قصيرة جدا) تساعده على أن يجرى بسرعة عظيمة ،
إن هذا النوع يسكن بلاد أفريقيا ، وله أصابعان فقط ، ويبلغ ارتفاعه أكثر من سبعة أقدام ، وترى في
(شكل ٧٥) الآن نعامة أفريقيا وارتفاعها ٧ أقدام ، وفي (شكل ٧٦) نعامة أمريكا المسماة
(رها) ، وهي أصغر ، ولها ثلاثة أصابع ، وفي (شكل ٧٧) نعامة استراليا وبورنيو المسماة :
(كسوري) .



(شكل ٨٧)
نعامة استراليا ،
وبورنيو المسماة :
كسوري



(شكل ٧٦)
نعامة أمريكا المسماة
(رها) وهي أصغر
لها ثلاث أصابع



(شكل ٧٥)
نعامة أفريقيا ،
وارتفاعها سبعة
أقدام



(شكل ٧٨)

هيكل طير كبير من
الجزيرة الجديدة لم
يبق لها وجود الآن
ارتفاعها ١٠ أقدام

(شكل ٨٢) وهاك

وهذا النوع كبير الحجم ولكنه يتضاءل أمام ما كشفه الكاشفون من نوعه في
(مداغشقر) و (زيلندة الجديدة) مما لم يبق له وجود الآن من هذا النوع ، وإنما
عثر الناس على بعض عظام وبيض له ، وكل بيضة تعادل ست بيضات من الكسوري
الحى الآن ، أو تعادل مائة وخمسين بيضة من بيض الدجاج ، وهاك صورتها التي
عثرروا عليها (انظر شكل ٧٨) .

النوع السابع : الطيور المنسوجة الأرجل

وهذا النوع ترى أصابعه متحدة مع بعضها بنوع من الجلد أو الفسيج لتقدر به
على العموم بسهولة (انظر شكل ٧٩) وهذا يساعد الطير ، على أن يعوم بسهولة
ويحترق الماء بدون أقل مقاومة ، إن هذا الطائر إذا دفع برجليه إلى خلف ،
فإن ذلك يساعده على السير إلى الأمام ، ومن هذا النوع (شكل ٨٠) و (شكل ٨١) و (شكل ٨٢) وهاك
صورها بالترتيب في الصفحة التالية :



(شكل ٨٢ : نوع من الأوز يسمى : سوال)



(شكل ٨١) الأوز



(شكل ٨٠) بط



(شكل ٧٩)

وهذه الثلاثة تنجد في أنها منسوجة الأ كف كما قدمنا فتحسن العوم والطيوان . ولكن مشبها ضعيف جدا . ولهن مناقير عريضة مسلحة بنوع نصل حاد يقوم بما تقوم به الأسنان الابتدائية . ومن هذا النوع أيضا طائر الماء (شكل ٨٣ الآتي) وطائر - يسمى بالأفريقية (البتروس) (شكل ٨٤) وآخر يسمى بالأفريقية أيضا (بلكان) (شكل ٥٨) ومنها الأثير النهم (شكل ٨٦) . وهذانهم الكلام على النوع السابع من الطيور . والحمد لله رب العالمين .



(شكل ٨٦) الأثير النهم



(شكل ٨٥) بلكان



(شكل ٨٤) البتروس



(شكل ٨٣) طائر الماء

النوع ثامن

من الطيور والعصفور الدوري . فهذا النوع لا هو من الطيور الجارحة . ولا من المنسوجة الأرجل ولا غيرها وهذا النوع يشمل كثيرا من الطيور الصغيرة ، وبعضها له أصابع متجهان إلى الأمام وآخران متجهان إلى الخلف . بها يسهل للطائر أن يتساق على سوق الأشجار ، ومن هذا النوع (قراض الخشب) (شكل ٨٧) الذي يضر بظلمه ، وعسفه أشجار غابانا (يريد انكثرا) . ضررا بليغا ، وهو إما يبحث في الثقوب التي صنعها الحشرات من قبله ، ويرى في (شكل ٨٨) صور الغراب ، وهو معروف . وهناك صورهن :



(شكل ٨٨) غراب



(شكل ٨٧) قراض الخشب

ومعنى هذا النوع يشبه بعض الشبه الطيور الجارحة . وبعضه ذو منقار لطيف به قتمس الحشرات مثل البليل . ومثل الطير الأسود ، ومثل الطير السناس بأمریکا وهو جميل وصغير جدا حتى أن أصفره لا يكون أكبر من ذكر النحل ، وبعضه

منقار واسع يأكل به الناموس ، والحطاف يفعل ذلك ، ومنه ماله منقار غليظ قصير به يأكل كل نوع من أنواع الحب . وذلك كالتفيرة وخطاف . ازل . ومنه نوع آخر يستعمل منقاره القوي كما يستعمل الناس

فيقلب به الأرض ليستخرج بعض الجثث اللينة فيها فياً كلها، ومن ذلك أيضا الغراب المتقدم في (شكل ٨٨) وهو معروف .

يقول مؤلف الكتاب الذي ترجمت منه هذه القطعة : « إن في بلادنا نحو ٢٠٠ مائتي صنف من هذا النوع » ، وهذا آخر ما ترجمته في هذا المقام من الكتاب المذكور ، والحمد لله رب العالمين :

تبصرة في هذه الطيور

أيها المسلمون : يقول الله : « أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن » ثم يختم الآية بقوله : « إنه بكل شيء بصير » .

الله أكبر ، الله أكبر : جل الله ، جل الله : قد قدمنا في (سورة : ق) أن (ال م) التي ابتدئت بها (سورة البقرة) هي مفتاح خزائن العلوم كلها ، وقد قدمنا بعض هذا في سورة البقرة عند طبع الجزء الثاني عند آية الطير وإبراهيم وما حولها ، وفي سورة آل عمران ، ولشد ما تضح لي اليوم وأيقنته حقا وصدقا ، أن (ال م) جعلت مفاتيح للعلوم ومهاميز بها يساق المسلمون إلى السعادة في الدنيا والآخرة .

وأقول بأعلى صوتي : أيها المسلمون : هذا السر قد ظهر الآن ، يقول السلم : ماعنى هذه الحروف ؟ فيصل في البحث إلى ما قلناه في سورة البقرة ، ظهر سر (ال م) في العفة وفي بدائع الكيمياء ، فافراه هناك وظهر في سورة آل عمران في عدم اتكال المسلمين على غيرهم من الأولياء والصالحين ، بل عليهم الجد ، وهاهنا بوغنا الله على جهانا بعلوم الطير التي نام عنها المسلمون وعرفه أهل أوروبا وأهل الشرق الأقصى .

رباه : إليك المشتكى . رباه : نام المسلمون . رباه : ناموا وناموا . اللهم أيقظهم إنك سميع الدعاء ، وأنا موقن بسماع الدعاء ، سبحان الله : أليس من عجائب هذه الطيور أن منها النسر الذي ينظف الأقطار الاستوائية من رمم الحيوان ، ولولاه لم يمض هناك إنسان ولا حيوان ، أو ليس منها البوم التي تأكل أمثال الفيران المهلكات لزرع الإنسان بأكله ونفس الإنسان بالمدوى كما قدمناه في هذا التفسير عن كبار الأطباء في هذا العصر ، أفليس من هذه الطيور كما قدمنا المهاجرات من الأقطار الحارة إلى الأقطار الباردة فتأكل الحشرات حياة لها وسعادة لنوع الإنسان ، ألسنا نرى الطيور مقسمة على الأقطار ، وعلى الليل والنهار ، وعلى الهواء وعلى الأشجار ، وعلى الشواطئ والمستنقعات ، وعلى البحار ، لتكون من المنظمات الساعداة على نظام هذه العوالم المعجيات (١) .

هذا معنى قوله تعالى : « ما يمسكون إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير » فيها هي ذه الرحمة ، رحمة نفس الطائر مثلا بأكله الحشرات ، ورحمة الحيوان والإنسان ببقاء الزرع لموت المهلكات من تلك الحشرات .

هذا بعض السر في اختصاص المقام بالاسم (الرحمن) وبالاسم (بصير) . وإلى هنا تم الكلام على (سورة الملك) والحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الأربعاء ١٣ سبتمبر سنة ١٩٣٢ م .

(١) مما يناسب الطير مسألة الطيران في الجو بالطيارات التي تقدمت قريبا ، وزيد أن نبين هنا أن الطيارات قد صورت بالتصوير الشمسي في أوائل سورة النحل ، وقد شرحت أيضا في سورة المائدة عند آية ابن آدم : (المؤلف) .

تفسير سورة القلم

هي مكة

إلا من آية ١٧ إلى آية ٣٣، ومن آية ٤٨ إلى آية ٥٠ فمدنية

آياتها ٥٢ - نزلت بعد العلق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ • مَا أَنْتَ بِنِعْمَةٍ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ • وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ
 مَمْنُونٍ • وَإِنَّكَ لَمَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ • فَسَتَبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ • بِأَيْكُمْ الْمُفْتُونَ • إِنَّ
 رَبَّهُمَا هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ • فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ • وَذُوا
 لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ • وَلَا تُطِعِ كُلَّ خَلَّافٍ مَهِينٍ • هَمَّازٍ مَشَاءَ بِنَمِيمٍ • مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ
 مُعْتَدٍ أَثِيمٍ • عَتَلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ • أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ • إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا
 قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ • سَنَسِمْهُ عَلَىٰ الْمُرْطُومِ • إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ
 إِذِ اتَّسَمُوا لِيَصْرُمْنَهَا مُصْبِحِينَ • وَلَا يَسْتَشْنُونَ • فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّنَ رَبِّكَ وَهُمْ
 نَائِمُونَ • فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ • فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ • أَنْ ائِدُوا عَلَىٰ حَرِّكُمْ إِنْ
 كُنْتُمْ صَادِقِينَ • فَأَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ • أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ •
 وَغَدُوا عَلَىٰ حَرٍِّ قَادِرِينَ • فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ • بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ • قَالَ
 أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ • قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ • فَأَقْبَلَ
 بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ • قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ • عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا
 خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ • كَذَلِكَ الْمَذَابُ وَالْمَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا
 يَعْلَمُونَ • إِنَّ الْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ • أَفَنَجْمَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ •
 مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ • أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ • إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا

تَحْيِرُونَ * أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بِاللَّعْنَةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ *
 سَأَلَهُمْ آيَاتُهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ * أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ * يَوْمَ
 يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ
 ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ * فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ
 لَنُنَسِّتْ دَرَجَتَهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ * أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا
 فَهُمْ مِنْ مَفْرَمٍ مُتَقَلَّبُونَ * أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ لَا يَكْتُمُونَ * فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا
 تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ * لَوْلَا أَنْ تَدَارَكُهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ
 لَتُبْدِيَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ * فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَإِنْ يَسْكَدُ الَّذِينَ
 كَفَرُوا لَيُزْلَمْنَ نَكَّ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ * وَمَا هُوَ
 إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ *

هذه السورة أربعة مقاصد

- (١) حسن الأخلاق النبوية من أول السورة إلى قوله : « وإنك لعلی خلق عظیم » .
- (٢) سوء أخلاق بعض الكفار وجزاؤهم من قوله « فسنبصر وبيصرون » إلى « سنسمة على الحرطوم » .
- (٣) ضرب مثل لهم بأصحاب الجنة البخلاء من قوله « إنا بلوناكم » إلى قوله « لو كانوا يعلمون » .
- (٤) تفريع للمجرمين ، وأمر بالصبر لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لئلا يكون كصاحب الحوت من قوله « إن للتفتين عند ربهم جنات النعم » إلى آخر السورة .

المقصد الأول : حسن الأخلاق النبوية

التفسير اللفظي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(ن) النون الدوادة . قال الشاعر :

إذا ما الشوق برح بي إليهم ألفت النون بالدمع السجم

ويطلق على الحوت ، وفي بعض الحنينان مادة تصلح للكتابة (والقد) وهو كل ما يحط به (وما يسطرون) وما يكتبون : أي والذي يكتب به من الكتب (مأنت بنعمة ربك مجنون) أقسم الله بالدوادة والقلم ، وبكل ما يكتب من كتب الخير ، إنك يا محمد مأنت مجنوناً حال كونك منعماً عليك بالنبوة وحصافة الرأي وكيف تكون مجنوناً والكتب والأقلام والمداد قد استعدت للعمل في الشرق والغرب بما ينزل عليك من

الوحي؟ أهذا هو الجنون ، إن الله أنعم عليك بنعمة العلم والنبوة ، وقد أعد الأمم للتلقي عنك فلمست
بمجنون وأى شهادة أعظم من نتائج الأعمال ، فهى الشواهد النواطق ، وإدخالها بطريق القسم أبلغ
في الشهادة من قول المتنبي :

الحبل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

قال المؤلف الانجليزي كارليل في كتابه المسمى (البطولة والأبطال) حينما تكلم على صاحب شريعتنا
صلى الله عليه وسلم في نحو سنة ١٢٠٠ هجرية ماملخصه : « إن البناء الذي لا يحسن البناء لا يدوم بناؤه
طويلا ، وكما دام البناء دل على صدق البناء (بتشديد النون) في صناعته والنبي محمد صلى الله عليه وسلم أخرج
أمة إلى الوجود فدامت هذه الأمة ألفا ومائتي سنة ، إن البناء الدعى لا يدوم بناؤه عشرات السنين فضلا عن
المئات والألوف ، ولو كان محمد صلى الله عليه وسلم غير نبي وبناؤه على غير أساس لم يدم هذه الأزمان كلها
ثم أخذ يكذب الأوروبيين في دعواهم أنه غير نبي ، وأنه اخترعها لحاجة في النفس ، وشنع غاية التشفيغ »
٥١

أقسم الله بالدوام والقلم وبالكتب عالما أن هذا الدين يبقى ، وأنه ستتحرك به الأفلام وتسطر الكتب
وتحط ، وكل ما انصف بذلك لا يكون باطلا ، إذ الباطل لا يثبت له ، والحق هو الباقي .

أقسم بهذه الثلاثة مستدلا بتحققها في الزمان المقبل بعد القسم وهو عالم بذلك على صدق الرسالة لأن
الزبد وهو ما يعلو وجه الماء عند سقي الأرض يذهب ويرى به ولا يبقاء له ، والماء الذي تحته هو الذي يبقى
في الأرض ويسقى الزرع ، فكل باطل ذاهب ، وكل حق باق ، فبقا هذا الدين بكتابة الأفلام وتسطيع
الكتب دليل على أن محمدا صلى الله عليه وسلم غير مجنون .

أقسم الله بهذه الثلاثة فتحا لباب التعليم العام بالقلم والكتابة . إن هذا الدين لم ينزل لأجل ألف وثلاثة
وثلاث وأربعين سنة . كلا . ثم كلا . لم ينزل القرآن لأجل جيلنا والأجيال قبله فقط ، إن الله جعل أمتنا
الحالية ومن قبلها مقدمات لأمة ستأتي بعدنا ، وتكون أرقى منا علما وأخلاقا ونظاما ومدنية ، فهؤلاء
حينما يقرءون هذه الآية يفكرون فيها ويقولون : إن الله لا يقسم إلا بأمر عظيم ، فإذا أقسم بالشمس
والقمر والليل والفجر ونحو ذلك فلأنما هو لمعظمة الخلق وجمال الصنع ، أما الدواة والقلم والكتب فما عظمة
صنع الله فيها أكالشمس هي ، أم كالقمر والكواكب ؟ إن الله لم يقسم بها إلا ليعلمنا ويذكرنا بأعمالنا نحن
فسكنا خلق وصور وزوق في سمواته وأرضه فليكن لنا في الكتب والأفلام أعمال ترقى بها نفوسنا ومدتنا
وأحوالنا الاجتماعية ، فلنعمم التعليم .

إن الله أقسم بالكتب والأفلام هنا : وأقسم بالرق المنشور في سورة الطور ليذكر المسلمين لاسيما
في هذه العصور أن يكون التعليم عاما حتى يكون الرق منشورا ، والأفلام متحركة ، والكتب مسطورة
عامة ، ذلك من مضمون هذا القسم فضلا عن نفي الجنون المصرح به في الآية ردا على قول الكفار : « يا أيها
الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون » .

وكانه يقال : كيف تسمونه بالجنون وقد استعدت الكتب أن تنشر باسمه والأفلام أن تخط وتشرح
ما يقول وسيكون هناك أمم وأمم تتعاقب بعده ولها نظام عظيم ، ويكون القلم والكتاب في كل مكان .

أقسم الله بهذه الثلاثة ليذكر المسلمين اليوم قائلا : ها أنا ذا أقسمت بالقلم والكتاب ، ولم تكن أمة
من أمم الفرس والروم والصين حين نزول الوحي تعمم التعليم ، ولم يعم التعليم في أوروبا وأمريكا إلا بعد
اصطدام الشرق والغرب في الحروب الصليبية ، إن اصطدامها ولد هذه الحركة القلبية ، وأوله ظهورها

في الغرب ، وها هي ذه امتدت إلى الشرق ، وستأخذون حظكم منها موفورا ، إن تميم التعليم وعصر الكتب والورق لم يكن إلا بعد نزول القرآن بل بفضل القرآن لاسيما بعد التحارب والتصادم ، وكأما الشرق والغرب كانا زندين قدحتهما العناية الربانية فتولدت بينهما شرارة ، تلك الشرارة هي العلم ، وأول من أثرت فيه هو الغرب ، إن الغرب قد طغى على الشرق ، فتحرك لقتله ، فرجع الغرب بخفي حنين ، ولكنه حمل بين جنبه العلم والنور فرقى الأمم في بضع مئات السنين ، ذلك كله سر القرآن .

الله أقسم بهذه الثلاثة علما منه بتحققها وانتشارها في كل بيت في الأمم بعد أزمان النبوة ، فهو رمز وإشارة إلى ما حصل في العالم الآن . وستكون أمة الإسلام لها القدر العلي ، وكما كان نبيها آخر الأنبياء فما هي ذه الآن ستكون آخر الأمم تميميا للتعليم ، وكما كان شرعها ناسخا للشرائع هكذا سيكون تعليمها العام بشكل ينسخ الأشكال الحاضرة الآن في أمريكا وأوروبا ، وسيكون في نظام تعليمنا ما يدهش الشرق والغرب ، ونكون رحمة للعالمين ، لأننا سندخل فيه أنا خير الأمم ، وأنا رحمة للعالمين ، وأن جيوشنا تكون أقوى الجيوش ، لأنهم بل لتصلح الأمم الظالمة ، ولا ينتهي وراء ذلك مأربا ، وسيكون في هذه الأمة مجتهدون يأخذون الأحكام من القرآن ، وينظرون بمقوله نظرا ثاقبا ، وسيكون تعليم جميع العلوم السجوية والأرضية للمستعدين مشوبا بذكر خالقه ووجهه ، وإذن تكون العلوم كلها مرتبطة بالصانع .

هذا هو الذي سيكون ميزة أمة الإسلام ، وهذا المهيح يحدث فيهم حكما نابغين لانظير لهم يقودون أمتهم والأمم الأخرى إلى سبيل الفلاح « ليظهره على الدين كله » وسيكون عصر المسلمين المستقبل عصر سلام مع الأمم ، وعصر علم ، وعصر حكمة ، ولذلك أعقبه بقوله (وإن لك لأجرا غير ممنون) أي ثوابا على احتمال ما يقولون والصبر عليه غير مقطوع ، فسكون الأجر غير ممنون فيه رمز إلى عدم انقطاع هذه الأمم التي تتعاقب فيزداد الأجر بازدياد الأمم ودوامها ، وقوله (وإنك لعلى خلق عظيم) هو المذكور في قوله تعالى : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » وذلك بالتساهل مع الناس فيأخذ بظواهرهم ولا يبدق على البواطن ، وذلك بالتسامح والتغافل لا الغفلة ، وهذا معنى العفو ، والباقيان مفهومان .

قالت عائشة رضي الله عنها : « كان خلقه القرآن » ، ألسنت تقرأ القرآن : « قد أفلح المؤمنون » ، وإذا رجعت إلى ماني سورة المنافقين وقد ظهر تفاق عبد الله ابن أبي نزل به الوحي ، وإنه لم يقتله أدركت مكارم أخلاقه صلى الله عليه وسلم وحلمه وصبره . انتهى الكلام على المقصد الأول من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

المقصد الثاني : سوء أخلاق بعض الكفار وجزاؤهم

قال تعالى (فسبصرو ويصبرون ، بأيكم الفتون) أي بأيكم الجنون ، فالفتون كالمقول والمجلود كلها مصادر (إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله) وهؤلاء هم المجانين على الحقيقة (وهو أعلم بالمتدين) الفائزين بكمال العقل ، ثم أمره أن يصمم على معاصاتهم ، إذ قالوا : نعبد الله مدة وألهمت مدة أخرى ، فقال (فلا تطع المكذابين) وهم مشركو مكة (ودوا لوتدهن) أي ودوا لوتلين لهم وتوافقهم بترك الطمن في آلتهم أو توافقهم في شركهم أحيانا (فيدهنون) فهم تمنوا أن تترك بعض ما أنت عليه مما لا يرضونه مصانعة لهم ومداهنة فيملاؤا مثل ذلك ويتركوا بعض ما لا ترضى به فتلين لهم ويلينون لك فلا تطعمهم (ولا تطع كل حلاف) كثير الخلف في الحق والباطل (مهين) حقير الرأي من الهانة وهي الحفارة (هاز) عياب (مشاء بضم) تعال للحديث على وجه السعاية (مناع للخبر) يمنع الناس عن الخبر كالإفناق

والإيمان والعمل الصالح (ممتد) متجاوز الحد في الظلم (أنيم) كثير الآثام (عتل) جاف غليظ ، يقال عتله إذا قاده بعنف وغلظة (بعد ذلك) أي مع ما وصفناه به من الصفات للذمومة (زئيم) وهو الدعوى الملقق في القوم وليس منهم فهو دعوى قريش وليس منهم ، وهذا وصف الوليد ابن الغيرة ؛ وقد ادعاه أبوه بعد ثمانى عشرة سنة من مولده ، ويقال ، الزئيم هو الذي له زئمة كزئمة الشاة ، وكانت له زئمة يعرف بها ، ويعرف أيضا بالشر كما تعرف الشاة بزئمتها ، هذه معان ثلاثة ذكرها للفسرون : فهو ملصق في قريش ، وله زئمة ظاهرة ، وأيضاً يعرف بالشر ، فربما كانت هذه الثلاثة كلها أو بعضها فيه ، ولقد وصف بعشرة أوصاف هي سيئات الأخلاق في مقابلة عظمة خلقه صلى الله عليه وسلم ، ثم أخذ يقرعه على غروره فقال (أن كان ذا مال وبنين) أي كذب بآياتنا وهو القرآن لأجل كونه ذا مال وبنين ، وكان ماله تسعة آلاف مثقال من فضة ، وبنوه عشرة ، وإنما قدرنا فعل كذب لأنه دل عليه بقوله (إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير) أحاديث (الأوليين) في كذبهم (سنسمه على الحراطوم) على أنه مهانة له وعلما يعرف به ، وتلك السمة هي المهانة والإذلال كما تقول : جبع أنه ، ورعم أنه ، وكفى بسوء سمعته في الدنيا بهذه الآيات وفي الآخرة بالفضيحة والعذاب مهانة ، أو هي سمة ظاهرة على الأنف بدون مجاز فيقال : إن أنه أصيب بجراحة يوم بدر فبقي أثرها سمة له ، وإذن يكون ذلك من علامات النبوة . انتهى المقصد الثاني من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

المقصد الثالث

ضرب مثل لأهل مكة ولسلك ذى جهالة من أهل الأرض وحرص وطمع

وقصة أصحاب الجنة أنهم قوم من أهل الصلاة كانت لأبهم جنة بقرية يقال لها ضروراء ، وكانت على فرسخين من صنعاء ، وكان يأخذ منها قوت سنة ويتصدق بالباقي على الفقراء ، فلما مات قال بنوه : إن فعلنا ما كان يفعل أبونا ضاق علينا الأمر ونحن أولوا عيال ، فحلفوا ليقطعنها وهم داخلون في الصباح خيفة من الساكنين ولم يستنوا حصه الساكنين فأحرقها الله ، وهذه هي القصة (إنا بلوناكم) أي بلونا أهل مكة بالقحط (كما بلونا أصحاب الجنة) التي ذكرناها الآن (إذ أقسموا لبصر منها) ليقطعها (مصحين) داخلين في الصباح (ولا يستنون) ولا يخرجون حصه الساكنين كما كان يفعل أبوهم (فظاف عليها) على الجنة (طائف) بلا طائف (من ربك) أي من عذاب ربك ، ولا يكون الطائف إلا ليلاً (وهم نائمون فأصبحت كالصريم) كالبلستان الذي صرم قطع نماره بحيث لم يبق منه شيء (فتنادوا مصحين) أن اغدوا على حرسكم) أي بأن اخرجوا إليه غدوة (إن كنتم صارمين) قاطعين له (فانطلقوا وهم يتحافتون) يتسارون فيما بينهم لئلا يسمع الساكنين يقولون (أن لا يدخلها اليوم عليكم مسكين) أي لا تمسكوه من الدخول فأن مفسرة (وغدوا على حرد قادرين) أي وغدوا على جد في اللع قادرين عند أنفسهم (فلما رأوها) أول ما رأوها وهي محترقة بالطائف الرباني (قالوا إنا لضالون) طريق جنتنا فأين الطريق إليها؟ ثم تأملوا فمروا أنها هي جنتهم وأنها احترقت ، فقالوا مضربين عما تقدم : (بل نحن محرومون) حرمانا خيرها لجبايتنا على أنفسنا (قال أوسطهم) أي أفضلهم في الرأي وفي السن (ألم أقل لكم لولا تسبحون) أي هلا تذكرون الله وتتوبون إليه من حيث ينسبكم (قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين) بمعنا الساكنين (فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون) يلوم بعضهم بعضاً (قالوا يا ويلنا) دعوا على أنفسهم بالويل (إنا كنا طاغين) في منعنا حق الفقراء والمساكين ولم نشكر نعمة الله بالإعناق منها (عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها)

ببركة النبوة والاعتراف بالذنب ، وروى أنهم أبدلوا جنة خيرانها (إنا إلى ربنا راغبون) راجون الفو طالبون الخير (كذلك العذاب) أي مثل ذلك العذاب الذي ذكرناه من عذاب الدنيا فنقل عن تعدى حدودنا وخالف أمرنا سواء أكان من أهل مكة مشركي العرب أو من غيرهم من أمم الإسلام وأمم أوروبا وبلاد الشرق ، فهذه قاعدة عامة مطردة لا يفتل منها فرد ولا مجموع ، ولقد أصبحت هذه القاعدة مشاهدة الأثر في زماننا ، وقد كنا منذ سنين نظن معاشر المسلمين أن دول أوروبا التي ظلمت الشرق لا رادع لها ولا زاجر ، وكنا نقول : أين وعد الله بإهلاك الظالمين ، فحصلت وقائع غيرت وجه المسكونة ، فماذا حصل ؟ كانت دول أوروبا في بلاد الشرق لها في كل دولة منها امتياز واختصاص وتماظم ، فيكونون في البلاد ضيوفا في حين أنهم ساداتها بقوانين يصدرونها ، فيقتل الرجل منهم المسلم الوطني أو الشرقي الصيني والهندي ثم يفتل من العقاب إذ لا يحاكم إلا في محاكم دولته ، فلقد قلب الله الآية ، والدهر قلب ، فطردهم الترك من بلادهم ، فلا اختصاص لهم في البلاد ولا امتياز ، وهكذا دولة إيران ، وفي أثناء كتابة هذا التفسير بل في أثناء تفسير هذه السورة قامت ضجة ونوره في بلاد الصين ضد أوروبا يطلبون ألا يسود عليهم الأجنبي في بلادهم ، وقد أجابت الأمم إلى ذلك وبمدون المعدات لإجابة الطلب كما أجابوا بلاد الترك من قبل ، ومن قبل هؤلاء فعل أهل اليابان ذلك ، ولقد سلط الله دولة الروس (البلشفية) فهؤلاء يساعدون كل من أراد أن يطرد هؤلاء الظالمين من بلاده ، ولهم قواد عند الأمير عبدالكريم ببلاد مراكن للمساعدة على إخراج الظالمين .

كل ذلك مبدأ لما سيحصل في الأمم المستقبلية فستكون حرة لاساطان عليها لظلم أوروبا التي هزمت وشاخت وستقوم دول شابة في الشرق ، وقد ابتدأت تتحرك اليوم ونحل محل هؤلاء الظالمين ، كل ذلك داخل في معنى هذه الآية ، فإن أصحاب الجنة استأثروا بالخير وحرموا الفقراء ، وهذه الدول ظنت أن الناس مخلوقون لخدمتهم فأرادوا استعبادهم فقلب الله الآية ، وسيدور الفلك دورته ويتم الله نصر المظلومين الذي ابتداء الآن وسيزيد ارتفاعه في المستقبل القريب .

فهذه الأمم اليوم تذوق عذاب الجزى في هذه الحياة الدنيا بالفقر المدقع الذي استولى على بلادها ، وبالبلشفية التي أصبحت كالسوس تنخر في عظامها ، وقريبا يذهب ظلها المتداعي إلى السقوط (ولعذاب الآخرة أكبر) أعظم منه (لو كانوا يعلمون) لاحتزوا عن الفعل الذي يؤدي إليه . انتهى الكلام على المقصد الثالث من السورة ، والحمد لله رب العالمين :

المقصد الرابع

تفريع المهريين ، وأمر بالصبر لتبيننا صلى الله عليه وسلم لثلاثين كصاحب الحوت قال تعالى (إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم) أي جنات ليس فيها إلا التمتع الخالص ، لالجنات الدنيوية التي يشوبها العذاب بزوال ثمرها وخلو اليد منها . ثم أخذ يرد على من قال من الكفار : إن صح أننا نبعث كما يزعم محمد ومن معه لم يفضلونا بل نكون أحسن حالا منهم ، لأن من أحسن في الدنيا إلينا فهو محسن إلينا في الآخرة ، فقال : (أفجعل المسلمين كالمهريين) ثم خاطبهم على طريق الالتفات فقال : (مالكم كيف تحكمون) هذا الحكم العوج وكيف تسوون بين العاصي والطيع فضلا عن أن تفضلوا العاصي على الطيع ، ثم أخذ يقطع عليهم الحجة ويسد عليهم أبوابها فقال : هل تلقيت كتابا من السماء فقرأتم فيه أنكم تختارون ما تشاءون بحيث تكونون وأنتم مجرمون كالمسلمين الصالحين ! بل هل أعطيناكم عهدا أو كدناها بالأيمان المؤكدة عاهدناكم عليها فاستوتقتم بها ، فهي ثابتة إلى يوم القيامة فأقسمنا لكم بها أنا حكماكم وأعطيناكم

ما تحكمون لأنفسكم ، بل ألهم أناس يشاركونهم في هذا القول ويذهبون مذهبهم مع أنه لا يسلّم لهم بهذا القول أحد ولا يساعدهم ، ولا كتاب لهم ينطق به ، ولا عهد لهم عند الله ، وإذا زعموا أن لهم أناسا يذهبون مذهبهم فليأتوا بهم يوم شدة الأمر وصعوبة الحطب ويقال لهم اسجدوا وقت تلك الشدة توييخا لهم على ترك السجود في الدنيا ، وذلك إما في الزرع أو بعد الموت فلا يقدرّون على السجود وأبصارهم خاشعة ، والذلة محبطة بهم ، مع أنهم كانوا يدعون إلى السجود في الدنيا وهم متمكنون منه : هذا هو قوله تعالى (أم لكم كتاب فيه تدرسون ، إن لكم فيه لما تخيرون ، أم لكم إيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون ، سلمهم أيهم بذلك زعيم ، أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين ، يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون ، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون) .

فقوله : تدرسون : أي تقرأون ، وتخبرون : أي تختارون ، وإيمان : أي عهد ، وبالغة : أي متناهية في التوكيد ، وقوله : إلى يوم القيامة : أي ثابتة لكم علينا إلى يومها ، وقوله : سلمهم أيهم بذلك زعيم : أي أيهم بذلك الحكم قائم يدعيه وبصحة ، وقوله : يكشف عن ساق : متعلق بأتوا : أي يوم يشتد الأمر ويصعب ، فهو كناية عن الشدة ، وقد كانوا إذا ابتلوا بشدة كشفوا عن الساق ، وذلك كما تقول الأقطع البخيل : يده مغולה مع أنه لا يبدله ولا غل ، فهكذا هنا لا ساق ولا كشف ، وقوله : خاشعة أبصارهم : أي ذليلة ، وقوله : وقد كانوا يدعون إلى السجود : أي في الدنيا ، وقوله : وهم سالمون : أي أصحاء . ثم إن قوله في أول هذه الآيات : « أم لكم كتاب فيه تدرسون ، إن لكم فيه لما تخيرون » أصله أن بالفتح ، لأنه مدرّوس لوقوع الدرس عليه ، وإعما كسرت لوجود اللام في خبرها .

ثم قال تعالى (فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملي لهم إن كيدي متين ، أم تسألهم أجرافهم من مفروم مثقلون ، أم عندهم الغيب فهم يكتبون ، فأصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم ، لولا أن تداركته نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم ، فاجتبه ربه فعلمه من الصالحين ، وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون ، وما هو إلا ذكر للعالمين) .

يقول الله سبحانه : خل يا محمد بيني وبين من يكذب بهذا القرآن فاني عالم بما ينفي أن يفعل به مطبق له فلا تشغل قلبك بشأنه ، وتوكل على ، في الانتقام منه ، إنا سندينهم من العذاب درجة درجة ، ونستزلهم إليه حتى نورطهم فيه فنوالى النعمة عليهم ورزقهم الصحة والعافية فترداد معاصيهم من الجهة التي لا يشعرون أنها استدراج ، فكلمنا جددوا معصية بجددنا لهم نعمة وأنسيناهم شكرها وأنا أمهلهم فإن استدراجي لهم وكيدي قوى متين .

ثم كأنه يقول : يا محمد : ماذا ينقمون منك ؟ أنت تسألهم أجرا على تبليغ الرسالة فتقل عليهم فامتنعوا كلا . بل هل عندهم علم الغيب المكتوب في الأرواح المحفوظ فهم يكتبون منه ما يحكمون به ؟ فلا هذا ولا ذلك إذن القوم معاندون ، لم يبق إلا أن تصبر لحكم ربك فقد حكم بإمهم وتأخير نصرتك ، فإنهم إن أمهلوا لم يهملوا ، وأخذ يذكره بحادثة بونس عليه السلام ، إذ غضب على قومه وفارقهم ، ونزل إلى السفينة فآبأه الحوت ، ودعا ربه في بطنه فقال : « لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين » وهو مملوء غيظا وهذا هو قوله تعالى « فذرني ومن يكذب بهذا الحديث » أي كله إلى فإني أكفيك « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون » سندينهم ونقرهم من الذناب « وأملي لهم » أمهلهم « إن كيدي متين » جعل الإحسان كيدا

كيدا كما جعله استدراجا لكونه في صورة الكيد (متين) شديد (أم تسألهم أجرافهم من مغرم متلون ، أم عندهم الغيب فهم يكتبون ، فاصبر لحكم ربك) وهو إسماعيل (ولا تكن كصاحب الحوت) وهو يونس عليه السلام (إذ نادى وهو مكظوم) مخلوق غيظا ، وقوله (لولا أن تداركته نعمة من ربه) أي رحمة (لنبد بالعراء) أي لطرح بالفضاء من بطن الحوت (وهو مذموم) أي مليم مطرود من الرحمة والكرامة « فاجتبه ربه » وذلك بأن رد الوحي إليه (جعله من الصالحين) أي الكاملين في الصلاح بأن عصمه فلم تبق له زلة ، وهذه الآية نزلت لما هم أن يدعوا على تعيق ، أو بأحد حين حل بالمسلمين ما حل فأراد أن يدعوا على المنهزمين (وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم) أي إنهم لشدة عداوتهم ينظرون إليك شزرا بحيث يكادون يزلون قدمك وبرمونك ، يقال نظر إلى نظرا يكاد يصرعني : أي لو أمكنه أن يصرعني بنظره لفعله ، أو يقال إنهم يكادون يصيبونك بالعين ، وذلك أن العين كانت في بني أسد فكان الرجل منهم يتجوع ثلاثة أيام فلا يمر به شيء فيقول فيه : لم أر كاليوم مثله إلا هلك ، فطلب من بعض العيانيين أن يقول في رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ذلك ، فقال : لم أر كاليوم مثله رجلا فعصمه الله من ذلك ، وفي الحديث : « العين حق وإن العين لتدخل الجمل القدر والرجل القبر » . وعن الحسن : رمية العين هذه الآية .

وقوله : (وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم) إن مخفة من التقية ، فهي للتأكيد واللام واقعة في خبرها ، وقوله (لما سمعوا الذكر) أي حين سمعوا القرآن (ويقولون) حسدا على ما أوتيت من النبوة (إنه لخبون) إن محمدا لخبون خيرة في أمره وتغيرا عنه (وما هو) أي القرآن (إلا ذكر) إلا وعظ (للعالمين) للجن والإنس : أي جنتوه لأجل القرآن مع أنه ذكر عام لا يدركه ولا يتعاطاه إلا من كان أهلا له اه .

إيضاح

إن هذه الآيات متلاحقة متواصلة المعنى ، فإن أصحاب الجنة ضربوا مثلا لمن أعطوا نعمة فبخلوا بها عن الناس ، وحرصوا عليها ، فزُل بهم السوء وأحاط بهم ، فزالت نعمتهم ، وهكذا الاستدراج في النعم ، فإن الإنسان يعطى النعمة ولا تزال تتوالى عليه وهو غافل ساه ، فيظن أن الله أحبه ، وأن هذا العز يدوم فإذا نعمته زائلة وهمه حاضر ، هذا الحكم يشمل الأفراد ويشمل الأمم ، الأفراد والأمم مشتركون في هذه القواعد .

واعلم أن هذه القضية مسلطة عند علماء الاجتماع ، فما من دولة إلا ولها زمان ترتقي فيه ، وتكون أشبه بالدابة ترعى في مرعاها سائمة هائمة آمنة مطمئنة ، فلا تلبث أن تأكل ما يضرها فتمرض أو تموت ، ومماثل الأمة وهي في عنفوان عظمتها إلا كمثل ما وصفه علماء الطب الحديث في النمسا وألمانيا إذ قالوا : إن أكثر من نرام أصحاب الأبدان أقوياء الجسم حر الحدود ، موردي الوجنات ، لما في تفتيتهم من المواد الكبيرة الغذاء كاللحم والبيض واللبن ، فهؤلاء لا يزالون هكذا حتى تتخطفهم المنون وهم لا يشعرون ، وأما ذلك الذي نراه ضيف الجسم كثير الأمراض فهؤلاء الذي نسميه قويا لأن جسمه قدر أن يخرج منه الفضلات الباقيات في جسمه التي لو بقيت لأهلكته : أما الأول الذي يظن الناس أنه قوي ويعمدونه فإنه هو الضيف في نظرنا لأنه دائما أو غالبا يموت فجأة وهو غافل ، وما مثل جسد الأول وجسد الثاني إلا كمثل بيت لم تجعل له مصارف لما فيه من القاذورات وبيت قد جعل له ذلك ، فالثاني خير من الأول قالوا وهذا هو السر في أننا نرى كثيرا من الضعفاء للهبوليين يعمرون وكثيرا من الأقوياء يموتون فجأة وهم في عنفوان الشباب .

إذا عرفت هذا فهتت أحوال الدول . فالأمم إذا استبحر عمرانها . وتكاثر نسلها ، واستعمرت الأرض واستكثرت من الشهوات جرها ذلك إلى البطنة وسوء الحال ، فيقول غيرها من الأمم ما أحسن حالهم وبهايونهم ، ولكنهم يكونون قد أشرفوا على الهرم وقاربوا الهلاك .

وهذه دول أوروبا الحالية أمرها على هذه الحال أصبحوا وهم شرهون متعمون لم يظهرهم إلا تفوقهم في الصناعة ، ولكنهم مشرفون على حال الهرم وضيق المدينة ، كما ذهبت دولة اليونان والرومان ، وآبائنا العرب القدماء ، وهذه الحال طبيعية في الأمم : فأما الأمم التي هي في حال البداوة فإن أخلاقها وعقولها قابلة للرقى ، ومتى جاء دورها ولم شعنها ، وسيقت الحرب الأمم العظيمة أهلكتها وحلت محلها ، فدولة الرومان أزالتها أولئك للتوحشون من الأمم التي زححت قديما من آسيا ، فأزالت تلك الدولة وحلوا محلها ، وذلك في نحو القرن الرابع والخامس بعد الميلاد ، وهكذا دولتنا العربية زالت قديما وحلت محلها أمم أخرى كالنتار وكالسلجوقيين وغيرهم ، وأمم أوروبا لاحقة بهم قريبا ، ألا ترى إلى بلاد مراکش في أيامنا الحاضرة كيف أعادت دولتنا عظيمنتان على قتالهم ، وتعدادهم رجالا ونساء نحو مليون كما يقال ، وهم جهال ، ومع ذلك دوخوا الدولتين مما ، وفرنسا تستعين بأمم كثيرة من السنغال وتغارب إخواننا مع أنهم جزء قليل من بلاد مراکش ، فهذه الأمم الإسلامية التي لم يقتل النعيم والبطنة همها ، ولم تدنس الشهوات عقولها ، متى جاء وقتها ، وتسلمت مقاليد المدينة أزالته تلك الأمم من مراكرها ، فأمم الشرق اليوم أشبه بذلك الرجل النحيل المريض ، وأمم الغرب أشبه بذلك الرجل الضخم الجسم الآكل من المواد الكثيرة التغذية ، فهذا هو الاستدراج والاستنزال ثم يكون الهلاك .

أمر الله الصادقين في أعمالهم أن يصبروا لأن دولة الباطل زائلة ، ودولة الحق غالبية ، فيها هو ذا سبحانه يقول للقاتلين بالحق صبرا صبورا ، لا يكن أحدكم مستعجلا فان هؤلاء مستدرجون وفي العذاب واقعون .

فاذا قرأت هذا أيها المسلم فاعلم أن يوم الأمم الشرقية آت وإياك أن تقول ، لم لم ينصرنا الله ؟ وأذكرك بصاحب الحوت فإن أمم الإسلام الحالية تحتاج إلى مدة تستكمل قوتها فيها ، فاعمل لها فلك أجر الفاعلين وإن لم يكن على يديك ، وإن ركبت متن العجلة بؤت بالندامة ، وندمت ندامة الكسبي ، فاعمل لأمتك وانتظر النتيجة ، وأذكرك أيضا بأن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم أخبر بفتح فارس والروم ، وفتح القسطنطينية ، وفارس لم تفتح في زمانه ، والقسطنطينية فتحت بعده بنحو تسع قرون ، فاصبر لحكم ربك كما صبر ولاتسكن كصاحب الحوت فتولى هاربا وتدخل كسر بيتك وتقول مالي وللمسلمين . كلا . ثم كلا فإله سائلك لاسيا بعد التبيان في هذا التفسير الذي أنا موقن أن حركة الشرق ستنهض في إبان ظهوره ، وتشتد بقراءته وقراءة ما يماثله من كتب العلماء في البلاد الإسلامية ، وبهذا تم الكلام على (سورة القلم) والحمد لله رب العالمين . كتب عصر يوم الخميس ١٦ يوليو سنة ١٩٢٥ م (١)

(١) [نذكرة] عاق ضيق القام عن أن نبين أنواع القلم مثل: الطومار ومختصره ، وثلثه وثلثه ، وقلم الفبار ، وقلم الرقاع ، فأخرنا الكلام على ذلك كله مع صور حروفه إلى سورة العلق إن شاء الله تعالى .

تفسير سورة الحاقة

هي مكية

آياتها ٥٢ - نزلت بعد سورة الملك

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ * كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْفَارِغَةِ * فَأَمَّا
 ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ * وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ
 سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَمَنْ
 تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ * وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ * فَمَعَصَا رَسُولِ
 رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً * إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَا كُمْ فِي الْجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ
 تَذَكَّرَةً * وَتَمِيمًا أَذُنٌ وَأَعِيَةٌ * فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ
 وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِمَةُ * وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ
 وَاهِيَةٌ * وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ * يَوْمَئِذٍ
 تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ * فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَذَا مَا أقرَأُ
 كِتَابِيَةَ * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَةَ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ دَالِيَةٍ *
 قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ * وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ
 بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَةَ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَةَ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ *
 مَا أغْنَى عَنِّي مَالِيَةَ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَةَ * خَذُوهُ فَعَقْلُوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ
 فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ * وَلَا يَعْصِي
 عَلَى طَمَامِ الْمَسْكِينِ * فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ * وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ * لَا يَأْكُلُهُ
 إِلَّا الْخَاطِئُونَ * فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ *

وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ • وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ • تَنْزِيلٌ
 مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ • وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقْوَابِلِ • لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ • ثُمَّ
 لَقَطَمْنَا مِنْهُ الْوَثِينَ • فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ • وَإِنَّهُ لَتَذَكُّرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ •
 وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ • وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ • وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ •
 فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ •

هذه السورة مقصدان

المقصد الأول : هلاك الأمم في الدنيا من أول السورة إلى قوله « أذن واعية » .
 المقصد الثاني : في عذاب الآخرة محتوما بإثبات النبوة ودحض مقرياتهم من قوله : « فإذا نفخ في الصور
 نفخة واحدة » إلى آخر السورة .

المقصد الأول : هلاك الأمم في الدنيا

التفسير اللفظي

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الحاقة) أي القيامة ، الساعة الواجبة الوقوع ، الثابتة المهيبة ، التي هي آية لا ريب فيها ، يقال حق
 الشيء يحق : أي وجب ، وهذه مبتدأ خبره هذه الجملة (ما الحاقة) أي أي شيء هي ؟ (وما أدراك
 ما الحاقة) أي أي شيء أعلمك ما هي ؟ فلا علم لك بكنهها ، فلقد بانّت من الشدة والهول أنه لا يلبثها علم
 الخلقين (كذبت نود وعاد بالقارعة) أي الحاقة المذكورة التي تفرع قلوب الناس بالخافة والأهوال ، وتفرع
 الأجرام بالانفطار والانتشار فتكون هباء منفرقا في كل مكان (فأما نود فأهلكوا بالطاغية) وهي الواقعة
 التي تجاوزت الحد في الشدة ، وذلك بالصيحة أو الرجفة ، لأنهم كذبوا بالقارعة (وأما عاد فأهلكوا بربيع
 صرصر) شديدة الصوت في الجنوب لها صرصرة ، أو الباردة (غانية) جاوزت الحد والقدار (سخرها
 عليهم) سلطها عليهم ، هي جملة مستأنفة لبيان فعلها (سبع ليل وثمانية أيام حسوما) حسبات حسمت كل
 خير واستأصلته ، وحسبهم أي قطعهم بعذاب الاستئصال فلم يبق منهم أحدا ، وهي جمع حاسم ، وهذا من
 شؤمها ونحسها ، وهي كانت أيام المعجوز من صبيحة الأربعاء إلى غروب الأربعاء الآخر ، وسببت عجوزا
 لأنها عجز الشتاء (قرى القوم فيها صرعى) موتى جمع صريع (كأنهم أعجاز نخل خاوية) أصول نخل متأكلة
 الأجواف (فهل ترى لهم من باقية) أي من بقاء ، أو من نفس باقية (وجاء فرعون ومن قبله) ومن
 تقدمه (وللوثinksات) أي الثقلبات ، وهي قرى قوم لوط اقلبت بهم (بالخطئة) أي بالخطأ ، أو بالأفعال
 ذات الخطأ العظيم (فعصوا رسول ربهم) لوطا (فأخذهم أخذة رابية) شديدة زائدة في الشدة بنسبة
 زيادتهم في القبح (إننا لما طغنا الماء) أي ارتفع الماء وقت الطوفان ارتفاعا جاوز الحد (حملناكم)
 أي آباءكم (في الجارية) وهي سفينة نوح عليه السلام (لنجعلها) أي النملة (لكم تذكرة) عبرة
 (ونصيا) وتحفظها (أذن واعية) حافظة لما تسمع منتفعة به . انتهى الكلام على المقصد الأول من السورة ،
 والحمد لله رب العالمين .

المقصد الثاني : في عذاب الآخرة واختتامه بإثبات النبوة

فهو لشرح أحوال القيامة بعد ذكر ما حل بالمكذابين بها في الحياة الدنيا وعلاكم
فيكون العذاب مذكورا على الترتيب الطبيعي

قال تعالى (فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة) وهي النفخة الأولى (وحملت الأرض والجبال) أي
رفعت عن أماكنها (فدكتا دكة واحدة) أي ضرب بعضها ببعض حتى تدق وترجع كشيئا مهيلا (فيومئذ)
أي حينئذ (وقعت الواقعة) نزلت النازلة ، وهي القيامة ، وهذه الجملة جواب إذا ، وقوله (وانشقت السماء)
أي فتحت أبوابها (فهي يومئذ واهية) مسترخية ساقطة القوة (والملك على أرجائها) على جوانبها ، وهي
جمع رجا بالقصر ، وهذا تمثيل لخراب السماء بخراب البنيان في الأرض وانطلاق أهله إلى أطرافه وحوله ،
فكان الملائكة وهم سكان السموات لجأوا إلى أطرافها بعد خرابها (ويحمل عرش ربك فوقهم) فوق
الملائكة الذين هم على الأرجاء (يومئذ ثمانية) أي ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عددهم ، وهم اليوم
أربعة ، وهذا من باب التمثيل لعظمة يوم القيامة بما نشاهد من أحوال الملوك يوم خروجهم على الناس
للقضاء العام (يومئذ تعرضون) للمحاسبة تشبها بعرض السلطان المسكر ليتعرف أحوالهم (لا تحفي منكم
خافية) سريرة على الله تعالى ، فإذن ليس العرض للاطلاع عليها ، وإنما المراد إفشاء الحال والمبالغة
في العدل . ثم أخذ يفصل أحوال العرض فقال (فأما من أوتى كتابه يمينه فيقول هاؤم) أي خذوا كتابي
(اقرأوا كتابيه) وهاء اسم فعل ، والميم تلحق بها عند مخاطبة جمع الذكور ، وهاء كتابيه للسكر (إنى
ظننت أنى ملاق حسابه) أي علمت أنى معابن حسابي (فهو في عيشة راضية) ذات رضى يرضى بها صاحبها
(في جنة عالية) مرتفعة المسكان لأنها في السماء والدرجات والأبنية ، والأشجار (قطوفها) ثمارها (دانية)
قريبة من مريديها ، ينالها القاعد والقائم والمتسكى ، ويقال لهم (كلوا واشربوا) أكلا وشربا (هنيئا
بما أسلفتم) بما قدمتم من الأعمال الصالحة (في الأيام الخالية) الماضية من أيام الدنيا (وأما من أوتى
كتابيه بشماله فيقول) حين يرى سوء العاقبة ، وبيع عمله ، وشناعة مرآة (باليتنى لم أوت كتابيه ، ولم أدر
ما حسابه ، باليتها) باليت الموتة التي منها (كانت القاضية) القاطعة لأمرى فلم أبحث بعدها (ما أغنى عنى
طالها) أي لم ينفعنى ما جمعت في الدنيا ، والمفعول محذوف لم يفن عنى شيئا (هلك عنى سلطانيه) تسلطى
على الناس ، وبقيت فقيرا ذليلا ، وأوخلت عنى حجتي التي كنت أحتج بها في الدنيا ، فيقول الله لخزنة جهنم
(خذوه فقلوه) أي اجمعوا يديه إلى عنقه (ثم الجحيم صلوه) أي لا تدخلوه إلا النار العظمى (ثم في
سلسلة ذرعا) طولها (سبعون ذراعا) أي طويلة (فأسلكوه) فأدخلوه فيها بحيث تلف على جسده فلا
يقدر على التحرك ، ثم ذكر سببه فقال (إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ، ولا يحض على طعام المسكين) أي
ولا يحث غيره على بذل طعامه ، وعن بعضهم أنه كان يأمر أهله بتكثير المرقة لأجل المساكين ويقول :
خلعنا نصف السلسلة بالإيمان أفلا نخلع النصف الثاني بالإطعام (فليس له اليوم هاهنا حميم) أي ليس له في
الآخرة قريب ينفعه ويشفع له (ولا طعام إلا من غسلين) أي صديد (لا يأكله إلا الخاطئون) أصحاب
الخطايا ، يقال : خطى الرجل إذا تعدد الخطأ للضاد للضواب (فلا أقسم) أي فأقسم ولفظ لا زائد (بما
تبصرون وما لا تبصرون) أي بالمشاهدات والتي لم تشاهد ، وهذا جمع كل شئ من الخلق ، وشمل الخالق
(إنه) أي القرآن (لقول رسول) يبلغه عن الله (كريم) على الله ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم ،
أو جبريل (وما هو بقول شاعر) كما زعم بعضهم (قليلا ما تؤمنون) أي تصدقون تصديقا قليلا لما ظهر

لكم صدقه (ولا يقول كاهن) كما يدعى آخرون منكم (قليلا ما تذكرون) أى تذكرون تذكرا قليلا ، هو (تنزيل من رب العالمين) نزله على لسان جبريل عليه السلام (ولو تقول علينا) أى اختلق علينا محمد (بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين) أى يمينه (ثم لقطعنا منه الوتين) وهو عرق يخرج من القلب ويتصل بالرأس ، وهو تصور لاهلاكه بأفطع ما يفعله اللولك بمن يعضون عليه ، وهو أن يأخذ القاتل يمينه ويضرب عنقه بالسيف ، وللقصود أنه لو كذب علينا وتكلف الإخبار عنا لقنناها إما قتلا معنويا وذلك بأن نهي له من يبطل حجته ، ويميت دعوته ، أو نسلبه قوة البيان فلا يتكلم بهذا الكذب ، وإما نبيته ، إذن ليس المقصد من الأخذ باليمين وقطع الوتين إلا النتيجة ، وهى ألا ينشر الأكاذيب ، ولا جرم أن كل متكلف القول غير معبر عما امتلأ به فؤاده ، ووعاه صدره ، وجاشت به نفسه ، بحيث يفيض القول منه فيضا ، لا يعتمد دعوته ، ولا يسمع قوله ، وهذه عادة الله في خلقه ، فليس لامرى متكلف من نصيب في قبول السامعين . إن المؤلفين والخطباء والشعراء إذا لم يكن تأليفهم وخطابهم جائشة بها صدورهم فإن قولهم مرفوض والسامع يعله ، وقارى كتبه لا يميل إليها ، ولا يخامر قلبه حبا ، وفي التنزيل : « وما أنا من المتكفين » ثم قال تعالى (فما منكم من أحد) أيها الناس (عنه) عن قتل محمد صلى الله عليه وسلم (حاجزين) ولفظ أحد فى معنى الجماعة فلذلك وصف بالجمع (وإنه) أى القرآن (لتذكرة) لعظة (للمتقين) إذ غيرهم لا ينتفع به (وإنما لتعلم أن منكم مكذبين) فنجازهم عليه (وإنه لحسرة على الكافرين) حينما يرون ثواب المؤمنين (وإنه لخلق اليقين) الذى لا ريب فيه (فسبح باسم ربك العظيم) أى نزه ربك العظيم واشكره إذ جعلك أهلا لأن يوحى إليك ، أو فسبح الله بذكر اسمه العظيم تنزيها له عن الرضى بالقول ، وشكرا إليك . انتهى التفسير اللفظي للمقصد الثانى من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

إيضاح

احلم أن هذه السورة سبقت لتبيان هلاك الأمم الجاهلة فى الدنيا بخرابها ، وفى الآخرة بعذابها إن التكذيب بالقيامة الذى نبى عليه هذان العذابان : عذاب الدنيا بخراب الدول ، وعذاب الآخرة بجهنم وإنما هو عنوان على الجاهلة ، فليس خراب تلك الأمم للتكذيب بالقيامة وحده ، فقد جاء فيها أن منهم من طفف السكيات واليزان ، ومنهم من ظلم عباد الله ، ومنهم من استغنى بالذكوران عن النسوان ، فإذن يرجع الأمر إلى الجاهلة ، فيصير الأمر هكذا : إن الأمم التى أقفلت عقول أبنائها وغفل رجالها تعذب عذابين : عذابا فى الدنيا ، وعذابا فى الآخرة ، وإذا ضرب الله مثلا بعاد ونمود وقوم لوط وقوم فرعون ، فمثل هذه الأمم كل أمة غافلة جاهلة العواقب لم تتق ما يطرأ عليها من حوادث الدهر بأعداد العبادات وإحياء أرضها وعقول أبنائها ، ومعرفة ما فى هذه الدنيا من الصناعات والمعلوم ، وإذا كان جهل الآخرة التى هى غائبة عنا لم نشاهدها بوجوب عذاب جهنم ، فكيف إذن يكون جهل ما أحاط بالناس من مدمرات ومهلكات ! إنه أحرى أن يوجب الحزى فى الدارين .

وإيضاحه أن الآخرة أعد فيها عذاب جهنم ونعيم الجنة ، فمن جهل هذه العاقبة دخل جهنم ، ومعلوم أن الآخرة لم يعرفها الناس بمقولهم وإنما عرفوها بكلام أنبيائهم الصادقين للؤبدين بالمعجزات ، يقال : إذا كانت هذه حال الناس إذا كذبوا أمرا سمعوا لم يروه فكيف تكون حالهم إذا رأوا الأمم حولهم قد استخرجت منافع ما فى الأرض وملكت منها حظا وافرا للرضين : إحياء أممهم وإماتة غيرهم ، فإذا هم أهملوا ما هو يقين عندهم ، وهو أن تلك الأمم المحيطة بهم ستقتض عليهم وربما أفنتهم كما أفنى أهل أوروبا سكان أمريكا الأصليين ،

واستأصل الإنجليز سكان استراليا الأصليين إلا قليلا فإن العذاب يلصقهم في الدنيا بانقضاض تلك الأمم عليهم : « وللعذاب الآخرة أشد وأبقى » .

ثم إن الإيمان بالآخرة لانتيجة له إلا العلم والعمل في الدنيا ، فأى أمة غفلت عما أحاط بها من العلوم في الأمم حولها ، وما دبرت من كيد وذل للضعفاء فإن هذه السورة تبين لها مقدار عذابها في الدنيا بنفها وفي الآخرة بمجهنم .

ولقد قلنا في هذا التفسير إن المسلم إذا ظن أن العذاب خاص بأمة معلومة في الدنيا والآخرة ، وأنه هو مبرأ منه فليعلم أن هذا غرور اختلقه الوعاظ الكاذبون (انظر هذا الموضوع في سورة آل عمران عند قوله تعالى : « وغرم في دينهم ما كانوا يفترون » وفي سورة البقرة عند مسألة الشفاعة) .

إن سنة الله واحدة ، ولن يغيرها لأجل مسلم جاهل مغتر في دينه . وأما تعلق المسلم بأنه غير مخلد في جهنم فليعلم أن العذاب الطويل لا يطاق ، فالمسلم الذي يتكلم هذا الاتكال يحرم من السعادة في الدنيا والآخرة ، فإذا ذكر الله ثمود وعادا ، أو قوم لوط الخ قلنا أن نذكر أيضا خراب الأندلس التي كان يعمرها المسلمون واحتلال مصر بالإنجليز وبلاد شمال أفريقيا بقوم من الفرنجة ، وهكذا العراق والشام ، أليس هذا هو عذاب الدنيا ، ألم يعذب الله المسلمين بمجملهم ، نعم هم يؤمنون بالآخرة ولكنهم لا يؤمنون بالمحسوسات للشاهدة من ظلم الأمم فلا يحافظون على بلادهم ، ولا يكون ذلك إلا بالعلوم والعارف .

أيها المسلمون : ألسنم تعدون أن هذا من الله ؟ أليس هذا تهجيلا للعذاب ؟ ألسنم ترون أنكم بنومكم عن معرفة كمال الله وعظمته ، والاطلاع على آثاره وحكمته ، وبجرمانكم من خيرات ما خلق من البدائع والنافع قد استحققت غضبه ، لأنكم غير شاكرين ، ولا متقابين نعمه .

يا عجباً ! أيظن المسلم أن الله يكتفي منه بأن يقول آمنت ؟ عجباً لأمة الإسلام ! ألم يقرأ المسلمون : « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون » أي وهم لا يختبرون ، فهذا هو الاختبار ، اختبر عقولكم فوجدتها غافلة ، أحاط بها جمال الله في صنائمه ، أحاط بها أمة الفرنجة بالمدافع والطيارات ، أحاطت بها صناعات الفرنجة تدخل بلادهم فيشترونها بأعلى الأثمان فتفتقر البلاد فتصير ملكا للأجانب ، أليس هذا من الاختبار ؟ ألم يقل الله على لسان قوم « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير » ؟ ألم يقل الله : « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مشغولا » ؟ ألم يذكر الله آيات كثيرة في الحصى على النظر والتفكير في السموات والأرض ، غفل المسلمون فليستيقظوا ، ماتوا فليتنبها ، فقد جاء دورهم ، أفلم يقرأ المسلمون : « خذوه فخلوه ثم الجحيم صلوه ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين » .

أفلا يعلم المسلم أن الاقتصار على جمع المال وادخاره بحبس العقل فيظلم ، وتصبح النفس مكبلة به لا تنفك لها منه ، فيعيش للمال ويموت منتحرا عليه : أي يعيش ولا يمشي ولا ينظر له في حكمة ، ولا علم ، ولا دولة ، ولا منفعة أمة من الأمم ، لأنه حول وجهته إلى غرض واحد هو المال ، ومن كان هذا شأنه تكون جميع أحواله راجعة لهذا المعنى ، حتى إن كثيرا من عشاقه يعترهم الوسواس في آخر حياتهم ، فيقول أحدهم : أين سفنى البحرية ؟ أين قصوري ؟ أين كنوزي ؟ أين أموالي ؟

وإفامات لا يفارقه هذا الوسواس ، ولا يخادره هذا الحساس ، فهو كالمقيد بالسلاسل لا خلاص له منها ولا انفكاك ، فلا له في الدنيا علم ولا عمل ، ولا فكر في أمته ، وفي الآخرة يكون على منهجه لا يتعداه ، فلا يزال في الجهالة العمياء .

حكاية

وهل لك أن أذكرك بحكاية البخيل الذي مات في (مدينة أنجوليم) ، وقد رمز له بحرف (ل) وكان يسكن الطابق السفلي من داره ، فلما مرض لم يعلم أحد بمرضه ، فدخل رجال الحكومة فوجدوه شاخص البصر إلى كمية من النقود الذهبية للفقارة على مائدة أمامه ، فأخرجوه إلى المستشفى فمات ، حينئذ أحضره الجماعة الروحية بعد موته : أي أحضروا روحه . فقال : إني لم أمت ، وكان ذلك في ٢٥ أيلول سنة ١٨٦٣ ثم أحضروه مرة أخرى . فقال : ماذا تريدون مني؟ الأحرى بكم أن تردوا لي مالي الذي سرقوه مني ما أقبح عملهم ، أنا الذي تعبت مدة حياتي كلها لأجمع قليلا من النقود أستعين بهاءند الحاجة فسرقوها مني وأحلوا بي الدمار ، أرجوكم سادتي أن تأخذوا بنصرتي ، وتسعوا في رد ما أخذوه مني ، فلما قيل له أنت ميت ولا تحتاج للمال؟ قال : ماهذه الوقاحة ، هل الجنبيات في نظركم لا تمد شيئا ، فلما ذكروه بأن الأجدربه أن يبحث عن كنز في السماء ، ردت الروح قائلة : ما أبلدكم دلوني على للسكان الذي فيه كنزى ، وكفوا عن المزاح ، فقيل له ألا تعرف الله؟ قال : ليس لي هذا الشرف ، أريد استرجاع مالي . انتهى القصود منه نقلا عن كتابي [الأرواح] التي أنقته في هذا الصدد .

أفليس هذا الغنى الذي كان للمال هو القصود الأكبر من حياته قد كبه المال فصار في سلسلته التي كبته فلا يقدر على الانفصال عنها ، اليس قوله تعالى : « في سلسلة ذرعتها سبعون ذراعا فاسلكوه إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين » يشير لنحو هذه الحكاية وأمثالها بما في ذلك الكتاب وغيره مما امتلأت به بلاد أوروبا كلها ، وبلاد الإسلام محرومة منه .

ألم يجعل الله وضعه في السلسلة الطويلة للجهل واللبخل بالمال ، ولا جرم أن العقل متى كان غير منطلق من قيود الجهالة لا يعقل النافع ، فهذا الفرنسي الذي لم ير بعد الموت أمامه إلا المال هو موضوع في سلسلة معنوية أعظم من السلسلة الحسية ألف مرة ، إن المحسوس في سجن قد يعيش فيه عشرات السنين ، ولكن الذي اعتراه عشق لملك قلبه وهو مطلق السراح في القضاء قد يموت ، وقد يقتل نفسه ، وكثير من المشاق ماتوا لأنهم حبست عقولهم في سورة واحدة لم ينالوها ، وربما جعلت لهم سلاسل حسية وإن كانت أقل في التعذيب من السلاسل المعنوية .

إن عذاب الدنيا والآخرة بالسلاسل والضيق والاستعباد يكون بسببين : جهل بالعقول ، وتقصير في الأعمال والأول الإشارة بقوله : « لا يؤمن بالله العظيم » ولثاني بقوله : « ولا يحض على طعام المسكين » . إن للعقول لئنة غير لئنة المسال : لئنة العلم ، لئنة ارتقاء الأمة ، لئنة النصر على أعداء الأمة ، لئنة ارتقاء الصناعات الخ لما للمال إلا آلة من آلات الحياة .

إيضاح السلسلة والعذاب بها

اعلم أن الناس عليهم واجبات : واجب للمخلوق ، وواجب للمخلوق ، فالواجب عليهم لخالفهم أن يعرفوه .
وبعبارة أخرى أن يدرسوا نظامه في العوالم كلها على قدر الإمكان ، فالعالم بالدراسة ، والجاهل بالعبادة ،
لأنها تذكر بهذا العالم في أثناء القراءة ، فإن قراءة الصلوات فيها الكلام على العالمين ، وعلى الربوبية الخ
وفيها قراءة القرآن ، ولا جرم أن القرآن مذكر لهذا العالم .

وأما الواجب للمخلوق ، فهو المساعدة العامة والمعايشة الجميلة ، فمن يصل لله إلا يعلم وصولا حقيقيا ،
أو بعبادة وصولا ثانويا إجماليا ، ولن تكون روحه في الحياة ، وبعد الممات فرحة بالأرواح الأخرى إلا إذا
كانت تجلب لهم المساعدة ، وتتخذ مودتهم شعارا لها ، فليعاشر الناس بالأخلاق الحسنة إن لم يمكن بالمساعدة
العامة لهم ، فاذن الإنسان يحظى بربه وبخلفه بالعلم والعبادة أولا وبالنفع العام والأخلاق ثانيا ، فإن لم يوفق
إلى أحدهما أو كليهما فإنه في سلسلة لا تراها العيون ، ولكنها سلسلة أشد ضنكا وتعذبا من سلسلة الحديد
وهناك مثل المتقدم في حكاية البخيل الذي أحضر واروحه . ألم يقل بعد موته إنه محتاج لماله ، ألم يقل إنه
لا يعرف الله وليس له هذا الشرف ، أليس هذا مصداق : « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى
وأضل سبيلا » ، أليس هذا الرجل أعمى في الدنيا وأعمى في الآخرة ، ألم يكن محروما من معرفة الله كما أفر
بنفسه ، ومن معرفة الحياة بعد الموت ، ومن محبة الناس ، لأنه بخيل ، أليس هذا هو قوله تعالى : « إنه
كان لا يؤمن بالله العظيم ، ولا يحض على طعام المسكين » فضلا عن أنه هو نفسه ملزم أن يؤمن بالله ،
ولعلك تقول : أين السلسلة التي في رقبتك ؟ أقول لك : السلسلة هنا سلسلتان : حسية ومعنوية ، أما السلسلة
المعنوية فانظر :

- (١) ألسنت ترى أن رجلا أرتكبته الديون وهو شهير بالثروة فقام الدائنون عليه فجزوا ما يملك ،
فبعض أمثال هذا يتنجرون ؟ لماذا ؟ لأنهم يمتضجون ، ثم يتخلص هذا ؟ يتخلص من سلسلة
معنوية أشد من السلسلة الحسية .
- (٢) ألم يقل الله تعالى على لسان مريم : « ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا » فإذن مريم تمت
الموت وفضلته على الحياة ، ولماذا ؟ لأنها وضعت في سلسلة العار التي لا تنفصل عنها .
- (٣) العاشق الذي تقدم ذكره يقدم على الموت نخلصا من السلسلة العسقية ، التي ربطته ربطا محكما ،
وكم من امرئ اعتاد شرب الدخان . أو الخمر أو عادات آخر فلا زمنه فلم تنفك عنه حتى أوردته
الهلاك ، وأمثلة هذا القام كثيرة .

وأما السلسلة الحسية ، فهناك وصفها . انظر ألسنت ترى أن القمر يدور حول الأرض ، وهي تدور حول
الشمس ، وهي دائرة حول كوكب آخر . وهكذا سلسلة متناسقة إلى أن تصل إلى الشمس الكبرى في الهجرة
فهذه شموس متصلات متناسقات كأنها أوراق شجرة كل جماعة في غصن . فهذه السلسلة المركبة من شموس
وسيارات وأرضين باعتبار العلم الحديث متتالية متجاذبة متناسقة تماسك حلقة السلسلة . والإنسان من بنى آدم
حتى على الأرض فوق حلقة من حلقات تلك السلسلة المحيطة بها كما وصفها الفسرون . إذ قالوا : إن السلسلة
تلف عليه وتحيط به ، فالإنسان فوق هذه الأرض العائش فوق حلقة من السلسلة مربوط بها وهي محكمة
عليه لا يقدر على فراق الأرض لأنه مجذوب إليها ، وهو مع ذلك جاهل بما يحيط به ، لم يخترق حجب الكون
حتى يعرف فاعله ، فذلك أحكم عليه رباط السلسلة لأنه لا يدرس إلا ما يسد جوعته ، وأما هذا الوجود فإنه

عنه في غفلة ، فلا يمكنه أن ينفذ منه ويحترق حجه ليدرك بعقله ماوراءه ، وكيف ينفذ فيعرف إلا بسطان العلم وقوة النفس وأجنحة الهمة ، فهو من هذه الوجبة محبوس لا قدرة له على معرفة ماوراء شهواته ، فإذا مات بقي محبوسا كما هو ، لأنه لم يتزود من الأرض معارف تعينه على السير هناك ، ألا ترى قول البخيل المتقدم : (أنا ليس لي شرف معرفة الله) ، فسكان الإنسان في الدنيا مربوط في سلسلة عظيمة جدا طولها آلاف الآلاف من الأميال ، بل لا يعرف مقياسها ، فإذا الواجب أمران . أولها العالم بنظام ولو بطريق العبادة ، وإليه الإشارة بقوله : « إنه كان لا يؤمن بالله العظيم » فهذه العظمة لا تعرف إلا بدراسة هذا العالم لسكل امرئ بمقدار طاقتهم . وثانيهما العمل ، وإليه الإشارة بقوله : « ولا يحض على طعام المسكين » ثم إن السلسلة حسية ، وهي هذا الوجود إذا كان مجهولا للإنسان فإنه يموت وهو محبوس الفكر عن الصعود إلى ماوراء الحس ، وسلسلة معنوية ، وهي مراكز في النفوس من التعاقق بأمر مخصوص ، فليس للإنسان من دواء إلا بالعلم بالفضائل الخلقية . انتهى تفسير سورة الحاقة يوم الجمعة ١٧ يوليو سنة ١٩٢٥ م

تفسير سورة المعارج

هي مكية

آياتها ٤٤ - نزلت بمد سورة الحاقة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * للكافرينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِنَ اللَّهِ ذِي الْأَعْرَاجِ *
تَمْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ * فَأَصْبَحَ نَبْرًا
جَمِيلًا * إِنْهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَرَأَاهُ قَرِيبًا * يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ
الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ * وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا * يُبْصِرُونَهُمْ يَوْمَ الْمَجْرِمِ تَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ
يَوْمِئذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ * وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ
يُنجِيهِ * كَلَّا إِنَّهَا لَأَطْفَى * نَزَّاعَةً لِّلشَّوْىِ * تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى * وَجَمَعَ فَأَوْعَى *
إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا
الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ * وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ
وَالْمَحْرُومِ * وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ *
إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَا مُنُونِ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفِرْوَجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ

مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ ابْتغى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ *
 وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ
 عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُسْكِرُونَ * فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ
 مُهْطِعِينَ * عَنِ اليمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ عِزِينَ * أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ
 نَعِيمٍ * كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَلْمُونَ * فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا
 لَقَادِرُونَ * عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * فَذَرَهُمْ يَخوضُوا وَيَأْمَبُوا
 حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ * يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى
 نُصْبٍ يُوفِضُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْدَقُهُمْ ذَلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ *

هذه السورة ثلاثة مقاصد

وهي أشبه بالتي قبلها ، فلذلك ذكرت عقبها ، فهي مبدوءة بوصف يوم القيامة وأهواله ، والنار وعذابها
 وذلك من أول السورة إلى قوله : « وجمع فأوعى » وهذا هو مقصدها الأول .
 ومقصدها الثاني في صفات الإنسان التي أوجبت له الجحيم ، وغرائزه الفطرية التي أوجبتها ، وكيف يجتهد
 لإزالة ذلك النقص حتى يرتقى إلى المعارج ، ويخرج من عالم المادة ، وذلك من قوله « إن الإنسان خلق هلوعا »
 إلى قوله : « أولئك في جنات مكرمون » .
 ثم المقصد الثالث فيه وعيد لأولئك الكافرين من قوله : « فمال الذين كفروا قبلك مهطعين ، عن
 اليمين وعن الشمال عزين » إلى آخر السورة .

المقصد الأول : وصف يوم القيامة وأهواله والنار وعذابها

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(سأل سائل بعذاب واقع . للكافرين) كان أهل مكة يقول بعضهم لبعض : إن محمدا يخوفنا بالعذاب
 فمن أهل هذا العذاب ؟ ولأن هو ؟ وكان النضر بن الحارث خاصة ونحوه يقولون : « اللهم إن كان هذا هو الحق من
 عندك فأمطر علينا حجارة من السماء » فنزلت هذه الآيات . يقول الله : دعا داع ، وطلب طالب ، كالنضر بن
 الحارث عذابا واقعا كائنا للكافرين ، فالبا ، في بعذاب زائدة ، ويجوز أن يكون كقولك : دعا بكذا إذا استدعاه
 وطلبه فلا تكون الباء زائدة ، وقوله (ليس له دافع) أي إن العذاب واقع بهم لا محالة فلماذا يطلبونه استهزاء ؟
 فيسكون في الدنيا بالقتل ، وفي الآخرة بالنار ، وقد قتل النضر بن الحارث يوم بدر ، فليس لهذا القتل ولا
 لعذاب الآخرة دافع يدفعه عنهم (من الله) أي يرده من جهته ، وكيف يرد وقد تعلق به إرادته ؟ (ذى
 المعارج) أي ذى اللصاعد ، وهي الدرجات التي يصعد فيها السلم الطيب ، وذى النعم التي تكون درجات

متفاضلة ، وهى تصل إلى الخلق على مراتب مختلفة ، وذى للراتب التى جعلت حقوق الملائكة فيها ، وذى السموات التى هى درجات بعضها فوق بعض .

يقول الله : إن العذاب الذى طلبه السائلون واستبطئوه واقع بهم لاحالة ، وهو لم يفعل ذلك إلا للحكمة لأنه لم يفعل ذلك إلا ليضعهم فى درجاتهم التى أهلوا لها باستعدادهم ، وهو قد نظم العوالم كلها ، فجعل منها مصاعد ، ومنها درجات ، فليكن هؤلاء فى الدرجات ، وليكن المؤمنون والملائكة فى الدرجات طبقات طبق بنظام تام . ثم أخذ يستأنف مبينا ارتفاع تلك الدرجات فقال (تخرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) قدم للملائكة لأنهم فى عالم الأرواح : أى العالم للبرأ عن المادة ، وأنبئهم بالروح أى أرواح المؤمنين ، فانها تذهب ساعة عند الموت إلى مصاعد صعدتها الملائكة ، يقتفون آثارهم على مقدار مراتبهم ، فيصعد هذان الصنفان إلى عرش الله ومهبط أمره فى يوم طويل مقداره خمسون ألف سنة من سنى الدنيا ، وليس ذكر الخمسين ألف سنة ، ولا ذكر ألف سنة للتحديد بالمدة ، بل المقصود أن مقام القدس الإلهى بعيد المدى عن مقام العباد ، فهم فى المادة مغموسون ، وفى أحوالها مغمورون ، وهناك عوالم ألطف وألطف ، درجات بعضها فوق بعض ، وكل عالم ألطف مما قبله ، وكل مالطف العالم العالوى كان أشد قربا وهكذا « وأن إلى ربك المنتهى » .

وتلك الدرجات المتتاليات لاحصر لها ، فعبء عن هذا كله بخمسين ألف سنة ، وإلا فهى جيدة المدى ، والملائكة درجات بعضها فوق بعض ، وهكذا أرواح المؤمنين وكل منهم يخرج إلى الدرجات العلى .

كأنه عز وجل يقول : إن هؤلاء إذا عذبهم فأنا لم أخلق الخلق إلا ليعبدون فيرتقوا إلى درجات القرب ويصعدوا إلى مراتب السكال ، فأنا ذو المعارج ، فإن عذبت أهل مكة فذلك لنقص فى فطرم وإلا فأساس خلق العالم الارتفاع ، أنا ذو المعارج ولست ذا الدرجات ، فالأرواح لا تزال ترتقى إلى طبقات عن طبق فى الحياة وبعد الموت فى البرزخ ، وبعد دخول الجنة هم ينساقون فى الاستعلاء طبقات عن طبق ، فارتقاء دائم إلى أبد الآبدين ، ودهر الدهارين ، ولا ارتفاع إلا بالكشف العلمى ، وعلى لانهاية له ، وحكمى لا غاية لها ، فعبادى المخلصون لا يزالون يزدادون منى اقترابا بالعلم فى الدنيا وفى البرزخ وفى الجنة ، بل أعلى درجات الجنة أن يكون الناس فى عالم روحى خالص من المادة للاستغراق فى العلم ، ولا معنى للقرب منى إلا بالعلم ، وشبهه العلماء بقرب الأستاذ من التلميذ ، فسكنا ازداد علما ازداد من أستاذه قربا ، فهذا هو المروج الذى تخرج الأرواح ، وهذا المروج لانهاية له ، فليعد بخمسين ألف سنة ، أو فليعد بأضعافها ، فالمقصد للراتب العظيمة ، قال تعالى : إذا سألتوا استمجال العذاب على سبيل الاستهزاء والتكذيب بالوحى وكان هذا يورث ضجرك يا محمد (فاصبر صبرا جميلا) بلا جزع ولا شكوى ، لأنه أمر محقق وكل آت قريب (إنهم يرونه) أى العذاب (بعيدا) من الإمكان ، أو من الوقوع (وزوا قريبا) أى من الإمكان ، أو من الوقوع ، وقوله (يوم تكون السماء كالمهل) أى يقع يوم تكون السماء كدردى الزيت ، أو كالفضة المذابة فى تلونها (وتكون الجبال كالعهن) أى كالصوف المصبوغ ألوانا ، فإن الجبال حمر وبيض وسود ، فإذا بست وفرقت وطارت فى الجوا أشبهت العهن للنفوس إذا طيرته الريح (ولا يسأل حميم حميما) أى لا يسأل قريب قريبه لشغله بشأن نفسه ، ولا يكلمه لشدة هول ذلك اليوم حال كونهم (يبصرونهم) أى يرى الأسماء الأسماء ، والحميم فصيل يقع موقع الجمع ، فلا يسأل حميم حميما حال كونهم يشاهدونهم ، وذلك لتشاغلهم فلم يتمكنوا من التساؤل . ثم استأنف فقال : (بود المجرم) يتمنى المشرك (لو يفتدى من عذاب يومئذ) أى من عذاب يوم القيامة (بينه وصاحبه

وأخيه) أى فلم يقف الأمر عند التشاغل عن سؤال الخيم حميه ، بل أصبح الوضع مقلوبا ، فبعد أن كان فى الدنيا يدافع عنه وربما تقدم للقتل محافظة على حميه والدفاع عنه صار فى الآخرة يود أن يقتدى به ، والصاحبة : الزوجة (وفصيلته) عشيرته (التى تؤويه) تضمه وبأوى إليها (ومن فى الأرض جميعا ثم بنجيه) أى يتمنى لو ملك هؤلاء جميعا ثم يقتدى بهم جميعا (كلا) لا ينجيه من عذاب الله شئ* (لأنها) الضمير مبهم يفسره (لظى) اللهب الخالص ، أو علم للنار (نزاعة للشوى) أى لأطراف الإنسان كاليدن والرجلين ، أو جمع شواة : وهى جلدة الرأس تنزعها نزعاً فتفرقها ثم تعود إلى ما كانت عليه (تدعوا) تجذب وتحضر (من أدبر) عن الحق (وتولى) عن الطاعة (وجمع فأوعى) وجمع المال لجملة فى وعاء وكثره حرصاً وتأميلاً . وإلى هنا تم الكلام على المفصل الأول من السورة ؛ والحمد لله رب العالمين .

المقصد الثانى فى غرأز الإنسان

ووجوب تهذيبها حتى تنجو من هذه النار التى هى فى عالم المادة
وكيف يكون الصعود من الأخلاق للوجبة للنار إلى تلك المعارج ؟

قال تعالى (إن الإنسان خلق هلوعا) الهلوع ، فسرته الله بما بعده كما قاله ابن عباس (إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا) فهو قليل الصبر ، شديد الحرص ، فهو عند مس السكره سريع الجزع ، وعند مس الخير سريع المنع والبخل ، فهذا طبع الإنسان وقد أمر بمخالفته ، فهو كفعل وقع فى وحل كلا تخلص من ورطة وقع فى أخرى ، فإن تخلص من ضر أناه الخير وبالعكس ، فكأنما الخير والشر سلسلة طويلة قد أحاطت به فلا ينجو منها ، فهو لا يخلو من خير أو شر مدة حياته يتعاقبان عليه أمد الحياة وهو موثق بهما ويتعاقبهما ، فعند الشر يجزع ، وعند الخير يمنع ، فهذان الخلقان يتعاقبان عليه ، فكيف التخلص من تلك السلاسل إذن ! لذلك أعقبه بالتحلاص منها ، وذلك بشر خصال :

- (١) الصلاة .
- (٢) المداومة عليها فى أوقاتها المعلومة .
- (٣) والمحافظة عليها إذا ابتدوا فيها بحضور القلب ، والحشوع ، ومراعاة السنن والفرائض .
- (٤) التصديق بيوم الجزاء فيحاسب المرء نفسه فى الدنيا .
- (٥) أن يعطوا من أموالهم الزكوات والصدقات لمن يسأل ولن لا يسأل وهو فقير فيظنه الناس غنيا .
- (٦) أن يراعوا العهود والمواثيق .
- (٧) أن يؤدوا الأمانات إلى أهلها .
- (٨) وأن يحفظوا فروجهم عن الحرام .
- (٩) أن يؤدوا الشهادات على وجهها .
- (١٠) أن يكونوا مع هذا كله خائفين من عذاب ربهم .

فهذه الصفات العشرة هى التى تخلص الإنسان من تلك السلاسل التى قيدته بها طبائعه وغرائزه التى فطر عليها وعاداته ، وكلها راجعة إلى شيئين : الحرص والجزع ، وقد لحصنها لك بترتيب غير مآزاه فى الآيه ليسهل عليك تعقله ، فقوله تعالى (إلا المصلين) استثناء للمصلين الموصوفين بما ذكر من نوع الإنسان كله كما أقسم بالعصر : أى الدهر كله . « إن الإنسان لنى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق

وتواصوا بالصبر ، فالإنسان إذا ترك وشأنه في خسر ، ولكنه إذا علم وهذب فهو خارج من الخسر ، وقوله (الذين هم على صلاتهم دائمون) لا يشغلهم شاغل عن أدائها في أوقاتها (والذين في أموالهم حق معلوم للسائل) الذي يسأل (المحرور) وهو من لا يسأل فيحسب غنيا فيحرم (والذين يصدقون بيوم الدين) تصديقا موجبا للثمرة المطلوبة ، وهي أن يسخر نفسه وماله في طاعة الله ومنفعة الناس ، وقوله (والذين هم من عذاب ربهم مشفقون) خائفون على أنفسهم (إن عذاب ربهم غير مأمون) أي لا ينبغي لأحد أن يأمن عذاب الله ، ولو أدى هذه الطاعات كلها وزاد عليها (والذين هم لقروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين) فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) ارجع إلى تفسير هذه الآيات في سورة المؤمنين (والذين هم بشهاداتهم قانعون) يقومون بها عند الحكم ولا يكتمونها ولا يغيرونها ، والشهادة أمانة، خصت بالذكر بعد الأمانات لعظم شأنها ، فيها تكون الأحكام (والذين هم على صلاتهم محافظون) فيقدمون الوضوء ، وستر العورة ، والا كان الطاهر ، ويقصدون الجماعة أولا ، ثم يفرغون القلب عن الوسواس والالتفات إلى ما سوى الله تعالى مع الخشوع والخوف وإتمام الأركان على ما ينبغي ، وأن لا يكون مرائيا ، ولا قاصدا السمعة (أولئك في جنات مكرمون) فيها ثواب الله تعالى . وإلى هنا تم الكلام على المقصد الثاني من السورة ، والحمد لله رب العالمين

المقصد الثالث في وعيد الكافرين

قال تعالى (فالذين كفروا قبلك) حولك (مهمطين) مسرعين مقبلين إليك ، مادي أعناقهم ، ومدعى النظر إليك ، متطلعين نحوك . ذلك أن جماعة من الكفار كانوا يجتمعون حول النبي صلى الله عليه وسلم يستمعون كلامه ، ويستهنئون به ، ويكذبونه ، يقول الله تعالى : ما لهم ينظرون إليك وهم جالسون عندك ولا ينتفعون بما يسمعون منك (عن اليمين وعن الشمال عزين) عن يمينك وعن شمالك فرقا شق حلقا حلقا ، والعزون جمع عزة ، وأصلها المرة : أي الجماعة ، يقال عزاه يعزوه إذا نسب ، فكل فرقة تعزى أي تنسب إلى غير ما تعزى إليه الأخرى (أبطع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم) بلا إيمان ، وهذا رد لقولهم : لو صح مايقوله محمد لكنا أكثر حظا منهم في الآخرة كما نحن كذلك في الدنيا (كلا) ردع لهم عن هذا الطمع (إنا خلقناهم مما يعلمون) أي كيف بطعمون أن يدخلوا عالم القدس والأرواح الطاهرة ونحن خلقناهم من النطفة التي نقرها في الأرحام ، وننقلهم حالا بعد حال ولا مناسبة بين هذه الحياة وبين الحال القدسية ، فلا بد من الاستكمال بالعلم والعمل (فلا أقسم برب للشارق والغارب إنا لقادرون على أن نبدل خيرا منهم) أي نهلكهم ونأني بخلق أفضل منهم ، أو نعطي محمدا صلى الله عليه وسلم بدلهم من هو خير منكم ، وقد تم ذلك بالأنصار بعد نكوص أهل مكة وكفرهم به (وما نحن بمسبوقين) بمغلوبين إن أردنا نحن نفعل ذلك (فذرهم يخوضوا) في باطلهم (ويلعبوا) في دنياهم (حق يلاقوا يومهم الذي يوعدون) ثم فسر ذلك فقال (يوم يخرجون من الأجداث) القبور (سراعا) مسرعين جمع سريع (كأنهم إلى نصب يوفضون) النصب كل شيء منصوب كالعلم والراية ونحوها ، وكل منصوب للعبادة ، ويوفضون يسرعون ، والنصب كجذب وكقلب وكقطب قراءات (خاشعة أبصارهم رهقهم ذلة) أي ذليلة أبصارهم بغشام هو ان (ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون) يعني يوم القيامة الذي كانوا يوعدون به في الدنيا . انتهى التفسير اللفظي للمقصد الثالث من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذه السورة

- (١) في قوله تعالى : « من الله ذي المعارج » .
 (٢) وفي قوله تعالى : « إن الإنسان خلق هلوعا . إذا مسه الشر جزوعا . وإذا مسه الخير منوعا » :
 (٣) وفي قوله تعالى : « إنا خلقناهم مما يعلمون » الخ .

اللطفية الأولى : في قوله تعالى « من الله ذي المعارج »

لما وصلت إلى هذا المقام حضر صديق لي من أهل العلم ، فقال : هل لك أن أقص عليك حكاية عن آباؤنا الأولين تناسب هذا المقام ؟ فقلت : إني لذلك وامق :

حكاية الشعبي وملك الروم

قال : قرأت في كتب الأولين أن عبد الملك بن مروان أرسل وفدا إلى ملك الروم وفيه الشعبي العالم المشهور ، فلما دخل الشعبي على ملك الروم قال له : إنكم تقولون إن الله لا أول له ، ولا شيء قبله ، وتقولون إن الإنسان يأكل في الجنة ويشرب ولا يبول ولا يتغوط ، وتقولون إن نعيم الجنة لا ينفد ، فهل تقدر أن تضرب لي أمثالا مما نشاهده في الدنيا حتى يقرب ذلك من عقول الناس ؟

فقال الشعبي : إن الأعداد أولها الواحد ، وما الأعداد إلا الواحد المكرر ؛ فبتكرار الواحد حصلت الأعداد أزواجها وأفرادها ولو عدت الأعداد لم يعدم الواحد ، ولكن لو عدت الواحد عدت الأعداد أزواجها وأفرادها ، والواحد المذكور لا شيء قبله ، فهذا مثل يكفي لأمرين : أن الله لا شيء قبله ، وأن الموجودات منه استمدت ، وأيضا تنفي الموجودات وهو الباقي .

أما كون الإنسان يأكل في الجنة ويشرب ولا يبول ولا يتغوط ، فهذا له نظير في الدنيا وهو الجنين في بطن أمه ، فإنه لو بال أو تغوط لأهلكها ، لذلك جعل الله دم الأم ممتدا إليه من عرق متصل بالسرة يمتد في سائر أطراف الجسم ، فلا بول ولا غائط له ، والأم تقوم مقامه في هذا السبيل .

وأما كون نعيم الجنة لا ينفد فإنا نشاهد السراج في الدنيا يقبس الناس منه ألف سراج ولا ينطفيء ؛ هكذا نعيم الجنة .

فلما سمع ذلك ملك الروم ، قال : عجبت للمسلمين كيف جهلوا فلم يجعلوا ملكا عليهم ، فلما رجع إلى عبد الملك وجد الخبر عنده بنامه ، فقال له عبد الملك : أتدرى لم قال لك : كيف جهل المسلمون فلم يجعلوا ملكا عليهم ؟ قال لا ، قال حسدني عليك أراد أن أفنك ، ولكن خاب فأله ، وأعطاه مالا جزيلا .

فلما أتم صاحبي هذه الحكاية قال لي : هكذا هنا يذكر الله المعارج ، ومعارج الآخرة ودرجاتها لم ترها فهل تذكر لنا معارج في الدنيا حتى نقيس عليها معارج الآخرة ، وتكون معارج الدنيا مضرب أمثال لمعارج الآخرة ؟ فقلت : لأضرب لك سبعة أمثال .

(المثال الأول) السلسلة الحيوانية والنباتية والمدنية المذكورة في هذا التفسير في مواضع كثيرة ، وقد وضحت في (سورة آل عمران) فأرجع إليها ، فإنك ترى هذه المعارج في الدنيا واضحة ظاهرة ، لأنك ترى

المعادن درجات بعضها فوق بعض . أدناه مما يلي التراب كالجص والزجاج ، وأعلى مما يلي النبات كالذهب والياقوت ، فكيف فيها من معارج ومصاعد ، ثم النبات بتبديده فيه من خضراء الدمن . وهي تطلع أول النهار وتبيس في وقت الظهيرة ، فهذا أدنى النبات ، ويرتقي درجات إلى مرتبة النخل الذي أشبهه الحيوان بأنه إذا قطعت رأسه مات ، وبأن ذكره منفصل عن أنثاه ، وهكذا يكون الحيوان ، فأدناه ما كان أدنى إلى النبات مثل قوقعة تنبت على الصخور فيها دودة على شاطئ البحار ، وليس لها من عالم الحيوان إلا الحس والحركة البسيطة ، ولكنها مغروسة في مكانها لا تبرحه ، وهي قد شاركت النبات في الحس كما هو موضح في محله ، وهكذا يرتقي الحيوان طبعا عن طبق إلى أن يصل إلى القرد فالإنسان كما عرفته مما تقدم في هذا التفسير فهذه سلسلة أدناها الجص والزجاج . وأعلاها الإنسان . ومن ذا يحصى مصاعد هذه السلسلة وقد عد الحيوان بالملايين والنبات بمئات الآلاف ، لا يحصيا أحد ، ولا يقدر على ذلك . فهذا مثل لمصاعد الآخرة أعطاه الله للعالم في الدنيا . أما الجهال فأعطاهم مثالا يناسبهم . جعل الناس درجات ، غنيا وفقيرا ليظهر لهم بعض تلك الدرجات بمقدار طاقتهم .

(المثال الثاني) الجنين في بطن أمه ينتقل في أطوار كثيرة حين الحفاة الأولى لا يختلف عن كل حيوان ثم يأخذ في التمايز والارتقاء طبقا عن طبق . فيكون أولا دودة حقيرة حلزونة فسمكة ثم يكون كالدبابات وهكذا إلى أن يشابه القرد . ثم يكون إنسانا . كل هذه السلسلة ينتقل فيها وهو في بطن أمه . وقد تقدم هذا في (سورة آل عمران) .

(المثال الثالث) : درجات الإنسان بعد الوضع : يخرج من بطن أمه وهو لا يعقل ولا يسمع ولا يبصر ثم يسمع ويبصر ويعقل تدريجا حتى يصل إلى إنسان يعرض النور والعلم على أهل الأرض كلها باختراع أو علم أو نبوة . أو يضيء قطعة منها كملك بالملك والباطنة أو نحو ذلك . فهذه مصاعد للإنسان لا يحصى عددها في الحياة الدنيا . فهذه أمثلة ثلاثة تربك المعارج في الدنيا .

(المثال الرابع) ارتقاء أحوال الناس في المال ، فمن صعلوك لا يملك قوته إلى متر كبير يملك القناطير المقنطرة فيكون عنده مائة مليون .

(المثال الخامس : الجمال) من الناس من هو مثل في القبح . ومنهم من هو مضرب الأمثال في الجمال وبينهما درجات لا يحصى .

(المثال السادس) الموجودات الحادثة منها ماهي في غاية اللطف . وهي الأثير الذي فيه تكونت هذه المادة ، ومنها ماهي في غاية الكثافة كالحديد والذهب والحجارة الصلبة . وبينهما درجات لا يحصى .

(المثال السابع) درجات الإنسان الأخلاقية : إنه يرتقي مهما كان نوعه ، كافرا أو مؤمنا ، فاسقا أو صالحا في أخلاقه ارتقاء طبيعيا ، فبعد أن كان في مبدأ حياته لا يفكر إلا في شهوته الخاصة وهو طفل ، فلما كبر وتزوج وولد أصبح مشغولا بأبنائه وبناته يسمى عليهم وبريهم وينمي ثروتهم ، فهذا هو الترقى في الخلق طبيعة ، لأنه انتقل من تكميل نفسه الجسمي إلى تكميل غيره الذي نسميه ابنا أو بنتا ، وهذا ارتقاء في معارج السكال جاء للناس والحيوان بالطبيعة . ولكن الله لا يكتفي منا بذلك يريد أن يعلمنا الاستقلال فيكون ارتقاؤنا بارادتنا وعلمنا وإلا بقينا في عالم الكون والفساد الأعمى . والارتقاء بإرادتنا هو ما سيجي في اللطيفة الثانية إن شاء الله تعالى .

واعلم أن هذه الدرجات والمعارج الحسية إنما هي سباحات للنفس ومناظر . بدراستها يرتقي في معارجها المعنوية إلى ربها الذي هو حاضر عندها ليس غائبا . فبالبحث والعلم تنتقل النفس من حال إلى حال

في درجات نفسية حتى إذا وصلت لنتهى لطاقتها عاينت ربها ، وليس ذلك بمعارج حسية بل معنوية وما ذكرناه أمثلة لها ومدارس .

اللطفية الثانية

في قوله تعالى . إن الإنسان خلق هلوعا ، إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا . إن هذه السورة كالموضحة للسورة قبلها ، فإن قوله تعالى هناك « إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ، ولا يحض على طعام السكين » قد وضع هنا كإفسرناه هناك ، وقلنا ما يفيد أن الإيمان يرجع للقوة العلية ، والحض على طعام السكين يرجع للقوة العملية ، وأن السلسلة هناك مبدؤها وسببها ما يوصف به الإنسان من الجهالة بهذه العوالم فلا يدرس نظام هذه الشمس والكواكب المنتظمة التي أخذ بعضها ببعض وتجاذبت كأنها سلسلة واحدة ، فمن لم يفك نفسه من هذه العوالم إما بدراستها أو بعبادة صادقة بحضور قلب حتى يخلص لربها « ومن لم يفك عقل نفسه مما أحيط به من اللذات والشهوات والعادات فإنه لا محالة مقرون محبوس في سلسلة تلك الشهوات لا يفك عنها ، فإذا مات وجد نفسه على ما هي عليه ، فالعوالم مجهولة ، وقد أحيط بها والشهوات لازالت تجاذبه ، فليخاص نفسه منها بالإحسان ، وليتقرب إلى أبناء جنسه ، ولينفعهم حتى يصعدوا معا إلى معارج السكالك ، هذا الخوى ما ذكر في السورة التي قبل هذه .

فأما مبدأ السلسلة المذكورة هناك التي أوضحها هنا فإنه بعد أن ذكر أن النار تنزع جلود الروس أو الأيدي والأرجل ذكر أن السبب في ذلك أن الإنسان مجبول على جيلات غليظة فلا صبر على بلوى ولا شكر على نعمة والشكر على النعمة يكون بأن يصرفها إلى مصارفها التي خلقت لها ، وبين المخرج من ذلك بأمرين : أحدهما نفسى ، وثانيهما عملى ؟ أما النفسى فهو العلم للرموز له بالتصديق بيوم الدين ، والخوف من الله فهذان رمز بهما إلى كمال النفس بالعلم والحكمة ، وأما العملى فهو الصلاة والدوامه عليها والمحافظة والذكاة ، ومراعاة العهود واللوايق ، وأداء الشهادات على وجهها ، وحفظ الفروج .

وملخص ما تقدم : ذكر سبب وقوع الإنسان في السلاسل بمدلولات ، وذكر الخلاص من تلك السلاسل ولا خلاص منها في الآخرة إلا إذا خلاص منها في الدنيا ، فالعلم خلاص من الجهل الذى يجعل الإنسان حائرا في هذا الوجود ، وأدنى العلم أن يواظب على العبادة حتى يرسخ في ذهنه أن وراء هذا العالم حالا أخرى بالتكرار ، ودفع الصدقات ، وأداء الأمانات وما أشبهه مما تقدم كل ذلك تخليص للنفس من الجزع ومن الحرص ، فأعطاء المال مكروه عند النفس ، وأداء الشهادة فيه إغضاب للمشهود عليه وجلب عداوة وأداء الأمانة قطع للطمع فيها ، وكل هذا تقطيع لتلك السلسلة التي قيدتنا في هذه المادة ، وإلى هنا تم الكلام على اللطفية الثانية ، والحمد لله رب العالمين .

اللطفية الثالثة في قوله تعالى : إنا خلقناهم مما يعلمون

أى وقد علموا أنهم خلقوا من نطفة قدرة ، فأتى لهم الوصول إلى جناب القدس مالم يقطعوا مفاوز ، ويصعدوا مصاعد ، وأتى لهم بالمصاعد والمراتب إلا بالعلم والعمل ، ولو تأمل الناس درجات الحياة التي هم فيها وأن الطفل إذ كان في أول حمله دودة فما مضى أربعون سنة حتى كان ذلك الطفل يدبر أمة بتامها مثلا لأدركوا درجات الآخرة وعظمتها ، فإن الروح إذ تخرج من الجسد ترتقى طبعا عن طبق ، فإذا كانت المادة التي نحن فيها ارتقت فيها الروح الإنسانية من نفس كنفس الدودة إلى نفس حكيم أو نبي أو ملك فما بالك به

وقد خرج من الجسم ، فلنسمه هناك دودة في عالم الأرواح ، وهذه الدودة ترتقي هناك ارتقاء يفوق الوصف إذا كانت معها المعدات التي بها تسير هناك ، وإذا كان الارتقاء في الأرض محدوداً لأننا في عالم المادة فالارتقاء هناك لاحد له يعرف ، ولا آخر يوسف ، لأنه هناك ارتقاء بالعلم ، وعلّم الله لاحد له ، فالإنسان لا يزال يرتقي فيه إلى ما لا يتناهى من الزمن .

هذا هو تفسير هذه الآيات والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ، فيعدون العدة بالعلم والعمل للسفر هناك ، وإلا قدمت بهم الحال ، وأوتقتهم السلاسل في العذاب ، وبقوا في عالم المادة السكثيف .

فما سمع صاحبي هذا البيان ، قال : الحمد لله الذي بنعمته تم الصالحات ، إن هذا البيان يثلج الصدر وإني لأزال أقول أنه ضرب أمثال ، وضرب الأمثال ليس برهانا ، وإنما هو تقريب للأذهان ، وبإيالت الناس يعرفون ذلك ، وأن الأرواح فعلا ترتقي في ذلك العالم ، ولكن هذا الكلام الذي قلته أنت أشبه بكلام الصوفية الذين يقولونه بوجوداتهم ، والوجدان ليس بدليل ، بل كثيرا ما يكون الوجدان كاذبا فلا دليل عليه ، وغاية الأمر أنك حليته بالعلوم الطبيعية وبعلم الإنسان والنبات والحيوان والمعدن ، لأنك لكثرة دراستك وتأليفك في هذه العلوم أصبحت فيك ملكة تضرب بها الأمثال ، فهل من مثال أقرب من هذا ؟ قلت نعم : أقص عليك مختصر ماقاله روح (غاليلى) المشهور حين أحضرتها الجمعية النفسية ، فهذه تسم منها رائعة تعرفك هذه الدرجات الأخروية ، وقد ذكرتها فيما مضى في هذا التفسير نقلتها من كتابي (الأرواح) ، فلنذكر ملخص مايناسب هنا ، فذكر :

(١) كيف تكونت مادة العالم للمشهد ؟ وذكر التجاذب والنظام ودوران الكواكب .
(٢) بين أن المجرة هي الأصل ، ومنها اشتقت شموس ، ومن الشموس شموس إلى شمسا فأرضنا قمرنا فأقمار زحل وحلقائه النيرة ، والنجوم ذوات الأذنان التي هي أشبه بالمفتشين على الشموس .
(٣) ثم ذكر أن هناك ألوفا من المجرات منتشرة في أقاصى العوالم ، كل مجرة فيها ملايين من الشموس وأبان أن شمسا لها أخوات يدرن معها حول شمس أخرى ، وهذه الأخرى لها أخوات يدرن جميعا حول شمس أخرى ، وهكذا إلى أن تنقطع الفكر ، فهي كدواليب آلة واحدة . ثم قال : إن المجرات أشبه بالجزائر في بحر الأثير العظيم .

(٤) ووصف القضاء والزمان فقال إنه لاحد له وكذب الفلاسفة الذين قالوا إن هناك حدا له ، وسخر منهم ، وقال : إنا إذا جمعنا ألوفا في ألوف من القرون والأحقاب لا يكون هذا العدد إلا نقطة زهيدة في الأبدية ، وإذا مضى من حياتنا الروحية عدد من القرون يوازي قدر ما يكتب على طول خط الاستواء فإنه ينقض هذا العدد الجسيم والنفس كأنها اليوم ولدت ، وإذا أضفنا إلى العدد المذكور سلسلة أخرى من الأعداد ممتدة من الأرض إلى الشمس أو أكثر فإنه ينقض هذا العدد الذي لا يدرك قياسه من القرون والنفس لا تتقدم يوما واحدا إلى الأبدية لما أهمية عمر الإنسان على الأرض .

(٥) وذكر أن الملايين من الشموس المخلوقة في المجرة القريبة حولها سيارات كسيارات شمسا ، وأن منها شموسا كنجم (سريوس) الذي يربو حجمه وجماله ألوفا من المرات على حجم شمسا ونورها ، وقال : إن هناك نجوما توائم مختلف وظائفها عن وظائف شمسا ، ففي السيارات المحيطة بتلك الشموس المثناة لاتمد السنون والأيام كما في أرضنا ، وأحوال الحياة فيها يتعذر على الناس تصورها ، ومن الشموس مالا سيارات لها ، إنما أحوال سكانها خير الأحوال .

(٦) وقال أيضا : إن البعد الشاسع بيننا وبين الأجرام القاصية لا يقطعه النور إلا في ألوف الألوف من

السنين ، وتصل أشعته لكم اليوم مع أنها ربما انبثت قبل خلق الأرض بأمد مديد . ثم قال : ففي هذه كما في غيرها تظهر حقارة الإنسان وعدم دنياه ، إنما سيأتي يوم فيه يبقى ذكر الأرض في ذهننا كظل بخاري بعد أن نكون قد تدرجنا أجيالا لا عدد لها إلى العوالم العليا ، ونحن نتأمل في المستقبل عند بلوغنا هذا الحد لا ترى نصب أعيننا إلا تعاقبا سرمديا من العوالم وأبدية ثابتة لا انقضاء لها . انتهى خاصة كلام روح غاليلى .

فلما سمع ذلك صاحى قال : يا عجبيا ! أهذا كلام الأرواح ؟ لقد أصبحنا في زمان ظهرت فيه العجائب المدهشة ، فقد كان الناس يتمنون لو يسمعون كلام الأموات ويسألونهم ماذا حصل لهم ، فإن صح هذا كان من أعجب الأعاجيب وأبدع الحكم ؛ وكان أقرب إلى تفسير لفظ المعارج ، فما هو ذا أظهر لنا أن العوالم درجات وأن منها ما لا نعلم بجعله كالألبان وبها ، وأن أرضنا الحفيرة في أثناء ارتقائنا بعد الدهور والصور لا تكون إلا ظلا في أذهانتنا ؛ وأن هناك حياة أرقى من حياتنا بما لا يتناهى كما كبرت شمسا عن أرضنا ؛ وكما كبرت شمس أخرى وفافت شمسا حجما وبها آلافا مؤلفة ؛ فالجمال والعظم لاحد له ولا حصر في العوالم طبقة فوق طبقة ، وجمال النظام في الحياة كذلك لاحد له ولا نهاية فظهرت المعارج في هذا المقام ظهورا واضحا :

ثم قال صاحى : ولعل هذه المعارج تكون لنا في حال البرزخ ، أما يوم القيامة فإننا نحشر ونجتمع في صعيد واحد وهناك يكون أمر آخر .

ثم قال : وبإيتم روح (غاليلى) روح مسلم حق كنا نصدق ما جاءت به ؟ فقلت له : الأرواح بعد الموت تطلع على مقدار استعدادها . والعلم مشترك بين الأمم . وإذا كنا نشك في قول الأرواح القرآنية فهذه نعمة على أمم الإسلام ليزدادوا علما بالبحث في العوالم ويحضروا الأرواح . وتكون لهم جميات عليية . وإذن يبحثون بأنفسهم ، ويجدون في أعمالهم ، ويعترون على ما لم يعرفه القرآنية . والله هو الولى الحميد . وبهذا تم تفسير (سورة المعارج) وذلك في يوم السبت ١٨ يونيو سنة ١٩٢٥ م والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة نوح

هى مكية

آياتها ٢٨ - نزلت بعد سورة النحل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ • قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ • أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا أَمْرًا • يَفْقِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُونَ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ •

قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا
 دَعَوْتُهُمْ لِنُفُورِهِمْ لِيَتَّخِذُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا
 اسْتِكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا *
 فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ
 بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا * مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ
 وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا * أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا *
 وَجَعَلَ الْفَجْرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا * وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا *
 ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لِتَسْلُكُوا
 مِنْهَا سَبِيلًا فِجَاجًا * قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا
 خَسَارًا * وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا * وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا
 وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا * مِمَّا
 خَطَبَيْنَا بِهِمْ أَنْعَرِقُوا فَادْخُلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا * وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ
 لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْنَهُمْ يُضِلُّوكَ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا
 فَاجِرًا كَفَّارًا * رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
 وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا *

مقاصد هذه السور اثنان

المقصد الأول : دعوة نوح عليه السلام لقومه ، وذلك من أول السورة إلى قوله « سبلا فجاجا » .

المقصد الثاني : كفرهم وعقابهم في الدنيا والآخرة ، وذلك من قوله تعالى : « قال نوح رب إنهم
 عصوني واتبعوا من لم يزد ماله وولده إلا خسارا » إلى آخر السورة .

أما الدعوة ففيها ثلاثة مباحث (البحث الأول) ترك الذنوب الإيجابية والذنوب السلبية بالاستغفار منها ، فالذنوب الإيجابية كمتاعى الحجر والزنا والقتل ، والذنوب السلبية كترك العلوم والصناعات ، فإذا تركوا هذه الذنوب كلها أو جلها أكثر الله لهم اللال والبين والبسانين والأنهار ، وذلك من أول السورة إلى قوله « وقد خلقكم أطواراً » .

(البحث الثانى) : النظر فى خلق السموات والأرض والأنوار ، وذلك قوله تعالى : (ألم روا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً . وجعل القمر فى نوراً وجعل الشمس سراجاً) .

(البحث الثالث) : النظر فى خلق الإنسان ، وأنه مخلوق من الأرض كما يخلق النبات ، والنظر فى أن الأرض مسخرة لنا لتصرف فيها كما نشاء تصرفاً تتمكن به من كل ما نحتاج إليه فى حياتنا ، وذلك من قوله تعالى : (والله أنبتكم من الأرض نباتاً) إلى قوله (سبلاً نجاة) .

المقصد الأول : دعوة روح تقومه

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك) أى بالإنذار (من قبل أن يأتيهم عذاب أليم) الطوفان وعذاب الآخرة (قال يا قوم إني لكم نذير مبين) أى أنذركم وأبين لكم (أن اعبدوا الله) وحده (واتقوه) بأن تفعلوا الطاعات وتتركوا المعاصى (وأطيعون) فيها أمركم به من العبادة والتقوى (يغفر لكم من ذنوبكم) أى بعض ذنوبكم ، وهى السابقة (ويؤخركم إلى أجل مسمى) أى إلى منتهى آجالكم فلا يعاقبكم (إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون) .

اعلم أن الأنبياء جاءوا لإصلاح الأحوال فى الدنيا والآخرة ، فهم يريدون نظام الحياة ونظام المات ؛ ولما كان نظام الحياة يكون أرقى وأجمل فكما استقامت الأمم وانتظم شملها كانت الأموال فيها أوفر إذا تم نظامها ، والأعمار تكون أطول والصحة أتم والأنهار أجمل ، والبسانين أكثر على مقتضى النظام الموضوع فعلى مقدار النظام يكون المناء والسعادة فى الحياة ، فمن فرط فى صحته بأن أكثر من المآكل الضارة أو ترك الغذاء حتى هلك ، ومن قلت مزارعهم وتجاراتهم قتل غذاؤهم قصرت أعمارهم على تلك النسبة ، ولذلك كلما أكثر الجذب فى الأمم قل التناسل ، وكلما عم الحصب أكثر النسل ، ولا ريب أن طول الأعمار وقصرها يرجع لأسباب أكثرها مجهولة للناس ، والمعلوم منها المحافظة على الصحة ، ووفرة الغذاء ، والنظافة وما أشبه ذلك ، فأما مالا يعلم فهو عند الله تعالى لا يطلعنا عليه ، فهاهنا رتب على التقوى والطاعة أن تغفر ذنوبهم ، وأن تؤخر آجالهم ، ومتى جاءت الآجال التى حددها الله لهم لا تؤخر لحظة ، فالتقوى والطاعة يؤثران هذا الأثر ، وهو طهارة الأرواح وبقاء الأشباح إلى أمد محدود ، لأن التقوى منها حفظ الأمن والمسايرة إلى اكتساب الفضائل واستنتاج مافى باطن الأرض من المنافع ، فالتقوى ترك الذنوب ، وذلك يجعل فى البلاد أمناً واسعاً ، والطاعة تشمل جلب المنافع المادية ، لأن الشكر على النعمة لا يتم إلا بعمرقتها وتقبلها من المنعم وصرافها فى وجوهها ، ومتى فعلوا ذلك طالت الأعمار إلى الأمد الذى يناسبها بعد انصراف الموانع بالتقوى والطاعات ؟ وما مثل العمر إلا كتل جواد محرقى فى ميدان واسع له نهاية ، وهناك قصة مركوزة فى آخره

علامة على نهاية الميدان ، والناس يسامون في ذلك الميدان إلى تلك القصة المفروسة ، فمنهم من يصادفه أثناء الجري فوق جواده الذي عبرنا به عن الضر من يقتله فيخر صريحا في أول الميدان ، ومنهم من يقتل بعد ذلك وهكذا ، ولا يصل إلى آخر الميدان إلا من لم يصادفه في الطريق قاتل له ، أولم يسقط فيموت هكذا الناس في الحياة يسرون إلى النهايات ، فإذا منعتهم الموانع هلكوا ، وهذا مشاهد في الدنيا كالأمة المصرية فإنها في القرن الماضي لم يكن فيها إلا مليونان أو يزيدون ، فلما جاء الخديوي (محمد علي) نظم قناطرها وجسورها ، فقامت مائة سنة ونيف حتى وصلت إلى ١٤ مليوناً ، كل ذلك لحسن النظام وإقامة الترع والجسور والأمن في البلاد ، فإذا جعل الله غفران الذنوب وطول الأعمار مرتبين على الطاعة فهو من هذا القبيل ، لأن الطاعة فيها الأمن في البلاد وعدم ترك المواهب الجسمية والنفسية والأرضية ، وإياك أن تسمع ما يخرج به العامة والجهلاء وصغار العلماء أن العمر محدد ، فتخصيص العمر منهم جهل فاضح ، لأن التحديد ليس خاصا بالعمر بل التحديد يشمل كل شيء في الوجود ، بل حركات الكواكب والأقمار والشموس وأقواس الإنسان فسكها مقدرة ، فتخصيص التقدير بالعمر غلط وخطأ فاحش ، فإله قادر كل شيء فكيف يخصصه الجهلاء بالأعمار والله قدرها وقدر غيرها وكتبها عنده لم نطلع عليها وأمرنا بالسمي والطلب ، فمن سعى كما أمره الله فإن هذا السعي وافق علم الله القديم فإنه ينال نتائج هذا السعي فيطول عمره إلى الأمد المحدد وتزول الموانع فلا يموت كما قدر هو في لوحه المحفوظ ، ومماثل النصائح التي جاءت من الديانات والحكام والعلماء في الأمم إلا كمثل طلع النخل وطلع الأشجار الأخرى ، فإنه لا يتناول الإحصاء ، والذي يصادف الزهرات الإناث جزء قليل جدا ، وهذا الجزء القليل به ظهرت الثمرات وسعدت الحياة ، هكذا نصائح العلماء والحكام والديانات كثيرة جدا ، ولكن الذي يعمل بها قليل ، ومن عمل بها وافق عمله ما كتب له ، والذي لم يعمل عرف بعد ذلك أنه قد كتب له أنه لا يعمل لغير الثمرات والمنافع التي ترتب على ذلك ، فأما من انكسر على القضاء ولم يعمل فذلك هو الخاسر الجهول الذي حكم عليه بالمذلة والهوان .

ثم قال تعالى (قال) نوح (رب إني دعوت قومي) إلى الإيمان (ليلا ونهارا) أي دائما (فلم يزدتهم دعائي إلا فرارا) عن الإيمان والطاعة (وإني كلما دعوتهم) إلى الإيمان والطاعة (لتنفروا) سببه (جعلوا أصابعهم في آذانهم) أي سدوا مسامعهم (واستمضوا ثيابهم) تغطوا بها لئلا يروني كراهة النظر سنا من فرط كراهة دعوتي (وأصرروا) على كفرهم (واستكبروا استكبارا) عن اتباعي (ثم إني دعوتهم جهارا . ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا) فكنت أعلن بأعلى صوتي ، ثم كررت لهم الدعاء معلنا ، فكنت أسر الرجل بعد الرجل أدعوه سرا لعبادتك وتوحيدك ، ثم بين ما كان يقول فقال (فقات استغفروا ربكم) والاستغفار من الذنوب الإيجابية كالقتل ، والسلبية كترك العلوم اللازمة لنظام المجموع التي هي فرض كفاية تسكنفي بها الأمة عن غيرها فتعرفون ما يناسب زمانكم من العلوم والصناعات فإن تركتم ذلك أتمت الأمة كاهها ، وإن استغفرتم يغفر لكم ربكم (إنه كان غفارا) للتائبين (يرسل السماء عليكم مدرارا) يرسل المطر عليكم متتابعا ، وإطلاق السماء على المطر جاء في قول الشاعر :

إذا نزل السماء بأرض قوم غلوا حينما نزل السماء

وقول الآخر :

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضايا

(وبعدهم بأموال وبنين) أي يكثر أموالكم وأولادكم (ويجعل لكم جنات) بساتين (ويجعل لكم أنهارا) وهذه هي نعم الدنيا التي يعمل لها الإنسان ، ومن ههنا شرع الاستغفار في الاستسقاء ، ويقال : إن

الحسن شكرا رجل إليه الجذب . فقال له : استغفر الله ، وشكرا آخر الفقر وقلة النسل ، وآخر قلة ربح أرضه فأمر الجميع بالاستغفار ، فمثل عن ذلك ؟ فتلا هذه الآية ، ولعل تكرار الاستغفار كما يدعو الله نوب يستمد للمستغفر من ذكر الله فيه قوة تعينه على جلب الصالح ودفع المضار ، والله أعلم ، وقد بينت لك الحقيقة آنفا . وبعد أن أدبهم الأدب العملي من حيث تهذيب النفوس ، ومكارم الأخلاق ، وتحلية النفس بالأعمال الإنسانية والدينية التي أشار إليها الاستغفار شرع يؤدبهم الأدب العلمي بدراسة علم التشريح والنفس والعوالم العلوية والسفلية فقال : (ما لكم لا ترجون لله وقارا) أي ما لكم لا تخافون لله عظمة ، أولا تمتدنون له عظمة فتخافوا عصابه ، فالرجاء إما بمعنى الخوف مجازا ، وإما بمعنى الاعتقاد المناسب بينهما وكيف لا تخافون عظمته (وقد خلقكم أطوارا) أي تارات وكرات ، فكنتم نطقا في الأرحام ، ثم صرتم علقا بعد أيام ثم مضوا تحير الأفهام ، والمضغ قد غيرت إلى عظام ، وعلى العظام اللحم « أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » .

واعلم أن الأطوار المذكورة قد وضحت في سور كثيرة كسورة آل عمران وسورة المؤمنين وغيرها في التفسير ، وهذا هو النظر في الأنفس ، ثم أتبعه بالنظر في العالم العلوي فالسلفي فقال (أمروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا . وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا) فهي كالسراج تزيل ظلمة الليل . واعلم أن كون السموات سبعا طباقا بعضها فوق بعض . والسكلام على القمر والشمس قد مر السكلام عليه في سور كثيرة من هذا التفسير . ففي سورة الفاتحة الإجمال . وفي البقرة وآل عمران تفصيل . وهكذا سور كثيرة فارجع إليه (والله أنبتكم من الأرض) إنباتا فنبتم (نباتا) وذلك أنكم تنمون كما ينمو النبات وتلدون وتعمتون ورؤوسكم المرفوعة إلى أعلى كراس النبات للبروسة في الطين ، وبديكم وأرجلكم كأفوع النبات ، وللطلع على عروقكم وتشمعها وجرى الدم فيها وانتشارها في أطراف الجسم يراها مشابهة لما في الشجرة جذورا وفروعا وورقا ، فأنتم نبات مقلوب ، وأنتم في أخلاقكم وأحوالكم مشابهون للنبات في اختلافه فنكم الحلو واللر ، والطيب والحبيث ، واستعدادكم مختلف كاستعداد النبات ، فلكل أمر خاصة كما لكل نوع من النبات خاصة ، والعلوم والصناعات مقسمات على قواكم المختلفة كما قسمت للنافع من اللباس والطعام والفاكهة والدواء على أنواع النبات ، وكما أن كل نوع من النبات إذا قد ذهبت خاصته على الناس وتمطلت النافع الناتجة منه ، هكذا لكل جيل ولكل أمة ولكل فرد خاصة ومنفعة ، فإذا عطلت فقد فانت للنفعة على الأمة وعلى النوع الإنساني ، وكان نقص الأمة وذلكها على مقدار ضياع تلك النفعة ، فإذا لم يكن في الأرض نبات القطن ، أو لم يكن فيها نبات الحنطة مثلا اضطر الناس ألا يلبسوا إلا من جلود الأنعام وأصوافها ورجعوا إلى العهد الأول فتأخروا في مدينتهم وتقدمهم ، وأيضاً رجعوا إلى أكل نبات الأرض والذرة وذهبت منافع القمح عليهم ، وحصل في الناس بعض الضيق بفقد القمح ، هكذا النوع الإنساني إذا عطلت طائفة منه فلم يتم بما وجب عليها وما يؤهلها له استعدادها نقص النوع الإنساني أو الأمة للقصرة وضعف على مقدار ذلك النقص (مثال ذلك) الأمة الإسلامية اليوم : إنها عطلت نصف مجموعها ، وهن النساء ، فلم يظن العلم ، وقد علموا أن الناس كلهم يملون بناتهم وهكذا عطلوا الصناعات فلم يقوموا بها : أي إن الرجال الذين خلقوا على استعداد آتم بفطرمهم في المسلمين لصناعة البارود مثلا ونسج الأقمشة وصهر المعادن قد عطلوا عن عملهم . لأنهم لم يروه ولم يمرض عليهم لذلك أصبح نقص الأمة على مقدار النقص المذكور كما يتأخر النوع الإنساني بفقد القطن والحنطة فهذا معنى قوله : « والله أنبتكم من الأرض نباتا » فقد جمع هذه المعاني ، ولقد أجمع علماؤنا رحمهم الله : أن العلوم والصناعات فرض كفاية ومعنى هذا أن الأمة كلها تعاقب

على التهاون بها وعدم إبرازها للوجود كعقاب النوع الإنساني بفقد القطن والقمح ثم يوم القيامة يؤخر المجموع الإسلامي عند الله بقدر تأخره عن تلك الصناعات . وللسلمون اليوم آثمون بإجماع علمائنا والإثم ظهر له أثر في الدنيا بتسلط الفرنجة علينا وسيظهر أثره يوم القيامة على هذه النسيبة وإذا قال المسلم : لا لا أنا مسلم فلتقل له إنما أنت مغرور : « وغرم في دينهم ما كانوا يفترون » ارجع إلى هذا المعنى في سورة (آل عمران) .

وأنت أيها الذكي القارى لهذا التفسير فلتكن من القائمين بأمر من حولك من الأمة لأنك عرفت الحقيقة وإياك أن تقصر وإلا كان إنك أشد من الذين لا يعلمون وهذا أمر سيئم ويعلو أمر هذه الأمة علوا عظيما فقم واصدع بالأمر واجهر بما عرفت وثق بأن الأمر سيكون وسترتقى هذه الأمم الإسلامية . هذا هو المستفاد من قوله تعالى (والله أنبتكم من الأرض نباتا . ثم يعيدكم فيها) مقبورين كما يعيد النبات (ويخرجكم إخراجا) بالحشر ثم أخذ يشرح السم التي أعدها للإنسان في الأرض من سائر وجوه المنافع وأنها مهياة للإنسان طائفة له مسخرة كتسخير البساط للرجل يتقلب عليه كما يشاء إشارة إلى ما قدمنا من أن عليه أن يظهر مواهبه ، ولا ظهور للمواهب في القوى الإنسانية إلا بالتسلط على الأرض وخيراتها فقال (والله جعل لكم الأرض بساطا) تتقلبون فيها بخلاف النبات فإنه خاضع لما هو فيه قانع بما حوله من غذاء وهو مكثف به ، أما أنتم فليست كذلك ، بل جعلت الأرض لكم (لتسلكوا منها سبلا فجاجا) واسعة جمع فج : أى لتتخذوا منها سبلا فجاجا ، وإنما اقتصر على اتخاذ السبل لأنه أظهر أنواع الاتخاذ ، وإلا فالأرض جعلت لنا لمنافع لا تحصى ولا يزال الناس يجدون في استخراجها اليوم وبعد اليوم .

وهذه الآيات أرتنا أن نوحا عليه السلام يأمر قومه بعلوم الأتس وعلوم الآفاق من المدن والنبات والحيوان والإنسان والسموات والشموس والأقمار ، وجميع منافع الأرض .

ولعلك تقول : لماذا تذكر هذا القول عند كل مناسبة ؟ أقول : لست أنا الذي قلت وإنما الله هو الذي قال ، فعملك تقول الله ذكر الإجمال فما هذا التفصيل ؟ أقول لك : لماذا يؤلف آباؤنا الأولون علما برمتهم على آيات الميراث ، ولماذا يؤلف آباؤنا كتبنا مستقلة في الوقف مع أنه لم يرد إلا في الحديث لماذا يجعلون للطهارة كتابا يسمونه (كتاب الطهارة) وإنما ذلك لأجل آيات محدودات ، ولماذا يقولون (كتاب الحج) مع أن الحج ليس له إلا آيات محدودات ، فلماذا تجيز تأليف كتب ملأت الشرق والغرب ، ومذاهب متشعبة في علم الفقه المبني على مائة وخمسين آية ولا تجيز أن أكتب صفحات معدودات على ما يبلغ ٧٥٠ آية في القرآن اللهم إن أمتنا الإسلامية غفلت غفلة عظيمة ، ونامت نوما عميقا ، اللهم إني قد عملت جهدي وأديت الأمانة إلى أهلها ، وأنت أعنتني على تأليف الكتاب ، وأنت الذي نشرته ، فلك الحمد ، وإني أرجو منك أيها الذكي أن تبث الدعوى في هذه الأمة التي لا نصير لها ولا معين ، ولم تجد من يوضح لها الأمر ، ولو أن الأمة رأت من يعرفها الحقيقة لكانت أول أمة على سطح هذه الكرة ، وسيكون هذا إن شاء الله تعالى . وهذا هو نهاية الكلام على المقصد الأول من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

المقصد الثاني

قال تعالى (قال نوح رب إنهم عصوني) فيما أمرتهم به (واتبعوا من لم يزد ماله وولده إلا خسارا) أى واتبعوا رؤسائهم الذين بطروا بأموالهم ، واعتروا بأولادهم ، فكان ذلك ازديادا لخسراهم في الآخرة وهكذا الذي اتبعهم خيرا مثلهم . وعطف على (من) قوله (ومكروا مكرا كبيرا) أى كبيرا عظيما

جدا . فهم يخالون في نبد الدين بحيل عظيمة . ويحرضون الناس ويحرضونهم على مقاومة دعوة نوح وإيذائه (وقالوا لا تذرنا آلهتنا) أى عبادتها (ولا تذرنا ودا ولا سوانا ولا يوث وبعوق ونسرا) هذه الأسماء الخمسة كانت أعظم للعبودين عند قوم نوح . وقد كانوا قوما صالحين فى الأزمان بين آدم ونوح فلما ماتوا كان أتباعهم يقتدون بهم ويأخذون بعدهم بأخذهم فى العبادة . ثم زين لهم الشيطان أن يصوروا صورهم . ففعلوا ظانين أن هذا أنشط للعبادة وأشوق لها . ثم لما طال الزمن عبدوا نفس تلك الصور فهذا مبدأ عبادة الأوثان . وإن أردت المزيد فارجع إلى (سورة البقرة) تجد المقال مفصلا فيها . فترى هناك كيف كانت عبادة الصابئين موجهة أولا للملائكة . فالسكواكب . فالأصنام فى الأرض . ويقال : إن الأصنام التى عبدها قوم نوح صارت تعبد عند العرب :

القبيلة	الصنم
كلب بدومة الجندل	ود
هذيل	سواع
مراد وبنى عطف بالجرف عند سبأ	بعوث
همذان	بعوق
حمير : آل ذى الكلاع	نسر

يقول ابن عباس : « هذه أوثان دفنها الطوفان فاستخرجها العرب فعبدها » وهناك أصنام أخرى هذا بيانها :

القبيلة	الصنم
تقيف	اللات
سليم ، وغطفان ، وجشم	العزى
خزاعة ، بقديد	مناة
لأهل مكة	إساف
» »	نائلة
» »	هبل

ثم قال تعالى (وقد أضلوا كثيرا) أى أضل الرؤساء ، أو الأصنام (ولا تزد الظالمين إلا ضلالا) أى إلا هلاكا ، وقد بينه تعالى فقال (مما خطيئتهم) أى من أجل خطيئتهم ومازائدة (أغرقوا) بالطوفان (فأدخلوا نارا) وهو عذاب القبر وعذاب الآخرة (فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا) وقد كانوا يظنون أن الآلهة أنصارهم ، غاب فآلهم ، وضل سعيهم (وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا) أى أحدا وهذه الكلمة تستعمل فى النفي العام (إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ، ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا) ولم يقل ذلك إلا بعد تجربتهم أجيالا (رب اغفرلى ولوالدى ولمن دخل بيوتى) منزلى أو مسجدى أو سفينتى (مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات) أى يوم القيامة (ولا تزد الظالمين إلا تبارا) أى هلاكا . انتهى تفسير (سورة نوح) والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة الجن

هي مكية

آياتها ٢٨ - نزلت بعد سورة الأعراف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى
 الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا * وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا
 وَلَدًا * وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا * وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ
 عَلَى اللَّهِ كَذِبًا * وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا *
 وَأَهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا * وَأَنَا لَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُيَبَّتًا
 حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا * وَأَنَا كُنَّا نَقَمُدْ مِنْهَا مَفَاقِدَ لِّلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ
 شِهَابًا رَّصَدًا * وَأَنَّا لَأَنْذِرِي أُمَّةً أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا *
 وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا * وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَنْ نُعْزِرَ اللَّهُ
 فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا * وَأَنَا لَأَسْمِعُنَا الْهُدَى، آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ
 بَخْسًا وَلَا رَهَقًا * وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا *
 وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا * وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً
 غَدَقًا * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا * وَأَنْ الْمَسَاجِدَ
 لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا * وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا *
 قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا * قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا * قُلْ
 إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا * إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ
 وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا * حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ

فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا * قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ مَا تُوْعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ
رَبِّي أَمَدًا * عَالِمِ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ
يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا * لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا
لَدَيْهِمْ وَأَخْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا *

مقدمة في ملخص هذه السورة

ذكرت هذه السورة بعد سورة نوح لأن فيها تفصيلا لإجمال سبق هناك . وذلك أن سورة نوح فيها :
« استغفروا ربكم إنه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، وندمكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات
ويجعل لكم أنهارا » .

فالنوبة والاستقامة ونظام الأمة يعقبه المال والبنون والجنات والأنهار ، فرمما ظن الناس أن الله إذا
أعطى هذه النعم فقد رضى على الناس ، فقبل في سورة الجن . كلا . ثم كلا . إنا أموالكم وأولادكم وأنهاركم
وبساتينكم فتنة ، فلا فرق عندنا بين الخير والشر في الابتلاء ، فنحن نبتلى بالشر ونبتلى بالخير ، وهذا في
قوله تعالى : « وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا لفتنهم فيه » فكأنه يقول ، ليس الجنات
والأنهار والأموال والبنون المذكورة في سورة نوح نعمة من غير قيد بل هي اختبار للناس وامتحان لهم ،
هذا ما يقال في المناسبة بين السورتين .

الكلام على تسمية السور

اعلم أن الله عز وجل سمى السور بأسماء تبعث على النظر وتوجب التفكير ، فسمى بالأنعام وبيعضها
كالبقرة ، وبالحيوانات الصغيرة ، وهى الحشرات كالنمل والنحل والعنكبوت ، وبما هو اللطيف من ذلك كالنور
كما سمى ببعض الأنبياء كيوسف ويونس وهود ، وبيعض الأخلاق كالتوبة ، وبيعض الكواكب العلوية ،
كالشمس والقمر والنجم ، وبيعض الأوقات كالليل والفجر والضحى ، وبيعض المعادن كالحديد ، وبيعض
الأماكن كالبلد والبروج ، وبيعض النبات كالنخيل ، وبكل شئ مما نراه وما لا نراه ، فهنا سمى بعالم غير
هذه العوالم كلها ، وهو عالم لا نراه وهم الجن ، وهذا العالم لم يعرف في دين الإسلام إلا من طريق الوحى ،
وليس للمقل عليه من دليل ، ولقد أصبح العالم المستتر عنا اليوم هو الشغل الشاغل لنوع الإنسان ، وظهرت
آيات الله الكبرى فى الكرة الأرضية ، وأصبح العلماء فى أوروبا يحدون فى مباحث هذه العوالم ، راجع
ما كتبناه فى [سورة البقرة] وقرأ ما هنالك تجد الأمم كلها تدرس عالم اللائكة والجن ، ويظلمون على
عوامض هذه العوالم ، ولقد نقلنا كثيرا فى هذا التفسير من عجائب هذه العوالم ، ولقد حدث الناس أرواح
أصحابهم الذين ماتوا ، واتصل العالم الإنسانى بالعالم الجنى ، وبالعالم الأرواح الطاهرة وهم اللائكة ، فإذا سمى
الله سورة بهذا الاسم فمعناه أنه قد أعطى هذا العالم الحقى عنايته وسمى السورة باسمه كما اعتنى بالحديد وهو
نوع من المعادن فسمى باسمه ، وهكذا توجهت عنايته عزته وقدمه إلى النور وأنواع الحيوان والنبات
والأوقات المختلفة ، وبكل شئ نراه ولا نراه لنجد فى البحث عن المعادن كلها وعن حساب الزمان ، ولا يكون

هذا إلا بالعلوم الرياضية ، ولنجد أيضا في علم النبات والحيوان (وبعبارة أخرى) نلم بعلوم هذا العالم ، وهكذا فلنجد في علم الأرواح كما جد فيه العالم الغربي .

اللهم إنك أنت الذي سميت هذه السور بهذه الأسماء ، سميت لهم أسماء الأشياء المتنوعة على الأرض حيوانا ونباتا ، وفي باطنها من المعادن ، وفي الجو كالرعد ، وفي السماء كالشمس والقمر والنور ، وكالأوقات المختلفة ، ثم إنك تجاوزت عالمنا وسميت باسم عالم الجن ، ذلك لنتحدث على البحث في علم الأرواح ، فماذا جرى؟ نام المسلمون الذين أنزل عليهم الكتاب وحثهم على هذا ، وقام بهذه الأعمال كلها الذين لا يؤمنون بهذا الدين ، فبالت شعري : أمستيقظ المسلمون أم نيام ؟ إن المسلمين اليوم وقبل اليوم بعد العصر الأول نيام . تالله ما نزل القرآن لمجرد التلاوة ، نزل القرآن للعلم ، فإذا بحث المسلم عن شروط الصلاة وأركانها وعن فروض الوضوء ، فما بحث إلا في مقدمات معرفة الله لافي معرفة الله ، لأن الوضوء لأجل الصلاة ، والصلاة لأجل حضور القلب ، وحضور القلب لتذكر الله ، وتذكر الله يعد القلب للعلم ، فالعلم إذن هو الغاية ، فكيف اجتهد المسلمون في المقدمات وشغلوا عن العلوم التي هي أشبه بالغايات ، فعلم الفلك والنبات والمعادن والنور والظلام وعلم الأرواح هي العلوم المرقية للمجتمع ، الهادية للفكر ، المرقية للعقل ، التي تجلو الأنظار ، وتقبل العثار ، وتنفع الأهل والجار ، وتدفع العار ، وتوقظ النوام ، إن علم الجن وعلم الأرواح يورث اليقين بالله وباليوم الآخر ، ويحدث في النفس أنسا وإتهابا وانشراحا ، وسرورا وإيقانا ، وراحة وطمأنينة :

سمى الله سورة باسم الجن ليوقظ المسلمين لتعلم علم الأرواح ، وكأن الله ذكرها لايقاظنا نحن في هذا الزمان ، لاستكناهم الحقائق ، ومعرفة الدقائق ، والوقوف على الرقائق ، والإيقان بأن الموت إنما هو انتقال من حال إلى حال ، فلا تعظم على المرء سطوته ، ولا تحيفه سكرته ، ولا تزعجه زرعته ، ولا تضيق به ساحته ، بل يستقبله بقلب مملوء بالأمال ، فارغ البال ، فرح بملك العقال . ولعلك تقول كيف أدرس هذا العلم ؟ وكيف أخطب علم الجن وعالم الملائكة ؟ وأين هذا العلم ؟ .

أقول : قد ألفت فيه كتابا سميته [كتاب الأرواح] وذكرت فيه ما جربه القوم في أوروبا ، وكيف أحضروا الأرواح ، وما الشروط ، وما الواجب على الإنسان في ذلك ؟ وما فوائد هذا العلم ومضاره ؟ .

وأنت إذا اطلمت عليه أمكنتك استحضار أقاربك وأشياخك إذا راعيت الشروط وكنت صادق النية للعلم لا المال ، فإنك تجاب إلى طلبتك وتخطبك الأرواح كما خاطبت الأوروبيين كما نقلنا بعض العلوم التي ألفتها الأرواح عليهم ، وسأذكر إن شاء الله تعالى ملخص منهج الكتاب في آخر تفسير هذه السورة لتعرف إلى أي حد وصل نوع الإنسان فيما قصر فيه المسلمون مما حثهم عليه كتاب ديننا المقدس ، وكيف كان غير المسلم هو الذي بحث في مقتضى أسماء هذه السور ، والمسلم هو الذي لم يمن بشيء منها ، وهو النائم قديما المستيقظ الآن ، وسيزيد استيقاظا بنشر العلوم والآراء بين الأمم الإسلامية خصوصا والشرقية عموما .

ثم اعلم أن علماء نارحهم الله قد ذكروا أن الجن أجسام عاقلة خفية تغلب عليهم البارية ، ومن قال منهم إنهم أرواح مجردة فهو لا ينافي ما تقدم ، لأن الأرواح المجردة منها ما هو أقرب إلى عالم المسادة ، وهم هؤلاء الجن ، ومنهم من هو أقرب إلى عالم الروح : أي أنه خلص من المسادة ، وهم المسمون ملائكة ، ومنهم من قال : إنهم هم النفوس البشرية التي ماتت ، وهذا لا ينافي القولين السابقين ، لأن النفوس البشرية من كان منهم أقرب إلى الشر وهو عالم المسادة وذنوبه وشروره فهذا يسمى جنا ، ومن

كان منهم يقرب من عالم الأرواح المجردة تجريدا تاما ، فهو ملحق بالملائكة كما قال تعالى : « يوم يقوم الروح والملائكة صفا » .

فها هنا عالمان خفيان : عالم أقرب إلى الجهالة ، وهم الجن . وعالم أقرب إلى السكّان ، وهم الملائكة ومن يقربون منهم .

ثم إنه قد جاء في علم الأرواح أن الأرواح الجاهلة تحب التقرب من بنى آدم وتستمتع أحاديثهم ، وبيانه أن الأرواح التي فارقت أجسادها من بنى آدم قسمان : قسم ارتقى في الدنيا ، فهو إذا خلص من هذا العالم الأرضي استعد لتلقى من عالم الملائكة ، لأن روحه قد استعدت بالمواهب التي نالها في الدنيا للتلقى عن عالم أرقى من عالم الإنسان ، وقسم مات جاهلا لا يدري من هذا الوجود إلا ما عسى حاجته ، فهذا لا يمكن أن يعقل عن الملاّ الأعلى ، فهذا يرجع إلى عالم الإنسان : لأنه أقرب إليه ، ويفهم ويعقل ما يقال من الآدميين ، لأنه لا يعرف غيرهم ، فأما العوالم الأخرى فهي محجوبة عنه كما حجبنا نحن عن عالم الملائكة المحيطين بنا الآن ، وهكذا حجبنا عن رؤية الله وهو معنا ، وحجبنا عن أن نعرف أن هنا كهرباء قبل كشنها مع أنها في أجسامنا وتحيط بنا ، هكذا تلك الأرواح التي ماتت ناقصة بسبب السكرياء أو الطمع أو الشره فإنها لا يمكنها أن تقابل الأرواح السكاملة للتلقى عنها فترجع إلى بنى آدم وتتقرب منهم كما ترى الطفل يفهم من الطفل ، وزئى المرأة الجاهلة لا تعقل إلا من جاهلة مثلها ، فهكذا الأرواح الناقصة لما كانت محبوسة عن التعلم من العالم الذى هو أعلى منها اضطرت أن تسمع الكلام الذى يقال لأهل الأرض وتعاشرهم وتعقل كلامهم .

فإذا سمعت ابن عباس يقول : إن الشياطين حيل بينهم وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب ، وأنهم رجعوا إلى قومهم وقالوا لهم حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب ، وأن قومهم قالوا لهم : ماذا لك إلا من شئ حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغارها ، فانظروا ما هذا الذى حال بيننا وبين خبر السماء ؟ فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغارها ، فمر نفر الذين أخذوا نحو تهامة بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو بنحلة عامدين إلى سوق عكاظ ، وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن استموا له وقالوا هذا الذى حال بيننا وبين خبر السماء ، فرجعوا إلى قومهم فقالوا : « يا قومنا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشاد فأمانا به ولن نشرك ربنا أحدا » فأزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم « قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا » الخ .

إذا سمعت هذا القول أو نحوه في البخارى ومسلم عن ابن عباس فاعلم أن هذا هو الذى أظهره علم الأرواح الحديث ، لأن الأرواح الناقصة هي التي تأخذ من الإنسان لقربها من العالم الأرضي ، وهي بطبيعتها ممنوعة عن عالم الملائكة ، فلا يجوز لها ولا يتسنى أن تفهم عن العوالم العلوية إلا اختلاسا كما ترى أهل الأرض ، فن العامة ينعون من حضور الدروس مع التلاميذ الذين استعدوا لدروس الهندسة والعلوم الأخرى ، والتمع تارة يكون طبيعة العامة ، لأنهم لا يعرفون ما يقال فيتنحون ، وتارة بنظام المدارس وطرد من لم يكن من أهل الفن ، والعالم كله على وتيرة واحدة ونظام واحد ، فالأعمى في الدنيا الجاهل لا يناله حظ ما لم يستعد له إما بأنه هو يتركه ولا يقرب من المشتغلين به لأنه لا يفهمهم ، وإما أنهم هم يترددون عن مجالسهم كأهل الأرض ، فهذا القانون عام في الأرض من أول خلق الإنسان عليها ، إذ لا يعطى الشئ إلا لمستحقه فهذا هو طرد الشياطين عن استراق السمع وذكر الشهب وأنهم يحترقون بها إما حقيقة وإما ضرب مثل لما ذكرناه كما في أحوال أهل الأرض .

ولما أرسل صلى الله عليه وسلم وكان للأرواح الناقصة بعض الوجهة في الاستماع من بعض الملاّ الأعلى

ما قد يتفهمون به كالمواعظ التي يتلقونها اختلاسا منعوا من تلك الدروس فعلا . وذلك لإيقاظهم إلى ما حصل في العالم الإنساني الذي هم أقرب إليه فيفهمون منه أكثر مما يفهمون عن الملا الأعلى ؛ ونبينا صلى الله عليه وسلم وإن كان هو نفسه مع الملا الأعلى تعالجه بقولها لأهل الأرض، وأهل الأرض يفهمونها ، فذلك يفهمها من هم أقرب إليهم ، وهم الأرواح الناقصة ، فهذا تفسير هذا المقام وإيضاحه بحسب ما ظهر من علم الأرواح :

وقد جاء في هذا العلم أن الأرواح بعد الموت تسير في الطريق التي سارتها في الحياة ، فإن كانت ناقصة لازمتها النقص ، وإن كانت كاملة لازمتها الكمال ، وهذه الناقصة قد تتجرد من بعض نقائصها بالصائح التي تسمعها من الناس أو من عالم آخر إذا استعدت لذلك ، وهذا من أعجب العجائب أن يأتي القرآن ويكون الكشف الحديث مطابقا له ، ساريا على نهجه . . .

يا للعجب ! سورة الجن سورة لا تعرفها . تقول ، وتبقى في أمة الإسلام ألفا وثلاثمائة سنة وعشرات السنين تتلقاها أمم عن أمم ، وأجيال عن أجيال ، ثم يأتي هذا العصر فتظهر الحقائق .
يا عجب ! إن هذه من السمعيات ، وهي التي لا دليل عليها من العقل ، ثم إنها تبقى محفوظة مقررة حتى يأتي وقتها وتظهر في أوروبا ، يظهر في أوروبا أن الأرواح الناقصة تسمع كلام الناس وتهتدي به ، وأنها لا تعرف ما فوق طاقتها فلا تهتدي بهدي الأرواح العالية ، فيكون العالم من أهل الأرض أو التي قد ارتقت في العلم والأرواح الناقصة المجردة من الأجسام لم تبلغ مبلغ ذلك العالم أو ذلك التي فتتعلم منه ، وتكون تلك الأرواح أشبه بالآباء الجهال إذ يسمعون من أبنائهم المتعلمين العلم ، وحال الأرواح الناقصة بعد الموت هي حالهم للشاهدة في الدنيا ، فإننا نرى الجهال لا يجلسون في مجلس العلماء إلا قليلا في حال ما إذا نزل العلماء لإصلاح حالهم ، وفيما عدا ذلك نجد مجالس التعاليم في أماكن خاصة لا يسميها سوامم ، ولا يظهر من العلم للعامية إلا شذرات قليلة جدا ، فهم في حياتنا الدنيا ممنوعون من السمع ، وقد يشتد النع إذا كان في سماعهم للعلم مفسدة كما نرى في كل دولة أسرار أعمالها الخفية ، وهم يكتفون ما يعلمون في مصالح الحكومة عن الشعب إلا إذا صار ذلك أمرا نافذا فيظهرونه ، وكما نرى أدم كلها شرقا وغربا لها خطط سياسية مكتوبة مكتومة بين أرباب الدولة ، ومن أفضى سرا منها لغيرهم حاكموه ، فهذا منع من السمع في الدنيا ، وبعد الموت له نظائر ، إذن كل هذا لحفظ الدرجات ونظام المجموع ، بل اللاتسكة أنفسهم درجات «وما من إلا له مقام معلوم» وتلك الدرجات هي العاريج ، فالمنع من السمع لحفظ العاريج لأربابها ، فلنشرع الآن في تلخيص السورة ، ثم تفسير الألفاظ ، ثم تأتي بشذرات من علم الأرواح فنقول : ان الذي ذكر في معرض أقوال الجن ١٦ حكمة وهذا نصها :

- (١) إنهم سمعوا كتابا بديعا ، وهو القرآن يهدي إلى الصواب ، فأمنوا وتركوا الشرك .
- (٢) وأن الرب تعالت عظمته لم يتخذ زوجة ولا ولدا كما يقول كفار الجن والإنس .
- (٣) وأن الجهال من الجن كانوا يقولون قولاً متجاوزاً الحد في البعد عن الصواب بالنسبة لله تعالى .
إذ ينسبون له الصاحبة والولد .
- (٤) وأنهم ما كانوا يظنون أن أحدا يكذب على الله بنسبة الصاحبة والولد إليه لاعتقادهم بصدق من يقولون هذا القول من الجن والإنس : وهذا هو عذرهم في اتباع هؤلاء الكاذبين الذين غشوم .
- (٥) وأن رجالا من الإنس كانوا يستعيذون في الفقر برجال من الجن فزاد الجن الإنس ضلالا باستعادتهم بهم لظنهم أنهم يعيدونهم .

- (٦) وأن الجن ظنوا كظنكم أيها الإنس أنه لن يبعث الله أحدا .
- (٧) وأن الجن طلبوا خبر العالم العلوي العبر عنه بالسماة فثمنوا .
- (٨) وأن الجن كانوا يقعدون مقاعد خالية ليتمكنوا من السمع فثمنوا الآن برجم الشهب .
- (٩) وأن الجن لا يدرون ماذا يعمل بأهل الأرض أشرف أم خير ؟ لأن حراسة السماء ومنع السمع لا بد أن يكون لأمر هام ، فإذا رأينا الحكومة شددت في تعطيل الجرائد ومنع بيعها في المملكة ، فذلك لا بد أن يكون لأمر هام في الدولة ، إما لنفعها وإما لضررها ، وقد كانت الحكومات القديمة والحديثة تجدد في منع الناس عن الأخبار الخاصة بالدولة في الأمور الهامة ، فترام الآن يحكمون أحكاما عرفية أثناء الاضطراب أو الحروب ، ويمنعون الناس من التناظر أو الكتابة في شيء من أسرار الدولة ، أو أحوال الحرب العامة التي تضر بسير الحرب ، أو بسير الأمة ، وهذا أمر متعارف في دول الأرض فهكذا دول الأرواح .
- (١٠) وأن الجن منهم الأبرار ومنهم الفجار ، فلهم مذاهب ، وهم مختلفو الأحوال .
- (١١) أن الجن علموا أنهم لن يفروا من أمر الله إن أراد بهم أمرا على هذه الأرض ، وأنهم لن يقدروا على الهرب منه إذا طلبهم .
- (١٢) وأنهم لما سمعوا الهدى آمنوا به ، فالمؤمن لا يتقص ثواب عمله ولا يناله مكروه .
- (١٣) وأنهم فريقان : مسلمون ، وجاثرون عادلون عن الحق ، فالمسلم قصد طريق الحق وتوخاه ، وأما الجائر فإنه يكون وقودا للنار يوم القيامة .
- (١٤) وأن الإنس والجن إذا استقاموا على الطريقة المثلى وسع الله عليهم رزقهم واختبرهم به ، ومن أعرض عن ذكر ربه يدخله عذابا شاقا .
- (١٥) وأن الساجد لله فعلى من يدخلها أن يخلص لله فيها ولا يشرك به أحدا كما كان المشركون يفعلون .
- (١٦) وأنه لما قام النبي صلى الله عليه وسلم يعبد الله كاد الجن يكونون عليه متراكبين من ازدحامهم عليه تعجبا بما رأوا من عبادته وسمعوا من قراءته .
- ولما انتهى إلى هذا المقام قال الله لنبيه : « قل إنما أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا » لِيُبَيِّنَ الدَّعْوَةَ الْمَذْكُورَةَ فِي آخِرِ أَقْوَالِ الْجِنِّ وَمَبَاحِثِهِمْ ، وَالْقَوْلُ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرْبَعَةٌ مَقَاصِدٌ ، وَهِيَ :
- (١) أنه يدعو ربه ولا يشرك به أحدا .
- (٢) وأنه لا يملك دفع الضر عن الناس ، ولا يسوق إليهم رشدا ، لأن الضر والنافع والمرشد والتقوى إنما هو الله .
- (٣) أنه لن يمنعه أحد من الله إن عصاه ، ولن يجد ملجأ يُلجأ إليه دون الله ، وكيف يعصى الله ، ومن يعصى الله يدخله نار جهنم مخلدا ، ومتى جاء يوم عذابهم في الدنيا أوفى الآخرة فيسيلون أبنا أضعف ناصرا وأقل عددا أم أنا .
- (٤) أنه صلى الله عليه وسلم لا يدري متى يكون وقت تعذيبهم ، أقرب هو أم بعيد ، فالعلم لله وحده ولا يطلع على غيبه أحدا ، وكما منعت الشياطين من استراق العلم الذي لا طاقة لها به ، هكذا الملائكة درجات لكل منهم علم لا يتعداه ، والأنبياء أيضا لا يتألون من العلم إلا ما أوجبه الصلحة النبوية ، فإذا علم الأنبياء بعض المسلم بالغيب ، فذلك يكون معجزة له ، ثم يحرسه

بالملائكة لتحفظ دعوته ، وليقوموا بالهام الناس حفظ الشريعة بدمهم لئتم إبلاغ الدعوة وسريانها في العالم الإنساني . هذا هو ملخص الصورة إجمالاً . ولنشرع الآن في التفسير اللفظي للسورة كلها فنقول ومن الله التوفيق :

التفسير (اللفظي)

بسم الله الرحمن الرحيم

(قل) يا محمد (أوحى لي أنه) أن الأمر والشأن (استمع نفر) نفر ما بين الثلاثة إلى العشرة (من الجن) قد تقدم الكلام هنا عليهم (فقالوا إنا معما قرآنا) كتاباً (عجيباً) بديعاً مبيناً لكلام الناس في نظمه ورقة منفاه ، والعجب مصدر بمعنى العجيب (يهدي إلى الرشد) إلى الحق والصواب (فآتانا به) بالقرآن (ولن نشرك ربنا أحداً) من خلقه (وأنه تعالى جد ربنا) أي تعالى رجال ربنا وعظمته . قال أنس : كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد فيسأله أي عظم قدره (ما اتخذ صاحبة ولا ولداً) أي تعالى عظمته عن أن يتخذ زوجة لأنها إنما تكون للحاجة إليها ، ولا ولداً للاستئناس به (وأنه كان يقول سفهنا) جاهلنا (على الله شططاً) كذباً وعدواناً (وأنا ظننا أن لن نقول الإنس والجن على الله كذباً) أي كنا ظننا أن الأنس والجن صادقون في قولهم إن الله صاحبة وولداً ، وأنهم لا يكذبون على الله في ذلك (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادهم رهقاً) فإن الرجل كان إذا أمسى بقفر قال : أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه ، فكانت هذه الاستعاذة تزيد الجن رهقاً : أي تكبراً ، وتزيد الإنس رهقاً أي ضلالاً ، وأصل الرهق في كلام العرب الالتم وغشيان المحارم ، ولا جرم أن الضلال أصل المحارم ، والكبر والتمو من المحارم (وأنهم) أي الإنس (ظنوا كما ظننتم) أيها الجن (أن لن يبعث الله أحداً) وهذا أيضاً من كلام الجن بعضهم لبعض (وأنا لمسنا السماء) أي طلبنا خبرها (فوجدناها ملئت حرساً) أي حراساً ، وهو اسم جمع كالخدم (شديداً) قوياً (وشهباً) جمع شهاب ، وهو النضى المتولد من النار (وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع) أي مقاعد خالية عن الحرس والشهب ، أو صالحة للترصد والاستماع (فمن يستمع الآن يجده شهاباً رصداً) أي شهاباً راصداً له ولأجله يمنع عن الاستماع بالرجم ، ويصح أن يكون الرصد اسم جمع لراصد : أي ذوى شهاب راصدين (وأنا لاندري أشراً أريد بمن في الأرض) بحراسة السماء (أم أراد بهم ربهم رشداً) أي لاندري هل القصد من المنع من الاستراق هو شر أريد بأهل الأرض أم أريد بهم الإصلاح ؟ وقد تقدم إيضاحه في مقدمة تفسير السورة ، وفي التعبير بأريد في باب الشر ، وأراد بهم ربهم في باب الخير حسن أدب وتعليم للناس كيف يتأدبون في القول فأسند الخير ولم يسند الشر إليه وإن كان كل من عند الله (وأنا منا الصالحون) المؤمنون (ومنا دون ذلك) أي قوم دون ذلك (كنا طرائق قدداً) ذوى طرائق متفرقة مختلفة ، وقدداً جمع قدة من قد إذا قطع (وأنا ظننا) علمنا (أن لن نمجز الله في الأرض) أي لن نمجزه حال كوننا كائنين في الأرض أيما كنا فيها (ولن نمجزه هرباً) هارين منها إلى السماء (وأنا لما سمعنا الهدى) القرآن (آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف) أي فهو لا يخاف (بخساً ولا رهقاً) البخس النقص ، والرهق الظلم أو المكروه الذي يخشى المظلوم (وأنا منا السلون) وهم الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم (ومنا القاسطون) الجائرون العادلون عن الحق (فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً) أي قصدوا طريق الحق وأما القاسطون فكانوا في علم الله (لجهنم حطباً) وقوداً (وأن لو استقاموا) أي القاسطون (على الطريقة) أي طريقة الإسلام

(لأستيناهم ماء غدقا) كثيرا : أى لوسعنا عليهم الرزق ، فإن الماء الغدق سبب سعة الرزق (لغفتمهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه) يدخله (عذابا صعدا) شاقا يعلو العذب ويقبله (وأن الساجد لله) مختصة به فلا تدعوا مع الله أحدا) فلا تعبدوا فيها غيره ، والمراد بالمساجد ما يعبد الله فيها ، وبنيت لذلك فيدخل فيها الكنائس والبيع ، ولما كانت الأرض كلها مسجدا للمسلمين فعليهم ألا يعبدوا فيها غيره (وأنه لما قام عبد الله) محمد صلى الله عليه وسلم (بدعوه) يعنى يعبد الله ويقرأ القرآن ، إذ كان يصلى الفجر يبطن نخلة (كادوا) أى الجن (يكونون عليه لبيدا) أى يركب بعضهم بعضا من الازدحام عليه حرصا على استماع القرآن (قل إنما أَدْعُوا رَبِّيَ وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا) فليس ذلك يبدع بوجوب تمجيدكم وأعادكم على مقى وقد قالوا قد جئت بأمر عظيم فارجع عنه فنحن نجيرك ، فقال لهم صلى الله عليه وسلم : (إنما أَدْعُوا رَبِّيَ وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا) قل إنى لا أملك لكم ضرا ولا رشدا) أى لا أقدر على أن أدفع عنكم ضرا ، ولا أن أسوق إليكم رشدا ، فأنه له الأمر (قل إنى لن يعيرنى من الله أحد) أى لن يمتنعى منه أحد إن عصيته (ولن أجد من دونه ملتحدا) ملجأ الجأ إليه ، وحرزا أحترز به ، أو مدخلا فى الأرض مثل السرب أدخل فيه (إلا بلاغا من الله ورسالاته) أى أنا لن أجد ملجأ أتجئ إليه إلا بتبليغ رسالات الله ، فأنا إن لم أبلغها عصيت ربي ، وإن بلغت نجوت من عذابه ، فهو يقول : لا ملجأ إلى إلا بتبليغ الرسالة ، فهو الذى به أنجو من عذاب الله ، فإن تركت التبليغ ، وقعت فى الإنم اللين (ومن يعص الله ورسوله) فى الأمر بالتوحيد (فإن له نار جهنم خالغا فيها أبدا حتى إذا رآوا ما يوعدون) فى الدنيا كوقعة بدر وما بعدها أو فى الآخرة (فيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا) قل إن أدرى (أى ما أدرى) أقرب مانوعدون أم يجعل له ربي أمدا) غاية تطول مدتها ، فإنهم كانوا يقولون متى هذا الوعد ، فسكأنه يقول هو كائن لا محالة ولكن لا أدرى ما وقته (عالم الغيب) هو عالم الغيب (فلا يظهر على غيبه أحدا) أى لا يطلع أحد على الغيب المختص به هو (إلا من ارتضى من رسول) لعلمه بعضه حتى يكون معجزة للنبوة (فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا) يدخل من بين يدي المرتضى ومن خلفه حراسا من الملائكة يحرسونه من كيد الشياطين وتحاليطهم (ليعلم) النبي للوحى إليه (أن قد أبلغوا رسالات ربهم) أن قد أبلغ جبريل والملائكة النازلون بالوحى ، أو ليعلم الله أن قد أبلغ الأنبياء رسالات ربهم : أى يظهر إبلاغ الرسالات محروسة من التغيير (وأحاط بما لديهم) بما عند الرسل (وأحصى كل شئ عددا) أى أحصى ما خلق وعرف ما خلق لم يفته شئ حتى مناقيل النور والخرادل . انتهى التفسير اللفظى للسورة كلها . والحمد لله رب العالمين .

أقوال الناس قديما وحديثا فى الجن ، وبدائع العلم الحديث فيها

وهو معجز للقرآن ظهرت فى هذا العصر كما قال تعالى : «سربهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »

لقد أفضت الكلام فى سور كثيرة على هذا الموضوع ، فأقرأه فى (سورة البقرة) وفى (سورة آل عمران) وفى سور كثيرة ، ولقد ذكرت فى (سورة آل عمران) نبذة من خطبة (السير أوليفر لودج) من أشهر علماء الطبيعة فى هذا العصر ببلاد الإنجليز ، إذ أكد على مجمع من كبار العلماء فى اجتماع رسمى أنه حادث الأموات . وأن هناك عقولا أسمى من عقولنا فى عالم الأرواح ، وأنهم يهتمون بنا . وأن إخوانه من الجمعية الروحية الذين ماتوا كلهم بعدموتهم وبرهنوا له يراهين قاطعة أنهم هم الذين يكلمونه ، وقال : إن كل ما يقوله الأنبياء عن عالم الأرواح وعن الله فهو حق بلا تأويل . وقال إنه اشتغل بهذا الفن ٣٠ سنة فله الحق أن يحكم بما يقول . وكذلك نقلت عن اخوان الصفاء مما ذكرته فى كتابي (الأرواح) . إذ قالوا فى كتابهم

لشهور : إن رواح الأحياء بعد اللوت هم اللوسوسون إن كانوا أشرازا ، وهم الملهمون الخامس الحير إن كانوا أخيارا . فارجع إليه هناك إن شئت ، وهالك خلاصة مما ذكرته في كتاب الأرواح المذكور :

(١) قال شير محمد في المجلس السابع : لقد جمعت بين ماجاء به الدين الإسلامي والكشف الحديث ، ذلك أن القوم يقولون : إن كل علم وكل خير وشئ حاصلات في الأفئدة منشؤها الأرواح الفاضلة والناقصة ، وهو عين قوله صلى الله عليه وسلم : « في القلب لثان . لمة من الملك ، ولمة من الشيطان » وهذا مصدق آية : سربهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم . والعجب أن الفرنجة يكشفون هذا ولا يعلمون أنه مصدق دين الإسلام .

(٢) ليس على الأرض كامل ، وظاهر الفضيلة والصلاح لا يدل على السكال التام في الإنسان ، ولو كان كاملا لم يسجن في هذه الأرض . وهذا النقص في الإنسان بسبب الذنوب القلبية التي لا يعرفها الناس مثل الحقد والطمع والحسد الخ .

(٣) ليس للإنسان من طريقة للتخلص من وسوسة الأرواح الشريرة إلا بالفضائل . فهي التي تطردها .
(٤) الأرواح الشريرة قد تنفرب من الإنسان لمقاصد رديئة . ورعا تسمع بعض نصائح الإنسان عند استحضارها .

(٥) من الأرواح ما تستولى على جسد الإنسان ، ويحاول الأطباء شفاء ظواهر ذلك الجنون في المارستان بلاطائل . ولا فائدة إلا بالمعالجة الأدوية التي بها وحدها تخرج الروح من الجسم .

(٦) ليس في مقدور الناس طرد الأرواح من اقترابها من الناس ، لأن ذلك يفيد فوائد كثيرة .
(٧) إن ما تقدم من أن الأرواح النافضة تهتدى بكلام البشر يناسب ماجاء في هذه السورة من قول الجن . « إنا سمعنا قرآنا عجبا . يهدى إلى الرشاد فآمننا به ولن نشرك ربنا أحدا . وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا . وأنه كان يقول سفيها على الله شططسا ، وأنا ظننا أن لن نقول الإنس والجن على الله كذبا ، وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا . وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا » .

(٨) في الأرض أرواح أشبهت الجن في الجهل والشر ، مثل ذلك التي البخيل الذي مات وأحضرها روحه وقال : هاتوا لي مالي فيما تقدم في السكتاب (أي كتاب الأرواح) ومثل ذلك الروح الطائش الذي قال : أنا أسلى نفسي الخ .

(٩) وهذا قوله تعالى : « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا » .
(١٠) ومن الناس من يصدق كل ما تلقى إليه الأرواح فصدق عليه السالك فلا يسمع الصائح من غيرها فتغشه تلك الأرواح ، وهذا قوله تعالى : « وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا » .

(١١) قول الروح : لا تغتر بظاهر الفضيلة فإنها تستر كبرا وحفدا الخ . وهذا قوله تعالى : « سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض غير الحق » .

هذا ملخص هذا المقال ، وعسى أن نوفق في المستقبل لإصدار الملحق لهذا التفسير فنستوفي هذا المقام فيه . ومن قرأ كتابنا [الأرواح] كفاء ، والحمد لله رب العالمين ، كتب صباح يوم الثلاثاء ٢٠ رمضان سنة ١٣٥١ هجرية = ١٧ يناير سنة ١٩٣٣ م .

ويحسن أن نقل لك هنا أيها القارئ فهرست كتابنا (الأرواح) الذي ألفته ، لأنك تنف فيه على
بجمل هذا العلم ، وبظهورك سر القرآن في آخر الزمان . فليس في طائفي في هذا التفسير أن أنقل أكثر من ذلك .
إن ملخص فهرس كتاب الأرواح هو ما يأتي :

قراءة هذا الكتاب تدعو إلى اليقين ، وتصفي النفس ، وتذهب الحزن : أم مذاهب الهند في معرفة
الله تعالى ثلاثة : قوم لا يفكرون إلا في معرفة النفس ، وقوم يقولون للعالم إله ، ولكنه مختص بتعليم الناس
وقوم يقولون إنه خالق ومنظم وعالم ومعلم ، وهذا الأخير هو الذي في كتاب الفيدا ، تبيان كلام الأمم في إثبات
الأرواح وفي نفيها ، بيان ثبوت الأرواح بالآيات القرآنية وبالآحاديث ، قول قدماء الفلاسفة : إن أرواح
الأموات هي اللهمة للأحياء ، وهي الموسوسة لهم بأمر الله ، (عذاب القبر) من كلام الغزالي رحمه الله ،
وأن الأرواح بعد الموت لها ثلاثة أحوال : أسف على فائت ، وعلى ذنب ، وجزع من الجهل إخوان الصفا
جاء فيه أن الأرواح كالشياطين وكالملائكة ، اعتراضات على المؤلف وأجوبة ، استدلال المؤلف على استحضار
الأرواح بآية ، « وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم » ، أسباب تحريك الموائد في
استحضار الأرواح ، إحضار زهور وفواكه على أيدي الأرواح في أوروبا ، إحدى وعشرين سؤالاً وجهت
إلى الأرواح في تحريك الموائد ، فأجابت بأن المغناطيسية في الإنسان تساعد مغناطيسية الروح ، وتقول :
إن الأحياء جهال جداً ، في الأرواح جهال كما في الأحياء ، إقرار الروح بالعذاب ، البخيل معذب ، والظالم
تعتبه حسرة ، ومن الأرواح من طلبت المساعدة لتخلص من العذاب ، آيات قرآنية مطابقة لذلك ، روحان
يتبان ضابعا من ظلمهما ، الأرواح تنتقم بالوسوسة ، وتمتطف على الباكين عليها ، كاهن وسيدة نجوا من
الخطر بسباع هاتف ، مطابقة كلام الإمام الغزالي لما تقدم . ظهر أشباح ، وسباع ألمان ، ودق آلات
طرب في ألمانيا وشهدا كثيرين . الروح للزعجة والحديث معها . آراء العلماء والاحاديث الموافقة لما تقدم ،
وصف الأرواح للسماوات ، الجاهل في الدنيا جاهل بعد الموت ، مطابقة القرآن لذلك ، الوساطة الروحية المستعملة
لأمور الدنيا ضارة ويكون فيها الكذب ، وصف الأرواح لله عز وجل ، روح غالي ووصفها لنظام السماوات
وصفها بنطبق على آية « تخرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » تاريخ مناجاة
الأرواح وطرق الاستحضار كالمائدة والفتنجال واليدوهكذا ومجموعها ست ، أرواح تسكتب بلا أقلام ، ظهور
روح اسمها (كاني) وقد أعطتهم قطعة من ثوبها ، آيات قرآنية مطابقت للشريعة الإسلامية ، آداب من
محضرون الأرواح ، التنويم المغناطيسي ، براهين سقراط على بقاء النفس . وكيف نشأت الفكرة عند المؤلف
وبراهين ابن مسكويه . طرق المقلدين في أمر الروح . كلام الروح في حب الإنسانية والفلسفة . محاوره
(أوليفر لودج) مع ابنه الميت في حرب الألمان . هل تدخن الأرواح . وهل تشرب الخمر ؟ الأرواح لها
نياب . فوائد الأنوار عند الأرواح . تعلم الأرواح لأهل الأرض وموافقته للقرآن ، مناجاة الأرواح
في أوروبا والإسلام ، الصوفية يناجون الملائكة بالذكر وترك اللذات (برأي أودنج) يصف جهنم ومستقبل
الأمم والدول وأوروبا ومصر والإسلام ، الميت يدعش من علمه بالموت لامن الموت أخلاق الميت أحاطت به
بعد موته ، قاعة السكنة ، وصف الروح لجهنم كوصف القرآن . انتهى .

هذا هو ملخص فهرس كتاب الأرواح وإن أردت المزيد فاقرا كتبنا تعد بمئات الألوف باللغات الأفرنجية
وتجد كتاب (على أطلال المسادة) وكتاب (دائرة المعارف) كلاهما لصديقنا الأستاذ محمد فريد وجدى ،
ففيهما غنية في هذا العلم ، ولعلنا إن طالت الحياة نفصل القول تفصيلا في ملحق نؤلفه بعد تمام طبع التفسير
إن شاء الله تعالى اه .

وقبل ختام تفسير هذه السورة بحسن بنا أن نذكر هنا ماجاء في إحدى المجلات المصرية ، وهي (مجلة اللطائف للصورة) مناسبة الآية : « وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا » فقد جاء فيها تحت العنوان الآتي مانصه :

لطيفة : في قوله تعالى « وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا »

عدد سكان العالم

أحصى أخيرا عدد سكان الكرة الأرضية فبلغ مليارين من النفوس : أي ألفي مليون ، وقد كان في سنة ١٩١٠ م ألف وستائة مليون فقط فبلغت الزيادة في عشرين سنة ٤٠٠ مليون نسمة ، وعدد سكان العالم موزع كما يلي :

في آسيا ٩٠٠ مليون ، وفي أوروبا ٥٠٠ مليون ، وفي أمريكا ٣٢٠ مليون ، وفي أفريقيا ١٥٠ مليون وفي استراليا ٨ ملايين .

وأما عدد سكان ممالك أوروبا فهو كآتي : روسيا أوروبا ١١٥ مليون ، ألمانيا ٦٢ مليون ونصف ، وبريطانيا ٤٢٧ مليون ، إيطاليا ٤١ مليون ، فرنسا ٣٩٥ مليون ، أسبانيا ٣١٣ مليون ، بولونيا ٣٠ مليون ، رومانيا ١٧ مليون ، تشكوسلوفاكيا ١٣٦ مليون ، المجر ٨ ملايين ، بلجيكا ٧٨ ملايين ، هولندا ٧٦ ملايين ، النمسا ٦٥ ملايين ، أسوج ٦ ملايين ، اليونان ٦ ملايين ، البرتغال ٤٥ ملايين ، بلغاريا ٥٤ ملايين ، أرنلندا ٤٢ ملايين ، استونيا ٤ ملايين ، سويسرا ٣٩ ملايين ، فنلندا ٣٥ ملايين ، نروج ٢٧ مليون ، ليتوانيا ٢١ مليون ، تركيا أوروبا ٢ مليون ، ألبانيا ثلاثة أرباع المليون ، دوقية لوكسمبرج ٢٦٠ ألفا ، انتهى ماجاء في الجملة المذكورة ، وبهذا تم تفسير (سورة الجن) والحمد لله رب العالمين . كتب عصر يوم الأحد ١٩ يوليو سنة ١٩٢٥ = ٢٨ ذى الحجة سنة ١٣٤٣ هجرية .

تفسير سورة المزمل

هي مكية

إلا قوله تعالى : « واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا . وذرنى والسكدين أولى النعمة ومهلهم قليلا » وقوله « إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار » إلى آخر السورة ، فمدنية

آياتها ٢٠ - نزلت بعد سورة القلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ * قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْزِدْ عَلَيْهِ

وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا * إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا
 وَأَقْوَمُ قِيلًا * إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْعًا طَوِيلًا * وَإِذْ كَرِهَ اللَّهُ لِسْمِ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا *
 رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا * وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ
 هَجْرًا جَمِيلًا * وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا * إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا
 وَجَحِيمًا * وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا * يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ
 كَثِيبًا مَهِيلًا * إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ
 رَسُولًا * فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا * فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ
 يَوْمًا يَجْمَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا * السَّمَاءُ مَنفُطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا * إِنَّ هَذِهِ تَذْكَرَةٌ فَمَنْ
 شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا * إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلَاثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلَاثُهُ
 وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ
 فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ
 فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ
 وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ
 تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *

ملخص الأحكام في هذه السورة

- (١) أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر أن يقوم من الليل ثلثه ، أو نصفه ، أو ثلثيه ، فهو محير بين هذه الثلاثة .
- (٢) وهو في ذلك يقرأ القرآن بتؤدة حرفا حرفا يقف على العالمين ، وعلى الرحيم ، وعلى الدين ، فيقطع القراءة آية آية .
- (٣) وأن يذكر ربه ليلا ونهارا بالتسبيح والتهليل والتمجيد والصلاة والقراءة ودراسة العلم .
- (٤) وأن مجرد نفسه إليه عما سواه .
- (٥) وأن يتخذ وكيلًا بكل إليه أموره متى فعل ما يجب عليه فيها .
- (٦) وأن يصبر على ما يقولون فيه وفي ربه ، من أنه ساحر ، أو شاعر ، وفي أن ربه له صاحبة وولد .

(٧) وأن يهجرهم هجرا جميلا ، وذلك بالمجانبة والمداراة وعدم الكفاة .

(٨) وأن يكلمهم إلى الله ، فهو يكلمهم ويكلمه .

(٩) وأن يتمهل زمانا قليلا فسيري عاقبته وعاقبتهم .

فهذه الأمور التسعة طلبت من النبي صلى الله عليه وسلم ومن أتباعه ، ولما شق ذلك عليهم ، فقد كان الرجل يصلي الليل كله مخافة ألا يصيب ما أمر الله به من القيام . قال الله إنه يعلم أنه صلى الله عليه وسلم يقوم أقل من ثلثي الليل تارة ، ونصفه تارة أخرى ، وثلاثة مرة ، وهكذا أصحابه ، وإحصاء الليل شاق عليهم فلا يقدر على ضبطه ، ولا معرفة ساعاته ، فانتفضت أقدامهم من طول القيام ، نسخ ذلك وأمرهم بما تيسر من صلاة الليل ، ثم نسخ ذلك اليسر أيضا من صلاة الليل بالصلوات الخمس ؛ لأن للسليين منهم المريض ، ومنهم المسافر للتجارة ؛ ومنهم المسافر للقتال في سبيل الله ، فهؤلاء لا يتيسر لهم القيام مع هذه الأعمال . فالصلاة المفروضة كافية للأمة مع إيتاء الزكاة وإدامة استغفار الله في مجامع أحوالهم ، لأن الإنسان لا يغلو من تفريط .

هذا ملخص أحكام السورة ، وناسخها ومنسوخها ، ولنترع الآن في تفسير الألفاظ للسورة كلها فنقول
ومن الله التوفيق :

التفسير اللفظي

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(يا أيها الزمّل) بفتح الميم وكسرهما ، وقرئ* المزمل : أي التلطف في ثيابه ، وهو النبي صلى الله عليه وسلم ، وذلك لأنه كان نائما مرتعدا مما دهشه من بدء الوحي ، إذ رجع إلى خديجة رجف فؤاده غفوطب بهذا القول تهيبجاله ، وقد كان متلففا في قطيفة ، والمزمل كما يطلق على هذا المعنى يطلق على من تحمل الحمل : أي الذي تحمل أعباء النبوة ؛ فهذا المعنى يؤخذ من باب الكتابة تعريضا ، فهو قول : يا أيها التلطف بثيابه معرضا بأنه يحمل عبئا عظيما فليقم لحمل عبئه (قم الليل) أي قم إلى الصلاة وداوم عليها فيه (إلا قليلا نصفه) أي إلا نصفه ، فالنصف بدل من قليلا ، ولا جرم أن النصف قليل بالنسبة للكل (أو اتقص منه قليلا) أي اتقص من النصف (أو زد عليه) أي إلى الثلثين ، فيكون التخيير بين الثلث والنصف والثلثين وبقى النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه على هذه الحال يصلون بالليل اثني عشر شهرا ، ثم خفف عنهم كما تقدم إيضاحه ، فصار المفروض ما تيسر من الصلاة بالليل ، ثم نسخ بالصلوات الخمس ، وصار قيام الليل سنة إلى يوم القيامة ، وبقى وجوبه في حق النبي صلى الله عليه وسلم (ورتل القرآن ترتيلا) أي ينسه بيانا ، وقرأه على تودة ، وتبين حروفه بحيث يتمكن السامع من عدده مع الوقوف على كل آية كما تقدم ، وذلك ليتمكن الصلي من حضور القلب ، والتأمل والفكر في حقائق الآيات ومعانيها ، فيستشعر العظمة والجلال بقلبه متى ذكر الله ، والرجاء والخوف عند الوعد والوعيد ، والاعتبار بالقصص والأمثال ، فنتيجة الترتيل حضور القلب ، فأما من قرأ سورا كثيرة في ركعة بحيث يكون هذا كهذا الشعر (الهدى سرعة القطع) أي بسرعة وعجلة فذلك لا صلاة له ، ولقد قام النبي صلى الله عليه وسلم بآية من القرآن ، وهي «إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم» ولقد أخبر صلى الله عليه وسلم بأنه سيأتي قوم يقرءون القرآن يقيمونه كما يقام السهم ، يتعجلونه ولا يتأجلونه ، لا يجاوزون ترتيلهم ، وهي جمع ترقوة وهو العظم الذي بين نقرة النحر والعاتق . ويقول ابن مسعود : «فقوا عند عجائبه وحركوا به القلوب ، ولا يكن

هم أحكم آخر السورة (إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً) أى سنزل عليك القرآن ، وفيه الأمور الشاقة
 من الأوامر والنواهي عليك وعلى أتباعك . وكما أنها تثقل عليكم في العمل فعلى في نفسها راجحة الوزن
 ليست من سفاسف الأمور وخفافها ، فهو كلام رصين وهو أيضاً ثقیل في الوحي فقد جاء في حديث البخاري
 ومسلم أن الوحي كان يأتيه صلى الله عليه وسلم أحياناً في مثل صاصلة الجرس ، وهذا أشده عليه فيصم عنه
 وقد وعى ما قال ، وأحياناً يتمثل له الملك رجلاً فيكلمه فيعنى ما يقول ، وكان ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد
 البرد فيصم عنه ، وإن جبينه ليتفصد عرقاً ، ومعنى ينفصم : يفارق ، ومعنى يتفصد : عرقاً يجرى عرقه كما يجرى
 الدم من الفاصد . فلخص ثقل القرآن في أربعة أشياء : في النكاليف وفي رجحان نفس القرآن من حيث
 المثانة والبلاغة والمعنى ، وفي الشدة على المناققين لما ينالهم من التعم به ، وفي ثقل الوحي وشدة عند نزوله ،
 فهو راجح الوزن ، ثقل الوحي ، ثقل النكاليف ، ثقل على المناققين فيظهم (إن ناشئة الليل) أى قيام
 الليل (هي أشد وطأً) قرى : وطأ ، كفظاء ، ووطأ كقلب : أى أشد موافقة ومواطأة ، لأن القلب واللسان
 والسمع والبصر تكون بالليل أكثر مواطأة منها بالنهار على الأول ، وأوطأ للقيام وأسهل على المصلي للعبادة
 والحلوة برب العباد ، فإن الليل أفرغ للقلب من النهار ، ولا يمرض له في الليل حوائج وموانع مثل
 النهار ، وأمنع من الشيطان ، وأبعد من الرياء ، وذلك على الثاني وهما متقاربان ، وقوله (وأقوم قبلاً)
 وأثبت قراءة لأن القلب إذ ذاك حاضر ، والأصوات هادئة ، وأبين قولاً ، ثم إن الناشئة مصدر نشأ إذا قام
 ونهض كالعافية ، ويجوز أن يقال النفس الناشئة التي تنهض من مضجعتها للعبادة (إن لك في النهار سبحاً طويلاً)
 ثقباً في مهماتك واشتغالاتها ، فعليك بالتهجد . فإن مناجاة الرب يعوزها الفراغ والتخلي (واذكر اسم ربك)
 ودم على ذكره ليلاً ونهاراً بالتسبيح والتهليل والتحميد والصلاة وقراءة القرآن (وتبتل إليه تبتيلاً) انقطع
 إليه بالعبادة ، وجرى إليه نفسك عما سواه ، هو (رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً) لأن
 اختصاصه بالألوهية يوجب أن توكل الأمور إليه (واصبر على ما يقولون) فيك وفي ربك ، ما تقدم ذكره
 (واهجرهم هجرًا جميلًا) بالمداراة والمجانبة وعدم المسافة (وذريئهم المكذبين) دعوى وإبام وكل أمرم
 إلى ، فأنا لست في حاجة إليك في مكافأتهم ومجازاتهم (أولى النعمة) أرباب التعم ، وهم صناديد قريش
 (ومهلهم قليلاً) إمهالاً أو زماناً قليلاً (إن لدينا أنسكالا) هذ علة لما قبله ، جمع نكل : قيوداً ثقبلة
 (وججياً) ناراً محرقة (وطعاماً ذا غصة) غير سائغ في الحلق لا ينزل ولا يخرج ، وهو الزقوم وغيره (وعذاباً
 أليماً) وجميعاً (يوم ترحف الأرض والجبال) يتزلزلان ويتحركان . وهو يوم القيامة (وكانت الجبال كشيبي
 مهيباً) الكتيب الرمل المجتمع . يقال : كثبت الشيء إذا جمعه فهو كتيب : أى مكتوب . والهبل هو الذي
 إذا أخذت منه شيئاً تبعك : أى مشورا (إنا أرسلنا إليكم) بأهل مكة (رسولا شاهداً عليكم) يشهد
 عليكم يوم القيامة بالكذب والكفر (كما أرسلنا إلى فرعون رسولا) وهو موسى عليه السلام (فقصى
 فرعون الرسول) المتقدم (فأخذناه أخذاً ويلاً) ثقبلاً (فكيف تفنون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان
 شيباً) أى فكيف تفنون في الآخرة عذاب يوم يجعل الولدان شيباً إن كفرتم في الدنيا ، فهو يجعل الولدان
 شيباً من شدة هولها . وهذا تمثيل لشدة ذلك اليوم . فإن الهموم تضعف القوى وتسرع بالشيب . ثم وصف
 اليوم بالشدة أيضاً فقال (السماء) على عظمتها وشدة إحكامها تنفطر به وتنشق فكيف يكون غيرها من
 الخلائق ، وقوله (منفطر) إنما ذكر على تأويل السماء بالسقف فهو منشق (به) أى يوم القيامة : أى
 إنها تنفطر بسبب شدة ذلك اليوم وهوله (كان وعده مفعولاً) أى وعد الله كأننا (إن هذه) الآيات للشملة
 على الوعيد (تذكرة) موعظة (فمن شاء أخذ إلى ربه سبيلاً) أى فمن شاء امتطها واتخذ سبيلاً إلى الله بالتقوى

والخشية (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل) أي أقل منه وأكثر من النصف (ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك) أي تقوم أنت وطائفة من المؤمنين (واقه يقدر الليل والنهار) إذ لا يعلم مقادير ساعاتها على الحقيقة إلا هو (علم أن لن تحصوه) أي لن تحسوا تقدير الأوقات، ولن تستطيعوا ضبط الساعات (فأب عليكم) بالترخيص في ترك القيام وعفا عنكم ورفع المشقة عنكم (فأقرءوا ما تيسر من القرآن) أي فصلوا ما تيسر عليكم من صلاة الليل، فصار التهجيد على أي وجه كان واجبا غير مقيد بنصف ولا غيره، ثم نسخ بالصلوات الخمس (علم أن سيكون) أي أنه سيكون (منكم مرضى) فلا يقدرتون على القيام بالليل (وآخرون يضربون في الأرض) يسافرون حال كونهم (يبتغون من فضل الله) من رزقه بالتجارة أو طلب العلم (وآخرون يقاتلون في سبيل الله) فلا فرق في الإسلام بين الجهاد في قتال العدو والجهاد في التجارة لنفع المسلمين وطلب العلم. قال ابن مسعود رضي الله عنه: «أبما رجل جلب شيئا إلى مدينة من مدائن الإسلام صابرا محسبا فباعه بسم يومه كان عند الله من الشهداء: ثم قرأ عبد الله قوله تعالى: وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله» (فأقرءوا ما تيسر منه) بمعنى، صلوا وأعادوه للتكرير (وأقيموا الصلاة) المفروضة، كأنه يقول: صلوا وداوموا على الصلاة وقوموها، فلا تكون قلوبكم غافلة، ولا أفعالكم خارجة عن النظام المطلوب لها (وآتوا الزكاة) الواجبة (وأقرضوا الله قرضا حسنا) بالنفقات الأخرى في سبيل الخيرات، لأن ذلك باقٍ لكم عند الله (وما تقدموا لأنفسكم من خير نجده عند الله) أي تجددوا ثوابه، وقوله (هو خيرا) مفعول ثانٍ لتجدوه، وهو ضمير الفصل (وأعظم أجرا) من الذي تؤخرونه إلى الوصية عند الموت (واستغفروا الله) في جميع أحوالكم (إن الله غفور رحيم) يستر على أهل الذنوب والتقصير. انتهى التفسير اللفظي للسورة كلها، والحمد لله رب العالمين.

في هذه السورة لطيفتان

(١) في قوله تعالى: «ورتل القرآن ترتيلا».

(٢) في قوله تعالى: «وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله» الخ.

اللطفة الأولى في قوله تعالى: «ورتل القرآن ترتيلا»

مع قوله تعالى: «فأقرءوا ما تيسر من القرآن»

فها هنا أمران: قراءة القرآن، وترتيله، أما قراءة القرآن فقد فسر بها قوله تعالى: «فأقرءوا ما تيسر منه» أي من القرآن، وذلك بدراسته وتحصيل حفظه، وألا يعرض للنسيان، فيقرأ القرآن عشر آيات في اليوم والليلة، أو عشرين فيهما، أو أربعين، أو خمسين، أو مائة، أو مائتي آية، أو خمسين آية، وقد ورد في كل ذلك أحاديث، والقصود أن الإنسان لا يغفل عن قراءته ولو عشر آيات في اليوم والليلة، أما إذا زاد كثيرا فليس بمحمود، ألا ترى إلى عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما في الصحابين قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم «لم أخبر أنك تصوم الدهر وتقرأ القرآن كل ليلة؟ قلت بلى يا رسول الله ولم أزد بذلك إلا الخير، قال فصم صوم داود، وكان أعبد الناس، وأقرأ القرآن في كل شهر مرة، قال قلت يا نبي الله، إني أطيق أفضل من ذلك، قال فأقرء في كل عشر، قال قلت يا رسول الله، إني أطيق أفضل من ذلك، قال فأقرء في سبع ولا تزد على ذلك».

فقد نهاه صلى الله عليه وسلم أن يتجاوز سبع القرآن كل يوم وليلة، فأنزله بذلك إلى سبع ما كان يقرأ في كل يوم وليلة، والقصد من هذا النهي أن يرتله ويقف على معناه.

ولقد ورد في الحسين آية وما قبلها من الأربعين والعشرين والعشرة أن صاحبها لا يكون من الغافلين ، وورد في المائة أنه يكون من القانتين ، وفي المائتين أن القرآن لا يحاجه ، وفي الخممائه أنه يكون له قطار من الأجر ، وهذه الأحاديث وإن لم تسلمن في الصحاح فإنها تدلنا على ما كان عليه آباؤنا في الصدر الأول أما حديث عبد الله بن عمرو بن العاص فهو في الصحيحين .

الكلام على ترتيب القرآن

وأما ترتيبه فقد مر بيانه ، وملخصه :

- (١) أنها تكون مدا .
- (٢) وأن يقرأ (بسم الله الرحمن الرحيم) بعد بسم الله ، وبعد الرحمن . وبعد بالرحيم .
- (٣) وتكون القراءة مفسرة حرفا حرفا .
- (٤) ويقول (الحمد لله رب العالمين) ويقف .
- (٥) ويقول (الرحمن الرحيم) ثم يقف ، ويقول (مالك يوم الدين) ثم يقف . ومعنى هذا أنه يقطع قراءته آية آية . وروى أنه صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة كان يقرأ على نافته سورة الفتح فرجع في قراءته .

هذا ملخص ما جاء في أحاديث البخارى والنسائى والترمذى ومسلم . وبهذا تم الكلام على اللطيفة الأولى في قوله تعالى : « ورتل القرآن ترتيلا » والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثانية

في قوله تعالى : وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله

ها أناذا نقلت لك كلام ابن مسعود في تفسير هذه الآية : أن التاجر الصالح يكون كالمجاهد وأقول لك الآن ما قاله ابن عمر ما خلق الله موتة أمواتها بعد القتل في سبيل الله أحب إلى من أن أموت بين شعبي جبل أضرب في الأرض أبتغي من فضل الله .

فهذا عبد الله بن مسعود ، وهذا ابن عمر كلاهما يفسر الآية بهذا ، فقد سوي بين السفر لطلب الرزق وبين الجهاد ، وأن الموت في كل منهما شهادة ، وإذا كنا نسمع الأئمة رضى الله عنهم يستدلون بقوله تعالى « فاعتبروا بأولى الأبصار » على ربيع الأحكام الفقهية . وهو القياس لأن أصول الفقه ترجع إلى الأربعة : الكتاب والسنة والإجماع والقياس ، فإذا كان ربيع علم الفقه يرجع إلى القياس للمبني على هذه الآية . فكيف يكون الأمر بالآية التي نحن فيها ؟ وهي قوله تعالى . « وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله » .

بالت شعري . ماذا يكون في هذه الآية للمسلمين الذين هم الآن ثلثمائة وستون مليوناً ؟ هؤلاء المسلمون الذين أختى عليهم الدهر لماذا ؟ لأن تعاليمهم ناقصة ببراء ، إن علماء الإسلام قد دفنت منهم هذه الآية دفناً ومعنى هذا أنهم واروها عن العيون ودفنوها بين دفتي الصحف : أى لم يظهروها للأمة الإسلامية مشروحة كما شرحت الصلاة والزكاة .

أيها المسلمون . عجبت لكم ! كيف تكون الصلاة ؟ وكيف تكون الزكاة ؟ فوالله لا زكاة ولا صلاة ولا حج ولا علم ولا عمل إذا لم يكن عند الأمة ثروة (إذن تكون الثروة والقوة مقدمتان على الزكاة وعلى الحج ، ومن أين يركى الناس إلا إذا كان عندهم مال ، ومن أين يحجون إذا لم يكن عندهم مال ، بل كيف

يصلون إذا كانوا جباة لا مال عندهم ، بل كيف يصلون ويصومون ويحجون إذا لم تكن بلادهم آمنة مطمئنة ولا تكون البلاد آمنة مطمئنة من لصوصها في الداخل ، ومن أعدائها في الخارج . إلا إذا كانت الدولة ذات مدافع وطائرات وجيوش جرارة ، وكيف يتم ذلك إلا بمال ونظام وحكومة ؟
 بأئمة الإسلام . أليس ذلك كله قبل الزكاة . أى أن وجود المال مقدم على وجود الزكاة والحج والجهاد في سبيل الله .

بأئمة الإسلام . ألم يقل الفقهاء : (إن مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب) وقد استنجوا من هذه القاعدة فروعا كثيرة ، منها أن الإنسان إذا غسل يديه إلى المرفقين يجب عليه أن يغسل وراء المرفقين جزءا من باب مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، بل هم قالوا أيضا فولا إجماليا : إن العلوم والصناعات كلها واجبة على الأمة وجوبا كفاثيا .

فليخصص لكل علم ولكل صناعة طائفة من الأمة يكون استعدادهم أقبل لتلك من غيرهم ، لقد راعى الله ذلك وأراد فذكر الضرب في الأرض والابتغاء من فضله قبل أن يذكر الجهاد ، فكأنه جمل إكمال الأمور المعاشية مقدما على الجهاد ، فهو إذن كالطهارة التي لا تصح الصلاة إلا بها ، فإذا قال الفقهاء : إنه يجب على المصلي أن يقدم الطهارة لتصح الصلاة فيقبل علماء الإسلام الآن بأعلى صوت : ليقدم علوم الصناعة والسياسة والتجارة واستخراج المعادن ، وعلوم طبقات الأرض ، وعلوم نظام أمم أوروبا . وعلوم نظام المدارس ، وعلوم نظام الطيران في الجو ، وعلوم السفن في البحر ، وعلوم الرياح ، وعلوم الكهرباء ، وعلوم المغناطيس ، وعلوم الغواصات ، وعلوم الغازات الحارقة ، وعلوم السكواكب الثابتة ، وعلوم السكواكب السيارة ، وعلوم النبات ، وعلوم الحيوان ، وعلوم الطب ، وعلوم البيطرة ، إلى غير ذلك .

ليقل علماء الإسلام : فلتقدم هذه العلوم وهذه الصناعات على المدافعة عن الأوطان التي هي بعض أنواع الجهاد ، إذ لا يمكن المدافعة عن البلاد اليوم إلا بهذه العلوم وهذه الصناعات ، وإذا كان الجهاد واجبا فهذه مقدماته ، ومالا يتم الواجب إلا به فهو واجب . وإنما الفرق بين هذه العلوم وبين الوضوء للصلاة أن الوضوء يجب على الفرد وأن هذه العلوم يجب على المجموع . إن المسلمين ناموا عن الواجب الكفاثي الذي يعم الأمة كلها غفلة وجهالة ، أو ما يسمون أن فرض الكفاية إذا ماتت الأمة . أما فرض العين فإنه إذا فات لم يستضر به إلا الذي أهمل فيه . ففرض الكفاية عظيم جدا جليل نمرته جليله ، والثواب عليه لاحد له وضاع البلاد والعباد مرتب على إهماله ، ولذلك ترى أن أمتنا الإسلامية لمسا جهات هذا الفرض تخطفها أمم أوروبا .

أمة الإسلام التي تراها اليوم ساكنة ساكنة وأم أوروبا تتفق معا لقتل أهل مرا كش الدين بخاريون مع الأمير عبد الكريم ، حتى إن أمريكا أرسلت طائرات لمساعدة فرنسا وأسبانيا ضده ، وأنا أكتب هذه السطور ، وأمم الإسلام لضعفها وقلة الحكماء فيها لا تبدي حراكا لجهلها وخوفها من أوروبا ، ولأن أغلب بلاد الإسلام في أيدي الفرنجة ، ألا قاتل الله الجهالة .

فيأثم : كيف غفل العلماء قديما ؟ أستغفر الله ، إنهم ما غفلوا ، إن ما قلته مستمد من كلامهم : ولكن أقول : أهملوا ، أهملوا ، أهملوا : أى أهمل الأمر صغارهم ، أما حكماؤهم فقد وضحوه ولم يصل لعامة المسلمين . ترك العلماء ملوك الإسلام يحيشون الجيوش ويقهرون الأعداء بقوة السياسة والسيف ، ولم يساعدهم العلماء بما يقوى أركان دولهم ، كان يجب أن يبشوا في الشعب ما ذكر في بطن الكتب أن ذلك كله جهاد ، كان يجب أن ينتشر في البلاد ، كان يجب أن تؤلف له كتب كبدائل للصلاة والزكاة والبيوع والفرائض .

فيأبى شمري من أين يكون بيوع أو موارىث أو قضايا وعبادات إذا لم تسكن البلاد فيها كل ما محتاج إليه ؟ فكيف أطلنا نحن المسلمين في الثمرات ولم نطل في الشجرات ، والثمرات هي الثرائع والأحكام والعبادات كالهبة والميراث والبيع والصلاة والزكاة . ولم نطل في الأصول أى في الأشياء نفسها المخلوقة كالنبات والحيوان والمعادن والزراعة والتجارة والسياسة والعلوم الحديثة والقديمة ، لم نطل في هذه مع أنه لا دين ولا شرع إلا بعد توافر تلك الأسباب كما جعلت الطهارة قبل الصلاة ، فمن لم يتوضأ فلا صلاة له هكذا في الأمم إذا لم يكن لديها ما محتاج إليه بمناسبة زمانها فلا شريعة لها ولا جهاد ولا عبادات ولا بيوع لأن مراقبتها تصبح يدا غيرها ، وتسكون محبوسة في يد دولة أجنبية تذلها وتفعل بها ما فعل الإنسان في الحيوان من ذبح وحمل عليه وإذلال .

علم الله أن أمة الإسلام ستسنى هذه الواجبات بفعله صغار العلماء ، وعلم أننا سنصبح في يد أوروبا فأنزل هذه الآيات لتنتظن لها وتقرأها وتفهم معناها ، فقدم الضرب في الأرض والابتغاء من فضل الله على الجهاد من باب تقديم اللقدمات على النتائج ، وتقديم الوضوء على الصلاة ، وقد أخذ الشافعي رضي الله عنه في الوضوء بحديث : « ابدءوا بما بدأ الله به » ولذلك أوجب غسل الوجه قبل غسل اليدين ، وهكذا ما بعدهما مراعاة لهذا الحديث ، وإذا كانت مسألة الوضوء التي لا تخرب دولة إذا قدم الوجه على اليدين أو بالعكس قد تحرى لها الأئمة إلى هذا الحد وقدموا ما قدمه الله ، أفلا يكون ما يقال هناك يقال هنا ، وهو أن نظام الأمة يجب العناية به حتى يتسنى لنا الجهاد ، إذ لا جهاد إلا بما يقيم أمر البلاد من تجارة وصناعة وزراعة وإصلاح طرق وكهرباء وبخار وقطرات حديدية وهكذا مما لا يمكن حصره الآن من العلوم .

ولعلك تقول : هناك أمور واجبة وهنا أمر مباح ، تقول : إن هذا هو الخطأ في الفهم ، هذا المباح الذي ذكرته قد أقررت بأنه فرض كفاية فأصبح واجبا على الأمة ، فلا بد من أن الحكومات الإسلامية تخصص لكل طائفة من الأمة أعمالا مما تجب في الوقت الذي هي فيه ، ولعلك تذكر ما نقلته عن مدارس أمريكا في (سورة آل عمران) وأنهم يعلمون في المدارس من الصناعات التي تبلغ نحو سبعة آلاف صنعة نحو مائتي صنعة للتلاميذ المدارس ، وأن الصناعات عامة هناك ، وأن الصانع هناك يعتبر كالمهندس وكالطبيب وكالقاضي وما أشبه ذلك .

لعمرك إن هذا هو الحق . وإن هذا هو ديننا . ديننا الذي يقال فيه : « وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله » العلم ، يبتغون من فضل الله الصناعة ، المعدن من الأرض ، طبقات الأرض ، سياسة الأمم ، علوم الجو ، علوم السفن ، وهكذا مما أسلفناه . كل هذه داخلة في قوله : « يبتغون من فضل الله » وجعل الدين يقاتلون في سبيل الله فريقا . وهذا الفريق آخره ، وإنما آخره لأجلنا نحن الآن لأجل أن أقول في هذا التفسير لكم اقرأوا كلام ابن مسعود ، واقرأوا كلام ابن عمرو بن العاص وانظروا أليس المعنى عندهما هو ما قررناه ؟ ولأجل أن أقول : قد قدم الله هذه العلوم والصناعات على الجهاد كما قدم الوضوء على الصلاة ليعلم المسلم أنه إن حفر في طبقات الأرض لاستخراج المعادن فهو في سبيل الله ، وإن تاجر فهو مجاهد في سبيل الله ، وإن قرأ علم البيطرة فهو مجاهد في سبيل الله ، وإن قرأ علم النبات فهو مجاهد في سبيل الله . وإن قرأ علم الحيوان فهو مجاهد في سبيل الله ، وإن قرأ علم السياسة فهو مجاهد في سبيل الله ، وإن قرأ علم الطيارات فهو مجاهد في سبيل الله . وإن قرأ علم الغواصات فهو مجاهد في سبيل الله ، وإن قرأ علم الملك فهو مجاهد في سبيل الله . بل هو مقدم على من يقاتل الأعداء ، لأنه لا يتم قتال العدو إلا بهذه العلوم ، ومن أصلح الطرق الحديدية وأنى عليها بالقطرات فهو مجاهد في سبيل الله ، وهكذا . فيأبى شمري لم لا نؤلف كتبنا لهذا كثيرة ؟ انتهى .

قاعدة عامة لحياة الأمم

اعلم أن الله عز وجل لما خلقنا في الأرض أعطانا مواهب ، وهي الأعضاء والحواس والعقول ، وأعطانا منحا خارجية ، وهي الأرض وما أقلت ، والسما وما أظلت ، وأوجب علينا أن نستعمل نعمتين . نعمة أنفسنا ، ونعمة الآفاق ، فيجب علينا أن نقوى الأعضاء كاليدين والرجلين وسائر الأعضاء بالخمرين والحركات العضلية والشئ ، أو الأعمال في الصناعات ، وأن نبحت فيما حولنا ، وفي الأرض والسما ، لنستخرج ما كمن فهما من اللواهب الطبيعية والقلبية ، وهكذا لنقوى حاسة السمع والبصر فينا ، وهكذا قوة الخيال والذاكرة والفكرة والحافظة والواهمة ، وقوة اليد بالسكتابة والصناعات ، فإذن يجب علينا تقوية الأعضاء الخارجة والحواس الظاهرة والحواس الباطنة بالطرق العملية المذكورة في مجالها . كل ذلك مأخوذ من قوله تعالى : « وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله ، وآخرون يقاتلون في سبيل الله » .

العبادة والأعمال الأخرى

هذه (سورة المزمل) ابتدئت بالعبادة والصلاة بالليل ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يصلون نصف الليل ، أو أكثر أو أقل . متى كان ذلك ؟ كان ذلك قبل أن يستفحل أمر الإسلام ، وتقوم الدولة على أساس متين ، فلما اتسع نطاق المسلمين هاجر قوم إلى الحبشة ، وآخرون إلى المدينة ، واتسع نطاق التجارة فلما حصل ذلك وسع الله لهم نطاق العمل ، فبعد أن كان صلته في جوف الليل تستغرق ثلثيه أو نصفه أصبح القوم فرقا شتى : ففرقة شغلها أمر التجارة وفرقة شغلها أمر الجهاد وهكذا ، لذلك وسع الله أمر الطاعة وجعلها شاملة كاملة ، وأفاد الناس أن هذه الأعمال هي من طاعات الله ، بل أقول إن الأمر فوق ذلك فإننا إذا وجدنا إنسانا يصلح لعلم الزراعة ، أو نفس الزراعة ، أو لأي عمل من الأعمال . ووجدناه اشتغل بالعبادة والصوم وجب قهره والضغط عليه وعقابه ليتخذ له عملا لسعادة نفسه وأمه . فمن قدر على علم أو صناعة نافعة للعموم فذلك أفضل . فإن عجز فليعمل عملا نافعا في تجارة ، أو إغائة للبهوف ، أو نحو ذلك ، فإن عجز عن هذا كله فليلتزم العبادات ليلا ونهارا ، فإن الصحابة لما لم يتسع نطاق أعمالهم كلفوا بالعبادات الشاقة ، فلما كثرت عليهم الأعمال وقويت شوكتهم عملوا وعد ذلك من الجهاد ، ولو كان الانهماك في العبادة أفضل لأمر الله بذلك ، ولكن الله صرف الناس عن الشاق في صلاة الليل إلى الشاق في التجارة عند الاقتضاء فذلك هو أفضل من صلوات التواقل ، فلا فرق بين علم وعلم ، ولا بين صناعة وصناعة ، كل ذلك حقا أفضل من العبادة كما قاله علماءنا ، وكانص عليه الإمام الغزالي في (بداية الهداية) .

فعلى حكم المسلمين أن يقهروا رجال الصوفية جميعا على الأعمال ، وأن يستخرجوا أناسا يصلحون للأعمال من التنكيا ليعملوا أو ليتعلموا صناعات أو علوما نافعة للأمة ، وحرام أن يترك المسلمون سبيلها بدون ضابط ولا قانون .

جل الله : يقول الله في أول السورة : « يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا » أخرجه وأخرج أصحابه من فراشهم إلى الصلاة ، ثم أخرجهم من الصلاة : أي من الإكثار منها إلى الجهاد الصام الذي يشمل كل علم وكل صناعة ، كأنه تعالى بهذه الإشارة يقول : إذا كان نبيكم وهو مزمل في نياحه وهو أكثركم طاعة قد أمرناه بالقيام فهكذا أتم وأنتم أقل منه طاعة لنخرجكم إلى العبادات وإلى الأعمال وأن تكونوا كالمسلمين .

النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن كاسلاقط ، بل كان مستمرا في طاعة ربه على دين الخليل وقد نزل له الوحي ولما ارتجف فؤاده وزملوه في ثيابه أمره أن يقوم الليل فمن باب أولى أمته الذين هم مقصرون في جميع أعمالهم حثهم الله على العمل وعلى العبادات ، وكأنه يقول : إذا كان النبي قد زمل في ثيابه لحظة قد أمرته بالعمل فكيف بكم وأنتم لاتعملون وكل الأمم حولكم عاملة ؟ فأنتم كأنكم مزملون في ثيابكم أبدا ، قوموا للعبادة وقوموا لغيرها من علم وصناعة .

ومن عجب أنه لم يقرن الجهاد وابتغاء الفضل من الأرض والعبادة كلها معا في سورة واحدة إلا هذه ، ولم يظهر في سورة فضل الضرب في الأرض مثل ما ظهر في هذه السورة ، فكأن لفظ المزمل تشير إلى أن كل ما يوجب الانقطاع عن العمل العام والعمل الخاص يجب أن يتخلص منه ، فكأن هذه السورة نزلت لحث الأمة على الأعمال كلها ، بل إن النبي صلى الله عليه وسلم مرسل لنا وقص السلام علينا لإرشادنا ، فإن هذا القرآن الآن إنما هو لنا نحن الأحياء ننفع به . إن نزول هذه السورة بهذا الترتيب عجيب يوجب عليهم القيام بالليل ثم ينسخ الوجوب عليهم ويبيحهم على النبي صلى الله عليه وسلم ويوجههم إلى الأعمال العامة ، لماذا هذا كله ؟ ولماذا يقص علينا ؟ لا بد أن يكون المقصد أن ننظر نحن لأن ، فكلمنا اتسعت أعمال الأمة شمرنا عن ساعد الجهد وفتحنا أبوابا لأعمال جديدة ولا نقف عند حد ، والله فتح لنا الباب فقال انظروا ها أناذا شغلتم أولا بالعبادة ثم فرقهم فرقا للعبادة وللعلم وللجهاد وللتجارة ، فهكذا أنتم افعلوا ما فعلته أنا مع الصحابة ، فإن لم يكن إلا العبادة فيها ، وإن كانت لكم دولة وأمة واتسع نطاق الأعمال فلا تدعوها وترجعوا للمساجد ، بل انتشروا في الأرض وابتغوا من فضلي ، وأما صلاة الليل فهي نافلة لكم ، فافعلوا منها ما تقدرون عليه ، وإياكم أن تشغلكم عما بهمكم من أمور الحياة الدنيا .

لقد تدهورت الأمة الإسلامية اليوم بالنسبة لقراءة القرآن ، وخالفت ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح وما أمر الله به في القرآن . أليس من المحزن أن المسلمين اليوم في مصر وما يماثلها يحفظون القرآن ويقرءونه صباحا ومساء يهدونه هذا أي يسرعون فيه إسراعاً مع أن القرآن جاء لتفكير فيه ، وانظر كيف يأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقرأ في شهر ، ولما أطال ابن عمر القول عليه قال لا يزيد عن سبعة أيام : أي أن ذلك أقل ما يمكن الفهم فيه .

إن الأمة الإسلامية منبت ورزئت بطائفة من المحدثين أيام العصر الأول اخترعوا أحاديث ودونوها ، وزعموا أنهم بها يتقربون لله تعالى ، وذكروا فيها فضائل وصفات وثواب لمن قرأ سورة كذا ، فظن الناس أن هذا حق فدرجوا عليه وقرءوا القرآن وهدوه هذا : أي أسرعوا في قراءته ، وهذا واضح في كتاب (الإتيان في علوم القرآن) فأصبحت الأمة اليوم فريقين : فريق لا يهتم بهذا الدين ولا بالقرآن ، وفريق يقرأ القرآن ولا يتدبره ، ويقرؤه قوم في رمضان مسرعين ، ويقرءون القرآن في كل ثلاثة أيام ، أليس هذا من الجهالة العمياء ، قوم يحفظون القرآن ولا يعقلون ، وقوم لا يؤمنون بهذا الدين ، وهم أكثر من درسوا العلوم بأوروبا ، فالقراء والعباد قلوبهم في غطاء وهم عنوان الإسلام ، فالناظر إليهم يقول هؤلاء عنوان الدين ومما بعنوان الدين ، وإنما هم جهال الدين .

مزية الإسلام في مستقبل الزمان

مزية الإسلام أنه سيعمل بهذه السورة وتفرق الأعمال على مجموع الأمة كما ظهر في (في سورة البقرة) ووضح هناك فافقراء ، وأن تكون جميع العلوم منظورا فيها جهة الحياة الدنيا وجهة خالقها ، فتكون كل

حرفة وكل علم مشوقة إلى خالق هذا العالم على نحو ما بيننا في هذا التفسير فيكون رجال الدين من هذه الأمة ملينين بأكثر العلوم إجمالاً ، وعليه يبعثون في كل علم هم أربابيه إلى استكناه حقائقه مع التشويق لمبدعه من طريق هذا العلم والصناعة التي يكون الرء قائماً بها ، والنصح لهذا التفسير يقدر أن يفعل ذلك في كل علم وكل صناعة . فإن فيه من كل فن طرفاً مطبقاً على الدين مذكوراً فيه الجهة الإلهية المشقة للمقام الأقدس ، وهذه المزية توجب النبوغ في العلوم ، وتكون هذه الأمة أرقى الأمم وأعلاها علوماً وصناعات ،

غرور المسلمين اليوم

كم من مسلم سمع حديثاً مروياً في فضل الحج ، أو في فضل الصلاة ، أو في فضل قراءة القرآن ، أو في فضل الصدقة . أو في فضل عبادة المريض فهياً له عقله ، وسوت له نفسه ، ودله شيخه أن الانقطاع إلى تلك الطاعة والإكثار منها أفضل ، وحينئذ يصبح ذلك المسلم مغروراً ، إن المغرورين من المسلمين قد أوضحناهم في سورة (آل عمران) عند قوله تعالى : « وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون » فقد لحصنا ما قاله الإمام الغزالي هناك ، واستبان في ذلك المقام أن المسلمين اليوم مغترون ، وهذا الغرور ورثناه عن القرون للتأخرة إذ أصبح المسلمون لا مرشدين لهم فتركوا وشأنهم يتخبطون في دياجير الجهالة ، واستنم كل فريق في طاعة من الطاعات ، فكل واحد من سالحى الأمة أصبح مشغولاً بعمل من الأعمال الصالحة كقراءة الأوراد التي وضعها الشيوخ ، وكالحج ، وكقراءة القرآن ، ويكثرون من ذلك ، ويتركون الأمة ولا يفكرون فيها ، ولا في صناعاتها ، ولا في علومها . ولا فيما يحفظ كيانها .

كل ذلك ابتلاء من الله للأمة ، وسيقيض من قراء هذا التفسير ، ومن غيرهم من يفهمون الأمة أن العلوم كلها ، والصناعات عبادات وجهاد ، وأن قوله تعالى . « يبتغون من فضل الله » بعد قوله « وآخرون يضربون في الأرض » يشمل كل علم ، وكل صناعة ، وأن اختيار لفظ « من فضل الله » وعدم ذكر لفظ التجارة التي كانت أهم أغراض الصحابة في الأعمال الدنيوية قد نظرفيه من جناب القدس الأعلى إلى ما نحن فيه الآن ، ففضل الله أعم من العلوم والصناعات وكل ما يحتاج إليه في هذه الحياة الدنيا .

انظر ما تقدم في سورة (آل عمران) فهناك تفصيل الغرورين كما ذكرت لك وتفصيل ما يجب على الأمة من تميم العلوم الخ وكيف يتجدد أبناء العرب من مراكن إلى العراق ، وكيف كانوا متفرقين بالجهالة ، فكمن من امرئ قرأ الأحاديث للوضوعة ، أو الضعيفة الروية في فضل عمل من الأعمال وفوت على نفسه وعلى أمته مزايا نفسه وما انطوت عليه من شمائل شريفة ، ومزايا منيفة ، وعلوم لطيفة ، وصناعات دقيقة . وجهل أن هذه المذكورات من أجل ما ينتهي دين الإسلام .

نام العلماء ولم يذبحوا أمثال ما نقله السيوطي رحمه الله في كتاب الإتيان عن قوم من المحدثين ، وكيف كثرت في القرون الأولى وذاع وملاً الأصقاع . تلك الأحاديث الواردة في فضل السور القرآنية وقراءتها ، وكيف كان أحد التابعين يدهش حينما يسمع تلك الروايات فركب ناقته وسافر أياماً وأياماً وقابل الراوي الذي روى الحديث ، فذله على من تلقاه عنه ، فسافر إليه عشرات الأيام ، كل ذلك وهو يضرب في الأرض ينتهي إحفاق الحق وإبطال الباطل حتى وصل إلى من أذاع هذا الحديث ، فوجده رجلاً زاهداً صالحاً ، فقال له : كيف تقول إنك رويت كذا عن فلان وأنا لم أرو عنه؟ فقال ذلك الصالح : إنني أنا الذي زورت هذه الأحاديث لوجه الله تعالى ، فقال وكيف ذلك؟ قال : لأنني وجدت المسلمين قد أكجوا على علم الفقه الذي أذاعه

أبو حنيفة العماني، تخفت أن يترك المسلمون القرآن إذا اشتغلوا بعم أبي حنيفة. فقات هذه الأحاديث ورويتها وأدعتها ليحفظ القرآن، فأكثر المسلمين اليوم مسحورون بأمثال تلك الأحاديث وهم تاركون لشئون دينهم. ثم إن القرآن يقرأ لجرد التلاوة لا لفهم وهذه من الطامات الكبرى.

إن الله خلقنا في الأرض ورزقنا مواهب بدينية. ونعما أرضية، ومنحنا سماوية، وقال: يا عبادي هذه نعمي فاشكروها، وهذه آياتي فابتغوها، وهذه أرضي فاضرروا فيها، وزينوا أنفسكم بالعلوم والصناعات واستخرجوا كنوزي، فإني وعزتي وجلالي ما خافتها باطلا، ولا أودعها أرضكم لتسكون عبثا عليها بلا عائدة، فلم خلقت فيكم الأسماع والأبصار، ولم علمتكم سبل الاستبصار، ولم زودتكم بنعمة العقل، ودقة السمع، وبهجة البصر، وأعطيتكم أقوى سلاح من الأعضاء الظاهرة والجوارح القوية. ومكنتكم في الأرض تمكيننا وسلطتكم عليها تسلطا، وقلت لكم: هاهي ذه أرضي فاعمروها، وهذه حواسم وجوارحكم فلا تهملوها وأزلت عليكم في كتابكم وآخرون يضربون في الأرض يتغنون من فضلي فيها.

ويقول للمسلمين: لا عقولكم اتبعتموها، ولا آياتي فهمتموها، ولا نعمي قبلتموها، ولا حواسمك توليتموها ولا جوارحكم مرتموها، فهل أعطل نعمي لأجل جهلكم أو أبقى أرضي بلا زرع لغفتكم؟ كلا. فأنا الحكيم العليم، فإن توليتهم عن إصلاح حواسم وجوارحهم وعمارة أرضهم بطشت بهم وسلبتها لغيركم جزاء وفاقا، الأرض أرضي، والناس عبادي، وأنا عالم من هو الذي يصلح لاستخراج ثمراتها والقيام بأمرها فهذا هو الذي أسلمه قيادها.

أيها المسلمون: كنتم قديما أولى من غيركم فسلتكم قياد أرضي، والآن وجدت تعاليجكم مشوهة، وعلومكم منحرفة، ودروسكم مظلمة. فسلبتكموها وأعطيتها لغيركم. وهاهوذا آن الأوان لظهور مالم يظهر من كوامن غرائزكم وبواطن أرضكم. ومزايا نفوسكم. وإشراق علومكم. ولذلك بدت تلتفت العلم والحكمة في بلاد الإسلام وظهر أزباب العقول اليوم في بلاد العرب والترك والفرس. وسيزداد الأمر وتأخذ الأمم الإسلامية مكانتها. «اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم آيات لعلم تعقلون».

اتهى تفسير سورة المزمل صباح يوم الثلاثاء، ٢١ يوليو سنة ١٩٢٥ م وهو التاسع والعشرون من شهر ذي الحجة الحرام من سنة ١٣٤٣ هجرية. والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة المدثر

هي مكية

آياتها ٥٦ - نزلت بعد سورة المزمل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ • قُمْ فَأَنْذِرْ • وَرَبُّكَ فَكَبِيرٌ • وَتِيَابُكَ فَطَهَّرٌ • وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ •
وَلَا تَمَنَّئَنَّ تَسْتَكْبِرُ • وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ • فَإِذَا تَقَرَّرَ فِي النَّاقُورِ • فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ
عَسِيرٌ • عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ • ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا • وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا

تَمُدُّوهُمَا * وَبَيْنَ شُهُودًا * وَمَهَّدتْ لَهُ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّا إِنَّهُ كَانَ
 لَآيَاتِنَا عَنِيدًا * سَأَرْهِقُهُ صَعُودًا * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ
 كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ
 يُؤْتَرُ * إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِي وَلَا
 تَذَرُ * لَوَاحِةٌ لِلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ * وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً * وَمَا
 جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَّ الَّذِينَ
 آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ
 مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن
 يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ * كَلَّا وَالْقَمَرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا
 أَدْبَرَ * وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ * إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكَبِيرِ * نَذِيرًا لِلْبَشَرِ * لِمَن شَاءَ
 مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقِدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ * كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ *
 فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ
 الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ
 بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّى آتَانَا الْيَقِينَ * فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ * فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ
 مُعْرِضِينَ * كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ * فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ * بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ
 مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صِحْفًا مُمْشِرَةٌ * كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ * كَلَّا إِنَّهُ تَذْكَرَةٌ *
 فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ * وَمَا يَذْكَرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ *

مقاصد هذه السورة

(أولاً) ست أوامر للنبي صلى الله عليه وسلم وهي:

(١) الانذار .

(٢) وتكبير الله .

(٣) وتطهير الثياب :

(٤) وهجر ما يؤدي إلى العذاب .

(٥) ولا تمن على أصحابك بما تعلمهم من أمر الدين وتبلغهم من أمر الوحي كالمستكثر بذلك عليهم . ولا على الفقراء بما تعطيتهم استكثرارا منك لتلك العطايا فتعليمك وعطاياك يجب أن تكون موجبة لجناب الحق مع الإخلاص وعدم اللب على التملين . ولا على الفقراء . فإن الخلق عبادة وأنت جملة أبا لهم ، هذا في أمر أصحابك وأتباعك .

(٦) فأما الكفار بك والمؤذون لك فاصبر على أذامهم . ثم فعلت ذلك كنت شاكرًا صابرا .

(ثانيا) تبيان العقاب المنزل على من خالف الدين وعاند الرسول دلالة على أن صبره صلى الله عليه وسلم عليهم عاقبته النصر له في الدنيا والآخرة وحذلان للماندين . وذكر من هؤلاء أوصاف الوليد بن المغيرة وأنه أعطى مالا وفيرا وعشرة بنين ورياسة ووجاهة . فمات الله بعد نزول هذه السورة فقضت أحواله كلها في الدنيا . « ولعذاب الآخرة أجزى » . وذكر كيف استهزأ برسول الله صلى الله عليه وسلم وأدبر واستكبر وذم القرآن وجعله سحرا ، وأنذر على ذلك بسقرته وصفها بأنها عليها تسعة عشر صفا من الملائكة إلى آخر ما سياتي من عظيم أمرها . وذكر أن كل نفس مرهونة بعملها . وأن أهم أعمال أهل النار ترك الأعمال وتعطيل القوى . فلا عقولهم يفكرون بها إذ يعرضون عن التذكرة كالخمر المستغفرة الفارة من الأسد . ولا جوارحهم يستخدمونها في الأعمال كالصلاة وغيرها ، ولا أموالهم يشكرون الله عليها فيعطون منها الفقراء هذا ملخص السورة إجمالا . والحمد لله رب العالمين .

المقصد الأول

المدثر : هولاء النار فإنه تأذى من قريش فتعطى بثوبه مفكرا وكان ناعما متدنرا فترلت ، وفي البخاري ومسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « جاورت بحراء شهرا . فلما قضيت جوارى هبطت فتوديت فنظرت عن يميني فلم أرى شيئا ، وقال مثل ذلك في الشمال والحلف وجهة الرأس ، ثم قال : فأثبت خديجة فقلت دثروني فدثروني وصبوا على ماء باردا ، فترلت . « يا أيها المدثر . قم فأندبر . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر » .

وفي رواية قال ما يقيد أنه رأى الملك الذي جاءه بحراء قاعدا على عرش في الهواء ، فأخذته رجفة شديدة الخ .

مقدمة لتفسير هذه السورة وصلتها بما قبلها

اعلم أن (سورة المزمل) ذكرت بعد (سورة الجن) لأن السورتين مشتركتان في أن كلا منهما يقيد الاتصال مع العالم الروحي ، فسورة الجن لإعلام الناس أن الجن لهم اتصال بعالم الإنس ، وأنهم سمعوا القرآن فأمنوا به ، وسورة المزمل تشير إلى أن عالم الملائكة ينزل على الأنبياء ، والأنبياء عنه يبايعون ، فيكون ذكر سورة المزمل كذكر السبب وراء المسبب ، لأن عالم الجن يسمع من النبي صلى الله عليه وسلم . والنبي صلى الله عليه وسلم يتلقى عن عالم الملائكة . فهو أسمع الجن ما يسمعه من الملائكة ، وأن الإنسان الحي قد يكون واسطة بين عالمين روحانيين ، فإن هؤلاء الجن الذين سمعوا منه صلى الله عليه وسلم ما كان لينسى لهم أن يسمعوا من جبريل ولا أمثاله من الملائكة ، وآتى لهم ذلك وهم عن السمع معزولون ، وإنما يسمعون بالواسطة ، وهذا على حد قول الشاعر :

بكل تداوينا فلم يشف ما بنا على أن قرب الدار خير من البعد
على أن قرب الدار ليس بنافع إذا كان من تهواه ليس بنذى ود

فالتجاوران للتأنيان للتضادان لا يجتمعان ولا يتفاهمان ، وللتباعدان المتحدان مشربا يقتربان ويتناجان .
وروى « إن لله ملائكة يسوقون الأشكال إلى أشكالها » وهذا القرآن بين ظهرائنا فيه السلام على الجن
وعلى الملائكة ، ولكن لما كان المسلمون غير مستعدين لهذه العلوم في الأزمان للتأخرة نقل الله العلم إلى
بلاد الغرب ومحتوا فيه هم ، وأنوا بمئات من الغرائب التي نطق بها كتابنا وذكرنا بعضها ، وسيظهر كل ما في
القرآن من سر ، وما سبب ذلك إلا الاستعداد ، فلما كانت الأمم الإسلامية قبل اليوم غير أهل لهذه العلوم
صرفها الله عنهم إلى غيرهم وإن كان القرآن بين ظهرانهم يقرءونه صباحا ومساء ، فيكون القرآن مع المسلمين
كالملائكة مع الجن ، فهما في عالم واحد روحاني ، فلما لم يألفا كالملائكة من تأهل للعلم من الناس وهو
النبي صلى الله عليه وسلم ، والنبي صلى الله عليه وسلم علم الجن وإن لم يعلم به إلا من الوحي كما تقدم ؛
فالمسلمون كالجن ، والقرآن كالملائكة ، فلما لم يفهموه ولم يفكروا فيما اشتمل عليه جعل علومه تظهر على
بد أم أخرى ، وسيعرف أبنائنا علوم الأمم ويتمون البحث .

هذه هي المناسبة بين سورة الزمل وسورة الجن ، وسورة الزمل فيها بعث المهتم على العبادات وقيام
الليل لاستخراج ما كمن في النفوس من اللواهب فإن العبادات والتذكر وهجر النوم والتوجه لله تبت في النفوس
وجدانا لتبعثه العلوم ، ولم يبق في الأرض قائم بعمل إلا إذا تحرك إليه وجدانه ، إن أهل الأرض جميعا
لا يقومون لتأسيس دولة ، أو إقامة عمل بموقف يوقفهم ؛ وهذا الموقف المحرك لهمم لا قدرة له على بعث
تلك المهمة لما يريد إلا إذا انبثت همته هو أولا .

هذه قاعدة مطردة ، أما الخطيب ، أو الواعظ أو المؤلف الذين خلت نفوسهم من الوجدان ومن الحب
لما يقولون فإن السامعين والقارئین لما يقولون وما يكتبون لا يحسون بوجدان في نفوسهم . إن هناك صلة بين
القائل والسامع والكتاب والقارى ، فعلى مقدار تأثر السكتين والفائلين تكون الآثار في نفوس السامعين
قلة وكثرة هذا أمر لا مرد له ، فكل ذى وجدان مؤثر أثر ما . وهذا الأثر بقاؤه في الأمم يكون على
مقدار القامعين به من حيث وجدانهم وآثارهم . ففي سورة الزمل أمر بقيام الليل . وبقى الوجوب في حقه
ونسخ في حق الأمة وبقى الندب . فصلاة الليل نافلة . وبذلك فتح الباب للأمة فليتهجد من يشاء كما تهجد
النبي صلى الله عليه وسلم . وليعلم كل مطيع ومتهجد أنه بهذه الطاعة تنساق إليه طلائع الفهم ومقدمات العلم .
وإذن يدخل في باب الحمد . وقد قدمنا في القاعة وغيرها أن الحمد لا يتم إلا بالعلم . فالتهجد إذن مفتاح
لاشراح الصدر وقبول العلم . فإذا تهجدت أيها التلميذ فسترى في قلبك آثار الاشراح لاسيا إذا استحضرت
معاني القراءة وتوجهت بقلبك إلى الله وخاطبته كأنك تراه . ومتى انفتح لك باب الفهم وأجبت العلم فها هو ذا
باب الحمد ، فإنه لا حمد إلا على معلوم . والنممة التي لا تعلم كيف نحمد عليها ؛ فمقام الحمد يستلزم معرفة ما في
السماوات وما في الأرض . إذن فادرس ما أمكنك من عالم السماوات والأرض . وقد أودعنا جواهر علومها
في هذا التفسير : وهذا من مبادئ مقام الحمد .

فإذا أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يتهجد بالليل فذلك لتعليمنا أن نوجه قلوبنا بذلك إلى الله وبه

يفتح مطلق الفهم :

وهذا ما تفتضيه سورة الزمل . وأما سورة المدثر فهي للانذار والتعليم : فسورة الزمل انفتح باب
الفهم للمصلين ، فإذا انفتح ذلك الباب تعلموا مع الوجدان ، وإذن يصلحون لإرشاد غيرهم ، وذلك

هو أول سورة المزمل ، فهذا الترتيب في السور جعل مقصودا لتعليمنا ، وإلا فلماذا تكون سورة الجن فالمزمل فالدثر ؟ .

ذكر الأوامر الستة التي أمر بها الرسول صلى الله عليه وسلم وهي جعلت تعليما لنا

اعلم أن من يتصدى لتعليم الناس يجب عليه أولا أن يكون موقفا بما يقول كما شرحناه ، بل يكون من وجدانه ، وأعظم شيء في الدعوة النبوية أن يكون القائم بها موقفا أن ربه منزّه عن كل ما هو من صفات الحوادث لا يبلغ وصفه الواصفون ، وأنه أجل من أن تعرف غاية كماله ، فإنه إذا اعتقد ذلك لاجرم سار في دعوته غير هيب ولا وجل ، لأنه يعلم أنه ينشر دعوة لأعظم موجود ، وهو الفيض الموجود على كل موجود فيصبح ويمسى وهو سرور الفؤاد فرح بما يلقى إليه صابر منشراح الصدر متوكل عليه ، لأنه موقن أنه مطلع عليه فلا يخاف من الناس ، وإذا تذكر الموت فرح به ، لأنه يعلم أنه قد اصطفى لذلك الأمر من بين الناس ، هذه المعاني يشير لها قوله (يا أيها الدثر . قم فأندر . وربك فكبر) والداعي الناس إلى ربه الكبير لا يتم له ذلك إلا إذا كان متخلقا بأخلاقه ، فإذا كان الله منزها بكبريائه عن سمات الحوادث ، أفلا يكون القائم بأمره منزها عن النقائص الإنسانية ، وكيف تكون المناسبة هناك عالم يكن قد تحلى الرء بالصفات الجميلة وتحلى عن الصفات الناقصة ، فعبّر عن ذلك كله بقوله (وثيابك فطهر) .

اعلم أن هذه الجملة يعرف نظيرها عند العرب بطهارة النفس كالصدق والوفاء . يقولون فلان طاهر الثياب إذا كان صادقا وفيا ، وإذا كان غادرا يقولون هو دنس الثوب ، ولا تزال هذه المعاني تستعمل إلى الآن في بلادنا المصرية ، يقولون : فلان طاهر الثيل ، يريدون أنه لا يلامس امرأة أجنبية .

وهذا القول من باب الكناية ، والكناية لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع جواز إرادة المعنى الأصلي . والكناية أحد الأقسام الثلاثة في علم البيان وهن : التشبيه ، والمجاز ، والكناية ، وهذه كثيرة في القرآن فإذا سمعت قول الحنساء :

طويل النجاد رفيع العما دكثير الرماد إذا ماشتا

فاعلم أنها تريد أنه طويل القامة شريف بين قومه كريم ، هذه هي المعاني المقصودة لها ، أما كون علاقة السيف طويلة ، أو أن عماد البيت مرتفع ، أو أن رماد وقوده النبي يطبخ به الطعام كثير ، فليست هذه المعاني التي هي موجودة فعلا أو غير موجودة مقصودة لدانها فرمما وجدت وربما لم توجد ، وإذا وجدت فليست هي المقصود ، وأبضا قولها لما خطبها دريد بن الصمة :

معاذ الله يرضعني جبركي قصير الشهر من جثم بن بكر

تقول : أنا لا أزوجه لأنه قصير من قبيلة غير مرضية عندي ، ولكن لم تنطق بهذا القول بل قالت أنا لأرضع ولدا قصيرا بهذه الصفة ، فكنت بارضاع من هذه صفته عن زواج والده ، فإذا منعت الرضاع فقد منعت الزواج ، ولا جرم أن الكناية أبلغ من الحقيقة ، فإذا لم تكن البلاغة في كتاب الله فأين تكون ؟ فإذا سمع العربي قوله تعالى : « وثيابك فطهر » خطر بباله طهارة النفس وشرفها وبعدها عن كل ريبة ، فتكون طهارة النفس بالصفات الجميلة ، والأخلاق الفاضلة وبعدها عن الغل والحقد والحسد والسكر والحث وكرهة الناس ، كل هذه هي الصفات المقصودة ، وذكر طهارة الثياب كذكر طول النجاد . فإن من طال نجاد سيفه فهو طويل لا محالة .

واعلم أن هذه اللازمة : أي بين طهارة الثياب وطهارة القلوب التي جمعت كالملازمة بين طول النجاس
وطول القامة قد ظهرت اليوم بأظهر معانيها ، وقد ذكرناها في (سورة البقرة) عند قوله تعالى : « إن الله
يحب التوايين ويحب المتطهرين » فهناك نقلت عن علماء أوروبا المشتغلين بأصول القوانين أن أكثر الناس
قدرا في جسمه وثيابه أكثرهم ذنوبا ، وأطهرهم بدنا وثيابا أبعدهم عن الذنوب ، وبنوا على ذلك أنهم أمروا
السجونيين بكثرة الاستحمام ونظافة الثياب فحسنت بذلك الأخلاق ، وخرج السجونون أقرب إلى الأخلاق
الفاضلة منهم إلى الرذائل ، هذا هو قوله تعالى : « وثيابك فطهر » فكلما كان الانسان أظهر ثوبا وبدنا كان
أقرب إلى طهارة النفس ولذلك كثرت الطهارة في ديننا وأتى عليها الأستاذ (بننام) في كتابه (أصول
الشرايع) وقال : [إن كثرة الطهارة في دين الإسلام مما يدعو معتقيه إلى رقى الأخلاق والفضيلة إذا
قاموا بأوامره في النظافة خير قيام] .

فإذا عرف الداعي إلى الله ربه واستمد لذلك بطهارة الأخلاق والظواهر من ثوب وبدن فإنه يستمد إلى
ترك ما يحل بأخلاقه الظاهرة والباطنة فينجو من العذاب ، وهو قوله (والرجز فاهجر) فالرجز العذاب
أي فارك أسباب العذاب يوم القيامة ، بل سوء الأخلاق هي العذاب في الدنيا والآخرة ، اقرأ ما ذكرته
في سورة (البقرة) عن الفيلسوف اليوناني المسمى قابس الذي شرح أخلاق الناس ومواهبهم وجعل أكثر حياة
الناس عذابا ، وأصحاب الأخلاق الفاضلة هم النعمون في هذه الدنيا ، فإذا يكون لفظ الرجز يشمل عذاب
الدنيا والآخرة ، ففي الدنيا يحس الإنسان بمقت الناس وضيق صدره إذا ساءت أخلاقه ، وينقلب ذلك بعد
الموت إلى عذاب آخر شديد .

هذا معنى قوله : « والرجز فاهجر » فكأن هجر الرجز من تمام طهارة النفس أو من لوازمها ، ومتى
طهرت النفس وسلم الانسان من الآثام ، هنالك تكون نفسه قد استعدت للافاضة على الناس وهم يقبلون
على الداعي ، وحينئذ لا يبقى أمام الداعي إلا عقبتان : إحداها الفرور والفخر والعظمة ، فيقول : أنا مفيض
والعروف عليكم أيها الناس ، أنا أعظم قدرا ، ويحصل له الفرور العظيم . والعقبة الثانية أنه له أعداء وهؤلاء
يؤذونه ويترصدون به الدوائر ، ويتعقبونه ولا يرحمونه ، ويذمونه في كل مكان ، ويتألبون عليه ليلا ونهارا
وذلك هو التبط لأكبر الدعاة ، فإنهم حينما يرون العقبات أمامهم يكرهون راجعين ويقولون : مالنا ولقوم
لا يسمعون قولنا ، فلندخل في كسر بيتنا ، ولنبتعد عن الناس ، فإنهم لا يفهمون ولا يعرفون قدر النعم ، ولا
يشكرون النعمين ، فلها تين العقبين قال الله تعالى (ولا تئن تستكثروا لربك فاصبر) أي فلا تئن على أصحابك
بما علمتهم وبلغتهم من الوحي حال كونك مستكثرا ذلك عليهم ، وقد قرى : تستكثروا بالسكون على الإبدال
من تئن ، ولوجه ربك ولأمره فاستعمل الصبر على أذى من خالفك ، وملخصه ألا يئن على تابعيه ولا يجزع
من أذى مخالفيه ؛ فهو أولا ذكر العلم ، ثم العمل ثم التبليغ ، وهذه الصفات إن لم تتوفر في الداعي لا تتم
دعوته .

واعلم أيها الذي أن الذي أضر بأمنا الإسلامية إنما هو الجهل بمقاصد القرآن ، فإنهم إذا سمعوا هذه
الأوصاف ظنوا أن ذلك لا يعينهم ، وفاتهم أنهم أتباع النبي صلى الله عليه وسلم ، فليس يبلغ السلم من سامعيه
ما يريد إلا إذا كان متحققا بالعلم الذي يليه وقد كملت نفسه ، فان نفوس الناس لها إحساس وشعور تدرك
به مافي قلب الفائل ؛ ونحس بأثره إن كان كاملا ، ونحس بالإعراض إن كان ناقصا .

ثم إنك بعد التحقق من هذا الكتاب ستجد في نفسك أثرا ما وجبا لنفع الأمة ، فسيف في طريقك
العقبان ذكرتا تعليبا لك أنت فتقول في نفسك مالي أنفع الناس وهم لا يقومون بما يجب عليهم نحوى

وقد علمت أن الشمس والقمر والكواكب لا ينفعها الناس ، وأن الله خلق الناس بنفسه وأنت قد أعددت نفسك أن تكون خليفة قائما بالأمر ؛ فلتتخلق بأخلاق الله تابعا نبيك صلى الله عليه وسلم ، فتعطيهم العلم وتواسيهم بالمال إن قدرت ، ولا تطلب جزاء ولا شكورا ؛ وتصبر على أذية أعدائك .
 وإياك أن يكون التمس والاحتقار والعدوات ما نعت لك عن الجد في عملك والمضي فيه ؛ فلتنلزم الصبر ، فإن لم تصبر دل ذلك على ضعف في قوتك النفسية فاحذر ، ولتعلم أن ما في هذا القرآن من الوعد بالنصر لنبينا صلى الله عليه وسلم هو نفسه وعدك بالنصر في هذه الحياة وما بعدها اه .

لقد ذكرت لك أن (سورة الجن) أتى بعدها بسورة المزمل ثم اللذين لأن الجن ليس عندهم استعداد لتلقي العلوم عن عالم الملائكة ، وأنهم لا يليقون لذلك العالم وإن كانوا معهم في عالم الأرواح وأن المناسبة هي التي توجب العلم ، وأزيد الآن أن الحيوانات الدرية (المسكروب) والكهرياء ومنافع البخار كانت حاضرة معنا ، ولكن كان استعدادنا لمعرفتها غير حاضر عندنا ، فالعلوم حاضر ولكن الاستعداد لعله غير موجود فنعنا عنه ، فليس منعنا عن الكهرياء لبعده المسافة بيننا وبينها ، ولا الحيوانات الدرية الضارة والنافعة في داخل أجسامنا وخارجها لبعدها عنا بل هي موجودة فعلا في داخل أجسامنا تعد بالآلاف والآلاف وفي طعامنا وفي شرابنا ، ولكن الذي منعنا هو جهلنا وقد انطرق الموصلة للمعرفة .

أفلا يحق لنا أن نقول بمد هذه القدمات التي صارت معلومة إن بعد السعادة عن النوع الإنساني في حياته الدنيا وشقاء فيها ليس ذلك لبعده السعادة عنه ولكن لجهله بالطرق الموصلة لها ، لقد صدق سقراط إذ يقول : [إن الناس ما أشقاهم إلا جهلهم فلو كان عندنا من العلم ما يكفيننا لكنا في الحياة الدنيا سعداء] .

أقول : ولكننا نتعلم القليل لتطير به إلى عالم ترتقي فيه هناك بذلك القليل ، ألا يمكننا الآن أن نفهم ما جاء في (سورة الحديد) . « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو راسمهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا » وأيضا قال تعالى « وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سرهم وجهركم ويعلم ما تكسبون » فليس بعد الله عنا بالمكان ، إذ ليس يجسم حتى نساغر إليه ، ولا بعض الأمكنة يختص به دون الآخر بل هو موجود لا يختص به مكان ولا زمان ، وما منعنا من النظر إلى ذاته إلا أننا في عالم لا يسمح بذلك ، فبعد المكان وشدة الحجاب هي التي منعنا أن نراه لبعده المكان ، وليس ارتقاؤنا في الأحقاب التالية سفر في العوالم ، بل السفر بالهمة وقطع العقبات النفسية ، وكشف الحجب ، ولطف النفوس ، وكما لطف النفوس اليوم عرفت بعض المعرفة أدق الحيوانات وبعض الأرواح معرفة قليلة ، هكذا تترقى بعض النفوس على طول الزمان فتصل بحفة نفوسها وإشراق ذواتها إلى النظر لوجه الله ، وهذا على حياة مجهولة لنا لا نتخيلها الآن إلا بما ضربنا من الأمثال ، كان الناس يكذبون بكل حي غير ما عرفناه من الحيوان ، ويكذبون بالملك والجان فأصبحوا يحدوثونها . فهكذا هناك ملائكة علويون لا يمكن لأهل الأرض مخاطبتهم ، وهكذا الله من فوقهم .

إن نفوسنا وإن كانت محبوسة في هذه الأجسام تراها لا تطيق الحبس ، فهي تبحث في السموات والأرض وبينها هي مفكرة في الأرض إذا هي في السماء ، إن نفوسنا قبسة من إشراق النور الإلهي ، ولذلك لم نجد لها سرورا في العالم المادي
 ثم قال تعالى (فإذا قرأ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحموا) وهو القرآن الذي ينفض فيه الملك ، مأخوذ

من البقر بمعنى التصويت ، وأصله القرع الذي هو سبب الصوت . يقول الله : ولربك يا محمد فاصبر على أدام فان بين يديهم يوما عسيرا فيذوقون عاقبة كفرهم وأدام ، وتعال فيه جزاءك الحسن ونعيمك المقيم ، نجواب إذا محذوف كما ذكرنا دل عليه قوله (فذلك يومئذ يوم عسير) وأكده بقوله (على الكافرين غير يسير) وإذا كان كل عسر ينقلب في آخر الأمر إلى يسر فهو لاء . يومئذ يومئذ بالجر . ثم أخذ يذكر أوصاف الوليد بن المغيرة ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قام في المسجد يصلي والوليد بن المغيرة قريب منه يسمع قراءته ، وهو يقرأ (حم : تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير) ، فلما فطن النبي صلى الله عليه وسلم إلى استماعه أعاد القراءة فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه من بني مخزوم فقال والله لقد سمعت من محمد أمفا كلاما ما هو من كلام الإنس ، ولا من كلام الجن ، والله إن له لخلوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو وما يعلو عليه ، ثم انصرف إلى منزلة ، فقالت قريش : صبا والله الوليد ولتصيون قريش كلهم ، فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه ، فانطلق حتى جلس إلى جنب الوليد حزينا ، فقال له الوليد : مالي أراك حزينا يا ابن أخي ؟ فقال ، وما يعني أن أحزن وهذه قريش يجمعون لك نفقة يمينونك على كبر سنك ويزعمون أنك زيفت كلام محمد ، وأنت تدخل على ابن أبي كبشة وابن أبي عفاة لتتال من فضل طعامهم ، فغضب الوليد وقال : ألم تعلم قريش أتى من أكثرهم مالا وولدا ، وهل شيع محمد وأصحابه من الطعام حتى يكون لهم فضل طعام ! ثم أتى مجلس قومه مع أبي جهل فقال لهم : زعمون أن محمدا يحنون فهل رأيتموه يحنق قط ؟ قالوا اللهم لا ، قال زعمون أنه كاهن فهل رأيتموه قط تسكهن ؟ قالوا اللهم لا ، قال زعمون أنه شاعر فهل رأيتموه ينطق بشعر قط ؟ قالوا اللهم لا ، قال زعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئا من الكذب ، قالوا اللهم لا ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمى الأمين قبل النبوة لصدقه ، ثم قال : ما هو إلا ساحر أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه فهو ساحر ، وما يقوله سحر يؤثر ، فهذا هو ماسيأى من قوله تعالى : « إنه فكر » أى فى أمر محمد والقرآن « وقدر » فى نفسه ماذا يمكنه أن يقول فى محمد وفى القرآن .

هذا وقد كان الوليد يسمى الوحيد ، لأنه وحيد فى قومه ، مثاله كثير جدا ، فيه الزرع والضرع والتجارة يقال إنه كان ألف درهم ، وقيل تسعة آلاف متقال فضة ، وكان له بين مكة والطائف إبل وخيل ونعم وغنم وعبيد وجوار وكان له بستان بالطائف لا تنقطع ثماره شتاء وصيفا ، وكان أبناؤه عشرة يشهدون المحافل والجامع أسلم منهم ثلاثة وهم خالد وهشام وعمارة ، ثم إن الوليد قد بسط الله له الرزق وطال عمره مع الجاه العريض والرياسة فى قومه ، وكان من أكابر قريش . ويسمى (ربحانة قريش) ، فهو ربحانة وهو وحيد ، فإذا عرفت هذا أمكنك فهم الآيات الآتية .

قال تعالى (ذرني ومن خلقت وحيدا) أى ذرني معي فإني أكفيك ، وكيف لا أكفيك وقد كفر بنعمتي ؟ ألم أخلقك وحيدا فى قومه حتى نعمتوه بذلك ؟ (وأجعلت له مالا ممدودا) ميسوفا كثيرا ، أو ممدودا بالتمام (وبين شهودا) حضورا معي بمكة يتمتع بلقائهم لا يحتاجون إلى سفر لطلب المعاش استغناء بنعمته وخدمته وعبيده يقومون مقامهم فى ذلك (ومهدت له تميدا) بسطت له فى العيش وطول العمر بسطا مع الجاه العريض والرياسة فى قومه (ثم يطعم) يرجو (أن أزيد) أى أزيد مالا وولدا ونعميدا (كلا) لا أفعل ولا أزيد ، فأخذ ماله فى النزول بعد ذلك حتى هلك ثم علل ذلك فقال (إنه كان لآياتا عنيدا) معاندا فلا يؤمن

يعت ، ولا يوحد الله تعالى (سأرهقه صعودا) رأغشيه عقبة شاققة الصعد ، وهذا مجاز يراد به شدة الأمر عليه حتى جاء في الحديث « أنه جبل من النار يصعد فيه سبعين خريفا ثم يهوى » (إنه ففكر وقدره) تمليل للوعيد ، يقول الله . إذا أنا لم أزد ماله ونعمته فذلك لأنه معاند لآياتنا ، وإذا جشمت العذاب يوم القيامة فذلك لأنه فكر فم تخيل طعنا في القرآن وقدر في نفسه ما يقول فيه (قتل كيف قدر) أى لعن كيف قدر ، وهو على طريق التعجيب والإنكار والتوبيخ (ثم قتل كيف قدر) تكرر للمبالغة (ثم نظر) في أمر القرآن (ثم عيس وبسر) قطب وجهه عما لم يجد فيه طعنا ولم يدبر ما يقول (ثم أدبر) عن الحق (واستكبر) عن اتباعه (فقال إن هذا إلا سحر يؤثر) يدرس ويعلم (إن هذا إلا قول البشر) تأكيد للجملة قبلها (سأصليه سقر) هذه مبدلة من قوله « سأرهقه صعودا » (وما أدراك ما سقر) تفخيم لشأنها حال كونها (لا تبقى ولا تذر . لواحدة للبشر) البشر جمع بشرة : وهى ظاهر الجلد ، فهى تسود الجلود وتحرقها (عليها تسعة عشر) صنفا من الملائكة ، أوصفا ، وإنما جعلوا تسعة عشر لأن الحواس الظاهرة خمس ، والباطنة خمس ، وهى الحس المشترك ، والخيال ، والفكر ، والواهمة ، والتدراك فهذه خمس تضم لما قبلها تكون عشرة ، ويضاف إليها أنان الغضب والشهوة ، فهذه ١٢ ويضاف إليها سبعة طبيعية فى الإنسان وفى الحيوان ، وهى : الجاذبة والمهاضمة والماسكة والدافعة والغازية والتامية والصورة ، فهذه سبع فى النبات والحيوان ، والاثنا عشر قبلها فى الحيوان والإنسان فهذه التسعة عشر نوعا من الصفات الحيوانية جمعت فى الإنسان ، فكان عذابه على مقدار ما فرط على هذه النح (وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة) فليسوا من جنس العذبيين حتى يرقوا إليهم ويرحمهم . ولما سمع أبو جهل هذه الآية قال لقريش . أيعجز كل عشر منكم أن يبطشوا برجل منهم فنزلت هذه الآية (وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا) أى وما جعلنا عددهم إلا العدد الذى اقتضى فتنتهم ، وهو التسعة عشر ، فهم قد افتتنوا به واستقلوه واستهزؤوا به واستبعدوه وقالوا : كيف يتولى هذا العدد القليل تعذيب الثقلين ؟ (ليستيقن الذين أوتوا الكتاب) أى ليكتسبوا اليقين بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وصدق القرآن ، إذ يرون هذا العدد فى كتابهم (ويزداد الذين آمنوا إيمانا) بالإيمان به وتصديق أهل الكتاب (ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب وللمؤمنون) فى ذلك ، وهذا تأكيد للاستيقان وزيادة الإيمان (وليقول الذين فى قلوبهم مرض) شك ونفاق حينما يكونون بالمدينة فيما بعد الهجرة التى لم تكن معلومة لهم عند نزول هذه السورة (والكافرون) الجازمون بالتكذيب (ماذا أراد الله بهذا مثلا) أى أى شئ أراد بهذا العدد المستغرب استغراب اللئى ، أو هو نفسه مضروب مثلا لشدة استبعاده عندهم (كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء) أى مثل ذلك المذكور من الإضلال والهدى يضل الكافرين ويهدى المؤمنين (وما يعلم جنود ربك) أى جموع خلقه على ما هم عليه فى الحقيقة إلا هو ، وكيف يقف أحد على حصر الممكنات ومعرفة مستقرها ومستودعها وخواصها ؟ انظر ما ذكر فى أول سورة الملك فى أنواع الحيوان وتكاثره ، فما يعلم هذه كلها (إلا هو وما هى) أى وما هذه السورة المشتملة على سقر وعدة الخنزرة (إلا ذكرى للبشر) إلا تذكرة لهم (كلا) ردع لمن أنكرها (والقمر ، والليل إذ أدبر) ولى ذاهبا (والصبح إذا أسفر) أى أضاء وتبين . وجواب القسم قوله (إنها لإحدى الكبر) يعنى إن جهنم البلايا الكبر والأمر العظام (نذرا للبشر) أى كبرت سقر حال كونها منفرة للبشر . ثم قال (لمن شاء منكم أن يتقدم) إلى الخير (أو يتأخر) عنه ، فقد علمتم سقر وعذابها وملائكتها ، فمن تقدم إلى الخير أطلقناه ، ومن تأخر عن الخير سلكناه فيها (كل نفس بما كسبت رهينة) مرهونة عند الله ، أو مرتبنة فى النار بكسبها ومأخوذة بعملها ، وهذه الكلمة ليست وصفا بل هى مصدر كالتكسية جعلت

بمعنى اسم الفعول ، ولو كانت وصفا لقبيل رهين ، لأن فعلا بمعنى مفعول يستوى فيه المذكور وغيره (إلا أصحاب اليمين) فإنهم فكوا رقابهم من الرهن بما أحسنوا من أعمالهم وهكذا الأطفال إذ لا تسكيف عليهم ومثلهم الملائكة حال كونهم (في جنات يتساءلون عن المجرمين) أى يسألون غيرهم عن حالهم فيقول المشولون عن المجرمين للسائلين ما جرى بينهم وبين المجرمين من السؤال والجواب ، وهذا صورة ما جرى . قلنا لهم ما سلككم في سقر) أى أى شئ أدخلكم فيها ؟ (قالوا لم نك من المصلين) الصلاة الواجبة (ولم نك نطمع المسكين) ما يجب إعطاؤه (وكنا نخوض مع الخائضين أى نسرع في الباطل مع الشارعين فيه) وكنا نكذب يوم الدين حتى أتانا اليقين) الموت ومقدماته (فما تفهمم شفاعة الشافعين) لو شفعوا لهم جميعا (فإلهم عن التذكرة معرضين) أى معرضين عن التذكير : أى عن القرآن وما فى معناه (كأنهم حمر مستنقرة) بالكسر أى نافرة ، وبالفتح أى منفرة مذعورة ، فهم مثلها فى إعراضهم ونفورهم عن استماع التذكرة (فرت من قسورة) أى أسد (بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفا منشرة) قرطيس تنشر وتقرأ ، إذ كانوا يقولون : إن تؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من السماء (كلا بل لا يخافون الآخرة ، كلا) ردع لهم (إنه تذكرة) أى إنه عظة عظيمة (فمن شاء ذكره) أى انعط به فيعود عليه نفعه (وما يذكرون إلا أن يشاء الله) أى إلا أن يشاء الله لهم الذكر فيتذكروا ويتعظموا (هو أهل التقوى) حقيق بأن يتقى (وأهل للفرقة) حقيق بأن يفتر للمعتقين من عباده . انتهى التفسير اللفظي للسورة كلها ، والحمد لله رب العالمين .

لطيفة فى قوله تعالى . وما يعلم جنود ربك إلا هو وماهى إلا ذكرى للبشر

كلا والقمر والليل إذا أدبر . والصبح إذا أسفر

إن فى ذكر إدبار الليل وإسفار الصبح ما يشير إلى أن الناس فى الحياة الدنيا كأنهم فى ظلمة ، فإذا بناه يوم القيامة ظهرت الحقائق كما يظهر الصبح إذا أدبر الليل ، إن الحياة فى الدنيا والآخرة وتناغمها ترتقى من حال مظلمة إلى حال ظاهرة واضحة ، فنحن اليوم فى حال الحياة ، وكما اقتربنا من الحقائق كان ذلك نورا لنا . فإذا وصلنا إلى الحقائق وصولا تاما فى عالم غير عالمنا فهناك السعادة ، فالعلم بالحقائق هو نهاية السعادة ، والجهالة بنهاية الشقاء ، بل قال (سقراط) : (إن الناس معذبون فى الأرض بجهالتهم ، ولو عرفوا الحقائق كما هى ماشقوا) فكأن ذكر الظلام فالضياء بعد ذكر القيامة وحديثها يشير إلى ذلك ، وهذا فى الموقنين كما هو معلوم ، وقول الصلى : « السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » يشير إلى حال السلامة التامة ، ولاسلامه إلا بمعرفة الحقائق معرفة تامة ، إن ظواهر الدنيا كلها ظلمات وأحزان ، ولكن بواطن هذا العالم جمال وسعادة فلقد ضرب بين السوء والأشقياء بسور من الجهل له باب باطنه فيه الرحمة متى عرفت الحقائق ، وظاهره من قبله العذاب باقتحامها .

ثم إن جنود ربك أعظمتهم فى عالم السموات ، وهذا من أسباب ذكر الليل وأدباره ، والصبح وإسفاره فلا ذكر لك الآن الجنود السماوية ، ثم أتبعها بالجنود الحيوانية ، والجنود النباتية ، لتطلع على صفوف من جنود ، وأنواع من عجائب جيوشه البديعة للنظمة ، وإنما تبدأ بالجنود السماوية تبركا بالآية ولتظهر العظمة فى جمال النجوم فنقول :

عدد النجوم

إن النجوم التي ترى بالعين المجردة محصورة وهي نحو ٣٠٠٠ فقط والنظارة القرب يرى نحو ١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠
فأما اللوحة الراسمة (الفوتوغرافية) فإنها إذا طال تعرضها للنور ترىنا ملايين الملايين ، فإنها ترسم في الساعة
الواحدة ٣٦٠٠ ضعف ما ترسمه في الثانية الواحدة ، وهذه الطريقة كشف الفلكيون ما يجز العين المجردة
والنظارة القرب .

أبعاد النجوم التي هو من جنود الله وأحجامها

الشعري اليمانية

هي أقل من الشمس جرماً عشرين مرة ، وأضوا منها خمسين مرة ، وأبعد منها ألف ألف بعدها عنا
وتجري بسرعة ألف ميل في الدقيقة .

بنات نعش

واحدة منهن أضوا من الشمس أربعمئة مرة ، والثانية أضوا منها ٤٨٠ ، والثالثة أضوا منها ألف مرة ،
وسهل أضوا من الشمس ألفين مرة وخمسمائة مرة .

السماك الزامح

هو أضوا من الشمس ثمانية آلاف مرة ، وهي أسرع النجوم سيرا ، وأشدّها تألقا ، وأكبرها حجماً ،
فسرعته ثلاثمئة ميل في الثانية الواحدة ، ونوره ثمانية آلاف ضعف نور الشمس ، وحجمه ثمانون ضعفاً
من حجمها ونوره يصل لنا في ١٠٠٠ سنة ، مع العلم بأن نور الشمس يصل إلينا من بعد ٨٠٠٠٠٠٠٠
ميل في ثمان دقائق وثمان ثوان .

الثريا

تبعد عنا ألفاً وخمسمائة بليون من الأميال ، ولست أطيل في ذكر هذه الأقدار والأبعاد ، وأذكر
بما كتبت في (سورة آل عمران) نقلاً عن الأكاديمية الفرنسية ، وبما كتبت في (سورة البقرة) في أوائلها
من حيث تعداد النجوم وأضوائها ، فراجعه هناك إن شئت .

جنود الحيوان

ذكر حيوان البحر

إن في البحار أنواعاً عظيمة من الحيوان .
(الأخطبوط) — منه ما يعيش في مياه (نيوفونديلاند) وهذا يبلغ طوله نحو ستين قدماً من طرف إلى
طرف ، وبعض الحيتان يبلغ طولها سبعين قدماً ومن الحيتان وهو المسمى (الكشالوت) ما يطوف المحيط

ولقد كنت كتبت مقالة مطولة تحت عنوان هذه الآية : « وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر » بتاريخ ٢٢ يناير سنة ١٩٢٧ م ولما كان المقام لا يسعها أرجانا درجها للماحق الذي وعدنا بنشره بعد تمام التفسير إن شاء الله وطالت الحياة اهـ .

تفسير سورة القيامة

هي مكة

آياتها ٤٠ - نزلت بعد سورة القارعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ • وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ • أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ
 نَجْمَعَ عِظَامَهُ • بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ • بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ •
 يَسْتَلْ أَيْتَانَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ • فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ • وَخَسَفَ الْقَمَرُ • وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ •
 يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ • كَلَّا لَا وَزَرَ • إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ • يُنْبِئُوا
 الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ • بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ • وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِرَهُ •
 لَا تَحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَمْجَلَّ بِهِ • إِنْ عَلَيْنَا جَمْعُهُ وَقُرْآنُهُ • فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ •
 ثُمَّ إِنْ عَلَيْنَا نِيَانَهُ • كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ • وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ • وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ
 نَاضِرَةٌ • إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ • وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بِاسِرَةٌ • تَنْظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ • كَلَّا
 إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ • وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ • وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ • وَالتَّفْتَتِ السَّاقِ بِالسَّاقِ •
 إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ • فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّىٰ • وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ • ثُمَّ ذَهَبَ
 إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ • أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ • ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ • أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ
 يُتْرَكَ سُدًى • أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُُمْنَىٰ • ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ • فَجَعَلَ
 مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ • أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُخَيِّبَ الْمَوْتَىٰ •

هذه السورة كلها في وصف يوم القيامة ، وقد بدئت بالاستدلال بسجائب خلق الإنسان وتسوية عظامه ،
 وختمت بمثل ذلك ، وخبثتها في الحساب وأهوال القيامة .

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(لا أقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة) يقول الله : أقسم بيوم القيامة ، وأقسم بالنفس التي تلوم نفسها أبدا وإن اجتهدت في الطاعة ، أو جنس النفوس ، فإن كل نفس يوم القيامة سواء أكانت بارة أم فاجرة تلوم نفسها ، إن عملت خيرا قالت كيف لم أزد ، وإن عملت شرا قالت باليتقى كنت تركته كما أفاده حديث مروى في ذلك .

أقسم الله بالقيامة وبذلك النفس على بعثنا : أي لتبعثن ، فقد أقسم بعظمة القيامة ، والنفس الطماعة إلى الرقي ، الجائعة إلى العلو ، التي لا ترضى بمرتبة إلا طلبت سواها ، ولا بحالة إلا أحبت مانلاها ، ورامت ما فوقها ، وهذا القسم كأنه استدلال على القيامة ، يقول : إن ما في النفوس من حب الرقي وعدم الوقوف عند حد محدود في هذه الحياة ، وفي كل حياة دليل على أن هناك حالا أخرى بنال فيها الإنسان ما كان يرضه . إن طبع الإنسان يدل على القيامة ، إن طموح الناس للمعالي وجشعهم وحرصهم وازديادهم في المال والعلم وعدم الوقوف على حال واحدة دليل على أن هناك حالا أخرى . إن النفوس الانسانية مشغوفة بالاستطلاع ، مجبولة على حب البحث ، مفضولة على حب الغلبة والقهر ، ذلك لتستطيع أن تملك أكثر مما ملكت ، وتحوز أكثر مما حازت ، وتعلم أكثر مما علمت ، إنها لا تكتفي بعلم ولا بمال ، وما رأينا ملكا يحكم أمة إلا طمع أن يأخذ غيرها ، ولا غنيا ورث مالا وزاد عليه إلا طمع فيما سواه ، ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب ، فهل خلقت هذه الشهوات والرغبات فينا عبثا ؟ كلا . ثم كلا . إن ذلك لم يكن إلا لئلا سيضع بعد الموت ويوم القيامة ، إن لم يكن للإنسان مثل تلك الغاية فالحياة باطلة وكل نظام في الأرض خسران مبين ، لم نجد قوة كامنة فينا وفي الحيوان إلا لغاية ، فيألت شعري ماغاية هذه الأطماع والحروب والتفاني في العلوم ، والتملك والقهر ، وبناء السفن ، واختراع الأسلحة ، وما هذا الجشع ، وما هذا الهام أكل هذا الحياة قصيرة لا تساوي كل هذا العناء ؟ يجيبك القرآن قائلا : أنا أقسم بالنفس التواقية إلى المعالي التي لا تقف عند حد ، ومعنى هذا أن تلك القوة أودعت في نفوسنا ، لأنها خلقت لتكون في عالم يطالع على كل شيء ولا يحزن على شيء وهو عالم الأرواح في أعلى الجنان ، فما دام لم يصل إلى ذلك العالم فإنه يظن أنه خلق لهذه السادة وملكها لعدم علمه بالحقائق فينخبط في الحياة ، إذن هذا القسم ذكر للاستدلال ، فطموح النفوس إلى الملا برهان على أنها ستكون في عالم آخر تنال فيه بقيتها ، فإذا أقسم الله بمخلوقاته على حكيمته وعلو شأنه وعظمته استدلالا على ذلك ، فهكذا هنا يقسم بالنفس اللوامة استدلالا على أنها واصلت يوما ما إلى عالم أكل من هذا العالم لتنال فيه ما تطلبه . إن في إلهام النحل جمع العسل ، وفي عدم إلهام الجراد والزناير الجمع والادخار ، وأن الأول يعيش في الشتاء والآخرين لا يحتاجان فيه دليلا عجيبا لحكمة هذا القسم فنظن .

إن هذا القسم وأمثاله لم يطرق آذان العرب ، أولئك الذين لا يقسمون إلا بأشياء معهودة فيما بينهم ، لا يتجاوزونها فيقسمون بالأب وبالعم وبالنكبة ، ولكنهم لا يقسمون بهذه الأقسام العجيبة التي فيها دلائل على ما يقصد في جوابها ، وفيها فتح باب للبراهين والحكمة والعلم .

ثم إن (لا) التي ذكرت قبل القسمين زائدة للتأكيد وأردت في كلام العرب ، ألا ترى إلى قول
أمرى القيس :

لا وأبيك العامري لا يدعى القوم أنى أفر

وقول غيره :

تذكرت ليلي فاعترفتي صبابة وكاد ضمير القلب لا يتقطع

أقدم الله بالقيامة وبالنفس اللوامة التواقة للمعالي أننا سنبعث ، ثم أردفه باستنكار استبعاد ذلك ، إذ
روى أن عدى بن أبي ربيعة سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أمر القيامة ، فأخبره به فقال . لو
عابنت ذلك اليوم لم أصدقك ، أن يجمع الله هذه العظام فقال (أحسب الإنسان) أى جنسه ، والراد به
الذئب للبعث المذكور وغيره (أن لن يجمع عظامه) بعد تفرقتها ورجوعها رفاتا (بلى) أى يجمعها حال
كوننا (قادرين على أن نسوي بنانه) أى نسوي سلامياته على صفرها ودقتها ونؤلف بينها حتى تستوى
البنان ، فمن يقدر على جمع العظام الصغار فهو لا محالة على غيرها من الكبار أقدر .

واعلم أن عظام أصابع اليدين ثلاثون ، وعظام أصابع الرجلين ٢٨ فيكون مجموعهما ٥٨ وهذه
عظام دقيقة وضعت لمنافع لولاها ماتت تلك المنافع كالقبض والبسط واستعمال اليدين في الجذب والدفع
وغيرها مما لا يحصى ، فلو لا دقة هذه العظام وحسن تركيبها ما انتظمت الأعمال المترتبة على اليدين ، وجميع
العظام في الإنسان ٢٤٨ عضوا ، وهاك بيانها :

١٢٢	١٢٦
٢ الزندان الأعلىان .	٦ عظام الرأس .
٢ الزندان الأسفلان	٤ عظام الزوج .
١٦ عظام رضى الكفين .	١٤ عظام اللحي الأعلى .
٨ عظام مشط الكفين .	١٦ عظام الأسنان العليا .
٣٠ عظام أصابع اليدين :	١ العظم الشبيه بالوتد .
٢ عظام الوركين .	٢ عظام اللحي الأسفل .
٢ عظام الفخذين .	١٦ الأسنان السفلى .
٢ عظام الركبتين .	٢٤ قفار الصلب .
٤ قصب الساق :	٣ عظام العجز .
٢ الكعبان .	٣ عظام المعصم .
٢ العقبان :	٢٤ عظام الأضلاع .
٢ العظام الزورقية :	٧ عظام القص .
٨ عظام رضى القدمين .	٢ الكتفان .
١٠ عظام مشطى القدمين .	٢ رأسا الكتفين .
٢٨ عظام أصابع الرجلين .	٢ عضدان .
٢ عظم العانة .	المجموع ٢٤٨

وأنت ترى أن أصابع اليدين وحدهما فيهما ٣٠ فإذا أضيف الرسغان ١٦ ومشط الكفين ٨ كان

المجموع ٥٤ فيكون لكل يد ٢٧ وحدها من الرسغ إلى أطراف الأصابع ، وهذا العدد هو عين عدد
الجمجمة ٦ مضافا إليها عدد الأسنان ٣٢ والفكين ١٦ .

أيها الذكي : ما أحسن العلم والحكمة ، انظر تجد عظام الإنسان مجموعة ، وكيف هندمت على هذا
النظام لفوائد نافعة في الحياة ، انظر كيف ركب الرسغان في اليدين من ١٦ عظما ومشطا الكفين من ٨
ثم ركب مشطا كفي الرجلين ورسغاهما من أعظم متعددة لشدة الحاجة إلى العمل والحركة ، أما جمجمة الرأس
فمن ستة أعظم لا غير ، إن أصابع اليدين والرجلين تبلغ عظامهما ٥٨ عظما ، وجمجمة الرأس لا تزيد عن
سنة ، ذلك لأن الجمجمة لجرد الوقاية ، أما الأصابع فهي للعمل ، فذلك صنعت بدقة وإحكام ، وانظر إلى
الفقرات كيف تمددت ولم لم تحمل عظمة واحدة ، ذلك لأنها لو كانت كذلك لعاقبت الحركات ، ولا تمتعت
البركات ، ولم يعيش بالسعادة والحير الإنسان ، فجعلت الفقرات متتاليات ليتمكن الحركة والسكون ، ويكون ذلك
سهلا عليه أيها كان ، فلولا الفقرات وتفصيلها لم يقدر على الانحناء للأعمال والحركات المختلفة ، بل يكون
منتصبا كالخشب ، أو كالممود ، ثم عطف على قوله : « أيحسب الإنسان » قوله (بل يريد الإنسان ليفجر
أمامه) وهذا إضراب عما قبله ، يقول : إن الإنسان يريد أن يدوم بخوره فيما يستقبل من الزمان ، لا يفرغ
عن بخوره ، ولا يتخلى عن شروره ، ولذلك ترى الكافر من نوع الإنسان (يسأل أيان يوم القيامة) أي
متى يكون يوم القيامة ؟ وهذا استبعاد واستهزاء (فإذا برق البصر) تحير فزعا عند رؤية أهوال القيامة
(وخسف القمر) ذهب ضوؤه (وجمع الشمس والقمر) جميعها وصف واحد وهو ذهاب الضوء (يقول
الإنسان يومئذ أين للفر) أي للهرب ، وهذا ظاهر في أحوال القيامة ونظيره في الدنيا ما يخص الرء في نفسه
فيحار بصره فزعا ، ويذهب ضوء البصر عند اللوت ويموت فيجتمع العقل الذي هوشيه بالقمر مع الأرواح
العليا التي كان يستمد منها الشبهة بالشمس ، فيصير معنى العبارة : فإذا قامت القيامة يقول الإنسان يومئذ
أين للفر ، وهذا كناية عن ساعة اللوت ، وقد بينت لك فيما تقدم أن هذه الكناية ملى بها القرآن ، فإذا
ذكر يوم القيامة فقد وري بحال اللوت ، والحق أن الإنسان في حال موته تقوم قيامته الخاصة به ، فحق فزع
هو وذهب بصره واجتمع هو بالملأ الأعلى ، فهذا كل ما يخصه من أحوال الآخرة النورية ، أما يوم القيامة فهو
تأنيج لما يلقاه في البرزخ ، فيكون ظاهر اللفظ للموم ، والكناية يفقهها الخواص (كلا) ردد عن طلب
للقر (لاوزر) لا ملجأ ولا حرز ولا جيل ، وقد كانوا إذا فزعوا يلجئون إلى الجبال قليل لهم لاجيل لهم
يومئذ تتحصنون فيه . (إلى ربك يومئذ المستقر) مستقر الخلق (نبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر)
بما قدم من عمل عمله وبما أخر منه لم عمله (بل الإنسان على نفسه بصيرة) أي بل الإنسان على نفسه
شاهد ، فتكون الهاء للمبالغة ، فالإنسان حجة بينة على أعمال نفسه ، لأنه يشاهدها (ولو ألقى معاذيره)
ولو جاء بكل ما يمكن أن يعتذر به جمع معذار وهو العذر ، فذنوب الإنسان إذن ملازمة له لانفارقته لأنها
أخلاق ملازمة له ، لاصقة به ، تابعة له في حله وترحاله ، ناهيك بما ترى من العادات التي تأخذ بالألباب ،
ولا تندر أربابها كثرة الكلام وشرب الخمر والدخان وما أشبه ذلك ، فهذه الأخلاق تؤذي صاحبها وتقوم
حجة بينة على نفسه فيفقد به في المهاوى البعيدة (لا تحرك) يا محمد (به) بالقرآن (لسانك) قبل أن
يتم وحيه (لتعجل به) لتأخذه على عجلة مخافة أن يفلت منك (إن علينا جمعه) في صدرك (وقرآنه)
وإثبات قراءته في لسانك ، فالقرآن القراءة (فإذا قرأناه) أي قرأه عليك جبريل ، فجعل قراءة جبريل
قراءته (فاتبع قرآنه) أي قراءته عليك (ثم إن علينا بيانه) إذا أشكل عليك شيء من معانيه فنحن
نبينه لك ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أشكل عليه شيء سأل جبريل عن معانيه ، لأنه

حريص على العلم قبيل له نحن نبينه لك ، وقوله تعالى (كلا) ردع للرسول صلى الله عليه وسلم عن العجلة
والكفار عن إنكار البعث ، يقول الله : أتم أيها الكفار تريدون العاجلة وأنت أيها النبي تمجل عند تلقى
الوحي (بل تحبون العاجلة) أى أتم يا بنى آدم تهجلون فى كل شىء لأنكم خلقتم من عجل وطبعتم عليه ،
ومثال ذلك أنكم تحبون العاجلة الدنيا وشهواتها (وتذرون الآخرة) الدار الآخرة ونعيمها فلا تعملون لها
(وجوه يومئذ ناضرة) حسنة مسرورة بالنعيم ، مسفرة مضيئة بيض ، يعلوها نور وبهاء ، مشرقة بالنعيم
(إلى ربها ناظرة) أى تنظر إلى ربها عيانا بلا حجاب فتكون ناضرة ، وهي تنظر إلى الخالق (ووجوه
يومئذ باسرة) شديدة العبوس كالحلة متغيرة مسودة قد أظلمت ألوانها وعظمت آثار النعمة والسرور منها لما
أدركها من اليأس (تظن) يستيقن (أن يفعل بها فاقرة) أى داهية عظيمة تكسر فئار الظهر وتقسمه
وأشد أنواع الفاقرة أن يحجب الإنسان عن رؤية الله (كلا) ردع عن إثارة الدنيا (إذا بلغت التراقي)
أى إذا بلغت النفس أعالي الصدر ، وهى جمع رقوة ، وهو المظالم التى بين نقرة النحر والعائق وهذا كناية
عن إشراف النفس على الموت . قال دريد بن الصمة :

ورب عظيمة دافعت عنها وقد بلغت نفوسهم التراقي

وقوله (وقيل من راق) أى وقال من حضره : هل من طيب رقيه ويداوية مما نزل به ، ويخلصه
من ذلك برقيه ودوائه ؟ (وظن أنه الفراق) أى وظن المحتضر أن الذى نزل به فراق الدنيا ومحابها (والتفت
الساق بالساق) أى والنوت ساقه بساقه فلا يقدر على تحريكها وهذا يكفى به عن التفاف شدة فراق الدنيا
بشدة خوف الآخرة (إلى ربك يومئذ المساق) أى سوقه إلى الله تعالى وحكمه (فلا صدق) بالرسول
والقرآن أولا صدق ماله : أى زكاه (ولا صلى) ما فرض عليه الضمير فى صدق وصلى للإنسان ولكن
(كذب وتولى) عن الطاعة (ثم ذهب إلى أهله يتمطى) يتبختر افنخارا بذلك . ومن اللط فإنك ترى المتبختر
بعد خطاه . إذن أصله يتمطط (أولى لك فأولى) أى ويل لك مرة بعد مرة : أى أولاك الله ما تكبره .
واللام مزبدة ، فيكون الفاعل مضرا والفعول الثانى محذوف (ثم أولى لك فأولى) أى يتكرر عليه
ذلك مرة بعد أخرى (أيعجب الإنسان أن يترك سدى) أى أيعجب الكافر أن يترك مهملا لا يؤمر ، ولا
ينهى ، ولا يبعث ولا يجازى ، وكيف يهمل ؟ (ألم يك نطفة من منى بمنى) أى براق فى الرحم (ثم كان
علقة) أى صار التى قطعة دم جامد (خلق فسوى) خلق الله منه بشرا سويا (فجعل منه) من الإنسان
(الزوجين الذكر والأنثى) أى الصنفين (أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى) أى أليس القوم لهذه
الأشياء بقادر على إعادتها . انتهى التفسير اللفظى للآية كماها ، والحمد لله رب العالمين .

اطيافة ذات شعبتين

الأولى فى قوله تعالى : وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة

الثانية فى قوله تعالى : ألم يك نطفة من منى بمنى ، ثم كان علقة خلق فسوى

فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى

فلنبدا الكلام على الشعبة الأولى ، وهى النظر إلى وجه الله ، ونبدأ بما ورد فى الصحيح فنقول ومن

الله التوفيق ،

جاء فى رواية البخارى ومسلم عن جرير بن عبد الله قال : « كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم

فنظر إلى القمر ليلة البدر ، وقال : إنكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا القمر لاتضمامون فى رؤيته : أى

لا ينضم بضمك إلى بعض ولا تزدحمون وقت النظر إليه ، فإن استطمتم ألا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا .

وفي حديث رواه مسلم ، قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى : هل تريدون شيئا أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ، ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ؟ قال فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى . »

ويروي عن أبي رزين العقيلي : قال « قلت : يا رسول الله أكلنا برى ربه محليا به يوم القيامة ، قال نعم ، قلت : وما آية ذلك في خلقه ؟ قال يا أبا رزين أليس كلكم يرى القمر ليلة البدر محليا به ؟ قلت بلى ، قال فآية أعظم ، إنما هو (أى القمر) خلق من خلق الله ، فآية أجل وأعظم . »

هذا ما أردت ذكره من الأحاديث في هذا اللقاه ، ها أنت اطلمت على كلام النبوة ، وأنه صلى الله عليه وسلم أخبر في الصحيح أن الناس بعد أن ينالوا جزاءهم المادى فى الجنة يتقلهم إلى مرتبة أعلى ومقام أجلى ، وهى أن يكشف لهم الحجاب فيرونه .

هذا هو الذى ورد فى الصحيح ، ومعنى هذا أن السعادة قسبان : حسية ، وعقلية ، والحسية هى الجنة ونعيمها ، والعقلية النظر إلى وجه الله ، وقد فضل الله النظر إليه عن الجنة وجعلها أفضل منها .

واعلم أن هذا القول ليس بعقله جميع الناس ، وإنما بعقله الخواص ، وها أناذا أبين هذا المقام بعض التبيان فأقول :

اعلم أن نفوس بنى آدم متفاوتة فى هذه الأرض ، فمنهم من لا يحب ربه إلا لأجل اللذات الحسية ، وليس له منها إلا هذا الحظ ، فإذا قابل ربه فليس يحب لقاءه لذاته بل للفوائد المترتبة عليه ، ويانه أن الخدم والعبيد وأصحاب النفوس الضعيفة لا يحبون المخدمين ولا السادة ولا العظماء ، إلا للجب منفعة أولدفع مضرة ، فأما المحبة المبنية على الإخاء والإخلاص وتناسب الأرواح وتمازجها وانصافها فلا ، وكيف يحب الدليل العزيز والنفسان مفترقتان ؟ وكيف يكون الحب إلا بالاتحاد فالاتحاد الأنفس فى الصفات والأخلاق والعادات هو الموجب للحب ، وعدم الاتحاد هو الموجب للتفرق ، وحب العبد لله أن يكون قط إلا إذا كانت صلة ، وأبن الصلة بين الخالق والمخلوق ، فلا سبيل للصلة بين الذاتين ، ولكن هناك أمر واحد هو العلم :

قد يحب الإنسان ربه لأنه آتاه بلذات يشتهيها ، فإذا ذهبت تلك اللذات فأين ذهب الحب ، وإذا مات وقد حرم أهله وماله وتمتع به أعداؤه فأين يكون الحب إذن؟ لا يبقى إلا أمر واحد هو العلم ، العلم هو مبدأ الحب الحقيقى ، وكلما ازداد العبد علما بهذا العالم ازداد من خالقه قربا ، وقرب العبد من الله بالعلم بما فى هذا العالم من الجمال والحكمة ، وهذا أمر لا يدرك إلا بكثرة الممارسة والنظر والفكر ، فهذا الحب يكون باقيامى العلم ، فالمفردون بالعلم فى الدنيا هم الفرحون بالنظر إلى وجهه يوم القيامة : أى بانكشاف الحقائق لنفوسهم ومعرفة ربهم معرفة أرقى من معرفة البصر ، إن البصر لا يرى إلا ظواهر الأجسام والعلم يدرك الظواهر والبواطن ، وكل يوم القيامة يعرف من الله على مقدار علمه فى الدنيا ، ويرى العابدون ربهم رؤية أقل من رؤية العلماء بما لا يتناهى .

ألا فليعجب للسلون كيف كانت رؤية الله الواردة فى الصحيح أجل من الجنة ، وكيف كانت على مقدار العلم فى الدنيا ، ولا معنى للعلم فى هذا المقام إلى العلم بصفات الله ، وذلك بدراسة الآثار : أى بدراسة علوم الطبيعة والقلك ، وكل مظهر من العلوم فى الأرض :

عجبا عجبا ! هل يعلم السلون ذلك ؟ هل يعلم أنهم بالعلم فى الدنيا ينظرون ربهم فى الآخرة ؟ هل يعلم للسلون أن قراءة العلوم الطبيعية والفلكية من الوجهة الإلهية ترقيهم عند ربهم يوم القيامة كما أن قراءتها

من الوجهة الدنيوية ترقبهم في الدنيا ، إذن للسلمون اليوم نأتمون عما يقرّبهم من ربهم وعما يرقبهم في هنيام
إذن رقى دولهم في الدنيا ونبوؤهم في علوم الكائنات هو نفسه يفتح لهم باب النصر والسعادة في الدنيا ،
ونفس هذا الحب هو الباب للرؤية ، فإذن السلمون اليوم لاهون عن أمرين : عن رؤية ربهم يوم القيامة ،
وعن الرقى في الدنيا ، أليس هذا من العجب ! جهالة في الدنيا واحتجاب عن الله ، ورقى في الدنيا ورؤية
الله ، أحدهما بالجهل ، والثاني بالعلم ، هل يعلم السلمون ذلك ؟ .

إياك أيها التدي أن تشك في قولي إن الرؤية في الآخرة راجعة للعلم فقد قررها العلماء ، لا ترى الله
بعينك هاتين ، هاتان العينان ترى بهما الحيوان والإنسان والجماد ومرأته وأولادك ، فأما العلم فانه يرى
للتقدمين والمتأخرين ، ويرى علوم الهندسة والحساب ، فأنت توفق أن زوايا الثلث تساوي قائمتين بعقلك
لا بعينك ، فهناك رؤية أجل من رؤية العين ، فهذا مثل ضربته لك لتعلم أن الله يرى بعين أخرى غير
هذه العين ، بل هي أرقى منها . ومقدمة تلك العين العلوم في الدنيا ، وأنت اليوم تعرف نفسك فإن رأيت
أنك مغرم بمجائب هذه الدنيا وحكمها وبهجتها لذاتها . ورأيت في قلبك غراما بالصانع . وكلما زدت علما
بالعالم الذي نحن فيه زاد قلبك حنيناً إلى من صنع هذه الصنعة . فاعلم أن هذا مبدأ لأسباب الرؤية . فكلما
ازدوت علما ازدوت حبا وغراما وعشقا . وهكذا يتوالى العلوم يتوالى الحب وتسمو نفسك وترى أنك في
عالم غريب عن ذلك الجمال وتتمنى لو تكون في خلوة مؤتمنا بهذا الجمال ، فاعلم أنك أنت الذي ستلاقي ربك
ملاقة أفضل من ملاقة العابد الذي أحبه بالوجدان وحده وهو خال من العلم فرؤية القمر في الحديث ضرب
مثل لما ذكرناه ، فإذا تحققت بالعلم على الوجه الذي ذكرته لك رأيت في نفسك عجباً ! رأيت حبك للناس
يزداد ، وترى في نفسك ميلا لرقبهم ، ثم هم يقبلون منك ، أندري لماذا ؟ لأنك أهل للعلم وللتعليم لما بينك
وبين الله من صلة ، وهي العلم ، فيمدك وتمد الناس ، وإذا أكثرت من الذكر اللفظي والقلبي زاد تلك
العلاقة . وهنا نذكر الشبهة الثانية :

الشبهة الثانية

وفيها مقامان : المقام الأول في قوله تعالى : « كلا إذا بلغت التراقي ، وقيل من راق ، وظن أنه
المراق ، والتفت الساق بالساق ، إلى ربك يومئذ الساق ، فلا صدق ولا صلي ، ولكن كذب وتولى
ثم ذهب إلى أهله يتمطى ، أولى لك فأولى ، ثم أولى لك فأولى ، أعجب الإنسان أن يترك سدى ،
ألم يك نطفة من منى يمى ، ثم كان عقاله نخلق فسوى » .

المقام الثاني في قوله تعالى : « فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى »

(المقام الأول) يصف الله تعالى حال الإنسان عند الاحتضار بصفات :

(١) أن تبلغ الروح التراقي صاعدة من الجسم إلى العالم الروحي .

(٢) ويقول من حول المحتضر : من ذا الذي يرقبه ، ومن المرض يشفيه ؟ وفي ذكر (راق) من
البلاغة ما يعجز كل لبيب ويقف دونها كل منطيق ، وذلك أن حول المحتضر جماعتين ، أهله الباكون ،
والملائكة الموكلون ، فبيناً أهله يقولون نرقبه من الرقية ليشفى من مرضه يقول للملائكة بعضهم لبعض من
يرقى روحه إذا خرجت فيصعد بها إلى ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب ، فهي إما للتورية ، وإما للسكناية
فهذه الكلمة لا يخل غيرها محلها ، وهذه بلاغة تعجز أ كابر الفصحاء ، فإنه لوحظ فيها عمل الملائكة وأعمال
الإنسان ، وهذا كقول الشاعر :

خاط لي عمرو قباء . ليت يحيفه سواه

وعمرو كان أعور فلا يدري أريد أنه يكون أعمى أو يكون صحيح العينين ، فهكذا هنا لا يدري أهو من رقية الشفاء ، أو من الترقية التي تتبع الموت ، والحقيقة أن ملاحظة للعينين في هذا اللقاع من أدق التصير ، وأعجب الأساليب ، وأبدع الأحكام ، فكأن الله يقول : إن الميت يندبه أهله ، ويكيه خاله وعمه ، ويطلبون الطبيب لإنقاذه من اللوت ، والملائكة إذ ذاك يتشاورون في أمره هلاكه ، وفوت أملاكه ، ولا يزال الأولون يطلبون والآخرون يقبضون حتى تزهر روحه إلى ذى العزة والجلال .

(٣) وظن المريض أن هذا هو القراق .

(٤) والتقت الساق بالساق .

(٥) فهناك تصعد الروح إلى ربها .

(٦) ويحاسب على النفير والقطمير ووجه البر ، ووجه الشعر ، وهنا قرع الإنسان على جهله بما يأتي : إنه كان نطفة ، ثم علقه بقدر الله خلقه ، ثم سواه ، وهذا اللقاع يشمل جملة علوم : التشريح ، وعلم الأجنة ، وعلم النبات ، وعلم الحيوان ، وعلم الطب ، وعلم السياسة والاجتماع ، وعلم الأخلاق ، وعلم الترية ، وعلم المنطق أيضا ، وسيجيء في اللقاع الثاني علم إصلاح العالم الإنساني الآن : ذكرت لك سابقا أن النظر لوجه الله في الآخرة لن يكون إلا للماشقين هنا ، ولا عشق إلا بعلم ، ولا علم في هذا اللقاع إلا بهذه العوالم الجميلة المحيطة بنا ، وقلت أيضا : إن العلوم التي بها نرقى أمنا هي أنفسها التي بها نحب ربنا ونراه ، وقلت : إن السدين من هذا القول معرضون .

أقول : كنا نود أن نوضح هذا اللقاع ببينة من علم التشريح لم يبق ذكرها في هذا التفسير من كتابي (الفلسفة) الذي ألقته للطبعة الثالثة في البلاد المصرية وغيرها ، وهي تشمل : وصف القدماء للدماغ والغشائين الرقيق والغليظ ، وكذلك ما فيه من التقاسيم والرثة والقلب ، وكيف يتفرع الدم منه إلى كل جزء من أجزاء الجسم ، وهكذا الطحال والكبد ليوازن الأذكياء بين وصف القدماء ووصف علماء العصر الحاضر الذي تقدم كثيرا في هذا التفسير مشروحا موضحا بالصور الشمسية لاسيما في أمثال (سورة فاطر) ولكن اخترت أن أرجئه لفرصة أخرى في ماجق التفسير إن شاء الله تعالى وطالت الحياة ، والله هو الولي الحميد .

وهذا التشريح في حد ذاته غير مقصود : وإنما يقصد لجملة علوم :

(١) العلم الأول — علم الطب : إن الطبيب يعتمد على علم التشريح الدقيق المستوفى ، فهو يبحث ويعرف كل عضو في الجسد ومستقره ، فيعرف الرثة والقلب والطحال والكبد والعدة والأمعاء الدقاق والغلاظ ، ويدرك العلاقة بين الأعضاء ، وبالجملة يكون الطبيب أعلم الناس بأعضاء الجسم وجميع ما يشتمل عليه .

(٢) العلم الثاني — علم الأجنة : السمي (بيولوجي) ولست أقول إن علم التشريح يكون سبباً لهذا العلم ، وإنما علم الأجنة بالنسبة لعلم التشريح أشبه بعلم اللغة بالنسبة لعلم الصرف ، فعلم الأجنة يبين سير الجنين في النمو في بطن أمه والدرجات التي مر عليها أثناء الحمل فيه ، وأما علم التشريح فقد عرفته .

(٣) العلم الثالث — علم النبات : وليس المقصود أن علم النبات نتيجة لعلم التشريح ، بل هناك اشتراك في بعض خواص ، وهاك بيانها :

إن النبات يتغذى وينمو وبلد ويموت ، وإيضاحه أنك ترى الإنسان يزدد الطعام فتلقاه القوة

الجابذة فتمسك في للعدة الماسكة لئلا ينحدر قبل الهضم فتهضمه الهاضمة فتدفعه قوة أخرى وهي الدافعة ، ثم تتلقى الخالص النقي منه قوة أخرى وهي الغازية ، ثم يتولد المثل فتكون القوة للصورة ، فهذه سبع قوى : الجاذبة ، الماسكة ، الهاضمة ، الدافعة ، الغازية ، النامية ، للصورة .

فهذه القوى السبع في الإنسان ، وفي الحيوان ، وفي النبات فهذا لما درسنا التشريح درسنا معه قوى النبات ، وقوى الحيوان الذي اشترك معه في تلك القوى السبع .

(٤) العلم الرابع — علم الحيوان : وقد علمت أن القوى السبع المذكورة عرفناها في الحيوان مع الإنسان ، وهناك قوى أخرى خاصة بالحيوان والإنسان ولا تكون في النبات ، وهي الحس والحركة ، والحس عبارة عن خمس حواس والحركة إما عن شهوة ، أو غضب ، أو للجلب والدفع ، فإذا درسنا حس الإنسان وحركته فقد درسنا معه الوصفين في الحيوان .

(٥) العلم الخامس : من العلوم المناسبة للتشريح علم النفس ، ولقد بينت ملخصاً منه في هذا التفسير ، والنفس يفصل فيها القوة الشهوية ، والقوة العنصرية ، والقوة العاقلة ، وبين خصائص تلك القوى وأحوالها .

(٦) العلم السادس — علم التربية : وهو (البيداجوجيا) ، وهو الفن الذي به يعلم التلميذ بأسهل الطرق ، وهذا الفن له ارتباط بعلم النفس وعلم النفس مرتبط بالتشريح .

(٧) العلم السابع — علم السياسة : وذلك أن العلامة الفارابي ألف كتاباً يسمى (آراء أهل المدينة الفاضلة) وهذا الكتاب مبني كله على علم التشريح ، فإنك تراه شرح الرأس ، وفقر الظهر ، وأعصاب الحس وأعصاب الحركة ، وقال : إن النخاع الشوكي متصل بالدماع ، والأوامر تصدر من الدماغ محل الفكر إلى النخاع الشوكي ، والنخاع الشوكي موصل إلى الأعصاب المحيطة بالفقرات ، فتلتقط أعصاب الحس الأخبار وتوصلها إلى الأعضاء العاملة ، فتتحرك بأعصاب الحركة بعد انتقال الأوامر من أعصاب الحس ، وجعل الجسم كله مابين خادم ومخدوم كالقلم والمعدة والأمعاء والسكبد الحالبين والمثانة ، فكل واحد من هؤلاء خادم لما بعده وهكذا إلى آخرها فكما أن المنافع موزعة على الأعضاء ، هكذا أعمال المدينة توزع على الأشخاص ، كل بحسبه ، فلا توضع المعدة محل الرأس في التفكير ، هكذا نظيرها في نوع الإنسان ، وعلى ذلك يوضع كل واحد في مركزه ، والرئيس في مركزه ، وإن لم يوجد رئيس مستوفى الشروط فليكن جمع فيه هذه الشروط ، وقال : إن الأمة كلها يجب أن تكون على هذا الوضع ، والأمم على سطح الأرض يجب أن يكونوا هكذا كأنهم جسم واحد ، وحينئذ تكون أرضنا كرة فاضلة ، هذا ملخص الكتاب الذي بنى على التشريح .

(٨) العلم الثامن — علم ماوراء الطبيعة : هانت ذاعرفت أن علم التشريح أحاط به علوم سبعة من علم الأجنة إلى علم النبات والحيوان والنفس الخ ، وليس في علم من هذه الثمانية ، وهي التشريح وما اتصل به شيء من معرفة الله ، ولذلك تجد عالم النبات ، والحيوان ، أو النفس ، أو الأجنة ، أو عالم الاجتماع ، أو عالم البيداجوجيا ، أو عالم الطب ، كل هؤلاء ، وكذلك عالم التشريح يعيشون ويموتون ولا يدرون ربهم ولا اليوم الآخر ، هذه هي الحقيقة واضحة جلية .

إن التشريح ومأمعه من العلوم السبعة يتعلمها الناس في الشرق والغرب ولا تدلم على خالق ولا بث ، وأكثر الذين تعلموا هذه العلوم يكفرون بالديانات ، فإذا نى ما معنى قوله تعالى : « غافق فسوى جعل منه الزوجين الذكر والأنثى » وقوله في أول السورة : « بل قادرين على أن نسوى بنانه » الجواب على ذلك أن هذا علم يدرس بنفسه كالمعلوم الأخرى ، وهو علم ماوراء الطبيعة : أى العلم القدى لا يهتض بجن ، بل ينظر

لعلوم كلها كأنها شجرة واحدة لها جذع وأغصان متفرعات عنه ويصيح العالم عند عالم هذا الفن كأنه شجرة واحدة مفرعة إلى فروع ، وكأنما هو جسم واحد له أعضاء متضامة ، فهؤلاء هم الذين يدرسون نظام السكون كله ، ويستخدمون جميع العلوم في علمهم ، فمعى كونه وراء الطبيعة أنه لا يختص بعلم الرياضيات ولا بعلم الطبيعيات ، بل هو علم عام يبحث في العلوم جميعها وتقسيمها ، ويستدل على العالم الذى لم يره وفى الله وفى النبوات وما أشبه ذلك ، ومنه مبدأ العلوم ، وهذا العلم هو طريق القرآن ، فصاحب هذا الفن ينظر من وجهة خاصة ، فليس ينظر من حيث سير الجنين في نموه ، ولا من حيث القوى الحيوانية ، أو النباتية ، أو المرض والصحة ، وإنما ينظر من حيث حسن الصنعة والإتقان والإبداع ، فما أصحاب العلوم السابقة إلا كأصحاب الحقول يزرعونها ولا يعقلون مازرعوا من علم النبات ، هكذا هؤلاء يعرفون علومهم ولكن لا يعينهم حسن النظام والإتقان والاستدلال على الخالق ، ثم حبه ، ثم الغرام ، ثم النظر إلى وجهه ، فحينئذ قوله تعالى « بلى قادرين على أن نسوي بنانه » وقوله : « ألم يك نطفة من مئى يعنى ، ثم كان علقة مخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى » لا يدل على المقصود في هذا المقام إلا إذا نظر له من حيث الإتقان وإبداع الصنع ، ثم إنك تعلم أن العلوم السبعة المذكورة ضرورية للأمة ، وإلا كانت ذات نقص مشين ، فهذه العلوم كلها واجبة على الأمة لتجيا ، ولتحتفظ ثروتها وقوتها ، وتصح أجسام أهلها ، ولكن ليس معنى هذا أنهم يعرفون الله بها ، بل إنما يعرف الله بالنظر الخاص من وجهة الصنعة والصابغ ، فعلمت إذن أن العلوم المذكورة كلها مطلوبة ، لأنها واجبة فرض كفاية ، ومع ذلك لا بد من النظر لها من حيث الوجهة الإلهية حتى تدل على الصانع الحكيم وعلى قدرته .

ضرب مثل بالقصر

واعلم أن الناس في الدنيا أشبه بمجماعة يسكنون قصرا بديعا ، فأكثر السكان مشغولون ببلداتهم وأحزانتهم وأفراحهم ، وقليل منهم من فكر في بنانه ، وحسن نظامه ، والإعجاب بالعالم الذى أبدعه ، والنظام الذى أخرجه ، والثروة التى أنتجته . والغرام بمن بناه وحبه ، ثم الاقتداء به ، والشوق إلى لقائه ، هكذا أهل الأرض يسكنونها ويقرءون علومها ليعيشوا بها ، ومن العلوم التشريع المذكور في هذه الآية ، وما اتصل به من علم الأجنة والنبات والحيوان والطب وعلم النفس وعلم التربية وعلم السياسة العامة ثم علم الأخلاق لأن له اتصالا تاما بعلم النفس ثم علم النطق ، يقرأ الناس هذه العلوم ليعيشوا بها ، ولكن هناك علم ما وراء الطبيعة وهو الباحث عن النظام العام كما شرحناه فليس يتقنه إلا قليل ، وهؤلاء عليهم قوام النوع الإنسانى واجتماع كلمته ، والأنبياء أوحى إليهم ما يؤيد هذا العلم ويقدمهم الحكماء .

فهل عرفت ما قلته لك : إن معرفة الله وارتقاء المدينة يرجعان لهذه العوالم المشاهدة ، فعى من حيث إنها متقنة توصلنا لسانها ، ومن حيث إنها تنفعنا توصلنا لحياتنا الدنيا ، فعى للعقول مرقية ، وقه موصلة وللحياة متممة . انتهى الكلام على المقام الأول ، والحمد لله رب العالمين .

المقام الثانى فى قوله تعالى : فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى

لملك فى المقام الأول هالك ماترى من علوم متعددة قد اقتضاها قوله تعالى : « خلق فسوى » وكيف كان علم البحث فى النظام غير العلوم العشرة الأخرى ، وأنه لا يلزم من علم الطب أن يعرف الإنسان الخالق مالم يدرس الدراسة للطبوبة ، فلتن عجبت من كثرة العلوم فلنعم حين ألف مرة كيف يكون قوله تعالى :

« جعل منه الزوجين الذكر والأنثى » قد تضمن علما هو معجزة آخر الزمان ، وهو حكمة القرآن ، فانظر وتأمل في الذكور والإناث على سطح الكرة الأرضية ، لقد ثبت يقينا أنك إذا حسبت الصنفين في مواليد الأمم شرقا وغربا أمة أمة ، وقرية قرية ، وبلدة بلدة ، ومجموع الأمم وجدت الصنفين متكافئين عدا ، فعدد الذكور كعدد الإناث تقريبا ، وهذا التقريب للعوارض التي تحمل بالأمم أحيانا ، ولما تحققت هذه النظرية فعلا ألفت كتابا مبينا عليها وعلى حسن النظام في العالم سميته (ابن الإنسان) فأبى الإنسان سر هذه الآية وأمثالها كقوله تعالى : « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » .

هذا الكتاب لما ألفتة أرسلته إلى بعض جرائد أوروبا ومجلاتها ، وساعدني على ذلك سيدة من علماء بلاد روسيا ، فقد عرضته في مجتمع علمي ببلاد اليونان ، ومن أخذه الأستاذ (سننلان الطلياني) ، ولخص الكتاب تلخيصا ، وقرظه في مجلته ، وترجمها المرحوم مصطفى بك رياض من النليانية إلى العربية ، والكتاب ألفتة قبل الحرب الكبرى بأربع سنين . وقد كنت أقول في نفسي : (إن أوروبا تريد ظلم بلاد الإسلام فلاؤلفن كتابا يكون حجة عليها في الأجيال المقبلة ، وليكون تذكرة للشبان المسلمين بعدنا . وملخصه يرجع إلى أن نظام هذه الدنيا والأمم والحكومات يجب أن يكون تابعا للنظام الإلهي ، فإنما نجد جعل الذكور والإناث متساويين عدا مما يدل أن هناك عناية بكل مخلوق ، وهكذا نجد العقول متفاوتة ، والأرض مختلفة البقاع والخواص ، ولا بد أن يكون هناك تناسب بين العقول والإدراكات والخواص الإنسانية وبين هذه الأرض وما عليها ، فليغير نظام الأرض والدول ، وانكن أمم أرقى من هذه . ولما كان شرح الكتاب هنا يطول اختصرت القول ، وقد نقلت لك ما كتبه الأستاذ سننلان المذكور المترجم إلى العربية فيما تقدم في هذا التفسير عند آية : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » في سورة الحجرات ، فقد أثبت هناك أن هذه الآية تخص المسلمين على أن يكون لهم وجهة تتجه إلى جمع العالم كله في هيئة تعارف عام ، فافهم هناك :

(١) لتطلع على آراء الأوروبيين وفلاسفتهم في النهضة التي تربدها للمسلمين .

(٢) ولتعلم أن الإسلام يشير إلى مدينة أرقى من مدينة المسلمين اليوم وقبل اليوم ومدينة أوروبا

الآن .

(٣) وليكون ذلك داعيا أمم الإسلام أن يأخذوا بمقائيد العلم والحكمة ويتخذوا لهم أسلوبا لترقية النوع الإنساني .

(٤) ولتعلم أن كتاب (ابن الإنسان) من أجل معجزات القرآن في هذا الزمان .

(٥) وليعلم المسلمون أن ديننا إلى الآن لم تظهر كوامنه ، وأن عجائبه لا تظهر إلا بحسبكم وعلماء ومفكرين .

(٦) وليكون ملخص الكتاب الذي ذكرته مشوقا لك ومشجعا على سلوك سبيل العلم والتفكير اه .

تذكرة في قوله تعالى : بلى قادرين على أن نسوي بنانه

كتب يوم الثلاثاء ١٣ شوال سنة ١٣٥١ هجرية

اعلم أن مسألة تسوية البنان من أبداع ماجاء به الله ذكر الحكيم ، ومن أعجب المعجزات القرآنية ، لقد قدمت في المجلد التاسع عشر من هذا الكتاب في تفسير (سورة فصلت) تفصيل الكلام على آية : « حق إذا ماجاء، وما شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء . وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون . وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم

صمكم ولا أبصركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون ، وهناك نقرأ تاريخ بصمات الأصابع ، وأنه تاريخ حديث النشأة ابتداء حقيقيا في أيام حياتنا نحن سكان الأرض الآن : أي في أواخر القرن التاسع عشر للمسيح ، ودخل الآن في دور التنفيذ الفعلي في الشرق والغرب ، وذلك مبنى على أن كل امرئ في هذه الأرض لا يشابه خطوط أصابعه خطوط أصابع غيره ، وبذلك قامت هذه حجة على السارقين والقائلين في أوروبا والشرق الأقصى والشرق الأدنى ، ومنها بلادنا المصرية ، فالقضاة في المحاكم الأهلية يعولون على بصمات الأصابع ، وهناك ترى رسوم أنواع الأكف بالتصوير الشمسي ، وأن خطوط الأصابع مهما تنوعت تنحصر في أربعة أقسام ، وكل قسم تكون له أشكال لانهاية لها .

الله أكبر : إذن ذكر البنان في القرآن لحكمة لم يظهر أثرها في الحياة الدنيا ظهورا واضحا إلا في زماننا وترى في (سورة يس) أيضا هيئة الشرطة في اليابان ، وكيف عثروا على الشاب الذي قتل معشوقته بطريق بصمات أصابعه .

إن رحمة الله تجلت في القرآن وفي الآفاق معجزات ومعجزات ، إذن لا عجب فيما أخبرني به صديق محمود بك سالم الذي عاش أكثر حياته بأوروبا لاسيما فرنسا ، فقد قال في مجمع عظيم مصري وهو يخطب : إن عالما ألمانيا منذ بضع عشرات السنين اعتنق الإسلام فقبل له لماذا ؟ قال الآية : « بنى قادريين على أن نسوي بنانه » فإن الكشف عن أمر بصمات الأناامل لم تعرفه أوروبا فضلا عن العرب إلا في زماننا هذا ، إذن هو كلام الله لا كلام البشر . وهذا تم الكلام على (سورة القيامة) والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة الانسان

هي مدنية

آياتها ٣١ - نزلت بعد سورة الرحمن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا * إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ
مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيمًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا
كَفُورًا * إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا * إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن
كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا * يُوفُونَ بِالنَّذْرِ
وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا *
إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا
عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا * فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا * وَجَزَّاهُمْ بِمَا

صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا * مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا *
 وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أَطْوَفُهَا تَذِيلًا * وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِثَابِتَةٍ مِنْ فِضَّةٍ
 وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا * قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا * وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا
 كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا * عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا
 رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثورًا * وَإِذَا رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلُكًا كَبِيرًا * عَلَيْهِمْ
 ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُوعٌ أُسَاوِرٌ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَامُ رَبِّهِمْ شَرَابًا طَهُورًا *
 إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا * إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ
 تَنْزِيلًا * فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطِعْ مِنْهُمْ، إِنَّمَا أَوْ كَفُورًا * وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ
 بُكْرَةً وَأَصِيلًا * وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا * إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ
 وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا * نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا
 أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا * إِنَّ هَذِهِ تَذْكَرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا
 أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ
 لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا *

تشتمل هذه السورة على ثلاثة مقاصد (الأول) كيف خلق الله الإنسان ؟ تنمينا لما ذكر في آخر سورة
 القيامة ، وذلك من أول السورة إلى قوله : « سميعا بصيرا » (الثاني) في جزاء الشاكرين والكافرين ،
 ووصف الجنة والنار ، وذلك من قوله : « إنا هديناه السبيل » إلى قوله . « وكان سعيكم مشكورا » .
 (الثالث) أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالصبر ، وذكر الله ، والتعبد بالليل ، وذلك من قوله تعالى . « إنا
 نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا » إلى آخر السورة . ولنشرع في تفسير السورة فنقول .

المقصد الأول : كيف خلق الله الإنسان

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(هل أتى على للإنسان) أى قد مضى عليه (حين من الدهر) طائفة محدودة من الزمان الممتد الذى
 لاحد له حال كونه (لم يكن شيئا مذكورا) أى لا يذكر ولا يعرف ، ولا يدري ما اسمه ، وما للراد منه ،

وإنما كان يسمى بأسماء مختلفة ، فأما آدم أبو البشر فإنه بقى أربعين سنة طينا ، وأربعين سنة حيا مسنونا وأربعين سنة صلصالا كالصخر ، فتم خلقه في مائة وعشرين سنة كما يقال في الآثار ، وهذه السنين ربما كانت رمزا إلى أزمان طويلة مجهولة لنا ، وأما بنو آدم فإنهم يسمون قبل خلقهم بهيئة الإنسانية نظفا في الأصلاب ، ثم علقا ، ثم مضعا في الأرحام ، ففي تلك الأيام لم يذكروا بشيء ، ثم أتبعه بذكر تاريخ العناصر الداخلة في الإنسان قبل تكونه في الأصلاب والأرحام فقال (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج) أي أخلاط حال كوننا (نبتليه) أي حريدين اختباره (لجعلناه مميما بصيرا) ليمسكن من مشاهدة الدلائل ، واستماع الآيات ، والتفكير والتفكر ، ذلك أننا خلقناه من النطفة ، وهي تكون في الرجل وتكون في المرأة ، فهاتان النطفتان بأعدادهما يتكون الجنين ، ومن أين هاتان النطفتان ؟ هاتان النطفتان مخلوقتان من عناصر مختلفة وتلك العناصر آتية من النبات والحيوان الداخلين في طعام الآباء والأمهات ، ومن الماء الذي يشربونه ، والأملاح التي يتعاطونها ، وجميع اللواد التي دخلت في أصول التغذية من الطعام والشراب عشرة ، وهي :

الأوكسوجين ، والأودروجين ، والكربون ، والأوزون ، والكبريت ، والفوسفور ، والبوتاسيوم والفضي ، والكلسيوم ، والحديد .

فهذه هي العشرة التي تدخل في كل نبات ، ومن باب أولى في كل حيوان لأنها طعامه ، وفي كل إنسان فالنطفة إذن مكونة من هذه الأمشاج العشرة ، فهي أخلاط كونت ومزجت وصارت دما فنطفة فعلقة الخ جعل لها السمع والبصر والعقل ، وهذه من عالم أشرف من عالم المادة البينة التي هي في أسفل درجات النقص والكمال إنما نزل إليها من عالم أرق منها ، وهو العالم الإلهي الروحي ، فلما أن رجع إلى حب المادة والاستكانة لهذه المشاهدات ، وإما أن تجرد وتفكر فترجع إلى عالم الكمال والجمال بالعلم والعمل ، وهذا هو قوله تعالى « نبتليه لجعلناه مميما بصيرا » : أي نمامله معاملة المختبرين ، أيميل لأصله الأرضي من الأمشاج ليكون حيوانيا نباتيا معدنيا شهوانيا ، أم يكون إلهيا معتبرا بالسمع والبصر والعقل التي من طباع أرق من طباع المادة التي تكون فيها ، فإذن الإنسان مكون من عالمين . عالم فاعل ، وعالم منفعل ، فالعالم الفاعل عالم الروح وهي إلهي ، والعالم المنفعل عالم المادة ، وهي الأمشاج ، فإذا حكم النفس وقهرها بحيث يتجاوز عن أخلاق المادة وعن الشهوات فقد صفت نفسه ، وصمت إلى عالم أعلى ، وإن صفت ومالت إلى المادة فإنها ترجع إلى أخلاقها وتدخل في جهنمها وعذابها في الدنيا بالحيرة والشكوك وتشابه أخلاط المادة عليها وذوولها من تتبعها « ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » ولذلك أعقبه بالمقصد الثاني .

المقصد الثاني : في جزاء الشاكرين والكافرين ، ووصف الجنة والنار

قال تعالى (إنا هديناه السبيل) فأعطيناه السمع والبصر والفؤاد ، وأرنا له المحجة ونصبنا له الدلائل في الأنفس والآفاق ، ليعتد عن أصله الأرضي إلى سببه السماوي ، فهناك حواس وعقل له في نفسه ، ويقابلها مخلوقات أرضية وسماوية تكون مسرحا لفكره ، ومعنا لعقله ، فنحن إذن هديناه السبيل حال كونه (إما شاكرا وإما كفورا) فبعض الناس شاكر بالاهتداء وبعضهم كفور بسبب الإعراض عنه . ثم شرع يبين حال الفريقين فقال (إنا أعتدنا للكافرين سلاسل) ليقادوا بها (وأغلالا) بها يقيدون (وسعيرا) بها يحرقون (إن الأبرار) جمع برسكارباب جمع رب (يشربون من كأس) الكأس الزجاجية فيها الخمر ، أو يراد بها نفس الخمر مجازا (كان مزاجها كفورا) أي كان ما تمزج به كفورا لبرودته وعتوبته وطيب عرفه

ولا جرم أن مافي الدنيا ليس فيه مما في الجنة إلا الإسم ، فإذا قال الفسرون إنها اسم لعين في الجنة ماؤها في بياض الكافور ورأحتة وبرده ، فقد قالوا ما يؤخذ من اللفظ ، وإلا ففي الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وإنما أخذوه من قوله تعالى (عينا) لأنها بدل من كافورا ومعلوم أن الكافور لا لذة فيه وشرا به مضر ، فإذا رجع المعنى إلى الأوصاف المذكورة من البرودة والرائحة الخ (يشرب بها) أى يشرب منها (عباد الله) أى أولياؤه (بفجرونها تفجيرا) يقودونها إلى منازلهم وقصورهم حيث شاءوا سهلا لا يمتنع عليهم ، فهؤلاء يشربون منها على طريق مزجها بالحمر ، ولما كان هذا النعيم له أسباب في الدنيا أعقبه بقوله (يوفون بالنذر) بما أوجبوا على أنفسهم ، ولا جرم أن من وفى بما أوجبه على نفسه فهو على الوفاء بما أوجبه الله عليه أوفى (ومخافون يوما كان شره مستطيرا) أى شدائده منتشرة ، يقال استطار الفجر انتشر وظهر (ويطعمون الطعام على حبه) أى مع الإلتناء والحاجة إليه ، أو على حب الله (مسكينا) فقيرا عاجزا (ويتيا) صغيرا لا أب له (وأسيرا) مأسورا من أسارى الكفار ، فقد كان صلى الله عليه وسلم يؤتى له بالأسير فيدفعه إلى بعض المسلمين فيقول أحسن إليه ، فهؤلاء يطعمون الطعام حال كونهم يقولون في أنفسهم (إنما نطعمكم لوجه الله) فلا تمن عليكم ، أو تنويع المكافأة فانها تنقص الأجر ، وقد كانت عائشة رضى الله عنها تبعث الصدقة إلى أهل بيت من البيوت ثم تسأل البعوث فإن ذكر دعاء دعوت لهم بمثله لينق ثواب الصدقة لها خالصة عند الله ، فنحن نطعمكم حال كوننا (لا نريد منكم جزاء ولا شكورا) أى شكرا (إننا نخاف من ربنا) فلذلك أحسنا إليكم ولم نطالب المكافأة منكم (يوما) عذاب يوم (عبوسا) تعبس فيه الوجوه (قمطيرا) شديد العبوس ، يقال اقمطرت الناقة إذا رفعت ذنبها وجمعت قطرها (فوقام الله شر ذلك اليوم) لأنهم خافوا وتحفظوا (واقام نضرة وسرورا) بدل عبوس الفجار وحزنهم (وجزام بما صبروا) على أداء الواجبات ، واحتساب المحرمات ، والإيتار على أنفسهم بالأموال (جنة) بستاناً يأكلون منه (وحريرا) يلبسونه حال كونه (متكئين فيها على الأرائك) جمع أريكة ، وهو السرير في الحجلة ، والحجلة هي الناموسية المروفة ، ولا يسمى السرير أريكة إلا داخلها (لا يرون فيها شمساً ولا زمهريرا) أى لا يؤذيهم حر الشمس ولا برد الزمهرير كما كان يؤذيهم في الدنيا والزمهرير أشد البرد . فهواء الجنة معتدل ، فلا هو حار محم ، ولا بارد يؤذى ، ويقال في لغة طي . الزمهرير القمر ، قال راجز م :

وليلة ظلامها قد اعتسكرك قطمتها والزمهرير مازهر

فيكون المعنى على هذا أن جو الجنة مضيء بذاته لا يحتاج فيه إلى شمس ولا إلى قمر ، وإذا كان الأمر كذلك دل هذا على أن الأحوال هناك مخالفة كل مخالفة لعالم أرضنا ، فلا البستان ، ولا الحرير ، ولا السرير ولا الأريكة كالذى نشاهده في الدنيا بل هي مخالفة كل مخالفة كما قاله ابن عباس . قال تعالى (ودانية عليهم ظلالها) أى قريبة منهم ظلال أشجارها : أى وجنة أخرى دانية عليهم ظلالها ويصح أن تكون حالا أخرى أى حال كونهم متكئين وغير راثنين ودانية (وذلت قطوفها تذليلا) أى سخرت للقائم والقاعد والتسكى . أى تدنو ظلالها عليهم في حال تذليل قطوفها عليهم ويصح أن تقول ودانية عليهم ظلالها ومذلة الخ والقطوف الثمار جمع قطف (ويطاف عليهم بآنية من فضة) أى يدير عليهم خدمهم كؤوس الشراب والآنية جمع إناء وهو كأس الشراب (وأكواب) أى من فضة جمع كوب وهو يريق لاعروة له (كانت قواريرا . قوارير من

فضة) أي تكونت جامعة بين صفاء الزجاجة وشفيفها وياض الفضة ولينها يعني أن آنية أهل الجنة من فضة
يضاهي صفاء الزجاج فيرى ما في باطنها من ظاهرها وقوارير كل قوم تشا كل أرضهم وأرض الجنة أشبه بالفضة ولا جرم
أن قوارير الدنيا من الزملا وبعض العناصر وقوارير الجنة من الفضة ولكنها تكون أصنى منها ، وقري
قوارير من فضة بالرفع أي هي قوارير وهو على النصب بدل (قدروها تقديرا) أي إن السقاة والخدم الذين يطوفون
عليهم قدروها لهم على قدر كفايتهم لا تزيد ولا تنقص فهي على قدر رى شارها فهي ألهم وأخف عليهم
لا تفيض ولا تنقص (ويستون) أي الأبرار (فيها) في الجنة (كأسا) حرا (كان مزاجها زنجيلا عينا)
بدل من زنجيلا (فيها) في الجنة (تسمى) تلك العين (سلسيلا) ففي تلك العين طعم الزنجيلا ولا
جرم أن العرب تستلذه وتستطيه ، وسميت زنجيلا لذلك وسلسيلا لسلاسة انحدارها في الحلق وسهولة
مساعها وعدوتها وطيبها وإنما جعل العرب الزنجيلا في شرابهم لأنه يحصل فيه ضرب من اللذع .
قال الأعشى :

كأن القرنفل والزنجيلا بانا بفسيا وأريا منشورا
الأرى : العسل ، والنشور : المستخرج من بيوت النحل . وقال السيب بن علس
فكأن طعم الزنجيلا به إذ ذقته وسلافة الحجر

فذلك وصف الله به شراب أهل الجنة وشراب أهل الجنة على برد الكافور وطعم الزنجيلا وريح
السك ، ولا جرم أن هذا كله ما هو إلا أسماء لما في الدنيا وهناك مالا عين رأت ولا أذن سمعت ، فاللعان
غير مانعه ، والألفاظ مجرد تخيل شيء تراه كما حققه ابن عباس (ويطوف عليهم ولدان مخلدون) دائمون
(إذا رأيهم حسبهم لؤلؤا منشورا) من صفاء ألوانهم ، وانبثاثهم في مجالسهم ، وانكاس شعاع بعضهم إلى
بعض ، واللؤلؤ النشور أزين في النظر من المنظوم (وإذا رأيت ثم) أي في الجنة : أي إذا رأيت يصرح
ونظرت به (رأيت نعما) لا يوصف عظمه (وملكا كبيرا) فأدناهم منزلة من ينظر في ملكه مسيرة ألف عام
يرى أقصاه كما يرى أدناه ، هذا ملك غير العارفين ، أما ملك العارفين فليس يحدهم ثبات الألوف بسير الضوء
لابسير الناس ، فإن العلوم والعارف إذا انتقت في نفس العارف واطلع على تلك العوالم التي ذكرناها في هذا
التفسير في سور مختلفة ورأى أن نظامها متناسق أصبح ينظر إليها نظر الفرح بما ملك ، وتصبح هذه كلها جنة
له وسرورا لا يفارقه ، فالعلم جنة العارفين (عليهم ثياب سندس) أي يطوف عليهم ولدان حال كون الطوف
عليهم عليهم ثياب سندس ، وهورقيق الديباج (خضر) جمع أخضر (وإستبرق) غليظ (وحلوا أساور من
فضة) أي وقد حلوا أساور من فضة : قال ابن السيب : لأحد من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاث أسورة :
واحدة من فضة ، وأخرى من ذهب ، وأخرى من لؤلؤ ، وهذا يجمع بين ما هنا وما في سور أخرى (وسقاهم
ربهم شرابا طهورا) وهذا الشراب غير ما تقدم وأرق منه ، فشراب الله غير شراب السقاة في الجنة ، فشراب
السقاة بآنية الفضة والأكواب والكأس التي مزاجها زنجيلا ، وهذا يطاف عليهم بها ، أما الشراب الطهور
فالذي يسقيه لهم ربهم ، ووصف بالظهور لحكمة ساذكرها في أواخر تفسير هذه السورة إن شاء الله تعالى
ثم يقال لأهل الجنة (إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا) مجازي عليه غير مضيع ، وشكر الله
لعباده أن يرضى منهم بالقليل ، ويعطيهم الجزيل من الجزرات . انتهى المقصد الثاني .

المقصد الثالث : أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالصبر ، وذكر الله ، والتوجه بالليل

قال تعالى (إنا نحن زاننا عليك) يا محمد (القرآن تنزيلا) متفرقا آية بعد آية ، ولم تنزل جملة واحدة لحكمة بالغة تقتضى تخصيص كل شيء بوقت معين ، فثبت قلبك ولنشرح صدرك (فاصبر لحكم ربك) بتأخير نصرتك على كفار مكة وغيره (ولا تطع منهم آثما أو كفورا) أى لا تطع كل واحد من مرتكب الإثم ومن متجاوز الحد فى الكفر ، فأو بمعنى الواو ، فإذا قال لك الآثم وهو عبثية : أترك الصلاة وأنا أزوجه ابنتى وأسوقها إليك بغير مهر ، وإذا قال الكفور وهو الوليد بن المغيرة : أنا أعطيك من المال حتى ترضى إذا رجعت عن هذا الأمر فلا تطع واحدا منهما ولا غيرها ، فقد أعدنا لك نصرا فى الدنيا وجنة فى الآخرة قد عرفت وصفها ، فلتستمد للنعم المقيم بالصبر أولا ، وداوم على ذكر ربك لاسيا وقت صلاة الفجر ووقت الظهر والعصر ، وهذا قوله تعالى (واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا) فهو إما بمعنى الدوام ، وإما بمعنى الوقتين المذكورين (ومن الليل فاسجد له) أى وبعض الليل فصل له تعالى كصلاة للغرب والعشاء (وسبحه ليلا طويلا) أى وتجهد له طائفة من الليل طويلة ، فأما هؤلاء فإنهم غافلون عن هذه للمالى (إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم) أمامهم (يوما ثقيلا) شديدا ، فالتقيل يكون باهظا للحامل ، فذلك أمرناك بصلاة المغرب والعشاء وصلاة التهجذ الطويلة لتكون فى مأمن من هذا اليوم الثقيل ، وكيف يغفلون عنا (وعن خاقناهم وشدنا أسرهم) وأحكنا ربط مفاصلهم بالأعصاب ، فالأسر الأوصال قد شدت بعضها إلى بعض بالأعصاب وامتدت فيها العروق وانصلت وشدت عليها فكيف تركهم سدى بعد هذا الإحكام والعناية فى الخلق (وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا) فإن عادتنا أن نزيل مالا يصلح للرقى من خلقنا ، فهلك هؤلاء ونبدل أمثالهم فجعلهم مكانهم يكونون أطوع منهم (إن هذه) السورة (تذكرة) كسائر القرآن (فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا) تقرب إليه بالطاعة (وما تشاؤون إلا أن يشاء الله) أى وما تشاؤون ذلك إلا وقت أن يشاء الله مشيئكم (إن الله كان عليما) بما استعد له كل أحد (حكيم) لا يشاء إلا على مقتضى الحكمة والنظام العدل (يدخل من يشاء فى رحمته) فيهديه ويوقه للطاعة على حسب استعداده (والظالمين) الذين لم يستعدوا للهداية (أعد لهم عذابا ألما) انتهى التفسير اللفظى للسورة كلها ، والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذه السورة

- (١) فى قوله تعالى : « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميما بصيرا » .
- (٢) فى قوله تعالى : « ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتما وأسيرا » .
- (٣) فى قوله تعالى : « ولقاهم نضرة وسرورا » .
- (٤) فى قوله تعالى : « وسقاهم ربهم شرابا طهورا » :

اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميما بصيرا

يقول الله : إن الإنسان مخلوق من نطفة ، والنطفة مكونة من أمشاج ، وما الأمشاج فى الإنسان إلا الألكسوجين ، والأدروجين ، والكربون ، والأوزون ، والكبريت ، والفوسفور ، والبوتاسيوم ، والفضة ، والحديد .

فهذه هي الأمشاج والأخلاق التي كون منها الإنسان ، والإنسان يتولد فيه النطفة ، والنطفة يتكون منها إنسان جديد ، فهذا الإنسان مبدؤه من الحديد والفسفور والكبريت الخ .
 الإنسان مركب من مواد بعضها محرق ، فالفسفور سريع الاشتعال متى عرض للهواء ، والبوتاسيوم جسم أبيض فضي لماع لين كشمع المسل يصهر على درجة ٩٢ و ٥٠ ويتطاير على درجة دون الأحمرار ، ولون بخاره أخضر جميل ، ومتى لامس الهواء تغير لونه ، ومتى أقيت قطعة من البوتاسيوم في الماء فإنك ترى كرات البوتاسيوم تحمر بسبب شدة ارتفاع الحرارة الناتجة عن التفاعل ، ويلتهب الأدرجين المتصاعد ، وتدور كرات البوتاسيوم بعضها على بعض سابعة على بعد من سطح الماء ، ثم بعد زمن تحول إلى بوتاسا وتسقط على الماء فيتكون بخار الماء ، وتحصل فرقة بسبب التفاعل . والبوتاسيوم داخل في تركيب ملح البارود ، والبارود يدخل في تركيبه ملح البارود المذكور والكبريت والفحم ، ومعلوم أن الفوسفور داخل في تركيب العظام ، حتى إن الأنوار التي تشاهد من وقت لآخر فوق المقابر إنما نشأت من ملامسة الفوسفور للهواء الجوي فتحصل إضاءة .

فهذه أربعة عناصر من عشرة كلها نارية وثلاثة منها لتركيب البارود ، ثم الحديد يظهر أثره في الكرات الدموية ، فلولا الحديد لم يكن فيها لون الحمرة .

انظر أيها الذكي إلى صنع الإنسان ، انظر إلى عناصر يدخلها هذه المواد الجهنمية المخرقة ، ألا ترى أن تفاعلها مع بقية العناصر لطف حدثها ، ماهو السر الذي أوجب أن تكون هذه التناقضات ذات حس وحركة وعقل . فوسفور وبارود مع مواد أخرى تصبح عاقلة مفكرة حكيمة .

جسم الإنسان ذو مادة مشتملة ، لذلك نراه يحب القتال ، نراه يستعمل بعض عناصر جسمه لإهلاك غيره ، يصنع البارود من الفحم وأخويه ويقذف به على أبناء جنسه ، خلق الإنسان من صلصال ، والصلصال هو الفخار ، والفخار طين أحميت عليه النار ، والإنسان دخلت في تركيبه المواد النارية :

الإنسان ذو روح غير ساكنة كثيرة الحركة كثيرة الوثوب لانتفاً تنقلب ، فبينما هي تفكر في الخير إذا هي انتقلت إلى الشر ، وإذا فكرت في مكان شرقي انتقلت إلى نظيره في الغرب من غير زمان ، وإذا فكرت في الماء الشفاف الجليل تذكرت نجوم السماء بلا زمن ، فنفسنا لا حد لها تقطع القباب والأبعاد الطويلة بلا زمان .

هذه قدرة هائلة لذلك وضعت في قطعة من السادة محترقة ، وكيف تعيش الروح ذات الحركات البعيدة والتنقلات اللدهشة إلا في مكان يناسبها ، لا بد من المناسبة بين السكان والسكان ، فالكبريت والفسفور والبوتاسيوم ، كل هذه أجسام وناه طيارة فجعلت فيها النفس الطيارة الوثابة « وربك يخلق ما يشاء ويختار » .

حكم نسجت يد حكمت ثم انتسجت بالمنتسج

لذلك نرى الأجسام الحيوانية والإنسانية سريعة الدوران تموت بلا بطء وتنحل سريعاً في أزمان مختلفة هذا هو السبب في قراءة الحكمة وزول الديانات تنبيه للناس أن حياتهم لا تدوم ، وكيف تدوم والجسم مركب من عناصر سريعة الانفصال ، قليلة الثبات ، متقلبة ، فالجسم ذائب ، والروح

بحركتها السريمة ترجع إلى عالمها اللطيف ، انتهى الكلام على اللطيفة الأولى ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثانية في قوله تعالى : ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا

هذه الآية ترجع إلى الإحسان وإذابة المهجة في خدمة النوع الإنساني ، إن الآية مدح في السخاء بحيث يكون الإنسان نعمة على الفقراء من أمته والضعفاء ، وعلى من هو أجنبي عنه ، بل هو من أعدائه فالمسكين واليتيم قد يكونان من أمته ، فأما الأسير فإنه من قوم أعداء حاربهم فأسروا فريقتا منهم ، فهؤلاء الأسرى حمد الله الإحسان إليهم ، فملخص الآية أن الإنسان يجب أن يكون نورا وناقما لبني وطنه وغيرهم ، فإن جميع الناس عباد الله وأقربهم إليه الطمهم بعباده ، وكلما زاد الإنسان رافة بهم زاد من الله قربا .

هذا هو الضراط للستقيم ، فليكن الإنسان على سنن الله وصراطه للستقيم ، ألا ترى أنه أرسل الشمس والقمر والنجوم . فأضاءت على البر والفاجر ، والحبيث والطيب ، والصحيح والمريض ، فكلما عم نفع الإنسان كان إلى ربه أقرب ، وبشاهد ذلك في الإلهامات التي تنوالت عليه ، وفي المساعدات الدائمة ، فلتسكن فيك خصلتان : حب العلم مع حب الله ، وحب الناس ، ففكر فيهما وتخلق بهما والله يكون معك ، فهذا هو المقصود من الآية .

أما ذكر السبب وتعيينه في نزول الآية كأن يروي أنها نزلت في رجل يسمى أبا الدحداح من الأنصار صام يوما ، فلما كان وقت الإفطار جاء مسكين ویتيم وأسير ، فأطعمهم ثلاثة أرغفة ، وبقى له ولأهله رغيف واحد ، أو كان يروي أنها نزلت في سيدنا علي رضي الله عنه ، إذ نذر هو وفاطمة رضي الله عنهما وفضة جاريتهما أن يصوموا ثلاثة أيام إن برى الحسن والحسين ، فلما برثا واستقرض على رضي الله عنه صاعا وخبز خمسة أقراس ، فوضعوها بين أيديهم ليفطروا ، فلما جاء مسكين أعطوه ولم يأكلوا ، وفي الليلة الثانية وقف يتيم فأعطوه ولم يأكلوا ، وفي الليلة الثالثة أسير .

فسواء كان السبب هذا أو ذاك أو غيرهما فلا تضع زمانك في تحقيق الحوادث ، واشتغل بما هو أم لك ، وهو مقصود الآية أن تكون عوناً لجميع الناس في وطنك وغير وطنك .

وإن من شرائط العلو العطف في البؤس على العدو

فأما العامة فإنهم لاحظ لهم إلا أن يتسلوا بتلك الحكايات وينفكروا بها ، ويرون أنهم لا قبل لهم بشيء من هذا ، فأما العالم فإنه يعتبر بذلك ويفكر في إسعاد نفسه ورفقه بأشرف الأخلاق وأجل الأعمال . انتهى الكلام على اللطيفة الثانية ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : ولقاهم نضرة وسرورا

إن تلك النضرة والسرور هما اللذان يؤخذان من قوله تعالى : «وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة» فهذه النضرة والجمال في الوجوه سببها النظر لوجه الله ، والنظر لوجه الله يرجع إلى العلم والحكمة ، فقل مقدار العلم بالصنعة يكون القرب من الصانع ، وهنا يمكن إيضاح هذا المقام في اللطيفة الآتية :

اللطيفة الرابعة في قوله تعالى : وسقاهم زبهم شرابا طهورا

هنا يقف القارىء وقفة ليعرف أين محل الطهور من الشراب؟ وأى مناسبة للشراب حتى يوصف بالطهور إن الطهارة ليست من صفات الشراب التي تجعله لذيذا في الطعم، بل يقال ماء فرات، أو شراب لذيذ، أو شراب مزوج بالزنجبيل، وما أشبه ذلك مما تقدم في هذه السورة ونحوها، فليس الطهور من الصفات التي بها تكون اللذة، وإنما يحسن هذا الوصف للماء الذي تنطهر به من الحدث والنجس فيقال طهور، نعم إن الماء الطهور قد يكون صالحا للشرب، لكن ليس وصف الطهارة هو الذي جعله كذلك بل العذوبة وكونه باردا وما أشبه ذلك من كونه خاليا من المواد الضارة للإنسان، وأن تكون جراثيمه قد ذهبت منه، وأن يكون مروقا مصفى، إذن فلنبحث عن السبب في ذكر الطهور وإلا كان هذا مما لا يناسب البلاغة والفصاحة، وإذا كان القرآن أفصح كلام وأبلغه فلماذا يكون هذا التعبير؟ فنجيب على ذلك بما يأتي.

اعلم أن الوصف بالطهارة إنما جاء هنا ليوجه العقول إلى المقصود من الجنة ومن النعيم فيها، وليدلنا على المقصد الذي ترمي إليه تربية الإنسان في هذه الدنيا:

إن أحوال الجنة التي ذكرت في هذه السورة وغيرها لاندو أمرين اثنين لا ثالث لهما: لذة جسمية، ولذة روحية، فاللذة الجسمية واضحة في هذه السورة، فترى البساتين والولدان والحجر للمزوجة والأرائك والجو المعتدل والحرارة والضوء الجميل البهيج بلاشمس ولا قمر والظلال والقطوف الدانية والنعيم والملك الكبير والثياب من سندس أخضر وحرير غليظ، والتعلى بالأساور الفضية والذهبية واللؤلؤة، والنساء الجليات، والخور البديعات المقصورات في الخيام التي لم يطمئنن إنس قبلهم ولا جان.

هذه مجامع النعم الجسمية، أما النعم الروحية فهي طهارة نفوسهم من عالم المادة وخلوصها من الطبيعة، وارتقامها إلى عالم القدس والأرواح وقربها من العالم الإلهي البديع، وكلما كانت أبعد عن المادة كانت أقرب إلى الله وأكثر اطلاعا على بهجة العوالم ونظام الخليفة العام، فإذا كانت اللذات الجسمية تحضر بأيدي الخدم ويطوف بها عليهم ولدان ومحظون بالخور، فاللذات العقلية يتألفونها من زبهم مباشرة، فلذلك قيل «وسقاهم زبهم» وهل يسقى الله إلا ما كان أقرب إلى الكرامة والعالم الروحي العالی، فإسناد السقى إلى الله راجع إلى أن الشراب ليس جسيما، فالولدان يطوفون بالأكواب والأباريق ويسقون الحجر، والله لا يسقى الحجر ولا يعطى شرابه في أكواب وأباريق، ولكن شراب الله المعلوم والحكمة، وهما هنا يفهم ذكر الطهور فالطهارة هنا الخلوص من المادة بجميع أنواعها، وهذه أعلى اللذات في الجنة، وإياك أن يهجنس في قلبك أن المفسرين الذين أشاروا إلى هذا كانوا مخدوعين، أو أنهم قالوه مجرد التقليد، إياك أن يهجنس في نفسك هذا وأمثاله، وإنما يخطر هذا في بال الذين هم محجوبون لم يتعلموا تعليما كاملا.

الذات الحسية والذات العقلية في الحياة الدنيا

اعلم أن الناس في هذه الدنيا ينتمون بالذاتين، الحسية والعقلية وهم لا يشعرون، وأن وصفي الذاتين للذكورين في هذه السورة قد وجدت مقدماتهما في الدنيا، ولأضرب لك مثلين:

(المثل الأول): انظر إلى الرجال والنساء في الكرة الأرضية، إنهم في أول حياتهم لا ينظرون من الحياة

إلا إلى شهواتهم الجسمية ، فالرجل يريد المرأة والمرأة تريد الرجل للشهوة البدنية ، وبأ تكون ويشربون ويستلذون لقضاء مأرب الأنفس وحدها ، فإذا انقضى الدور الأول من الحياة جاء دور آخر فرأينا الرجل والمرأة أخذتا يتركان تلك اللذات ووجدناهما منكبين على طفل أو طفلة ، فأخذتا يقبلانه معا ، فبعد أن كانت القبل محصورة بينهما أصبحت منصبة على الطفل وعلى الطفلة ، وكلما ازدادا كبيرا ازدادا زهدا في أنفسهما وحدها على أبنائهما ، فلا يزالان يتعدان عن المادة لأنفسهما ويقتربان من التخلي عنها لأبنائهما ، حتى إذا قرب الرجيل ودعا العالم وفرحا بأن لهما خلفا يقوم مقامهما .

الرجل والمرأة عاشا في أول الحياة باللذة الجسمية ، وفي آخرها باللذة العقلية ، فهذا انتقال طبيعي من حال جسمية إلى حال عقلية ، ألا ترى أن الرجل يفدى ولده بماله إذا وقع في خطر ، مع أن كثيرا من الأبناء لا يرجى منهم نفع لأبنائهم ، فإن طبيعة الحياة الحيوانية المحافظة على النسل بدون مقابل ، فأما النافع للمادية التي قد تكون من الأبناء فهي أشبه بالظل للشجر يأتي غير مقصود لذاته . انتهى المثل الأول .

(المثل الثاني): من المعلوم أن ما يفعله بالطبيعة عاما للناس يجوز فعل مثله بالإرادة ، وما كان بالإرادة أرقى مما كان بالطبيعة ، نرى الناس جميعا يعرصون على أولادهم ويفدونهم بمالهم ، ويقدمون لهم كل ما يملكون لتعليمهم ، بل إننا نرى فوق ذلك أن الأبناء في الأمم التي ارتقت يبذل آباؤهم عليهم كثيرا من أموالهم ، ليكونوا قادة الشعوب ورؤساء في الحكومات ، وقليل من هؤلاء المعلمين الذين لهم رواتب باهظة في الحكومات من يفضل عن مصرفهم شيء لأبنائهم ، فإن مناصبهم ومظاهرهم تحتم عليهم أن يصرفوا كل ما يأتهم ولا يبقى شيء إلا لمن كان مقترا أو كان مرثيا ، ولا يبقى غالبا للأمهات وللآباء شيء ، ومن غير الغالب نجد منهم الواسين الكرمين للأبوين ، فهذا كله جاء من قبيل القطرة لعمومه سائر الناس . فأما ما يأتي بالإرادة فهو الحكمة والعلم وخصوص القلب لهما ، وها أنا ذا أبينه لك فأقول :

اعلم أننا نرى الناس في الشرق والغرب يتقادون للممتازين بالحكمة والعلم ، أو الزهد في الدنيا والصلاح ، وهذه غريزة في النوع الإنساني وقطرة فيه شائمة بحيث تجدها في كل أمة ، فالعامة من كل أمة ، والخاصة يحترمون الأنبياء ، والعامة وحدهم يخضعون للوعاظ ، والخاصة يحبون الحكماء ، فترى القسيس عند النصارى والحاخام عند اليهود ، والشيوخ عند المسلمين ، كل هؤلاء معظمون عند العامة الذين حولهم ، لأنهم في نظرهم قد حملوا شريعة نبيهم ، وقد يكون في هؤلاء من لم يحمل تلك الشريعة حقا ، ولكن الغريزة قد تخطى في الأشخاص ولكنها لا تخطى من حيث العموم ، كما أن غريزة الطعام في الإنسان صادقة لحفظ الحياة ، ولكنها قد تقع في أكل ما يضر بصحتها فذلك لا يمنع كونها صادقة ، هي صادقة من حيث نظامها والخطأ في الجزئيات لا ينافي الصدق في الكلبيات .

وترى الناس يعظمون الذي يعتقدون أنه سائر صفة العلم ويقدمونه ، وكلما ازداد علما ازداد في نظرهم محبة ورغبة ، وهكذا يحبون الشجعان الذين ذكرت لهم تواريخهم والمحسنين ، أندري لماذا هذا كله ؟ لأن العلم شيء خارج عن المسادة ، والشجاع أقدم على هلاك نفسه لمنفعة غيره ، والمحسن حرم نفسه وأعطى غيره (وبعبارة أخرى) أن الناس يعظمون من تخلص من المسادة وسلطانها بالزهد ، أو ببذل المال واشتهر بذلك ، أو ببذل النفس ، وهذا أقل السكال ، ويعظمون من تحلى بالعلم ، لأن العلم كمال للروح ، والناس مبالغون بفطرتهم لسكل ما هو من عالم الأرواح ، الناس يتقادون للأنبياء ويحبونهم لأنهم انصفوا بالأمرين :

الزهد في المال ، والتحلية بالعلم ، وبعض الحكماء يقدم في ذلك ؛ وليس يعقل أن يبرع الإنسان في علم مالم يحبه . فالهبة أساس النجاح في العلم .

كثير من الناس ، من نبذوا المال والأهل وعكفوا على العلم غراما ، وهم يتألون لذة لا يعرفها الناس وإلا لم يتمكنوا من التبريز فيه ، إذا رأينا في الناس من أصاع ثروته لأجل امرأة غير حسنة السمعة ورفقت من وظيفته . وخرج من كل ما يملك ، فيقال له : أنت عاقل فلماذا رضيت بضياح شرفك وصيتك وعظمة آباءك وثقة الناس بك ؟ أكل هذا لأجل امرأة ، فيجيب : هاتوا لي قبا غير هذا القلب ، أنا أعلم هذا كله ولكن لأملك نفسي .

هذا النوع من الناس موجود في كل أمة ، ووجد في بلادنا المصرية كل ذلك للذة وليس يعرفها إلا الذي هو متلبس بها .

إذا كان هذا في باب اللذات الحسية فهكذا وجد في النوع الإنساني في كل أمة من حصلت لهم هذه اللذة في باب العلم والحكمة فعكفوا عليها ولم يتألوا سبياع المال والثروة ولا يريدون إلا الحكمة ، وكما أن الذي عكف على المرأة ينال من التهم والاحتقار مالا يحصر له يكون الذي عكف على لذة العلم قد نال مالا يحصر له من المدح والثناء والإعظام ، فهو في نفسه في لذة والناس حوله يمدحونه ويثنون عليه .

عجب ! لماذا كلاهما في لذته ! فكيف ذكره الناس الأول وذمموه ، وأحبوا الثاني وعظموه ومدحوه ! الجواب على ذلك : أن الأول شرب شراب اللذات من المخلوق ، والثاني شربها من الخالق ، الشراب الأول ليس طهورا ، والشراب الثاني طهور طهر النفس من رجس المادة ، ورجع الروح إلى عالمها المحبوب ، فشراب الأولين غير طهور ، وشراب الآخرين طهور .

فبالت شعري أرى ذلك الذي أحب العلم في هذه الحياة الدنيا أن يعكف بعد الحياة الدنيا على غير العلم ، كلا والله فإذا كان الله سقاه شراب العلم الذي طهره من المسادة وأدراها فإنه بعد الموت لا يشرب إلا من شراب ربه ويزيد فيه ما يشاء ، وهذا قوله : « نورهم يسمي بين أيديهم وأيمانهم » فالنور الذي رآه في الدنيا يراه يوم القيامة ، وهل نور أجل من العلم ! إن الشراب الطهور هو العلم ، وأما بقية أوصاف الجنة وأحوالها فإنها تكون لمن لم يشقوا العلم في الحياة الدنيا ، « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا » .

إن في الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، إن من لم يفهم أحوال هذه الدنيا وهو فيها يموت أعمى ، ولا يمكن لامرئ أن يعقل ما في هذه السورة إلا إذا فكر في أحوال أهل الأرض وبغير العلم والفكر لا يصل الإنسان لسعادة في الدنيا ولا في الآخرة اهـ

هذا هو نهاية الكلام على (سورة الدهر) وقد كتب ذلك يوم الجمعة الثالث من شهر المحرم الحرام سنة ١٣٤٤ هجرية الموافق ٢٤ من شهر يوليو سنة ١٩٢٥ م ، والحمد لله رب العالمين .

وَيَلُ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * كَلُّوا وَتَمَتُّوا قَلِيلًا إِنَّا نَكُفِّرُ كُفْرًا * وَيَلُ يَوْمَئِذٍ
 لِلْمُكَذِّبِينَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ * وَيَلُ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ *
 فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ *

هذه السور الثلاثة متشابهة المقاصد ، ففي هذه السورة وصف الكذابين وعذابهم ، والتقيين ونعيمهم
 ويتخلل ذلك وصف خلق الإنسان ، والأرض والجبال ، وعموم القدرة ، وعظمة الخالق جل وعلا .

التفسير اللفظي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(والمرسلات عرفا . فالعاصفات عصفا . والناشرات نشرا . فالعارقات فرقا : فالمقيات ذكرا) قد علمت
 ما جاء في (سورة الدهر) وكيف جاء في أواخرها « وسقاهم ربهم شرابا طهورا » وعرفت هناك أن هذا
 الشراب يطهر شاربه عن الميل إلى اللذات الحسية والركون إلى ماسوى الحق ، فيجرد لفظا لجماله ماندا
 باقائه ، باقيا ببقائه ، وعلمت أن هذا منتهى درجات الصديقين ، فهنا بدأ الله السورة بقوله « والمرسلات
 عرفا » الفح ، أقسم الله بطوائف من الملائكة ومن الأرواح التي نزلت إلى عالم الأجسام في أرضنا ؛ ومنهم
 الأنبياء والحكماء وأكابر العلماء .

أقسم الله بهذه الأرواح المرسلات عرفا : أي لأجل الإحسان والمعروف ؛ فأما الملائكة فإنها تلقى الوحي
 إلى الأنبياء ، والإلهام إلى العلماء والسالحين ، وأما النفوس الإنسانية الكاملة فإنها تعلم غيرها : فكل هؤلاء
 أرسلوا لأجل الإحسان والمعروف للناس بالأمر والنهي ، وهم يعصفون ماسوى الحق فيبعثونه كما تبعدهم
 العواصف التراب والنبين والهباء ، وينشرون آثارهم في الأمم وفي النفوس الحية ويفرقون بين الحق والباطل
 فيلقون ذكرا ، أما الملائكة فلهداية الناس ، وأما الأنبياء فللتبليغ وتكميل النفوس ، وأما الأرواح الكاملة
 فإنها تهذب ولا تذكر إلا الله في القلب واللسان ، فالملائكة والأرواح المرسلات إلى أجسامها في الأرض هي
 المقسم بها لأنها إما سقاها ربها شرابا طهورا ، وإما لا تزال في طريق الوصول لتلك السقى ، وليس بكل في
 نفسه أو بكل غيره إلا أمثال هذه النفوس من الملائكة والأنبياء والأرواح المستعدة للكمال ، وإنما حملنا
 المرسلات على هؤلاء لأن إلقاء الذكر لا يكون إلا من عاقل ، أما الرياح فليست تلقى الذكر إلا على حسب
 التأويل فاخترنا الأول ، وقوله (غمرا أو نذرا) أي للاعذار والإنذار من الله وجواب القسم قوله (إن
 مانوعدون) من أمر الساعة ومحبتها (لواقع) أي لسكان نازل لا محالة . فإن قيل متى يكون ؟ يجاب بقوله
 تعالى (فإذا النجوم طمست) محقت وذهب نورها (وإذا السماء فرجت) فتحت فكانت أبوابا (وإذا
 الجبال نسفت) كالحب ينسف بالمدف (وإذا الرسل أقتت) عين لها وقتها الذي يحضرون فيه للشهادة
 على الأمم بمصولة ، فإنهم لا يتعين لهم قبله ، وجواب الشرط مع-م مما قبله : أي وقع الفصل ويقال (لأي
 يوم أجلت) أي أخرجت وأمهات ، فهذا استفهام بمعنى التحويل و- موجب ، كأنه قيل : أي يوم هذا الذي
 أجل اجتماع الرسل إليه ؟ إنه ليوم عظيم ؛ ثم بين ذلك اليوم فقال (أيوم الفصل) وهو الذي يفصل فيه بين

الخالق ، فهذا هو اليوم الذي أجل اجتماع الرسل له (وما أدراك ما يوم الفصل) تعجيب ثالث وتعظيم لأمره
ثم أبان القصور من هذا التحويل وصرح بالمراد فقال (ويل) أى نبات الهلاك ودوامه (يومئذ) ظرف
أوصفة (للمكذابين) بذلك اليوم ، وهذا خبر (ألم نهلك الأولين) الأمم الحالية للكذبة (ثم تتبعهم الآخرون)
جملة مستأنفة : أى ثم تفعل بأمثالهم من الآخريين ما فعلنا بالأولين لأنهم كذبوا مثل تكذيبهم ؛ وهذا وعيد
لأهل مكة (كذلك) أى مثل ذلك الفعل الشنيع (تفعل بالهزمين) بكل من أكرم (ويل يومئذ للمكذابين)
بما أوعدنا (ألم نخلقكم من ماء مهين) حقير ، وهو النطفة المشروح الكلام عليها في (سورة الإنسان)
وفي (سورة القيامة) (فجعلناه في قرار مكين) مقر يتمكن فيه ، وهو الرحم حال كونه مؤخرًا (إلى قدر
معلوم) أى إلى مقدار من الوقت معلوم قد علمه الله وهو تسعة أشهر فأكثر أو أقل (فقدرنا) أى قدرنا
ذلك تقديرًا ، وفي قراءة بالتشديد (فقم القادرون) أى فقم المقدرين له نحن ، ويجوز أن يكون الفعل
واسم الفاعل معا من القدرة (ويل يومئذ للمكذابين) بنعمة الفطرة وحكمة الخلق وحسن التقدير (ألم
نجعل الأرض كفاتا) أى كافتة : أى جامعة ضامة ، يقال كفت الشيء إذا ضمه وجمعه فهو مصدر وصف به ،
وقوله (أحياء وأمواتا) مفعولان لكفاتا : أى جامعة أمواتا في بطنها وأحياء على ظهرها ولذلك تسمى الأرض
إما لأنها تضم الناس كأنها أم تضم أولادها (وجعلنا فيها رواسي شامخات) جبالا ثوابت متصلة بالطبقة الصوانية
التي هي أبعاد طبقات الأرض عن سطحها ، وتلك الطبقة تضم في جوفها كرة النار المشتعلة العظيمة التي هي
باطن الأرض ، وظاهرها هذه القشرة التي نحن عليها ، وهي طبقات أعلاها هي التي نحن عليها ، وأدناها
الصوانية ، والجبال ممتدة إلى هذه الصوانية ثابتة عليها ، ولولا الطبقة الصوانية التي امتدت منها الجبال ل هوت
القشرة ومن عليها في النار التي في باطنها التي هي البحر المسجور للذكور في (سورة الطور) كاتقدم ، فهذه الجبال
رست في أبعاد الأعماق ، وشمنت إلى أعالي الجو ، فهي طوال ذاهمة علوا كما ذهبت سفلا ، وهذه الجبال
مخازن للمياه التي تنزل من السحب فتشربها في باطنها وتحفظ في طبقاتها ثم تخرج للأشهار الجارية تستمد
بماؤها ، والتلج يدوم فوقها أمدا طويلا ، وينزل في باطن الجبل شيئا فشيئا ليجري من العيون الجارية
تسقي الناس والأعنام والزرع تدرجما على طول السنة ، وهكذا تكون تلك الجبال كأنها مسنبات تحفظ
الرياح والسحاب الجارية بين تلك الجبال الممتدات إلى بعد عظيم في اليابسة فتخرج السحاب من فوق
البحار وتمتد إلى مسافات طويلة لأن الجبال تحفظ الرياح والسحاب من الذهاب يمينا أو يسارا ، بل تبقى
إلى أن تصل إلى ما بعد من اليابسة ، فتسقي الزرع ، وتدر الضرع ، وهذا هو قوله تعالى (وأسقينكم ماء
قرانا) إما بالسحاب الذي حفظته الجبال بارتفاعها ، وإما بالعيون التابعة منها التي يمدها الثلج الذي يذوب
شيئا فشيئا فوق ظهرها متنزلا إلى بطنها ، ساعيا إلى عيونها الجارية (ويل يومئذ للمكذابين) بأمثال هذه
النعم ، فهؤلاء المكذبون يقال لهم (انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون) من العذاب (انطلقوا) كرر للتوكيد
(إلى ظل) أى إلى ظل دخان جهنم (ذى ثلاث شعب) يتشعب لشدة عظيمته ، لأننا نرى الدخان العظيم يتشعب
ويتفرق كما تفرق الثوابت ، وفي التعبير بالثلاث إما للإشارة إلى أن عالم المادة فيه الطول والعرض والعمق
والمادة محل حبس الأنفس ، أو إلى الحس والحيال والوهم ، فهذه الثلاثة هي التي تسبب العذاب للإنسان ،
ثم وصف الظل بقوله (لاظليل) وهذا تهكم بهم : أى لا مظلل (ولا يعنى) أى وغير مفضن لهم (من اللهب)
أى من حر اللهب : أى غير دافع شيئا منه (إنها) أى النار (ترى بشرى) وهو ما يتطاير من النار (كالقصر)
أى كل شرارة كالقصر في عظمتها ، ويقال هو الغليظ من الشجر ، الواحدة قصره (كأنه) يعنى الشرر
(جمالات) جمع الجمال (صفر) جمع أصفر : أى لون ذلك الشرر أصفر :

(فائدة) سئل ابن عباس عن قوله تعالى : « ترى بشر كالعصر » قال : هي الحشبة العظام المقطعة ، وكنا نعد إلى الحشبة فنقطعها ثلاثة أذرع وفوق ذلك ودونه وندخرها للشتاء ، وكنا نسميها : القصر (ويل يومئذ للكافرين . هذا يوم لا ينطقون . ولا يؤذن لهم فيعتذرون . ويل يومئذ للكافرين) بهذا اليوم (هذا يوم الفصل) بين الحق والمبطل والحسن والسيئ (جمعناكم) يامكذب محمد (و) المكذبين (الأولين) هذا بيان وتقرير للفصل (فإن كان لكم كيد فكيدهم) أي فإن كان لكم حيلة في دفع العذاب فاحتالوا على بتخليص أنفسكم من العذاب ، يقال كدت فلانا إذا احتلت عليه (ويل يومئذ للمكذبين) بالبعث (إن المتقين في ظلال) جمع ظل (وغيون) جارية في الجنة (وفواكه مما يشتهون) لذيذة مشتهاة ، فهم مستقرون في ظلال حال كونهم مقولا لهم (كلوا واشربوا هنيئا) خالص اللذة لا يشوبه تنقيص (بما كنتم تعملون) في الدنيا (إنا كذلك نجزي المحسنين) فأحسنوا نجزوا بهذا (ويل يومئذ للمكذبين) بالجنة فإن لهم العذاب الخلد . ثم خاطب المكذبين مهددا لهم في الدنيا فقال (كلوا وتمتعوا قليلا) لأن متاع الدنيا قليل (إنكم مجرمون) كفرون ، فكل مجرم يأكل ويتمتع أياما قلائل ثم يبقى في الهلاك الدائم (ويل يومئذ للمكذبين) بالنعم (وإذا قيل لهم اركعوا) أطبعوا واخضعوا ، أو صلوا ، أو اركعوا في الصلاة (لا يركعون) لا يمتثلون ، ولقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم تقيفا بالصلاة فقالوا لا نحج : أي لا نركع فإنها مسببة (ويل يومئذ للمكذبين) بالأمر والنهي (فبأي حديث بعده) بعد القرآن (يؤمنون) إذا لم يؤمنوا به ، وهو معجز بذاته مشتمل على الحجج الصحيحة . انتهى التفسير اللفظي للسورة كلها ، والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذه السورة

- (١) في قوله تعالى : « ألم نهلك الأولين » الخ .
- (٢) في قوله تعالى : « ألم نخلقكم من ماء مهين » .
- (٣) في قوله تعالى : « ألم نجعل الأرض كفافا أحياء وأمواتا » الخ .

اللطيفة الأولى في قوله تعالى : ألم نهلك الأولين ثم نتبعهم الآخريين

ذكر الله إهلاك الأمم السابقة بتقصيرهم في الإيمان ، وذكر أنه يفعل مع الآخريين ما فعله بالأولين ، فإذا قصرت أمة في الإيمان بالله وأهلكها فيها مضى فهو هكذا يفعل بالتي تكذب فيها بعد فيها كها ، والمبرة في هذا أنه يجب على المسلمين أن يتصبروا ويتذكروا ويقيسوا الأشباه بأشباها ، فما فعل بالأولين يفعل بالآخريين فلتنظر أمة الإسلام ما حل ببلاد الأندلس ، فإن إكبابهم على الملاهي والتنعم والكسل والتقليد الأعمى أضاع بلادهم وأخذتها الفرنجة ، كذلك يفعل الله بالمقصرين من أمم الإسلام ، لأن الله جعل الأولين عبرة للآخريين ، دخل الفرنجة بلاد الجزائر وبلاد تونس ، وعرجوا على مصر وأخذوها ، كل هذا لأنه فعل بالآخريين كما فعل بالأولين ، فقد قصر أهل الأندلس فأزالهم الله ، فلما قصر بقية المسلمين ولم يعمموا التعليم ولم يفكروا فيه ولم يتهجوا نهج الأمم الفسكرة أذاقهم الله الحزى والحياة الدنيا ، وسيزول هذا الحزى قريبا كل هذا يؤخذ من قوله تعالى : « كذلك يفعل بالمجرمين » ولكن على طريق الاعتبار والقياس ، لا على طريق النص كما قال تعالى : « فاعتبروا يا أولي الأبصار » وإذا قال الله : « ويل يومئذ للمكذبين » آيات

الله وأنبياؤه فويل كذلك لمن لم يفهم ما هو حاصل بالأمة الإسلامية من الدل والقهر بسبب جهالها ، فالويل للمسلمين من حيث مجموعهم إذا داموا على ما هم عليه من حيث التقصير في العلوم والصناعات التي هي واجبة على مجموع الأمة وجوبا كفاييا ، فإذا نزل المسلمون إذا لم يفكروا في ذلك يزيد عذاب القرنيحة عليهم ، فهم وإن لم يكونوا مكذبين فهم عاصون والعذاب يقع عليهم في الدنيا بذهاب دولهم ، وفي الآخرة بعذاب جهنم ، وهذا إجماع من علماء الإسلام ، لأنهم يعتقدون أن العذاب يقع على الأمة كلها في الدنيا والآخرة بترك فروض الكفايات ، وفروض الكفايات هي التي بها نظام الدول العام بحيث يشترك فيه الشعب كله بإخلاص . انتهى السلام على اللطيفة الأولى ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثانية في قوله تعالى : ألم نخلقكم من ماء مهين

الكلام في النطفة ، والجنين في الرحم ، ومدة الحمل ، وتقدير الله لذلك ، والنظام المتبع فيه ، كل ذلك يراد به معرفة الأجنة ، وعجائب الخلق ، والتفكير في ذلك ، وهذا يرجع لعلوم كثيرة قد شرحناها في (سورة القيامة) قريبا ، وتقدم في سور أخرى منها سورة (آل عمران) بطريق أوسع ، فراجعه هناك إن شئت .

اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا

الأرض تسع الحى والميت ، وفيها الجبال الشاهقات ، والماء الذى يسقي الزرع وبدر الضرع ، ذكر الأرض التي تقلنا ونحملنا ، وتضمننا في بطنها إذا متنا ، وفيها مخازن للماء ومسفياتها وما يمسكها لئلا تتشتت وتزول ، وذلك يوجب تيقظ الإنسان للأمر العامة ، فيدرس الأرض وطبقاتها ، ومن على ظهرها وجبالها وهوائها وسحابها ومطرها وعيونها وأنهارها ، والتفرج على عجائباتها ، ثم أوعد المعرضين بالعذاب في جهنم ، وكما أن الناس إذا حلت الجيوش في بلادهم على جهلهم وظلمهم ونومهم ، وخرافاتهم لا ينطقون لاقطاع حججهم فيقول المستعمر لبلادهم افعلوا كذا فيفعلون ، ولا تعرفوا من العلم إلا ما به يؤمرون ، ولا تفكروا إلا على قدر ما نحن مريدون ، وإياكم أن تنطقوا بالشكوى فإنكم تمزقون ، وبالمدافع تضربون ، وبالنار تحرقون ، وبالصواعق من الطيارات تهلكون ، أتم مأمورون لا آمرون ، وسامعون لا متكلمون ، وعبيد لنا مسخرون . لتخرسن ألسنة المغلوبة ، ولتسكن الحرية مسلوبة ، والجماهير في أيدينا العوية ونحن القاهرون وهم القهورون ، فلا رقيب منه نخاف ، ولا من عنة الأيام وغوائلها نضطرب .

أقول : إذا كان هذا هو الحاصل الآن في بلاد الشرق حيث يفعل الأوروبيون معهم ذلك فما بالك بيوم القيامة ، إذ تنقطع الحجة ويصبح المرء مقطوع الأمل من كل عمل ، مسلوب اللب واللبال والولد ، مفقود الأصحاب والأهل ، محروما من كل سند وخل وولد ، هنالك لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتدرون .

(حكاية) دخل (هولاكو) التتارى مدينة بغداد وأحضر الخليفة العباسى وهو غافل لا يدري ، فلما أحضر بين يديه المائدة نظر فوجد فوقها أواني مملوءة جواهر في كل طبق نوع كالمرد والياقوت والمرجان والذهب والزرجرد والماس ، فقال له (هولاكو) كل ، فقال : هذا لا يؤكل ، فقال (هولاكو) أتدري من أين هذا ؟ إنه من خزانة أحضرتة جنودى الآن ، إنك قد أهملت الملك فلست تصلح له ، والله سلبه منك ، ثم قتله هو وابنه وذهبت الدولة اه .

انظر كيف فعل الله بالأولين منا ، فلما لم يعتبر للتأخرون فعل بهم ما فعل بالأولين ، وتفسير المسلمين
 إنهم كانوا عن التفكر معرضين ، وفي النزاع مجدين ، وعن الاتحاد نائمين .
 ذكر الله نعمة على الأولين والآخرين ، وذكر نعمه بالخلق على الناس ، ونعمه بالأرض وجبالها ومائها
 وذكر بعد ذلك الويل للمكذبين بذلك :
 وإلى هنا تم الكلام على سورة المرسلات ، والمحمد لله رب العالمين .
 كتب ليلة السبت ٤ من شهر المحرم الحرام سنة ١٣٣٤ هجرية .

(تم بحمد الله وحسن توفيقه الجزء الرابع والعشرون من كتاب الجواهر في تفسير القرآن
 الكريم ، ويليه الجزء الخامس والعشرون ، وأوله تفسير سورة النبأ)

فهرس
الجزء الرابع والعشرين
من كتاب
الجواهر في تفسير القرآن الكريم

صفحة	
٢	تفسير (سورة الرحمن) مكنوبة مشكلة .
٤	تقسيم السورة إلى ثلاثة أقسام . القسم الأول : في تفسير البسملة وتبيان أن ما في السورة كلها كأنه تفسير للرحمة ، ومجمل ذلك كله ثمانية مباحث .
١٠	بهجة العلم في هذا المقال ، وهو تفسير البسملة في سورة الرحمن :
١٢	مقدمة في مناسبة السورة لما قبلها . وفي هذا المقام ذكر ملخص أكثر السورة وهو ١٥ مبحثاً من أولها إلى آية : « يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن » ويتبع ذلك أحوال الناس في الآخرة من النعم والعذاب .
١٥	القسم الثاني في عجائب عالم الدنيا التي في هذه السورة .
	التفسير اللفظي لأولها من قوله : « الرحمن علم القرآن » إلى قوله تعالى : « يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران » .
٢٢	بيان أن في هذا القسم لطيفتان : الأولى في قوله تعالى : « ووضع الميزان » وهي في بيان كيف كانت مساحة القدان من الأرض ، وكيف كان كل مكبل وموزون وغيرهما في البلاد المصرية راجعا لنظام بناء الهرم الذي يرجع في نظامه إلى نسبة عجيبة بين أوضاعه وبين أوضاع مدار الأرض حول الشمس ، وكيف كان ضلع الهرم مساويا لجزء من ربع مليار من محيط الدائرة الشمسية ، والضلع المذكور يساوي ٤٠٠ ذراع بلدي أو ٣٦٠ هنداسة الخ .
٢٦	اللطيفة الثانية في قوله تعالى : « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » .
	فصل في اللؤلؤ ، وتكوين اللؤلؤ .
٢٧	جوهرة في قوله تعالى : « يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران » .
٢٨	القسم الثالث في عجائب عالم الآخرة من قوله تعالى : « فإذا انشقت السماء » إلى آخر السورة .
٣٠	لطيفة في قوله تعالى : « كل من عليها فان » وقوله تعالى « تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام » .
٣١	اللطائف العامة في هذه السورة ، وهي ثلاث :
	اللطيفة الأولى في آية : « ووضع الميزان ألا تطفئوا في الميزان » مع قوله تعالى : « مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان » :
٣٤	الكلام على صمك (بلاس) وكيف نشأ في بيضاته المنظومات ، وكيف تم خلقه حالا بعد حال بشاهد في الرسم شكل ٥ ، ٦ ، ٧ .

- ٤٠ شكل ٩ نسيج عنكبوت الحدائق .
- شكل ١٠ نحل غسل الخلايا حاملا كرات الطلع الصفراء ، من هذا النبات المسمى (سم النمر) .
- ٤١ شكل ١١ قرص النحل مع خلاياه .
- ٤٢ شكل ١٢ قرص غسل النحل المشتمل على ذكور النحل وعاملاته والخلايا التي فيها العسل .
- ٤٣ شكل ١٣ طائفة من النحل مزدحمة على شجر التفاح .
- شكل ١٤ عش النحل الحجري .
- ٤٤ شكل ١٥ عش للنحلة المنفردة وحدها في هيكل قوقعة الحدائق .
- ٤٥ شكل ١٦ نحل المستقل الذي يعيش في نفس ورق الأشجار أو في تجاويف وخلايا مرتبة منظمة .
- ٤٦ شكل ١٧ النحل الثاقب للخشب متعلقا بفكيه في حال سكون .
- ٤٧ شكل ١٨ خلايا النحل ثاقب الخشب :
- شكل ١٩ النحل الثاقب للخشب وهو خارج من خليته .
- ٤٨ شكل ٢٠ النحل البناء .
- ٤٩ شكل ٢١ عش زنبار الخشب .
- ٥٠ شكل ٢٢ قطعة من العسل ، أو قرص الزناير من بلاد البرازيل متصلة بغصن من الشجرة .
- ٥١ شكل ٢٣ عش الزنبور البناء .
- شكل ٢٤ عش نمل الخشب .
- ٥٢ شكل ٢٥ جماعة النمل تسوم ماشيتها .
- ٥٣ شكل ٢٦ النمل النجار في عمله .
- شكل ٢٧ برج صنعه النمل الأبيض في شرق أفريقيا ، وقد صنعه النمل من مواد الأبيض بفكيه بعد أن مضغها ، وهي مرتفعة كالقلمة .
- ٥٤ مسامرة في العجائب المتقدمة .
- ٥٥ تربية الأمم الإسلامية في مستقبل الزمان . درجات الحيوان في الإدراك ودرجات الإنسان .
- ٥٧ عصر الاختراع والاكتشاف وبيان السهم أو الصاروخ ، معجزة هذا القرآن .
- ٥٩ اللطيفة الثانية : عجائب الحسين في سورة الرحمن . وبيان مزايا خواص الواحد ووحدته الله تعالى ، وفي كل من الوجدتين خواص متشاكاة .
- ٦١ بيان عجائب الأعداد .
- ٦٢ الفصل الثاني في عجائب العدد الكامل والأعداد المتعاقبة وحساب الجذر والتربيع ، وفي هذا الفصل مسائل للسؤال الأولى : في بيان أن العدد إما كامل ونحوها الخ .
- ٦٦ إعطاط تعاليم الحساب في بلاد الإسلام ، وأن علم الأوقاف الذي ملأ الأقطار الإسلامية ضاربها معطل لقواها فوجب محو جميع هذه العلوم من بلاد الإسلام .
- ٦٧ سؤال ورد على المؤلف ، وهو : كيف نرى الخلفاء الراشدين الذين لم يدرسوا الرياضيات التي يقول العلماء إنها تمرن الإنسان على العدل والصدق أعدل (بشهادة علماء أوروبا في زماننا) من ملوك الفرس والروم في زمانها ، مع أن المدارس في تلك الممالك كانت مكتظة بالطلاب الذين يدرسون تلك العلوم والجواب على هذا الاعتراض .

- ٧١ بيان أن اللائي على ثلاثة أنواع : طبيعية ومولدة ، وصناعية ، اللؤلؤ الطبيعي ، وبيان سبب تكونه ، واللؤلؤ الولد ، وأن الناس أخذوا يربونه كما يربون السمك ، أما اللؤلؤ الصناعي أو المقلد ، فهو طلاء لماع للسمك يطل به خرز من الزجاج بعد مزجه بشئ من الشمع . بيان جمال هذا المقام العلمي في الحكمة .
- ٧٤ تفسير (سورة الواقعة) مكتوبة مشكلة ، وهي ثلاثة أقسام .
- ٧٦ القسم الأول في تفسير البسملة .
- ٧٨ القسم الثاني في ذكر السابقين وأصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة وجزأئهم . مقدمة في مناسبة السورة لما قبلها . التفسير اللفظي لهذه السورة .
- ٨١ القسم الثالث في ذكر المعجائب الكونية .
- ٨٣ في هذه السورة لطيفتان . اللطيفة الأولى في قوله تعالى : « إنهم كانوا قبل ذلك مترفين » وتبيان الرسالة التي أرسلها إلى بلاد مراكش تحذيرا لهم من الذي يشربونه ، وقد أصبح لهم عادة ضارة ، وذلك بسبب الأمة التي استعمرت بلادهم وبيان ضرر الشاي والسكر في علم الطب الحديث ، وذكر أن الفرنجة فعلوا مع أهل الأندلس ما يفعلونه معنا الآن :
- ٨٦ اللطيفة الثانية في قوله تعالى : « نحن قدرنا بينكم الموت » ، والكلام على قوم طالت أعمارهم ، وأن أناسا عاشوا مائتي سنة ، وهناك ١٧٠ إنسانا كل منهم عاش ١٠٠ سنة الخ .
- ٨٨ تفسير (سورة الحديد) آياتها مكتوبة مشكلة .
- ٩١ بيان أن هذه السورة أربعة أقسام : القسم الأول تفسير البسملة .
- ٩٤ مقدمة في اتصال هذه السورة بما قبلها .
- القسم الثاني في صفات الله تعالى وأسماء الله الحسنى الخ . التفسير اللفظي لهذه السورة .
- ٩٦ لطيفة في قوله تعالى : « يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها » .
- ٩٧ القسم الثالث في الخوض على الاتفاق . القسم الرابع في آية : « يوم ترى المؤمنين وللمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم » .
- ١٠٠ ذم البخل في آية : « الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد » . التحريض على العدل : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب واليزان ليقوم الناس بالقسط » .
- ١٠٢ في هذه السورة لطائف ثلاث (اللطيفة الأولى) في قوله تعالى : « فضرب بينهم بسور » .
- ١٠٣ (الثانية) في قوله تعالى : « وجنة عرضها كعرض السماء والأرض » .
- (الثالثة) في قوله تعالى : « ورهبانية ابتدعوها » وتبيان المعجزة القرآنية من كتاب [الحريفة النفيسة في تاريخ الكنيسة] .
- ١٠٥ اللطائف العامة للسورة كلها ، وهي أربع : بيان أنها تشتمل على اثني عشر فصلا .

- ١٠٧ الفصل الأول في النظام التكويني .
- ١٠٨ الفصل الثاني في النظام التشريعي .
- ١٠٩ الفصل الثالث في ذكر الآلام التي تحيق بالإنسان . الفصل الرابع أول مثله ضربه الله لفعله في خلقه هو فعل آدم في طفلها . الفصل الخامس في أن الأب يأخذه ولده بعد أن يكبر إلى الحقل الخ . الفصل السادس في أن العلم يزيد في تعليم الفلاح وتثقيفه الخ . الفصل السابع في أن ماهو أوسع مدى من الأم حتى العلم ذلك أن الحكومة والقضاء قد يحكم عليه بالتغريب :
- ١١٠ الفصل الثامن في التربية الإلهية . الفصل التاسع فيما نشاهده من رحمة الأم بولدها . الفصل العاشر في التربية العامة في مدارس العالم الإنساني قديما وحديثا . الفصل الحادي عشر في بيان أن الحب على مقدار العلم . وفيه ثلاث جواهر : الجوهرة الأولى في وصف الحب .
- ١١١ الجوهرة الثانية وهي طبقة الشعراء .
- ١١٢ الجوهرة الثالثة آثار الحب العالية وهي الفاسفة .
- ١١٦ الفصل الثاني عشر في أن الله توارى عنا بحجبه وقذف لنا كرات لا عدد لحصرها .
- ١١٧ ما الذي عرف الناس من ملك السموات اليوم ؟ وأنهم اليوم ينتظرون قريبا أن يكون المعلوم للناس ٣٢ ألف مليون مليون كوكب .
- ١١٧ ما الذي عرفه الناس من ملك الأرض ؟ وهاهنا بعض بدائع الأشجار و ١٢٠ عجيسة من عجائب الحيوان .
- ١٢٠ جمهوريات الحيوانات . ضرب مثل يذكرنا باجتماع الأرواح بعد مفارقة الأجسام .
- ١٢١ النحل حول العسوب . ضرب مثل لرجوع الناس لربهم ، ومقدمة ذلك الصلاة إلى القبلة توجهها إلى الله حول الكرة الأرضية .
- ١٢٣ بهجة هذا اللقار في التسييح وجماله .
- ١٢٥ اللطيفة الثانية في قوله تعالى : « يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها » مع قوله : « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » :
- بيان أن ثروة البحر الميت كنوز لم يستفد منها المسلمون لجهلهم واستفاد منها الأوروبيون لعلمهم .
- ١٢٦ كهرية القطر للمصري ومشروع القطارة ، وخلاصة خطبة سرى بك في ذلك .
- ١٢٨ اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو » .
- اللطيفة الرابعة في قوله تعالى : « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب » .
- ١٢٩ (تفسير سورة المجادلة) مكتوبة مشككة ، وبيان أن هذه السورة ثلاثة أقسام .
- ١٣١ القسم الأول في تفسير البسملة وتأخيص (سورة الحشر) وتفسير البسملة في هذه السورة متبوع بتفسير كل بسملة في أول السور إلى أول (سورة الملك) مع الإشارة في كل بسملة إلى الرحمت التي في سورتها .
- ١٣٥ القسم الثاني في أحكام للظاهرة . التفسير اللفظي .
- ١٣٦ ثلاث مسائل في الظاهرة .
- القسم الثالث في أحكام المجالس والنجوى والتفسيح فيها . الكلام على النجوى وأحكامها . الكلام على التفسيح في المجالس :

- ١٣٨ حكم مناجاة الرسول ، الكلام على المناقنين .
- ١٣٩ لطائف في هذه السورة أربع .
- ١٤٢ (تفسير سورة الحشر) مكتوبة مشكلة .
- ١٤٤ بيان أن هذه السورة هي ثلاثة أقسام . القسم الأول تفسيرها اللفظي .
- ١٤٦ القسم الثاني في ذكر أخلاق المناقنين ، وهو تابع للتفسير اللفظي .
- ١٤٨ القسم الثالث في ذكر نصائح للمؤمنين وإعظام أمر القرآن . التفسير اللفظي .
- ١٥١ بهجة الحكمة ونور العلم في قوله تعالى : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل » وهاهنا تفسير لكثير من أسماء الله الحسنى .
- ١٥٤ محاورات بيني وبين أحد الأصدقاء ، وفيها فصلان .
- ١٥٥ الفصل الأول في معاني أسماء الله الحسنى من كلام الإمام الغزالي رحمه الله تعالى .
- ١٥٨ الفصل الثاني في بيان محاسن أسماء الله الحسنى بالمعاني . وفي هذا الفصل مقامان :
- للقام الأول في بيان الحق من الأقوال الأربعة في أن من حفظ هذه الأسماء دخل الجنة .
- ١٥٩ المقام الثاني في معنى : اللطيف والنور والمهادي إلى آخره ، وهل هذه المعاني مشاهدة لنا ؟
- ١٦١ (سورة المنتحنة) مكتوبة مشكلة .
- ١٦٣ تفسير السورة اللفظي .
- ١٦٦ بيان أن في هذه السورة لطيفتان : اللطيفة الأولى في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء » .
- ١٦٧ اللطيفة الثانية في قوله تعالى : « فامتنعوهن الله أعلم بإيمانهن » وهل يكشف على الزوج والزوجة قبل الزواج كما تفعله بعض الممالك خيفة أن يكون هناك نسل ضعيف يشل حركة الأمة وعموها .
- ١٦٩ (سورة الصف) مكتوبة مشكلة .
- ١٧٠ تفسير بعض الألفاظ .
- ١٧١ إيضاح لما تقدم .
- ١٧٣ (سورة الجمعة) السورة مكتوبة مشكلة .
- ١٧٤ مناسبتها لما قبلها .
- التفسير اللفظي لهذه السورة .
- ١٧٦ بيان أن في هذه السورة لطيفتان .
- اللطيفة الأولى في قوله تعالى : « فتمنوا الموت إن كنتم صادقين » .
- ١٧٧ الكلام على الولاية ، ومن هو الولي ؟
- ١٧٩ اللطيفة الثانية في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة » وبيان الأحاديث الواردة فيها ، والأحكام الفقهية ، واختلاف الفقهاء في عدد من تتعد بهم الجمعة :
- ١٨١ (سورة المناقنين) مكتوبة مشكلة .
- ١٨٢ التفسير اللفظي لسورة المناقنين .
- ١٨٣ إيضاح أن سورة الجمعة للعلم والعمل ، وسورة المناقنين للصبر وقوة الأمل .
- ١٨٤ (سورة التغابن) السورة مكتوبة مشكلة .

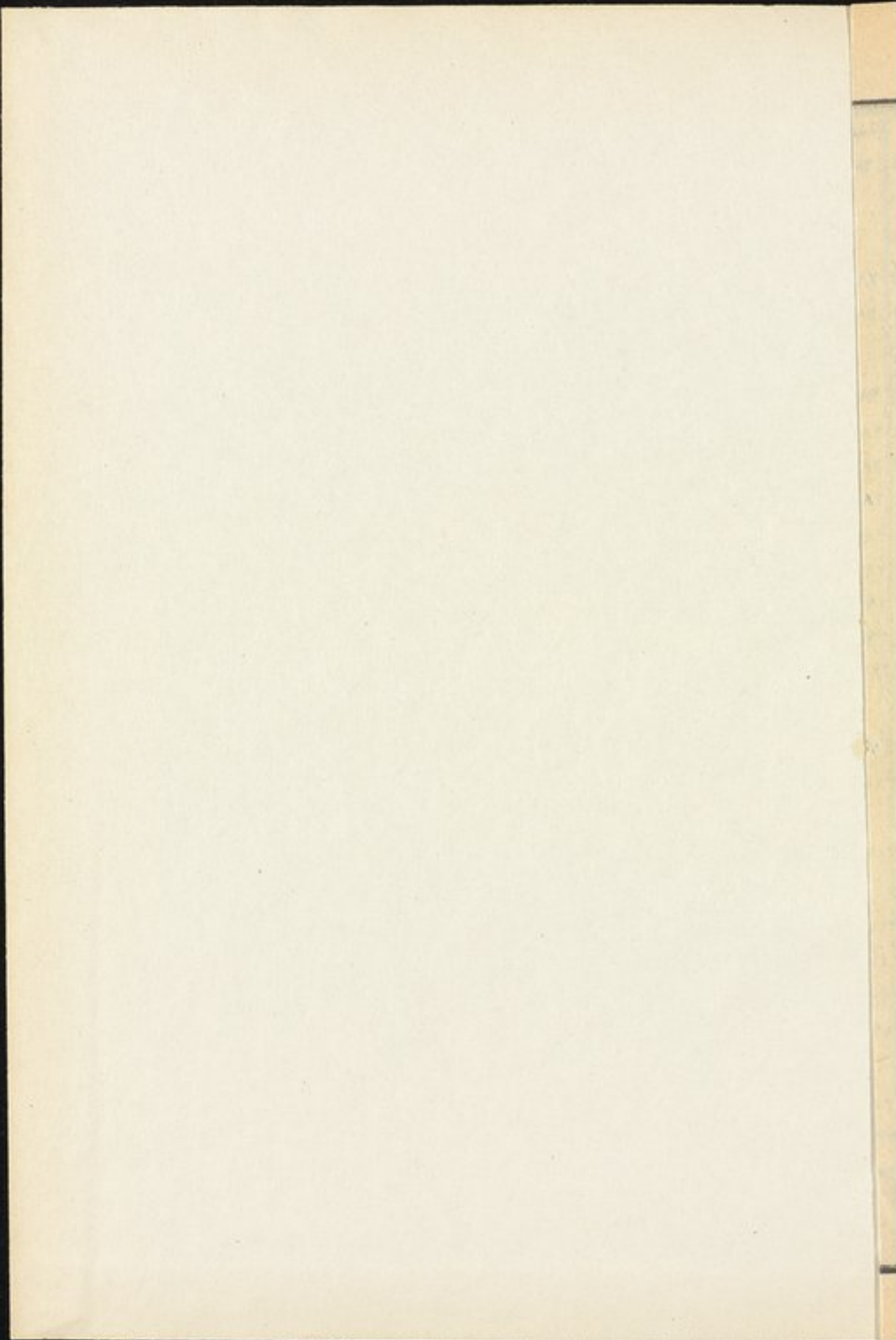
- ١٨٥ مقدمة في تفسيرها .
- ١٨٦ تفسير اللفظي .
- ١٩٠ (سورة الطلاق) السورة مكتوبة مشكلة .
- ١٩١ مقدمة في تفسيرها . ملخص الأحكام في السورة ثمانية أحكام .
- ١٩٢ التفسير اللفظي :
- ١٩٦ (سورة التحريم) مكتوبة مشكلة .
- ١٩٧ بيان أن في هذه السورة تسمان :
- القسم الأول في نساء النبي صلى الله عليه وسلم ، القسم الثاني في ضرب مثل بامرأة نوح وامرأة لوط .
- مقدمة في مناسبة السورة لما قبلها .
- ١٩٨ التفسير اللفظي لهذه السورة .
- ٢٠٠ خاتمة لتفسير هذه السورة .
- ٢٠١ (سورة الملك) مكتوبة مشكلة .
- ٢٠٢ بيان أن الكلام على هذه السورة ينحصر في ثلاثة أقسام : البسملة ، التفسير اللفظي ، اللطائف .
- الكلام على الرحمتين المذكورتين في هذه السورة مع جميع الرحمت في السور العشر بعدها .
- ٢٠٣ الرحمت في سورة القلم ، وفي الحاقة ، وفي المعارج ، وفي نوح ، وفي الجن ، والمزمل ، والمدثر والقيامة والمرسلات .
- ٢٠٦ التفسير اللفظي لسورة الملك .
- ٢١١ بيان أن لطائف هذه السورة أربع ، الأولى في قوله تعالى « الذي خلق الموت والحياة » .
- ٢١٣ اللطيفة الثانية في قوله تعالى « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح » .
- ٢١٤ اللطيفة الثالثة في آية : « أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات » وفيها مقامان :
- المقام الأول : كيف عرف الناس أن يطيروا في الجو ؟ وأن ذلك مبنى على محاولة تقليد الطير .
- المقام الثاني في بنية الطيور ، وأن أجسامها مختصرة من أجسام ذوات الأربع .
- ٢١٨ اللطيفة الرابعة في قوله تعالى : « هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون »
- بيان أن اللطائف العامة في هذه السورة ثلاث .
- ٢١٩ اللطيفة الأولى في قوله تعالى : « ما يرى في خلق الرحمن من تفاوت » .
- القطور في الألوان .
- ٢٢٠ اللطيفة الثانية في قوله تعالى : « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح » .
- ٢٢٢ شكل ٢٨ صورة الضوء ، وهو على خط مستقيم في الحجر المظلم ، وفي شكل ٢٩ الصور الخارجة ظهرت واضحة مفصلة على لوحة الورق ، فظهر عليها سافلها فيه .
- ٢٢٣ شكل ٣٠ شعاع الشمس يرى منعكسا على الحائط ، وفي شكل ٣١ ظهور علاقة بين اتجاه الضوء الشمسي الواصل للزجاجية وبين اتجاه ضوء الشعاع المنعكس عنها ، وفي شكل ٣٢ المرأة التي انطبعت فيها الصورة .
- ٢٢٤ شكل ٣٣ ظهرت فيه صورة سطح الماء قد انعكست فيه الصور ، وشكل ٣٤ ظهر فيه انكسار

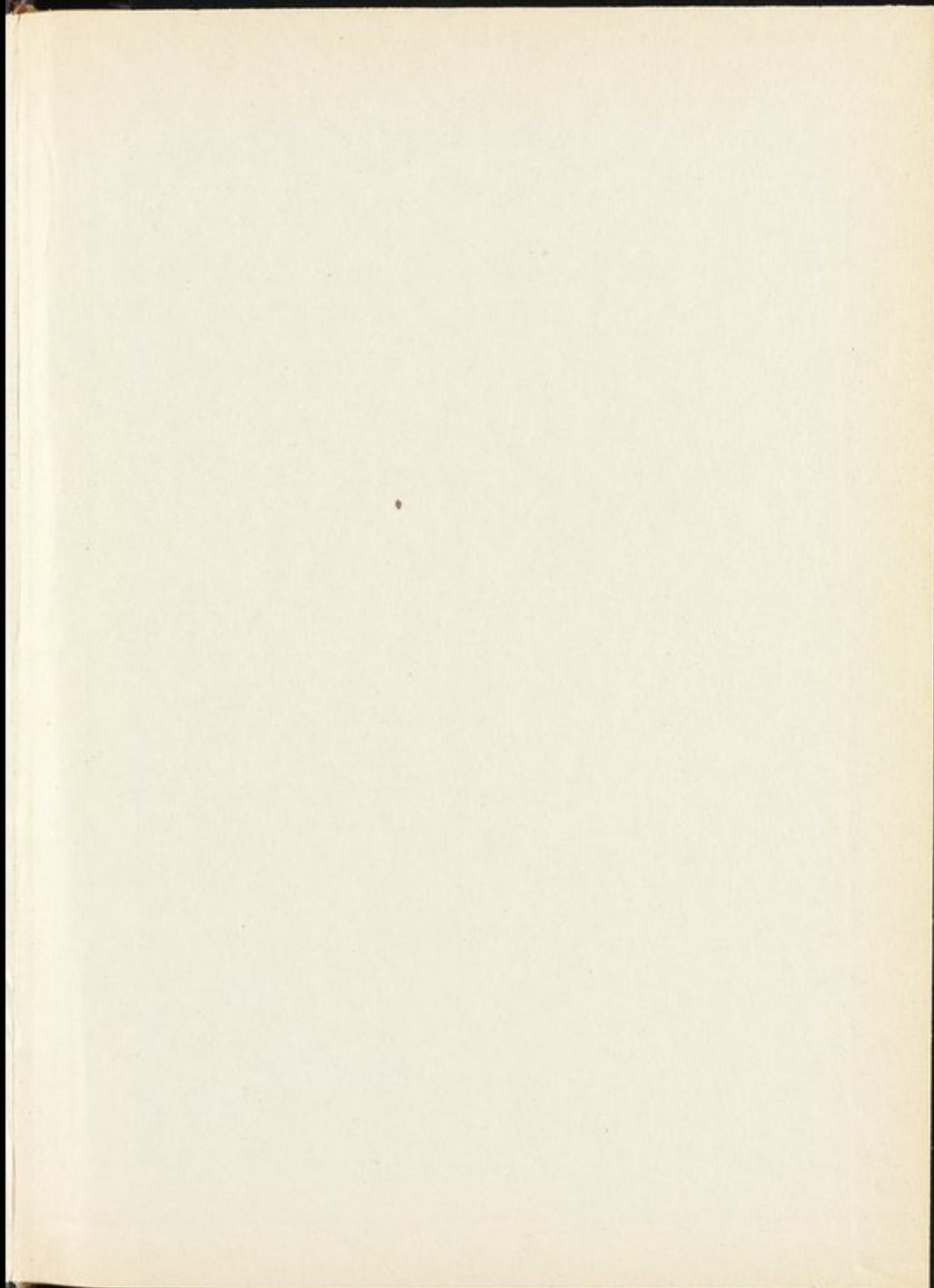
- ضوء قطعة النقد ، وشكل ٣٥ أيضا فيه انكسار للشعاع ، ٣٦ فيه شعاع الكتاب يمر من الزجاج إلى الهواء وفيه انكسار .
- ٢٢٥ شكل ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ الشعاع فارق الكتاب ومر من الهواء إلى الزجاج ، ثم منها إلى الهواء والعدسة المحدبة الوجهين ، وزجاجتان محدبتا الوجهين ، والمكروسكوب .
- ٢٢٦ شكل ٤١ تلسكوب يكبر الجسم .
- ٢٢٧ شكل ٤٢ عدستان مقعرتان من الجانبين ، وفي شكل ٤٣ ظهور اختلاف الأنظار قصرا وطولا ، وفي شكل ٤٤ اعتدالها بعد لبس المناظير المناسبة .
- وفي شكل ٤٥ هيئة اجتماع الأشعة في بؤرة .
- ٢٢٨ شكل ٤٦ هيئة تبين كيف تكون هذه الأشعة محرقة ، وفي شكل ٤٧ هيئة حرق الصوفان بتلك الأشعة ، وفي شكل ٤٨ هيئة تحليل الضوء الشمسي إلى ألوانه السبعة بمروره بالزجاج .
- ٢٢٩ شكل ٤٩ هيئة الضوء الأبيض بانحد الألوان السبعة . وماعنى ألوان المادة للشاهدة ؟ .
- ٢٣٠ ملخص ما تقدم كله .
- ٢٣٢ ضوء الشمس كما يفيد المادة يفيد الحياة .
- اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : « أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات » الخ .
- ٢٣٣ أقسام الحيوان أربعة : القسم الأول الحيوانات الفقرية . القسم الثانى الحيوانات الحلقية . القسم الثالث الحيوانات الهلامية . القسم الرابع الحيوانات الشعاعية .
- ٢٣٥ كيف تكون البيضة طائرا صغيرا ؟ .
- شكل ٥٠ حمامة خرجت من بيضها وهى عمياء .
- شكل ٥١ فروج خرج قادرا على المشي .
- ٢٣٦ شكل ٥٢ منقار الطيور الجارحة ، وشكل ٥٣ مخالب الجوارح .
- ٢٣٧ بيان أن الجوارح على قسمين ، شكل ٥٤ النسر ، وشكل ٥٥ جدأة شمال أمريكا ، وشكل ٥٦ نسر الألب وشكل ٥٧ الصقر ، وشكل ٥٨ الباز ، وشكل ٥٩ صقر آخر :
- هنا ٧ صور لصقر ، وعصفور دورى ، وجدأة ، وأنواع أربعة من البوم :
- ٢٣٨ الكلام على الطيور المقلدة للإنسان ومنها اليبغاء شكل ٦٧ .
- النوع الثالث : الحمام . النوع الرابع : الطيور الدجاجية ، وفيها صور كالطاووس ، والديك الرومى .
- بيان أن النوع الخامس : الطيور الخائضة ، ولها أربع صور كالبعج والكركى وطير الماء . النوع السادس النعام .
- بيان أن له ثلاثة أشكال ، وهنا هيكل طير كبير لم يبق له وجود الآن ، شكله كبير جدا عثروا على بقاياه في الجزيرة الجديدة .
- ٢٣٩ النوع السابع الطيور المنسوجة الأرجل .
- ٢٤٠ بيان أشكال من شكل ٧٩ إلى شكل ٨٢ :
- شكل ٨٣ إلى ٨٦ طائر الماء والبتروس وبلكان ، والطائر النهم ، ثم قراض الحشب ، والغراب :
- النوع الثامن الطيور والعصفور الدورى

- ٢٤١ تبصرة في هذه الطيور .
- ٢٤٢ (سورة القلم) وكتابتها مشكلة .
- ٢٤٣ بيان أن في هذه السورة أربعة مقاصد .
- المقصد الأول حسن الأخلاق النبوية .
- التفسير اللفظي لهذه السورة .
- ٢٤٥ المقصد الثاني سوء أخلاق بعض الكفار وجزاؤهم .
- ٢٤٦ المقصد الثالث ضرب مثل لأهل مكة ولكل ذي جمالة من أهل الأرض وحرص وطمع .
- ٢٤٧ المقصد الرابع تفسير : « إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم » إلى آخر السورة .
- ٢٤٩ إيضاح لما تقدم .
- ٢٥١ (سورة الحاقة) مكتوبة مشكلة .
- ٢٥٢ بيان أن في هذه السورة مقصدان : المقصد الأول هلاك الأمم في الدنيا .
- تفسيرها اللفظي :
- ٢٥٣ المقصد الثاني : في عذاب الآخرة واختتامه بإثبات النبوة .
- ٢٥٤ إيضاح تفسير الآيات بعلم الأرواح في عصرنا .
- ٢٥٧ إيضاح السلسلة والعذاب بها .
- ٢٥٨ (سورة المعارج) مكتوبة مشكلة ، وبيان أن في هذه السورة ثلاثة مقاصد .
- المقصد الأول وصف يوم القيامة وأهواله والنار وعذابها .
- تفسيرها اللفظي .
- ٢٦١ المقصد الثاني في غرأثر الإنسان ووجوب تهذيبها حتى تنجو من هذه النار .
- ٢٦٢ المقصد الثالث في وعيد الكافرين ، وهو تفسير قوله تعالى : « قال الذين كفروا قبلك مهطمين » إلى آخر السورة .
- ٢٦٣ لطائف هذه السورة ثلاث :
- اللطيفة الأولى في قوله تعالى « من الله ذي المعارج »
- ٢٦٥ اللطيفة الثانية في قوله تعالى : « إن الإنسان خلق هلوعا » الخ .
- اللطيفة الثالثة في آية : « إنا خلقناهم مما يعلمون » .
- ٢٦٧ (سورة نوح) مكتوبة مشكلة وبيان أن مقاصد هذه السورة اثنان تفسيرها اللفظي .
- ٢٦٩ المقصد الأول دعوة نوح لقومه .
- ٢٧٢ المقصد الثاني أنواع الأصنام عند العرب وعند قوم نوح مثل : ود ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسرا ، واللات والعزى الخ ، وكيف كان كل منها تابع لقبيلة .
- ٢٧٤ (سورة الجن) مكتوبة مشكلة .

- ٢٧٥ ملخص مافي هذه السورة ، وهي ١٦ حكمة من أقوال الجن ، ثم يليها أوامر الله لنبيه صلى الله عليه وسلم .
- الكلام على تسمية السور .
- ٢٨٠ تفسير السورة اللفظي .
- ٢٨١ أقوال الناس قديما وحديثا في الجن وبدائع العلم الحديث فيها. وهامها محادثات الأرواح ، وهي مصداق
- آيات هذه السورة التي لم تظهر آثارها ظهورا واضحا إلا في هذا الزمان .
- ٢٨٤ (سورة المزمل) مكتوبة مشكلة .
- ٢٨٥ ملخص الأحكام في هذه السورة .
- ٢٨٦ التفسير اللفظي لهذه السورة .
- ٢٨٨ في هذه السورة لطيفتان : اللطيفة الأولى في قوله تعالى «ورتل القرآن ترتيلا» .
- ٢٨٩ اللطيفة الثانية في قوله تعالى : «وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله» الخ .
- ٢٩٢ قاعدة حياة الأمم .
- ٢٩٣ مزية الإسلام في مستقبل الزمان .
- ٢٩٤ غرور المسلمين اليوم .
- ٢٩٥ (تفسير سورة الدثر) : ذكر الأوامر الستة التي أمر بها صلى الله عليه وسلم ، وهي جمعت
- تعلينا لنا :
- ٣٠٤ لطيفة في قوله تعالى : «وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر» :
- ٣٠٥ بيان عدد النجوم ، والكلام على الشعرى اللمانية ، والسهالك الرامح ، والثريا ، ثم تعداد محائب
- لبعض حيوان البحر مثل الأخطبوط وغيره ، ثم الحشرات والنبات وكثرته .
- ٣٠٧ (سورة القيامة) .
- تفسيرها اللفظي .
- ٣١١ لطيفة في آية : «وجوه يومئذ ناضرة» وفي آية : «ألم يك نقطة من منى يعنى» الخ .
- ٣١٧ تذكرة في آية : «بلى قاذرين على أن نسوى بنانه» :
- ٣١٨ (سورة الإنسان) مكتوبة مشكلة .
- ٣١٩ مقاصد هذه السورة ثلاث : المقصد الأول كيف خلق الله الإنسان .
- تفسيرها اللفظي .
- ٣٢٠ المقصد الثاني في جزاء الشاكرين والكافرين ووصف الجنة والنار :
- ٣٢٣ بيان أن في هذه السورة لطائف أربع اللطيفة الأولى في قوله تعالى : «إنا خلقنا الإنسان» الخ الآية .
- ٣٢٥ اللطيفة الثانية في آية : «ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيها وأسيرا» وبيان أن المقصود من هذه
- الآية الإحسان لكل من على ظهر الأرض .
- اللطيفة الثالثة في قوله تعالى «ولقاهم نضرة وسرورا» .

- ٣٢٦ اللطيفة الرابعة في قوله تعالى : « وسقاهم ربهم شرابا طهورا » .
 اللذات الحسية والذات العقلية ، وضرب أمثال لذلك .
- ٣٢٩ (سورة الرسائل) مكتوبة مشكلة .
- ٣٣٠ التفسير اللفظي لهذه السورة .
- ٣٣٢ لطائف هذه السورة ثلاث :
- اللطيفة الأولى في قوله تعالى : « ألم نهلك الأولين ، ثم نتبعهم الآخرين » .
- ٣٣٣ اللطيفة الثانية في قوله تعالى : « ألم نخلقكم من ماء مهين » .
- اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : « ألم نجعل الأرض كفافا ، أحياء وأمواتا » :







Princeton University Library



32101 079196299